من أعلام الجزائر

مقالات نُشرت في مجلة



(1391 - 1402هـ / 1971 - 1981م)

جمعها ورتبها حسب الظهور التاريخي للأعلام:

مسعود الغسيري


بسم الله الرحمن الرحيم

البيانات المرجعية لهذه المقالات

1- **شخصيات لامعة من الأوراس**، بقلم: عبد الرحمن الجيلالي، **مجلة الأصالة**، السنة السابعة، العددان: 60-61، رمضان، شوال 1398 هـ/ أوت، سبتمبر 1978م ص-ص: 103-114.
2- **ابن الصغير مؤرخ الدولة الرستمية**، بقلم: وداد القاضي (لبنان)، السنة الخامسة، العدد: 45، جمادى الأولى 1395 هـ/ ماي 1975م، ص-ص: 37-58.
3- **عبد المؤمن بن علي مؤسس دولة الموحدين**، بقلم: عبد الحميد حاجيات، السنة السابعة، العدد: 64، محرم 1399 هـ/ ديسمبر 1978م، ص-ص: 27-42.
4- **أبو عمار الكافي والنسق الكلامي**، بقلم: عمار طالبي، السنة السادسة، العدد: 41، محرم 1397 هـ/ جانفي 1977م، ص-ص: 172-179.
5- **أبو يعقوب يوسف الورجلاني وكتابه الدليل والبرهان**، بقلم: عبد الرحمن الجيلالي، السنة السادسة، العدد: 41، محرم 1397 هـ/ جانفي 1977م، ص-ص: 162-171.
6- **أبو مدين الغوث دفين تلمسان** (520-594 هـ/ 1126-1197م)، بقلم: عبد القادر الخلادي، السنة الرابعة، العدد: 26، رجب، شعبان 1395 هـ/ جويلية، أوت 1975م، ص-ص: 284-295.
7- **من أعلام عنابة (أحمد بن علي البوني)**، بقلم: محمد بلغراد، السنة الخامسة، العدد: 34-35، جمادى الثانية، رجب 1396 هـ/ يونيو، يوليو 1976م، ص-ص: 244-255.
8- **ابن حماد الصنهاجي**، بقلم: جلول بدوي، السنة الأولى، العدد الأول، محرم 1391 هـ، مارس 1971 م ص-ص: 101-103.
9- **تراجم بعض مشاهير علماء زواوة القبائل الصغرى والكبرى**، بقلم: المهدي البوعبدلي، السنة الثالثة، العددان: 14-15، ربيع الثاني، جمادى الأولى، جمادى الثانية، رجب 1393هـ/ ماي، جوان، جويلية، أوت 1973م، ص-ص: 265-275.
10- **أبو بكر محمد بن داوود كاتب يغمراسن بن زيان بتلمسان**، بقلم: رابح بونار، السنة الأولى، العدد: 3، جمادى الثانية 1391 هـ/ أوت 1971م ص-ص: 21-27.
11- **العروبة في شعر العفيف التلمساني**، بقلم: عمر موسى باشا، السنة الرابعة، العدد: 26، رجب، شعبان 1395 هـ/ جويلية، أوت 1975م ص-ص: 333-345.
12- **أبو عبد الله محمد بن خميس التلمساني**، بقلم: المهدي البوعبدلي، السنة السادسة، العددان: 49 - 50، رمضان، شوال 1397 هـ/ سبتمبر ، أكتوبر 1977م ص-ص: 2-13.
13- **أهم الأحداث الفكرية بتلمسان عبر التاريخ ونبذ مجهولة من تاريخ حياة بعض أعلامها**، بقلم: المهدي البوعبدلي، السنة الرابعة، العدد: 26، رجب، شعبان 1395هـ/ جويلية، أوت 1975م، ص-ص: 124-135.
14- **من آثارنا المغمورة: "بغية الرواد في أخبار بني عبد الواد" لأبي زكريا يحيى ابن خلدون**، بقلم: محمود بوعياد، السنة الثالثة، العدد: 13، صفر، ربيع الأول 1393 هـ/ مارس، أفريل 1973م ص-ص: 213-222.

15- **من أعلامنا: الشريف أبو عبد الله التلمساني**، بقلم: أحمد جلول بدوي، السنة الأولى، العدد: 4، شعبان 1391 هـ/ أكتوبر 1971م، ص-ص: 48-55.
16- **النظرية السياسية للسلطان أبي حمو الزياني الثاني ومكانها بين النظريات السياسية المعاصرة لها**، بقلم: وداد القاضي (لبنان)، السنة الرابعة، العدد: 27، رمضان، شوال 1395هـ/ سبتمبر، أكتوبر 1975م، ص-ص: 7-100.
17- **القاضي سعيد العقباني التلمساني**، بقلم: رابح بونار، السنة الأولى، العدد: 6، ذو الحجة 1391 هـ/ جانفي 1972م، ص-ص: 65-72.
18- **إبراهيم بن أحمد الفجيجي وقصيدته المطردة "روضة السلوان"**، بقلم: رابح بونار، السنة الثانية، العدد: 11، شوال، ذو القعدة 1392 هـ/ نوفمبر، ديسمبر 1972م ص-ص: 139-144.
19- **التلمساني محمد بن عبد الكريم المغيلي**، بقلم: عبد القادر زبادية، السنة الرابعة، العدد: 26، رجب، شعبان 1395 هـ/ جويلية، أوت 1975م ص-ص: 203-215.
20- **الونشريسي**، بقلم: عمار طالبي، السنة التاسعة، العددان: 83-84، شعبان، رمضان 1400هـ/ جويلية، أوت 1980م، ص-ص: 46-47.
21- **الجوانب المجهولة من ترجمة حياة الإمام أحمد بن يحيى الونشريسي**، بقلم: المهدي البوعبدلي، السنة التاسعة، العددان: 83-84، شعبان، رمضان 1400هـ/ جويلية، أوت 1980م، ص-ص: 19-28.
22- **عبد الرحمن الأخضري وأطوار السلفية في الجزائر**، بقلم: المهدي البوعبدلي، السنة السابعة، العدد: 53، محرم 1398 هـ/ جانفي 1978م ص-ص: 21-35.
23- **الشهيد عبد الواحد الوانشريسي** (955 هـ/ 1549م)، بقلم: عبد الرحمن الجيلالي، السنة التاسعة، العددان: 83-84، شعبان، رمضان 1400هـ/ جويلية، أوت 1980م، ص-ص: 39-45.
24- **البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان لابن مريم وقيمته التوثيقية**، بقلم: محمود بوعياد، السنة الرابعة، العدد: 26، رجب، شعبان 1395 هـ/ جويلية، أوت 1975م، ص-ص: 260-269.
25- **علي بن أبي الرجال التاهرتي القيرواني**، إعداد: رابح بونار، السنة الأولى، العدد: 6، ذو الحجة 1391 هـ/ جانفي 1972م، ص-ص: 121-124.
26- **المقري التلمساني**، بقلم: الطاهر أحمد مكي (مصر)، السنة الرابعة، العدد: 26، رجب، شعبان 1395هـ/ جويلية، أوت 1975م، ص-ص: 216-230.
27- **عبد الكريم بن الفقون القسنطيني (988-1073) والتعريف بتأليفه "منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية"**، بقلم: المهدي البوعبدلي، السنة السادسة، العدد: 51، ذو القعدة 1397هـ/ نوفمبر 1977م، ص-ص: 14-32.
28- **المفتي الجزائري المصري ابن العنابي وكتابه "السعي المحمود في نظام الجنود"**، بقلم: أبو القاسم سعد الله، السنة الخامسة، العدد: 31، ربيع الأول 1396هـ/ مارس 1976م، ص-ص: 38-78.

29- **من آثار ابن العنابي**، بقلم: أبو القاسم سعد الله، السنة الخامسة، العددان: 39-40، ذو القعدة، ذو الحجة 1396هـ/ نوفمبر، ديسمبر 1976م، ص-ص: 90-100.

30- **حمدان خوجة ومنهجه في كتابة التاريخ**، بقلم: عبد الحميد زوزو، السنة الأولى، العدد: 4، شعبان 1391هـ/ أكتوبر 1971م، ص-ص: 86-96.

31- **الحاج أحمد باي وبايلك قسنطينة**، بقلم: عبد الجليل التميمي (تونس)، السنة السابعة، العدد: 64، محرم 1399 هـ/ ديسمبر 1978م، ص-ص: 20-26.

32- **أضواء على مذكرات الأمير عبد القادر التي أشرف على تسجيلها بقصر أمبواز**، بقلم: المهدي البوعبدلي، السنة الرابعة، العدد: 23، محرم، صفر 1393 هـ/ جانفي، فيفري 1973م ص-ص: 11-22.

33- **بين الشاذلي القسنطيني والأمير عبد القادر**، بقلم: أبو القاسم سعد الله، السنة الثالثة، العدد: 12، ذو الحجة 1392، محرم 1393 هـ/ جانفي، فيفري 1973م، ص-ص: 109-112.

34- **الشيخ ابن الحداد الصوفي الثائر**، بقلم: عمار طالبي، السنة الأولى، العدد الثاني، ربيع الأول، 1391هـ، ماي 1971م، ص-ص: 30-39.

35- **ابن ناصر بن شهرة أحد ابطال ثورة 1871م**، بقلم: أحمد بوزيد قصيبة، السنة الأولى، العدد: 6، ذو الحجة 1391 هـ/ جانفي 1972م ص-ص: 54-64.

36- **لالا فاطمة نسومر**، بقلم: حسن حموتن، السنة الثالثة، العدد: 16، شعبان/ رمضان، 1393هـ، سبتمبرن أكتوبر 1973م، ص-ص: 161-166.

37- **عالم جزائري ساهم في إحياء التراث والثقافة الإسلامية في العالم الإسلامي: الطاهر الجزائري**، بقلم: المهدي البوعبدلي، السنة الخامسة، العدد: 48، شعبان 1397هـ/ أوت 1977م ص-ص: 43-48.

38- **الشيخ طاهر الجزائري رائد النهضة الفكرية الحديثة في بلاد الشام**، بقلم: محمود الأرناؤوط (سوريا)، السنة الثامنة، العدد: 67، ربيع الثاني 1399 هـ/ مارس 1979م، ص-ص: 74-78.

39- **أبو القاسم الحفناوي وكتابه "تعريف الخلف برجال السلف"**، بقلم: خديجة بقطاش، السنة السادسة، العدد: 51، ذو القعدة 1397 هـ/ نوفمبر 1977م، ص-ص: 48-57.

40- **حول مقال: "أبو القاسم الحفناوي وكتابه: تعريف الخلف برجال السلف"**، بقلم: خرشي محمد بن أبي القاسم الديسي، السنة السابعة، العدد: 56، جمادى الأولى 1398 هـ/ أفريل 1978م، ص-ص: 73-77.

41- **جوانب من كفاح الشيخ عبد الحليم بن سماية السياسي والثقافي**، بقلم: عبد الرحمن الجيلالي، السنة الثالثة، العدد: 13، صفر، ربيع الأول 1393هـ/ مارس، أفريل 1973م، ص-ص: 199-212.

42- **رائد الدعوة إلى التضامن الإسلامي عمر بن قدور الجزائري**، بقلم: محمد ناصر، السنة السابعة، العددان: 58 - 59، رجب، شعبان 1398هـ/ جوان، جويلية 1978م، ص-ص: 55-64.

43- **أبو اليقظان أحد رواد الإصلاح في الجزائر**، بقلم: عبد الرزاق قسوم، السنة الأولى، العدد: 5، شوال 1391هـ/ نوفمبر 1971م، ص-ص: 10-107.

44- **لمحات من حياة الشيخ ابن باديس**، بقلم: علي مرحوم، السنة الرابعة، العدد: 24، ربيع الأول، ربيع الثاني 1395 هـ/ مارس ، ابريل 1975م، ص-ص: 95-115.

45- **ابن باديس وعوامل نجاحه في أداء رسالته**، بقلم: أحمد بن ذياب، السنة الخامسة، العدد: 32، ربيع الثاني 1396هـ/ أبريل 1976م، ص-ص: 112-124.

46- **عبد الحميد بن باديس الرجل العظيم**، محاضرة: أحمد توفيق المدني، السنة السادسة، العدد: 44، ربيع الثاني 1397 هـ/ أفريل 1977م ص-ص: 58-76.

47- **صدى وفاة ابن باديس في التقارير الفرنسية والصحافة الأهلية عام 1940**، بقلم: عبدالكريم أبو الصفصاف، السنة الثامنة، العددان: 68-69، جمادى الأولى، جمادى الثانية 1399هـ/ أفريل، ماي 1979م، ص-ص: 46-54.

48- **البشير الإبراهيمي في المشرق العربي**، بقلم: تركي رابح، السنة الثانية، العدد: 8، ربيع الثاني، جمادى الأولى 1392 هـ، ماي، جوان 1972م، ص-ص: 255-264.

49- **العربي التبسي والنهضة العلمية بالجزائر**، بقلم: أحمد بن ذياب، السنة الثانية، العدد: 8، ربيع الثاني، جمادى الأولى 1392 هـ، ماي، جوان 1972م، ص-ص: 265-272.

50- **استشهاد الشيخ العربي التبسي**، بقلم: علي مرحوم، السنة الثامنة، العددان: 73-74، شوال/ ذو القعدة 1399هـ، سبتمبر/ أكتوبر 1979م، ص-ص: 88-109.

51- **الأستاذ مبارك الميلي والصحافة**، بقلم: أحمد بن ذياب، السنة الثامنة، العددان: 68-69، جمادى الأولى، جمادى الثانية 1399 هـ/ أفريل، ماي 1979م ص-ص: 95-101.

52- **الشاعر الخالد محمد العيد**، بقلم: محمد الصالح الصديق، السنة التاسعة، الأعداد: 79-80-81-82، ربيع الثاني، جمادى الأولى، جمادى الثانية، رجب 1400هـ/ مارس، أفريل، ماي، جوان 1980م، ص-ص: 115-129.

53- **الشيخ نعيم النعيمي**، بقلم: بلقاسم النعيمي، السنة الثالثة، العدد: 16، شعبان، رمضان 1393هـ/ سبتمبر، أكتوبر 1973م، ص-ص: 49-59.

54- **في موكب الخالدين: سي محمد قائد الولاية الرابعة**، بقلم: محمد الصالح الصديق، السنة التاسعة، العددان: 83-84، شعبان، رمضان 1400هـ/ جويلية، أوت 1980م ص-ص: 48-54.

شخصـــيات لامعـــة مـــن الاوراس

عبد الرحمن الجيلالي
مـؤرخ جـزائرى



الاوراس علم لسلسلة أعلام راسية شاهقة ، واطواد سامقة باذخة ، وقنن عالية الذرى شـــامخة ، واغوار ومغارات ذات مضائق ومعاطف وشعاب ملتوية سحيقة ، وتلك هي ما يعبـر عنه الجغرافيـــون باســم الاطلس الصحراوى القائم بجنـوب ولاية قســنطينة من ارض الجزائر ، وتشتمل هذه السلسلة الصخرية الهائله على طائفة من شوامخ الجبال ذات الروعة والجمال ، فتخترق كامل القطر الجزائرى من اقصاه الى اقصاه بحيث تكون هذه الجبال مثل جبل احمر خدو ، وجبل كاف المحمل ، وجبل عيدل ... نقطة اتصال بين جبال الحضنة وبين جبال الجنوب ؛ وهى تشكل فى وضعيتها الطبيعية شكلا رباعيا طوله من الشمال الى الجنوب ومن الشرق الى الغرب نحو 65 ميلا وتغطى فى جنوب اقليم قسنطينة مساحة قدرها 3600 ميلا ، وتعد هذه الجبال هى اضـخم واعلى كتلة جبلية جزائرية فى هذه البلاد ، بحيث يرتفع اعلاها المعروف باسم (قمة الشلية) 2328 مترا ، وقاعدة هذه الولاية اليوم هى مدينة (باتنة) التى ينعقد فيها هذه السنة (1398 هـ / 1978 م) الملتقى الثانى عشر للفكر الاسلامى .

ففى القديم كانت تسمى هذه الجبال او قل الاعلام ، باسم « اوريس » او « اورايوس اوروس » وهذا الاسم كما نراه هو قريب جدا مما نسميه به اليوم وينطق بـه الناس (اوراس) وذكره البكرى فى القرن الخامس باسمه الحاضر : (اوراس) ، قال : « وهو مسيرة سبعة أيام ، وفيه قلاع كثيرة يسكنها قبائل هوارة ومكناسة ٠٠ الخ ٠٠٠ ، وكذلك هو مسمى بنفس هذا الاسم عند الادريسى ـ وسط القرن السادس ، فهو يقول : « وجبل أوراس قطعة يقال انها متصلة من جبل درن المغرب وهو كاللاّم منحنى الاطراف ، وطوله نحو من 12 يوما » ٠ وهكذا ذكره بهذا الاسم ياقوت الحموى (626 هـ) فى معجمه وابن خلـــدون (808 هـ) فى تاريخه ٠

وليس عندنا اليوم لكلمة « أوراس » هذه معنى معروف ، والراجح انها تكون كلمة بربرية لها معناها عند قدماء البربر ، اما كلمـــة « الاطلس » التى كانت معروفة عند اليونان فالظاهر انها محرفة عن كلمة « ادرار » أو « ادرارن » البربرية والتى معناها : الجبـــل ٠

وبينما كان علماء التاريخ والجغرافيا على هـــذا الراي اذا بصاحب الرحلة ـ نزهة الانظار ٠٠٠ المعروفة بالرحلة الورثيلانية (آخر القرن الثانى عشر) يقول : ان هـــذا الجبل كان يسمى « جبل الرس » هكذا بالسين وبالصاد ، وزاد الى ذلك فقال بانه هو موطن خالد بن سنان ، ناقلا ذلك عن الخفاجى شارح الشفاء ؛ وقال عن خالد هذا بانه نبى ورسول أرسل بجبل الرس الملقب الآن : أوراس ٠ وعبارته كما يلى : « ٠٠٠ عام مشينا لزيارة النبى سيدى خالد عليه السلام على القول بنبوته (1) وقد شهر غير واحد من المتاخرين رسالته بجبل الرس الملقب الآن أوراس » ٠

على ان الذى نعرفه من خلال كتب اللغة والتفسير لمعنى كلمة الرس : انه الأثـــر القليل الموجود فى الشىء ٠ يقال سمعت رس الخبر ، وعندى رس حديث ، وفى جسمى رس من حمى ، أى أثر ٠ كما جاء أيضا فى معانى الرس انها البئر ، والمعدن ، أو الجب ، وجاء فى دائرة المعارف الاسلامية ان الرس هو النهر المشهور الذى عرفه القدماء باسـم

1) راجع ما جاء حول هذا الموضوع فى كتابنا : تاريخ الجزائر العـــام ، ج 1 ، ص 161 و 285 ، ط 3 الجزائر 1971 م ٠

« أراكسيس » وكل هذا كما ترى لا يمت بصلة الى ما نحـــن فيه من الكلام على جبال أوراس بالجـــزائر ؛ اللهم الا اذا أريد به ـ عند الورتيلانى معنى البئر التى يقال انها موجودة بالأوراس ونعنى بها : « بئر الكاهنة » ، اذ كل بئر رس ؟ او يكون المراد بـه معنى المعدن ، فيحتمل ؟٠٠ اذ ليس هنالك شك فى وفرة ما بهذه الجبـــال والصخور الشاهقة المشمخرة من معادن ٠٠٠

وورد فى « الرس » انه علم على مواطن وامكنة متعددة مفترقة ، وليس فيها إشارة الى مكان واحد منها انه يوجـــد بأرض المغرب ، بل ولا فى القارة الافريقية بأسرها : فليت شعرى من أين لصأحب نزهة الانظار ان جبل الرس هو الملقب الآن « أوراس » ؟٠٠

يتكون سكان هذا الجبل من عناصر مختلفة بالاضافة الى سكانه الاصـــليين وهم البربر ؛ فلقد انضم اليهم فى أحقاب متقدمة سلائل من غزاة الرومان والروم البزنطيين والوندال ؛ وفى أيام الفتح الاسلامى كانت تسكنه قبائل من زناتة ، (اوربة وجراوة) ، ثم حل به قبائل هوارة ولواته لا سيما فى أيام اشتداد الحرب بين حسان بن النعمان وجيوش الكاهنـــة ؛ على ان اغارة الهلاليين (442 هـ/ 1050 م) قد غيرت من موقف الشعوب بهذا الجبل ، فجعلت من بنى دريد وهم فرع من الاثبج يسكنون التلال الشمالية منه ؛ ـ والأثبج من الهلاليين وهم أوفر عددا واكثر بطونا ، كما عند ابن خلدون ٠ ثم تقدموا نحو الجنوب فسكنوا هذه الأطواد الشامخة من جبال اوراس ونزلوا بتلك التلال والهضاب والاعضاد المحيطة بها ٠

والسبب فى نزوح قبائل هوارة البربرية الى هذا الجبل بعد ما كان موطنها الاصلى هو اقليم طرابلس والجزء الذى يجاوره من اقليم برقة فهو كما يقول ابن خلدون : انه لما ذهب عنهم ما كان لهم من الاعتزاز والمنعة أيام الفتوحات ، وقد صاروا عبيدا للمغارم فى كل ناحية وقع منهم هذا الافتـــراق فى الاودية بسبب القلة فانصرفوا لرعى الغنم وسكنوا بهذه الجبال ونزلوا بتلك السفوح وما حولها من المدن والقرى وما احاط بها من البلاد ، مثل مدينة باغاية ، وطبنة ، وخنشـــلة ، ومنعة ، والريس ، ولامباسييس ، اولامبيس ـ لمبيز ، ونقاوس ، وبلزمة وتيمقادى ، الى حدود بسكرة وتهودة ٠٠٠ فامتزج هنالك يومئذ العنصران امتزاج الماء بالماء فتبربر العرب وتعرب البربر واصطبغ كل

منهما بصيغة الآخر ، وعرف الجميع حينئذ باسم الشـــاوية ـ جمع شاوى اى راعى الغنم ، ثم أصبح هذا النعت أو الوصف اسم جنس على عدة جماعات تقطن أرض هــذا المغرب العربى ، أهمها هؤلاء شاوية أوراس ـ بالقطر الجزائرى ، وشاوية (تامسنا) بارض المغرب الأقصى . ومن ثم انتهى الامر باطلاق اسم الشاوية على بربر زناتة وهوارة وكل من امتزج بهم من العرب أو مساكنيهم فى مواطنهم هذه ، وهم اليوم منقسمون الى احدى عشرة عشيرة متكونة من نحو 36 دوار أو تزيد ، تختلف كثافة السكان بها بين مكان وآخر . فمن هذه الجبال التى قال عنها الشاعر الثورى : من جبالنا طلع صوت الاحرار، ينادينا للاستقلال .

ففى هذا الاقليم من القطر الجزائرى ؛ ـ اقليم جبـــل اوراس الاطلس الصحراوى الواقع الى الشرق من مدينة بسكرة ، وفى عصور مختلفة من التاريخ الاسلامى لمع فى ميدان الثقافة والعلم جمع من ابناء الجزائر الاوراسيين ، ازدان بهم تاريخ الجـــزائر وطفحت بذكر اسمائهم كتب التراجم والسير ؛ وها نحن اليوم بمناسبة انعقاد الملتقى الثانى عشر للفكر الاسلامى بقاعدة الاوراس ـ باتنة ، نلقى بنظرة تاريخية خاطفة على حياة ثلة من رجال الفكر الاسلامى بهذه الناحية من أرض الجزائر للتدليل على طيبة هذه التربة المباركة وسير الحركة العقلية بها .

ففى أواسط القرن الثالث من خير القرون نجد عالما أوراسيا يلمع اسمه ويتردد ذكره فى بلاط ملوك وامراء بنى الأغلب ـ الدولة التى ملكت تونس والجـــزائر (184 ـ 296 هـ / 800ـ909 م) ذلك هو اسحاق بن عبد الملك الملشونى ـ وملشون قرية من احدى قرى المدن الكثيرة المطل عليها جبل أوراس ؛ فعن هذا العالم الاوراسى كان أمراء الدولة يتلقون دروسهم فى الأدب والفقه والتاريخ وأخبار الامم ... وعنه وعن والده كان يحمل العلـــم .

قال أبو العرب : كان أبو القاسم بن شبلون الفقيه رضى الله عنه يروى فيما كان يرويه ان الامام سحنون بن سعد دخل على الامير محمد بن الاغلب أول يوم من شـــهر رمضان ، فوجده خاليا بنفسه ، فقال له : اراك أيها الامير خاليا ، فقال نعم ، انفردنا فى هذا الشهر المعظم وخلونا فيه وتركنا ما كان لغير الله عز وجل ، فقال سحنون : فأيـن

أنت ايها الامير من اسحاق الملشونى يحدثك بأخبار الامم السـالفة والأعوام الماضية ؛ فأمر محمد بن الأغلب باحضاره ، فكان يحضر عند محمد بن الأغلب فى كل يوم يحدثه بذلك حتى انقضى شهر رمضان · قال أبو العرب : وسمعت بعض المشائخ ممن يروى البرىء من الأخبار يحدث عن اسحاق بن عبد الملك الملشونى انه قال : لم يدخل افريقيا نبى قط ، وأول من دخلها بالايمان بعض حواريى عيسى بن مريم عليه السلام · وهذه منه فائدة جليلة تنير لنا الطريق حـول البحث عن وجود (خالد بن ســنان) على القول بنبوته ـ بهذه البلاد ·

وفى حديث للبكرى يذكر فيه وصف جبل أوراس وما اودع الله فيه من خصائص وما احاط به من البلاد ··· وكان فيما ذكره منها ان ذكر مدينة باغاية ـ وهى باغاى ، الموجودة حاليا بشمال خنشلة ، فقال : هى مدينة جليلة أولية ذات انهار وثمار ومزارع ومسارح ، وهى على مقربة من جبل اوراس · ففى نفس هذه المدينة ولد العالم المحدث المقرىء أبو العباس احمد بن محمد بن عبد الله الربعى الباغائى سنة 345 هـ/956 م ودخل الاندلس سنة 376 هـ/986 م وقدم للاقراء بالمسجد الجامع فى قرطبة ، واستأدبه أمير الاندلس المنصور ابن ابى عامر لابنه عبد الرحمن ، ثم عتب عليه فأقصاه ، ثم رقاه المؤيد بالله هشام بن الحكم فى دولته الثانية الى خطة الشورى بقرطبة مكان أبى عمر الاشبيلى الفقيه ؛ وكان كما ذكره ياقوت : من أهل العلم والفهم والذكاء ، وكان لا نظير له فى علوم القرآن والفقه على مذهب مالك ، روى بمصر عن ابى الطيب بن غلبون وابى بكر الادفوى وتوفى لاحدى عشرة ليلة خلت من ذى القعدة ســنة 401 هـ/16 جوان 1011 م ·

وفيما بين القرن الرابع وأوائل الخامس نجد طائفة من سراة العلماء والادباء كلهم يحمل لقب « الطبنى » أى الانتساب الى مدينة طبنة ، وطبنة هذه هى من أهم المراكز الحيوية باقليم الزاب يومئذ ، بل هى عاصمة الزاب ، وثيقة الاتصال بالاوراس وقريبة منه جدا حيث ان خرائبها على بعد ثلاثة أميام جنوبى « بريكة » ·

كان فيمن اشتهر بهذا البلد أسرة بيت ابى مضر زيادة الله بن على الطبنى فكان هذا البيت من ألمع وأنبه بيوتات هذه المدينة فى العلم والرئاسة ؛ ولم يقتصر حسن صيت

اعضاء هذه الاسرة على بلادهم فقط ، بل تعداها الى خارج الوطن ، ففى بلاد مصر نجد اسم الطبنى ذائعا ، وفى الاندلس كذلك أيضا نلقاه شائعا ، وبأرض الحجاز مستفيضا . وكان أبو مضر هذا مشتهرا بعلم الحديث والأدب ، كما اشتهر كذلك ابناؤه الثلاثة بثقافة واسعة : أبو مروان عبد الملك ، وأبو الحسن عبد الرحمن ، وعبد العزيز ؛ وكان أجلهث علما وأدبا هو أبو مروان (457 هـ/1064 م) • قال الصفدى : انه امام فى اللغة له رواية وسماع ، رحل الى المشرق وحدث عن ابراهيم بن الافليل ؛ وهو من بيت جلالة ورئاسة ومن أهل الحديث والأدب •

كما ذكره ابن بسام فى الذخيرة أيضا فقال : كان أبو مروان هذا أحد حماة سرح الكلام ، وحملة الوية الاقلام ، من أهل بيت اشتهروا بالشعر اشتهار المنازل بالبدر ، اراهم طرؤوا على قرطبة قبل افتراق الجماعة ، وانتشار شمل الطاعة ، وأناخوا فى ظلها ، ولحقوا بسروات أهلها ، وسمع ـ أبو مروان من جماعة من المحدثين بمصر والحجاز ؛ ولما عاد من المشرق الى قرطبة واجتمع حوله الناس فى مجلس الاملاء انشد :

انى اذا حضرتنى ألف محبرة   تقول حدثنى طورا وأخبرنى
يا حبذا ألسن الأقلام ناطقة   « هذى المكارم لا قعبان من لبن »

قال ابن بسام : وأبو مضر أبوه زيادة الله بن على التميمى الطبنى هو أول من بنى بيت شرفهم ورفع بالأندلس صوته بنباهة سلفهم •

ومن أهل طبنة أيضا ابو عبد الله محمد بن حسين الطبنى علا صيته فى الأندلس أيام سنة 323 هـ/935 م 0 وكان شاعرا عظيما ، قال ابن شكوال : لم يصل الى الأندلس اشعر منه ، ومنهم أحمد بن الحسن الطبنى (390 هـ/1000 م) وابراهيم الطبنى ، وأبو الفضل عطية بن على الطبنى (532 هـ/1137 م) وهو القائل :

قالوا التحى وانكسفت شمسه   وما دروا عذر عذاريه
مرآة صدغيه جلاها الصبى   فلاح منها فى خديه

ومن نبغاء الادباء بالاوراس فى القرن السابع الأديب الكبير والشاعر المفلق محمد بن أحمد الاريسى المعروف بالجزائرى ـ وهذا اذا حققنا انه من بلدة الريس الاوراسية ، والا فهو على كل حال جزائرى من بلد جبال أوراس •

كان يسلك فى شعره كما يقول الغبرينى سلوك المتنبى وينحو نحوه ، فلقد كان حسن النظم والنثر مليح الكتابة حسن الوراقة فى البطاقة ، سهل الشعر كثير التجنيس يأتيه عفوا من غير تكلف ، ولأجل ذلك حسن نظمه ، وكان مليح التوشيح ، ان طال فى شعره أعرب ، وان اقتصر واقتصد أعجب ، وله شعر كثير فى كل فن من فنون الشعر ، ومنه قـولـه :

يا من على جـوده المعهـود أتكل ويا ملاذى اذا ضـاقت بى الحيـل

غرقت فى بحـر آثامى فخذ بيدى وامنـن بعفو فانى خائف وجـل

وكان فى علمـه نظير العالم المؤرخ ابى عبـد الله محمد بن الحسن القلعى شيخ الغبرينى · تولى رئاسة « كتبة الديوان ببجاية » وتوفى سنة 673 هـ/1274 م ·

ومن الشخصيات العالمة اللامعة بالاوراس فى أواسط القرن الثامن : الشيخ أحمد بن العباس النقاوسى المنسوب الى مدينة نقاوس غربى مدينة باتنة"عروس الاوراس ، والقرية من طبنة ، كان رحمه الله مشاركا فى علوم التفسير والفقه والحديث والأصول واللغـة والمنطق والبيان ··· لقيـه أبو النقاء خالد بن عيسى البلوى الأندلسى فترجم له فى رحلته وقال :

كان حافظا مجيدا ، وحافلا مجيدا ، وناقلا سديدا ، وناقدا شديدا ، وعارفا مديدا ، ومدرسا مفيدا ، له طبع حل فيه الذكاء والنبل ، وقل من كرمه الطل والوبل ، رحل من تلمسان قبل الحصار ، وتلاقى ريحها بالاعصار ، فدخل تونس مشمرا عن الجد ، وقائدا بالجد ، فطلع فى آفاقها كوكبا ، وسار فى ساحاتها كبكبا ، ولم يزل يفحص عن الكمال ، ويستسقى من عذبة منالها الزلال ، حتى بلغ المنتهى ، وخول ما اشتهى ، فهو الآن أحد مدرسيها الامام ، وأوحد من برع فى علمى البيان والكلام ، وأوجد الناس للدر اذا خاض بحر العلوم بسوابح الاقلام ، أديب العصر ونحويه وبيانيه وحكميه ومنطقيه ··· الى الاحاطة بالتفسير والحديث ، مع المطالعة والمذاكرة فى القديم والحديث ، وكذا الفـروع والاصول ··· الى ان قال : قرأت عليه تاليفه المسـمى : « الروض الأريض فى علم القريض » ، وتأليفه فى الأدب ؛ و « حديقة الناظر فى تلخيص المثل السـائر » فى

البيان ؛ و « شرح المصباح » لابن مالك ؛ و « ايضاح السبيل الى القصد الجليل فى علم الخليل » وهو شرح على عروض ابن الحاجب ؛ وله تآليف غيرها عرف قدرها واشتهر ذكرها ؛ توفى سنة 765 هـ /1364 م ·

وهذا نقاوسى آخر أيضا ، من أهل القرن التاسع ، يسمى محمد بن محمد النقاوسى ، أخذ علمه أولا عن والده قاضى نقاوس وعن علماء بلده ، ثم ارتحل الى مدينة قسنطينة ثم تونس ودخل مصر فاخذ عن الشمنى والكافيجى والسخاوى وأضرابهم من علماء القاهرة ··· وتولى قضاء العسكر لحفيد المولى مسعود ، ثم عاد الى بلده نقاوس ، وهاجر فسكن مصر وانتقل منها الى الحجاز فجاور الحرمين الشريفين وجلس هنالك للاقراء والتدريس ·

وكان من مشايخ الامام عبد الرحمن الثعالبى الذين أخذ عنهم العلم ببجاية الشيخ أحمد النقاوسى ، قال الثعالبى : هو شيخنا الامام المحقق الجامع بين علمى المعقول والمنقول ، ذو الأخلاق المرضية والأحوال الصالحة السنية ···

ويحيى الشاوى غنى بنسبته هذه الى التعريف بنسبه ، فهو ابو زكرياء يحيى بن محمد الشاوى المولود بمدينة مليانة (1030 هـ/1621 م) ، من مشائخه الجزائريين الشيخ سعيد قدوره شارح سلم الاخضرى فى المنطق ·

حج الشاوى سنة 1074 هـ/1663 م ونزل القاهرة فتصدر للتدريس بالأزهر ، ورحل الى تركيا ثم عاد بعدها الى القاهرة وحج للمرة الثانية (1096 هـ/1684 م) وتوفى بالقاهرة ومن تآليفه شرح التسهيل » لابن مالك ، وله شروح وحواش ومصنفات فى النحو والاعراب والتوحيد الخ ··· ومن تلامذته : محمد أمين المحبى صاحب « خلاصة الاثر » (مطبوع) والشيخ على النورى صاحب كتاب « غيث النفع » فى القراءات والروايات السبع » (مطبوع) ·

ومن اعيان علماء الاوراس فى القرن الحادى والثانى عشر العالم الفاضل المدرس الشيخ عثمان الاوراسى ، أخذ عن علماء بلده ثم ارتحل الى تونس فاخذ عن الشيخ محمد المغراوى ، وحميدة المفتى ، وعلى شعيب ، ومحمد بن عمران وابى القاسم بن سليمان وغيرهم ··· ومثله فى ذلك الشيخ على الاوراسى ···

وبما ان مدينة بسكرة تقوم على السفح الجنوبى من جبل اوراس ، واوراس يقوم الى الشرق من مدينة بسكرة ويطل عليها كما يقول ابن خلدون ، فهى معتبرة من أهم المدن المرتبطة بالأوراس والمتصلة به اتصالا وثيقا ، لا سيما وانها كانت طيلة هذه العصور التى مررن بها تضم بين جدرانها طائفة من كبار العلماء الذين اخترق ذكرهم الآفاق ، مثل الشيخ عبد الرحمن الاخضرى البسكرى الطائر الصيت · وابى القاسم بن جبارة البسكرى ، وابى زيان ناصر بن مزنى البسكرى ، والشاعر المكثر عبد الله بن عمر البسكرى ، والشيخ احمد بن الفاكهة الليانى فى آخرين ··· وعليه فلا أقل من ان نشير ولو بايجاز الى بعض علمائها المحققين ومن كان منهم من اهل الاجتهاد الراسخين ·

فهذا ابو القاسم يوسف بن على بن جبارة البسكرى ولد سنة (403 هـ/1012 م) وشد رحلـه فى طلب العلم وتخصص فى علوم اللغة والنحو والقراءات فطاف البلاد شرقا وغربا ، فدخل بغداد ونيسابور واصبهان وغيرها من حواضر العلم يومئذ ولقى بها جمهورا من جلة العلماء ؛ قال : « فجملة من لاقيت فى هذا العلم 365 شيخا ـ بعدد ايام السنة ، من آخر المغرب الى باب فرغانة ، يمينا وشمالا ، جبلا وبحرا ، ولو علمت ان احدا تقدم على فى هذه الطريقة فى جميع بلاد الاسلام لقصدته » ؛ وكان فيمن اخذ عنهم من كبار علماء المشرق الاستاذ ابو نعيم احمد بن عبد الله الاصبهانى ، صاحب الحلية ، والاستاذ ابو القاسم القشيرى صاحب الرسالة الصوفية المشهورة ، وكان هذا يراجعه ويحاوره فى مسائل من النحو والقراءات مراجعة مستفيد ، حيث كان لمترجمنا هذا استقلال فى آرائه واختيارات وترجيحات اختص بها دون غيره من أهل التقليد ، فكان مجتهد متخصصا فى فنه ـ القراءات والنحو ، قال ابن الجزرى : لا أعلم احدا فى هذه الأمة رحل فى القراءات رحلته ·

استدعاه الوزير نظام الملك الطوسى وزير ملك شاه السلجوقى للتدريس بمدرسته التى أسسها فى نيسابور ، مثل ما استدعى لها امام الحرمين الجوينى بل اسسها من اجله ، وبها قرأ وتعلم الامام الغزالى وعلم بها ، فانتصب يومئذ شيخنا ابن جبارة البسكرى لنشر علمه بين جدران هذه الجامعة الطائرة الصيت فى مدينة نيسابور التى يقول عنها الحموى (626 هـ/1229 م) هى مدينة عظيمة ، ذات فضائل جسيمة ، معدن

الفضلاء ، ومنبع العلماء ، لم ار فيما طوفت من البلاد مدينة كانت مثلها ٠٠٠ وهناك وضع الشيخ ابن جبارة البسكرى كتابه«الكامل» وهو معلمة كبرى فى فن القراءات ضمنه خمسين قراءة بالفين ومائتين وتسعين طريقا ٠ قال يصفه : « الفت هذا الكتاب فجعلته جامعا للطرق المتلوة والقراءات المعروفة ونسخت به مصنفاتى كالوجيز والهادى » ٠ وعلق امام القراء ابن الجزرى على كلمة المؤلف هذه فقال : كذا ترى همم السادات فى الطلب ٠

ويبدو ان هذه المدارس النظامية ـ المنسوبة لنظام الملك كانت رسمية تحت رعاية الحكومة ، بدليل ما أشار اليه بعض المؤرخين بأن مدرسا صدر له التعيين بها ولكنه لم يؤذن له بالتدريس الى ان جاءت موافقة الخليفة على تعيينه ٠

ومن أدباء بسكرة وفقهائها فى القرن الثامن : عبد الله بن عمر البسكرى ، كان فقيها اديبا شاعرا ، ارتحل الى المشرق فحج واستقر بالمدينة المنورة ملازما للحافظ المحدث المؤرخ الشيخ عبد الله بن محمد المطرى ، وكثيرا ما كان المطرى نفسه ينشد قصائد عبد الله البسكرى هذا ويرددها من حفظه اعجابا بصاحبها ٠ توفى البسكرى الشاعر سنة 765 هـ/1364 م ٠

واما ابن مزنى الذى أشرنا اليه فيما سلف فهو العالم المقرىء المؤرخ ابو زيان ناصر بن مزنى البسكرى ، المولود فى المحرم سنة 781 هـ/1379 م ، فنشأ فى بيت علم وامارة ، والى هذه الاسرة كان مرجع التصرف والحكم بناحية الحضنة والزاب ، انصرف ابو زيان الى الاشتغال بالعلم ولقاء العلماء ، فاخذ عن جماعة من بنى وطنه ومن علماء تونس مثل الامام ابن عرفة ، وعبد الرحمن التوزرى ، وابى فارس عبد العزيز بن يحيى الغسانى. البرجى ، ومحمد بن على بن ابراهيم الخطيب ، وعيسى بن احمد الغبرينى فى آخرين ٠٠٠

ثم انتقل الى مصر فنزل بها سنة 803 هـ/1400 م وكان بها يومئذ وحيد افريقيا العلامة ابن خلدون وقد جمعتهما أواصر العهد القديم ببسكرة ، فاكرمه واسكنه بخانقاه ومدرسة الشيخونية ، وبها اسمع ابن مزنى صحيح البخارى ولازم الامام ابن حجر ٠٠٠ وهناك عكف على وضع كتابه الكبير للرواة ، لم يكمله ، قال ابن حجر : انه لو اتمه لكان مائة مجلد ، فانه جمع منه فى مسوداته ما لا يعد ولا يدخل تحت حد ، ومات فتفرقت

مسودته شذر مذر ، ولعل أكثرها عمل بطائن مجلدات ؟!!٠٠ وكان رحمه الله جماعة للكتب ضابطا متقنا حريصا على جمع الفوائد والشوارد ٠ وأصيب فى آخر عمره ببصره فانتقل من الشيخونية الى مدرسة خانقاه الظاهر برقوق ـ بالقاهرة ، وعاجلته المنيـــة فتوفى سنة 823 هـ/1420 م 0 اثنى عليه المقريزى فى كتابه درر العقود ، واثبت بانه كان يتردد عليه ، وقال : رحمه الله ماذا فقدنا من فوائده عوضه الله الجنة

وأما العلامة الأخضرى فهو أشهر من نار على علم واسمه عبد الرحمن بن محمد الصغير بن محمد بن عامر الشهير بالاخضرى ، ورغم شهرته بهذه النسبة نراه ينكرها فى شرحه على سلمه فى المنطق ، فيقول : « ان هذا نعت لنسبنا على ما اشتهر فى السنة الناس ، وليس كذلك ، بل المتواتر عن أعالى أسلافنا واسلافهم ان نسبنا للعباس بن مرداس السلمى (الصحابى الجليل) ٠ وامه رحمها الله اسمها (حدة) من قرية تيفلفال ـ من صميم الاوراس ـ ولد عبد الرحمن سنة 910 هـ/1504 م وكان ابوه رجلا صالحا وعالما جليلا فاخذ عنه ولده النجيب وعن من لقيه من مشائخ بلده ٠٠٠ وامتاز بالنبوغ المبكر ، ولازم الدرس الى ان برع فى اكثر الفنون العربية والعلوم الاسلامية ، والف فيها مصنفاته العديدة النافعة المفيدة ، فكتب فى الفقه والتوحيد والمنطق والنحو والبيان والفرائض والحساب والفلك والتصوف الخ ٠٠٠ نظما ونثرا ، وفيها ما هو مطبوع ٠٠ وانتشرت كتبه فانتفع بها الناس شرقا وغربا وترجم بعضها الى لغات اوروبا ، ومنها الفرنسية ، واعتقد انه ليس هناك اليوم أحد من أفراد العلم والادب ـ أو أقول معظمهم ـ بالجزائر وتونس والمغرب ومصر ٠٠٠ الا ولمصنفات الشيخ عليه فضل ومنة ٠ توفى رحمه الله سنة 983 هـ/1575 م ودفن بزاوية قرية (بنطيوس) جنوبى غرب مدينة بســـكرة ، وضريحه مشهور بها ٠

مراجع البحث

اعلام الجزائر : عادل نويهض ، ط بيروت ، 1971 م

بغية الوعـــاة : جلال الدين السيوطى ، ط ، القاهرة ، 1326 هـ

تاريخ الجزائر العام · عبد الرحمن الجيلالى ، ط 3 ، الجزائر 1971 م

تعريف الخلف ... : أبو القاسم الحفناوى ، ط الجزائر 1906 م

دائرة المعارف الاسلامية : النسخة العربية ، ط مصر ، 1971 م

الذخـــيرة ... : ابن بســـام ط بيروت ، 1975 م

ذيل بشائر أهل الايمان : حسين خوجة ، ط تونس 1908 م

شجرة النور الزكية : محمد مخلوف ، ط تونس ، 1349 هـ

طبقات علماء افريقية : ابو العرب محمد التميمى ، ط باريس ، 1915 م

العبـــــر ... : عبد الرحمن ابن خلدون ، ط بولاق 1274 هـ

عنوان الدراية ... : أحمد الغبرينى ، ط الجزائر 1910 م

المسالك والممالك : عبد الله البكرى ، ط الجزائر 1857 م

نزهـة الانظـــار ... : الحسين الورثيلانى ، ط الجزائر ، 1108 م

نزهـة المشتاق ... : الشريف الادريسى ، ط ليدن ، 1864 م

نيل الابتـــهاج : أحمد بابا التنبكتى ، ط القاهرة ، 1329 هـ

ابن الصغير
مؤرخ الدولة الرستمية

الدكتورة وداد القاضي
أستاذة بالجامعة الامريكية
ـ بيروت ـ لبنان
وأستاذة زائرة بجامعة هارفارد
(الولايات المتحدة الامريكية)



يحتل ابن الصغير مكانة هامة متفردة بين المؤرخين فيما كتبه عن الدولة الرستمية بتاهرت (162 ـ 296) وذلك لعدة أسباب ، أهمها أنه كان من سكان تاهرت أيام جانب من حكم الرستمية لها ، فكان شديد الاطلاع على ما كان يحدث بها ، شديد الصلة بمن يعرف الدقيق من أخبارها ، كما كان في الوقت نفسه من غير المنتمين الى المذهب الاباضي السائد فيها ، فكان قادرا على أن ينظر اليها بعين المعايش لها والمراقب الخارجي لاحوالها في آن معا • فاذا أضفنا الى هذا أن كتابه في أخبار الائمة الرستمية هو أقدم كتاب وصلنا عن دولة بني رستم عرفنا لماذا نفرد صاحبه بالتمييز •• ومن ثم بالدراسة•

37

وقد تنبه الباحثون من قبل الى أهمية كتاب ابن الصغير ، فقام المستشرق موتيلينسكى بالتنويه به وبتلخيصه باللغة الفرنسية فى أواخر القرن الماضى (1) ، ثم عاد فنشره كاملا مع ترجمته الفرنسية فى أوائل هذا القرن (2) ، وظلت هذه النشرة على علاتها هى النشرة المعتمدة لدى الباحثين ، وقد جرت طباعتها مؤخرا فى المجلة التونسية Cahiers de Tunisie سنة 1975 (3) · كذلك قام كل من موتيلينسكى وليفيتشكى بعمل بعض الملاحظات من هذا الكتاب ، وقارناه بغيره من مصادر الاباضية (4) ، وخرجا من ذلك بنتائج جد مفيدة ، وكان ليفيتشكى هو صاحب المقالة التى ظهرت عنه فى الطبعة الجديدة من الموسوعة الاسلامية (5) ·

ورغم ذلك كله . فان موضوع ابن الصغير مؤرخ الدولة الرستمية ما زال مفتوحا لمزيد من الدراسة والتعمق ، وليس هذا المقال الا محاولة متواضعة فى هـذا السبيل على قدر ما تسعف به المصادر المتيسرة ·

لا تتجاوز معظم معلوماتنا عن ابن الصغير ما قد يستشفه الدارس من بين سطور كتابه التاريخى · أما اسمه فلا نعرف منه سوى شهرته « ابن الصغير » ، وأما أصله فالارجح انه مغربى (6) من مواليد تاهرت (7) وأما سنة ولادته فمن غير الممكن تحديدها بدقة ، وكل مانعرفه عن نفسه فى هذا المجال أنه لحق بعض أيام أبى اليقظان ابن أفلح وامارته وحضر مجلسه فى المسجد الجامع بتاهرت (8) ، وأنه كان صغيرا ينادى بـ « يا بنى » خلال تلك الفترة (9) ، فهذا يعنى ان ولادته يجب أن تكون تمت بين سنتى 265 و 270، نظرا لان أبا اليقظان توفى سنة 281 (10) ·

وكان ابن الصغير سنى المذهب ، يدل على ذلك أن أحد الاباضية خاطبه مرة بقوله : « من أين زعمت وزعم أصحابك وغيرهم من الحجازيين والعراقيين ؟·· » (11) ــ يعنى بذلك المالكية والحنفية وقد أكد الشيخ سليمان البارونى غير مرة على أن ابن الصغير كان مالكيا (12) ، غير انى لم أعثر على ترجمة له فيما وصلنا من طبقات المالكية · ومهما يكن الامر فان ابن الصغير كان صريحا فى تبيان اختلافه عن الاباضية عقيدة عندما قال فى أوائل تاريخه ان يأخذه على القوم براءتهم ممن والاه رسول الله صلى الله عليه وسلم

وقال : من كنت مولاه فعلى مولاه (12) ، فهذا فى نظره كاف يدخل المرء فى منحى الغلو (13) . وقد دعا هذا الموقف الموالى لعلى بن أبى طالب المستشرق البولندى ليفيتشكى الى الاعتقاد بأن ابن الصغير كان متشيعا « علوى الهوى » (15) الا ان هذا الاستنتاج ليس سليما ، فان حديث « من كنت مولاه فعلى مولاه » من الاحاديث الثابتة الصحيحة لدى أهل السنة (16) .

وقد نشأ ابن الصغير بتاهرت ، وعمل فيها منذ سن مبكرة فى التجارة ، اذ كان له دكان يبيع فيه ويشترى فى حى الرهادنة منها وهو بعد يتردد على العلماء لطلب العلم (17) . وكان ابرز من اخذ عنهم آنذلك أبو عبيدة الاعرج ، العالم الاباضى الكبير ، الذى كان متضلعا فى الفقه والكلام والوثائق والنحو واللغة (18) ، وقد درس عليه ابن الصغير اللغة اذ أنه يصرح بأنه قرأ عليه كتاب اصلاح الغلط لابن قتيبة فى جلسات عديدة (19) ، ومن المحتمل انه أخذ علم الكلام أيضا كما سوف ابينه من بعد . ولا نعرف هل درس ابن الصغير الفقه على أبى عبيدة الاعرج . ولكن الامر المؤكد انه لم يكن يشعر بالحاجز المذهبى بينه وبين الاباضية فى دراسة الفقه ، وهو يخبرنا انه أخذ عن بعض الرستميين كتاب مسائل نفوسة الجبل للامام عبد الوهاب بن عبد الرحمن ابن رستم فدرسه ووقف عليه (20) .

هذه الثقافة العربية الاسلامية المتنوعة المتفتحة جعلت من ابن الصغير عالما مرموق القدر بين العلماء بتاهرت ، وكان اختلافه عن الاباضية فى المذهب يجعله عرضة للدخول مع علمائها فى المناظرات . فكانت تظهر فى هذه المناظرات معرفته الفقهية واللغوية والنحوية ، كما كان جو المناظرات يزيد من حدة مقدرته الكلامية ويجعله اشد اتصالا بالحياة العلمية بتاهرت . وقد روى لنا هو نفسه (21) كيف ناظره الشيخ الاباضى أبو الربيع سليمان فى مسألة خيار البنت البكر الصغيرة فى الزواج بعد ان تدرك ، وكيف رد عليه وعلى غيره من مناظريه فى الموضوع نفسه بما يسند موقف أهل السنة ، فكانت هذه الحادثة شديدة الدلالة على ان المناظرين من الاباضية كانوا يرون له منزلة فى القوة بينهم ، وعلى ان ابن الصغير كان ذا نزعة نحو الجدل على طريقة المتكلمين مع مقدرة ظاهرة فيه ، وذلك أمر كان يسعف عليه جو تعدد المذاهب والفرق والاجناس

في تاهرت (22) ، وكثرة المناظرات التى كانتا تعقد بها (23) كذلك كانت هذه الحادثة بينة الاشارة الى معرفة ابن الصغير الدقيقة باللغة وباستعمالات الحروف ، والى انه قد يتخذ من الاباضية مناظريه موقفا لا يخلو من العنف والشدة ٠

وقد صرح ابن الصغير انه سجل ما دار بينه وبن « غير واحد » من العلماء حول هذه المسالة فى نقاش ، قال : « وقد جمعت ما دار من جميع ذلك بينى وبينهم مما اعتلوا به ومما يدخل لهم أو ما ذكروه » (24) ، فهل يعنى ذلك انه جمع هذا فى كتاب ؟ ذلك أمر ممكن ، غير ان الكتاب هذا ـ ان كان جمع ـ لم يصلنا ، ولا نعرف من مؤلفات ابن الصغير غير تاريخه فى الائمة الرستميين ٠

موضوع الحديث فيما يلى :

يغطى تاريخ ابن الصغير أخبار الرستميين منذ ولاية عبد الرحمن بن رستم حتى الولاية الثانية لابى حاتم يوسف بن محمد أبى اليقظان بن أفلح ، أى انه يتوقف عند السنوات القليلة السابقة لانهيار الدولة الرستمية ، ومن ثم لا يظهر فيه أى خبر عن ايامها الاخيرة ٠ وهذا الوضع لا يخلو من الغرابة ، وهو يفترض احد أمرين : اما ان يكون ابن الصغير قد توقف عن كتابة تاريخه لدى هذا الحد لحادث طرأ عليه ، كفقدان الاهتمام بالموضوع ، أو الهجرة من تاهرت ، أو الوفاة ، أو غير ذلك ، واما ان يكون قد أتم هذا التاريخ ولم تصلنا البقية الباقية منه ٠ ويبدو ان الشيخ سليمان البارونى كان يعتقد اعتقادا جازما بأن الامر الثانى هو الصحيح اذ انه يشير غير مرة « ما وقفنا عليه من تاريخ ابن الصغير » (25) أو « فيما لدينا منه » (26) ويقول مع الاسف على ما فقد ولم نعثر له على خبر كلما بحثنا عنه (27) ٠

والحقيقة ان هذا التقدير هو التقدير الصحيح ، ويؤكد نص هام فى قلب تاريخ ابن الصغير نفسه ، وذلك هو القول فى فرس يعقوب بن أفلح الاشقر انه « لم يكن بالمغرب مثله قبله ولا بعده به يضرب المثل الى اليوم » (28) فقوله « الى اليوم » يعنى بعد مدة غير قصيرة من أيام يعقوب بن أفلح ، ويعقوب هذا كان امام الرستمية مباشرة قبل أبى حاتم يوسف الذى به ينتهى كتاب ابن الصغير ٠

من هنا يمكننا القول ان ابن الصغير استمر فى كتابة تاريخه بعد زمن من سقوط الرستميين ، والارجح أنه دون تاريخهم حتى نهايته ، ولم يفقد اهتمامه بموضوعهم ، ولم تحدث وفاته فى أيامهم ، ولا عجب فى ذلك بطبيعة الحال ، اذا تذكرنا انه كان شابا لا يزيد سنه عن 31 سنة عندما سقطت تاهرت ودولتها بيد أبى عبد الله الشيعى سنة 296 . وتجدر الاشارة هنا الى أن هذا التقدير بفترة مما قرره موتلينسكى تاريخا لتأليف ابن الصغير كتابه ، اذ جعله بعد عشرين سنةتقريبا من وفاة أبى اليقظان (أى فى حدود سنة 201) (29) ، غير أن محاولة تحديد سنة بعينها لكتابة الكتاب أمـــر لا يخلو من التحكم ولا يسعف عليه مـا وصلنا من الاخبار . أما قول ليفيتشكى أن الكتاب كتب فى حدود سنة 290 (30) ، فما أظنه يستند الى أسس قوية . على أنــه لابد من الاشارة الى أن ابن الصغير ـ فيما يبدو ـ لم يكتب تاريخه كله دفعة واحدة ، ولا شك فى أن جانبا منه قد كتب والرستمية بعد فى الحكم وتاهرت عـلى ازدهارها المعهود فى ايامهم ، على الاقل حتى فترة ولاية أفلح بن عبد الوهاب (31) .

متى ضاع ما ضاع من هذا الكتاب ؟ ليس هناك من جواب قاطع على هذا السؤال ، الا أنه يمكن الترجيح انه ضاع فى فترة مبكرة نسبيا ، وذلك بدليل ظاهرة غريبة فيما وصلنا منه ، تلك هى ان هذا الذى وصلنا يمثل صورة من الكتاب اختارها احد الناس فى فترة لا نعلمها ، ولا يمثل الكتاب كاملا كما كتبه ابن الصغير . فالكتاب ـ مثــلا ـ ليس له عنوان مؤكد ونص أوله « ذكر بعض الاخبار فى الائمة الرستميين منقول من ابن الصغير (32) ، أو شىء منقول من كتاب ابن الصغير ... » (33) ، وهناك ثلاثة مواطن فيه تدل على حدوث حذف من النص الاصلى منه يعبر عنه بـ (الى أن قال) (34) وكذلك هو الحال بالنسبة لموطنين آخرين يقطع فيهما النص ليضاف ، وقال (35) على أساس العودة الى النص الاصلى لا على أساس العودة الى الرواية . فهذه الظواهر كلها تدعو الى الاعتقاد الجازم بأن ما بين أيدينا هو جانب من تاريخ ابن الصغير نقله عنه أحد الناس ، ولم يتوقف عند فترة أبى حاتم يوسف منه الا لانه لم يجد ما يليها فيه وهذا يرجح ضياع القسم الاخير منه فى فترة مبكرة نسبيا .

ويدل ما تبقى من تاريخ ابن الصغير على أن مؤلفه كتبه بدواعي عديدة كانت كافية للتغلب على الحاجز المذهبي بينه وبين من يؤرخ لهم . وأول هذه الدواعي احساسه القوي بالانتماء الى تاهرت المدينة ، وذلك أمر يلاحظه الدارس من أن ابن الصغير يكاد لا يذكر شيئا عن أحوال الرستميين خارج تاهرت ، ويجد المرء صداه في محاولته الدائبة للربط بين أسماء الاماكن من تاهرت كما جاءت في الوقائع التاريخية القديمة وبين اسمائها كما هي عليه في ايامه (36) . كما يجد صداه في تدقيقه الشديد في تحديد الاماكن التي تجري فيها الاحداث في أيامه ، وأوضح مثل عليها وصفه لابي اليقظان في مجلسه ، قال : « وحضرت مجلسه ، وقد جلس للناس **خارج المسجد الجامع مما يلي الجدار الغربي** .. ورأيته يوما ثانيا في **مصلى** الجنائز .. وكان اذا جلس في المسجد الجامع جلس على وسادة من أدم مستقبل **الباب البحري** ، وله **سارية تعرف به** يجلس اليها ، ولم يكن غيره يجلس اليها » (37) ، فكأن ابن الصغير كان يؤرخ لتاهرت وليس وحسب للاباضية من سكانها وحكامها .

كذلك، كان من دواعي التأليف في بني رستم لدى ابن الصغير حب الاستطلاع الذي كان يتميز به منذ الصغر فيما يبدو ، ونحن نسمع أنه منذ أن كان صبيا صغيرا ، زمن أبي اليقظان ، شغل ذهنه أن القاضي محمد بن عبد الله ، قاضي أبي اليقظان ، استعفى من القضاء ورفض أن يدلي بسبب استعفائه لابي اليقظان ، ملمحا له تلميحا وحسب الى أن له مآخذ على بعض بنيه . فما كان من ابن الصغير ـ الصبي ـ الا أن اتجه الى مولى لمحمد القاضي هذا ، واسمه سليمان ، وقال له : « ما السبب الذي كره منه محمد بن عبد الله القضاء حتى ألقى الخاتم والقمطر »وشافه ابا اليقظان بما شافهه به؟(28) ، واذا ذاك أخبره سليمان بالسبب . والذي يبدو لي ان حب الاستطلاع لدى ابن الصغير مع سكنى تاهرت جعلت عنده معينا من المعلومات ما لبث ان وضعها في تاريخه لبني رستم .

غير انه يجب ألا ننسى ان المكانة العلمية التي حصلها ابن الصغير بتاهرت ، والمناورات التي دخل فيها مع فقهاء الاباضية ، فضلا ، عن صلته بالعلماء لاجل طلب العلم هناك ، وطبيعة التنوع في فئات السكان في المجتمع التاهرتي ، واتصاله بمختلف

42

هذه الفئات تاجرا صاحب دكان كل هذا قد انشأ نوعا من الالفة الشديدة بينه وبين الاباضية وغيرهم من أصحاب المذاهب بتاهرت ، وجعل الفرق بينه وبينهم يحتل مكانا هامشيا فى قرارة نفسه فلا يتحكم فيه لدى اقدامه على كتابة تاريخهم . بل يجعله أقرب الى ان يكون خاليا من الهوى المذهبى الموجه على وجه العموم .

وكانت مصادر ابن الصغير فى تاريخه تتألف من نوعين أساسيين هما : الرواية الشفوية والمشاهدة . اما المشاهدة فانها لا تبدأ قبل فترة أبى اليقظان ، واما الرواية الشفوية فانها تسيطر على الجزء الاكبر من الكتاب . ولا يسمى ابن الصغير أيا من رواته باستثناء أحمد بن بشير (بشر) فى عهد أبى اليقظان (39) ، ولا يسند رواياتهم سندا مسلسلا خلا فى موضع واحد فى قصة حبس أبى اليقظان ببغداد (40) ، اما فيما عدا ذلك فهو يقول : « حدثنى بعض من أثق به » (41) أو « حدثنى غير واحد » (42) أو « على ما حدثنى به أهل المعرفة » (43) أو « وقد حكى لى جماعة من الناس » (44) غير أنه فى معظم الاحوال ينص على أن من سمع الاخبار منهم هم من الاباضية بالذات (45) (وسماهم مرة « الشراة » (46)) يروونها عن أسلافهم أو آبائهم ، وبذلك يكون معظم تاريخه مأخوذا عنهم . دون أن يمنعه ذلك من الافادة من أخبار غيرهم وقد نص غير مرة على انه أخذ أخباره من بعض الاباضية وغيرهم .

وقد كانت القاعدة الاساسية فى المنهج التاريخى الذى اتبعه ابن الصغير بالنسبة لروايات الاباضية خاصة ، وللروايات الاخرى احمالا عامة ، هو الامانة التامة فى النقل . يحركه على ذلك عامل أخلاقى بحت قال : « وكانت له (أى لعبد الرحمن ابن رستم) قصص حكوها ، لا يمكن ذكرها الا على وجهها . وان تم الصدق فيها ، **ولا أحرفها عن معانيها . ولا أزيد فيها ولا أنقص منها** اذ النقص فى الخبر والزيادة فيه **ليس من شيم ذوى المروءات ولا من أخلاق ذوى الديانات** » (47) . وقد كان هذا المنهج يفرض عليه أن يثبت أشياء كثيرة ترفع من شأن الرستميين الاباضيين ، وكان هذا يعنى أن قدرا من التمجيد سوف ينال من يغايرونه مذهبا ، وكان هو نفسه واعيا بهذا ، ولكنه كان أيضا مصرا على ان يغلب الامانة فى النقل على اتباع الهوى ، وقد قال بعد أن وضح منهجه كما هو مذكور أعلاه : « وان كنا للقوم مبغضين ولسيرهم

كارهين ولمذاهبهم مستقلين ٠٠ ذكرنا سيرهم على ما اتصل بنا وعدلهم فيما ولوه » (49). وقد كانت نتيجة هذا المنهج ان حفل كتاب ابن الصغير بالاخبار الطيبة عن مختلف الائمة الرستميين فى عدلهم ونزاهتهم وزهدهم وصرامتهم وعلمهم ومكانتهم (50) ، كما حفل بالاخبار الطيبة عن مختلف علماء الاباضية أيامهم (51) – ومنهم من قابله ابن الصغير ودرس عليه ، كما مر – وكان كتابه فى مواطن عدة تغنيا « طروبا » بما آلت اليه حالة تاهرت من الازدهار فى عهد العديدين من بنى رستم (52) ٠

على أن الامانة العلمية لم تمنع ابن الصغير من ممارسة حسه النقدى للروايات بصفته مؤرخا ٠ فكان يتنبه احيانا الى نقص أساسى فى الرواية ويشير اليه ، كما فعل عندما ذكر ان راوية خبر حبس أبى اليقظان ببغداد لم يسم له من كان الخليفة المقتول ولا من كان الخليفة القائم ببغداد آنذاك (53) ٠ وكان فى أحيان أخرى يلحظ اختلاف الروايات فيعلق على ذلك بقوله « والله أعلم » (54) ٠ فاذا كانت الروايات تدور حول موضوع خطير فى ذاته خطير فى نتائجه وجدته يشعر بالتحرج الشديد ، وقد ظهر ذلك منه مرتين : الاولى عندما جاء فى الرواية ان أفلح بن عبد الوهاب عمد الى سياسة « فرق تسد » من أجل أن يسيطر على القبائل المتناحرة ، فكان ان أدى ذلك الى تنافر النفوس ووقوع الحرب ، وازاء هذا الامر الخطير وجد ابن الصغير ألا بد من أن يبرىء نفسه من نسبة مثل هذه السياسة للامام أفلح فقال : « فيما قالوا ، والله أعلم » (55) والمرة الثانية فى قصة تأليب وجوه الرستميين لابى بكر ابن أفلح ضد ابن عرفة فان هذا التأليب أدى الى ان اقترحوا عليه ان يقتل ابن عرفة فقام بتنفيذ نصيحتهم وقتله غيلة ٠ فالرواية هنا ذهبت الى ان أبا اليقظان بالذات هو الذى قام بتحريض أبى بدر على ابن عرفة وباقتراح قتله ، ونظرا للمكانة التى كان أبو اليقظان يحتلها – اماما عادلا – فى دولة الرستميين ولدى ابن الصغير نفسه ، فان ابن الصغير وجد نفسه يعلق على هذه الرواية بقوله : قالوا ، المنفرد بهذا الكلام أبو اليقظان خاصة دون سائر اخوته وأعمامه ، فالله أعلم أى ذلك كان (56) كذلك قد يعمد ابن الصغير الى تقصى الحقيقة اذا اختلفت الروايات بشأنها ، فاذا اخفق اعترف بذلك ، وهذا مذهب يمكن الإستدلال عليه بوضوح من قوله فى المرأة التى تزوجها أبو بكر ابن أفلح هل هى

أخت ابن عرفة أو بنته ؟ » حتى أنا شككت فى البنت أو الاخت » (57) ، وذلك بعد أن تكرر فى الرواية الشك من الرواة فى هذا الموضوع (58) ، فكأنه قد حاول استقصاء الامر ولكنه لم يخرج بنتيجة . وعندما كان ابن الصغير يجد رواية مخالفة تماما لما يعرفه يقينا ، كان يثبت نص الروايتين ويذكر ما هو الذى سمعه وعرفه حقا. قال فى قضية افتراق الاباضية زمن عبد الوهاب بن عبد الرحمن : « وعلى يديه افترقت الاباضية وافترق كبراؤهم وتسمى منهم قوم بالنكار ، وتسمى قوم بالوهبية **وهذا الاسم لست أعرفه** ، وقد سمعت أنهم انما تسموا بهذا الاسم لاتباعهم عبد الوهاب . والذى أعرف من أسمائهم على ما حدثنى به أهل المعرفة ... فرقة منهم يسمون باليزيدية ، يريدون من اتبع عبد الله بن يزيد ، وبالعمرية ، يريدون من اتبع عيسى بن عمر وبعده أحمد ابن الحسين » (59) .

على أن ابن الصغير كان ـ على وجه العموم ـ قليل التدخل بشكل مباشر صريح فى الروايات التى يرويها عن غيره وحيث أن معظم هذه الروايات كان قصصى الطابع فقد جاء تاريخه والعنصر القصصى أغلب عليه ، كما أشار الى ذلك الاستاذ موتيلنسكى (60). وهذا الاتجاه أضعف الناحية التقريرية الصرف فى الكتابة الا أنه ـ بالمقابل أكسبه تفردا عظيما بين المؤرخين اذ منح كتابه قدرا « كبيرا » من التفصيلات وقدرا أكبر من الحيوية والقدرة على الايحاء بالاستنتاج بدلا من التحكم فى الاستنتاج من الاصل . وانما يعود الفضل الى ابن الصغير فيما نعرفه من تفصيلات عن وفد أحل البصرة الاول الى تاهرت ، ثم وفدهم الثانى اليها زمن عبد الرحمن بن رستم (61) ، وكذلك الامتحان الاول الذى امتحن به الشراة أفلح بن عبد الوهاب (62) ، وعن الاحداث التى وقعت لابى اليقظان ابن أفلح ببغداد (63) ، وعن قصة أبى بكر ابن أفلح مع محمد بن عرفة ، وما نتج عن ذلك من أمور خطيرة (64) ، وهذه القصص تتضمن ـ زيادة على التفصيلات ـ جملا شديدة الايحاء للقارىء ، كما جاء فى كيفية اختيار أبى بكر للامانة « واجتمعت الاباضية فلم يصيبوا فى اولاد أفلح اذ فقدوا أبا اليقظان ارجح عندهم من ولده أبى بكر» (65) أو كما جاء فى أحوال الناس والقبائل زمن أبى بكر « والكلمة واحدة مجتمعة .

والدعوة واحدة ، والناس مقيمون على أحوالهم ، الا أن الضغائن بين القبائل وأهـل الحواضر فى الصدور على ما كانت عليه أيام أبيه»(66) ٠

على انه يجب الا نبالغ فى وصف روايات ابن الصغير عن غيره بالقصص فان جانبا لا بأس به منها كان تقريريا ٠ اخباريا الى حد بعيد ، ولعل أفضل النماذج عليه ما جاء فى وصف حال أبى اليقظان زمن ولاية أخيه أبى بكر ، فقد جاء فى الرواية عنه :

« فصرف النظر فى المدينة وأحوازها الى أخيه ابى اليقظان مع ما ظهر له من الكفاية مع أدب المشرق والاخذ بالحزم فيما رآه من ولايـــة بنى العباس وسيرهم ٠ وكان أبو اليقظان يركب الى أعلى مسجد فى المدينة فيجلس فيه ، فمن تكلم اليه من الناس عن العمال والقضاة وأصحاب الشرطة، نظر فى ذلك نظرا «شافيا» ، وأجرى الحق على من رضى وسخط ، عظم قدره أو صغر ، ولم تأخذه فى الله لومة لائم ٠ فحمد له الشراة ذلك ٠ وحمد له أخوه فعله ٠ فاذا كان آخر النهار ، دخل عليه وأعلمه بما حدث فى يومه من خبر وحكم ، وان لقيه مشتغلا قال لمن علم انه يصل اليه : اقرأ على الامير السلام وقل له : أصبحت مدينتك اليوم هادئة وأمست هادئة ٠ واذا كان فى الليل ركب وطاف فى المدينة حتى اقصاها ، ويحكم فى الامر الضرورى ، ويأمرهم اذا حدث حادث ان يوافوا داره ٠ فاذا حكم جميع ذلك انصرف الى داره ٠ فاذا كان بالغداة ، غدا الى باب أخيه فان وجده جالسا أعلمه بما كان فى المدينة من حدث ان كان حدث ، وهدوء ان كان هدوء ، فلم يزل كذلك حتى جلـب قلـوب الناس واستراءت اليـــه ومالت » (67) ، وحتى فى هذا النموذج التقريرى تظهر لنا ميزات روايات ابن الصغير فى تفصيلاتها المفيدة وحيويتها الموحية ٠

على أنه كانت هناك ميزة أخرى لروايات ابن الصغير عن غيره ، وذلك بخاصة فى الروايات التى رواها عن غير الاباضية ـ وأحيانا عن الاباضية انفسهم ـ وذلك انها اظهرت الجانب السلبى من سير الائمة الرستميين ، فكشفت بذلك عن جانب من تاريخ الرستمية ربما لم تكن لترضى ان تكشف عنه المؤلفات التاريخية الاباضية الصرف ايامهم ، وذلك جانب لم يكن ابن الصغير يتحرج من روايته بسبب أنه لم يكن اباضيا ، كما انه كان يظهر أنه بتدوينه يتمشى مع « الامانة » التاريخية التى كان يتمسك بها ٠

46

ولعل ابرز نموذج يعطى فى هذا المجال ، الرواية التى رواها عن « جماعة من الاباضية وغيرهم » فيما يتعلق بولاية أبى بكر ابن أفلح وقصته مع محمد بن عرفة ، فانهـا احتوت على عبارات جارحة فى حق أبى بكر ، مثل « فكانت الامارة بالاسم لابى بكر وبالحقيقة لمحمد بن عرفة » (68) ، ومثل « وكان أبو بكر يحـب اللذات ويميل الى الشهوات » (69) ، كما انها تضمنت ـ كما سبقت الاشارة اليه ـ تصويرا تفصيليا لكيفية مقتل ابن عرفة بالحيلة بتدبير أبى بكر (70) ، وما حدث على اثر ذلك من حروب طاحنة بين مختلف الفئات بتاهرت ـ تلك الحروب التى بدأت بهدف واضح ، لكنهـا ما لبثت أن تحولت ـ بنص ابن الصغير ـ الى تعبير عن « حمية الجاهلية » (71) ، والى قتال ينشب « سمعة ورياء » (72) .

وكما كانت روايات ابن الصغير عن غيره حافلة بالتفصيلات والحيوية والقصص والكشف عن مساوىء الرستميين فضلا عن محاسنهم وحفلت التقارير التى رواهـا مشاهدة أو معاصرة بهذه العناصر نفسها ، ولعل أفضل ما يمكن ان يمثل هذه العناصر مجتمعة ما رواه من سبب استعفاء القاضى محمد بن عبد الله ، قاضى أبى اليقظان من القضاء . وقد مر من قبل كيف قاده حب الاستطلاع الى معرفة تفصيلات هذه المسألة فلما سأل عنها سليمان مولى القاضى أجابه بان جارية لجأت الى القاضى مرة فى الليل وشكت اليه ان زكريا ابن الامير أبى اليقظان أخذ ابنتها من بين يديها ، وان ابنها لم يرض ان يلحق بابن الامير خوفا من أن يعمد عامل من عماله أو لص من لصوصه الى قتله . فغضب القاضى غضبا شديدا ، وقام فى الليل يبحث عن زكريا ليحضر البنت لامها منه . وعندما لم يجده ، أوصل الام الى بيتها وذهب فى اليوم التالى الى أبى اليقظان ورمى بخاتمه وقمطره اليه ، وترك منصب القضاء (73) . فهذه القصة تظهر الجانب الايجابى من دولة الرستميين (تحرى القاضى) والجانب السلبى أيضا (عدوان زكريا ابن أبى اليقظان) فى تفصيلات كثيرة شديدة الحيوية ، قصصية الطابع ، عظيمة الايحاء .

على ان مشاهدات ابن الصغير اعطت كتابه فيما دونه عنها بعدا جديدا نابعا من طبيعة صلته هو بالناس فى تاهرت زمن الرستميين . عالما فقيها ، وذلك أمر لم يكن قد ظهر فى أى من الروايات التى نقلها عن غيره فيما يتعـلق بالفترة قبل حـكم

أبى اليقظان • فقد صور لنا فى تاريخه بحيويته المعتادة جانبا لا يستهان به من الحياة العلمية بتاهرت ايامه فذكر لنا عددا من علمائها من الاباضية ووصفهم وصفا دقيقا • فعيسى بن فرناس (أو فناس) « عندهم من الورع بمكـان » (74) وابن الصغير (أو ابن الحفير) كان « لسانهم فى الفقه ، ولم يكن فى ورع عيسى » (75) ومحمود بن بكر كان غالبا فيهم تذكر عنه البراءة من أمير المؤمنين على بن أبـى طالب ، وكان مدرعهم الذى يذب عن بيضتهم ويدافع عن دينهم ويرد على الفرق فى مقالاتهم ويؤلف الكتب فى الرد على مخالفيهم » (76) ، وعبد الله بن اللمطى صدرهم فى التناظر مع المعتزلة (77) وأبو عبيدة الاعرج ، أستاذ ابن الصغير ، « كلهم مقرون له بالفضل ، معترفون لـــه بالعلم ، مسلمون له بالورع اذا اختلفوا فى الامر من الفقه أو من الكلام ، صدورا عن رأيه ، وقد رأيت أنا هذا الرجل وجلست اليه فما رأيت فى سود الرؤوس رجـــلا أخشع منه » (78) ، وعبد العزيز بن الآوز « كان له فقه بارع وله رحلة نحو المشرق ، ولكنه سفيه اللسان خفيف العقل ، ينزهون مجالسهم عن حضوره ويستغنون عنه فى معضلات مسائلهم » (79) • وقد ذكر ابن الصغير الى جانب العلماء عددا من خطبـاء الاباضية المقدمين زمن أبى حاتم ، وهم ابن أبى ادريس وأحمد التيـه وأبو العباس ابن فتحون وعثمان بن الصفار وأحمد بن منصور (80) ، ولم يقوم ابن الصغير كـلا منهم ، ولكنه تحدث بتطويل نسبى عن الخطابة زمن الرستميين مشيرا الى أن الخطباء كانوا لا يستعملون الا خطب على بن أبى طالب ما عـــدا خطبة التحكيم ، وحتى هذه الخطبة أقر بعضهم استعمالها مرة (81) كذلك اهتم ابن الصغير ـ فقيها عالما مناظرا ـ بتدوين شىء عن المناظرات التى كانت تعقد بين الفرق ، واعطـــى نموذجين منها فى تاريخه • واحدة جرت بين ابن اللمطى وبعض المعتزلة (82) ، وأخرى جرت بينه هو نفسه وبين بعض الاباضية ، وقد مرت الاشارة اليها (83) • وقد لاحظ فى هذا المجال كثرة الاخذ والرد والنقاش بين مختلف الفئات المذهبية التى كانت تسكن تاهـــرت واعطانا نصا دقيقا جدا عنها زمن أبى حاتم حين قال : « ومن أتى الى حلق الاباضية من غيرهم قربوه وناظروه الطف مناظرة ، وكذلك من أتى من الاباضية الى حـلق غيرهم كان سبيله كذلك » (84) •

بقى أن يتوقف الدارس ليتساءل : هل كان ابن الصغير فى رواياته عن غيره مجرد ناقل أمين يكرر ما يسمعه ببساطة متناهية ـ كما يشير اليه الاستاذ موتيليبنسكى (85) . ولا يتدخل الا حيث تدعو الحاجة القصوى الى التدخل ؟ وهل كان فيما رواه عن مشاهداته يسجل تسجيلا عشوائيا ما يراه ماتا بصلة الى تاريخ الائمة الرستميين فهو من ثم له مكان فى كتابه عنهم ؟ وبكلمات أخرى : هل كان ابن الصغير مجرد راوية للتاريخ أم أنه كان مؤرخا ذا فهم معين للتاريخ . يرى التاريخ بواسطته خاضعا فى تطوره لعوامل بعينها تتحكم فيه تحكما شبه حتمى وتقرر بذلك النهاية التى سوف يؤول اليها فى مرحلة ما من حياة أمة ما ؟ ان الراوية للتاريخ والمؤرخ كلاهما يتحكمان فى مدوناتهما عن طريق ما يختارانه دون غيره ليكون جزءا من تاريخهما ، وانما الفرق بين الراوية للتاريخ والمؤرخ ان الاول منهما لا تنتظم اختياراته أية قواعد فكرية ، ثابتة تفسر ما مضى من أحداث التاريخ وتنبىء بما سوف يقع منها فيه وذلك على عكس الثانى . فاين مكان ابن الصغير فى هذا كله ؟

ان القراءة الدقيقة لتاريخ ابن الصغير تدل على أن ابن الصغير لم يكن مجرد راوية للتاريخ وانما كان مؤرخا حقا يعى تماما ما الذى يريد ان يدرجه فى تاريخه عن الروايات وما الذى يريد أن يحذفه منها منه ، وانه كان صاحب تصور واضح لبنية الدولة الرستمية منذ نشأتها ، ولماهية الاسس التى قامت عليها ، وكيف كانت هذه الاسس تحمل فى طياتها عناصر قوتها وضعفها معا ، فكانت مسؤولة عن صعودها السريع أول الامر ، ثم عن انحدارها باتجاه الانهيار فيما بعد .

فمنذ الصفحات الاولى التى تتعرض لفترة عبد الرحمن بن رستم ، مؤسس الدولة الرستمية نجد انفسنا أمام روايات معينة ـ تحكم ابن الصغير باختيارها دون شك ـ تبين طبيعة فهم ابن الصغير لاسس هذه الدولة . ونظرا لاهمية هذا القسم ، لابد من التعرض لرواياته بشىء من التفصيل . ففى قضية تنصيب عبد الرحمن بن رستم ، يورد ابن الصغير رواية واحدة تنص على ان السبب الذى دعا الاباضية الى اختيار عبد الرحمن للامامة من دون سائر مشايخ الاباضية أنه « لا قبيلة له يشرف بها ولا عشيرة له تحميه » (86) . فذلك من شانه أن يمنع حدوث الاختلافات بين القبائل

والعشائر الذين يكونون عصب السكان للدولة الجديدة · فهذه الرواية تبرز عامل تعدد القبائل في المجتمع الجديد ، وتتخوف (أو تتوقع) حدوث اختلافات فيه قائمة على العصبية القبلية السائدة فيه ، وتنبيء بشكل غير مباشر بدخول عنصر جديد على المجتمع هو عنصر الرستمية ، وفي الوقت نفسه تجعل من عامل الرابطة العقيدية عاملا ثانوي المكانة الى حد ما بين العـوامل التى تنحل فيه ، وذلك خاصة باهمالها الوعاء « المذهبي » فى شخص ابن رستم ، داعيا من دعاة أبي عبيدة التميمى الى المغرب وعاملا لابى الخطاب على افريقية (87) · كذلك يورد ابن الصغير بتطويل كبير الرواية عن قدوم وفدين من أهل البصرة من الاباضية الى تاهرت زمن عبد الرحمن بن رستم (88) وهى رواية تبرز دور المال فى تغيير المجتمع التاهرتى الناشيء ، وتبين كيف قاد هـذا العنصر إلى انتعاش تاهرت انتعاشا اقتصاديا هائلا ــ عمرانا وتجارة ــ ثم كيف جعل هذا الانتعاش تاهرت مستقطبا لمختلف الاجناس من الناس ، من الكوفة ومن البصرة ومن القيروان وغيرها ، فاستقروا بها استقرارا ، نهائيا ، مضيفين بذلك الى المجتمع الجديد عناصر جديدة غير قليلة · كذلك تفسح روايات ابن الصغير مكانا كبيرا لسـيرة ابن رستم فى الناس وتبرز مدى عدله وزهده وبساطة عيشه وعدم استسلامه الى الحياة المرفهة عندما أصبح المال متوافرا بكثرة فى مدينته (89) ·

ان هذه الروايات ــ مجموعة ــ تدل على خط واضح فى التصور من جانب ابن الصغير لاساس الدولة الرستمية ، اذ هو يقوم على قطبين رئيسيين متوازيين هما : التعدد فى الاجناس والقبائل المكـونة لها ، والدور الاساسى الذى يقـوم به المـال فى تكـوين شخصيتها · واذا كان القطب الاول يحمل فى ذاته خطر التنافر والتصادم بين الفئات المختلفة ــ عصبية قبلية أو عرقية أو مذهبية ــ وكان القطب الثانى يحمل فى ذاتـه خطر الاستسلام الى الرفاهية والتنافس وسوء الاستعمال ، فان صمام الامان فى الوضع كله هو حسن سيرة الامام فى الرعية على أساس من الدين القويم ، وامساكه بـزمام الامور حتى لا تختل فيقع المحذور الكامن وراء القطبين المشكلين لها · اما ناحية العقيدة ــ الاباضية بطبيعة الحال ــ فانها لا تشكل قطبا أساسيا فاعلا فى هذه الدولة ــ بحسب هـذا التصـور ·

وقد قام ابن الصغير - انطلاقا من هذا التصور لاساس الدولة الرستمية - بحصر رواياته عن الائمة الرستميين بعد عبد الرحمن فى اطارات ثلاثة هى : تعدد الاجناس ودور المال وسيرة الامام ، كما كانت الاحداث كلها تقريبا تفسر فى تاريخه على أساس من وجود التوازن أو الاختلال فى واحد من هذه العوامل ، أو فيها جميعا فى آن معا ٠

فالافتراق المذهبى الاول فى فترة عبد الوهاب بن عبد الرحمن ليس له أساس دينى عقيدى صرف - كما هو لدى أبى زكريا مثلا (90) - وانما هو ناشىء عن قيام الحزازات بين قبيلة مزاتة وغيرها من القبائل من ناحية وبين الرستمية من ناحية أخرى فى قضية من يتحكم باختيار ولاة الامور (91) ٠ والافتراق المذهبى الثانى أيضا ناشىء عن تحرك العصبية فى بعض قبيلة هوارة ضد عبد الوهاب ورهطه (92) ٠ وكلا الافتراقين ادى الى قيام الحروب بين الفئات المتصارعة ٠ كذلك تعزو روايات ابن الصغير الاستقرار الذى نعمت به الدولة الرستمية زمن أفلح بن عبد الوهاب الى توفر عنصر المال توفرا عظيما بين الناس ، من ناحية (93) حتى أن القبائل أصابت منه الشىء العظيم (94) ، والى تمكن أفلح ، من ناحية أخرى ، من السيطرة على ملامح ثورة العصبية والتنافس فى جمع المال والاستقواء به فيما بين القبائل وأهل المدينة عن طريق سياسة (فرق تسد) (95) ٠ غير أن أفلح ، بعدم اقتلاعه الحزازات بين الفئات من جذورها ، ابقى لخلفه تركة من « الضغائن فى الصدور » - على حد تعبير ابن الصغير (96) - وقد انفجرت تلك الضغائن بالفعل زمن ابنه أبى بكر ، وخاصة لانه لم يستطع ان يكون مثل أبيه :القطب الذى يمسك بالخيوط جميعها بقوة فى يده ويحفظ لها توازنها ، لميله الى اللهو من ناحية ولاقدامه على الخطأ المميت بقتل ابن عرفة من ناحية أخرى (97) ٠ ولقد افلت زمام الامور تماما زمان أبى بكر ، ولجأ هو نفسه الى عصبيته من الرستمية والمسيحية (أو السمحية) يتقوى بها على القبائل والفئات المناوئة له ، وثارت العصبية ما بين العرب والعجم ، وتطورت الامور حتى دخلت نفوسة فى حومة الصراع الفئوى ، واشتركت فيه لواتة ضد هوارة ٠ ولعب المال هنا دورا سلبيا وذلك بتذكيته نار الحرب ، اذ أخذ بعض التجار الكبار يعطون العرب والجند الاموال لبناء حصن أمين (98) ، فيما أخذ أبو اليقظان - أخو أبى بكر - يوزع الاموال

التى أتى بها من العراق على الناس لاجل استئلافهم (99) • واستمر هذا الحال مدة سبع سنين ، وانتهى بتغلب الفريق المناوىء لابى بكر ، فسلم هذا الفريق الامامة الى أبى اليقظان (100) • وتمثل فترة حكم أبى اليقظان فى تاريخ ابن الصغير فترة مماثلة لفترة حكم أفلح بن عبد الوهاب فى الاستقرار ، وكان العامل الذى عزى اليه الاستقرار بها شخصية أبى اليقظان وحسن سيرته وتمكنه من حفظ التوازن بين مختلف الفئات فى دولته • غير أنه لدى وفاته ، عاد هذا التوازن الى الاختلال ، وكان الاشعار به قيام بعض الفئات من العمال والفرسان وأهل الحرف بتقديم ابى حاتم بن ابى اليقظان للامامة من دون مشورة القبائل وغيرها (101) • فعادت العصبيات مرة أخرى الى حومة الصراع الدامى ، وصارت الاباضية تشكل فريقا ذا عصبية واضحة الملامح ، وكثرت التحالفات والتعصبات ودخلت الصفرية وصنهاجة معترك الصراع ، وقام المال ـ مرة أخرى ـ بدوره فى اذكاء نار العصبيات (102) ، وانتهى الصراع بانكسار شوكة فريق الاباضية الموالى لابى حاتم ، فعندها أعطيت الامامة الى عمه يعقوب بن أفلح (103) • ولكن الحرب استمرت ولم تنته الا بهدنة ، واعيد أبو حاتم الى الامامة • وهذه المرة كان قد تعلم درسا هاما مفاده أن المجتمع الذى يكون دولته يتالف من فئات عديدة لابد من مراعاتها ، فقام على اثر عودته باستشارة الاباضية وغير الاباضية فى كل من أراد أن يوليه الامور : القضاء والشرطة وبيت المال (104) ، وبذلك عاد التوازن الى البلاد ونعمت بشىء من الاستقرار ، وانصرف الناس بها الى العلم ، وبهذا ينتهى ما وصلنا من تاريخ ابن الصغير •

لقد بنيت الدولة الرستمية ـ فى تاريخ ابن الصغير ـ على أساس من الوعى بعنصر تعدد القبائل والفئات ، وأراد البانون لها ان يتفادوا نتائج هذا التعدد ، فوقعوا فيه رغما عنهم • كذلك كان المال عنصرا من العناصر الاساسية فى نهضتها ورفعة شأنها بين البلاد ، الا أنه كان أيضا عنصرا من عناصر اذكاء نار الصراع فيها ، عندما كان هذا الصراع يشتعل • وكان صمام الامن دائما للامور كلها ، ان يكون على رأس الدولة امام يعمل بمقتضيات الدين القديم ويمسك خيوط الدولة المتفرقة بيد قوية • فلما

كان هذا العنصر يغيب فى الدولة الرستمية ، كانت العصبيات تثور ويختل التوازن ، وتقع تاهرت وضواحيها طعمة لحروب طويلة دامية .

ولا شك ان فهم ابن الصغير لتاريخ الرستمية قد أعان عليه أنه عرف أخبارها ممن عاشوا فى ظلها منذ نشأتها ، وظل حيا حتى شهد نهايتها ، فكان مؤهلا لكى تكون لديه القدرة على صياغة تصور عام لها . ولكنه ، لولا كفايته الشخصية مؤرخا حقا ، صاحب نظرة واضحة الى الامور ، لما استطاع ان يعطينا تاريخا قيما تفسر فيه الاحداث على أساس قواعد ثابتة لا تتغير من أول الدولة حتى نهايتها تقريبا . وهذا كله لا يعنى بطبيعة الحال ان ابن الصغير كان متكامل النظرة سليمها مائة بالمائة ، فان كل صاحب موقف فكرى لابد أن يغلب بعض جوانب الامور على جوانبها الاخرى ، وتلك هى الضريبة التى يدفعها أى ملتزم فى أى حقل كان . فابن الصغير بتغليبه المقياس الواقعى المادى ـ اذا صح التعبير ـ قد جار على المقياس الدينى الروحى فى نظرته الى الدولة الرستمية ، وهذا لا شك له علاقة بعدم انتمائه الى الاباضية فى نهاية المطاف ، ولذلك كان على كتاب الاباضية من بعد أن يبرزوا هذا الجانب من الدولة الرستمية الذى مر عنه ابن الصغير مرورا خاطفا .

غير أن هذا كله لا يقلل من قيمة كتاب ابن الصغير . وقد اعترف كتاب الاباضية أنفسهم له بالاهمية ، ونقل عنه نقولا كثيرة كل من أبى زكريا والبرادى وصاحب الجواهر المنتقاة والشماخى (150) ، ومجده الشيخ سليمان الباروني فى العصر الحديث (106) . وان لم يكن لابن الصغير سوى فضل الاخبار الامين ، مع التقدم فى الزمن والمعاصرة للاحداث والنقل الصادق عن مشايخ الاباضية أنفسهم ، لكفاه هذا قيمة مؤرخا نزيها ومؤرخا حقا ، ولغفر له ما فى كتابه من عدم الاهتمام بذكر التواريخ بعامة ، وعدم الدقة فى تعداد سنوات حكم كل من الرسميين ، وعدم تعرضه لاخبار الرستمية خارج تاهرت .

الملاحظات

(1) A. de C. Motylinski, « Bibliographie du Mzab. Les livres de la secte Abadhite », *Bulletin de Correspondance Africaine*, iii (1885) pp. 30 35.

(2) A. de C. Motylinski, « Chronique d'Ibn Saghir sur les imams rostemides de Tahert », *Acte du XIV Congrès des Orientalistes* (Alger, 1905). Troisième partie (suite) : « Langages musulmanes (arabe, persan et turc) » (Paris, 1908). pp. 3 - 132.

(3) « Chronique d'Ibn Saghir sur les imams rostemides de Tahert », *Cahiers de Tunisie*, 91 - 92 (Septembre, 1975), pp. 315 - 368.

وهذه النشرة من تاريخ ابن الصغير هى النشرة المعتمدة فى هذا البحث ·

4) أنظر بالاضافة الى المصدر المذكور فى الملاحظة الاولى أعلاه :

Lewicki, T. : « Les historiens, biographes et traditionalistes ibadites - wahbites de l'Afrique du Nord du VIII[e] au XVI[e] siècle, » *Folia Orientalia*, iii (1961 - 1962), pp. 105 - 6. Lewicki, tadeusz, « The Ibadites in Arabia and Africa » , *Journal of World History* (UNESCO) XIII/1(1971), pp. 51 - 130.

(5) Lewicki, T. « Ibn al-Saghir » , *Encyclopaedia of Islam* (new édition) III p. 924.

6) أنظر مثلا جهله التآم بالتاريخ المشرقى فى تاريخه 227 ·

7) يدل على هذا أنه يجهل موقع واحدة من أهم المدن غير البعيدة عن تاهرت ، وهى مدينة تلمسان (تاريخه 328) ·

8) ابن الصغير 352 ·

9) المصدر نفسه 350 ·

10) أنظر المصدر نفسه 356 ، وأنظر أيضا الازهار الاباضية فى أئمة وملوك الاباضية للشيخ سليمان بن عبد الله البارونى (مطبعة الازهار البارونية ، لا. ت) ، القسم الثانى 265 الموسوعة الاسلامية 2 ، 924 ·

11) ابن الصغير 362 ، وفى النص : العراق ، وهو سهو ·

12) الازهار الرياضية 2 ، 41 و 76 و 84 و 290 ، وتبعه فى هذا عبد العزيز سالم فى كتابه المغرب الكبير (القاهرة) 2 ، 548 ، الحاشية رقم 1 ·

13) ابن الصغير 322 ·

54

14) المصدر نفسه 352 ، قال معلقا على محمود بن بكر : « وكان غالبا تذكـر عنه البراءة من أمير المؤمنين على بن أبى طالب » .

15) أنظر الموسوعة الاسلامية 2 ، 924 ومقالة ليفيتشكى الاخرى: «Les historiens» P. 105

16) أنظر الحديث فى الترمذى (مناقب 19) وابن ماجه (مقدمة 11) وابن حنبـل 1 ، 84 و 118 و 119 و 152 و 331 و 4 ، 281 و 368 و 370 و 372 و 5 ، 347 و 266 و 419 .

17) ابن الصغير 354 .

18) المصدر نفسه 353 .

19) المصدر نفسه 353 – 354 .

20) المصدر نفسه 327 .

21) أنظر الصفحات : 363 – 365 .

22) أنظر الصفحات : 336 و 345 – 347 و 357 – 358 .

23) أنظر نمـوذجا مـن مناظرات الاباضية والمعتزلة فى الصفحات : 325 – 353 وانظر أيضا : الازهار الرياضية 2 ، 118 – 128 .

24) ابن الصغير 364 .

25) الازهار الرياضية 2 ، 84 و 291 .

26) المصدر نفسه 2 ، 349 .

27) المصدر نفسه 2 ، 84 .

28) ابن الصغير 361 .

29) Motylinski, « Bibliographie », P. 31

30) Lewicki, « Les historiens », P. 106 ; « The Ibâdites », PP. 53, 118 ; Encyclopaedia of Islam III, P. 924.

31) أنظر قوله ، ص 336 فى وصفه ازدهار تاهرت زمن أفلح « وكانت العجم ... ونفوسة ... والجنـد القادمون من افريقية قـد بنــت المدينة العامرة اليوم وأمنت الساحات ... » .

32) ابن الصغير 321 .

33) ابن الصغير 321 ·

34) ابن الصغير : 427 و 256 و 261 ·

35) المصدر نفسه : 257 و 362 ·

36) أنظر مثلا قوله ، ص 323 · ونزلوا المصلى الذى به اليوم قبر مسالة ، وص 333 وابتنى عبد الواحد قصره الذى يعرف به اليوم ·

37) ابن الصغير 352 ، وانظر ايضا قوله ، ص 363 · قال لى يوما « نحن فى أعلى مسجد بالرهادنة رجل من وجوه الاباضية ··· » ·

38) ابن الصغير 350 ·

39) المصدر نفسه 352 و 356 ، وفى الموضعين : بشير ، ولدى البارونى ، نقلا عن ابن الصغير (بشر) فى موضع «الازهار 2 ، 243» و (بشير) فى موضع آخر «الازهار 2 ، 250».

40) ابن الصغير 337 ·

41) المصدر نفسه 331 ·

42) المصدر نفسه 331 ·

43) المصدر نفسه 327 ·

44) المصدر نفسه 328 ·

45) أنظر فى المصدر نفسه الصفحات : 321 و 322 و 327 و 328 و 331 (مرتين) 340 و 349 ·

46) المصدر نفسه 331 ·

47) المصدر نفسه 328 و 340 ·

48) المصدر نفسه 322 ·

49) المصدر نفسه 322 ·

50) أنظر رواياته فى عبد الرحمن بن رستم ، ص : 322 ـ 324 و 325 ـ 326 · وفى عبد الوهاب بن عبد الرحمن ، ص : 327 و 328 · وفى أفلح بن عبد الوهاب ، ص : 333 · وأبى بكر ابن أفلح ، ص : 340 · وفى أبى اليقظان ، ص : 341 ـ 342 و 352 ـ 357 · وفى يعقوب بن أفلح ، ص : 361 ·

56

51) سوف يجيء الحديث عن هؤلاء العلماء في فقرة تالية ·

52) أنظر مثلا في زمن عبد الرحمن ، ص : 324 ــ 325 و 326 ــ 327 · وفي زمن أفلح ص : 336 · وفي زمن أبي بكر ابن أفلح ، ص : 341 ·

53) ابن الصغير 338 ·

54) المصدر نفسه 333 ·

55) المصدر نفسه 337 ·

56) المصدر نفسه 342 ؟ وقارن هذا بالازهار الرياضية 2 ، 226 ــ 227 ·

57) ابن الصغير 343 ·

58) المصدر نفسه 341 و 342 و 343 ، وقارن ذلك بالازهار الرياضية 2 ، 223 ·

59) المصدر نفسه 327 ــ 328 ·

60) المصدر نفسه 216 ·

61) المصدر نفسه 322 ــ 326 ·

62) المصدر نفسه 333 ــ 334 ·

63) المصدر نفسه 337 ــ 340 ·

64) المصدر نفسه 340 ــ 347 ·

65) المصدر نفسه 340 ·

66) المصدر نفسه 341 ·

67) المصدر نفسه 341 ــ 342 ·

68) المصدر نفسه 341 ·

69) المصدر نفسه 341 ·

70) المصدر نفسه 343 ــ 344 ·

71) المصدر نفسه 347 ·

72) المصدر نفسه 347 ·

73) المصدر نفسه 350 ــ 351 ·

74) ص 352 ، وانظر أيضا ص 355 .

75) ص 352 ، وانظر ايضا ص 354 .

76) ص 352 ، وانظر ايضا ص 354 – 355 .

77) ص 352 – 353 .

78) ص 353 .

79) ص 355 .

80) ص 365 .

81) ص 365 – 368 .

82) ص 352 – 353 .

83) ص 363 – 365 .

84) ص 363 .

85) Motylinski, « Biographie », P. 31

86) ص 321 .

87) *Chronique d'Abou Zakaria,* traduite et commentée par Emile Masqueray (Alger 1878), P. 20 FF.

88) ص 322 – 326 .

89) ص 322 و 324 و 326 و 327 .

90) *Chronique d'Abou Zakaria,* P. 61 FF.

91) ص 328 – 330 .

92) ص 331 – 332 .

93) ص 336 – 337 .

94) ص 336 .

95) ص 336 .

96) ص 337 .

97) ص 340 – 349 .

98) ص 347 .

99) ص 348 .

100) ص 348 – 349 .

101) ص 356 – 357 .

102) ص 359 .

103) ص 361 – 362 .

104) ص 362 – 363 .

105) Motylinski, «Bibliographie», PP. 30-31 ; Lewicki, «Les historiens», P. 105 and «Ibn al-Saghir», Encyclopaedia of Islam III, 924.
وانظر أيضا : الازهار الرياضية 2 ، 70

106) الازهار الرياضية 2 ، 41 و 84 – 85 .

عبد المؤمن بن على مؤسس دولة الموحدين

د٠ عبد الحميد حاجيات
معهد العلوم الاجتماعيــة
جامعة الجزائر



لقد اهتم الباحثون كثيرا ، فى السنوات الاخيرة ، بتاريخ الدولة الموحدية ٠ ولا غرابة فى ذلك ، اذ أن هذه الدولة تعد بحق أعظم دولة عرفها المغرب الاسلامى فى العصر الوسيط ، للدور الهام الذى لعبته فى تاريخـــه ، بتوحيد أقطارها تحت سلطة سياسية مغربية واحدة ، وبكفاحها البطولى ضد الغزاة الاجانب ٠

والغرض من حديثنا هذا ، هو اقتراح منهجية للبحث تهدف الى عرض موضوعى ونزيه لتاريخ هذه الـــدولة ، ثم التعرض باختصار الى المرحلة الاولى منه ، وهى مرحلة تاسيس الدولة على يد عبد المؤمن بن على الكومى ٠

★ ★ ★

ملاحظات حول منهجية البحث فى تاريخ الموحدين

لقد حظيت دولة الموحدين بنصيب وافر من المصادر التاريخية ، ومن بينها كثير من المصادر المعاصرة ، التى يرجع تاريخ تاليفها الى عهد الموحدين ؛ وتعتبر هذه المصادر المادة الخام التى نقل عنها المؤرخون فيما بعد ٠

وأقدم تاليف وصل الينا ، من بين هذه المصادر المعاصرة ، كتاب البيذق ، الذى يتحدث عن أخبار المهدى ابن تومرت وابتداء دولة الموحدين ٠ ومؤلفه ، أبو بكر بن على الصنهاجى ، المتوفى حوالى منتصف القرن السادس الهجرى ، كان أحد رفاق ابن تومرت أثناء عودته الى موطنه بعد رحلته الى المشرق ؛ وقد ضمن كتابه معلومات قيمة عن امامة ابن تومرت وخلافة عبد المؤمن ٠

والجدير بالملاحظة أن هذا الكتاب ، مثل غيره من الكتب المعاصرة ، قد تعرض لتأثير البيئة الاجتماعية والسياسية ، مما جعله يشتمل على أخبار عديدة لا تمت بأية صلة الى الواقع التاريخى ، وانما هى مجرد خيالات وأوهام ، شاع ذكرها عند القصاص ٠ ويتجلى هذا التاثير بصفة خاصة ، فيما ورد فى هذا الكتاب من حكايات وأساطير ، كما يتجلى أيضا فى اقتناع المؤلف بصحة دعوة ابن تومرت وسائر ما جاء به من معتقدات وتعاليم ، مثل ما يتعلق بالمهدوية والعصمة ، وكذلك فيما أورده من كرامات نسبها الى ابن تومرت، وتشهد بصحة دعوته ، وجلها من باب العلم بالغيب والتنبؤات ٠

وليتضح لنا هذا الجانب الاسطورى من كتاب البيذق ، الذى أخذ عنه كثير من المؤرخين ، يكفينا أن نقرأ ما ورد فيه حول لقاء عبد المؤمن بابن تومرت ، مثلا ، وهو قوله :

« فبينما هو (ابن تومرت) ذات يوم قاعد ، اذ سمعناه يقول : « الحمد لله الذى أنجز وعده ونصر عبده وأنفذ أمره » ، وأقبل نحو المسجد وركع ركعتين ثم قال : « الحمد لله على كل حال ، قد بلغ وقت النصر ، وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم ، يصلكم غدا طالب ، طوبى لمن عرفه وويل لمن أنكره » ٠ فلما سمع الناس : « غدا يصلكم طالب ، حاروا فى أمره ، وذلك أن الحق تبارك وتعالى قد أزعج أمير

المؤمنين الخليفة عبد المؤمن بن على رضه من بلده نحو المشرق، فجد حتى وصل بجاية هو وعمه يعلو ... ونزلا بها فى مسجد الريحانة . فلما صليا الصبح سمعا الناس يقولون : سر بنا نحو الفقيه . فقال لهم الخليفة أمير المؤمنين رضه : ومن الفقيه ؟ قالوا له : السوسى، هو عالم المشرق والمغرب ، وما مثله انسان ، فقال لعمه : يا عم سر بنا نحوه ... فقال له : سر اليه وأسرع لانا على سفر .

اعلم يا أخى أنه لما جد السير نحو الامام اجتمع مع الطلبة فى طريقه ، فاصطحب حتى بلغ باب المسجد ، فرفع المعصوم رضه رأسه ، فواقفه ، أمامه ، فقال له : ادخل يا شاب ، فدخل ، فأراد أن يقعد فى جملة الناس ، فقال له الامام المعصوم رضه : ادن يا شاب . فلم يزل يدنو من الامام والمعصوم يقربه حتى دنا منه . فقال له المعصوم : ما اسمك يا فتى ؟ فقال عبد المؤمن . فقال له المعصوم : وأبوك على ؟ فقال : نعم . فتعجب الناس من ذلك . فقال له : يا شاب من أين اقبالك ؟ قال له : من نظر تلمسان من ساحل كومية . فقال له المعصوم : من تاجرا أم لا ؟ فقال له : نعم . فزاد الناس تعجبا . فقال له المعصوم رضه : أين تريد يا فتى ؟ فقال : يا سيدى نحو المشرق ألتمس فيه العلم . فقال له المعصوم رضه : العلم الذى تريد اقتباسه بالمشرق قد وجدته بالمغرب .

فلما انصرف الناس من القراءة أراد الخليفة أن ينصرف . فقال له المعصوم رضه : تبيت عندنا يا شاب ؟ فقال له نعم يافقيه . فبات عندنا . فلما جن الليل أخذ الامام المعصوم بيد الخليفة رضهما وسارا . فلما كان نصف الليل نادانى المعصوم : يا أبا بكر ادفع لى الكتاب الذى فى الوعاء الاحمر . فدفعته له . وقال لى : أسرج لنا سراجا . فكان يقرأه على الخليفة من بعده ، وأنا يومئذ ماسك السراج أسمعه يقول : لا يقوم الامر الذى فيه حياة الدين الا بعبد المؤمن بن على سراج الموحدين . فبكى الخليفة عند سماع هذا القول ، وقال : يا فقيه ، ما كنت فى شىء من هذا ، انما أنا رجل أريد ما يطهرنى من ذنوبى . فقال له المعصوم : انما تطهيرك من ذنوبك صلاح الدنيا على يديك . ثم دفع له الكتاب وقال : طوبى لاقوام كنت أنت مقدمهم ، وويل لقوم خالفوك أولهم وآخرهم ... ثم قال لى المعصوم رضه : يا أبا بكر ، ناد الصبيان للورد يقومون يأخذون حزبهم . فلما أقبلوا ناداهم ، فقال لهم : انما الله اله واحد ، والرسول حق ،

والمهدى حق ، والخليفة حق . فاقرأوا حديث أبى داود تعرفوا الامر ، وعليكم بالسمع والطاعة لربكم والسلام » . (1)

هذا نموذج من التحيز الناتج عن المعاصرة ، وما يمليه ، فى كثير من الاحيان ، الحرص على اقناع القارىء بصحة الدعوة التى قامت عليها الدولة ، وشرعية الحكم الذى يمارسه الامام أو الخليفة . والغرض من ذلك ازالة أى شك أو تردد فى النفوس حول ذلـــك .

وتشكل المنامات أيضا عنصرا هاما لبلوغ هذا الغرض ، ووسيلة للاقناع بصحة الدعوة وشرعية الحكم ، فهى تحتل مكانة مرموقة فى عرض الاخبار ، ولا سيما فى كتاب البيذق ، حيث نجدها تشكل جل أخبار عبد المؤمن قبل لقائه بابن تومـرت . وها نحن نعود الى نص هذا الكتاب لنتبين جيدا أثر هذا العنصر فى توجيه العرض التاريـــخى .

يقـــول البيذق فى تاريخـــه : « وذلك أنه لما خرج الخليفـــة أمير المؤمنـين مع عمه رضهما ، جدا حتى وصلا متيجة ... أقاما بها أياما حتى أن الله تعالى أرى منامة للخليفة رضه ، وذلك أنه رأى صحفة من طعام على ركبتيه يأكل الناس منها كافة . فلما أصبح قال لعمه : يا عم رأيت كذا وكذا . فقال له عمه : اكتم هذه الرؤيا . وارتحلا حتى وصلا بنى زلدونى ، فرأى المنامة بعينها ، الا أن الصحفة على أرسه والناس أجمع يأكلون منها . فأعلم أيضا عمه بها ... ولما وصل الخليفة رضه بجاية وجن عليه الليل قرأ حزبه وصلى ورده فى تلك الليلة ، ثم نام فرأى الرؤيا بعينها الا أن الناس يبايعونه . فلما افاق أعلم عمه بها .

فقال له : اكتم هذا الامر ، فانه رأت أمك وهى بك حامل كأن النار تخرج منهـا فتحرق المشرق والمغرب والقبلة والجوف ، فقال لها المعبر بتلمسان : لابد لهذه المرأة من مولود يكون أمره يأخذ لمشرق والمغرب والقبلة والجوف ، ولكن اكتم هذا الامر ولا تعرف به انسانا . وكذلك قال لى أبوك علي ؛ ولقد رأيت فى أمرك موعظة : كنا نحصد الزرع وامك بك حامل فجاءت للفدان واضطجعت نائمة فاقبل بندان من نحل فنزلا على

(1) أنظر : أخبار المهدى ابن تومرت للبيذق ، تحقيق عبد الحميد حاجيات، ص 37 ـ 42

أمك ، فلما خلقت أنت أتت أمك الفدان فلقطت السنبل وتركتك نائما ، فنزل أيضا عليك النحل أكثر مما كان نزل على أمك وأنت فى جوفها • ثم قام النحل عنك وافترق فرقتين ، واحدة للمشرق وأخرى للمغرب ، فقال على : الله أكبر ، هذا هو الذى قال الفقيه بتلمسان • فلما رجعنا من الفدان قال لامك : احفظيه فانه لابد له من الامر الذى ذكر الفقيه المفسر ، فكانوا ينتظرون منه ، حتى بلغ مبلغ الرجال ••• » • (2)

وقد ورد فى « وفيات الاعيان » ، لابن خلكان ، ذكر حكاية قد تكون صدى لما جاء فى كتاب البيذق ؛ يقول ابن خلكان :

« كان والد عبد المؤمن وسيطا فى قومه ، وكان صانعا فى عمل الطين ، يعمل منها الآنية فيبيعها ، وكان عاقلا من الرجال وقورا • ويحكى أن عبد المؤمن فى صباه كان نائما تجاه أبيه ، وأبوه مشتغل بعمله فى الطين ، فسمع أبوه دويا فى السماء ، فرفع رأسه ، فرأى سحابة سوداء من النحل قد هوت مطبقة على الدار ، فنزلت كلها مجتمعة على عبد المؤمن وهو نائم ، فغطته ولم يظهر من تحتها ولا استيقظ لها ، فرأته أمـــه على تلك الحال ، فصاحت خوفا على ولدها ، فأسكتها أبوه ، فقالت : أخاف عليه ، فقال : لا بأس عليه ، بل انى متعجب مما يدل عليه ذلك • ثم انه غسل يديه من الطين ولبس ثيابه ، ووقف ينتظر ما يكون من أمر النحل ، فطار عنه بأجمعه ، فاستيقظ الصبى وما به من ألم • فتفقدت أمه جسده ، فلم تر به أثرا ولا يشك ألما • وكان بالقرب منهم رجل معروف بالزجر ، فمضى أبوه اليه ، فاخبره بما رآه من النحل مع ولده ، فقال الزاجر : يوشك أن يكون له شان يجتمع على طاعته أهل المغرب • فكان من أمـــره ما اشتهـــر » •

كما ورد فى كتاب « المعجب » لعبد الواحد المراكشى حكاية منامة ، لها شبه باحدى المنامات المذكورة فى كتاب البيذق • يقول المراكشى :

« وبهذه القرية (ملالة) له حكاية طريفة ، وذلك أنه رأى ، وهو بها فى المنام ،

(2) أنظر : أخبار المهدى ابن تومرت للبيذق ، ص 38 ـ 40 .

كأنه يأكل مع امير المسلمين على بن يوسف فى صحفة واحدة • قال : ثم زاد أكلى على أكله، وأحسست من نفسى شرها الى الطعام • ولم يزل ذلك بى الى أن اختطفت الصحفة من يديه وانفردت بها • فلما انتبه قص الرؤيا على رجل كان يقرأ عليه اسمه عبد المنعم بن عشير ، يكنى أبا محمد ••• فلما أتى على آخرها ، قال : يا بنى ، يا عبد المؤمن ، هذه الرؤيا لا ينبغى أن تكون لك ، انما هى لرجل ثائر ، يثور على أمير المسلمين ، فيشاركه فى بعض بلاده ، ثم يغلبه بعد ذلك عليها كلها وينفرد بمملكتها » •

وقد تحدث الدكتور عبد الله على علام عن هذا الطابع الاسطورى بالنسبة للقاء الذى تم بين عبد المؤمن وبن تومرت ، فقال : « ويبالغ المؤرخون الاقدمون ، ولا سيما الموحدون منهم ، مبالغة شديدة ، فى وصف لقاء المهدى ابن تومرت لتلميذه السعيد عبد المؤمن بن على الكومى ، وفى تصوير ما ثبت لهذا الشاب من علامات وصفات ممتازة ، أخبر بها المهدى ابن تومرت قبل وقوعها ، وعرف بعبد المؤمن قبل أن يلتقى بـــه ، بعلامات كان قد عرفها بطريق التنجيم والجفور » • (3)

ولا ينبغى أن يفهم من هذا أن كتب التاريخ المعاصرة للموحدين لا تحتوى الا على هذا النوع من الاساطير والمنامات وغير ذلك • بل نجد فيها أيضا أخبارا تاريخية وحضارية هامة ، يمكن بفضلها تتبع التطور السياسى والحضارى ، والتعرف على أهم جوانبه • ويتعين على الباحث عندئذ تصفية المادة التى يتمكن من جمعها من المصادر المعاصرة ، فيترك جانبا ما هو من قبيل الاسطورة ، ولا يقر الا ما يراه صحيحا أو محتمل الصحـــة •

وقد قام فعلا المؤرخون (أى الذين عاشوا بعد سقوط دولة الموحدين) بعملية التصفية هذه ، فاغفلوا كثيرا من الاخبار الاسطورية • ولم ينفرد عبد الرحمن بن خلدون بهذه العملية ، التى عمت معظم المؤرخين المتاخرين • الا أن هذه التصفية لم تكن شاملة، حيث ان كثيرا من هؤلاء أبقوا بعض العجائب فى تآليفهم • وعلى كل ، فهناك تفاوت بين المؤرخين فى التصفية والتحرى •



(3) أنظر : عبد الله على علام ، الدعوة الموحدية فى المغرب ، ص 89 .

وبعد ، فانطلاقا من هذه الاعتبارات حول منهجية البحث فى تاريخ الدولة الموحدية نستعرض باختصار أخبار عبد المومن بن علي ودوره الهام فى تأسيس هذه الدولة .

أما عن حياة عبد المومن قبل لقائه بابن تومرت ، فلا نعرف الا القليل وقد قيل انه ولد بقرية تدعى تاجرا ، تقع قرب ساحل تلمسان ، فى آخر سنة 487 هـ ، فنشأ بها . ثم توجه الى تلمسان لطلب العلم ، فدرس فيها على ابن صاحب الصلاة وعبد السلام التونسى ، وغيرهما من العلماء والصلحاء .

ثم رحل نحو الشرق الى أن وصل بجاية ؛ فسمع طلبة العلم يتحدثون عن فقيه سوسى كان مقيما بقرية ملالة ، الواقعة على مسافة 7 كلم منها ، فسار اليها ولقيه والتحق برفاقه ، الذين كانوا يأخذون عنه العلم ويصحبونه فى تنقلاته ، ويشاركونه فى الامر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وقد سبق أن أشرنا الى الرواية الاسطورية التى حكاها البيذق عن لقاء ابن تومرت بعبد المومن . أما عبد الواحد المراكشى فانه اقتصر ، فى كتابه « المعجب » ، على ذكر ما يلى : « فاستدعى (ابن تومرت) عبد المؤمن وخلا به ، وسأله عن اسمه واسم أبيه ونسبه ، فتسمى له وانتسب ، وسأله عن مقصده ، فأخبره أنه راحل فى طلب العلم الى الشرق . فقال له ابن تومرت : أو خير من ذلك ؟ قال وما هو ؟ قال : شرف الدنيا والآخرة ، تصحبنى وتعيننى على ما أنا بصدده ، من اماتة المنكر واحياء العلم واخماد البدع . فأجابه عبد المؤمن الى ما أراده » . (4)

وهذا التصريح يبعثنا الى طرح السؤال التالى : هل اقتصر التحاق عبد المومن بابن تومرت على طلب العلم وتغيير المنكر ، أم هل كان يتضمن أيضا الاتفاق على القيام بدعوة سياسية ودينية تهدف الى القضاء على دولة المرابطين ؟

ليس فى المصادر التاريخية ما يساعدنا على الاجابة ، بصفة يقينية ، على هذا التساؤل . الا أن التصرفات التى قام بها ابن تومرت ورفاقه ، وخصوصا ميلهم الى

---

(4) عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص 181 .

تغيير المنكر باليد ، أى بالقوة ، تدل على نزعة ثورية ، لا يستبعد أن تكون ناتجة عن رغبة فى قلب الاوضاع السياسية ، والقيام ضد الامراء المرابطين ٠

وقد وصف عبد الواحد المراكشى عبد المومن ، فقال : « وكان أبيض ذا جسم عمم تعلوه حمرة ، شديد سواد الشعر ، معتدل القامة ، وضيء الوجه ، جهورى الصوت ، فصيح الالفاظ ، جزل المنطق ، وكان محببا الى النفوس ، لا يراه أحد الا أحبه بديهة » ٠ (5)

ولعل ابن تومرت ، عندما طلب من عبد المومن أن يلتحق به ، راعى هذه الصفات الضرورية للمهمة الاصلاحية والسياسية التى كان يهم القيام بها ، عندما تكون الظروف مواتية ٠

دعوة ابن تومرت

أما دعوة ابن تومرت فقد نالت حظا وافرا من الدراسات ، من بينها كتاب « الدعوة الموحدية بالمغرب » لعبد الله على علام ، الذى شرح فيه طويلا أسسها الاجتماعية، المنحصرة فى مبدا الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأسسها الاعتقادية ، وخصوصا نظرية التوحيد ، التى أخذها ابن تومرت عن المعتزلة ، وأسسها السياسية ، التى تدور حول الامامة المهدوية والعصمة ٠

وكانت تنقلات ابن تومرت وعبد المومن ورفاقهما ، عبر مدن المغربين الاوسط والاقصى ، تتسم بطابع الاصلاح الاجتماعى والدينى ، الى أن بلغوا مراكش ، عاصمة المرابطين ، فلم يجدوا أذانا صاغية عند أميرها على بن يوسف بن تاشفين ، ومن كان يحيط به من أمراء وفقهاء ٠ وأخيرا غادروها وتوجهوا نحو جبال السوس الاقصى حيث كانت تقطن قبائل المصامدة ، قوم ابن تومرت ٠

وعندئذ بدأ ابن تومرت يبث دعوته بين رجال قبيلته وبعض القبائل المجاورة لها ٠ ومما لا شك فيه أنه كان يمتاز بفصاحة نادرة ، ومهارة فائقة فى اقناع مواطنيه ، ومقدرة عجيبة على ايجاد الوسائل الكفيلة بتحقيق أهدافه ، ولو تطلب بعضها ، أحيانا ، استعمال أساليب قاسية ٠

---

(5) عبدا الواحد المراكشى ، المعجب ، ص 197 .

وكان المصامدة ، مثل معظم سكان الجبال ، أهل بساطة وسذاجة ، وكان « من طباعهم خفة سفك الدماء » . (6) فعمد ابن تومرت الى عدة وسائل لتمكين دعوته فى نفوسهم ، وجعلهم آلة مسخرة لتنفيذ تعليماته ، والخضوع لطاعته ، والتفانى فى نصرته وحرب أعدائه .

وكان فى مرحلة أولى ، يحث الناس على الاقتناع بالمعتقدات الصحيحة ، والامتثال للاوامر التى دعا اليها الاسلام ، واجتناب نواهيه ؛ وتولى ، بمساعدة رفاقه المقربين ، تربية مواطنيه وتغيير المنكرات ، فألف لهم بلغتهم البربرية عقيدة فى التوحيد ، واهتم بتلقينهم أركان الاسلام ، واصلاح دينهم ، وتحسين أخلاقهم ، كما منعهم من سفك الدماء .

ثم ، عندما انتقل الى تينملل ، فرض على مواطنيه تأييد دعوته ، على أساس نصرة الاعتقاد الصحيح ، الذى هو التوحيد ، ومحاربة أعدائه ، الذين سماهم المجسمين ، وعلى أساس العمل لنيل سعادة الآخرة ، والنجاة من عذاب جهنم . ثم ادعى أنه المهدى المنتظر ، الذى ينشر العدل فى الارض بعد أن ملئت جورا ، وأنه من نسل على بن أبى طالب ، وان اسمه محمد بن عبد الله ، وادعى أيضا العصمة وهى من مقتضيات المهدوية .

ويبدو أن ابن تومرت كان يدرك جيدا أن ادعاءاته يصعب تصديقها فى ظروف عادية . فبدأ بارسال دعاة من أصحابه الى رؤساء القبائل ، قصد اقناعهم واستمالتهم الى جانبه . ثم عنى بجمع الاحاديث المروية فى شأن المهدى المنتظر ، ومنها ما ينص بظهوره فى المغرب ، واستدل بها على صحة زعمه ، مدعيا انه مؤيد من عند الله ، وأن الله سينصره على أعدائه .

وبعد أن تمت البيعة سنة 515 هـ ، بتينملل ، صرف ابن تومرت عنايته لتنظيم حركته سياسيا وعسكريا ، فرتب أتباعه حسب الدور الذى لعبوه فيها ، وحسب منزلتهم الاجتماعية ، وصنفهم الى طبقات مختلفة ، أعلاها أهل العشرة ، ويليهم أهل خمسين ، ثم أهل سبعين . وأسند الى كل من هذه الجماعات ما يناسبها من الاختصاصات، أشار اليها ابن القطان بقوله : « وكانوا (أى الموحدون) ، اذا قطعوا الامور العظام ،

---

(6) عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص 191 ــ 192 .

يخلون بالعشرة ، لا يحضر معهم غيرهم ؛ فاذا جاء أمر أهون ، أحضروا الخمسين ؛ فاذا جاء دون ذلك أحضروا السبعين رجلا ؛ وفيما دون ذلك لا يتأخر أحد ممن دخل فى أمره رضى الله تعالى عنه » • ثم يضيف ابن القطان الى هذه الطبقات الثلاث طبقات أخرى تليها ، وهى : الطلبة ، الحفاظ (وهم صغار الطلبة) ، أهل الدار ، قبيلة هرغة ، أهل تينملل (وهم أهل قبائل متعددة) ، قبيلة جدميوة ، قبيلة كنفيسة ، قبيلة هنتاتة ، أهل القبائل الموحدية المختلفة ، الجند ، الغرات (وهم العبيد) • (7)

أما النشاط العسكرى ، فانه اتخذ اتجاهين رئيسيين :

ـ أولهما اخضاع قبائل السوس الاقصى والنواحى المجاورة ، التى لم تعلن بيعتها لابن تومرت •

ـ وثانيهما التصدى للقاء جيوش المرابطين ، وشن الغارات على الحصون التى كانت تستقر بها حامياتهم •

ويبدو أن ابن تومرت لم يكن واثقا بالكثير من أتباعه ، وأنه لم يقدم على عملياته العسكرية ضد المرابطين قبل أن يجرى تصفية واسعة النطاق فى صفوف قومه ، أطلق عليها اسم التمييز •

وقد ذكر ابن الاثير أن التمييز وقع سنة 519 هـ ، وأنه سمع من بعض المغاربة من يقول ، فى شأن التمييز « ان ابن تومرت ، لما رأى كثرة أهل الشر والفساد فى أهل الجبل ، أحضر شيوخ القبائل وقال لهم : انكم لا يصح لكم دين ولا يقوى الا بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، واخراج المفسد من بينكم ، فابحثوا عن كل من عندكم من أهل الشر والفساد ، فأنهوهم عن ذلك ، فان انتهوا والا فاكتبوا أسماءهم وارفعوها الى لانظر فى أمرهم ، ففعلوا ذلك ، وكتبوا له أسماءهم من كل قبيلة • ثم أمرهم بذلك مرة ثانية وثالثة ، ثم جمع المكتوبات ، فأخذ منها ما تكرر من الاسماء فاثبتها عنده ، ثم جمع الناس قاطبة ، ورفع الاسماء التى كتبها ، ودفعها الى الونشريسى المعروف بالبشير ، وأمره أن يعرض القبائل ، ويجعل أولئك المفسدين فى جهة الشمال، ومن عداهم فى جهة اليمين ، ففعل ذلك ، وأمر أن يكتف من على شمال الونشريسى فكتفوا ، وقال : ان هؤلاء أشقياء ، قد وجب قتلهم • وأمر كل قبيلة أن يقتلوا

---

(7) أنظر : ابن القطان ، نظم الجمان ، ورقة 23 .

أشقياءهم ، فقتلوا عن آخرهم ، فكان يوم التمييز » . ثم أضاف ابن الاثير أن عدد القتلى كان سبعين ألفا ، وقال : « فلما فرغ من ذلك أمن على نفسه وأصحابه واستقام أمره » . (8)

وعندئذ رأى ابن تومرت أن يجهز جيشا لمحاربة المرابطين في ناحية أغمات ، ثم في غيرها من النواحي المجاورة . وكان يعتمد بالدرجة الاولى على حماس جماعته وتفانيهم ، ولا يخشى من لقائهم عدوا أقوى بوفرة سلاحه وخيله ورجاله . لكن المعارك والمناوشات كانت كثيرا ما تنتهي بانهزام الموحدين ؛ فكان ابن تومرت يصبر أنصاره ويهدئ روعهم بالوعود ؛ وربما كان يلجأ ، أحيانا ، الى الحيلة ، كما ورد ذكره في كتاب « روض القرطاس » .

يقول ابن أبي زرع الفاسي : « كانت بين الموحدين والمرابطين حرب ، فقتل من الموحدين خلق كثير ، فعظم ذلك على عشائرهم . فاحتال المهدي بأن انتخب قوما من أتباعه ، ودفنهم أحياء بموضع المعركة ، وجعل لكل واحد منهم متنفسا في قبره ، وقال لهم : اذا سئلتم عن حالكم فقولوا : قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا ، وأن ما دعا اليه الامام المهدي هو الحق ، فجدوا في جهاد عدوكم ، وقال لهم : اذا فعلتم ذلك أخرجتكم ، وكانت لكم عندي المنزلة العالية . وقصد بذلك أن يثبتهم على التمسك بدعوته ، ويهون عليهم مما لاقوا من القتل والجراحات بسببه ، ثم جمع أصحابه عند السحر وقال لهم : أنتم ، يا معشر الموحدين ، حزب الله وأنصار دينه وأعوان الحق ، فجدوا في قتال عدوكم ، فانكم على بصيرة من أمركم ، وان كنتم ترتابون فيما أقوله لكم ، فأتوا موضع المعركة وسلوا من استشهد اليوم من اخوانكم يخبروكم بما لقوا من الثواب عند الله . ثم أتى بهم الى موضع المعركة ونادى : يا معشر الشهداء ، ماذا لقيتم من الله عز وجل ؟ فقالوا : قد أعطانا من الثواب ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . فافتتن الناس ، وظنوا أن الموتى قد كلموهم ، وحكوا ذلك لبقية اخوانهم ، فازدادوا بصيرة في أمره ، وثباتا على رأيه » . (9)

---

(8) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ج 10 ، ص 575 ـ 576 .
(9) أورده الناصري السلاوي في كتاب الاستقصا ، ج 2 ، ص 96 ـ 97 .

ثم كانت معركة البحيرة الشهيرة ، سنة 524 هـ ، وفيها منى الموحدون بهزيمة كبرى ، قتل أثناءها قائدهم البشير الونشريسى وعدد كبير من الاتباع ، وجرح عبد المؤمن ، وعاد فل الموحدين الى جبلهم ·

وكان ابن تومرت قد أصيب بمرض حين سير الجيش فى اتجاه مراكش ، وعندما بلغه نبأ الهزيمة اشتد مرضه ، ومات بعد ذلك بقليل ·

خـــلافة عبد المـؤمن

وكانت وفاة ابن تومرت حادثا خطيرا بالنسبة للموحدين ، يخشى منه تصـــدع صرحهم ، وتفكك وحدتهـم ، واختلاف كلمتهم · وقد رأى رفاقه المقربون اخفاء موته على الاتباع ، وتدبير شؤون الدولة باسمه ، ريثما تسمح الظروف بايجاد حل لمشكل خلافتـــه ·

والظاهر أن هذه المرحلة الانتقالية دامت ثلاث سنوات ، تمكن أثناءها المقربون من رفاق ابن تومرت من مواصلة الجهود لبسط نفوذ الدولة الفتية بين القبائل المجاورة للسوس الاقصى ، ومن الاتفاق على تعيين خليفة للمهدى، هو عبد المؤمن بن على · وقد عزا كثير من المؤرخين هذا التعيين الى ما كان يظهره ابن تومرت نفسه من تقدير لعبـــد المؤمن ؛ ومنهم من ذكر أنه عينه خليفة له قبل وفاته · ويبدو أن الجماعة التى وافقت على تعيين عبد المؤمن راعت كونه غريبا عن المنطقة ، وأنه لم يكن يحظى بمساندة قبيلة ، قد تساعده على فرض سيطرته ، أو تنال أوفر قسط من الامتيازات ·

وكان على عبد المؤمن أن يواصل الحركة التى دعا اليها ابن تومرت · وقد أظهر كفاءة حربية نادرة مكنته من مقاومة جيوش المرابطين سنوات عديدة ، وابعاد خطرهم عـلى أتباعه بملازمة الجبال ، بينما كان المرابطون يفضلون اللقاء فى السهول ، ويلازمونها ·

وفى سنة 535 هـ ، بدأت حركة عبد المؤمن الكبرى عبر مناطق المغربين الاقصى والاوسط ، استولى خلالها الموحدون على نواحى تادلا وفازاز ، ثم بلاد الريف ، وكلها

مناطق جبلية · وكان تاشفين بن على ، بعد وفاة أبيه سنة 537 هـ ، يباشر بنفسه قيادة جيوش المرابطين ·

ثم حل عبد المؤمن وأتباعه الى تاجرا ، مسقط رأسه · وقد ذكر ذلك البيذق فقال : « ثم رحلنا الى آغبالو متاع بنى يزناسن ، وهرب أهله ، وامتنعوا أن يوحدوا ، فرحلنا منها الى ندرومة ، بلاد كومية ، فوحدوا ، فرحلنا الى تاجرا ، فميزنا فيها » · (10)

وبعث عبد المؤمن العساكر من تاجرا لغزو وهران وتلمسان وغيرهما · ثم سار الى تلمسان ، وهناك وقع أول لقاء هام بين الموحدين وأعدائهم المرابطين وحلفائهم ، وانتهى بانتصار الموحدين · ففر تاشفين بن على الى وهران واعتصم بها ، وكان ينوى الجواز الى الاندلس ان غلب على أمره ، ولكنه لم يتمكن من تحقيق خطته هذه ، ومات ليلة 27 رمضان سنة 539 هـ ، عندما غادرالحصن الذى لجأ اليه متوجها الى شاطىء البحر ، وممتطيا فرسه ، فسقطت به من أعلى جرف ·

وكان لوفاة تاشفين بن على أثر بالغ فى رفع معنويات الموحدين ، وانهيار دولـــة المرابطين · وسرعان ما استولى عبد المؤمن بن على على مدينة وهران ، ثم تلمسان ، ثم فاس ، فمكناسة ، وسلا ، وأخيرا مراكش ، التى فتحت فى شوال 541 هـ ، بعد حصار دام حوالى 11 شهرا · وبسقوط مراكش ، ومقتل اسحاق بن على بن يوسف ، آخر أمراء المرابطين ، انقرضت الدولة المرابطية ، وتم النصر للموحدين ·

ثم كان لعبد المؤمن دور هام فى القضاء على ثورة ابن هود وحلفائه ، فى المغرب الاقصى ، وعلى ثورة قبائل عديدة ، مثل برغواطة ودكالة ، كما وجه عناية خاصة لبسط نفوذه على جزيرة الاندلس ·

وفى سنة 544 هـ ، وقع حادث الاعتراف ، الذى تحدث عنه البيذق ، ولم يذكره غيره من المؤرخين ، وهو عبارة عن تصفية كبرى ، مثل التمييز فى عهد ابن تومرت ، تخلص بفضلها عبد المؤمن من كل من كان يظهر معارضته للدولة الموحدية ، أو لا يمتثل لتعاليمها · ومجموع قتلى الاعتراف ، حسبما ورد فى كتاب البيذق ، يبلغ 32·730 شخصـــا ·

(10) البيذق ، أخبار المهدى ابن تومرت ، ص 99 ــ 100 .

ولم تتوقف عمليات الموحدين التوسعية فى عهد عبد المؤمن عند هذا الحد ، بل نهض سنة 547 هـ ، فى اتجاه المغرب الاوسط وافريقية ، فقضى على دولة الحماديين ، واستولى على عاصمتها بجاية ، والمناطق التابعة لها ، وعلى قسنطينة وعنابة ٠

ثم نهض مرة ثانية الى افريقية ، وكان النصارى النورمان قد احتلوا المهدية ومدنا أخرى ، قادمين من صقلية ، فاستولى عبد المؤمن على تونس ، ثم حاصر المهدية ، وأرسل أثناء ذلك ، العساكر لاحتلال باقى مدن المنطقة ٠ وفى محرم 555 هـ ، استسلمت المهدية ، وغادرها الغزاة النورمان نهائيا ٠

وباستيلاء عبد المؤمن على سائر أراضى افريقية تم توحيد بلاد المغرب الاسلامى كلها ، وخضعوها ، لاول مرة فى التاريخ ، لسلطة مغربية موحدة ٠

ولاشك أن هذا الحادث يكتسى أهمية عظمى بالنسبة لتاريخ المغرب ، ولتاريخ العالم الاسلامى بصفة عامة ، اذ أن دولة الموحدين أصبحت تمثل أكبر قوة عسكرية وسياسية فى العالم الاسلامى ، الذى كان يعانى ، منذ أكثر من نصف قرن ، من خطر الحروب الصليبية ٠ وأصبحت آمال المسلمين تتوجه الى هذه الدولة الجديدة القوية ، وترجو منها أن تدافع عن حوزتهم ، وتساهم فى رد عدوان النصارى الصليبيين ٠

وقد ذكر عبد الواحد المراكشى أن عبد المؤمن مر ، أثناء عودته الى المغرب الاقصى ، بعد هذه الحركة الموفقة ، على القرية التى تسمى تاجرا ، لزيارة قبر أمه ، وصلة من هناك من ذوى رحمه : « فلما أطل عليها والجيوش قد انتشرت بين يديه ، وقد خفقت على رأسه أكثر من ثلاثمائة راية ما بين بنود وألوية ، وهزت أكثر من مائتى طبل ـ وطبولهم فى نهاية الكبر وغاية الفخامة ، يخيل لسامعها اذا ضربت ان الارض من تحته تهتز ويحس قلبه يكاد يتصدع من شدة دويها ـ فخرج أهل القرية للقائه والتسليم عليه بالخلافة ، فقالت امرأة عجوز من عجائز القرية ، ممن كانت تصحب أمه : هكذا يعود الغريب الى بلده ! تقول ذلك رافعة صوتها » ٠ (11)

وفى سنة 557 هـ بدأ عبد المؤمن يجهز الجيوش والاساطيل لغزو النصارى فى

(11) عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص 232 .

الاندلس ، وغادر مراكش الى سلا حيث تجمعت القوات الموحدية منتظرة الجواز الى الاندلس • غير أن عبد المؤمن مرض أثناء ذلك مرضا خطيرا ، توفى من جرائه فى 27 جمادى الآخرة سنة 558 هـ ، بعد حكم دام 34 سنة ، قضى نصفها فى محاربة المرابطين ، والنصف الآخر فى قمع الثورات وبسط نفوذ الدولة ، وتنظيمها وتسيير شؤونها •

هذا ولم تتجل عبقرية عبد المؤمن فى المجال السياسى والعسكرى فحسب ، بل ظهرت أيضا فى المجال الحضارى والتنظيم الادارى والمالى وغير ذلك • ويؤثر لعبد المؤمن بناء المسجد الاعظم بتازا ، ومسجد تينملل ، وجامع الكتبية بمراكش • كما أمر بتحصين جبل الفتح بالاندلس (وهو جبل طارق) ، وبناء أسوار تازا وتينملل •

وعين على الولايات أبناءه ، وجعل بجانبهم أبناء أشياخ الموحدين ، مثلما كان يحتل بجانبه الشيخ أبو حفص عمر الهنتاتى المنزلة الثانية فى الدولة ••• ثم عين عبد المؤمن أحد أبنائه وليا للعهد ، جاعلا بذلك لتعيين الامام نظاما لا يختلف عن بقية الـدول الاسلامية ، هو النظام الوراثى •

ومن جهة أخرى ، فان عبد المؤمن ، عندما عاد من غزو افريقية سنة 555 هـ ، رأى ضرورة فرض ضرائب أخرى غير الضرائب الشرعية ، فأمر بتكسير بلاد المغرب بالفراسخ والاميال طولا وعرضا ، وأسقط من المساحة الثلث فى الجبـال والانهار والطـرق والصحارى ، وما بقى قسط عليه الخراج ، والزم كل قبيلة قسطها •

وقد أدى فرض هذه الضريبة الى توزيع عادل للجباية على مختلف القبائـل (ما عدا المصامدة ، الذين أعفوا منها) ، والى حصول الدولة على أموال وافرة ، احتفظ بها الخلفاء الموحدون فى بيت المال لوقت الحاجة ، وصرفوها لما قاموا به من انجازات ضخمة • ولعل هذه الاجراءات قد أغضبت الرعايا ، الا أنها لم تحدث أية ثورة على الدولة •



الخاتمـــة

وختاما لهذا الحديث الموجز ، يجدر بنا أن نتساءل عن دور عبد المؤمن بن علي في تأسيس دولة الموحدين ٠

يمكن القول بأن تأسيس دولة الموحدين بدأ سنة 515 هـ ، وهو تاريخ بيعـة ابن تومرت بتيمنلل ٠ وقد تمكن ابن تومرت من نشر دعوته بين المصامدة ، وبسط نفوذه في منطقة السوس الاقصى ٠ ثم قام بمحاولات عديدة لمناهضة جيوش المرابطين ، الا أنها لم تكلل بالنجاح المأمول منها ٠ ولا جدال أن ابن تومرت هو صاحب الدعوة ، ومفكر الدولة الموحدية ، ومصلحها ، ومقنن نظمها ٠

أما عبد المؤمن فقد كان له الدور الاكبر في مواصلة دعوة ابن تومرت ، والسـير بالموحدين الى النصر ، فهو متمم الدعوة ومحقق الانتصار ٠ وقد وجهها توجيها خاصا ، ربما كان لا يتفق تماما مع نظرية ابن تومرت ، اذ جعل نظام تعيين الخلفاء وراثيا ، وعين أحد أبنائه وليا للعهد ، وفرض الخراج على المسلمين ، ولم يتمسك باستشارة المجالس التي أسسها ابن تومرت ، كمجلس العشرة ، وأهل خمسين ، وغير ذلك ٠

ولاشك أن تأسيس دولة الموحدين قد غير الاوضاع السياسية في المغرب الاسلامي تغييرا جذريا ، حيث قضى على مختلف الدول القائمة به قبلها ، وعوضها بدولة تضم كل أرجائه تحت سلطة واحدة ، محققا بذلك توحيدا سياسيا تحت شعار توحيد عقائـــدي ٠

وكان من نصيب الجزائر أن يتولى أحد أبنائها هذه الانجازات الجليلة ، وأن يحقق هذا الهدف العظيم ٠

أبو عمار الكافى والنسق الكلامى

د . عمار الطالبى
كلية الآداب ـ جامعة الجزائر

لا نعلو الحق اذا قلنا ان الخوارج لم تدرس آراؤهم العقائدية والسياسية دراسة تقارب الدراسات الكثيرة التى قام بها الباحثون عن فرقة المعتزلة وآرائها الكلامية الفلسفية أو عن فرقة الاشاعرة التى أخذت من الاعتزال بطرف ومن السلفية بطرف آخر وتوسطت بين المنهج الذى أخذ به المحدثون وبين المنهج الفلسفى الذى أغرق فيه المعتزلة ، كما أن الباحثين اهتموا بدراسة الشيعة وبتحليل عقائدها فى الالوهية والنبوة والامامة وما علق بها من عناصر غنوصية التى علقت أيضا بالباطنية الصوفية .

ولكن ينبغى أن نشير الى أن بعض المستشرقين اهتم بدراسة الخوارج وبتتبع حركتهم وتصطبغ هذه الدراسات فى أغلبها بصبغة تاريخية أو اخبارية على النحو الذى قام به فلهوزن Wellhausen فى بحثه التاريخى النقدى لحركتى الخوارج والشيعة وما قام موتيلنسكى Motylinski من أبحاث وتحقيق نصوص تتعلق بالاباضية ، بل كاد أن

يتخصص فى دراسة عقائد الاباضية وفى تاريخهم السياسى والاجتماعى سواء فى ذلك ما يتصل باباضية المغرب الاسلامى فى الجزائر وتونس وليبيا أو فى زنجبار أو فيما يتعلق باباضية المشرق وخاصة عمّان ، وكذلك ما قامت به الآنسة جواشون من دراسة مستفيضة لحياة المرأة الاباضية الاجتماعية بجنوب الجزائر أى ميزاب ٠

وقد خصص شيخ المستشرقين جولدزيهر قطعة من كتابه « العقيدة والشريعة فى الاسلام » للحديث عن الخوارج عامة وعن الاباضية خاصة ، وشارك Nallino الايطالى فى هذا المجال فكتب مقالا هاما عن العلاقة بين الاباضية فى شمال افريقيا وبين المعتزلة ، وتفطن الى ما يوجد بينهما من أوجه الاتفاق معتمدا على نصوص من كتب الاباضية نفسها ٠

وقد أحصينا المقالات التى كتبت عن الخوارج وعن الاباضية فى دراسة لنا عنهم ستنشر عن قريب والتى ذهبنا فيها الى رأى يخالف ما كان شائعا لدى المؤرخين والباحثين من أن الخوارج بدو ليس لهم منهج عقلى وبرهنا على أن الخوارج لم يكونوا من أهل الظاهر وانما كانوا ذوى منهج عقلى وتأويل للنصوص بما يتفق مع أصولهم فالمعتزلة ان هم الا تطوير لاصول الخوارج الاولى لذلك قال ابن تيمية ان المعتزلة مخانيث الخوارج وأن الاشاعرة مخانيث المعتزلة ٠

أبو عمار عبد الكافى

أ ـ حياته : هو أبو عمار عبد الكافى بن أبى يعقوب التناوتى ٠ وتناوت ـ فيما يحدثنا المرحوم الشيخ أبو اليقظان ـ نسبة الى تناوت وهى قرية من قرى وارجلان فى سدراته الواقعة جنوب الجزائر ووارجلان تسمى اليوم « ورقلة » وكانت سدراته هذه عاصمة للاباضية بعد تيهرت ، أما المستشرق لويكى Lewicki فانه يذكر أن تناوت قبيلة بربرية كانت تقيم فى بلدة نفزاوة معتمدا فى ذلك على كتاب السير للشماخى (1) ، ويقيم جزء من هذه القبيلة فى وارجلان ويمكن الجمع بين الرأيين بالقول بأن تناوت اسم لقبيلة ثم سميت بها القرية التى أقامت بها هذه القبيلة فى وارجلان ٠

(1) Lewicki (T.), Mélanges Berbères Ibadites, REI, 10 (1936), p. 278.

ويذهب المستشرق المذكور الى أن أبا عمار هو أكثر مؤلفى الاباضية علما ، والواقع أننا لا نعلم عن نشأته شيئا كثيرا ، وغاية ما نعلم عنه أنه نشأ فى وارجلان فى القرن السادس الهجرى ، وكانت فى ذلك الحين مزدهرة فى ميدان المعارف الدينية . أخذ فى تلك المدينة عن أستاذه الكبير المتكلم الاباضى أبى يعقوب الوارجلانى المتوفى سنة 570هـ/1174 م ، وكان أبو يعقوب الوارجلانى ذا اطلاع واسع على شتى أنواع المعارف وعلى الثقافة الاسلامية فى ذلك العصر حيث انتقل الى الاندلس وأقام بمدينة قرطبة فى عهد الموحدين أصحاب النزعة العقلية والاجتهاد ، وهنالك درس علوم اللسان والقرآن والحديث والتنجيم فكان أهل عصره يشبهونه بالجاحظ .

وألف من الكتب كتاب «العدل والانصاف» فى اصول الفقه فى ثلاثة اجزاء ، وتوجد عند الاباضية الى اليوم فى الجزائر نسخ متعددة (1)، وألف كذلك كتاب «الدليل لاهل العقول » فى ثلاثة اجزاء طبعت فى مجلد واحد طبعا حجريا بالقاهرة سنة 1306 هـ، ـ 1888 م ، تحدث فيه عن الآراء الكلامية والفلسفية وعن الرياضيات والفلك ، ورتب ايضا كتاب «مسند الربيع بن حبيب البصرى» الذى طبع الطبعة الثانية بمصر سنة 1349 هـ ، بالمطبعة السلفية وضم اليه بعض روايات الربيع عن ضمام عن جابر بن زيد وروايات ابى سفيان عن الربيع ، وروايات جابر بن زيد (2) وينسب اليه كتاب «مرج البحرين فى الفلسفة والمنطق والهندسة والحساب» ونقل الينا الشيخ ابو اليقظان انه ترجم الى اللغات الاروبية ولكننا لم نقف على ذلك ولم نعرف اللغة التى ترجم اليها، وله قصيدة تسمى الحجازية تقع فى 360 بيتا ، ويبدو انه انشاها حين قصد الحجاز للحج فجادت قريحته بها فى تلك الربوع المقدسة ، وله كتاب فى الفقه لم اقف عليه ، وينسب اليه تفسير للقرآن يقال انه يقع فى 700 ورقة به تفسير فاتحة الكتاب وسورة البقرة وآل عمران ، وغلب على ظن البرادى ان ابا يعقوب ألف تفسيره للقرآن فى ثمانية اسفار مثل السفر الذى رآه ووقف عليه (3) ، وله كتاب فى التاريخ يدعى «فتوح

(1) اطلعت على نسخة لدى الاستاذ صدقى ايوب اليسجنى وقد شرحه القطب واختصره الشماخى .

(2) عبد الله بن حميد السالمى ، حاشية مسند الربيع ، مطبعة الازهار البارونية ، القاهرة 1326 هـ ، جزء 1 ص : 3 .

(3) البرادى ، الجواهر ، مطبعة محمد يوسف البارونى ، القاهرة 1302 هـ ، ص : 220

المغرب» ترجم فيه للاباضية ويذكر الشيخ ابو اليقظان انه توجد نسخة منه فى ألمانيا كما ذكر الشيخ اطفيش ابو اسحاق فى كتابه «الدعاية الى سبيل المؤمنين» (4) ، وله رسالة فى رجال مسند الربيع ، وترجمة لرجال الاباضية ، كما له أجوبة وفتاوى كثيرة لو ترجمت لكونت سفرا كبيرا فى الفقه ٠

وقد استطاع ان يكتشف خط الاستواء قبل ان يكتشفه غيره من الاروبيين ، فى رحلة له اليه ذكرها فى كتابه «الدليل والبرهان» وبالجملة فان ابا يعقوب الوارجلانى يعتبر من الفلاسفة الاباضيين الذين اكتسبوا معارف واسعة سواء فيما يتصل بالمذهب الاباضى او بغيره من المذاهب والآراء والعلوم الرياضية والطبيعية المعروفة فى عصره ، ويعتبر من أكبر رجالات الرياضيات فى المغرب العربى ٠

بعد ان اخذ ابو عمار عن شيخه ابى يعقوب ارتحل الى تونس ودرس هناك على اساتذة كثيرين ، وكانت تونس فى عهد الموحدين فى غاية من النشاط العلمى والثقافى فاستفاد من تلك البيئة العلمية الزاخرة واخذ علوم اللسان العربى وآدابه والعلوم الاسلامية المختلفة ، وعرف فى دراسته تلك بالجد والنشاط ، وكانت اسرته ذات ثراء ولذلك فانها كانت ترسل اليه الف دينار كل سنة فيعطى نصفها الى شيخه الذى يدرس عليه ويصرف النصف الآخر فى شؤونه الخاصة ، ويحكى انه كانت تأتيه كل عام رسالة مع المرتب المالى ولكنه كان لا يقرأ ما يرد عليه من رسائل ويحفظها عنده ، وعند ما أتم دراسته أخذ فى قراءتها فوجد فى الاولى نبأ وفاة احد والديه وفى الثانية نبأ وفاة الثانى فما كان منه الا ان ودع اساتذته واصدقاءه وقفل راجعا الى وطنه ، ويذكر صدقاؤه انه كان ذا أخلاق عالية ، سريع الفهم ، سخى النفس ، شديد الورع ، وكانوا يدرسون معه كتاب «الدعائم» وينسب اليه البدر الشماخى والدرجينى فى طبقاتهما عدة كرامات (5) ويذكر الدرجينى ان سبب سفره الى تونس التى أقام بها اعواما

---

(4) المطبعة السلفية القاهرة 1342 وتوجد منه نسخة فى تركة المستشرق موتيلانسكى ٠

(5) البدر الشماخى ، السير ص : 442 ٠ الدرجينى مخطوط الشيخ ابن يوسف بالجزائر العاصمة ص : 444 رسالة الشيخ أبى اليقظان الى صاحب هذا المقال سنة 1968 ص : 11 ٠

للدراسة يعود الى امرين : الاول ابتعاده عن شواغل الاهل ، والثانى انه اراد اصلاح لسانه وتقوية ملكته فى اللسان العربى بالابتعاد عن اللسان البربرى الذى يتحدث به أهل بلده وارجلان ·

والواقع ان كتابه «الموجز» يشهد له بقوة الاسلوب وجزالته وصفاء عربيته ومتانة ألفاظها ودقة دلالاتها على معانيها · ويذكر المترجمون له انه سئل عن القدر وعن اليقين فقال : (اليقين صحة الاعتقاد وهو من افعال القلب ومن افضل افعال العبادة) وأجاب عن القدر فقال : (القدر ما قدره الله قبل ان يكون)·(6) وكان ابوعمار محبا للسلم بين المسلمين كارها للفتن وسفك الدماء ، وعبر عن رغبته هذه فيما يذكره الدرجينى الذى قال : «اذا وقعت الفتنة بين فئتين من المؤمنين فالاحب الي ان يصطلحوا فان لم يفعلوا فالاحب الي ان لا تغلب فئة فئة فان من احب ان تغلب احداهما الاخرى فقد دخل فى الفتنة ، ولزمه ما لزم اهل تلك الفتنة وكان سيفه يقطر دما» · (7)

اما ما يتعلق بتاريخ وفاته فانه غير معروف ولكن يقع فى الراجح قبل سنة 570 هـ ـ 1174 م وهى السنة التى توفى فيها شيخه ابو يعقوب الوارجلانى ، ذلك انه وردت الى ابى عمار رسائل من عبد الوهاب بن محمد بن غالب بن نمير الانصارى من غانة ليجيب عن اسئلة وردت فيها فتوفى ابو عمار قبل ان يتمكن من الجواب عنها ، فتولى الاجابة عن ذلك شيخه ابو يعقوب الوارجلانى قبل وفاته سنة 570 هـ 1174 ·

لقد كان للاباضية نشاط واسع من الناحية الدينية والثقافية والاقتصادية فى افريقيا ، فكانوا يقومون بتجارة التبر والدعاية للدين بالفعل والقول،ويقول ابواليقظان ان ابا عمار توفى فى وارجلان وقبره معروف باسمه فى هذه المدينة الى اليوم اذ ان له مقاما يزار ، وذكر انه وقف عليه ورآه ، وهو عبارة عن «غار منحوت فى ربوة الجبل

(6) الدرجينى طبقات المشائخ بالمغرب تحقيق ابراهيم طلاى ، مطبعة البعث ، قسنطينة (الجزائر) (1974) ص : 488 ·
(7) المصدر نفسه ، ص : 491 ·

قدر ما يقف فيه المصلى ويأوى مجلس نحو عشرة رجال» (8) ٠ وجرت عادة الاخـوان الاباضيين ان يقوموا بزيارته ربيع كل سنة (9) ويعده الشيخ محمد بن يوسف اطفيش من أهل الخمسين الاولى من المائة السادسة (10) مع استاذه أبى يعقوب الوارجلانى ٠

ب ـ **مؤلفاته :** يعتبر أبو عمار من الذين أحيوا المذهب الاباضى تأليفا وتعليما ، وهو من أعظم مؤلفى الاباضية مقدرة على الجدل والنظر وأكثرهم عمقا فى التفكير ، وتنظيما للمذهب فى نسق عقلى دقيق متماسك ، وهو لا يقل عن متكلمى المعتزلـــة والاشاعرة والشيعة مقدرة على التأليف واحاطة بالمذاهب ودفاعا عن العقيدة ونصرة لهـــا ٠

ينسب الى أبى عمار أنه ألف كتاب الاستطاعة ، وقد أشار فى آخر كتابه « الموجز » الى أن الاستطاعة تستحق أن يفرد لها كتاب (11) ، ونسب اليه البدر الشماخى أيضا كتاب « شرح الجهالات » (12) وتوجد منه نسخة فى دار الكتب المصرية مخطوطة (13) وخطها ردىء جدا ، وبها شطب ولا تكاد تقرأ وهذا الكتاب عبارة عن أسئلة وأجوبة فى العقائد وغيرها على طريقة المذهب الاباضى به 59 ورقة تحت رقم 22293 ب ٠ أما كتابه « الاستطاعة » فلا أعرف أنه موجود أو غير موجود ، وأغلب الظن أنه مفقـود ، وينسب الى أبى عمار أيضا ثبت باسماء شيوخ الاباضية وتراجمهم ، ويعتبره علـى يحيى معمر من مؤرخى الاباضية ٠ (14)

ومن أهم مؤلفاته كتاب « الموجز » فى علم الكلام نسبه اليه البــدر الشماخى (ت 928هـ/1521م) فى السير (15) ، حيث وصف أبا عمار بأنه آية فى علم الكلام

(8) الشيخ أبو اليقظان ، الاباضية فى شمال افريقيا مخطوط لدى مؤلفه بالقرارة جنوب الجزائر وأورد هذا النص منه في رسالته الي بتاريخ 1968 ، ص : 17 ٠

(9) المصدر نفسه.كما حدثنا بذلك الشيخ ابن يوسف بمدينة الجزائر سنة 1968 ٠

(10) محمد اطفيش ، تواريخ أهل وادى ميزاب ، الجزائر 1326 هـ ٠

(11) الموجز ، ص : 193 ، البدر الشماخى ، السير ، ص : 441 ٠

(12) البدر الشماخى ، السير ، ص : 441 وذكر أنه يقع فى سفر واحد ٠

(13) Lewicki (T.), Mélanges Berbères Ibadites, REI, 10 (1936), p. 271.

(14) على يحيى معمر ، الاباضية فى موكب التاريخ (الاباضية فى تونس) بيروت 1385 هـ ـ 1966 م ، ص : 194 ٠

(15) السير ، ص : 441 ٠

وبأنه ألف فيه : « الموجز فى الرد على من خالف الحق فى جزئين » (16) كما نسبه اليه الدرجينى فى طبقاته فقال : « وهو الذى أزرى بموجزه على الماضين وأتعب الحاضرين والآتين فانه رتب مقدماته أرتب تقديم وقوم فصوله أحسن تقويم وقسم الفرق أبين تقسيم بألفاظ عذبة وقصد مستقيم » (17) ، ونقل منه عبد العزيز المصعبى اليسجنى فى كتابه « معالم الدين » المخطوط الموجود بدار الكتب المصرية تحت رقم 1960 ب ، وقال : « ومن هنا نعلم معنى قول الشيخ أبى عمار فى الموجز » (18) ، كما نسبه اليه أبو اليقظان ابراهيم فى كتابه « الاباضية فى شمال افريقيا » فقال : « صاحب كتاب الموجز فى علم الكلام فى جزئين ناقش فيه فرق المذاهب الاسلامية وحاجج فيه كثيرا من الدهريين وناقشهم فى سائر مقالاتهم الرائعة المنحرفة بحججه الدامغة وبأسلوبه الرشيق الحكيم المبنى على محاصرة الخصم بالقائه فى شبكات من أسئلة لالزامه الحجة حتى لا يجد له محيصا ولا مفرا » (19) ، ولم يشك أحد من الاباضية فى أن الكتاب لابى عمار عبد الكافى بل ان البرادى ذكره فى تقييده لكتب الاباضية ونص على ذلك بقوله : « وكتاب الموجز للشيخ ابى عمار بن أبى يعقوب التناوتى الوارجلانى » (20) ، وأضاف الى ذلك نسبة كتبه الاخرى اليه فقال : « وشرح الجهالة له أيضا وكتاب الفرائض ويذكرون كتابا فى الفروع من تأليفه لم أقف عليه » (21) ، وأما المخطوط الآخر للبرادى نفسه فانه نص فيه على كتاب الموجز وشرح الجهالات فقط فقال : « ولابى عمار رضى الله عنه كتاب الموجز وكتاب شرح الجهالات سفر آخر له » (22) ، وقد قمنا بتحقيق هذا الكتاب على ثلاث نسخ : نسخة دار الكتب المصرية ونسخة الاستاذ صدقى محمد بن أيوب اليسجنى ونسخة الاستاذ صالح خباشة وكلاهما من اباضية الجزائر ·

---

(16) المرجع نفسه ، ص : 441 ·
(17) الدرجينى ، الطبقات جزء 2 ، ص : 485 ·
(18) ورقة 276 ·
(19) رسالة أبى اليقظان ، ص : 17 ·
(20) تقييد كتب أصحابنا للبرادى مخطوط دار الكتب، ورقة : 208 ·
(21) المصدر نفسه ، الورقة نفسها ·
(22) مخطوط رقم 8456 ، ورقة : 113 ·

ان كتاب الموجز يمثل مرحلة نضج علم الكلام ويمدنا بصورة نسق متكامل لمذهب الاباضية الكلامى ، وليس أبو عمار أقل من أبى بكر الباقلانى عند الاشاعرة ولا أقل من ابن حزم فى نقده ورده على الفرق والفلاسفة ، وتظهر فى هذا الكتاب صورة واضحة القسمات للمذهب الاباضى وللفكر الفلسفى لدى أبى عمار عبد الكافى الذى اتخذ منهجا عقليا قويا فى نقده واستدلاله مما يدل على اصالة هذا المفكر وعمق تحليله وغوصه على حقائق مختلف الاتجاهات الفلسفية والكلامية فى تاريخ الامة الاسلامية ۰ ولا نريد أن نطيل فى بيان قيمة هذا الكتاب واهميته فى تاريخ الفكر الاسلامى فى الجزائر لاننا حللناه بما فيه الكفاية فى رسالتنا عنه لنيل الماجستير التى هى معدة للنشر ۰



ابو يعقوب يوسف الورجلانى وكتابه الدليل والبرهان

عبد الرحمن الجيلالى
مؤرخ ـ الجزائر

فى وسط بحبوحة من الرخاء ونعيم الحياة الثقافية الروحية التى عم أريجهما ربوع أرض الجزائر أيام حكومة الدولة الرستمية بتيهرت (160 ـ 296 هـ ، 776 ـ 909 م) وفى جو البحث العلمى الهادىء والاستغراق فى التفكير الفلسفى اللاهوتى العميق مع النشاط فى الدرس الحثيث لعلوم الدين الاثيرة التى جعلت من أئمة هذه الدولة ينغضون رؤوسهم سخرية من صروف الدهر وطوارقه حتى كأن هذا أمر لا تتحرك به الخواطر ولا مجال للفكر فيه ، فى هذا الجو الهادىء المفعم دعة واطمئنانا •

وقع الهجوم على البلاد من طرف الشيعة العبيديين أو قل الشيعة الفاطميين بزعامة عبد الله الشيعى (296هـ/909م) فسقطت الجزائر الرستمية بيد الشيعة من دون قتال ولا حرب الامر الذى أدى الى انتقال أكثر السكان الى أرض الجنوب

الى الصحراء وكان فيهم العلماء وأقطاب السياسة والفكر ـ وكانوا اباضية المذهب يكرهون الشيعة الى حد انهم كانوا لا يعتبرونهم من الناس ، بل هم عندهم من قبيل النسناس ـ كما ذكر ذلك أبو يعقوب يوسف الورجلانى فى دليله ، ففروا لذلك من هؤلاء وارتحلوا الى الصحراء بالجنوب الشرقى من القطر الجزائرى فسكنوا تلك الارجاء الجميلة الهادئة الثرية بنخيلها اليانعة وتمورها الزاهية الواقعة بجنوب مدينة (تقرت) وشرقى (غرداية) وتلك هى واحة بنى (وارجلان) أو (وارجلن) كما كتبها البكـرى (460هـ) فى مسالكه ، وقال : هى سبعة حصون للبربر أكبرها يسمى (اغرم ان يكامن) أى حصن العهود، وجاء بعده الادريسى فوضع جغرافيته سنة 548هـ، فكتب اسم هذه الناحية هكذا : (وارقلان) أى بالقاف لا بالجيم ، وقال : هى مدينة فيها قبائـل مياسير وتجار أغنياء يتجولون فى بلاد السودان الى بلاد غانة وبلاد ونقارة فيخرجون منها التبر يضربونه فى بلادهم باسم بلدهم وهم وهبية اباضية ٠ وذكرها الدرجينى فى طبقاته وهو من أهل بلاد الجريد القريبة من وارجلان ومن علماء الاباضية فى القرن السابع الهجرى وممن أخذ عن علمائها مثل أبى سهل يحيى بن ابراهيم الوارجلانى ، فكتبها هكذا : (وارجلان) ٠

وذكرها ياقوت (626هـ) فى معجمه الجغرافى الجامع وكتبها هكذا : (ورجلان) وضبطها قائلا : بفتح الواو وسكون ثانيه وفتح الجيم وآخره نون ٠ قال : هى كورة بين افريقية وبلاد الجريد ضاربة فى البر كثيرة النخل والخيرات يسكنها قوم من البربر ومجانة ، واسم مدينة هذه الكورة (فجوهة) ؛ والكورة فى اصطلاح أهل الجغرافيا هى عبارة عن الصقع المشتمل على قرى ومحال كثيرة ٠

وجاء ذكرها فى تاريخ ابن خلدون مكررا مكتوبا بالكاف هكذا : (واركلا) آخرها لام ألف لا نون ومشكولة بقلم ابن خلدون نفسه بالحركات مكسورة الراء ؛ والعجب من المرحوم ابن تاويت الطنجى كيف غاب عنه شكل ابن خلدون لحرف الراء وتـرك الكلمة مشكولة فيما نشره من كتاب التعريف بابن خلدون بسكون الراء ، وهو نفسه نبه على كسرها ٠ وقد يكون هذا خطأ مطبعيا ؟ ٠

وزار هذه المدينة الرحالة العياشى سنة 1059 هـ/1649 م فذكر ان بها مسجـدا للاباضية صلى فيه صلاة المغرب ، وكتب اسم المدينة كذلك بالكاف مثل ابن خلدون وآخرها لام الف (واركلا) غير انه زاد فى ضبط مخرج حرف الكاف هنا بجعل ثلاث نقط من أسفل الحرف اشارة منه الى اختلاف النطق والمخرج بين كـاف (واركلا)

والكاف المعهودة . ونحن نراه فى ذلك مقلدا لرسم ابن خلدون لحرف القاف المعقودة فى كتابة اسم (بلكين) بالخصوص حيث قال : فأضعها كافا وانقطها بنقطة الجيم واحدة فى أسفل أو بنقطة القاق واحدة من فوق أو اثنتين فيدل ذلك على انه متوسط بين الكاف والجيم أو القاف وهذا الحرف أكثر ما يجىء فى لغة البربر . وهذا ما يعبر عنه بالقاف المعقودة ، والقاف المعقودة هى الصيغة التى نسمعها فى النطق بحرف الجيم عنـــد المصريين أو حرف القاف من لهجة أهل البادية فى الجزائر Elguef وهى مستعملة كذلك عند عرب المشرق ، وقد كنا كتبنا فى هذا الموضوع بحثا نشر بمجلة (الشهاب) ج 7 م 7 ربيع الاول 1350 هـ/جوليت 1931 م ، فليرجع اليه من شاء . كما ورد اسم هذه المدينة فى قصيدة ميمية لابى حمو الزيانى الثانى سلطان دولة بنى عبد الواد بتلمسان (971 هـ/1389 م) مكتوبا بالجيم هكذا : (ورجلان) فقال :

وجئت لـ (ورجـلان) وجزت مصابها ولا مخبـر غــير الصلاد الاعـاجم

وكذلك كان يكتبها مترجمنا أبو يعقوب يوسف الورجلانى ، فقد جاء فى كتابه الدليل يحكى قصة وقعت له قوله : (وأنا فى ورجلان سدراته...) ج 3 ص 100 . ولعل القاعدة فى كتابة امثال هذه الالفاظ ترجع الى قولهم : كل ما يجلجل يكلكل ويقلقل ويقلقل ـ بالقاف المعقودة ـ

ففى هذه الكورة أو الصقع (واركلا) أو (وارجلان) أسس هؤلاء اللاجئون مـن تيهرت مدنا وقرى وقصورا ومنها مدينة (الكريمة) ولا وجود لها اليوم ، ومدينـــة (سدراته) عاصمتهم الجديدة ذات الحضارة العظيمة التى قضى عليها يحيى بن اسحاق الميورقى (626هـ/1229م) والتى لا يزال البحث والتنقيب من علماء الآثار يجريان للكشف عن آثارها فى أعمال الحفريات ، ومن ذلك الآثار هذه التحف الفنية والقطع الجميلة التى نشاهدها ونراها اليوم مصفوفة على رفوف متحف الآثار فى حديقة الحرية بالعاصمة والتى يرجع تاريخها الى الستينات من القرن الرابع الهجرى ، (790 م) وعندما نزح عنها أهلها بسبب حملة الميورقى هذا وسكنوا أرض الشبكة من بلاد بنى (مصاب) مزاب حال محلهم كثير من الزنوج ونشأت بتلك الواحات مملكة زنجية .

ثم أن باشا الجزائر صالح رايس « هاجم واحات الجنوب (959 هـ/1552 م) فأدخل واحة بنى وارجلان ضمن المملكة الجزائرية فكان بهذا يعد هو مؤسس (وارقلا) الحالية ، واستمرت الناحية خاضعة للاتراك الى أيام الاحتلال الفرنسى فاستقلت الى أن احتلها قائد من قواد أرض الجنوب الوهرانى باسم الدولة الفرنسية ، ثم ثار أهلها واخرجوا ممثلى السلطة ، وأخيرا احتلتها الجنود الفرنسية (1289 هـ/1872 م) » الى ان من الله علينا بالاستقلال 1382 هـ/1962 م ، فرحم الله الشهداء .

ففى هذه البلدة الطيبة وعلى أديم هذه البقعة الزكية (واركلا) ولد أبو يعقوب يوسف بن ابراهيم بن مياد الوارجلانى حوالى سنة 500 للهجرة ـ أوائل القرن الثانى عشر الميلادى ؟.. وفيها نشأ وتربى وبها تادب وتعلم ما كان يجول فى فلك ذلك العصر من معارف وفنون وآداب ... فروى عن مشائخ بلده مثل الشيخ أبى عمار التناوتى وأبى سليمان أيوب بن اسماعيل وأبى زكرياء وغيرهم علم من تقده ممن سلف من علماء اباضية وغيرهم كأبى هارون موسى الجلاملى وابن ماطوس وميمون الشروسى وابن الاشج التاهرتى وابى الطيب محمد بن أبى بردة الشافعى وأبى عبد الله محمد ابن بكر النفوسى وولده أحمد الخ ...

وكأن أبا يعقوب هذا لم يكتف بما حصل عليه من العلم فى بلده اذ نراه يعقد رحلة الى بلاد الاندلس وهى يومئذ كعبة الدنيا لازدهار أنواع الثقافة واصناف المعرفة بها ورقى أهلها ، وكان فيما دخله من بلادها مدينة قرطبة تلك المدينة العظيمة التى أنبتت أمثال يوسف بن عبد البر القرطبى حافظ المغرب ومحمد بن أحمد القرطبى المفسر ، الى غير هؤلاء ممن نشأ بها من علماء وعالمات فقد ذكروا انه كان بربضها الشرقى فقط مائة وسبعون امرأة كلهن يكتبن المصاحف بالخط الكوفى ، ومنهن عائشة بنت أحمد القرطبية التى لم يكن فى زمنها من حرائر الاندلس من يعادلها فهما وعلما وأدبا وشعرا ؛ اذا قلنا هذا كان بقرطبة فى ربضها الشرقى فقط ، وفى ناحية منها فقط ، فكيف بجميع جهاتها ؟ وقد بلغت مساجدها الفاوستمائة مسجد ...

الى هذه المدينة الزاهرة أرتحل أبو يعقوب وعن علمائها تخرج واكتمل معلوماته فى الطبيعيات والرياضيات علاوة على ما كان قد حصل عليه من علوم الدين واللغة

يقسميها من معقول ومنقول وامتاز من بين اقرانه بالذكاء والفطنة والفهم حتى صار يقارن بالجاحظ ٠

ثم عاد الى وطنه لافادة قومه بما حمله اليهم مما لم يكن عندهم من ثقافة أو علم عملا بقوله تبارك وتعالى : « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون » ٠ (التوبة آية 122) وهكذا مكث أبو يعقوب بين أهله وقومه وفى بلده ووطنه يعلم ويدرس وهو دائما فى تطلع واشتياق الى الاستزادة من العلم (وقل رب زدنى علما) فعزم على الرحلة فى طلب العلم ثانيا ، والى أين هذه المرة ؟٠٠ الى المشرق ! ذلك ليجمع الى ما حصله من العلم بالمغرب ما يكتشفه ويستفيده بالمشرق وكان الامر كذلك فلم يكتف بما عنده فارتحل الى هناك ، ولاشك انه قصد بغداد ، وهى يومئذ كقرطبة فى المغرب أو تفوقها ثقافة وحضارة وعمرانا ، ولا سيما فى ذلك العصر الزاهر قبل أن يغزوها جيش التتار فانها كانت عروس الاقطار الاسلامية وكفاها فخرا ان كانت تمثل عصر الاسلام الذهبى ٠

ثم عاد منها أبو يعقوب الى بلده مترعا علما وحكمة وأدبا فكان كما وصفه أبو العباس أحمد بن سعيد الشماخى فى كتابه السير المطبوع بمصر 1301 هـ ، نقلا عن طبقات الدرجينى : فقال انه « بحر العلم الزاخر ، المسخر للنفع فترى الفلك فيه مواخر ، كان فى علوم القرآن غاية ، وفى علوم اللسان من النحو واللغة والتصريف آية ، وفى علوم الحديث ونقل الاخبار والسنن والآثار والفروع والاحكام والمواريث بل وعلوم الاقدمين فى جميع ذلك علامة) ٠

وانقطع أبو يعقوب فى بيته سبع سنين دأبا لايلو على شىء سوى الدرس والتأليف فكان لا يجده زائره ــ كما ذكره الشماخى : « الا ناسخا أو للاقلام باريا ، أو للدراسة فاعلا ، أو للحبر طابخا ، أو للدواوين مقابلا ، أو للكتب مسفرا ، الا ان قام لاداء الفرض ٠٠٠ » وهو الى ذلك شغوف بالاسفار فعقد رحلات عجيبة الى السودان وأواسط افريقيا فبلغ مجاهلها حتى انه اقترب من خط الاستواء كما يذكر ذلك هو عن نفسه فى كتابه الدليل ٠٠٠ ج 3 ص 216 فانه قال : « وقد وصلت أنا بنفسى الى قريب من خط الاستواء وليس بينى وبينه الا مسيرة شهر وكاد أن يستوى الليل والنهار فيه

أبدا ، وانما وصلنا الى قريب منه ، وأطول يوم السنة انما يفضل أقصر يوم منه بساعة واحدة فالنهار الطويل ثلاث عشرة ساعة ، والنهار القصير احدى عشر ساعة ولياليها كذلك ··· وقال عن سكان تلك الناحية بانهم : « يخافون البيضان من النـــاس ويحسبونهم ملائكة نزلت من السماء يهـــزم الابيض الواحد من الناس عشرة آلاف منهم ؟!» وليس عندهم الا عبادة الاصنام ···

ولابى يعقوب هذا رحلة الى الحجاز ولعلها كانت فى رحلته الى الشرق ، نظم فيها قصيدة تحتوى على 350 بيتا جمع فيها كثيرا من فنون العلم ومسائله ، وهى الـــتى يقول فيها :

خرجنا نؤم الشرق من حيز وارجـــلان بفتيان صـــدق مـــن وجـــوه العشائـــر

وله تفسير للقرآن الكريم يقع فى سبعين جزءا ضاعت كلها ما عدا جزء واحد منها ظفر به أبو الفضل أبو القاسم بن ابراهيم البرادى من علماء الاباضية فى القرن التاسع الهجرى وهو الجزء الاول من هذا التفسير العجيب وجده فى بلاد ريغ من أرض الجزائر الجنوبية فوصفه فى كتابه الجواهر المنتقاة فى اتمام ما أخل به كتاب الطبقات ط مصر 1302 هـ قال : « رأيت منه فى بلاد ريغ سفرا كبيرا لم أر ولا رأيت قط سفرا أضخم منه ولا أكبر منه ، حررت انه يجاوز سبعمائة ورقة أو أقل أو أكثر فيه تفسير سورة الفاتحة والبقرة وآل عمران ، وحررت انه فسر القرآن فى ثمانية أسفار مثله ، فلم أر ولا رأيت أبلغ منه ولا أشفى للصدر فى لغة أو اعراب أو حكم مبين أو قراءة ظاهرة أو شاذة أو ناسخ أو منسوخ أو جميع العلوم منه ··· » يقال انه يوجد هذا الجزء باحدى خزائن روما عاصمة ايطاليا ؟··

وصاحب التفسير هذا هو واضع كتاب الدليل المشار اليه فى عنوان هذا البحث والكلام عليه هو الجزء المتمم الفائدة من موضوع مقالنا هذا ، ويسمى (كتاب الدليـــل والبرهان ، أو كتاب الدليل لاهل العقول لباغى السبيل بنور الدليل لتحقيق مذهب الحق بالبرهان والصدق) هكذا هو مرقوم على ظهر الكتاب فى كل جزء من أجزائه الثلاثة المطبوعة طبعة حجرية بمصر سنة 1306 هـ فى مجلد واحد ·

والكتاب فى حد ذاته كتاب جليل النفع كثير الفائدة جامع لفنون من العلم فهـــو يبحث بحثا فلسفيا فى الالهيات والطبيعيات والرياضيات والفقهيات وأصول الاديان

وفى العقائد والمنطق واللغة وذكر الخلاف بين الفقهاء والاصوليين واختلاف عقـائد الطوائف والفرق الاسلامية وغير الاسلامية ، والفرقة الناجية منها وغير الناجية وساق فى ذلك آراء العلماء وأهل المذاهب الفلسفية مع الاشارة الى أهم الاحداث التاريخية التى أدت الى انشاء المذاهب الكلامية وتكوين الاحزاب السياسية التى كان لها الاثر الفعال فى تطوير التفكير فى أصول الدين وأصول الفقه واستنباط الاحكام الشرعية والعرفية من ذلك كمسألة الخلافة والامامة وما يتعلق بالحاكم والمحكوم ومتى يكـون الربط بينهما وكيف ينفصم ، كما انه تعرض لمعركة أو واقعـة صفـين الشهـيرة (37 هـ/657 م) وموقف كل من على بن أبى طالب ومعاوية بن أبي سفيان رضى الله عنهما منها ، وشأنهما فى أمر التحكم وتعرض لقضية استشهاد عثمان بن عفان رضى الله عنه وتناول الكلام عن الملوك والرؤساء وما يتعلق بالمحاربين والموالين وحكـام الجور وأعمالهم فى الاموال وعمارة الارضين وتطرق الى مسألة الاجتهاد والتقليد ، وبحث فى البدعة وأحكامها وأقسام العلوم وأصنافها وأحوال الآخرة ومسألة الجبر والاختيار والايمان والكفر ومسألة خلق القرآن والوحى ، كما انه تطرق الى ذكر بعض الوقائع والاحداث الجزئية الخاصة التى كانت باعثا مباشرا فى نهضة الفقهاء الى البحث والاجتهاد لتوضيح بعض الاحكام الغامضة وتقريرها ، كما انه تعرض فيه لرسائل اخـوان الصفاء الفلسفية فشرح ولخص الاهم منها بكلام موجز مفيد ٠ كما أنه أورد فى كتابه هذا بعض رسائل لكبار اقطاب المذهب الاباضى تتعلق بمباحث فى العقائد وأصـول الدين وفيها أسئلة وأجوبة حول ذلك ، منها رسالة عبد الوهاب بن محمد الانصارى ـ من ناحية غانة ـ الى أبى عمار عبد الكافى التناوتى يسأله فيها عن مسائل فى العقائد فأجاب عنها المؤلف لوفات أبى عمار ؛ ورسالة أخرى للمؤلف نفسه أجاب بها الشيخ محمد بن الشيخ النفوسى الابدلانى عن مسائل تتعلق بتفسير القرآن وبالكتب المنزلة وقصة موسى والخضر وعن شيء من قصص الانبياء الخ ٠٠٠

وجل هذه المسائل التى أوردها المؤلف ولا سيما منها ما يتصل بأصول الديـن والعقيدة ساقها بطريق الجدل والمناظرة ونظر اليها بمنظار مذهبـه الاباضى وناقشها

مناقشة مركزة على ضوء هذا المذهب ، ولا غرابة فى ذلك فان الرجل كان من مشاهير الجدليين وجلة أهل النظر ٠

تلكم هى مجمل مباحث كتاب الدليل ومهات مسائله التى بحث فيها هذا العلامة الموسوعى الكبير وفيه غير ذلك من مسائل أخرى استطرد فيها المؤلف مواضيع أخرى لاشتات من غوامض العلم ومتفرقاته وعسانا نخصص له مقالا أو بحثا مفصلا نتعرض لمسائله ان شاء الله بالشرح والتحليل ٠

والكتاب فى جملته وتفصيله مفيد جدا فانه اشبه شىء بموسوعة فلسفية عقائدية دينية مصغرة جاء معبرا أحسن تعبير عن أفكار صاحبه مظهرا لمستواه الثقافى الشامل، ونستطيع أن نقول عنه انه من الكتب الجليلة فى الجدل ولا يستغنى عنه باحث ولا دارس يريد الاطلاع والكشف عن الحقيقة لواقع البحث العلمى فى الجزائر فى ذلك العصر الغابر ، وكان لاهميته ان اشتغل الغربيون بدراسته وترجمته ، فترجم بعضه الى الفرنسية بقلم ى٠ س٠ علوش I. S. Allouche ونشر بمجلة « هيسبيريس » Hespéris 1936 م ٠

ويذكر لابى يعقوب هذا من المؤلفات والكتب كتاب خاص فى الفلسفة بعنوان : (مرج البحرين) على انه مؤلف مستقل بذاته ؛ وفى الحقيقة ما هو الا عنوان لقسم من أقسام كتاب الدليل المذكور ومكانه منه هو الجزء الثانى منه يبتدىء من صفحة 85 الى آخر الجزء ، وهو مفتتح بالبسملة والصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ثم يجىء ذكر العنوان هكذا : (تعلقة فى المنطق ، كتاب مرج البحرين فى المنطق بحر الالفاظ والكلم وبحر المعانى والحكم) نعم ! قد يكون حقا هو كتاب مستقل والمؤلف نفسه أدمجه فى كتابه الدليل ، وقد يكون غيره من تلامذته أو اتباعه هو الذى الحقه بالدليل ، وجعله خاتمة للجزء الثانى منه ، وأنا ارجح هذا نظرا الى ما نجده فى الجزء الثالث من الدليل صفحة 157 من خط فاصل وبعده صراحة بداية لكتاب مفتتح بالبسملة والصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ثم جاء قوله : (قال الشيخ يوسف بن ابراهيم الورجلانى رحمه الله الخ ٠٠٠) ففى هذا دليل على ان الكتاب زيد فيه وأضيفت اليه

أشياء أخرى وان كانت هى من عمل المؤلف ، غير انها دائما هى ليست من صميم كتاب الدليل ، والا فما معنى ذكر الترحم على الشيخ هنا ؟ .. فهذا لا يكون الا من صنع غيره.

وكذلك نجد فى صفحة 229 من الجزء الثالث هذه العبارة : (تم الموجود من الام بحمد الله وحسن عونه والصلاة والسلام على محمد وءاله وسلم تسليما) مع خط فاصل ثم تليه البسلمة والصلاة على الرسول عليه الصلاة والسلام وكلمة افتتاحية : (رب يسر يا كريم) ثم الشروع فى موضوع جديد ، فكل ذلك يدفعنا الى الشك فى كتاب (مرج البحرين) هل هو من صميم كتاب الدليل أو هو تأليف مستقل عنه ، وان كنا لا نشك فى كونه من تآليف أبى يعقوب ...

هناك مؤلف آخر فى أصول الفقه منسوب اليه ذكره اصحاب التراجم وهو (كتاب العدل والانصاف) ، نعم هذا كتاب مستقل اشتهر ذكره بين العلماء واشتغلوا به فمنهم من شرحه ، ومنهم من اختصره ، ومنهم من اقتصر على مقدمته فشرحها وعلق عليها ومنهم غير ذلك . عرفنا من بينهم أبا العباس أحمد الشماخى فهو ممن عنى باختصاره فى مقدمة مفيدة وشرحها بشرح وجيز جدا كما ذكر ذلك المرحوم الشيخ أبو اسحاق طفيش فقال انه رغم اختصاره فانه على جانب كبير من النفاسة والتحقيق .

كما ان لابى يعقوب غيرما تقدم من الكتب مؤلفا آخر خدم به الحديث الشريف ذلك هو ترتيبه لمسند الربيع بن حبيب فقد كان هذا المسند مشوسا فنسقه ورتبه وهو مطبوع بالقاهرة فى أربعة أجزاء 1349 هـ ويذكر له كتاب آخر فى التاريخ يحمل عنوان : فتوح المغرب أو المغرب فى تاريخ المغرب ، وله ديوان شعر اطلع عليه الدرجينى بيد الفقيه أبى العباس أحمد مرارا .

ولا يفوتنى هنا أن أنبه على ان هناك شخصية أخرى اباضية علمية بارزة اشتركت مع مترجمنا هذا فى النسبة فعرفت بالورجلانى أيضا ، وذاك هو الشيخ أبو زكرياء يحيى بن أبى بكر الورجلانى المتوفى سنة 471 هـ/1078 م وهو صاحب كتاب سير الائمة واخبارهم وهو مطبوع بالجزائر مترجما الى الفرنسية بقلم المستشرق ايميل ماسكوراى Emile Masqueray وهو كما علمت غير الورجلانى أبى يعقوب صاحب كتاب الدليل المتوفى الى رحمة الله سنة 570 هـ/1175 م .

مـــراجـــع البحـــث

ابن تاويت محمد الطنجي التعريف بابن خلدون ط القاهرة 1951 م

ابن خلدون ـ عبد الرحمن المقدمة ط بولاق 1274 هـ

ابن خلدون ـ عبد الرحمن تاريخ ـ العبر ط بولاق 1284 هـ

ابن خلدون ـ يحيى بغية الرواد ط الجزائر 1911 م

البرادى ـ أبو الفضل الجواهر المنتقاة ط القاهرة 1302 هـ

البكرى ـ عبد الله المسالك والممالك ط الجزائر 1857 م

أبو زكرياء ـ يحيى الورجلانى سيرة الائمة ط باريس 1878 م

أبو يعقوب يوسف الورجلانى الدليل والبرهان ط القاهرة 1306 هـ

أحمد توفيق المدنى كتاب الجزائر ط الجزائر 1350 هـ

الادريسى ـ محمد بن محمد نزهة المشتاق ط لندن 1866 م

الدرجينى ـ أبو العباس أحمد طبقات المشائخ بالمغرب ، ط - قسنطينة بدون تاريخ -

الزركلى ـ خير الدين الاعلام ط ثانية ج 9

الشماخى ـ أحمد بن سعيد كتاب السير ط القاهرة 1301 هـ

الشماخى ـ أحمد بن سعيد أصول الديانات ط القاهرة 1304 هـ

عبد الرحمن الجيلالى تاريخ الجزائر العام ج 1 ط 3 الجزائر 1971م

عبد الوهاب بن منصور البصائر عدد 313 (1953 م)

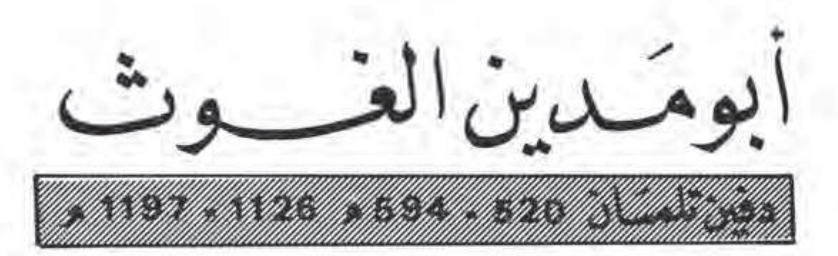
على يحيى معمر الاباضية فى موكب التاريخ ط القاهرة 1964

علوش ى. س. هيسبيريس Hespéris 1936 م

العياشى ـ عبد الله بن محمد الرحلة ط فاس 1316 هـ

ياقوت الحموى معجم البلدان ج 5 ط بيروت 1957 م

Emile Masqueray : Chronique d'Abou Zakaria - Alger 1878.



عبد القادر الخلادى
— المغرب —

لا يخفى على أحد انه قلما يذكر اسم حاضرة من حواضر المغرب الكبير من غير ان يشفع بذكر اسم صالح مدفون فيها ، ويعتبره سكانها « سادنا لها وآذنا » يزورون قبره ، ويقيمون حوله ، سنويا ، المواسم والافراح ، ويتوسلون به عند حلول الكوارث والازمات، وغالبا ما يسمون باسمه البكر من أولادهم ويرون « الحلف » به من أحرج الايمان .

فأهل العاصمة الجزائرية يعظمون سيدى عبد الرحمن الثعالبى ، وسكان وهران يتبركون بسيدى الهوارى ، وأهل تلمسان يقيمون المولد النبوى بسيدى « بومدين » ، والفاسيون يقسمون بالمولى ادريس ، والمراكشيون يزورون أضرحة « السبعة رجال »... وقلما تجد بوجدة دارا ليس بها طفل يسمى يحيى ، كما انه قلما تدخل اسواق تازة من غير ان تسمع من ينادى « يا عزوز ! » .

ما هى أسباب هذا التقدير الذى يحظى به « سدنة الحواضر » ؟ من الحق ان نعترف ان الكثير منهم اشتهروا وسار بذكرهم الركبان وهم لا يزالون احياء يرزقون ، وذلك اما لجهادهم فى سبيل الله وذودهم عن الاسلام ، واما لعلمهم ونبل مقاصدهم ؛ وقد يكون

ذلك لما ظهر على ايديهم من كرامات شاع خبرها فى الاوساط الشعبية وسجلها الاتباع فى « الاشادات والافادات » ·

لما طلب منى الاخ عثمان شبوب ، رئيس تحرير مجلة الاصالة الاسهام فى العدد الخاص المزمع اصداره بمناسبة انعقاد الملتقى التاسع للفكر الاسلامى بمدينة تلمسان رأيت ان أحاول الالمام باطوار حياة « مولى تلمسان » سيدى ابى مدين الغوث لاعرف ، من جهة ، مقومات شهرته ، ولاعود من جهة أخرى الى ذكريات عزيزة على ، تتسابق الى ذهنى كلما ترجع بى المخيلة الى أيام الشباب التى قضيتها بمدينة وجدة ، والى تلك الزيارات التى كنت أقوم بها لتلمسان للتجول فى مغانيها والتمتع بمباهجها ·

قمت بجولة سريعة فى المراجع التى ترجم فيها لسيدى ابى مدين ومنها دائرة المعارف الاسلامية ، فلم ألبث ان ادركت انه ليس من السهل وصف مراحل حياته بضبط ودقة ، ولكننى أدركت كذلك انه من المفيد ان احاول ازاحة النقاب عن بعض ما تحلى به ذلك الشيخ من خصائص ثقافية وخصال تربوية كان لها اطيب الاثر فى الاوساط الاجتماعية سواء منها تلك التى تعلم فيها والتى قام فيها بدور المرشد الامين والمصلح الموفق ·

هو ابو مدين شعيب بن حسين الانصارى ، أصله من قطنيانة (Cantillana) وهو حصن صغير فى الشمال الشرقى من أشبيلية (Séville)

غادر الاندلس فارا من اخوته الذين كانوا استغلوا يتمه ليجعلوا منه « راعيا لمواشيهم » ، وقصد العدوة طلبا للعلم لانه كان يؤلمه ان يرى الناس يصلون وهو لا يعرف كيف يصلى ، ويسمعهم يتلون القرآن وهو أمى ؛ ولا شك انه كان اذ ذاك فى منتصف العقد الثانى من عمره ·

* * *

عبر الى طنجة ثم ذهب الى سبتة حيث عمل مدة يسيرة ، أجيرا لصيادين ، وذهب بعدها الى مراكش صحبة جماعة من أهل الاندلس الا ان هؤلاء أدخلوه معهم فى « جملة الاجناد وكانوا ياكلون عطاءه » ·

بمراكش اشتد حرصه على طلب العلم فقيل له : ان رأيت ان تتفرغ لدينك فعليك بمدينة فاس » وكان ذلك مبتغاه يوم وصل الى جانب البحر ، في العدوة الاندلسية وهو يخبرنا كيف تاقت نفسه الى ذلك الهدف حيث قال : « فسرت حتى وصلت البحر ووجدت خيمة فيها ناس فخرج الى منها شيخ ، فسألني عن أمري فأخبرته ، فجلست عنده ، فاذا جعت رمى بخيط في طرفه مسمار فأخذ حوتا ويطعمه لي مشويا ، ثم قال لي : « انصرف الى الحاضرة حتى تتعلم العلم ، **فان الله تعالى لا يعبد الا بالعلم** » .

نرى اذن ان أبا مدين قصد فاسا لغاية واضحة، وهي الاكتراع من الحياض العلمية والسير الى الله على المحجة المرضية .

كانت فاس اذ ذاك كما قال لسان الدين بن الخطيب :

بلد أعارته الحمامة طوقها   وكساه ريش جناحه الطاووس

فكانما الانهار فيها مدامة   وكان ساحات الديار كؤوس

وقال القاضي المزدغي :

يا فاس حيا الله أرضك من ثرى   وسقاك من صوب الغمام المسبل

* * *

وبجامع القرويين شرف ذكره   انس بذكراه يهيج تململ

وبصحنه زمن الصيف عجائب   فمع العشي الغرب فيه استقبل

* * *

وقال صاحب الانيس المطرب بروض القرطاس « بلغت مدينة فاس في أيام المرابطين وأيام الموحدين من بعدهم من العمارة والغبطة والرفاهية والدعة ما لم تبلغه مدينة من مدن المغرب » .

قال أبو مدين عن أول أمره بفاس : « سرت اليها ولازمت جامعها ، ورغبت من علمني أحكام الوضوء والصلاة ، ثم سألت عن مجالس العلماء ، فسرت اليها مجلسا بعد مجلس

وانا لا يثبت فى قلبى شىء مما اسمعه من المدرسين الى ان جلست الى شيخ كلما تكلم بكلام ثبت فى قلبى وحفظته » .

كان ذلك الشيخ هو أبا الحسن على بن اسماعيل بن محمد بن عبد الله بن حرزهم ؛ ولما سأله ابو مدين عن سبب تأثير كلامه فى قلبه قال له : « هم يتكلمون باطراف ألسنتهم فلا يتجاوز كلامهم الآذان ، وأنا قصدت الله بكلامى فخرج من القلب » .

لازم أبو مدين شيخه ابن حرزهم ــ (أو حرازم ، حسب نطق العامة) ــ مدة ، وكان يشتغل فى أوقات فراغه مع النساجين ليحصل على قوته ويقضى قسطا من ليله فى المراجعة والعبادة .

كان الشيخ على بن حرزهم زاهدا فى الدنيا ، سالكا فى التصوف سبيل الملامتية ، ذا كرامات وفراسات ، تتلمذ على عمه ابى محمد صالح بن حرزهم ، الذى كان عرف الغزالى بالقدس ، وعلى ابى الفضل يوسف بن محمد الحمادى ابن النحوى الذى « عارض فقهاء العواصم الاقليمية من المغرب والاندلس عندما اشاروا على أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين باحراق كتاب « الاحياء » لما يحمل ، حسب قولهم ، من بدع المتكلمين وضلالاتهم ، ولما يحمل من تنقيص الفقهاء وشتمهم وتنفير الناس منهم ، وأفتوه أنه لا تجوز قراءته بحال » وقال الشيخ حرزهم ، بهذه المناسبة ، « وددت أنى لم أنظر فى عمرى ، سوى كتاب الاحياء » .

ويجدر بنا ، فى هذا الصدد ، ان نقول انه « ما كادت تنتهى أيام على بن يوسف ، وتطل دولة الموحدين بثورة المهدى بن تومرت ، حتى عاد الاحياء للظهور ، ودخل كل بيت ، فى جميع مدن العدوتين والى الآن لا يزال مثل مغربى يبين أهتمام المغاربة به ، وحرصهم على اقتنائه ، وذلك المثل يقول : بع اللحية وأشر الاحياء ! » .

ومما يؤكد ان الشيخ أبا الحسن كان على رأى عمه فى قضية احياء الغزالى هو ان ابا مدين قال : « سمعت رعاية المحاسبى عن ابى الحسن بن حرزهم » والمعروف ان الحارث المحاسبى كان يأخذ نفسه بالرياضة الشاقة وان كتابه « الرعاية لحقوق الله » يعتبر أول فتح فى التحليل النفسى ، ومرجع من أهم المراجع لجميع الصوفية من اعداء المال ، ومنهم

الغزالي الذى حمل حملة نكراء على الفقهاء والعلماء الذين لا يتورعون عن جمع المـــال ، « ومن المحقق ان الصوفية الصادقين لا يؤثرون الفقر الا فرارا من المال المشوب بالشبهات وان الخوف على النفس والقلب والضمير من ادناس الحرام هو خوف نبيل لا يستشعره غير صحاح القلوب » (كتاب التصوف الاسلامى ، لزكى مبارك) ٠

هذا ولا بأس ان نسجل هنا تلك الوقفة المشرفة التى وقفها ابـــو الحسن ، وهـــو بمراكش ، فى وجه الامير اللمتونى على بن يوسف ، عند ما أمر بقتل الفقيه الصـــوفى أبى الحكم عبد الرحمن بن برجان ، والقاء جثته فوق مزبلة ، اذ استنكر فعله على رؤوس الملأ وخطب فى الناس ليحتفلوا بجنازة القتيل ويواروه فى مقبرة المسلمين ٠

ويكفى دليلا على علو شأن الشيخ أبى الحسن حرزهم ان ضريحه لا يزال يحظى بكامل الاحترام ، قرب عين « سيدى حرازم » وان « سلطان الطلبة » لا يغفل عن زيارته فورا اثر انتخابه ، ليقف فى نفس الوقت ، على قبر المولى الرشيد الذى كان أول من أذن للطلبـة بانتخاب سلطانهم وبتنظيم ما يتبع ذلك الانتخاب ، كل سنة ، من حفلات وأفراح ، والذى كان « دفن بقصبة مراكش ، ثم نقل الى ضريح الشيخ أبى الحسن على بن حرزهم بفـاس لوصية منه بذلك » كما ورد فى كتاب الاستقصاء ٠ ومن شيـــوخ أبى مدين بفـــاس كذلك الفقيه المجاهد أبو الحسن بن غالب المتوفى سنة 592هـ (1166م) والموجود ضريحه حاليا بمدينة القصر الكبـير (قصر كتامة) قر بمكان وقعة وادى المخازن الشهـــيرة ؛ وقد قرأ أبو مدين على هذا الشيخ كتاب السنن لابى عيسى الترمذى ٠

وكان لابى مدين أشياخ فى التصوف ، ومنهم الشيخ الصالح أبو عبد الله الدقاق السجلماسى الاصل ، الذى كان يتردد الى فاس وكان يصرح « بأنه وليى ويتكلم عن أشياء تنكر عليه » وكان يقول : « أنا أول من أخذ عنه الشيخ أبو مدين علم التصوف ! » ٠

ومما يدعو للاستغراب انه لما مات هذا الشيخ ودفن بمقبرة باب الجيسة ، وضع على قبره رخامة نقش عليها اسمه وانه « كان شيخ ابى مدين ٠٠٠ » فحـــدث فى القبـــر تصـــدع ادى الى نقل تلك الرخامة واثباتها على جدار من جدران « مسجـــد سيدى أبى مدين » الذى بحى الرميلة بفاس والذى سنتكلم عنه فيما بعد ؛ وهناك شاهدها ،

سنة 1916 م ، الاستاذ الفريد بال Alfred Bel وهكذا نسى مع مر الزمان مكان قبـــر الدقاق و « بقى ذكر الاستاذ بفضل شهرة تلميذه » كما قال صاحب سلـــوة الانفاس (ج 3 ـ ص 104 ـ ط فاس) .

* * *

لاشك ان هذه التربية الصوفية هى التى حملت أبا مدين على زيارة أبى يعزى يلنور بن ميمون (572/438م) دفين جبل ايروجان قرب قرية تاغية والاخذ عنه .

لم يعرف عن ابى يعزى انه زار فاسا أو انه جلس فى حلقة من حلق علماء القرويين، وانما المشهور انه كان تلميذا للشيخ مولاى ابى شعيب السارية مؤسس رباط ازمـــور غير ان الشائع عن أبى يعزى انه لم يكن يتقن التكلم باللغة العربية ؛ ومع هذا فانه كان « اعجوبة فى الزمان وعدة للايمان ... بلغ من مقامات اليقين مبلغا لا يبلغه الا الافـراد من العارفين ، واشتهر عنه من الكرامات ما وقع موقع العيان » .

ترجم له عدة من المؤرخين واقدمهم صاحب كتاب « التشوف الى رجال التصـوف » أبو يعقوب يوسف بن يحيى بن عيسى بن عبد الرحمن التادلى المعروف بابن الـــزيات (627هـ 1230/1229م) ؛ وقد تكلم عما كان ، بعد موته ، لزاويته من اشعاع ، الرحالة الشهير الوزان الفاسى المدعو ليون الافريقى ، فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى ، ومرمول فى القرن التالى :

وقال فى حقه ابو مدين : « طالعت اخبار الصالحين من زمن أويس القرنى الى زماننا فما رأيت أعجب من ابى يعزى ؛ وطالعت كتب التذكير فما رأيت كالاحياء للغزالى » .

زار ابو مدين الشيخ ابا يعزى عدة مرات ، وكان ، كل مرة ، يبقى بقربه بضعة أيام يشاهد ما كان يتم على يديه من كرامات وما كان يتجلى فى مجلسه من غريب الاحـوال والمقامات .

امتحن أبو يعزى المريد أبا مدين مرات ، تارة بالاعراض عنه ، وتارة باستبار صبره على الجوع ، وتارة بارساله الى أماكن بها أسد كاشرة عن انيابها أو لصوص متوثبون للسطو

والاجرام ، ... » وكثيرا ما كان يثنى عليه ويخصه ، من بين أصحابه ، بالتعظيم والتبجيل » .

* * *

قضى أبو مدين سنين بفاس ، وكان يحب العزلة ويوثر قضاء الليل فى خلوة ، خارج المدينة للعبادة والعمل بما يتعلمه فى النهار ، من قرآن أو حديث حتى اشتاقت نفسه لزيارة الاراضى المقدسة ، والتعرف على كبار رجال التصوف والمعرفة ! الذين اشتهروا فى زمانه . فزار شيخه أبا يعزى واستأذنه فى مغادرة المغرب قصد أداء فريضة الحج . ولما أذن له بالانصراف توجه نحو الشرق « وأنوار الولاية عليه ظاهرة ، فأخذ عن العلماء ، واستفاد من الزهاد والاولياء ، وتعرف فى عرفة بالقطب الربانى أبى صالح الشيخ عبد القادر الكيلانى (أو الجيلانى) ـ (المتوفى سنة 561 هـ 1166 م) . فقرأ عليه بالحرم الشريف كثيرا من الحديث ؛ فألبسه الخرقة وأودعه كثيرا من أسراره وحلاه بملابس أنواره ؛ فكان أبو مدين يفتخر بصحبته ويعده أفضل مشايخه الاكابر » (عن شجرة النور الزاكية) .

لا يخفى على أحد من المطلعين على ما تتسم به بعض كتب التراجم القديمة من قلة الضبط فى التواريخ ، انه من الصعب تحديد السنة التى غادر فيها أبو مدين مدينةفاس، وبالتالى السنة التى لقى فيها الشيخ عبد القادر الجيلالى ، ولكن يجوز لنا أن نقدر انه قد يكون اتصل به فيما بين 550 و 555 هـ اذ ان الشيخ عبد القادر لما أتم دراسته العلمية وأخذ الطريقة عن الشيخ أبى الخير حماد بن مسلم الدباس (المتوفى فى عام 525 هـ) وتصدر للتدريس ببغداد فى المدرسة المنسوبة اليه سنة 528 هـ ، وعندما تعرف عليه أبو مدين ، « كان جبلا فى الاستقامة على الشريعة ، وركنا ركينا للتدريس والفتوى والوعظ ، قد اتفقت الالسنة وشهادة المعاصرين على حسن خلقه ، وسعة علمه ، وعلو همته ، وتواضعه لله تعالى ، وسخائه وايثاره لغيره » (رجال الفكر والدعوة فى الاسلام ، لابى الحسن على الحسنى الندوى) .

* * *

ويستفاد مما ذكره المقرى فى النفح ان أبا مدين كان اثر عودته من الشرق ، كان يوثـر العزلة للعبادة والتأمل ، ولكن لم يلبث أن رأى من الواجب عليه أن يجلس للتدريـس والارشاد ؛ وقد بـين هو نفسه السبب الذى حمله على اتخاذ ذلك القرار حيـث قال : ان بعض الاولياء قال لى : « رأيت فى النوم قائلا يقول ، قل لابن مدين بث العلم ولا تبال ترتع غدا مع العوالى ، فانك فى مقام آدم أبى الذرارى » فقلت له : « كنت عزمت عـلى الخروج للجبال والفيافى حتى أبعد عن العمران ، ورؤياك هذه تعدل بى عن هذا العـزم وتأمرنى بالجلوس ؛ فقولك « ترتع مع العوالى » اشارة لحديث « حلق الذكر مراتع أهـل الجنة » و « العوالى » « أصحاب عليين » ومعنى قوله « أبى الذرارى » ان آدم أعطى قـوة النكاح وأمر به ولم يجعل له قوة على كون ذريته مطيعين مؤمنين ، وكذا نحن أعطانا الله العلم وأمرنا ببثه وتعليمه ، ولا قدرة لنا على كون أتباعنا موفقين » .

ومن المرجح انه اتخذ ذلك القرار وهو بالمغرب الاوسط ، فاستوطن بجاية ؛ ولا شك انه كان قد نزل فيها من قبل ، فرأى انها : « معينة على طلب الحلال » .

* * *

وصف كثير من الكتاب والرحالة ما كانت عليه بجـاية ، عاصمة المغرب المتوسط ، فى القرن السادس عهد الامراء الموحدين ، من نشاط تجارى ، برى وبحرى ، ورفاهيـة وازدهار ، ومن نشاط ثقافى أساطينه علماء من المغرب الكبـير ، وأعلام وفدوا اليها مـن الاندلس ؛ بها « كان الناس على اجتهاد وكان الامراء لاهل العلم على ما يليق ويـراد » (عنوان الدراية ، ط . الجزائر ص 85) .

متى دخل ابو مدين بجاية ؟ ان الجواب على هذا السؤال ليس بالامر الهين ؛ ولكـن بامكاننا أن نجزم انه قضى بها أكثر من خمسة عشر سنة ، لانه فيها تزوج بجارية حبشية وانجب ولدا ، حقق معه ، وهو فى السابعة من عمره ، حالة غريبة من « حالات الايحـاء التنويمى جعلته يرى من الشاطىء سفينة تسير من بعيد ، خارج مرمى البصر » وقد ذكر هذه الكرامة الصوفى الكبير ابن عربى الحاتمى دفين دمشق ، الذى يكون قد لقى ابا مدين ببجاية سنة 590هـ (1193م) وهو فى طريقه من الاندلس الى افريقية ، وأخذ عنه لانـه

يشير مرات عديدة الى أنه « شيخه » وقد ذكر ذلك فى « الفتوحـــات » وفى « محاضرات الابرار » ، وأورد رؤاه وكراماته ومناقبه » (ابن عربى : تاليف بلانثيوس ، تعـــريب عبد الرحمن بدوى ص 35) ·

وقبل ذلك بنحو العشر سنوات كان نجم أبى مدين أخذ يتلألأ ببجاية ، ويؤكد ذلك ما ورد فى كتاب « انس الفقير » - (ص 92 - ط الرباط) - « ان الفقيه الصالح ابا عبد الله محمد بن حماد الصنهاجى القلعى قرأ عليه ، سنة 581 هـ ، كتاب المقصد الاسنى فى شرح اسماء الله الحسنى من فاتحته الى نهايته بداره ببجاية وقال : « وقيدت كلامه عليه من أول يوم من غير أن أعلم أحدا · فلما كان فى اليوم الثانى قال لنا الشيخ : لا أريد ان تقيد عنى شيئا مما أقوله فى هذا الكتاب ··· وكاشفنا بذلك » ·

هذا ونجد فى « عنوان الدراية » (ص 73 وما بعدها) كلاما لابى بكر بن عربى مفاده « ان الشيخ الحافظ ، زين العلماء ، رأس المحدثين ، أبا عبد الحق عبد الرحمن الاشبيـلى كان آخى أبا مدين فى بجاية وأقر له بالسبق فى طريق الحق ، « وكان اذا دخل عليـه ويرى ما ايده الله تعالى به ظاهرا وباطنا ، كان يجد فى نفسه حالة سنية لم يكن يجدها قبل حضور ، مجلسه ، فيقول عند ذاك : « هذا وارث علم الحقيقة » ؛ وكان هذا الشيخ ارتحل الى بجاية بعد الخمسين وخمسمائة ، وقد توفى بها بعد محنة نالته من الولاة ، سنة 581 هـ ·

وورد فى نفس الكتاب ، (بمناسبة ترجمة الشيخ المسيلى) « ان الشيخين أبا عـلى المسيلى (الملقب بأبى حامد الصغير) وأبا محمد عبد الحق الاشبيلى قصداه وهو جالس فى أحد مسجديه اللذين كان يجلس فيهما مع بعض خواصه ، فالفياه « يفيض فى أمـــور ويستخرج الدرر من قيعان البحور ··· فتيقنا « بان لله مواهب لا تسعها المكاسـب ، وان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء من عباده » ·

كان الشيخ ابو مدين يدرس بعض كتب التصوف ، ومنها ، كما ذكرنا ، الرسالـــة القشيرية للشيخ ابى القاسم عبد الكريم القشيرى المتوفى سنة 462 هـ ، والمقصد الاسنى فى شرح أسماء الله الحسنى لابى حامد الغـزالى ·

وقال الشيخ ابو عبد الله محمد التلمساني في كتابه : « النجم الثاقب فيما لاولياء الله من المناقب» «كان الشيخ سيدى أبو مدين فردا من أفراد الرجال، وصدرا من صدور الاولياء الابدال ، جمع الله له الشريعة والحقيقة ، وأقامه ركن الوجود هاديا وداعيا للحق، قصد بالزيارة من جميع الاقطار (النفح ج 2 ص 348) .

وخلاصة القول فان الشيخ أبا مدين كان مدة اقامته ببجاية « مشغولا بالتربية والافادة ، والتعليم والعبادة ، والاقبال على الله في الظاهر والباطن » يدعو الله بكيانه كله ، بحديثه وبصمته ، وبسيره وبجلوسه ، وبعمله واشاراته ، أخذ عنه طائفة كبيرة من الفضلاء واستجاب لدعوته جماعة وافرة من الاخيار البررة ، واستفتاه الآلاف من الحائرين فارشدهم الى ما يطمئن قلوبهم ويثلج صدورهم .

فان لم يثبت انه كان شيخا لسيدى عبد السلام ابن مشيش شيخ الصوفى المجاهد العارف بالله ، ابى الحسن الشاذلى ، فان بثغر اسفى Safi قبر ورباط تلميذ تلميذه عبد الرزاق الجزولى دفين الاسكندرية ، وهو الشيخ أبو محمد صالح المتوفى سنة 631هـ . والذى كان له الاثر المحمود والمقام المشهود فى تنظيم أول ركب حجازى ، وذلك «بان جعل أحد الشروط لصحبته ، حج بيت الله الحرام ؛ وبث اصحابه فى المراكز من اسفى الى الحجاز ليعينوا الحجاج على سلوك طريق الديار المقدسة ، فكانت طائفته كجمعية تبشيرية منظمة ارقى تنظيم ، تحبب للمغاربة الحج وتيسر لهم هكذا الاتصال بأهالى الاقطار الاسلامية الاخرى » فتتفتح آفاقهم ، وتثرى معارفهم ، وتصقل عواطفهم وتعتدل آراؤهم » وقد « سار أولاده واحفاده وتلاميذه على منهجه ، خلفا عن سلف ، حتى تكون الركب الحجازى رسميا فى المملكة المغربية .

* * *

« لما اشتهر ببجاية أمر أبى مدين ، وأخذت وفود ذوى الحاجات تتوارد عليه من الآفاق ، وشى به بعض علماء الظاهر عند يعقوب المنصور الموحدى (المتوفى سنة 595 هـ) وقال : « أنا نخاف منه على دولتكم ، فان له شبها بالامام المهدى ، واتباعه كثيرون فى كل بلد » فوقع فى قلبه وأهمه شأنه ، فبعث اليه للقدوم عليه ليختبره وكتب لصاحب

بجاية بالوصية والاعتناء بحمله خير محمل ؛ فشق ذلك على اصحابه فقال لهم : « ان منيتى قربت ، ولغير هذا المكان قدرت ، فبعث الله من يحملنى اليه برفق ، وأنا لا أرى السلطان ولا يرانى » ، فطابت نفوسهم وذهب بؤسهم ، فارتحلوا به الى ان وصلـــوا لضواحى « العباد » فقال لاصحابه : « ما أصلحه للرقاد ! » ومرض مرض موته ، وادركه أجله ، فتوفى هناك سنة 594 هـ ، وحمل الى « العباد » ودفن فيه ، رحمه الله ، برحمته الواسعة آمـــين ·

يستخلص من ترجمة أبى مدين أن طلب علم قصد حفظ الدين يقدم على « ارضـــاء ذوى الرحم » ، وان الشيخ الحقيقى هو الذى يربى تلامذته تربية اسلامية اساسها القرآن وعمادها السنة النبوية ، وأن التوكل لابد أن يبنى على السعى الملائم والعمل الصالح · ويستخلص من المنهج الذى سلكه انه صاحب لله ، ودعا لله بنفس تواقة نحو السمـــو والصفاء ، فاحبه واثنى عليه كل من عاشره بنية صالحة ، واستفاد منه وتمسك بمبادئه كل من أخذ عنه وقدره حق قدره ·

مرت على وفاته أكثر من سبعة قرون ، ولا يزال ضريحه وزاويته بالعباد محط الرعاية والاحترام كما لا يزال يذكر باقامته بفاس ، مسجد بحى الرميلة ، قرب قنطرة بين المدن، وبجانبه « عين سيدى بومدين » ، وهو مسجد كان الى عهد قريب يجتمع فيه المهاجرون التلمسانيون ليحيوا ليلة المولد النبوى ، أو للمذاكرة فيما بينهم كلما حزب بهم أمـــر ذو شأن ، ويوجد بمقصورته ، تجاه خلوة « سيدى بومدين » قبر سيدى أبى يعـــزى التلمسانى · ولا يزال كذلك بتونس جماعة زاوية « سيدى بومدين » وهى جماعة الشيخ الحاج المختار الكسراوى التونسى التى تجتمع للذكر وقراءة البردية والهمزية ودلائـــل الخيرات ·

* * *

فهذه صورة لما كان بالعالم الاسلامى على وجه العموم ، وبالمغرب الكبـير عـلى وجـه الخصوص ، فى القرن السادس الهجرى ، من نشاطات فكرية وعزمات روحية · ونرى من المفيد ختمها ببعض الكلمات والحكم النيرة المنسوبة للشيخ ابى مديـن عسى ان يخصص شبابنا قسطا وجيزا من وقتهم للتفكر فى فحواها واستخلاص مغزاها :

ـ من لم يجد فى قلبه زاجرا فهو خراب ٠

ـ من عرف نفسه لم يغتر بثناء الناس عليه ٠

ـ مروءتك اغضاؤك عن تقصير غيرك ٠

ـ المروءة موافقة الاخوان فيما لا يحظره العلم عليك ٠

ـ من رأيته يدعى مع الله حالا لا يكون على ظاهره منه شاهد فاحذره

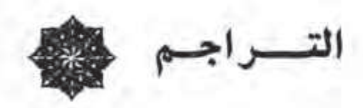
ـ احذر صحبة المبتدعة اتقاء على دينك واحذر صحبة النساء اتقاء على ايمان قلبك ٠

ـ من تعلق بدعوى الامانى لم يفارق التوانى ٠

ـ الزهد فريضة وفضيلة وقربة : فالفرض فى الحرام ، والفضـــل فى المتشابه ، والقربة فى الحلال ٠

ـ ابناء الدنيا يخدمهم العبيد والاماء ، وابناء الآخرة ، يخدمهم الاحرار والكرماء ٠

ـ بفساد العامة تظهر ولاة الجور ، وبفساد الخاصة تظهر دجاجلة الدين المفتاتون ٠

من أعلام عنابة

أحمد بن علي البوني

د · محمـد بلغـراد
معهد اللغة والادب العربى
جامعـة الجزائـر

أحمد بن على بن يوسف تقى الـــدين أبو العباس البونى نسبة الى مدينة بونة وهو الاسم القديم لعنابة الواقعة على شاطىء البحر المتوسط شرقى مدينة الجزائر، يلقبه بعض الباحثين بـ محيى الدين (1)، ولا نجد له لقبا فى كتابه شمس المعارف ، هو الامام المتصوف الفلكى الرياضى صاحب التصانيف العديدة المفيدة فى علـم أسرار الحروف والاسماء وغيره ·

رحل الى الشرق واستقر بالقاهرة (2) الى أن توفى · ولم يذكر أحد تاريخ ومكان ميلاده وكم عاش من السنين ولا كيف قضى حياته ولا كيف تلقى العلم · أجمعت المصادر

(1) ابن سبعين وفلسفته الصوفية ، ص 38 ·

(1) Huart (Cl.) : « Littérature arabe », Paris 1902, p. 314.

(2) معجم أعلام الجزائر ، ص 28 ·

على أنه توفى بالقاهرة سنة 1225/622 • ويبدو أنه عمر طويلا كما سنرى ذلــك فيما بعــد •

ذكر البوني فى آخر كتابه شمس المعــارف سنــد أشياخه وسنــد الرجــال الذيــن وصــل العلم اليه بواسطتهم • ذكــر سنــده بعلم الحـروف وسنـده بعلـم الاوفاق وغـيره • وفى الاخـير نــوه بأحدهم فقــال : « أما شيخنا الامــام العارف بالله العلامة أبو الحسن الحرانى قدس الله سره فقد ظهرت منه أحوال غريبــة واشتهرت عنه حكايات عجيبة • وكان فائق اللسان فى علم الحروف والاسماء وعارفا بمراتب الخواص •

وله فى علم الحروف مصنفات عظيمة الشأن • منها كتــاب اللمعة وكتاب شمس مطالع القلوب وغير ذلك من الفوائد النورانية والزوائد العرفانية •

وهو أبو الحسن بن على بن محمد بن ابراهيم بن محمد الحرانى • سكن حماة ومات بها سنة 538 • (3)

اذن أقل ما تكون سن البونى قد بلغت عند وفاة شيخه الحرانى خمسة عشر أو ستة عشر سنة ليتمكن من الافادة من تلقى دروسه فى علم الحروف أو الفلك أو الرياضيات بالنسبة الى طالب يافع موهوب فى مستوى البونى • لذلك نرجح أن يكون هذا الاخير قد ولد حوالى سنة 522 ويكون قد عمر قرابة مائة سنة • والله أعلم •

وقد كان البونى جادا فى حياته الفكرية دؤوبا على العمل والتاليف • وتصانيفه تدل على خصوبة فى الانتاج وقوة على التفكير • ويبدو أنه كان ذا مزاج متفائل وكان مقبلا عـلى الحياة محبا لها • وكان سلوكه متحليا بالاستقامة والورع والصلاح وخشية الله تعالى • وقد انتشر صيته فى مشارق الارض ومغاربها • ولعله كان مدينا بشهرته لفضله وسعـة علمه واعتداله فى شؤون حياته •

وكان البونى يلح على تاليف الكتب الكثيرة فى الموضوع الواحد • يدل ذلك على أنه كان معنيا بالاحاطة والشمول فى عرض المسائل وتفسيرها والاستقصاء فى توضيحهـا وذكر الدقائق والتفاصيل • وعلاوة على عنايته بالمضمون كان معنيا أيضا بتجويد الصياغة

(3) شمس المعارف ، ص 532 •

والتأنق فى العبارة · وكثيرا ما يستخدم السجع بحظ وافـر من البراعة والتوفيق · ولم يأل جهدا فى اسداء النصائح لقارىء كتابه شمس المعارف حتى لا تكون قراءته مدعاة لمعصية الله ·

قال فى المقدمة : فحرام على من وقع كتابى هذا فى يده أن يبديه لغير أهله أو يبوح به فى غير محله فانه ان فعل ذلك حرمه الله تعالى منافعه ومنعت عنه فوائده وبركته · ولا تمسه الا وأنت طاهر · ولا تقربه الا اذا كنت ذاكرا لتفوز منه بما تريد · ولا تصرفه الا فيما يرضى الله تعالى · فانه كتاب الاولياء والصالحين والطائعين والمريدين والعاملين والراغبين · فكن به ضنينا ولا تدع منه قليلا ولا كثيرا · وليكن يقينك صادقا وايمانك بحقائقه واثقا ·

ومن الصعب ذكر كل ما ألف البونى من التصانيف (4) · ولذلك نجتزىء بـذكر بعضها ـ له فى أسرار الحروف ـ اسرار الحروف والكلمات ـ رسائـل الشهـود فى الحقائق على طريقة علم الحروف ـ شرف الشكليات وأسرار الحروف الورديات ـ كتـاب الحروف والعدد وخواصهما ـ لطائف الاشارات فى أسرار الحروف العلويات ـ وله فى شرح البسملة خصائص السر الكريم فى فضائل بسم الله الرحمن الرحيم ·

وله فى شرح أسماء الله الحسنى ·

موضح الطـريق وقسطاس التحقيـق من مشكاة اسمـاء اللـه الحسنى والتقرب بها الى المقام الاسنى ـ المشهـد الاسنى فى شرح أسمـاء اللـه الحسنى · وله كتب فى الاذكـار والادعيـة والتصـوف · منهـا : التوسـلات الكتابيـة والتوجهات العطائية ـ قبس الاقتداء الى وفق السعادة ونجم الاهتداء الى شرف السيادة ـ قوت الارواح ومفتاح الافراح ـ كنز اللطائف النورانية فى أسرار اللمعة النورانية ـ مواقف الغايات فى أسرار الرياضات ـ له فى التصوف : جواهر الاسرار فى بواهـر الانوار ـ وله فى النجوم رسالة فى أحكام النجوم ·

وله فى شرح « ن والقلم » الرسالة النونية فى الحقيقة الانسانية ·

(4) انظر فى تصانيف البونى : معجم أعلام الجزائر ، ص 28 وما بعدها ·

وله رسالة فى شرح اسم الله الاعظم • وله : منبع أصول الحكمة يشتمل على أربع رسائل : 1 ـ الاصول والضوابط • 2 ـ بغية المشتاق فى علـم الاوفـاق • 3 ـ شرح البرهتية المعروف بشرح العهد القديم • 4 ـ شرح الجلجلوتية الكبرى • (5)

ويبدو أن أكبر كتبه هو كتاب شمس المعارف ولطائف العوارف • منه مطول عنوانه شمس المعارف الكبرى ومختصر عنوانه شمس المعارف الصغرى • وهو تاليف ضخم يشتمل على أربعة أجزاء • وهو شبه موسوعة فى علم السيمياء جمـع فيه صاحبـه ما تفرق فى سائر كتبه • وقد انعكست ثقافة المؤلف بما فيها من جوانب وألوان على صفحات هذا الكتاب ، يتحدث فيه المؤلف عن أشياء شتى عن الحروف وأسرارها وعن أشياء فلكية هى ألصق بعلم التنجيم كالبروج الاثنى عشر ومنازل القمـر الثمانية والعشرين وعن خواص أوائل سور القرآن وعن فضل سور وآيات شتى كالفاتحة ويس وآية الكرسى والبسملة • ويتحدث البونى فيه عن الخلوة والاعتكاف وعن الاسم الاعظم وسائر أسماء الله الحسنى وعن الرياضات والاذكار والادعية وعـن بعض الاوفـاق

---

(5) مطبعة البانى الحلبى ـ القاهرة 1355هـ/1936 •

والجدير بالذكر أن أحد الدارسين الجزائريين ألف أخيرا كتابا يذكر فيه طائفة مـن المخطوطات الجزائرية الموجودة حاليا فى مكتبات اسطنبول • وعددها مائتا مخطوط لمؤلفين جزائريين موزعة على مكتبات كثيرة وفى موضوعات شتى فى تفسير القرآن والحديث الشريف والعقائد والتصوف وأسرار الحروف والاسماء والادب والتاريخ وفنون شتى وقد ذكـر من بينها طائفة من كتب البونى • منها 18 مخطوطا لكتاب شمس المعارف وحده ومخطوطات أخرى لكتاب التوبة وكتاب الدعوات وكتاب منافع القرآن وكتاب علـم الهـدى وأسرار الاهتداء وكتاب خواص أوفاق ورسالة فى أحكام النجوم ورسائل مجموعة وشرح اسماء الله الحسنى وكتاب غاية المغنم ، وكتاب اللمعة النورانية كلها من تاليف البونى • ويذكر المؤلف كل مرة عنوان المخطوط ونوع خطه وشكله واسم مؤلفه وموضوعه وعدد صفحاته وكـم سطرا فى الصفحة ويذكر اسم المكتبة التى يوجد فيها المخطوط ورقمه واسم الناسخ ان كان ويشفع ذلك أحيانا بمعلومات أخرى عن المخطوط كتاريخ النسخ وكون المخطوط نقل عن النسخة الاصلية ، وهكذا •

وفى أول الكتاب مقدمة مفيدة فيها تعريف بمكتبات اسطنبول وعددها وأسمائها ونظامها الداخلى والادارات المشرفة عليها ومشكلة ازدواج الكتابة بالحروف العربيـة والحروف اللاتينية فى فهارس الكتب وبطاقاتها كل هذا فى كتاب : مخطوطات جزائرية فى مكتبات اسطنبول • تأليف الدكتور محمد بن عبد الكريم عدد صفحات الكتاب 168 • بيروت 1972 •

والطلسمات وعن أنماط الاسماء الحسنى وعن الفيض الربانى وعن أعمال السيمياء وعن أشياء كثيرة من العسير جدا حصرها وضبطها لتشعبها وكثرة أنواعها ·

والبونى لا يكتفى فى كتابه شمس المعارف بالحديث عن الحروف وأسرارها من الوجهة النظرية بل يشفع ذلك بالخروج الى المجال العملى التطبيقى ولا يقتصر على دراسة حروف القرآن والبسملة وما يتصل بهما بل يضيف الى ذلك الاستفادة من هذه الاسرار فيما يختص بالحياة المعاشية · فاسم الله الاعظم يلجأ اليه عند الضرورة لتحقيق بعض الرغائب أو للخلاص من بعض المصاعب كما كان الاقدمون الغلاة يهزمون به الجيوش · وعندما يتحدث المؤلف عن بسم الله الرحمن الرحيم يذكر ان فيها تسعة عشر حرفا على عدد الملائكة الموكلين بالنار ويروى البونى عن ابن مسعود أن من أراد أن ينجيه الله من الزبانية التسعة عشر فليكثر منها · كل حرف نجاة من كل واحد منهم · وفيها الاسم الاعظم الذى كان المسيح عليه السلام يرقى بالباء منها من الاوجاع والآلام (6) · فصار هكذا علم الحروف حرفة ووسيلة لتسخير الطبيعة · ومما يسترعى الانتباه أن البونى ذكر شيئا لعله لم يسبق له ذكر قبله وهو أن الحروف هى 32 حرفا · منها 28 حرفا عربيا مبينا وأربعة أحرف مدغمة واهية اللفظ وهى گ-چ-ث-پ (7) ·

ومما يدل على المكانة السامية التى احتلها البونى بعصاميته بين العلماء والمفكرين فى القديم اقتران اسمه فى بحوث اشهر الدارسين باسماء لامعة فى سماء العلم والفكر والتصوف · ذكر ابن خلدون البونى فى مقدمته فى فصل واحد ثلاث مرات بصدد حديثه عن علم أسرار الحروف · قال : « وتعددت فيه (علم أسرار الحروف) تآليف البونى وابن عربى وغيرهما ممن اتبع آثارهما » ، وقال متحدثا عن أصحاب السيمياء : « ان مستندهم فيه الذوق والكشف · قال البونى : ولا تظن أن سر الحروف مما يتوصل اليه بالقياس العقلى وانما هو بطريق المشاهدة والتوفيق الالهى » ·

---

(6) شمس المعارف الكبرى ، ص 33 وما بعدها · ·

(7) المصدر نفسه ، ص 363 ·

وقال : « ويبنون على ذلك مبانى غريبة منكرة من تقسيم سور القرآن وآية على هذا النحو كما فعله مسلمة المجريطى (8) فى كتاب الغاية · والظاهر من حال البونى فى أنماطه انه اعتبر طريقتهم » · (9)

أما ما يخص علم أسرار الحروف فقد قال عبد الرحمن بن خلدون : وحدث هذا العلم فى الملة بعد صدر منها (10) ويبدو أن أبا محمد سهل بن هارون بن راهبون الكاتب صاحب بيت الحكمة أيام المأمون العباسى (215/830) كان أول من عرض لهذا الميدان ببحثه فى الحروف العربية عموما وملاحظته أن عددها يعادل عدد منازل القمر الثمانية والعشرين وأن أطول كلمة عربية لا تتجاوز حروفها السبعة عدد السيارات السبع وأن الحروف المزيدة على الاصول العربية تعادل عدد البروج الاثنى عشر وأن نصف الحروف يدغم مع لام التعريف وهى الشمسية ونصفها لا يدغم · فتنبه الى أن ذلك يشبه منازل القمر من حيث ظهور نصفها للعيان واختفاء النصف الآخر على الوجه الآخر للقمر والتفت سهل بن هارون كذلك الى أن حركات الاعراب الثلاث تشبه الحركات الطبيعية الثلاث : الاولى من الوسط كحركة النار والثانية الى الوسط كحركة الاجرام الساقطة من الجو على الارض والثالثة حول الوسط كحركة الفلك · (11)

---

(8) مسلمة المجريطى (338 – 398/950 – 1007) أبو القاسم · فيلسوف رياضى فلكى كان امام الرياضيين بالاندلس وأوسعهم احاطة بعلم الافلاك وحركات النجوم· مولده ووفاته بمجريط (مدريد) · الاعلام ط · 3 · 121/8

وكان موسيقارا معروفا وله فى الموسيقى والرياضيات رسائل · ولم يصلنا من كتبه الا كتابان : 1 – وثبة الحكيم فى الكيمياء والسيمياء · 2 – وغاية الحكيم وأحق النتيجتين بالتقديم فى الطب · تراث الاسلام ، ص 537 ، وقال عبد الرحمن بن خلدون : ثم جاء مسلمة بن أحمد المجريطى امام أهل الاندلس فى التعاليم والسحريات فلخص جميع تلك الكتب وهذبها وجمع طرقها فى كتابه الذى سماه غاية الحكيم · ولم يكتب أحد فى هذا العلم بعده ·

المقدمة تحقيق نصر الهورينى ، ص 242 ·

(9) مقدمة ابن خلدون تحقيق نصر الهورينى ، ص 245 ·

(10) مقدمة ابن خلدون بتحقيق نصر الهورينى ، ص 245 ·

(11) الفهرست لابن النديم ، ص 10 ·

وذكر ابن النديم أن الكندى (260/873) كان أول من حاول استخراج الدلالات العددية من الحروف لينتقل الى الاسرار الكامنة فيها · من ذلك انه ذكر أن لفظ « القلم » يساوى لفظ « نفاع » على اعتبار أن كلا اللفظين اذا جمعت جملة حروفه العددية يساوى 201 · (11)

من هنا برزت الحروف بوصفها مصدر للمعرفة وجاء بعد الكندى أبو زيد أحمد ابن سهل البلخى (235ـ 322/849 ـ 934) أحد الكبار الافذاذ من علماء الاسلام جمع بين الشريعة والفلسفة والادب والفنون وكان من براعته فى الحساب أنه وقت وفاة نفسه فى دقة غريبة وقد كتب أبو زيد هذا رسالة فى أن سورة الحمد تنوب عن جميع القرآن · (12)

وقد احتفظ التاريخ باسم كتاب ضاع ألفه محمد بن عبد الله بن مسرة القرطبى (269 ـ 318هـ/883 ـ 931م) وهو كتاب الحروف · (13)

ولم يدخل القرن الرابع حتى كانت فكرة معالجة الحروف داخلة فى كل أشكال المعرفة الانسانية · فعالجها الشيعة والصوفية والفلاسفة · وقد زعم الحلاج مقتفيا أثر أبى زيد البلخى فى القول بأن فى القرآن علم كل شىء وعلم القرآن فى الاحرف التى فى أوائل السور وعلم الاحرف فى لام الف وعلم لام الف فى الالف وعلم الالف فى النقطة ··· (14)

وعنيت الفلسفة بمعالجة الحروف فكتب فيها ابن سينا (370 ـ 428هـ) رسالة فى معانى الحروف الهجائية التى فى فواتح السور القرآنية (15) وألف أبو حامد الغزالى (450 ـ 505هـ) رسائل ضاعت · منها : أسرار حروف الكلمات ـ رسالة فى الاحرف ـ فواتح السور ـ المبادى والغايات فى أسرار الحروف · (16)

(12) الاعلام 131/1 ـ الفهرست 138 ـ معجم الادباء 62/3 وما بعدها ·
(13) تاريخ الفكر الاندلسى ، ص 329 ·
(14) اخبار الحلاج (تحقيق ماسينيون وبول كراوس) باريس ، 1936 ، ص 95 ـ 96 · نقلا عن كتاب الفكر الشيعى والنزعات الصوفية ·
(15) تسع رسائل لابن سينا ، ص 92 ـ 96 ·
(16) مقدمة المنقذ من الضلال لجميل صليبا وكامل عياد ـ دمشق 1934 ، نقلا عن كتاب الفكر الشيعى والنزعات الصوفية ·

أما محيى الدين بن عربى (560 ـ 638هـ/1165 ـ 1240م) فقد تحدث باسهاب عن علم أسرار الحروف فى الفتوحات المكية • قال :

اعلم وفقنا الله واياكم أن الحروف أمة من الامم مخاطبون مكلفون • وفيهم رسل من جنسهم • ولهم أسماء من حيث هم • ولا يعرف هذا الا أهل الكشف من طريقنا • وعالم الحروف أفصح العالم لسانا وأوضحه بيانا • وهم أقسام كأقسام العالم المعروف فى العرف • (17)

وقال : ولو فتحنا الكلام عن سرائر هذه الحروف وما تقتضيه حقائقها لكلت اليمين وحفى القلم وجف المداد وضاقت القراطيس والالواح • فانها من الكلمات التى قال الله ـ تعالى ـ فيها : لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفذ البحر قبل أن تنفذ كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا • وقال : ولو أن ما فى الارض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفذت كلمات الله وقـــال : وهنـــا سر واشارة عجيبة لمن تفطن لها وعثر على هذه « الكلمات » فلو كانت هذه العلوم الالهية نتيجة عن فكر ونظر لانحصر الانسان فى أقرب مدة • ولكنها موارد الحق ـ تعالى ـ تتوالى على قلب العبد وأرواحه البررة تنزل عليه من عالم غيبه • اهـ (18)

وننقل هنا ما يدل على موقف محيى الدين بن عربى من علم الحروف ورأيه فيها • قـــــال :

وهو (علم الحروف) علم شريف فى نفسه الا أن السلامة منه عزيزة • فالاولى ترك طلبه • فانه من العلم الذى اختص الله به وأولياؤه على الجملة وان كان عند بعض الناس منه قليل ولكن من غير الطريق الذى يناله الصالحون • ولهذا يشقى به من هو عنـــده ولا يسعـــد • (19)

(17) الفتوحات المكية 1/255 ـ 260 ـ كلام محيى الدين بن عربى عن الحروف كثير موزع على الاجزاء الثلاثة الاولى من الفتوحات • انظر الطبعة الجديدة بتحقيق د • عثمان يحيى وتصدير د • ابراهيم مدكور • القاهرة 1972 ـ 1974 •

(18) المصدر السابق ، 3/208 •

(19) ابن سبعين وفلسفته الصوفية ، ص 90 •

وأسلوب المتصوفة فى علم أسرار الحروف والاسماء بوجه عام فى غاية الغموض والابهام لاستخدامهم الرموز والالفاظ الاصطلاحية لاخفاء أذواقهم ٠فلعبارتهمفىالغالب معنيان أحدهما يستفاد من ظاهر الالفاظ والآخر يستفاد بالتعليل والتعمق ٠ وهذا المعنى الاخير مستغلق تماما على من ليس بصوفى ٠ ويعنى الرمز عند الصوفية أيضا دمج معان كثيرة فى ألفاظ قليلة غيرة عليه واتقاء لحاسد أو جاحد لمعانيه ومبانيه ٠

وبما يكون من المفيد أن نختتم هذا المقال بالقاء شيء من الضوء على ظاهرة علم أسرار الحروف والاسماء بتلخيص ما ذكره ابن خلدون فى المقدمة بهذا الصدد : كان علم أسرار الحروف يسمى بالسيمياء ٠ وهي نوع من السحر ٠ واشتق علم أسرار الحروف من علم الطلمسات فى اصطلاح أهل التصرف من المتصوفة ٠ وحدث هذا العلم فى الملة عند ظهور الغلاة من المتصوفة وميلهم الى كشف حجاب الحس وظهور الخوارق على أيديهم والتصرفات فى الكون وتدوين الكتب والاصطلاحات ٠ وزعموا أن الكمال الاسمائى مظاهره أرواح الافلاك والكواكب وأن طبائع الحروف وأسماءها سارية فى الاسماء ٠. فحدث لذلك علم أسرار الحروف ٠ وهو فرع من علم السيمياء وحاصله وثمرته عند أهله كالبونى وابن عربى والمجريطى وابن سبعين وغيرهم تصرف النفوس الربانية فى عالم الطبيعة بالاسماء الحسنى والكلمات الالهية الناشئة عن الحروف المتضمنة للاسرار السارية في الكون ٠ ثم اختلفوا فى سر التصرف الذى فى الحروف بماذا يكون ٠ منهم من جعله كامنا فى طبيعته المستكنة فيه ٠ وقسم الحروف بقسمة الطبائع الى أربعة أصناف كما للعناصر واختصت كل طبيعة بصنف من الحروف يقع التصرف فى طبيعتها فعلا وانفعالا بذلك الصنف ٠ فتنوعت الحروف بصفة صناعية الى نارية وهوائية ومائية وترابية على حسب تنوع العناصر ٠ فالالف للنار والباء للهواء والجيم للماء والدال للتراب ٠ فاختص كل من العناصر وهى النار والهواء والماء والتراب بحروف سبعة ٠

ومنهم من جعل سر التصرف الذى فى الحروف للنسبة العددية ٠ فان حروف أبجد دالة على أعدادها ٠ فعلاوة على التناسب الذى بين الحروف والاعداد يوجد تناسب بين الحروف نفسها أيضا كما بين الباء والكاف والراء لدلالتها كلها على الاثنين كل فى رتبته ٠ فالباء تساوى اثنين فى رتبة الآحاد والكاف تساوى اثنين فى رتبة العشرات

والراء تساوى اثنين فى رتبة المئتين (ب = 2 ، ك = 20 ، ر = 200) وكالذى بينها وبين الدال والميم والتاء لدلالتها على الاربعة (د = 4 ، م = 40 ت = 400) وبين الاربعة والاثنين نسبة الضعف ٠

وخرج للاسماء أوفاق كما للاعداد ٠ يختص كل صنف من الحروف بصنف من الاوفاق الذى يناسبه من حيث عدد الشكل أو عدد الحروف ٠

وامتزج التصرف فى السر الحرفى والسر العددى لاجل التناسب الذى بينهما ٠ ويعترف ابن خلدون بأن سر هذا التناسب الذى بين هذه الحروف وأمزجة الطبائع أو بين الحروف والاعداد أمر عسير على الفهم ٠ اذ ليس هو من قبيل العلوم والقياسات ويعتمد أهل هذا العلم فى ذلك على الذوق والكشف ٠ قال البونى : ولا تظن أن سر الحروف مما يتوصل اليه بالقياس العقلى ٠ وانما هو بطريق المشاهدة والتوفيق الالهى ٠ وتاثره بها أمر لا ينكر لثبوته عن كثير من أصحاب هذا العلم بالتواتر ٠ وينكر أن تصرف هؤلاء وتصرف أصحاب الطلسمات واحد ٠

فان تأثير الطلسم ــ كما يقر أهله بذلك ــ ناشىء عن قوى روحانية تؤثر وتفعل بطريق القهر والغلبة بواسطة أسرار فلكية ونسب عددية وبخورات جالبات لروحانية ذلك الطلسم مشدودة فيه بالهمة ٠ فائدتها ربط الطبائع العلوية بالطبائع السفلية فيحصل بذلك الربط التحول المنشود فى الطبيعة ٠ فهيمنة الطلسم على الطبيعة يقع بملكة مكتسبة نابعة من نفس وهمه مستخدمة ٠ يقولون : موضع الكيمياء تأثير جسد فى جسد ٠ وموضع الطلسم تأثير روح فى جسد لانه ربط الطبائع العلوية وهى روحانية بالطبائع السفلية وهى جسد ٠

ولابد من التاكد من شىء وهو أن التصرف فى الطبيعة من قبل أهل الطلسمات وأهل الاسماء يعتمد على النفس الانسانية والهمة البشرية ٠

وتاكيد الفرق بين أهل الطلسمات وأهل الاسماء نابع من أن النفس البشرية تتصرف فى الطبيعة بذاتها ٠ أما تصرف أهل الطلسمات فانما يعتمد على استنزال روحانية

الافلاك وربطها بالصور أو بنسب عددية حتى يتحقق التحول المرجو فى الطبيعة . وتصرف أصحاب الاسماء يحصل لهم بالمجاهدة والكشف والاستمداد من النور الالهى والعون الربانى . فيقع بذلك امتثال الطبيعة وخضوعها .

وصاحب الاسماء لا يحتاج الى مدد من القوى الفلكية ولا غيرها لان مدده أعلى منها أما أهل الطلسمات فيحتاجون الى قليل من الرياضة تقيد النفس قوة على استنزال روحانية الافلاك . بخلاف أهل الاسماء فان رياضتهم هى الرياضة الكبرى المنزهة عن قصد التصرف فى الكون . وانما التصرف حاصل لهم بفضل وضعهم الممتاز وهو كرامة من كرامات الله لهم .

فاذا خلا صاحب الاسماء من الصلة بينه وبين الله حرم معرفة أسرار الله وحقائق الملكوت النابعة من المشاهدة والكشف واستعاض عن ذلك باستخدام مناسبات الاسماء وطبائع الحروف والكلمات وهبط الى دركة أهل السيمياء وصار اذن لا فرق بينه وبين صاحب الطلسمات . بل صاحب الطلسمات أوثق منه لانه يرجع الى أصول طبيعية علمية وقوانين مضبوطة (20) .

(20) مقدمة عبد الرحمن بن خلدون بتحقيق نصر الهورينى ، ص 245.

اهم المصادر والمراجع

1 ـ الاعلام ـ الزركلي ـ ط 2 ، القاهرة 1957 ٠

2 ـ تراث الاسلام ـ تأليف جمهرة من المستشرقين باشراف سير توماس أرنولد ، تعريب وتعليق جرجيس فتح الله ، ط 2 بيروت 1972 ٠

3 ـ ابن سبعين وفلسفته الصوفية ـ د ٠ أبو الوفا التفتازاني ، بيروت 1973 ٠

4 ـ شمس المعارف الكبرى ـ البوني ـ بيروت 1970 ٠

5 ـ الفتوحات المكية ـ محيي الدين بن عربي ـ طبعة جديدة ـ تحقيق د ٠ عثمان يحيى وتصدير د ٠ ابراهيم مدكور الاجزاء 1 ـ 2 ـ 3 ـ القاهرة 1972 ـ 1974 ٠

6 ـ الفهرست ـ ابن النديم تحقيق غوستاف فلوغل ـ ليبتزيق 1871 ٠

7 ـ مخطوطات جزائرية في مكتبة اسطنبول جمع وترتيب د ٠ عمر بن عبد الكريم بيروت ، 1972 ٠

8 ـ معجم الادباء ـ ياقوت ـ دار المأمون ـ الجزء 3 ـ القاهرة 1936 ٠

9 ـ معجم أعلام الجزائر ـ عادل نويهض ـ بيروت 1971 ٠

10 ـ مقدمة عبد الرحمن بن خلدون تحقيق نصر الهوريني القاهرة 1274 هـ ٠

11 ـ الفكر الشيعي والنزعات الصوفية ـ د ٠ كامل الشيبي بغداد 1966 ٠

ابن حماد الصنهاجي

جلول بدوي

تستأثر الجزائر برصيد نادر ، ذخيرة فذة ، من خيرة ابنائها الذين رفعوا لواء مجدها الثقافي اجيالا متتالية ، في المشارق والمغارب ، منذ أن أشرق نور العرفان السماوي في هذه الربوع ، وتألق نجم الهدى النبوي في سمائها ، يهتدي به الضالون في الليلة الليلاء ، ويستنير به المدلجون الحيارى في المتاهات

لقد خف ابناء هذه الارض الى تناول ذلك المشعل الوهاج الحضاري يتلقفونه من أيدي القادة البهاليل الذين تغلغلت في نفوسهم دعوة الحق ، ودفعتهم الى تمكين هذه الدعوة اينما توجهوا وحيثما حلوا رغبة في

تبليغ كلمة الله لعباده ، امانة تعهدوا بأدائها يوم أن بايعوا محمد ابن عبدالله ، المبعوث الى الناس كافة ، دانيهم وقاصيهم ، صلوات الله وسلامه عليه ، رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، اثابهم الله على ما أتوا ، وجزاهم بالحسنى .

عرفت التربة الجزائرية بانها تربة خصبة ، ليس فيها اجادب ، تؤتي ثمار نباتها كلما جادتها السحائب

واحيتها بغيث من وابل مدرار ، لا ينفك ينبت على اديمها افذاذا من ائمة كانت لهم مقامات جلى في ميادين العلم والمعرفة ، ظلوا بها همزة وصل بين العلماء ، الصادرين والواردين من المشرق الى المغرب ، ومن هذا الى ذاك .

ونأسف لكون الايام التي تعرف عددا منهم ليس بالقليل كيف طاب لها أن تسحب عليهم ذيل النسيان ، بينما نجدها تعنى بآخرين دون مستواهم شأنا ومقاما . ! أظاهرة عزيز علينا أن نراها بادية على مر الايام ، ثم تبقى هي هي الى يوم الناس هذا ؟ وهو أمر باعد بين الناشئة وبين ماضيها حتى اصبحت تجهل تاريخ بلادها العلمي ، جهلا يحدمن مداركها ، ويحرمها من الانتفاع بمآثر قومها .

والحق أن التبعة تعود أولا وبالذات علينا ، نحن الذين جمدوا على ماحضر ، ففترت الهمم عن التفكير في محاولة الكشف عن تراث الاجداد العلمي الذي عرف بعضه عند الاباعد.

ولقد كنت فيما مضى كتبت شيئا عن بعض علمائنا وادبائنا ، نشر في حينه ببعض الصحف المحلية . واليوم اعود الى الموضوع من جديد ، . وأول ما تمثل في خاطري تجلية شخصية مغمورة ، طوتها الاحقاب فيمن طوت ، وباتت نكرة ، قد لا يعرف عنها الكثير من القراء شيئا ، مع انها جديرة بان تعرف ، وقمنة بان تبرز للظهور ، شأن نظائرها من رجالات الادب والعلم . أوليس أن هناك رجلا انجبته بلاد الجزائر في عهد من عهودها الخوالي المزدهرة يدعى (ابن حماد الصنهاجي)؟ فمن هو ؟ ومن عساه أن يكون ؟

التعريف به

هو الامام ابو عبد الله محمد بن علي بن حماد بن عيسى ابن ابي بكر ، ينحدر من قبيلة صنهاجة العتيدة التي كانت تشغل ساحات مترامية الاطراف من القطر الجزائري ؛ ولد باحدى القرى المنبثة حول « قلعة بني حماد » تدعى باسم « حمزة » في أواخر النصف الاول من القرن السادس ، وعلى وجه التقريب سنة ٥٤٨ هـ ١١٠٥ م

ونشأ بالقرية المذكورة في عهد الناصر بن علناس اعظم ملوك بني حماد ، تلك القلعة التي عاشت مزدهرة برجال الفكر والادب والسياسة ، بفضل تشجيع مؤسسها وأهل العلم حينا من الدهر ، حتى كانت كعبة القصاد ، ومنتجع الرواد ، وفيها بدأ ابن حماد يتعلم ويتقلب في مدارج العلم والعرفان ، يأخذ عن كبار علمائها وادبائها حتى تقضى لبانته من ذلك ، ثم تحول الى مدينة بجاية

حيث اتم ما بداه بالقلعة .

نذكر من بين مشائخه واساتذته الذين تخرج على ايديهم :

ا ـ المربى الشهير الشيخ ابا مدين شعيب بن الحسن الاشبيلى البجائى المتوفى بقرية « العباد » من ضواحى تلمسان سنة ٥٩٤ هـ ومن جملة ما روى عنه كتاب : (المقصد الاسنى فى شرح اسماء الله الحسنى) .

ب : عبد الرحمن بن عبد الله ، ابا محمد الازدى الاشبيلى المولود سنة ٥١٠ هـ باشبيلية ، والمتوفى ببجاية سنة ٥٨٢ هـ صاحب التآليف القيمة ، فى الفقه والحديث واللغة ، روى عنه كتبا كثيرة فى الحديث وخاصة موطأ الامام مالك .

ج ـ الامام حسين بن على بن محمد الشهير بـ « ابى على الموسيلى » والملقب بأبى حامد الصغير ، بسبب تأليف له سلك فيه مسالك الغزالى فى الاحياء ، قال فيه بعض العلماء : ان كلام ابى على فيه أحسن واسلم من كلام الغزالى . مات ببجاية ، ودفن عند باب « أميسيون » ولم يعلم تاريخ وفاته .

د ـ : الشيخ ميمون بن جبارة ـ أبا تميم البارودى الذى كان قاضيا ببلنسية بالاندلس ، ثم ببجاية الى ان استدعى منها الى تولى خطة القضاء بمرسية . وفى طريقه اليها أدركته الوفاة بتلمسان ، رحمه الله .

ـ : الشيخ أبا العباس بن مبشر .ونأسف لكوننا لم نعثر على شيء من اخبار هذا الشيخ ، فى اى مصدر من المصادر التى رجعنا اليها .

٣ ـ تلامذته

لم نتمكن من معرفة اسماء تلامذته الكثيرين الذين لازموه واخذوا عنه الا واحدا عرف بالشيخ العالم القاضى محمد بن عبد الحق بن سليمان التلمسانى الذى كان حيا سنة ٥٨٤ هـ

٤ ـ معلوماته

ابرز ما تلقى من العلوم عن مشائخه هو(١) العلوم القرآنية من تفسير وقراءات وتجويد ، (٢) مصطلح الحديث وعلومه ، (٣) علم الاصول ، (٤) علم النحو والصرف ، (٥) علم الادب ، (٦) علم التاريخ (٧) علوم الرقائق والاذكار . وقد كان له من هذه الفنون حظ وافر وباع أى باع

٥ ـ رحلاته ووظائفه

لقد تقلب فى البلاد ورحل الى مدينة الجزائر وتلمسان ، والى المغرب الاقصى ، ولقى عديدا من العلماء اخذ عنهم واعطاهم . ثم انتقل الى الاندلس حيث اسند اليه القضاء بالجزيرة الخضراء ، وصرف بعد حين عنها ليتولى خطة قضاء مدينة « سلا » بالمغرب سنة ٦١٣ هـ

٦ ـ آثاره العلمية والادبية

انتج ابن حماد فى ميادين مختلفة من الفنون كما قدمنا وكتب فيها عدة تآليف لم نعرف من اسمائها الا هذه :

ا شرح كتاب « الاعلام بفوائد الاحكام » تأليف شيخه عبد الحق الاشبيلى .

ب : شرح مقصورة ابن دريد .

ج : النبذ المحتاجة فى أخبار صنهاجة بافريقية وبجاية . وهو اكبر كتاب فى التاريخ الصنهاجى يتضمن فوائد لا يجدها الباحث فى غيره . نقل منه كثيرا علامتنا عبد الرحمن بن خلدون فى تاريخه الكبير عند حديثه عن بجاية وما حولها . وقد اهتم به المستشرق الفرنسى (شربونو) فنشر قسما منه فى « المجلة الاسيوية » سنة ١٨٥٢

د ـ برنامج كبير ذكر فيه شيوخه واسماء الكتب التى قراها ونص فيه على انه لخص « تاريخ الطبرى » الكبير وقد ضاعت هذه الكتب فيما ضاع من آثار الرجل لم نعرف منها الا اسماءها ، وعسى ان يأذن الله فى العثور عليها أو على بعضها ، انه جواد كريم .

هذا وقد حفظت لنا الايام كتابا آخر له فى التاريخ سماه « أخبار بنى عبيد » من

الفاطميين عنى فيه باخبار دولتهم فى الجزائر وتونس ، لم تذكره المصادر القديمة ، وتوجد منه نسخة بالمكتبة الوطنيــة بالعاصمــة . وهناك من هو منكب على تحقيقه والتعليــق عليه ، بغية نشره وتعميم فائدته .

٧ــ شعــره وشيء منــه

كما يعد ابن حماد عالما بين العلماء يعدايضا شاعرا يجرى مع الشعراء ، ويطرق الاغراض الحساسة من مكامن الشاعرية ، مثل الرثاء والوصف . وشعره ، على قلة ما وصلنا منه يمتاز بالرقة وصدق اللهجة . يدلنا على ذلك ما نقراه من رثائه لقلعة ، ملعب صبــاه ، ومسرح هواه ، بعد ان اتى عليها الدهر هدما وتخريبا على قصــورها ومعــالمها محــوا وطمسا ، فهو يقول :

ان (العروسين) لا رســم ولا طلــل
فانظــر هنا ليس الا السهــل والجبــل
وقصــر (بــلارة) اودى الزمان بــه ..
فاين ما شاد منه السادة الاول (كــذا)

الــى ان يقــول :

وقــد عــفى قصــر حمــاد فليس لــه
رســم ولا اثــر بــاق ولا طــلــل

وقال فى شوقه الى (الوادى) او (وادى الجوى كما دعاه) :

... وما رســوم (المنار) الان ماثلــة
لكنها خــبــر يجــرى بــه المثل ..
اليــت شعــرى هــل ابيتــن ليلــة
بــوادى الجــوى ما بين تلك الجداول ؟
...وهل اردن « عين السلام » على الصدى
فابــرد مــن حــر الضلــوع النواهــل
وانــظــر طيقــان « المنــار » مطلــة
عــلى الدجنــات الزاهــرات الخمائــل
كـــان القــبــاب المشــرقــات بافقــه
نجــوم تبــدت فى سعــود المنــازل
صــبــرا جميــلا غــير ان اصــابــتى
ستبقى بقــاء الطــالعــات الاوافــل ،

وقال فى ناحية قريته من القلعة تدعى (عين السلام) :

علــى عــين الســلام ســلام صــب
غــذاؤه مــاؤه الــعــذب النمــير
تــاود ايكــها وجــرت صبــاهــا
وشــم لها ــ كما فتق ــ العبــير
وابــرد مــا يكــون الجــو فيهــا
وانــدى ، حــين يحتــدم الهجــير
ومــا ادرى : ايجــرى هــوق در
ام ابتســمــت بمنبعهــا الثغــور ؟
وقــد قــام (المنار) عــلى ذراهــا
كمــا قــام الــعــروس او الامــير
بــنــاء يــزدرى ايــوان كســرى
لــديه ، والخــورنــق والسـدير

٨ ــ راى الناس فيه

قال عنه ابو العبــاس احمــد الغبرينى فى كتابه (عنوان الدراية) ، « الشيــخ الاجل الفقيه الرئيس الاكمل ، العالم الاوحد ... كان من روى عنه فما هو الا مــن الجلــة لقد بارك الله فى عمر ابن حمــاد حــتى الاعــــلام »

٩ ــ وفــاتــه :

تجاوزت سنه الثمانين وادركته الوفاة عــلى المشهور سنة ٦٢٦ هــ ١٢٣٠ م

رحمه الله واجزل ثوابه على ما قدم من نفع وما ترك من طيــب الاثــر .

جلــول البــدوى

مصــادر البحــث :

أــ عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء فى المائة السابعة ببجاية ــ طبع بالفرنسيــة ١٩١٠ م

ب ــ موجز التاريخ العــام للجزائــر ، لعثمان الكعاك ، طبع بتونس

ج ــ بلاغة العرب فى الجزائر »

د ــ البستان فى ذكر الاوليــاء والعلمــاء بتلمسان ، لابن مريم التلمســانى ــ طبــع الجزائر ١٩٠٨ م

هـ ــ نيل الابتهاج ، لاحمد بابا التنبكــى المطبوع بهامش الديباج المذهب لابن فرحون طبع مصر سنة ١٣٥١ هـ

ــ تاريخ الجزائر العامر ، للشيخ عبد الرحمن الجيلالى المطبوع بالمطبعة العربيــة بالجزائر سنة ١٩٥٥ م

تراجم بعض مشـــاهير علمـــاء زواوة
القبائل الصغرى والكبرى

المهدى البوعبدلى

عضو المجلس الاسلامى الاعلى
– الجزائـر –

كتب هذا المقال كدليل للمشاركين فى الملتقى السابع للتعرف على الفكر الاسلامى عن المنطقة التى عقد فيها هذا الملتقى ٠

ان بلاد زواوة كانت جزءا مـن قبائل كتامة المشهورة بتاسيس الدولـة الفاطمية فى احـدى قـراها : ايقجان وموقع كتامة يمتد بيـن مدينتى القالة شرقا الى تنس غربا (او دلس على أصح الاقوال) ، حسبما ذكره المؤرخون وخاصة منهم ابن خلـدون ٠

تاريخ الناحية فى العهد الرومانى

كانت زواوة تابعة لبجاية الرومانية (صلداى) وكانت فى قسمة منطقة نفوذ ماسينيسا عندما كان يتمتع بالاستقلال الداخلى ، اى تابعة لنوميديا وبعد ثورة يوغرطة ، أبطلت روما الاعتراف بالاستقلال الداخلى لنوميديا واحلت محله الحكم المباشر ، ثم اقتضى نظر الامبراطور أوقست Auguste ضمها الى موريطانيا (شرشال) القيصرية ، وذلك سنة ٣٣ قبل المسيح ، وقد احتفظت الناحية ببعض آثار ذلك العهد ، منها حصن تيكلات سفح الفناية بوادى الساحل ٠

كان الرومانيون يسمون زواوة كانكو جنتيان Quinquegentiens (١)

وقد سجلوا هذا الاسم فى كثير من وثائقهم ، اذ ثاروا عليهم عدة مرات ، منها الثورة المشهورة التى دامت سنين وذلك سنة ٢٩٣ م وقام لاخمادها أحد اقارب الملك ، ولما تغلب عليه الثوار التحق به الامبراطور ماكسميان هركول Maximien Hercule وتولى قيادة الجيش الرومانى الذى كان يضم جيش القطاع الغربى شرشال ، والشرقى الذى كانت قاعدته المتازة سطيف ، وقد ترك والى شرشال أورليوس ليسيا Litua Drurlins نصبا خلد فيه هذه الحرب التى انتهت سنة ٢٩٧ ، وقد عثر عليه فى انفاق كنيسة بجاية الحالية ، وقد ذكر فيه أنهم اخمدوا نار ثورة الكانكوجنتيان ٠

وكان سكان هذه الناحية يثورون على روما للضيم والاهانة التى كانت تلحقهم من الحكام ، كما كانوا فى انقلابات قادة الجيش خصوصا بعد ما اشتدت الخلافات الدينية بينهم ابتداء من القرن الرابع ، وبقيت الحالة مستمرة الى عهد بيزنطة ، فوجدوا سياسة روما نفسها تتجدد ، وذلك أنهم كانوا يعتنون بالمدن الساحلية ومظاهر زخرفتها والتفنن فى التفاخر بالقصور ، واهمال سكان القرى والجبال وتسخيرهم للاعمال الشاقة ، فكانت التمردات والثورات متتابعة ، وقد وصف المؤرخ فيرو السكان الامازيغ اذ ذاك بقوله «ان سكان هذه البلاد كانوا يطمحون الى الحرية اذ كانوا اباة الضيم ، ولهذا كانوا يثورون على الحكام ، فحالتهم هى هى ، شبيهة بما هم عليه فى زماننا لم تتغير » ٠

وكانت بجاية بطبيعة موقعها عاصمة هذه الناحية ، وكانت لها طرق معبدة تربطها ببقية البلاد ، كانت أشهرها الطريق التى تربط بجاية بدلس : تشق بلاد القبائل الكبرى ، بجاية ، قصر كبوش ، جامع الصهاريج ، تورقت ، دلس ، والتى تربط بجاية بسور الغزلان وتشق القبائل الصغرى : بجاية ، تيكلات ، اقبو ، سور الغزلان ، ثم التى تربط بجاية بجيجل ، وهى المعروفة الآن بطريق الساحل ، وتمر على المنصورية

وقد ذكر هذه الطرق ومحطاتها الجغرافيان بتوليمى وانطونان Ontonin, Ptoleunée

العهد الاسلامى

أما فى العهد الاسلامى فكانت لبلاد الجزائر عاصمتان ابتداء من القرن الخامس : شرقية

١) قال فيرو فى تاليفه «تاريخ بجاية» أن المؤرخ بربرقير الاختصاصى فى اللاتينية ترجم هذه اللفظة وأعطى تفاصيل فى موقع زواوة فى العهد الرومانى وذلك فى تاليفه :

«Les époques militaires de la Grande Kabylie» par Berbrugger

وغربية ، فالشرقية : بجاية ، اذ ورثت العواصم الاسلامية المندثرة كالقيروان ، وصقلية ، وقلعة بني حماد ، وتيهرت ، كما لجأ اليها كثير من علماء الاندلس اثر انحلال الدولة الاموية ، وتساقط بعض العواصم في أيدي الاسبان كطليطلة ، كما كانت تلمسان العاصمة الغربية ٠

كانت زواوة بالطبع تابعة لبجاية الى أن سقطت بجاية في أيدي الاسبان حوالي سنة ٩١٠ هـ في عهد الدولة الحفصية ، فعندئذ تكونت في البلاد امارتان ، الاولى : امارة القبائل الصغرى وكانت قاعدتها قلعة بني عباس ، ثم تحولت الى مجانة ، وكان يتداول حكمها آل القراني ٠

الثانية : امارة القبائل الكبرى وكانت قاعدتها «جبل كوكو» ، ويتداول حكمها افراد اسرة أحمد بن القاضي الزواوي ، الذي تولى قضاء بجاية في أواخر عهد الدولة الحفصية ٠

بقيت هاتان الدولتان أو الامارتان تتصرفان في البلاد طيلة ثلاثة قرون ، أي عهد الاسبان ببجاية ثم الاتراك ، وكانت علائقهما مع الاتراك ومع الاسبان ومع بعضهما تختلف ، فتارة سلم ، وتارة حرب ، كما كان نفوذهما يتغير من قوة الى ضعف ، والعكس ، طيلة هذه القرون الثلاثة ٠

ونجد في العهد الاسلامي ان كثيرا من هذه القبائل ، أي الكبرى والصغرى اشتهرت بمراكز ثقافية ممتازة ، وتكونت بها أسر علمية ، توارثت العلم قرونا ، ولم تقتصر شهرة هذه الاسر العلمية داخل البلاد فحسب ، بل جاوزتها الى بقية بلاد العالم الاسلامي شرقا وغربا ، فمن هذه القبائل بترونة ، بنو غبرين ، بني يتورغ ، زرخفاوة ، بنو فراوصن ، بنو يراثن ، قشتولة ، بنو صدقة ، بنو منقلات ، يليتن ، مشدالة ، بنو مليكش ٠

هذا فيما يخص القبائل الكبرى ٠

أما القبائل الصغرى فكانت معاهد العلم (بعد سقوط بجاية في أيدي الاسبان) منتشرة في معظم قراها ، أي بوادي بجاية ، وبني يعلى العجيسي ، زمورة ، وكان مؤسسوها علماء البلاد والاندلسيين ، ولا زالت كثير من الاسر العلمية تحتفظ بوثائق (١) تثبت أصلها البجائي ، كما لا زالت كثير من الاسر تحتفظ باجازات علمية أزهرية وباتصالها بكثير من علماء البلاد القدامى باجازات تثبت الفنون التي كانت تدرس ببوادي بجاية وهي نفس الفنون التي كانت ولا زالت تدرس بالجامعات الاسلامية كالازهر والزيتونة والقرويين ٠

العهد الفرنسي

بعد احتلال فرنسا للجهة أي القبائل الصغرى ، ثم الكبرى ، قسمت الى مناطق بقرارات (٢) ١٨٥٠ ـ ١٨٥٢ ـ ١٨٥٣ ـ ١٨٥٤ ٠

فكانت ناحية دلس تشمل : بني ثور ، بني سليم ، ثاورقت ، عمراوة ، بني خليفة ، بترونة ،

١) من جملتها أسرة ببني وغليس تنتمي الى الهادي بن يحى بن موسى الحضري مؤرخة سنة ١١٤٩ هـ يقول في ختامها الحضري الشريف من شرفاء بجاية الخارجين منها عندما دخلها النصارى » وهذه الوثيقة أجاز بها محمد الروداني السوسي سنة ١٠٦٤ افراد الاسرة عند مروره عليهم في طريقه الى المشرق وهو جزء من فهرسته» (صلة الخلف بموصول السلف) ٠

(2) «Notes et documents concernant l'insurrection de 1856-57 de la Grande Kalylie» par le Colonel Robin (Edit. Jourdan Alger 1902).

المعاتقة ، بنى جناد ، زرخفاوة ، بنى غبرين ، عزازقة ، بنى فراوصن ، بنى يراثن الخ ..

وكانت ناحية ذراع الميزان تشمل : بنى صدقة بنى ينى ، بنى واصيف ، بنى منقلات ، ومشدالة الخ بقى هذا التقسيم سارى المفعول ، وان أعيد التقسيم مرارا فى العهد الفرنسى الا أن مواقع هذه المراكز التى اشتهرت بالعلم والعلماء حدد موقعها . (وأظن أن من أقدس التوصيات للملتقى السابع هى تحديد بعض هذه المراكز وتحديد موقع ملالة حيث فيها وقع تخطيط أعظم دولة عرفها الاسلام وهى دولة الموحدين ، وايقجان مسقط رأس الدولة الفاطمية قبل انتقالها الى القيروان وتمركزها فى مصر) . فقدت بجاية مركزها الذى امتازت به طيلة قرون من عهد الرومان الى أن احتلها الاسبان ، الا ان التاريخ أنصفها وسجل لها صفحات ذهبية ، وأن حياة وتراجم علماء زواوة مدينون لها ، اذ منها تخرجوا ، وبمعظمهم اشتهرت ، وعلى سبيل المثال نذكر ما وصفها رحالتان مشهوران زاراها فى فترات متقاربة لا تتجاوز ٥٠ سنة ، أولهما :

أبو عبد الله محمد العبدوى الحيحى (١) «صاحب الرحلة المغربية» ، فانه مر على بجاية حوالى سنة ٦٨٨ هـ ١٢٨٩ م قال فى وصفها : «ثم وصلنا الى مدينة بجاية ، مبدأ الاتقان والنهاية ، وهى مدينة كبيرة ، حصينة ، منيعة ، شهيرة ، برية ، بحرية ، سنية ، سرية ، وثيقة البنيان ، عجيبة الاتقان ، رفيعة المبانى ، غريبة المعانى ، موضوعة فى اسفل سفح جبل وعر ، ومقطوعة بنهر وبحر مشرفة عليها اشراف الطليعة ، متحصنة بهما منيعة ، فلا طمع فيها لمحارب ، ولا متسع فيها لطاعن وضارب ، ولها جامع عجيب ، منفرد فى حسنه غريب ، من الجوامع المشهورة ، الموضوعة المذكورة ، وهو مشرف على برها وبحرها ، وموضوع بين سحرها ، ونحرها ، فهو غاية فى الفرجة والانس ، ينشرح الصدر لرؤيته وترتاح النفس ، وأهلها يواظبون على الصلاة فيه مواظبة رعاية ، ولهم فى القيام به تهمم وعناية ، فهو بهم مأهول عامر ، يتخلل انسه مسلك الارواح ويخامر ، وهذا البلد بقية قواعد الاسلام ، ومحل حله من العلماء اعلام ، وله من حسن المنظر طيب المخبر ، ومع المرأى الرائق ، المعنى الفائق ، ومن الحصانة ووثاقة البنيان ، ما أرزى بارم وغمدان ، ولاهله من حسن الخلق والاخلاق ، ما نبأ عن طيب الهواء والماء ، والتربة والاعراق ، غير أنه قد اعتراه من الغير ، ما شمل فى هذا الاوان البدو والحضر ، وقد غاض بحر العلم الذى كان له حتى عاد وشلا ، وعفا رسمه حتى صار طللا ، وبه آحاد من طلبة العلم قد اختصروا على مطالعة الصحف والدفاتر ، وسلكوا فى ترك تصحيح الرواية طريقا لم يرضه الاعلام الاكابر» .

قد علمنا من الفقرة الاخيرة أن العبدرى لم يعترف بالعلم للذين «اقتصروا على مطالعة الصحف والدفاتر ، « أى الناقلين » ، ولهذا وصف بجاية فى نفس الوقت الذى ترجم فيه احد أبنائها البررة احمد الغبرينى لمائة وخمسين من اعلامها فى تأليفه « عنوان الدراية » وكان الكثير من المترجمين من القرى المجاورة التى تحدثنا عنها ،

---

١) حققها وقدمها الاستاذ محمد الفاسى ، طبع جامعة محمد الخامس بالرباط .

والعبدرى نفسه اجتمع بالكثير منهم كناصر الدين المشدالى وغيره .

وثانى الرحالين الذين وصفوا بجاية اذ ذلك خالد البلوى (١) الاندلسى ، زارها فى أوائل ٧٣٠ هـ ، قال : «بلدة قدرها خطير ، وذكرها فى كل زمان يطير ..» ، الى أن يقول «يمتد أمامها بسيط أخضر مد البصر ، قد اجرى الله فيه عذائب الماء تسقيه وتضرب فى نواحيه ، كأنها سبائك اللجين ممدودة فى بساط الزبرجد ، محفوفة بالزمرد العسجد ، والبساتين ملتفة الاشجار يانعة الثمار ، والنهر الاعظم ينساب بين يديها ، قد انعطف عليها انعطاف السوار ، والحدائق تنتظم بحافتيه وتفىء ظلالها الوراقة عليه ، فهى النظيرة الروح ، الخضرة الريحان والروح ، العذبة الانهار ، الجنية الازهار ، الطيبة الهواء ، المسترقة الاضواء ، التى اجتمعت عليها الامراء ، وسلم لها اللواء ، وشيد لها البناء ، وبعد لها الصيت المحدود والثناء ، وانتظم فيها من الوادى والبحر قلادتان على ذلك النحر ... فأول من لقيت بها من أرباب المحابر ، وركاب الاعواد والكراسى والمنابر ، الشيخ أبو عبد الله محمد بن جعفر » الخ ...

تراجم بعض مشاهير العلماء

ولنبدأ بتراجم العلماء الذين اشتهروا خارج البلاد الجزائرية

١) يحيى بن معطى الزواوى ، ترجمه ياقوت الحموى فى «معجم الادباء» ، فقال يحيى بن معطى بن عبد النور زين الدين المغربى الزواوى فاضل معاصر ، امام فى العربية ، أديب شاعر ، مولده بالمغرب سنة ٥٦٤ هـ ، وقدم دمشق فأقام بها زمنا طويلا ، ثم رحل الى مصر ، وتوظف بها ، وتصدر بأمر الملك الكامل (الايوبى) لاقراء النحو والادب بالجامع العتيق ، وهو مقيم بالقاهرة لهذا العهد ، ومن تصانيفه «الفصول الخمسون فى النحو» ، «والالفية فى النحو ايضا» ، (ثم ذكر له عدة تآليف فى مختلف الفنون ، خصوصا فى اللغة) والى ألفيته هذه أشار ابن مالك الاندلسى فى ألفيته المشهورة التى قال فيها :

فائقة ألفية ابن معطى

وهو بسبق حائز تفضيلا

مستوجب ثنائى الجميلا !

٢) منصور بن عبد الله الزواوى أبو على

ترجمه لسان الدين ابن الخطيب فى الاحاطة فقال «اشتهر بحسن العهد والصون والطهارة والعفة ، قليل التصنع ، مؤثر الاقتصاد منقبض عن الناس ، مستقيم الظاهر ، منصف فى المذاكرة .. مثابر على تعلم العلم وتعليمه ، غير آنف عن حمله ممن هو دونه ، قدم الاندلس عام ٧٥٣ هـ وانتصب فيها للتدريس ، فاستفاد منه كثير من أعلام البلاد ، منهم الامام أبو اسحاق الشاطبى .

٣) محمد بن محمد بن أبى القاسم أبو الفضل المشدالى ـ بفتح الميم والمعجمة وتشديد اللام نسبة لقبيلة من زواوة ـ ويعرف بالمشرق بأبى الفضل ، ولد ببجاية سنة ٨٢٢ فاخذ ببلاده ثم تلمسان وانتقل الى المشرق وكان يقيم تارة بدمشق وتارة بالقاهرة وذاع صيته وقصده طلاب العلم وقد عاصر السخاوى وترجمه فى تأليفه «الضوء اللامع فى بيان علماء القرن التاسع» ترجمة وافية

١) رحلته لا زالت مخطوطة لم تطبع .

استعرقت ما يقرب من عشر صفحات ومن جملة ما قاله فى ترجمته « وقد حصلت بيننا اجتماعات وصحبة ورأيت منه من حدة الذهن وذكاء الخطر وصفاء الفكر وسرعة الادراك وقوة الفهم الى ان يقول ولقى الامام ابن حجر وفرح به واعجب بـه ... فدانت له المملكة المصرية والاقطار الشامية والبلاد القاصية والدانية درس فى الازهر وعرض عليـه القضاء بمصر والشـام فامتنع» ، وقـال السيوطى فى تعريفه «اتسعت معارفه ، وبـرز على اقرانه بـل على مشائخه ، وشاع ذكـره ، وملا اسمه الاسماع ، وصار كلمة اجماع ، الى أن قال «هو أحد اذكياء العالم مات بحلب سنـة ٨٦٥ وقيل ٨٦٦ والاول أوفق» .

٤) منصور بن أحمد بن عبد الحق المشدالى (٦٣١ ـ ٧٣١) ابو على الشيخ ناصر الدين ترجمه صاحب ذيل الديباج فقال «الامام الفذ الا وحـد ترجمه الغبرينى وقال التجيبى فى رحلتـه لقيت ببجاية الشيخ الفقيه الامـام اوحد الفضلاء ابـا على منصـور الزواوى المشدالى آخـر رجالات الكمال بافريقية والمغرب الاقصى ممن جمع بيـن معرفة الفقه وأصوله واحكم حظـا وافـرا مـن العربية وحصل المنطق والجدل وغيرهما وحـاز السبق فى علوم كثيرة واستبحر فيها وتكلم فـى أنواعها وناظر فى جميعها وسمع الشام ومصر وغيرهما ، وهو الذى احدث ثورة ثقافية فى البلاد وامكنه أن يطور الفقه .

٥) ابـو موسى عمران بـن موسى المشدالى نزيل تلمسان صهر ناصر الدين السابق الذكـر وهو الذى بنى له ابو تاشفين بن ابى حمو موسى الاول المدرسة التاشفينية (التى بنى على انقاضها المجلس البلدى الحالى بتلمسان) ، وكانت آيـة فى الفن وقد اكتشفت بعض آثارها فى هذه الايام وممن تخرج عنه محمد المقرى الجد استاذ عبـد الرحمن ابن خلدون (٧٦٠ ـ ٧٤٥) .

٦) محمد بن أبى القاسم المشدالى والد أبى الفضل السابق الذكر صاحب التآليف المشهورة فى الفقه والاصول وقد زاره الرحالة عبد البسيط المصرى بداره فى بجايـة وأخبره عن موت ولده أبى الفضل وقد كانت شهرته فى الاوساط العلمية بالجزائر والمشرق واثبت كثيرا من فتاويه صاحب «الدرر المكنونـة فى نـوازل مازونة» وصـاحب المعيار ، توفى سنة ٨٦٦ .

٧) أبو العباس الزواوى مـن مشائخ ابـن خلدون ترجمه ابن مرزوق الجد فى تاليفه المسند الصحيح الحسن فى مآثر ابى الحسن «من جملة العلماء الذين كـانوا ملازمين لمجلس الملك أبـى الحسن المرينى قال ابن مرزوق ثم لزم الحضرة أخيرا الاستـاذ العلامـة المشارك أبى العبـاس الزواوى الذى لم يرق عصره أطيب منه نغمة ولا أحسن صوتا ولا انداه وكان آية من آيات اللـه عـز وجـل ولم أر في المشرق والمغـرب نظيـرا له ... الخ له تصانيف فى القراءات والعـربية نظما ونُثـرا الخ ...

وقال فى ترجمته لسان الدين ابـن الخطيب «ما رايت قبله ولا بعده فى قطر من الاقطار مثلـه ولازم الحضرة وارتسم فى جملة الفقهاء فسافر معنا الى افريقية ومات رحمه الله غريقا ، وكان مولانا المرحوم وأولاده السعداء يجودون عليـه وانتفع به خلق بتونس جودوا عليه وأجازهم .

٨) عيسى بن احمد الهندسى البجائى يعرف بابن الشاط ترجمه السخاوى فى الضوء اللامع

«تقدم فى الفقه وأصوله والعربية وغيرها حفظا لها وفهما لمعانيها مع فروسية وتقدمة فى أنواعها وديانة وتصدى للافتاء والاقراء ... وهو الآن فى سنة ٨٩٠ شيخ وقدوة أهل بجاية يزيد على ٦٠ سنة له تعليق لطيف على صحيح مسلم ...

٩) عيسى أبو الروح ابن مسعود المنكلاتى (المنجلاتى) الزواوى كان فقيها عالما متفننا قال فى ترجمته صاحب ذيل الديباج «تفقه فى بجاية على أبى يوسف يعقوب الزواوى وقدم الاسكندرية وتفقه ، ولي القضاء بقابس ودرس بالازهر وولي نيابة القضاء بدمشق فشرح صحيح مسلم فى ١٢ مجلدا وسماه اكمال الاكمال وشرح مختصر ابن الحاجب الفقهى واختصر جامع ابن يونس وشرح المدونة وألف كتابا فى التاريخ فى عشر مجلدات (٦٦٤ ـ ٧٤٣) توفى بالقاهرة .

١٠) احمد بن ادريس البجائى ... كبير علماء بجاية فى وقته أخذ عنه ابو زيد عبد الرحمن الوغليسى له شرح ابن الحاجب وعدة تآليف ينقل عنها العلماء كما أخذ عنه يحى الرهونى وعبد الرحمن ابن خلدون ومحمد بن عمر الهوارى (دفين وهران) ولا زال معهده يحمل اسمه بالقبائل الكبرى قرب معهد الشيخ عبد الرحمن اليلولى .

١١) عبد الرحمن ابن احمد الوغليسى البجائى عالمها ومفتيها الفقيه العالم أبو زيد قال ابن قنفذ القسنطينى توفى سنة ٧٨٦ هـ ببجاية وله المقدمة المشهورة بالوغليسية كما له فتاو بالدرر المازونية والمعيار وله تلاميذ من كبار علماء بجاية كأبى القاسم المشدالى .

١٢) حمزة بن محمد بن حسن البجائى أخذ عن أبى القاسم المشدالى وولده أبى عبد الله وفد على تونس سنة ٨٥٨ ثم قدم القاهرة فنزل فى الشيخونية يدرس ويؤلف الى ان مات سنة ٩٠٢ بها ترجمه السخاوى فى الضوء اللامع .

١٣) محمد بن يعقوب بن يوسف المنجلاتى الزواوى البجائى يعرف بأبى عبد الله الزواوي كان حافظا فقيها مستبحرا ولي قضاء بجاية ثم اخر عنه وكان صديقا لناصر الدين المشدالى ، ذكر الحضرمى فى فهرسته أن المترجم ورد عليهم المرية رسولا وأقرأ بها وأخذ عنه كثير من علمائها وتوفى بها عام ٧٣٠ هـ .

١٤) محمد بن محمد بن على الزواوى البجائى شهر بالفراوصنى كان صوفيا وترجمه احمد زروق واجتمع به فى مكة والقاهرة الا انه كانت له مرءاة انكرها عليه العلماء بسبب دعاويه فامتحن لذلك «ومات مرفوضا والعياذ بالله» كما قال احمد زروق وذلك سنة ٨٨٢ أى تاريخ وفاته.

١٥) ابو عبد الله محمد بن ابراهيم الوغليسى كانت له نباهة ووجاهة ورفعة وهمة وهو أحد المقتدى بهم والمعول عليهم وكان عالما بالكتابتين الادبية والشرعية ولي الخطبة بجامع القصبة وأخذ عنه كثير من العلماء وكان من المستشارين فى المملكة .

١٦) أبو يوسف يعقوب بن يوسف الزواوى المنجلاتى له معرفة بالفقه والاصول قرأ ببجاية ورحل الى حاضرة افريقية (أى تونس) وكانت تقرأ عليه الكتب المذهبية ، وكان أحد المفتيين والمشاورين فى وقته ، مات بمنجلات عام ٦٩٠ .

١٧) أبو الحسن على بن محمد الزواوى اليتورغى قال عنه أبو العباس أحمد الغبرينى فى عنوان الدراية «ولقيته رحمه الله ببلده : بنى يتورغ بموضع سكناه منها وأنا على أول السن

فقرح بى وسرنى» كان من أكابر العلماء ملازما لمعهده حيث يقصده الطلاب للاخذ عنه الى أن توفى بـه ٠

١٨) عيسى بن يحى أبو مهدى الغبرينى قاضى تونس وعالمها ترجمه السخاوى فى الضوء اللامع وقال انه تصدى للتدريس فى تونس ومن جملة تلامذته محمد القلشانى والعجيسى ونقل عنه البرزلى فى فتاويه ووصفه بصاحبنا توفى سنة ٨٢٦ ٠

١٩) محمد بن عمر المليكشى قال صاحب نيل الابتهاج فى ترجمته «محمد بن عمر ٠٠٠ عرف بأبى عمر المليكشى البجائى الجزائرى كذا بخطه نسبة جزائر افريقية لا الى بلد الجزيرة (الاندلس) قال الحضرمى فى مشيخته كان صدرا فى الطلبة والكتاب فقيها كاتبا اديبا ٠٠٠ الخ توفى بتونس سنة (٧٤٠) وعرفه صاحب نفح الطيب ٠٠٠ أبو عبد الله المليكشى كاتب الخلافة ومشعشع الادب الذى يزرى بالسلافة كان بطل مجال ورب روية وارتجال قدم هذه البلاد وقد نبابه وطنه ، الخ وكانت اقامته بمالقة وترجمته نقلها المقرى من لسان الدين ابن الخطيب السلمانى فى تأليفه «نظم التاج من الجواهر» ٠

٢٠) أبو العباس أحمد بن عبد الله الجزائرى الزواوى صاحب المنظومة الشهيرة فى التوحيد (٤٠٠ بيتا) التى شرحها تلميذه محمد السنوسى (دفين تلمسان) كان من تلامذة عبد الرحمن الثعالبى وله معهد مشهور توفى سنة ٨٨٤ هـ وقد شرح منظومة عبد السلام اللقانى وغيره ٠

٢١) يحى العيدلى بتمقرا ، اشتهر بالصلاح والفقه كان من فقهاء القرن التاسع واشتهر كثير من تلامذته الملازمين له بالتاليف كان يأمرهم بذلك ومن هؤلاء عبد الرحمن الصباغ دفين مقبرة بجاية فقد علق على شرح ابن مرزوق الحفيد على البردة ذلك الشرح الشبيه بموسوعة ادبية وقد تبارى المعاصرون بالتعليق عليه وتلخيصه ـ توجد منه مخطوطة بالمكتبة الوطنية لعبد الرحمن الصباغ يعترف فى مقدمتها أن شيخه حرضه على ذلك ـ كما شرح الصباغ الوغليسية وقد لازمه الشيخ زروق البرنسى وقال فى كناشه انه الف عدة تآليف بمعهد الشيخ فى تمقرا وللشيخ تلامذة كثيرون منهم مؤسس أسرة المقرانى اذ بيت آل المقرانى كانت فى أول عهدها بيت دين ثم استحالت الى بيت رياسة ادارية ٠

٢٢) محمد الصالح بن سليمن العيسوى المشدالى الزواوى الرحمونى وجد بخطه انه قرا وأجيز بجامع الزيتونة بتونس ولما رجع انتصب للتدريس ببنى عيسى الى أن استدعاه الشيخ محمد بن عبد الرحمن الازهرى الجرجرى فعينه بمعهده مدرسا فبقى ينشر العلم بجرجرة الى أن توفى سنة ١٢٤٢ عن نحو ٩٠ سنة وله تآليف عديدة فى مختلف الفنون لا زالت متداولة عند الناس كما ترك ولده أحمد الطيب خلف مقامه فى نشر العلم وترك بدوره عدة تآليف مات احمد الطيب سنة ١٢٥١ ٠

٢٣) صالح بن احمد بن موسى بن أبى القاسم السمعونى الوغليسى البجائى كان من علماء قبيلة بنى وغليس ـ واد بجاية ـ وهاجر اثر الاحتلال الفرنسى مع شيخه المهدى السكلاوى اليراثنى الى الشام سنة ١٢٦٣ هـ ترجمه عبد الرزاق البيطار فى «حلية البشر فى تاريخ القرن الثالث عشر» فقال «وله منظومة فى فقه السادة المالكية ، وقد كتب عليها حاشية جليلة ، وله شرح على

رسالة فى علم الميقات ، قد جمع ما نشرته يد الشتات وله تاريخ على طريق الرمز والايماء والاشارة وصل فيه لقدوم محمد رشدى باشا الشروانى الوزير الاعظم الذى كان قد تولى الصدارة وله فيه أسلوب عجيب ، وطريق نادر غريب وكان صالحا تقيا وفالحانقيا ، توفى سنة ١٢٨٥ هـ وترك أولادا أشهرهم الشيخ طاهر المشهور .

٢٤) طاهر الجزائرى (١٢٦٨)

ابن الشيخ صالح السابق الترجمة ولد بالشام وفيها أخذ معلوماته وزار الجزائر ونزل ضيفا عند المرحوم محمد السعيد ابن زكرى المفتى المالكى والاستاذ بالمدرسة الثعالبية حوالى ١٩١٢ وكان يتكلم اللغة القبائلية كما كان يتقن اللغة الفارسية والتركية وقد اعتنى به كثير من علماء الشرق وترجموه خصوصا صديقه أحمد تيمور باشا فانه ترجمه ترجمة حافلة فى كتابه «اعلام الفكر الاسلامى فى العصر الحديث » ومن جملة ما ذكره تيمور قوله «والى الشيخ طاهر الجزائرى يرجع الفضل فى السعى الحثيث فى انشاء كثير من المؤسسات النافعة فى دمشق ...»

ومن مساعيه الحميدة تأسيس المدرسة الظاهرية بدمشق ، وانشاء مكتبتها الكبيرة التى جمع فيها ما كان مبعثرا من الكتب والمخطوطات القيمة فى المساجد والمدارس ... كما يرجع الفضل اليه فى انشاء المكتبة الخالدية بالقدس توفى سنة ١٩١٩ .

٢٥) الحاج المهدى السكلاوى اليراثنى (١٢٠٠ ـ ١٢٧٨)

خلف شيخه على بن عيسى تلميذ محمد بن عبد الرحمن الجرجرى على رأس الطريقة الرحمانية وقد قاوم الاحتلال الفرنسى وبعد تغلب الفرنسيين خلف تلميذه محمد أمزيان ابن الحداد على رأس الطريقة وهاجر الى الشام على رأس ثلة من تلامذته واقاربه سنة ١٢٦٣ هـ ترجمه عبد الزراق البيطار فى «حلية البشر فى تاريخ القرن الثالث عشر» فمن جملة ما قاله فى ترجمته «وقد أخذ عنه كبراء دمشق وعلماؤها وحكامها وفضلاؤها وأخذ عنه الوزير الكبير والمشير العظيم الخطير صاحب الدولة أحمد عزة باشا وكان والى دمشق قال أنه توفى سنة ١٢٧٨ ولما وضع نعشه على الاعناق ازدحم عليه الناس حتى صارت كالبساط تحته وانسدت الطرقات فلم يجد الانسان طريقا للسلوك وصلى عليه الالوف من الناس فى جامع بنى أمية ودفن فى قاسيون فى مقبرة ذى الكفل » الخ ...

٢٦) عبد الرحمن بن على الغبرينى البجائى

كان من علماء القرن التاسع أخذ عن الشيخ عبد الرحمن الثعالبى دفين الجزائر وله عدة تآليف منها تعليقه على شرح ابن مرزوق على البردة وعدة كتب أدبية وفى البلاغة واللغة وقد استوطن بجاية الى أن مات فى اواخر القرن التاسع .

٢٧) محمد بن على الشريف اليلولى

صاحب معهد شلاطة ومؤسسه ولد سنة (١١١٢) ترجمه تلميذه العربى بن مصباح قاضى بنى يعلى فقال «هو الشيخ الفقيه العالم العلامة الاستاذ اللغوى أبو الفضل السيد محمد ابن العالم الزاهد السيد على الشريف برد الله ضريحه ... الزواوى بلدا الشلاطى مولدا

البلولى صقعا ولد رضى الله عنه سنة ١١١٢ ، كان معهده الذى وصفه تلميذه العربى بن مصباح به ٣٠٠ تلميذ «أنه تكفل بمؤنة جميع الطلبة وهم يزيدون على ثلاثمائة وبمؤنة جميع الضيوف الزائرين » الخ ٠٠٠ له عدة تآليف ذكرها فى مقدمته تآليفه «معالم الاسبتصار بتفصيل الازمان ومنافع البوادى والامصار» منها تآليف فى السيرة النبوية وسيرة الخلفاء ومن بعدهم الملوك والعرفاء «التوسم والاستدلال على محاسن اخلاق النساء والرجال» وكتاب فى التوحيد باللغة الامازيغية كما كان والده وخاله الشيخ الحلو من اكابر فقهاء تلك النواحى اذ كانا يدرسان. مختصرا بن الحاجب وغيره من أمهات كتب الفقه والاصول·

٢٨) محمد العربي بن مصباح اليعلاوى

محمد العربى بن الموهوب بن أحمد زروق ابن مصباح اليعلاوى نسبة الى بنى يعلى العجيسى وقد ترجم للكثير من أفراد هذه الاسرة الحسين الورتلانى فى رحلته فقد توارثوا العلم والتدريس أبا عن جد والمترجم تولى القضاء والتحق فى زمان الطلب بمعهد شلاطة وهو الذى ترجم لشيخه محمد بن على الشريف وجمع ما قاله الشعراء فى مدحه رسالة قيمة سماها «توشيح طراز الخياطة »تعرض فيها لترجمة استاذه المذكور واستفدنا منها ان ذلك المعهد كان يقصده طلاب الجنوب كالمسيلة والزاب ، زيادة على طلبة زواوة ثم أهم ما فى هذا التآليف اجازة المؤلف اجازه بها أحد اقاربه ذكر فيها الفنون التى كانت تدرس بمعاهد بنى يعلى ·

٢٩) الحسين الورتلانى صاحب الرحلة (١١٢٥ ـ ١١٩٣)

كان الشيخ الحسين من بيت علم ببنى ورتلان وله اتصال ـ مصاهرة ـ مع آل المقرانى وآل يحيى العيدلى وكان يتردد على بجاية فيقضى بها شهر رمضان وفى سنة ١١٧٩ ذهب الى الحج فدون رحلته التى لها أهمية لا من حيث وصفه المدقق لنظام الرحلة والمحطات التى كانت تجمع فيها القوافل الخ ٠٠٠ ولكن لاشتمالها على وصف ما تبقى من معاهد بلاد القبائل العلمية ولتعرضه لذكر بعض البيوتات العلمية وأن أثقلها وفرض عليها النسب المشكوك فيه وكثيرا من الكرامات المبالغ فيها فانها مفيدة جدا ·

٣٠) احمد بن يحى بن حمود الورتلانى

عالم فقيه من اسرة علمية توارث العلم افرادها ونشروه فى تلك الجهات وكانت لهم خزانة كتب مشهورة ولا زال أفراد الاسرة يحتفظون باجازة للمترجم اجازه بها العلامة شيخ الاسلام مرتضى الزبيدى وقد لقبه ـ وهو الضنين بالالقاب الا لمن كان يستحقها ـ بقوله «الشيخ الصالح الامام الهمام العلامة مفيد الطالبين ومربى السالكين شمس سماء المعارف الا لاهية ومجلى ترقيات الفيوضات اللدنية شيخ الوقت سيدنا ومولانا الشهاب احمد بن يحى بن حمود نفع الله به ولولده الصالح خليفته من بعده أبى التوفيق سيدنا الحاج محمد ثم يذكر علماء آخرين باسمائهم ويقول «وسائر طلبة العلم الشريف فى بنى ورتلان أن يرووا عنى الخ » ·

وتاريخ الاجازة شهر صفر ١٢٠٣ هـ ·

٣١) عمر بن محمد بن عبد الرحمن المنجلاتى

كان أفراد هذه الاسرة من الاسر التى توارثت العلم قرونا واشتهرت اسماؤها فى بلاد العالم

الاسلامى لوفرة عدد افرادها كاسرة المشدالى ، واسرة الغبرينى ـ واسرة اليتورغى ـ واسرة المنجلاتى الخ انتقل كثير من أفراد هذه الاسرة بعد سقوط بجاية الى عاصمة الجزائر ومنهم مترجمنا الذى قال عنه تلميذه أبو عبد الله محمد بن قاسم ابن زاكور الفاسى فى رحلته المشهورة «نشر ازهار البستان فيما اجازنى بالجزائر وتطوان» وقد طبعت فى الجزائر ثم أعيد طبعها اخيرا بالمغرب قال فى تعريفه «ممن اقتبسنى بكلتا يديه ، واجاز لي رواية ما لديه ، العالم الاشهر والحبر الاكبر ، حائز الشرفين العرضى والذاتى أبو حفص عمر بن محمد ابن عبد الرحمن المنجلاتى ابقاه الله ونضر مرءاه ، هو بقية السلف وبركة الخلف الذى حمى الله به ذلك القطر من التلف اذ عليه المدار فى السير والاخبار ، واليه المرجع فى كل خطب مفزع ، وأحكامه لقواعد العلوم هو الذى أمطاه فنه النجوم ، وأعطاه شرفا غير مروم، يصول ويتصول الاصول الخ ٠٠ وقد افصحت عن علاه فى قصيدة طرزتها ببعض حلاه وأنشدتها بين يديه ، يوم ختمى جمع الجوامع عليه وهو يوم السبت الرابع من جمادى الاولى من شهور سنة اربع وتسعين والف ١٠٩٤ وقد قال فى هذه القصيدة ٠

بقية السلف الماضى ونخبته
لكن محاسنه ازرت بمن غبرا
قاضى القضاة الذى لا شىء يعدله
فى عدله الذفشا فى الناس واشتهرا
بحر العلوم التى غاضت مناهلها
منذ زمان وسيل الجهل فيها جرا

الى أن يقول :

بدر الجزائر صان الله بهجته
عن أن يرى بخسوف البدر مستترا
وبحرها العذب لا زالت جداوله
تروض العالمين البدو والحضرا

كما أن حفيده العلامة محمد بن أحمد بن عمر كان من اكبر علماء البلاد وأدبائها وجدنا آثاره فى منتصف القرن الثانى عشر وأننا لو تتبعنا تراجم علماء هذه الناحية لما وسعتنا المجلدات وكل ما نقترحه ان هذه البلاد خدمت العلم والدين الاسلامى وغرست فى نفوس السكان حصانة ارتطمت بها كل المحاولات السياسية والتبشيرية فى مختلف الاوقات وبشتى الوسائل فان أعظم خدمة نقدمها للاجيال التى حيل بينها وبين امجاد اسلافها تحديد مواقع هذه المراكز العلمية والتعريف بتراجم علمائها ٠



أبو بكر محمد بن داوود

كاتب يغمراسن بن زيان

بتلمسان

رابح بونار

تمهيـــد : اننا نلاحظ عند دراستنا لتاريخ نشأة الدولة الزيانيـة على يـد مؤسسها يغمـراسن بن زيان سنة 633 هـ ولتاريخ الدول الاخرى التى انفصلت مثلهـا عن الامبراطورية المـوحدية كالدولة المرينيـة بفاس سنة 668 هـ والدولة الحفصيـة بتـونس سنة 626 هـ والـدولة النصـرية بالانـدلس سنة 626 هـ ، انهـا دول خلفت الامبراطورية الموحدية فى أنظمتها الادارية وفى تراتيبها الحربية ونشاطها الاقتصادى، وحاولت أن تسبقها فى مجـال العنـاية بالحـركة العلميـة وتشجيـع أعـلامها فى كل فن ، وقد سعت بعض هذه الدول لتخلفها فى اتساع رقعتهـا وضخامة ملكها ٠

ولما قامت الدولة الزيانية انبرى يغمراســن مؤسسها على قرب عهده بالحياة البدوية الساذجة الى اقامة دولته الفتية على أسس حضارية يتطلبها عصره ، فاهتم بتنظيم ادارته على غرار ما كانت عليه الادارة الموحدية بتلمسان ، وأنشأ قــوة عسكرية متألفة من قبيلة بنى عبد الواد وغيرهم ليتقى بها الاخطار التى كانت تحدق به من قبــل بنى مرين بفاس غربا ، وبالحفصيين بتونس شرقا وليدافع بها القبائل الاعرابية والبربرية المناوئـة له داخل رقعة دولته ٠

ثم ابتكر سياسة مرنة ترتكز على الولاء لأواخر خلفاء الموحدين بمراكش ولامراء بنى نصــر بالاندلس ليدعم بذلك مركز حكمه ، وعلى العداء لبنى مرين الذين كانوا يحاولون القضاء عــلى دولته ليوسعوا بذلك رقعة دولتهم ويخلفـــوا الموحدين فى أمبراطوريتهم ٠

وكان يتظاهر بالولاء للحفصيين ـ تقية منه ـ ما كانوا أقوياء وعند ما ضعفوا أخذ هو وخلفاؤه يوسعون رقعة دولتهم على حسابهم فى قسنطينة وبجاية ، وهكذا تتجلى لنا سياسة يغمراسن فى

مساعيه الجادة لتدعيم أركان دولته مرنة حكيمة قد تكللت بالنجاح ، وتتوجت بالانتصار ، رغم ما كان يتهددها من أخطار في الداخل والخارج

تشجيعه للحركة العلمية :

ولم يقتصر نشاط يغمراسن على العناية بالناحية السياسية والحربية والادارية وحدها بل انصب نشاطه أيضا على العناية بتشجيع الحركة العلمية والادبية وعلى تزيين بلاطه بالعلماء والادباء منافسا بذلك غيره من أمراء عصره ·

فدعا اليه أبا اسحاق التنسي وكان من أكابر العلماء بعصره وألح عليه حتى غادر موطنه ووفد عليه بتلمسان وانتصب للتدريس بجامعها الاعظم ثم أغدق عليه يغمراسن كل انعام · (1)

ووفد عليه أبو بكر محمد بن خطاب من الاندلس لما بلغه عنه من تشجيع للعلم وأهله فرحب به ، «وأحله المحل الرفيع من دولته» (2) وأكرم أبا عبد الله محمد بن محمد بن مرزوق من علماء تلمسان واجله وأوصى أن يدفن بازائه من الجامع الاعظم بتلمسان (3) ، كما أكرم غير هؤلاء من علماء تلمسان أو الوافدين عليها ·

وقد كانت العناية بتشجيع الحركة العلمية ظاهرة عامة للدول التى خلفت الامبراطورية الموحدية ، وكان التنافس بينها على هذا التشجيع قائما أشده وقد استأثر الحفصيون بالنصيب الاوفر منه فى القرن السابع الهجرى ، وحاول المستنصر من خلفائهم أن يستأثر بأبى بكر بن خطاب لما وفد على تلمسان وكاتبه فى ذلك وبعث اليه بهدية مغرية فرد الهدية وآثر الاقامة تحت كنف الدولة الزيانية ·

ان الازدهار العلمى الذى نشاهد آثاره فى القرن السابع الهجرى بالمغرب عامة تعود بعض أسبابه الى هذا التنافس الذى كان يقع بين الملوك حول استقدام العلماء الى بلاطهم واغداق ضروب الانعام عليهم ، والى تدهور الوضع السياسى والاجتماعى بالاندلس الذى حفز كثيرا من رجال الفكر على الهجرة الى أقطار المغرب طلبا للامن والحياة الرضية ·

وقد كانت هجرة أبى بكر بن خطاب الى تلمسان مبعث حياة أدبية ملحوظة كما كانت هجرة ابن الابار وابن عميرة وحازم القرطاجنى منطلق ازدهار أدبى لامع فى تونس ، ويهمنا هنا أن نذكر نبذة من ترجمة أبى بكر بن خطاب وما تركه من آثار فكرية فى الجو الادبى بتلمسان ·

لمحة عن حياته ونشأته :

أبو بكر بن خطاب هو محمد بن عبيد الله (4) بن داوود بن خطاب المرسى ، ولا نعلم عن نشأته الا انه ينسب الى مرسية ، وانه كان على حد تعبير ابن الخطيب «شكس الاخلاق متقاطبا زاهيا بنفسه» (5) ·

شيوخه :

وذكر ابن الخطيب جملة من الشيوخ أخذ عنهم أبو بكر وانتفع بعلمهم فروى عن القاضيين أبى عيسى بن أبى السداد ، وابى بكر بن محرز وأبى بكر محمد القرشى وغيرهم (6) ويضيف يحيى بن خلدون والعبدرى الى هؤلاء الشيوخ جماعة أخرى منهم «أبو بكر بن جهور ، وابو بكر الغافقى ، وابو الحسين بن عبد الرحمن الرفاء ، وابو عيسى محمد بن محمد بن أبى السداد ، وأبو المطرف بن عميرة وغيرهم» (7) ·

---

(1) الحافظ التنسى : محمد بن عبد الجليل : الدر والعقيان مخطوط مج 1 ص 139
ابن مريم : البستانى ط الجزائر سنة 1908 م ص 67

(2) ابن الخطيب : الاحاطة فى اخبار غرناطة مج 2 ص 275
ابن خلدون يحيى : بغية الرواد ط الجزائر سنة 1903 ج 1 ص 48

(3) المصدر السابق ج 1 ص 48

(4) وفى بغية الرواد ج 1 ص 48 ورد اسمه عبد الله بدون تصغير ووافقه عليه ابن مريم فى البستان ص 227

(5) الاحاطة ج 2 ص 275 — (6) المصدر السابق ج 2 ص 276

(7) العبدرى : الرحلة المغربية تحقيق احمد بن جدو ص 16 — بغية الرواد ج 2 ص 48

ارتحـــاله الى تلمســـان :

التجأ أبو بكر بن خطاب الى تلمسان فى صحبة ابن وضاح والجالية الاندلسية التى آثرت الوفادة عليها وأشار الى ذلك ابن خلدون فقال : «ووفـد عليه (أى يغمراسن) لاول دولته ابن وضاح اثـر دولة الموحدين ، أجاز البحر مع جالية المسلمين من شرق الاندلس فآثره وقرب مجلسه وأكرم نزله وأحله من الخلة والشورى بمكان اصطفاه لـــه، ووفد فى جملته أبو بكر بن خطاب المبايع لاخيه بمرسية» (8)٠ ويبدو أن ورود أبى بكر بن خطاب على تلمسان انما كان على اثر الفتنة التى وقعت بمرسية وأشار اليها ابن الخطيب بقولـــه : «انه رجع الى مرسية وقد ساءت أحوالها فأقام بها مدة ثم انفصل عنها واستقر بالعدوة بعد مكابدة» (9) وابن خلدون يذكر انه بايع أخاه بمرسية (10) ، ولم تساعده القلاقل التى كانت تهانيها مرسيـة على المقام بها فارتحل عنها الى المغرب وتقلب فى أنحائه وكان ارتحاله فى تاريخ غير معروف ، وقد يكون قبل سنة 661 هـ بقليل ، ويؤيد ذلك ما جاء فى احدى رسائله التى كتبها عن أميره يغمراسن بعد التحاقه به لتهنئة المستنصر بانتصاره عـلى ابن عمه أبى القاسم بن أبى زيد بقسنطينة وجاء فيها : «وصل الى العبد كتاب مولاه ٠٠٠ يعرفـه بأنه توجه الى قسنطينة فى هذه الايام الفارطـــة قاصدا معالجة دائها بما أعد الله له من دوائها(11)

وفـــاتـــه :

اذا كان تاريخ ميلاد أبى بكر غير معروف فان تاريخ وفاته يكتنفه غموض وقد اختلف مترجموه فى ذلك فذهب يحيى بن خلدون : «الى أنه توفى يوم عاشوراء سنة 636 هـ (12) ووافقه ابن مريـم فى بستانه (13) على هذه الرواية وهى لا شـــك تصحيف واضح من النساخ ، وذهب ابن الخطيب فى احاطته (14) الى أنه توفى بتلمسان يوم عاشوراء بعد الثمانين وستمائة وهو قريب من الصـواب رغم ما فيه من عموم وعدم تحديد ، على أن الاصوب أن نقول فى تاريخ وفاته أنه توفى بعد سنة 681هـ لانه كان حيا فى هذه السنة وقد كتب فيهـــا رسائل ، ومن ذلك ما كتبه عن أميره أبى سعيد ابن يغمراسن وقد تولى الامارة سنة 681 هـ بعـد موت أبيه جوابا عن تعزية الامير النصرى بالاندلس وجاء فيها : «عن الامير عثمان بن الامير أبى يحيى يغمراسن بن زيان ، سلام كريم عليكم ورحمة الله تعالى ٠٠٠ وبعد حمد الله مقدر الآجال ، المحمود على جميع الاحوال ٠٠٠» (15) وكذلك رسالتـه التى عزى بها أميره أبا سعيد عثمان عن أبيـــه يغمراسن وجاء فيها «مولاى السلطان أبو سعيد أدام الله مدة حياته ، وعرفه من التأييد ما يتكفل لامره بالتأييد» (16) وهكذا يتضح لنا أنه توفى بعد سنة 681 هـ جزما وبقى تحديد سنة وفاتـه بالضبط وهو متعسر ، ولكن يمكن أن نحصر هذه السنة بما بعد سنة 681 هـ وما قبل سنة 688 هـ وفى هذه السنة الاخيرة مر العبدرى بتلمســـان ووجد أبا بكر قد توفى وسأل عنه تلميـذه ابن خميس وروى عنه بعض شعره ٠

منـزلته فى الشعـــر :

بلغ أبو بكر بن خطاب منزلة سامية فى الشعر كما يذكر مترجموه ولكن ضآلة ما عثرنا عليه مـــن مقطوعاته الشعرية لا يساعدنا على تحليله ولاالحكم عليه وانما نكتفى بما ذكره مترجموه عنه «وهم قد أجمعوا على الاعجاب بشعره ونثره ، فابن الخطيب يقول عنه نقلا عن صلة بن الزبير «أن ابا بكر بن خطاب كان كاتبا بارعا ، وشاعرا مجيدا مشاركا فى أصول الفقه وعلم الكلام وغيرهما» ٠

---

(8) ابن خلدون عبد الرحمن : كتاب العبر ط لبنان سنة 1909 مج 7 ص 163 ـ(9)ابن الخطيب : الاحاطة ج 2 ص 275
(10) كتاب العبر مج 7 ص 163 ـــ (11) فصل الخطاب من رسائل ابى بكر بن خطاب مخطوط ص 2 ـــ (12) بغية الرواد ج 1ص48
(13) البستان ص 227 ـــ (14) الاحاطة ج 2 ص 278
(15) فصل الخطاب ص 13 ـــ (16) المصدر السابق ص 14

ويحى بن خلدون يقول عنه انه «كان من أبـرع الكتاب خطا وأدبا وشعرا ، ومن أعرف الفقهـاء بأصول الفقه» (17) ووصفه الحافظ التنيسى «بأنه خاتمة أهل الآداب ، المبرز فى عصره على سـائر الكتاب» (18) وأما العبدرى فانه كان معجبا كثيرا بشعره وقد روى له بعض مقطوعات وعلق عليهـا ومن ذلك ما قاله فى هذه المقطوعة :

1) اشكرن لـربك وانتظـرن
فى أثـر عسـر لامـر يسرا
2)واصبر لكـربـك وادخـرن
فى ستـر ضر الفقـر أجـرا
3)فالـدهـر يعثـر بالـورىن
والصبر بالاحـرار أحرى
4)والوفـر أكثـر معشـران
والفقـر بالاحرار يغـرى

ان نظام هذه الابيات يدل على بـاع مـن الادب مديد ، وطبع فاضل ومقول مجيد ، وناظمها رحمه الله متمكن الجلالة ، معراف الاصالة (19) وقال فيه عبد الرحمن بن خلدون: انه كان شاعرا محسنا(20

وروى له ابن الخطيب مقطوعات متعددة منها مقطوعة فى الحكم مطلعها :

«أقنع بمـا أوتيتـه تنـل الغنى ن
واذا دهتـك مصيبـة فتصبر»

وثانية فى الابتهالات مطلعها :

رب أنت الحليـم فاغفـر ذنوبى ن
ليس يعفـو عـن الذنـوب سواك

منزلته فى الترسل والكتابة :

ونبغ أبو بكر بن خطاب فى الترسل والكتابـة الفنية وبها اشتهر أكثر من اشتهاره بالشعر ، وقد بلغ فيها درجة كبيرة فاق بها معـاصريه فـى المغرب والاندلس ، وقد ذكرنا من قبل ما حلاه بـه مترجموه من براعته فىفنىالكتابة والشعر،ومنآثاره ايثاره بمنصب رئاسة ديوان الرسائل السلطانية بغرناطـة.

ولما انتقل الى تلمسان تقلد هذا المنصب فى بلاد يغمراسن وأنشأ رسائل عديدة كانت نموذجا يحتذى ، وكان يوجه هذه الرسائل عن يغمراسن أو ولده أبى سعيد الى الموحدين بمراكش والى الحفصيين بتونس والى ملوك بنى الاحمر بالاندلس فى مناسبات مختلفة يقول عبد الرحمن بن خلدون فى ترسله «انه كان مترسلا بليغا وكاتبا مجيدا . . . فستكتبه (أى يغمراسن) وصدر عنه مـن الرسائل فى خطاب خلفـاء الموحدين بمـراكش وتونس فى عهود بيعاتهم ما تنوقل وحوفظ» (21)

وذكر أن حافظ التنيسى أن يغمراسن «جعلـه صاحب القلم الاعلى» فى تلمسان (22) على أننـا رغم بحثنا الكثير عن آثاره الكتابية فاننا لم نجـد منها الا بضعة رسائل مخطوطة من مجموع جمعه أديب يدعى الحاج عبد القادر ودعاه فصل الخطاب من رسائل أبى بكر بن خطاب» وقد ذكر فيه تسعة أبواب ، ويبدوا أن أكثر رسائله ضاع فظهر لذلك تقسيم الكتاب غير مرتب ولا منسق تنسيقا منطقيا وهذه الرسائلالباقية من المجموع قد صدرت عن أبى بكر وهو بتلمسان،وروىله ابن الخطيب رسالة اخوانية أنشأها فىالاندلس(23)وخاطب بها صديقين له بمرسية ، وقد بعث بها من مدينة اشبيلية .

وقبل أن نذكر أسلوب هذه الرسائل وخصائصها نذكر كلمة عن أسلوب الرسائل الديوانية وغيرها فى الاندلس والمغرب .

أسلوب الرسائل الديوانية فى هذا العصر :

لقد أثبت مـؤرخو الادب فى هذا العهـد أن كتابة الرسائل قد تأثرت بطريقة القاضى الفـاضل المتوفى سنة 596هـ وهىتمتاز بالتزام السجع واطالة الفقرات وبالاستعارة والطباق ومراعـاة النظـير ، والغلو فى التورية والجناس واثار المعانى الخيالية (24) وجاء بعده محى الدين بن عبد الظاهر المتوفى سنة 692 هـ وقد سلك طريقته واعتمد أسلوبه .

---

(17) بغية الرواد ج 1 ص 48 — (18) الدر والعقيان ج 1 مخطوط ص 276 — (19) الرحلة المغربية ص 16
(20) كتاب العبر مج 7 ص 163 — (21) المصدر السابق مج 7 ص 163 —(22) الدر والعقيان ج 1 ص 139
(23) الاحاطة مج 2 ص 277 — (24) الاسكندرى احمد : الوسيط فى الادب العربى وتاريخه ص 295 — (24) الرحلة المغربية 23

وشاعت هذه الطريقة فى المشرق والمغرب وكان كتاب المغرب والاندلس يتأثرون بكل التيارات التى تحدث فى المشرق يحاكونها ويحتذونها ، وهذا ما لاحظه ابن بسام فى القرن الخامس الهجرى ولاحظه آخرون بعده وانتقدوه ·

وصار السجع فى الرسائل الادبية والاخوانية ونحوها بعد ذلك حلية مرغوبا فيها بل قد طغى السجع على غيرها من فنون الادب كالمؤلفات الادبية والرحلات وكتب التاريخ ·

والعبدرى هو معاصر لابى بكر بن خطاب يقول فى وصف بجاية فى رحلته : «ثم وصلنا الى مدينة بجاية ، مبدأ الاتفاق والنهاية ، وهى مدينة كبيرة حصينه منيعة شهيرة برية بحرية،سنية سريه،وثيقة البنيان ، عجيبة الاتقان» ، وكذلك ابن جبير فانه يميل الى السجع فى رحلته ، ومثله الرحالة أبو البقاء خالد البلوى الذى زار تلمسان فى أوائل القرن الثامن الهجرى وقال فيها · «فرايت مدينة قل مثلها ، وجل عراها وبانها وأثلها ، بطاح وأدواح ، وربى ملاح ، وضياء وانشراح ٠٠٠»

ومن المؤرخين نجد يحى بن خلدون يميل الى السجع فى بعض فصول كتابه : فيقول أبى حمو موسى بن يوسف «ولما كان مولانا الخليفة الامام السلطان الهمام ، الجواد الضرغام ، كبير الملوك وناظم السلوك ، وناهج سبيل الفخر المسلوك» (25) ويقول أيضا فى ذكر السلطانين أبى سعيد وأبى ثابت «قمرا الخلافة وفرقدا الشرف والاناقة ومقرا الامان المنتجع والاخا ، هذا قطب الاسلام والدين ، وهذا يوم الكفاح أسد العرين» (26) ·

وأما كتاب الرسائل فى عصر الموحدى فأشهر من يمثلهم ابن عطية وقد كتب رسالة ديوانية عن عبد المؤمن الى أهل تلمسان جاء فيها : أما بعد فالحمد لله وسعت رحمته كل شىء على العموم والاطلاق ، وجمعت عصمته أهل الاجتماع على طاعته والاتفاق ، ونمت نعمته تماما على أبلغ وجوه الانتظام والاتساق (27) ويقول من رسالة أخرى مخاطبا ابن هود الثائر : «وتقدمت بشارتنا به جملة ، حين لم تعط الحال بشرحه مهلة» (28) ·

وقد لاحظ ابن خلدون فى القرن الثامن أن ظاهرة السجع قد غلبت على الكتاب فقال : «واستمر المتاخرون من الكتاب على هذه الطريقة واستعملوها فى المخاطبات السلطانية وقصروا الاستعمال فى المنثور كله على هذا الفن الذى ارتضوه وخلطوا الاساليب فيه وهجروا المرسل وتناسوه وخصوصا أهل المشرق ٠٠٠ والمحمود فى المخاطبات السلطانية الترسل وهو اطلاق الكلام وارساله من غير تسجيع الا فى الاقل النادر حيث ترسله الملكة ارسالا من غير تكلف له ثم اعطاء الكلام حقه فى مطابقته لمقتضى الحال٠٠ (29)

ترسل أبى بكر بن خطاب :

ولم يكن أبو بكر بن خطاب ليخرج عن هذا الاسلوب الشائع فى عصره فى الرسائل وهو السجع والعناية بالمحسنات البديعة فكان ذا عناية بالسجع واطالة الفقرات كما فى قوله من رسالة اخوانية «ونزلنا فى الاخبية خارج البلد بموضع يعرف بالقنب قد تفجر عيونا ، جمع ماؤه وهواؤه عن المحاسن فنونا، وعرض علينا النزول فى الديار داخل المدينة ، فرأينا المقام بالقنب أحد الاسباب المساعدة على حفظ الصحة المعينة (30) » وكقوله من رسالة أخرى «الفقيه الاجل أبو طالب أبقاه الله للمجد يحمى شرائعه ، وينمى بضائعه ، ويبنى مصانعه، ولا زال الاعتناء الربانى يسعد مقاصده ويجمع جمع السلامة أوابد أمله

(25) تاج المغرب مخطوط ، الخزانة العامة بالرباط ص 4 —
(26) بغية الرواد ج 1 ص 4 — (27) المصدر السابق ج 1 ص149
(28) كنون عبد الله : النبوغ المغربى ج 2 ص 96 — (29) المصدر السابق ج 2 ص 100 — (30) مقدمة ابن خلدون ص424 425

وشواده ، (31) » وفي هذه الفقرة سجع مختلف بين قصير وطويل كما فيها تورية بجمع السلامة التي يريد بها الجمع اللغوي والجمع الاصطلاحي في النحو ، ويهتم بالاقتباس من القرآن وغيره كما في قوله : واستفهم لسان السيف لمن الملك اليوم (32) وكقوله من رسالة تعزية لابي سعيد بن يمغراسن «فقد أدال الله من جزعه صبرا ، وجعل مع عسره يسرا (33) » أو كقوله من رسالة تعزية وتهنئة وجهها عن أميره يمغراسن الى المستنصر بتونس «فلم يكن الا قدر ما يلمح البصر ، أو تنداح دائرة في الماء يرمى فيه بالحجر » (34) ·

وهو يهتم أيضا بالتورية كثيرا فيوري بألفاظ نحوية وفقهية ونحوها كقوله من رسالة الى فقيه «والشكر لما حزتم من مآثر الفضل ينقسم بانقسام الزمان كالفعل غير أنه لا ينفى ولا يجزم (35) » وقوله في رسالة في الصدقات أو خطبة النكاح «ورسم فيه أثر فعله الذي لا يتصف بالجبر والاكتساب (36) » ويهتم بأنواع الاستعارات وضروب الاخيلة كقوله : «وكتائبه المتعودة لشن الغارة ضراغم آجامها الرماح الخواطر ، وبراثنها السيوف البواتر (37) »وقوله : «وصل النبأ الذي طاشت له الاحلام ، وتعثرت في الطروس الاقلام (38) » وقوله : «قد طفت جثث قتلاهم في بحر الزقاق أمثال الزقاق » وقوله : وصل كتابكم الخطير ينصع بيانا ، ويخلو من مصافاتكم صورا حسانا (39) وقوله : «ما أهدى الجذل الى الصدور ومحا أثر الحزن منها بيد الصرور (40) » وقوله في تنزيه صفات الله عن النقص وغوص الافهام الكاملة لادراكها كأن طيور الاقلام خلال أوراق غصون سطور الكلام تلقط منها عناقيرها حبا (41) وفي العبارة ضعف تركيب لكثرة الاضافات فيها ·

وهكذا نصل الى جملة نتائج وهي أن الاسلوب الفني للرسائل الديوانية قد نقله أبو بكر بن خطاب الى تلمسان وقد بثه بين طلبتها وشاع عنه هذا الاسلوب في منتصف القرن السابع وما بعده وكان هو أكبر ممثل له في تلمسان والمغرب وكان يقابله شيخه أحمد بن عميرة ومواطنه ابن الابار بتونس ·

اثرأبي بكر بنخطاب في الحركة الادبية بتلمسان:

اننا لا نجد مراجع كافية تحدثنا عن مدى تأثير أبي بكر بن خطاب في الحياة الادبية بتلمسان ، ولكن بعض الاشارات التي وردت عرضا في بعض المراجع قد تكشف لنا عن هذا التأثير أو بعضه ومن ذلك ما ورد في رحلة العبدري (42) من أن ابن خميس كان راوية عن أبي بكر بن خطاب وتلميذا له ، وكان ابن خميس هو أكبر شاعر وكاتب أنجبته تلمسان في هذا القرن وقد تأثر به في اتجاهه الادبي وأسلوبه ونجد رسالته الصوفية تنتحى منحى رسائل شيخه في التزام السجع ، وفي اطالة الفقرات ، وقد يكون قلده في رسائله الديوانية التي لم نعثر على أي رسالة منها بعد أن شغل منصب كاتب الرسائل بديوان أبي سعيد خلفا عنه بعد وفاته ، ولا يبعد أن يكون أبو زكرياءيحى بن عصام (43) وكان أديبا شاعرا ملازما لابن خميس قد أخذ عنه وتأثر به ·

وكما لا يبعد أن يكون أبو عبد الله محمد بن المعلم وكان من كتاب يغمراسن (44) قد أخذ عنه وتأثر به ، كما تأثر به الجو الادبي في تلمسان عامة ·

وقد حدثنا ابن خلدون عن أثر رسائله في المغرب كله فقال : وصدر عنه من الرسائل في خطاب خلفاء الموحدين بمراكش وتونس في عهود بيعاتهم ما تنوقل وحفظ (45) وفي هذه العبارة الموجزة ما يفيد أن رسائل أبي بكر صارت تراثا أدبيا يدرس ويحفظ ونماذج مثالية يحاكيها الكتاب ويقيسون منها في رسائلهم الديوانية وغيرها ·

---

(31) ابن الخطيب : الاحاطة 2 : 277 — (32) فصل الخطاب ص7 —(33) المصدر السابق ص 7 — (34) المصدر الساق 14
(35) المصدر السابق ص 6 وفيه اقتباس من بيت ابن الرومي (36) فصل الخطاب ص 8 — (37) المصدر السابق ص 15
(38) المصدر السابق ص 15— (39) المصدر السابق ص 6 (40) المصدر السابق ص 12 — (41) المصدر السابق ص 13
(42) المصدر السابق ص 16 — (43) الرحلة للعبدري ص 15 (44) المصدر السابق ص 19 — (45) بغية الرواد ج 1 ص 111

تحليل مضمون بعض رسائله :

ونبدأ من ذلك برسالة عزا بها الامير أبا سعيد عثمان فى أبيه يغمراسن وفيها يقول فى مقدمتها «مولاى السلطان أبو سعيد أدام الله حياته وعرفه من التأييد ، ما يتكفل لامره بالتأييد ، ويقضى بتقديم ملكه واثباته، عبده وخديمه، وولى الشكر لاحسانه الجزيل ومديده، محمد بن خطاب سلام الله ، وبعد حمد الله الذى لا يموت والصلاة على سيدنا محمد رسوله الذى أتاه من المعجزات ما يفوق الحصر ويفوت ....»

ثم يدعو له ويخبره أنه كتب اليه من تلمسان حول «وفاة مولاه السلطان أبى يحى والدكم قدس الله ثراه ، وجعل الجنة مثواه ، ما جرى به القدر وشاب لاجله صفو الحياة بالكدر» .

ويعظم المصاب ويوضح أثره على النفوس فيقول : «فيا له رزءا فادحا ، وثكلا جرى بنا فى ميدان الاسى جامحا ، ونغص العيش ، وعلم الحليم الوقور الطيش ...» ثم يستلم لمشيئة الله التى لا تدفع ، ويرضى بأحكامه فى الارواح «التى هى عوارى تسترجع لوقتها وتسترد ، وذلك ما لا يغيب عن علم مولانا السلطان .»

ثم يستطرد الى تهنئته بالسلطان الذى أدال الله به «من جزعه صبرا وجعل مع عسره يسرا ، وهو ما يسر من الاتفاق على بيعتكم السعيدة ، وحلولكم فى مرتبة الملك المشيدة ، وهنيئا لها فاليكم كان ميلها ، وبصبح ولايتكم انجلى عنها ليلها ..» وأخيرا يختم بالدعاء له بدوام السرور والاعتذار عن تقصيره فى ايفائه حق السلطان ويسجل تاريخ الرسالة التى كتبت فى5 ذى الحجة من عام 681 هـ

رسالة ثانية لـه :

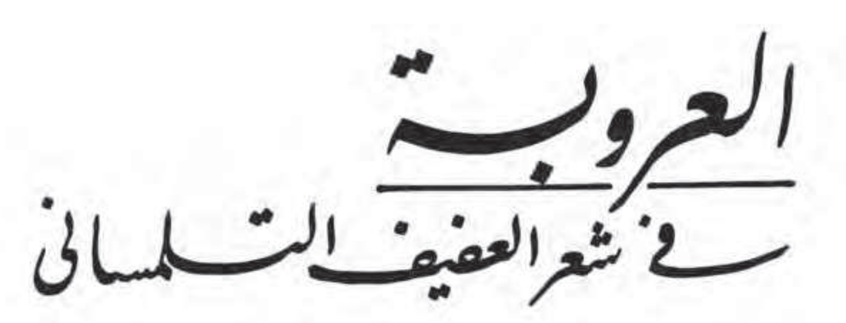
ومن هذه الرسائل رسالته فى الجواب عن تعزية الملك النصرى من بنى الاحمر بالاندلس لابى سعيد حول وفاة أبيه يغمراسن فيقول له فى مطلعها : ان الصداقة التى تربط بين الملكين متينة «لا تحيل صفاءها الايام» ويسبغ عليه من الالقاب ماجرت به العادة السلطانية فى ذلك العصر ويشيد بامارته ذات المآثر الجليلة على لسان سلطانه أبى سعيد ثم يحمد الله ويصلى على النبى ص راضيا بما قدر الله من مصاب يصيب العام والخاص مثبتا ان الصبر هو بمنزلة الرأس من الجسد كما جاء فى الحديث ، ويخبره أنه كتب اليه من تلمسان حرسها الله «وفضل الله تصفو مشارعه وتصفو مذارعه ، وصنع الله الاجمل تتلاحق طلائعه ... وأخاؤكم الكريم عقده وثيق ، ووجهه سافر أنيق والوفاء بأذمته المؤكدة لا يسلك غير طريقه طريق، ولايتخذ عن فريقه فريق، والتعظيم لجنابكم الرفيع موصول أبدا ، موفى قولا ومعتقدا وانه بذلكم لحقيق ...»

وبعد أن يؤكد علائق المودة بينهما واللزوم على عهودهما السابقة يخبره انه وعى كتابه الذى عزاه فيه عن أبيه ويشكره عليه ويشيد بحبه لصفيه الراحل ولئن فقدوه فقد بقى لهم من ولده «أخ معاضد فى كافة الاحوال مساعد، يقاسمكم فى المر والحلو ...»

وأخيرا يعذرهم عن تأخر كتبهم اليه لانه «قد تقرر بيننا وبينكم من خلوص السر والجهر ما لا يحتاج معه الى تكلف العذر ، فاننا ننظر الى كل ما يصدر عنكم بعين الرضا ، ونقيس مستقبل حالكم فى الوفاء على ماتيقننا منه فيما مضى بحول الله» .

وهكذا تنتهى هذه الرسالة التى توضح لنا مدى العلائق السياسية الوطيدة لتى كانت تصل بين مملكتى غرناطة وتلمسان فى القرن السابع الهجرى وقد تأكدت هذه العلائق لاسباب سياسية واجتماعية واقتصادية فى القرنين التاليين : الثامن والتاسع وكانت تتسم دائما بالصفاء والتعاون ولم يشبها طيلة هذه القرون الثلاثة ما يكدر صفوها أو يضعف من فعاليتها .

وأخيرا نذكر خلاصة لهذه الالمامة التى بدأناها بنبذة عن حياة يمغراسن ونشاطه السياسى وتشجيعه للحركة العلمية ، ثم ذكرنا الماعة عن حياة كاتب يمغراسن أبى بكر بن خطاب فى الاندلس وتلمسان ، وحاولنا ان نذكر اقياسا عن عبقريته الشعرية والنثرية وأن نلمع بايجاز عن مدى تأثيره على الحياة الادبية ، ثم عرضنا بإجاز الى تحليل بعض خصائصه النثرية والى تحليل رسالتين له وهكذا نكون قد القينا ضوءا خافتا على شخصية علمية كبيرة كان لها تأثير على حياتنا الثقافية بتلمسان فى بعض عهودها الزاهرة ومن الوفاء لها أن نذكرها بالاكبار ، وان نشيد ببعض ما تركت لنا من آثار فكرية تستحق منا العناية بالدرس والتحليل .



العروبة في شعر العفيف التلمساني

د • عمـر موسى باشـا
كلية الآداب ـ جامعة الجزائر

عرفت تلمسان الخالدة ، والتقيت عبر الزمن بـروح العفيف التلمسانى ، ابنها البر قبل أن أزور تلمسان فشاهدت البلد والشاعر ببصيرتى قبل أن تكتمل عيناى برؤيتها •

كنت فى المشرق أقرأ شعره فى ديوانـــه المخطوط الذى آثر أن يبقى الى جانب قبر صاحبه وفاء له وصونا لذكره ، وكنت من خلال ذلك أشيم بروق المغرب الحبيب عن بعد من آفاق المشرق ، وأتطلع لامتـع ناظرى بمـــا شاهده العفيف فى مسقط رأسه من طبيعة جميلة تاخذ بالالباب فى (روضـة العبـاد) روضة العشق الالهى فى هذه الاكمة المقدسة ، فدلفت اليها خاشعا ومتبتلا ، وطالما أسمع صوتا قديسا أن أخلع نعليك انك بالوادى المقدس طوى فى تلمسان، وهناك الاكمة المطّلة ، على هذه الرياض التى عرفها الشاعر ، وأحبها وبقى ذكرها نديا فى شعره خاصة حينما فارقها وعرف انه قد لا يعود اليها •

كان الزمن يتوالى فى بصيرتى وتحت سمعى ، وكنت أقرأ وأسمع قصة تلمسان الخالدة فى أمسها الباهر ، وحاضرها الزاهر ، ومستقبلها المشرق ، وكأنما كانت تتطلع من خلال تراثها الاصيل الى الحضارة الغربية التى بدأت تؤتى أكلها ثمارا بالغة ، أصلها راسخ فى الارض ، روتها دماء الشهداء الاحرار ، الذين صبغوا ترابها بدمائهم ، وفرعها شامخ فى السماء ، يبشر بأن هذا البلد الامين كان وسيبقى شمسا مشرقة لا فى المغرب العربى كله ، وانما فى سماء الادب العربى قاطبة من أدنى مشرقه الى أقصى مغربه ٠

اسمه وكنيته ولقبه :

هو عفيف الدين ، أبو الربيع ، سليمان بن على بن عبد الله بن يس ، العابدى ، الكومى ، التلمسانى ، المعروف عند القدماء باسم (العفيف التلمسانى) لا نعرف عن العابدى ما يوضح لنا هذه ، ولعلها نسبة الى روضة العباد فى تلمسان حيث يثوى فيها العلم الفرد شعيب أبو مدين ، والكومى نسبة الى كومية ، وهى قبيلة صغيرة منازلها فى ساحل البحر من تلمسان كما فى المعجب ٠

ولد العفيف سنة 610هـ (1213م) فى تلمسان ، ثم قدم القاهرة بعد أن تقدمت به السن ونزل بخانقاه سعيد السعداء ، وأقام عند صاحبها شمس الدين الابلى ، وقد ولد له ولده الشاعر المشهور شمس الدين محمد المعروف بالشاب الظريف ، وكان اذ ذاك فى العقد الخامس من عمره ٠

وانتقل الشاعر الى بلاد الروم وعمل فيها أربعين خلوة صوفية تدوم كل واحدة أربعين يوما يخرج من واحدة ويدخل فى أخرى ٠

وهكذا استمر فى تطوافه وسلوكه الصوفى حتى ألقى عصا الترحال فى دمشق، فأعرض فيها عن حياة التصوف ، وازمع أمره على التمتع بحياة السعى ليكسب الرزق ، ولا سيما أنه كان يتمتع بمؤهلات شخصية وثقافية تجعله فى عداد الذين يعتمد عليهم فى بعض أمور الدولة ، ولا غرابة ان رأيناه يصبح مباشر استيفاء الخزانة بدمشق ، وهذا من أكبر المناصب وأهمها فى عصر سلاطين المماليك ٠

أقام الشاعر فى هذا المنصب طوال حياته ، وعاش سعيدا فى قصر صنف يقع فى رياض الصالحية فى سفوح جبل قاسيون حتى وفاته سنة 690 هـ (1291م) ٠

آثاره الادبيـة :

صنف العفيف آثارا كثيرة فى الشعر والتصوف وغيرهما ، حتى ان الجزرى قـال فى تاريخه « له فى كل العلم تصنيف (1) » ولا نعـرف مصـير هـذه التصانيف ولا موضوعاتها •

أما شعره فهو مجموع فى ديوان مستقل ، أشار اليه ابن تفرى بردى بقوله : « وله ديوان شعر كبير (2) » ولا زال مخطوطا ، ويقوم الدكتور عمار الطالبى بتحقيقه ، وسوف ينشر فى وقت قريب •

أما آثاه المعروفة عندنا فمقصورة على شروح صنفها المؤلف ، منها (شرح كتـاب المواقف للنفرى) و (شرح كتاب الفصوص لابن عربى) • يضاف الى ذلك كتـاب فى (فن الروض) لا يزال مخطوطا أيضا •

الرمـز فى شعـره :

يلاحظ فى دراسة شعر العفيف أنه لم يتطرق من قريب أو بعيد تصريحا كان ذلك أو تلميحا لاى من أبناء عصره سواء أكانوا من السلاطين أم مـن غيرهم الذين عاصرهم ، ولم أعثر فى الديوان كله الا على ذكر اثنين هما على الامدى ، وقد تكرر ذكره مرتـين ، وابن الزبير فى وصف الطبيعة فى التلميح الى بخله • يضاف الى ذلك اننا لا نجد أى ذكر لاخوانه من فقراء المتصوفة الذين ارتبط بهم عقيدة ومذهبا وسلوكا •

ان كل ما نطالعه من شعره لا يتعلق الا بالمجتمع على اختلاف صوره وألوانه ، وانما هو مقصور أصلا على المجتمع الذهنى فى اطار من التصور الداخلى والانفعـال النفسى والسلوك الصوفى •

هو عالم خاص فى رؤى الشاعر وتواجده وحواصبه ، لا يحده مغـرب ولا مشرق ، المغرب الذى اخرجه وأنشأه والمشرق الذى أحبه واحتضنه • هذا العالم الباطنى يمثـل

(1) ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج 8 ص 28 •
(2) ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج 8 ص 28 •

تجربة شعرية عميقة فى الشعر الدينى ، سلك سبيلها كثير من الشعراء المتصوفة المؤمنين بوحدة الوجود ، والذين يتعشقون الحقيقة المطلقة ويتطلعون للكمال المطلق المتمثـــل فى الله الحـــق ٠

تحدث عن هذه الحقيقة ، فتمثلها فى كل شىء ، رآها فى هذا الكون ، وشهدهـــا فى هذا الانسان الذى هبطت اليه النفس من المحل الارفع ، وشخصها فى الطبيعة على اختلاف صورها وألوانها،وتمثلها فى المرأة فى الجمال المطلق،والحسن المبدع،وقد لعبت الخمرة الرمز أكبر دور فى هذا المجال لان اتخذ من نعت قدمها وسلطان جبروتها على العقل البشرى سبيلا يوضح له الحقيقة المطلقة التى كانت شغله فى كل غرض من أغراض شعره المذكورة ٠

وقف أمام هذه الطبيعة يجلو محاسنها ، ويستجلى مكنوناتها لينفذ منها الى عالم آخر حجبته عنا سجف مسدلة صفيقة ، ومنعته عن أبصارنا أدران الدنيـا وأثـام النفس الانسانية ، والى طبيعة أخرى ، لا قبل لنا ، لاننا عاجزون عن رؤيتها وادراكها ، ولكن الشاعر الملهم هو القادر على استجلاء الغيب والافصاح عن مكنون الكون من خلال مواجده الصوفية ٠

تحدث الشاعر عن الخمر من خلال الحديث عن المرأة ، وأغرق فى أوصافهما ، ومن يقرأ شعره يخيل اليه أنه رب الحانة الرمزية ، وما كان أبرعه حين يجمع بينهما فى الرمز معا ٠

ولا أبالغ ان قلت ان الشاعر كان يجارى الخيام ان لم يتفوق عليه ، لان الاوصاف التى جاء بها ترفعه الى منزلة عليا ، ويعرب الشاعر عن بعض ما فى خلده حين يرى أن هذه الخمرة معصورة من دمه ، وعاصرها ذاته نفسها ، وحببها بعض أدمعه (3) ، وليس من باب المصادفة أن يقف فى مكان آخر عند الحلاج نفسه ليشير الى قتله بقوله: (4)

منها أنا والســاقى يناول كاسها　　فاشرب صرفا أو يغنـــى فاطـــرب
فان لام فيها الشيـخ طفل غرامها　　على شربها فالشيـخ كالطفل يلعـب

(3) مصورة الديوان المخطوط ، اللوحة 1 ظ ٠
(4) مصورة الديوان المخطوط ، اللوحة 2 و ظ ٠

تذكرني الحلاج والكأس يجتلي ولكنه عنه تصان وتحجب
ولو لم يكن رواوقها كصليبه لما عذروا حلاجها حين يصلب

ذلك هو الطريق الذى التزم فيه الشاعر ذكر حقائق التصوف رامزا وملمحا من خلال الطبيعة والخمر والمرأة ، ومشيرا من خلال الطبيعة الى فلسفة الكون والخليقة والخلق ٠ وكان فى بعض الاحيان يعرض عن أسلوب الرمز ليطلق الكلمة الصريحة دون تعريض أو تلميح ٠

العروبة فى شعره :

تلك هى مقدمة ابتغى منها توضيح سبيل البحث الذى أتناول فيه ظاهرة بارزة هامة من خلال شعره ، وهى العروبة التى تكررت الاشارة اليها عشرات المرات فى معرض النسيب والغزل ٠

لقد استرعت انتباهى هذه الظاهرة خلال دراستى ديوان شعره المخطوط ، ورأيت أنه كان عربيا فى أغزاله كلها ، واتخذ من الغزل سبيلا لذكر العرب فى هذا العصر الذى كان الحكم فيه لسلاطين المماليك ، والتزم ذلك فى سائر الاوصاف التى عرضها ، وكان بذلك حقا ثورة شعرية عربية فى عصر ساد فيه حكام أعاجم ٠ ولا أظن شاعرا تحدث عن هذا الامر ، والتزم فيه هذا الالتزام ، من كان مثله ٠

أحب الشاعر العرب كل الحب ، فهو لم يختر فى أغزاله غير المرأة العربية ذكر (**ليلى العامرية**) واحدا وثلاثين مرة ، وذكر (**علوة**) سبع مرات ، وذكر (**سلمى وسليمى**) سبع مرات أيضا ، وذكر (**نعما**) أربع مرات ، وذكر كلا من (**سعاد**) و (**سعدى**) و (**أسماء**) و (**هند**) ثلاث مرات ، وأورد ذكر كل من (**أروى**) و (**عزة**) و (**رقية**) و (**لبنى**) و (**مى**) مرة واحدة ٠

هذه الظاهرة على جانب كبير من الاهمية ، وهو أنه تغنى بالمرأة العربية فى الوقت الذى كان الشعراء يوغلون فى الوصف المرأة غير العربية ٠

ولم يقتصر الامر على ذكر المرأة ، وانما وصف الشاعر لنا حياة العرب وارتحالهم وخيامهم ونيرانهم فى هذا العصر الذى تناسى فيه الشعراء العرب والعروبة ، ولكن الشاعر

العربى التلمسانى أعلنها ثورة عربية على الشعر والشعراء فى عصره ، وتغنى بذكرهم ، وما أكثر ما وقف عند ذكر نجد ، وما أكثر ما كرره من اسماء الكثبان والوديان فى الجزيرة العربية ·

لقد ثار الشاعر على التيارات الاعجمية فى شعره ، وأعلنها ثورة على المجتمعات والمفاهيم من خلال شعره ، فليس من المصادفة أن لا نرى فى شعره كله أى ذكر لاى سلطان أو ملك و أمير أو أى فرد آخر من أبناء عصره ·

لقد كان الشاعر ملتزما ذلك ان صح لنا أن نطلق لفظ الالتزام فى هذا المضمار ، وسوف أقتصر على بحث العروبة من خلال أربعة ألفاظ مشتقة من أصل واحد ، وهى (العرب) بفتح الراء ، و (العرب) بتسكين الراء ، و (العرب) بضم الراء ، و (العريب) بالتصغير تحببا واجلالا للعرب ·

أما (**العرب**) فقد تكرر ذكرهم فى خمسة مواضع ، فهو تارة يخاطبهم كما فى قوله من قصيدة مطلعها : (5)

أحن الى المنازل والربوع   وأنتم بين أحشاء الضلوع

ويستطرد بعد ذلك مخاطبا عرب الخيام : (6)

أيا عرب الخيام كذا أصنعتم   نزيلا فى جنابكم المنيع
ويا ظبى الصريم أخذت قلبى   فليتك لو اضفت له جميعى
سكنت بمهجتى والجار يرعى   فمالك لا ترق على خضوعى

ويخاطب عرب الجرعاء (7) بعد عرب الخيام ، وقد ارتحلت عيس المحبوب عن سفح نعمان ، وما أجمل الصورة التى شخصها لنا الشاعر حين نزلت خيامه فى حى قلبه :

لئن رحلت عن سفح نعمان عيسه   فقد نزلت فى حى قلبى خيامه

(5) مصورة الديوان المخطوط ، اللوحة 26 و ، ظ ·
(6) مصورة الديوان المخطوط ، اللوحة 26 و ، ظ ·
(7) مصورة الديوان المخطوط ، اللوحة 43 ظ ·

أبا عرب الجرعاء ما أورق الفضا ... بدمع ولا غيث بفيض غمامه
ولكن حللتم سفحه فتزينت ... بحسنكم ساحاته وأكامه
فقد صفت عذرانه وتراقصت ... عضون النقا فيها وغنى حمامه

وما دمنا نازلين فى خيام عرب الجرعاء ، فالمستحسن أن نبقى مع الشاعر فى (أجرع الحمى) لنرى أمير الهوى العزبى : (8)

وفى العرب الغادين من أجر ع الحمى ... أمير هوى قلبى لديه نزيل
ببيض مواضيه وسمر رماحه ... جرى الماء خوفا والنسيم عليل

ويتحدث الشاعر عن قرى هؤلاء العرب فى مكان آخر ، ويذكر لنا كعادته أنه نزيل خيامهم وعليهم أن يكرموه لانه ضيف ، له عليهم حقوق ، فالمعروف عنهم أنه لا يؤذى لهم جار ، وانما يسعد كل من جاورهم ، أو حل ساحتهم أو نزل حيهم ، ذلك لانهم سيدافعون ليحموه بكل اسمر شاجر ٠

خاطب الشاعر نفسه مشخصا ، ولكن خطابه جاء بصورة الامر فى معرض الاستعطاف والتوسل حين يقول فى قصيدة مطلعها : (9)

هذا المصلى وهذه الكثب ... لمثل هذا يهزنا الطرب

ويستطرد ليقول بعد ذلك :

أنخ مطاياك دون ربعهم ... كيلا تطال الرحال والنجب
وأرج قراهم اذا نزلت بهم ... فانت ضيف لهم وهم عرب
واسبع الرأس خاضعا فعسى ... يشفع فيك الخضوع والادب
واسجد لهم واقترب فعاشقهم ... يسجد شوقا لهم ويقترب
عندى لكم يا أهيل كاظمة ... أسرار وجد حديثها عجب
أرى بكم خاطرى يلاحظنى ... من أين هذا الاخاء والنسب ٠٠٠

(8) مصورة الديوان المخطوط ، اللوحة 43 ظ ٠
(9) مصورة الديوان المخطوط ، اللوحة 3 و ٠

ويستمر الشاعر الضيف بعد حديثه عن هؤلاء العرب الى ذكر كتب غرامه ، وشربه الراح الصرف حين يقـول :

وأشرب الــراح حـين اشربهــا صرفــا وأصحــو بهـا فما السبب
خمرتهــا مــن دمى وعاصرهــا ذاتى ومــن أدمعى لهــاالحبــب
ان كنت أصحـو بشربهــا فلقــد عربــد قـوم بهـا وما شربــوا
هى النعيــم المقيــم فى خلــدى وان غــدت فى الكـؤوس تلتهـب
ففــن لى ان سقيــت يا أمــلى باسـم الـتى بى عــلى تحتجـب

تلك هى قصة (العرب) عند هذا الشاعر ، وقد تعمدت أن أضم الشاهد الاخير بما أختم حديث العرب ، وذلك بذكر الخمرة الصوفية ، خمرتها من دمه ، وعاصرها من ذاته ، وحببها من أدمعه ومواجده ٠

كما تحدث الشاعر عن (العرب) ، فى سبعة مواضيع من شعره ، فهو يتحدث عــن العرب حديثا عاما وحديثا خاصا ٠

نبدأ بحديثه عن (عرب نجد) الذين قتلوا فريقا ، وأسروا آخر ، وأنهم أضاعــوا للمحبـين ذمة النزلاء ، ويتحسر على أيامهم ، ويتمنى أن تعود هذه الايام بما مضى مــن عيشهم السالف ٠

تحدثنا فى العرب أمير الهوى ، ونتحدث فى العرب عن أمير الملاح فى نجد : (10)

يا أمــيرا عــلى المـلاح وقلــبى أبــدا خافــق لــك كاللــواء
وبنجـد عرب نــزول أضاعــوا للمحبــين ذمــة النــزلاء
ضربــوا خيمـة المليحـة فى الرو ض وأجـروا أنهارهـا مــن بكائى
ودعوا للعقيــق دمعى ومــن أيــ ــن لدمعى العقيــق لولا دمــائى

(10) مصورة الديوان المخطوط اللوحة ١ و ٠

340

ويستطرد الشاعر فى حديثه عن العرب فى موضع ثان ، فيخاطبهم متحسرا على ما فات من أيام ، ويتساءل متمنيا أن تعود كما كانت مملوءة بالحب والسعادة (11) فتكون بردا وسلاما على قلبه :

لو لاح أدنى بارق من حسنه | للكون رنحه جوى وغرام
يا عرب نجد ما مضى من عيشنا | أترى تعود لنا به الايام
صب يرى نار الصبابة انها | فى حبكم برد له وسلام

ويلقى أداة النداء ليخاطب عرب نجد مباشرة ، لقربهم من قلبه ، فيقول مشيرا الى التى شهرت سيوف جفونها على عشاقها : (12)

ان تكن هذه التى قتلتنا | يحمى حماه بكل أسمر شاجر
عرب نجد هاقد قتلتم فريقا | وفريقا مازلتم تاسرونا

ننتقل مع الشاعر فى حديثه عن العرب فى غير نجد ، النازلين على الحمى ، والذين يحمونه بكل اسمر شاجر ، والطريف عنده أنه يرى فى قدود نسائهم العوامل ، وفى أجفانهن الاسنة ، (13) ومن خلال ذلك تستوقفه ظبية عامر :

وعلى الحمى عرب تزيل بيوتهم | يحمى حماه بطل أسمر شاجر
لا يشرعون سوى القدود عواملا | ومن الاسنة غير جفن فاتر
يحمون جارهم وتنهب لبه | بين البيوت جفون ظبية عامر

ويوالى الشاعر فى موضع آخر ذكر الحمى ، عن (يمنة الجزع) ، فيقول : (14)

عن يمنة الجزع بالحمى حلل | لعربها من جمالهم حلل
كل احاديث صبهم صلف | وكل اخبار حسنهم غزل

---

(11) مصورة الديوان المخطوط اللوحة 39 و .
(12) مصورة الديوان المخطوط اللوحة 50 ظ .
(13) مصورة الديوان المخطوط اللوحة 21 و .
(14) مصورة الديوان المخطوط اللوحة 35 ظ .

ويبقى علينا أن نتحدث عن العرب فى الوصف العام ، حيث يذكر القباب بالجرعاء ، فيقول (15) واصفا الحسناء المحجوبة والممنوعة صونا لها :

ومحجوبة بالصـــون عن كـل ناظر دنا منك مغناهـا وشط مزارهـــا
اذا قلت بالجرعاء حلـــت قبابهـــا تغـار قلوب فى حشاهن دارهـــا
من العـــرب أما الدمع فهو مياهها وأما هـــوى عشاقهـا فهـــو نارهـا
اذا ابتسم البرق اليمانى حسبتهـا تالق ألماهـــا وحـــل ازارهـــا

ويختم الشاعر حديثه عنهم ، وقد أناخوا معاطفهم فى القلوب فقال : (16)

عـــرب أناخوا فى القلـوب معاطفا ونواظـــرا كعوامـــل وعـــوال
وتوشحوا برد النعيـم فموجوا غدران مـاء فى نسيـم شمـــال

يبقى علينا أن نذكر (العرب) بتحريك الراء ، وقد عرض لذكرها الشاعر مرة واحدة استهل بها قصيدة بائية فى معرض ذكر حمى الاحبة وظبائه ، من العرب الابكار ، عربيات المجتد والنجار (17) •

لولا الحمى وظبـــاء بالحمى عـــرب ما كان فى البارق النجدى لى أرب
حلت عقود اصطبارى دونه حلـــل حقوقها كارتياحاتى لهـــا تجـب

نقف أخيرا عند (العريب) هذا التصغير المحبب الى الشاعر كثيرا ، فلا عجب ان رأيناه يتحدث عن ذلك فى سبعة مواضيع من شعره •

كان حبه كبيرا جدا لهم ، ونراه يؤكد المرة تلو المرة هذا الحب (18) العظيم فقد ذكر نجدا وليلى العامرية ، وختم حديثه عن ذلك بقوله :

(15) مصورة الديوان المخطوط اللوحة 18 و •
(16) مصورة الديوان المخطوط اللوحة 39 و •
(17) مصورة الديوان المخطوط اللوحة 5 و •
(18) مصورة الديوان المخطوط اللوحة 12 و •

عريب لهم عندى رعاية عهدهم | وما عندهم لى نقض عهد ولا عقد
اذا زمزم الحادى بألحان حبهم | يسابقة ركب من الدمع فى خدى
صبغت بمحمر من الدمع بعدهم | من الرمل مبيضا لارعى لهم عهدى

لاحظنا اكتمال الوصف عند الشاعر للعريب بذكر الحادى المزمزم بألحان الحب ، ولاحظنا ركب الدمع من ركب الرحل ، ولكن الطريف هذه الصورة المبتكرة التى لم أعرفها لشاعر قبله ، وهى هذه الصبغة الحمراء للرمل من الدمع المحمر ·

ثم يتعجب الشاعر من دنو الدار ، ويذكر أن « العريب النازلين هم » (19) أنفسهم ·

عجبا والدار دانية | والعريب النازلون هم

وما دمنا فى ذكر الحادى الذى يزمزم ، فلنذكر فى هذه المناسبة مخاطبة العريب بذكر حرف النداء أو باسقاطه :

ففى ذكره يخاطب الشاعر هؤلاء ، ويعتذر اليهم تجنبه أرضهم ، لا مللا وانما حرصا على سمعته من عدو يسىء فيه مقاله : (20)

يا عريب الحمى اعذرونى فانى | ما تجنبت أرضكم عن ملاله
حاش لله غير انى أخشى | من عدو يسىء فينا مقاله
فتاخرت عنكم قانعا من | طيفكم فى المنام يهدى خياله

وهكذا قنع من طيف الحبيب أن يهدى خياله ، وبالطبع فنحن نعرف خياله وطيفه ، انها رموز تخفى وراءها أكثر مما يخطر فى ذهن السامع ·

ويخاطب العريب باسقاط أداة النداء تقربا وتوددا ، فيقول فى ختام قصيدة له : (21)

عريب الحمى ان لم أنل طيب وصلكم | فحسبى أن أرجو لقاكم وأطمع
اذا كنتم سكان قلبى فما الذى | يدافعنى عنه الحسود ويمنع

(19) مصورة الديوان المخطوط اللوحة 40 ظ ·
(20) مصورة الديوان المخطوط اللوحة 37 ظ ·
(21) مصورة الديوان المخطوط اللوحة 25 و ·

وفى هذه الاشارات الخفية عن العدو فى الشاهد الاول والحسود فى الشاهد الثانى ما يوضح لنا الاثر الكبير الذى خلفه الشاعر فى حياته ، لاننا نعرف أنه نفر من هؤلاء الاعداء والحساد ، يضاف الى ذلك ما كان يتمتع به من منزلة ومكانة عند هؤلاء المماليك ·

ونبقى مع الشاعر فى مخاطبة الغريب ، لنراه يشير الى غربته ، والى بعده عن مغربه ، وهو الصب العاشق للذات الالهية يذوب وجدا فى نجد : (22)

عريب الحمى فــلى فى حماكــم — نزيــل فى خيامكــم غــريــب
عجبت لناركــم بربــا المصــلى — ومنهــا الصب فى نجد يــذوب
ونشركــم عــلى قــرب وبعــد — الى المشتــاق تحملــه الجنــوب

هكذا نلاحظ أن الشاعر يمتزج بالطبيعة كما وردت عرضا فى هذه الشواهد ، وهى غرض رئيسى هام فى شعره ، ليس موطن بحثه الآن هنا ·

ولم يكن ليكتفى بذلك ، فكان فى بعض الاحيان يخاطب البرق يطلب منه أن يلقى عريبا دون كاظمة ، ويصور قلبه كجبل رضوى ، ولنترك الشاعر نفسه ، يحدثنا عن هذا الجبل الذى كان يذوب حين يحدو حاديهم : (23)

يا بــرق لاق عــريبــا دون كاظمــة — بناظــرى باسطــا للعــين أجفــانى
لو كان قلبى رضوى ذاب حين حــدا — حاديهــم فى رياضــات وسبحان

نختتم حديث الشاعر عن العريب بعد العرب ، والعرب ، والعرب ، بما استهل بــه قصيدته التى خاطب فيها السائق الذى يبغى دار مى وأشار الى عريب النازلة دون ذلك اللوى : (24)

أيهــا السائــق يبــغى دار مى — وعريبــا دون ذيــاك اللــوى

---

(22) مصورة الديوان المخطوط اللوحة 1 و ·
(23) مصورة الديوان المخطوط اللوحة 52 و ·
(24) مصورة الديوان المخطوط اللوحة 59 و ·

تلك هى قصة الشاعر الثائر الذى عاش فى المغرب والمشرق على السواء فكان ثـــورة على سلاطين المماليك حين تغنى بالعرب لفظا ومعنى وصورا • ولقد لاحظنا هذا الحـــب العظيم الذى خص به الشاعر العرب فى كل زمان ومكان •

وكان ثورة على الشعراء أنفسهم حين خالفهم ليعود بهم الى أصالتهم فى هذا التراث العربى الاصيـــل •

هكذا كانت ثورة الشاعر التلمسانى الكومى فى القرن السابع الهجرى ، فعليه الرحمة فى هذا اليوم الذى يجتمع فيه الناس من كل حوب وصوب فى بلد المجد الاصيـــل فى تلمسان الخالدة من جزائرنا الحبيبة •



ابو عبد الله محمد بن خميس التلمساني

(650 ـ 708 هـ ـــ 1253 ـ 1309 م)

المهدى البوعبدلي
بحاثة فى التاريخ ونائب
رئيس المجلس الاسلامى الاعلى
الجزائر



هو الشاعر الفيلسوف أبو عبد الله محمد بن عمر ابن محمد بن عمر بن محمد بن خميس الحجرى ، حجر ذي رعين الحميرى التلمسانى ، اعتنى بترجمته كبار المفكرين والباحثين من معاصريه ومن أتى بعدهم ، ولا زال معين البحث عنه لم ينضب بعد ، ومن ذلك ان بعض المعاصرين حاولوا مواصلة دراسة آثاره الا انهم لم يصلوا آلى اهدافهم ، وبقيت الجوانب المجهولة من حياته لغزا ، ترجم ابن خميس من القدامى لسان الدين ابن الخطيب السلمانى ، فى تاليفيه : « الاحاطة فى أخبار غرناطة » و « عائد الصلة » ونشر أهم اثر من آثاره وهي رسالته المفتتحة بقوله :

عجبا لها أيذوق طعم وصالها
من ليس يأمل ان يمر ببالها
وانا الفقير الى تعلة ساعة
منها وتمنعنى زكاة جمالها

وقد اقتصر ابن الخطيب على نشر هذه الرسالة من دون ان يتعرض للتعريف بهـا ، وعلى الاقل ذكر مخاطب ابن خميس ، أو الظروف التى كتبها فيها ، وقد لفت الانظار الى هذه الرسالة ، أحمد المقرى التلمسانى فى تاليفه « أزهـار الرياض فى أخبار القاضى عياض » بعدما ذكر له ترجمة وافية ، كما ترجمه فى « نفح الطيب » ونشر له عدة قصائد الا انه لم يذكر عن الرسالة شيئا ، رغم انه كاد ان يستوعب جميع مـا نشره عنه مترجموه ، ومن الباحثين القدامى الذين كانوا فى طليعة مترجمى ابن خميس أبو عبد الله محمد بن محمد العبدرى الحيحى فى رحلته المغربية » (I) وقد تعرف به عند مروره على تلمسان فى ابتداء رحلته سنة 688 هـ · وفى ذلك قال « وما رأيت بمدينة تلمسان من ينتمى الى العلم · ولا من يتعلق منه بسبب سوى صاحبنا أبى عبد الله محمد ن محمد بن خميس ، وهو فتى السن ، مولده عام خمسين ، وله عنياة بالعلم مع قلة الراغب فيه ، والمعين عليه ، وحظ وافر من الادب ، وطبع فاضل فى قـرض الشعر ··· » الى ان قال « ··· وكنت حين وردتها قد أقمت بها منتظرا للركب ، فكنت آنس بابن خمسين ، وأكثر مجالسته ومفاوضته ، وأعجبنى ذهنه وحاله ، فانى وجدته على حال انزواء وتقلل من الدنيا » اهـ · كان العبدرى كما ذكرنا هو الكاتـب الاول الذى نوه بشأن ابن خميس الذى كان مجهولا عند طبقات المتقفين ببلاده ، رغـم ان بعض آثاره ومنها رسالته المفتتحة بقوله :

عجبـا لهـا ايـذوق طعـم وصـالهـا
مـن ليـس يامـل ان يمـر ببـالهـا

بلغ صداها الى مصر ، حيث حكى ذلك العبدرى فى رحلته ، والذى اهتم بترجمة ابن خميس من القدامى واستوعب جل ما كتب عنه أحمد المقرى التلمسانى ، الذى افادنا بما كتبه عنه ابن خاتمة الاندلسى فى كتابه « مـزية المرية ، على غيرها من البـلاد الاندلسية » كما افادنا ان آبا عبد الله محمد بن ابراهيم الحضرمى جمع ديوان شعره فى مجموع سماه : « الدر النفيس فى شعر ابن خميس » هذا فى الجملة ما وصلنا من مترجمى ابن خميس القدامى ، اما المتأخرون فقد ترجمه الاستاذ محمد بن أبى شنب الجزائرى ثم الاستاذ عبد السلام بن مزيان التلمسانى فالاستاذ عبد الوهاب ابن منصور مؤرخ الدولة المغربية فى دراسة قيمة سماها « المنتخب النفيس من شعر ابن خميس » (2) · وقد ركزها على شرح رسالته المنشورة فى « الاحاطة » للسان الدين ابن الخطيب السلمانى المتحدث عنها ، ودعمها بكثير من قصئاده ، الا نا محاولته لتحليل الرسالة وشرحها ارتطمت بالغموض الذى اكتنفها · حيث اقتصر ناشروها

3

ابتداء من لسان الدين ابن الخطيب ، بذكرها من دون ان يتعرضوا لها ولو بكلمة ،

ابتداء من لسان الدين ابن الخطيب ، بذكرها من دون ان يتعرضوا لها ولو بكلمة ، كما تقدم لنا ذلك ، وقد قدم الاستاذ عبد الوهاب ابن منصور اعتذاراته لقراء دراسته ، وبين ان محاولة شرحه لا تعتمد على مصدر موثوق · وانما هي مجرد افتراضات وتصورات ، بخلاف الاستاذ عبد السلام ابن مزيان الذى قدم دراسته عنه فى مؤتمر المستشرقين المنعقد فى تلمسان سنة 1936 (3) وقدم افتراضات كحقائق من دون ان ينبه قراء دراسته من ان شرحه هو مجرد اختيارات لا تعتمد على رواية · ولما ظهر كتاب « تاريخ قضاة الاندلس » لابى الحسن ابن عبد الله بن الحسن النباهى المالقى الذى حققه ونشره المستشرق الفرنسى ليفــى بروفنصال ، مــدير معهــد الدراسات الاسلامية بجامعة باريس (طبع دار الكاتب المصرى بالقاهرة سنة 1948) وكان ضمن القضاة المترجمين قاضى تلمسان محمد بن منصور ابن هدية القرشى وذكر ان مــن جملة مآثره شرح رسالة ابن خميس ، وفى ذلك قال « ··· كبير قطره فى عصــره نباهة ووجاهة ، وقوة فى الحق وصرامة ، وكان أثيرا لدى سلطانه ، قلده مع قضائه كتابة سره ، وانزله من خواصه فوق منزلة وزرائه ، فصار يشاوره فى تدبير ملكه ، فقلما كان يجرى شيئا من أمور السلطنة الا عن مشورته ، وبعد استطلاع نظره ، وكان أصيل الرأي ، مصيب العقل ، مذكرا سلطانه بالخير ، معينا عليه ، كاتبا بليغا ينشى الرسائل لماطولة فى المعانى الشاردة ، ذا حظ وافر من علم العربية واللغة والتاريخ ، شرح رسالة محمد بن عمر بن خميس الحجرى استفتح أولها بقوله :

عجبــا لهــا ايــذوق طعــم وصــالهــا
مــن ليــس يــأمل ان يمــر ببــالهــا

وانــا الفقــير الــى تعــلــة ســاعــة
منهــا وتمنــعنــى زكــاة جمــالهــا

الى آخر الرسالة من نظم ونثر ، شرحا حسنا أتى فيه بفنون العلم ، وضروب الادب ، بما دل على براعته ، وكان جميل الاخلاق ، جم المشاركة مفيد المجالسة الخ » اهـ ·

ومما لاشك فيه ان هذا الشرح كان معروفا عند مترجمى ابــن خميس الاوائل ، الذين من بينهم لسان الدين ابن الخطيب ، اذ هو من تلامذة ابن هدية القرشى ، ولكن جل مـ اوصلنا من مترجمى ابن خميس لم نجد فيهم من ذكر هذ االشرح ، رغم ذكرهم وترجمتهم لصاحبه ، ومن هؤلاء أحمد المقرى الذى ترجم ابن هدية القرشى ضمــن أساتذة جده محمد المقرى قاضى تلمسان وفاس فى عهده ، ولهذا لا نستغرب ان عــد

4

شرح ابن هدية فى قائمة الكتب المفقودة ، ولم نجد له أثرا فى المخطوطات التى تزخر بفهارسها التآليف المخصصة لها ، ومن حسن الحظ ان ختم المطاف بنسخة من هذا الشرح باحدى خزائن بيوتات العلم بوادى بجاية ، واظهره صاحبه منذ سنوات قليلة فامكننا الاطلاع عليه والاستفادة منه ، وهذا المخطوط النادر ، رغم نقص بعض الاوراق منه ، ورغم ان مؤلفه صرح بانه ألفه مكرها ومرغما ـ ولذا تعهد باقتصاره على شرح وتحليل الجانب اللغوى فانه شرح مفيد ، أنار لنا الجوانب الغامضة من حياة ابن خميس ، وهذه فقرات من تقديم ابن هدية فى شرحه بين فيها الظروف التى اقدم فيها على تأليفه مع منهاجه فيه ، قال « اما بعد فان من ألزمنا الله تعالى للامر طاعته ، وفرض على كل امره مؤتمر له منها استطاعته ، اضفى الله علينا وارف ظله ، واضفى له عوارف فضله ، وطلب طلبته مثله أمر ممتثل ، ثم أمر وأمر ، وأمر الامير حكم محكم وعمل صالح عند أهل العلم معتمل ، ان اتضمن له بتبيين معانى الالفاظ اللغوية ، وتعيين ما يعن من اشارات الاغراض التاريخية ، من رسالة الشيخ الاستاذ الاديب أبى عبد الله محمد بن عمر بن محمد بن عمر بن محمد بن خميس الحجرى حجرذى رعين الحميرى التى كتب بها الى مشرف مدينة فاس : أى الفضل محمد بن يحيى بن عتيق العبدرى شاكرا له ومثنيا عليه ، وشاكيا له عصابة اساءوا تعصبا بزعمه اليه ، ضمنها منظوما ومنثورا ، وأودعها مثورا ومأثورا ، صعد فى ذلك وصوب ، وخطأ وصوب ، وعلا وسفل ... الخ » . اهـ

وكان الملك الذى ارغمه على هذا الشرح الملك أبو تاشفين الاول من ملوك بنى زيان ، وهذا الملك هو الذى بني منارة الجامع الاعظم المالكى بعاصمة الجزائر ، وفى عهده احتل الملك أبو الحسن المرينى مدينة تلمسان بعد حصار طويل ، ورغم هذا الحصار والقوة التى امكن جمعها طيلة أيام الحصار ، رفض الملك أبو تاشفين الاستسلام ، وقاوم الى ان قتل فى المعركة ، كبقية أفراد جيشه ، من هذه الفقرات افادنا الشارح اسم المخاطب فى الرسالة ، وهو مشرف مدينة فاس : أبو الفضل محمد بن يحيى بن عتيق العبدرى ، الذى ترك بعض من حاول شرح هذه الرسالة فى متاهات الافتراضات والاستنباطات ، والتى بينها وبين الحقيقة بعد شاسع ، فالاستاذ عبد السلام ابن مزيان عند شرحه لبيت ابن خميس التى قال فيها :

اعلم أبا الفضل بن يحيى اننى
من بعدها اجرى على آسالها

5

قال « ان أبا الفضل هذا هو ملك من ملوك بنى زيان » وقد استبعد الاستاذ عبد الوهاب ابن منصور فى « المنتخب النفيس » هذا الافتراض ونبه عنه : وقد وقع هو أيضا فى نفس الغلطة عندما قال فى شرحه للبيت الذى قال فيه ابن خميس :

وأنـل أبـا البـركـات من بـركـاتها
وادفـع محـال شكـوكـه بمحـالهـا

بعـد ان قـال :

خـذها أبـا الفضـل بـن يحيـى تحفـة
جـاءتـك لـم ينسـج عـلى منـوالهـا
مـا جـال فى مضمـارهـا شـعـر ولا
سمحـت قـريحـة شـاعـر بمثـالهـا
وأنـل أبـا البـركـات ...

فظن ان أبا البركات هذا هو « أبو البركات ابـن عيشون البلفيقى تلميذ ابن خميس » والفرق بينهما ان الاستاذ عد الوهاب بن منصور قدم اعتذاره لقرائه ، لافتا انتباههم الى ان تعاليقه مجردا استنباطات وافتراضات ، ما دامت تعوزه المصادر الموثوقة .

أزاح شرح ابن هدية الغموض الذى اكتنف حيـاة ابن خميس ، وتـرك بعض مترجميه ينسبه الى السحر والشعوذة ، والبعض الآخر ينسبه الى الزهد والتصوف ، رغم ان ترجمتى لسـان الدين ابن الخطيب والعبدرى جليتان فى الاشـادة بقيمتـه ومكانته ، وقد تقدم لنا ما قاله عنه العبدرى ، اما لسان الدين ابن الخطيب فانه ترجمه فى « عائد الصلة » وقال « كان رحمه الله نسيج وحده ، زهدا وانقباضا وأدبا وهمة ، وحسن الشيبة ، جميل الهيئة سليم الصدر ، قليل التصنع ، بعيدا عن الرياء عاملا على السياحة والعزلة ، عارفا بالمعارف القديمة ، مضطلعا بتفاريق النحل ، قائما عـلى العربية والاصلين ، طبقة الوقت فى الشعر وفحل الاوان فى المطول ، أقدر النـاس على اجتلاب الغريب الخ » . ظهر من خلال شرح ابن هدية ان ابن خميس كان ينتصر للفلاسفة ويشيد بائمتها ، والفقهاء اذ ذاك وفى مقدمتهم ابن هدية كانوا يحكمون على الفلاسفة بالزندقة والكفر وهذه التهمة التى الصقت بابن خميس ، هي من الاسباب التى جعلته يعيش فى بلاده منزويا منعزلا مجهولا فى الاوساط العلمية ، مما جعـل العبدرى يقول فى رحلته عنه « وجـده على حـال انزواء وتقلل من الدنيـا » اذ كان

ابن خميس قريب عحهد بالامتحان الذى أصابه بمدينة فاس ، حيث نصب له فقهاؤها كمينا ، مثل فيه امام محكمتهم ، فحكموا عليه بالكفر والزندقة ، اذ لما حمى وطيس المحاكمة ، دافع ابن خميس عن آرائه بشجاعة وثبات ، مما ادى محاكموه ان يسجلوه فى دفتر الزنادقة ، وتسجيل المحكوم عليه فى هذا الدفتر ، عبارة عن اباحة هدردمه ، ولم ينج ابن خميس من تنفيذ حكم الاعدام عليه ، الا مغادرته مدينة فاس تحت جناح الظلام كما سنبين ذلك ، وبعد وصوله الى تلمسان وجد الحاكم بامره فيها القاضى ابن هدية القرشى الذى قال النباهى فى ترجمته : « ٠٠ وكان أثيرا لدى سلطانه ، قلده مع قضائه كتابة سره ، وأنزله من خواصه فـوق منزلة وزرائه ، فصـار يشاوره فى تدبير ملكه ، فقلما كان يجـرى شيئـا مـن أمـور السلطنة الا عـن مشورته وبعد استطـلاع نظـره » ٠ اهـ

ولم تكن منزلة ابن هدية ـ الخصم اللدود لابن خميس ـ مكانته السياسية فقط ، بل هو علاوة على ذلك سليل الفاتح الشهير عقبة ابن نافع الفهرى والرأي العام يقدس عقبة وبنيه ، ومن سوء حظ ابن خميس انه كان مطلعا على محاكمته بفاس ، ولنترك لابن هدية القرشى الكلمة حيث قال عند شرحه لبيت ابن خميس فى رسالته :

وأنـل أبـا البـركـات مـن بركـاتهـا
وادفـع محـال شكـوكـه بمحـالهـا

قال : « أبا البركات يعنى الشريف أبا البركات محمد بن على الحسنى المعروف ببلده فاس بالشوانكى وكان له بحث فى علم الكلام ، نعم وكان له وبعلم اللسـان بعض الاعتناء والاهتمام ، وبسببه وقعت مخاطبة أبى عبد الله ابن خميس أبا الفضل ابـن عتيق بهذه الرسالة ، اذ كان أبو البركات هذا هو متولى مناظرته حال حلوله بمدينة فاس واجتيازه بها واحسب ذلك ما بين الثمانين والتسعين وستمائة أو قبلها بسنين والله أعلم ، وبمدينة فاس كنت انا قاطنا اذ ذاك مع والدى رحمهما الله تعالى ، لسبب أوجب مفارقة الوطن يطول ذكره ، وكانت المناظرة فى علمى الكلام واللسان ، انقطع فيها أبو عبد الله ابن خميس حينئذ ، انقطاع من عزه الدليل واعوزه البرهان ، فرسمه الشريف أبو البركات عند ذلك فى ديوان الضلال والكفر ، ووسمه مع ما وسمه الله به من التفلسف بانتحال الشعر ، ولذلك ما أشار ابن خميس اليه فى النظم من هذه الـرسـالـة والنثـر » ٠

7

اما راي الشارح ابن هدية فى الفلسفة ومعتنقى مذاهبها فقد اظهره عند شرحه لقول ابن خميس : « وجاجأ بها من قدماء الحكماء كل أوحدى الاحوذية فباتت تحب اليه وتوضح الخ » . فقال : « والاشارة هنا بالحكماء القدماء الى مثل من ذكره من متقدمى الفلاسفة الرؤساء **لعنهم الله ولعن ذا الاهتداء بهديهم والاقتداء** » . ثم عقد ابن هدية فصلا بسط فيه القول عن الفلاسفة الاسلاميين وغيرهم عند شرحه لقول ابن خميس فى رسالة : « وتحت هذه الاستار مخدرات استرار اضربها الاسرار ، وطالما تكر معارفها الانكار ، ونقلت من صدورا ولائك الصدور ، الى بطون هذه الاوراق ، فى ظهور رقوق دفاتر فلسفيات معانى علومهم الرقاق » شرح ابن هدية هذه الفقرة بقوله : « والفلسفيات منسوبة الى الفلسفة وقال ابن سيده الفلسفة الحكمة ، وهو الفيلسوف وقد تفلسف ، والفلسفة عند أهل السنة وكافة الاشعرية عبارة عن الزندقة البحتة والضلالة المحضة والكفر الواضح الناشى عن مطلق الخلاف الواضح ، وعلومها تنقسم الى الغرض المطلوب منها ستة أقسام : رياضية ومنطقية وطبيعية ، والاهية وسياسية وخلقية بينها الامام أبو حامد رحمه الله فى بعض تصانيفه وبين آفاتها فاغنى ذلك عن تبيينها هنا اذ فيه خروج عن الغرض المشترط ، وكذلك ينقسم اصناف اربابها على كثرة فرقهم واختلاف مذاهبهم وتشعب طرقهم ثلاثة أقسام : الدهريون والطبيعيون والالاهيون وكلهم زنادقة ، كفار ، لعائن الله تترى عليهم » .

وبعد ان بين ابن هدية المنتسبين لهذه الاقسام الثلاثة ، ورد بعضهم على بعض ، ختم فصله بقوله : « فوجب تكفيرهم وتكفير شعثهم من المتفلسفة الاسلاميين كابن سينا والفارابى وغيرهما من المهتدين بهديهم المقتدين برأيهم ، عليهم لعنة الله اجمعين » اه هذه فقرات مختصرة نقلناها من شرح ابن هدية القرشى للاستدلال بها على رأيه فى الفلاسفة ومذاهبهم ، نقتصر عليها ، ثم ننتقل الى رواية ابن هدية عن محاكمة ابن خميس فى مدينة فاس،وقد افادنا عن هذا النوع من المحاكم التى سيق اليها ابن خميس، وقد كان لروايته وزنها ، حيث انه كان ساكنا بمدينة فاس وقد أورد فى روايته ما يثبت ان ابن خميس جادل محاكميه حتى لم يبق منهم الا رئيس الجلسة أبو البركات كان ابن هدية علاوة على رأيه فى الفلسفة والفلاسفة الذين يحكم عليهم جزافا بالكفر والزندقة ، يحتقر ابن خميس ، ويهينه ، ومن ذلك رده عليه عند شرحه لبيته الذى قال فيه

واذا انتسبت فانني من دوحة
تتقيل الانساب فرد ضلالها

8

قال ابن هدية فى شرحه : « ٠٠ وهذا غلو مفرط وكذب مورط ، وكذا لعمرى كل ما تقدم من قوله جرا هذا المجرى » الخ ٠٠٠ الى ان قال عند شرحه للقسم النثرى من الرسالة « ما جدا يملأ الدلو الى عقد الكرب » قال « ومراد ابن خميس بهذا الكلام ، الفضل ابن عباس بن عتبة ابن ابى لهب حيث قال : « من يساجلنى يساجل ما جدا يملأ الدلو الى عقد الكرب » ٠

ثم استرسل ابن هدية فى حديثه فقال « فانت ترى ما فى كلام ابن خميس هذا من القحة والجراة على معاطاة الرفعة التى ناطته بمناط الخمول والضعة ، على انه لم يقف هنا ولا جعله حده ، بل اضرب عنه وقال بعده لو لو حظت بقبائها الحجرى رحلها ، وساجلت بوفاء جدها ذى رعين الا استوفت سجلها » فأقول :

ليت شعرى بم يهيمن ، وبحقوق من اعتصم ، حين صرح بخبث خلقه ، ونطق بسجية خرقه ، فلقد أمر أمره ، وطال ، وعرض فخره ، فواعجبا كيف ركب ذلك اللكع الهلباجة ، فى تلك الاسالب هجاجه ، ماشيا فيها رويدا آمنا من ان يصادف فى مضلات سباسبها كيدا ، مع ما يعرف من انه فى معاناة معانى معارف الزندقة قطع السن ، وان أديمه فى هجير الهجر استشن ، انا لله عز وجل الوازع ، وقل الجازع ، على ان فى ما تقدم من السقط ، ما يعد من هذا النمط ، اذ كل ما أسس من رسالته وبنى ، فانما هذا المعنى ان تأملته عنى ، اللهم انه خبط خبط عشواء ، اذ ركب عمياء ، ولو كان له بصر يؤديه ، وبصيرة تهديه ، لما ابدى مثل هذا البيت ، الذى أداه وافضى به الى ألمقت ٠٠٠ الى ان قال مخاطبا ابن خميس ٠

« واما الفقه الشرعى فمعلوم انك منه صفر الراحة ، برىء الساحة ، لم تزل قاصرا على اجتناب اسبابه ، قاصدا لاجتناب اربابه ، معاداة له ، ومناواة لمن حمله ،

فلست منهم لدى خبر ولا خبر
ولست منه لدى ورد ولا صدر

ولولا ان الاليق ايثار الاعراض من استتار مقاصدك السيئة والاعراض ، لاومأت من ذلك الى ما يوجعك منه عض الثقاف ، ويرميك بثالثة الاثافى ، فانك من تناولك هذا السجال ، وتجاولك فى ذلك المجال ، بين جهل فاضح أو كفر واضح ، فاختر وما فيهما حظ لمختار الخ » اهـ ٠

تكتفى بهذا القدر من بيان بعض الجوانب المجهولة من صفحات تاريخ حياة عبقرى عاش فى بلاده مدة طويلة منزويا خائفا يترقب مرور الاخطار التى كانت تهدده اثر

اتهام خصومه اياه بالكفر والزندقة والحكم عليه بالاعدام ، كان ابن خميس من قادة الفكر المتازئن بالشجاعة الادبية وقد ضرب لنا أروع مثل لذلك حيث دافع عن رأيه اثناء محاكمته بمدينة فاس وافحم خصومه حيث توارى معظمهم ولم يبق فى الميدان الا رئيس المحكمة ـ باعتراف خصمه اللدود ابن هدية ـ وهكذا نرى ابن خميس الذى عاش مدة فى ابتداء حياته موظفا بقصور ملوك بنى زيان ككاتب فى ديوان الانشـاء وكان فى امكانه ان يرقى بسهولة الى اعلى المناصب ، ابت همته الا ان يختار حيـاة التقشف والزهد بدلا من حياة القصور التى ضاق بها ذرعا ، وحالت بينه وبين ما كان يصبو اليه من حرية الفكر ولم يبالغ معاصره عبد المهيمن الحضرمى الذى صـــور حيـــاة القصـــر بقـولـه :

ابــت همتــى ان يــرانــى امــرو
مــدى الــدهــر يــومــا لــه ذا خضــوع

ومــا ذاك الا لانــى اتـقـيـت
بعــز القنــاعــة ذل الخضــوع

اختار ابن خميس عيشة الزهد والتقشف والعزلة بتلمسان ، الى ان واتته الظروف فغادرها تحت جناح الظلام ثم ختـم به المطاف بغرناطة ولـم تنسه حيـاة البـذخ والترف التى لاقاها بغرناطة تلمسان ، التى كان كلما ذكرها الا وبكاها فى قصـائده التى أودعها نبضات قلبه وخلجات فؤاده وقد استفاد التاريخ الثقافى التلمسانى من هذه القصائد ، قصيدة ضمنها معالم تلمسان فريدة فى نوعها ·

هذه هي الخطوط العريضة من ترجمة حياة ابن خميس التى وصلتنا ، ولا شـك ان ما تبقى منها ـ وهو فى حكم المفقود ـ مثل تراجم ابن خاتمة الاندلسى صاحـب كتاب « مزية المرية ، على غيرها من البلاد الاندلسية » وما كتبه عنه مواطنه أبو عبد الله محمد الحضرمى صاحب ثلاثيات البخارى الذى جمع ديوان شعره المسمى « الدر النفيس ، فى شعر ابن خميس » وكلاهما اعرف الناس به ، اذ عاصراه ورافقاه فى مدينة المرية ، كان أكثر الباحثين فى تاريخ الادب العربى وبالخصوص، المهتمين بدراسة ابن خميس ، يتطلعون الى هذين الاثرين ، وقد اشيع بان « الدر النفيس فى شعـر ابن خميس » اكتشف وقـد هيـأه مكتشفه للطبع ، الا انها مجـرد اشاعة ، والذى اكتشف حقيقة من آثار ابن خميس رسالة ثانية ، عزز بها رسالته الاولى ـ موضوع حديثنا ـ وبقيت هذه الرسالة مجهولة تماما ، الى ان اكتشفت منذ سنوات قليلة ·

وهي بخط ابن خميس ، اذ كتبها قبل وفاته بست وعشرين سنة ، فتاريخ ارسالها من تلمسان كان سنة 682 هـ ارسل ابن خميس هذه الرسالة فى وقت واحد مع رسالتــه الاولى التى ارسلها الى مشرف مدينة فاس : أبو الفضل محمد بن يحيى بن عتيــق العبدرى والثانية (القريبة العهد بالاكتشاف) ارسلها الى قاضى مدينة فاس أبـى غالب المغيلى ، ويظهر انها بقيت فى خزانة أبى غالب المغيلى حيث كتب ولده فى ختامها « ان هذه الرسالة ارسلها أبو عبد الله ابن خميس من تلمسان الى والدى سنة 682 هـ بعـد رجـوعه مـن فـاس » ٠

والغالب ان قاضى فاس ــ الذى كان من اصدقاء ابن خميس ــ احتفظ بها خشية ان تجر له التهمة ، والرسالة الثانية فى نفس موضوع الاولى ، واهم ما فيها الاشادة بالفلسفة واساطينها الذين كان يراهم المثل العليا لحرية الفكر ، وهي كسابقتها فى حاجة الى دراسة معمقة ، اذ الرسالة الاولى كما رأينا ، اقتصر فيها شارحها على الاهتمام بالناحية اللغوية ، وان فلتت منه استطرادات ، فهي لا تجاوز الهجوم على صاحبها ، ومحاولة نقض آرائه وتكفيره الخ ٠

ولهذا فهي فيحاجة الى دراسة فنية ، ولا يفوتنا فى هذا المقال ان نحتمه بما ختم به ابن خميس رسالتيه الاولى والثانية صور فى ختامهما انطباعاته عن فقهاء فـاس الذين نصبوا له كمينا وحكموا عليه بما هو معروف قال : « اقسم أبو الفضل بمـاله على أبى البركات من الفضل ، ذلك العراقى الارومة ، لا هذا الفاسى الجرثومة ٠ وان يك ذاك اسرائيلى الاصل ، وهذا اسماعيلى الجنس ، ان موطئ قدم أبى غالبنا المذكور من فاسه الغراء ، لارفع وأسنى من مقعد رقوطيهم المشهور من أغرناطة الحمراء ، ومن متبوء أبى اميتهم المرحوم من جنة جزيرة الخضراء ، فبما لكت أبـا الفضل من هـذه العجرفة والوك ، ارايت فى عمرك مثل هذا الصعلوك ، لا والله ما على ظهر هذه الغبراء ، من يتظاهر بمثل هذه المعرفة فى بنى غبراء ، فأي شيء هذا المنزع ايش ، لا حال لنا معك ولا عيش ، من يصحبك على هذا الطيش ، ما هذا الخبل ، اخمار بك ام ثمل ، ارجع الى ما كنت بصدده ٠ وقيت الزلل ، خذ فى الجد فما يليق بك الهزل ، رق غزلك فحك لنا منه ارق غزل ، ماذا أقول واى عقل يطابقنى على هذا المعقـول ، افحمتنى والله عن مكالمتكم هذه المحن ، ومنعنى من طلب مسالمتكم ما لكم على فـى دنياكم هذه من الاحن ، ان تكلمت كلمت ، وان استعجمت عجمت ، اما لهذه العـلة ءاس ، اما لهذه الغيلة مواس ، ما حيلتى فى طبع بلدكم الجاس اما يلين لضعفى قلب

زمانكم القاس ، ما لهذه الدمـن ، يا بنى خضروات الدمـن ، اظهرتم المجن • فقلب لكم ظهر المجن ، ان مربكم الولى حمقتموه فان زجركم العالم فجرتم عليه ففسقتموه ، واذا نجم فيكم الحكيم غصصتم به فكفرتموه ، وزندقتموه ، كونوا فوضى فمالكـم اليوم من سراة ، واذهبوا من مراعيكم المستوبلة حيث ما شئتم فقد اهملكم الرعـاة ، ضيعتم السنـن والشرائع ، واظهرتم فى بدعكم العجائب والبدائع ، نفقتم النفـاق ، واقمتم سوق الفسوق على ساق ، استصغرتم الكبائر ، وابحتم الصغائر ، اين غنيكم الشاكر ، يتفقد فقيركم الصابر ، اين عالمكم الماهر ، يرشد متعلمكم الجائر ، مـات العلم بموت العلماء ، وحكم الجهل بقطع دابر الحكماء ، جدد لنا شريعتك يـا أفضل الشارعين ، قم فينا بموعظتك يا أفصح التابعين ، لا والله ما يوقظكم من هذا الوسن ، وعظ الحسن ولا ينقذكم من فتن هذا الزمن الا سيف صاحبه ابى الحسن والسلام » اه •



أهم الأحداث الفكرية بتلمسان عبر التاريخ

ونبذ مجهولة من تاريخ حياة بعض أعلامها

المهدي البوعبدلي
عضو المجلس الاسلامي الاعلى
ـ الجزائر ـ

تعاقب على تلمسان في عهدها الاسلامي امراء وملوك منهم أمـراء قبيلة بني يفرن مؤسسو مدينة تلمسان قبل الفتح، وأمراء مغراوة ، ثم ملوك الادارسة فالفاطميين ثم المرابطين فالموحدين ، وبعد انحلال دولة الموحدين المركزية ، تنازع حكمها ملوك بني زيان من جهة ، وملوك مرين (المغرب) مع بني حفص ملوك تونس من جهة اخرى ، وبحكم الجوار ، كان النزاع بين بني زيان وبني مرين هو الذي خلف آثاره ، اما الخلاف مع بني حفص فكان اخف وطأة على بني زيان ، الذين حكموا البلاد ازيد من ثلاثة قرون امكنهم فيها رغم كل ما ذكرناه ، ورغم الخلافات بين أمراء الاسرة الزيانية المتطلعين للحكم ، الذين كانوا يتمردون المرة بعد المرة على السلطة المركزية ، مستعينين برؤساء الامارات الداخلية أو القبائل العربية والبربرية ، فقد تمكن ملوك بني زيان من جعل تلمسان عاصمة علمية ممتازة ، ضاهوا بها عواصم العلم المشهورة اذ ذاك ، كمصر ، وغرناطة ، وتونس وفاس

وبجاية ، وذلك انهم فتحوا باب الهجرة للعلماء على مصراعيه ، فجلبوا النخبة منهم ، سواء من مختلف بلاد القطر ، أو من الاندلس والمغرب الاقصى ٠

ان الغرض من هذه الدراسة استعراض أهم الاحداث الفكرية ، واستعراض نبذ مجهولة من تاريخ حياة بعض علماء تلمسان عبر تاريخها الزاهر ، فى الميدان الفكرى ، كما يدل على ذلك عنوان هذه الدراسة ، فالجوانب المجهولة من تاريخ حياة هؤلاء العلماء ، منها ما كان معروفا ، ولكنه بقى مغمورا فى كتب التراجم ، ومنها ما كان مجهولا ولم يكشف عنه الغطاء الا فى زماننا هذا عندما اكتشفت بعض المصادر القيمة النادرة واننى سأكتفى فى هذه الدراسة بسرد القسم الاول من الموضوع أى أهم الاحداث الفكرية ، وأجنب القارىء ، الدخول فى التفاصيل ، حيث يمكنه مراجعتها فى مظانها من التآليف المخصصة لها ، أما فيما يخص القسم الثانى من الموضوع ، وهو الجوانب المجهولة من تاريخ حياة بعض علمائها ، فاننى اقتصرت فيه ـ لضيق مجال هذه الدراسة ـ على حياة عالمين لهما شهرة عالمية ، ولا زالا محل عناية الكتاب والباحثين الى زماننا هذا ، وهما أبو عبد الله ابن خميس (650 ـ 708هـ) ٠ وأحمد المقرى (986 ـ 1041هـ) ٠

ان الجوانب المجهولة من ترجمتيهما ـ خصوصا ابن خميس ـ تركت الباحثين الذين حاولوا اماطة اللثام عن شخصيته الغامضة فى متاهات التناقض والاضطراب والالتجاء الى التكهنات كل ذلك بسبب فقد المراجع واحتياج الموجود منها الى البيان والتوضيح ٠

أما أحمد المقرى ، وان كان قريب عهد نسبيا ، وكان معاصروه ومن بعدهم ، أكثر اهتماما به وبآثاره ، فبقيت جوانب كثيرة تتعلق به وبأسرته مجهولة ، ولم يكشف عنها القناع الا فى عهدنا هذا ٠ ثم ان الفرق بين الشخصيتين كبير فأحمد المقرى ينتمى الى أسرة توارث أفرادها العلم والمجد ما يزيد على الخمسة قرون بتلمسان ثم انتقل فى آخر حياته الى فاس ومصر ودمشق فلقى التجلة والتقدير وانتصب فيها للتدريس والتاليف ، فلفت الانظار ، والتف حوله الطلاب ، فافاد واستفاد ، بخلاف ابن خميس المجهول الاصل والفصل ، الذى عاش منزويا فى مسقط رأسه ، ولولا الرحالة العبدرى الذى مر على تلمسان فى طريق رحلته الى المشرق سنة 688هـ ٠ ولقيه بها ، فنوه بشأنه ،

لما لفت أنظار مواطنيه ولنرجع الى الحديث عن القسم الاول من الموضوع ، وهو أهم الاحداث الفكرية التى اجتاحت تلمسان عبر تاريخها ، فكان أولها ، تسرب مذهب الصفرية الخارجى فى منتصف القرن الثانى من الهجرة ، وقد تزعم هذه الحركة أبو قرة الزناتى ، الى أن قضى عليها والى افريقية : ابن الاشعث ، فى عهد الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور، وبعد استيلاء الادارسة على تلمسان أواخر القرن الثانى الهجرى ، كان المذهب السائد ، هو المذهب المالكى ، الذى انتشر اذ ذاك فى كامل بلاد المغرب العربى والاندلس ، ثم ظهرت الدولة الفاطمية ، فانتشر بانتشارها المذهب الشيعى بتلمسان ، عندما استولى عليها بلقين بن زيرى بن مناد حوالى سنة 361 هـ ٠ ونقل جل سكانها الى (عاصمة دولته الثانية) أشير ، وفى أواخر القرن الرابع حل بتلمسان الفقيه أحمد بن نصر الداودى ، أحد دعاة المذهب المالكى الذى سبقت له المشاركة فى الحملة العنيفة التى قام بها فقهاء المذهب المالكى بالقيروان على المذهب الشيعى ، وكان يتزعمها الفقيه محمد ابن أبى زيد القيروانى ، أمام أحمد بن نصر الداودى بتلمسان على سنن علماء عهده ، ونال شهرة ، وحظوة ، بدليل أن ضريحه بقى من معالم ومزارات تلمسان ، الى عهدنا هذا كما بقيت أسرته تتوارث التقدير والاجلال وقد توفى الداودى فى بداية القرن الخامس ، قبل احداث المدينة الحالية (فى عهد الملك يوسف بن تاشفين) ولهذا دفن خارج سور المدينة القديمة ، وهى ربض أقادير الحالى ٠ ثم شاهدت تلمسان فى الميدان الفكرى الحرب الطاحنة بين الفقهاء المالكيين ودولة الموحدين بعد استيلائهم عليها فى أوائل القرن السادس ، واشتهر من الفريقين أعلام لا يسع مجال هذه الدراسة اطالة الوقوف عندهم ، اذ الخلاف العقائدى بين دولة الموحدين وفقهاء المذهب المالكى معروف ، وقد خصصت له التآليف العديدة ، وبعد معركة الموحدين ٠ شاهدت تلمسان معركة دامت ما يزيد على القرنين ، بين السلفيين والمتصوفة ، وكانت بدايتها أوائل القرن الثامن الهجرى ، وكثيرا ما اشتبهت سلفية تلمسان بسلفية المشرق التى تزعمها العالم المصلح أحمد بن تيمية الحنبلى ، والحقيقة أن سلفية تلمسان اذ ذاك تسربت اليها من المغرب الاقصى وبالضبط من مدينة فاس ، وكان الداعى لها هو الفقيه على بن محمد بن عبد الحق الزرويلى المشهور بأبى الحسن الصغير الذى تولى قضاء مدينة فاس وتوفى بها سنة 719هـ ٠ وقد

امتازت سلفية الزرويلي هذا عن سلفية معاصره بالمشرق : الامام أحمد بن تيمية الحنبلي ، بانها كانت تقتصر على محاربة البدع بجميع انواعها فى اطار المذهب المالكى ، اذ كان الزرويلي من أشهر فقهاء زمانه ، وكان داعية لنشر امهات كتب المذهب المالكى ، كالمدونة ، وتهذيبها للبراذعي ، التى كانت تواجه من ناحية أخرى ، حملة عنيفة ، شنها عليها بعض فقهاء المذهب المالكى انفسهم ، وقد خصص لها العالم المرحوم محمد الفاضل ابن عاشور مفتى الجمهورية التونسية دراسة قيمة نشرتها مجلة المجمع العلمى العربى ، بدمشق بعد وفاته بشهور ، وسمى هذه المعركة بثورة ثقافية تسربت من المشرق الى المغرب بواسطة الامام ناصر الدين المشدالى البجائى ، ومن بجاية الى تلمسان ، فالمغرب الاقصى ، بواسطة عمران ابى موسى المشدالى (670 ـ 705هـ) الذى كان يدير المدرسة التاشفينية بتلمسان ونال شهرة ، اذ هو شيخ مشائخ ابن خلدون ، امتدت المعركة بين السلفية والمتصوفة بتلمسان ما يربو على القرنين ، الا انها كانت لا تجاوز صفوف الاوساط العلمية ، كان يتزعم السلفية امام تلمسان فى عصره الحافظ محمد بن مرزوق الحفيد دفين تلمسان ، ويرأس انصار المتصوفين قاضى قضاة تلمسان قاسم العقبانى ، ولكل منهما مكانة شخصية وعائلية ، فأسرة ابن مرزوق كانت من الاسر التى توارثت العلم قرونا ، وكذلك أسرة العقباني ، والفارق بينهما ان أسرة ابن مرزوق أسرة تلمسانية وأسرة العقبانى أسرة اندلسية الاصل ، وقد احتفظ لنا التاريخ بتآليف الحافظ ابن مرزوق فى الموضوع سماه « النصح الخالص فى الرد على مدعى رتبة الكامل للناقص » .

وأيد ابن مرزوق كثير من علماء الاندلس والقيروان وفاس ، وكان لهذه المعركة امتداد الى عهد الامام محمد بن يوسف السنوسى المشهور بتآليفه فى علم التوحيد والمتوفى بتلمسان سنة 895 هـ . الذى انتصر لقاسم العقبانى وشيعته ، وألف كتابه المسمى « نصرة الفقير فى الرد على ابى الحسن الصغير » وانتصر للسنوسى شيخاه عبد الرحمن الثعالبى دفين الجزائر والحسن أبركان الراشدى دفين تلمسان ، ولم تفارق المعارك العقائدية تلمسان حيث فى وقت اشتغال السنوسى ومعاصريه بالمعركة بين السلفية والمتصوفة ظهرت معركة أخرى هزت الاوساط العلمية هزة عنيفة ، وهى المعروفة «بقضية يهود توات» أثارها الفقيه المشهور ابو عبد الله محمد بن عبد الكريم المغيلى عند ما أمر

مواطنيه بهدم بيعة اليهود التى احدثوها بقصور توات ، وعارضه فى ذلك معاصره أبو محمد عبد الله بن ابى بكر العصنونى ، فانقسم العلماء المعاصرون بتلمسان وفاس الى قسمين ، قسم أيد المغيلى ، والقسم الآخر أيد العصنونى ، ومن المؤيدين للمغيلى محمد ابن عبد الجليل التنسى والامام السنوسى وقد استفدنا مما ذيل به السنوسى فتواه الفقهية، الصبغة السياسية التى اكتستها هذه القضية ، التى كان ولاة البلاد يؤيدون فيها اليهود وتذييل السنوسى هذا نصه « ... فقد بلغنا أيها السيد ـ يعنى الفقيه المغيلى ـ ما حملتكم عليه الغيرة الايمانية والشجاعة العلمية من تغيير أحداث اليهود أذلهم الله تعالى وأخمد كفرهم للكنيسة فى بلاد المسلمين ، وانكم حرضتم أهل تمنطيط على هدم الكنائس التى لليهود ببلادهم فتوقفوا من جهة من عارضكم فى ذلك من أهل الاهواء ، فبعثتم لاجل ذلك الى بلدنا اسئلة ومكتوبات تستنهضون بها همم أهل العلم لينظروا فى المسئلة نظر أهل العدل والانصاف ، ويبينوا الحق فيها بيانا شافيا قاطعا لكل تخليط وتشغيب يرد من أهل الهوى والانحراف ، فاعلم أخى أنى لم أر من وقف لاجابة هذا المقصد ، وبذل وسعه فى تحقيق الحق وشفا غليل أهل الايمان فى هذه المسئلة ولم يلتفت لاجل قوة ايمانه ، ونصوع ايقانه ، الى ما يشير به الوهم الشيطانى ، من مداهنة بعض من تتقى شوكته ، ويخشى ان يقع على يده اضرار ، أو حط من المنزلة ... الخ » . وقد نشر أحداث هذه القضية أحمد بن يحيى الونشريسى فى « المعيار » بمزيد من التفصيل .

ولنواصل بحثنا فيما يتعلق بالقسم الثانى من الموضوع وهو « نبذ مجهولة من تاريخ حياة بعض اعلام تلمسان » الذى اقتصرنا فيه على حياة العالمين ابى عبد الله محمد ابن خميس ومواطنه أحمد المقرى .

كان أبو عبد الله محمد بن خميس من مواليد تلمسان ، حيث ولد بها حوالى منتصف القرن السابع ، وان جل مترجميه لم يتعرضوا لنشأته أو مشيخته على وفرة عددهم ، وهم الرحالة العبدرى ، ولسان الدين بن الخطيب السلمانى ، وعبد الرحمن بن خلدون ، واخوه يحيى ، وأحمد المقرى ، وابن القاضى فى « درة الحجال » وأحمد بن القاضى المشهور بابن قنفذ القسنطينى ، والسيوطى فى بغية الوعاة ، وابن مريم فى « البستان » ، والشريف الغرناطى فى تاليفه « رفع الحجب المستورة فى محاسن المقصورة » ومن

المتأخرين المعاصرين ، الاستاذ عبد الوهاب بن منصور مؤرخ المملكة المغربية ، والاستاذ عبد السلام بن مزيان التلمساني في دراسته (بالفرنسية) التي قدمها بمؤتمر المستشرقين المنعقد في تلمسان سنة 1936 ·

وقد كانت دراسة الاستاذ عبد الوهاب بن منصور المسماة « المنتخب النفيس من شعر ابن خميس » جمع فيها صاحبها ما تفرق في غيرها من تراجم القدامى وحاول شرح رسالة ابن خميس التي نشرها لسان الدين بن الخطيب في تأليفه « الاحاطة في أخبار غرناطة » ولكن غفل لسان الدين عن التعريف بالرسالة عمدا أو نسيانا ، فلم يذكر عنها شيئا ، بل غفل حتى عن ذكر من وجهت اليه ، وكان نفس الموقف لاحمد المقرى الذى أشار لهذه الرسالة المنشورة في الاحاطة ولهذا كانت محاولات من أرادوا شرح الرسالة المذكورة لم تجاوز حل وشرح الفاظها اللغوية ، وان وجدنا الاستاذ ابن منصور يعترف بعجزه حيث ارتطم بالغموض الذى كان يكتنف الرسالة ، ويقدم الاعتذار فالاستاذ عبد السلام مزيان رجع الى التكهن والخيال فارتكب اغلاطا فادحة تأباها النزاهة العلمية كان هذا هو الوضع بالنسبة الى ابن خميس أى بقى الغموض على أصله الى سنة 1365هـ· عندما نشر الاستاذ ابن منصور « المنتخب النفيس من شعر ابن خميس » بالمطبعة الخلدونية في تلمسان سنة 1365 هـ ·

ومنذ خمس سنوات اكتشف اثر من أهم آثار ابن خميس ، وهذا الاثر هو رسالة ثانية ـ الرسالة الاولى هي التي نشرها لسان الدين في الاحاطة وعبد الوهاب بن منصور في المنتخب النفيس ـ كتبها ابن خميس بخطه سنة 682 هـ · أى قبل وفاته بنحو 26 سنة وموضوعها نفس موضوع الرسالة الاولى ، وكتبتا في وقت واحد ، الا ان الاولى ولو لم يعرفها لسان الدين ولا من بعده كأحمد المقرى الا انها حظيت بشرح قيم لمعاصر ابن خميس قاضي قضاة تلمسان الامام ابن هدية القرشي ، وقد ذكر هذا الشرح المسمى « العلق النفيس في شرح رسالة ابن خميس » أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن النباهي في ترجمة ابن هدية القرشي في تأليفه الذى سماه « كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا » الذى حققه ونشره المستشرق ليفي بروفنسال استاذ اللغة

والحضارة العربية بالسوربون ومدير معهد الدراسات الاسـلامية بجامعة باريس (طبع دار الكاتب المصرى القاهرة سنة 1948) ٠

وترجمة النباهي لم توضح موضوع الرسالة ، اذ اقتصر فيها على وصف ابن هديـة بقوله « ٠٠٠ انه ذو حظ وافر من علم العربية واللغة والتاريخ ، شرح رسالة محمـد ابن عمر بن خميس الحجرى الذى استفتح أولها بقوله :

عجبا لها ايـذوق طعـم وصالها   من ليس يأمـل ان يمـر ببالها

وأنا الفقيـد الى تعلـة ساعـة   منهـا وتمنعـنى زكـاة جمالهـا

الى آخر الرسالة من نظم ونثر شرحا حسنا اتى فيه بفنون العلم وضروب الادب بما دل على براعته الخ » اهـ ٠

كان هذا الشرح فى حكم المفقود ، اذ لم يذكره ما وصلنا من مترجمى ابن خميس ، ونفس مترجمى ابن هدية الا النباهي المذكور ، وقد اكتشف باحدى خزائن بيوتات العلم بنواحى بجاية كما اكتشفت نسخة ـ أظنها الاصل اذ هى مبتورة تنقص منها الصفحات الناقصة من النسخة البجائية ـ ببقايا خزانة علمية شهيرة بمدينة قسنطينة ، وان هـذا الشرح المبتور « العلق النفيس فى شرح رسالة ابن خميس » لابن هدية القرشي والرسالة الثانية التى اكتشفت منذ خمس سنوات وقد كتبها ابن خميس بخطه سنة 682 هـ ٠ أى قبل وفاته بست وعشرين سنة ، أزالتا الغموض الذى اكتنف حياة ابن خميس قرونا ، ولهذا سنحاول فى هذه الدراسة ان نوضح بعض الجوانب من حياته بايجاز اذ مجال هذه الدراسة محدود ، كان ابن خميس عندما لقيه الرحالة العبدرى تحت مراقبة شديدة من خصومه الاقوياء، الذيـن كان فى طليعتهم قاضى قضاة تلمسان ورئيس وزرائها ابن هدية القرشي الذى كان بحكم مناصبه فى البلاط الزيانى حاكما بأمره يقول النباهي فى ترجمته « كان أثيرا لدى سلطانه ، قلده مع قضائه كتابة سره ، وانزله من خواصه فوق منزلـة وزرائه ، فصار يشاوره فى تدبير ملكه ، فقلما كان يجرى شيئا من أمور السلطة الا عن مشورته ، وبعد استطاع نظره، الخ » ٠

وزيادة على مكانة ابن هدية عند الملك فقد كان يتمتع بنفوذ ادبى ، مرجعه الى انــه سليل الفاتح الشهير عقبة بن نافع الفهرى ، وقد اتهم بن خميس بالكفر والزندقة حيث مثل امام محكمة خاصة بمدينة فاس ، وأصدرت حكمها عليه ولم ينجه من تنفيذ حكـم الاعدام عليه الا فراره من مدينة فاس ، وهذا جانب من الغمـوض الـذى كان يكتنف شخصيته بتلمسان ، ولم يفارقه الى ان فارق تلمسان الى سبتة ثم الى غرناطة حيث قتل ـ قيل لاسباب سياسية ـ سنة 708هـ ٠

اتهم ابن خميس « انه يتفلسف ويحيد عن التشرع علما وعملا وينحرف » وهـذه التهمة سجلها عليه ابن هدية القرشى ، والفلسفة عند ابن هدية القرشى كفر صريح وفى ذلك يقول « ٠٠٠ والفلسفة عند أهل السنة وكافة الاشعرية عبارة عن الزندقة البحتة والضلالة المحضة والكفر الواضح ، الناشىء عن مطلق الخلاف الواضح ٠٠٠ الى ان يقول بعد ما بين مذاهبها واساطينها « ٠٠٠ فوجب تكفيرهم وتكفير شعثهم من المتفلسفة الاسلاميين كأبن سينا والفارابى وغيرهما من المهتدين بهديهم المقتدين برأيهم عليهـم لعنـة الله أجمعـين الخ » ٠

وقد صادفت محاكمة ابن خميس بمدينة فاس وجود ابن هدية القرشى بمدينـة فاس ، دعته شؤونه الخاصة وفى هذه المحاكمة قال بن هدية « ٠٠٠ فاتفق ان اجتمع فى بعض محافلها الحافلة ومجالسها العامرة بأهل الفضل الآهلة بطائفة من حذاق الاشعرية وجماعة من الفقهاء المالكية كالشريف أبى البركات وغيره من فقهاء ذلك القطر ففتحوا باب المذاكرة ، وسلكوا سبيل المناظرة ، وتفننوا فى الكلام الى أن أخذوا فى علم الكـلام ، استدراجا لابن خميس ، واستخراجا لحب مذهبه الفلسفى الخسيس ـ الخ » وقـد وقف ابن خميس موقف الابطال حيث دافع عن آرائه وافحم خصومه بحجج قاطعة حتى لم يبق فى المناظرة الا خصمه الذى نصب له الكمين بحكم مركزه السياسى وفى ذلك قال ابن هدية « فلم يلبث ان فاوضهم فيما عنده ، وكشف لهم معتقده ، فانبرى له الشريف ابو البركات معارضا ، ولمذهبه السىء مناقضا ، وكثر القول منهما ، وتخلى القوم عنهما (يعنى بالقوم حذاق الاشعرية وجماعة من الفقهاء المالكية الذين حضروا للمناظرة) ٠٠٠ فامتد مجـال الجدال بينهما فلم يكن بأسرع من ان خاس ابن خميس ، وخاست الفلسفة وسكت مدحوض

الحجة ، فلم ينطق ببنت شفة ، ثم نظر فى القول الصادر منه وما ينشأ من **الحكم الشرعى عنه وخاف بوادر الحكام** فادرع جلباب الظلام ، وفر فرار الآبق ، ولم يلو على مرافق ولا موافق ، ولم يلق عصا تسياره الا بتلمسان داره ••• » اهـ •

فتبين ان سكوت ابن خميس لم يتسبب عن افحام خصومه أو انه « سكت مدحوض الحجة » ، بل فطن للكمين الذى نصب له ، وان خصومه وعلى رأسهم الشريف ابى البركات كان يستدرجه لتسجيله فى دفتر الزنادقة الذين تهدر دماؤهم لخبر يطول ، وعند رجوعه الى تلمسان كتب الرسالتين الاولى لمشرف مدينة فاس ابى الفضل محمد بن يحيى بن عتيق العبدرى ، وهذه هى الرسالة التى نشرها لسان الدين بن الخطيب فى « الاحاطة » ونقلها الاستاذ عبد الوهاب بن منصور فى دراسته « المنتخب النفيس من شعر ابن خميس » وحاول شرحها وارتطم باللغز الذى ذكرناه ، وهى التى جظيت بشرح ابن هدية القرشى الذى لم يخف فى مقدمة شرحه ، انه أجبر على هذا الشرح من ملكه ، ولهذا اقتصر على شرحه اللغوى عن مضض كان يظهره طول شرحه ، ولم يمنعه تعهده والتزامه بالاقتصار على الناحية اللغوية ، من نبز ابن خميس واظهار سخطه عليه ، واحتقاره واهانته ، من ذلك ان الداعى الى انشاء رسالته الدعاية لمبادئه الضالة وفى ذلك يقول : « ••• فأنت ترى ما فى كلام ابن خميس هذا من القحة والجرأة على معاطاة الرفعة التى ناطته بمناط الخمول والضعة ••• الى ان قال ••• ليت شعرى بم يهيمن ، وبحقوق من اعتصم ، حين صرح بخبث خلقه ، ونطق بسجية خرقه ، فلقد أمر أمره ، وطال وعرض فخره ، فواعجبا كيف ركب ذلك اللكع الهلباجة فى تلك الاساليب هجاجه ، ماشيا فيها رويدا ، آمنا من ان يصادف فى مضلات سباسبها كيدا ، مع ما يعرف من انه فى معاناة معانى **معارف** الزندقة قطع السن ، وان اديمه فى هجير الهجرا استشن ، انا لله عز وجل الوازع ، وقل الجازع ، على ان ما تقدم له من السقط ، ما يعد من هذا النمط، اذ كل ما **أسس من رسالته وبنى** ، فانما هذا المعنى — ان تأملته — عنى ، اللهم الا انه خبط خبط عشواء ، اذ ركب عمياء » الخ • اهـ

نقتصر على هذه الفقرات واللقطات التى بينا فيها ما جد واكتشف من جوانب حياة شخصية علمية لفتت الانظار ، وأهتم بها الباحثون القدامى والمتأخرون ، رغم ما كان

يكتنفها من غموض ، وتعد الرسالة الثانية التى لا شك انها كتبت فى وقت واحد مع الرسالة الاولى أى بعد رجوع ابن خميس من محاكمة فاس وقبل اتصاله وتعرفه بالعبدرى الذى لا شك انه كان يجهل عقيدته ، وان عرفت الرسالة الاولى ، فان الثانية كانت مجهولة ، وبقيت كذلك ، اذ هى تختلف عن الاولى ، فقد أرسلها الى صديقه قاضى فاس اذ ذاك ابو غالب المغيلى ـ الذى خلفه بعد عزله من قضاء مدينة فاس الفقيه المشهور ابو الحسن الزرويلى المتحدث عنه فى أول هذه الدراسة ـ وأبو غالب المغيلى ـ على ما يظهر ـ كان صديق فكرة لابن خميس ، الا انه كان اكثر منه احتياطا وكتمانا لآرائه الفلسفية ، وهذا من الاسباب التى جعلته يحتفظ برسالة ابن خميس بخزانته ، ولم يبدها لاحد ، اللهم الا ما وجدناه من تعليق ولده عليها ، من ان ابن خميس أرسلها الى والده بعد رجوعه من فاس الى تلمسان سنة 682هـ . ونفس ابن هدية القرشى عندما ذكر المناظرة التى حضرها ابن خميس بفاس لم يتحقق تاريخ وقوعها بالضبط حيث نجده يقول فى شرحه « وبسببه وقعت مخاطبة أبى عبد الله بن خميس أبا الفضل بن عتيق بهذه الرسالة اذ كان ابو البركات هذا هو متولى مناظرته حال حلوله بمدينة فاس واجتيازه بها واحسب ذلك فى سنى ما بين الثمانين والتسعين وستمائة أو قبلها بيسير الله أعلم بمدينة فاس كنت أنا قاطنا اذ ذاك مع والدى رحمه الله تعالى لسبب أوجب مفارقة الوطن يطول ذكره الخ » اهـ .

هذه الخطوط العريضة التى استفدناها من شرح ابن هدية القرشى « العلق النفيس فى شرح رسالة ابن خميس » والرسالة الثانية المكتوبة بخط ابن خميس ، ولم يشر اليها احد حتى ابن هدية المعاصر والمتتبع لحركات وسكنات عدوه اللدود ، وهى تلقى اضواء على حياة ابن خميس وتزيل التناقض الموجود عند مترجميه الذين كان بعضهم يصفه بالضعة والخمول والشعوذة والسحر وما الى ذلك ، وبعضهم الآخر وهم الاكثرية يصفونه بالعبقرية وسعة المعارف وسمو الهمة مع اتفاق جميعهم على ان نشأته وحياته فى بلاده كانت حياة خمول ومسكنة وانزواء وفى ذلك يقول صاحب « المنتخب النفيس » « ويغلب على الظن ان أسرة ابن خميس أسرة خاملة غير نابهة، وانه نشأ فى وسط فقير بئيس لا يمت الى العلم والمال بسبب وما ظنك ببيئة رجل كان يأوى الى الفنادق وينام على

سلائم الضأن ، وأجمع مـــن كتبوا عنه على وصفـه بالتقلـــل والانـــزواء والتجـــرد والعزلة ٠٠٠ الخ » اهـ

فلنكتفى بهذا الموجز من بيان ما انبهم من حياة مترجمنا الذى غادر تلمسان كما غادر قبلها فاس خائفا يترقب الى ان ختم به المطاف بمدينة غرناطة حيث توفرت لديه امكانيات حياة البذخ والترف والقصور ولم تنسه حياته هذه تلمسان فكان يتشوق اليها ولهـــذا نختم ترجمته باحدى قصائده بث فيها نجواه وذكر معالمها واحدا واحدا وهى هذه :

تلمسان جادتك السحـاب الدوالح وارست بـواديـك الـرياح اللواقح
وسح على ساحـــات باب جيادهـا ملـث يصـافى تربهـا ويصـــافـح
يطـــير فــؤادى كلمـا لاح لامــع وينهـل دمعى كلمـا نـاح صادح
ففى كـــل شفـر مـن جفونى مائح وفى كـــل شطر من فؤادى قــادح
فما المـــاء الا ما تسح مـدامعى وما النـــار الا ما تجـــن الجـــوانح
خليـــلى لاطيـف لعلـــوة طـــارق بليـــل ولا وجـــه لصحبى لائـــح
نظـــرت فلا نـور من الصبح ظاهر لعينى ولا نجـم الى الغـــرب جانح
لساقية الـرومى عنـــدى مزيـــة وان رغمـت تلك الروابى الرواشح
فكم لى عليها مـــن غـــدو وروحة تساعدنى فيهـــا المنى والمنـــائـح
فطـرفى عـــلى تلك البساتين سارح وطـرفى عـــلى تلك الميادين جامح
تجاربها الاذهــــان وهى ثـواقـب وتهفــــو بهـا الافكار وهى رواجح
ظبـاء مغانيهـا عـــواط عـــواطف وطـــير مجانيهـا شـــواد صوادح
وتقتلهـم فيهـــا عيـــون نواظـــر وتبكيهـــم منهـــا عيـــون نواضح
عـلى قريـة العبـاد مـــنى تحيـة كما فاح مـن مسـك اللطيفة فائـح
وجـاد ثـرى تاج المعـارف ديمـة تغص بهـا تلـك الربى والاباطـح
اليك شعيـــب بن الحسين قلـــوبنا نـــوازع لكـن الجســـوم نـــوازح

سعيت فما قصرت عن نيل غاية — فسعيك مشكور وتجرك رابح
وان انس لا أنس الوريط ووقفة — أنافح فيها روضة وأناوح
مطلا على ذاك الغدير وقد بدت — لانسان عيني من صفاه صفائح
اماؤك أم عيني عشية صدقت — علية فينا ما يقول المكاشح
لئن كنت ملآنا بدمعي طافحا — فاني سكران بحبك طافح
وان كان مهرى فى تلاعك سائحا — فذاك غزالى فى عبابك سابح
فراح غدا ينصب من فوق شاهق — بمثل حلاه تستحث القرائح
ارق من الشوق الذى أنا كاتم — وأصفى الدمع الذى أنا سافح
اما وهوى من لا أسميه اننى — لعرضى كما قال النصيح لناصح
أبعد صيامي واعتكافي وخلوتي — يقال فلان ضيق الصدر بائح
لبعت رشادى فيه بالغبن ضلة — وكم صالح مثلى غدا وهو طالح
وأى مقام ليس لى فيه حاسد — وأى مقام ليس لى فيه قادح
ألا قل لفرسان البلاغة اسرجوا — فقد جاءكم منى المكافى المكافح
أيخمل ذكرى عندهم وهو نابه — ويغمط شجوى عندهم وهو شائح
يدور اذا جن الظلام كوامل — وأسدا اذا لاح الصباح كوالح
تركتك سوق البز لا عن تهاون — وكيف وظبيى سائح فيك سارح
وانى وقلبى فى ولائك طامح — وناظر وهمى فى سماطك طامح
أيا أهل ودى والمشير مؤمن — أتقضى ديونى أم غريمى فالح
وهل ذلك الظبى التصاحى للذى — يقطع من قلبى بعينيه ناصح
كنيت بها عنه حياء وحشمة — ووجه اعتذارى فى القضية واضح

هذا واننى لم انجز ما وعدت به من الحاق ترجمة أحمد المقرى فى هذه الدراسة فسأخصصها بدراسة أخرى ولربما أضيف اليها شخصية علمية أخرى لا وجود لذكرها فى كتب التراجم وهى شخصية محمد بن للو الاندلسى الاصلى التلمسانى الولادة والنشأة كان من علماء القرن الثانى عشر الهجرى ٠

من آثارنا المغمورة

بغية الرواد في أخبار بني عبد الواد

لأبي زكريا يحيى ابن خلدون

محمود بوعياد
مدير المكتبة الوطنية
– الجزائر –

من بين الاثار الثقافية الوطنية التى لم يلتفت اليها الباحثون ولم يعطوها حق قدرها ، كتاب « بغية الرواد فى أخبار بنى عبد الواد » ، وهذا رغم نفاسة هذا المصدر بالنسبة للمنقب عن تاريخ الجزائر فى القرنين السابع والثامن من الهجرة (الثالث عشر والرابع عشر من الميلاد) ، ورغم قيمته لدارسى الادب والحركة العلمية فى ذلك العهد • فقد بقي هذا الكتاب مهملا منسيا ، لم يكتب مقال عن صاحبه ، ولم يدرس محتواه ، ولم يفكر احد فى اعادة نشره وجعله متداولا بين

الباحثين وجمهور القراء ، حتى كأن الكتاب تناول موضوعا لايهم احدا ، ولا يمت بعلاقة الى تراثنا وتاريخنا • وقد اعتنى المستشرقون فى اوائل هذا القرن الميلادى فنشره احدهم كما سنذكر ، غير ان الناشر لم يخرج الا نسخا قليلة على عادة المستشرقين فى ذلك العهد حيث ان كل انتاجهم كان موجها الى أقلية من المتخصصين • فأصبح الكتاب مفقودا لا تملكه الا بعض المكتبات • وفى الفترة الحاضرة التى كثرت فيها المساعى لاحياء التراث ، قصدنا بهذا المقال القاء اهتمام الباحثين لهذا الاثر ، بتذكيرهم بوجوده ، وبالتحدث عن محتواه ،

مؤلف الكتـــــاب :

ولد يحي بن خلدون سنة ٧٣٤ هـ ــ ١٣٣٣ م بتونس حيث اخذ العلم عن نفس الشيوخ الذين تتلمذ لهم أخوه عبد الرحمن صاحب كتاب العبر ، ولا نعرف عن حياة يحى الا النزر اليسير ، وكل ما نعرفه مستخرج من كتابه « بغية الرواد » ، ومن المعلومات القليلة المذكورة فى « كتاب العبر » لعبد الرحمن الذى خص فصلا صغيرا من كتابه لمقتل اخيه الاصغر سماه : « وثبة ابن تاشفين بيحى بن خلدون كاتب ابيه » (١) • وذكر أخاه ايضا فى ترجمته الشخصية فى آخر كتاب العبر • وهكذا عرفنا أن يحى بعدما تولى مناصب لا شأن كبيرا لها ببجاية عند امرائها الحفصيين ، عينه ملك تلمسان ابو حمو موسى ، بوصية من اخيه عبد الرحمن ، فى منصب كتابة الانشاء سنة ٧٦٩ هـ ــ ١٣٦٨م•وكان كاتب الانشاء فى الادارة الزيانية بتلمسان فى منزلة كاتب الدولة والوزير فى النظام السائد اليوم فى العالم ، وبقى يحى فى منصبه الى سنة ٧٨٠ هـ ، وهى السنة التى ذهب فيها ضحية مؤامراة دبرها ابو تاشفين ابن السلطان ابى حمو •

وكان يحى اديبا ميالا الى البديع فى المنثور والمنظوم ، ولم يخلف حسب مالدينا من معلومات ، الا كتابا واحدا هو « بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد » • وقد نشره مع ترجمة فرنسية المستشرق الفريد بيل ما بين سنة١٣٢١هـ ــ١٩٠٤م وسنة ١٣٣٢ هـ ــ ١٩١٣ م بالجزائر فى جزأين وثلاثة مجلدات (٢) • وقد أحتوى المجلد الاول على تاريخ تلمسان ، وتاريخ الدولة الزيانية الى تولية ابى حمو موسى ، ونشرت الترجمة الفرنسية فى نفس المجلد • وقسم الناشر الجزء الثانى الى مجلدين ، الاول نشر فيه المتن العربى وكله خاص بأخبار ابى حمو وضم الثانى ترجمته الفرنسية •

عـــنوان الكتــــاب :

ان ناشر بغية الرواد قد اكتفى فى غلاف الكتاب المنشور وفى صفحة العنوان الداخلية ، بذكر العنوان التالى : « بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد » ، غير أننا عثرنا داخل المتن من الكتاب المنشور ، على عنوان اطول ، ولا مراء انه العنوان الحقيقى الذى اسنده يحى لكتابه ، بدليل انه قال : وسميته : « بغية الرواد فى أخبار بنى عبد الواد ، وما حازه مولانا ابو حمو من

(١) كتاب العبر ، ج 7 ص 292 ــ 293

(2) IBN KHALDOUN (Abou Zakaria Yahia). - Histoire des Béni 'Abd El-Wad, Rois de Tlemcen, édit. et trad. par Alfred Bel. - Alger, 1903-1913.

الشرف الشاهق الا طـواد » (٣) ، وهـو ادل على محتوى الكتاب لأن ثلثى الكتـاب تقريبا خصهمـا المؤلف لذكر أخبـار الملك ابى حمو موسى ، كمـا سنـرى بالتفصيل بعد قليـل فى الفصل الخـاص بمحتوى الكتاب•ونعثر فى المصادر القديمة على روايات أخرى • فبعض نسـاخ المخطوط كتبوا : «نجعة الرواد» عوض «بغية الرواد» وقد ذكر هذه الروايـة الفريد بيل ، وقد عثـر عليهـا فى أحـد المخطوطات التى اعتمد عليها ، فأشـار اليها فى هامش الكتاب المنشور (٤)•أمـا أحمد المقرى فى نفح الطيب، فذكر رواية ثالثة، فقال : «بغية الرواد فى أخبار بنى عبد الواد ، وايام ابى حمو الشامخة الاطواد » (٥) ، عوض « وما حازه مولانا ابى حمو مـن الشرف الشاهق الاطواد » ، وهكذا لـم يلتزم كل من ذكر بغيـة الرواد ، العنوان الذى أعطاه المؤلف لكتابه •

مـــحتوى الكتـــاب :

الف يحى بن خلدون بغية الرواد بطلب مـن أبى حمـو موسى حسبمـا صرح هـو فى مقدمـة الكتـاب • فبعد أن تحدث عـن مشـروع تدويـن « ما جمعته سيرته الكريمة من حرب وسلم ، وتخليد ما لدولته الكريمة من معال الخ •• ، قال : « وكنت ممن يامره أعلى الله مقامه بذلك ثم رايت ان امتثال امره العزيز علي فـرض ، وان طاعتـه من طاعـة الله على بعض ، فانتدبت لاملاء هذا الكتاب راكبا فيه لرضاه الاخطار الخ •• » (٦) •

وهذا ما يفسر لنا ان ثلثى الكتـاب خصهما المؤلف لاخبار ابى حمو واخبار عصره ، وهذا مـا يبين لنا أيضا كمـا سنرى ، تملـق يحى ، وتودده للدولة الزيانية بأجمعها ، وتملقـه لمستخدمه الملك ابى حمـو •

وقسم ابـن خلدون كتابه الى ثلاثـة اقسام ، ثم قسم كل قسم الى ثلاثة ابـواب ، وكل بـاب الى عدة فصول •

اما القسم الاول فخصه « للتعريف بكنه قبيل عبد الواد واوليته » وأول ابوابه الثلاثة « فى ذكر محل اعتماره من الارض » • ووصف فيـه مدينـة تلمسان وذكر محاسنها ، وماقيل فيها من اشعار ، ثم انتقل الى « تعداد من انجبته تلمسان واستقر بها من العلماء والصالحين » • وترجم المؤلف فى هذا الفصل الهام من الكتاب ، لثمانية وخمسين ومائـة عالم وصالح ، من بينهم بعض اشياخـه ، واعقب هذه التراجم بخلاصة تاريخ مدينة تلمسان ابتداء من الفتح الاسلامى الى عهد الموحدين ، وهو زمان ظهور بنى عبد الواد ، « وتملك هذا القبيل الشريف بلد تلمسان » (٧) •

والبـاب الثـانى مـن القسـم الاول ، « فى التعريف بجنس هذا القبيـل الكـريم وفضلـه » • واستهله « بذكر البربر ومنتهى زناتة فيهم » • واذا كـان يحى قد ذكـر باختصار الروايات المختلفـة الشائعة عن نسب البـربر وتقسيم قبائلهم ، فـان

3) بغية الرواد ج 1 ص 6
5) نفح الطيب ج 9 ص 340
6) بغية الرواد ج 1 ص 4
7) نفس المصدر ج 1 ص 88

مخطوط بغية الرواد في أخبار بني عبد الواد ، محفوظ بالمكتبة الوطنية الجزائرية

اخاه عبد الرحمن قد اطنب فى الحديث عن هذا الموضوع ، وخص صاحب البغية الفصل التالى « لذكر شعب بنى عبد الواد » الذى ينتسب الى زناتة ، كما ينتسب الى زناته ايضا بنو مرين • وسرد باختصار تاريخ بنى عبد الواد ، وذكر طاعتهم لعقبة بن نافع فاتح المغرب ، وامدادهم اياه بالنجدات ثم اتصالهم بالمهدى بن تومرت • ومما ذكر فى هذا الفصل حادثة وقعت بين بنى عبد الواد وبنى مرين ، ايام عبد المؤمن الذى استنجد بالاولين على الاخرين • وهذه الواقعة حلقة من سلسلة الوقائع التى ادت الى العداوة والبغضاء بين القبيلتين القريبتين المنتسبتين الى جد واحد •

وذكر يحى فى هذا الفصل ان بنى زيان شرفاء ، وذلك لأن احد الادارسة من سلالة ادريس مؤسس الدولة الادريسية بفاس ، واسمه القاسم « انضاف الى بنى عبد الواد وتزوج فيهم ، ونسل بينهم ذرية صالحة » (٨) منهم الملوك من بنى عبد الواد • وزاد قائلا : « فبنو القاسم هم الذين حازوا الشرف » (٩) الى ان قال : « ولا يسمع للطعن فى هذا النسب الكريم لأنه من الشهرة فى الآفاق ، والفشو فى القبائل والاباء (كذا) ، بحيث لا يحجبه بعد دار ، ولا يجحده لسان عدو » (١٠) • وقد اقتفى هذا الراى محمد التنسى فى كتابه «نظم الدر والعقيان فى شرف بنى زيان » وذكر هو ايضا أن بنى عبد الواد من ذرية القاسم الادريسى ، خلافا لباقى بطون زناتة • أما عبد الرحمن بن خلدون فقد أنكر هذا النسب واعتبره « مزعما لا مستند له الا اتفاق بنى القاسم هؤلاء عليه » (١١) •

أما الباب الثالث من القسم الاول هذا ، فهو خاص « بالتعريف باولية بنى عبد الواد • وترحيل (كذا) أيامهم » • وقد عاد المؤلف فى هذا الباب الى تاريخ القبيلة مبتدئا بعهد الموحدين ، حين ترك بنو عبد الواد الصحراء واستقروا بالتل الذى اتخذوه مربعا « بما أنسوه من خصبه وغضارة عيشه » (١٢) ، مسالمين الدولة الموحدية ، خلافا لابناء عمومتهم من بنى مرين الذين تمادوا فى مناهضتها ونصب العداء لها • ثم انتقل المؤلف الى « ذكر سبب مصير الملك اليهم » ، وذلك حين استولى جدهم جابر بن يوسف ، فى عهد الخليفة المامون الموحدى (١٣) على تلمسان ، « واستقل بحكمها ، الا ما كان من ذكر المامون على المنبر ، وفى الدرهم والدينار » (١٤) •

وأتبع ذلك « بذكر من ولى منهم غير مستبد » اى من بقى من الامراء على طاعة خليفة مراكش من الدولة المومنية •

8) بغية الرواد ج 1 ص 102
9) نفس المصدر ج 1 ص 102
10) نفس المصدر ج 1 ص 103
11) العبر ج 7 ص 149
12) بغية الرواد ج 1 ص 104
13) خليفة من سنة 624 هـ ـ 1227 م الى سنة 630 هـ 1232 م
14) بغية الرواد ج 1 ص 107

أما القسم الثانى الذى قسمه يحى بن خلدون ايضا الى ثلاثة ابواب فقد خصه المؤلف لذكر السلاطين من بنى عبد الواد · وذكر فى الباب الاول تباعا الملوك الاولين ، واخبار دولتهم ، والوقائع التى خاضوها ضد بنى مرين وما اكثرها الى ان بلغ بحديثه خبر مقتل الملك ابى تاشفين بباب قصر « المشور » سنة ٧٣٩ هـ ـ ١٣٣٩ م ، وطمس معالم الدولة على يدى السلطان المرينى ابى الحسن · ثم أتى فى الباب الثانى بخبر « احياء الدولة عقب العفاء » ·

اما الباب الثالث والاخير من هذا القسم فهو خاص بأخبار « دولة السلطانين ابى سعيد وابى ثابت · » وكان على ايديهما احياء الدولة سنة ٧٤٩ هـ ـ ١٣٤٨ م · فجلسا على عرش ابائهما واقتسما مقاليد الحكم بدون أن يحدث بينهما أى خلاف ويفرقهما أى شقاق ·

وخص المؤلف القسم الثالث من كتابه « لما حازه أمير المسلمين مولانا ابو حمو من الشرف الشاهق الا طواد » · وهذا القسم كما قلنا سابقا هو اطول أقسام الكتاب · وقسمه المؤلف مثلما فعل فى القسمين السابقين ، الى ثلاثة ابواب : الاول « فى ذكر سجاياه وسيره الحميدة » ، وأورد فيه بالخصوص مساعى ابى حمو لاحياء الدولة الزيانية بعد ان قضى عليها من جديد السلطان المرينى ابو عنان ، ومما تجدر الاشارة اليه أن السفر الثانى من كتاب « زهر البستان فى دولة بنى زيان » لمؤلف مجهول قد استهله صاحبه هو ايضا بذكر أخبار احياء الدولة على يد أبى حمو موسى ·

والباب الثانى « فى اوليته ومصير الملك اليه » · وينتهى الكتاب بالباب الثالث وهو أطول باب فى الكتاب (١٥) · وقال عنه المؤلف ، « انى ذاكر فى هذا الباب ما التزمته من تفصيل ما اشتملت دولته من حرب وسلم ، وتفريق ولم ، وحكمة وحكم » (١٦) · وترك المؤلف فى بداية هذا الباب ، تقسيم المتن الى ابواب وفصول ، وشرع فى طريقة جديدة لتدوين الاخبار ، فرتبها على السنوات ، مثلما فعل قبله وبعده ، عدد كبير من المؤرخين الذين فضلوا ترتيب الاخبار على السنين بدلا من التبويب ·

وشرع يحيى فى تدوين الاخبار على المنهج الجديد سنة ٧٦٠ هـ ـ ١٣٥٩ م وهى سنة «استقرار ابى حمو بدار الملك » ، وينهى أخباره فى سنة ٧٧٧ هـ ـ ١٣٧٦ م اى قبل مقتله بثلاث سنوات · ومما لاشك فيه أن يحيى لم يتم كتابه اذ كان فى نيته مواصلة تدوين أخبار مولاه · ويفهم ذلك من النص الذى بين ايدينا ، فقال المؤلف حسبما ذكرت بعض النسخ ، لا كلها كما بين ذلك الناشر · قال « تم السفر الاول من كتاب بغية الرواد الخ ·· » ، (١٧ · ولو لم يكن فى نية يحيى ان يواصل حديثه لما ذكر ان ما كتب هو السفر الاول · واكبر الظن أن الموت حال بينه وبين مواصلة التصنيف ·

هذا هو مضمون الكتاب عرضناه باختصار · والجدير بالذكر ان يحيى بن خلدون لم يعن باخبار باقى العالم ، فكان محور حديثه الدولة الزيانية وبالخصوص أبا حمو موسى ، فلم يذكر أخبار بنى مرين وبنى حفص الا اذا كانت لها علاقة بتاريخ الدولة العبدوادية ·

15) بغية الرواد من ص 37 الى ص 332 من ج 2
16) نفس المصدر ج 2 ص 37
17) نفس المصدر ج 2 ص 327

وكان لثقافة يحيى بن خلدون الواسعة، وليله للادب والبلاغة ، اثر كبير فى بغية الرواد · فجاء الكتاب وبالخصوص الباب الطويل الخاص بابى حمو موسى ، مشحونا بالاشعار وباوصاف المجالس الادبية ، ويجتمع يحيى فى هذه الظاهرة مع معاصره ، مؤلف زهر البستان ، ومع التنسى فى نظم الدر ، وكثيرا ما نجد نفس القصائد فى الكتب الثلاثة ، واغلبها لشعراء من المغرب الاوسط بينما تميز عبد الرحمن بن خلدون بعدم ايراده الشعر ، الا ما ذكر فى المقدمة وفى ترجمته الشخصية · وسبقت الاشارة الى أن صاحب البغية اهتم اهتماما كبيرا بحياة العلماء والادباء والصالحين ، فترجم لعدد كبير منهم فتحوا عيونهم بتلمسان او استقروا بها · وقد خالف بذلك كلا من صاحب زهر البستان واخيه عبد الرحمن والتنسى·

قيمــــة الكتــــاب :

من المعروف عند الباحثين المهتمين بتاريخ الجزائر فى العصر الاسلامى ، أن اركان التاريخ الزيانى ثلاثة، وهى : بغية الرواد ليحيى بن خلدون وكتاب العبر لأخيه عبد الرحمن ، ونظم الدر لمحمد التنسى ، ولولا ضياع ثلثى كتاب زهر البستان فى دولة بنى زيان لا عتبرناه ركنا رابعا ، غير ان اهميته نقصت بهذا البتر · واذا قارنا هذه المصادر الاربعة فيما بينها ، اكتشفنا ان لكل واحد منها مزاياه وخصائصه ، كما أن لكل واحد منها عيوبه· فان بغية الرواد تفوق فى الغالب كتاب العبر ، ونظم الدر بتفصيلها للأخبار ، لا سيما الخاصة منها بعهد ابى حمو · ويشاركها فى هذه الخاصية زهر البستان ، غير ان عبد الرحمن قد انفرد ببعض الاخبار تتعلق بالفترة الاولى للدولة لم يذكرها أخوه · ويشترك المؤلفون الاربعة فى ظاهرة واحدة وهى اتصالهم كل واحد فى وقته ، بفترة من الفترات التى دونوا تاريخها ، فكانت روايتهم رواية شاهد عيان احيانا ، غير ان التنسى لم يهتم فى « النظم » بتاريخ ملك زمانه ووعد بتاليف كتاب خاص به · وتميز عبد الرحمن من بين الاربعة ، بنقده للأخبار ، ونفيه لبعض الخرافات ، ومنها الحاق بنى عبد الواد بسلالة على بن ابى طالب ، كما تميز بعدم تحيزه لدولة من الدول المغربية التى اتصل بها وخدمها ·

أما اتصال يحى بن خلدون بالدولة ، فكان ناتجا عن طبيعة عمله· فقد مكنه منصبه وهو كتابة الانشاء ، من استعمال الوثائق الرسمية من رسائل ، ومعاهدات من ناحية ، وبالاتصال برجال الدولة من الذين لعبوا دورا فى اكثر الاحداث التى سردها أوكانوا من المشاهدين لها من ناحية اخرى· واكبر الظن ان يحيى سمع روايات شيوخ بنى عبد الواد عن تاريخ قبيلتهم ، كما مكن له منصبه من التقاط الاخبار من كل تلك الشخصيات التى اخذها ابو حمو رهنا كما ذكر عبد الرحمن بن خلدون من اهل العمالات ، وقبائل زناتة ، والعرب ، حتى من قومه بنى عبد الواد···«وتجاوز ذلك الى أهل الامصار والثغور من المشيخة والسوقة » · واسكنهم بجانبه فى عاصمته (١٨) · فنعتقد ان يحيى جمع ما كانوا على علم به من اخبار قبائلهم واخبار منازل عشائرهم فاطلع هكذا عن كتب على أخبار الدولة دقيقها وجليلها · فجاء كتابه مشحونا بالتفاصيل التى استفاد منها من أعقبه من المؤرخين فنقلوها عنه ومنهم المقرى فى كتابيه « نفح الطيب »

18) العبر ج 7 ص 215

« وازهار الرياض » ، والتنسى فى « نظم الدر والعقيان » الذى اعتمد على بغية الرواد اعتمادا كبيرا ، وابن مريم فى « البستان فى ذكر العلماء والاولياء بتلمسان » ، وقد اشرنا سابقا الى ان يحيى اهتم اهتماما كبيرا بآثار الاولين ، فترجم لعدد كبير من العلماء والصالحين .

ومن امثلة الاحداث التى انفرد صاحب بغية الرواد بتدوينها بالتفصيل ، خبر احياء الدولة الزيانية سنة ٧٤٩ هـ ـ ١٣٤٨ م ، بعد أن أطاح بها ابو الحسن السلطان المرينى عشر سنوات من قبل باستلائه على تلمسان ، فاكمل يحيى بهذه التفاصيل الاخبار التى اوردها اخوه عبد الرحمن فى القسم الخاص ببنى عبد الواد من العبر ، عن هذا الحادث كما ذكر تفاصيل جديدة عن نكبة ابى الحسن ونهايته ، لا نجدها كلها فى القسم الخاص ببنى مرين من العبر ، ولا عند مؤرخى الدولة المرينية والدولة الحفصية الآخرين .

سبق ان قلنا انه كان لثقافة يحيى بن خلدون وميله للادب ، تاثير كبير على كتابته بل على توازن كتابه . اذ أكثر من رواية القصائد الطويلة ، رواها فى غالب الاحيان بحذافيرها كما وصف المجالس الادبية ، وذكر للمترجمين لهم فى سلسلة تراجمه لعلماء تلمسان وصلحائها ، تآليفهم ، واعتنى احيانا بالناحية الفنية ، فقال على سبيل المثال فى ترجمة ابى الحسن القلعى : « كان فقيها اديبا حسن الخط ، مغربيه وشرقيه » (١٩) . وكان لاهتمام يحيى بن خلدون بالشعر ونقله للقصائد ، فضل كبير على الادب العربى على العموم والجزائرى على الخصوص ، اذ انه لم يرو فى أغلب الاحيان الا انتاج شعراء ولدوا بالمغرب الاوسط أو استقروا بتلمسان . فانقذ بذلك انتاجا لولاه لضاع أكثره ، اذ ان كتب الادب او التاريخ الاخرى مثل نفح الطيب ونظم الدر التى اوردت شعر شعراء المغرب الاوسط ، قد نقلت أكثره عن زهر البساتن الذى يشاركه فى الميزة نفسها .

واعتمادا على هذه المزايا والخصائص التى ذكرناها ، نرى ان يحيى بن خلدون قد وصف المملكة العبدوادية ، سواء من الناحية السياسية او من الناحية الادبية ، وصفا من الداخل اعتمد المؤلف فيه على محفوظات الدواوين ، وعلى اتصاله بالرجال ، وعلى رواية الرواة ، وفى الاخير على مشاهداته الخاصة التى مكنته منها خدمته للدولة ، فجاء كتابه اكثر من الكتب الاخرى الخاصة ببنى عبد الواد وتاريخ دولتهم ، مرآة للحياة بالمغرب الاوسط على العموم ، وبتلمسان على الخصوص .

وقد اثر ميل يحيى الى الادب والبلاغة فى اسلوب الكتاب ، فجاءت كتابته رصينة بديعة ، ولم يستعمل السجع الا قليلا فاستعمله بالخصوص فى بداية بعض الابواب . ويشترك يحيى بن خلدون فى هذه الظاهرة ، وهى رصانة الاسلوب ، مع التنسى غير ان اسلوب صاحب « نظم الدر » ، اكثر سلاسة واكثر جمالا فى نفس الوقت ، أما أخوه عبد الرحمن بن خلدون فانه لم يهتم بتنقيح الفاظه وتنميق صيغه .

ونجد بجانب هذه المزايا والخصائص ، نقائص فى بغية الرواد ، وهى :

اذا كان لاقتراب يحيى بن خلدون الوثيق من السلطان اثره فى الاطلاع الواسع على احوال

19) بغية الرواد ج 1 ص 25

دولة بني عبد الواد ، وعلى سير الاحداث الداخلية والخارجية ، قد ترتب عن هذه العلاقة نقص كبير وهو تحيزه لملوك تلمسان ، والتملق لهم ، وغض الطرف عن عيوبهم ونقائصهم » فمما تملق به لبنى عبد الواد ، اثباته شرفهم رغم تفاهة الرأى القائل ان مجموع زناتة بربر ، سوى فخذ واحد منها هو من سلالة فاطمة الزهراء ، وقد علمنا أن عبد الرحمن بن خلدون قد فند هذا النسب ونفاه نفيا باتا . ولم يظهر المؤلف على العموم فكرا نقادا فى اختياره للأخبار · فسرد اغربها وابعدها عن الواقع والمنطق بدون تعليق ، وابداء شك فى صحتها · لقد روى لنا مثلا فى اول الكتاب ، احاديث نبوية لا يقبلها العقل ، تثبت فضل مدينة تلمسان على غيرها من المدن ، وذكر ان بها جدار موسى والخضر عليهما السلام ، بدون تفنيد لهذه الخرافة وهكذا · ودفعه التودد لمستخدميه من بنى عبد الواد واصحاب النعمة عليه ، الى الاطناب فى الكلام متى احرزوا على نصر من ناحية والى الاختصار الكبير او السكوت تماما من ناحية اخرى ، عن كل خبر هزيمة منى بها سادته او جريمة ارتكبها احدهم · غير ان يحيى لم يتعرض بسوء الى اعداء بنى عبد الواد من بنى مرين وبنى حفص ورؤساء بعض القبائل التى خذلت اصحاب النعمة عليه فى احرج المواقف · فلم يحط من قيمة احد ، ولم يشتم دولة ولا ملكا ، خلافا لما قام به مؤرخ الدولة المرينية ابن الاحمر فى روضة النسرين ، من التشنيع بملوك تلمسان ، والصاق كل نقصية وعيب بهم ·

ومما تجدر الاشارة اليه ان محمد التنسى صاحب « نظم الدر » جارى يحيى بن خلدون فى مجاملة ملك زمانه من بنى عبد الواد ، وتملقه للدولة الحاكمة ، لنفس السبب وهو التقرب من السلطان ، اذ ان التنسى مع انه لم يكن من موظفى الدولة حسب الظاهر ، دون كتابه هو ايضا تقربا من السلطان محمد المتوكل ، بل بطلب منه ، فذكر هو ايضا كل ما يرفع من سمعة الدولة ، وسكت أوكاد عن كل ما يدنس مجدها ، وينقص من نفوذها · واثبت بالخصوص بدوره ان بنى زيان من الشرفاء · ونذكر بهذا الصدد ان بغية الرواد كانت كما سبقت الاشارة الى ذلك ، اهم مصدر لمحمد التنسى لكتابة نظم الدر ، الا أنه لم يذكر دائما مصدره عندما نقل عنه ، وان كان هذا النقل نقلا حرفيا لفقرة طويلة ، ومن الذين استعملوا البغية ايضا ابن مريم صاحب « البستان فى ذكر العلماء والاولياء بتلمسان » · وقد ذكر المستشرق الفرنسى دى سلان ان عبد الرحمن بن خلدون رجع الى كتاب أخيه لكتابة الفصل الخاص ببنى عبد الواد فى تاريخه (٢٠) ، فتمكن من احكامه وصقله غير أن المقارنة التى قمنا بها بدورنا بين كتابى الاخوين ، لم تبين لنا حقيقة رجوع عبد الرحمن الى كتاب يحى قبل تدوين الفصل الخاص بدولة ابناء يغمراسن ·

هذه هى اهم مميزات بغية الرواد ، وهذه هى عيوبه ، غير ان هذه العيوب والنقائص يجب الا تحجب عنا ، ولو قليلا ، فضل هذا الكتاب على تاريخ الدولة الزيانية ، وعلى الباحثين فى تاريخها ، وكذلك على الدارس للأدب العربى بالجزائر · فالدلائل التى بسطناها فى هذا البحث ، تدل كلها على ان كتاب يحيى بن خلدون ، من اهم مصادر تاريخ الجزائر ، ومن انفس مصادر تاريخ أدبنا ، وانه فى انتظار من يهتم به ، فيخرجه اولا للناس ، ويعتنى بعد ذلك بمحتواه ، يحلله ويدرسه (٢١) ·

(20) IBN KHALDOUN. - Histoire des Berbères, trad. de Slane, Tome I, P. XXXVIII, note 1.

(21) علمنا اخيرا ان السيد عبد الحميد حاجيات استاذ مساعد بكلية الآداب منكب على تحقيق بغية الرواد ، وانه حصل على نسخة جيدة منه لم يستعملها الفريد بيل ، وانه ينوى اخراج الجزء الاول منه فى الشهور القادمة ، وفقه الله

مصادر البحث :

(١) المصادر العربية

ـ ابـن الاحمر (اسماعيل بـن يوسف) ٠
ـ روضة النسرين ٠٠٠

ـ ابـن خلدون (عبد الرحمن) ٠ ـ كتـاب العبر ٠٠٠

ـ التنسى (محمد بـن عبد الله) ٠ ـ نظـم الدر والعقيان ٠٠٠

ـ زهر البستان فى دولة بنى زيـان ٠

(٢) المراجع الاجنبية

— A. Bel-Ibn Khaldoun : Encyclopédie de l'Islam, II, 418-420

— A. Ibn Khaldoun . - Histoire des Berbères , trad. de Slane.



من اعلامنا

الشريف أبو عبد الله

اساتذته :

وليس بالبعيد عن هذا الرجل أن يبلغ هذه المنزلة بين جمهور حاشد من أعيان العلماء ، وهو الذى تخرج على أيدى جهابذة أفذاذ كل منهم رأس فيما يتحلى به من فنون العلم ، وهؤلاء هم :

1 ـ الرجلان العظيمان الاخوان أبو زيد عبدالرحمان وأبو عيسى موسى الشهيران بابنى الامام(2) .

2 ـ أبو موسى عمران بن موسى المشدالى البجائى(3) الذى استوطن تلمسان . أخذ عنه الفقه والحديث والاصلين والفرائض والمنطق والجدل .

3 ـ محمد بن ابراهيم الآبلى التلمسانى(4) الذى كان نسيج وحده فى المعقولات . وقد انتفع بـه الشريف انتفاعا عظيما حتى انتزع اعجاب أستاذه به ، فاهتم به وأفرده بالعطف والتقدير . وكان من شأنه معه أنه حين يستشكل مع طلابه مسألة من المسائل العلمية العويصة ، أو حين تعترضهم مباحث دقيقة يقول : انتظروا حضور أبى عبدالله !

4 ـ القاضى أبو عبدالله بن هدية القرشى .

5 ـ عبدالله بن عبدالواحد المجاصى ، الرجل الصالح .

6 ـ أبو عبدالله محمد بن محمد البرونى .

7 ـ القاضى ابن عبدالنور .

8 ـ القاضى على بن الرماح .

9 ـ محمد بن يحى بن على الشهير بابن النجار(5) .

التعـريف به :

الامام الحجـة شيخ المشائخ ابو عبد الله محمد بن احمد بن علي التلمساني الادريسي ، ولد بتلمسان سنة : 710 هـ ونشا تحت رعاية والده الفقيه احمد ابن علي التلمساني العلوي(1) وحينما استوى على قدميه اتجه الى الكتاب « الكتاب » ليقـرا القرآن على الشيخ المربي ابي زيد ابن يعقوب حتى اتى عليه حفظا وتجويدا . ثم اخذ يتدرج في مدارج العرفان ، يغـذي عقله بالعلم ، ويحشو دماغـه بالحكمة ، حتى بلغ رتبة انتهت اليه فيها امامة المالكية بالمغرب العربي .

أحمد جلول بدوي

التلمساني

10 ــ محمد بن عبد الســلام الهواري وآخرون غيرهم .

قال عنه صاحبه وتلميذه المؤرخ عبدالرحمن ابن خلدون في « التعريف » : « أخذ العلم عن مشيخة تلمسان ، واختصر بأولاد الامام ، ثم لزم شيخنا الآبلي رحل الى تونس سنة أربعين (740) هـ فلقي شيخنا ابن عبدالسلام وأفاد منه ، واستعظم رتبته في العــلم . وكان ابن عبدالسلام يصغي اليه ، ويؤثر محله ، ويعرف حقه » . (6)

ومن بوادر حذقه وادراكه في أيام الطلب أنه حضر ذات يوم مجلس شيخه عبدالرحمن بــن الامام ، وكان الدرس في تفسير القرآن ، وفيــه تعرض الشيخ للكلام على نعيم الجنة ، فابتدره التلميذ قائلا : ليت شعري ، هل يدرس العلم في الجنة ؟ فقال : نعم يا ولدي ، ان فيها ما تشتهي الانفس وتلذ الاعين ، فابتهج التلميذ وقال : لو كان جوابكم نفيا لقلت اذن ليس في الجنة لذة(7).
وهكذا كان صاحبنا يرى أن الغاية التي يجب أن تتوخى انما هي في العرفان ، ولذلك كان يحرم نفسه من راحتها وترويحها ، فيمتنع عن النوم الا اذا الح عليه النعاس ، فيغفو قليلا ثم يفيق ويقول : يكفي هذه النفس ، فلقد أخذت حظها من النوم ، ثم يستانف ما كان عليه من مواصــلة التحصيل ، وتمكنت من نفسه هذه العادة طوال حياته .

ذكر ولده أبو محمد عبدالله(8) أنه مر على أبيه ، في فترة من الفترات ، نحو من ستة أشهر لم ير فيها أولاده ولم يروه ، اذ كان يفيق باكرا وهم نائمون ، ولا يعــود الى المنزل الا في وقت متخلف من الليل ، فيجدهم قد ناموا ، وهو خبر

عجيب لم يكد يتفق لاحد ! واذا صح فأين واجب الرعاية الابوية ؟!

وذكر ولده ، أيضا ، ان الشيخ كان ينفق بياض نهاره بين اقراء ومطالعة وتلاوة ، ينام ثلث الليل ، ويكب على المطالعة ثلثه ، ويقوم يصلى ثلثه ، وكان يقدم له طعامه أحيانا فى رمضان فيشغله النظر عن تناوله ، ثم يؤتى بسحوره فيذهل عنهما معا حتى يصبح ويواصل الصوم ! (9) ورآه ولده المذكور يوما منهمكا فى تصفح كتب كانت منتشرة حوله ، ليحقق منها ما يهمه من المسائل العلمية ظن أنها تبلغ سبعين كتابا ، وبهذه الهمة وهذا المجهود عنت رقاب علماء زمنه واعترفوا له بالتفوق والتبريز . ودعاه داع الى زيارة (تونس) فلم يرق لتلاميذه أن يغادر بلده ، اما لحرصهم على ملازمته ، أو اشفاقا عليه من عنت السفر ، ما عدا تلميذه الخطيب ابن مرزوق الجد قال عندما بلغه ذلك : كنت كرهت مفارقة أبى عبدالله بلاده ، ولكننى عدت ، فحمدت الله على ذهابه حتى يراه أهل افريقية ويعلموا أن بالمغرب (الاوسط) عالما مثله .

وفى هذه الرحلة دخل مدينة تونس مجهولا لا يعرفه أحد ، وحضر مجلس ابن عبدالسلام(10) فجلس حيث انتهى به المجلس حين كان الشيخ يقرر كلاما فى شأن تحديد معنى كلمة (الذكر) ، وجعل يتساءل ويقول : هل يعتبر الذكر حقيقة فى الحركة التى يجرى بها اللسان أولا ؟ فانتهزها الشريف فرصة للاعلان عن نفسه ، وابتدر قائلا : من الواضح يا سيدى أن الذكر يكون ضد النسيان ، والنسيان محله القلب ، ومن المقرر أن الضدين يجب أن يتحدا فى المحل . فسكت الشيخ ولم يلتفت اليه ومضى يقول : ان الذكر هو ضد الصمت ، وهذا محله اللسان ، فيجب كون اللسان هو محل ضده ، فيكون حقيقة فيه .

قال الشريف فأمسكت عن مراجعته تأدبا معه ، وقد كنت أعلم أن الصمت ضده النطق لا الذكر .

وفى الغد عاد الى مجلس الدرس وعند ذاك اقبل عليه نقيب الدولة(11) واخذ بيده حتى أجلسه الى جانب الشيخ ، وعلم بعد ذلك أنه هو الذى أمر بذلك . وما ان أتم الدرس حتى التفت الى ضيفه يسأله سؤالا دل على معرفته به قبل أن يراه . اذ قال : أفدنى ، هل أنت أبو عبدالله الشريف ؟ قال نعم ، هو ذاك ، فرحب به ، ثم راح يجلسه دائما الى جانبه فى حلقة الدرس ، ولم يقف معه عند هذا الحد ، بل كان يدعوه الى منزله حيث يتهيأ لهما أن يطلع كل واحد منهما على ما عند الآخر من نوادر المسائل وغرائب المباحث . وسرعان ما انقلب الشيخ الى تلميذ يأخذ عن التلمسانى فصل التصوف من كتاب « الاشارات » لابن سينا ، ودروسا من تلاخيص (أرسطو) لابن رشد ، كما كان يأخذ عنه دروسا فى الحساب والهيئة والفرائض ، ثم قفل راجعا الى بلده وقومه الذين أوحشهم غيابه . وما أن حل بينهم حتى أقبل عليه الناس يقصدونه من كل وجهة ليأخذوا عنه ويتشرفوا بالانتساب اليه ، واكبر شأنه الملوك فقربوه وبالغوا فى الحفاوة به . فهذا سلطان تلمسان أبو سعيد عثمان بن عبدالرحمن كان فى طليعة من يجله ، ويخاطبه بقوله : « يا سيدى ... » وعندما أحس بزوال ملكه عرض عليه أن يترك أمواله وديعة عنده فأبى أن يجيبه الى رغبته ، وأحاله على غيره ورضى بأن يشهد على من يختاره أمينا على حمل الامانة : فعمل السلطان باشارته .

ولما استولى أبو عنان المرينى ملك المغرب على

تلمسان أمر بتكوين مجلس علمي يشكل من كبار علمائها ، فكان صاحبنا في طليعة من اختير لهذا المجلس ، وقد استرعى نظر أبي عنـــان بعلمه وفضله ، فعرض عليه أن يكون الى جانبه بمقر ملكه مدينة « فاس » فعز عليــه فراق بلاده ، وتردد أول الامر ، غير أنه أذعن في الاخير . وعلم أنه لا بد مما ليس منه بد . وطال مقامه بالمغرب ، وثقلت على نفسه وطـــأة الغربة ، فتبرم بها ، وأبدى شكواه لمن حوله،وسرعان ما بلغت الشكوى أبا عنان،فأثارت حفيظته على الشيخ،وصادف أن علم بخبر الوديعة المالية التي أسلفنا ذكرها ، فأرسل اليه في الحال ، وأخذ يعاتبه وينحي عليه باللائمة من أجل كتمان أمر الوديعة ، وامتن عليه بتقريبه اياه .. فثارت ثائرة الشريف . ووقف في وجه الملك يقول : شهادة كانت عندي لا يجب على رفعها بل على العكس .. انه يجب على كتمانها . وأما تقريبك اياي فقد أضر بي أكثر مما نفعني ، اذ نقص به علمي وضعف ديني .. في كلام لم يتحمله منه الملك ، واشتد غضبه عليه ، ولم يفتأ أن أمر باعتقاله . وأن تنتزع الوديعة من يـــد المؤتمن عليها ، وفي تلك الاثناء صادف أن وفـــد يعقوب بن على شيخ العرب بالجنوب الجزائري(12) على أبي عنان بالمغرب ، فسأله عما يقول الناس فيه فقال : انهم يلهجون بالثناء عليك ، ولا يقولون الا خيرا ، بيـــد أنهم يستنكرون اعتقالك لابي عبدالله الشريف ذلك العالم الرفيع المنزلة ، وفعل هذا الجواب في نفس السلطان فعله فاصدر أمره باطلاق سراح الشيخ بعد أن مر على اعتقاله شهر كامل . وذلك سنة 776 هـ ولما رآه العاهل اعتذر له وبالغ في ذلك ، وبعد امتلاكه قسنطينة سنة 749 أعـاد الشيخ الى مجلسه استئنافا لسالف عهده ، وساد الصفاء من جديد بين الرجلين .

وفي ذات مـرة اجتمع بمجلس ابي عنان أعضاء المجلس العلمي ، فبدا له أن يأمر شيخ المقرئين بالقاء درس في التفسير فتحرج هذا واعتذر ، للسلطان طالبا اعفاءه وقال : أبو عبدالله الشريف أولى مني بذلك ، فالح عليه مرة ثانية وقـال : أنت المختص بمعرفة علوم القرآن وبأهل تفسيره فاقرأ علينا ، فأعاد هذا الشيخ اعتذاره وسجلها شهادة نادرة المثال في حق السيد الشريف حين قال : ان أبا عبدالله خير من يخوض في هـذا الميدان ، لانه أعلم مني وأقوى عارضة في ذلك ، ولا يسعني الاقراء وهو حاضر ...! شهادة لفتت الانظار الى الشريف ، وجعلت أبا عنان يثني عنانه اليه ، ويرجو منه أن يستجيب لرغبته . وهنـا أخذ الشيخ في القـــاء الدرس ، وانبرى يفيض سحرا وبيانا ، ويصول حجة وبرهانا ، وما زال يعلو وأبو عنـــان يسفل حتى نـزل عن سريره وجلس مع القوم على الفراش ، وعند انتهاء الدرس توجه أبو عنان الى الشيخ وهو يقول : اني لارى العلم يخرج من منابت شعرك ، وبعد انفضاض الجمع تقدم اليه القاضي الفشتالي وطلب منه أن يملي عليه ما صدر منه في الدرس ، فاحاله على مصادر ذكرها ، وكانت معروفة عند الجميع .

علـومه ومعـــارفه :

تعددت مناحي العلوم التي ينطوي عليها صدر الشريف ، فهو امام في جميع ما يتعلق بعلوم التفسير ، ومحدث بارع في علوم الحديث النبوي من متن وسند وألقاب ورجال ، الى الامامة في الدين ، والقيام على الفروع والاصول ، والرياسة في العلوم العقلية كلها ، من منطق وحساب ، وتنجيم وهندسة وموسيقى . خبير بعلوم العربية وآدابها ، وقواعدها ، حجر في غريب اللغة وأخبار الناس ومذاهبهم ، قيم بفنون الطب والتشريح والفلاحة . ولما كان ذوو الفضل مبتلون في كل

زمان بالحساد وأهل الغيرة . أراد بعض علماء فاس أن يحطوا من قيمته وشأنه . فأوعزوا الى من يبلغ الملك بأن الشريف قصير الباع فى الفقه والتشريع، فاراد أن يختبر منه هذا الجانب . فبعث اليه وأمره، بمحضر من الفقهاء ، أن يشرح الحديث المعروف : اذا ولغ الكلب فى اناء أحدكم ... فلم يتردد لحظة . وأخذ فى الحال يتكلم ، دون مراجعة أو نظر ، فأول ما قال : ان هذا الحديث يتفرع الى خمس وعشرين مسألة ، ومضى معها واحدة بعد أخرى حتى استخرجها كلها ، مرجحا ومدللا ، كأنه يمليها من كتاب . وهنا فطن أبو عنان للدسيسة التى اعدها له خصومه ، فاقبل عليهم يلومهم ويعنفهم حين انكشف حالهم ، وتبددت أغراضهم . وبقى الشريف بفاس الى أن هلك أبو عنان سنة 759 هـ .

وفى ذلك العهد افتك أبو حمو موسى بن يوسف ملك تلمسان من يـــد بنى مرين وحـــرص على استدعاء الشريف من فاس فبعث اليه فى ذلك . فأذن له الوزير القائم بالامر . عمر بن عبد اللـــه بمغادرة المغرب . ولما بلغ تلمسان تلقاه السلطان بكلتا راحتيه فرحا وابتهاجا بمقدمه ، ولمـــا استقر به المقام زوجه ابنته . وبنى له مدرســة يبث فيها علومه على من أراد ذلك .

تلامـــذتـــه :

لا سبيل الى استيعاب أسماء الذين أخذوا عنه من العلماء والطلاب فهم كثيرون ، وانما نأتى على ذكر بعض المشاهير من أعلام وأدباء . وهم :

1 – الامام ابراهيم بن موسى بن محمد الغرناطى الشاطبى (13)

2 – الوزير الشاعر محمد بن يوسف الصريحى الشهير بابن زمرك(14)

3 – ابراهيم الثغرى التلمسانى

4 – أبو عبدالله القيسى

5 – عبدالرحمن ابن خلدون

6 – محمد بن أبى اسحاق ابراهيم الرنـدى الصوفى الشهير بابن عباد(15)

7 – محمد بن أبى البركات المكناسى الشهير بابن السكاك(16)

8 – محمد بن على الميورقى

9 – ابراهيم المصمودى

10 – يحى ابن خلدون

11 – محمد بن عبدالسلام(17)

12 – ولده العلامـة المتبحر أبو محمد عبدالله شيخ ابن عاصم صاحب التحفة

13 – ولده الثانى الامام البحر عبدالرحمن أبو يحى شيخ ابن مرزوق الحفيد(18) .

هذا وقد كانت للسيـد الشريف صلة وثيقة بالعلماء والادباء الذين كانوا من أعرف النـــاس بقدره ومقامه . نخص بالذكر شيخ علماء الاندلس أبا سعيد بن لب(19) الذى كان يستعين به فيما يشكل عليه من المسائل والفتاوى . وكذلك الشاعر الناثر الوزير الخطير لسان الدين ابن الخطيب الذى تعود أن يرسل اليه بما يؤلفه من الكتب . ليرى رأيه فيها قبل أن يخرجها للناس .

آثــاره :

لما كان الشيخ ميالا الى الافـــادة والتبليغ ، حريصا على بث العلم والعرفان . سالكا مسلك المشافهة والتلقين . انفق جل أوقاته فى التعليم والاقراء ، يقضى النهار كله فى ذلك . فقلت تآليفه بالنظر لما كان يرجى منه ، وهو الذى عرفنا مـــا

عنده من كنوز وذخائر . أما تآليفه التي ذكرتها المصادر فهي :

1 ـ كتاب في القضاء والقدر ، جلى فيه وجه الحق من تلك المباحث الغامضة .

2 ـ شرح الجمل للخونجي ، ذلك الكتاب الذي أقبل عليه العلماء قراءة واستنساخا .

3 ـ كتاب في المعاوضات ، وهو أجوبة عن مسائل وردت عليه من عالم (توزر) الشيخ يحي الرهوني .

4 ـ مثارات الغلط ، ذكره التنبكتي في نيل الابتهاج .

5 ـ مفتاح الوصول الى بناء الفروع على الاصول ، طبق فيه المسائل الفقهية على القواعد الخلافية في علم الاصول وقد دل هذا الكتاب على طول باع صاحبه في هذا الفن .

ومما يؤسف له أن بعض هذه الآثار ضاع أو هو موجود كالمفقود ، عدا الاخير منها الذي طبع بتونس والقاهرة ، وهو معروف عند القراء ، متداول بينهم .

اخلاقه وعاداته :

كان الشيخ الشريف معروفا بالسماحة والحلم، يلتمس لاهل الفضل في عثراتهم أحسن الوجوه ، يجل اخوانه العلماء في مجالس الملوك.يتوخى التوسط في جميع أموره . ولقد نعم الطلاب في كنفه بعيش رخي . وسعادة شاملة . لا يفشي لاحد سرا . ولا يضيع أمانة . يروى أن قاضي قسنطينة حسن « ابن باديس » أودع عنده نقودا ذهبية كانت محفوظة في قرطاس ، وبقيت عنده حتى طلبها صاحبها . فذهب يتفقدها ، فوجد مكتوبا على قرطاسها هذه العبارة : « مائة ذهب » ففكه ليعدها فاذا هي خمسة وسبعون ذهبا . فزاد عليها خمسة وعشرين ليكمل عد المائة . ولم ينتبه ابن باديس عندما تسلمها منه للزيادة التي زادها الا بعد زمن . فعاد اليه وقال له : عندما عددت نقودي وجدت زيادة قدرها كذا وكذا . وهي ليست لي . فقال الشيخ : فاتني أن أعدها عند تسلمها . فلما وقع بصري على الخط اختبرتها . فلم أجد العدد المذكور ، فأكملتها ظانا ضياع ما نقص منها وهي عندي . ورد له القاضي ما زاده من النقود بعد شكره وأثنى على تحريه وصدقه .

اقوال الناس فيه :

قال عنه الامام ابن مرزوق الحفيد :
هو شيخ شيوخنا وأعلم أهل عصره باجماع .

وقال تلميذه أبو زكرياء السراج في فهرسته :

شيخنا الفقيه الامام العالم ... كان أحد رجال الكمال علما وذاتا وخلقا .. بلغ رتبة الاجتهاد أو كاد .

وقال شيخه الآبلي :

قرأ علي كثير شرقا وغربا فما رايت فيهم انجب من أربعة .. أبو عبد الله ارجحهم عقلا ، وأكثرهم تحصيلا .

وقال الامام ابن عرفة يخاطبه :

غايتك في العلم لا تدرك . ولما سمع بموته قال : ماتت بموته العلوم العقلية .

وقال عنه أبو يحي المطغري :

حضرت مجالس كثير من العلماء . فما رايت مثل أبي عبدالله .

وقال عنه تلميذه يحيى بن خلدون في «بغية الرواد» :

.. شيخنا أحد رجال الكمال علما ودينا . لا

يغرب عن علمه فن عقلى ولا نقلى الا وقد أحاط به .. وبلغ الغاية القصوى من الادراك والتبحر ، مع فصاحة عند الالقاء ...

وفـــاتـه :

كان علم التفسير فى طليعة ما يعتنى به من الفنون ، وقد دأب عليه خمسا وعشرين سنة ، يفسر كل يوم ربع حزب من القرآن الـكريم ، وعندما انتهى به الدرس الى تفسير قوله تعالى : يستبشرون بنعمة من الله وفضل .. الآية ، طرأ عليه مرض حال بينه وبين لقاء الناس ، واضطر الى ملازمة الفراش يعانى شدة وطأة المرض طيلة ثمانية عشر يوما ، أيقن عندها بمجيء أجله ، وعاجلته المنية ، وهو يقبل المصحف الشريف ، ويمسح به على وجهه ويقول : اللهم كما أعززتنى به فى الدنيا فاعززنى به فى الآخرة (20) ثم أسلم الروح الى بارئها ، فلحق بربه خاشعا منيبا ، وكان ذلك ليلة الاحد الرابع من ذى الحجة سنة : 771 هـ 1370 م . ودفن بالمدرسة اليعقوبية بتلمسان ، رحمه الله وأثابه (21) .

الهـــوامش :

(1) نسبة الى احدى قرى تلمسان تدعى « العلوين » بفتح العين وسكون اللام ·

(2) كانا من أعاجيب الدهر غزارة علم وقوة عارضة فى علو شان ومكانة مرموقة وقد ذكر عنهما صاحب « نيـــل الابتهاج » انهما رحلا الى المشرق · وفى دمشق التقيا بالامام ابن تيمية وناظراه فى مسائل من العلم أفحماه فيها على قوة حجة الرجل وكونه فارس الحلبة المجلى الذى لا يشق له غبار ..على أننا نحن ننقل هذا بكل تحفظ · وقد توفى عبدالرحمن سنة : 743 هـ 1348 م وعاش أخوه بعده ست سنين ـ الاعلام للزركلى ج : 5 ص 294 .

(3) المتوفى سنة 745 هـ

(4) المتوفى بتلمسان سنة 757 هـ

(5) تلميذ الآبلى والمتوفى بتونس فى حدود سنة 750 هـ

(6) التعريف صفحة (757 هـ) ·

(7) لقد ضيق الشيخ رحمه الله أمرا واسعا ·

(8) كان من كبار علماء زمنه · نزح الى الاندلس وبقى بها زمنا ثم أزمع العودة الى تلمسان من غرناطة فلم يبلغ مناه ومات غريقا سنة 792 هـ ·

(9) راجع ترجمة الشيخ فى « نيل الابتهـاج) ونحن نستغرب أن يقع هذا منه وهو يعلم أن الوصال فى الصوم منهى عنه شرعا ·

(10) هو محمد بن عبدالسلام بن يوسف الهوارى العلامة المتبحر · ولد بالمستير وولى قضاء الجماعة بتونس · توفى بوباء الطاعون سنة : 749 هـ ·

(11) لعل المقصود ذلك الشخص الذى يتولى قراءة ما فى«المتن » من موضوع الدرس المقرر ، يسبق المدرس بقراءته ليتولى هذا بدوره شرحه وتحليله ، وتلك هى العادة التقليدية فى الدرس ·

(12) الذى كان صديقا للمؤرخ ابن خلدون ·

(13) المتوفى سنة 790 هـ

(14) المتوفى مقتولا سنة 793 هـ

(15) المتوفى سنة 792 هـ

(16) المتوفى سنة 810 هـ بمدينة فاس

(17) ذكرنا هنا هذا الامام للمرة الثانية وعددناه من تلامذة الشريف لانه أعطاه وأخذ عنه ، فهو أستاذه وتلميذه !

(18) المتوفى سنة 783 هـ

(19) المتوفى سنة : 776 هـ ·

(20) يبدو من هذا ان الشريف كان عند الاحتضار حاضر الذهن منطلق اللسان ·

(21) ننبه على أن هناك رجلا آخر يدعى أيضا أبا عبدالله ويعرف بالشريف التلمسانى ، عاش بعد صاحبنا بزمن وقد كان هو الآخر عالما محققا ، توفى سنة : 847 هـ - ذيل الديباج ص : 308 ·

مصـــادر البحث :

نثبت هنا أسماء المصادر التى اعتمدنا عليها فى تحرير هذه الترجمة ، ليرجع اليها من شاء الاستزادة والتوسع :

1 - نيل الابتهاج للتنبكتى ، المطبوع على هامش الديباج المذهب ·

2 - البستان فى ذكر علماء تلمسان لابن مريم المطبوع بالجزائر ·

3 - تعريف الخلف برجال السلف للحفناوى ، المطبوع بالجزائر ·

4 - التعريف بابن خلدون ، طبع بيروت ·

5 - نفح الطيب للمقرى ج : 7 تحقيق محى الدين عبدالحميد ط : بيروت ·

6 - بغية الرواد ، ليحى ابن خلدون ، طبع بالجزائر

7 - تحلة اللبيب لابن عمار مفتى الجزائر ، طبع بالجزائر ·

8 - القول المنيف فى ترجمة أبى عبد الله الشريف للونشريسى

9 - الفتح المبين فى طبقات الاصوليين ، لعبدالله المراغى : ج : 2 طبع بالقاهرة ·

10 - الاعلام ، للزركلى : ج : 6 الطبعة الثانية ·

● النقطـة الاولى من جدول أعمال الملتقى

النظرية السياسية
للسلطان أبى حمو الزيانى الثانى
ومكانها بين النظريات السياسية المعاصرة لها

الدكتورة وداد القـاضى
الجامعـة الاميركية
ـ بـيروت ـ



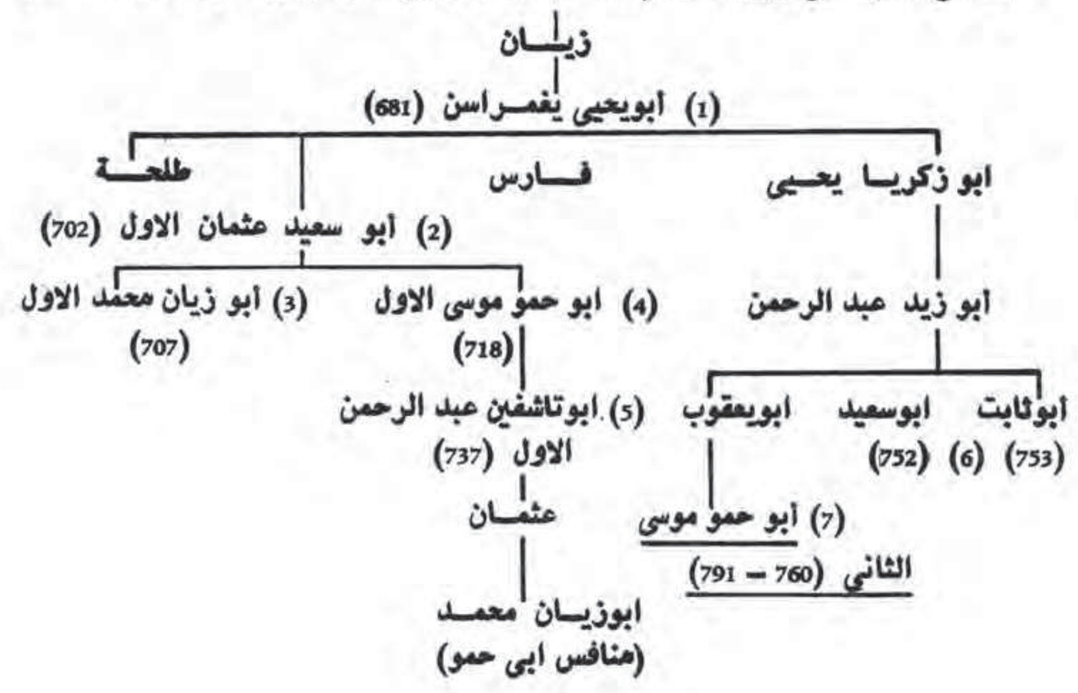
يهدف هذا البحث الى اكتشاف النظرية السياسية للسلطان أبى حمو موسى بـن يوسف الزيانى الثانى (760 ـ 791) ومدى علاقتها بالتجربة السياسية لابى حمـو نفسه ، ثم مكان هذه النظرية بين النظريات السياسية فى المغرب فى القرن الثـامن للهجرة • وهو ينقسم الى ثلاثـة اقسـام رئيسية هى ـ بعد التقديم ـ (1) التجربة السياسية لابى حمو ، (2) فالنظرية السياسية لابى حمو ، ثم (3) مقارنة نظرية أبـى حمو بنظريات كل من لسان الدين بن الخطيب وأبى القاسم بن رضوان وعبد الرحمن ابن خلـدون •

تقـــــديم :

يحتل السلطان أبو حمو موسى بن يوسف بن عبد الرحمن الزيانى مكانة خاصة فى تاريخ دولة بنى زيان ، لانه كان أول من تولى السلطنة فيها بعد فترة من الاحتـــلال المرينى لقاعدتها تلمسان من بيت أبيه ، ولم تخرج تلك السلطنة من بيته بعده قط حتى انقضاء دولة الزيانيين بأسرها ، فكان بذلك مؤسس الفرع الثانى من بنى عبـد الواد ، ذلك الفرع الذى استمر فى الحكم بتلمسان وغيرها من بلاد المغرب الاوسط مدة قرنين من الزمان ، من 760 الى 962 .

ويتصل نسب السلطان أبى حمو بالسلطان أبى يحيى يغمراسن بن زيان مؤسس الفرع الاول من بنى عبد الواد الذى حكم بتلمسان وضواحيها مدة قرن وربع من الزمان (من 637 ـ 753) اتصالا مباشرا اذ ان يغمراسن (637 ـ 681) هو جـده الثالث ، وكان من الممكن أن يورث يغمراسن السلطنة الى ابنه أبى زكريا يحيى ـ جد أبى حمو الثانى ـ لولا ان أبا زكريا هذا توفى فى حياة أبيه (سنة 660) فأعطى يغمراسن ولاية عهده لابنه الآخر أبى سعيد عثمان (681 ـ 703) فأبقاها هذا فى أسرته .

أولا فى ولديه أبى زيان محمد (703 ـ 707) وأبى حمو موسى الاول (707 ـ 718)



ثم في ولد ابنه موسى ، أبي تاشفين عبـــد الرحمن (الاول) (718 ــ 737) وبذلك انحجبت امكانات الولاية أمام بني أبي زكريا يحيى بن يغمراسن •

وزاد هذا الانحجاب تمكنا سعي جاد واع من جانب أبي سعيد عثمان بن يغمراسن في ابعاد ولد هذا الفرع عن التطلع الى نيل السلطان ، تمثل في اخراجه ابن أخيـــه أبا زيد عبد الرحمن بن أبي زكريا يحيى بولده مـن تلمسان الى الاندلس سنة 694 ، فأقام بها (1) •

وحاول ملك المغرب أبو سعيد عثمان المريني استغلال الجفوة بين فرعي بني زيان ، فاستدعى الى جنابه من الاندلس سنة 712 أبا زيد عبد الرحمن ابن يحيى ، فقـــدم عليه ، وأقام عنده أياما قلائل • ثم دفع تغير الظروف ملك المغرب الى صرفه عن قطره (3) فلحق بتلمسان في السنة نفسها الا أن صاحب تلمسان آنذاك أبا حمو موسى بن أبي سعيد عثمان أوجس خيفة منه على ملكه ، فأخرجه ــ فعل أبيه به من قبل ــ الى الاندلس سنة 713 ، فاستقر بغرناطة ، منها لدى أصحابها بني نصر (4) ، وظل فيها ، يشترك في جهاد الروم ، الى أن قتل في وقعة وادي قرطونة سنة 716 (5) ، فمات تاركا أولادا ثلاثة هم : أبو يعقوب يوسف ، وأبو سعيد ، وأبو ثابت •

وبقي أولاد أبي زيد عبد الرحمن هؤلاء في الاندلس حتى سنة 723 ، عندما استدعاهم للرجوع الى تلمسان سلطانها أبو تاشفين عبد الرحمن بن أبي حمو موسى بن أبي سعيد

---

1) بغية الرواد 2 ، 14 •

2) البغية 2 ، 14 •

3) في نص البغية 2 ، 14 أن ملك المغرب صرف عبد الرحمن بن أبي زكريا يحيى لانه كان ينقل الى ابن عمه سلطان تلمسان وعدو ملك المغرب اخبار المغرب ، لما كان عليه من محبة أصيلة لقبيلته • الا ان احدى نسخ مخطوط البغية أوردت سببا مغايرا ، وهو أن ملك المغرب أصطلح مع الزياني صاحب تلمسان ، فكأنه لم يعد هناك من مسوغ لابقاء «منافس» لسلطان تلمسان لديه (انظر : البغية ، 2 ، 14 ، الحاشية رقم 6)

4) البغية 2 ، 14 •

5) المصدر نفسه : 14 ــ 15 •

9

عثمان (6) ، فرجعوا اليها وأقاموا فيها مكرمين ، وشهدوا سائر أيام أبى تاشفين ، وما تلاها بين سنتى 737 و 749 من احتلال تلمسان من قبل بنى مرين • وما لبثت الدولة أن دالت لابى سعيد وأبى ثابت منهم ، فتولياها مشتركين من سنة 749 الى سنة 753 ، عندما انهى الاحتلال المرينى لتلمسان مرة أخرى دولتهما ، منهيا عهدهما بقتل أبى سعيد وهرب أبى ثابت فى فل من بنى عبد الواد (7) وكان أخوهما أبو يعقوب يوسف فى اثناء ذلك منقطعا الى العبادة بندرومة (8) فيما كان ابنه أبو حمو موسى ، المولود سنة 723 بالاندلس ، يسكن تلمسان ، ويظهر ميلا الى الاشتراك فى الحياة السياسية بها •

ولا تحدثنا المصادر بشىء عن النشاط السياسى المبكر لابى حمو ، وأول مرة يتعرض اجدها لذكره فى هذا المجال عندما يذكر أنه كان فى صحبة عمه السلطان أبى ثابت فى احد احواز بجاية سنة 753 فارين من المرينيين على اثر هزيمة السلطان وأخيه أمامهم ، وتحدثنا الرواية ها هنا ، ان اعوان المرينيين قبضوا على الرجلين وهما متنكران، وأرادا معرفة السلطان منهما ، فتقدم أبو حمو وادعى أنه هو السلطان رغبة منه فى الدفاع عن عمه ، الا أن بعض الناس تعرف على السلطان الحقيقى ، فأخذه ، ولما سئل عن هوية صاحبه ادعى أنه أحد اتباع دولته ، ورجاهم أن يسرحوه ، فخلوا سبيله (9) وفيما كان العم يساق الى مقتله (10) ، كان أبو حمو يسرع فى الهرب مع جماعة من أصحابه ، حتى استقر به المقام فى تونس لدى صاحبها السلطان أبى اسحاق ابراهيم ابن أبى يحيى الحفصى ووزيره ابن تفراجين ، فأقام لديهما معززا مكرما مجرى عليه (11) لمدة خمس سنوات •

---

6) المصدر نفسه : 16 •

7) العبر 7 ، 121 •

8) البغية 2 ، 16 •

9) انظر البغية 2 ، 17 — 18 والعبر 7 ، 121 — 122 •

10) انظر العبر 7 : 121 وتاريخ الدولتين : 94 •

11) انظر البغية 2 : 18 — 20 والعبر 7 : 122 •

وأوعز السلطان أبو عنان المريني الى صاحب افريقية الحفصى باخراج أبى حمو وقومه من بلادهم ، فرفض صاحب افريقية طلبـــه ، فأغرى ذلك أبا عنان بالحملـــة ضده (12) ، فنهض مشرقا سنة 758 وملك قسطنطينة وبلد العناب وأرسل أسطوله وجيشه فحاصر تونس وملكها ، فارتحل السلطان أبو اسحاق الحفصى باتجاه الجريد ومعه أبو حمو وأصحابه ، وحدثت احداث اضطرت أبا عنان الى الرجوع الى المغـرب ، والى سحب جيشه وأسطوله من تونس ، فغادر بلاد المغرب الاوسط ، فلحقـه جيش الحفصى ، الا أنه عاد الى حضرته بتونس دون أن تتم أية مواجهة بينه وبين المريني (13) · ومن هناك أخذ أبو حمو وقومه يعدون العدة للاتجاه نحو تلمسان ·

وتفصيل ذلك أن بعض العرب من زغبة كانوا خارجين على سلطان أبى عنان ، وقد اضطروا الى ترك ديارهم فى صحراء المغرب ولحقوا بافريقية ، فلما علموا بانصراف أبى عنان الى فاس ، داخلتهم الرغبة فى العودة الى بلادهم ، فدعوا أبا حمو الى مرافقتهم على ان يحالفوه فى الاجلاب على تلمسان وينصبوه للامـــر · فوافقهم على عزمهم (14) · وصادف هذا العزم قبولا من جانب السلطان الحفصى ووزيره ابن تفراجين لما فى ذلك من ازعاج لعدوهم المريني وشغل له عنهم ، فقاما باصلاح شأن أبى حمو بما قدرا عليه من آلة السلطان ، وذلك فى سنة 759 (15) ، فسار بمجموعة متجها الى تلمسان ·

---

12) هذا هو السبب الذى ذكره ابن خلدون فى العبر 7 : 122 ، وقد لا يكون السبب الوحيد لقيام أبى عنان بحملته (انظر مثلا تاريخ الدولتين 96 والاستقصاء 3 : 201 — 202) ·

13) انظر فى حملة سنة 758 البغية 2 : 20 والعبر 7 : 297 وتاريخ الدولتين 96 — 98 والاستقصاء 3 : 201 —202 ·

14) انظر الاستقصاء : 4 ، 4 ·

15) انظر العبر 7 : 122 و 301 ومن الطريف ان نلاحظ هنا أن أبا حمو لم يذكر أى شىء عن المحركات الحقيقية لتوجهه نحو تلمسان ، وانما نسب الفضل كله لنفسه و (حميته) لتحصيل ملكه ورد دولته الى نصابها (انظر واسطة السلوك 13) ، كذلك يلاحظ أن يحيى ابن خلدون (فى البغية 2 : 20) لم يذكر أى شىء عـــن دور صاحب افريقية الحفصى فى تجهيز قوات أبى حمو الى تلمسان ·

ولم تكن الرحلة الى تلمسان سهلة على أبى حمو وأصحابه ، فقد حفلت بالعديد من المواجهات العسكرية مع نواب المرينيين واعوانهم فى المغرب الاوسط ، كما لم تخل من المد والجزر عن ولاءات القبائل العربية لصاحبها (16) • ولاشك أن هذا كله قد عـوق سيرها ، فاستغرقت ما ينيف على الستة اشهر • الا ان وصول خبر وفاة السلطان أبى عنان أول سنة 760 رفع من معنويات رجالها (17) ، فشدوا عزائمهم وحملوا على تلمسان

وكان خبر أبى حمو وأصحابه قد بلغ الوزير المتآمر على ، ملك المغرب السعيد ابن أبى عنان ، فجهز المدد الى تلمسان من الحامية والاموال (18) ووصل أبو حمو باتصاره الى تلمسان ، فنازلوها ثلاثة أيام ، وافتتحوها عنوة فى اليوم الرابع (18) ، فدخلها أبو حمو ظافرا لليال خلون من ربيع الاول سنة 760 وبايع له الناس بالخلافة (19) فأمر بالنداء على بنى مرين بالخروج غير منظرين ، وصفح عنهم ، ولم يتعرض لهم بأذى (19) ، وكان فيمن خرج منهم متولى تلمسان من قبل المرينيين ابن السلطان أبى عنان (20) ، وبذلك انتهى عهد تلمسان بالاحتلال المرينى الثانى ، وابتدأ عهد الزيانيين بها تحت سلطان أبى حمو الثانى مرة أخرى ، فكانت أيامه فيها تمثل تجربة سياسية حافلة بالوان النشاط العسكرى والمالى والادارى والعمرانى •

* * *

وليس من الصعب على الدارس اكتشاف ابعاد التجربة السياسية لابى حمو نظرا لان المصادر التاريخية عنيت بالعديد من اخبار أبى حمو ، ومن بينها مصدر شديد الاهمية هو « بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد » لابى زكريا يحيى بن أبى بكر محمد بن خلدون ، أخى المؤرخ ابن خلدون ، وترجع أهمية هذا الكتاب الى أن مؤلفه كان معاصرا لابى حمو ، مشتركا فى الحياة السياسية فى المغرب ، وقد تنقل فى العديد

---

16) تجد افضل وصف لهذه الرحلة وأكثره تفصيلا ، فى البغية 2 : 21 — 23 والواسطة 23 •

17) انظر البغية 2 : 24 والعبر 7 : 122 •

18) انظر العبر 7 : 122 •

19) انظر البغية 2 : 27 والعبر 7 : 123 •

20) انظر العبر 7 : 122 — 123 •

من المناصب الكتابية فى الدول المختلفة التى كانت ذات استقلال فى المغرب آنذاك ، وكان أحد هذه المناصب منصب كتابة السرلدى أبى حمو نفسه بين سنتى 766 و 772 (21) ثم بين سنتى 776 و 780 (22) سنة مقتله (23) ، فالرجل عاش مقربا الى أبى حمو فترة غير قصيرة من سنى حكمه ، وكان مطلعا على دقائق الاحداث التى كانت تجرى فى مملكته ، ثم كان - وهذا هو الاهم - شديد الولاء له ولآله • وقد حمله هذا الولاء لابى حمو ، فضلا عن استقراره لديه حتى آخر أيامه ، على أن يكتب تاريخا مفصلا لدولته ودولة من سبقه من قبيله - بنى عبد الواد - فكانت نتيجة ذلك كتابة « بغية الرواد » • وقد قسم أبو زكريا ابن خلدون كتابه هذا الى جزئين ، الاول ، وهو الاصغر فى اخبار من سبق أبا حمو من بنى زيان الى الملك ، والثانى ، وهو الاكبر ، فى اخبار أبى حمو وحده ، فجاء هذا الجزء محتويا على تفصيلات مبينة دقيقة ، مكتوبة بثقة العارف ، واتساع المطلع ، واهتمام المولى ، وكل هذه صفات تعين الدارس على تصور عصر سيادة أبى حمو تصورا جيدا • غير أن فى كتاب أبى زكريا نقطتى ضعف رئيسيتين يعوقان الدارس عن الافادة منه ، وهما توقفه سنة 777 ، واسرافه فى الثناء على أبى حمو فى بعض الاماكن ، بحيث يستغلق على الدارس ما اذا كان ما يقوله احيانا تقريرا للواقع أو مدحا للملك • ويمكن للدارس أن يضيف هنا « ضعفا » ثانويا آخر فى كتاب أبى زكريا وهو اعتماده على السجع والترادف المكثفين ، وهذا ما يجعل المعنى المقصود بيانه مبهما غير واضح ، على أن الدارس لا تعييه هذه النقائص ، اذ يسدها الى حد كبير تاريخ أبى عبد الرحمن الكبير « العبر » فهو - رغم اختصاره - مقارنة بكتاب « البغية » شديد الدقة ، واضح المؤدى ، ويستمر حتى بعد مقتل أبى حمو سنة 791 ، كما أن حديثه عن أبى حمو جاء فى مكانين رئيسيين منفصلين ، احدهما فى تاريخ بنى عبد الواد ، وثانيهما فى تاريخ بنى مرين ، وفى كل مرة من المرتين ينظر المؤرخ الى الاحداث من منظور مختلف ، فيمكن الدارس من رؤية الامور من زاوتى الولاء والعداء ، هذا ومن

21) انظر التعريف بابن خلدون : 102 والبغية 2 : 238 •

22) انظر البغية 2 : 307 والعبر 7 : 140 •

23) انظر العبر 7 : 140 •

المهم أن نذكر أن مقتل أبى زكريا ابن خلدون على يد ولد أبى حمو (24) ، لم يجعل المؤرخ عبدالرحمن أخاه يتعصب ضد أبى حمو ، وكذلك لم يدفعه الى التعصب قيام أبى حمو بالتآمر ضده شخصيا - كما سيأتى بيانه من بعد - (25) ، ولو كان يريد أن يعلن عداءه لابى حمو وآله لفعل ذلك بسبب من ولائه فترة غير قصيرة لبنى مرين .

هذان هما المصدران الكبيران للدارس وربما وجب أن يلحق بهما كتاب « نظم الدر والعقيان فى شرف بنى زيان » لابى عبد الله التنسى الا انى لم استطع الحصول عليه بعد ، وبعد هذه الكتب يأتى فى مرتبة ادنى تواريخ الدول المعاصرة لدولة أبى حمو ، مثل كتاب « اللمحة البدرية فى الدولة النصرية » للسان الدين بن الخطيب (776) وكتابى « الفارسية » (810) وتاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ، للزركشى أبى عبد الله محمد بن ابراهيم (894) وحديثهم جميعا عن أبى حمو شديد الايجاز ثم كتاب « روضة النسرين فى دولة بنى مرين » لابن الاحمر (807) وحديثه عن أبى حمو أطول ، الا انه واضح التعصب عليه ميال الى الثلب له ، ويخالفه فى هذا منهج الناصرى صاحب « الاستقصا فى اخبار دول المغرب الاقصى » فانه لا يتحامل على أبى حمو ، ولكنه بالمقابل لا يوليه عناية كبيرة لانه يقع خارج دائرة اهتمامه الا فيما ندر ، عندما تصبح مقدرات أبى حمو فى يد من يعنى بهم الناصرى .

ويأتى بعد ذلك بعض الاخبار المتفرقة عن أبى حمو فى المصادر واقيمها ما جمعه لسان الدين بن الخطيب عنه فى ترجمته له فى كتاب «الاحاطة بالتعريف بعلماء غرناطة» فانها تحتوى على مادة شديدة الدلالة على صورة أبى حمو فى نفوس مفكرى عصره وسياسييه ، وادنى منها مرتبة اخباره المتفرقة فى كتابى أبى العباس المقرى (1041) « نفح الطيب » ، و « ازهار الرياض » . الى جانب نتف منثورة هنا وهناك فى المصادر .

بقى هنالك المصدر « الشعرى » - اذا صحت التسمية - واعنى به هذا العدد الكبير من المدائح التى قالها الشعراء فى أبى حمو ، أو التى قالها أبو حمو نفسه فى الفخر ،

---

24) انظر العبر 7 : 140 .

25) انظر التعريف بابن خلدون : 217 ، وانظر ما يلى ص 14 .

وهي ذات قيمة ثانوية جدا للدارس المؤرخ نظرا لاحتوائها على احكام قد تكون قيلت في موضع المدح لا موضع التقرير ، وبها يلحق ما أورده أبو زكريا بن خلدون من مقدمات تطريزية ، لكتابه « بغية الرواد » ·

* * *

تعلمنا المصادر أن أبا حمو شرع فور تسلمه زمام السلطة ينظر في تمهيد قواعد ملكه ، ويجدد رسوم دولته (26) ، ولكن ما أن مضى عليه اكثر من شهر وبعض شهر وهو في سدة الخلافة ، حتى وجد نفسه ـ رغم كل جهوده لتوطيد دعائم مملكته بخاصة ـ غير قادر على فصل نفسه ـ ودولته ـ عن الصراعات السياسية الدائرة في ارجاء المغرب ، ورأى أنه ـ شاء أم أبى ـ مضطر أن يقوم بدوره زيانيا ـ في هذه الصراعات ، وبذلك كانت خلافته ، التي استمرت ما ينيف على ثلاثين سنة (760 ـ 791) معرضا لالوان تلك الصراعات ، وخاصة لان موقع بلاده كان يقع في مكان متوسط بين القوتين الكبيرتين المتنافستين في المغرب آنذاك ، المرينيين في المغرب والحفصيين في الشرق ·

أما المرينيون فقد كانوا اشد اعداء أبي حمو ، والى مناوأتهم ـ أو مصالحتهم احيانا ـ انصرف الجزء الاكبر من مجهوداته السياسية والعسكرية · ولم يكن ذلك بالامر الغريب ، فقد كان المرينيون اعداء لبني عبد الواد ـ رغم اشتراكهم معهم في الانتساب الى زناتة ـ منذ أواخر أيام الموحدين ، وقبل أن يقيم بنو عبد الواد دولة خاصة بهم ، اذ كان بنو عبد الواد يعتبرون اولياء الموحدين وانصارهم ، فيما كان المرينيون يحاولون انتزاع السلطان منهم (27) · وقد جرت بين الفريقين منذ ذلك الوقت حروب عديدة (28) انتهت في النصف الاول من القرن السابع باستيلاء بني عبد الواد على تلمسان وضواحيها ، واستيلاء بني مرين على المغرب والجزء الاكبر من دولة الموحدين بالمغرب ، فيما كانت فلول الموحدين من الحفصيين تمكن لنفسها دولة خاصة في افريقية وشرق المغرب الاوسط · وقد كان المرينيون يرون في انفسهم الورثة الطبيعيين لدولة الموحدين ، فكانت آمالهم كثيرا ما تتجه الى ضم المغرب كله مع افريقية تحت لوائهم

26) انظر البغية 2 : 38 ·
27) انظر البغية 1 : 104 ·
28) انظر البغية 1 : 104 ـ 105 ·

ولذلك حفل تاريخهم بمحاولات القضاء على الدويلات الاخرى الناشئة فى ارض المغرب ، وفى مقدمتها ـ بطبيعة الحال ـ دولة بنى عبد الواد فى تلمسان . من هنا شهدت هذه الدولة ـ منذ نشأتها سنة 631 ـ سلسلة من المجابهات مع المرينيين ، كانت كثيرا ما تمثل فيها الجانب الاضعف ، وقد انتهت هذه المجابهات مرتين باحتلال مرينى لتلمسان فى القرن الثامن كما سبق ذكره (29) ، ولما كان مجىء أبى حمو العبد الوادى الى تلمسان فى ربيع الاول سنة 760 يمثل انتهاء الاحتلال المرينى الثانى ويشير الى عودة الحياة الى بنى عبد الواد ، فقد كان أبو حمو فى نظر المرينيين عدوا يجب أن يتخلص منه . لذلك ما ان مضى على استقراره فى عاصمة ملكه أكثر من شهر ونصف حتى ارسل المرينيون فى آخر شهر ربيع الثانى من سنة 760 جيشا عظيما اضطره الى الخروج من عاصمته نفسها الى الصحراء (30) .

ومنذ ذلك الوقت خاض أبو حمو معارك كثيرة مع المرينيين ، انتصر فى بعضها وانهزم فى غيرها ، واضطر اربع مرات ان يترك قاعدته تلمسان فى ايدى المحتلين المرينيين لمدد متفاوتة فى الزمن ، الاولى سنة 760 المذكورة قبل ، وقد ترك منها تلمسان مدة 48 يوما (31) والثانية فى السنة التالية (761) وقد غادر فيها تلمسان يوم 29 رجب ، مفسحا المجال أمام السلطان أبى سالم المرينى ليدخلها يوم 6 شعبان ، ثم عاد اليها بعد ان افرج السلطان أبو سالم عنها يوم 12 شعبان ، فدخلها يوم 8 رمضان ، فكانت غيبته عنها مدة 40 يوما (32) ، والثالثة بين شهر محرم من سنة 772 وشهر ربيع الثانى من سنة 774 أيام السلطان عبد العزيز المرينى ، فكانت مدة الاحتلال

29) انظر ما سبق ، ص 3 .

30) انظر فى خبر هذه الحملة البغية 2 : 5 والعبر 7 : 302 303 ، وروضة النسرين : 55 والاستقصاء 4 : 5

31) انظر البغية 2 : 52 .

32) انظر البغية 2 : 75 ـ 78 والعبر 7 : 124 ـ 125 و 311 ـ 312 وروضة النسرين : 56 والاستقصاء 4 : 33 ـ 34 .

المريني اكثر من سنتين ، وكانت اسوأ خرجات أبي حمو على الاطلاق (33) ، وأما المرة الاخيرة فكانت في شهر صفر من عام 784 حتى عام 786 ، وكان اشد خرجات أبي حمو على عمران المدينة ، اذ هدم المرينيون خلالها القصور الجميلة التي كان بناها بنو عبد الواد بمعونة الاندلسيين (34) . وفي كل مرة من هذه المرات كان أبو حمو يتحمل المشاق العديدة في المنفى بشجاعة وعزم وصبر ورباطة جأش ، وحتى عندما يبلغ به اليأس مبلغه لا يتوانى عن السعي في الرجوع بقوة السلاح الى سلطانه لدى أول بادرة تشير الى أن الرجوع اليه ممكن . وهذا كان حاله بخاصة في خرجة سنة 772 ـ 774 اذ انه قاسى فيها التشرد في الحواضر والبوادي والقفار ، وعانى من الثلج والعرى والجوع والعطش والغارة والنهب والهزيمة والخيانة وفقدان الحليف والاشراف على الهلاك ، وحلول اليأس ـ وغير ذلك مما دفع أبا زكريا ابن خلدون أن يسمي الخرجة كلها ، بـ « التمصيص الاكبر والابتلاء الاشهر ، بما لم يعرف لملك من ملوك الاسلام نظيره ، ولا عد في مثلات العجم الخالية شبهه » (35) ، الا ان عزم أبي حمو كان يقابله اصرار مقابل من بني مرين للقضاء عليه ، وقد لاحت الفرصة الكبرى أمامهم عندما لجأ اليهم ابن السلطان أبي حمو ، واسمه أبو تاشفين عبد الرحمن ، وطلب منهم أن يعينوه على التخلص من والده لكي يستطيع أن يستقل بالسلطة وحده ، بعد ان اخفق في ان يصل الى غرضه ذاك مستقلا بين سنتي 788 و 790 ، فأعانوه بجيش عظيم ، فدخل تلمسان برجال بني مرين سنة 791 ، وكانت نهاية أبي حمو في المعركة قتلا على يد حليف ابنه المريني (36) . وهكذا نجح المرينيون في اخضاع أبي حمو نهائيا في آخر المطاف بعد

---

33) انظر البغية 2 : 236 ـ 270 والعبر 7 : 132 ـ 135 و 329 ـ 330 و 336 ـ 337 وروضة النسرين : 56 والاستقصاء 4 : 57 .

34) انظر العبر 7 : 141 ـ 143 و 324 ـ 325 وروضة النسرين : 57 (وجعل بداية الاحتلال سنة 786) .

35) البغية 2 : 237 ، ووصف المصاعب هذه تجده في البغية 2 : 237 ـ 269 ، وانظر أيضا : العبر 7 : 330 ـ 334 .

36) انظر العبر 7 : 143 ـ 148 و 361 وروضة النسرين : 58 والاستقصاء : 4 ، 76 .

ثلاثين سنة من المحاولات المتكررة لذلك • الا ان ثمن اخضاعه هذا كان غاليا على تلمسان اذ أنها تحولت الى ايالة من ايالات السلطان المرينى ، يخطب له على منابرها ، ويبعث اليه بالضريبة كل سنة ، وصار ملكها ـ أبو تاشفين ـ عاملا لبنى مرين ليس أكثر (37) •

أما الحفصيون ـ الى الشرق من تلمسان ، فى المغرب الاوسط وافريقية ، فقد كانت علاقات أبى حمو بهم مختلفة عن علاقاته بالمرينيين ، اذ كان الحفصيون يشتركون معه فى عدائه للمرينيين ، وكانت حملات المرينيين المتكررة عليهم واحتلالهم للبلاد المختلفة الواقعة تحت سلطانهم (38) مما يزيدهم قربا منه • وقد ظهر تعاطفهم معه فى وقت مبكر ، من قبل أن يستولى على السلطة فى تلمسان ، اذ احتضنوه وحموه واجروا عليه على اثر مقتل عميه أبى سعيد وأبى ثابت على يد المرينيين سنة 753 كما مر ذكره (39) ، وانما تجهز أبى حمو واستعد لنيل ملكه بمساندة الحفصيين المعنوية والمادية (40) غير ان الامور لم تكن صافية خالصة بين أبى حمو والحفصيين جميعهم ، لان الحفصيين أنفسهم كانوا منقسمين فيما بينهم ، ولان بلاده كانت تتاخم بلادهم ، فكانت اطماعه تسول له الاستيلاء على بعض بلادهم ، فينزل له على رغبته بعض الحفصيين (مثل أبى عبد الله محمد بن يحيى الحفصى صاحب بجاية) (41) ويرفض الخضوع له غيره من الحفصيين (مثل أبى العباس أحمد بن محمد الحفصى) (42) فيجد أبو حمو نفسه طرفا فى صراعاتهم الداخلية ، فضلا عن كونه عدوا طامعا فيهم ، فتقع المعارك بين الفئات المختلفة ، وتتراوح البلاد فى المغرب الاوسط فى التبعية السياسية ، حينا لاحد الحفصيين وحينا لابى حمو الزيانى (43) ، وتضطرب الاحوال ، ولا ينتصر أبو حمو فى معركة الا ليخسر غيرها ، وتقع معركة كبيرة سنة 767 قرب بجاية فتدور الدائرة عليه ،

---

37) انظر العبر 7 : 147 — 148 و 362 والاستقصاء 4 : 76 •

38) انظر مثلا : العبر 7 : 301 وتاريخ الدولتين : 81 — 88 و 96 — 99 •

39) انظر ما سبق ، ص : 4 •

40) انظر ما سبق ، ص : 4 — 5 •

41) انظر البغية 2 : 151 — 160 والعبر 7 : 128 والتعريف بابن خلدون : 98 — 99 •

42) انظر البغية 2 : 182 والعبر 7 : 129 •

43) انظر مثلا حال تدلس فى البغية 2 : 103 و 151 والعبر 7 : 128 •

لانه لم يحسب حسابه امتناع بجاية ، واغفل الحزم فيما دونها والاستعداد ، ولانه انخدع بوعود سماسرة الفتنة ، ولم يشعر بمدى مرض قلوب اصحابه من جهته ، فينتابه الغضب ويخرج الى عدوه مخالفا لمشورة اهل الرأى ، فينهزم هزيمة نكراء ، ويتركه الناس فيسلم عياله وامواله وحظاياه وينجو بنفسه ، وينزل له وزيره عن ركوبه حتى يستطيع أن يصل الى تلمسان (44) . وقد كان من الممكن أن يظل مجال المواجهة بين أبى حمو والحفصيين محدودا لولا عاملان اثنان ساعدا على اذكاء الصراع فى المغرب الاوسط واطالة زمانه ــ غير انقسام الحفصيين واطماع أبى حمو ــ وعملا على ان يكون اشتراك أبى حمو فى ذلك الصراع أمرا ضروريا ، ان لم يكن حتميا ، وذانك هما ، ظهور منافس لابى حمو على سلطان تلمسان من بنى عبد الواد ، هو أبو زيان بن عثمان ابن أبى تاشفين الاول ، ثم المد والجزر فى ولاء القبائل العربية فى المغرب الاوسط بخاصة لابى حمو ، وانما ذكرت هذين العاملين المجتمعين ، لانهما ارتبطا معا فى تاريخ أبى حمو ، فكان اشتداد حركة أبى زيان ضد أبى حمو أكثر ما يقترن بالحصار المد فى ولاء القبائل العربية لابى حمو ، وفى ما كان همود أبى زيان وانهزامه وتقهقره أكثر ما ينتج عن اقبال هذه القبائل على أبى حمو ومنحه القدر العظيم من ولائها . لذلك كان أبو حمو حريصا على ابقاء صلاته بمختلف القبائل العربية حسنة للغاية ، فلا يهتم بشتى اشكال الملاينة (45) ، واغراهم بالمال والاقطاعات والثياب الرفيعة ووجوه الحرير الملون والذراريع والعمائم (46) ، وراسل قوادهم ووجوههم (47) وعفا عمن اساء اليه منهم (48) رغبة فى اصطناعهم ، وتطلبا لخدمتهم . واذا كان قد اخفق فى مساعيه لضمهم الى صفوفه غير مرة ، فذلك كان ــ فى معظم الاحوال ــ لان منافسه أبا زيان كان هو

---

44) انظر فى خبر هذه الوقعة البغية 2 : 182 ــ 183 والعبر 6 : 379 ــ 380 و 7 : 129 و 130 والتعريف بابن خلدون : 100 .

45) انظر امثلة من ذلك البغية 2 : 113 و 205 و 209 والعبر 7 : 125 .

46) انظر امثلة من ذلك فى البغية 2 : 195 و 201 و 205 و 206 والعبر 7 : 131 .

47) انظر مثلا فى ذلك البغية 2 : 198 والعبر 7 : 131 .

48) انظر مثلا البغية 2 : 150 ــ 151 و 206 .

الاخر يحاول جهده حشد القبائل العربية الى جانبه ، أو لان مصالح القبائل العربية كانت تتضارب فيما بينها بشدة ، فتميل فئة منها الى أبى زيان فيما تميل الاخرى الى أبى حمو • وأيا كان الامر ، فقد خاض أبو حمو سلسلة من المعارك مع جيوشه وعربه ضد أبى زيان واوليائه ، انتصر فى عدد منها (49) ، وانهزم فى بعضها (50) • غير ان هذا البعض نفسه كان حافلا بما يهدد سلامة أبى حمو نفسها وامكان استمرار سلطانه بتلمسان ، وخاصة لان اعداءه من المرينيين كانوا يحتضنون أبا زيان فى بعض الاحيان ومنه وقعة سنة 769 التى كادت تودى بحياة أبى حمو وتذهب بسلطانه ، لولا شدة احتماله وقوة عزيمته واصراره على الوصول الى سلطانه بأى ثمن • وقد شهد هذه الوقعة وما تلاها من هزيمة أبو زكريا ابن خلدون ، وكان فيمن فر مع أبى حمو حين لم يعد الموقف يحتمل سوى الفرار ، ووصف ما تعرض له أبو حمو ورفاقه من المخاطر على اثر الهزيمة فقال : « ••• الى أن افرده الناس سوى شرذمة قليلة أنا منهم ••• فاستركب الحرم وحمل الاموال واكفل بذلك الحصيان والنصارى المستخدمين ، وتقدمهم منتحيا خيام خلصائه الاوفياء ••• وأضل الكفلاء بما معهم سبيله ، فقفوا آثار العسكر حيارى ، وبلغ هو مأمنه ، فسر خلصاؤه بسلامته ••• ثم حملوا ذخائرهم ، ونبذوا الاهل والمال عرضة للنهب ، وساروا مع مولاهم ••• ثم حملوا ذخائرهم ، ونبذوا خريت وتنكب من شر المنافقين سانحة وبارحة ، فركبنا وعور جبل ذى كهوف وشعاب واجمات ، ولم ننشب اذا توسطناه أن نبحتنا كلابه ، وتعاوت من كل أوب علينا ذئابه ، ثم أتوا برجل الدباء والجأونا الى مهواة تساقطنا من عند آخرنا بقعرها العميق • ولم نلف به نهجا ، فادهمنا منه لهبا اغين نرجو نجاة الانفس مستعينين فى صعوده ركبانا

---

49) انظر البغية 2 : 112 — 113 و 132 و 133 — 135 و 197 — 198 و 308 والعبر 7 : 125 — 126 و 131 و 135 •

50) انظر البغية 2 : 146 — 149 و 182 — 183 و 184 — 194 و 200 — 205 والعبر 7 : 126 — 127 و 129 — 131 والتعريف بابن خلدون : 102 — 103 والفارسية 185 — 187 •

51) انظر امثلة من ذلك من البغية 2 : 142 — 146 و 149 و 183 والعبر 7 : 125 و 126 — 127 و 129 والتعريف بابن خلدون : 100 — 102 والفارسية 185 — 187 •

بجذب شجره ومررنا نلهب المركض ، والذؤبان الانيسة تستك لعوائها الاسماع ، وربما اعترضنا ابعاضهم فنردهم على الاعقاب ، هكذا الى الاسفار ، فاذا نحن قد اصبحنا تيها قرب محلتنا بالامس ، فابتدأنا العمل من أوله ورملنا أثر العساكر ، فاذا طلائع المخالفين المبيتة للعساكر قد فجأتنا صادرة عنهم تتعقبنا ذات اليمين وذات الشمال فتصدت عربنا لاجابة سائلهم ··· فانقلبوا أولا عن آخر الينا ، فاحضرنا ··· الى عروض وعر تسنمناه الا من اعيا مركوبه · وفى فتنة ثابت الى عربنا حمياتهم ، فدعوا نزال ورجعوا فى وجوه أولئك الطغام وانصبوا اليهم من عل بمنحط الصخر ، فانقلبوا صاغرين من نجد الشواهق الى غوره ، فمن صريع يجود بنفسه وثخين يتشحط فى دمه ومغلول يقاد برسنه ··· (ثم) اجننا الليل ، فسرناه مدلجين غربا · وأصبحنا ··· فجددنا السير يومنا وخمسة بلياليها بعده ، لم نطعم فيها ولا جيلنا (اقرأ : خيلنا) قوتا سوى مرة شيئا منزورا ··· ولا ذقنا النوم فيها الا غرارا ، وبعد غروب الشمس من اليوم السابع ··· دخل أمير المسلمين ··· ملكه ·(52)

هذا وقد انتهى أمر الصراع بين أبى حمو ومنافسه أبى زيان بعد فترة تقارب العشرين سنة منذ 761 ، الا انه توقف فى حدود سنة 781 عندما لم يعد أبو حمو زيان قادرا على تحريك الحرب ـ فضلا عن الانتصار فيها ـ ضد أبى حمو · (35)

اما القبائل العربية فانها ظلت عنصرا مؤرقا لابى حمو ـ بقدر ما كانت عنصرا مساعدا له ـ اذ كان ولاؤها يميل فى أى وقت ولاى سبب الى أى عدو خارجى لابى حمو ـ بما فى ذلك المرينيين (54) ولهذا وجد أبو حمو نفسه مضطرا أن يخوض الحرب ضد من يحاربون الى صف عدوه منها كما فعل بسويد واحلافهم سنة 760 (55) أو من

52) البغية 2 : 203 — 206 ·
53) انظر العبر 7 : 124 — 125 و 139 ·
54) انظر مثلا البغية 2 : 142 — 143 والعبر 7 : 126 ·
55) انظر مثلا حادثة سنة 760 فى البغية 2 : 63 ·

ينشقون عنه بعد أن يعلنوا ولاءهم له ـ كما فعل بأبى الليل بن أبى موسى اليزيدى(56) أو من يقلقون عليه بايعاز منعدوه كما فعل بمغراوة سنة 763(57)، كما كان كثيرا ما يشن حملات انتقامية صرف ضد أى شخص ذى نفوذ ينضم الى عدوه دون أن يكون منهم ، كما فعل بعبد الرحمن ابن خلدون المؤرخ سنة 774 ، فانه لما عرف عنه ميله الى عدوه المرينى ابان خرجته الثالثة من تلمسان ، وتشجيعه اياه ضد أبى حمو ، اوعز الى بعض حلفائه من عرب المعقل أن يعترضوه ، ففعلوا وانزلوه عن فرسه ونهبوه وتركوه فى القفـــر . (58)

وهكذا تضافرت العوامل العديدة : من عداء المرينيين فى الغرب ، الى تنمر بعض الحفصيين فى الشرق ، الى قيام أبى زيان ابن عثمان ، الى عدم التوازن فى ولاء القبائل العربية لابى حمو ، الى خيانة لابن أبى تاشفين ـ تضافرت معا لتجعل من أبى حمــو قطبا من اقطاب الصراع السياسى والعسكرى فى المغرب ، ولتجعل النشاط الحربى ابرز ما فى السنين الاحدى والثلاثين من حكمه ، وقد دفع هذا أبا حمو الى التفنن فى اختراع الوسائل التى تضعف عدوه وتقوى مكانه ، فبث عيونه فى بلاد عدوه لاستطلاع احواله (59) ، وطالب من يوالونه اما باليمين الموثق (60) أو بالرهن (61) دلالـــة على ولائهم ، وحاول أن يختار الطقس المناسب للمعركة فى بعض المرات (62) ولـــم يقم بالهجوم على عدوه الا بعد مشورة اصحاب الرأى من اصحابه (63) (باستثناء حادثة

---

56) انظر مثلا حادثة حرب أبى الليل بن ابى موسى اليزيدى سنة 764 فى البغية 2 : 133 – 135 والعبر 7 : 126 .

57) انظر مثلا حادثة أبى حمو مع مغراوة فى البغية 2 : 112 والعبر 7 : 126 .

58) انظر الحادثة بتفصيلها فى التعريف بابن خلدون : 217 – 218 .

59) انظر مثلا البغية 2 : 51 .

60) انظر مثلا البغية 2 : 149 (سنة 769) .

61) انظر مثلا البغية 2 : 135 (سنة 764) .

62) انظر مثلا العبر 7 : 138 .

63) انظر مثلا البغية 2 : 51 و 197 .

سنة 767 التى انهزم فيها وقد مر ذكرها (64) ، ولم يتوان عن الهجوم السريع على عدوه عندما كانت الفرصة تسنح له وتفرض عليه انتهازها وتحقيق انتصار خاطف على ذلك العدو (65) كما لم يتوان عن اللحاق بعدوه ونهبه وقتل اكبر عدد من افراده اذا تم له الانتصار (66) فاذا احس بطلائع الانهزام ارسل جيوشه تعيث فى بلاد عدوه وتقتلع زروعها وتنسف قواتها وتخرب عمرانها ، وذلك كان من الخطط التى لجا اليها كثيرا فى تاريخه ، وكانت كل مرة تنتهى بافراج عدوه عنه وانتصاره هو لا مباشرة عليه (67) ، كذلك لجأ أبو حمو الى التآمر ضد عدوه المرينى بالذات والكيد له ، وذلك عندما احتضن منافسين لسلطانين من سلاطينه فى فترتين متباعدتين اثناء حكمه ، الاول هو الامير عبد الحليم ابن أبى على المرينى ، وقد احتضنه أبو حمو سنة 762 مكايدة للسلطان أبى سالم المرينى ، فانه أمر بنى مرين الواصلين من الجزائر الى تلمسان ببيعته ، ولما دعى له بالمغرب كساه شارة الملك وسرحه فى شىء من الآلة والناس مكرما (68) ، والثانى محمد بن محمد بن عبد الله بن عبد الحق ، وقد جمع العرب من أصحابه على بيعته سنة 770 ، وكساه شارة الملك وأرسله مع العرب لحصار سلجماسة، مكايدة فى السلطان عبد العزيز المرينى (69) .

غير أن أبا حمو لم يكن يلجأ الى الحرب فى كل مواجهته مع العدو ، بل كان يحاول قدر الامكان الابقاء على السلم بينه وبين عدوه ، وكان يسخر لذلك الغرض أرسالـه وسفراءه (70) ، ويرسل معهم فى بعض الاحيان هدايا قيمة اذا كانت السفارة فى عقد

---

64) انظر ما سبق ، ص : 11 .

65) انظر البغية 2 : 97 (سنة 768) .

66) انظر امثلة من ذلك فى البغية 2 : 197 — 198 و 235 و 251 .

67) انظر فى ذلك حوادث السنوات : 761 و 764 و 766 و 771 و 772 (انظر البغية 2 : 76 و 135 و155 — 156 و 222 — 223 و245 والعبر 7 : 125 و 128 و131 328 والاستقصاء 4 : 33)

68) انظر البغية 2 : 90 — 91 و 95 والعبر 7 : 316 والاستقصاء 4 : 43 وانظر أيضا ص 74

69) انظر البغية 2 : 183 و 193 والعبر 7 : 129 .

70) انظر مثلا البغية 2 : 62 و 101 و 165 — 166 .

الصلح (71) وكان اعداؤه ـ واولياؤه أيضا ـ يواجهونه بالمثل ، فيرسلون اليه سفراءهم ، فكان مجلسه محط رحال للعديدين من سفراء بني مرين وبنى حفص ، كما شهد ذلك أبو زكريا ، بن خلدون بنفسه (72) ، وسفراء بنى نصر (73) • غير ان حذر أبى حمو ويقظته كانت تجعله يقابل هؤلاء السفراء ، وخاصة سفراء الاعداء ـ بالطبع ـ بقدر غير قليل من سوء الظن ، فيتفرس فيهم ويحاول أن يعرف حقيقة معدنهم وخفايا نوايا سلطانهم من طريقتهم فى اداء رسالة مولاهم ، وهذا أمر فعله مع عمر بن عبد الله وزير سلطان المغرب أبى سالم المرينى (سنة 761) فانه ـ فيما يرويه هو عن نفسه ـ انزله فى دار وزيره عبد الله بن مسلم ، وأمر وزيره باختباره فوجده رجلا يريد المكيدة عن طريق اعطاء المال لاهل وهران طلبا لولائهم للمرينيين من دون ابى حمو ، ويريد الخديعة على عبد الله بن مسلم حتى يجتذبه الى جانبه هو وسلطانه ، وذلك لما كان تقدم بينهما من المودة والصداقة • فلما عرف ذلك أبو حمو ، أخذ يدخله على مجالسه الخاصة ، ويتحدث أمامه بما يوهمه انه من اسراره ، فزاد بذلك طمعه ، وابطا فى العودة الى سلطانه وأبو حمو يطيل بقاءه عمدا لديه ، والاخبار ترد على المرينى بمكانه لدى سلطان تلمسان ، فتزيد سوء الظن به سوءا • ولما عرف ابو حمو تأكد الحقد بين الطرفين ، وانخداع الرسول بتقريب السلطان اليه ، اطلق سراحه ، فغادره ، معاهدا اياه ان يغدر بسلطانه ، فلما رجع الى بلاده وجد الدنيا مقلوبة عليه ، فثار على سلطانه وقتله (74) • الا ان أبا حمو لم يكن دائما حكيما فى تصرفه مع الرسل ، ولقد حدث سنة 771 ان طلب منه السلطان عبد العزيز المرينى المهادنة ، فاشترط أبو حمو بعض الشروط التى لم يرضها المرينى ، ولما جاء رسول عبد العزيز بخبر رفض الشروط ، طرده ابو حمو ، فكان ذلك الطرد سببا من اسباب احتلال عبد العزيز المرينى لتلمسان فى السنة التالية • (75)

71) انظر البغية 2 : 89 والعبر 7 : 125 •
72) انظر البغية 2 : 132 •
73) انظر البغية 2 : 114 و 166 — 178 •
74) انظر الواسطة : 158 — 160 •
75) انظر البغية 2 : 224 و 234 — 236 •

ولا شك فى ان الوضع المتوتر وامكانات الحرب الدائمة بين أبى حمو واعدائـــه المختلفين قد جعلت أبا حمو يعتنى عناية خاصة بجيشه وفى هـــذا المجـــال يحدثنا أبو زكريا بن خلدون ان أبا حمو احتفل بجيشه احتفالا عظيما سنة 767 ، واقـــام استعراضا له فى ابهة ما بعدها ابهة وحضر ابو حمو نفسه ذلك الاستعراض ووصفه ابن خلدون فقال : صدرت الاوامر العلية للقبيل الاعز وكافة القواد المذكورين بحشد العساكر الى الحضرة الكريمة لتعرض بين يدى خليفة الله ... وفى أول شوال اجتمعت المحلات كافة بالبسيط الافيح مـــن ظاهر الحضرة ، فجلس أمير المسلمين ... لعرض جيوشه المظفرة فى خباء مطل من أعلى هضبة على بسيط مسلوب اصطفت به الكتائب، لا يحويها العد ولا تحيط باقطارها الابصار ، من كل شاكى السلاح ، منحدب على قناة المنا لا يعرف الا سيفه ولا يستشير غير عزمه ، فقد اخذوا زينتهم ، تحسبهم الحمائـــل المزهرات من فوق الكثبان الهائلة ، وسط كل كتيبة فنين جلد الوشى وخلخل اللجين ، يخطمه بسلسلة من الفضة ، غلمان لبسوا اقبية الخز الملون وعليه هودج مغشى بأنواع الحلل ، قد برزت منه قينة يسبى جمالها وصقال منظرها الناظرين ، فامسكت بغشارة تغنى بشجارة زناتية مما يهيـــج أريحيات الهمـــم ، ويبعث حمايـات النفـــوس ثـم زحفوا للسلام عليـه زوافا مـن ضحى اليوم الى غروب شمسه وحذاق الكتبـــة بين يديه الكريمتين ، يحصون جموع القبائل والشعوب وينوعون الرامح منها والنابل ، فكانت فذلكة حساب الجميع اثنا عشر ألف فارس مرتزقة (76) .

وكما عنى أبو حمو بجيشه لتأمين سلامته وسلامة سلطانه كذلك عنى بتحصيـــل ما يستحقه من الاموال من جبايته ، حتى يبقى لدولته اتزانها الاقتصادى فى السلـــم كما فى الحرب وانما يدلنا على مدى تشدده فى وجوب حصوله على المال الذى هو حق له ولدولته ، الحادثة التى حدثت سنة 777 ، عندما قام سالم بن ابراهيم كبير الثعالبة من العرب ووالى الجزائر من قبله بالاستبداد بعمله واضافة جبايته الى نفسه . فلما جاء وقت الجباية ، وأوعز أبو حمو الى عماله باستيفاء جبايتها ، استراب سالم من أمـــره ،

76) البغية 2 : 181 — 182 .

وظل يداهنه رجاء أن تشغله الفتنة الناشئة يومذاك ضده عن مطالبته . الا أن الامور دارت على غير ما اشتهاه سالم ، اذ انتصر أبو حمو على المفتتنين فى بلده سنة 778 ، ولما رأى أبو حمو أن سالما لا يحرك ساكنا ، تقدم اليه بجيوشه وأوليائه ، فرأى سالم أن قد أحيط بأصحابه ، فلاذ بالطاعة لابى حمو وحمل عليها اصحابه ، وعقد لهم السلطان من ذلك على ما أرادوه وأخذ منهم أمواله (77) . ففى هذه الحادثة لم يتروع أبو حمو على الحرب فى سبيل تحصيل أمواله ، وهذا يعنى أنه كان حريصا جدا على نقل جبايات الاقاليم الى خزينته باستمرار ، وان ذلك أمر كان يحدث بقدر غير قليل من الانتظام ، هو الذى دفع لسان الدين بن الخطيب لان يقول فى وصف سياسة أبو حمو المالية أنه كان « ... جماعا للمال ... حلب ضرع الجباية » (78) ، وبعث ابا زكريا بن خلدون ليقول ان من عناصر ازدهار حكم أبى حمو « مال يجبى فيخزن » (79) . وقد كانت نتيجة هذه السياسة الحكيمة ان أمرى بيت مال أبى حمو (80) ، ولم يعد بحاجة لان يمد يده طالبا المعونة المالية من غيره ، بل انه استطاع بماله أن يعين أهل الاندلس على جهادهم ضد الروم بالمال والذهب والفضة والزرع والخيل المسومة والمراكب المشحونة مرتين على الاقل ، سنة 763 وسنة 767 ، (81) واستطاع به أيضا أن يستألف الاعوان فى الحروب ــ كما مر من قبل ــ (82) وأن يخزنه لحين الحاجة اليه فى الظروف الطارئة ، وقد جاءت تلك الحاجة فى تاريخ أبى حمو سنة 776 ، عندما نزلت بالبلاد مجاعة عظيمة شاهدها أبو زكرياء ابن خلدون ووصفها فقال : انها نتجت عن اعصار عظيم أهلك زرع صائفة تلمسان وحيوانها ، فأكل الناس بعضهم بعضا وافتقروا الى ما لدى السلطان ، فتصدق عليهم بنصف جبايته كل يوم على ضعفائها ، يجتمعون فى الرحاب الفسيحة المعينة فيقسم حفظة الملك الارزاق عدلا بينهم ، كذلك

77) انظر العبر 7 : 138 .
78) الاحاطة 10 (مخطوط الرباط) 115 .
79) البغية 2 : 11 .
80) انظر الاحاطة (مخطوط الرباط) 115 .
81) انظر البغية 2 : 325 ــ 326 .
82) البغية 2 : 11

26

قرر أبو حمو بمناسبة المجاعة أن يضم هؤلاء الضعفاء أجمعين فى بيمارستانات يأتيهم رزقهم فيها صباح مساء ، شتاء السنة وربيعها ، حتى دعاهم خصب البادية ودرور ضروع ماشيتها الى الاصحار اليها ، وفتح أهراء الزرع وأباح بيعه للناس ، وخفض سعره ، بحسب ما اقتضته المجاعة وأحكامها (83) فهذا التدبير الذى قام به أبو حمو كان ولا شك نتيجة لسياسة مالية حكيمة كان يتبعها فى السنوات السابقة على سنة المجاعة ، وذهب فيها الى خزن المال دون انفاقه كله تحسبا للطوارىء ·

غير أن هذا الخزن لم يجعل أبا حمو ـ فيما يبدو يقصر فى حقوقه تجاه موظفى دولته وجيشه من ناحية أرزاقهم وعطاءاتهم ، وهذا أمر يستدل عليه من قول ابن خلدون عنه : ان من عناصر نجاحه « أرزاق تنفذ وتوزن » (84) ·

والحديث عن السياسة المالية لابى حمو يقود الدارس الى البحث فى السياسة الداخلية له اذ ذاك يجد أول ما يجد اتجاه أبى حمو الى الحرص على انزال الناس فى مراتبهم الصحيحة دون تزيد ولا تنقص ، ولذلك رفع من مرتبة نفسه عن سائر الناس وأبدى غضبه ممن لا يقبل يده ولا يبايعه (85) والتزم بالوقار والهيبة ووضع الحجاب على بابه ، فلما دخل مجلسه أبو زكريا بن خلدون للمرة الاولى سنة 764 دهش لما رآه هنالك من مظاهر الرسميات ، وصور ذلك بعبارة بليغة قائلا : (وفتح الباب ، ورفع دونى الامن والاجلال والمهابة والاجلال ، فلم ارتب فى كسرى المدائن والايوان ، أو طور الحجى محتفا بنور الايمان) (86) · وكما طبق أبو حمو حفظ المرتبة على نفسه كذلك طبقها على أهل مجلسه من رجال دولته ومجالسيه (87) بل وعد الناس عامة ، كما نراه فى الاحتفال بالمولد النبوى الشريف ، فان الضيوف

83) انظر فى ذلك قصة حدثت له مع أحد المرابطين الصوفية ، اذ غضب عليه أبو حمو لانه لم يبايعه ويقبل يده ثم عفا عنه لما علم مكانه من التصوف (انظر البستان : 174) ·

84) البغية 1 : 142 ·

85) انظر البغية 2 : 132 ·

86) انظر البغية 2 : 114 و 174 ·

87) انظر ما سبق ، ص 12 والحاشية رقم 2 ·

فيه كانوا يجلسون « على مقاعد عينها الاختصاص ورتب بعضها فوق بعض المناصب » . (88)

والذى يستنتجه الناظر فى تاريخ أبى حمو أن أبا حمو كان يوجه جل اهتمامه الى الرجال الذين يعينونه فى تصريف أمور دولته ، من الوزراء والكتاب وأصحاب الاشغال والعمال والقضاة والقواد ، وأن هؤلاء كانوا اكثر من يتعامل معهم ويتصل بهم ويستأنس برأيهم، وقد كان أبو حمو حريصا منذ اليوم الذى بدأ فيه ملكه بتلمسان أن يختار كبار رجال دولته ، اذ يذكر أبو زكريا ابن خلدون ، انه فيه اختار وزيره وصاحب اشغاله وصاحب انشائه وتوقيعه وقاضيه (89) ، وكل هذا مما يضع الناظر فى حكم أبى حمو فى جو « بيروقراطى غير خاف » .

وقد اظهر أبو حمو بشهادة ابن خلدون ميلا الى «تحديد الحدود وترتيب الالقاب» (90) وهذا يعنى انه كان يختار لكل منصب من مناصب الدولة الرجل الذى يحمل من الكفايات ما يؤهله لملء المنصب المراد وضعه فيه . ولا يخبرنا تاريخ أبى حمو بشىء عن مدى تفرس أبى حمو فى الرجال الذين اختارهم لادارة دولته ، كما لا يخبرنا بالشىء الكثير عن العدد الكبير الذي لا بد كان متوليا لمناصب الدولة فى سنى ملك أبى حمو الاحدى والثلاثين ، ولكن مما نعرفه عن مجموعة صغيرة من رجال دولة أبى حمو ، نلاحظ أن أبا حمو لم يوفق فى اختيار معظم هؤلاء الرجال ، من الوزراء والعمال والقواد والسفراء والكتاب ، فانه اذا كان قد احسن اختيار عبد الله بن مسلم لوزارته، لما ظهر من اخلاص عبد الله له وشجاعته فى الدفاع عن بلده حتى الموت (91) ، فلقد اساء اختيار الحاج أبى عمران موسى بن على بن برغوث فى المنصب نفسه (92) لان هذا

88) البغية 2 : 40 .

89) انظر البغية 2 : 38 .

90) البغية 2 : 310 .

91) انظر العبر 7 : 123 – 127 .

92) انظر البغية 2 : 38 .

لـــم يظـــل عـــلى ولائـــه له اثنا الاحتلال المرينى الثالث ، ولذلـــك فان أبا حمـو نفـــاه الى الاندلس عندمـــا رجـــع الى تلمســـان (93) · قـــال ابن خلـــدون : « لاشعـــاره اياه لباس الوزارة ولـــم يعمـــل بمقتضاها » (94) واذا كان عامـــلا ابى حمو وولده المنتصر وأبو زيـــان قـــد ظلا عـــلى طاعة والدهما أبى حمو (95) فان ابنه الآخر وعامله أيضا أبا تاشفين تآمر على كاتبه أبى زكريا بن خلدون وقتله (96) ، واستعان عليه هو نفسه بالعدو لاجل قتله (97) ، رغم انه كان أحب أولاده اليه وقـد اعطاه ولاية عهده ، وأطلق يده (سنة 776) على السيف والقلم والخراج والحكـــم فى دولته (98) · كذلك مر قبل كيف عصى سالم بن ابراهيم عامل أبى حمو على الجزائر أبا حمو وكاد يخرج عن طاعته (99) ، ولم يكن توفيق أبى حمو مع القواد احسن بكثير، فنحن نعلم أن أحدهم ـ وهو عثمان بن مسلم الزرداني ـ ابطن النفاق ضد أبى حمو وتسلم قيادة أحد جيوشه ثم انحاز الى عدوه (100) ، وان اثنين آخرين خاناه وتركاه الى عدوه أيضا وهما : وادقل (واتقل) بن عبو بن حمادن وسعيد بن تصاليت (101) فاضطر أبو حمو الى قتلهما بعد ان عاد من تشرده (102) ، وكذلك فعل بمحمد بن عمر البريطل (103) ، سفيره الى ملك المغرب وغيره أيضا (104) · أما يحيى بن خلـــدون كاتب أبى حمو الذى نعرف عنه قدرا أكبر من المعلومات ، الذى ارخ للسنوات الـتى

---

93) انظر البغية 2 : 274 ·
94) البغية 2 : 274 ·
95) انظر العبر 7 : 140 و 143 و 145 ·
96) انظر العبر 7 : 14 ·
97) انظر ما سبق : ص 10 ·
98) انظر البغية 2 : 313 والعبر 7 : 139 ·
99) انظر ما سبق ص : 18 — 19 ·
100) انظر البغية 2 : 193 ·
101) انظر البغية 2 : 161 و 240 و 254 و 269 ·
102) انظر البغية 2 : 274 ·
103) انظر البغية 2 : 274 ·
104) انظر البغية 2 : 166 و 207 و 224 و 234 ·

شهدها من ملك أبى حمو ، فانه انضم الى دولته معززا مكرما سنة 766 (105). ولكن عندما حالت ظروف أبى حمو واستولى المرينيون على بلاده سنة 772 وهرب أبو حمو الى البادية ، لم يتمسك به ولم يعينه فى محنته ، وانما فارقه « لخيالات سوداوية ونزعات شيطانية » (106) ، وعندما عادت أحوال أبى حمو فمالت الى الصعود ، رجع اليه يحيى سنة 776 ، وعبر عن ندمه على ما فعله معه فى السابق « معترفا » بالذنب ، متبرئا من الاصرار ، مستقيلا العثار » (107) ، فغفر له أبو حمو زلته ، وعفا عنه ، واعاده الى خطته وسابق جرايته • (108)

فأبو حمو اذن لم يوفق فى اختيار عدد غير قليل من رجال دولته ، وهذا لا شك أمر يعود الى قصور فراسته فيهم بالدرجة الاولى ، وان كان يمكن اعتبار تغير الاسياد ، والخوف الغالب من الاعداء والمصلحة المستحكم طلبها فى النفوس ، اسبابا أخرى تنضاف الى قصور فراسة أبى حمو ، وتسهم فى أن يكون عدد رجال دولته من غير اصحاب الكفاية لها • غير انه لا بد أن نلاحظ أن أبا حمو لم يكن رفيقا اجمالا فيمن يخون عهده ووظيفته ، وما فعله بوزيره أبى عمران وقواده هو أبلغ برهان على انه فى نهاية المطاف كان يبقى مفاتيح أمور دولته بيده •

هذا الدور الفعال لبيروقراطية الدولة ــ سلبا وايجابا ــ كان يقابله دور ساكن صامت لسائر الرعية فى دولة أبى حمو • وكل ما نعرفه عنهم فى هذا المجال ان أبا حمو كان يهتم بالرفق بهم واكرامهم والعطف عليهم فى الازمات ، كما فى حادثة المجاعة السابق ذكرها (109) ــ انه كان يقيم العدل فيهم : فيعقد لمظالمهم المجالس كل يوم بعد صلاة العصر ، وهذا مجلس وصفه أبو زكريا بن خلدون وصفا حيا فقال : « فاذا صلى العصر واقتعد سرير الخلافة ، فتحت الابواب ، واذن لهم فدخلوا لا يحويهم الكت

---

105) انظر التعريف بابن خلدون : 102 ــ 103 ، وانظر أيضا ازهار الرياض 1 : 238 •
106) البغية 2 : 238 •
107) البغية 2 : 307 •
108) انظر البغية 2 : 308 •
109) انظر ما سبق ، ص : 19 ــ 20 •

والحساب ، ثم اصطفوا شاخصة ابصارهم تجاهه ، يذكر مرآهم المعرض الاكبر ، فيقدمون اليه واحدا بعد واحد ، سواء في ذلك الشريف والمشروف ، والقوى والضعوف ، فينصب المظلوم ، ويعد المستجير ، ويهدى العائل ويرحم المسكين ، الى غروب الشمس ، سنة متصلة غير منفصلة ، وعادة مبتعدة لا تهمل » ٠ (110)

اما فيما عدا ذلك فالرعية (باستثناء البيروقراطية الحاكمة) لا يكاد يكون لها وجود يرى أو صوت يسمع ٠

على ان أبا حمو خدم الرعية — في مجملها — عندما قام ببعض النشاط العمراني لاجلها الا ان الناظر في أنواع هذا النشاط يجده قليلا في مجمله ، كما يجده — في معظمه — متجها وجهة دينية نابعة من صلب اهتمام أبي حمو بالامور الدينية اجمالا واعراضه عن اللذات الدنيوية على اشكالها (111) ٠ ولا يشكل استثناء عليها سوى تشييده لدار الصناعة السعيدة — ذات الفائدة الحربية — وهي دار جمع فيها الصناع على اختلاف صناعاتهم ، فكان العمل يقوم فيها على قدم وساق ، وتعرض منتجاتها مرتين في اليوم امام الخليفة ، وقد وصف الكاتب أبو زكريا ابن خلدون هذه الدار وصفا بليغا قال فيه :

« ٠٠٠ ان دار الصنعة السعيدة تموج بالفعلة على اختلاف اصنافهم وتباين لغاتهم وأديانهم ، فمن دراق ورماح وذراع ولحام ووشاء وصراج وخباء ونجار وحداد وصائغ ودباج وغير ذلك ، فتستك لاصواتهم وآلاتهم الاسماع ، وتحار في احكام صنائعهم الاذهان ، وتقف دون بحرهم الهائل الابصار ٠ ثم تعرض قومتهم أصيلان كل يوم مصنوعاتهم فيه بين يدي الخليفة أيده الله ، ويخزن كل بحجار صنعه المعد له ، وينصف العاملين من ارزاقهم عدلا ، هكذا ابدا » ٠ (112)

وكان مما اشتغل به أبو حمو من العمران الديني سنة 763 انشاء اكبر اثر بنياني تركه في تلمسان وهو المدرسة مع الزاوية التي بناها على قبر والده وقبري عميه

110) البغية 2 : 11 — 12 ٠
111) انظر الاحاطة 15 (مخطوط الرباط) 115 ٠
112) البغية 2 : 161 ٠

أبى سعيد وأبى ثابت . وقد عين أبو حمو الاوقاف والجرايات بها من العقار المنوع(113) وانفق عليها الاموال الكثيرة ، وضاعف بها عدد العمال ، واحضر لها احسن المغارس ، وأعلى بناءها ، ووسع ابنيتها ، واستجلب المياه ، ورسم فيها الخطط (114) . وعندما جهزت سنة 765 ، اصطفى لتدريس العلم بها الفقيه أبا عبد الله محمد بن أحمد الشريف الحسنى (771) (115) وكان افتتاح الاقراء بها فى 15 صفر سنة 765 ، فحضر أبو حمو الافتتاح ، وكان يوما مشهودا . (116)

والى نفس النوع من العمران الدينى ينتمى احتفال أبى حمو بالمولد النبوى احتفالا ليس له نظير . وقد احتفل به للمرة الاولى فى السنة الاولى من توليه سلطان تلمسان (سنة 760) ، فدعا اليه الخاصة والعامة من أهل تلمسان وحشد فيه الـــوان الآلات الطريفة ، واسمع الكثير من الامداح النبوية ، وبعضها من تأليف السلطان نفســـه ، فتحدث الناس فيه (117) . وما لبث أن رتب السلطان لهذا الاحتفال كل سنة ، فصار من المناسبات التى يستعد التلمسانيون لها سنة بعد سنة ، ويتبارى الشعراء ومـــن بينهم أبو حمو فى نظم القصائد والموشحات والمخمسات فى مـدح النبى بها (118) ،

113) البغية 2 : 104 .

114) البغية 2 : 136 .

115) انظر ترجمة الشريف الحسنى فى نيل الابتهاج : 255 والبستان فى ذكر الاولياء والعلماء بتلمسان : 164 — 184 .

116) انظر البغية 2 : 136 .

117) انظر البغية 2 : 40 وما بعدها .

118) انظر امثلة من امـداح أبى حمو النبوية فى الواسطة : 167 — 174 والبغية 2 : 41 — 44 و 65 — 67 و 84 — 88 — 97 — 99 و 125 — 126 و 137 — 139 و 152 — 154 و 162 — 164 و 186 — 189 و 208 — 210 و 224 — 226 .

ومولديات أبى زكريا بن خلدون فى البغية 2 : 215 — 222 و 230 — 234 ونفح الطيب 6 : 510 — 513 و 515 — 517 .

ومولديات محمد بن يوسف الشغرى فى البغية 2 : 44 — 47 و 68 — 72 و 127 — 130 و 189 — 193 و 210 — 214 و 226 — 230 .

ومولديات الحاج أبى عبد الله بن أبى جمعة المعروف بالتلالى طبيب تلمسان فى البغية 2 : 47 — 49 و 72 — 75 و 100 — 101 و 139 — 142 و 154 — 155 و 164 — 166 .

وقد وصف أبو عبد الله التنسي هذا الاحتفال غير مرة ، فمما كتبه عنه في كتابه « نظم الدر والعقيان في شرف بني زيان وذكر ملوكهم الاعيان » ·

وكان السلطان أبو حمو يقوم بحق ليلة مولد المصطفى صلى الله عليه وسلم · ويحتفل لها بما هو فوق سائر المواسم · يقيم مدعاة يحشر لها الاشراف والسوقة ، فما شئت من نمارق مصفوفة ، وزرابي مبثوثة ، وشمع كالاصطوانات ، واعيان الحضرة على مراتبهم تطوف عليهم ولدان قد لبسوا اقبية الخز الملون وبايديهم مباخر ومرشات ينال كل منها بحظه ، وخزانة المنجانة ذات تماثيل لجين محكمة الصنعة ، باعلاها ايكة تحمل طائرا فرخاه تحت جناحيه ، ويختله فيهما ارقم خارج من كوة بجذر الايكة صاعدا ، وبصدرها ابواب مرتجة بعدد ساعات الليل الزمانية ، يصاقب طرفيها بابان كبيران ، وفوق جمعها دوين رأس الخزانة قمر اكمل يسير على خط الاستواء سير نظيره في الفلك ، ويسامت أول كل ساعة بابها المرتج ، فينقض من البابين الكبيرين عقابان ، يفي كل واحد منهما صنجة صفر يلقيها الى طست من الصفر المجوف بوسطه ثقب يفضى بها الى داخل الخزانة فيرن وينهش الارقم أحد الفرخين ، فيصفر له أبوه ، فهناك يفتح باب الساعة الذهبية ، وتبرز منه جارية محتزمة كاظرف ما انت راء ، بيمناها اضارة فيها اسم ساعتها منظوما ، ويسراها موضوعة على ما فيها كالمبايعة بالخلافة ، والمسمع قائم ينشد امداح سيد المرسلين وخاتم النبيين سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم يؤتى آخر الليل بموائد كالهالات دورا ، والرياض نورا ، وقد اشتملت من أنواع محاسن المطاعم على الوان تشتهيها الانفس وتستحسنها الاعين ، وتلذ بسماع اسمائها الاذان ، ويشره مبصرها للقرب منها والتناول ، وان كان ليس بغرثان · والسلطان لم يفارق مجلسه الذى ابتدأ جلوسه فيه وكل ذلك بمرأى منه ومسمع حتى يصلى هنالك صلاة الصبح · على هذا الاسلوب قضى ليلة المصطفى صلى الله عليه وسلم في جميع أيام دولته ، وما من ليلة مولد مرت في أيامه الا ونظم فيها

قصيدا فى مدبح مولد المصطفى صلى الله عليه وسلم ، أول ما يبتدىء المسمع فى ذلك الحفل العظيم بانشاده • ثم يتلوه انشاد من رفع الى مقامه العلى فى تلك الليلة نظما(119)

كذلك أقام السلطان أبو حمو احتفالا كبيرا سنة 770 لمناسبة ختم ولده الناصر لسورة البقرة (120) ، واحتفالا ثانيا مماثلا لمناسبة الختمة نفسها من قبل ولده الآخر أبى زيان سنة 776 (121) ، دعا اليها ـ على حد تعبير أبى زكريا بن خلدون « الامم عربها والعجم » (122) و « الاشراف والمشروف والرفيع والوضيع » (123) ، وحشد فيهما أصناف المغنين وأرباب العزف والآلات الموسيقية بتلمسان، فاجتمع الناس بداره، وابتهجوا بالغناء على أنواعه ، وطعموا من ألوان الطعام العديدة المقدمة لهم عنده ، فكان هذان اليومان من الايام المشهودة • وهذان الاحتفالان أيضا مما يقع فى دائرة العمران الدينى •

ومما يقع فى دائرة العمران الدينى أيضا قيام أبى حمو بالانعام على حجاج بيت الله الحرام ، وتحميلهم قصائد الشوق الى النبى والى الحرم (124) • كما يقع فيه اتجاه أبى حمو الى العناية بمعالجة الموضوعات الدينية فى شعره الكثير ، حتى لم يكد يخرج هذا الشعر عن المولديات والتشوق الى النبى، وما الى ذلك (125) وقد فرض هذا الاتجاه

119) نقلا عن نفح الطيب 6 : 514 — 515 ، وقد اورد التنسى وصفا آخر للاحتفال بالمولد النبوى فى تلمسان فى كتابه الآخر . روح الارواح . وقد نقله المقرى فى النفح 6: 513 — 514 •

120) انظر : البغية 2 : 223 •

121) البغية 2 : 313 •

122) البغية 2 :

123) البغية 2 : 310 •

124) انظر) الواسطة : 10 •

125) عرف لابى حمو غير اشعاره الدينية قصيدة فى رثاء والده (البغية 2 : 104 — 107) وقصيدة فى وصف مخاطرته حتى وصل الى تلمسان (الواسطة : 15 — 19) وأخرى فى وصف مقاسياته فى المنفى بين سنتى 772 و 774 (البغية 2 : 264 — 268) وقصيدة فى مخاطبة وزير المغرب (البغية 2 : 156 — 159) وقصيدتان فى الفخر (الواسطة : 6 والبغية 93 — 95) •

فى الشعر نفسه على من اتصل بأبى حمو من شعراء عصره ، اذ نظم المولديات وما شابهها أشهرهم من أمثال محمد ابن قيس الثغرى كاتب أبى حمو ، وأبى زكريا يحيى ابن خلدون كاتبه الآخر ، ثم طبيب تلمسان ابن أبى جمعة المعروف بالتلالسى (126) وان لم يصرفهم هذا عن نظم الشعر فى مدح أبى حمو والاشادة بعمران تلمسان زمانه (127) وقد بلغت مجموع قصائد أبى حمو وقصائد الشعراء الذين مدحوه درجة من الكثرة تمكن معها أبو عبد الله التنسى من جمع كتاب كامل منها سماه (راح الارواح فيما قاله المولى أبو حمو من الشعر وقيل فيه من الامداح ، وما يوفق ذلك على حسب الاقتراح) (128) وفى هذا دليل على نشاط الحركة الشعرية فى تلمسان زمن أبى حمو ٠

* * *

تلك كانت فصول التجربة السياسية لابى حمو ، ومنها يبدو لنا أبو حمو ملكا شجاعا مقداما شديد العزيمة يقظا صابرا عظيم المقدرة على الاحتمال ، رابط الجأش ، مقدما الكفاح فى سبيل البقاء فى سلطانه على كل شىء وهو أيضا ملك « موصوف برجاحة وسداد » (129) كما قال لسان الدين بن الخطيب ، يعنى بجيشه فى سبيل الانتصار فى الحرب ، وبماله فى سبيل الاستقرار فى الملك والانتصار فى الحرب واعانة المجاهدين فى الاندلس معا ٠ كذلك هو رجل دولة من طراز رفيع ، لا يخلط بين مراتب الناس ، ولا يتصنع فيجعل نفسه كواحد منهم، بل يضل متسما بالوقار والهيبة ويعتنى باختيار يده اليمنى ــ رجال دولته فيخطىء ويصيب ولكنه لا يلقى بمفاتيح الدولة الى أحد غيره ٠ أما سائر الرعية فانه يحسن اليها ويعدل فيها ويرفق بها،ولكن لا يعيرها القدر الكبير من الاهتمام ، وان كان يحاول أن يخدمها ببعض العمران المتجه وجهة دينية أو حربية ، متعلقة بميوله الاصلية فى الاعراض عن الملذات الدنيوية ، والاهتمام

126) انظر ما سبق ، ص 26 ، الحاشية رقم 1 ٠
127) انظر امثلة من هذه القصائد فى البغية 2 : 10 — 19 و 45 — 49 و 96 — 97 100 — 101 — 107 — 109 و 114 — 122 — 125 و 143 — 145 و 287 — 296 و 296 — 299 و 311 و 313 و 315 — 325 و 329 ـ 333 ونفح الطيب 6 : 500 — 508 ٠
128) نفح الطيب 6 : 513 ٠
129) اللمحة البدرية : 107 ٠

بالاغراض الدينية . ولما أراد لسان الدين بن الخطيب أن يبين صفات أبى حمو قال فيـــه :

« هذا السلطان مجمع على حزمه وضمه لاطراف ملكه ، واضطلاعه بأعباء ملـــك وطنه ، وجره لدولة قومه ، وطلوعه بعادة قبيله ، عاقل حازم حصيف ثابت الجـــأش وقور مهيب ، جماع للمال ، مباشر للامور ، هاجر الملذات ، مشمر يقظ ... ونبهت دولته ، وأتعب جيرته ، فهو ممن يشار اليه بالسداد » . (130)

وبعد : فان أبا حمو هذا كان أديبا مفكرا سياسيا ، وهو صاحب كتاب « واسطـة السلوك فى سياسة الملوك » الذى ضمنه نظرية السياسة فى الحكم وهو موضـوع دراستنا فيما يـــلى : (2)

اما ان الكتاب لابى حمو ، فامر ليس فيه شك قط ، وأظن أن لسان الدين بن الخطيب عناه هو دون أن يسميه فى قصيدته السينية فى مدح صاحبه أبى حمو وذلك فى قوله :

اما سياستـك الـــتى أحكمتهـــا ورمـت بالتقصـــير رسطاليـــا

فلو أن كسرى الفرس أبصر بعضها ما كان يطمع أن يعدى سوسا(131)

كذلك ذكر الكتاب كل من يحيى بن خلدون (132) والمقرى (133) ، وكلاهما سمـاه « نظم السلوك فى سياسة الملوك » (134) ، وهو أمر مستغرب ، لان أبا حمو سماه ــ بنصه على ذلك « واسطة السلوك فى سياسة الملوك » (135) ، وكذلك فعل لسان الـديـن

---

130) الاحاطة 15 (مخطوط الرباط) 115 ، ويذكر فى هذا المجال ان ابن الاحمر صاحب روضة النسرين وصف أبا حمو بالجبن والبخل ، (ص 17) ولكن هذا يحمل علي محمـل التحامل لا غير (انظر صفحة 44 ــ 45 من الكتاب نفسه) .

131) البغية 2 : 290 والنفح 6 : 198 .

132) انظر البغية 2 : 8 .

133) انظر ازهار الرياض 1 : 249 .

134) انظر البغية 2 : 8 والازهار 1 : 249 ، واسقط ابن خلدون القسم الثانى من العنوان

135) الواسطة : 3 .

ابن الخطيب ، الذى شاهد الكتاب فى جملة هدية أبى حمو الى ابن الاحمر النصرى (136) مما يؤكد صحة اسمه كما وردت فى كتاب أبى حمو ٠

أما تاريخ كتابة الكتاب فلا نعرف سنة معينة له على وجه التدقيق ولكن الامر المؤكد انه كتب سنة 760 لان أبا حمو يتحدث فيه عن رحلته الى تلمسان واستقراره ملكا بها تلك السنة (137) وقبل سنة 777 ، لان يحيى بن خلدون كان عارفا بوجوده وهو يكتب تاريخه بغية الرواد » وهذا التاريخ ينتهى عن سنة 777 ٠ فاذا شاء الدارس أن يتلمس المزيد من التحديد لتاريخ كتابة هذا الكتاب ، فربما امكنه ان يحدد الفترة بين 771 و 777 ، لان واحدة من القصائد التى ذكرها أبو حمو بين قصائده فى كتابه ذاك (138) انشدت فى الاحتفال بالمولد النبوى سنة 771 (139) ، وكان من عادات أبى حمو أن حمو ينظم قصيدة أو أكثر فى كل موسم (140) ، فاذا صح ان هذه القصيدة كانت مما نظمه خصيصا لذلك الموسم ، كان الافتراض بأن الكتاب ألف بعد سنة 771 (وقبل سنة 777) صحيحا ٠

وقد أوضح أبو حمو هدفه من كتابه هذا فى مقدمته عليه مبينا أنه كتبه ليتحف به ابنه وولى عهده ووارث مجده والخليفة ان شاء الله بعده ، ولاجل ذلك ضمنه « وصايا حكيمة وسياسة عملية علمية ، مما يختص به الملوك وتنتظم بها أمورهم انتظام السلوك » (141) وهذا يعنى أن الفكر السياسى المسجل فى هذا الكتاب يحتوى على ما يمكن أن يكون ذا فائدة لابى تاشفين بن أبى حمو ، من بنى زيان ، يعيش فى القرن الثامن الهجرى ، ويتوقع يصير ملكا فى وقت من الاوقات ، فاذا توصل بحول الله أن يصير ملكا ، كان الكتاب خير دليل له فى السياسة العملية والنظرية ٠ فهل نستطيع

136) انظر الاحاطة 15 (مخطوط الرباط) ، 115 ٠
137) انظر الواسطة : 13 — 14 ٠
138) انظر الواسطة : 172 ٠
139) انظر البغية 2 : 224 ٠
140) انظر النفح 6 : 515 نقلا عن نظم الدر والعقيان .
141) الواسطة : 3 ٠

أن نجد فى هذا ا لكتاب نظرية أصيلة لابى حمو تختلف عن نظريات المؤلفين الكثر فى السياسة من المسلمين ؟ أو بكلمات أخرى · كم هو مقدار الاصالة فى نظرية أبى حمو السياسية ، اذا كانت هنالك لديه نظرية ؟

ان المدخل الاساسى للاجابة على هذا السؤال هو النظر فى المصادر التى استقى منها أبو حمو أقواله وفى مدى خطورة الاثر الذى تركته هذه المصادر ـ ان وجدت ـ فى أقواله · وفى هذا المجال يطالعنا المقرى بنص اتهامى صريح يقول فيه ان أبا حمو بكتابه « لخص ··· سلوان المطاع لابن ظفر ، وزاد عليه فوائد ، وأورد فيه جملة من نظمه ، وأمورا جرت له مع معاصريه من ملوك بنى مرين وغيرهم (142) فهذا القول يسلب أبا حمو الجزء ا لاكبر من « الاصالة » فى كتابة كتابه اذ يجعله الكتاب ـ فى جانبه الاعظم ـ تلخيصا لسلوان المطاع · فهل كان الكتاب فعلا كذلك ؟

ان الناظر فى كتاب أبى حمو يلاحظ أن الرجل يميل الى عدم ذكر المصادر التى ينقل عنها فى كتابه ، ولكنه يلاحظ أيضا أنه ذكر ابن ظفر مرة عرضا · وذكر كتاب سراج الملوك للطرطوشى مرة أخرى مصدرا صريحا له · وهذا القولان يدلان على أن المؤلف لم يكن **يتعمد** إخفاء مصادره ، ولكنه لم يجد ضرورة لذكر هذه المصادر فى درج كلامه · فاذا حاول الدارس أن يتتبع نقول أبى حمو نصا عن المصادر فى السياسة وما شابهها ـ **بقدر الامكان** ـ وجده ينقل عن أربع مصادر رئيسية ترتيبها بحسب كثر النقول عنها :

أ) كتاب سراج ا لملوك للطرطوشي (520) ونقل عنه فى 20 موضع على الاقل

	السراج	الواسطة
1) قصة الهرمزان وعمر	90	119
2) قصة معاوية وصعصعة بن صوحان وسؤال الاول عن عمر	98	120 ـ 119
3) قصة عمر والربيع بن زياد الحارثى	227 ـ 228	73

142) الازهار 1 : 249 ·

4) عمر بن عبد العزيز يتحدث عـــن الظلمـــة فى الاســـلام	السراج		الواسطة
	263 _ 264		121
5) عبيد الله بن مروان الحمار وملك النوبة	93	128	129
6) دوبان الحكيم والمامون	328 _ 329		64 _ 65
7) نظام الملك والصوفى أبى سعيد	217 _ 218		164 _ 166
8) المنصور بن أبى عامر والوزير المصحفى	303 _ 304		117 _ 118
9) المستعين بن هود وابن ردمير	302 _ 303		116 _ 117
10) قصة ملك بلدفور (بلد قوزانة)	211		125
11) قصة أحد الملوك وتفاضل المال والجيش	211		125
12) حديث قدسى عن العدل	255 _ 256		119
13) حديث نبوى عن العدل	76		118 _ 119
14) قول لوزياد فى المزارعين	208		78
15) قول لجعفر بن يحيى فى الخراج	208		78
16) فى أن العقل قسمان غريزى ومنتسب	113 _ 114		22
17) حكمة للحكماء فى العدل	88		119
18) حكمة عن الاسد والثعلب والقيادة	299		78
19) تشبيه مكان الوزير بين الملك والرعية بالطبيب	120		34
20) تشبيه وزير السوء بالماء الصافى فيه تمســاح	120		34

ب) **كتاب العقد لابن عبد ربه** (328) ونقل عنه فى 7 مواضع :

	العقد	الواسطة
1) حديث عمر وأبى هريرة	46	74
2) عمر والحارث بن وهب	46	74
3) عمر وعمرو بن العاص	46 _ 48	74 _ 75
4) عمر ومعوية	48 _ 49	75 _ 76
5) عمر وأبو سفيان	49	76

6) خبر المامون والمرأة فى مجلس المظالم	28 ـ 29	85
7) حديث نبوى عن العدل	28	118

ج) **كتاب المنهج المسلوك فى سياسة الملوك** لعبد الرحمن بن عبد الله (القرن السادس) ونقل عنه فى 7 مواضيع :

	المنهج المسلوك	الواسطة
1) خبر عمر مع والى حمص	118 ـ 119	76 ـ 77
2) القول فى الحسد وقصة خافان ملت الترك مع بهرام ملك الفرس	58 ـ 64	104 ـ 109
3) تشبيه الملك العظيم بثمانية اشياء	88 ـ 89	111 ـ 112
4) تشبيه المملكة بالبستان	89 ـ 90	112 ـ 113
5) الرعية والملك	90 ـ 91	113 ـ 114
6) الملك والعدو	91 ـ	114
7) نصائح عامة للملك (143)	91 ـ 92	114 ـ 115

د) **سلوان المطاع فى علوان الاتباع** لمحمد بن ظفر المالكى ونقل عنه فى ثلاث (3) مواضيع :

	السلوان	الواسطة
1) قصة الشيخ الفارسى والمامون	20 ـ 30	65 ـ 72
2) قصة وزير سابور	33 ـ 56	34 ـ 51
3) قصة حصن الاركن	61 ـ 80	89 ـ 103

143) كذلك أورد أبو حمو قصتى الشيخ الفارسى والمامون ، وحصن الاركن ، وقد وردتا فى المنهج : 81 ـ 85 و 76 ـ 81 على التوالى ، الا ان مؤلف المنهج نقلها عن ابن ظفر (انظر المنهج : 126) ، ولذلك يرجح ان أبا حمو نقلها من سلوان المطاع .

هذا بالاضافة الى مصادر أخرى ثانوية يصعب تحديدها بدقة ، ولا يفيد كثيرا الوقوف عليها ، لان النقل عنها جزئى فيما يتصور • (144)

والناظر فى نقول أبى حمو عن المصادر يلاحظ الملحوظتين التاليتين :

1 ـ ان كتاب ابن ظفر لا يشكل المصدر الرئيسى لكتاب أبى حمو من حيث عدد مرات النقل ، وان كان أبو حمو قد نقل عنه عددا كبيرا من الصفحات ، أكثر من أى كتاب آخر (28 صفحة من الواسطة) الا أن هذه الصفحات كلها لا تحتوى على غير قصص ثلاث ، وكلها مما نقله أبو حمو حرفيا عن السلوان ، وبذلك تكون دعوى المقرى أن كتاب الواسطة فى جانبه الاعظم تلخيص لكتاب السلوان دعوى باطلة •

2 ـ ان هذه النقول وغيرها مما لم احدد مصدره (145) لا تعدو أن تكون اما قصة تروى للتمثيل ، أو حكمة تذكر للاعتبار ، أو تشبيها يهدف الى تقريب القضية من الاذهان ، وأقل ما تكون بحثا فى مسائل مباشرة فى السياسة (مثل النقول الثلاثة الاخيرة عن المنهج المسلوك) ، وهذا يعنى أن أبا حمو لم يعتمد النقل عنها المصادر الا

144) من ذلك مثلا كتاب العقد الفريد للملك السعيد لابى سالم محمد بن طلحة القرشى النصيبى القاضى (ــ 602) فقد نقل عنه أبو حمو حديثا نبويا فى العدل (ص : 7 من العقد و 21 من الواسطة) . هذا فضلا عن ان بعض الاقوال التى فى كتاب أبى حمو يصعب تحديد مصدرها لشيوعها فى المصادر مثل القول (ص : 118) « فلا سلطان الا بجيش ، ولا جيش الا بمال ، ولا مال الا بجباية ، ولا جباية الا بعمارة ، ولا عمارة الا بالعدل » ، فقد وردت باشكال مختلفة ، منها بابدال كلمة « جيش » بكلمة « جند » فى سراج الملوك : 88 ــ 89 ، وباسقاط العبارة الرابعة فى الاقوال المنسوبة لاردشير (عهد اردشير : 16) وغير ذلك . هذا ومن المؤكد أن بعض النصوص الاخرى فى كتاب أبى حمو مأخوذة من المصادر مثل قصة خاتون أخت ملك الخزر (8 ــ 9) ، وقصة صاحب السحابة (24 ــ 25) وقصة المأمون مع ابن أبى حفصة (26) ، وقصة المنصور ومالك بن انس وابن أبى ذئب وابن سمعان (27 ــ 29) ، ولكن الاستدلال على المصادر التى أوردتها بنصوصها امر عسير ، ولا يؤثر فى أى استنتاج أساسى عن مصادر الكتاب .

145) انظر الحاشية السابعة •

فى نقاط جزئية جانبية ، وأن نقله ذاك لم يؤثر على بناء كتابه ، ولا على نظرية السياسة فى خطوطها العريضة ، بل كان عبارة تلمس لما فى المصادر وأخذ منها بمقدار ما يفيد هذا الاخذ فى تأكيد البناء الخاص والنظرية الخاصة ٠

أما أن أبا حمو كان ذا تصور خاص لمبنى كتابه ، فأمر لا يرقى اليه الشك لانـــه مبنى ذكره بأقسامه الكبرى فى المقدمة بقـوله : « ورتبناه ترتيبا » وبوبناه تبويبا » ، وجعلناه على أربعة أبواب ٠٠٠

الباب الاول : فى قواعد الملك والوصايا والآداب والحكم المرشدة الى طرق الصواب ٠

الباب الثانى : فى قواعد الملك وأركانه وما يحتاج الملك اليه فى قوام سلطانه ٠

الباب الثالث : فى الاوصاف التى هى نظام الملك وكماله وبهجته وجماله ٠

الباب الرابع : فى الفراسة ، وهى خاتمة السياسة ، فهذه عدة الابواب (146) ٠

عاد فحافظ عليه فى متن كتابه محافظة رقيقة جاعلا كل باب باستثناء الباب الاخـــير فى أربعة فصول :

فالباب الاول فيه أربع توصيات : الاولى الى الاتصاف بالعدل ، والثانية الى تغليب العقل على الهوى ، والثالثة الى حفظ المال ، والرابعة الى حفظ الجيوش والاجناد ٠

والباب الثانى فيه أربع قواعد لحفظ الملك : قاعدة العقل ، قاعدة السياسة ، قاعدة العدل ، وقاعدة جمع المال والجيش ٠

والباب الثالث فيه أربعة أوصاف محمودة للملك وهى الشجاعة والكرم والحلـــم والعفو حتى اذا وجد أبوحمو أن هناك تداخلا فى الموضوعات بين فصل وفصل أو باب وباب أسرع الى الاشارة الى أن بعض هذا الموضوع أو ذاك قد مر من قبل ، كأن يقول (وقد ذكرنا لك ترتيب الجيش فى قاعة السياسة) (147) أو يقول « وقد قدمنا لك أنه لا ينبغى لك أن تخاطر بنفسك» (147)، أو يقول « كما أشرنا لذلك فى باب السياسة» (147) فهذا

146) الواسطة : 3 — 4 ٠

147) الواسطة : 123 — 130 — 150 ٠

وأمثاله (148) ، يدل على شدة وعى أبى حمو بالبناء الـذى اختاره لكتابه ورغبته فى ألا يحتل ذلك البناء (149) ويؤكد أن أبا حمو بنى كتابه بناء على منهج تصور واضح فى ذهنه ، فاذا أضفنا الى ذلك أن مبنى الكتاب لا يتفق مع أى مبنى لاى كتاب آخـــر وصلنا فى السياسة ـ فيما وصل اليه اطلاعى ـ ادركنا اصالة الاطار العام لفكر أبو حمو السياسى واستقلاله من مؤثرات الخارجية التى كان يمكن أن تدخل على الكتاب من النقل عن المصادر ·

وعندما يحاول الدارس أن يلتمس مـدى الاصالة فى فكـر أبى حمو السياسى فى تفصيلاته ، فانه لا يسعه الى أن يسجل النقاط التالية بالنسبة لكمية أخذه من المصادر وطبعتـــه :

1 ـ ان أبا حمو ينقل من أماكن متباعدة من المصدر الواحد ويدرجها فى مكان واحد فى كتابه (مثل ص : 78 ، فان فيها نقولا عن الطرطوشى ص : 208 و 299) ·

2 ـ انه ينقل عن غير مصدر فى مكان واحد من كتابه (مثل ص : 73 ـ 78 ، فان النقل فيها يتراوح بين الطرطوشى والعقد والمنهج المسلوك فالطرطوشى مرة ثانية) ·

ـ انه ينقل قصة أو حكمة مذكورة فى أحد المصادر تحت أحد الابواب فيضعها هو فى باب آخر غير ذلك الباب (مثل قصة حصن الاركن ، فان صاحب المنهج المسلوك يوردها تحت باب المشورة ، فيما يوردها أبو حمو تحت باب الوزير) ·

---

148) انظر مثلا الواسطة : 151 و 153 ·

149) لقد استطاع أبو حمو على وجه الاجمال أن يحافظ على سلامة بناء كتابـه وعدم اصابته فى التكرار الكثير ، ولكن وهناك نصا «طويلا» (ص 60 و 63) عاد فكرره حرفيا دون لزوم (ص 119 و 121) وهذا ـ فيما يبدو لى ـ ليس من عمل المؤلف وانما من اضطراب أوراق المخطوط الذى طبع عنه الكتاب ، كذلك تكررت فقرات قصيرة عن دور الوزير وما هى الاشياء التى يشبه بها (ص 34) فى ص 103 ، ولكن هذه لم تؤثر فى بناء الكتاب . غير ان النص الوحيد الذى اصاب البناء بالخلل الحقيقى هو النص الطويل المذكور عن المنهج المسلوك (ص 111 و 115) ، فهذا ادخل موضوعات متنوعة غير ذات صيلة مباشرة بالموضوع الاصلى فى النص .

4 ـ انه يعمل يد الانتقاء بشدة فيما يأخذه عن المصادر ، فيسقط منها أشياء كثيرة كان الدارس يتوقع أن يجدها لديه ، بسبب كثرة ورودها فى كتب السياسة المؤلفة قبل ، حتى لقد اصبحت « كلاسيكية » الورود هناك (ومن بينها مصادر أبى حمو نفسه) ، وذلك مثل الاستشهاد بالآيات القرآنية ، فان ورودها نادر جدا لدى أبى حمو بينما هو كثير جدا فى كتب السياسة الاخرى ، وكذلك الشان بالنسبة للحديث ـ وان كان أبو حمو يقوم بالاستشهاد به أكثر ، ومثل هذا طرق الموضوعات التى اصبحت «كلاسيكية» أيضا فى بعض الفصول المعينة من كتب السياسة ، مثل قسمة الوزارة الى وزارة تفويض ووزارة تنفيذ فان هذه لا وجود لها فى كتاب أبى حمو ٠

5 ـ وبالمقابل فان أبا حمو يعالج العديد من الموضوعات المطروقة كثيرا فى كتب السياسة معالجة جديدة ، مخالفة لمعالجة كتاب السياسة المسلمين وغيرهم لها ، وذلك بخاصة فى الابواب الاخلاقية ، فانها عنده لا تظل أبوابا أخلاقية وعظية صرفا وانما تلبس لباسا فلسفيا ، فالشجاعة تقسم الى اربعة اقسام : الشجاعة التى يصحبها الرأى والشجاعة التى لا يصحبها العقل ويصحبها الرأى ، والشجاعة المتوسطة والشجاعة التى لا يصحبها العقل ولا الرأى (ص : 129 ـ 135) ، والكرم يكون أيضا على اربعة انواع فى الملوك ، فمنهم من يكون كريما كرما متوسطا ، ومنهم من يكرم على رعيته دون نفسه وأهل بيته ومنهم من يكرم على نفسه وأهل بيته دون رعيته ومنهم من لا يكرم لا على رعيته ولا على أهل بيته (ص : 136 ـ 139) ، وكذلك الحال بالنسبة للحلم والعفو وغير ذلك أيضا ٠

6 ـ كذلك لا يكتفى أبو حمو بايراد الامثلة التى توردها المصادر على الافكار الرئيسية فى كتابه ، وانما يلجأ فى كثير من الاحيان الى ايراد أمثلة عليها من أحداث وقعت زمانه أو قبل زمانه بقليل ، ـ أحداث لم نجد أحدا غيره من كتاب السياسة يستفيد منها من حيث هو أنها تمثل عبرة يجب أن يعتبر السياسى أو الملك بها وذلك مثل حديثه عن لقاء أبى الحسن المرينى ، والطاغية الفنش وفى وقعة طريف (سنة 741) (ص : 132 ـ 133) وحديثه عن أبى تاشفين بن أبى حمو الاول الزيانى واخفاقه فى رد المرينى عن احتلال بلاده لانه فرط فى الجيش وعنى بجمع المال (ص : 125 ـ 126) وغير ذلك ٠

بل انه استشهد بما وقع له هو نفسه من احداث ، مثل تفرسه في عبد الله بن عمر وزير ملك المغرب ورسوله اليه (سنة 761) مثلا على وجوب التفرس بالسفراء (ص : 158 _ 160) ومثل رواية حكاية حاله عندما خاطر بنفسه من تونس الى تلمسان طلبا لسلطانه (ص : 13 _ 15) مثلا على ضرورة المخاطرة في سبيل السلطان . وهذا كله مما يدل على حسن استيعاب أبي حمو للمواقف والآراء التي يتحدث عنها ، بحيث ان التمثيل عليها من دون الرجوع الى المصادر _ يجيء طبيعيا دقيقا معا .

فأبو حمو اذن نقل في كتابه عن المصادر في السياسة وغيرها عند العرب ، الا أن هذه المصادر لم تستعبده بل كان هو الذي يطوع مادتها بحسب حاجته اليها وتصوره لفائدتها ، فيأخذ منها ما يدخل ضمن اطار نظريته الخاصة في السياسة بوعي شديد ليبرز به خطوط النظرية الخاصة ، فاذا عرفنا أن نسبة المنقول عن المصادر لا يزيد بكثير على خمس مادة الكتاب ، وأن سائر الكتاب من عمل أبي حمو نفسه بالضرورة ، أدركنا أن حظ نظرية أبي حمو السياسية من الاصالة كبير جدا ، وأن كتاب « واسطة السلوك في سياسة الملوك » خير ما يمثل أصالة هذه النظرية .

* * *

واذا شاء الدارس أن يتلمس السبب وراء هذا القدر الكبير من الاصالة في نظرية أبي حمو السياسية _ رغم توفر العديد من المصادر السياسية النظرية لديه وعدم تحرجه من النقل عن تلك المصادر حرفيا في بعض الاحيان _ فان عليه أن ينظر في مدى العلاقة بين تجربة أبي حمو السياسية في الواقع وحديثه النظري عن السياسة في ذلك كتابه . ذلك ان أبا حمو كان هو نفسه ملكا ، خلافا للغالبية العظمى ممن كتبوا في السياسة قبله من المسلمين وغير المسلمين ، وكان قد شرع في كتابه بعد انقضاء احدى عشرة سنة على توليه الملك _ على الاقل _ (760 _ 771) ، فكانت قد توفرت له تجربة عريضة في الحكم ، كان من الممكن أن تؤثر عليه وهو يصوغ نظريته عنه ، ومن خلال هذه التجربة ونجاح أبي حمو في خوض غمراتها ، نشأ لديه شعور بالرضى عن الذات ، جعله يرى في نفسه ما يمكن أن نسميه « الملك المثالي » فو يصرح في أحد الاماكن من كتابه بعبارة ناصعة أنه الملك المثالي الذي يجب على الملك أن يقتدي به ،

وذلك فى قوله « فكذلك ينبغى لك أن تقتدى بكل أفعالنا ، ويؤل أمرك الى ما آل اليه مآلنا » (ص : 19) ٠ وقد قام فى أماكن عديدة من كتابه بالنص على أن تصرفه هــو التصرف السليم الذى على ابنه (أو على الملك) اتباعه ، فقال « وهذا يا بنى هو رأينا ٠٠٠ فعلى هذا المنحى يكون سيرك ، فيرجى من الله خيرك » (ص : 5 و 7) وقال « نظمنا فى الشوق الى ٠٠٠ المقــام الشريف ٠٠٠ قصيدة ٠٠٠ فخذ يا بنى على هذا المثال ، وانسج على هذا المنوال » (ص : 10 و 11) ، وقال « واتبع آثارنا فى القيام بليلة مولد النبى عليه السلام ٠٠٠ » (ص : 167) ، كذلك استشهد غير مرة على القواعد السياسية الواجب على الملك اتباعها بما فعله هو من التصرفات الحميدة عندما كان فى السلطان ، فاستشهد بمخاطرته من تونس الى تلمسان على القاعدة القائلة ان المخاطرة فى سبيل السلطان هو الموقف الوحيد الذى تحمد فيه المخاطرة (ص : 13 ـ 19) ، واستدل على كيفية التفرس بالرسل من الملوك لاجل الاطلاع على خفايا النوايا لدى سلاطينهم بما فعلــه هــو ووزيره عبد الله بن مسلــم لــدى وصــول عمــر بن عبــد الله وزيــر المغرب اليها رسولا من قبل ملك أبى سالم المرينى (ـ 762) بل انه استغل كتابــه مرات عديدة ليسجل فيه قصائد مــن شعره فى مختلف الموضوعات الدينية وغــير الدينية (ص : 5 ـ 7 و 10 ـ 11 و 15 ـ 19 و 167 ـ 174) ، مفتخرا بتلك القصائــد وحاضا ابنه على نظم مثلها اذا توفرت لديه الموهبة الشعرية (ص : 167) ، ومعتبرا أن القدرة على نظمها لما يزيد الملك جمالا الى جمال وكمالا الى كمال (ص : 167) ٠

والناظر فى تاريخ أبى حمو من ناحية وفى نظريته السياسية من ناحية أخرى يجد أن العلاقة بين تجربة أبى حمو السياسية فى الواقع ونظريته فى السياسة كما عرضها فى كتاب « الواسطة » علاقة وثيقة جدا ، تحددت فيها خيوط النظرية الى حــد بعيد بمقدار ما كان الواقع يمدها به من أبعاد ، حتى ليكاد كتاب « الواسطة » أن يكون هو الوجه النظرى لما كان يطبقه أبو حمو فى الواقع ، أو لما كان يرغب أن يطبقه فى الواقع وأخفق فيه ٠ ـ أقول « ليكاد » ، لان الكتاب يحمل دون شك أثرا آخــر ينضاف الى الواقع فى تكوين نظرية أبى حمو ، وهو الاثر الثقافى المستمد من الاطلاع ـ ولا أقول من المصادر التى نقل أبو حمو عنها ـ وقد ظهر هذا الاثر جليا فى مكان بارز من النظرية،

وذلك لدى اعتماد أبى حمو القاعدة الرباعية فى الحديث عن الناحية الخلقية للملك ، وفيما عدا ذلك ، فقد كان الواقع السياسى لابى حمو هو الذى يحرك نظريته فى كتابه ، فهذا الواقع هو الذى وجه بعض **تفصيلات تلك النظرية فى الكتاب** ، مثل اعتبار المخاطرة فى سبيل السلطان استثناء مرخصا منه للملك من بين سائر أنواع المخاطرة ، وهو الذى أثر فى **تركيب اقسام الكتاب** ، مثل غلبة المنظور البيروقراطى على أى منظور آخر لدى الحديث عن الرعية ، وهو الذى قرر **حجم الحديث عن الموضوعات المتعلقة بالنظرية** فى الكتاب ، مثل كبر حجم الاجزاء المخصصة للتحدث عن الجيش ودوره ضد العدو فى مقابل الحجم الصغير الذى يحتله الحديث عن العمران ، وذلك هو نفسه الذى حدد توزيع الموضوعات فى الكتاب ، بحيث اجتمع الحديث عن الجيش والمال فى فصل واحد غير مرة هناك ، ثم انه ، ـ وهذا هو الاهم ـ هو الذى قرر القاعدة الاساسية **التى ترتكز اليها نظرية ابى حمو السياسية** ، كما يجيىء توضيح ذلك فيما يلى ٠

* * *

وليس من السهل على قارىء كتاب «واسطة السلوك» أن يكتشف النظرية السياسية لابى حمو ، ذلك أن الكتاب ، وان كان واضح المبنى ، فانه متكلف التعبير ، متداخل الفقرات ، متشابك الموضوعات ، قد لا يدل عنوان الفصل منه على كل ما سيرد فيه ، بينما قد يرد فى العنوان ما يستأثر بجانب غير رئيسى مما قد يجيء تحته ، وقد يستغرق الحديث عن أفكار متعددة أسطرا معدودة ، بينما يستغرق التمثيل على فكرة واحدة صفحات عديدة ، ثم قد يتحدث فى المكان الواحد عن أمور عديدة بينما يتحدث عن الموضوع الواحد فى أماكن متفرقة ، هذا فضلا عن أن بعض الرقابة فى النغمة ، والتساوى فى المعالجة ، وكلاهما يجعل تمييز المهم من الاهم أمرا عسيرا ٠ من أجل ذلك ، كان على الدارس الذى يريد أن يكتشف النظرية السياسية لابى حمو أن يتجاوز المبنى الذى أسس عليه كتاب « الواسطة » وأن يعيد بناءه بناء ذهنيا جديدا ذا بعد فكرى واضح المعالم ٠ ولعل أفضل ما يمكن للدارس أن يفعله فى هذا المجال ، أن يحاول تلمس المنطلق الفكرى الاساسى الذى ينطلق منه أبو حمو ، أعنى المنطلق الذى يدور حوله كل شيء آخر فى الكتاب ، فانه بهذه الطريقة يستطيع أن ينظم فرائد الكتاب

الموزعة فى عقد منتظم الفقرات ، ويخرج بالنظرية قائمة البنيان ، خالية من التداخل فى الافكار (150) ٠

والمفتاح الاساسى الذى يمكن أن يقود الدارس الى اكتشاف منطلق أبى حمو الفكرى ، هو قوله فى مقدمته على كتابه أنه ضمن كتابه « وصايا حكمية وسياسية علمية عملية ، مما تختص به الملوك وتنتظم به أمورهم انتظام السلوك » (ص 3) ٠ فالملك وانتظام أمره فى دولته هو هم أبى حمو الاكبر ٠ فاذا انطلق الدارس من هذه النقطة ، وحاول أن يرى كتاب أبى حمو من خلالها ، فانه يخرج باستنتاج محدد يفيد أن نظرية أبى حمو السياسية ترتكز على قاعدة أساسية مؤداها أن الملك اذا وجد فى موضع الملك ، فان كل شىء حوله يمكن أن يؤثر فى مقدراته يجب أن يتحول لحمايته والمحافظة عليه واعزازه ونصره فى الداخل والخارج ، فى السلم والحرب ٠ والشخص الوحيد الذى يجب عليه أن يدير دفة الاشياء بحيث تتجه فى صالح الملك هو الملك نفسه ، اذ هو المدار الذى تدور حوله كل الافلاك ، ومفتاح هذه الافلاك جميعها فى يده ، وما عليه الا أن يحسن ادارتها ووضعها فى مدارها الصحيح لكى تصير فى خدمة سلامته ودوام دولته ٠

والناظر فى هذه القاعدة الاساسية لنظرية أبى حمو السياسية ، لا يسعه الا أن يلمح فيها أثر التجربة السياسية لابى حمو فى الواقع ظاهرا جليا ٠ فان الصعوبة التى واجهها أبو حمو ابتداء فى الوصول الى السلطان ، وتعرض سلامته للتهديد غير مرة فى المعارك العديدة التى خاضها ، وطرده مرة بعد مرة عن سلطانه ، حتى لقد كان هذا السلطان يؤذن بالزوال ـ كل هذه العوامل كان لها أثر عظيم فى تفخيم اهمية سلامة الملك ودوام سلطانه لدى أبى حمو ، فكانت هى قبل أى شىء آخر الباعث الذى أملى

150) ترد معظم « عبارات » الكتب غير المنقولة من المصادر فى صيغة الخطاب ، وتبدأ بتعبير يا بنى ، والمقصود بهذا طبعا ولد ابى حمو الامير أبو « تاشفين » وقد رأيت أن استعمل فى الحديث عن الآراء المعبرة عنها بقالبها لفظ الملك لان المقصود بالمبادىء السياسية فى « الكتاب تربية ولى العهد الذى سيصبح ملكا ، ثم ان أبا حمو يستعمل لفظ الملك فى الخطاب احيانا لانه هو مدار تفكيره عامة » ٠

على أبى حمو تصرفاته فى حياته السياسية ، كما كانت هاجسه الاكبر الذى فرض نفسه على نظريته السياسية ٠

وحيث كان الامر كذلك ، فقد أخذ أبو حمو على عاتقه أن يشرح للملك كيف يحافظ على نفسه وكيف يحرك الاشياء من حوله بحيث تساعده على البقاء فى ملكه ٠ فتعرض لجميع العناصر التى برهنت تجربته على أنها تؤثر فى مقدرات الملك ، وأوضح للملك كيف يتصرف تجاه كل عنصر منها ، فتدوم له سلامته ويبقى سلطانه ٠ والناظر فيما تعرض له أبو حمو من هذه العناصر يجد أنها تقع فى خمس مجموعات رئيسية هى :

1 ـ خلق الملك ، وقاعدة النجاح فيها الالتزام بقواعد أخلاقية محدودة ٠

2 ـ رعية الملك ، والعنصر الفعال فيها يقوم على القاعدة البيروقراطية ٠

3 ـ ثم مال الملك ، ومن خلاله شرح أبو حمو القاعدة الاقتصادية للملك ٠

4 ـ ثم الجيش ـ العدو ، وكان أداء أبى حمو لتبيان القاعدة العسكرية للملك ٠

5 ـ ثم فراسه الملك الجارية فى جميع العناصر السابقة والمكونة القاعدة السيكولوجية للملك ٠

أما القاعدة المنسية فى كل هذا البناء ، فقد كانت القاعدة الحضارية المبنية على العمران ، وتلك قاعدة لا يكاد يكون لها وجود فى سياسة أبى حمو النظرية ، نظرا لان تأثيرها المباشر على سلامة الملك ودوام سلطانه تأثير ضعيف جدا ، وهذا أمر ان دل على شىء يدل على أثر الواقع السياسى لابى حمو ـ مرة أخرى ـ فى تفكيره النظرى السياسى كما يؤكد ما ذهبنا اليه من تحديد للقاعدة الاساسية لنظرية أبى حمو السياسية ٠

* * *

1 ـ خلق الملك : القاعدة الرباعيـة

يعتبر خلق الملك من القواعد الاساسية لنجاح الملك فى نظر أبى حمو ، وقد ورد فى كتابه العديد من الصفات التى يتطلب من الملك أن يتحلى بها ، منها ما هو دينى الصبغة مثل الديانة والتقوى وطاعة الله وذكره وحسن التسليم له وفعل الخير والعفة وعدم الاغترار بالدنيا أو الاستسلام للذاتها وشهواتها ، تلك الشهوات المفسدة للدين والعقل

(ص : 4 و 75 و 20 و 21 و 29) ـ ومنها ما هو أكثر عمومية مثل الصـدق والوفـاء بالوعد (ص : 19) ، ويتطلب أبو حمو من الملك أن يكون حييا ، وقورا ، مهيبا ، لا يكثر من الدخول الى الحمام ، ولا يسرف فى الضحك بل يكتفى بالابتسام ، ولا يكثـر مـن الكلام وانما يؤثر عليه الصمت ، ولا يستخفه اللعب فى الميدان فيتزيد فيه ويخـرج بذلك عن الاتزان المطلوب منه (ص : 4 و 7 و 19 و 20) · وهو يحذره من أن يتصـف بالعجب وخبث السريرة والشكر لنفسه والمخالفة لنصحه ، اذ هذه صفات تؤديه مؤدى الهلاك (ص : 4 و 5 و 20 و 122) · ونظرا لان الملك يتولى منصبا سياسيا فان هنـاك صفات كبرى تتعلق بوظيفته لابد من توفرها فيه حتى ينجح فى المحافظة على ملكـه ، صفات على رأسها العقل والعدل الشجاعة والحلم والكرم والعفو ، بما ينضاف اليها من الحزم وحسن التدبر للامور والفكرة والروية والعشـورة واليقظـة وعـدم الغفلـة (ص : 4 و 5 و 7 و 21 و 23 و 129 و 139) ·

وقد كان أبو حمو يتحدث عن هذه الصفات حديث العارف بقيمتها ، الا أن تجربته فى الواقع لم تكن وحدها هى التى جعلته يتحدث عنها ، وانما كان لثقافته فى الاخلاق يد فى التوقف عندها · وهذا أمر يجد الدارس دليلـه فى أمريـن الاول : فى تمييـز أبى حمو الضمنى بين فضائل ثانوية يستحسن أن يكون الملك متصفا بها وفضائـل كبرى من الضرورى أن يكون الملك متخلقا بها ، والثانى : فى كيفية معالجة أبى حمـو لهذه الفضائل الكبرى فى كتابه · أما التمييز بـين الثانوى والضرورى فهو واضـح فى عدم تخصيصه الحديث فى فصول مستقلة سوى لفضائل العقل والعدل والشجاعـة والكرم والحلم والعفو ، وأما كيفية معالجة لهذه الفضائل الكبرى فهو باقامتها على القاعدة الفلسفية الرباعية فى الاخلاق ، تلك القاعدة تنص على ارجاع أصول الاشياء الى ثلاثـة عناصر يجمعها كلها عنصر واحد ، فتكون النتيجة وجود أربعة عناصر أساسية لهـا · وهذه الفكرة مستمدة من نظرية أفلاطون فى الفضيلة · اذ يرى أفلاطـون أن هنـاك ثلاث فضائل كبرى تقابل القوى الثلاث للنفس الانسانية : هنالك الحكمـة والشجاعة والعفة ، وهذه كلها اذا اجتمعت معا حققت الفضيلة الرابعة وهى العدالة ، وقد استغل المفكرون المسلمون هذه النظرية فى ميادين مختلفة ، فأخذها قدامة بن جعفر (ـ 326)

وطبقها على النقد الادبى معتبرا أن الشعر يدور حول هذه الفضائل الكبرى ومتفرعاتها ان كان مدحا وحول نقيضاتها ان كان هجاء، وانه لذلك لا يتعدى القاعدة الاخلاقية (151) وجعل مسكوية (ــ 529) هذه الفكرة محورا لفلسفته الاخلاقية مازجا بينها وبين نظرية ارسطوطاليس فى اعتبار الفضيلة وسطا بين طرفين (152) · وترددت هذه الفكرة عند كثير من مفكرى المسلمين حتى كادت تصبح عامة ·

وقد تناول أبو حمو هذه القاعدة وطبقها على علم السياسة فى نطاق الاخلاق (وكذلك كان غرض واضع هذه النظرية وهو أفلاطون ، أعنى تطبيقها قبل كل شىء على الصعيد السياسى) ، ولعله أول من استوحى ما جاء فى الوصية المنسوبة الى ارسطوطاليس يوصى بها الاسكندر ، كما سوف نرى وقد سيطرت هذه القاعدة الرباعية على أبى حمو بشكل ظهر واضحا فى كتابه كله ، وليس وحسب فى حديثه عن الفضائل الكبرى ، فبنى كتابه نفسه على أربعة أبواب ، وقسم كل باب ــ باستثناء الباب الاخير ــ الى أربعة فصول ، وعندما جاء ليتحدث عن كل فضيلة من الفضائل الكبرى جعلها تقع فى أربعة احتمالات ، وهذا بالذات هو الذى يهمنا فى هذا المقام ·

وأولى الفضائل التى تحدث عنها أبو حمو فى فصل خاص وتطلب وجودها ضرورة فى الملك كانت فضيلة العقل ، وقد مدح فى مطلع الفصل العقل ، واستشهد على فضله بحديث قدسى وأحاديث نبوية وأقوال للصحابة والتابعين (ص : 23) ثم قرر انه بالعقل يكتسب الفضائل وتجتنب الرذائل « (ص : 23) وانه بالعقل » يجمع بين الدنيا والآخرة (ص : 23) · ومن ثم كان العقل ــ سواء كان غريزيا أم مكتسبا (ص : 22) ــ من الضرورات اللازمة للملك ، تجعل خاتم الملك فى يده دون غيره (ص : 23) ·

وبعد ذلك قسم أبو حمو الملوك بحسب العقل الى أربعة اقسام : ملك له عقل يصلح به دنياه واخراه ، وملك له عقل يصلح به دنياه دون آخرته ، وملك له عقل يصلح به أخراه دون دنياه وملك له عقل لا يصلح به دنياه ولا آخرته (ص : 23)

151) انظر الشعر : 29 ــ 31 ·

152) انظر : تهذيب الاخلاق : 16 ·

وعلامته أن يكون الملك فيما بينه وبين نفسه حسن السريرة وأن يكون مع رعيته حسن السيرة ، مؤثرا عقله على هواه ، محبا لرعيته ما يحبه لنفسه ، وهذا العقل اذا توفر في الملك · يبقى ذكره بعد أن يموت ، ومثاله بين خلفاء المسلمين عمر بن عبد العزيز (ص : 23 ـ 24) · اما الملك الثانى فان عقله غير تام ، تصلح به دنياه دون آخرته ، وهذا يرشد الملك الى حسن السياسة مع الرعية فتحبه الرعية وتأنس به ، وتعمل على بقاء مملكته ، ومثاله ملوك الفرس من العجم وأبو جعفر المنصور من المسلمين (153)، فانهم أقاموا سياسات عظيمة ، لكنهم اضاعوا فى نهاية الامر اخراهم (ص : 26 ـ 29) اما الملك الثالث فانه ذو عقل ناقص يجعل الملك ينصرف الى العبادة والزهادة فيهمل أمر رعيته ودولته ، فتسود الفوضى فى دياره ، ولا يلبث أن يملك عليه عدوه بلاده فيكون قد تعجل هلاكه بيده ، أما الملك الرابع فانه يسيىء الى الدين والرعية وينصرف الى الملذات ، فلا يلبث الناس أن يزيلوه عن ملكه قهرا ، ومثاله بين خلفاء المسلمين الوليد بن يزيد والامين بن الرشيد (ص : 29 ـ 31) · وقد نصح أبو حمو الملك أن يكون فى عقله مثل الملك الاول ، حتى ينال الآخرة الى جانب الدنيا ·

ويشكل « العدل » الفضيلة الكبرى فى فضائل الدنيا لدى أبى حمو ، ولذلك يورد عددا كبيرا من الاحاديث والحكم فى شأنه مؤداها جميعا ان العدل هو الضمان الاكبر لدوام المملكة ، بل انه يبدأ كتابه كله بقوله : « اعلم يا بنى ان العدل سراج الدولة فلا تطف سراج العدل بريح الظلم ، فان ريح الظلم اذا عصفت قصفت ، وريح العدل اذا هبت ربت ، ومن شروط الامارة العدل فى الاحكام » (ص : 4) ، فالعدل « أسس الدولة ··· ورأس السياسة ومدار الرئاسة » (ص : 119) · ثم يعود فيجعل العدل ضمانا لحياة الملك نفسها : « يا بنى من تدرع بدرع العدل وقى شر العدى ومن تلبس الجور سقى كأس الردى » (ص : 5) ، فالعدل خير من ماء الحياة ، وهو كنز الامير الذى لا يفنى (ص : 5) ، والاساس الذى يقول عليه الملك كله ، وقد قالت الحكماء « الملك بناء والعدل أساس ، فاذا قوى الاساس دام البناء ، وان ضعف الاساس انهار البناء ،

153) اعتبار أبى حمو أبا جعفر المنصور ممن نالوا الدنيا دون الاخرة أمر يستدعى التوقف ويحير القارىء اذ لا يكاد يجد له سببا مفهوما ·

فلا سلطان الا بجيش ولا جيش الا بمال ، ولا مال الا بجبايا ، ولا جبايا الا بعمـــارة ، ولا عمارة الا بالعدل » (ص 118) ٠

وعندما حكم أبو حمو القاعدة الرباعية فى العدل قال ان الملك يكون بالنسبة الى العدل مراعيا اما لنفسه وخاصته ورعيته ، أو مراعيا لخاصته وأقاربه دون رعيته ، أو مراعيا لرعيته بخاصة ، أو تاركا للعدل فى جميع الاحـــوال (ص : 119 ـ 121) ٠ وأفضل الملوك من أقام العدل فى نفسه وخاصته ورعيته ، ومثاله بين خلفاء المسلمين عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز ، وبهما يجب ان يقتـــدى الملـــك دائمـــا (ص : 119 ـ 120) ، اذ من العدل أيضا أن يقام العدل على جميع الناس دون استثناء ٠

ويختلف العدل عن العقل فى انه لا يعالج هو وحده على أساس القاعدة الرباعية وحسب ، بل تعالج فضائل أربع أخرى هى : الشجاعة والكرم والحلم والعفو عـــلى أساس صلتها بالعدل بطريقة أو بأخرى ، بعد ان تكون كل واحدة منها قد عولجـــت ببناء على القاعدة الرباعية ذاتها ٠ وانما كان ذلك كذلك الآن للعدل صلة أساسيـــة بالتوسط أو الاعتدال ، فضلا عن المساواة فى المعاملة ، وكلا المعنيين ظهر فى معالجـــة أبى حمو للفضائل الاربع المذكورة ٠

أما الشجاعة فان أبا حمو مدحها بشدة فى مقدمة الفصل الذى خصصه لها قائـلا : « انهـا وصـف محمـود وبهـا يتفاخـر الوجـود » (ص : 129) وجعلهـا مقترنـــة بالكـــرم ، متجافيـــة عـــن البخـــل : « واعلـم بأن الشجاعة والكرم اخوان ، كما ان الجبن والبخل اخوان ، ودليلهما ان الشجـــاع يجـــود بنفسه بنفسه فاحـــرى أن يجود بماله ، والبخيل يبخل بماله فكيف يجود بنفسه » (ص : 129) ٠ وقد جعل الشجاعة بحسب القاعدة الرباعية اما شجاعة يصحبها رأى وعقل (ص : 129 ـ 130) واما شجاعة لا يصحبها عقل ويصحبها رأى (ص : 134) واما شجاعة غـير مفرطـــة (ص : 135) واما شجاعة لا يصحبها رأى ولا عقل « فهى فى الحقيقـــة هـــور » ، (ص : 135) ٠ وهذا التقسيم الرباعي غير متوازى الفقرات تماما ، وأبو حمو يـــرى أن الاقسام الثلاثة الاولى منه مفيدة للملك ، من دون القسم الاخير ، وهـذا يعنى نفى التطرف والدعوة الى التوسط أو العـــدل ٠

وأوضح من فضيلة الشجاعة اقترانا بالعدل فضائل الكرم والحلم والعفو ، اذ ان أبا حمو ـ خلافا للمعتاد لدى كتاب السياسة من المسلمين ـ لا يرى أنها من الصفات الواجب توفرها ـ هكذا على الاطلاق ـ فى الملك وانما يرى اقامة العدل فى استعمالها شرط أساسى لكونها مستحبة أو مستهجنة لدى الملك ٠ وهو يقسم كل واحدة من هذه الفضائل الى أربعة اقسام ، فيرفض ثلاثة منها ، ويستبقى واحدة ، مقررا أنها تمثل « المعادلة » التى يجب على الملك ان يحرص عليها عندما يتمتع بتلك الصفة ٠

أما بالنسبة الى الكرم فان الملوك تنقسم بالنسبة له الى أربعة اقسام هى نفسها الاقسام الاربعة ـ حرفيا تقريبا ـ التى وردت فى « الوصية الى الاسكندر » اذ كانت الوصية « الملوك الاربعة : ملك سخى على نفسه سخى على رعيته ، وملك سخى على نفسه لئيم على رعيته ، وملك لئيم على نفسه لئيم على رعيته ، وملك لئيم على نفسه سخى على رعيته » (154) فان هذا يوازى تماما ما قاله أبو حمو ان الملوك اما ملك كريم على نفسه ورعيته ، أو ملك كريم على رعيته دون نفسه وخاصته وأهل بيته ، أو ملك كريم على نفسه وأهله دون رعيته ، أو ملك لا يتكرم لا على نفسه أو على خاصته ولا رعيته (ص : 136 ـ 137) ٠ وبذلك يكون الكرم احيانا فى موضع الذم وأحيانا فى موضع المدح ، ويكون أبو حمو متبعا لنظريته اليونانية فى الاخلاق معدلا فى الاتجاه العام لدى كتاب السياسة المسلمين فى تطلب الفضائل الكبيرة مطلقة دون قيد فى الملوك أو من نزل منازلهم ٠ فصيح ان الكرم بالنسبة لابى حمو محمود والبخل مذموم (ص : 136) الا ان الملك الذى يكون كريما على رعيته دون نفسه وأهل بيته أيضا مذموم، كذلك الملك الذى يكرم على نفسه وأهل بيته دون رعيته (ص : 137)،ولا يحسن كرم الملك الا اذا كان الملك عادلا فى توزيعه بين نفسه وأهل بيته ورعيته ، متوسطا غير مسرف ولا مفرط فى الانفاق فى دربه (ص : 136) ٠ اذ ذاك يكون الكرم وسيلة الملك الى قلوب الناس ، فتحبه النفوس وتميل اليه القلوب وتخضع الرؤوس ، قال أبو حمو « فى الحديث : جبلت القلوب على حب من أحسن اليها ، وبغض من أساء اليها ، والاحسان

154) كتاب السياسة فى تدبير الياسة المعروف بسر الاسرار ٠٠٠٠٠٠ 73/فى كتاب الاصول اليونانية للنظريات السياسية فى الاسلام) ٠

أملك شيء للانسان » (ص : 136) • والملك اذا كان كريما ، عادلا فى كرمه ، يهرع الناس من جميع الافاق ، ويكثر أنصاره ، وتتوافر جنده ، ويعظم مجده ، ويقل معانده • ويقهر حاسده ، وتتسع أوطانه (ص : 136) •

وموقف أبى حمو من الحلم يشبه موقفه من الكرم ، فهو يعترف بأنه من الصفات الحميدة (ص : 137) الا أنه يرى أنه لا يكون صحيحا الا اذا طبقه الملك على رعيته وخاصة ، « لان من العدل المساواة فى الاحكام بين الخاص والعام » (ص : 138) ، أما اذا اضطرب الحكم لدى الملك فانه يكون « من طبع المجانين » (ص : 139)، وكذلك اذا اختل حلمه بين حلم على الخاصة وحدها حينا، وحلم على العامة حينا آخر (ص : 138 ـ 139) •

والعفو أيضا فى نظر أبى حمو من الصفات المحمودة المطلوب توفرها لدى الملك فى معاملته للرعية (ص :139) ، الا أنه اذا كان موجها الى من لا يستحق العفو فهو مذموم (ص : 141) وكذلك اذا كان موجها الى من يستحق العفو ومن لا يستحق العفو (ص : 140) ، واذا ظهر بشكل تخفيف عام للاحكام على الناس فيكون الملك لا تاركا للعقوبة ولا مفرطا فيها (ص : 140) وانما يجب على الملك أن يعفو عمن يستحق العفو ويعاقب من يستحق العقوبة (ص : 139) ، فيكون بذلك محققا للعدل فى العفو قبل كل شيء •

هكذا كان موقف أبى حمو من الملك فى ناحية الخلق وما يلحق به ، نصح بالتحلى بالفضائل الدينية والدنيوية ، وتحضيض على الالتزام بفضيلتى الدين والدنيا ، العقل والعدل ، وما يلحق بهما من فضائل هى الشجاعة والكرم والحلم والعفو • فاذا اتبع الملك هذه الفضائل والصفات نجح سعيه ودام ملكه •

غير أن هناك صفة أخرى يمكن أن تلحق بخلق الملك ويتطلبها أبو حمو فيه لمكانه من الملك ، تلك هى صفة السياسة • وانما نعلم أهميتها فى نظرية أبى حمو لانه افردها بفصل خاص مثل سائر الفضائل الخاصة بالدنيا من دون الآخرة ويقصد منها تلين قاعدة العدل بحيث تتميز بالمرونة الى جانب اصابة الحق • والمرء يجد آثار تقرير الالتزام بها فى حديث أبى حمو عن العفو نفسه •

فالعفو السليم فى نظر أبى حمو لا ينحصر فى فضيلة العدل ، بحيث يعاقب مستحق العقوبة ويعفو عن غير مستحقها ، ولكن يجريه الملك « على حساب الاوقات والاشخاص والطبقات » (ص : 139) ، ويكون ذلك بأن ينظر فى الظروف المحيطة بالقضية المطروحة أمامه وفى الشخص المتعلقة به هذه القضية ، فيدرسها جميعا جدا ، ثم يقرر ما اذا كان يريد أن يعفو أو يعاقب ، بحسب المصلحة الدنيوية المتوخاة لا حسب الامور الاخروية ، فرب شخص يستحق العقوبة فيعفى عنه وآخر لا يترك ويستقص منه » (ص : 139) ، ويستدل على صحة هذا بقوله « فانا قد رأينا أصحاب الجرائم العظام ، التى لا يحب فيها الا الحمام يجلبهم العفو الى الاذعان · ويقودهم ما تعودوه من الامان ، فلو بذلت لهم الاموال ، وأعددت لهم الحماة والابطال لما قدرت عليهم ولا توصلت اليهم » (ص : 140) · من هنا ، فان أبا حمو ، بعد أن يقرر أن هناك ثلاث جرائم لا يسع الملك أن يعفو عنها وهى هتك الحرم وافشاء السر المكتم والقدح فى الملك ، ويقول ان جزاءها القتل بلا خوف (ص : 129) لا يلبث أن يستدرك فيقول : « يا بنى لا تبق على مثل هذا الا أن يكون فى الابقاء عليه مصلحة عامة » (ص : 139) ·

ويبدو أن ماهية «المصلحة العامة» فى نظر أبى حمو أمر يقرره الملك ، ونظرا ان هذه المصلحة تختلف من رجل الى رجل ومن ظرف الى ظرف ومن فئة من الرعية الى فئة غيرها منها ، فان على الملك أن يقرر فى كل حال على حدة ما هو التصرف المناسب الذى يجب أن يتصرف على هديه ، فيكون « كالطبيب الماهر الذى يعرف الاعراض فيعطى الادوية على حسب الامراض » (ص : 86) · وذلك بحق هو أساس صفة السياسة التى يجب على الملك أن يعامل الرعية على أساسها فان تعريفها هو الجرى مع الناس (155) « وفق زمانهم وأغراضهم وأوقاتهم وطبائعهم وطبقاتهم » (ص : 86) ، قال « ومن حسنت سياسته عظمت رياسته » (ص : 31) ·

155) اذا رجع الدارس الى تجربة أبى حمو السياسية ، محاولا ان يحدد من خلالها الدور الذى قامت به الرعية فى التأثير على مقدرات أبى حمو ، فانه يجد هذا الدور معدوما أو شبه معدوم ، لا يظهر له أثر الا فى الازمات الكبرى ، كما حدث فى المجاعة الكبرى ·

2 ـ رعية الملك : القاعدة البيروقراطية سنة 776 (156) • كذلك اذا رجع الى تاريخ بى حمو وحاول أن يستكشف صلة أبى حمو برعيته ـ بالمعنى العام ـ فانه واجد الا صلة هناك بينه وبينهم الا فى مجالس المظالم (157) ، وهذه ـ على كثرة وقوعها بحسب قول أبى زكريا ابن خلدون ـ لا تعدو أن تمثل ظاهرة واحدة وحسب • فئة واحدة من الرعية كانت واضحة المعالم فى تاريخ أبى حمو ، وتلك هى الفئة التى كانت شديدة التأثير على مقادير الامور فى دولته ، أعنى بها فئة أصحاب الدولة • من الوزراء والكتاب وأصحاب الاشغال والعمال والسفراء والقواد (158) فان تعامل أبى حمو معهم كان دائما ، وظهورهم فى تاريخه مستمرا •

هذا الوضع فى واقع التجربة السياسية لابى حمو انعكس على معالجة أبى حمو لموضوع الرعية فى نظريته ، اذ استأثرت « بيروقراطية الدولة » بالحديث ، فلم ينل سائر الناس منه سوى النزر اليسير ، اذ لم يتوقف الا قليلا عند العامة والدهماء من بين أفرادها لا لشىء الا ليصرح الا بسوء ظنه فى عقولهم وأغراضهم وطبائعهم الاصلية « المجبولة على الفساد وعلى اتباع الاهواء وقلة السداد » (ص : 87) ، ويذكر أن الغالب عليهم « الشرار والهرج والاضرار » (ص : 87) • وهذا التمييز فى الاهتمام يشير الى أن أبا حمو لا يعينه من الرعية ـ فى النظرية كما فى الواقع ـ غير الاشخاص الذين يؤثرون فى تسيير مقدرات الملك ، والذين للملك علاقة مباشرة بهم ، وواجبات معينة عليه مراعاتها لدى تعامله معهم ، وهذا أمر يزداد يقينا عندما نرى أن هناك تمييزا فى العناية بين أفراد الفئة الواحدة بحسب وثوق علاقتهم بالملك وكثافة تعاملهم معه ، اذ يستغرق الحديث عن الوزير أضعاف ما يستغرقه الحديث عن ا لقضاة ، والحديث عن الجلساء أضعاف الحديث عن العمال • كذلك يلاحظ أن أبا حمو لا يعنى بالحديث عن كل فئة من فئات الرعية الا من زاوية وجودها وصلة الملك بها ، وليس من زاوية صلتها هى بالملك ، ولذلك خلا كتابه من أى ارشادات لفئات الرعية عن كيفية

156) انظر ما سبق ، ص : 19 •

157) انظر ما سبق ، ص 22 •

158) انظر ما سبق ، ص : 20 •

التصرف مع الملك (كما هو الحال فى بعض كتب السياسة لدى المسلمين) ، بل كـــان الامر دائما يدور حول الملك ، اذا وجدت لديه رعية : كيف يتصرف هو معها • وفى هذه الملاحظات كلها دليل أكيد على أن الرعية فى مفهوم أبى حمو النظرى ـ مثلها فى واقعه العملى ـ هى فلك يدور حول الملك ، وأن الاهتمام بها متأت من صلتها بالملك حتى لكأن وجودها نفسه متوقف على وجود الملك •

ولقد صرف أبو حمو القسط الاكبر من عنايته الى تحديد الرجال الذين يكونـــون بيروقراطية الدولة ، محددا معالم كل واحد منهم تحديدا واضحا ، وشارحا الدور الذى يلعبه فى الدولة ، ومن ثم مبينا الصفات المطلوب توفرها فيه لملء الوظيفة المنوطة بـــه ، وقد عددت من أعضاء هذه الفئة احدى عشرة جماعة هى : الوزراء والجلساء وكاتب السر وكاتب الاشغال وفقيه الدولة وقاضيها وعمالها وصاحب شرطتها وصاحب الحسبة بها ، ثم أعوان الملك • ورغم أن أبا حمو عد فى درج الحديث أيضا « القواد » فقد رأيت أن أضم الحديث عنهم الى الجيش ، حيث يرد ذكرهم لدى أبى حمو مرة ثانية • وهذه الفئات مـن البيروقراطية فى نظرية أبى حمو كانت ولا شك انعكاسا لفئات البيروقراطية فى واقعه عندما كان فى الحكم ، ولعل من المفيد هنا أن نذكر بما مر من أن أبا زكريا بن خلدون ابتدأ حديثه عن دولة أبى حمو بتحديد هويـة وزيره وكاتبـــه وصاحـب أشغالـــه وقاضيه (159) •

لنذهب الآن الى كتاب « الواسطة » ولنر ما هى الصفات التى يراها أبو حمو متطلبة فيمن يحتل كل منصب من تلك المناصب ، حتى تسلم الدولة ومعها يسلم الملك ويستمر سلطانه ، فان المسؤول عن اختيار رجال الدولة هو الملك وحده دون غـيره •

(1) أما **الوزير** فانه يحتل أعلى مراتب الدولة فى تصور أبى حمو ، وهو يمثل أكثر الناس تأثيرا فى قدر الملك ، ولذلك يشغل الحديث عنه أكبر قدر من المكان بين سائـــر موظفى الدولة (ص : 32 ـ 60) • ويرى أبو حمو أن على الملك أن يختار « وزيرا كبيرا خطيرا ، بالامور بصيرا » (ص : 32) ، يكون محتويا على ثمانية خصال (رباعية مزدوجة)

159) أنظر ما سبق ، ص : 21 ، والحاشية رقم 2 •

هي : أن يكون من خيار قومه وعشيرته ، فيتنزه على المعايب ، ويكون وافر العقل، ليحفظ سر الملك والدولة ، ويكون حاضر الذهن سريع الفهم ، فيفهم على الملك من أقل اشارة ، ويكون راجح الرأى حتى يصلح رأى الملك اذا احتاج الى اصلاح ، ويكون ناصحا ودودا صالحا ، فلا يغش الملك فى نصيحته اياه ، ويكون شجاعا فى المهمات لانه ينوب عن الملك فى المواجهات الكبيرة ، ويكون بليغ البيان والعبارة لانه جمال ملك الملك ، ثم يكون كثير المال غير ذى حاجة حتى يستغنى بثروته عن الطمع والرشوة (ص : 32 ـ 33) • ومن المهم أن يكون الوزير أحسن من الملك فطنة وسياسة لان الملك يسوس من تحته فقط بينما يسوس الوزير من فوقه ومن تحته أيضا (ص : 33 ـ 34) • وويلاحظ هنا ، فى هذه العبارة الاخيرة ، أن أبا حمو ناقض فى التطبيق العملى الموقف النظرى ، فانه اذا اجتمعت الشروط التى تطلبها فى الملك لم يعد الوزير خيرا منه •

والوزير أقرب الناس الى الملك ، ومعه يصرف قدرا كبيرا من وقته ليتعرف الى أحوال دولته ويصدر أوامره ـ عبر الوزير ـ بشأنها ، كما يخصه بجزء غير قليل من خلوته ، ويكون مسؤولا عن ترتيب الحراس فى قصره (ص : 81 ـ 84) • هذا وينبه أبو حمو الملك الى وجوب تعهد الوزير ، وعدم قتله اذا اقترف جريمة تستحق القتل ، الا لسبب ظاهر الوجود (ص : 140) وهذا أمر طبقه أبو حمو فى الواقع ، اذ اختار نفى وزيره الذى خان شارات وزارته على قتله • كما سبقت الاشارة اليه •

2) ويشترط فى **جلساء الملك** فى نظر أبى حمو أن يكونوا ذوى أفهام جيدة ، فصحاء اللسان ، ينصحون الملك نصيحة خالصة فى السر والاعلان ، ولا يخالطون الناس بكثرة ، ويعظمون الملك اذا أظهر لهم التبسط والتأنس (ص : 60) • وهم أفضل من يمكن أن يختار الملك منهم وزيره اذا حدث لوزيره مكروه (ص : 60) •

3) ويحتل **كاتب السر** منصبا من أهم مناصب الدولة ، ومرتبته تاتى ثانية بعد الوزير لذلك وجب أن يكون صحيح المذهب ، قائلا بالحق قليل الاخوة والاصحاب ، من ذوى البيوت والاحساب (ص : 146) وهو الرجل ا لذى تصله الكتب من أنحاء المملكة كلها، فيقرأها أولا ثم يعرضها على الملك متخيرا منها ما تجدر قراءته أمام الوزير وما تجدر قراءته على الملك فى الخلوة ثم يتلقى رد الملك عليها بعد أن يتفاوض معه بشأنها ، ويعود

فيكتبها بقلمه ويرسلها الى صاحبها أينما كان فى المملكة (ص : 81 ــ 82) من هنا كان على الملك أن يختار كاتب سره من وجوه أهل البلد « فصيح اللسان جرىء الجنان ، بليغ البيان ، عارفا بالآداب ، بارع الخط ، عالما بالحل والربط ، كاتما للاسرار ، وقورا ، ذا عقل وافر حاضر ··· جميل الهيئة واللباس » (ص : 60 ــ 61) · وكل ذلك ، «لان الكاتب عنوان المملكة ··· ومن كتابك يستدل على عقلك » (ص : 61) · فانما يجب أن يحرص الملك على اختيار كاتبه حرصا على صورته هو قبل أى شىء آخر متعلق بالكاتب نفسه أو بالدولة ذاتها ·

4) أما **كاتب الاشغال** فيضبط أعمال الملك ، ولذلك يجب أن يكون مقتدرا فى الحسابات ، موثوقا مؤتمنا فى خلقه ، يجمع فى نفسه بين المعرفة بأنواع الخراج والجبايات والايراد والاصدار ، وبين العدل والحزم فى الحصول عليها من الناس · ويستحسن أن يكون رجلا موسرا فيستغنى عن استعمال الطرق الملتوية للحصول على بعض المال الذى يمر تحت يديه ، كما يرجى أن يكون محبا فى سلطانه ، فيتلقى أوامره يوميا بشأن الجبايات بصدر رحب وقبول تام (ص : 61 و 82 ــ 83) ·

5) ويجب على الملك أن يختار لدولته **فقيها** عالما معروفا بالصلاح من ناحية وبالمعرفة بقضايا الحلال والحرام من ناحية أخرى، حتى اذا أشكل على الملك شىء، كان أحسن الناس لتبيان الحكم السليم فيها ، كما أن من مهمته أن يعظ الملك ويذكره بأمور الآخرة · (ص : 61) · ففائدته تكون عظيمة بقدر ما يستطيع هو أن يخدم ملكه ويساعده على سلوك الصراط المستقيم ·

6) ولا يختلف وضع **قاضى البلد** كثيرا عن وضع فقيهها ، وانما يختار الملك القاضى من بين الفقهاء ، ويحتاك فى اختياره بأن يكون أفضل الفقهاء فى متانة الدين والرغبة فى مصالح المسلمين · ويشترط فيه أن يكون عادلا ، شجاعا فى قول الحق ، لا يرتشى ، ويساوى بين الشريف والدنىء ، والقوى والضعيف فى أحكامه (ص : 61 ــ 62) ·

7) ويجب على الملك أن يختار لوظيفته **العامل** رجلا عارفا بجباية الخراج ، يجمع الكفاية والدربة والضبط والامانة والديانة ، وذلك حتى لا يضيع عى الملك أى حق من

حقوقه المخزنية،ولا تصاب الرعية أيضا بالظلم (ص : 72) والعامل هذا ـ فيما يبدو ـ هو نفسه من يسمى « الحاكم » فى لغة أبى حمو (ص : 152) ٠

8) وتعتبر خطة **صاحب الشرطة** خطة كبيرة لدى الملوك ، فعلى الملك أن يختار لها رجلا صاحب ديانة وهمة ومكانة وسياسة ورياسة ورأى وفراسة ويكون واجبه أن يطلع الملك يوميا على كل ما يحدث فى حاضرة ملكه ، فيعرف الناس ـ بذلك ـ أن الملك مطلع على كل صغيرة وكبيرة من أحوالهم ، فيخافونه أكثر فأكثر (ص : 83) ٠

9) وعلى الملك أن يختار **عونا** يقدمه على أعوانه فيتولى معهم الانتقام له ممن يريد من الناس ٠ ولذلك ينبغى ان يكون قائد الاعوان محبا فى ملكه ، مدربا تدريبا جيدا ، صاحب نجدة واستعداد مستمر لتلبية أوامر الملك ، متيقظا دائما ، عارفا بأخلاق الملك فى حال غضبه وارهاقه ، فلا ينفذ أوامره الصادرة تحت ضغط أحد هذين العاملين ، وانما ينتظر قليلا حتى يزول ما به ويرى ما يأمره به (ص : 63) ٠

10) أما **صاحب الحسبة** فوظيفته من جملة مناصب الدولة ، الا أن أبا حمو لا يتعرض لها بأى شرح مفصل (ص : 153) ٠

11) يبقى بعد ذلك **الارسال** (أو السفراء) المتوجهون من قبل الملك الى الملوك أمثاله ٠ وهؤلاء يجب أن يكونوا من وجوه قبيلة الملك وخيار عشيرته ، ممن يليق بالرسالة ، فيكون الواحد منهم قوى القلب ، صادق القول ، محافظا على دينه ، كاتما للاسرار والاخبار ، فصيح اللسان ، حسن العبارة ، مليح الهيئة ، محبا لسلطانه ، راغبا فى مصلحته ، قليل الطمع متنزها عما فى أيدى الناس (ص : 153 ـ 154) ٠

هؤلاء هم رجال البيروقراطية فى الدولة التى حكمها أبو حمو وفى الدولة التى رسم خطوطها فى نظريته ، وهى ترى مدى اهتمامه بهؤلاء الرجال من دون غيرهم من أفراد الرعية ٠ غير أنه يجب أن نعترف بأن أبا حمو أعطى بعض النصائح للملك فيما يتعلق بسائر أفراد الرعية ـ وان جاء ذلك فى صفحة أو بعض صفحة فقط ـ وكل ما قاله للملك تقريبا فى هذا المجال ـ كان صورة لتجربته الواقعية : فقوله ان الملك يجب الا يغفل عن واجبه تجاه الارامل والايتام المحتاجين والضعفاء والمساكين وأهل السجون كل

يوم جمعة ، فينظر فى أحوالهم ويستمع لمظالمهم ويصدر حكمه فيها ، ويرد من قضاياهم ما يتعلق بالشرع (ص : 84 ـ 85) هو صورة من مجلس المظالم الذى كان يعقده يوميا أيام حكمه (160) ، وكذلك حديثه عن الدهماء والعامة ، فقد قرر أبو حمو فى نظريته أن معاملتها خاضعة للتغير بتغير ظروف البلاد ، فاذا كان الزمن زمان رخاء وخير فان على الملك أن يسير بهم أحسن سيرة ، يعدل فيهم ، ويوصى الولاة بالتحفظ عليهم ، ويضبطهم غاية الانضباط من غير تفريط ولا افراط (ص : 87) • اما اذا كان الزمان زمان فتنة وثورة وفساد ، فيجب على الملك أن يظهر عليهم فضله حتى يستفيد بطاعتهم على الاقل ، حتى اذا خرج الامر من يده واضطر أن يدفعهم بجنده ، فعل (ص : 87) • وهذه المعاملة للعامة تختلف فى زمان القحط ، اذ يقدم الملك الرأفة على الشدة فى معاملته لها ، فيرفق بهم فى الجبايات ، ويحسن لضعفائهم المحتاجين ، ويؤثرهم بما ادخره لشدائدهم زمن الرخاء من فوائدهم (ص : 87 ـ 88) وانما يعتبر هنا بما فعله يوسف الصديق ، « فانه اختزن الطعام فى زمن الرخاء وأمر الناس بذلك ، فوجدوا ذلك فى زمن الشدة واللأواء ، وجعل ذلك سببا الى أن ملكه مصر ، فعاد ملكا بعد أن كان مملوكا » (ص : 88) • فان هذه النظرة تذكر الدارس بمجاعة سنة 776 (161) التى عامل فيها الرعية معاملة حسنة ميزتها عن عادته فى معاملتها ، فاستحقت بذلك أن تفرد بالذكر • أما قوله ان على الملك أن يكرم أهل التجارات وأصحاب الحرف والصناعات ويحترمهم لان الضرورة قد تدعوه للانتفاع بهم فى الشدائد ، فيقفون معه الموقف المرضى فى المصادر والموارد (ص : 87)

بقى أن نذكر أن النظرية « الطبقية » تحكمت فى نظرية أبى حمو السياسية كما كانت تحكمت فيه فى الواقع (163) ، اذ نص على وجوب أن يحفظ الملك مراتب الناس

(160) انظر ما سبق ، ص : 22 ـ 23 •
(161) انظر ما سبق ، ص : 19 •
(163) انظر ما سبق ، ص : 19 ـ 20 •

بحسب حظهم من الشرف ، وهذا يظهر فى أشد صورة وضوحا فى ترتيب الدخول على الملك فى مجلسه اليومى ، اذ يدخل عليه على الترتيب : الوزير وكاتب السر ، فصاحب الاشغال ، فصاحب الشرطة ، فخاصة الملك وخلصانه ، ثم أشياخ القبائل المقربون اليه ، فقواد الاجناد (ص : 81 ـ 83) ، وبعد ذلك يأتى سائر الناس ، عندما يخصص لهم وقت للدخول على الملك ، مثل يوم الجمعة (ص : 84 ـ 85) أو غيره ، وحتى هؤلاء يكونون على درجات ، فأولهم الشرفاء ، ثم الفقهاء ، ثم أرباب الحرف والصناعات والتجارات ، ثم العامة والدهماء (ص : 86 ـ 87) ومن أدنى المراتب بينهم الارامل والايتام والضعفاء والمساكين وأهل السجون (ص : 84) • وهذا الترتيب هو صورة أخرى من صورة مجلس أبى حمو فى الواقع ، ويظهر فيه سيطرة « البيروقراطية » بشكل لافت للنظر •

3) مال الملك : القاعدة الاقتصادية

كان أبو حمو من رجال السياسة الذين يعرفون قيمة المال للملك ، ولذلك عنى بجمع ماله من جباياته وتدبر فى أمور انفاقه فأمرى بيت ماله ولم ينكسر تحت وطأة الحاجة الى المال قط (164) • وعندما يقرأ الدارس موقف أبى حمو النظرى من المال من حيث هو قوة اقتصادية فعالة تؤثر على سلامة الملك وحفظ دولته ، فانه يجد فيها الكثير من التفصيلات التى لم نعرفها فى سيرته ، ولكن هذا لا يعنى أن أبا حمو لم يكن يتحدث فى شؤون المال عن حذق المجرب ، فان كل ما قاله عنه يتفق فى منحاه العام مع منهج أبى حمو العام ، كما عرفناه فى تجربته ، بل مجرد حديثه عن امكانات « القحط » فى الدولة كما سوف نراه ، يعتبر صدى لتجربته فى مجاعة سنة 776 (165) ، كما أن قرنه للمال بالجيش فى غير مكان من كتابه تأكيد للدور الذى يقوم به المال فى جمع الرجال بغرض الحرب ، وذلك دور للمال كان أبو حمو قد عرف قيمته بتجربته الخاصة مرات عديدة (166) • ويحتل الحديث عن المال مكانا لا بأس به فى كتاب أبى حمو ، ومنه

164) انظر ما سبق ، ص : 18 ـ 19 •

165) انظر ما سبق ، ص : 19 ـ 20 •

166) انظر ما سبق ، ص : 19 والحاشية رقم 6 •

يستنتج أن المال فى نظره من الذخائر الفاخرة (ص : 10) التى يحفظ بها الملك قوته ، اذ هو الوسيلة التى بها يتوصل الملك الى أغراضه مع صديقه ومع عدوه ، زمن السلم وزمن الحرب ، فهو ـ بكلمات أبى حمو ـ العنصر الذى « به تدفع العدى ، ويتقى به من الردى ، به تدفع آلام الاعراض ، ويتوصل الى المقاصد والاغراض ، وبه تستفتح الصياصى ، وتسملك النواحى ، ويفاد العاصى ويستدنى القاصى » (ص : 9) ، قال : « وبالمال تستعبد الرجال ، وتبلغ الآمال ، وتذل به الرقاب ، وتستفتح به الابواب ، وتسهل الامور الصعاب ، وتنال به الرغائب ، وينجى به من كل المصائب » (ص : 9) ٠

غير أن المال بحد ذاته لا يشكل قوة فعالة للملك فى نظر أبى حمو ما لم يقترن بوجوده لدى الملك سياسة حكيمة تحرك وجوه تحصيله الاستفادة منه وانفاقه ٠ وفى هذا المجال ذكر أبو حمو عددا من القواعد التى يجب على الملك أن يحافظ عليها ليصير المال خادما له ولدولته ومصدر قوة حقيقية فاعلة له ٠

وأهم هذه القواعد أن يحاول الملك أن يحصل من المال أكثر مما تسمح به ايالته من البلاد والاقاليم (ص : 121) فيصبح جمع المال شغله الشاغل ، فينصرف بذلك اهتمامه عما يجب أن يتوفر عليه من مصادر قوته الاخرى (ص : 124) ٠ غير ان هذا لا يعنى أن للملك أن يفرط فى تجميع المال من ايالته ، لان هذا أيضا يضعف دولته (ص : 126) ، وانما عليه أن يحصل المال المشروع له عن طريق الرفق بالرعية فى مطالبتها ، لان الرعية « اذا عوملت بالرفق كثر فيها النماء والرزق » (ص : 9) ، ومن ثم كثر لديها المال ، بينما اذا عوملت بالجور هلكت « واذا هلكت الرعايا عدمت الجبايا » (ص : 9) ومن هنا كان على الملك ان يستعين على جمع ماله بالثقات من العمال ، واذا تسامح معهم فى أى شىء فلا يتسامح فى جورهم على الرعية قط (ص : 9) ٠

هذا بالنسبة لتحصيل المال ٠ اما بالنسبة لانفاقه ، فان أبا حمو ينصح الملك بان يراعى مبدأ « الفائدة » فى انفاق ماله ، لان « خير المال ما وقع به الانتفاع وشر المال ما تركته للضياع » (ص : 9) ٠ فلا يعطيه الا فيما يصلح عليه ، ويجلب المنفعة اليه (ص : 122) ٠ غير انه يجب ألا ينفعه الا فى حقه ، ولا يخرجه الا الى مستحقه ، وألا يسرف فى انفاقه على وجه الاجمال ، بل يسلك فى ذلك طريقا متوسطا بين الاسراف

والتقتير ، فلا يبالغ فى استغلاله ـ مثلا ـ لاجل لذات دنياه ، كالخروج عن الحد فى اللباس والزينة والبناء المفرط الخارج القياس ، « فان خير الامور أوسطها وأحسنها أوقتها وأضبطها » (122 وأيضا ص : 9) ، ومن شأن الاسراف فى الانفاق على اللذات والمبانى واللهو أن يودى بالملك الى التهلكة (ص : 127 ـ 129) · كذلك على الملك أن يراعى التوافق بين كمية المال الذى ينفقه وبين الغرض الذى لاجله ينفق ذلك المال ، فلا « يعطى ألفا لمن يستحق مائة ، ولا مائة لمن يستحق ألفا » (ص : 122) ، وانما نبه أبو حمو الملك الى ذلك لان الملك قد تستهويه لذة الشكر فيعطى من المال أكثر مما تستحقه مناسبة العطاء ، وهذا أمر لا يجوز لان الشكر لا يدوم بأكثر مما يدوم المال ، والاسراف فى العطاء يفضي الى الاقلال ، والاقلال يقطع الشكر فى نهاية المطاف (ص : 122) ·

وفيما يحض أبو حمو الملك على الايثار مما أفاء الله عليه من الانعام ، وخاصة بعض فئات الرعية من ذوى الاغراض الدينية مثل حجاج بيت الله الحرام (ص : 10) ، نجده أميل الى أن يوصى الملك بالحرص على ماله وعدم التساهل فى اخراجه (ص : 9 و 122) ، مهما بدا له سهلا جمعه من خراجه · وعليه فى هذا المجال ألا يحتقر ما يجمعه من المال ، بغض النظر عما اذا كان هذا المال كثيرا أو قليلا (ص : 122) ، « ورب بحر تجمع من نقط ، ورب مستبحر نزح » (ص : 122) · ذلك أن المال خير معين للملك اذا نزل ببلاده كوارث مثل القحط أو الفتنة ، فاذا حل القحط بها استعان بماله على الرعية ، وقضى لهم ما عليه من الحقوق المرعية ، فلم يؤثر القحط فى مملكته (ص : 122) أما اذا حدثت فيها فتنة فانه يستعين بالجيش للقضاء على الفتنة (ص : 122) والجيش دون مال لا يقوم ، ومن ثمه لا يمكن القضاء على الفتنة من غير المال ·

والحقيقة أن اقتران الجيش نفسه بالمال كان من أبرز الظواهر فى كتاب أبى حمو ، حتى انه عنهما جاء ليتحدث عن قواعد الملك ، جمع المال والجيش فى قاعدة واحدة (ص : 121 ـ 129) ، وفسر قيامه بذلك بأن كلا منهما « متوقف على صاحبه ومطلوب بمطالبه ، فلا مال الا بجيش ولا جيش الا بمال » (ص : 121) ·

جيش الملك العدو : القاعدة العسكرية :

كان الجيش اهم مؤسسة من مؤسسات الدولة فى أيام أبى حمو ، اذ كانت طبيعة الاحوال فى المغرب تفوض عليه أن يلجأ اليه باستمرار لحل مشكلاته مع اعدائه ، فكان الجيش من العناصر الاساسية التى أثرت فى مقدراته ، ولذلك عندما جاء ليكتب نظريته ى الملك خص الجيش بقسم كبير من كتابه عنها ٠

ولم يبن لنا تاريخ أبى حمو أقسام الجيش لديه ، بينما ورد ذكر لهذه الاقسام فى نظريته ٠ ويمكننا ان نتأكد من ان الاقسام المذكورة فى النظرية فى كتاب «الواسطة» كانت هى نفسها بالفعل أقسام الجيش فى دولة أبى حمو لانه يذكر بينها فئة يسميها « مماليك الملك » ويحددها بـ « الاعلاج والنصارى والاغزاز والوصفان » (ص : 81) ٠ فهذا حتما تصنيف ذو طابع محلى ٠ من هنا يمكننا أن نفيد فائدة تارخية من كتاب الواسطة (نظرى) لانه يعرض فئات الجيش كما كانت زمن أبى حمو ، وهذا أبين دليل على مدى ارتباط نظريته أبى حمو بتجربته السياسية ٠

وقد أسهب أبو حمو فى حديثه عن الجيش اسهابه فى الحديث عن رجال دولة الملك وسمى اقسامه ، وحدد المطلوب من كل فئة فيه ، كما فعل فى البيروقراطية قبله ، فجاء تركيب الجيش على الشكل التالى :

يعتبر أبو حمو **قواد الجيش** من أهم المفاتيح للملك فى الجيش ، ويجب أن يكونوا من أفضل جنده كفاية وحزما وبسالة ومعرفة ودراية وممن لا يصلون الى الرعية بمضرة أو اذى ، ومن أهم صفاتهم أن يكونوا محبين للملك ، صادقين فى محبتهم له ، ويكون طوفانهم على الثغور ومنعهم اياها مدعاة لاطمئنان الملك (ص : 61 ـ 62) ٠

ويجعل أبو حمو القسم الاول من الجيش : **خاصة الملك** ، وهم يتألفون من وجوه القبائل ، الذين يستخلصهم الملك لنفسه معتمدا فى اختيارهم أن يكونوا بخاصة محبين له (ص : 79) ٠

والقسم الثانى : **قبيل الملك** : وعلى الملك أن يرضيهم لمكانهم من القرابة منه ، فيقدم الاشياخ على الجموع ، ويجعل على كل جماعة منهم شيخا من كبارهم وأعيانهم ، على أن يكون كل واحد من هؤلاء الاشياخ من بين أكثر قبيلة محبة له ورغبة فى خدمته ،

واستعدادا لتحريض جماعته على طاعته وأسلمهم ريبة ، وأبعدهم من النميمة والغيبة (ص : 79) .

والقسم الثالث : **حماة الملك وأنصاره** ، وهؤلاء يظلون محيطين بالملك لا يفارقونه ليلا ولا نهارا ، ويكون ترتيبهم على ميمنة وميسرة ومقدمة وساقة ، ويجب على الملك أن يختارهم من أصحاب الثبات فى الشدائد ، ومن أكثر الناس موالاة له واستعدادا لنصرته فى حال الحاجة ، وقد يقع الاستنجاد بهم فى حال انقسام قبيل الملك نفسه على الملك ، فيرجى أن يكونوا على استعداد لضرب المخالف منهم فى أى وقت (ص 79 80) .

والقسم الرابع والاخير : **مماليك الملك** ، ويتألفون من الاعلاج والنصارى والاغزاز والوصفان ودور هؤلاء « احتياطى » لقمع كل عصيان ، ويجب لذلك أن يكونوا شجعانا ذوى بأس ، كما يجب على الملك ألا يدعهم يفارقونه طرفة عين (ص : 81) .

ويلاحظ هنا أن أبا حمو لم يتعرض فى أقسام الجيش الى « الاولياء » ، أى العرب الذين كان يتألفهم أبو حمو ـ وغيره من ملوك عصره ـ فيحاربون الى جانبه ، وذلك أمر مفهوم بالطبع ، لان هؤلاء لم يكونوا قسما نظاميا من الجيش . غير أنه من اللافت للنظر أن أبا حمو لا يتعرض لذكر العرب ـ الاولياء ـ قط فى كتابه ، رغم أنهم كانوا يمثلون قوة لا يستهان بها فى موازين القوى فى المغرب فى القرن الثامن ، ولا أجد تفسيرا لهذه الظاهرة لدى أبى حمو سوى التحرج من ذكر وسائل استئلافهم ـ من مال وغيره ـ وكثرة تنقيلهم لولائهم بين الملوك ، فان أبا حمو ـ كان ما يزال بحاجة لهم حين كتب كتابه ، ولا يريد أن « يكشف » وضعهم .

ولا يخبرنا تاريخ أبى حمو الواقعى بالشىء الكثير عن عناية الملك بالجيش وان كان يحدثنا باستعراض أبى حمو له سنة 767 (167) ، وهذا يذكر الدارس بقوله أبى حمو فى نظريته ان الجيش « ابهة الخلافة » (ص : 12) . غير أن هذا لا يعنى أن أبا حمو عندما أخذ يبين نظريته فى كيفية معاملة الملك للناس فى كتابه كان يتكلم خارج تجربته فلا شك أنه استوحى هذه التجربة عندما تكلم عن معاملة الجيش ، كما كان استوحاها عندما تكلم عن معاملة الرعية ، وهذا أمر قد نجد برهانه فى تقريره وجوب دفع رواتب

مماليك الملك مشاهرة ـ كما سيأتى ـ فان ذلك تفصيل دقيق لابد أن أبا حمو كان يسير عليه ولذلك قرره على الملك ·

وينصح أبو حمو الملك بأن يجعل عدد الرجال فى جيشه متوافقا مع ما تسمح به ايالته ودخله وعدد سكانه (ص : 121) وأن يقيم نوعا من التوازن فى الاهتمام بين الجيش والمال فلا يفرط فى الجيش مقابل الاشتغال بجمع المال (ص : 124) ، ولا يجمع المال مقابل التفريط فى الجيش (ص : 126) · أما اذا فرط الملك فى الجيش والمال معا فان ذلك يقوده الى التهلكة (ص : 127) ·

ويلح أبو حمو على وجوب تعهد الملك الجيش زمن الرخاء ، وأن يصطنع رجاله بالاحسان ، ولا يغلظ عليهم فيضمروا له البغض والشنان ، بل يسايسهم حتى يستألف قلوبهم ويردف ذلك بتأمين عطائهم والعدل فى أرزاقهم « على قدر بيتاتهم وشجاعتهم وسابقتهم للخدمة واصطناعاتهم ومحبتهم وانقيادهم وألفتهم واجتهادهم » (ص : 12 و 123) فيزدادون ولاء له · كذلك على الملك أن يحقر صغيرهم ، ولا يغضب كبيرهم ، بل ينوه بقوادهم وفضل أنجادهم ، ولا يضيع لاحد فعلته ، ولا ينسى له سبقيته (ص : 12) ويجب على الملك أيضا أن يحرص على ضم جيشه بعضه الى بعض ، ويحفظ سلامته من الاختلال والنقص (ص : 123) وذلك حتى يزيد فى منعته ، فلا يمكن لعدو أن يستميل أفراده الى حزبه ويردهم عن حزب الملك (ص : 132) ، وهذا أمر يمكن تقويته بأن ينظر الملك فى حال جيشه مرة فى كل سنة ، ويتدبر أمره ويتفقد عدده ويزيد عدده اذا أمكنه (ص : 12 و 89 و 124) ، وانما كان فساد أمر كثير من الدول مثل الامويين والعباسيين والعبيديين والموحدين لانهم أهملوا جيوشهم بالتفريط وسوء التدبير وركنوا الى اللذات والتبذير (ص : 124) ·

ويخص أبو حمو قبيل الملك ـ من بين سائر الاجناد باهتمام منفرد ، فيقرر أن على الملك أن يحافظ عليهم ويرفق بهم ويواسيهم ولا يحوجهم الى غيره ، ولا يمنع عنهم خيره (ص : 79) ويستألف قلوبهم ، ويشركهم فى قليله وكثيره (ص : 123) ويجرى

على اغراضهم ، ولا يستاء اذا وجدهم يعرضون عنه بعض الشيء فى بعض الاحيان ، بل يعدهم بنيل مطلوبهم ، حتى تميل اليه قلوبهم ، فاذا رجع بعضهم الى هوى الملك وظل بعضهم الآخر مدبرا عنه ، فعلى الملك أن يسلط من أطاعه منهم على من عصاه ، فيدخل التباغض بينهم وتفترق جموعهم وتضعف قواهم (ص : 86) • وهذه سياسة يجب على الملك أن يتبعها مع أجناده على اختلاف رتبهم وفئاتهم (ص : 86) •

أما مماليك الملك فيرى أبو حمو فى معاملتهم رأيـا خاصا فيما يتعلق برواتبهم ، وذلك بان تدفع لهم مشاهرة من بيت المال بقدر ما يصلح اودهم وأهلهم وولدهم ، على قدر طبقاتهم (ص : 124) كما مرت الاشارة اليه •

ومقابل ندرة المعلومات فى تاريخ أبى حمو عن كيفية معاملته للجيش فى واقـــع الامر ، يجد الدارس قدرا كبيرا من المعلومات عن تحركاته قبيل الحرب مع عدوه ، وعددا أكبر من الاخبار عن الوسائل التى كان يتبعها فى الحرب مع ذلك العدو • وعندما يقرأ الدارس ما كتبه أبو حمو فى نظريته عن الطرق التى يجب على الملك أن يستعملها فى مواجهة عدوه فى مختلف الظروف ، يجد أن الكثير من هذه الطرق كان مستمدا دون ريب من تجربته ، وان غيرها كان أيضا استنتاجا ذا علاقة بتجربة أبى حمو العسكرية الطويلة بشكل أو بآخر وخاصة منها ما يتعلق بترتيب الجيش لدى الزحف ، فانه ذا لون محلى يوحى بأنه مؤسس على التجربة • ومما هو جزء من تجربته يقينا نصيحته للملك باستئلاف الاولياء بالمال وشتى أشكال الملاينة ، وبالشورى قبل الخروج الى الحرب الا فى حال انتهاز الفرص والمخاطرة فى سبيل السلطان ، واللحاق بالعدو بعد الانتصار عليه ، واللجوء الى الحرب التخريبية لاضعاف العدو ، والفرار الى المعقل فى حـــال الهزيمة (168) ، وكل هذا مما كان له صدى واضح فى نظرية أبى حمو فى كيفيـــة معاملة العـــدو •

ونظرا لان أبا حمو كان اكثر شيئا اهتماما بسلامة الملك ، فانه عرض فى كتابـه فى مجال الحرب الى ثلاثة موضوعات كبيرة ، تكون فى مجموعها « الاستراتيجية » التى

168) انظر ما سبق ، ص : 15 — 17 •

كان يفيء اليها ، الاول : التدابير الوقائية السابقة للحرب التى تمكن الملك من السلامة اذا اضطر ان يخوض حربا مع عدوه ، والثانى : التكتيكات العسكرية التى يجدر بالملك ان يتبعها اذا دخل الحرب ، والثالث : الوسائل الانقاذية التى يلجأ اليها الملك فى حال هزيمة فى الحرب •

أ) التدابير الوقائية :

1) أولها عناية الملك بالجيش ومحافظته على تماسكه وابقائه راضيا عليه مستعدا لحماية دولته ، وهذا أمر قد مر الحديث عنه من قبل (ص : 69) ، ثم أن يقيم الملك نوعا من التوازن بين جيشه وماله ، وتلك قضية قد مر ذكرها ذكرا عابرا (أنظر ص 66 و 69) وسوف نوضح هنا تأثيرها فى المجال العسكرى كما عرضه أبو حمو • فالملك اذا فرط فى جميع جيشه وشغل نفسه بتجميع الاموال من دون الرجال ، فانه ينهزم فى المعركة فى حال هجوم عدوه عليه ، لا فرق فى ذلك بين أن يكون عدوه هذا أقوى منه أو أضعف منه (ص : 121) • وقد يعمد الملك فى تلك الحالة الى محاولة انقاذ وضعه انقاذا سريعا فيحاول أن يجمع الرجال عن طريق بذل المال ، الا أن الناس يرفضون المال منه لانهم تعودوا منه قلة العطاء فى الشدة والرخاء ، وبذلك يخيب سعيه ولا يجد ما ينقذه من ورطته (ص : 124 ـ 125) • ويقول أبو حمو ان مثل هذه الحادثة جرت للسلطان أبى تاشفين بن أبى حمو الاول الزيانى ـ ابن عم والد السلطان أبى حمو ـ ، فانه فرط فى جيشه عندما حصره بنو مرين ، وأمسك يده عن العطاء فى الحصار ، واستعد بالحصن وبالقليل من الانصار حتى كاد أن يدخل العدو عليه البلد ، اذ ذاك طلب لمن يعطى المال فلم يلتفت اليه أحد ، ولم يجد من يأخذ منه المال ، فانهزم هزيمة منكرة ودخل المرينى البلد عليه عنوة ، فذل بعد ما كان عليه من العز (ص : 125 ـ 126) كذلك لا يحسن حال الملك اذا فرط بالمال واشتغل بتجميع الرجال وتعظيم أعداد الاجناد ، لانه اذا دهمه عدوه وعرف ضعفه من جهة المال ، وكان أحسن منه مالا ، حاول أن يخدع جيشه ويصيرون الى عدوه ، ولو كانوا من اخوانه ، « ومثل هذا مثل من قوى عدوه عليه بالمال ويستميله اليه بالخداع ، وعند ذلك قد يقبل الجيش العرض منه ، فيتركون الملك وجب هلاكه اليه » (ص : 126) وهذا ما حدث لمصعب بن الزبير ، اذ استكثر من الرجال

ثم قتر عليهم فى المال ، فاستغل الوضع عبد الملك بن مروان ، وأرسل الكتب اليهم والاموال ، ومناهم الامانى ان غدروا بمصعب ، فما لبثو يوم المعركة مع عبد الملك أن تركوه (ص : 126 ـ 127) ٠

فالملك يجب أن يجمع من الرجال بقدر ما يسمح له به المال فى دولته (ص : 121) ، ويعنى بهما معا عناية متساوية ، اما اذا أهملها معا وانصرف الى لذاته فيكون ذلك سبب هلاكه وهلاك دولته (ص : 128) ، وذلك هو ما آل اليه أمر بنى أمية عندما انصرف ملوكهم الى اللذات والشهوات وتركوا أمر تدبير الجيش والمال (ص : 128 ـ 129) ٠

هذا وعلى الملك أن يتذكر أن عدد الاجناد فى الجيش يلعب دورا هاما فى النصر فى الحرب (ص : 78) ، الا أنه يجب ألا ينسى أن كثرة عدد الشجعان العظام المتوفرة فى الجيش الواحد أهم بكثير من كثرة عدد الاجناد فيه على الاطلاق (ص : 116) ٠ وهذا الطاغية ابن ردمير ملك النصارى ، عندما التقى مع أمير المسلمين على وشقة ، كان عسكراهما متكافيين ، كل واحد منهما يراهق عشرين ألف مقاتل بين خيل ورجال ، فلما دنا اللقاء سأل الطاغية من يثق بعقله وممارسته الحروب من رجاله ، استعلم من حضر فى عسكر المسلمين من الشجعان الذين نعرفهم ويعرفوننا من منهم حضر ومن غاب ، فذهب ثم رجع وقال : فلان وفلان ، حتى عد سبعة رجال ٠ فقال له ابن ردمير : انظر الآن فى عسكرى من الرجال المعروفين بالشجاعة ، من غاب منهم من حضر ، فعدهم فوجدهم ثمانية ، فقام الطاغية مسرورا وتفاءل بالنصر وكذلك كان ، اذ انكسر المسلمون وتفرق شملهم وملك العدو مدينة وشقة (ص : 116 ـ 117) ٠

2) ومن التدابير التى يستحسن أن يلجأ لها الملك أن يدخل الدواخل بين أعدائه ، حتى يوقع الشتات فى قلوبهم ، فيصبح كل واحد منهم متحرزا من صاحبه ، يطلب له سقطة يوقعها فى جانبه ، فاذا تشاغل بعضهم ببعض ضعفت قوتهم وتمكن الملك من غلبتهم (ص : 123) ٠ بل ان شجارهم فيما بينهم قد يجعلهم يفشون أسرارهم الى الملك فيرجعون الى صداقته ، ويدخلون فى حزب أوليائه ، ويميلون الى جنابه ، وان لم يكونوا من أصحابه ، لان كلا منهم يحذر من صاحبه ويخشى منه سوء عاقبته (ص : 123) ٠

3) وقد يلجأ الملك الى صرف الاموال على أعدائه حتى يستميلهم الى جانبه ، وذلك مثل انفاقه المال على أرسال عدوه ، فانه فى كثير من الاحيان قد يستميلهم بذلك اليه ، ويجعلهم ينقلون ولاءهم من سلطانهم اليه ، بل ويفشون أسرار هذا السلطان عنده ، فينكشف خبره ، وتظهر حقيقته ، وهذا يسهم فى مساعدة الملك على رسم خطط معه (ص : 161) ، وهذه وسلية لجأ اليها أبو حمو بحق فى واقعه .

4 ـ 5) وهناك طريقان وقائيتان أخريان ذكرهما أبو حمو ـ ولكن عن كتاب المنهج المسلوك ـ نثبتها فى جملة آراء أبى حمو لانه ـ فيما يبدو لى ـ اكتفى بذكرهما منقولتين فلم يرد أن يكررهما رغم أنه يعتقدهما ، وذلك هو أن يتقدم الملك فى الحيلة للامر قبل نزوله ، فانه اذا نزل به ضاقت عنه الحيل « فهو فى المثل كالسكر الذى يسكر على الارض التى يخاف غرقها ، فانه ان عمل قبل وصول الماء اليها ، فانه يثبت ويمنع الضرر عنها ، وان وصل الماء اليها فلا حيلة فيه بالسكر » (ص : 114) .

6)كذلك على الملك أن يتفرس فى عدوه ويلازم جانب الحذر تجاه ما يصدر عنه ، فيلاحظ ما اذا كان يعاهده بالحسنى ويواليه ويقضى له جميع مآربه أو اذا كان يناضره فى كل الحالات ، وحتى اذا بعث اليه بالتهنئة أو الموالاة أو التعزية أو استجلاب المورة فانه يجب ألا يركن اليه ، ويسبق الظن فى ذهنه على أنه يريد فى الحقيقة اختباره ، ليعرف الصحيح من أخباره (ص : 153) . هذا وان كثيرا من نوايا العدو الصحيحة يكتشفها الملك عن طريق التفرس فى أرساله كما مر .

7) وينبغى للملك أن يعرف وجوه الكيد الذى به يكيد عدوه ، ان يمر فيحترس من مثلها ، ولا ينسى أنه ان اصاب برميته فهو مستهدف لرمية غيره ، فاذا احتال على عدوه بضروب الحيل ثم لم يحتفظ من كل ما يظن انه يبلغه من عدوه ، كان عمله غير نافع له فى العاقبة ، قال : « وقد كان يقال : احترس من تدبيرك على عدوك كاحتراسك من تدبيره عليك ، فرب هالك بما دبر ، وساقط فى البئر الذى حفر » (ص : 114) .

8) فاذا كان الملك فى وضع يخاف عدوه منه على نفسه وسلطانه ، فيجب عليه أن يظهر بمظهر الرقة والوداعة ويحسن كلامه معه ويظل فى الوقت نفسه متيقظا محترسا ، يقوى حصونه وجيشه ، حتى اذا حانت لحظة اللقاء وثب عليه وغلبه على ملكه (ص : 115)

9) غير ان الضمانة الكبرى للملك فى سعيه للانتصار على عدوه هى أن يكـون متحليا بصفة الشجاعة الحق ، وهى الشجاعة التى يصحبها الرأى (ص : 129 ـ 130) ، من دون الشجاعة التى لا يصحبها عقل ولا رأى ، والتى اسمها الحقيقى الهور والتهور (ص : 135) ، ومن دون الشجاعة التى تأتى على الملك فجأة عندما يرى عدوه أمامه ، اذ كان قبل أن يهاجمه العدو زاهدا عن الدنيا منصرفا الى شؤون الآخرة فكان يظن أنـه من زهده لا يضره احد الاعداء ولا تصله يد الاعداء ، فتلك شجاعة قاصرة عـن الرأى مذمومة بالنسبة للدنيا والآخرة (ص : 134 ـ 135) • أما الشجاعة الحق ، فانها تجعل الملك منصورا مطاعا ، يرهبه الاعداء ، ويطمئن به الاولياء (ص : 129) ، وأوضح مـا تظهر به فى مواقع الحروب • فكيف يسير الملك الشجاع الحرب اذا وقعت ؟

ب) ضروب التكتيك العسكرى المؤدى الى النصر :

1) دور الملـك فى المعـركة :

ان أول ما يجب على الملك أن يدركه أنه ليس من الشجاعة فى شيء ان يخاطر بنفسه فى الحروب ، باستثناء واحد وهو مخاطرة الملك فى طلب الملك والسلطان (ص : 130) فان المخاطرة تكون محمودة فى هذا الشأن لان الملك اذا خاطر بنفسه فى طلب سلطانه ، واسترجاع بلاده وأوطانه حمدة مخاطرته فى سره واعلانه (ص : 12 ـ 13) • لانه اذا نجح فى سعيه نال غاية مطلبه ، واذا مات دون غرضه كان له فى موته اجمل العـذر (ص 13) وأوضح مثال على المخاطرة بالنفس فى سبيل السلطان كما يقول أبو حمو ، مخاطرة بنفسه لاجل استرداد تلمسان من حكم المرينيين سنة 760 وقد ساق حكايـة تلك المخاطرة بتفصيل غير قليل فى كتابته (ص : 13 ـ 15) وأردفها بقصيدة ميمية من نظمه تحكى حكاية المخاطرة ذاتها (ص : 15 ـ 19) •

2) خطة المبادرة متى تكون ضرورية :

وهناك موقف آخر يجدر بالملك ان يأخذ المبادرة بالهجوم على عدوه ، وذلك اذا كان العدو قريبا لبلاده ويكثر من الفساد فى بلاد الملك ومعاندته ، اذ ذلك يجب على الملك ان يسلط خيله على بلاد العدو ، ويسعا فى شتاته وفساده ، ويضعف بلاده غاية الضعف

ويرهق اهلها بالغارات والزحف • فاذا قدر الملك على اخذ ذلك العدو وحصاره ، وقهره فى بلاده والتضييق عليه هنالك ، كان فى ذلك الخير كل الخير له • اما اذا لم يستطع ان يهزمه بل رأى أن احواله تشتت ونكاية عدوه تعذرت ، فعليه ان يعود الى بـــلاده بمن معه من الرجال والعتاد فيزيد هنالك فى جيشه ومدده ، ثم يسرع الى عدوه فيها جمه • فاذا استطاع ان يأخذه على غرة فان العدو يداخلـه الخوف والاضطراب لما يراه يراه من فساد بلاده وقلة جيشه واحشاده ، وتكون الهزيمة عليه كاملة • اما اذا لـم يستطع ان يأخذه على غرة وكان بامكان عدوه ان يستنجد بجيشه قبل اللقاء معـــه ، فالمجابهة تكون اصعب الا ان هزيمة العدو تظل امرا مرجو ، وخاصة اذا تم اللقاء بين حدى بلاد الطرفين المتنازعين (ص : 115 ـ 116) •

والموقف الآخر الذى يجب على الملك الا يتردد فيه عن الهجوم على عدوه ، هو عندما يكون الهجوم من باب انتهاز الفرصة السانحة (ص : 31) • اذ ذاك يجب عليه الا يعمد الى التأجيل قط (ص : 19) ، وتلك تجربة كان أبو حمو قد خبرها بنفسه •

اما فى سائل الاحوال ، فان على الملك الا يحجم على العدو الا بعد فكر وروية وتدبر وحذر ـ (ص : 31 و 122) ، اذ رأس الشجاعة الحذر والتوقى مثلما ان سياستها محاربة عند التلقى (ص : 129) •

3) ترتيب الجيش فى الميـدان :

فاذا عزم الملك على ملاقاة عدوه ، فعليه أن يرتب جيشه ترتيبا معينا يوم الحرب ، ارهابا لعدوه ، وانتظاما لمجموعه ، فيقسمه فى أربعة أقسام ميمنة وميسرة وتقـــدمة وساقة ، ويقدم على كل من الميمنة والميسرة قائدا مقداما ، أما التقدمة فيقدم منهم فرسانا من أنحاء القبائل الشجعان ، يكونون فى نحر العدو اذا قصد اليه ، ويقدم عليهم أيضا قائدا من الابطال ، ويجعلهم فى قسمين : قسم يلى الميمنة بين يديها ، وقسم يلى المسيرة بين يديها • أما الساقة ، وهى قلب الجيش ، فانها لا تقارن بالميمنة ولا المسيرة ، لانها « القلب الذى يوقف الجيش ويشده ويصد العدو ويرده » (ص : 131) ، فلا يكون فيها الا أهل الشجاعة وانجدة والشدة والكفاية ، وعلى الملك أن يرتبها ويجعل عليها قائدا

عن يمينها وقائدا عن يسارها ، من زعماء خاصته الانجاد ، يضبطانها ويحفظانها فى اقبالها وادبارها ، لتبقى موفورة بحيث لا يفل أحد منها ولا يتزحزح ولا يتحول وحتى لو انكسرت الميمنة والميسرة ، فان الساقة تثبت مع الملك على حالها (ص : 130 ـ 131) ٠

4) خطـــة الزحـــف

وعندما يتقدم الملك للهجوم على عدوه ، عليه أن يجعل راياته أمامه (ص : 130) ، ويتوكل على الله (ص : 131) وينهض الى عدوه زحفا لكى يرهبه خوفا ورجفا (ص 133) ٠ وعليه أيضا أن يسير أمامه « كشافة » يسميهم أبو حمو « فرسان الاقتداء ورســـل الاعتداء » (ص : 132) ، تكون وظيفتهم أن يعلموا الملك بجهة عدوه ، لانه عند التقاء الجمعين وتزاحم الصفين ، تلتبس على الملك جهة العدو ، ولا يدرى الدنو من البعـد ، ولا سيما اذا اختلطت الرجال وارتفع الغبار وتلاقت الصفوف المتزاحمة (ص 131 132) ٠

فاذا كان العدو فى مواجهة الملك ، فعلى الملك أن يتقدم اليه بعد التأنى والتدبير (ص : 133) ، بصبر ظاهر ، وجأش ثابت ، فيشتد بثباته المقاتلون ، أما هو فانه يثبت نظره على ساقته ، التى هى قلب جيشه ولا يلتفت يمينا ولا يسارا ، وان انكسر أحد الجناحين فلا يهتم به ، ولا ينقل بصره اليه ، ولا ينفتل بسببه ، لانه انكسار أحـــد الجناحين مع ثبات القلب لا يضر ، ومن شان الملك اذا نقل بصره الى الجناح المنكسر أن يتشوش خاطره فيبادر اليه مع العساكر ، فيكون ذلك بدء الهزيمة عليه ، لان الجيش اذا رأى ملكه يميل الى أحد الجهتين يحسب أنه منهزم فيدب الرعب فى قلوب أصحابه ، وتقع الهزيمة الكاملة عليه (ص : 130) ٠

على أن الكشافة قد يخفقون فى تحديد الجهة التى منها يتقدم العدو ، وقد يحدث أن يجد الملك نفسه متقدما فى اتجاه معين فاذا بالعدو يقابله عن يمينه أو عن يساره (ص : 132) ٠ اذ ذاك على الملك أن يمتنع عن الانفتال الى عدوه بسرعة ، لان فى هـذا الانهزام وفوت المطلوب (ص : 131) ، وانما عليه أن يسير باتجاهه سيرا رفيقا ، بين توقف وامهال ، فلا يشعر العدو بالملك فى الانتقال ، ويقل للقلب ثبـوته وتلاحمه ، وربما خدع هذا العدو فانتقل الى جيش الملك ، فكان فى انفتاله القضاء عليه (ص 135) ٠ وقد حدث أن أبا الحسن المرينى التقى مع الطاغية ألفنش (سنة 741) بالجزيرة الخضراء ،

فلما التقى جيشا الطرفين هناك نظر أبو الحسن فرأى الطاغية متحيرا عن مواجهته ، يطلب جانبا من جوانبه يهاجمه منه ، فانتقل أبو الحسن اليه ، وكان انتقاله اليه بسرعة ، يريد الهجوم عليه دفعة واحدة ، فرأى المقاتلون من أصحابه أنه قد انتقل بعلاماته وساقاته ، فظنوا انه انهزم ، فانكسرت الميمنة والميسرة ، ووقعت عليه الهزيمة النكراء (ص : 133) ·

5) المطاردة :

فاذا انتصر الملك فى حربه مع عدوه وفر عدوه من أمامه ، فعليه أن يلحق به على الفور بأثقاله وأسبابه وأمواله ، ويسير وراءه ليلة ونهاره ، فاذا بادره أخذ أمواله وأثقاله وقتل رجاله ، وربما كبا بالعدو نفسه جواده أو عثر أو دهش وتعذر ، فيظفر الملك به · فاذا استطاع العدو أن يصل الى بلده وحصنه فعلى الملك أن يلحقه الى هنالك لانه عند ذلك يكون فى أضعف أحواله ، ويكون القضاء عليه امرا لا يحتاج الى تطويل (ص : 133) ·

ج) التكتيك العسكرى فى حال الهزيمة :

وحيث أن الهزيمة يمكن أن تقع على الملك فى أى ملاقاة ، فعلى الملك أن يكون قد أخذ أهبة من قبل لاحتمالاتها ، ويكون قد أعد لنفسه أربعة أشياء تساعد على أن ينقذ نفسه ان لم يستطيع انقاذ ملكه وهذه الاشياء الاربعة هى :

1) حصن يلجأ اليه لدى الشدائد ويتحصن فيه من العدو ، وصفته أن يكون حصنا حصينا لايرام ، وقلعة قوية لا تطلب ، قد اشتمل على الماء ، والمختزنات وحفل بألوان ذخائر الملك وأمواله وأثاثه وأمتعته وأثقاله ، يسكن فيه اجرياء جند الملك وحماته وقواده ، ويشحنه هو بالرجال والرماة الشجعان من ناحية ، وبأهل الصناعات وأرباب التجارات الذين يستطيعون أن يكفوا أهل الحصن حاجاتهم من ناحية أخرى ، ويستحسن ان يكون موقع هذا الحصن فى مكان الزرع فيه ممكن ، واذا كان على ذلك ساحل البحر فنعم الحصن هو ، وخاصة اذا كان بحره تحت حكم الملك نفسه (ص : 88 ـ 89) · وحصن الاركن الذى روى قصته ابن ظفر ونقلها أبو حمو ، والذى كان سببا فى

استعادة الملك الهندى المسمى بالاركن بلاده بعد احتلال كسرى انوشروان لها مـــدة طويلـــة من الزمان هو خـــير مثال على الكيفية التى يجب أن يكون عليها الحصـــن (ص : 89 : 103) ٠

2) جواد من عتاق الخيل وخيارها وكرامها وسراعها ، يلجأ اليه الملـك فى حـــال انهزامه واضطراره الى الهرب (ص : 103) ٠

3) ذخيرة ثمينة من الجواهر المختلفة ، يكون قد جمعها على مر الايام فتظهر فائدتها عندما يعترى الملك من أمور دنياه ، اذ يستطيع بها أن يجمع المال ويقيم أوده ، ويصلح أمره ، ويعيد الكرة على عدوه (ص : 103) ٠

4) وزير يكون معينا له على شدته وأنيسا فى وحدته ، قد تمرن بالاسفار ، وجرب الامور والاخبار (ص : 103 ـ 104) ٠

فاذا توفرت هذه الوسائل لدى الملك فمن شأنها أن تقليه من عثرته اثر هزيمته وتؤمله مرة أخرى فى أن يعود الى سابق عهده ٠

هذا ما تحدث عنه أبو حمو بشأن ملاقاة العدو ، وهو كثير من حيث الكمية ، دقيق من حيث الدخول فى التفصيلات ، وهو يدل على مـدى افادة أبى حمـــو من تجربته العسكرية الطويلة من ناحية ، الا أنه يدل أيضا ـ من ناحية أخـــرى ـ على اهتمامه الشديد ـ ملكا ومفكرا وسياسيا ـ بالجيش ورسم الخطط له لمواجهة العدو ، وما ذلك الا لان الحياة السياسية فى المغرب فى القرن الثامن كانت مليئة بامكانات المواجهـــة العسكرية ، وذلك أمر خبره أبو حمو كما لم يخبره أى ملك عاصره ، نظرا لطول مدته فى السلطان ، وكثرة اعدائه من حوله ٠

ولكن هناك ملاحظة على نظرية أبى حمو فى الجانب الاستراتيجى ، وهى أنها ـ على اتساعها ـ لم تشمل كل نواحى تجربة أبى حمـــو العسكرية ، وفيها بعض النقاط الشديدة الاهمية التى كان يجدر بأبى حمو أن يفيد مخاطبه الملك بها ، اذ كان قد خبرها قبل أن يكتب كتابه ، ومنها استعمال الجواسيس أو العيون لاستطلاع أمر العدو (172) ووجوب اخذ الرهن من الاولياء ضمانا لولائهم فى بعض الاحيان والاكتفاء بالـــوعد

الشفوى فى أحيان غيرها (172) • ثم ان تاريخ أبى حمو يدل على انه كان يرى محاربه المنافقين من اعوان الملك ، والمقلقين عليه ، والمنشقين عنه (172) ، وكل هذا مما لم يذكره فى نظريته » كما لم يذكر أن على الملك أن يحارب بلا هوادة من تسول له نفسه منافسته على السلطان ــ كما فعل هو نفسه مع ابن عم أبيه أبى زيان ــ ولعله لم يشأ أن يتعرض لهذا الموضوع لان حربه مع أبى زيان لم تكن قد انتهت بعد عندما كتب كتابه « الواسطة » • كذلك لجأ أبو حمو فى الواقع الى احتضان بعض منافسى بنى مرين على الخلافة (172) ، وتلك وسيلة مهمة لمكيدة الاعداء ، ولم يذكرها أبو حمو فى نظريته ، وربما كان ذلك لان بنى مرين احتضنوا منافسة هو أبا زيان فى وقت من الاوقات • وبعد ، فان تجربة أبى حمو العسكرية العريضة علمته أن اختيار الطقس المناسب من شأنه ان يكلل سعى المهاجم بالنصر (172) ، وان من شأن عوامل مثل سماسرة الفتنة ومرض القلوب والغدر والخيانة والرعب أن تؤدى الى هزيمة المهاجم ، كما حدث له غير مر ةفى تاريخه (173) ، وهذه وأمثالها مما لا يظهر له أثر فى نظرية أبى حمو •

على أن الحرب أو الاستعداد للحرب بطريق مباشر أو غير مباشر لم تكن اللغة الوحيدة التى تعامل بها أبو حمو مع أعدائه ، وانما كان فى زمن السلم يلجأ الى السفارة اليهم ، كما كانوا يلجأون هم أيضا الى السفارة اليه ، كما مر من قبل • ونحن نعلم من تاريخ أبى حمو انه كان يكرم السفراء القادمين عليه (174) ، كما نعرف مما أخبرنا به هو فى « الواسطة » أنه كان يتفرس فيهم وفى كتبهم ليعرف ما خفى من أهدافهم (175) ، ولكن هذا يدخلنا فى موضوع جديد •

170) انظر ما سبق ، ص : 15 •

171) انظر ما سبق ، ص : 15 — 16 •

172) انظر ما سبق ، ص : 15 •

173) انظر ما سبق ، ص : 11 •

174) انظر ما سبق ، ص : 16 •

175) انظر ما سبق ، ص : 16 — 17 •

5) فراسة الملك : القاعدة السيكولوجيه

هذه قاعدة بارزة فى كتاب أبى حمو ، ومن أجلها خصص بابا كاملا من كتابه واسطة السلوك معلنا بذلك دورها المنفرد ، كما جعل هذا الباب آخر باب فى كاتبه ، مشيرا بذلك الى فعاليتها فى كل ما سبق من موضوعات الكتاب .

والحقية أن أبا حمو يعد فريدا بين كتاب السياسة لدى المسلمين فى تخصيص الفراسة بهذه الاهمية ، وفى تفصيله فى الحديث عن كيفية تطبيقها . وهذا أمر قد يرجع الى محصوله الثقافى ، لان الوصية الى الاسكندر تحتوى على فصل عن الفراسة ، ان كانت معالجتها هنالك تختلف تماما عن معالجة أبى حمو لها ـ الا أنه يعود أيضا الى تجربة أبى حمو فى الحكم ، فانه كان يعتقد نفسه ابانه أنه موهوب بالفراسة ، والى موهبته فيها نسب نجاحه خلاله فى الكشف عن النوايا الحقيقية لعمر بن عبد الله رسول ملك المغرب واحباطها نجاحا عظيما ، كما حدثنا به هو نفسه (176) . الا أن أبا حمو أخفق اخفاقات عديدة فى تطبيق الفراسة لدى اختيار العديد من أصحاب المناصب فى دولته ، بدليل أن الدارس يلاحظ أن عديدين منهم غدروا به أو لم يعملوا بمقتضى الوظيفة الموكلة اليهم لديه ، فكان أن أضطر أبو حمو الى قتلهم أو نفيهم أو حربهم وما الى ذلك . (177) ، ولو كان أبو حمو قد أحسن استعمال الفراسة فيهم لما وكل اليهم تلك المناصب ، اذ لابد أن يظهر عليهم ـ حسب رأيه ـ بعض الامارات التى يستدل بالفراسة على ما تبطنه نفوسهم من الغدر أو سواه . ولعل أبا حمو كان مكتئبا لما ظهر فى دولته من الخلل فى هذه الناحية ، فحاول أن يستدركها باعطاء التفصيلات لولى عهده عن كيفية تطبيق الفراسة فى رجال الدولة والجيش ـ وفى العدو أيضا ـ فكانت النتيجة كتابة فصل من أجمل فصول كتاب « الواسطة » وأشدها حيوية ، وأكثرها ابرازا لمدى قدرة أبى حمو على فهم النفس الانسانية وتتبع حركاتها ، ورصد تغير هذه الحركات ، وتلونها ، وتقلبها وتحولها ، وتلك قدرة وضعها أبو حمو فى خدمة

---

176) انظر ما سبق ، ص : 14 — 15 .

177) انظر ما سبق ، ص : 20 — 21 .

الملك المرجوة نصيحته حتى يفيد منها فى بناء دولته ولا يقع فيما وقع فيه هو من سوء تطبيق الفراسة ، وبذلك تكون الفراسة الطاقة السيكولوجية التى بها يحمى نفسه ويضمن لملكه الاستقرار •

والفراسة بتعريف أبى حمو « قوة نفسانية ربانية ، يؤيد الله بها النفوس حتى ينقلب بها المعدوم كالمحسوس ، ويطمع فى مراءاتها كل خفى ، حتى كأن الامر جلى » (ص : 141) • وهذا يعنى بكلام أوضح ، أنها الملكة التى يستطيع الملك بها أن ينفذ الى خبايا النفوس وخفاياها فيدرك حقيقة ما يعتمل فيها صافيا من دون كدر ، غير مكتف بما تنبئه به ظواهرها ، اذ هذه الظواهر كثيرا ما تكون براقة خادعة ، نصيبها من الصدق فى احيان عديدة غير كبير ، ورغم أن أبا حمو يصنف الفراسة بين القوى النفسية التى لا تكون لدى المرء الا اذا اخصه الله بها ، فانه لا يجد حرجا فى أن يجعلها ضمن ما ينصح الملك باكتسابه من الصفات ، وذلك ـ فيما يبدولى ـ لسببين :

الاول : ان الفراسة قائمة على الحذر واليقضة والوعى الشديد ، بل سوء الظن بغير نفس الفرد الى حد بعيد ، وتلك صفات يمكن للملك ـ كما يمكن للرجل اجمالا ـ أن يكتسبها ، وقد طالب أبو حمو الملك بأن تكون بين ما يجب ان يحرص على توفره فيه من الصفات ، كما مر ، حتى أنه طالبه بألا يؤمن الاحداث من النساء ولا من يميل من الاحداث منهن على طعامه وشرابه ، خوف أن يخلطن فيه ما يرين انه ينفعهن ولا يضره (ص : 20) • وحذره من أن يطلع أى أحد على قصره حتى لو كان أقرب أولاده اليه (ص : 21) • ونهاه عن أن يجعل لقصره بابين (ص : 20) وحضه على ألا يغفل عن تفقد هذا القصر فى ليله ونهاره ، مردفا القول « ولا تأمل عليه أحدا غيرك » (ص : 20) •

والثانى : أن الفراسة ملكة يمكن تدريب المرء عليها عن طريق شرح الطرق التى يمكن أن تمارس بها ، وهذا هو الهدف الذى نصب أبو حمو نفسه لتحقيقه فى كتابه ، فكان باب الفراسة عنده عبارة عن مجموعة من المظاهر المفترضة التى يمكن أن يظهر بها مختلف رجال الملك ، يتلو كل واحد منها تبيان للحقيقة الكامنة وراء المظهر ـ فاذا قابل الملك واحد من هذه المظاهر ، ولم يعرف ما هى الحقيقة المختفية وراءه ، رجع الى

كتاب أبى حمو فوضع عليها يديه دون كبير جهد • وهذه الطريقة فى معالجة احـــدى قواعد الملك مختلفة كثيرا عن الطريقة التى عالج بها أبو حمو سائر قواعد الملك (ومن هنا افرادها فى باب مستقل فى نظرى) وهى مليئة بالنظرات السيكولوجية الدقيقة •• وانما أملى الطريقة عليه ـ فيما يبدولى ـ أن الفراسة من الصفات التى قد تتوفر فى الملك وقد لا تتوفر فيه بالخلقة الطبيعية والهبة الربانية ، وحيث أن أبا حمو يرى توفرها فيه ، فانه يود أن يفيد الملك ـ تصيحه ـ فى كيفية تطبيقها على الاقل ـ على أن أبا حمو لا يضع الاشياء أمام الملك بشكل فج ، وانما بشكل لبق يتخذ قالب « الاختبار » مـن جانب الملك لمن يريد أن يمتحنه من أهل دولته ، كان يقول : « يا بنى ، اذا أردت أن تتفرس فى وزيرك هل هو كامل العقل أو ناقص العقل ، فاذا رأيت •• (ص : 143) ، أو يقول « يا بنى وان أردت أن تعرف من جلسائك من هو محب فيك ، فأودعه ••• » (ص : 144) • أما الهدف من الفراسة ، والفائدة النهائية منها فأمر لا يذكره أبو حمو ولكن يفهم من كلامه احمالا عنها أنه يريد أن يتمكن الملك بواسطتها من ابقاء الشخص المناسب فى الوظيفة المناسبة فى دولته وجيشه ، فلا يقع الخلل فى أى منهما بسبب من الاختلال بين ما تتطلبه الوظيفة من الشخص (كما مر شرحه من قبل) وبين مؤهـلات الشخص نفسه الذى سيحتلها • وربما أن الاختلال فى الدولة والجيش يلقى ظله عـلى الملك ، فتحتل أحواله بطبيعة الحال ، فان نصيحة الملك بالفراسة أمر ضرورى لابى حمو من حيث حرصه دائما على سلامة الملك ودولته •

ويطول بنا المقام لو ذهبنا نستقصى جميع المواصفات الافتراضية التى تعرض لهـــا أبو حمو فى باب الفراسة ، ولكن يمكننا أن نعدد الاشخاص الذين يجـــدر بالملك أن يختبرهم بالفراسة ، والامور التى يمكن أن يستدل على حقيقتهم منهـا ، ثـم نحـــاول استقصا الطرائق التى يمكن للملك بها أن يطبق الفراسة • ونختم الحديث بأخذ مثـــل واحد ممن يطبق الملك عليهم الفراسة • فالملك ينبغى أن يفترس فى وزيره فيعرف اذا كان كامل العقل أو ناقصه واذا كان ناصحا له ، صادقا معه ، مفضلا لخدمته على شكران ذاته والعمل لمصلحته (ص : 142 ـ 144 و 145 ـ 146) ، وفى جلسائـه ليعتبر من هو المحب فى جنابه ، المسرع لقضاء آرائه ، الحافظ لسره ، أو من هو على غير ذلك ، وما اذا

كان جلساؤه متفقين أم لا (ص : 144 ـ 145) ، وفى **كاتب سره** ليتأكد ما اذا كان قائما بالحق ، حافظا للسر (ص : 146 ـ 148) ، وفى قضاته فيعلم مدى تكالبهم على القضاء وميلهم الى الذرية والفساد ، ومدى قبولهم للرشا وتسامحهم فى الاحكام ، وكذلك الحال بالنسبة **للمفتى** (ص : 147 ـ 249) • أما **القواد** فيجب على الملك أن يمتحنهم ليرى ما اذا كانوا يقبلون الرشا (ص : 149 ـ150) ، وأما **الجيش** فيجب أن يتفرس فى اهتماماتهم أيام السلم ، هل فى الزينة واللهو واللعب والنساء ، أم بالتفاخر بالخيل والعدة وآلة الحرب والنجدة ، وأيام الحرب : هل ينشطون لدى الحرب أم يترددون ••• (ص : 150 ـ 51) • كذلك يجب على الملك أن يتفرس فى **صاحب أشغاله** فيفحص مأكله ومشربه وحاله وملبسه وعلاقته بسائر العمال والوزراء والاجناد (ص : 151) ويفعل شيئا مشابها مع **الولاة** وينظر بالاضافة الى ظلمهم للرعية ومدى قبولهم للرشا (ص : 151 ـ 152) • وأحسن طريق لاختيار حقيقة **الحكام** مدى حب الاخيار لهم وبغض الاشرار لهم أو العكس (ص : 152 ـ 153) ، وكذلك الحال مع **صاحب الحسبة** (ص : 153) • أما **السفراء** فان اعمال الفراسة فيهم من أهم الامور لسلامة مهمتهم ، وأصلا فان أحدا منهم يحب ألا يرسل الا بعد أن ينجح فى الاختبار (ص : 153) ، وعندما يرجع يتفرس فيه الملك ليدرك مدى ولائه له ، وحرصه عليه وليكشف ما اذا كان عدوه قد استماله اليه ، وأغراه بالمال والكسوة والجهاز أن يخون ملكه ويقضى بأحواله اليه (ص : 154 ـ 157) •

وقد عرض أبو حمو طرائق عديدة يمكن للملك بواسطتها أن ينجح فى الوصول الى حقيقة الرجل الذى يتفرس فيه ، أبرزها ست هى :

1) أن يتفرس فى كلام الرجل ومثل ذلك مثل التفرس فى الوزير عندما يتعين للملك عند أحد الناس مال • فاذا تعرض الوزير للملك بتركه فى نفس الحال ، وألح عليه فى الكلام عليه ، وأظهر له وجوها من الاعتذارات بضعف المطلوب واقلاله ورقة حاله ، فليعلم الملك أن الوزير يريد منفعة نفسه ، واذ ذاك عليه أن يزجره عن مقالة ويأمره أن لا يعود الى أمثاله • فاذا تمادى عليه بالحاح ، وجد فى ذلك ، فليعلم الملك أنه

قد رشي عن ماله ، وان كف بعد أن زجره ولم يعد الى سابق الذى عنه أخره ، فليعلم أن كلامه عن صحة من غير غرض ولا داعية تدعوه الى أخذ غرض (ص : 142) .

2) أن يتفرس فى **حركات** الرجل ، ومثل ذلك مثل القاضى يوليه الملك خطة القضاء ، قال أبو حمو : «فتفرس فيه أيضا فى حديثه وصمته، وفى مشيه وجلوسه وسمته، فان كان قبل القضاء يعرف بالصمت فى لسانه ، ثم بعدما قضيته ظهر لك منه انطلاق لسانه مما لم يكن من شأنه ، وأظهر البشاشة والشكر ، والثناء والذكر ، فتعلم أنه محب فى القضاء وانه متصنع فى الرياء وان كان طليق اللسان ثم التزم الصمت بعد القضاء ، واظهر السكون فى جملة الاشياء ، فتعلم أنه متصنع وانه بالناموس متلفع . ثم تختبره فى مشيته ، فان زاد على حاله المعتادة ، وحدث منه فيه شيء من نقص أو زيادة فتعرف أنه متصنع فى حاله ، متنمس فى أفعاله . وان نظرت لتلك الزيادة ورأيتها خرجت عن العادة ، وهى بسرعة وبشاشة ، ومبادرة وهشاشة ، فتعرف أنه فرح بالقضاء واغتبط به ، ونال منه غاية مطلبه ، وتلك خدمة لاجل ولايتك اياه ، وتصرف بين يديك لترضاه ، وان نقص من ذلك فتعلم انه يتقعد عليك ، ويظهر الناموس اليك ، ويتزهد بين يديك ، لتستحسن حاله ولتغرك أحواله ، وتظنه على شيء فى أموره ، فلا تعتبره فى شيء ولا يغرك بغروره » (ص : 149) .

3) أن يتفرس فى **أسارير** الرجل ، ومثل ذلك مثل الجلساء يرد الملك وهم عنده خبر سار ، فمنهم من ينقبض وجهه فيعلم الملك أنه مبغض له ، ومنهم من تتهلل أساريره ويهش ، ويبش ، فيعلم الملك أنه محب له ، قال أبو حمو : « لان الانبساط والانقباض يفيضان من القلب على الوجه ، فيبدو ما فى الباطن على الظاهر وتطلع فى وجهه البشائر ، وتطلع انت عن ذلك على السراير » (ص : 145) بل ان المسرور من الخبر السار سرعان ما يحمر وجهه بينما الكاره له يصفر وجهه ، والسرور ، كما يقول أبو حمو : « يكسو الوجه لطافة وحمرة حتى يصير كأنه جمرة ، والحسد يكسوه غبرة أو كدرة أو صفرة ... ولشدة تغيره وحقده لونه يسود ويربد » (ص : 145) .

4) أن يتفرس فى **تصرفات** الرجل ، كأن يرقب حال الجند ـ مثلا ـ فاذا رآهم الملك مشتغلين بالبناء والزينة واللهو واللعب والنساء فيعرف أنه لا يعول عليهم فى

الشدائد ، بينما اذا رآهم آخذين فى التفاخر بالخيل والعدة والتداريع وآلة الحرب بالنجدة ، يعلم انهم ممن يعول عليهم فى الشدائد (ص : 150) ٠

5) كذلك يستطيع الملك أن يستدل على حقائق عماله عن طريق النظر فى **علاقاتهم بعضهم ببعض** ، ومثل ذلك الحكام ، فاذا وجد الملك أن حاكمه تبغضه الاخيار وتحبه الاشرار ، فيعلم أنه غير ذى استقامة ، وأنه آخذ للرشا على انطلاقه ، قال : « وعلامة ذلك أن بغض الاخيار له انما هو لما أحدثه من المظالم ، وفعله من اباحة المحارم ، وما أتى به من الحوادث الفاسدة ، والمناكير البادية بالمشاهدة ، فهو يكرههم لعثورهم على منكره وهم يكرهونه على ما رأوا من مخبره ٠ وأما محبة الاشرار له ومحبته اليهم فان فائدته منهم تحمله على المساواة عليهم ، فهم يحبونه لمساواته عليهم فى المفاسد ، ويحبهم لما ينال منهم من الفوائد ، فان الناس لا يؤلفون الا من وافق طباعهم وينافرون من نافرهم وطلب اقماعهم (ص : 152) ٠

6) وبعد فالملك يستطيع ان يصل الى حقائق الناس عن طريق **نصب الاشراك** لهم اختبارا ، وذلك أمر يجب أن يفعله لاوجه عديدة فيرسل بالرشا الى من يجب الا يرتشوا من عماله ، فاذا ارتشوا لرسوله فهم يرتشون من غيره (مثل القواد ص : 149 ـ 150) ، أو يطلب رخصة لا تجوز ممن بيده الحكم كالقاضى ، فاذا سلم له وتساهل معه ، فهذا يعنى انه يتساهل مع غيره (ص : 148 ـ 149) ، وهذه الوسيلة هى أنجح وسيلة اذا شاء الملك أن يختبره مدى كتمان كاتب سره لاسراره ، وقد وصف أبو حمو هذه الطريقة بتطويل ، ونصح الملك أن يسير بها هكذا : يتحدث مع كاتب سره فيما يسر أهل بلده الشرفاء والفقهاء والقضاة والاشياخ والوجوه، كل واحد منهم بما يخصه ويسره من احسان أو لاية أو ما أشبه ذلك ، فاذا كان كاتب السر مذيعا للاسرار ، فان الشراهية بالاستبشار تدعوه الى اذاعة السر ، فيبادر أهل البلد بالتبشير ، واذا كان كاتما للاسرار أبقاها عنده فى كتمان وبعد ذلك يرسل الملك من يسئل فى بلده على ما أودعه من ذلك ، فاذا وجده قد ظهر يعرف أن الكاتب لم يكتم السر ، والا عرف انه شخص مؤتمن ٠

هذه هى الطريق التى يمكن للملك أن يستدل بها على خفايا أهل دولته وجيشه، وعلى الملك أن يطبقها كل على عدوه وارسال عدوه ، فيعلن بذلك نواياهم بشأنه ولا يغتر بما

يظهرونه نحوه من المصانعة وسواها ، وقد عنى أبو حمو فى هذا المجال بكثير من التفصيل ، وسوف نعرض ما قاله فى هذا الشأن متخذينه مثلا على فئة من الفئات التى يطبق عليها الملك فراسته ٠

وقد تعرض أبو حمو لذكر السفراء الذين يردون على الملك من الخارج ، فنصح الملك ـ بعد الاحسان اليهم ـ بالفرس فيهم لاستطلاع باطنهم واكتشاف نوايا صاحبهم ، وذلك بخاصة اذا كانوا اتين من قبل عدو الملك وليس من قبل وليه (ص : 157) ٠ اذ ذاك يجب على الملك أن يسايسهم أحسن مسايسة ، ويخدعهم بالطف المخادعات ويصانعهم بوجوه مصانعات ، حتى يظهر له الحبيب والنصيح والباطل والصحيح ، فيعامل كل واحد بحسب ما يليق به ويتفق مع مذهبه (ص : 160) ، وينزله لدى مثيله فى المنصب فى دولته (ص : 160) ٠

أما كيف يكتشف الملك حقيقة نوايا عدوه عن طريق ارساله ٠

فذلك ما يشرحه أبو حمو للملك بقدر غير قليل من التفصيل ٠ فاذا أقبل رسول عدوه اليه **طلق الوجه** ، مسرعا فى مشيه ، مظهرا للمسرة ، ثم تحدث أمام الملك وأظهر الادب بين يديه فى كلامه ، مقدما اياه فى الشكر على سلطانه ، فذلك يعنى أحد أمرين لا ثالث لهما : اما أن سلطانه ضعيف الملك أو انه ضعيف العقل ، فان كان ضعيف الملك ، فعلى الملك أن يتفرس فى الرسول بأحد وجهين : اما أن الرسول يطمع فيما يناله من الملك ، وذلك من خذلانه ، واما أنه يطمع فيما يدفع به المضرة ع ن سلطانه ٠ فاذا كان الامر كذلك ، فعلى الملك أن يأذن له فى الجلوس فى مجلسه ، والاختلاط مع جلسائه ، فيستأنس بهم ، ويصبح ـ مع الزمن ـ مستعدا لان يفضى الى الملك بما أضمره من سره ، وبما جاء به من غير الامور وشره ٠ اذ ذاك على الملك أن يعده بالفوائد الكبيرة ويمنيه الوعود الكبيرة ٠ فاذا كتم ـ مع ذلك ـ أمر سلطانه ولم يطلع الملك على أحواله ، علم الملك أنه رسول ناصح لمولاه ، وانما أسرف فى الثناء على الملك لضعف سلطانه وقلة ذات يده وامكانه ، ودفعا لمضرة من جانب الملك يتقيها ومحافظة على محاسنة يبقيها ٠ عند ذلك يطيع الملك الرسول على ما يريد من الشروط على سلطانه ، فاذا قبلها عن أول وهلة ، علم الملك أن عدوه شديد الضعف ، وأنه يمكنه اما أن يصالحه أو يسير اليه بجيشه ويحاربه حسب رغبته (ص : 157 ـ 158) ٠ فاذا كان سلطان الرسول قويا

بالجيش والمال ، مع ما صدر من الرسول من البشاشة ، فيعلم الملك أن سلطانه **ضعيف العقل** ، وعلامة ذلك أن الرسول استباح لنفسه تأخيره فى الذكر وقدم الملك فى الثناء عليه • وهذا الرسول طامع بالمنافع التى هى عائدة على سلطانه بالمضار والبوار (ص : 158) • فاذا دخل رسول العدو الى الملك وهو **منقبض الوجه** ، بطيء المشى ، مظهرا الكراهية فى الزى والوجه ، فعلى الملك أن يتفرس فيه بأحد وجهين : اما أن يكون ذلك من قبل الرسول نفسه لخبث طباعه وسوء اصطناعه ، وعند ذلك ينزله الملك لدى قرينه فى المنصب فى دولته لاختيار حاله بعد أن يأخذ كتب عدوه منه ، ويدرسها درسا جيدا • فاذا كان فيها ما لا يرضى الملك ، فيعرف الملك أن الرسول من طبع المرسل والكتاب ، فيحضره بين يديه ويخلى له مجلسه حتى لا يطلع أحد عليه ، ولا يخفى كتابه ، ويعطيه الرد عليه • أما اذا كان فى الكتاب ما يسر ويرضى ، فتعلم أن الخباثة من طبع الرسول ، اذ لم يكن فى الكتاب الا الامن فينعم الملك عليه بالاحسان ويستميل قلبه بالامتنان نظرا لان حركاته كلها كانت من أجل الطمع المتوكد فى نفسه ، فاذا نال الاعطيات من الملك أفشى سر سلطانه اليه فيكون احسان الملك قد حمل الرسول على خيانة مولاه (ص : 160 ـ 161) •

والفراسة تطبق أيضا على الكتب الواردة الى الملك فى عدوه • وفى هذا **المجال** ، عليه أن يراعى نسبة قوة عدوه بالنسبة لقوته • فاذا **كان عدوه اقوى منه** وقدر أن يصده عنه ، ثم وردت منه كتب فيها ما يرضى الملك من الموالاة فذلك دليل انه ينصب للملك مكيدة • حتى لا يتحرز منه ، ولا يأخذ حذره فيما يصدر عنه ، فيأتيه على حين غفلة ، ويختله عندما يكون على غير أهبة (ص : 161) • أما اذا كان العدو **مساويا للملك** فى الجيش والمال والكفاية والدهاء والاحتيال ، فعلى الملك أن ينظر فى كتبه • فاذا كانت متفاوتة فيما يرضى وما يغيظ ، فهذا دليل على النقص فى عقله ، وللملك اذ ذاك الخيار فى استغلال الفرص تجاهه بالحرب أو بالمصانعة وأما اذا كانت ذات حظ مستو من الاتزان ، فهذا دليل على الوفور فى العقل ، وهذا يجب أن يخادعه الملك بضروب المخادعات ويصانعه بوجوه المصانعات (ص : 161 ـ 162) • واذا كان العدو **أضعف من الملك** فلينظر الملك فى كتبه ، فاذا كانت مليئة بما يرضى الملك ويسره ، فهذا دليل على حسن

عقله ، ويجب على الملك مداراته ، أما اذا وجده مع ضعفه يكتب للملك بما لا يرضيه ، فهذه اشارة الى ضعف عقله ، وعلى الملك أن ينتهز الفرصة المناسبة ليحاربه فيقضي عليه لا محالة (ص : 162) .

هكذا كان تعليم أبي حمو بشأن الفراسة ، ولا شك أن ما فيه من نفاذ سيكولوجي في النفس الانسانية يثير الاعجاب في أبي حمو ، كما يدل على رغبة أبي حمو في استكمال جميع الوسائل الضرورية لسلامة الملك واستدامة سلطانه .

والحقيقية أن الحديث عن السلامة ودوام السلطان يوصلنا في نهاية المطاف الى الحديث عن الناحية العمرانية المفقودة تقريبا في كتاب أبي حمو النظري . فان الناظر في هذا الكتاب لا يجد فيه سوى اشارة الى وجوب الاحتفال بالمولد النبوي (ص : 167) ووجوب نظم الشعر في التشوق الى الرسول والى الحرم الشريف اذا أوتي الملك « الغريزة الشعرية » ، واعطاء الشعراء المال في المناسبات الدينية (ص : 167) . وكل هذه مما كان أبو حمو يفعله (178) ، فذكرها في النظرية ليس أكثر من صدى لحدوثها في واقع الحال . أما فيما عدا ذلك ، فانه ليس للعمران ذكر في كتاب « الواسطة » . وقد يستغرب الدارس هذه الظاهرة للوهلة الاولى ، وخاصة لان اسهام أبي حمو في الناحية العمرانية في الواقع العملي كان أوسع مما ذكره في كتابه النظري . ولكن اذا تذكرنا أن هذا العمران لدى أبي حمو لم يخرج عن نطاق العمران الديني الا الى النطاق الحربي (دار الصناعة السعيدة (179) أدركنا أن فهم أبي حمو للعمران كان محدودا بمدى امكانات هذا العمران في المحافظة على سلامة الملك ودوام ملكه في الدنيا ، وعلى نجاته في الآخرة . ويبدو أنه في حدود هذا الفهم لدور العمران فات أبو حمو أن العمران قد يكون وسيلة لتنمية المال في الدولة ومن ثم وسيلة لاثراء ناحية من نواحي المحافظة على الملك . فصحيح أن بناء المدارس والزوايا والانشاءات والقصور قد لا يؤدي الى زيادة مالية الدولة ، الا أن تنمية الزراعة وا لصناعة والتجارة – وكلها من وسائل العمران – ينعش الدولة اقتصاديا ، وذلك أمر لم يكن داخلا في اعتبار أبي حمو الضيق

178) انظر ما سبق ، ص : 24 – 28 .
179) انظر ما سبق ، ص : 23 .

للعمران ، بل ظل المال بالنسبة له من الاشياء « الجاهزة التى تأتى الى حاضرة الملك من الايالات والاقاليم فيستعملها ويكتفى بها اذا وجدها وافية بأغراضه ٠

* * *

تلك كانت المعاليم الكبرى فى نظرية أبى حمو السياسية : نظرية تقوم على قاعدة أساسية مؤداها أن الملك ما دام قد وصل الى الملك فان الهدف الاسمى من أى سياسة ينتهجها هو توجيه الاشياء حوله الى حفظ سلامته ودوام سلطانه ، من هنا كانت الاشياء بحسب هذه القاعدة تتفاوت بين فئة تؤثر على سلامة الملك وادامة سلطانه وفئة لا تؤثر على سلامة الملك وادامة سلطانه ٠ أما العمران فان يقع ـ بحسب مفهوم أبى حمو الضيق ـ فى الفئة ا لثانية ولذلك لم يكن من المهم ذكره أو الاهتمام به الا فى الحقلين الحربى والدينى ، بينما يقع فى الفئة الاولى خلق الملك الذى يحفظ له آخرته مع ربه ودنياه مع رعيته ، ورجال دولة الملك (من دون سائر أفراد الرعية) الذين يسيرون له أمور دولته فى السلم بخاصة وفى ا لحرب فى بعض ا لا حيان ، ثم ا لمال ، الذى يحفظ للملك اتزانه الاقتصادى ورخاءه المادى ، ثم الجيش ا لذى يكفل له النصر على أعدائه على المستوى العسكرى ، ثم الفراسة التى تضمن له الفهم السيكولوجى فلا ينخدع بظواهر الناس وانما ينفذ الى بواطنهم ٠ وهذه الامور كلها كانت قد مرت بأبى حمو فى تجربته السياسية الطويلة ، فترك آثارها الايجابية على نظريته بما لا يحتمل الشك قط ٠

وقد كان لانطلاق أبى حمو من تجربته الذاتية فى نظريته السياسية أثر سلبى على تلك ا لنظرية ، كما قد كان لها أثر ايجابى عليها ، وأعنى بالاثر السلبى اصابتها بقدر غير قليل من المحدودية ٠ فهى نظرية باهرة مليئة بالنظرات الصائبة الثاقبة معا ، الا أن مجال الافادة منها كلا مجموعا ليس مفتوحا أمام كل ملك ـ مطلقا ـ وانما أكثر ملك يستطيع أن يفيد منها هو الملك الذى يعيش فى ظروف أبى حمو نفسها أو فى ظروف تشابهها ، وبكلمات أخرى : ان هذه النظرية اذا طبقت تطبيقا جيدا تكون أصلح نظرية لملك يعيش فى المغرب فى القرن الثامن للهجرة ، واذا كان زيانيا فان أحكامها تنطبق عليه أكثر ٠ غير أن هذا يجب ألا يعتبر مأخذا على أبى حمو فانه هو نفسه كتب نظريته لابنه وولى عهده أبى تاشفين من دون سائر الملوك وكان يتوقع ـ بحق ـ أن يعيش

ابنه فى ظروف مشابهة لظروفه ، فتكون الوصايا التى أوصاه بها مفيدة له ، وهذا ما كان يمكن أن يحدث فى واقع الحال ، لولا ن ابنه ألم يرد أن يفيد من هذه الوصايا، وقد ظهرت علامات ذلك منذ بداية حكمه ، عندما قتل والده ، وقبل أن يكون عاملا وحسب لمّ كان أبو حمو يرى نفسه له ملكا ندا ٠

(3)

واذا شاء الدارس أن يحكم على مدى الشمول فى نظرية أبى حمو خارج اطار تجربة أبى حمو ولكنّ ضمن نطاق التجربة السياسية فى المغرب فى القرن الثامن الهجرى ، عليه أن يقارن نظرية أبى حمو بالنظريات السياسية لثلاثة من معاصريه الذين لعبوا أدوارا سياسية مختلفة فى تلك الفترة ، وهم لسان الدين بن الخطيب (ص ـ 776) ووزير بنى نصر بالاندلس وأبو القاسم ابن رضوان النجارى الخزرجى (ـ 782) وزير سلاطين بنى مرين منذ السلطان .بى عنان المرينى (ـ 759) حتى السلطان أبى العباس أحمد بن سالم (ـ 786) ثم المؤرخ عبد الرحمن بن خلدوه (ـ 808) ٠

أما ابن الخطيب ، فقد كتب رسالة صغيرة فى السياسة (نصها فى نفح الطيب 6 : 431 ـ 445) وضعها فى اطار « مسرحى» فقدم لها بصورة مجلس من مجالس الرشيد ، وقد تقدم الليل واستبد بالرشيد السهر ، فطلب من أحد جلسائه أن يخرج الى الطريق ويأتى بأى رجل يجده هناك ، فوجد رجلا « أعجمى الجنس عربى الفصل » (ص : 432) رحلته الاعتبار ونحلته الامر الكبار ، وفنه الحكمة (ص : 432) فسر الرشيد به ، وطلب منه أن يخبره بما عنده فى شأن الخلافة ، ذات الاعباء الثقيلة ، فقام الرجل بنصيحته ، نصيحة استغرقت الرسالة كلها باستثناء الخاتمة ، اذ جاءت لتكمل الوضع المسرحى المبدوء به : فالرجل يلاحظ أن الليل قد كاد ينتصف ، فيعتذر للرشيد بأن بحر السياسة زاخر ، ومجال الوصاية أكثر مما يصف ، ويستأذنه بأن يؤنسه بفن آخر من الانس ، فيقبل الرشيد اقتراحه ، فيدعو بعود ويغنى أغنية شجية ، ينام عليها جميع الحاضرين ، فينصرف هو من بينهم دون أن يعى عليه أحد ، وعندما يستيقظ الرشيد فى اليوم التالى يطلبه فلا يجده (ص : 444 ـ 445) ٠

ورغما عن أن ابن الخطيب جعل نصحيته فى السياسة داخل اطار حادثة جرت للرشيد ، فانه جعل مخاطبه فيها يعرف بـ «الملك» (ص : 432) ، مما يعنى أنه ظل يفكر

فى نطاق البنية السياسية للبلاد الاسلامية فى عصره من دون عصور الخلفاء السابقين ، وفى هذا كان يتفق مع أبى حمو ، كما يتفق معه فى أن صيغة الرسالة كانت صيغة الخطاب المباشر من الكاتب الى الملك المراد نصحه ٠

ولعل اكثر ما يلفت نظر القارىء لرسالة ابن الخطيب حسن بنائها ووضوح أقسامها ، اذ هى تتألف من قسمين رئيسيين : الاول : أصناف الرعية ، ويدخل فيهم الرعية عامة (ص : 433 ـ 434) فالوزير (ص : 434 ـ 435) فالجند (ص : 435 ـ 436) فالعمال (ص : 436 ـ 437) فالولد (ص : 437 ـ 438) فالخدم (ص : 438 ـ 439) فالحرم (ص : 439 ـ 440) والثانى : نصائح مختلفة بشأن السيرة فى الرعية مثل العدل والروية وواجبات الملك تجاه الدولة التى بين يديه مثل المال والعمران (ص : 440 ـ 444) والقسمان مفصولان فى النص بعبارة مشيرة الى انتهاء الحديث الاول وابتداء الحديث الثانى هى « ثم لما بلغ الى هذا الحد حمى وطيس سحنفاره ، وختم حزبه باستغفاره ، ثم صمت مليا ، واستعاد كلامه أوليا (ص : 440) وهذا المبنى هو دون شك أشد وضوحا وأبسط من بناء أبى حمو لكتابه وربما ساعد قصر الرسالة ابن الخطيب على المزيد من الوضوح هنا ٠

والناظر فى الموضوعات التى عالجها ابن الخطيب يلاحظ أنها فى احيان كثيرة تتفق مع الموضوعات التى عالجها أبو حمو ٠ فالوزير والجند والعمال يحتلون فقرات خاصة بهم لدى كل من ابى حمو وابن الخطيب ، وكذلك عن كيفية السيرة بالرعية لدى ابن الخطيب فانها تقابل حديث أبى حمو عن الصفات التى يجب ان تتوفر فى الملك تجاه رعيته واساسها ثلاث : العدل والسياسة والفراسة ثم الكرم والحلم والعفو ٠ وعندما يحاول الدارس أن يقارن بين جزئيات الموضوع الواحد لدى كل من ابى حمو وابن الخطيب فانه سيجد تشابها غير قليل : فالوزير لدى الرجلين شخص هام من اشخاص الدولة وعلاقته مباشرة بالرعية على عكس الملك ، ويشترط فيه أن يكون مخلصا للملك ، ناصحا له ، مؤثرا لمصلحته ، رفيع القدر ، كامل الآلة ، من بيت سرى وعلى الملك أن يكرمه ولكن لا يعفيه من الامتحان ٠ والجند يجب أن يكونوا شجعان مقدامين ، ترتيبهم فى طبقات متدرجة فى الارتفاع بحسب شجاعتهم وكفايتهم ، وقوادهم يكونون أشدهم نكالا

على الاعداء ، وأكثرهم محبة للملك ، وعلى الملك أن يحسن اليهم ويعطيهم أرزاقهـــم فى أوقاتها · أما العمال فيجب أن يكونوا من أهل العدل والانصاف ، مرتبين أيضـا فى طبقات بحسب منزلتهم من الكفاية والامانة ، وعلى الملك أن يتالفهم بالاحسان اليهـم · كذلك عندما يتعرض ابن الخطيب للمال (ص : 440 ــ 441) يتفق مر أبى حمو عــلى أهميته للملك ، ويشدد على الدور الذى يمكن أن يقوم به فى تسيير مقادير دولتـــه ، ويذكر أهميته بالنسبة لاقامة الجند ، وينصح الملك بعدم الحرص عليه ، وعدم انفاقـه فى الشهوات ، وعلى العكس من ذلك وجوب انفاقه فى الامور الشرعية · وحينما يجىء دور الصفات المطلوب توفرها فى الملك (ص : 440 ــ 444) يذكر كل من ابن الخطيب وأبي حمو صفات العدل والاناة والروية والحزم والمشورة وتغليب العقل على الهــوى والغضب والتوكل على الله ، بأشكال مختلفة ، الا أن المنطلق هنا واحد وهو المنطلـق الاخلاقى وكل هذا مما يدل على التشابه بين رسالتى ابن الخطيب وكتاب أبى حمـــو ، حتى أنه يبدو فى بعض الاحيان أن نص ابن الخطيب يستوحى نص أبى حمو عنـدما يصوغ عباراته بشكل شبيه جدا بشكل عبارات أبى حمو ، وذلك مثل قوله عن الوزير : « وليكن ··· بعيد الهمة ، راعيا للازمة ، كامل الآلة ، محيطا بالايالة ، رحيب الصدر ، رفيع القدر ، معروف البيت ، نبيه الحى والميت ··· » (ص : 434) ، فانه يمكـــن أن يقارن ــ من حيث صياغته ــ بقول أبى حمو فى الوزير ··· أن يكون من خيار قومـــه وعترته ، وكبير عشيرته وبيته ، وأن يكون وافر العقل ، عاريا من الجهل ، حاضر الذهن، سريع الفهم ، راجح الرأى ، محمود السعى ، محبا ناصحا ، شجاعا فى المهمات ، وعنـد نزول الملمات ··· (الواسطة : 32) · وقد يكون بعض التشابه ناتجا عن استعمـال الترادف والسجع فى كلا الكتابين ، وبعضه قد يعود الى التشبع لمصدر واحد هـــو كتاب « سراج الملوك » للطرطوشى أبى بكر (180) اذ يقول فى وصف الوزير فيـــه : ··· أن يكون الوزير صدوقا فى لسانه ، عادلا فى دينه ، مأمونا فى اخلاقه ، بصـيرا بأمر الرعية ··· (181)

---

180) انظر مثلا الفصل عن الوزير والوزراء : 118 ·

181) سراج الملوك ، 120 ·

غير أن المشابه ما بين رسالة ابن الخطيب وكتاب أبى حمو تصبح هامشية عارضة اذا ما قوبلت بالفروق التى بينهما • فالدارس يلاحظ ـ حتى لدى النظرة العجلى ـ أن ابن الخطيب عالج موضوعات لم يعالجها أبو حمو ، مثل موضوع الولد ، والخدم ، والحرم، والعمران فضلا عن موضوع الرعية ذى الاطار المحدد فى رسالة ابن الخطيب ، ولا يلبث عندما يدق فى نص الرسالة أكثر أن يعثر على أفكار كثيرة لم ترد لدى أبى حمو • وقد يبدو ـ للوهلة الاولى ـ أن هذه الفروق ـ الزيادات جانبية ، ثانوية الدلالة ، وأنها مجرد عنصر مقابل لعنصر المشابه بين رسالة ابن الخطيب وكتاب أبى حمو • الا أنه عندما يمعن النظر فى رسالة ابن الخطيب يجد أن الامر أخطر بكثير من ذلك ، اذ النظرة الاساسية الى الملك مختلفة لديه عما هى عليه لدى أبى حمو ، وبالتالى واجبه تجاه الملك الذى ينصحه أشمل بكثير مما لدى أبى حمو •

ذلك أن ابن الخطيب لا يرى الملك فى ناحية والرعية فى ناحية أخرى ، بل يرى الرعية والملك عاملين متعاونين لاجل مصلحة مشتركة ، يقود السير اليها الملك نفسه بحق ، ولكن الرعية تقوم بدور فعال فى طريق السير هذا اليها نفسه • كذلك لا تشكل سلامة الملك وحفظ دولته هاجسا دائم الحضور مروع الالحاح لدى ابن الخطيب ، كما هو الحال لدى أبى حمو ، ولذلك لا يغفل عن العوامل والظواهر التى تتعلق تعلقا شديدا بالملك دون أن تؤثر على سلامته وحفظ دولته تأثيرا مباشرا ، فيما تزل هذه العوامل والظواهر عن ذهن أبى حمو لاشتغاله بموضوعى السلامة والاستقرار فى الملك اشتغالا شبه تام • من هنا صورنا فيما مضى من هذا البحث (182) الملك بشكل القطب ، المدار الذى يدور حوله كل شىء يؤثر فى مقدراته (سلامته وحظه فى البقاء فى ملكه) ، وصورنا المؤثرات التى تؤثر عليه بشكل الافلاك حول الملك ، والتى يملك مفاتيحها لوضعها فى مدارها السنيم الملك نفسه ، واذا حاولنا أن نصور نظرية ابن الخطيب الاساسية ، فاننا نصورها بشكل هرم ، قمته الملك وجسمه الرعية ، والملك هو الذى يملك مفتاح الرعية ويقودها كما يشاء • غير أن أى اخلال فى الرعية يشكل اختلالا فى الجسم فيسقط الجسم ومعه القمة ـ الملك ـ •

---

182) انظر ما سبق ، ص : 44 ـ 45 •

من هنا تحدث ابن الخطيب مطولا عن عدد من الفئات هي الولد والخدم والحرم ، رغم أنها لا تؤثر تأثيرا سياسيا مصيريا مباشرا على الملك ، فيما أهمل أبو حمو الحديث عنهم اهمالا تاما ، كذلك افرد ابن الخطيب الرعية بأكبر فقرة في رسالته ، وخصها في اماكن متفرقة من الرسالة بأكبر قدر من اهتمامه ، وأشار في مواطن عديدة الى ما يمكن أن تقوم به من أعمال يمكن أن تؤثر على مقدرات الملك نفسه : فالرعية يمكن أن « تتعدى طورها ، أو تخالف دورها ، أو تجاوز بأمر طاعتك فورها » (ص : 433) ويثور جرادها ويختلف في طاعة الملك مرادها (ص : 434) ، وقد يكون في الوزراء « من يرى في نفسه الى الملك سبيلا ، أو يقوده عصبيه للاستظهار عليك قبيلا » (ص : 434) كما قد يكون بين الجند والقواد « من كان عند نفسه أكبر من موقعه في الانتفاع ، ولم يستحي من التزيد بأضعاف ما بذله من الدفاع ، وشكا البخس فيما تعذر عليه من فوائدك ، وقاس بين عوائد عدوك وعوائدك ، وتوعد بانتقاله عنك وارتحاله ، وأظهر الكراهية لحاله (ص : 436) . فهذه أشياء ربما كانت في حساب أبي حمو الا أنه لم يصرح بها ، ولا يتوقع أن يصرح بها ، الا بشكل عابر ، فالملك هو الذي يحرك مقادير الرعية ، أما أن يحدث العكس فأمر وان ورد في خاطر أبي حمو فانه لا يراه أهلا للتوقف عنده .

وبما أن الرعية على هذا القدر من الامكانات فقد شدد ابن الخطيب على صعوبة دور الملك في قيادتها ، ولذلك وجد نفسه يلح على استعانة الملك بعناصر مساعدة له في سياستها ، وأهم هذه العناصر اثنين أولهما : التوكل على الله والثقة به وطلب المعونة منه ، ولذلك قال في مطلع حديثه عن الرعية : « رعيتك ودائع الله تعالى قبلك ... ولن تصل الى ضبطهم الا باعانة الله تعالى التي وهب لك » (ص : 433) ، ثم نصح الملك بذكر الله في الصباح وفي المساء ، في الترفع وفي الابتذال (ص : 442) وتقديم الثقة بالله على كل قواه ، قال : « ولتكن ثقتك بالله أكبر من ثقتك بقوة تجدها ، وكتيبة تجندها ، فان الاخلاص يمنحك قوى لا تكتسب ، ويمهد لك مع الاوقات نصرا لا يحتسب » (ص : 442) ، وثانيهما : الاستفادة من المجالس والمجالسين ، بحيث لا يمر على الملك مجلس الا وقد أحرز منه فضيلة زائدة (ص : 440) ، وخص ابن الخطيب من بين المجالسين العلماء بالاهتمام ، وبين انه يمكنهم أن يلعبوا دورا عظيما في هداية

الملك وارشاده ، اذا تعدهم بالعناية : « واعلم أن مواقع العلماء من ملكك مواقع المشاعل المتألقة ، والمصابيح المتعلقة ، وعلى قدر تعاهدها تبذل من الضياء ، وتجلو بنورها صور الاشياء ، وفرغها (اقرأ : ففرغها) لتجبير ما يزين مدتك ، ويحسن من بعد البلاء جدتك وبعناية الاواخر ذكرت الاول ، واذا محيت المفاخر خربت الدول (ص : 441) ٠

ولقد فرضت مكانة الرعية العظيمة لدى ابن الخطيب أن تكون معاملة الملك لها على غير الاساس الذى أقام عليه أبو حمو معاملته لها ٠ صحيح أن الاثنين يتفقان على صفات الملك العامة (من العدل والاحسان ٠٠٠ الخ) تجاه الرعية الا ان ابن الخطيب يزيد الى ذلك أشياء كثيرة لا ترد لدى أبى حمو قطب ٠ من ذلك مثلا تطلب ابن الخطيب من الملك أن يمنع أغنياء الرعية من « البطر والبطالة والنظر فى شبهات الدين بالتمشدق والاطالة » (ص : 433) وأن يمنعهم من فحش الحرص والشرة ويتعاهدهم بالمواعظ ويحملهم على الاجتهاد فى العمارة على أحسن المذاهب ، وينهاهم عن التحاسد (ص : 433) ، كذلك يجب أن يحض ذوى اليسار منهم على السخاء على الضعفاء وعلى اجتناب البخل (ص : 433) ٠ أما الشريعة فعليه أن يأخذهم بظاهرها ، ويمنعهم من تأويلها منعا قاهرا (ص : 433) كما يمنع المدرسين والمتعلمين والعلماء والمتكلمين بالابتعاد عن الشكوك فى الدين « فانه يفسد طباعهم ، ويغرى سباعهم ، ويمد فى مخالفة الملة باعهم » (ص : 442) ٠ ومن باب قريب من هذا على الملك ألا يسمح باطلاق ألسنة الكاهنة والارجاف ، ومطاردة الآمال والخيالات فى دولته ، لانه يبعث على سوء القول (ص : 442) ، فهذه النصائح للملك يسديها ابن الخطيب اليه لان الرعية عنصر متعاون معه ، مصلحته من مصلحتها ، وكما يجب على الملك أن ينمى الصفات الحميدة فى نفسه كذلك عليه أن يراعى الصفات الحميدة فى رعيته ٠ وفى هذا المقام لابد من أن نذكر أن حضوره « الصورة الشرعية » فى الملك وفى رعيته كان واضحا لدى ابن الخطيب بينما كاد يكون مختفيا لدى أبى حمو ـ وهذا أمر كان ابن الخطيب مهد له فى الفرشة المسرحية لرسالته (ص : 432) ٠

بل ان ابن الخطيب يذهب الى أبعد من هذا حين يعتبر الملك شبه خادم للرعية فى مصالحها بحيث يرضى « بالسهر لتنويمهم ، وحراسة كهلهم ورضيعهم ، والترفع عن تضييعهم » (ص : 433) ، وهذا ما جعل جانب « الرفق » بالرعية والاحسان اليها وتوفير

وسائل العيش المريح لها أبرز بكثير من جانب « العدل » فيها « سياستها » ، وشواهد هذه الناحية كثيرة فى رسالة ابن الخطيب لكن أبرزها الفقرة عن أقوات الرعية ، قال : « وجمل المملكة بتأمين الفلوات ، وتسهيل الاقوات ، وتجديد ما يتعامل من الصرف فى البياعات ، واجراء العوائد مع الايام والساعات ، ولا تبخس عيار قيم البضاعات ، ولتكن يدك عن أموال الناس محجوزة ... (ص : 443) .

غير أن هذا لا يعنى أن ابن الخطيب نسى أن يتحدث عن الدور الاساسى الذى يقوم به الملك فى دولته ، وهو دوره السياسى ، بل انه أعطاه قسطا عظيما من اهتمامه ، ووجه للملك نصائح عديدة بشأنه ، بعضها تقليدى ، كان يقول ان على الملك أن يحصن بلاده ويختبر أعوانه ويتشاغل أيام الهدنات (ص : 442) ، وهذه أمور يجد الدارس مقابلا لها لدى أبى حمو ، وبعضها ابتداعى دقيق يدل على وعى شديد وفطنة عظيمة من جانب ابن الخطيب ، فهو ينصح الملك بأن يصرف الجند عـن الافتتان بأهليهم وديارهم (ص : 435) ، وأن يحول بين عماله وبين تضمنهم أموال أعمالهم ، وألا يجمع للعامل الواحد بين الاعمال ، ويحرص على أن يكون العامل غريبا فى ولايته ، منتقله من الملك قريب (ص : 437) . كذلك على الملك أن يحذر من خدامه من قـــويت شهـواته ، لان الشهوات تنازع الملك فى استرقاقه (ص : 438) ، وأن يشرب قلوبهم أن الحق فى كل ما حاوله ، والباطل فى كل ما اعتزله (ص : 438) ، ويجب على الملك أن يبقى العمال بين الخوف والرجاء (ص : 436) وأن يدرك أن حالهم فى الغالب شديد الشبه بحالــه هو (ص : 436) .

ومن مهام الملك أن يكفيهم من رزقهم فلا يتصدون لدنىء الموافق ، ويجتنب منهم كل مـن كان الغالب عليه التخرق فى الانفاق وعـــدم الاشفاق والتنافس فى الاكتساب (ص : 436) ، كما يجتنب الوزير الذى تتطاول همته الى الملك (ص : 434) ، والعامل الذى يظل ابدا ساخطا من قدره من العطاء (ص : 436) على ان الاهتمام بالدور السياسى الذى يلعبه الملك لا يجعل ابن الخطيب غافلا عن دوره العمرانى ، رغم ان هذا الـــدور لا يؤثر تأثيرا مباشرا عليه وفى نظر ابن الخطيب ان الغرض من العمران بقى الذكـــر وتخليد الآثار (ص : 141) وهذان مما يطلبهما الملك .

يستنتج من هذا كله ان اتساع المنطلق الاساسي للنظرية السياسية لابن الخطيب قد وسع مفهوماته من المطلوب من الملك ، فيما حدث العكس لدى أبا حمو ، لذلك جاءت رسالة ابن الخطيب اشمل بكثير ، وأوعى لموضوعات متنوعة اكثر من كتاب أبى حمو ، رغم أنها ـ من حيث الحجم ـ كانت لا تتجاوز الخمس عشرة مقابل كتاب أبى حمو الواقع فى 174 صفحة ٠ ولا شك أن القدر الاكبر من محدودية نظرية أبى حمو يعود الى انه هو نفسه كان ملكا ، فكان الملك بطبيعة الحال مدار اهتمامه الاكبر ، وكان أيضا فى تجربته السياسية ـ ملكا يتهدد ملكه كل دقيقة اعداء اقوى منه ، فيخرجونه من ملكه ويضطرونه الى « المخاطرة فى سبيل السلطان » مرة اثر أخرى ، وهذا جعل قضية « سلامة الملك واستمراره فى ملكه » امرا غالبا عزيزا لو وجه كل شيء فى سبيل الابقاء عليه لما كان هذا بكثير ، وكل هذا اثر فى نظريته وجعل شمولها ـ فى بعض الاحيان ـ شمولا خاصا باوضاع أبى حمو نفسه ٠ اما ابن الخطيب فلم يكن ملكا ولذلك لم ير الامور من وجهة نظر الملك وحسب ، وان كان كبيرا فى الرعية ، ولذلك احتلت الرعية عنده مكانا عاليا مقاربا من مكان الملك فى الفعالة السياسية والعمرانية وعندما جاء ليكتب رسالة فى السياسة يشرح فيها القواعد العامة التى يجب ان تحكم تصرف الملك ، كان لديه تجربة عريضة وثقافة سياسية واسعة وتفكير مرتب واضح ، فاجتمعت كل هذه وانصهرت معا لتاتى برسالة صغيرة فى الحجم، كبيرة بما فيها من قضايا وتوجيهات ٠ ولو أتبع ابن الخطيب طريقة أبى حمو بالرجوع الى المصادر ونقل الامثلة والحكم وغير ذلك منها لجاء كتابه على أضعاف حجم كتاب أبى حمو ٠

ويمثل ابن رضوان النجارى الخزرجي ثانى كتاب السياسة فى عصر أبى حمو وقد كانت السياسة موضوع كتابه « الشهب اللامعة فى السياسة النافعة » ٠ وقد كتبه بطلب من السلطان أبى سالم المرينى الذى تولى سلطان المغرب بين سنتى 760 و 762 ، ولذلك فالكتاب لابد أن يكون قد كتب فى تلك الفترة ٠ وقد درس هذا الكتاب من قبل الدكتور احسان عباس (183) ، فتحدث عن مصادره المتنوعة من كتب التاريخ مثل

183) انظر « ابن رضوان وكتابه فى السياسة » فى كتاب العيد ، الجامعة الاميركية فى بيروت ، 1967 ، ص : 99 — 154 ٠

تواريخ الهمذانى والصابى والمأمونى ، الى كتب الاخلاق مثل سلوان المطاع لابن ظفر ، الى المصادر العامة المعنية بالاخلاق والسياسة مثل عيون الاخبار والعقد ، فكتب الطوائف مثل الهفوات النادرة للصابى ، وكتب السياسة مثل سراج الملوك للطرطوشى ، وسياسة ابن حزم ، ثم بعض المصادر الثانوية (184) وخرج الى القول ان ابن رضوان اعتمد فى كتابه اعتمادا أساسيا « على الجمع » لا على التأليف أو القيام بابتداع نظرية سياسية خاصة به : فكأن ابن رضوان حين كلف بتأليف هذا الكتاب عاد الى مكتبته واختار منها المصادر التى رآها تعينه على تحقيق غايته ، ثم أفرغ ما فيها فى جذاذات ، ثم رسم لنفسه عدد الفصول وموضوعاتها ، وقسم جذاذاتها بحسبها ، وأدرج كل فئة منها تحت الفصل الملائم ، ولم يتدخل فى ما وراء ترتيب الفصول الا قليلا (185) • ولا يمكن أن يعزى اليه الا النزر اليسير من الافكار فى كتابه (186) • ولقد كان لهذا اثره الكبير فى كتاب ابن رضوان اذ افتقدت فيه « الصورة الموحدة لكل موضوع من موضوعات كتابه ، وجعلت من غير الممكن ايجاد نظرية متماسكة واضحة المعالم له • ومن ثم كانت مقارنته بكتاب أبى حمو غير جائزة • لقد كان أبو حمو يعرف العديد من المصادر التى استعملها ابن رضوان ــ وفى مقدمتها العقد لابن عبد ربه وسراج الملوك للطرطوشى وسلوان المطاع لابن ظفر ــ ولكن نظريته الخاصة كانت تحد من امكانات نقله عن المصادر وتوجهها توجيها خاصا ، ولما كان ذلك الامر مفتقدا عند ابن رضوان ، فقد جاء كتابه أشمل واوعى من كتاب أبى حمو ، وانما افتقدت فيه الروح المحركة التى كانت تسير أبا حمو •

وفيما كان أبو حمو معجبا بالمصادر السياسية ، مقيد الحركة فى الاخذ منها ، كان عبد الرحمن ابن خلدون رافضا لها ولاقرانها من الكتب التاريخية من الاساس ، راغبا فى معالجة موضوعها معالجة جديدة جذرية الاختلاف عن سابقاتها (187) • ولذلك فانه

184) ابن رضوان : 132 ــ 134 •
185) « ابن رضوان » : 132 •
186) انظر تفصيلها فى « ابن رضوان » : 136 •
187) المقدمة 4 ــ 6 ، وانظر : « ابن رضوان » 149 ــ 150 •

عندما جاء ليكتب مقدمته على تاريخه الكبير ، لم يصور ما يجب ان يكون عليه الملك المثالى ، وانما حاول أن يكشف العلة الفلسفية وراء **ما جرى عليه** الملوك فى تاريخهم البعيد والقريب والعلل الثانوية التى كانت تنتج عن هذه العلة فتحرك أقدار الدول والمماليك بالشكل الذى تحركت فيه · وقد تعرض ابن خلدون فى مقدمته لمختلف الموضوعات المتعلقة بالملك والدولة والادارة من ناحية تاريخية استعراضية أو من ناحية تفسيرية فلسفية ، ومن هذه الناحية كانت مقدمته على قدر كبير من الاختلاف عن كتاب أبى حمو ، بحيث أن اقامة المقارنة بينهما أمر لا يجوز · فاذا تذكرنا أن أبا حمو كان يمثل «تكريس الانقسام» فى المغرب ، وأن كتابه يرسخ فكريا ما رسخه أبو حمو نفسه فعليا بوصفه ملكا على تلمسان ، أدركنا مدى ابتعاده من حيث ما يمثله عن ابن خلدون المفكر ، المتطلع الى وحدة المغرب لا الى انقسامه (188) ، غير أن الحديث عن ابن خلدون ونظريته فى السياسة يتطلب تفصيلا منفردا ليس هذا موضعه ·

مصادر البحث ومراجعه

ابن رضوان وكتابه فى السياسة لاحسان عباس فى « كتاب العيد » ، الجامعة الامريكية فى بيروت ، بيروت 1967 ، ص : 99 ـ 154 ·

الاحاطة بالتعريف بعلماء غرناطة للسان الدين ابن الخطيب (ج 15) مخطوط الرباط ، رقم : ك 2704 ·

أزهار الرياض فى أخبار عياض للمقرى التلمسانى شهاب الدين أحمد بن محمد (ج 1 ـ 2) · تحقيق السقا والابيارى وشلبى · القاهرة ، مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر ، 1939 ـ 1940 ·

188) انظر « ابن رضوان » 144 ـ 145 و 154 ·

الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى لابى العباس أحمد بن خالد الناصرى (ج 4) ٠ تحقيق جعفر الناصرى ومحمد الناصرى الدار البيضاء : دار الكتاب ، 1955 ٠

البستان فى ذكر الاولياء والعلماء بتلمسان لابن مريم التلمسانى ٠ تحقيق محمد ابن أبى شنب ، الجزائر : المطبعة الثعالبية ، 1908 ٠

بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد لابى زكريا يحيى بن أبى بكر بن خلدون (ج 1 ـ 2) ٠ الجزائر : مطبعة فونطانة ، 1904 ـ 1910 ٠

تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية للزركشى أبى عبد الله محمد بن ابراهيم ٠ تحقيق محمد ماضور ٠ تونس : المكتبة العتيقة ، الطبعة الثانية ، 1966 ٠

التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا لعبد الرحمن بن خلدون ٠ تحقيق محمد ابن تاويت الطنجى ٠ القاهرة : لجنة التاليف والترجمة والنشر ، 1951 ٠

تهذيب الاخلاق لابى على أحمد بن محمد بن مسكويه ، تحقيق قسطنطين زريق ٠ بيروت : الجامعة الامريكية فى بيروت ، 1966 ٠

روضة النسرين فى دولة بنى مرين لاسماعيل بن الاحمر الرباط : المطبعة الملكية ، 1962 ٠

سراج الملوك للطرطوشى أبى بكر محمد بن الوليد ٠ الاسكندرية : المطبعة الوطنية ، 1289 ٠

سلوان المطاع فى عدوان الاتباع لمحمد بن ظفر الصقلى ٠ طبع حجر ، مصر ، 1278 ٠
كتاب السياسة فى تدبير الرياسة المعروف بسر الاسرار (ضمن كتاب الاصول اليونانية للنظريات السياسية فى الاسلام ، الجزء الاول) ٠ تحقيق عبد الرحمن بدوى ٠ القاهرة مطبعة دار الكتب المصرية ، 1954 ٠

كتاب العبر فى خبر من عبر لعبد الرحمان بن خلدون 4 ـ 1 ٠ 6 ٠ 7 بولاق 1284
كتاب العقد (الفريد) لابن عبد ربه (ج 1) تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين وابراهيم الابيارى ٠ القاهرة : لجنة التاليف والترجمة والنشر ، 1965 ٠

العقد الفريد للملك السعيد لابى سالم محمد بن طلحة القرشى . القاهرة : مطبعة الوطن ، 1311 .

عهد أردشير ، تحقيق احسان عباس . بيروت : دار صادر ، 1967 .

الفارسية فى مبادىء الدولة الحفصية لابى العباس ابن القنفذ القسطنطينى . تحقيق محمد الشاذلى النفير وعبد المجيد تركى . تونس : الدار التونسية للنشر ، 1968 .

اللمحة البدرية فى الدولة النصرية للسان الدين ابن الخطيب . تحقيق محب الدين الخطيب . القاهرة : المطبعة السلفية ، 1347 .

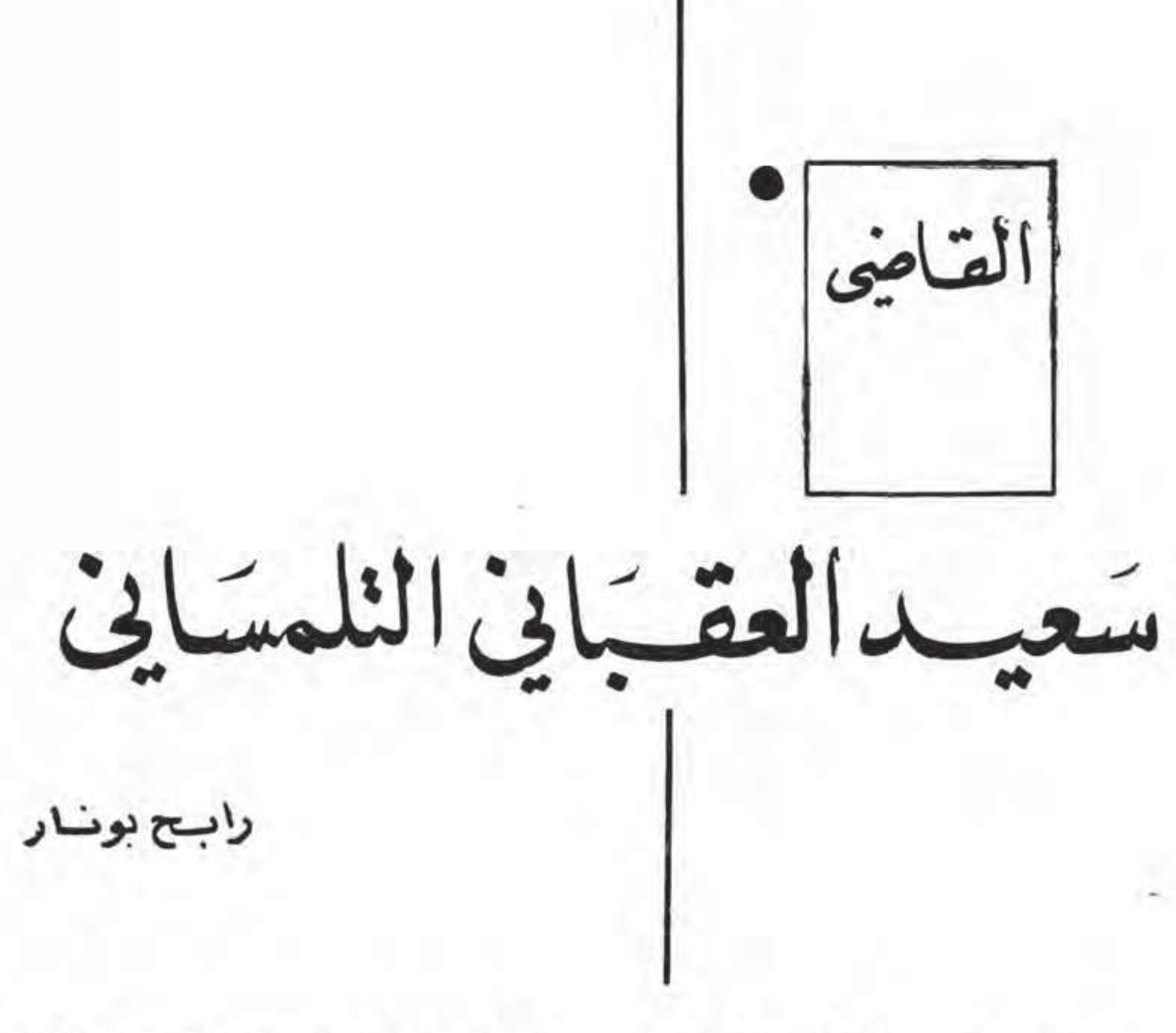
المنهج المسلوك فى سياسة الملوك لعبد الرحمن بن عبد الله . القاهرة : مطبعة الظاهر ، 1326 .

نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب للمقرى شهاب الدين أحمد بن محمد (ج 6 و 7) . تحقيق احسان عباس . بيروت : دار صادر ، 1968 .

نقد الشعر لقدامة بن جعفر . تحقيق بونيباكر . ليدن : بريل ، 1956 .

واسطة السلوك فى سياسة الملوك لابى حمو موسى بن يوسف الزبانى . تونس : مطبعة الدولة التونسية ، 1279 .





القاضي سعيد العقباني التلمساني

رابح بونار

تمهيد : لقد سجل القرن الثامن الهجـري بتلمسان وغيرها من مدن الجـزائر ازدهارا كبيرا فى الدراسات الفقهية القانونية كما سجل نشاطا كبيرا فى مختلف العلوم كالتاريخ وعلوم اللغة والادب ومباحـث الكـلام والرياضيات وغيرها وقد كان لكتاب الدراسـات القانونية والفقهية المقام الاول فى هذا العصـر ، وكانت لهم الاسبقية والايثار على رجال الثقافة الذين يعاصرونهم واهم ما تنبغى ملاحظتـه هنا ان اعلام القانون فى هذا العصر لم يكونوا مـن النقلة الحفاظ لا غير ، وانما كانوا يميلون الى اعمال الراى الـى الاجتهـاد فى دائرة المذهب المالكى ومنهم المترجم سعيـد العقبـانى واذا رجعنا الى كتب التراجم وتصفحنا تراجم بعض الشخصيات الفقهية اللامعة وجدنا من بينهم ابنى الامام ابى موسى عيسى المتوفـى سنـة ٧٤٩ هـ وابا زيد عبد الرحمن (١) المتوفى سنة ٧٤٣هـ ومحمد ابراهيم الآبلى (٢) المتوفى سنـة ٧٥٧هـ وابا عبد الله محمد بن احمـد العوينى الشريف التلمسانى (٣) المتوفى سنة ٧٧١هـ .

وأبا عبد الله محمد بن احمد بن مرزوق بن مرزوق التلمسانى الشهير بالخطيب (٤) المتوفى سنة ٧٨٦ هـ ونجد الى جانب هؤلاء الفقهاء الاعلام شخصيات اخرى لا تقل عنهم شأنا فى الابحاث الفقهية والدراسات القانونية الواعية منهم عمران بن موسى المشذالى البجائى (٥) الذى هاجرها الى تلمسان وانتصب فيها للتدريس الى ان توفى سنة ٧٤٥ هـ ومنصور ابى على الزواوى المتوفى بعد سنة ٧٧٠ هـ (٦) وغير هؤلاء ممن كانوا بتلمسان او ببجاية وقد نبغ مترجمنا سعيد العقبانى فى تلمسان فى هذا العصر وكان فى طليعة اعلامه ممن يفتخر بهم عصره ، وتزدان بهم حاضرته تلمسان ، وقد حفزنى باعث التعريف به وبنشاطه العلمى على ان اخصه بهذه الترجمة وبدراسة مقتضبة حول بعض انتاجه العلمى .

ترجمته : سعيد بن محمد العقبانى التلمسانى ولد سنة ٧٢٠هـ وتوفى سنة ٨١١هـ (٧) والعقبانى نسبة لعقبان وهى قرية من قرى الاندلس التى يعود اليها اصله وقد هاجرت اسرته الى تلمسان واستقرت بها . يقول فيه معاصره يحيى بن خلدون : (٨) انه اول نجباء بيته وهو ذو نبل ونباهة ودراية وتفنن فى العلوم ومهارة فى الحساب والهندسة وأما صاحب الديباج فانه يذكر لنا شيوخه ومؤلفاته فيقول فيه انه امام فاضل فقيه فى مذهب مالك متفنن فى العلوم .

شيوخه : اخذ عن ابنى الامام ابى زيد وابى موسى وتفقه عليهما واخذ الاصول عن الامام الابلى . ويذكر انه ولى القضاء ببجاية والعلماء يؤمئذ متوافرون كما ولى قضاء تلمسان وله فى القضاء مدة تزيد على ٤٠ سنة .

ويزيد صاحب نيل الابتهاج قائلا (٩) : ان اصله من الاندلس تجيبى النسب وهاجر الى

صفحة من رسالة العقباني في الموضوع

تلمسان ومن شيوخه الحافظ السطى الذى اخذ عنه الفرائض وكان يقال له رئيس العقلاء ونقل عن ابن صعد انه كان فقيها علامة خاتمة قضاة العدل بتلمسان .

تآليفه : ذكر مترجموه له جملة مؤلفات فى موضوعات مختلفة :

١) ففى الفقه له شرح جليل على ابن الحاجب الاصلى .

٢) وفى الفرائض له شرح على الحوفى لم يؤلف عليه مثله

٣) وفى التفسير له تفسير سورة الفتح او الفاتحة اتى فيه بفوائد وزاد عليه صاحب نيل الابتهاج تفسير سورة الانعام (١٠)

٤) وفى الكلام له العقيدة البرهانية فى أصول الديــن

٥) وفى اللغة له شرح بردة البوصيرى فى مدح النبى ص

٦) وفى الرياضيات له شرح التلخيــص فى الجبر والمقابلة لابن البناء وشرح قصيدة ابــن الياسمين فى الجبر والمقابلة ايضا .

٧) وفى المنطق له شرح جمل الخونجى .

تلاميذه : اخذ عنه طائفة من الاعلام كولــده قاسم العقبانى ، والامام ابى الفضل ابن الامام، والامام الحجة ابــن مرزوق الحفيــد والــولى العارف سيدى ابراهيم المصمودى والامــام العارف ابى يحيى الشريــف والشيــخ ابى العباس بن زاغو ، واخذ عنه بالاجازة الامــام المحقق النظار محمد بن عقاب الجذامى .

قضاؤه : اشتهر الامام سعيــد العقبانــى بمهارته القضائية وبتفوقه فى المباحث القضائية وكان اول نجباء بيته كما يقول يحيى بن خلدون وقد شغل القضاء مدة تزيد على ٤٠ سنة كمــا قدمنا . فتولى القضاء ببجاية ومراكش وســلا ووهران وتلمسان وحمدت سيرته وكان فى عهد يحيى بن خلدون حوالى (٧٦٠ — ٧٨٠) يتولى قضاء الجماعة بتلمسان وامامة الجامع الاعظم فيها . وقد أكسبه القضاء ومهارته فى الرياضيات قوة على الجدل والمناظرات وصل فيــها الى درجة الشريف التلمســانى وكــان كلاهمــا يستشرف الى درجة الاجتهاد المذهبى .

ونريد ان نذكر هنا صورة عن مناظر طريفة وقعت بين المترجم وبين الامام احمــد القبــاب الفاسى (١١) وكان علامة جليلا وهى تعطينا صورة جلية عن النشاط الفقهى والتعمــق فى مباحثه ومحاولة الاجتهاد فيما لا نص فيه للايمة السابقين وكان أعلام القانون فى هذه الفتــرة يستشرفون الى الاجتهاد المذهبى ومناقشة آراء الفقهاء السابقين كما نجد ذلك عند المترجم وعند الشريف التلمسانى وابن عرفة بتونس وابن لب والشاطبى بالاندلس وغيرهم وهذه المناظــرة التى دارت بين هذين العلمين من أعلام المذهب المالكى بعد منتصف القرن الثامن الهجرى تبدو فيها محاولة الاجتهاد واضحة جلية، لان موضوع المساجلة لم يتعرض له الفقهاء قبل ذلك ولــم تكن هناك أحكام سابقة تتضمن البت فيها هذا ما دعا الفقيهين سعيد العقبانى واحمد القباب ان يجتهدا فى استنباط الحكم الشرعى المناسب وأن يستعمل كلاهما مختلف الادلــة النقليــة والعقلية لابراز الحقيقة وافحام الخصم .

ومن الطريف ان نذكر أن موضوع هذه المناظرة يتصل بضرب من ضروب **التامــين الاجتماعى** وصلت اليه بعض النقابات الحرفية فى هذا العهد الاسلامى كما ورد فى مسألة المناظرة ولا يبعد ان يكون هذا النمط شائعا فى جميع حواضــر المغرب الاقصى والادنى وتونس ولعل فى هذا النموذج ما قد يطلعنا على تنظيم محكم للتجارة والصناعة التقليدية وينمى معلوماتنا عن النشاط التجارى وأنظمته الاجتماعية الدقيقة فى عصر ما بعد الموحدين .

وقد كان الباعث على احداث هذا النوع من التأمين الاجتماعى للتجار هو ما كان ينصــب عليهم احيانا من ضرائب تفرضها الدولة عليهم فكان هذا التنظيم وسيلة لتخفيف هذه الضرائب وتحمل اعبائها أما المنتجون من الحاكة وغيرهم فقد كانوا كما تبدو لنا حالتهم الاقتصادية مــن خلال المناظرة قليلى الارباح ، عديمى الثروة ، واثمان منتجاتهم كانت لا تزيد على لوازم نفقاتهم ومعاشهم بخلاف التجار فانهم كانوا احسن منهم حالا ، واكثر اموالا .

موضوع المناظرة : جاء فى الدرر المكنونة فى نوازل مازونة (١٢) : ان جماعة من التجـــار بمدينة سلا بالمغرب الاقصى اتفقوا على اخراج درهم عن كل بضاعة يشتريها واحد منهم لتوضع عند **أمير التجار** ، وعند الحاجة اليها فى دفـــع الضرائب يستعان بـــها ، واشتكى الحاكـــة البائعون من ذلك واستفتوا سعيـــد العقبانى وكان قاضيا بسلا فأجابهم بالجواز ثم استفتوا الفقيه أحمد القباب بالرباط فأجابهـــم بالمنـــع ووقعت مناظرة كتابية بينهما وعقبتها مناظرات أخرى جمعها القاضى العقبانى فى كتاب دعـــاه (الباب اللباب فى مناظرة القباب) ووجهة نظر العقبانى تتلخص فى أن هؤلاء التجار قد اتفقوا فيما بينهم عن تراض على ان يجمعوا هــــذه الدراهم لوقت الحاجة وهى مملوكة لهم ملكيـــة مشتركة فى صندوق أشبه ما يكون بصنـــدوق تضامن لهؤلاء التجار فهى لذلك جائزة ومشروعة

اما القباب فانه رأى فى هذا الاتفاق تواطؤا على الحاكة البائعين ولذلك افتى بأن الدراهم المجموعة هى ملك لاولئك البائعين لا للتجار .

ولاعطاء صورة واضحة عن هذه المناظـــرة الطويلة وبسط حجج الفقهيين معا بايجـــاز نوردها فى صورة حوار فيما يلى :

سعيد العقبانى : ان هذا الدرهم المخرج من ثمن السلعة المشتراة هل يستوجب نقصـــا لاثمان الحاكة أم لا وهل يتعلق للبائعين بذلـــك حق ؟ مع علمهم بما اقدم عليه التـــجار اثنـــاء التعاقد ، وأن البائع منهم لا يبيـــع الا بعـــد أن يستوفى حقه من السلعـــة ، والمشتـــرى اذا اشتدت رغبته فقد يشترى بأكثر من الثمن الذى يدفعه فى حال فتور رغبته ، وعلى العكس من ذلك اذا كان البائع أحرص على البيع فقـــد يتساهل فى الثمن ، فما الذى يشوب بيعا وقع مستوفيا شروطه وأركانه ولو كان ثمن البضاعة غاليا أو رخيصا ؟

على اننا نفرض أن المشترى لو تقاعس عن الزيادة فى السلعة لزهده فيها فان شراءه مـــن البائع المضطر يكون صحيحا لانتفـــاء عيوبـــه المبطلة ؟ (١٣)

وايضا فان فقه المسألة يظهر فى ان البائعين لا حق لهم فى ذلك الدرهم المخرج ولا فى منـــع التجار المشترين من توظيفه على انفسهم لان البيع وقع صريحا بثمن مسمى وعليه سلم البائع منهم بضاعته ورضى بذلك فلا حجة لـــه بعـــد ذلك !

القباب : لا يجوز للتجار ان يتواطؤوا على ان لا يزيدوا على ثمن معين لان فى ذلك ضـــررا لهؤلاء الحاكة ؟ وكل اضرار بالمسلم حرام . وقد قال الاما مالك : لا **ينبغى للنفر** ان يجتمعـــوا فيقولوا لا نزيد فى الثمن على كذا .

العقبانى : انه لا دليـــل على أن التجـــار تواطؤوا على أن لا يزيدوا فى السلع وذلك غير مسلم وانما اتفقوا على اخراج درهم من كـــل سلعة يشتريها أحدهم (١٤)

القباب : لا يمكن التسليم بعدم التواطؤ بـــل ان كل تاجر يضع حسابا للدرهم المدفوع عنـــد شرائه فيحاول أن ينقصه من ثمن السلعة وفى هذه مضرة واضحة للبائع (١٥) .

العقبانى : اذا سلمنـــا بمضـــرة البائعـــين فليتواطأ هؤلاء البائعون ايضا ليدفعوا هــــذا النقص عن انفسهم على أن لا يبيعوا الا بزيادة هذا الدرهم ما دام المشترون قد اتفقوا وكل من الطرفين حر مختار فى تعاقده واتفاقه .

القباب : لو سألنا اهل المعرفة فى هذه المسألة لقالوا أن التحامل يقع على الباعة دون التجار .

العقبانى : لا نسلم ذلك فقد نجد التاجر الشديد الحرص من هؤلاء قد يتحامل على نفسه فى شراء سلعة ويقدم على شرائها بثمن غال باهض فأين التحامل فى هذا ؟

القباب : ان التجار يعملون دائما على الحطيطة من ثمن البضائع المشتراة .

العقبانى : لاشك ان البائعين من الحاكة قد يعرضون سلعة بالسوق ويساومها غير التجار من المستهلكين ثم يتدخل التجار ويتزايدون فيها حتى يأخذوها بأكثر مما دفعه المشترى العادى فكيف يمكن الادعاء بعد ذلك من ان التاجر قد اخذها بأقل من ثمنها وانه لجأ الى الحطيطة .

ولنا صورة توضح لنا هذا الايراد وهى أن رب السلعة لو باع سلعته بـ ١٠ دراهم لمن لا وظيف عليه ولم يلتزم باخراج الدرهم من كل سلعة يشتريها ، ثم ان وكيلا له باع نظيرها بـ ٢٠ درهما من احد هؤلاء التجار الملتزمين لهذا الوظيف فهل فى امكان المعترض ان يقول ان الواجب على التاجر أن يزيد درهما على ٢٠ درهما آخر مما يقدمه الى صندوق التضامن فان قال نعم فقد طلب ما لا يقبله عقل لان التاجر زاد على المشترى العادى نصف الثمن وان قال بأنه لا يزيد فقد نقض حجته من اساسها (١٦) .

القباب : ما قول المعترض فيما قاله مالك كما جاء فى كتاب ابن المواز لا بأس ان يقول الرجل للرجل كف عنى لا تزد على فى هذه السلعة ، وأما العامة اهل السوق فلا يجوز لهم ان يتفقوا جميعا على ذلك ، وفى عمل التجار ما يشبه هذا !

العقبانى : لا اسلم ان التجار يمتنعون من الزيادة والواقع أنهم رغم التزامهم باخراج هذا الدرهم يتزايدون فيما بينهم واذن فاين الامتناع من الزيادة المزعومة ؟

اما مسألة الموازية فانما تشمل تمالؤ اهل السوق على ترك الزيادة ومسألة النزاع يوجد فيها هذا النوع من الاتفاق .

القباب : ان البائعين مضطرون للبيع وتواطؤ التجار ثابت فكيف نبيح لهم ذلك ؟

العقبانى : ليت شعرى لو قال التجار اننا لا نشترى سلع هؤلاء الحاكة بقليل ولا بكثير ولو ماتوا جوعا فهل كان يحل لاحد ان يلزمهم شراء تلك السلع ؟ ! فان لم يكلفوا بشرائها وهذا ما تتطلبه عقود البيع والمعاملات ، فكيف يلزمون بثمن معين ؟ وانما أوجب الله على الاغنياء أن يواسوا الضعفاء وأما شراء سلعهم فلا يعرف ايجاب شرائها والبيع من شروطه الطوع والاختيار ، على اننا مع هذا نقول بأنه لو تمالأ اهل الوجود من بائعين ومتبايعين على ترك التعامل لما كان معطلا لامر البياعات لانها من لوازم الحياة الاجتماعية .

القباب : ان البائعين ضعفاء مضطرون للبيع بأى ثمن وجدوا والمشترين لهم مفضول أموال الا ما يوافق اغراضهم وبالاثمان التى يستيقنون منها جلب الارباح ، ومن بواعث المواساة التى دعا اليها الاسلام أن لا يجحفوا بحقوقهم فى البيع .

العقبانى : ان امر المواساة شىء والبياعات شىء آخر الا ترى أن المسافرين قد يبيعون فى حالة الحاجة بأثمان رخيصة وتمضى عقودهم عند جميع الفقهاء ولا يقول واحد منهم ان المشترين قد ظلموهم وايضا لو تصورنا ان البائعين قد اتفقوا على اخراج درهم عن كل سلعة يبيعونها لتوظيفهم افلا يكون المشترون ملزمين بشرائها بهذا الثمن الذى يريده

البائعون ؟ وهل يسلم المعترض فى هذه الصورة بأن الدرهم المخرج هو ملك المبتاع أم انه يزعم بأنه ملك للبائع ، فان قال لاحق للمبتاع فيه فقد نقض حجته فى مسألة النزاع وان قال أنه حقه فقد وافقنا فى وجهة نظرنا وهذا هو المطلوب : واخيرا يختم العقبانى مناظرته قائلا بأن العلامة القباب قد أذعن لحجته ، وسكت عن اثارة اعتراضات أخرى حول فتياه ، وقد حاول العقبانى ان يعطينا حلا لهذه المشكلة التى استعصت على الانظار الفقهية أن تجد لها حكما قاطعا فقال : ان سر هذه المسألة ان ما يفعله التجار من مثل هذا الاتفاق ان كان غرضهم منه هو الاضرار بالحاكة البائعين فانهم يمنعون منه عملا بالمبدأ العام لا ضرر ولا ضرار ، وان كان غرضهم نفع أنفسهم والضرر انما جاء تبعا غير مقصود فلا معنى لمنعهم منه .

تعليق : واذا تتبعنا هذه المناظرة بتأن وامعان استشففنا منها النشاط الذهنى لفقهاء القرن الثامن والتحرر الفكرى الذى كانوا يمتازون به فى خوض مباحث جديدة لم يطرقها من سبقهم من الفقهاء ، ومحاولة الاجتهاد فى ايجاد سند قانونى لاباحتها أو حظرها وهذا ما تقدمه الينا هذه المناظرة الطويلة التى لخصناها فى الصفحات الماضية وهى تظهر لنا كلا الفقيهين المتناظرين واسعى الاطلاع ، معتمدين على أعمال العقل غير اننا نجد العقبانى طويل الباع فى جدله ، واسع التصرف فى ايراد مختلف الحجج لتبرير وجهة نظره القانونية المحضة ونجد القباب من جهة أخرى يحاول ان يدخل العنصر الانسانى فى التعاقد حتى لا يقع اجحاف على المتعاقدين وهو لا يكتفى بصورة العقد الشكلية وانما ينظر الى الغاية والنتيجة هل تسلم من نتائج الاستغلال التى يحاربها الاسلام .

ويبدو لنا ان القباب كان يتصور بأن كل اتفاق يصدر من جماعة ما تتعامل مع جماعة أخرى قد يشوبه التواطؤ وتشمله الحرمة بالتالى ، ولكن العقبانى قد أوضح لنا بأن كل اتفاق لم يكن ضد الاخرين وانما كان لمصلحة المتفقين فهو جائز رغم ما قد يلحق أولئك من بعض الضرر غير المتعمد.

والعقبانى نجده فى هذه النتيجة يقترب من نظرية التعسف فى استعمال الحق وهى موجودة فى الفقه الاسلامى ولكنها لم تنسق مباحثها كما فعله كتاب القانون فى العصر الحديث وهذه النظرية تنقسم الى معيار شخصى ومعيار مادى (١٧) والمعيار الاول يرى أصحابه أن التعسف لا يوجد الا اذا توافر قصد الاضرار بالغير لدى صاحب الحق ، والمعيار المادى وأصحابه يرون انه يتجلى فى الخروج عن الهدف الاجتماعى ، وقد استند العقبانى ــ كما رأينا فى اتفاق التجار الى أنهم لم يريدوا الاضرار بالحاكة وانما أرادوا نفع أنفسهم وتخفيف وطأة الضرائب عنهم .

ولو ذهبنا الى البحث عن صور الغبن فى هذا التعاقد لوجدنا أن هذا النوع من الغبن الذى ينصب على الباعة المنتجين ليس فيه غبن بمعناه الفقهى المعروف لان الغبن هو عبارة عن تفاوت كبير بين التزامات أحد العاقدين والتزامات العاقد الاخر ناشىء عن استغلال هذا العاقد الاخر طيشا بينا وهوى جامحا لدى العاقد ، وحد الغبن لا يكون الا اذا بلغ الخمس (١٨) وهو ما لم يصل اليه الغبن الواقع فى قضية النزاع السابقة ، كما أن الاستغلال لا يوجد له اثر فى هذا التعاقد .

واذا جارينا بعض الفقهاء حول موضوع الغبن فانهم يقولون : ان الغبن الفاحش وحده فى العقود لا يعيب الرضا ما لم يصاحبه شىء من الخلابة وعلى هذا استقرت معظم الاجتهادات ذلك لان الغبن المجرد عن كل خديعة لا يدل الا على تقصير العاقد المغبون فى تحرى الاسعار ومعرفة حد البدل العادل ، ولا يدل على مكر

من العاقد الاخر ، ولكل انسان ان يطلب المزيد من المنفعة بالطريق الحر المشروع دون غـش واحتيال (١٩) .

ولكن على شرط ان لا يضر ذلك بالجماعـة كما فى الاحتكار ، وقد انتبه العقبـانى الى أن التجار لو تواطؤوا على ان يشتروا تلك السلعة المعينة لحكـم على اتفاقهـم بالحرمـة ، ولكن اتفاقهم انما انصب على اخراج نسبة ماليـة معينة كلما اشتريت وحدة سلعية لتوضـع فى صندوق تعاونى احتياطى دفعا لمضرة متوقعـة لهم لا ارادة الاضرار بالباعة رغم ما قد تنتج عنه مضرة تبعية غير مقصودة للباعة . وقد اهتدى القباب اخيرا الى أن جميع الاعتراضـات التى اوردها على فتيا العقبانى لم تجد لها سنـدا قانونيا يدعمها ولذلك عدل عن متابعة الاعتراض كما اشار الى ذلك العقبانى فى آخر مناظرته .

على اننا رغم تقديرنا للعلاقة العقبانى فاننـا نجد فى بعض حججه الطابع الجـدلى الـذى يستهدف افحام الخصم ، لا اظهار الحقيقة كما فىقوله : ليت شعرى لو قال التجار اننا لا نشترى سلع هؤلاء الحاكة بقليل ولا بكثير ولو ماتـوا جوعا فهل كان يحل لاحد ان يلزمهم شراء تلـك السلع ؟ فان لم يكلفوا بشرائها ــ وهـذا مـا تقتضيه عقود البيع الرضائية فكيف يلزمـون بثمن معين ؟ وانما اوجب الله على الاغنياء ان يواسوا الضعفاء واما شراء سلعهم فلا يعرف ايجاب شرائها ؟ وفى هذه الحجة طابع جـدلى والا فكيف يتأتى لهؤلاء التجار ان يتفقوا عـلى عدم الشراء وفى هذا اضرار صريح بالباعة ؟ وايضا يقول ان المواساة لهؤلاء الباعة لا تكون بطريق الشراء ؟ ولماذا لا تكون المواساة فىتعاقد يعتمد على التعويض والحديث « بع سمحـا واشتر سمحا » يشير الى هـذا النـوع مـن المواساة ، وقد تكون المواساة مع منتج ضعيف ليست لديه قدرة على التسويق افضـل مـن اللجوء الى مواساته عـن طريـق الصدقـة والاحسـان .

وايضا فقوله لا نشترى سلع هؤلاء الحاكـة ولو ماتوا جوعا ــ هو التزام حرفى لشكلية عقود البيع واغفال للعامل الانسانى الذى يستهدف التعامل فى الشريعة الاسلامية مما قد تدعـو الضرورة ــ تحت تأثيره الى اغفال حكم ما عن التنفيذ كاغفال حكم السرقة فى عام المجاعـة وكتضمين دية من وجد ميتا جوعا فى عرصة قوم الذى اخذ به الخليفة عمر بن الخطـاب رضى اللـه عنـه .

وكان سعيد العقبانى قد شعـر بضعـف ايراداته السابقة فاستدرك ان ذلك الافتراض لا يقع لانه لو تمالأ اهل الوجـود من بائعـين ومتبايعين على ترك التعامل لما كان ذلك معطلا لامر البياعات لانها من ضـرورات الحيـاة ، واخيرا نلاحظ ان هذه الخصوبـة الفكريـة فى الابحاث الفقهية التى لمسنا لمحات منهـا عنـد العقبانى والقباب ونلـمس نظائـرها لـدى معاصريهم من الفقهاء كالشريف التلمسانى وابن مرزوق الخطيب وعمـران البجائى والمشـذالى والشاطبى وابن عرفة وعند من خلفهم من علماء القرن التاسع الهجرى قد تراجعت فى القـرن العاشر وما بعده حتى صار الامثال من الفقهاء فيه هو من يحفظ النصوص من المختصرات لا غير ، واما الغوص عند دراسة الاحكام فى أمهات الكتب والرجوع الى اقوال الامام مالك بـدون واسطة ومحاولة الاستنباط من القرآن والسنة واعمال الفكر كما فعله العقبانى ومعاصروه فلم يكن يفكر فيه احـد .

وقد تبدو الان حاجة طلاب الفقه والقانـون شديدة لربط دراستهم الفقهية الحديثة بدراسات اعلام الفقه فى القديم كما قد يجـدون لديهـم ابحاثا طريفة وعميقة قد لا تقل أو تفوق عن بعض ابحاث فقهاء العصر الحديـث .

هوامش :

(١) احمد بابا السودانى التنبكتى : نيل الابتهاج . مصر ١٣٥١ هـ — ص ١٦٦
ابن مخلوف : شجرة النور الزكية ج ٢ ص ٢٢٠ —
المقرى احمد : نفح الطيب ج ٧ ص ٤٤٤
يحيى بن خلدون : بغية الرواد ج ١ ص ٧١ — ابن مريم البستان ص ١٢٢
البستانى فؤاد افرام : دائرة المعارف بيروت ١٩٥٨ م — مج ٢ ص ٣٤٩
الحفناوى : تعريف الخلف برجال السلف الجزائر ١٩٠٦ م ج ١ ص ٢٠١ — ٢١٣

(٢) نيل الابتهاج ص ٢٤٥ — شجرة النور الزكية ج ٢ ص ٢٢١ — ابن خلدون عبد الرحمن : التعريف تحقيق ابن تاويت ص ٣٣ — نفح الطيب ج ٧ ص ١٦٧ — جذوة الاقتباس لابن القاضى ج ٢ ص ٧ — بغية الرواد ج ١ ص ٦٧

(٣) نيل الابتهاج ص ٢٥٥ — البستان ص ١٦٤ — ١٨٤ والتعريف لابن خلدون — تحقيق ابن تاويت القاهرة ص ٦٢ — وبغية الرواد ج ١ ص ٥٧

(٤) السيوطى : بغية الوعاة مصر ١٣٢٦ هـ ص ١٨ — ابن فرحون الديباج المذهب مصر ١٣٥١ هـ ص ٣٠٥ — نيل الابتهاج على هامش الديباج ص ٢٦٧ — نفح الطيب ج ٣ ص ٣١١— ٣١٩ — البستان ص ٣٠٥ — ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٣ ص ٣٦٠ — ٣٦١ — كحالة عمر رضا : معجم المؤلفين ج ٢ ص ١٥٦ — ١٥٧ . (٥) نيل الابتهاج ص ٢١٥ — ٢١٧ — بغية الرواد ج ١ ص ٧٢ — نفح نفح الطيب ج ٧ ص ١٤٨

(٦) نيل الابتهاج ص ٢٤٥ — ج ١ ص ٧٤ — ابن خلدون شجرة النور الزكية ج ٢ ص ٢٣٤

(٧) ابن مريم — البستان ص ١٠٦ — الديباج المذهب ص ١٢٤ — نيل الابتهاج ص ١٢٥ — بغية الرواد ج ١ ص ٦٠ — معجم المؤلفين لكحالة ج ٤ ص ٢٣٠

(٨) بغية الرواد ج ١ ص ٦٠ — (٩) نيل الابتهاج ص ١٢٥

(١٠) نيل الابتهاج ص ١٢٥

(١١) احمد القباب كان فقيها حافظا علامة تولى قضاء جبل الفتح ودخل غرناطة سنة ٧٦٢ هـ ومن تآليفه اختصار أحكام النظر لابن القطان اسقط فيه الدلائل والاحتجاج وشرحه على القواعد فى غاية الاتقان وله مباحث مشهورة مع الامام الشاطبى فى مسألة مراعاة الخلاف فى المذهب احسن فيه غاية ، ويذكر عنه أنه لما حج واجتمع فى تونس بابن عرفة واوقفه ابن عرفة على ما كتب من مختصره الفقهى فقال له صاحب الترجمة ما صنعت شيئا فقال له ابن عرفة : ولم ؟ فقال لانه لا يفهمه المبتدىء ولا يحتاج اليه المنتهى ، فتغير وجه الشيخ ابن عرفة والقى عليه أسئلة اجابه عنها ، وهذا ما حمل ابن عرفة على بسط العبارة فى أواخر مختصره .

وأشار صاحب نيل الابتهاج الى هذه المناظرة التى وقعت بينه وبين العقبانى وهناك مناظرات اخرى وقعت بينهما وقد جمعها العقبانى فى كتاب سماه بباب اللباب فى مناظرة القباب (راجع نيل الابتهاج ص ٧٣)

(١٢) المازونى : الدرر المكنونة فى نوازل مازونة مخطوط المكتبة الوطنية .
نسخ محمد بن الصديق المشرفى ١٢٤٥ هـ ج ١ الورقات ٤٧٣ — ٤٩٠

(١٣) الدرر المكنونة الورقة ٤٧٤

(١٤) المصدر السابق الورقة ٤٨٧

(١٥) المصدر السابق الورقة ٤٧٩

(١٦) المصدر السابق الورقة ٤٨٢

(١٧) هشام القاسم : المدخل الى علم الحقوق ، دمشق ١٩٦٥ ص ٢٧١

(١٨) هشام القاسم : محاضرات فى القانون المدنى : دمشق المطبعة الجديدة ١٩٦٨ م ١٩٦٩ م ص ١٤١

(١٩) مصطفى احمد الزرقاء : المدخل الفقهى العام بيروت . دار الفكر ١٩٥٢ م ج ١ ص ٤١٧

(٢٠) الدرر المكنونة فى نوازل مازونة المصدر السابق ج ١ الورقة ٤٨٢

إبراهيم بن أحمد الفجيجي وقصيدته المطردة "روضة السلوان"

رابح بونار

يخيل الى الباحث فى الحركة العلمية والادبية فى القطر الجزائرى أن أعلام الفكر الذين نبغوا فيــه ينتسبون كلهم الى الشمال . أما الصحراء فهى غفل من رجال العلم والادب ، ذلك لاننا اذا تصفحنا تراجم هؤلاء الرجال فى مختلف المراجع التى بين أيدينـا كنيل الابتهاج للتنبكى ، وعنوان الدراية للغبرينى، والبستان لابن مريم ، ودوحة الناشر لابن عسكر ، ونفح الطيب للمقرى ، فاننا نجد أن المترجم لهم فى هذه الكتب تعود كثرتهم الغالبة الى حواضر المدن الشمالية .

ويستنتج البـاحث من ذلك ان مدن الصحــراء تكاد تكون مقفرة من الدراسات العلمية فى العصر الوسيط .

والحقيقة انه على الرغم من تخلف الحواضــــر الجنوبية نسبيا عن حواضر الشمــال ، فان ذلــك لا يبيح لنا أن نحكم عليها بالجدب الفكرى ، او الفراغ العلمى فى هذه الفترة ؛ ذلك لاننا اذا بحثنا عــن معالم النشاط العلمى فيها نجد فى كل عصر أقباسا هنا وهنا تنير طريق الدراسات العلمية والادبية .

وقد ازدهرت فى كثير من هذه الحواضر الدراسات العلمية ، والادبية بعض الازدهار ، كوارجلان التى تعد أسبق الحواضر تقدما علميا ، واجلها شانــا لكثرة من نبغ فيها ، وكذلك حاضرة بسكرة التى كانت من أحفل المدن الصحراوية ، وأكثرها نشاطا علميا فى مختلف العهود ، وقد عاش ابن خلــدون فيها مدة ، وأفاد اهلها .

ومثلها مدينة توات التى ازدهرت فيها الدراسات الفقهية ، والــكلامية والادبية فى القــرن التاســع ومــا بعده .

واخيرا نصل الى فيقيق ، او فجيج التى نبغ فيها جماعة من الاعلام ، من أجلهم المترجم له ابراهيــم ابن أحمد الفجيجى .

تــرجـمـتــه :

ابراهيم الفجيجى ، هو ابراهيم بن أحمد الشريف الرحالة ، وهو لا تعرف سنة ميلاده ، ولا سنة وفاته بالتحديد ، وقد نشأ فى أرض صحراوية تحــت كنف الواحات الرائعة ، وفى ظلال النخيل الوارفة ، واغرم بمعاناة الصيد ، ومطاردة الطرائد من أرانب وغزلان وحبارى وغيرها منذ صغره ، تأثر بكل ذلك وانطبع به شعره بعد أن نضجت ملكته الادبية .

رحلتــه فى طلب العلــم :

وقد رحل ابراهيم الفجيجى فى طلب العلــم الى فاس ، وأخذ فيها عن اساتذتها المشاهــير فى الدراسات العلمية والفقهية كالاستاذ الصغــير ، والشيخ ابن غازى ، وابى العباس أحمد الونشريسى صاحب المعيار وغيرهم .

ثم انتقل منها الى تلمسان ، وأخذ فيها عــن بعض أعلامها فى العلوم الاسلامية كالامام محمد بن يوسف السنوسى ، والامام ابن مرزوق ، والعقبانى والحافظ التنسى وغــيرهم .

ارتحــاله الى المشــرق :

وفى أواخر القرن التاسع الهجرى ارتحل المترجم له الى المشــرق ، وأخــذ بمصر عن جــلال الدين السيوطى ، والبساطى ، وابن النجار الحنــفى ، ،أخذ بالمدينة المشرقــة عن السخاوي والاشمونى، وغــيرهم ، وله عن جميعهم اجازات ومنـــاولات ومسلســـلات (1)

عودتــهمن المشــرق :

وعاد المترجم له من المشرق الى وطنه بفجيــــج واقام فيه دارسا ومعلما مدة .

وفى هذه الاثناء توفى مواطنــه عبد الحق السكونى الشريف فرثاه بقصيدة لامية جاء فيها :

(1) جذوة الاقتباس لابن القاضى ص 94 — وتعريف الخلف للحفنـــاوى ج 2 ص 3

تغيرت البلدان و احلولك الليل
وشب ضرام الشر وانهمر السيل

وآن الرحيل عن بلاد تآمرت
بها المفسدون واستمر بها الهول

فلا فتكة الا وتنسيك فتكة
ولا فتنة ، الا ويدخلها الغول

ولا صلح الا اثره الف غدرة
ولا قول الا غيره القول والفعل

سلام عليها لا تجاور جيرة
من الجور عتباهم اذا عاتبوا المثل

اتشكر أرض ليس ينهى سفيهها
على خطر يبقى بها من له الفضل

ارتحاله الى السودان :

ويبدو أن صاحب الترجمة لم يلبث الا قليلا بعد وفاة مرثيه السابق ثم عزم أن يرتحل الى بلاد السودان ، وقد يعود ذلك الى اضطراب الحياة الاجتماعية الذى عم منطقة فجيج فى هذه الآونة ، ونشأ عنه انتشار الفوضى.وكثرت المظالم والاعتداءات فحمله ذلك على مغادرة وطنه الى بلاد السودان . ولا ندرى المدة التى أقامها هناك ، ولا نشاطه فى موطنه الجديد ، على أنه لا يعدو أن يكون نشاطا تعليميا تبشيريا استمر الى أن توفى بعد سنة 900هـ

مؤلفاته :

ترك صاحب الترجمة بعض آثار منظومة من اشهرها :

1 – روضة السلوان ، وهى قصيدة فى الادب الطردى أو ادب الصيد .

2 – منظومة فى الديانات ، ضمنها عيون الفقه ونوادر المسائل وسماها « المفيدة » .

3 – ومقطوعات أخرى كالمرثية السابقة ، ومنها بيتان رواهما أبو القاسم الفجيجى شارح قصيدته « روض السلوان » وهما فى نظم نسب النبى صلى الله عليه وسلم ، يقول فيهما :

علقت شفيعا هال عقل قرانه
كتاب مبين كسب لى غرائبه

فذا معشر نفسى كرام خلاصتى
منى اليهم مذ نيل مجد عواقبه

* * *

وقد ضمن أوائل كل كلمة حرفا من اسم أحد آباء النبى صلى‌الله عليه وسلم . فالعين من علقت لوالده عبد الله.والشين لشيبة وهو عبد المطلب.والهاء لهاشم ، والعين لعبد مناف ، والقاف لقصى ، والكاف لكلاب ، والميم لمرة ، والكاف أيضا لكعب ، واللام للؤى ، والغين لغالب ، والفاء لفهر ، والميم أيضا لمالك ، والنون للنضر ، والكاف لكنانة ، والخاء لخزيمة ، والميم لمدركة ، والالف لالياس ، والميم لضر ، والنون لنزار ، والميم لمعد ، والعين لعدنان، وهو الجد المتفق على صحة النسب اليه ، وقد اختلف فيما بعده الى آدم عليه السلام ، وهناك قول ينسب السين للونشريسى أو الزقاق .

كلمة حول مخطوط قصيدة « روض السلوان » وشرحها :

ان قصيدة «روض السلوان» للفجيجى هى من

أجل القصائد فى الادب الطردى . ومن نوادر التراث الفكرى فى الادب العربى بالجزائر ، لان منشئها الفجيجى قد طرق فيها موضوعا شيقا فى الادب الوصفى وهو وصف الطرائد ، وحركات القناصين ، وهذا النوع معروف فى الادب العربى، وقد أنشأ فيه الشعراء العباسيون قصائد جليلة كأبى نواس الذى قال فيه ضمن قصيدة :

لما تبدى من حجابه
كطلعة الاشمط من جلبابه
هجنا بكلب طالما هجنا به
ينتسف المقود من كلابه
كأن متنيه لدى انسلابه
متنا شجاع لج فى انسيابه
كأنما الاظفور فى قنابه
موسى ضناع رد فى نصابه
تراه فى الحضر اذا هاهى به
يكاد أن يخرج من اهابه

ومثله ابن الرومى الذى قال فيه من قصيدة :

وقد أغتدى للطير والطير هجع
ولو أوجست مغداى ما بتن هجعا
بخلين تما بى ثلاثة اخوة .
جسومهم شتى وأرواحهم معا
مطيعين أهواء توافت على هوى
فلو ارسلت كالنبع لم تعد موقعا
فشاروا الى آلاتهم فتقلدوا
خرائط حمرا تحمل السم منقعا

* * *

وقد طرق الموضوع غير هؤلاء من الشعراء ، وأهم ما يلاحظ على قصيدة ابراهيم بن عبد الجبار انها تمتاز بخصائص قد ترفعها عن غيرها من القصائد التى أنشئت فى الموضوع .

ومن أهم ذلك انها قصيدة ذات وحدة موضوعية لا تشتمل الا على موضوع الصيد وما يتصل به ،

وانها قصيدة مليئة بضروب الوصف الحى للبيئة الصحراوية كوصف مجالس البادية ، ووسائل الصيد ، ووصف ذكور الطيور ، والجوارح التى يستعملها القناصون وكذلك وصف الديار ونزول الامطار ونباتات الارض وذكر أحكام الصيد ونشاطه من الوجهة الفقهية .

وتمتاز هذه القصيدة أيضا بأنها قصيدة طويلة النفس قد بلغ عدد أبياتها 214 بيتا من بحر الطويل وفى آخرها يقول :

وفى مائتى بيت تجلت وعشرة
لهن ثلاث للختام توابع
وأهدى صلاة مع زكى تحية
الى خير مبعوث ومن هو شافع

وعلى رغم ما فى هذه القصيدة من جمال وطرافة فانها ينقصها الخيال الادبى ، والعاطفة ، وتثقلها فى كثير من أبياتها الفاظ الفقهاء ، لتغلب الطابع الفقهى على الشاعر .

وقد شرح هذه القصيدة الشيخ أبو القاسم محمد بن عبد الجبار الفجيجى بشرح سماه «الفريد فى تقييد الشريد وتوصيد الوبيد» وقال فى آخره : انه فرغ منه فى 16 ذى الحجة عام 986 هـ .

وتوجد نسخة منه بالمكتبة الوطنية تحت رقم 1509 ، خطها مغربي جميل ، وحجمها كبير ، وهذه القصيدة وشرحها يعدان من نوادر تراثنا الادبي ، وقد شعر الاستاذ نور الدين عبد القادر ، وزميله الحكيم هترى جهير بأهمية هذه القصيدة فنشراها مع تعليق موجز وترجمت الى الفرنسية سنة 1959م ولو نشراها بشرحها الكبير لكان ذلك أكثر نفعا وأجدى صنعا ، لان هذا الشرح يشتمل على فوائد لغوية جليلة ، وقد أحببنا ان نطلع القراء الكرام على نماذج من هذه القصيدة الطريفة ليستعيدوا بمطالعتها لونا من ألوان الادب الطردي الذى يذكرنا بأخلاق الفروسية ، وبعهد الفتوة فى مجال الصيد .

نماذج من هذه القصيدة :

يقول ابراهيم الفجيجى فى مطلعها فى وصف منافع الصيد :

يلومونني فى الصيد والصيد جامع
لاشياء للانسان فيها منافع

فأولها كسب الحلال أتت به
نصوص كتاب الله وهى قواطع

فصحة جسم ثم صحة ناظر
و احكام اجراء السوابق رابع

و بعد عن الارذال مع صون همة
واغلاق باب القيل والقال سابع

و أيضا لعرض المرء فيه سلامة
و حفظ لدينه و ذلك تاسع

و فيه لاهل الفضل و الدين عبرة
و تذكرة لها لديهم مواقع

ويورث طيب النفس والجود والسخا
ويألف منه الصبر من هو جازع

و ينفى الهموم المهرمات عن الفتى
و يقمع وفد الشيب كى لا يسارع

و يورث عند الالتحام شجاعة
و فيه من السر الخفى بدائع

كرعى نظام و افتقاد رعية
و حفظ جناب من عدو ينازع

و تدبير أمر الحرب و الفتك بالعدى
و صيد أسود الانس و الوحش تابع

* * *

ويصف القانص فى بعض أبيات القصيدة فيقول:

بنفسى عفيفا مترفا ذا نزاهة
له فى سماء المجد و السعد طالع

على هيكل نهد و فوق شماله
وقور من الصقور أبيض ناصع

* * *

ويستحضر الذكريات الماضية لايام الصيد فيقول :

أخى هل ترى الايام تجمع شملنا
و نحن على جرد سراع نطالع

لدى كل ربوة و أجراس طيرنا
لها زجل من فوقنا و قعاقع

فنقـضى من السلـــوان بعض غرامنــا
و نجنى جنى اللذات و الدهر خاضع

* * *

ويصف الصقر الذى يصيد به تصويرا بديعـا يجمع بين وصف الحركة واللون حتى يخيل الينـا اننا نراه أمامنا فيقول :

عظيم ثــلاث رأســه ثم فخـــــذه
و منســـره لجزر ما هـــو صـــادع
عليــه سمـــات الفـــتك اما نظـــرته
أطلت حــواجب ! و غــارت مـــدامــع
طمـــوح كثــير الالتفـات مسلـــط
لأم الســـلاح الدهر منــه فجـــائع

* * *

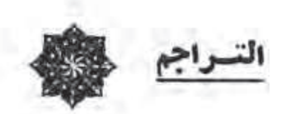
وفى آخر القصيدة يخاطب قارئه فيقول :

أتيــتك بالتحقيـــق نظما فخـــذ به
و دع عـــنك ما ســـواه فهو جعاجـــع
و دونـكهــا من بحـــر فـــكرى درة
تفجــر منهــا للعلـــوم ينـــابـــع
فتنبت فى أرض القلـــوب معـــارفا
و تشـــرح صـــدرا ضيقتــه الزعازع
فمن كان ذا جد رعى خصب حـــكمة
ومن يبتـغى الاحمــاض فالمـرج واسع
وفى مائتى بيــت تجــلت و عشـــرة
لهــن ثـــلاث للختـــام تـــوابـــع
و أهــدى صـــلاة مـــع زكى تحيـــة
الى خــير مبعــوث و من هو شافـــع

* * *

وهكذا تنتهى هذه القصيدة الطويلة التى جمعت من ضروب الوصف الدقيق شيئا كثيرا . ولا شـك ان قارئها سيجد فيها متعة وأدبا وطرافة قد لا يجدها فى قصائد كثير من الشعراء الذين طرقوا موضـوع الطرديات فى الادب العربى وحاولوا الابتـــــكار والابـــداع فيه .





التلمساني محمد بن عبد الكريم المغيلي

بعض آثاره وأعماله في الجنوب الجزائري وبلاد السودان

د · عبد القادر زبادية
كلية الآداب ـ جامعة الجزائر

1 ـ أهم المراجع الاساسية عن المغيلي (1)

في أواخر القرن السادس عشر تغرب أحمد بابا التمبكتي الى مراكش، فقضى بها عدة سنوات ثم عاد الى تمبكتو · وقبله بقرن تقريبا كان المغيلي قد تغرب الى السودان، والفرق بين تنقل الرجلين بهذا الشكل أن الاول كان مكرها في حين كان الثاني مختارا على ما يبدو ·

وقد كان احمد بابا أول من أرخ للمغيلي فيما نعلم، وجاء بعده ابن مريم فنقل عن احمد بابا تقريبا ولم يزد شيئا ذا بال فيما كتبه عن المغيلي؛ ثم كتب ابن مصباح عن حادثة توات واختلاف الفقهاء في خصوصها بشيء من التفصيل · وحديثا كتب الاستاذ حسن

(1) لعل من أهم المصادر الثانوية عن المغيلي من حيث الدقة :
الزركلي ـ الاعلام، ط 2، 1956، ج 7، ص 84 ·

غوارزو من جامعة كانوا مقدمة لا بأس بها عن حياة المغيلي ، وذلك في أطروحته الـتي حقق فيها مخطوطـين من تأليف المغيلي ، كان قد عثر عليهما في احدى زوايا السنوسية بليبيا • وحقق الاستاذ المرحوم رابـح بونار رسالة المغيلي حول اليهـود ، ونشرها في سنة 1968 • ثـم حقق كاتب هذه الاسطر أسئلة الامـير أسقيا محمد الكبـير (1493 ـ 1528) التي كان قد وجهها الى المغيلي وأجوبة هذا الاخـير عليها ، وقد نشرتها الشركة الوطنية للنشر والتوزيع في سنة 1973 •

وللمغيلي ثلاثة عشر تأليفا عدا ما ذكرناه ، لا تزال مخطوطات لم تنشر بعد ، ومعظمها توجد حاليا ببعض المكتبات الخاصة والعامة في بلاد الحوصا بالدرجة الاولى ، حيث لا يزال الدارسون هناك يقبلون عليها ويمجدون طريقة مؤلفها في العلم والفهم والتعلم ، ويلقبونه بـ (الامام) حتى اليـــوم •

ومن خلال مجموع هذه التآليف يمكن للدارس أن يطلع على شخصية المغيلي العلمية ويعرف عن كثب آثـاره وجهوده في العلم والدعوة الى اصلاح أحوال المسلمـين ، اللتين أنفق الجزء الاكبر من حياته عاملا مخلصا من أجلهما (2) •

2 ـ السـودان في الاصطلاح والمدلول

كلمة السودان كانت تعني عند المؤرخـين المسلمين الى عهد قريب بلدان افريقيـا الغربية جنوب الصحراء ، في حـين كانت مناطق الشرق الافريقي تعرف ببلاد الزنـج • أما اطلاق هذا الاسم وتحديد مدلوله على جمهورية السودان الحديثة ، انما ترجع بداياته الى القرن الثامن عشر على أبعد تقدير ؛ وقبل هذ التاريخ كان لهذا البلد اطلاقات أخرى ، وذلك بالنظر لنواحيه الواسعة ، مثـل بلاد سنار وبلاد الفونـج ، وما اليها • وفي بداية القرن التاسع عشر اتسع هذا المدلول على كل بلاد السودان الحالية ، وخاصة منذ حملة محمد علي، على الاقسام الشمالية من البلاد، فكان يطلق في كتابات ذلك العهد في مصر بصورة خاصة اسم (بلاد السودان) ليدل على مناطق أعالي النيل برمتها ، ثـم اتسع هذا الاسم

(2) بروكلمان ، ج • 2 ، ص 363 • (ولكن كلا منهما شديد الاختصار)•

بعد ذلك ليشمل كل أقاليم السودان وتثبت عرفيا أثناء العهد الانكليزى اللاحق لياخذ شكله الثابت على هذا النحو منذ بداية القرن العشرين • (3)

أما فى الكتابات السابقة وخاصة السودانية منها حتى آخر القرن الثامن عشر فلا يكاد الباحث يجد لهذا المصطلح مدلولا آخر جغرافيا غير ما يعرف الآن ببلدان غرب أفريقيا ، واذا أطلق أحيانا ليشمل شرق افريقيا جنوب الصحراء ، فان ذلك فى غير المدلول الجغرافى • (4) وحسب المعنى التاريخى الاول يستعمل اصطلاح السودان هنا ، ليتناسب مع الفترة التاريخية التى نحن بصددها •

3 ــ المغيلى وظروف عصره فى المغرب الاوسط

أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم المغيلى ، ينتسب الى قبيلة مغيلة القاطنة فى نواحى تلمسان ، والموجودة حتى أيامنا هذه • وقد عاش محمد بن عبد الكريم فى وقت كانت فيه ظروف المغرب الاوسط ليست على ما يرام ، من الناحية السياسية بالخصوص •

فقد عاش المغيلى وعمل خلال النصف الثانى من القرن الخامس عشر الميلادى ، وأدرك بدايات القرن السادس عشر ، ولا نملك أية تفصيلات عن نشأته الاولى وان كنا نعرف عددا من أساتذته الذين قرأ عليهم ، ومن أشهرهم الامام الشيخ عبد الرحمن الثعالبى والشيخ يحيى بن يدير وغيرهما • (5)

---

(3) أنظر كتابنا ــ مملكة سنغاى فى عهد الاسيقيين ــ نشر ش • و • ن • ت • ، 1971 ، ص 15 ؛

«Zindj» in Encyclopaedia of Islam ; Marcel Devic, Le pays des Zindjs, Paris 1883, p. 1155

(4) قارن بصورة خاصة ــ تذكرة النسيان فى أخبار ملوك السودان (لمؤلف مجهول) ، تحقيق هوداس ، باريس 1901 (القرن 17 وبداية 18) ؛ عبد الرحمن السعدى ، تاريخ السودان ، باريس 1964 (القرنان 16 و 17) ؛ مكى شبيكة ، مملكة الفونج الاسلامية ، القاهرة 1964 ؛ محمد عوض ، السودان الشمالى سكانه وقبائله ، القاهرة 1965 •

(5) أنظر ــ ابن مريم ، البستان ••• (تحقيق ابن أبى شنب) ، الجزائر 1908 ، ص 256 •

وحينما اشتد ساعد أبي عبد الله نراه يتضايق من وضعية عصره ، وينكر على الحكام المسلمين خاصة خروجهم على التقاليد الاسلامية في حكم رعاياهم • ويظهر أن هذا هو السبب الرئيسي في خروجه من تلمسان واتخاذه طريق الهجرة الى السودان فيما بعد • ومن المعروف أن ضغط الاسبان على المسلمين بالاندلس بدأ يشتد خلال القرن الخامس عشر ، ثم انتهى في سنة 1492 الى القضاء نهائيا على آخر مملكة اسلامية بالاندلس، وهي مملكة بني الاحمر أمراء غرناطة • وفي هذا الوقت هاجر كثير من مسلمي الاندلس واليهود الى بلدان المغرب ، وكان حظ المغرب الاوسط منهم ليس بالقليل ، ثم ذهب الاسبان في طموحهم الى محاولة احتلال بلدان المغرب أيضا وخاصة المناطق الساحلية الخصبة ، وهذا لكي يضمنوا عدم محاولة المغاربة والاندلسيين العودة الى الاندلس من جهة ، ولكي يستعمروا في شمال افريقيا وينشروا المسيحية بها ان أمكن • (6)

وكان المغرب الاوسط مع بداية القرن السادس عشر على حالة من الضعف والانقسام الشديدين ؛ ففي تلمسان كانت دولة بني زيان قد اقتصر نفوذها على مناطق جد ضيقة في الغرب الجزائري ، وانهكتها بصورة خاصة هجومات وتآمر كل من المرينيين ، أمراء فاس والحفصيين ، أمراء تونس المتوالية وسعى كل منهما لتنصيب الموالين في الحكم • وقد استطاعت الدولة الزيانية أن ترد الهجومات المباشرة للمرينيين عليها ، ولكن توالي الاضطرابات والمؤامرات في مملكتها وبلاطها حصر جهود أمرائها المتأخرين في مجرد المحافظة على وجودهم • وعندما ظهر الاسبانيون كعامل سياسي وعسكري آخر بالشمال الافريقي لم تستطع مملكة تلمسان أن تقوم بأكثر من مهادنتهم ؛ فعندما وصل أبو عبد الله آخر أمراء غرناطة مثلا مع جمع كبير من أعيان الاندلس الى وهران ، رحب به السلطان الزياني آنذاك محمد الثاني وأكرم وفادته ، فكان لهذا العمل أثره السيء في أعين الساسة الاسبان • وبما أن محمد الثاني كان عاجزا أمامهم ، فقد اضطر كعلاج

---

(6) راجع حول واقع السياسة الاسبانية تجاه شمال افريقيا في تلك الفترة ؛ بصورة خاصة كتاب :

G. Maura, La question du Maroc au point de vue Espagnole, Paris 1911, p. 155.

للموقف أن يسافر الى اسبانيا وهو يحمل معه هدايا ثمينة الى ملك اسبانيا ، ويقال انه استطاع بهذا السلوك أن يخفف فعلا من غضبه • (7)

اما فى الشرق الجزائرى فقد كان أمير قسنطينة يدين آنذاك بالولاء للحفصيين ، غير أنه كان فى شبه استقلال بمنطقته ، وكانت تخضع له بصورة خاصة المنطقة الممتدة بين القالة والقل بما فيها عنابة • وفى غير ذلك فقد تنفذ أمراء محليون فى جهات عديدة من البلاد ، وكونوا لانفسهم امارات عائلية • ولعل من أشهرهم : رئيس بنى عباس فى جبال البيبان ، وأمير آيت يحيى المعروف بـ (كوكو) فى بلاد القبائل الكبرى • وحكم فى كل من فقيق والونشريس رجال الطرق الصوفية ، كما سيطرت فى واحات الجنوب عائلة الذواودة وأحلافها ، وأصبحت المدن الساحلية تدار بواسطة مجالس أعيان خاصة بكل منها • (8)

وأمام هذه الوضعية استطاع الاسبان أن يجدوا لجيوشهم بسرعة مواطىء قدم فى معظم المدن الساحلية بالمغرب الاوسط ؛ فقد احتلوا المرسى الكبير فى سنة 1505 ثم وهران سنة 1509 واستولوا على بجاية سنة 1510 بعد أن هدموا العديد من معالمها الكبيرة مثل منار قصر اللؤلؤ وقصر الكوكب والمسجد الاعظم ، وذلك أثناء المقاومة العنيفة التى جابههم بها السكان • ويظهر أنه تفاديا لما وقع فى بجاية ذهب وفد عن أعيان الجزائر المدينة فى السنة التالية ليعرضوا على القائد الاسبانى فى بجاية تعهدهم بالخضوع للنفوذ الاسبانى •

---

(7) أنظر ـ عبد الرحمن الجيلالى ـ تاريخ الجزائر العام ، 1965 ، ج 2 ص 196 •

(8) راجع بصورة خاصة ـ محمد خير فارس ، تاريخ الجزائر الحديث •• ، دمشق 1969 ، ص • 15 فما بعد •

كانت هذه الظروف هى التى مهدت لبداية العهد التركى بالجزائر ، والذى ابتـدأ فى سنة 1518 واستمر حتى سنة 1830 كما هو معروف (9) ، وقد كان مجىء الاخـــوة عروج وخير الدين واسحاق الى الجزائر فى البداية منقذين ، وكان ممن تواطأ مع الاسبان ضدهم سلطان تلمسان أبو حمو ٠ وقد امتعض خير الدين شديد الامتعاض من موقـف أبو حمو هذا بصورة خاصة ؛ فقرر الخروج من المغرب الاوسط بعد مقتل أخويه بابا عروج واسحاق فى نواحى تلمسان ، الا أن عددا من أعيان مدينة الجزائر آنذاك ألحوا عليه أن لا يترك بلدهم المسلم يستولى عليه الاسبان ، فكان من جوابه لهـــم حسبما حفظه لنـا ابن أبى الضياف قوله : (٠٠٠ وقد رأيتم ما فعله بنا صاحب تلمسان من بنى زيـــان واستعانته علينا بغير أهل ملتنا حتى كفانا الله أمره ، وصاحب تونس الحفصية لا رأى له فى نصرنا واعانتنا ، وأسلمنا للعدو بمنع البارود لولا لطف الله ٠٠٠) ٠ (10)

وقد قبل أعيان مدينة الجزائر ما اقترحه خير الدين عليهم بمبايعة السلطان سليم خان والحاق الجزائر بالدولة العثمانية ، وهذا ما جعل هذا الاخير يزود خير الدين بجيش مـن الانكشارية قوامه حوالى الالفى جندى ، ويسمح له بتوظيف المتطوعين من بلاد الاناضول ، وبذلك استطاع خير الدين أن يعود للجزائر ويستقر بها ٠ كما أن اسبانيا فى هـــذا

---

(9) كان قدوم الاخوة عروج واسحاق وخير الدين الى بجاية وجيجل فى سنة 1516 ثم توفى الأولان فى معركة تلمسان ضد الاسبان وحلفائهم من بنى زيان . وقرر خير الدين على اثرها مغادرة الجزائر نهائيا . ولكن أعيان مدينة الجزائر ألحوا عليه أن لا يترك البلاد نهبا للنصارى الاسبانيين . ووافقوه على الحاق الجزائر بالدولة العثمانية ٠ وقد استقر خير الدين بالجزائـــر سنة 1518 وذلك بعد عودته من الاستانة . ولذلك يعتبر هذا التاريخ البداية الحقيقية للعهد التركى بالجزائر ٠ (راجع ــ أحمد بن أبى الضياف ــ اتحاف أهل الزمان بأخبار ملـــوك تونس وعهد الامان ــ ج ٠ 1 ص ٠ 15 فما بعد . تونس 1963 ؛ محمد خـير فارس . 1969 ، ص ٠ 23 فما بعـــد) ٠

(10) ابن أبى الضياف ، 1963 ، ج 1 ، ص 11 ٠

208

الوقت بدأت تنشغل بمشاكل مستعمراتها فى أميركا الجنوبية فخفت وطأتها نسبيا على المغرب الاوسط • كل ذلك مما سمح لخير الدين أن ينجح فى مجابهة الاسبان بحزم • (11)

وفى تلك الظروف التى كانت أوضاع المغرب الاوسط خلالها على غاية من الضعف والانقسام ، وهذا قبل مجيء الاتراك بفترة ربما زادت على الثلاثين سنة ، كان المغيلى قد انتقل الى الجنوب وبلاد السودان •

4 ـ المغيلى فى توات وقضية ثورته على تنفذ اليهود بها

لا تعرف بالضبط السنة التى انتقل فيها المغيلى الى توات غير أن تسعينات القـــرن الخامس عشر أدركته بها دون شك وقد كانت واحـــات منطقـــة توات خـــلال القـــرن الخامس عشر من اكثر المناطق نشاطا فى تسيير القوافل التجارية بين السودان وبلدان الشمال الافريقى ؛ فقد زارها فى سنة 1447 الرحالة الجنوى مالفانت Malfante • ويبدو أنه كان أول أوروبى يصلها فى العصور الحديثة ، وكان هدفه الوصـــول الى السودان الغربى ليعرف على حد قوله بلاد الذهب التى يجنى منها التجار المغاربة أرباحا كثيرة • وربما يكون قد ذهب اليها عن طريق تلمسان ، فقد كان بمرفأحنين فى ذلك الوقت نشاط كبير للتبادل التجارى بين أوروبا ومملكة تلمسان ، ومنه كانت تنقل كثير من البضائـــع التى تأخذ طريقها الى بلدان السودان الغربى • وكان التواتيون يشكلون منذ ما قبـــل هذه الفترة جالية كبيرة تعمل فى التجارة بمنطقة النيجر الاعلى وتتولى استقبال القوافل القادمة من الشمال وتوزيع بضائعها على مختلف المدن فى السودان • (12)

وقد كانت توجد منذ عهد بعيد فى مختلف الواحات بمنطقة توات شبـــه اتحادات تجارية مستقلة ويتولى رؤساؤها حكم واحاتهم بالمنطقة ، ويبدو أن السكان كانوا راضين عن وضعيتهم تلك ، وكان لحكوماتهم المحلية بهذا الشكل قدرة اقتصادية وبشرية عـــلى

(11) راجع ـ محمد خير فارس ، 1969 ، ص 28 فما بعد ؛
Maura, 1911, p. 18 SS.

(12) راجـــع بصورة خاصة ـ عبد الرحمن السعدى ـ تاريخ السودان ـ باريس 1964 ص 128 فما بعد ؛
Charles De la Roncière - L adécouverte de l'Afrique au Moyen-Age, T. 1, p. 152 SS.

المقاومة استطاعت أن تكلف جيوش المنصور الذهبى حينما داهمتها فى سنة 989 للهجرة التى لم يدركها المغيلى ، خسائر كبيرة (13) ·

وعن نشاط كبار التجار فى القرن السادس عشر بين تلمسان وولاتا نجد فى أحدى استطرادات المقرى هذا الوصف : (··· وكان التلمسانى يبعث الى الصحراوى بما يرسم له من السلع ، ويبعث اليه الصحراوى بالجلد والعاج والجوزة والتبر ، والسجلماسى كلسان الميزان يعرفهما بقدر الخسران والرجحان ويكاتبهما بأحوال التجار وأخبار البلدان ··· ثم صار (أميرا لتكرور) يكاتب من بتلمسان ويستقصى منهم مآربه ··· كان أبو حمو (سلطان تلمسان) يقول : لولا الشناعة لم أنزل بلادى تاجرا من غير تجار الصحراء الذين يذهبون بخبيث السلع ويأتون بالتبر الذى كل أمر الدنيا له تبع ···) · (14)

لقد كان الطريق التجارى بين تلمسان ، عبر توات ، ومناطق نهر النيجر الاعلى على الخصوص ، أحد الطرق الهامة للقوافل التجارية على أيام المغيلى ، ولكن لا يبدو أنه اشتغل بالتجارة أبدا ، وانما اشتغل بالاصلاح على طريقته الخاصة به ، كعالم سلفى متحمس · (15)

ويبدو من آثار المغيلى انه كان ثاقب النظر وذكيا ، فقد وصفه ابن مريم بـ (القدوة الصالح الحبر ، أحد أذكياء العالم وأفراد العلماء الذين أوتوا بسطة فى العلم والتقدم) · (16)

(13) أنظر ـ اليفرنى ، نزهة الحادى بأخبار ملوك القرن الحادى ، طبعة فاس الحجرية دون تاريخ ، ص 73 فما بعد ·

(14) المقرى ـ نفح الطيب ، بيروت 1956 ، ج · 1 ، ص 180 ·

(15) لمزيد من التفاصيل حول طريق توات التجارى ، راجع بصورة خاصة ـ
E. Bovill, Golden Trade of the Moorsh, London 1968 ; R. Mauny, tableau géographique de l'Oeust Africain, Dakar, 1961 ; W. Fage, Introduction to the history of West Africa, Cambridge, 1955.

(16) ابن مريم ، 1908 ، ص 253 ·

ووصفه معاصره العلامة محمد السنوسي بـ (القائم بما اندرس في فاسد الزمان من فريضة الامر بالمعروف والنهى عن المنكر، التي يكون القيام بها ، لا سيما في هذا الوقت، علم على الاتسام بالذكورة العلمية والغيرة الاسلامية وعمارة القلب بشرف الايمان) • (17)

ويبدو أن المغيلي قد اتخذ من توات مقاما دائما له وذلك منذ انتقاله اليها فقد سافر بعد حادثة يهود توات مباشرة الى فاس ثم عاد الى توات ، ولما قام برحلته الطويلة بعد ذلك الى السودان عاد الى توات أيضا ، وذلك حينما بلغه الخبر وهو في غاو أن اليهود قتلوا ابنه عبد الجبار ، فعاد أبو عبد الله على الفور الى توات وبقي بها حتى وافته المنية سنة 909هـ/1502/3م • (18)

وقد أثيرت قضية موقف المغيلي من يهود توات مرات عديدة ولدواع مختلفة لدى الدارسين المعاصرين ، ومن المهم أن نشير هنا الى أن آراء البعض في تفسير موقف أبي عبد الله من تلك القضية لم يرافقها التثبت الكافي على ما يبدو • (19)

والواقع أن المغيلي كان قد قام في يهود توات كمصلح سلفي لا غير ، وملخص رأيه أن على اليهود أن يحترموا وضعيتهم القانونية في بلاد المسلمين • وقد وجد المغيلي في توات حينما انتقل اليها جالية يهودية غنية وكبيرة ، درت عليها التجارة مع السودان أموالا طائلة وربما استغلت تلك الجالية قوتها المالية في التنفذ السياسي أيضا ، فقبل وصول المغيلي الى توات بحوالى نصف قرن كتب مالفانت عن يهودها ما يلي :

(••• يتكاثر اليهود هنا (في تمنطيط) وتسير حياتهم في سلم تحت ظل الرؤساء الذين يدافع كل منهم عن أتباعه ، ولهذا يتمتع اليهود بحياة سهلة ، وتسير التجارة بواسطتهم ، وهناك الكثيرون هنا يضعون ثقتهم فيهم •••) • (20)

---

(17) نفس المصدر •

(18) قارن أحمد بابا ، نيل الابتهاج •• ، طبعة فاس 1898 ، ص 370 ؛ الزركلي ، الاعلام ، ج 7 ، ص 84 •

(19) أنظر مثلا: A. Martin, Les oasis Saharienne, Alger 1908, p. 122 ; Soleillet, Voyage à Ségou 1878-1879, Paris 1870, p. 253.

(20) أنظر : Malfante in La Roncière, T. 1, p. 152 S.

وربما كان لموقف بعض رؤساء السياسة فى تمنطيط أثره فى تشجيع يهودها على بناء بيعة كبيرة لهم تجاوزت فى ضخامتها تلك الحدود التى قد يمكن للمسلمين أن يسمحوا لهم بها فى نظر المغيلى ؛ فرفع عقيرته مستنكرا على اليهود عملهم هذا ، وقد لقى معارضة أدبية فى الحال من قبل قاضى توات آنذاك (أبو عبد الله العصنونى) ، مما اضطره الى مكاتبة عدد من مشاهير الفقهاء فى الشمال ، ولما وافته فتاوى بعضهم بالثناء على موقفه ، قام مع أتباعه فى توات بتهديم تلك البيعة ، وألزم اليهود بالذل والهوان على حد تعبير ابن مريم ٠

ولم تكن كل فتاوى الفقهاء التى وردت عليه لتؤيد موقفه هذا ، بل كان هناك من أيد موقف قاضى توات وعارض المغيلى فيما ذهب اليه ٠ وكان ذلك مما حمل أبا عبد الله على السفر الى فاس ليتناقش مع فقهائها ، وجلهم عارض موقفه فى الفتاوى التى أدلوا بها ، فى هذه القضية بالذات ٠

ولما التقى فى فاس بأولئك المعارضين ، اتهموه صراحة بالطموح الى أكثر من مجرد القضايا الشرعية ، وهذا بعد أن أحالهم ليتناقشوا فى هذه المسألة مع جمع من تلاميذه السودانيين الذين كانوا يرافقونه فى رحلته هذه ٠ وكان المغيلى فى البداية قد خص فى فاس باستقبال حافل من طرف علمائها بما فيهم أولئك الذين كانوا يقفون ضد آرائه نحو اليهود ، ثم استقبله سلطان فاس بحضور أولئك العلماء بعد ذلك وجرت مناقشة بحضرة السلطان انتهت باتهام هذا الاخير للمغيلى بالطموح الى الملك ٠ وكان السلطان فى هذا الموقف مدفوعا من قبل بعض العلماء الذين أوحوا له مسبقا بوجود مثل هذا الطموح لدى المغيلى فى كل ماكان يذهب اليه ٠ وقد رفض المغيلى ذلك بشدة أمام السلطان وعاد الى توات حيث يقال انه آلى على نفسه أن لا يلاقى سلطانا بعد ذلك أبدا (21) ٠ ومن توات انتقل المغيلى الى السودان ، ولا نجد فى آثاره ما يشير الى عودته الى الشمال بعد ذلك أبدا ٠

(21) راجع ـ المغيلى ، مصباح الارواح فى أصول الفلاح (وهى الرسالة التى كتبها فى قضية اليهود) ، تحقيق رابح بونار ، الجزائر 1968 ؛ محمد بن مصباح ، دوحة الناشر ، مخطوط بالمكتبة الوطنية رقم 2136 ؛ H. Gwarzo, Al-Maghili..., unpublished thesis, London 1973.

5 ـ اعمال المغيلي وآثاره في السودان

يبدو أنه حينما سافر المغيلي الى السودان كانت شهرته كعالم من علماء زمانه اللامعين ، قد سبقته الى السودان ؛ فقد عرف الامراء السودانيون عالمين كبيرين في ذلك الوقت ، هما : العلامة السيوطي ثم المغيلي ، أما السيوطي فقد كان من بين العلماء الذين قرر الاسقيا محمد الكبير (1493 ـ 1528) الالتقاء بهم واستشارتهم حين سافر الى الحج عند أخريات القرن الخامس عشر • وكان السيوطي قد اختلف معه المغيلي في مسألة المنطق اليوناني ، ووقعت بين الرجلين مراسلات في هذا الشأن ؛ رفض فيها السيوطي المنطق اليوناني وأنكر عليه المغيلي ذهابه هذا المذهب • وكان السيوطي قد أرسل هو الآخر رسالة الى أمراء بلاد الحوصا ينصحهم بالتزام الشرع في حكمهم لرعاياهم •

وبعد عودة الاسقيا محمد من الحج في حدود 1499/1500م • وجد أمراء جيشه قد الحقوا بمملكة سنغاي التي كان يرأسها بلاد الكبي الواقعة الى شرقي النيجر ، فقرر تجنيد عدد من العلماء للعمل في تلك الناحية • (22) وفي تلك الاثناء سافر المغيلي الى بلاد الكبي ، ولا يستبعد أن يكون انتقاله الى تلك المنطقة داخلا في هذا التنظيم •

ولا تذكر المصادر أن المغيلي مر وهو في طريقه الى بلاد الحوصا بتمبكتو أوغاو (23) • ولذا يعتقد أنه أخذ طريق الأهير مارا بتدمكت التي كانت لا تزال في أيامه على ازدهار ملحوظ ، ومنها انتقل الى كشن (Catsina) وكانو • ولا تعرف المدة التي قضاها المغيلي معلما ومرشدا في بلاد الحوصا ، ولكن يبدو أنها ربما زادت على السنتين ، لان المغيلي حينما غادرها ، كان قد ترك وراءه عددا هاما من التلاميذ ، وتوجد في كانو حتى اليوم جماعة ينسبون أنفسهم كأحفاد للمغيلي الامام •

وأثناء وجود المغيلي في بلاد الحوصا سأله أميرها أبو عبد الله محمد بن يعقوب أن يكتب له (جملة مختصرة فيما يجوز للحكام في ردع الناس عن الحرام) • وقد أجابه المغيلي برسالة أثبت فيها اطلاعه الكامل على أحوال بلاد السودان وسلوك أمرائها وعادات

(22) أنظر : Boubou Hama, Histoire du Gobir et de Sokoto, P. A., 1967, p. 11
(23) قد يكون لذلك علاقة بقرار أبي عبد الله أن لا يتقابل مع الامراء كما سبق ذكره •

سكانها ، كما أثبت فيها حرصه الشديد على أن يحكم المسلمون بحزم ،وذلك وفق قواعد الشريعة الحكيمـــة • (24)

ومن بلاد الحوصا انتقل المغيلي الى مملكة سنغاى ، وسأله أميرها أسقيا الحاج محمـد الكبير ان يكتب له رسالة أخرى ، ينصحه فيها حول سبع مسائل ذكرهـــا الاسقيـــا بتفصيل ، ويريد أن يعرف حكم الشرع فيها • وقد جاء جواب المغيلي مفصـــلا ودقيقا في آن واحد ؛ حيث أفرد لكل مسألة في أجوبته بابا خاصا •

وقد ظهر من مجموع أجوبة المغيلي الى الاسقيا محمد معرفة أبى عبد الله بأحـــوال المسلمين في بلاد سنغاى وفي عموم بلدان السودان الغربى معرفة واسعة ، كما أن نظريته في الخلافة وفيمن يصح له حكم المسلمين بدت واضحة من مجموع تلك الاجوبة ، فكان يرى أن متطلبات الخلافة بالنسبة لمن يتولى حكم المسلمين يجب أن يتمثـــل في الوعي الكامل بواجباته تجاه مجتمع المسلمين ككل وتجاه رعاياه المباشرين بصورة خاصة • وفي جواب المغيلي عن قضية العلماء المزيفين ، وهم أولئك الذين يدعون أكثـــر مما يعرفـــون ويحاولون تبوأ أمكنة العلماء الاكفاء في المجتمع عن طريق التضليل ووسائل الخـــداع المختلفة ، ذهب أبو عبد الله الى ان الضرب على ايديهم بالشدة اللازمة هو أحد واجبات الامير المسلم دون جدال كما ان الضرب على أيدى جميع المخالفين في المملكة الاسلامية يراه المغيلي واجبا أكيدا على الامير المسلم شريطة ان يكون هذا الاخير مستقيما ومخلصا •

وبالمقابل فان واجب المسلمين في تنحية الامير الذى لا يقوم بواجباته تجاه المسلمين أيضا كان يراه المغيلي أحد الامور الضرورية واللازمة في آن واحد • (25)

---

(24) أنظر نص هذه الرسالة في كتاب ـ آدم عبد الله الالورى ، موجز تاريخ نيجريـــا ، بيروت 1965 ، ص 134 فما بعـــد •

(25) المزيد من التفاصيل حول آراء المغيلي في مختلف المسائل الاجتماعية والسياسية التى طرحها عليه أمير سنغاى ، راجع ـ محمد بن عبد الكريم المغيلي ـ أسئلة الاسقيا محمد وأجوبة المغيلي ، تقديم وتحقيق عبد القادر زبادية ، نشر الشركة الوطنيـــة للنشر والتوزيـــع ، الجزائـــر 1973 •

ومن ناحية أخرى فان رسالة المغيلي هذه الى الاسقيا محمد وثيقة هامة بالنسبة للمؤرخ ، ذلك انها احتوت معلومات قيمة عن الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية في بلاد سنغاي على أيام الاسقيا محمد الكبير ، وذلك في كل المسائل التي تطرقت اليها · ولعله من الهام أن نشير هنا الى أن رسالة المغيلي هذه الى الاسقيا محمد قد تعتبر نادرة المثال من الناحية التاريخية على الاقل ، وذلك من بين ما عرف حتى الآن عن وثائق فترة الاسيقيين في سنغاي (26) ·

لقد كان المغيلي أحد علماء زمانه اللامعين دون شك ، وما امتداد جهوده الى السودان الغربي الا دليل عملي آخر على المكانة الحضارية المرموقة التي تمتعت بها تلك المنطقة قبل العهد الاوروبي ، في علاقاتها الاخوية المتينة مع بلدان المغرب بشكل خاص وبقية البلدان الاسلامية بشكل عام ·

---

(26) قد تضاهي هذه الوثيقة من حيث المعلومات التاريخية عن المجتمع السوداني في ذلك الوقت ، الرسالة التي كتبها أحمد بابا بعد ذلك بحوالي قرن من الزمان حول العبيد ، الا أن هذه الاخيرة على أهميتها القصوى أيضا محدودة المحتوى بموضوع واحد ، في حين تشتمل الوثيقة التي كتبها المغيلي على معلومات تتعلق بعدد من المواضيع الاجتماعية كما سلفت الاشارة أعلاه ·

الونشريسي

عمار الطالبي

من علماء الجزائر الاعلام ، وفقهائها البارزين في القرن التاسع الهجرى أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسى التلمساني الذى نشأ فى عصر تكالبت فيه الاعداء على سواحل الجزائر وخاصة وهران فى الناحية الغربية من المغرب الاوسط ٠

اذ ان سنة وفاته وهي 914 هـ (1508 م) هي السنة التى استولى فيها الاسبان على مدينة وهران (1) ٠

شيوخه :

من الاساتذة الذين أخذ عنهم العلوم الاسلامية أبو الفضل العقبانى ت 854 هـ وابنه أبو سالم العقبانى ، ت 880 هـ وابن مرزوق الكفيف ت 901 ٠

ونظرا لاضطراب الحياة السياسية وانتشار الاستبداد السياسى فان السلطة السياسية فى ذلك الحين ضايقته فنهبت داره فى سنة 874 هـ بمدينة تلمسان التى نشأ فيها وما كان منه الا ان التجأ الى مدينة فاس وأقام بها (2) ، وانكب فى مدينة على تدريس المدونة ، وكتب ابن الحاجب وكان متمكنا من الفقه المالكى مشتغلا به تعليما وتأليفا وفتيا كما أنه اشتهر بالنحو وفصاحة اللسان والكتابة ٠

تلاميذه :

من تلاميذه ابنه عبد الواحد ت 955 هـ وأبو زكريا السنوسى ومحمد بن عبد

---

(1) أبو القاسم محمد الحفناوى ، تعريف الخلف برجال السلف ، الجزائر 1334 هـ (1906 م) ج 1 ص 59 ٠

(2) المصدر نفسه ج 1 ص 58 ٠

الجبار الورتدغيري (3) ومحمد بن عيسى المقيلي ت 875 هـ ومن أبرز تلاميذه أيضا الفقيه القاضي محمد بن الغرديس التغلبي ويذكر المؤرخون ان خزانة هذا الفقيه الاخير من تلاميذه كانت له خزانة عظيمة من المؤلفات وان الونشريسي استفاد منها كثيرا في تأليف كتبه وخاصة كتابه المعيار الذي هيأت له هذه المكتبة الفتاوى الخاصة بفقهاء فاس وفقهاء الاندلس ٠

ويذكر الحفناوي انه استفاد من نوازل البرزلي والمازوني فيما يتعلق بفتاوى افريقية (تونس) وفتاوى فقهاء تلمسان كما يبدو ذلك لمن قارن كتابه هذا بهذه الكتب ٠

تآليفه :

من أهم تآليفه المعيار المعرب عن فتاوى علماء افريقية والاندلس والمغرب في ست أسفار وقد طبع بفاس طبعه حجرية في 12 مجلدا ويجرى الآن طبعه (4) في صورة محققة واضحة ٠

جمع في هذا الكتاب فتاوى ونوازل ونصوصا ذات أهمية بالغة في معرفة الحياة الاجتماعية والسياسية والعلمية والاقتصادية في المغرب والاندلس في عصور مختلفة ٠

ومن تآليفه تعليق على ابن الحاجب الفرعي في ثلاثة أسفار (5) ٠

ومنها : كتاب « القواعد » في الفقه المالكي ، وكتاب « الفائق في الوثائق » يقال انه لم يكمله ، ومنها عثر على وثائق القشتالي وعنوانه : « غنية المعاصر والتالي على وثائق القشتالي » وكتاب « الفروق » في الفقه على نمط الفروق للقرافي ٠ ومنها اضاءة الحلل في الرد على من أفتى بتضمين الراعي المشترك ٠

وتولى منصب الافتاء بفاس (6) التي هاجر اليها ويذكر البغدادي صاحب هدية العارفين ان وفاته كانت بمدينة تلمسان واذا صح هذا فانه يكون قد عاد اليها وتوفي بها عن سن يناهز الثمانين ويحتاج كتابه المعيار الى دراسة خاصة نظرا الى قيمته التي لا تقدر ٠

---

(3) ويكتب أيضا الورترغيري ٠

(4) تبعا لما أخبرني به الاستاذ الحبيب اللمسي الذي يتولى هذا العمل ، جزاه الله خيرا ٠

(5) المصدر نفسه ج 1 ص 59 ٠

(6) مخلوف ، الشجرة الزكية في طبقات المالكية ٠

الجوانب المجهولة من ترجمة حياة الامام

احمد بن يحيى الونشريسي

المهدى البوعبدلي

هو احمد بن يحيى بن محمد بن على الونشريسى كما عرف نفسه بخطه فى عدة وثائق وقد عرفه بعض معاصريه بانه « أحمد بن يحيى بن محمد بن عبد الواحد بن على » أي بزيادة اسم عبد الواحد ، بين محمد وعلى ، لصاحب « درجة الناشر ، فى بيان علماء القرن العاشر » ورأيت الاقتصار على تعريف الفقيه محمد الحجوى وزير المعارف فى عهده بالمغرب الاقصى ، الذى نشره فى تاليفه « الفكر السامى ، فى تاريخ الفقه الاسلامى » الذى يعد معاصرا وهو علاوة على ذلك ، أتيح له جمع معطيات لم تتح لغيره ، قال فى تعريفه : « أبو العباس أحمد بن يحيى بن محمد بن عبد الواحد الونشريسى التلمسانى الاصل ، الفاسى الدار ، حامل لواء المذهب المالكى بالديار الافريقية فى وقته ، وصاحب كتاب « المعيار » المشتمل على فتاوى فقهاء المغرب والاندلس وافريقية ، جمع فاوعى ، وهو من التآليف ذات الشأن عند فقهاء الوقت ، على ما فيه من ضعف بعض الفتاوى ، طبع بفاس واشتهر فى العالم، وله تعليق على مختصر ابن الحاجب ، وكتاب فى القواعد الفقهية سماه « ايضاح المسالك الى قواعد الامام مالك » جمع نحو مائة قاعدة فقهية ، بنى عليها الخلاف المالكى ، ولكن كلها أو جلها مختلف فيها ، وعن الاختلاف فيها ، نشأ الاختلاف فى فروعها ، فهو كفلسفة فقهية مفيدة ، وله وثائق وكتاب فى الفروق ، وشرح وثائق القشتالى وغيرها ، توفى فى عام أربع عشر وتسعمائة » اه . ثم قال الحجوى فى الترجمة :ـ وفى دوحة الناشر ، فى آخر العشرة الاورلى فى القرن العاشر» ، ثم قال الا أن صاحب « الدوحة » لا يحرر الوفيات » .

اه تعريف الحجوى « بالفكر السامى » .

وفى الحقيقة ان تاريخ الوفاة ، التى أثبتها الحجوى ، هي محل اتفاق بين كل المترجمين ، اذ صادفت وفاته تاريخ احتلال الاسبان لمدينة وهران ، ولهذا نجد كثيرا من مترجميه وبالخصوص صاحب « ذيل الديباج » يعقب عليها

ويؤكدها بقوله « وهي السنة التى احتل فيها النصارى مدينة وهران » ٠

وقبل الدخول فى صميم الموضوع نمهد له بذكر نبذة من تاريخ ونشريس موطن المترجم ، ان ونشريس كان علما ملة جبلها الشامخ ، ولا زال الى يومنا هذا يطلق عليه من قبل أن يطلق اسمه أي ونشريس على الدولة التى تكونت فيه والتى عرفت تارة بدولة بنى توجين، اسم القبيلة الساكنة فى منطقته ، وتارة باسم دولة ونشريس ، تكونت هذه الدولة بهذه المنطقة فى أواخر القرن الرابع الهجرى ، وبالضبط عندما ثار حماد بن بلقين المشهور على ابن أخيه باديس بن المنصور بن بلقين ملك دولة بنى زيرى بن مناد ، اذ لما انتقلت دولة الفاطميين العبيديين من الشمال الافريقى الى مصر ، وخلفت بلقين بن زيرى قائد جيشها على حكم الشمال الافريقى، وكانت عاصمة الدولة فى مدينة القيروان ثم بعد وفاة بلقين خلفه ولده المنصور فانتقل الى قاعدة المملكة بالقيروان ، وترك أخاه (I) حماد بقاعدة الاسرة وهي أشير التى لم يفارقها بلقين مدة حكمه ٠ كان حماد واليا للمنطقة الغربية ، وعندما ثار ابن أخيه كانت قاعدة الناحية الغربية مدينة المسيلة فحينئذ حاصر باديس عمه حماد ٠ ومن جملة من انتصر له أثناء الحصار قبائل بنى توجين البرابرة الذين ينتمون الى زناتة ، فاقطع لهم باديس جزاء لنصرته ، حكم امارتهم ، وهو ما يعرف فى عهدنا بالاستقلال الذاتى وبالاستقلال الداخلى ٠ وكان موقع هذه الامارة كما عرفها الشريف الادريسى فى كتابه « نزهة المشتاق ، فى اختراق الآفاق » الذى قال بعد تعريفه لمدينة مليانة ما يلى : « وعلى ثلاثة أيام منها ، وفى جنوبها ، الجبل المسمى ونشريس ، يسكنه قبائل من البربر منها مكناسة ، وحرشوى ، وكتامة وبنى خليل ، ومطماطة ٠٠٠ » (I) الى أن قال ٠٠٠ « وطول هذا الجبل أربعة أيام ينتهى الى قرب تاهرت » ٠

وعندما تكونت هذه الامارة ، كانت رياسة القبيلة فى حكم دافلتن ، الذى توارث أفراد أسرته الحكم طيلة القرن الخامس ، وفى أوائل القرن السادس نزل بونشريس الامام المهدى ابن تومرت مؤسس دولة الموحدين فى طريقه من ملالة ــ بجاية ــ الى مراكش ، فاستضافهم سكان ونشريس ، رغم انهم كانوا

(I) حماد هذا هو الذى تنتسب اليه دولة بنى حماد كما تنتسب اليه القلعة التى أسسها وصارت قاعدة حكمه لما انفصل عن أبناء أخيه وانقسمت الدولة الى قسمين قسم دولة بنى زيرى ، من سلالة المنصور وقسم بنى بنى حماد ملوك القلعة ثم بجاية ٠

(I) وجل هذه القبائل المذكورة لا زالت فى مواقعها ٠

يختفون من عيون ملك بجاية الحمادى ، وانضم اليهم عندما عزموا على الرحيل ، الفقيه عبد الله بن محسن الونشريسى المكنى بالبشير ، الذى لعب دورا مرموقا فى صفوف دولة الموحدين الناشئة اذ هو الذى عينه الامام المهدى ابن تومرت وخليفته عبد المومن بن على الكومى ، قائد جيش الدولة ، عندما أعلنوا الحرب على دولة المرابطين اللمتونيين فى عهد الملك على بن يوسف بن تاشفين نال قادة دولة ونشريس مكانة عند الموحدين اذ صاروا محل ثقة عند ملوكهم ، ومن ذلك العهد تبوأوا مكانة مرموقة عند ملوك الدولة الموحدية ، حيث لما هاجم بقايادولة المرابطين ، من بنى غانية ، الذين كانوا بجزر ميورقة ونزلوا بمدينة بجاية على حين غفلة ، جهز الملك المنصور (I) الموحدى جيشه ، وتتبع آثار بنى انية ، فلحقهم بتونس ، ومر فى طريقه اليها ، على أمير ونشريس اذ ذاك وهو العباس بن عطية أخ الامير عبد القوى الذى نالت المملكة فى عهده استقلالها ، كما سنتحدث على ذلك فى موضعه من هذه الدراسة ، فاستصحبه معه فى ذهابه وايابه وذلك فى سنة 584 هـ • وفى هذه المسيرة ولى الملك المنصور عميد أسرة بنى حقل حكم تونس لخبر يطول ، لا يسع مجال هذه الدراسة المحدودة ، على تتبع تفاصيله، وانما اكتفيت بذكر الخطوط العريضة من هذه الاحداث ، جرنى الى ذكرها ، سياق الحديث أولا ، ثم اننا نجدها مرتبطة بموضوع البحث ، وليست كما يتراءى ، خروجا عن الموضوع ، اذ كثيرا ما يقتصر الباحث على الايجاز فيرتكب أخطاء تترك القارىء فى حيرة ، فينتج عنها التناقض والتخليط • اذ يعتمدون على سرد الاحداث من تلاخيص ، هذه هي بعض النقط من تاريخ دولة بنىتوجين التى عرفت فى كتب التاريخ تارة بدولة بنى توجين وهو الاكثر ، وتارة بدولة ونشريس ، من بداية تأسيسها اثر تولية باديس ملك دولة بنى زيرى على حكمها جزاء لموقفه معه عندما قمع عمه حماد الثائر • وفى عهد الموحدين وبالضبط بعد ما لحق الملك المنصور الموحدى بنى غانية ورافقه فى مسيرته أمير القبيلة العباس بن عطية سنة 584 هـ تحولت نظرة الموحدين وبرهنوا له انهم يعترفون لهم بالاستقلال، بل وسعوا لهم رقعة الامارة فصار موقعها : تحده شرقا جبال تيطرى المعروفة الآن بجبال المدية ، وغربا سهول منداس وشمالا سهول شلف وواديه ، وجنوبا نواحى مدينة فرندة، وصارت هذه المملكة تشتمل على عدة قلاع حصينة منها تاقدمت (I) التى

(I) المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المومن بن على كان بقاعدة المملكة الموحدية اذ ذاك مدينة مراكش •

(I) تاقدمت أسسها الرستميون وكانت عاصمة مملكتهم الى أن أطاح بدولتهم

تقاسمت قاعدة المملكة مع الجبل المعروف الآن ببرج بونعامة وتفرقينت وتاغروت ولمدية فهذه هي القلاع الاربعة التى كانت تشتمل عليها مملكة بنى توجين فى أواخر عهد الموحدين ومن هذه القلاع اشتهرت قلعة تاغروت شهرة عالمية ، اذ فيها أقام المؤرخ عبد الرحمن ابن خلدون لتحرير تاريخه الخالد ، فأقام بها أربع سنوات اتم فيها مقدمته، وقد احتفلت الجزائر منذ سنتين باحياء ذكرى مرور ستة قرون على هذا الحادث ، ونظم المركز الوطنى للبحوث التاريخية ملتقى جمع نخبة من الباحثين : مسلمين واجانب تناولوا حياة هذا العبقرى بدراسة عدة جوانب من تاريخ حياته .

هذه لمحات من تاريخ مملكة ونشريس ذكرتها كتمهيد لترجمة احد أبنائها البررة ، نال شهرة ومكانة فى عهده بعدة عواصم اسلامية ثقافية ، الا أنه كان وفيا لجبله الاشم ، فخصصه بتآليف قيم ، احصى فيه بعض علماء بلاده ، وهو المشهور بكتاب «الوفيات»، زيادة على بعض تآليفه التى نالت شهرة فى بلاد العالم الاسلامى كما اشتهر هذا العالم الاسلامى ببعض مواقفه التى تدل على انه من أباة الضيم والذى كان شعاره مع ملوك زمانه ما خاطب به عبد المهيمن الخضرمى ـ أستاذ ابن خلدون ـ ملك عهده ، أبا الحسن المرينى الذى كان كاتبه الخاص بأبيات لما أساء اليه فكسر قلمه وخاطبه بقوله :

أبت همتى أن يرانى امرؤ مدى الدهر يوما له ذا خضوع
وما ذاك الا لانى اتقيت بعز القناعة ذل الخضوع

اذ لم يفارق أحمد بن يحيى الونشريسى بلاده تلمسان الا مكرها ، وذلك ان ملكها أبو عبد الله محمد بن أبى ثابت المتوكل على الله ، الذى اشتهر بتشجيعه للعلماء ، ورعايتهم اذ فى عهده ـ 866 ـ 888 هـ ـ ظهرت تآليف قيمة من بينها « الدر والعقيان ، فى تاريخ دولة بنى زيان » للحافظ التنسى و « الدرر المكنونة فى نوازل مازونة » (1) ليحيى أبى زكرياء المغيلى المازونى ، ورغم ما اشتهر به، فقد حاول اخضاع احمد ابن يحيى الونشريسى . فصادر أمواله ، واقتحم عليه داره فهدمها، وكان أمكنه التسلل منها فمر عليه الخطر بسلام، حيث وصل الى مدينة فاس فواصل حياته العلمية وترك آثارا فرضت نفسها على تاريخ البلاد الاسلامية كموسوعته الفقهية المعروفة بـ « المعيار المعرب ، عن فتاوى علماء أهل افريقيا والاندلس والمغرب » وقد اشار بعض مترجميه الى اعتزازه بنفسه فقال « كان شديد الشكيمة فى دين الله ، لا تأخذه فى الله لومة لائم ، ولذلك لم يكن له مع أمراء وقته كثير اتصال » أما تآليفه فكلها

(1) يحيى أبو زكرياء قاضى مازونة توفى بتلمسان سنة 883 هـ

درر وغرر خصوصا كتابه الوفيات وهو وان كان صغير الحجم الا انه نظرا الى ان تاريخ هذه المنطقة مجهول ومغمور رغم ان بعض المؤرخين لم يهملوه ، وفي طليعتهم بن خلدون الا ان ابن خلدون اهتم بتاريخه السياسي ، وقد ترك الفراغ لتاريخ البلاد أي ونشريس الحضاري والثقافي ، وان كان ما يبرر اهمال الكتا بلتاريخها الحضاري حيث انها كانت دولة بدوية تسكن الخيام فان تاريخها الثقافي الذي يتمثل في تراجم علمائها أهمل ، فسد هذا الفراغ مترجمنا فخصص تأليفه المذكور ـ الوفيات ـ لعلماء ونشريس ، ولو نجد في تراجم علماء الاندلس والمغرب كثيرا من تراجم الونشريسي الا أن مجرد النسبة لا تمكن من القطع بأن صاحبها نشأ بونشريس ، اذ كانت الهجرة من الشمال الافريقي الى الاندلس متواصلة من عهد فتح الاندلس ، فكان المهاجرون بنية الاجتهاد والرباط كثيرين ، وهم بالطبع يحتفظون بالنسبة الى قبائلهم ويورثون هذه النسبة لابنائهم واحفادهم، أما كتاب الوفيات فانه خصصه مؤلفه لمن عاشوا في البلاد أو ماتوا بها ، فمن هذه الناحية كان لهذا التأليف وزنه وقيمته ، وقد أدى العلامة أحمد بابا التنبكتي خدمة جليلة للتاريخ حيث نقل كثيرا من تراجمه في « ذيل الديباج» ويشاع انه كانت توجد منه بعض النسخ في الخزائن الخاصة بالجزائر والمغرب .

ولنرجع الى مواصلة ما سبق لنا ذكره فيما يخص الاطوار التي استحالت فيها امارة ونشريس من امارة بسيطة، الى دولة ذات شأن تركت بصمات أصابعها في التاريخ وذلك من عهد الامير العبقري عبد القوي التوجيني الذي سبق لنا الحديث عن أخيه العباس ابن عطية الذي رافق الملك المنصور الموحدي سنة 584 هـ في مسيرته الى تتبع بني غانية ولنترك الكلمة للمؤرخ ابن خلدون الذي خصص لهذه المملكة فصولا مضبوطة مدققة فقال « ولما استبد بنو أبي حفص (1) بأمر افريقية ، وصارت لهم خلافة الموحدين نهض الامير أبو زكرياء الحفصي الى المغرب الاوسط ودخلت في طاعته قبائل صنهاجة وفرت زناتة أمامه ، وردد اليهم الغزو فأصاب منهم ، وتقبض في بعض غزواته على عبد القوي (أي الامير) ابن العباس أمير توجين فاعتقله بالخضرة ـ تونس ـ ثم من عليه ، واطلقه على أن يستألف له قومه ، فصاروا شيعة له ولقومه آخر الدهر ، ونهض الامير أبو زكرياء بعدها الى تلمسان فكان عبد القوي وقومه في جملته ، حتى اذا ملك تلمسان ورجع

(1) تقدم لنا ان الملك المنصور لما لحق ببني غانية وهزمهم بتونس عين عند رجوعه والد الامير أبي زكرياء الحفصي عاملا عليها ولما توفي خلفه ولده أبو زكرياء فخلع طاعة الدولة المركزية وهذا ما أشار اليه ابن خلدون بالاستبداد .

الى تونس ، عقد لعبد القوى هذا على قومه ووطنه ، واذن له فى اتخاذ الآلة، فكانت أول مراسم الملك لبنى توجين هؤلاء » ثم تعرض ابن خلدون فى عدة مواضع لمشاركة ملك ونشريس فى رد عدوان الهجومات الصليبية التى شنها على تونس الملك الفرنسى سانلوي الذى لقى حتفه فيها ودفن بمدينة قرطاج – والى هذه الحادثة أشار ابن خلدون بقوله « ولما نزل النصارى الافرنجة بساحل تونس سنة ثمان وستين وستمائة (668) هـ وطمعوا فى ملك الحضرة بعث المستنصر بالله الحفصى – ولد أبى زكرياء الحفصى المتقدم الذكر – الى ملوك زناتة بالصريخ ، فصرفوا وجوههم اليه ، وخف من بينهم محمد بن عبد القوى فى قومه · وقد احتشد من أهل وطنه ، ونزل على السلطان بتونس ، وأبلى من جهاد العدو وحسن البلاء ، وكانت له فى أيامه معهم مقامات مذكورة ، ومواقف مشهورة ، عند الله محتسبة ، ولما ارتحل العدو عن الحضرة وأخذ محمد بن عبد القوي فى الانصراف الى وطنهم أسنى السلطان جائزته وعم بالاحسان وجوه قومه وعساكره ، واقطعه بلاد مغراوة (1) ، وجهات من الزاب ».ثم واصل ابن خلدون حديثه عن ونشريس وتطورها فقال « اخرج محمد ابن عبد القوى فى عهده الثعالبة الذين كانوا يحكمون جبل تيطرى وانزاحوا الى سبانط متيجة وأوطنوها ·

نكتفى بهذا القدر لتوضيح أطوار مملكة ونشريس التى لقيت الجحود والعقوق من أبنائها حيث نجدهم يتطاولون على تاريخ ممالك ورجال لا يمتون لهم بصلة ، وأهلهم فى غنى عن تطفلاتهم ومع هذا يضربون صفحا عن تاريخ بلادهم واحياء ذكرى رجال اشتهروا بآثارهم فى الميادين البطولية والفكرية ، وممالك أو امارات كانت ولا زالت محل عناية المؤرخين النزهاء ، والانكى ان كثيرا ما يكتب بعضنا عن هؤلاء العلماء ونتهمهم – ظلما وعدوانا وغباوة – بأنهم كانوا كلهم يتقربون للملوك والسلاطين يحلون لهم الحرام ويشوهون التاريخ لترضيتهم ، ويعمون هذا الحكم القاسى الجاسر الذى لربما نجد أقلية ينطبق عليها ، أما تعميمه على علماء السلف فذلك خطأ وظلم وذكرت هذا بمناسبة تناول ترجمة هذا العالم أي أحمد بن يحيى الونشريسى الذى كان يمش الشهامة وخلد له التاريخ مواقفه البطولية التى غادر بسببها عاصمة بلاده تلمسان وقد سبقه علماء آخرون خلد التاريخ مواقفهم مع ملوك زمانهم – الذى كان فيه الملك ملكا – ومن ذلك ما قاله عبد الرحمن

---

(1) بلاد مغراوة كانت اذ ذاك تحت حكم بنى منديل وعاصمتها مازونة وكان حكمها يمتد الى متيجة ومدينة الجزائر ·

الثعالبى دفين الجزائر فى فهرسته يصف العلماء الذين أخذ عنهم ببجاية فى رحلته العلمية فذكر من بينهم تلامذة أحمد بن ادريس – صاحب المعهد بنواحى العزازقة – وتلميذه عبد الرحمن الوغليسى وأحمد بن ادريس هذا كان من مشائخ ابن خلدون قال الثعالبى انه وجدهما توفيا قبل وصوله الى بجاية الا انه أخذ عن تلامذتهما الذين كانوا على سننهما : « لا يعرفون الملوك ولا يترددون على أبواب قصورهم » ولم يخل تاليف من تآليف الثعالبى المذكور من تعرضه لاستعراض تآليفه التى ألفها واحدا واحدا مع ذكر سنه ويحث قراءه على عدم اهمال التعريف بأنفسهم لتتأكد الثقة فى التأليف ثم يصب جام غضبه على المؤلفين الذين يهدون تآليفهم للملوك والسلاطين فيقول « وينبغى للمؤلف ان يقصد به وجه الله • وما أقبح حال امرىء يقصد بأعماله عبدا مثله ، لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا » ثم اذا التفتنا الى من كتاب هذه الترهات ويرسلونها – من دون حياء أو خجل – فى التجمعات ان التفتوا الى أنفسهم – بالنقد الذاتى على حد تعبير المعاصرين – يجدون أنفسهم منغمسين فى الترف والتقرب لا الى الملوك والسلاطين ، بل الى الاذناب واذناب الاذناب الذين يصطادون فى الماء العكر وينالون مناصب وبمجرد ما تدور الدوائر عليهم يفرون منهم ويتنكرون لهم ، ولنرجع الى مواصلة حديثنا عن مواقف الثعالبى الذى ذكرناه كنموذج لاباة الضيمفانه استاذنه سكان الجزائر على صلاة الاستسقاء وكان ملازما لبيته أثر مرض فأجابهم بأبيات شعرية منها هذان البيتان :

يطوف السحاب بمزغنة ... بعذب فرات وماء زلال

يريد النزول فلم يستطع ... لجور القضاة وظلم الولاة

أأمثال هؤلاء يرمون بالتزلف والتقرب « **كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون الا كذبا** » ولنختم هذا الفصل بذكر شعار علماء الحديث السلفيين الذين لم تخش جائزة من جوائزهم – لتلامذتهم الذين كانوا يشدون اليهم الرحال – من هذه الوصية : « اتركوا اليأس مما فى يد الناس تعيشوا أعزة » وكان هذا شعارهم خلفا عن سلف •

ولنعد الى مواصلة بقية الحديث عن ترجمة أحمد بن يحيى الونشريسى التى ركزتها على بعض الجوانب المجهولة من حياته ، وأهم هذه الجوانب هو اكتشاف وثيقة كتبها فى تلمسان قبل نكبته بثلاث سنوات وهي عبارة عن تقريض تأليف استاذه أبى زكرياء يحيى بن موسى

المغيلي المازوني : « الدرر المكنونة في نوازل مازونة » وهذا التقريض مجهول تماما ، اذ لم يشر اليه أحد من مترجمي الونشريسي المتوافرين بل صرح كثير من هؤلاء المترجمين للونشريسي أن تأليفه « المعيار المعرب ، عن فتاوى علماء أهل افريقية والاندلس والمغرب » انه استفاد فيما يخص فتاوى فاس والاندلس من خزانة تلميذه قاضي فاس في عهده محمد بن الغرديس التغلبي قال أحمد بابا التنبكتي في « ذيل الديباج » في ترجمة أحمد الونشريسي ما يلي : « وبخزانة هذا الرجل - أي محمد بن الغرديس قاضي فاس - انتفع ، لاحتوائها على تصانيف الفنون ، وبها استعان في تصنيف كتابه « المعيار سيما فتاوى فاس والاندلس فانما تيسرت له من هذه الخزانة قلت واما فتاوى افريقية وتلمسان فاعتمد في ذلك على نوازل البرزلي والمازوني فيما يظهر لمن طالعهما » اهـ ·

على هذه الوثيقة ، كما لم يشر أي أحد لها أو الى الظروف التي اجتمع فيها بشخصه المازوني اكتشف هذا التقريض بعد استقلال الجزائر وبالضبط سنة 1964 ، اكتشفه المرحوم الشيخ نعيم النعيمي مفتش الشؤون الدينية بولاية قسنطينة في عهده اذ استعار نسخة « الدرر المكنونة في نوازل مازونة » من خزانة الشيخ عبد القادر بن يسعد بقرية الدبة (1) ناحية قلعة بني راشد قرب غليزان - فوجدنا ان النسخة نقلت من خط مؤلفها وعليها تقريض الونشريسي المذكور سماه ناسخه « بالاجازة » وقال انه نقله من خط الونشريسي وهذا نص التقريض « الحمد لله مستحق الثناء والحمد ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد حائز أوصاف الكمال في كمال المجد ، وبعد فاني لما طالعت السفر الثاني على أرمزة الانكحة والبيوع من التاليف الجامع المانع المطبوع المقيد هذا على أول ورقة منه المترجم بالدرر المكنونة في نوازل مازونة جمع الفقيه الشيخ القاضي العالم العامل المفيد الجامع الشامل الحافظ الحافل الكامل المشار اليه في سماء المعالي بالانامل ، الصدر الاوحد العلامة العلم الفضل · ذي الخلال السنية ، وسنى الخصال شيخنا ومفيدنا وملاذنا وسيدنا ومولانا وبركة بلادنا أبي زكرياء سيدي يحيى ابن الشيخ الفقيه الامام علم الاعلام ··· ابي عمران سيدي موسى ··· الى أن قال « قد أحرز خصلها ، وجمع فرعها واصلها ، ورفع

(1) كان هذا الشيخ من المتخرجين على الشيخ بن محمد بن على المجاجي المتوفى سنة 1008 هـ وانتصب للتدريس بقرية الدبة وكون خزانة جمعت نوادر المخطوطات وضاع معظمها فيما ضاع من كتب التراث ·

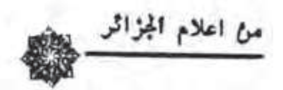
عنها نقاب الشيت والشكوك ، وأوضح نتائج الرسوم والصكوك ، وشحنه صاحبه أعظم الله مثوبته بكل نكتة بديعة ، من علم القضاء والفتوى ، وكل حقيقة ودقيقة تمس اليها الحاجة وتعم بها البلوى وحشد عيون نصوص مالكية المغرب والمشرق وجند ونشر الويته الخفاقة عل ىكل من ألف فى الفن وبنى ... ثم تعرض للظروف التى انتقل فيها المؤلف الى تلمسان وذلك ان المتوكل السابق الذكر عينه مستشارا فى بلاطه ... ثم ختم هذا التقريض بقوله « والسلام الجزيل الجميل الاتم ، الاطيب الأهم يعتمد سيادة مؤلفه من كتابه العبد الفقير الجانى ، على البعد والتدانى ولحمها بالسر والمعانى عبيد الله تعالى أحمد بن يحيى بن محمد بن على الونشريسى خار الله له سبحانه وتعالى ولطف بـه وكتب فى العشر الاول (بياض) عام احدى وسبعين وثمانمائة عرفنا الله خيره » اه .

هذه هي الوثيقة التى ركزت عليها ترجمة أحمد بن يحيى الونشريسى وهي علاوة على تقريض صاحبها لكتاب « الدرر » أفادنا بجوانب متعددة من ترجمة صاحب الدرر من بينها الظروف التى انتقل فيها من مازونة الى عاصمة البلاد تلمسان حيث لقى بها حتفه ودفن فيها مع ان مترجمى صاح بالدرر لم يخصصوه الا بسطور قليلة عرفوه فيها بأنه تولى قضاء مازونة ومات ودفن بتلمسان وفى ذلك قال امثل مترجميه صاحب « ذيل الديباج » : « يحيى ابن أبى عمران موسى بن عيسى المازونى قاضيها الامام العلامة الفقيه أخذ من الائمة كابن مرزوق الحفيد وقاسم العقبانى وابن زاغو وابن العباس وغيرهم ونجب وبرع والف نوازله المشهورة المفيدة ف ىفتاوى المتأخرين أهل تونس وبجاية والجزائر وتلمسان وغيرهم فى سفرين ومنه استمد الونشريسى مع نوازل البرزلى فيما يظهر لى ، وأضافاليهما ما تيسر أي من فتاوى أهل فاس والاندلس والله أعلم توفى كما قال الونشريسى عام ثلاثة وثمانين وثمانمائة بتلمسان ووصفه بالفقيه الفاضل » اه .

هذه صفحات من هذه الوثيقة الجوهرية بقيت مجهولة مغمورة نسج عليها العنكبوت بيته أهملها ورثة هذه الخزائن فلا هم استفادوا منها ولا مكنوا وسهلوا للمستفيدين أن يطلعوا عليها مع أن مؤسسى هذه الخزائن اشترطوا فى تحبيسهم الاهلية فى أعقابهم وقيمة هذه الوثيقة ليست منحصرة فى تقريض كتاب الدرر والاشادة بفضائل مؤلفها بل نجدها أيضا فى التعريف بمؤلفها والاشارة الى الظروف التى انتقل فيها الى تلمسان وذلك ان الملك المتوكل دعاه الى التدريس والاستشارة بالبلاط ثم تعرضه الى ترجمة والد المؤلف وجده الذين تولى

كل منهما القضاء بمازونة وكان والده من كبار المؤلفين حيث قال الونشريسي فيه « صاحب اليد الطولى والقدم الراسخ فى كل مقام ضيق وذى التصانيف التى كل لب اليها شيق المفتى المفيد المنعم أبى عمران سيدى موسى » ، ولولا هذا التقريض لما كنا نطلع على ترجمة هذا العالم الذى أهمله قومه ولم تحظ موسوعته الفقهية حتى بالاشارة اليها مع ان « المعيار » الذى نقل فتاويها حظي من جهته بالنشر وحظي مؤلفه بالتراجم المسهبة ، ولا زال محل عناية الباحثين بخلاف أستاذه ومفيده المزونى المذكور اللهم الا ان استثنينا ما قام به أخيرا أحد أعلام الفكر المعاصرين المستشرق الفرنسى جاك بيرك الذى خصصه بدراسة قيمة جعل موضوع سلسلة محاضرات بالجزائر ونشر بعض فصولها فى مجلة الحوليات التى تصدر بباريس ٠ هذه هي الخطوط العريضة من ترجمة أحمد بن يحيى الونشريسى خصصتها للعدد الخاص من مجلة الاصالة وقد ركزتها على هذه الوثيقة الجوهرية ٠





عبد الرحمن الاخضرى واطوار السلفية فى الجزائر (*)

المهدى البوعبدلى
بحاثة فى التاريخ ومكلف بمهمة
لدى وزارة الشؤون الدينية



قبل أن أتعرض لترجمة نبذة من حياة عبد الرحمن الاخضرى ونشاطه فى مختلف ميادين الثقافة، نذكر بايجاز دور علماء الجزائر البارز فى السلفية ، ومساهمتهم فى المعارك التى أثارتها ، منذ ظهورها بصفة جلية ، فى بلاد المشرق والمغرب ، ابتداء من القرن السابع الهجرى .

وانى سأتناول بالبحث الظروف التى ظهرت فيها السلفية ، وطريق تسربها الى الجزائر ، وظهور انصارها فى الاوساط العلمية بالجزائر ، الى عهد عبد الرحمن الاخضرى ، ثم مواصلة مسيرتها الى أوائل القرن الجارى ، من غير تعرض للتفاصيل كانت السلفية تتلخص فيما أوصى به النبي (ص) فى خطبته المنهجية فى حجة الوداع التى قال فيها : « انى تركت فيكم ما ان استعصمتم به لن تضلوا أبدا ، كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، أو كما قال وعندما انتشر الاسلام ، وظهرت المذاهب لمختلف الملل والنحل ، وكان من بينها

(*) محاضرة القاها يوم 16 ماي 1974 م بالمركز الثقافى الاسلامى بالعاصمة .

مذهب التصوف ، الذى اسرف بعض أئمته ، وتغالوا فى الدعوة الى التحرر من التقاليد ، واسقاط التكاليف ، وزاد الامر تعكرا عندما ظهرت لكثير من ائمة التصوف طرق ، اقبل عليها كثير من العوام ، فعندئذ ، ظهر رد فعل الفقهاء ، الذين ضاقوا ذرعا بهذه التعاليم ، خصوصا بعد محاكمة الحسين بن منصور الحلاج ، الذى كان من دعاة مذهب الحلول ، كان رد فعل الفقهاء الذين انضم اليهم كثير من المحدثين ، اتهام المتصوفة بالمروق من الدين ، حيث اتهموا بأن تعاليمهم مستمدة من مذاهب غير اسلامية ، ان هذا الموضوع قتل بحثا ، وليس المقصود فى هذه المحاضرة التعرض لبحث الخلافات المذهبية اذ ذاك ، وانما ذكرت ذلك كتوطية ، ومدخل لموضوع البحث ٠

اشتدت حملة الفقهاء والمحدثين على التصوف ، حتى ظن انه اختفى للابد ، اذ صار جل المنتسبين اليه يرمون بالزندقة ٠ وفى القرن الخامس الهجرى ظهر العالم الشهير ، أبو حامد الغزالى الذى امكنه ان يهذب علم التصوف ، وحاول التوفيق بينه وبين علوم السنة ، وبالفعل جعل منه علما الى جانب ما فيه من العمل وجعل فيه بنوع خاص طريقا الى المعرفة اليقينية ٠ وقد تلقى أهل السنة تعاليم الغزالى بالقبول الحسن وأسر الفقهاء على مواقفهم منه ، خصوصا فقهاء المغرب العربى والاندلس مما هو مشهور ، وقد شذ من بينهم فقيه جزائرى له مكانته انتصر للغزالى وهو أبو الفضل ابن النحوى صاحب المنفرجة الشهير ، دفين قلعة بنى حماد ، وبعد ظهور دولة الموحدين ، مر الخطر الذى كان يهدد تعاليم الغزالى خصوصا فى المغرب العربى ، اما فى المشرق ، فقد ظهرت حملة ضد تعاليمه أهمها تآليف أبى الفرج عبد الرحمن الجوزى البغدادى ، المتوفى سنة 597 هـ ، ثم ظهر بعد الغزالى ، ائمة آخرون ، مثل محيى الدين ابن عربى وابن سبعين ، وتلميذه الششترى ، فاثاروا المشاكل من جديد ولم ينج من الحكم بالاعدام الا بمعجزة وقد تصدى لهم الامام ابن تيمية فى عهده فحكم على اكثرهم بالكفر ، والحق بهم العلماء الذين ايدوهم ، أو وقفوا مواقف سلبية ، ازاء دعوتهم ، كما تطرق ابن تيمية الى انكار التوسل وزيارة القبور الى ان اتهمه خصومه بأنه منع زيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكانت هذه التهمة من جملة التهم التى جرت له الويلات وسجن الى ان مات فى سجنه ٠ ترك ابن تيمية تآليف عديدة ، وتلاميذ لا يقلون عنه رتبة فنشروا تعاليمه وتآليفه التى ركز عليها محمد ابن عبد الوهاب مذهب الوهابية فيما بعد ٠

لنرجع الى السلفية بالجزائر ، فنجدها تسربت اليها على طريق عالم سلفى شهير هو ابو الحسن على بن عبد الحق الزرويلى الشهير بالصغير وبالصغير قاضى مدينة فاس ، فى أوائل القرن الثامن اذ توفى عن سن عالية سنة 719 هـ .

اشتهر أبو الحسن الصغير هذا فى المغرب ، بما اشتهر به معاصره ابن تيمية فى المشرق والفرق بينهما ، أن أبا الحسن كان فقيها مالكيا ، وأهل المغرب كلهم مالكيون بخلاف ابن تيمية ، فكان حنبليا ، وفى المشرق علماء ينتمون الى جميع المذاهب كما أن أبا الحسن الزرويلى كان نشاطه السلفى فى اطار المذهب السنى بخلاف ابن تيمية فان خصومه اتهموه بأنه كان يصرح بأن المقصود من شد الرحال الى المدينة المنورة هو الصلاة فى مسجدها ، لا زيارة قبر الرسول صلى الله وسلم وهذا لا يقول به فقيه سنى انتصر لتعاليم أبى الحسن الصغير بعض علماء الجزائر ، وفى مقدمتهم أعلم أهل عصره ، الحافظ ابن مرزوق الحفيد الذى أشاد بالفقيه المذكور ، ورد على زميله قاسم العقبانى التلمسانى الذى الف رسالة انتصر فيها لمتصوفة زمانه ، وقد سمى ابن مرزوق تأليفه: « النصح الخالص فى الرد على مدعى رتبة الكامل الناقص » ، ثم ترجم لابى الحسن الصغير فقال : (انه شيخ الاسلام ما عاصره مثله ولا كان مثله فيما قارب عصره ، وبمقامه في الفقه يضرب المثل ، قد جمع بين العلم والعمل الخ .. وقد كان من جملة انصار قاسم العقبانى بعض اكابر العلماء ، مثل الشيخ عبد الرحمن الثعالبى دفين الجزائر ، الذى هو من تلامذه الامام ابن مرزوق المذكور ، كما انتصر للعقبانى الامام أبو عبد الله محمد بن يوسف السنوسى الشهير بتآليفه ، فى علم التوحيد وقد خص هذه المعركة بتأليف سماه « نصرة الفقير ، فى الرد على ابى الحسن (1) الصغير » وقد كان مسرح هذه المعارك كتب النوازل ، كالدور المكنونة فى نوازل مازونة ، وفتاوى أحمد بن يحيى الونشريسى المجموعة ، فى المعيار ، وقد جمعت معظم هذه الفتاوى فى تآليف خاص مفيد فى موضوعه جمعت فيه فتاوى علماء الجزائر والاندلس وقد كان واضع هذه القضية على بساط المناقشة ، أبا فارس عبد العزيز القيروانى تلميذ أبى الحسن الصغير ، وشارك فيها بين محبذ ومنكر ، من الجزائريين عبد الرحمن الوغليسى فقيه بجاية الشهير ، وابن مرزوق الحفيد التلمسانى وسعيد العقبانى التلمسانى وعيسى الغبرينى البجائى ولد أحمد الغبرينى صاحب عنوان الدراية ومن غير الجزائريين والشاطبى وأبو سعيد ابن لب الاندلسى وأبو بكر الطرطوشى .

(1) ابى الحسن الصغير هو غير الاول ناشر مذهب السلفية بالمغرب .

وقد كان تأليف الامام السنوسى يختلف عن معظم الفتاوى المذكورة ، اذ تعـرض فيه صاحبه لنقض أفكار أبى الحسن الصغير جملة جملة ، وقد ذكر فى مفتتحة الاسباب الداعية الى تأليفه ، حيث قال : « لمـا لقيت الشاب الفقيه أبـا العبـاس أحمد رزوق ، وسألته عنه (أي عن أبى الحسن الصغير) لمـا قدم سنـة 841 قاصدا الحج الخ ·· والمتأمل يشك فى نسبة هـذا التأليف للسنوسى ، فهو زيـادة على اهمـال مترجمى السنوسى لذكره ، ضمن مؤلفاته فيه عبارات بذيئة يتنزه عنها السنوسى الذى اشتهـر بالنزاهة والاعتدال وهو على سنن أستاذه الثعالبى الذى نجده ، عندما نتعرض لنفس الموضوع فى بعض تآليفه قال : « وقد وقفت على كتاب تلبيس ابليس ، فذكر أنواعا من الكلام يقع فى أكابر العلماء الذين جمعوا بين العلم الظاهر والباطن ، المجمع عـلى فضيلهم ، فوقع فى الغزالى ، وفى المحاسبى وأبى القاسم القشيرى ، وبالجملة طعـن على هؤلاء وضربائهم ، المجمع على فضلهم فى زماننا هذا ، ولما وقف شيخنا أبو مهدى عيسى الغبرينى خاتمة علماء افريقيا ، على هذا الكتاب وتأمله ، القاه من يده وقـال له عليك والله لبشر ابليس يا مسكين ، ورأيت هذا الكتاب هناك ـ أي بتونس ـ مهجورا لا يلتفت اليه ، وزعم كاتبه ان للجوزى ، وليس هو ان شاء الله بالجوزى صاحـب المورد ، الذى ألف كتبا عديدة فى المواعظ وحكايات الصالحين » والكتاب هو مـن تاليف أبى الفرج البغدادى المتوفى سنة 597 الذى تقدم لنا الحديث عنه تقتصر عـلى هذا القدر من مواقف بعض علماء الجزائر ، وهم بين محبذ ومنكر ، على قضية شائكة لفتت أنظار علمـاء الدين قـرونا ولا زالت تحدث الهزات العنيفة ، المرة بعد المـرة ، وتشغل الرأي العام العالمى ، وتثـير انتباهه ، وانطباعاته ، وكثيرا مـا شـارك فيها الاجانب ، وتداخل فيها المستشرقون طورا ·

ثم تبنت الجزائر آخر للسلفية فى آخر عهدها ، وكانت قرية تامقرة بنواحى بجاية هي منطلق المذهب الجديد ، وهو الذى له ارتباط وصلة بموضوع هذه المحاضرة التى ركزناها على ترجمة عبد الرحمن الاخضرى ، الذى كان له الفضل فى تعميم المذهب الجـديد ·

ختم المطاف بالعالم أحمد زروق الفاسى الشهير الذى أقام بتامقره فى معهد يحيى العبدلى وألف فيه معظم كتبه التى ضبط فيها علم التصوف اقتداء بالغزالى ، اذ شاهد زروق بعد اقامته الطويلة بـين تلمسان والعاصمة وقسنطينة ، شـاهد الفوضى التى ادخلها العوام ، واشباههم على علم التصوف ، خصوصا المحترفين ، من مقترفى البدع فكرس حياته وألف كتبه المشهورة كقواعد التصوف «وأصول الطريقة» و «كتاب البدع»

هذه التآليف كتب لهـا الخلود ، وصارت حجـة عند المتصوفين الملتزمين ، وعلماء الحديث والفقه في آن واحد ، وأجمع مترجمو زروق بانه خاتمة الجامعين بين الحقيقة والشريعة وقد ساعده على اداء مهمته تضلعه في علوم الحديث والتفسير والفقـه ، ثم استقامته المثالية ونزاهته حتى صار حكما عند جل الطوائف ، كان انتشار مذهبه ، على طريق تلميذه محمد بن على الخروبى دفـين الجزائر وأب تلميذه عبد الرحمن الاخضرى ، موضوع حديثنا ، واذا كان الخروبى اشتهر فى الاوساط الخاصة ، فان الاخضرى عمم نشر المذهب فى الطبقات العامة حيث كان جل معاهد التعليم بالبـلاد يلزمون طلبتهم بحفظ منظومة القديسة عن ظاهر قلب كان عبد الرحمن الاخضرى من اسرة علمية ، توارث أفرادها العلم قرونا ، وهو من بنطيوس الزاب الجزائرى ، وامتاز هو من بين أفراد أسرته بالنبوغ ، فقد نظم السراج فى الفلك وهو ابن سبع عشرة سنة ، كما نظم « ازهار المطالب فى علم الاسطرلاب » وهو ابن عشرين سنة ، اما تآليفه فى بقيـة فروع المعرفة ، وفنونها فهي تـربو على الثلاثين ، وقد وقـع الاقبال عليها مـن جامعات العالم الاسلامى كالازهر والزيتونة والقرويين اذ ادخلت فى برامج التعليم منذ ظهورها ، وتولى فطاحل علماء المشرق والمغرب شرحها والتعليق عليها ومنها منظومة القدسية ، وان لم يسعنا مجال هذه المحاضرة لتتبع مراحل حياته ، فلا يفوتنا ان نذكر ان والده تتلمذ على الزروق ، واخذ الزروق بدوره عن بعض أفراد أسرته حيث نجـد ذكر الاخضرى ضمن مشائخه ، وقد اجمع مترجمو الاخضرى ، انه لم يعمر طويـلا ومات حوالى سنة 953 هـ وهو من مواليد سنة 920 هـ وفى هذه السنوات الاخيرة اكتشف احد افاضل علماء الزاب وثيقة تدل على انه توفى سنة احدى وثمانين وتسعمائة ، أذ عثر على تاليف له نظم فيه الاجرومية قال فى ختامه :

تـم بحمـد اللـه مـا قصدنا ... مـن نظـم هـذه التـى أردنـا
سميتهـا بالـدرة البهيـة ... فهـي لـما فى أصلهـا محـوية
وكـان فـى محـرم الحـرام ... بـدءا وختـمنا لـذا النظـام
فى عـام احـدى وثمـانين سنـة

فتبين انـه جاوز الخمسين سنة مـن بعد تسعمائة مستحسنة وفى هذه الظروف كان تدهور البلاد بلغ نهايته فبجاية العاصمة الثانية لدولة بنى حفص سقطت فى ايـدى الاسبان ، ثم لحقتها العاصمة الاولى المركزية تونس ، وبلغ الضعف والتخاذل ببقايا الدولة الحفصية ، الى ان صاروا يستعينون بالاسبان لاخراج خير الدين باشا ، فثارت القبائل واغتنم الفرصة رؤساء الاقطاع فصاروا يستعينون برجال الدين الذين كـان

فيهم الغث والسمين ، وقد اهتم عبد الرحمن الاخضرى ، بتصوير حالة البلاد ، فى عدة قصائد ، مثل الوصية ، والاستغاثة ، وخصص القدسية التى تحتوى على 357 بيتا، لمتصوفة زمانه فقال فيهم :

قد ادعوا مراتبا جليلة   والشرع قد تجنبوا سبيله
قد نبذوا شريعة الرسول   فالقوم قد حادوا عن السبيل
لم يدخلوا دائرة الطريقة   فضلا عن دائرة الحقيقة
لم يقتدوا بسيد الانام   فخرجوا عن ملة الاسلام
قد ملكت قلوبهم أوهام   فالقوم ابليس لهم امام
كفاك من جميعهم خيانة   اذ ختلوا الدنيا بالديانة

الى ان يقول :

من كان فى نيل الامانى راجيا   وعن شريعة الرسول نائيا
فانه ملتبس مفتون   وعقله مختبل مجنون

ثم يتعرض للمتصوف الحقيقى فيصفه بقوله :

واعلم بأن الولى الربانى - لتابع السنة والقرآن
والفرق بين الافك والصواب   يعرف بالسنة والكتاب
والشرع ميزان الامور كلها   وشاهد لاصلها وفرعها
والشرع نور الحق منه قد بدا   فانفجرت منه ينابيع الهدى

ثم ينتقل الى وصف حالة البلاد اذ ذاك فيقول :

هذا زمان كثرت فيه البدع   واضطربت عليه أمواج الخدع
وخسفت شمس الهدى وافلت   من بعدما قد بزغت وكملت
والدين قد تهدمت اركانه   والزور طابق الهوى خانه
وظلمات الزور والبهتان   تزخرفت فى جملة الاوطان

ثم يرجع الى ما قاله فى وصف الولى الحقيقى فيؤكد ذلك بقوله :

وقابل بعض السادة الصوفية   مقالة جليلة صفية

اذا رايت رجلا يطير | أو فوق ماء البحر قد يسير
ولم يقف عند حدود الشرع | فانه مستدرج وبدعي
فارفضه انما الفتى دجال | ليس له التحقيق والكمال

ثم يختم هذا الفصل ويعترف بانه استمده من شيخ شيوخه وشيخ والده زروق فيقول :

ومن يرد معرفة بالبدع | وما انبنا عليه أصل المدع
ففي كتاب شيخنا الزروق | فوائد بديعة الفتوق

ثم يعود مرة أخرى الى متصوفة زمانه الذين شوهوا نسبة الطريق بانحرافاتهم وتحملهم مسؤولية هجرانها فيقول :

واحسرتي على الصراط المستقيم | قد ادعاها كل افاك اثيم
قد أشرفوا على كهوف الكفر | وستروا بدعتهم بالفقر
واتخذوا مشائخنا جهالا | لم يعرفوا الحرام والحلال
لم يقفوا عند حدود الله | سنة الهادى رسول الله
فنفروهم من رعاة الدين | أولى التقى والعلم اليقين
فاعرضوا عن سبل الرحمن | واتبعوا مسالك الشيطان
وهدموا قواعد الاسلام | واعتبروا خرائف الاوهام
وعكسوا حقائق الامور | ونصبوا حبائل الفجور
وأولعوا بشهوات النفس | بكل بدعي لهم تأسي

الى ان يقول :

آه على طريقة قد ذهبت | وهمييت أصولها وقلبت
وهاج افك المدعي فيها | وصار من يطلبها سفيها
آها على طريقة الكمال | افسدها طائفة الضلال
طريقة افسدها اهل البدع | فتركت مهجورة لا تتبع

هذه في الجملة الخطوط الجوهرية من منظومة القدسية ، التي كان لها الفضل في تعميم مذهب أحمد زروق السلفي ، بعدما افرغ في بوتقة ، روعي فيها الراي العام ،

الذى كان ينقاد الى فقهاء المذهب المالكى حيث برهنوا انهم كانوا حماة الشريعة الاسلامية فى احرج الاوقات التى اجتازتها البلاد واصيبت بتيارات مذهبية جارفة خصوصا فى عهد الشيعة احدثت تآليف زروق ثورة فكرية ، امكنها ان تكون حصانة لتعاليم التصوف الاسلامى ، الذى انتصر له كثير من علماء البلاد من عهد الغزالى ، وقد اهتم بهذه المنظومة كثير من علماء المشرق والمغرب ، الى زماننا هذا ، حيث طبعت مع فتاوى ابن الصلاح ، وفى كتاب الزهر الباسم وأخيرا فى الرسائل الجلية ٠

وقد اهتم الاخضرى بالمجتمع فوصف نخبته ، وحذر أيضا من « علماء السوء » كما سماهم أي العلماء الانتهازيين الذين كانوا يقولون ما لا يفعلون ، ويتقربون الى رؤساء الاقطاع ويوالونهم فقال عنهم فى قصيدة أخرى :

واحذر علماء السوء فقد	خصوا بالفك وبالخطل
حفظوا الاقوال وما عملوا	بالعلم فساء القوم قل
ما حرفتهم الا لعب	ولحوم الناس بلا قلل
ارباب قلوب قاسية	للطاعة اصلا لم تمل
لا نطق لذكر الله لهم	الا باللهو وبالهزل
لا يكسبون العلم سوى	لرياء الناس وللجدل
طمس الاقوال تملقهم	لولاة السوء ذوى الخلل
من قبل اولى الاوثان قل الخ ٠٠	يصلون دارا كما وردا

وقد حظيت هذه المنظومة بشروح قيمة ، اهمها فيما ظهر لى ، شرح الحسين الورتلانى صاحب الرحلة ، لانه القى فيه اضواء ، على حالة المجتمع ، وأحصى تأثير العادات السيئة التى الصقت بالدين ، وقد ظهرت تآليف قيمة أخرى عززت تآليف الاخضرى ، منها كتاب « منشور الهداية فى كشف حال من ادعى العلم والولاية » للشيخ عبد الكريم بن الفكون القسنطينى المتوفى حوالى سنة 1073 هـ ، وكان من فطاحل العلماء حيث اثنى عليه كثيرا أبو سالم العياشى فى رحلته ، وأحمد المقرى التلمسانى فى نفح الطيب ، وغيرهما من علماء المشرق والمغرب ، وهذا التاليف من احسن ما ألف فى موضوعه ، بل فريد فى بابه ، تعرض فيه مؤلفه لطبقتين أو طائفتين من معاصريه الطائفة الاولى ، ترجم فيها للعلماء الذين تولوا المناصب العلمية ،

وسلوكهم غير مرضى ، وليست لهم كفاءة لتولية تلك المناصب كالقضاء والافتاء والوزارة ، وغيرها ، والطائفة الثانية منتحلوا الرياسة الدينية ، ومشائخ الطرق الذين يحترفون الدجل والشعوذة ، وقد قال فى مقدمة تاليفه المذكور الذى قسمه الى فصول ثلاثة وخاتمة قال :

الفصل الاول : « فى ما لقيناه من العلماء والصلحاء المقتدى بهم »

الثانى : فى المتشبهين بالعلماء ، وهم الذين قصدنا بهذا التقيد ايضاح أحوالهم

الثالث : فى المبتدعة الدجاجلة الكذابين على طريق الصوفية المرضية ·

والخاتمة فى اخوان العصر وما هم عليه ·

هذه هي النقاط الرئيسية التى حللها المؤلف فى كتابه « منشور الهداية » وميزة التأليف هي ان مؤلفه لم يكتف بعرض الاوصاف التى ينكرها الشرع ، بل شخص المتصفين بها ، وأفرد لكل واحد منهم ترجمة حياته · العامة والخاصة ومعظم من تعرض لهم ، معاصروه ، أو من سبقهم بمدة لا تجاوز القرن ، والكثير منهم له بهم علاقة القرابة أو التلمذة ، وهذه فقرات من مقدمة تاليفه قال فيها : « أما بعد فلما رأيت الزمان بأهله تعثر ، وسفائن النجاة من أمواج البدع تتكسر ، وسحائب الجهل قد اظلت واسواق العلم قد كسدت ، فصار الجاهل رئيسا ، والعالم فى منزلة يدعى من أجلها خسيسا ، وصاحب أهل الطريقة ، قد أصبح واعلام الزندقة على رأسه لائحة ، وروائح السلب والطرد من المولى فائحة ··· فموهوا على العامة بأسماء ذهبت مسمياتها ، وأوصاف تلاشت أهلها منذ زمان واعصارها ، لبسوا بانتحالهم لها على أهل العصر انهم من أهلها ، كل ذلك والقلب منى يتقطع ، غيرة على حزب الله العلماء ، ان ينسب جماعة الجهلة المعاندين الضالين المضلين لهم ، أو يذكروا فى معرضهم ، وغيرة على جناب السادة الاولياء الصوفية ان تكون اراذل العامة ، وأنذال الحمقى المغرورين ان يتسموا باسمائهم ، أو يظن بهم اللحوق بآثارهم ، ولم آل فى التنفير عن كلتا الطائفتين والتحذير منهم فى كل زمان وأوان ، وبين كل صالح من الاخوان · الخ وفى هذا التاليف ترجم لعبد الرحمن الاخضرى ، وأشاد بمواقفه ، وذكرانه كان من العلماء الذين لا يكتفون بتغيير المنكر بالسنتهم وقلوبهم ، بل كان يغيره بيده ، ويستعين على ذلك بجيش طلبته ، كما أشاد المؤلف زروق وتآليفه ، وانفرد بنشر رسائل خاصة كاتب فيها زروق بعض خواص أصحابه فى الموضوع خصوصا انطباعاته المبنية على مشاهداته فى بلاد المغرب العربى الذى عاش فيه وهي قيمة جدا مجهولة تماما ، ثم

ظهرت فى نفس الوقت أي القرن الحادى عشر ثم الثانى عشر تآليف أخرى قيمة فى الموضوع ، وهي شبيهة بالقدسية ، كمنظومة عبد الرحمن ابن محمد ابن على المجاجى ، أستاذ سعيد قدورة وقد نوه بها ابن الفكون حيث تعرف بمؤلفها الذى زاره الى قسنطينة فى طريقه الى الحج ، وأهدى له منظومته ، وطلب منه ان يشرحها ، ولما توفى المجاجى هذا رثاه ابن الفكون بقصيدة بليغة ارسلها الى أخيه ، وظهرت بمستغانم منظومة للشيخ محمد ابن حواء دفين مستغانم ، من علماء القرن الثانى عشر سماها « سبيكة العقيان فيمن حل بمستغانم واحوازها من الاعيان » تعرض فيها لتراجم علماء البلاد ، ثم تطرق الى وصف حالة البلاد فى عهده ، وانتشار البدع ، والعجز عن النهي عن المنكر وتغييره وهي أيضا شبيهة بالقدسية ، وعلى نمطها وظهر كتاب « خاص للشيخ محمد ابن عبد الله الجلالى مدير المدرسة المحمدية التى بناها الباي محمد ابن عثمان فاتح وهران بمعسكر ، وكلفه أيضا برياسة رباط وهران ، كتب محمد بن عبد الله الجلالى هذا رسالة خاصة ، الى زميله فى الدراسة بفاس الشيخ أحمد التجانى مؤسس الطريقة التجانية ، كاتبه جوابا عن رسالته التى ذكر له فيها انه فتح عليه بما لم يفتح على من سبقه ، وانه تصدي للتربية وهو بصدد تأسيس طريقة صوفية فاجابه محمد بن عبد الله الجلالى جوابا مسهبا ناقشه فيه الحساب ، ان وجهت اليه من طرف منتقديه ، وحذره من مغبتها ، وهذه الرسالة افرغها مرسلها المذكور ، فى قالب توجيه وتحذير ونصح ، وأهم محتواها حرية الفكر اذ ذاك ، واليقظة ، كما ظهر من انصار السلفية اذ ذاك المؤرخ ابو راس الناصرى الذى لم يتقصر على سلفية مدرسة زروق ، بل جاوزها الى سلفية المذهب الوهابى ، وذلك انه اجتمع بالامير الوهابى فى الحج ، وتذاكر معه بحضور الوفد المغربى ، الذى كان يرأسه ولى عهد ملك المغرب اذ ذاك واوردوا عليه أسئلة اقنعهم فى جوابه عنها ، وقد أشاد المؤرخ أبو راس بمذهبهم وذكر ذلك كله بتفصيل فى رحلته .

واننا ان تتبعنا قائمة علماء الجزائر الذين وقفوا مواقف تأييد أو انكار على السلفية لما وسعنا مجال هذه المحاضرة ، وقبل الختام نذكر مواقف بعض العلماء الجزائريين من السلفية بعد الاحتلال الفرنسى ، فنجد موقف ابن الحداد بطل الثورة المشهورة ، فانه خصص تاليفا للبدع التى كانت تقترف فى عهده ، وانكرها ، وبرأ الطريقة الرحمانية منها ، كما ظهرت حملة ضد البدع بمدينة قسنطينة ، كان مركزها نادى صالح باي حيث القى فيه بعد تأسيسه مباشرة الشيخ المولود ابن الموهوب سلسلة محاضرات ، تولى ترجمتها الى الفرنسية السيد الشريف ابن حبيلص القاضي الموثق

والنائب السابق بالبرلمان الفرنسي ونشرها الا ان هذه الحملة لم تكن تلقائية او مبنية عن عقيدة ، فيما يظهر ، بل كانت متصلة ومرتبطة بخيوط حركتها او شجعتها لمقاومة الطريقة الرحمانية بعد اندلاع ثورة المقراني وصهره ابن الحداد ، وقد كشف النقاب عنها أحـد أعضاء لجنـة البرلمان الفرنسي التي ارسلت الى الجـزائر تحت ريـاسة الـوزير الفرنسي : جول فيري ٠

وذكر هذا العضو من جملة وسائل مقاومة التعصب الديني الذي كانت تشخصـه الطريقة الرحمانية ، الالتجاء الى الاستعانة بالموظفين الدينيين والشرعيين بالجزائر . الا انها محاولة فاشلة لخبر يطول وانما نذكر في هذا الباب عالما سلفيا يعد من ضحايا الفكرة السلفية في طورها السابق المتصل بالحرب العالمية الاولى ، وقد اثار موقفه أول هزة من نوعها في بلاد المغرب العربي بعد الاحتلال الفرنسي كان هذا العالم هو صالح بن مهنا القلي منشا والقسنطيني مقرا واقبارا ، تخرج من الزيتونة ثم من الازهـر ، وبعد رجوعه انتصب للتدريس بمدينة قسنطينة ، وان لم يسعنا مجال المحاضرة للتتبـع مراحل حياته بتفصيل ، فاننا نذكرها بايجاز ، كان أحد علماء البلاد أي مـن القطاع القسنطيني يدعى أحمد بن دادا المشهور بابي الهدى تخرج من القرويين ، الف رسالة سماها « ضوء الشمس » نوه فيها بالاشراف ، ولربما بالغ في ذلك فلما اطلـع عليها صالح ابن مهنا رد عليه مبالغاته ووضع الامر في نصابه ، في تأليف سمـاه « تنبيـه المغترين في الـرد على اخوان الشياطين » وصادف هذا التأليف ظهور طبعـة أولى لرحلة الورتلاني ، بتحقيق صالح بن مهنا في مطابع تونس سنة 1321 هـ ، لفت أنظـار القراء اذ ذاك ، تعليق ابن مهنا ، عما قاله الورتلاني في الاشراف قال الورتلاني « ان الاشراف ثلاثة اقسام : طايعون ومستورون ومتجاهرون ، والتعظيم للقسمين الاولين دون الثالث ٠٠٠ فهذه الفرقة أي العاصية من الاشراف غير معتبرة عندنا » فعلق ابن مهنا على هذه الجملة بقوله : « قلت دل كلامه على ان من خالف السنة والشرع غـير معتبر ولو كان مدعيا للصلاح او الشرف أو العلم ، وهذه الفرقة التي انكر عليها الشيخ من الشرفاء قد كنت قلت مثل هذه المقالة التي قالها فيها وهي ان الشريف الفاســق لا يعتبر ، فانكرها بعض الارذال ممن قرأ مستلتين ، وتعلم باب مسح الخفين ٠ الى ان قال وقد صرح به الامام الشعراني في كتابه المنن فقال قال بعض العلماء ولا ينبغـي تعظيم الشريف ، اذا تعاطى المحرمات اهـ ٠ وكذا الشيخ مؤلف هذه الرحلة لانه صرح بشرف هذه الفرقة المذكورة ، ثم قال فهذه الفرقة غير معتبرة عندنا ، وناهيك به علما ، وديانة ، وصلاحا وولاية ، فاين هو من أولئك الحمير » اهـ ، تعليق صالح بن مهنا وقد

صرح فيه بالرد على منتقديه على كتابه « تنبيه المغتربين » من فقهاء قسنطينة الا ان رده الثانى كان اعنف وعـده خصومه تحديا لا ينبغى السكوت عنـه ، ولربما كان بعض المسؤولين يهمهم الامر حيث كانوا بالمرصاد للافكار المستوردة (كمـا كانوا يعبرون عنها) خصوصا اذا كان الداعى لها متخرجا من الجامعات الاسلامية حينئذ ، فاختير للرد عليه ، امثل هجاء عرفته البلاد ، وهو الاديب العبقرى الشيخ عاشور الخنقى ، فكان تاليفه « كتاب منـار الاشراف على فضـل عصاة الاشراف ومواليهم الاطراف » المطبوع فى الجزائر سنة 1332 هـ 1914 م .

ولم يكن هذا الرد مقنعا ولم يوت بثمرته المرجوة ، حيث ان مؤلفه كان مشهـورا بثلب الاعراض ، وعاشور نفسه لم يخف فى تاليفه ، ان الرأي العام تاثر بتعليق صالح ابن مهنا واعجب به وفى ذلك قال : « وان تعجب فعجب » قول بعض جهالة الطلبـة ، وبعض العلماء بالغلبة ، حاشا فوارس الحلبة ، أي ما تضمنه هذا المجموع ، كـلام « هائل ما رأينا مثله فى كتب الاوائل ، فلا نظن ان يكون له طائل ، وجوابه ، ما هذا الا كلام مخلط جاهل، يستحق صاحبه ان يسجل فى ديوان الحيوان الناهق أو الصاهل ، ولذلك اختيرت اعظم شخصية علمية بالمغرب اذ ذاك وهو شيخ الاسلام بالديار المغربية المؤلف الشهير الشيخ المهدى الوزانى ، فجاء الى قسنطينة بسنة 1323 هـ واطلع عـلى تعاليق ابن متهنا ، وخصها بتاليف سماه « السيف المسلول باليد اليمنى ، لقطع رأس ابن مهنا » وقد اخفى الشيخ الوزانى الظروف التى جاء من أجلها الى قسنطينة ، وانما ذكر انه ورد اليها عابر سبيل واتصل بعلمائها ، فاطلعوه على ما ذكر ، ولنترك لـه الكلمة حيث قال فى مقدمة كتابه بعد ان ذكر انه عقد الرحلة الى تونس ، ومر عـلى تلمسان ، ثـم العاصمة ثـم قسنطينة قال : « ولمـا وصلت الى قسنطينة ، اجتمع بـى جماعة » من علمائها ، وفضلائها ، ووجوه كثيرة من أهلها واعيانها ، واخبرونى ان عندهم رجلا من أهلها ، يقال له ابن مهنا، كان يتعلم العلم بمصر أزيد من عشرة أعوام، ولما رجع لبلده قسنطينة ، رجع بزى الفقر ، زاعما انه من أهل التصوف ، وينكر أمورا ضرورية ، ويسب الاخيار وينقصهم ، ويبالغ فى شتمهم خصوصا أهل المغرب ، ولـه مقالات تدل على قلة ادبه ، مع أهل البيت ، وسألونى عن حكم الله فيه ، فقلت لهم هل ثبت هذا عليه ببينة ، أو بخط يده أو بغير ذلك ما يثبت به شرعا ، فقالوا لى ثبت ذلك فى كتاب الفه بيده ، وطبع فى تونس على ذمته ، فطلبت منهم احضـار هذا الكتاب ، فأتونى بنسخة منه ، واذا هو رحلة الشيخ الامام سيدى الحسين الورتلانى وبهامشه ما كتبه الرجل المذكور كالحاشية عليه فوجدته كمـا قالوا فأردتان اذ كـرهنا بعض

مقالاته فى أهـل المغرب ، وأهـل البيت ، ونجيبه عنها بأختصار » اه ٠ ولا يمكننا ان نتتبع ما كتبه الوزانى فى الموضوع وانما نلفت نظر المستمعين الى ان صالح ابن مهنا قال فى تعليق آخر من الرحلة ، ذكر فيه الرحالة الورتلانى أهل المغرب ، وسمعتهم فى المشرق جره الى ذكرها سياق الحديث فقال ابن مهنا « ولقد صدق الورتلانى فى جميع ما ذكره ، فصار فصار المغربى منسوبا عند المصريين الى الدجل ، والشعوذة والسحر ، حتى قال بعض العلماء ، جميع ما ألفه المغاربة ، يفوقه ما ألفـه عالم واحد مصرى ، وهو الامام جلال الدين السيوطى ما عدا كتب السحر ، والشعوذة ، فانهم ألفوا منهـا كثيرا ، وملئوا بها لارض كابن الحاج الكبير وغيره ، وجلبوا بهـا أمـوال النـاس ، واظنهم توارثوها عن اسلافهم الخ ٠٠

وعلى كل حال كان هذا الكتاب الذى حظى بتقاريظ جل العلماء البارزين حينئـذ بالمغرب ، موسوعة شتائم ٠ وقذف انصبت على ابن مهنا الذى لم يقل عشر ما قاله من قبله من علماء المشرق والمغرب ، وكتب نوازل المغرب العـربى مملوءة بأقوال شـاذة احصيت على اصحابها وحوكموا من أجلها ، من دون ان تحرك ساكن أولائك العلمـاء ولهذا كله نرجح ان رد الشيخ المهدى الوزانى كان مدبرا ، ولنرجع الى عينات من هذه التقاريظ التى لم يقتصر فيها اصحابها على نقد وشتم صالح ابن مهنا بـل شركوا فى هجوهم وسبهم والده الميت من زمان فقال احد أكابر الفقهاء غفل أو تناسى قول النبي (صلعم) اذكروا موتاكم بالخير « قـال :

تبـا لمهنـى وابنـه الكلـب الـذى ... يعـوى ويلهـث سـائـر الاحيـان
تعسـا لـه مـن فاسـق متجـاهـر ... بفجـوره يبغـى رضـى الشيطـان
متسربـلا بـرداء فحـش نـازعـا ... ثـوب الحيـا عن وجهـه السرحانى
تسل عنـه مصر تـرى له من فحشه ... شكـوى بقلـة دينـه بعيـان
سـل عنـه مصر تـرى له من فحشه ... حتـى لقـد منحـوه بـالهجـران

وهذه المنظومة تبلـغ ابياتها ثمانين كمـا قرض التاليف المذكور نقيب الاشـراف العلويين مؤرخ المغرب فى عهده ، عبد الرحمن بن زيدان فقال :

الجهـل فيـه فضيحـة الانسـان ... ويقـوده لمـواطـن الكفـران
وتجـره اسبـابـه لمهـامـه ... وعـراء يسلكهـا ذوو الخسـران

مثل ابن مهنا الجاهل الغمر الذى قد قام يرمى الغرب بالبهتان
تباله تباله تباله طردا له فى سائر الاوطان
سحقا له سحقا له سحقا له وين له من فاسق شيطان
وين له من فاجر متجاهر بالافك والبغضاى والعدوان
فلذا غدا الشيخ الامام المرتضى بحر العلوم العالم الربانى
أستاذنا اعنى أبا عيسى الهما م المنتقى الاتقى الوزانى
يسقيه أكواب الردى ويذيقه غلل المرائر فى كؤوس هوان
وسيفه المسلول يقطع رأسه بين الاحبة والعدو الشانى

كما ألف فى الرد عليه محمد بن محمد بن مصطفى المشرفى الجزائرى الاصل والفاسى دارا ووفاة سبق له ان هجا الامير عبد القادر فى تأليف خاص وعلى ابن الحفاف المفتى المالكى الذى كان كاتبا عند الامير عبد القادر كما رد عليه عبد السلام العمرانى فى تأليف سماه « الكي بمحاور البغال ، وقتل العقرب بالنعال ، فى رد ما قاه به بعض الانذال الذى جهل انه من أهل الضلال » ومحمد العابد ابن سودة الذى سمى تأليفه « سنان اليراع ، وبنادق القرطاس فى نحر من جازف وشتم الناس » الخ ..

أما الشيخ عاشور فانه بعدما نشر فى الاسواق والاوساط العلمية بكامل البلاد هجوه البذىء جمعه فى كتابه « المنار » المذكور والكتاب هام فى موضوعه اذ تعرض فيه لترجمة حياته وهو رغم كل ما ذكرناه عنه من الادباء الممتازين واللغويين الذين ذللوا اللغة العربية ومن الحفاظ النوادر فى تأليفه لا يستغنى عنه مؤرخو الادب العربى وتطور الحركة الثقافية بالجزائر وهذه بعض أبيات من قصائده فى هجو ابن مهنا قال .

تأمله أيضا فى النساء دلالة على كفرهم فيهم شقاقا جهالة
تجد من اذاهم ساء سمعا وجابة على مثل هذا الكفر افتى رسالة

لنا ابن مهنا الصالح السالح الجعل

غراب اذا لاقيته فتعوذ لقد خالف الاسلام فى كل ماخذ
وحارب أهل البيت فى كل منفذ وقال باسقاط اعتبارهم الذى

34

تقـدم فيمـن لـم يطعـه عـلا وجـل
ذهـابا الى ان الشـريف اذا اتقـى فمعتبـر مـن حيث تقـواه والنقـى
والا فمـن أهـل الاهـانة والشقـا قياسا لمن الفى مـع الشـرف التقى
عـلى صحبـة الاشقـى جهـل الاضـل
تجـاوز ابليس اللعـين وصنفـه وجـاوز اجـوات الخـدوع ووصفه
بما غـر فينـا ارغـم اللـه انفـه عجبـت لاقـوام يصلـون خلفـه
وسـائـر ما صلـوا اقتـداء بـه بطـل
لقـد بـان زنديقـا تبـاح دمـاؤه عـلى كـل رأي لا يصـح اقتـداؤه
فمـن امهـم دهـرا يطـول اداؤه عليهـم باجمـاع العلـوم قضـاؤه
كمـا ان اجـواه الخبيث الـذى دغـل
عـلى خدمـة النامـوس فى حركاته فغـر انـاسـا فاقتـدوا بصـلاتـه
ولكـن هـذا زاد فـوق صفـاتـه خصوصا وقد حـاط الجذام بـذاته
وشعشـع رمـح القيـم منـه متـى اطـل
حـوى جسمـه صدرا وظهرا وشينا ذراعـا وسـاقـا منـه حتى تلـونا
عـلى زرقـة من جيفـه الكلـب اننا حكـى لى ثقـات انـه ان يجـز بنا
عـلى الصف آذانـابـا خبـث مـن بصـل الخ ..

هذه خلاصة أطـوار السلفية بالجزائر وقد تـركنا الحديث عـن حادثين هامـين يتعلقان بصميم الموضوع ، هما زيارة الشيخ محمد عبده الى الجزائر فى أوائـل القرن الجارى واتصاله بكثير من علمائها وآثار تلك الزيارة التى خصها العالم الاديب عبد الحليم ابن سماية برسالة قيمة ، اطلع عليها أخيرا د. عثمان أمين تلميذ عبـده ، وجامع آثاره فرأى انها من أهم ما كتب عنه ، اذ وجد فيها ما لم يتعرض له رشيد رضا الذى علق على هذه الرحلة ، والثانى معركة أو محاورة اثارها عالمان جزائريان قبل زيارة الشيخ عبده بقليل انتصرا لمحمد صديق خان بها درامير هوبال الهندى وقرظا كتابه « الروضة الندية » فلا مهما على ذلك مفتى المدينة المنورة الشيخ عثمان بن عبد السلام الداغستانى اذ كان محمد صديق خـان الهندى من أنصـار السلفية الوهابية وتبادل معهما رسائل هـامة فى موضوع السلفية والعالمان الجزئريان همـا الشيـخ الجيلالى بن المنور المجاجى والشيخ أحمد بـن يحيى الشراطى الاصنامى الا ان هذا الحوار كان فى منطقة محدودة ولكن له وزنه خصوصا فى تلك العهود فالى فـرصة أخرى ان شاء الله . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

الشهيد عبد الواحد الوانشريسى
955 هـ - 1549 م

عبد الرحمن الجيلالى

الوانشريسى بالنون وشينين معجمتين كما ضبطه ياقوت الحموى أو ونشريس بالسين المهملة فى آخره مع فتح الشين الاولى أو كسرها ، وبمد الواو أو حذف المد ، أو كما ينطق به العامة (وارسنيس) فهو دائما اسم لذلك العلم الشامخ المرتفع من الاطلس التلى بالشمال الغربى من أرض الجزائر المجاهدة ، أو نقول هو ذلك الجبل الباذخ الذى يتراءى لك شمال نهر شلف وجنوب غربى عاصمة الجزائر (دار الجهاد) كما كانت تسمى وتعرف به من قبل ولا تزال . يمتد فيما بين مدينة مليانة شرقا وتلمسان غربا وتبلغ قمته الى مرتفع عال جدا) 1985 مترا) وصدق من سماه (عين الدنيا) وهو الاسم الذى يطلق على هذا المكان الى الآن ؛ فهو بحق العين المبصرة التى كان المجاهدون فى حرب التحرير المتحصنون والمحتمون بهذا الجبل يبصرون العدو من هذا المكان على بعد منهم فيقضون عليه ، فكانت لهم هذه العين (عين الدنيا) كعين الزرقاء - زرقاء اليمامة - أو أحد ، وهكذا قل فى التاريخ الماضى ايام توغل الاستعمار فى الوطن : فكانت هناك معركة وانشريس 1846 م وبناحية فليتة وحوض الشلف ، ومعركة خنقة العازر الشهيرة وتخريب معسكر الرحوية (1864 م) الخ ...

وهو الى ذلك موقع جميل ممطر ومنتج يكثر فيه العشب والكلأ علاوة على ما يحويه من كنوز طبيعية وثروة منجمية ثمينة .

ومن أشهر العشائر به : عشيرة بنى وعزان ، وشوشاوا ، وبنى هندل ، وتاملاحت ، وأولاد بو سليمان ، وحرشون وأولاد غالية ...

ولقد كان لهذا الموقع من تراب الجزائر تأثير عظيم فى تطوير الحياة العامة بالجزائر ، سياسيا وعقليا واقتصاديا ، فهو كما أنه كان قلعة حصينة للجهاد بالسيف فهو الى ذلك قلعة ورباط حصين

للمنقطعين للجهاد في سبيل العلم والمعرفة فكنا لذلك كثيرا ما نجد في تراجم رجال الثقافة والحصافة والذكاء بالجزائر من ينتسب الى هذا الموقع ، فهذا أبو محمد عبد الله بن محسن الونشريسي الملقب بالبشير ، صاحب ابن تومرت مهدى الموحدين ، وهذا سحنون بن عثمان الميدوى الونشريسي صاحب كتاب : « المحتاج » الذى شرح به نظم السراج فى علم الفلك للشيخ عبد الرحمن الاخضرى - مطبوع - وأبو الربيع سليمان الونشريسى كان يقرىء التفريع لابن الحلاب والمدونة ، وكان يقوم عليهما آتم قيام ، وهذا القاضى أبو على الحسن ابن عثمان بن عطية الونشريسى ، ذكره لسان الدين بن الخطيب فى (نفاضة الجراب) فقال : « كان فقيها عدلا من أهل الحساب والقيام على الفرائض والعناية بفروع الفقه ، وكان يقرض الشعر ، له أرجوزة فى الفرائض مبسوطة العبارة مستوفاة المعنى » • قال التنبكتى : وقفت على رجزه فى الفرائض وهو حسن سلس ، وله الى ذلك فتاوى نقل بعضها أحمد بن يحيي الونشريسي في كتابه المعيار •

وهذا عمه الحسن بن عطية ذكره الاحمر فى فهرسته فقال : شيخنا الفقيه المفتى المدرس القاضى الفرضى الاديب الحاج أبو على بن الشيخ الصالح عطية الونشريسى ، قال : وأجازنى فى الموطأ رواية يحيى ابن يحيى •••

واشهر الجماعة اثنان ، هما أحمد الونشريسى وولده عبد الواحد - الشهيد فالاول هو أحمد بن يحيى الونشريسى حامل لواء المذهب على رأس المائة التاسعة ، عرف به المقرى فى مواضع من كتابه نفح الطيب فقال : « هو شيخ شيوخ شيوخنا الامام الكبير المؤلف الشهير عالم المالكية سيدى أحمد الونشريسى صاحب التآليف العديدة كالمعيار والجامع المغرب فى فتاوى افريقيا والاندلس والمغرب ، وهو فى ست مجلدات (طبع فى 12 مجلدا بفاس 1314 هـ) ، قال ولو لم يكن له غيره لكان كافيا ، وله مصنفات كثيرة غيره أكثرها فى مذهب مالك ولم يؤلف فى المذهب مثلها • ذكرها صاحب جذوة الاقتباس ، ولم يطبع منها سوى المعيار وكتاب الولايات - ترجم الى الفرنسية •

وحكى عنه المنجور فى فهرسته فقال : « كان مشاركا فى فنون من العلم الا أنه لازم تدريس الفقه ، يقول من لا يعرفه انه لا يحسن غيره • وكان فصيح اللسان والقلم حتى كان بعض من يحضره يقول : لو حضره سيبويه لاخذ النحو من فيه •

كان مسكنه تلمسان فنقمت عليه الحكومة الزيانية بتلمسان أمرا فانتهبت داره ففر الى مدينة فاس فى أوائل شهر المحرم سنة 874 هـ/1469 م ، فأقام بها منكبا على كتاب المدونة وفرعى ابن الحاجب فى فقه المالكية ، تخرج به جماعة هم اساطين الفقه المالكى بالمغرب العربى ، منهم عبد السميع المصمودى، ومحمد بن عبد الجبار الورتديغى ، والقاضى محمد بن الغرديس ، وآخرون ٠٠٠ وتوفى رحمه الله بمدينة فاس يوم الثلاثاء 20 صفر 914 هـ - 1508 م ٠

والثانى هو ولده الشهيد عبد الواحد ابن أحمد الونشريسى ؛ ولد رحمه الله بعد سنة 880 هـ ، فأخذ عن والده وعن أعيان علماء المغرب الاسلامى فى عصره، كالشيخ ابن غازى ، والهبطى ، والحباك، وابن هارون ، والزقاق ، واضرابهم ٠٠٠ وبرع فى علوم الشريعة والادب ، وكان رائق الخط فصيح العبارة فائق الانشاء لا سيما فى انشاء الخطب ، فانه كان آية فى انشاء الخطب البليغة ، فيكتب بدون تكلف ، وشاعرا أيضا ، متقدما فى الوثائق والمكاتبات عدلا مهيبا ذا سمت وتؤدة وسكون ، قويم الطبع ورفيقه يهتز لسماع الالحان وآلات الطرب مع الورع والدين المتين يقول الحق ويصدع به ولو كان فى ذلك حتفه ، بهذا يصفه علماء التراجم فيما ذكروه به ٠

اتفق انه كان فى يوم عيد ينتظر مع المصلين خروج السلطان ابى العباس المرينى لصلاة العيد ، فتأخر خروج السلطان حتى حان وقت صلاة الظهر ، فحين خرج السلطان رقى عبد الواحد الونشريسى المنبر فخطب الناس قائلا : أيها الناس !٠٠ عظم الله أجركم فى صلاة العيد !٠٠ ثم أمر المؤذن ان يؤذن لصلاة الظهر ، فصلى بهم الظهر وانصرف ولم يراع فى ذلك سلطانا ولا غيره ٠

وكان فيما تولاه رحمه الله تعالى من المناصب الشرعية القضاء مدة ثمانية عشر سنة ثم تولى الافتاء بعد وفاة شيخه ابى هارون ٠

ولما توفى والده (914 هـ/1508 م) قدمته الجماعة ليقوم مقام والده فى التدريس بالمدرسة المصباحية بفاس ، فاقرأ بها التفسير بنقل ابن عطية والسفاقسى ومواضع من الزمخشرى ، ومن الرصاع على المغنى ، والبخارى بشرح ابن حجر مستوفيا له لانه شرط المحبس ، وابن الحاجب بالتوضيح من غير استيفاء مع زيادة طرر أبيه ، وحضر درسه ابن غازى واليسيتنى وعبد الوهاب الزقاق فأثنوا عليه ٠

وأغلب انتاجه العلمى كان فى علم الشريعة والفقه ، فله شرح على مختصر ابن الحاجب الفرعى فى أربعة اسفار ، وشرح على رسالة ابن ابى زيد القيروانى وفتاوى محررة ، وخطب بليغة ونظم كثيرا فى مسائل من الفقه ، كشهادة السماع ، ومفوتات البيوع الفاسدة، وما تفتيه حوالة السوق ، وتعليق على صحيح الامام البخارى لم يكمل . ومواضع الاقالة فى البيع ، ونظم قواعد أبيه : ايضاح المصالك مستوفياء وزادها قواعد بأمثلتها وصورا ومثلا انتزعها من مختصر ابن عرفة ولم تتم الزيادة وهى مشروحة بقلم التنبكتى ، وله أزجال وموشحات ...

ولم يزل عبد الواحد رحمه الله سائرا على الخطة الرشيدة قائما بالعدل ناصرا للحق ناشرا للعلم الى ان فاز بالشهادة فى سبيل كل ذلك .

لقد كان المغرب الاقصى فى أواخر القرن التاسع الهجرى - أواسط السادس عشر الميلادى ، يمر بأزمة سياسية قاسية اذ كان محل نزاع وخلاف قائم على التنازع على السلطة بين دولة الوطاسيين القائمين يومئذ على الحكم وبين مزاحميهم السعديين ، فاستولى هؤلاء السعديون على مراكش عاصمة الجنوب سنة 935 هـ/1529 م ، وذهبوا ليستولوا على مدينة فاس فاستعصت عليهم ، فضيق الحصار عليها السلطان ابو عبد الله محمد المهدى الشيخ (السعدى) فلم يفلح وعسر عليه الامر ، فبحث عن السبب فقيل له : لا سبيل لك اليها ولا يبايعك أهلها الا اذا بايعك ابن الونشريسى يعنون : الشيخ الفقيه أبا محمد عبد الواحد ابن أحمد الونشريسى رحمه الله ، فبعث اليه السلطان المذكور سرا ووعده ومناه ، فقال له الشيخ عبد الواحد : « بيعة هذا السلطان يعنى أبا العباس الوطاسى فى رقبتى ولا يحل لى خلعها الا لموجب شرعى وهو غير موجود . ولعل الشيخ فى ذلك متمسك بما رواه مسلم فى صحيحه على النبى صلى الله عليه وسلم حيث قال : من بايع اماما فأعطاء صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه ان استطاع ، فان جاء آخر ونازعه فاضربوا عنق الآخر .

ويقال ان السلطان السعدى كتب الى أهل فاس يقول لهم : « انى ان دخلت فاسا صلحا ملاتها عدلا ، وان دخلتها عنوة ملاتها قتلا » . قالوا فأجابه الونشريسى بابيات تمثل بها وهى من نظم شاعر اندلسى من طليطلة جاء فيها هذا البيت :

كذبت وبيت الله لا تحسن العدلا

ولا علم الرحمن من قولك الفضلا

ولما بلــغ ذلــك السلطان حقــد عــلى الونشريسى ودس الى جماعة من المتلصصة بان يأخذوه ويأتوا به الى محله محبوسا من غير قتل ، وكان الشيخ فى ذلك الزمن يقرأ صحيح البخارى بجامع القرويين بين العشائين وينقل عليه كلام ابن حجــر « فتــح البارى » ويستوفيه لانــه شرط المحبس ـ انظــر كيف كــان النــاس يحترمون الحبس ـ فقال له ابنه : يــا أبى انى قد سمعت ان اللصوص أرادوا الفتك بك فى هذه الليلة ، فلو تأخرت عن القراءة » فقال له الشيخ : أين وقفنا البارحة ؟٠٠ قال : على كتاب القدر ! قال : فكيف نفر من القدر ؟٠٠ اذا اذهب بنا الى المجلس ٠

وهذا يذكرنا بذلك المــوقف الرهيب الذى وقفه قبله سلطان العلماء وبــائع الملــوك العــز بن عبد الســلام 660 هـ 1262 م تجــاه أمــراء وسلاطين دولــة المماليك بالمشرق حــين صارحهم بانهــم ليسوا كلهم بأهل للامارة والملك وانهم عبيد أرقاء لا يصلحون لمزاولة الحــكم والامارة بل لابد من عرضهم فى السوق للمزيد ٠٠٠

وذات يوم كان باب الدار الذى يقطنها الشيخ يرتج تحت طرقات عنيفة وسارع ولد الشيخ ففتح الباب وها له ما رأى : كان نائب السلطنة واقفا وسيفه فى يده والشرر يتطاير مــن عينيه والدم يكــاد يتضجر من وجهه ، ومن خلفه كتيبة من جنده وأنصاره ٠

وغاض الدم فى وجــه الغــلام فارتد فزعا الى أبيــه يخبره بما راى ، ويكــاد يهتف : انج بنفسك يا أبى ! وفهم الشيخ ما يريد ولده ، فقال له فى تؤدة واطمئنان يا ولدى !! أبوك أقل مــن ان يقتل فى سبيل اللــه !!

وظهــر الشيخ فى البــاب واستقبل نائب السلطنة بكــل سكينة ووقـــار ، وحينما رآه النائب ارتعد وارتعش السيف فى يده فسقط على الارض وبكى النائب ، وسأل الشيخ الدعاء الى آخر القصة ٠٠٠

وهكذا فعل الونشريسى فذهب كعادته الى مجلسه فى جــامع القرويين واخذ مجلسه على الكرسى الخاص الذى أسسه السلطان أبو العباس أحمد بن الشيــخ الوطاسى 956 هـ/1549 م ليجلس عليه مدرس صحيح البخارى والقى درســـه كالعادة وهو فى ذلك يصول ويجول حتى انتهى من درسه وافترق الناس وتهيــأ الشيخ للخروج من المسجد من بـــاب

43

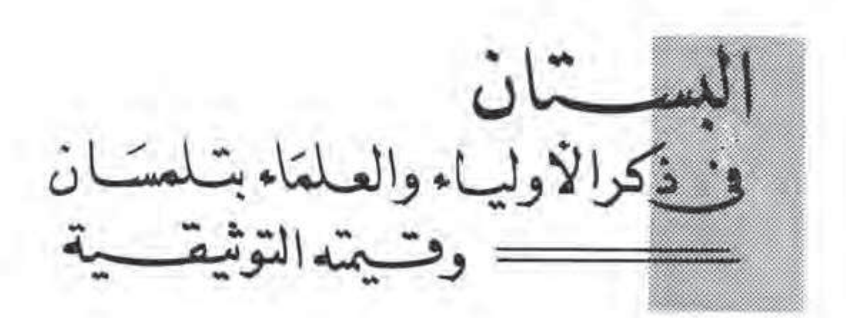
الشماعين فوجىء من طرف الجماعة المهيأة لتمثيل الجريمة فألقت عليه القبض وحاولت اخراجه من الباب المذكور وكان يسمى كذلك بباب الفخاريين وأرادوا حمله فاستمسك الشيخ باحدى عضادتي الباب فضرب احدهم يده فكسرها أو قطعها ؟٠٠ وأجهز الباقون عليه فقتلوه بباب المسجد المذكور يوم 27 ذى الحجة 955 هـ/27 يناير 1549 م فمات رحمه الله شهيدا،وكان أمر الله قدرا مقدورا ، خير الشهداء كما قال صلى الله عليه وسلم : حمزة بن عبد المطلب ، ثم رجل قام الى امام جائر فأمره ونهاه فى ذات اللـه تعالى فقتله على ذلك ٠ ومن يومئذ عرف هذا الباب من بين أبواب القرويين باسم باب الشهيد كما اشتهر كرسيه هذا باسم كرسى الونشريسى ٠

وهكذا نرى التاريخ يعيد نفسه كما قيل ، فقد ذكر أبو العرب فى كتاب المحن انه لما أراد عبد الملك بن مروان ان يكتب العهد لابنه الوليد ، قيل له : لا يتم لك هذا الامر الا بابن المسيبة فاكتب له ، فكتب له ان يبايع ، فرد اليه : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهانا أن نبايع لخليفتين ، فان أردتها لابنك ، فاخلع نفسك ، والا فلا ٠ فكتب عبد الملك الى عامل المدينة هشام بن اسماعيل المخزومى : ان لم يبايع فاضربه مائة سوط ، فضربه مائة وحلق رأسه ولحيته وكساه تبانا من شعر ، ونادى عليه ، وطيف به الى الليل ٠٠٠ وكان أيضا قبل ذلك ضربه جابر بن الاسود والى المدينة على البيعة لابن الزبير فضربه ستين سوطا ودعاه هشام بن اسماعيل أيضا الى البيعة للوليد وسليمان بالعهد فلم يفعل فضربه ستين سوطا وطاف به فى المدينة فى تبان من شعر ، وقد وقع لمالك وأبى حنيفة شبيه بهذا ٠٠٠

وصدق اللـه العظيم : **ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون ٠**

المـــراجـع

ابن القاضي ـ أحمد بن محمد :	درة الحجال ـ القسم الثانى ط الرباط 1936 م
التازى ـ عبد الهادى :	جامع القرويين ج 1 ، 2 ط بيروت 1973 م
التنبكتى ـ أحمد بابا :	نيل الابتهاج ، ط القاهرة 1329 هـ
الجيلالى ـ عبد الرحمن بن محمد :	تاريخ الجزائر العام ، ج 2 ط الجزائر 1955 م
الحجوى ـ محمد بن الحسن :	الفكر السامى ، ج4 ط فاس بدون تاريخ
السبكى ـ عبد الوهاب	طبقات الشافعية الكبرى ، ج 5 ط القاهرة 1324 هـ
المقرى ـ أحمد بن محمد :	نفح الطيب ، ج 5 ، 7 ط بيروت 1968 م
المقرى ـ أحمد بن محمد :	أزهار الرياض ، ج 3 ط القاهرة 1942 م
الناصرى ـ أحمد بن خالد :	الاستقصاء ج 5 ط الدار البيضاء 1955 م



محمود بوعياد
مدير المكتبة الوطنية

مـؤلف الكتـــاب :

« الشيخ الامام العلامة القدوة الهمام أبو عبد الله محمد بن محمد بن احمد الملقب بابن مـــريم الشريف المليتى المديونى التلمسانى » ، هكذا ذكر محمد بن أبى شنب ناشر الكتاب اسم مؤلف « البستان فى ذكـــر الاولياء والعلماء بتلمسان » ونجد فى بدايـة الكتاب نفسه « المديونى نجـــارا والمليتى نسبا ، التلمسانى منشا ومولدا ودارا » .

ورغم الابحاث الطويلة فى كتب التراجم المشرقية والمغربية لم نحظ بالعثور عـلى ترجمة للمؤلف ، ولم يتعرض ابن أبى شنب لحياته فى تصدير طبعته واكتفى الحفناوى فى الصفحات المتوالية التى خصصها فى كتابه لترجمة ابن مريم ، بنقل اسماء العلماء والصالحين المترجم لهم فى « البستان » ، وقال انه « لم يقف على ترجمة ابن مريم » (1) كما ضرب صفحا عن حيـاة المؤلف المستشرقون بما فيهم « بروقنزالي » ناقل الكتاب

(1) الحفناوى ، « تعريف الخلف » ، ج 1 ، ص 147 – 161 .

الى اللغة الفرنسية (2) ، ولهذا رجعنا الى « البستان » وهو كتاب ابن مريم الوحيد الذي بلغنا ، نسبر غوره علنا نجد فيه بعض المعلومات عن حياة المؤلف ·

ان أول فائدة استخلصناها من مطالعة « البستان » هي ان المؤلف ذكر في ترجمته لوالده « سيدى محمد بن أحمد بن محمد الشريف المليتى » (3) ، أنه احترف التعليم ، وكان أول عهده بتعليم الصبيان يوم خلف أباه عندما مرض مرض الموت (4) ، وقد حثه والده على الاستمرار فى هذه المهنة ، فقال : « فتماديت على ذلك ، فتخرج علي والحمد لله بدعاء والدى وبركاته ، أزيد من أربعين ولدا ، كلهم يحفظون القرآن ، وبعضهم علماء يدرسون العلم فى كل فن من العلوم الظاهرة والباطنة ، والحمد لله ··· » (5) ·

والفائدة الثانية هي اننا تمكنا بالرجوع الى الكتاب ، من معرفة سنة انتهاء المؤلف من تاليف « البستان » ومكان تاليفه ، فقد قال فى خاتمة الكتاب : « وفى سنة احدى عشرة وألف بمدينة تلمسان وضعناه » (6) ·

أما الفائدة الثالثة التى حصلنا عليها هي ذكر المؤلف ، آثاره فى آخر الكتاب أيضا (7) · وعدد هذه المؤلفات اثنا عشر كتابا زيادة على «البستان» ، والموضوعات التى تناولتها هذه الكتب هي العقائد ، والاذكار والحديث النبوى و « حكايات الصالحين » مما يدل على ميل المؤلف الى الزهديات والايمان « بكرامات الاولياء ، وبركة الصالحين » وعنوان احد مؤلفاته وهو : « تحفة الابرار وشعار الاخيار فى الوظائف والاذكار المستحبة فى الليل والنهار » ، لا يترك مجالا للشك فى نزعة المؤلف الى الزهد ، وفى ميله الى اجلال الصالحين وتقديسهم · واذا استثنينا « البستان » فان تآليف ابن مريم كلها فى حكم المفقودة اليوم ، اذ لم يطبع منها كتاب واحد ، كما اننا لم نعثر على أي أثر لها فى فهارس المخطوطات العربية المعروفة ·

أما « البستان » فقد نشره محمد بن أبى شنب كما ذكرنا فى أول هذا البحث · واعتمد الباحث لتحقيق الطبعة ، على عدة نسخ وأتبع المتن بعدة فهارس غير أن هذا

(2) F. Provanzali, El Bostan ou Jardin des biographies des saints et savants de Tlemcen

(3) « البستان » ، ص 267 ــ 270 ·

(4) توفى والد المؤلف يوم الخميس 13 صفر 985 هـ ــ 1577 م (البستان ، ص 270) ·

(5) المصدر نفسه ، ص 269 ·

(6) المصدر نفسه ، ص 314 ·

(7) المصدر نفسه ، ص 314 و 315 ·

العالم المحقق الذى اتحف المكتبة العربية بعدة كتب من التراث ابرزها فى حلة علميـة نادرة المثال فى عهده ، لم يصدر طبعته بايـــة دراسة عن « البستان » ولا عن صاحبه حسبما اشرنا الى ذلك قبل قليل ، كما انـــه لم يصحب المتن الا بالنزر اليسير مـــن التعاليق • مع ان هناك كثيرا من المعلومات كاسماء بعض الاشخاص ، واسماء بعض الامكنة ، وعناوين بعض الكتب كانت فى حاجة الى المزيد من الايضاحات حتى يسهل على الباحث استعمال هذا الكتاب •

محتـــوى الكتـــاب :

ترجم ابن مريم فى « البستان » لاثنين وثمانين ومائة عالم وولي ولدوا بتلمسان أو عاشوا بها ، وأشار المؤلف فى أول الكتاب الى هدف تاليفه ، فقال انه يقصد « جـــمع أولياء تلمسان وفقهائها الاحياء منهم والاموات ، وجمـــع من كـــان بها وحـــوزها وعمالتها » (8) ، وذكر أن التقرب الى الله كان الدافع الحافز لتاليف الكتاب ، فقال : « ثبت ان المرء مع من أحب ، فكيف بمن زاد عن مجرد المحبة بموالاة أولياء الله تعالى وعلمائه وخدمتهم ظاهرا وباطنا بتسطير احوالهم ونشر محاسنهم فى أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم نشرا يبقى على مر الزمان ؟ » (9) • وفى الحقيقة لم يحصر ابن مريم سبب الخوض فى الترجمة للاولياء والعلماء فى الافادة الدينية وفى التقرب الى الله ، بـل ذكر فى خاتمة الكتاب هدفا علميا للكتابة فى مثل هذا الموضوع ، **فقال : « أعلم ان معرفة** الكتب واسماء المؤلفين من الكمال ومعرفة الفقهاء من مهمات الطالب ، وكذلك ما ألفوه فى حصر المسائل » (10) •

ورتب ابن مريم تراجمه حسب حروف الهجاء ، مبتدئا بمن اسمـــه أحمد ومنهيا تراجمه بمن اسمه يحيى ، وقد تفاوتت تراجمه فى الطول تفاوتا كبيرا ، فبعضها لا يزيد على سطر واحد بينما خصص ابن مريم لبعض العلماء عدة صفحات من كتابه ، نذكر منها على سبيل المثال ، ترجمة محمد بـــن يوسف السنوسى صاحب المؤلفات الشهيرة فى علم الكلام التى بلغت احدى عشرة صفحة (11) ، وترجمة ابن مرزوق الحفيد وقد

---

(8) المصدر نفسه ، ص 5 •
(9) المصدر نفسه ، ص 6 •
(10) المصدر نفسه ، ص 308 •
(11) المصدر نفسه ، ص 237 _ 248 •

خصص لها ثلاث عشرة صفحة (12) • وبلغت احدى التراجم عشرين صفحة وهي ترجمة الحسن بن مخلوف الشهير بابركان (13) ، ومما يجب التنبيه اليه ان ابن مريم ترجم لبعض الاعـــلام من فقهاء المالكية ممن لم تكن لهم عـــلاقة مباشرة بتلمسان كخليل ابن اسحاق والامام ابن عرفة والبرزلي •

ومثلما تفاوتت التراجم فى الطول ، تفاوتت أيضا أهمية المعلومات المذكورة بها • فلم تزد بعض التراجم على بضع كلمات لا طائـــل فيها ، كترجمة « محمد بن سليمان النجار » التى حصرها المؤلف فى الكلمات التالية : « من مديونة العالم الصالح » (14) ، بينما ذكر فى تراجم أخرى اسم المترجم له ، وأصله ، وتاريخ وفاته ، واسماء شيوخه ، واسماء تلامذته ، وعناوين الكتب التى ألفها وأحيانا الكتب التى درسها ، والبلدان التى زارها ، واسماء من اجازه من العلماء وهكذا ، ونادرا مـا خلت ترجمة قصيرة كانت أو طويلة ، سوى التى لم تتجاوز بضع كلمات ، من ذكر كرامات ومناقب تنسب « للولي الصالح » صاحب الترجمة ، كما ضمن المؤلف اكثر التراجم أقوال المعاصرين من العلماء والمؤرخين فى المتحدث عنه ، ففى ترجمة محمد بن عبد الله التنسى مؤلف « نظم الدر والعقيان فى بيان شرف بنى زيان وذكر ملوكهم الاعيان » التى تبلغ صفحة واحدة ، استشهد المؤلف بأقوال خمسة علماء فى صاحب الترجمة (15) ، ولم يكثـــر المؤلف من ايراد الشعر ، واكتفى فى بعض التراجم بأن روى ابياتا شعرية قالها المترجم له أو قيلت فيه •

مصـــادر الكتـــاب :

افرد المؤلف نفسه قائمة لمصادر « البستان » فى خاتمة الكتاب (16) ، فذكر منها « نيل الابتهاج بتطريز الديباج » لاحمد بابا التنبكتى ، وهو كتاب معروف فى تـــراجم

---

(12) المصدر نفسه ص 201 – 214 •

(13) المصدر نفسه ، ص 74 – 94 •

(14) المصدر نفسه ، ص 292 • واقتصرت هكذا الترجمة على الاشارة الى أن هذا العالم الصالح من قبيلة مديونة •

(15) المصدر نفسه ، ص 248 – 249 •

(16) المصدر نفسه ، ص 314 •

علماء المالكية جعله صاحبه ذيلا « للديباج المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب » لابن فرحـــون (17) ·

ـ و « بغية الرواد فى أخبار الملوك من بنى عبد الواد » ليحيى بـن خلدون الذى خصص عدة صفحات من كتابه لتراجم بعض العلمـــاء الذين ولـــدوا بتلمســـان أو استوطنوها (18) ·

ـ « التقييد فى مناقب الاربعة » لمحمد السنوسى ، ولم نتوصـــل الى معرفة هذا الكتاب · ولم يذكره ابن مريم مع مؤلفات محمد بن يوسف السنوسى (19) ·

ـ « روضة النسرين فى مناقب الاربعة المتأخرين » لمحمد بن صعد التلمسانى (20) ويعنى صاحب الكتاب بالاربعة ، الهوارى ، وابراهيم التازى ، والحسن ابركان ، وأحمد ابن الحسن الغمارى · وهو كتاب مخطوط ·

ـ « النجم الثاقب فيما لاولياء الله من المناقب » ، لمحمد بن صعد التلمسانى السابق الذكر · وما زال هذا الكتاب مخطوطا أيضا ·

ـ « الكواكب الوقادة فيمن كان نسبته من العلماء والصالحين القادة » ، ولـــم نتوصل الى التحقق من اسم المؤلف ومن مضمون الكتاب ·

وانهى ابن مريم قائمة المصادر الستة السابقة بقوله : « ومن كتب عديدة » (21) ، مشيرا الى أن هناك كتبا أخرى رجـــع اليها وان لم يذكرها بين مصادره · وقـــد استخرجناها من ثنايا تراجمه ، ومن أهمها ·

---

(17) طبع « نيل الابتهاج » طبعا حجريا بفاس سنة 1317 هـ وطبع ثانيا بالقاهرة سنة 1329 هـ ، على هامش « الديباج » · ويقوم حاليا الاستاذ عادل نويهض مؤلف كتـــاب « اعلام الجزائر » (بيروت ، 1971) ومحقق « عنوان الدراية فيمن عـرف من العلماء فى المائة السابعة ببجاية » لاحمد الغبرينى (بيروت ، 1971) بتحقيق « نيل الابتهاج » هذا المصدر الاساسى لتاريخ الحركة العلمية بالمغرب العربى · وسينشر الكتاب ضمن « اصدارات المكتبة الوطنية » ·

(18) راجع مقالنا « من آثارنا المغمورة ، بغية الرواد فى أخبار بنى عبد الواد » لابى زكريا يحيى بن خلدون فى « الاصالة » ، عدد 13 ، مارس ـ ابريـــل 1973 ، ص 213 ـ 222 ·

(19) البستان ، ص 237 ـ 248 ·

(20) ترجم ابن مريم لمحمـــد بن أحمـــد بن صـــعد التلمسانى فى « البستان » ص 251 ـ 252 ·

(21) المصدر نفسه ، ص 314 ·

1 – « الاحاطة فى أخبار غرناطة » تأليف لسان الدين بن الخطيب ،

2 – و « كتاب العبر » لعبد الرحمن بن خلدون ،

3 – و « الوفيات » لابن الخطيب القسنطينى (22) ،

4 – و « المعيار المعرب والجامع المغـــرب عن فتاوى علمـــاء افريقية والاندلس والمغرب » لاحمد الونشريسى (23) ،

5 – و « الديباج المذهب فى معرفة اعيان المذهب » لبرهان الدين بن فرحون السابق الذكـــر ٠

واكثر ابن مريم من النقل من كل الكتب التى رجع اليها لتاليف كتابه ولم يفصـل بين النصوص المنقولة ، وبين ما كتبه هو لدرجة انه يصعب على القارىء التمييز بين ما هو منقول وبين ما هو من بنات افكار المؤلف ٠

قيمـة الكتـاب التوثيقية (24) :

ان الباحث يستخرج من « البستان » الذى وضع كما يدل عليه اسمه للترجمة لرجال العلم والصلاح ، فوائد عديدة ومتنوعة ، وهذا رغم ما ضمته اكثر التراجم من الخرافات والاساطير ، وهذه الفوائد يعثر عليها القارىء عرضا فى ثنايا تراجم الرجال اذ كان هدف المؤلف التحدث عن حياة العلمـــاء والاوليـــاء وتدوين « كراماتهم ومناقبهم » لا تصنيف كتاب فى التاريخ والادب ٠

ومن أنواع الفوائد التى يمكن استخراجها من كتاب ابن مريم ، المعلومات التاريخية ويحصل القارىء عليها كما قلنا سابقا عرضا فى اثناء حديث المؤلف عن شخص أو مكان أو كتاب وهكذا ٠ ونذكر بعضها فيما يلى على سبيل المثال ٠

يقول ابن مريم فى ترجمته لمحمد بن عبد الجبـــار بن ميمون بن هـــارون (25) ، « توفي سنة خمسين وتسعمائة فى عام أخذ النصارى تلمسان » ٠ واذا رجعنا الى كتب

(22) المعروف أيضا بابن قنفذ ، ويضم كتابه « الوفيات » تراجم قصيرة للعلمـاء وعلى الخصوص المحدثين ٠ ونشر مرة فى القاهرة سنة 1940 ومرة ثانية فى بيـروت سنة 1971 بتحقيق عادل نويهض ٠

(23) طبع « المعيار » بفاس سنة 1315 هـ طبعا حجريا فى 12 مجلدا ٠

(24) نعنى بقولنا « القيمة التوثيقية للكتاب » ، الفوائد المختلفة التى يستخرجها الباحث أو القارىء من هذا الكتاب ٠ وكلمة توثيقى اصطلاح جديد اشتق من كلمة وثيقة

(25) البستان ، ص 287 – 288 ٠

التاريخ لاحظنا ان الاسبانيين دخلوا تلمسان يوم الثلاثاء آخر ذى القعدة من سنة 949 هـ — 1543 م ورغم ان الفرق قليل فى التاريخ اذ أن المؤلف قد حدد دخول النصارى لتلمسان فى سنة 950 هـ بينما وقع الحادث حسب المصادر الاسبانية ، قبل شهر من نهاية سنة 949 هـ ، فان صاحب « البستان » يثبت الاخبار المذكورة فى الوثائق الاجنبية مصدرنا الفريد لمعرفة اكثر أحداث تلك الفترة الغامضة من تاريخ بنى زيان ملوك المغرب الاوسط (26) ·

وألصق ابن مريم أحيانا ، بعض الخرافات بأحداث تاريخية كما فعل بالحادث السابق الخاص باستيلاء الاسبانيين على تلمسان ، فقد قال فى ترجمة « سيدى سعيد البجائى » (27) الذى التجأ الى يبدر وهو مكان قريب من عاصمة بنى عبد الواد ، « حين اخذت النصارى تلمسان دمرهم الله فذهبت (28) اليه مع أبى » ، واخذنا منه الدعاء ، وقال لوالدى : « أهل تلمسان كلهم يرجعون لبلدتهم حتى محمد يرجع الا سعيد ما يرجع ، يعنى بمحمد السلطان » · وكان الاسبانيون قد تدخلوا عسكريا فى الشؤون الداخلية للدولة الزيانية المنهارة ، بسبب الخلاف الذى شب اثر ثورة أبى زيان الثائر على اخيه السلطان أبى عبد الله محمد الذى كان قد خلف أباه أبا حمو الثالث ، ورغم تحالف الاسبان مع السلطان وتعهدهم باحترام الاهالى فقد عاثت عساكرهم فسادا بعد دخولهم تلمسان سنة 949 هـ ، وقتلوا واسترقوا كل من سقط بين ايديهم من سكان المدينة (29) · وأعادوا الى عرش تلمسان حليفهم ابا عبد الله محمد ، وهذا يفسر الكلام السابق « حتى محمد يرجع » ·

ووجدنا فى ثنايا الكتاب فائدة تاريخية ذات اهمية كبرى لم نجدها الا عند ابن مريم ، وهي تلقى ضوءا جديدا على حادث مهم فى تاريخ تلمسان وهو الحصار الكبير الذى ضربه السلطان المرينى أبو يعقوب يوسف على عاصمة بنى زيان من سنة 698 — 1299 م الى سنة 706 هـ — 1307 م ، وقد اجمع المؤرخون على القول ، ان المدينة كانت مطوقة تطويقا كاملا ، وان التضييق بلغ بالمحاصرين اشده حتى ان الطيف كان لا يخلص

---

(26) بنو زيان أو بنو عبد الواد تربعوا على عرش تلمسان من سنة 633 هـ/1236 م · الى منتصف القرن العاشر ·

(27) « البستان » ، ص 103 — 104 ·

(28) المتكلم هو ابن مريم ·

(29) Marmol Caravajal, — Description générale de l'Afrique, t. 2, p. 346.

اليهم ،حسبما قال عبد الرحمن بن خلدون (30) ، وها نحن نعثر لاول مرة على مصدر تاريخي يفند هذا الكلام ، فيحكى ابن مريم عرضا عند ترجمته لاحمد بن مرزوق الحفيد (31) ان هذا العالم عذب وسجن لانه كان يبعث بانتظام بتموين ورسائل من قرية العباد قرب تلمسان حيث كان قاطنا ، الى اقاربه بالمدينة المحاصرة ·

ولا تعود أهمية هذا الخبر الى تفنيد كلام المؤرخين الذين تحدثوا باسهاب عن حصار الملك المرينى لتلمسان الذى « ادار الاسوار سياجا على عمرانها كله ، ومن ورائها نطاق الحفير البعيد المهوى » (32) ، فحسب وانما تتعداها الى ايجاد تفسير مرض لقدرة أهل تلمسان على مواصلة المقاومة ، والصمود فى وجه العدو رغم انقطاع كل مورد للمؤونة والسلاح ، مدة ثمانى سنوات ، فهذا النص الصريح لابن مريم يغير موقفنا من هذا الحادث التاريخى الهام فى تاريخ بنى عبد الواد لان كلام ابن مريم ان صدقناه ولا داعى لعدم تصديقه ، يدلنا على أن تلمسان لم تكن مطوقة تطويقا كاملا يمنع « الطيف من الخلوص اليها » ، على حد تعبير عبد الرحمن بن خلدون بل كانت المؤونة والرسائل تتسرب الى أهلها مما يبدد حيرة القارىء ودهشته من صمود أهل تلمسان امام هذا الحصار الطويل ·

ومن الفوائد التاريخية المتعلقة بالعمران ، ذكر اسماء بعض الامكنة الموجودة بتلمسان وضواحيها من مساجد ، ومدارس ، وابواب ، وأحياء ، ومقابر ، ومن امثلة ذلك ذكر المؤلف اسماء أبواب عاصمة بنى زيان ، وهذا عند ترجمته « لعبد الله بن منصور (33) أحد أولياء عين الحوت » ، وهي قرية قريبة من تلمسان ، وبعض تلك الاسماء ما زال معروفا الى يومنا الحاضر ·

ويستخرج الباحث أيضا من « البستان » فوائد خاصة بالحياة العلمية والثقافية فى المغرب الاوسط فى العهد الزيانى اذ ذكر المؤلف اكثر العلماء والادباء الذين عاشوا فى ذلك العهد ، واشار الى آثارهم الفكرية واورد فى أغلب الاحيان اسماء شيوخهم وتلاميذهم ، والكتب المتداولة فى زمنهم · كما كان يروى بين الحين والاخر بعض الابيات التى قالها المترجم لهم أو قيلت فيهم ·

---

(30) « العبر » ، ج 7 ، ص 458 ·
(31) « البستان » ، ص 27 — 29 ·
(32) « العبر » ، ج 7 ، ص 457 ·
(33) « البستان » ، ص 135 — 139 ·

وفى الكتاب أيضا فوائد اقتصادية واجتماعية · منها أن ابن مريم ذكر عرضا كعادته عند حديثه عن العلماء والصالحين الذين ترجم لهم ، أحداثا ومعلومات تنير طريق الباحث فى تاريخ المملكة الزيانية وفى الحياة الاقتصادية والاجتماعية بها ، ومن امثلة هذه الفوائد الاجتماعية والاقتصادية ، ما ذكره المؤلف فى عدة مناسبات عن فترات القحط والوباء التى كانت تمر بالبلد · والاطلاع على زمن وقوع الافات كثيرا ما يساعد الباحث على تفهم سير الاحداث الاجتماعية فى تلك الفترات · ومنها أيضا ما اورده فى ترجمة محمد القلعى (34) من اخبار العادات التى كانت متبعة بتلمسان ، بعضها اندثر وبعضها ما زال موجودا الى عهدنا ، كعادة شراء الناس لثور معلوف لتقديده ، وما يزال سكان عدة جهات من المغرب الكبير وعلى الخصوص فى المدن وفى السهول يجففون لحم البقر الى يومنا · وجاء فى الترجمة نفسها أن احد الاشخاص كان يملك رحى بضاحية من ضواحى المدينة ، خارج الاسوار · ونود أن ننبه الى ان هذه الضاحية ما زالت معروفة بالارحية الموجودة بها الى اليوم ويطلق الاهالى اسم « الرحى » (بالحاء المكسورة) أي الطواحين على ناحية من هذه الضاحية ، ومثل هذا الخبر قد يعين الباحث فى تاريخ المدينة أو تاريخ اقتصادها ·

وهذه الفوائد المتنوعة التى يتضمنها « البستان » تجعل من كتاب ابن مريم مصدرا هاما لتاريخ الدولة الزيانية ، وتاريخ المغرب الاوسط اذ هو متمم للكتب التاريخية البحتة التى عنيت فقط بالاحداث السياسية والعسكرية ولم تات الا بالنزر اليسير من الاخبار الاقتصادية والاجتماعية وذلك على عادة المؤرخين القدامى ·

مصادر البحث :

1 ـ المصادر والمراجع العربية

ـ ابن خلدون (عبد الرحمن) ، كتاب العبر ··· ، 7 ج ، بيروت ، 1956 ـ 1959 م ·

ـ ابن خلدون (يحيى) ، بغية الرواد وذكر الملوك من بنى عبد الواد ، 3 ج ، الجزائر ، 1321 ـ 1332 هـ/1903 ـ 1913 م ·

ـ أحمد بابا ، « نيل الابتهاج بتطوير الديباج » ، فاس ، 1317 هـ ·

ـ الحفناوى (محمد) ، « تعريف الخلف برجال السلف » ، الجزائر ، 1324 هـ 1906 م ·

(34) المصدر نفسه ، ص 271 ـ 272 ·

ـ نويهض (عادل) ، « اعلام الجزائر » ، بيروت ، 1971 ٠

2 ـ المـــراجع الاجنبيـــة

J. - J.L. Bargés, Complément à l'histoire des Beni-Zeiyan, rois de Tlemcen. Paris, 1887
Marmol Carvajal, l'Afrique. Trad. française de Perrot d'Ablancourt, Paris, 1667.

F. Provenzali, El Bostan ou jardin des biographies des saints et savants de Tlemcen par Ibn Maryem ech-Chérif el-Melity. Alger, 1910.



التعريف بتراثنا المخطوط

إعداد : رابح بونار

على بن أبى الرجال التاهرتي القيرواني

حياته : ابن ابى الرجال هو على بن ابى الرجال الشيبانى يكنى ابا الحسن وينسب الى القيروان وان لم يكن منها بل هو من مدينة تاهرت بالقطر الجزائرى كان عالما رياضيا فلكيا منجما واديبا شاعرا نشأ فى قرطبة على ما يرجح ، وعاش مدة فى بلاط المعز بن باديس بتونس ومات بها بعد سنة ٤٣٢ هـ (١٠٤٠ م) كما جاء فى الدائرة والارجح انه مات حوالى سنة ٤٢٥ هـ .

كان ابو الحسن هذا كافلا للمعز قبل ولايتـه الملك ثم وزيرا له بعد ان تولى ملك بنى زيرى ، وكانت منزلته لديه سامية ، ونفوذه فى البلاط عظيما فتقرب اليه الادباء والعلماء وقد اهدى اليه ابـن رشيق كتابه العمدة كما اهدى اليه ابـن شرف كتابه ((رسائل الانتقاد)) وقال فيـه الاول فى عمدته : اما بعد فان احق من جنى ثمر الالباب ، واقتطف زهر الآداب ، منتزها فى عقول الحكماء متفكها فى اقاويل العلماء كالسيد الامجد ، والفذ الاوحد حسنة الدنيا وعلم العليا ، وبانى المكارم ، وأبى المظالم ، رجل الخطب ، وفارس الكتب ابى الحسن على بن ابى الرجال الكاتب ، زعيم الكرم وواحد الفهم الذى نال الرياسة وانفرد بالبسط والقبض واتحد فى الابرام والنقض ، عن سعى مشكور ، وفضل مشهور وعلم بالموارد والمصادر، ونظر فى الاوائل والاواخر وتشبع لآثار من سلف من أهل القدر والشرف ، وتقلب فى مجالس الحكم، بين ذوى الاقدار والهمم ، الى ان صار نسيـج وحده ، وقريع دهره غير مدافع عن ذلك ، ولا منازع فيـه .

وذكر ابن رشيق عنه انه : ((اقام سوق العلم والادب ، وجعل ذكره باقيا وجده ساميا ، وايده من النصر والتوفيق، بما فيه رضا الخالق والمخلوق فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم ...)) علمـه .

عرف الاوربيون المترجم بآثاره كما تقول الدائرة ولا سيما كتابه « البارع فى أحكام النجوم » وقد

نقله الى الاسبانية ، يهوذا بن موسى سنة ١٢٥٦ م ثم نقله من الاسبانية الى اللاتينية بطرس الرجوى وايجيديوس التبالدى فطبعت ترجمته عدة مرات منذ طبعتها الاولى بالبندقية سنة ١٣٨٥ م ، ومن هنا جاء تصحيف ابن ابى الرجال هكذا : وتصحيف كنيته ابى الحسن هكذا :

ومن آثاره العلمية على ما جاء فى دائرة المعارف

١) أرجوزة فى الاحكام الفلكية ، طبعت فى آخر كتاب كفاية الطالب فى الاحكام الفلكية لغزال الموسى وشرحها أحمد بن الحسن بن القنفذ القسنطينى سنة ١٣٧٣ هـ ، ولعل أبا الحسن هذا هو الذى اعان ابا سهل الكوفى فى الارصاد الفلكية التى أجريت فى بغداد سنة ٩٨٨ م .

وهذه هى الصورة العلمية لابى الحسن ، واما صورته الادبية فقد تكفل بتشخيصها ابن رشيق فى عمدته وقد روى لنا عنه مقطوعات شعرية يمكن دراسة شخصيته من خلال ابياتها .

كان أبو الحسن شاعرا لطيف الوجدان ، جيد الاسلوب صادق العاطفة انشأ وهو بتاهرت سنة ٤٠٥ هـ مقطوعة فى تصوير شوقه ، والتعبير عن حنينه لاهله يقول فيها :

ولى كبد مكلومة من فراقكم
اطامنها صبرا على ما اجنت
تمنتكم شوقا اليكم وصبوة
عسى الله ان يدنى لها ما تمنت
وعينى جفاها النوم واعتادها البكا
اذا عن ذكر القيروان استهلت

وعلق ابن رشيق عليها بقوله : لو ان اعرابيا تذكر نجدا فحن به الى الوطن ، أو تشوق فيه الى بعض السكن ما حسبته يزيد على ما اتى به هذا الحضرى المتأخر العصر ، وما انحط بهذا التمييز ، ولا اتفق بهذا القول عند مولاى ولا الخديعة مما تظن به ولا فيه ، ولكن رايت وجه الحق فعرفته ، والحق لا يتلثم ..

فى الوصف :

ويقول أبو الحسن فى وصف بلاغة احد الكتاب وجودة خطه :

١) فضل الانام بفضل علم واسع
وعلا مقالهم بفضل المنطق
٢) وحكى لناوشى الرياض وقد وشت
اقلامه بالنقش بطن المهرق

وقال ايضا فى آخر :

١) اذا نقشت يمناك فى الطرس اسطرا
حكيت بها وشى الملاء المنضد
٢) يروق مجيد الخط حسن حروفها

ويعجب منهـــا بالمقـال المســـد

وقال ايضا فى الاصطباح بالخمرة وتعاطى لذات الحياة قبل هجوم المنية (١) :

باكر الراح ودع عنـك العـذل
واسع فى الصحة من قبل العلـل
واغتنـم لـذة يـوم عاجــل
فالمنايـا ضاحكـات بالامــل
ما تـرى الساقى كشمس طلعت
تحمل المريخ فى بـرج الحمـل
مائسا كالغصن فى دعـص نقـا
فاتـن المقلـة زينت بالكحـل

فى الغـــزل :

وانشا ابو الحسن فى الغزل مقطوعات جيدة وهى رغم ماديتها نجد فيها نفسا روحيا رقيقـا ومعانى لطيفة ومنها قوله :

خليلى ان لم تساعدانى فاقصرا
فليس يداوى بالعتـاب المتيــم
تريدان منى النسك فى غير حينـه
وغصنى ريــان وراسى اسحــم

وقال من مقطوعة يتغزل فيها بفتاة حضريـة وهى كما يقول ابن رشيق ذات طبع رقيق ومعانى رقيقة مؤثرة فى النفس والقلب :

١) غراء واضحة ينوس بقرطهـا
جيد حكى جيد الغـزال الاعنــق
٢) صدت فاغرت بالسجوم مدامعى
والعين تذرف بالدمــوع السبــق
٣) تشكو البعاد اذا بعدت تصبـرا
وان ارتجعت الى الزيـارة تفـرق
٤) ولقد يبيت اخو المـودة لائمـى
فى حبهــا لــوم الشفيــق المشفـق
٥) حتى اذا طلعت فابصر شخصها
اخزى جهالــة لائمــى المستحمــق

٦) كم قطعت بوصلهـا مـن ليلـة
وبشرب صـافية كلـون الزئبـق
٧) يسعى بها كالبدر ليلـة تمـه
سحار الحـاظ رخيـم المنطــق
٨) آليت اترك ذا وتلك وهـــذه
حتى يفـارقنى ســواد المنطــق

فى الشكوى من الدهر واهله :

وحينما تنكر الدهر له تضجر وتالم وسخط على معاصريه وعصره فقال شاكيا داعيا الـى الزهد والمثاب :

١) امس الزمان زمانـة العقـل
فاخش الالــه وحـل عن الجهـل
٢) واعلم بان فى الحسـاب غـدا
تجزى بما قـدمت مـن فعـل

وقال ايضـــا :

١) ايارب ان الناس لا ينصفوننى
ولم يحسنـوا قرضى عـلى حسناتى
٢) اذا ما راونى فى رخـاء ترددوا
الى واعـدائى لـدى الازمـــات
٣) ومهما اكن فى نعمة حزنوا لهـا
ذوو انفـس فى شـدة جـذلات
٤) ثقاتى ما دامت صلاتى لديهـم
وان عنهــم اخرتهـــا فعداتـــى
٥) سامنع قلبى ان يحــن اليهـم
واصرف عنهـم قاليـــا لحظاتـــى
٦) والزم نفسى الصبر ابـــا لعلنى
اعايـش ما املت قبــل مماتـــى
٧) الا انما الدنيا كفـاف وصحـة
وامن ثـلاث هـن طيب حياتـــى

فى الفخر بقبيلته : وقال يفخر بقبيلته شيبان ، ويشيد بأمجادها منذ القديم :

١) يا آل شيبان لا نحارث نجومكم

ولا خبت ناركم من بعـــد توقيـــد

٢) انتم دعائم هذا الملك مذ ركضت

قبل الخيـول لابـرام وتوكيـــد

٣) سيوفكم افقدت كسرى مرازبــه

فى يوم ذى قار اذ جاؤوا لموعــود

فى العتاب والهجاء : ويعتب على بعض اصدقائه فيلومه لوما خفيفا وتديهجوه ولكن هجوه لا يتعدى النقد البرىء فيقول :

١) وابنى لاطرى كل خل صحبتــه

وانت ترى شتمى بغيـر حيـاء ؟

٢) ستعلم يوما ما اسات لصاحب

بكـرم اخـلاقى وحسـن وفـائى

هذه نبذة عن ترجمة ابن ابى الرجال تقدم الينا صورة موجزة عن حياته الادبية اللامعة ، وهناك وجه آخر لابن ابى الرجال قد امتاز به فى بـلاط القيروان عن معاصريه وهو جانبه العلمى الذى تفوق به على معاصريه هناك ، وقد اشرنا فى مطلع هذه الترجمة الى ان المترجم كان عالما باحثا فى النجوم ، وقد ترك لنا فى الموضوع كتابا جليلا هو كتاب البارع فى احكام النجوم الذى ترجم الى عدة لغات ، واعتبر تراثا جليلا انتجته عبقرية مغربية فى العصر الوسيط .

والكتاب توجد منه نسخة بالمكتبة الوطنية تحت رقم ١٥١٦ خطها شرقى جميل ، ومسطرتها ٢٩ سطرا ، وحجمها ١٩٠ / ٢٦٠ ملم .

ونجد فى الصفحة الاولى من النسخـة نـص تحبيس محمد بن حسن خوجة لها عـلى اولاده ثم على جامع كيتشاوة بتاريخ اواسط جمـادى الثانية لعام ١٢٣٩ هـ . والمؤلف يقول فى مقدمة كتابه : هذا كتاب جمعت فيه من معانى فى علـم النجوم ، وغرائب اسوارها ، واخترته من علوم علمائها ، واضفت اليه تجربتـى ، وان كـانت النجوم اكثر واعظم من أن يحاط بها ، او يقدر العالم على ايضاح جميعها . ثم اخذ يذكر اقسام الكتاب وابوابه فى ترتيب منطقى ، وباسلـوب أدبى خفيف .

والكتاب يعتبر من ذخائر تراثنا الفكرى تزدان به مكتبتنا ، وتسمو به أصالتنا فى مجال الابداع العلمى والحضارى .

ولاشك ان هذا سيحفزنا على أن نولى هــذا الكتاب ما يستحقه من عناية واهتمام ونحن فى فترة احياء تراثنا الوطنى والعمل عـلى اعـادة المقومات الاساسية لشخصيتنا واصالتنا .

---

(١) دائرة المعارف لفؤاد افرام البستانى ج ٣ ص ٣١٠ — العمدة لابن رشيق ط ٢ مصر سنة ١٩٥٥ ج ١ ص ١٥
(٢) المنتخبات لحسن حسنى عبد الوهاب ص ٧٦ .   (٢) العمدة ج ١ ص ٤٤ .
(٣) العمدة ج ٢ ص ١١٠ .

المقـرى التلمسانى

د. الطاهر احمد مكـى
استاذ سابق بجامعة الجزائر

سوف اتحدث اليكم الليلة (1) عن مؤرخ جزائرى جليل ، جاء الى الحياة قريبا من نهاية القرن السادس عشر الميلادى ، وفارقها مع نهاية الثلث الاول من القرن الذى يليه ، حياة قصيرة كما ترون ، لكن صاحبها عرف كيف يثريها بالعلم النافع ، فارتفع بنفسه عن النسيان ، واقتحم بها عالم الخلود من أوسع الابواب .

شهرته المقرى ، أو المقرى ، على ما سنعرف فيمـا بعد ، ولقبه شهاب الدين ، وكنيته أبو العباس ، واسمه كاملا : احمد بن محمد بن احمد بن يحيى بن عبد الرحمن بن أبى العين بن محمد .

وقبل أن أعرض لحياته وعلمه ، أود أن استرجع معكم شيئا من أحداث العصر التى سبقته ، ومن الحوادث التى رافقته ، فالمرء ابن بيئته مهما تفرد ونتاج عصره سلبـــا أو ايجابا ، مهما سبقه مفكرا أو قوم من اعوجاجه مصلحا .

جاء المقرى مع نهاية القرن السادس عشر ، وهي فترة درج المؤرخون على تسميتها بفترة الاحتضار ، ولقد جاء فى قمتها ، اذا كان من الممكن أن يكون للاحتضار قمـة ،

---

(1) محاضرة القاها بمركز الاعلام العربى بالجزائر فى 31 مايو 1971 .

اما بدايتها ، فقد سبقته بسنين عديدة ، يمكن ان نقدرها بثلاثة قرون من الزمان ، وهي مرحلة تميزت بنضوب الابداع العربى فى مجال الفكر والخلق والادب بمفهومه التقليدى لكن الابداع الشعبى لم يتوقف أبدا كان كاي عمل شعبى يخلط بين الدر والصدف ، ويجمع الغث الى السمين ولكنه أصيل دائما ، ومتوهج ابدا ، وصادق فى كل الحالات ، بلى ، فى هذه الفترة أعطت القاهرة آخر صورة لكتاب ألف ليلة وليلة ، احد روائع الادب ، العالمى دون جدال ، ووضع المصرى ابن دنيال المتوفى عام 1310 م أسس المسرح العربى الحديث ، حين جعل خيال الظل ، وهو فن ذو أصل صينى يدخل القصور ، ويرتفع الى مستوى اللهو الجليل ، ويصبح قالبا يصب فيه الادباء افكارهم • وبدأ أدب الملاحم والسير والحكايات الشعبية ، يأخذ طريقة الى التدوين ، فى أحجام ضخمة تتجاوز آلاف الصفحات ، فدونت ألف ليلة وليلة وسيرة عنترة ، وقصة الظاهر بيبرس ، وسيرة الهلالية ، وحكايات أخرى كثيرة •

فى الجانب السياسى سبق مجيء المقرى الى الحياة بقرن سقوط غرناطة فى يد الملك فرناندو والملكة ايزابيل المسيحيين ، ومعها سقطت دولة الاسلام فى الاندلس ، ورأى المقرى وهو فى العشرين من عمره ، أو قريبا منها جموع الاندلسيين المسلمين تتدفق نحو المغرب العربى على امتداده ، بعد أن أصدر فيليب الثالث ملك اسبانيا قراره النهائى عام 1613 بطرد المسلمين نهائيا ، حتى ولو كانوا قد استجابوا لاوامر محاكم التفتيش واعتنقوا الكاثوليكية هربا من التعذيب الشديد ، وفى نفس القرن حصل تحول سياسى هام ، لقد انتقل مركز الخلافة من القاهرة الى اسطنبول ، وتحول ميزان الثقل السياسى من مصر الى تركيا ، واكتسحت دولة العثمانيين الفتية العالم الاسلامى فى سرعة خاطفة ، واصبحت امبراطوريتها تمتد من تلمسان حتى فارس ، وان تدفع بحدودها شمالا حتى أواسط أوروبا ، وأن تمتد جنوبا حتى قلب افريقية ، وأن تملك من جزر البحر الابيض رودس وقبرص • وكانت تقوم داخل هذه الامبراطورية الواسعة وخارجها وحدات ادارية متعددة ، ذات استقلال ذاتى يتسع او يضيق لكن الثقافة العربية ظلت ، رغم تعدد الوحدات الادارية والسياسية ، واحدة لم تتوزع ، متماسكة لم تتفتت ، فكان العلماء والطلاب يستطيعون ان ينتقلوا من بلد الى بلد ، وان يلتحقوا بجامعة أو بأخرى ، دون أية عوائق مادية أو أدبية ، وكان الكتاب العربى يملك من حرية الحركة حدا لا قيود عليه ، ولم يكن الطالب أو العالم أو الكتاب حين ينتقل من وحدة الى أخرى يطالب بجواز سفر ، أو بعقد عمل أو بتصريح دخول ، وهكذا ظلت الروافد الثقافية

التى يستقى منها الناس واحدة ، ايان عاشوا من الوطن العربى ، فجاء ابداعهم متقاربا وتولد بينهم احساس بالاخاء عميقا ، وايمان عفوى بوحدة المصير ٠

على امتداد هذا العالم الاسلامى الواسع ، وفى أشد لحظاته تخلفا قدر للقاهرة ان تكون واسطة العقد ، وان تصبح حلقة الوصل بين شرقى العالم العربى ومغربه ، فمنذ اشرقت شمس الاسلام على هذا الجانب من الارض ، وبدأ المسلمون فى المغـرب يتجهون شرقا لاداء فريضة الحج ، أو التماسا للثقافة فى مصادرها الاولى ، خـلال القرن الاول لدولة الاسلام ، أو ارضاء لفضول علمى لا يقنع أصحابه بما يعرفون بعد أن ازدهرت المراكز الثقافية فى فاس وتلمسان وبجاية وقسنطينة والقيروان ، أو تجارة ، أو رغبة فى اذاعة علمهم هناك بين الناس ٠ أو طلبا لذلك كله ٠ وهكذا أصبحت القاهرة محطا للذاهبين الى مكة ، قدموا برا أو عن طريق البحر ، يتوقف بعضهم بها اياما ثم يرحل حاجا ، ليعود اليها من جديد عابرا أو مقيما ٠ وكان لازدهار المذهب المالكى فى مصر ، ووجود خيرة تلاميذ الامام مالك هناك ، وعالمية الازهر فيما بعد ان صـح هذا التعبير ، وخزائن الفاطميين من الكتب ، عامل اغراء لا يقاوم ٠ وكان الازهر بما يملك من بيوت للطلاب ، قائمة حتى أيامنا هذه ، تعرف بالاروقة ، وتؤدى الى صحنه مباشرة ، حيث تعقد حلقات للدرس لا تنفض كل النهـار ، وطرفا من الليل ٠ كان الازهر يهيىء السكن المجانى للأستاذ والتلميذ ، ويفتح ابوابه لطالب الدرس وللقادر على التدريس دون أي قيد من سن أو جنسية ، ويسخو فى العطاء فيجرى عليهم من الرزق رواتب متصلة ، وفى كل رواق مكتبة عامرة ٠ كانت هناك أروقة : السودان والمغاربة والشام والاتراك واليمن والمدينة المنورة والصعايدة ، أي سكان جنوب مصر ورواق آخر خاص بالمكفوفين الى أي بلد انتموا ٠ وشهر رواق المغاربة بأن مكتبته تضم قدرا لا بأس به من المخطوطات النادرة ، وبخاصة لعلماء من المغرب اقاموا هناك أساتذة فى اواخـر حياتهم ، أو طلابا فى سن الشباب ، وما تزال هذه الاروقة قائمة فى معظمها ، ولو ان العصر تخطاها ، فقد انشئت مدينة البعوث الاسلامية لتتسع لعدد من الطلاب الوافدين يبلغ العشرين ألفا ، فيما أقيم من منشآتها ، أو ما سيقام فى قابل الاعوام ٠

جاء الى القاهرة من المغرب العلامة ابن خلدون ، فشغل كرسى التاريخ فى الجامع الازهر ، وأصبح قاضى المالكية ، وسفير السلطان برقـوق الى تيمورلنك ، ليفاوضه فى فك الحصار الذى ضربته جحافل جيش المغول على مدينة دمشق ، وبقي فيها عالما جليل القدر الى أن لقى اللـه ٠

وجاءها أبو الفضل محمد المشدالى ، المتوفى عام 864 هـ ــ 1460 م من نوابغ علماء بجاية فى القرن الخامس عشر ، فشغل كرسى الفقه المالكى فى الجامع الازهر ، وعرض عليه أن يصبح قاضى القضاة فأبى ، وملأ الدنيا علما وأثار من الاعجاب والتقدير بقدر ما اثار من النقاش والحسد ٠

وجاءها آخرون كثيرون قبلهما ومن بعد ، جاءها الرحالة الشهير ابن جبير ، وآثر الاسكندرية مقرا ، ودفن فيها جثمانا ، ولا تزال احــدى محاط الاسكندرية الحديدية تحمل اسمه « محطة سيدى جابر » ، واختارها معه المؤرخ العظيم أبو بكر الطرطوشى ، وأبو العباس المرسى ، والامام الشاطبى وترك هؤلاء آثارا لا تمحى ، فاضرحتهم معروفة وتحمل معالم المدينة اسماءهم ، وليس من قبيل الصدفة أن أهل الاسكندرية ينطقون كلمة « سيدى » على الطريقة المغربية فيقولون « سيدى » وان شوارعها تحمل اسم « زنقة » على طريقة المغرب أيضا ، وهو امر تميزت به من بين سائر المدن المصرية ٠

وجاءها أيضا ابن سعيد المغربى ، الشاعر والمؤرخ ، وصاحب كتاب « المغرب فى حلى المغرب » ، وخصها بستة أجزاء من تاريخه الذى يضم خمسة عشر جزءا ، وبقى فيها الفيلسوف الطبيب أبو الصلت امية بن أبىالصلت عشرين عاما ، محبوسا فى خزانة كتب ، وسمى واحدا من مؤلفاته « الرسالة المصرية » ، وعاد الى تونس بعلم وفير ، فبلغ حظا عاليا من الذيوع والشهرة والتقدير ٠

وكان المقرى موضوع حديثنا اليوم آخر الكبار الذين جاءوها عشية صحوة العالم العربى الحديث ٠

ينتسب المقرى الى مقرة ، وهي قرية من اعمال مقاطعة قسنطينة قريبا من قلعــة بنى حماد ، وقد ضبطت على وجهين ، احدهما بفتح الميم وسكون القاف فتنطق مقــرة ، وهو اتجاه نجد له سندا عند ابن مرزوق العالم التلمسانى ، فقد الف كتابا فى التعريف بجد مؤرخنا اسماه : « النور البدرى فى التعريف بالفقيه المقرى » والوجه الثانى بفتح الميم وتشديد القاف المفتوحة فتنطق مقرة ، وهو اتجاه يدعمه صاحب اللقب نفســه ، فقد كان يردده فى احاديثه ، ونقله عنه اصحابه وتلاميذه ، وهو نفسه ، اذا لم نعتبــر هذا ضرورة شعرية ، جاء فى مقدمة كتابه : « ازهار الرياض » بأبيات شعرية مطلعها :

فيقــول أحمــد القصــــور ، المقــــرى اذا انتســـــب

ولا يمكن ان تقرأ كلمة « المقرى » هنا الا مشددة القاف ، والا اضطربت موسيقى البيت · ويبدو ان اسم المدينة كان ينطق على الوجهين ، فلا ضـــرر ولا ضرار فى ان ينسب المرء الى أيهما ·

كان المقرى ينسب الى مقرة ، ولكنه لم يرها ولم يعش فيها ، فقد هجرتها اسـرته الى تلمسان من زمن بعيد ، فى ظروف لا نعرف عنها شيئا ، الا ان تتصور ان الجـــو الثقافى المزدهر فى تلمسان شدهم اليها ، فقد كان المهاجر اليها جد جد عالمنا ، يقـول المقرى عن تلمسان : « بها ولدت أنا وأبى وجدى وجد جدى » ·

فى تلمسان غرباء مهاجرون ، اوقف بنو المقرى جهدهم على العلم ، ضربوا فيـه بسهم وافر ، واحتلوا بين رجاله مكانا مرموقا ، فالجد الاعلى أبو عبد الله محمد كان قاضى الجماعة فى مدينة فاس على أيام السلطان أبى عنان ، وفيها تتلمذ عليه لسـان الدين بن الخطيب اديب الاندلس ومؤرخها الكبير ، وألف كتابى « القوانين » و « اقامة المريدين » · وتوفى فى منصبه هذا فى ذى الحجة عام سبعمائة وخمسة وثمانين للهجرة (785 هـ) الموافق عام ثلاثمائة وثلاثة وستين بعد الالف للميلاد (1363 م) ، ونقـــل رفاته الى تلمسان ، وظل أبو عثمان سعيد بن أحمد المقرى ، عم المقرى موضع حديثنا ، مفتيا لتلمسان على امتداد ستين عاما كاملة ·

لم يشر المقرى الى تاريخ مولده ، ولم يذكره أحد ممن ارخوا له ، ولكن المستشرق الفرنسى ليفى بروفنسال افترض فى المقال الذى كتبه عنه فى دائرة المعارف الاسلامية ان يكون هذا التاريخ حول عام ألف للهجرة ، أو ما يوافق عام ألف وخمسمائة واثنين وتسعين للميلاد (1592 م) ، وهو افتراض ينقضه قول المقرى نفسه انه « نشأ بتلمسان ، ورحل عنها فى زمن الشبيبة الى مدينة فاس سنة تسع وألف للهجرة 1009 هـ » ، فاذا ارتضينا افتراض البحاثة الفرنسى كان ذلك يعنى ان المقرى رحل الى فاس وله مـن العمر تسع سنوات فحسب ، وهي مرحلة لا تدخل فى اطـــار الشبيبة أولا ، ولا يأتى لصاحبها أن يغترب ثانيا ولا يرتضى له أهله ذلك حتى لو أراد · انما الاقرب الى التصور ان تكون الرحلة قد تمت وله من العمر ستة عشر عاما مثـــلا ، لانها الســـن التى يتـأتى لصاحبها ان يسافر ، ويطلق على من بلغها اسم شاب ، وفيها جرت العادة ان يفـارق الشبان اسرهم طلبا للعلم ، ولم يكن ذلك حتى مع هذه السن امرا هينا ، فى زمن كان تماسك الاسرة فيه لما يزل قويا ، ووسائل المواصلات غير مأمونة الجانب ولا مذللـة الصعاب · واذا ارتضينا الامر على هذا النحو ، جاز لنا ان نفترض ان المقرى جاء الى

الحياة قريبا من عام ثلاثة وتسعين وتسعمائة (993 هـ) ، الموافق عام خمسة وثمانين وخمسمائة بعد الالف (1585 م) ، قبلها أو بعدها بعام ، أمر ليس بذى خطر كبير ، فى حياة أديب سوف يتولى بنفسه قيد تواريخها فى سن مبكرة ، حين يقتحم باب الحيـاة العامة ويضع نفسه تحت الاضواء ٠

تعلم فى تلمسان ، حفظ القرآن ، ودرس الفقه المالكى ، وتذاكر آداب العرب ، وقرأ على عمه المفتى صحيح البخارى وكتب الحديث الستة وما من شك فى انه تتردد عـلى اساتذة كبار آخرين ، فقد كانت تلمسان حتى عصره من أهـم مراكز الدراسة الدينية بالمغرب ٠ لكن الفتى الطموح ما لبث أن استشرف آفاقا جديدة ، فرنا ببصره الى مدينة فاس ، اشهر المراكز العلمية قربا من مسقط رأسه ، ولا سرته بها صلة ، ومن قبل كان جده فيها كبيرا للقضاة والمدينة الى جانب هذا كانت عاصمة المغرب العلمية والدينية ، ففيها جامعة القرويين وبها لاذ جمع غفير من جلة علماء الاندلس المهاجرين ، منذ ثورة فقهاء الاندلس ضد الحكم الاول ، فيما يعرف تاريخيا « بفتنة الربض » وبها مكتبات عامرة ، وتتمتع بشهرة عالية مستفيضة ، ولابد ان ذلك كله شد اليها انتباه الفتـى الذكى ، فرحل اليها للمرة الاولى عام تسعة بعد الالف للهجرة (1009 هـ) ولم يبـق بها فى هذه المرة طويلا ، لم تتجاوز اقامته عاما وبعض العام ، وعاد اليها فى زيـارة خاطفة سنة احدى عشرة بعد الالف (1011 هـ) للهجرة ثم جاءها بعد عامين ، أي فى سنة ثلاث عشرة بعد الالف 1013 ليبقى فيها أربعة عشر عاما متوالية ، تدرج خـلالها من طالب علم نابه ، الى استاذ متمكن يتولى فى سن مبكرة الامامة والخطابة فى جامع القرويين الشهير ، مقر الجامعة واكبر مسجد فى المدينة ، ثم تنتهى اليه الفتوى ، فيتولى منصب الافتاء ، ويستمر فيه الى ان يترك المدينة عام سبعة وعشرين بعد الالف للهجرة (1027 هـ) ٠

فى اواخر شهر رمضان من هذا العام اعتزم الرحلة الى المشرق « تاركا المنصب والاهل والوطن والالف » ، فيما يقول ٠ ولم يفصح لنا عن الظروف التى دعته الى هذه الرحلة ، واكتفى بأن يشير اليها فى ايماءات ملمحة ، نفهم منها انه اضطر اليها كارها ، يقول : « لما قضى الملك الذى ليس لعبيده فى احكامه تعقب أو رد ، ولا محيد عما شاءه سواء كره ذلك المرء اورد ، برحلتى من بلادى ، ونقلتى عن محل طارفى وتلادى ، بقطر المغرب الاقصى الذى تمت محاسنه لولا ان سماسرة الفتن سامت بضائع امنه نقصا ، وطمابه بحر الاهوال فاستعملت شعراء العيث فى كامل رونقه من الزحاف اضمـارا

وقطعا ووقصا (2) • لقد تحاشى المقرى ان يتحدث عن الظروف التى ارغمته على الرحيل، وهي ظروف فيما يبدولى ، كانت تتصل بالواقع السياسى لملكة فاس يومئذ لقد تـولى مولاي زيدان الملك دون أخويه المأمون وأبى فارس ، عام اثنى عشر بعد الالف للهجـرة (1012 هـ) فنشبت بينهم حروب متوالية ، وتميز عهدهم بالاضطراب والفتن والدسائس ، وهي قاسية على العالم ، وعلى الغريب من العلماء أشد قسوة •

سلك المقرى طريق البحر الى مصر ، ولا يشير الى الثغر الذى أقلـع منه وأكاد اتصور انه فى المغرب الاقصى أيضا ، ولربما كان طنجه ، اذا ليس فى اشاراته ما يلمح انه عاد الى تلمسان مرة أخرى ، وانما يقول : « ثم جد بنا السير فى البر أياما ، ونأينا عن الاوطان التى اطنبنا فى الحديث حبا لها وهياما ، وكنا عن تفاعيل فضلها نياما ، الى أن ركبنا البحر » •

وصل الى مصر فى أواخر عام سبعة وعشرين بعد الالف للهجرة (1027 هـ) أي بعد شهرين ، تنقص قليلا أو تزيد • وقد عانى المقرى كثيرا من أهوال البحر ومزعجاته ، ولم تكن امواجه الضارية وحدها مبعث الخوف ، وانما الاخطار المحتملة من هجـوم القراصنة ايضا • فقد كان البحر الابيض فى تلك المرحلة مسرحا لصـراع عنيف بين قرصانة من المسلمين والمسيحيين ، وخلف لنا وصفا أدبيا شيقا لما مر به يقول : « الى أن ركبنا البحر ، وحللنا منه بين السحر والنحر وشاهدنا من أهواله ، وتنافى أحواله ، مالا يعبر عنه ، ولا يبلغ له كنه • فكم استقبلتنا امواجه بوجوه بواسر ، وطارت الينا من شراعه عقبان كواسر » • ويصف الموج بأنه : « يصفق لسماع اصـوات الرياح فيطرب بل ويضطرب ، فكأنه مـن كأس الجنون يشرب أو قد شرب ، فيبتعد ويقترب ، وفرقه تلتطم وتصطفق وتختلف ولا تكاد تتفق » •

ويشير الى الدور الذى كانت تلعبه مالطة فى هذا القرن كمركز لقراصنة المسيحيين ذلك ان الاسطول الاسبانى كان قد تحالف مـع فرسان القديس يوحنا ، فاستقروا فى مالطة ابتداء من عام ألف وخمسمائة وثلاثين للميلاد 1530 م واتخـذوا منها منطلقا لمهاجمة السفن الاسلامية وتدميرها ، فى محاولة للوقوف فى وجـه القوة الاسلامية الصاعدة اذ ذاك ، ممثلة فى الخلافة العثمانية يقول : « وقد نبت بنا من القلق امكنتنا ، وخرست من الفرق السنتنا ، وتوهمنا أنه ليس فى الوجود ، أغوار ولا نجود ، الا السماء

(2) نفح الطيب ، ج 1 ص 28 ، ط القاهرة 1949 •

والماء ، وذلك السفين ومن فى قبر جوفه دفين ، مع ترقب هجـوم العدو ، فى الرواح والغدو لاجتيازه على عدة من بلاد الحرب ، دمر الله سبحانه من فيها ، وأذهب بفتحها عن المسلمين الكرب ، لاسيما مالطة الملعونة ، التى يتحقق من خلص من معرتها أنه أمد بتأييد الهى ومعونة ، فقد اعترضت فى لهوات البحر الشامى شجا ، وقل من ركبه فأفلت من كيدها ونجا » (1) ·

وبلغت الرحلة غايتها ، وأدع المقرى نفسه يصف لحظة الوصول آمنا مطمئنا ، بعد أن وصف لنا الرحلة خائفا مضطربا : « ثم وصلنا بعد خوض بحار ، يدهش فيها الفكر ويحار ، وجوب فياف مجاهل ، يضل فيها القطاعن المناهل ، الى مصر المحروسة فشفينا برؤيتها من الاوجاع ، وشاهدنا كثيرا من محاسنها التى تعجز عـن وصفها القوافى والاسجاع ، وتمثلنا فى بدائعها التى لا نستوفيها ، يقول ابن ناهض فيها :

شاطـــىء مصـــر جنـــة ... مـــا مثلهـــا فى بلـــد
لا سيمـــا مـــذ زخرفـــت ... بنيلهـــا المطـــرد
وللـــريـــاح فوقـــه ... ســـوابغ مـــن زرد

(الخ القصيدة(2))

بقى المقرى فى القاهرة قريبا من العام ، وذهل بما رأى ، رغم انه جاءها وهي على حال من العفاء والتدهور بالغة ، فقبل ذلك بقرن ، غداة الفتح العثمانى ، نقل السلطان سليم الاول ، وفى دفعة واحدة ، كل الحرفيين والمهنيين والفنانين ، ورجال العلـم والقانون ونفائس المخطوطات الى القسطنطينية ، ليجعل عاصمة الخلافة الجديدة فى مستوى القاهرة أولا ، وليأمن جانب المثقفين ثانيا ، فترك ذلك أثره فى حياة المدينـة لاعوام طويلة · ومع ذلك أخذ المقرى بحركة المجتمع ، وبهرته محاسن المدينة ، وأعجب ايما اعجاب بما يمكن ان نسميه « استمرار الحياة » ، رأى الناس رغم كل المصائـب يقبلون على عملهم فى جد ، ويباشرونه فى حب ، ويكملونه فى اتقان ، تضطرب الحياة من حولهم فيخبون فيها ويضعون ، ويأخذون من صخبها بحظ وافر لكن طاقتهم قادرة دائما على تمثل الخير ، وعزل الشر ، وتجريده من قواه ثم يعاودون سيرتهم من جديد ، فى هدوء منتظم ، وتدفق خلاق ، كأن شيئا لم يجر بالامس ·

(1) نفح الطيب ، ج 1 ص 45 ·
(2) نفح الطيب ، ج 1 ص 46 ·

بعد ما يزيد على العام فى القاهرة تهيأ « للمهم الاعظم ، والمقصد الاكبر » وهو رؤية الحرمين الشريفين ، فسافر الى الحجاز معتمرا ، وعن طريق البحر أيضا ، وكان تأثره بالمشاعر الدينية التى زارها عميقا بالغا ، وأكمل العمرة فى أوائل ذى القعدة من عام ثمانية وعشرين وألف من الهجرة ، ولبث هناك منتظرا حتى يحل موسم الحج ، فأحرم به ، وحين أحل مما به احرم انتوى الاقامة هناك ، فحال من دون ذلك حائل لم يفصح عنه ، ولا ألح اليه ، ولعله أن يكون اقتصاديا بحتا ، فعاد الى مصر من جديد ، فى شهر محرم سنة تسع وعشرين بعد الالف للهجرة ، وبعد شهرين ارتحل الى زيارة بيت المقدس المسجد الذى اسرى اليه بالرسول عليه السلام ، ثم رجع الى القاهرة من جديد ، وتزوج فى هذه المرة سيدة مصرية من سيدات الاسرة الوفائية ، وهي من أعرق اسر القاهرة محتدا ، بمقاييس ذلك العصر وكل عصر سليم ، فقد تميز البيت الوفائى بالكرم والعلم والتصوف ، ونقابة الاشراف فيهم ولهم طريقة صوفية تنسب اليهم ، وما زالت الطريقة قائمة ، وما زال بيتهم ممتدا ، وان اصاب كليهما ما أصاب الحياة فى مصر من تجدد وتطور ، وذلك يعنى ان المقرى احتل مكانة علمية رفيعة فى المجتمع القاهرى فى زمن يسير ، مكانة تتيح له ان يصهر فى بيت من أمجد البيوت واعرقها ، وهو رجل غريب لا مال له ولا جاه ٠

اتخذ المقرى من القاهرة منطلقا لما حولها ، فكرر الرحلة الى الحجاز وحج واعتمر مرات تبلغ الخمس ، وجاور فى مكة ، ودرس فى الحرم المكى ، وتوقف فى المدينة المنورة واملى فى الحرم النبوى بعض دروسه فى الحديث ، قريبا من مقام الرسول عليه السلام ، أو بمرأى منه ومسمع ، على حد تعبيره ٠ ثم عاد الى القاهرة واتخذ مكانه فى الازهر استاذا مرموقا ، يقول : ثم أبت الى مصر مفوضا لله جميع الامور ، ملازما خدمة العلم الشريف بالازهر المعمور » ٠

كان طموح المقرى العالم كبيرا ، فعاد الى بيت المقدس ثانية ، فى رجب من عام سبعة وثلاثين بعد الالف (1037 ـ 1627) ، وأقام فيه قريبا من خمسة وعشرين يوما ، القى خلالها عدة دروس بالمسجد الاقصى والصخرة وزار مقام الخليل ومهابط الانبياء ، ومن بيت المقدس فكر ان يزور دمشق « حيث المشاهد المكرمة ، والمعاهد المحترمة ، والغوطة الغناء والحديقة والمكارم التى يبارى فيها المرء شانئه وصديقه » ٠

دخل المقرى دمشق فى اوائل شعبان فأنزله المغاربة فى مكان لا يليق به ، على حد تعبير مؤلف كتاب « خلاصة الاثر ، فى أعيان القرن الحادى عشر ، فأرسل اليه أحمد

ابن شاهين مفتاح المدرسة الجقمقية فاستقر بها ، واتصل بكثير من ادبــــاء المدينة واعيانها ، وربطته صلة ود بالشيخ عبد الرحمن عماد الدين مفتى المدينة وكان قـــد تعرف عليه بمكة ايام الحج ، وعلى اخص بالمولى أحمد شاهين من الاعيان الادباء ، ووجد من الجميع احتراما واجلالا بالغين واقام فى دمشق دون الاربعين يوما ، تعرف خلالها الى ما حول المدينة ، واستهوته مناظرها الطبيعية ، فردته الى ما فى وطنـــه ، وذكرته بما كان عليه الاندلس واثارت فى نفسه ذكريات عزيزة واشجانا آسية ، فأطنب فى وصف ما رأى من حدائق ، واشاد بما طوقه الناس من جمائل ، وكان امتنانه العلمى فوق ذلك كله وابلغ منه ، ففى الجامع الاموى ، تحت قبة النسر ، اخذ يملــى صحيح البخارى بعد صلاة الصبح ، ولما كثر الناس بعد أيام خرج الى صحن الجامع وحضره غالب اعيان دمشق ، واما الطلبة فلم يتخلف منهم احد ، وكان يوم ختمه حافلا جــدا ، اجتمعت فيه الالوف من الناس ، وعلت الاصوات بالبكاء فنقلت حلقة الدرس الى وسط الصحن ، الى الباب الذى يوضع فيه العلم النبوى فى الجمعات من رجـــب وشعبان ورمضان ، وأتى له بكرسى الوعظ فصعد عليه وتكلم فى العقائد والحديث على نحـــو لم يسمع من غيره فيما قبل ، واتى على ترجمة البخارى ، ثم نزل عن الكرسى ، فازدحم الناس على تقبيل يده ، وكان ذلك نهار الاربعاء سابع عشر شهر رمضان سنة سبـــع وثلاثين وألف (5) ·

كان حديثه مع الناس عن الاندلس ، تاريخه ورجاله ، مآساته وضياعه ، مطنبـــا مستفيضا ، ومؤثرا مثيرا ، وكان كلامه عن آخر شعلة مضيئة فيه ، وزيره وشــاعره ومؤرخه لسان الدين بن الخطيب ، متدفقا لا ينقطع طليا لا يسئم ، يسرد من شعـــــره ونثره ما توحى به المناسبة وتقتضيه وتميل اليه الطباع السليمة وترتضيه ، فأراد أن يكتب لهم ما قص عنه وتحدث به ، واقترح عليه أحمد الشاهينى أن يتصدى للتعريف بلسان الدين فى مصنف يعرب عن بعض احواله وانبائه ، وبدائعه وصنائعه ووقائعه ، مع ملوك عصره وعلمائه ، فأجاب تواضعا منه بأن الغرض غير سهل من جهات عديدة ، اولها ــ وأترك الكلام له ــ « قصورى عن تحمل تلك الاعباء الشديدة ، اذ لا يوفى بهذا الغرض الا الماهر بطوق المعارف السديدة ، وثانيها عدم تيسير الكتب المستعان بها على هذا المرام لانى خلفتها بالمغرب ، واكثرها فى المشرق كعنقاء مغرب ، وثالثها شغـل

(5) خلاصة الاثـر ·

الخاطر بأشجان الغربة ، الجالبة للفكر غاية الكربة » لكن الناس شددوا عليه فى الطلب والح عليه المولى أحمد الشاهينى فى التنفيذ ، فوعدهم بالشروع فى المطلب عند الوصول الى القاهرة المعزية » ٠

رحل المقرى عن دمشق فى الخامس من شوال عام سبعة وثلاثين بعد الالف وتوجه الى مصر وفى القاهرة عكف على ترتيب مادته ، وجمع شوارد افكاره ، ليفى بما وعد به أهل الشام من تاليف كتاب عن لسان الدين بن الخطيب ، لكن اموره لم تجر على نحو ما أحب ، فوقف به مركب العزم على اتمامه ، واختلفت عليه أحوال الدهر نفعا ودفعا ، ومنحا ومنعا ، فيما يقول هو عن نفسه ، وألمت بأفكاره ساهرا يكتب امور ما خطرت له على بال ، ولم يتحدث عن معوقاته فى هذه الفترة ، كما أن معلوماتنا عن حياته اليومية فى القاهرة تكاد تكون معدومة ، ولكنى فيما درست من حال الرجل أردها الى أمرين ، تحدث هو عن اولهما تلميحا وتصريحا ، واطبق على الاخر صامتا فلم يشر اليه من قريب أو بعيد ٠ أما أول السببين ، فان المشابهة بين طبيعة الشام وبلده حركت فى نفسه حنينا جارفا الى وطنه ، فبدأ يستشعر الغربة بعنف ، ويراها ثقلا معوقا ، يقول وسط صفحات طوال حبرها عن جنان الشام ، واصفا ، وعن أهله ممتنا : « وليت شعرى علام يحسد من ابدل الاغتراب شارته ، وأضعف الاضطراب اشارته وانهل بالدموع انواءه ، وقلل اضواءه ، وكثر علله وادواءه ، وغير عند التأمل رواءه ، وثنى عن المأمول عنانه ، وأرهف بالخمول سنانه » ٠

وثانى الامرين أن الرجل لم يكن موفقا فى حياته الزوجية ، لكنه لم يرد وهو العالم الاديب ، ذو الخلق الاريب ، لا يكون العالم الا محمود الخلق ان يجعل من حياته الخاصة وهو احد وجهيها والوجه الاخر غيره ، مادة للقصص أو السمر ، فصانها عن المشاركة ، ونأى بها عن اللجج ، وطوى نفسه على صبر جميل ، امسك زوجه بمعروف ، فلما استحالت معها الحياة سرحها باحسان ، ووضع الطلاق حدا لحياتهما المشتركة ، ومن كانت هذه حاله ، لا يهدأ له بال ! ٠

غير ان الحاح صديقه أحمد شاهين لم يتوقف ، فكاتبه يستنجزه ما وعد فعاد المقرى يتم ما بدأ ، ولعل ذلك كان منه بعد انفصاله عن زوجته واستطاع ان يتم كتابه عن ابن الخطيب فى صورته الاولى خلال بضعة شهور وسماه « عرف الطيب ، فى التعريف بالوزير ابن الخطيب » تناول فيه حياة ابن الخطيب وصفاته وثقافته ومآثره ، وجانبا من نظمه ونثره ٠ ثم عاد اليه مرة أخرى بعد أن خلص لنفسه ولعلمه ، فأراد ان

يضع له ما يكون كالمقدمة ، يأتى فيها على ذكر الاندلس ، تاريخه واحداثه ورجـاله ، ومدنه والوافدين اليه ، والراحلين عنه ، وما تميز به واثـر عنه ، واستغرقت كتابة المقدمة زمنا اطول ممـا استغرقه كتابه الاصـل ، اذ اتمها فى عام وبضعة أشهر ، فاستطالت حتى ضارعت الاصل نفسه ، حينئذ فكر فى ان يختار للكتاب عنوانا جديدا ، يكون مطابقا لمضمونه ، فكان ذلك الذى انتهى الينا وهو : « نفح الطيب ، من غصـن الاندلس الرطيب ، وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب » ، وكان انتهاؤه منه ، كما تشير اليه خاتمة الكتاب فى آخر ذى الحجة عام تسعة وثلاثين بعد الالف للهجـرة ، (الموافق 1629 ـ 30 م) وكان المقرى يزمع ان يحمل مؤلفه عائدا به الى دمشق ، ليطلع اصدقاءه ، ومن رغبوه فى تاليفه عليه ، ولكن صحته اعتلت ، ومالبث ان وافاه الاجل المحتوم فى جمادى الآخرة عام واحد واربعين بعد الالف من الهجرة ، (يناير 1632) ، فدفن فى قرافة المجاورين ، قريبا من الجامع الازهر ، الى جوار صفوة ممتازة من علماء كل الارض ، جاءوا القاهرة زائرين أو دارسين رحالة أو مدرسين ، آخى بينهم العلم ، ووحد بينهم الدين .

أمضى المقرى فى القاهرة أربعة عشر عاما ، كان يبعد عنها خلالها أياما لا تتعدى الشهرين أو الثلاثة ، الى الحج ، او بيت المقدس ، كما رأينا ، ثم يعود اليها من جـديد ، وفيما يبدو كان يتردد على الاسكندرية من حين لاخر ، يزور مقامات صوفية الاندلس الذين اتخذوا منها بعد وفاتهم مثوى ، فعندما أورد ترجمة الصوفى الاندلسى أبـو العباس المرسى ، قال ان قبره بالاسكندرية مشهور باجابة الدعوات ، وقد زرته مرارا كثيرة ـ أي المقرى ـ ودعوت الله عنده مما ارجو قبوله . لكننا لا نملك اشارات أخرى الى انه زار مدنا غيرها ، ولو أن واقع الحال ينبىء انه زار مدينة طنطا ولو فى طريقه الى الاسكندرية ليزور أيضا مقام السيد البدوى ، وله فى عالم الصوفية ، وبين عـامة الناس ذكر مستفيض ، وجلال ملحوظ ، ولربما بلغ اعلا الصعيد ليزور فى قنا مقـام سيدى عبد الرحمن القنائى ، وهو صوفى اندلسى من مدينة سبتة ، اختار هذه المدينة القاصية من ارض مصر مقاما .

خلال اقامة المقرى فى القاهرة ألف معظم كتبه ، وسنشير اليها فيما بعد وليس لدينا أي دليل على انه كتب منها شيئا خلال اقامته فى مدينة فاس ، ونتصور انه اعد هناك جذاذات كثيرة ومذكرات حملها معه الى القاهرة الى جانب ما وعاه فى الذاكرة ، وكان حفاظا طيع التذكر ، وجاءت ثمر ذلك مؤلفات كثيرة وصلنا جلها ، وكلها ، الجليـل

منها والعادى ، تعكس ثقافة العصر وفكره وذوقه ، بعضها كتب فى التوحيد دفاعا عن عقائد أهل السنة مثل « اضاءة الدجنة فى عقائد أهل السنة » وبعضها كتب شرحا لمبادئه مثل كتابه « حاشية على شــــرح السنوسية فى التوحيد » وجانب منها كتبه اجـــلالا لمقام الرسول عليه السلام وتقربا منه مثل « فتح المتعال ، فى مـدح النعال المستشعرة بخير الانام » ، « والدر الثمين فى اسماء الهادى الامين » ، وجانب منها كان وليـــد مالقى فى الشرق من لقاء حسن ، مثل « عرف النشق فى اخبار دمشق » ، او تصــوفا مثل « حسن الثنافى العفو عمن جنى » ، أو عن علماء بلاده مثل : « روض الآس العاطر الانفاس فى ذكر من لقيته من اعلام مراكش وفاس » ، وطبع اخيرا فى الرباط تحقيق عبد الوهاب المنصور ، واخيرا الف كتابى نفح الطيب ، وأزهار الرياض ، ولنا معهما وقفة اطول » ٠

كان كتاب نفح الطيب آخر ما ألف المقرى من الكتب فيما أرى ، وعلى نحو ما اشرنا اليه من قبل ، فقد توفى بعد اتمامه بقليل ، والكتاب ينقسم الى قسمين كبيرين ، خـص أولهما للتعريف عن الاندلس ، تاريخا وطبيعة وجغرافية ، بشرا وارضا ومدنا ، منذ أن وطاته قدم أول مسلم الى ان طويت عنه راية الاسلام بعد تسعة قرون من تاريخ مجيد ٠ وخص الثانى للتعريف بابن الخطيب ، موطنــــه واسرته ، صبـــاه وشبابه ، شيوخه واساتذته ، خطاه نحو المجد وتوهجه ، محنه وأحداثه ، حتى وفاته ، وأورد جانبـــا كبيرا من رسائله ونظمه وشعره ، واحصى مؤلفاته وتتبع تلاميذه ، وأولاده ووصاياه فجاء الكتاب موسوعة ضخمة ، شغلت بتقسيم المؤلف نفسه اربعة مجلدات ضخـــام يجرى فيها المقرى على قاعدة الاستطراد ، حسب ما تسوقه اليه شجون الكلام والرواية ينتقل من التاريخ الى الشعر ، ومن الرسائل الى الفقه ، ويترجم لطبيب بجوار محدث ، ولامير بجانب آخر من غمار الناس ، يعلق أحيانا ويوازن أحيانا أخرى ، وينثر ذكرياته دائما ، ولا يلتزم نهجا معينا فى النقل قد ياتى برسالة على كاملها مهما طالت ، كرسالة الشقندى فى مفاخرته بأهل الاندلس مثلا ، وقد يبترها حتى ولو كانت فى الاصل سطورا مختصرة ، وقد يكرر القصة والرواية فى اكثر من موضع ، فيضطرب به النقل ، وتتدافع الاخبار فيما بينها ، ذلك ان الرجل لم يكن فى الكتاب مؤرخا ولا ناقدا ولا محققا ، ولا زعم لنفسه ذلك ، فكان يورد الاخبار كما سمعها أو قرأها ، فاذا كان بوسعه أن يضيف اليها شيئا من ذاته أو علمه ، مقوما أو مصححا أو معلقا فعل ، والالجاء بها على عهدة اصحابها دون تمحيص ٠ ورغم ذلك فان شخصيته لم تختف من الكتاب ، وانما نجدها

وراء كل سطر فيه ، وتحس وانت تقرؤه بدفء الروح الذى يكتب به المقرى عن الاندلس معجبا بحضارته أو آسيا لفقده ، ودامع القلب دائما لما أصاب المسلمين فيه . كان المقرى فى كتاب النفح ناقلا ومصنفا ونحن ندين له اليوم بنصوص بالغة الاهمية ضاعت اصولها وبقى لنا منها ما دون هو فحسب ، ويضم النفح اشارات الى مئات من الكتب افـــاد منها المؤلف ونقل عنها ، ولا نعرف لها اليوم وجودا غير ما اورد لنـــا ، ونستطيع أن نقدر أية كارثة اصابت الثقافة العربية بعامة ، والاندلسية بخاصة ، حينما نتصور ضياع هذا القدر الهائل من المؤلفات فى فترة من الزمن لا تتجاوز الثلاث مائة عام .

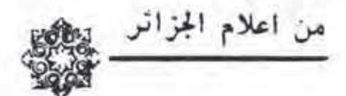
والكتاب المهم الثانى وهو شبيه بالاول فى الدافع ، هو « ازهار الرياض فى اخبار القاضى عياض » ، وخصصه لترجمة الفقيه المالكى الكبير القاضى عياض بن موســى ابن عياض السبتى ، نسبة الى مدينة سبتة ، والمتوفى عام 544 هـ ، وكان فى مجال الفقه والتشريع والحديث صنو ابن الخطيب فى مجال الادب والشعـــر والتاريخ ، وحتى حظهما من الاحداث والمحن كان متشابها ، وصنع فى الازهار صنيعه فى النفح ، فذهب به الحديث شجونا شتى ، واستطرد الى وقائع هامة ، واورد وثائق منقطعة النظير تتصل بأيام المسلمين الاخيرة فى الاندلس حين اكرهوا على التكثلك ، وتتبعتهم محاكم التفتيش اعداما واحراقا ، وباللحظات الاخيرة للاسلام فى الاندلس عندما استسلمت مدينـــة غرناطة ، سمعها روايات من اناس رأوها رأي العيـــن ، أو وعوها قصصا يحكى فى الجانب الاخر من العدوة ، وأورد لنا شيئا من نصوص استغاثات هـــؤلاء المسلمين المغلوبين على امرهم الى بقية العالم الاسلامى يستحثونه العون ودفـــع الضر ، فلم يستجب لهم احد بغير الدعوات الطيبات وهي لا تدفع عدوانا ، ولا تخـــرج محتلا ، ولا تحرر وطنا ، ومعظم الوثائق التى اوردها المقرى فى هذا الكتاب ضاعت اصولها ، ومصادر البقية القليلة الباقية ما زالت مخطوطة أيضا ، محجوبة عن أعين الدارسين .

اختار المقرى القاهرة مقاما ، وفيها لقى ربه وبين ترابها استقر جثمانه ما بقيت الارض ومن عليها ، وكانت القاهرة من جانبها حفية به ، فما أن بدأت ، نهضتها الحديثة ممثلة فى المطبعة والنشر ، حتى كان نفح الطيب من أوائل الكتب التى طبعت فى مطبعة بولاق الحكومية الشهيرة ، فجاء فى أربعة اجـــزاء كبيرة ، وصدر عن اثنين وستين وثمانمائة بعد الالف للميلاد ، اي منذ ما يزيد على عشرة اعوام ومائة . ثم طبع ثانية فى المطبعة الازهرية بعد اثنين وعشرين عاما من هذا التاريخ ، وفى الثلاثينيات اعتزمت دار المأمون ، وكان يشرف عليها الدكتور احمد رفاعى ان تعيد طبعه محققا مشكولا ،

وعهدت بالتعليق عليه الى العالم الجليل الاستاذ أحمد يوسف نجاتى استاذ الادب العربى فى دار العلوم العليا ، على ما كانت تسمى اذ ذاك ، وكان مقدرا له ان يجىء فى اثنين واربعين جزءا ، غير ان الدار لم تستطع أن تصدر منه غير تسعة اجزاء ، فقد اختار الله لجواره صاحب الدار ، ومحقق الكتاب فتوقف العمل فيه · وفى عام 1949 قامت المكتبة التجارية بالقاهرة باصدار طبعة جديدة كاملة منه ، عهدت بتصحيحها الى الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد ، شيخ كلية اللغة العربية اذ ذاك ، ورغم انها خير ما عرفت فى السوق ، الا أن بينها وبين الكمال خطوات واسعة ، ثم توالت طبعات الكتاب بعد ذلك نقلا عن هذه الطبعة يصورونها احيانا وينقلون عنها أحيانا أخرى ، أوفياء للجهد الذى بـذل فى تصحيحها فيحتفظون باسـم المصحح والناشر ، أو تجـارا فيحذفونهما دون حيـاء · كذلك قامت جماعة من المستشرقين باشراف المستشـرق الهولندى رينهارت دوزى بنشر القسم الاول الخاص بتاريخ الاندلس ، فى ليدن بهولندا عام واحد وستين وثمانمائة بعد الالف للميلاد 1861 م ، وقد ترجم هذا القسم الى اللغة الانجليزية المستشرق الاسبانى Gayangos عام 1840 أربعين وثمانمائة وألف ، مقرونا بتعاليق وفهارس قيمـة ·

وفى الاربعينات عهد بيت المغرب العربى فى القاهرة وكان المركز الذى يوجه منه زعماء المغرب حركات التحرير فى بلادهم ، سياسية وثقافية ، الى جماعة من المحققين المصريين بتحقيق كتاب ، « ازهار الرياض فى اخبار القاضى عياض » ، فقاموا بعملهم على نحو ممتاز ، وأصدروا منه الاجزاء الثلاثة الاولى التى كانت معروفة مخطوطاتها ، اذ ذاك ، اما الجزء الرابع فلم يصدر بعد ، وفيما سمعت يقوم على تحقيقه جماعة من علماء المغرب الاقصى الشقيق ، كذلك قام الاستاذ عبد الوهاب بن منصور اخيرا بتحقيق كتاب « روض الآس العاطر الانفاس ، فى ذكر من لقيته من اعلام مراكش وفاس » ، وقد صدر فى الرباط منذ اعوام خمسة فيما أتذكر ·

لا أعرف من الدراسات الحديثة ما اتجه الى المقرى بدرسه أو يحقق ما تبقى من مؤلفاته مخطوطا ، غير بحث كتبه الاستاذ محمد عبد الله عنان وضمه الى كتابه « تراجم اسلامية ، شرقية واندلسية » وصدر عن دار المعارف بالقاهرة عام 1947 م ، ثم كتـاب كامل عن المقرى ، ألفه الاستاذ محمد عبد الغنى حسن ، وصدر فى سلسلة اعلام العرب التى تصدرها المؤسسة المصرية للتأليف والنشر ، ولعل هناك آخرين ، كتبوا عنه باحثين ودارسين لا يحضرنى ذكرهم ، ولم اطلع على مؤلفاتهم ، وفوق كل ذى علم عليم ·
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ·



عبد الكــريم بن الفقــون القسنطيــني
(988 ـ 1073)
والتعريف بتــأليفه : منشور الهــداية ، في كشف حال من ادعى العلــم والــولاية

المهــدى البوعبــدلى
بحاثــة فى التاريخ ـ الجــزائر



اخترت موضوع هذه الدراسة لدراسة حياة علـم من اعلام الجزائر ، نـال الشهرة والاعجاب مـن نخبـة معاصريه ، وهو مـن مواليد هذه العاصمة العلمية كمـا سأتنـاول بالبحث والتحليـل ، تاليفه القيم ، النـادر المثال فى موضوعه ، لا على المستوى الوطنى بـل علـى مستوى الادب العربى العام ، وهذا التأليف هو منشور الهداية فى كشف حال من ادعى العلم والولاية .

ينحدر مترجمنا عبد الكريم ابن الفقون ، من أسرة علمية شهيرة توارث أفـرادها العلم والمجد قرونا بمدينة قسنطينة ، وقد نوه به كثير من معاصريه ، امثال الرحـالة المغربى ابى سالم العيـاشى ، واحمد المقرى التلمسانى ، وغـيرهمـا ، كمـا حـظى كثير من أفراد أسرته بتراجم اضافية من أئمة العلم والادب ، ابتداء من عميد الاسرة ابن على حسن بن على بن محمد الفكون صاحب الرحلة المنظومة ، التى ضمنها رحلتـه من قسنطينة الى مدينة مراكش لما ذهب اليها فى أواخر القرن السادس ، عند ما كانت عاصمة الدولة الموحدية وقد تسابق مؤرخو الادب العربى الى نشرها ، والاشـــادة

محاضرة ألقاها بكليــة الشعب بقسنطينة بتاريخ 17 محـرم 1397 هـ الموافق لـ 7 جـانفى 1977 .

بصاحبها ، وهي التي افتتحها بقوله :

ألا قـل للسـرى بـن السـرى ابـى البـدر الجـواد الاريـحى

الى ان يقـول :

فجئـت بجايـة فجلـت بـدورا يضيـق بوصفهـا حـرف الـروى

وفى أرض الجـزائر هـام قلبـى بمعسـول المراشـف كـوثرى

وفى مليـانة قـد ذبـت شـوقـا بلبـن العطـف والقلـب القسـى

الخ ...

تشتمل هذه المنظومة على اثنين وثلاثين بيتا ، وكان الفضل فى نشرها ، والتنويه بقيمتها ، للرحالة أى عبد الله محمد بن محمد العبدرى الحيحى فى رحلته المغربية التى ابتدأها سنة 688 هـ ، ثم تناقلها كثير من مؤلفى تاريخ الادب العربى .

ولنرجع الى الحديث عن مترجمنا ، فانه كان من مواليد أواخر القرن العاشر الهجرى ، وبالضبط من مواليد سنة 88 9 هـ قرأ بقسنطينة التى كانت آهلة بالعلماء ثم استفاد من رحلاته الى الحج ، حيث كان يرافق والده أمير ركب الحج ، قبل ان يستقل بها بعد وفاته ، فكان يذهب الى الديار المقدسة سنويا ، كانت خطة امارة ركب الحج لا تسند الا لامثل عالم ، تراعى فيه عدة مقاييس ، أهمها التبحر فى العلم والاستقامة ، اذ هو الممثل لبلاده ، ولنخبة علمائها ، حيث يجتمع بجل علماء الاقطار الاسلامية ، ويتبادل معهم الاجازات والتآليف ، ويشارك فى المناظرات العلمية التى كانت تعقد لحل المشاكل العويصة ، فكانت مهمة أمير الركب فى رحلاته الافادة والاستفادة .

تولى مترجمنا هذه الخطة التى خصصها ولاة قسنطينة الاتراك لافراد أسرته بداية ، من تولية جده عبد الكريم بن يحيى سنة 975 هـ . الذى ولاه الاتراك بعد احتلالهم لقسنطينة ، اعترافا بموقفه البطولى الذى سهل للجيش التركى احتلال البلدة ، وذلك ان قسنطينة كانت تابعة اذ ذاك للدولة الحفصية ، وكانت قاعدة

الدولة الحفصية بتونس ، وعندما احتل خير الدين باشا تونس استنجد ملكها الحفصى بملك اسبانيا شارلكان لطرده منها ، اتخذ الوالى الحفصى بقسنطينة نفس الموقف مع الجيش التركى ، الذى حاول احتلال البلدة فعندئذ تمرد عليه السكان الذين كان على رأسهم العالم الجليل عبد الكريم بن يحيى الفكون ، جد المترجم الذى انتصر للاتراك . أما الوالى الحفصى فقد آزره شيخ الاسلام عبد المؤمن ، ودامت مقاومته للجيش التركى سنوات ، انقسمت فيها المدينة الى قسمين الى ان تغلب الجيش التركى نهائيا ، وحينئذ قتلوا شيخ الاسلام عبد المؤمن وولوا مكانه ، جد المترجم المذكور ، فتوارث أفـــراد الاسرة الفكونية هذه الخطة طيلة العهد التركى ، وفى وصف هذه الاحداث قال المؤرخ القسنطينى الحاج أحمد المبارك فى تأليفه « تاريخ حاضرة قسنطينة » : « ولما وقـــع الصلح بين القبائل والاتراك ، اختلف أهل قسنطينة ، فمنهم من اذعن للاتراك ، ومنهم من امتنع ، وكـــان رأس الممتنعين الشيخ العالم سيدى عبد المـؤمن ، وراس الراضين بدخول الاتراك ، العالم الجليل سيدى عبد الكريم الفكون ، ونزل الاتراك بسطـــح المنصورة ، وشرعوا فى بنـــاء قصبة هناك لعسكرهم ، وأظهروا العـــدل والسياسة ، وخالف سيدى عبد المؤمن ، وأهل حومة باب الجابية على الترك ، وقابلوهم ثلاث سنين ، الى أن تحيلــوا عـــلى الشيـــخ سيـــدى عبـــد المـــؤمـــن ، وكانـــت لـــه مشيخـــة البلـــد ، فصـــالحوه ، ولـــم يـــزالوا ينصبـــون لـــه حبـــائل المكـــر والخـــداع ، حتى تمكنوا به ، دعوه لضيافة بقصبة المنصورة ، فأجابهم ، وخرج اليهم آمنا فقتلوه ، وسلخوا جلده ، وملأوه قطنا وبعثوا به الى الجزائر ، ودفنت جثته بمسجده المعروف به اليوم ، فلما قتله الاتراك ردوا مشيخة الاسلام وامارة الركب الى ابن الفكون » .

كثيرا ما اشتبه على المؤرخين مترجمنا بسميه الذى هو فى الحقيقة جده ، أى والد والده وقد توفى الجد فى نفس السنة التى ولد فيها مترجمنا أى سنة 988 هـ . كـــان المترجم كما ذكرنا من أكابر علماء عصره المشهورين ، قضى عمـــره الطويل فى خدمة العلم . ولم تمنعه خطة مشيخة الاسلام ، ولا عبء امارة ركب الحج التى كانت تلـــزمه التردد الى الديار المقدسة سنويا . لم تمنعه من خدمة العلم بالتدريس والتأليف . كما اعترف له بذلك جل مترجميه . ذكره أحمد المقرى التلمسانى فى نفح الطيب ، فقال

« عالم قسنطينة ، وصالحها وكبيرها ومفتيها ، سلالة العلماء الاكابر . وارث المجد كابرا عن كابر ، المؤلف العلامة الشيخ سيدى عبد الكريم الفكون حفظه الله » . وقال أبـو سالم العياشى فى رحلته يصفه فى أخريات حياته ، « وكان رضى الله عنه فى غـاية الانقباض والانزواء عن الخلق ، ومجانبة علوم أهل الرسوم ، بعد ما كان اماما يقتدى به فيها . وله فى كثير منها تاليف ، شهد له فيها بالتقدم أهل عصره ... الى أن يقول ... ومروياته رضى الله عنه مستوفاه فى فهرسة شيخنا أبى مهدى عيسى التعالبى ، فنحن نروى عنه جميعا » اهـ . كما ترجمه المؤلف اجـازتـه لصاحب الزهرات الوردية فى الفتاوى الاجهورية : « ولما أراد الله سبحانه وتعالى الاجتماع بشيخ أهــل المغرب ، الشيخ الامـام ، العـالم الهمام ، صاحب التصانيف النافعة ، والبراهين القاطعة ، سيدى الشيخ ابن محمد عبد الكريم ابن محمد القسنطينى حفظه الله تعالى ورعاه ، حال رجوعه من الحج الشريف ، وكان ذلك فى مستهل ربيع الاول سنة خمس وأربعين وألف ، التمس منى ان أذكر له اسنادى فى الحديث والفقه والاجازة فيهما وفى غيرهما بعد ما التمست منه الاجازة فى مصنفاته وغيرها » اهـ .

وقد توارث أفراد الاسرة كما سبق لنا مشيخة الاسلام طيلة العهد التركى ، وكان آخر من تولاها محمد بن عبد الكريم بن بدر الدين الذى ادركه الاحتلال الفرنسى ، وهو يناهز الثمانين سنة ، اذ توفى سنة 1256 هـ . أى بعد احتلال الفرنسيين لمدينـة قسنطينة الذى وقع سنة 1252 هـ ، وقد ذكر المؤرخ الجزائرى ابو راس النـاصرى (1) فى رحلته : شيخ الاسلام محمد بن عبد الكريم بن بدر الدين الذى نزل عنده ضيفا فى رحلتيه الى المشرق ، فى أوائل القرن الثالث عشر الهجرى وأثنى عليه ، وأشاد بأفراد أسرته ، وامتازت هـذه الاسرة بامتلاكها الخـزانة كانت أهم الخزائن الجامعة لنـوادر المخطـوطات شـرقا وغـربا ، ونـوه بها كثـير من العلمـاء ـ مسلمين وأجـانب . هـذه فى الجملـة الخطـوط العـريضة مـن حيـاة متـرجمنـا ذكرنـاها بايجـاز . أما تاليفه ، فان الكثير منها كان فى الحديث والفقه واللغة . وقد استوعب ذكرها فى

(1) ابو راس الناصرى الراشدى (1165 ـ 1237 هـ) رحـل الى المشــرق مرتين الاولى سنة 1204 هـ . والثانية حوالى 1226 هـ

تأليفه (منشور الهداية) ، كما تعرض لذكر بعضها ، الرحالة أبو سالم العياشي في رحلته ، فاعترف بها ، وكان في طليعة التأليف التي تناولها بالنقد والتحليل كتاب « محدد السنان في نحور اخوان الدخان » موضوعه الرد على معاصريه الذين افتـــوا بجواز التدخين ، بعد أن افتى هو بتحريمة ، وكان من ضمن المفتين بالجواز . الشيخ علي الاجهوري المذكور سابقا ، وقد لخص العياشي كتاب « محدد السنان » هذا في عـــدة صفحات من رحلته ، كما حلل في الرحلة المذكورة ديوان شعره وبعض تآليفه التي اطلعه عليها ولد المترجم ، الذي خلف والده في امارة ركب الحج ، وكان العيـاشي يجتمع بـه في رحـلاته ·

وننتقل الى الحديث عن التأليف الذي تعهدت بالتعريف به ، وهو « منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية » وهو كما ذكرنا من التآليف القيمة التي لها وزنهـــا وفـوائـدها ·

وقبل أن ندخل في صميم موضوع التعريف به ، وتحليل بعض جوانبه ، تـذكر الاسباب الداعية الى تأليفه حسبما ذكرها المؤلف في تقديمه ، كما لا يفوتنا ان نلفت نظر القراء الى ان حالة البلاد في عهد المؤلف ، كانت سيئة جدا ، فقد نالت حظها الوافر من التدهور والفوضى اثر استئنـاف غارات الحروب الصليبية وشـن هجوماتهـا على مدن شواطىء البحر الابيض المتوسط التي سقطت الواحدة بعد الاخرى ، مثل سبتة ومليلية ووهران ، وبجـاية ، وتونس ، وطرابلس . وما نجـــم عن ذلـك من الفتـن والاضطربات التي انتشرت داخل البلاد ، هذا وان كانت مدينة قسنطينة تحصنت بموقعها الجغرافي ونجت من غارات الجيش الصليبي ، فان موقف واليها الذي تعرض لدخول الاتراك ، وتمرد السكان عليه ، اعقبه تفكك عرى الادارة الحفصية ، وفقدت نفوذها داخل البلدة وخارجها ، فاغتنم هذه الفرصة رؤسـاء الاقطاع ، فاستقـل جلهـم بمناطق نفوذهم ، وصاروا يحاربون بعضهم بعضا ، فانتشرت الاهوال والفتن ، وفقد الامن . وكانت من جملة الاوضاع التي تغيرت وضاق بها مترجمنا ذرعا ، الحياة الدينية والدين والثقافة في ذلك العهد ، كانا متلازمين اذ لا يتصور الناس ، ولا يعترفون أو يطلقون اسم العالم الا اذا كان العـالم دينا ، وكان النفوذ الديني لطبقتـين ، الطبقـة

الرسمية الشاملة للقضاة والمفتين والمدرسين ، والطبقة الملحقة بالرسمية ، وهي طبقة رجال الزوايا والمتصوفين والعلماء الغير المتوظفين ، وسلالة البيوتات المنسوبة للشرف ، وفي الغالب ان أفراد هذه الطبقة الثانية كانت علاقتها حسنة مع السلطات التي كان لها دخل في تعيينهم أو عزلهم فالمؤلف كما نرى شاهد تغير الاوضاع المذكورة ، حيث صار كثير من أفراد الطبقة الاولى كالقضاة والمفتين والمدرسين يتولون هذه المناصب من دون استحقاق ولا كفاءة ، وانما ينالونها بالرشوة ، أو المحسوبية ، وكذلك كان الامر بالنسبة لرؤساء الدين ، المدعين للصلاح والولاية . ومعظمهم من رؤساء الطرق ، فركز مترجمنا تأليفه هذا « منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية » ، على هذه الطبقات أي الموظفين ، ورؤساء الدين ، وابناء البيوتات المنسوية للشرف ، ضمن محتوى التأليف الذي كان الهدف منه ، ترجمة علماء البلاد المعاصرين ، على عادة علماء التراجم والطبقات ، وقد بين ذلك في تقديم تأليفه حيث قال « اما بعد فلما رأيت الزمان بأهله تعثر ، وسفائن النجاة من أمواج البدع تتكسر ، وسحائب الجهل قد أظلت ، وأسواق العلم قد كسدت ، فصار الجاهل رئيسا ، والعالم في منزلة يدعى من أجلها خسيسا ، وصاحب أهل الطريقة قد أصبح . واعلام الزندقة على رأسه لائحة ، وروائح السلب والطرد من المولى فائحة ، الا انهم اعنى الطائفتين تمسكوا من دينهم بمناصب شرعية ... فموهوا على العامة باسماء ذهبت مسمياتها ، واوصاف تلاشت اهلها . منذ زمان واعصارها ... والطائفة الاخرى سطرت انامِلهم في قراطيس السجلات ، ما يوهم من لم يوهم ، ممن ياتي في غابر الزمن انهم من حزب العلماء، بل ومن مشائيخهم الاعلين ، كل ذلك والقلب مني يتقطع غيرة على حزب الله العلماء ، ان ينسب جماعة الجهلة المعاندين الضالين المضلين لهم ، أو يذكروا في معرضهم ، وغيرة على جناب السادة الاولياء ان تكون اراذل العامة ، ونذار الحمقى المغرورين ان يتسموا بأسمائهم ، أو يظن بهم اللحوق بآثارهم .

ولم أزل في التنفير من كلتا الطائفتين ، والتحذير منهم في كل زمان وأوان ، وبين كل صالح من الاخوان ... الى أن يقول ... فشرح الله صدري ، في أن اعتكف على تقييد يبدي عوارهم ، ويفضح أسرارهم ، ويكون وسيلة الى الله في الدنيا والاخرى ..

فهذا الجهاد الذى هو احد من السيف فى نحور اعداء الله ، وناهيك بهم اعداء ، نسخوا شرع سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم بآرائهم المسطرة باقلامهم فى سجلاتهم ، وأحلـوا الرشى بافعالهم ، والتمدح بها ، والعكوف عـلى طلبها ، والاعتناء باخذها فى انديتهم ، فهى عندهم ارفع المكاسب ، وأسنى المطالب ، انتهى .

نقتصر على هذه الفقرات التى ذكرها المؤلف فى مقدمة التاليف ليبيّن منهاجه فى تاليفه ، وكشف مثالب بعض مترجميه ، وقد قسم تأليفه الى ثلاثة فصول وخاتمة . فالفصل الاول ترجم فيه للعلماء الذين اتخذهم قدوة ، من حيث الصـدق والصـلاح والنزاهة وجعلهم من علماء القرن التاسع الهجرى .

والفصل الثانى ترجم فيه للعلماء الذين تولوا الوظائف الـدينيـة ، والشـرعية ، والعلمية ، كالافتاء والقضاء ، والتدريس ، من دون كفاءة ، واتخذوا للتحصيل عليها وسـائـل دينيـة .

والفصل الثالث خصصه لرؤساء الدين المنحرفين وهذا الفصل هو الذى ينطبـق على مترجميه عنوان التأليف « كشف حال من ادعى العلم والولاية » . امـا الخـاتمة فقد خصصها لمن كان لهم به اتصال ومعاصرة ، وأهم ما فى هذه الخاتمة ترجمة أحمد المقرى التلمسانى ، الذى رغم اهتمـام الباحثين بترجمته ، بقيت جوانب منهـا مجهـولة فى تفاصيلها ، كاقامته بمدينة الجزائر فى طريق رحلته من المغرب الى المشرق ، واتصـاله بعلمائها ، وكذلك مروره على تونس ، ومرافقته لاحد كبار علمائها الى المشرق ، ثم ان التاليف يحتوى على صفحات من تاريخ الجزائر وتونس ، وذكر الاحداث التى تعرضت لها البلدان اذ ذاك ، وهى مرتبطة بتراجم كثير من العلماء المذكورين فى التاليف ، وذلك كاستعراض لبعض الثورات فى جبال الاوراس ، والوصف الدقيق للمعاهد العلميـة والقرآنية ، واحصاء رؤساء الاقطاع ، وتمردهم على الحكام واتخاذهم بعض رؤسـاء الدين آلات لجلب السكان ، وترضيتهم كما تعرض للقبائل التى كانت تحترف النهب والسلب وقطع الطريق على القوافل التجارية التى كانت تتردد من شمال البلاد الى جنوبها ، ثم استمرار الاتصال المتين بين علماء البلاد ، ذلك الاتصال الذى كان مـن

أسباب تمتين الوحدة الثقافية بين البلدان الاسلامية بصفة عامة ، وبلدان المغرب العربى بصفة خاصة ، كما سنبين ذلك بمزيد من التفصيل فى موضعه من هذه الدراسة ٠

كان المؤلف يدرك أنه لم يسبق الى مثل صنيعه فى طريقة تاليفه ، أو بلغته بعض انتقادات معاصريه ، حيث تعرض باسهاب الى الحياة الخاصة ، والعامة لكثير من مترجميه فلذلك نجده يقدم اعتذاره ليبرر به عمله ، مثل قوله « يهجس فى النفس بأن ذكر هؤلاء فى الاوراق والاعشاء بهم فى الكتب ، تنويه بذكرهم ، وترفيع لقدرهم ، واهمالهم أولى ، وعدم التعرض لذكرهم أحق وأجلى ، الا أن النصح العام ، هو الملجى لذكرهم والغيرة على حمى الله ورسوله وبساط اوليائه واصفيائه ، ان يدعى جلوس مثل هؤلاء عليه ، هو الموجب للتعرض لهم ، ولى فى هذا سلف من خير سلف ٠ لقد أوضحت علماء الدين ، وأئمة المسلمين ، نقلة حديث من يصح النقل عنه ، ومن لا يصح » ، من هذه الفقرة الاخيرة ، يتاكد لدينا ، ان المؤلف لم يطلع على من سبقه من المؤلفين، الذين طرقوا موضوع تاليفه ، فجعل قدوته فى ذلك ، واسوته فيه علماء الحديث ، الذين فتحوا باب التعديل والتجريح على مصراعيه لرواة الحديث ، ورجال السند ، بقى هذا التاليف مغمورا ، ولم نطلع على ردود فعل ضحاياه ، اللهم الا ما ذكره صاحب منظومة « الدرة المصونة فى علماء وصلحاء بونة » المشهورة بالالفية ، للعالم الشهير ، الشيخ أحمد ساسى البونى ، وهذه المنظومة ، جمعت بين ما اشتهر فى ذلك العهد من نظم التاريخ الجهوى ، والاستغاثة بالصالحين ، وقد خصصها صاحبها لذكر علماء بونة ونواحيها ، وللعلماء الواردين عليها ، وعند ما ترجم لجده محمد ساسى ، وتعرض لذكر محاسنه ، نفى عنه تهم ابن الفكون ، التى ذكرها فى «منشور الهداية» عند ما ترجم للشيخ طراد دفين نواحى بونة ، واتهمه بالزندقة ، والتدجيل ، فقال انه من جملة من تتلمذ له محمد ساسى خطيب جامع عنابة اذ ذاك ، ومحمد ساسى هذا هو جد صاحب « الدرة المصونة » التى قال فيها صاحبها احمد ساسى بعد ان عرف بجده فى قوله :

بجده محمد ساسى جد الفقير العارف المواسى
وفضله اشهر بين الناس من نونبراس لدى العسعاس
من جدد العلم وقد كان اندرس وقام فيه مخلصا بلا دنس

21

تعـرض التهـم ابن الفكـون فقـال :

طعـن الفـكون فيـه صـاح باطـل | اذ هـو قطـب عـارف وكـامـل
فطعنـــه تحـــامـل وظلــم | وعنـد ربنــا تعــالى العـلم
والقـــدح فى امثـالـه حـــرام | وذا لا تـــرضـى بـــه الكـــرام
فالحـكم العـــدل تعـــالى يحـكم | بينهمـــا وسيجـــازى الظـــالـم

وهذا كله لم يمنع أحمد ساسى من الاعتراف لابن الفكون بالصلاح والعلم ، حيث قال فى نفس المنظومة ، عندما تحدث عن علماء قسنطينة الواردين أو المارين على بونة قال :

بسيـــدى عبـد الكـــريم العـــالم | الصـالح الفكـــون ذى المكـــارم
مـــؤلـف التـــآليـف الكثــــيرة | وكـــان ذا منـــاقـــب اثـــيرة
بنجلـــه محمد نـــور الظـــلام | ابقـى الالاه مجـدهم على الـــدوام
وبيـــنتــا وبيـنـــه قـــرابـــة | اربى عـلى الاقـران فى النجـابـة
وعنـــــده الكتـــب بــــالآلاف | والمجـــد تـــالـــد بـــلا خـــلاف
امـــير أركـــاب الى الـــرسـول | سيــــدنا محـــمد ذى الســـول

ولنرجع الى الحديث عن التاليف ، فهو كما ذكرنا تناول فيه تراجم الطبقات الاربع من العلماء الذين كان معظمهم من مدينة قسنطينة ومن معاصريه ، وقد تتبع حياة المترجمين سواء الممدوحين أو المقدوحين بصراحة وتفاصيل لم يتعودها المؤلفون فى التراجـــم القدامى منهم والمتأخرون ، فهو يذكر المترجم باسمه ولقبه ، واطوار حياته ، من لدن نشاته . ويجسم المحاسن أو المساوى ، وأكثر من حمل عليهم ، هم ممن تربطهم بـــه صلة القرابة أو التلمذة ، كما ان جلهم ، خصوصا قسم الموظفين هم من اعيان بيوتات قسنطينة ، الذين لا زالت بقايا اسرهم الى يومنا هذا ، ومن جملة من تعرض لهم بنقده اللاذع طبقة سماها بالحضر وان مدلول هذا الاسم ، المتعارف عند الجميع يطلق عـلى سكان المدينة العريقين فى التمدن والحضارة • ولكن المؤلف لم يعن من انتقدهم مـــن

أفراد هذه الطبقة بهذا المدلول ، والا فهو وأسرته من اعرق الاسر الحضارية ، حيث استوطنت أسرته المدينة ازيد من خمسة قرون ٠

وقد اعترف بمدلول اسم الحضر الا انه بقى يكتنفه الغموض فقد عرفه عندما ترجم لاحد مترجميه وقال « فوقعت بينهما ألفة الظاهر ، وفى الباطن مختلفان على عادة صنفهم المسمى بالحضر اذ ذاك صفة لهم لازمة ، بمجرى العادة لا تتخلف ، ولو فى النادر ٠ وان كنت اظن تخلفها فى بعض منهم كما اشرت اليه فى تاليفنا « محدد السنان » ظنا منى لمرءاه ، والم اشعر باطنه ، كما يأتى التنبيه عليه ان شاء الله ، فانبهر لى عموم الوصف فى جميعهم الا ان بعضهم يعرف عنه ابتداء ، وبعضهم يخفى ما اكن الى بلوغ قصده » ٠

ثم كرر حملته على الحضر فى موضع آخر من نفس الترجمة وقال : « ورجعت المـــودة بينهما شحناء ، والمخالفة بغضاء ٠ ومع هذا ففى الحضور تحسبهم جميعا ، وهم بالغاية القصوى ، قلوبهم شتى ، واهواؤهم متبددة ، بود كل منهما وقوع منتهى الشـــرور بصاحبه ، وليس هذا بدعا ممن هو من الجنس الذى يلقب حضريا ، فقد جبلوا عـــلى ذلك ، كما أودعت بعض صفاتهم تأليفنا محدد السنان » ٠

من هذين الفقرتين يتبين لنا ان مقاييس مدلول اسم الحضر ، بقى غامضا ، اذ كل ما عرفنا به المؤلف هو قوله فى الفقرة الثانية المذكورة ، (وليس هذا بدعا ممن هو من الجنس الذى يلقب حضريا ، فقد جبلوا على ذلك ، كما أودعت بعض صفاتهم تأليفنا محـــدد السنـــــان) الخ ٠٠

ثم ذكر فى موضع آخر من التأليف ان هذا الصنف لا يوجد الا فى قسنطينة ، واعطى أمثلة دعم بها دعواه ، هذا وان كانت مسألة الخلاف بين سكان المدن والبدو من جهة ، وسكان المدن القدامى ، والطارئين عليها ، مشهورة فى التاريخ خصوصا فى المـــدن العريقة فى الحضارة الا ان علماء الاسلام كانوا لا يهتمون بها كثيرا ، ولتتميم الفائـدة وعملا بالمبدأ الذى يقول « بالمثال يتضح المقال » نذكر نماذج من بعض التراجم المذكورة ؛ قال فى ترجمة عالم تولى الافتاء والقضاء والتدريس بعد ان اعترف به وباسرته وانـه من أقاربه قال « وكان فى أول زمانه ممن احبنا لله وأجببناه فيه . وكان ذا نجابة فى

أحوال الدنيا ، وطلب رئاستها ، تولى النيابة عن قضاة العجم يقصد بالعجم (الاتراك) وامتحن من الولاة كثيرا ، وأغرم المال مرات ، وتشكت به العامة ، وكان مقليا عند الخاصة ، وينسبون اليه أمورا لا يليق صدورها بعاقل ، وكان يخدم الولاة ، ويغلمهم ، ويمتص نفسه فى موالاتهم ويعطيهم الرشاء وربما يقال فيما اشتهر انه يتوسط لهم فى ذلك من أهل البلد والرعايا ، وينال هو من ذلك حظا ، وتولى خطة الفتوى فى زمن زكرياء ابن محجوبة ، وكانت له يد عليه فى بعض الاحيان ، الا انه كان يستعين عليه بالجمع الخاص وفريق العامة ، وبعد وفاته استقل برئاستها فى التصدر ، وكان امى الخطاب والكتابة ، لا يعرف طريق الخط ، ولا يحسن الوسم ، غير عارف بالهجاء حتى انه فى غالب أحواله ، يتفقد من يجالسه من أحبابه مكاتبه ، ليصلح ما فيها من فساد الرسم ، وكان فى ابتداء امره منصفا ، واقفا عندما يحد له) الخ٠٠ثم يذكر فى ترجمة أخرى من هذا القسم ، أى المتولين الوظائف العلمية والدينية من دون استحقاق ، بعد ان اعترف بمترجمه وباسرته ، « واما تكالبه على الدنيا ، وانكبابه عليها فهو اشهر من ان يذكر ، واوضح من ان يسطر فتراه فى جمعها يرتكب أمورا لا يبالى بها من ضعة ، أو هلكة ، ولا عليه ان تكون من حل أولا ، حتى تحقق فيه وعيد حديث « من لم يبال من اين مطعمه ومشربه ، لم يبال الله أى باب من أبواب جهنم يدخله » هذا مع تغييره للشريعة وتجاهره بالرشاء ، وجمع حطام الدنيا ، وعدم اكتراثه بالاوامر الشرعية ، وتسويغه للعامة ، أو من كان على شكله من الخاصة أمورا لا يرضاها من فى قلبه مثقال حبة من ايمان ، وتسهيله لهم الامور الشاقة فى النواهى والزواجر ويهتك حدودها قولا وفعلا ٠٠٠» الى أن يقول ٠٠٠ «اما العمل فلاحظ له فيه ، الا ما سطر من مساويه ، واما العلم فهو اجهل ممن رايت ، واحمق ممن لاقيت وان كان يتصدى لاقراء المختصر والرسالة ، واعجب من ذلك ، تعاطيه لابن الحاجب فى ناديه ، مع جمع عمتهم الجهالة ، فلو كان فى زمن محتسب لله لكان له معه شان» ، ثم يقول بعد ذلك ٠٠٠ « ولعمرى لا يصلح لان يقعد بين العلماء فضلا ان يتسمى بالعلم ، واحرى ان يتصدى للتدريس لكن غباوة الجهل ، وقلة الحياء من الله ، وخراب البلدة ، وكثرة العامة هى التى جرأته

على ذلك» • ثم يتعرض لتصرفاته فى خطته فيقول « ولقد سمعت من والدى انه أحصى جميع ما باعه من الاحباس ، وتسبب فى هتك حرمتها والبيع والابتياع ، خمسة وثلاثين حبسا أو نحوها ••• حتى انه ترامى به الحال ، ان فعل ذلك فى الاحباس الموقوفة على خدمة المدينة الشريفة ، ولم يراع فيها جانب النبى الشريف ، ولا عظمه ، ولا وقره ، فى هتك ما نسب اليه » الخ ••• ويختم هده الترجمة بقوله «لها ولنكف العنان، فان مساويه أكثر من أن يحصيها الانسان ، ولما كان هذا التاليف للنصح العام اتينا بنبذة من مساويه ليدل مبدأها على منتهاها ، ولله عاقبة الامور » •

ثم يتعرض لترجمة شخص آخر من هذا الصنف فيقول عنه « تولى خطة النيابة (أى نيابة القضاء) بالبلد ، ومكث فيها زمانا ، وعزل مرات ••• وكان عامى القلم والفكر ، لا يعرف ما يصلح به وضوءه وصلاته فضلا عما وراء ذلك ، غير أنه اتخذ كتب الوثيقة صناعة على ما فيها من الفساد والافساد ما ورسما ، وضعف الدين أوجب انزاله تلك المنزلة . وامتحن مرات ، وغرم كرات ، وهو اول من ظهر الغرامة على خطة النيابة ، اعطى عليها مالا لقضاة العجم ، حتى ولوه اياها ، وربما ارشى الولاة يمينا وشمالا وسمعت عن شيخنا أبى عبد الله التواتى المذكور انه طلب منه الرجوع لقسنطينة ، بعد أن أخرج منها واستوطن باجة ، كما قدمناه فاعتذر بانه لا يرجع الى بلد فيه فلان نائب ، أو قاض ، ونحو ذلك ، وكان موسوما بالرشى مغموصا بشهادة الزور والله أعلم بالسرائر » •

الى هنا ننهى القسم الاول من النماذج الخاصة بالذين تولوا الخطط الدينية والشرعية بدون كفاءة واستحقاق . وعقد لهم المؤلف الفصل الثانى من تاليفه ، اما القسم الثانى من هذه النماذج فهو يشمل الطبقة التى خصص المؤلف الفصل الثالث من تاليفه ، وعنوانه يقوله (الفصل الثالث فيمن ادعى الولاية من الدجاجلة الكذابين ، والمتشدقة ، والمبتدعة الضالين المضلين ، وربما الجأ الحال الى ذكر من لم يكن بصفة من ذكر لقصد التعريف به ، فسننبه عليه ان شاء الله) •

فان المؤلف كما نرى من قوله هذا ، كان ينكر على المنحرفين من مدعى المشيخة والتصوف ، وكانت اسوته فى ذلك . مذهب أحمد زروق ، وتلميذه عبد الرحمن

الاخضرى أى كان لا يعمم انكاره على أصل الصلاح ، ولا أصل التصوف ، ولهذا نبـه فى فصله هذا بقوله « وربما الجأ الحال الى ذكر من لم يكن بصفة من ذكر لقصد التعريف به فسننبه عليه ان شـاء اللـه » ٠

وقد لخص نظريته بعد ذلك فى المقياس الذى كان يعتمده فى احكامه على هذا الصنف من مترجميه بقوله « والميزان الاعدل فى ذلك ان ننظر الى المرء وما هو عليه ، من الطريق القويم والصراط المستقيم فى اتباع السنة قولا وفعلا وعملا ٠ فما كان ، فهو ممن يجب الاعتقاد فيه ، ومالا ، فـلا » ٠

قد بدأ هذا الفصل بترجمة قاسم ابن أم هـانى وبين الداعى الى البداية بترجمته فى قوله « وبدأنا به لعظم مفسدته بين الخلق ، وشهرة بدعته وقوتها » وبعد ان ذكر أن جد المترجم ينتسب الى الصلاح ٠ وكان معاصرا لعبد الرحمن الاخضرى الذى كان ينكر عليه ، قال : « فاعلم ان هذا الرجل (أى قاسم بن ام هانى) كان فى ابتداء امره ، ذا سمت حسن ، وكان لجده رعايا ، واتباع ، وقد أظهر التقشف والزهد ، ولبس المرقعات ، ثم ادعى مراتب الولاية والصلاح ، وحكم المؤلف بالزندقة معللا حكمه عليه بقوله : « واما الزندقة فبـدعواه ، ان ما اصاب من النكبات ، من لم يوافقه على مرغوبه، فهو ببركته ، ومن أجل حضرته ، وقد علم ان التحدى فارق بين منصب النبوءة والولاية، فالولى اذا تحدى تزندق ، وخرج عن دائرة أهل الغرب والخصوص وقد ذكر علماؤنا فى كتبهم ، ان من قال أنا ولى ، فهو زنديق ، هذا لو كان آثار الطريقة ظاهرة عـلى صاحبها ، واما من هو فى لجج العماية غريق ٠ وفى تيه الحرمان راكض متلطخ بقذرات المعاصى الظاهرة ، التى هى عنوان عن الباطن فأنى يشم رائحة أهل الله » ٠

ثم ترجم لآخر وهو الشيخ طراد دفين نواحى عنابة فقال عنه : « أصله لص من اللصوص ـ ويقصد باللصوص رؤساء الاقطاع ـ وكان كبير المتلصصة ثم زعم انه تاب، والى الله اناب ، فصار من أهل الصفوة والولاية ، وهو باعتبار ظاهر الشرع من أهل الطرد والجناية ، والبعد عن الله والغواية كان لص الظاهر ، صـار لص البـــاطن والظاهر » رمحه الظاهر ٠ لم يزل بيده للحرابة والفساد ، وسبحته ، هى ما يذبح بها العباد ، ويضلهم بها عن طريق الرشاد ، ويقطعهم عن باب الملك الجواد ٠٠٠ ولهذا

الرجل حروب ووقائع مع شطر قبيلته ، اذ لم تدخل تحت طاعته ، ويشن الغارات عليها ، ويأخذ أموالهم يستحلها • وبعد ان يذكر موبقاته ، والطرق التى يستعملها لجلب الناس ، يذكر ان جل سكان عنابة دخلوا فى احبولته ، ومنهم خطيب جامعها وفقيه بلدها ، وعكف على اتباعه اجلاف البوادى ، وامتلأ باكاذيبهم حافتنا الوادى وأكثر من مآثره التى هى فى طى الخرافات ، الحاضر والبادى الخ •••

وبقصد بخطيب جامع عنابة الشيخ محمد ساسى ، الذى تقدم لنا الحديث عنه ، عندما تكلمنا على حفيده أحمد ساسى صاحب منظومة « الدرة المصونة فى علماء وصلحاء بونة » ، ثم ترجم لغيرهم ، وختم الفصل الثالث الذى عقده لذكر المنحرفين من المدعين للولاية والصلاح بصنف آخر ، يعرف بالمجاذيب ، فعقد لهم فصلا مفيدا ، نلخصه فى هذه الجمل التى ذكرها فى ترجمة واحد منهم فقال : « فان زعموا ــ أى المعتقدون فى صلاحهم ــ انه من أهل الجذب ، وانه غير مخاطب ، فيقال لهم ما تعنون بالجذب ، أجذب أهل الولاية ، ام جذب من سلب العقل والدراية ، اما الاول ، فهو مقام عال ، ومرتبة رفيعة ، ويتحاشى صاحبها عن ترك المندوبات ، فضلا عن الواجبات ، والوقـــوع فى المحرمات ، وكيف لا وقد جذبته من اوصاف النفس يد العنـاية ، وطهرته من ادناسها ، وأبعدته من ايناسها ، واحساسها الخ ••

الى ان يقـــول ،

واما الثانى وهو سلب العقل والدراية ، فلا يصح فى عقل عاقل ان يدعى الولاية فيمن سلب عقله وصار مثل البهيمة ، لا يعرف معروفا ، ولا ينكر منكرا ، وقد قـــال تعالى فيمن سلب التوفيق ، وحاد عن سواء الطريق ، « **ان هم الا كالانعام بل هم اضل سبيلا** » ، وقد علم ان العقل جعله الله تعالى مناطا للتكليف ، وانه لا يسكنهالا من احب، وقد امتن به على الانسان فكيف يكون اهل صفوته ، ووده مسلوبا منه فانظر الىسخافة عقول هؤلاء ، وقلة تمييزهم فى نسبتهم ، متى كان من هم كالانعام او اضل وكالحشائش اولياء مقربون • وقد أخبر الله تعالى « **ان شر الدواب عند الله الصـم البـكم الذين لا يعقلون** » • فهل ترى من اخبر الله عنهم بصفة الشر ، ان يكونوا أهل الحضـــرة

والحظوة ، وهل معتقد هذا الا جاهل غبى ، أو معاند شقى ، عافانا الله مما ابلاهم ، وعافانا مما بـه ادهـاهـم » .

والحق المؤلف بهذه الطبقات ، طبقة اخرى تفرعت من اسر دينية او منسوبة للتصوف فقال في وصفهم « ظهر منهم العتو والاستكبار ، وصار العقب عند الخاصة والعامة فى عصرنا ممن لا يلحق لهم شأو ، ولا يقاسون بقياس غيرهم ، اذا قالوا أولاد فلان ، جرى من تفضيلهم على جميع الامة : علمائها ، وصلحائها ، بل وأولاد سيد المرسلين ، فيجعلون لهم من الرفعة والافتخار ، ما لم يجعلوا معشاره لاولاد النبى المختار ، والكفر أقرب لهؤلاء من الايمان ، والطـرد أولى بهـم والخذلان ... الى أن قال فهذه فتنـة ومصيبة لا أعرفها الا فى هذه البلدة الظالم أهلها » الخ ..

والحاصل ان هذا التأليف اى « منشور الهداية فى كشف حـال من ادعى العلـم والولاية » من **التآليف** التى تعد بالاصابع فى المكتبة العربيـة عمـوما ، وفى المكتبة الجزائرية خصوصا ، فان مؤلفه تناول فيه ما يعبر عنه فى زماننا هذا ، بالحياة اليومية اذ لم يقتصر فيه على اطارات البلاد من رؤساء الدين الموظفين ، وغير الموظفين الذين ركز عليهم تأليفه ، وخصصهم بتراجم وافية بشجاعة نادرة ، بل تحدث عن أوضاع البلاد فى الفترة الحاسمة التى اعقبت انهيار الدولة الحفصية ، وتولية الاتراك الذين كـان لاسرة المؤلف فضل على تمكينهم من احتلال قسنطينة ، ومع هذا فقد احتفظ المؤلـف بالنزاهة ، حيث عمم انتقاده على ولاة الاتراك المنحرفين ، وعلى رؤساء الاقطاع ، الذين سماهم باللصوص ، وافتى بعدم عدالة العلماء الذين كانوا ينتصرون لهم ، ومن هذه الناحية اقام مؤلف منشور الهداية الدليل على بطلان ما ذهب اليه كثـير من كتابنا المعاصرين فى تعميم اتهامهم المؤرخين السابقين من أنهم كان لا يعنيهم من تاريخ البلاد الا حياة الملوك والسلاطين والرؤساء واهمالهم حياة الشعب ، فان مترجمنا كما نـرى اظهر فى تاليفه هذا نزاهة وموضوعية وحمل مسؤولية الانحراف الحاكم والمحكوم ، ولم يرسل التهم جزافا ، بل جسمها فى كل منحرف وتعرض مـن خلال تراجمه الى حالة البلاد السياسية والثقافية فذكر المعاهد العلمية والقرآنية بالبلدة ــ أى قسنطينة ــ وبقمم الجبال ، كما احصى الثورات التى اندلعت فى عهد الاتراك بتفصيل قل مـا

تعرض لها غيره ، والقى اضواء على صفحات من تاريخ تـونس ـ لا زالت مجهولة في تفاصيلها ـ خصوصا عندما استنجد ملكها الحفصى بالطاغية شارلكان على خير الدين واغتنم الملك الحفصى هذه الفرصة فانتقم من خصومه شر انتقام ، ومن هؤلاء الخصوم ، جد المترجم ، يحيى بن الفكون الذى قتل فى حلقة درسه بجامع الزيتونة ٠

كما تعرض المؤلف لترجمة عالمين جليلين من علماء تونس أوفدتهما الحكومة التونسية لابرام معاهدة صلح ، اثر الاحداث التى وقعت بين الجيش الجزائرى والجيش التونسى ، وذلك فى سنة سبع وثلاثين وألف وهذان العالمان هما أبو اسحاق ابراهيم الغريانى القيروانى ، وأبو محمد تاج العارفين العصمانى ، وفى مدة اقامتهما بقصر جابر ـ قرب عنابة ـ اجتمعا بالوفد الجزائرى الذى كان من بين أفراده العالم الجزائرى أبو العباس أحمد بن الحاجة تلميذ المترجم ، الذى حدثهما عن استاذه عبد الكريم فحملاه اجازتين لشيخه المذكور ، هما قطعتان من النـثر الفنى ، أثبتهما المؤلف ، وهذان الالتمسان زيادة على قيمتهما الادبية والتاريخية ، فيهما دلالة واضحـة على ان الوحدة الثقـافية والرابطة الاسلامية بين العلماء المسلمين ، كانت حقيقة ، فانه رغم الخلافات السياسية والظروف التى ورد فيها هذان العالمان للحدود الجزائرية حمـلا زميلهـم الجـزائرى ، الاستجازة لهما من أستاذه الفكون ، ولا أظن الوقت يكفينا لعرض نماذج من الفصل الاخير الذى ختم به المترجم تاليفه ، وعنونه بقوله « خاتمة الكتاب فى ذكر من أردنا ذكره من الاصحاب والاحباب » وقد خصها لمعاصريه المستقيمى الاحوال ، سواء كانوا من الموظفين أو رؤساء الدين ، وهى تراجم مفيدة جدا ، ومن بين مترجميه فيها أحمد المقرى التلمسانى ولمكانة أحمد المقرى فى تاريخ الادب العربى ، الذى لا زالت جوانب من ترجمة حياته مجهولة ، نقتصر على ذكرها ونختم بهذه الترجمة دراستنا ، أسـوة بالمؤلف الذى ختم كتابه بترجمته ٠ اذ المقرى شخصية كادت ان تكون عالمية ، اهتم به وبآثاره كثير من الباحثين ، مسلمين وأجانب ، ولا زال محل اهتمام الكثير من الكتاب والمؤرخين ، مسلمين وأجانب ، ورغم ذلك لا زالت جوانب من حياته مجهولة ، مثـل اقامته بعاصمة الجزائر ، وبمدينة تونس ، فى طريق ذهابه من المغرب الى المشرق ، ومثل الظروف التى غادر فيها البلاد الخ ٠٠ سبـق للمقرى التعرف بالمؤلف ابن الفكون ،

وتبادل معه الرسائل وترجمه فى نفح الطيب ، الا انه حدث ما كدر صفو هذه الصداقة وذلك ان المؤلف ابن الفكون سبق له ان كتب جوابا عن سؤال طرحه تلميذه أبو عبد الله محمد بن باديس ، وعند اجتماع تلميذه المذكور بأحمد المقرى فى موسم الحج اطلعه عليه ، فعلق عليه المقرى ، وبعبارة اصح قرظه ، وختم تقريظه بالاشادة والثناء على ابن الفكون وأسرته ، ومن جملة ما قال فى ذلك : « وبالجملة فهو العالم الذى ورث المجد لا عن كلالة ، وتحقق الكل ان بيته شهير الجلالة ، بيت بن الفكون هضاب العلم والوقار والسكون لا زال الخلف منهم يحيون مآثر السلف ، ودام عبد الكريم فردا فى العلم والزهد والولاية ، فهو الذى حاز فضل السبق وصار فى ذا الزمان آية ، والله يبقيه ذا سمو مخلد الفضل والدراية » ٠

فأجابه ابن الفكون بجواب على نمطه ، كما وكيف ، الا أنه تبين له ان المقرى لمزه فى تقريظه ، وعدله بعض الهنات ، ولذا انفجر ، ولم يكظم غيظه وقال فى الرد عليه : « والرجل ــ أى المقرى ــ فرح بما أوتى من فصاحة اللسان ، وصوغ الشعر ، وحفظ التصانيف والاقوال ، وجانبته زياج التوفيق فتغطى فكره عن اقتناص بنات التدقيق ، وهل طلب المولى من العلم الا العلم ، والعلم غير الحفظ ، وهو نور يقذفه الله فى قلب من يشاء ، ثم اذا انعم المولى على العبد بنعمة الحفظ ، أو فصاحة اللسان ، انما تقابل بالشكر ، الذى هو سبب المزيد ، لا بالاحتقار والاستصغار لغيره ٠

وهل ما ناله من كده أو كد أبيه أو جده ، انما الفضل والمنة لله لا لغيره ، وعلمكم ما لم تكونوا تعلمون ، وكان فضل الله عليك عظيما ، فلا يرى الموفق لنفسه فضلا ولا شغوفا على غيره ، ممن لم يصل الى درجته ، هذا هو عين الصواب وطريقة العلماء العاملين اذ لو كان عنده من الحفظ الفهم : فيما حفظ ، والمعرفة بابحاثه وتوجيهاته ، فما بالك بمن هو جامد فى ذلك كما قال فى جوابه ٠ انه من الصداء ، صوت خال من معنى ، ثم أوضح اخيلاءه ، وأظهر ما كمن فى النفس من الحسد ورفعة النفس وترفعها والحقيقة ان ابن الفكون اطلق العنان لعواطفه الدالة على حساسيته المرهفة ، وتغالى فى تحامله على المقرى الذى ــ وان ثبت ما سماه المؤلف لمزا أو مسا بكرامته ــ فلا يبرر له

ذلك ما كاله له من التهم ، كالتخلص من المسؤولية ، وان نظرياته سطحية وانه معجب بنفسه حسود ، ثم تتبعه فى حياته الخاصة ، فاتهمه باستجداء اغنيـاء مصر وتجارها بالمدح • بعد وصوله اليها ، ولا أظن ان المقرى لقى فى طريقه من انتقده بمثل هذا النقد اللاذع وطعن فى عرضه بمثل هذه القساوة كابن الفكون اللهـم الا اذا كانت بينهما خلافات أخرى لا زلنا لم نطلع عليها ، وعلى كل حال ، فعلاوة على هذه النواحى السلبية فى الترجمة ، فان المؤلف استوعب فيها جوانب هامة مجهولة تماما من مترجميه القدامى والمتـأخـريـن •

والخلاصة ان هذا التاليف نفيس جدا حيث لم يقتصر فيه صاحبه على تجسيم المنكر والانحراف حد طبقات معينة كما هو مألوف فى كثير من التآليف الخاصة بمثل هذه التراجم ، بل سلط اضواء النقد والتحليل على الاطارات الذين كانوا يتمتعون بالنفوذ والتصرف ، المستمد من ولاة البلاد ومن الحكام بأمرهم رؤساء الاقطاع ، كما تسلط على طبقة تغالت فى الحضارة والرفاهية والترف ، فجعلتها مقاييس للنبالة والفخر ، كان رؤساء الاقطاع هم المتصرفون فى البلاد ، اذا كانت الدولة التركية فى أول عهدها تستمد من الكثير منهم نفوذها ، فجابههم المؤلف ، وصار يطلق عليهم القاب اللصوص ، وكان صارما على العلماء الذين يستمدون نفوذهم منهم أو يقبلون عطاياهم وجوائزهم ، ثم لم يكتف المؤلف بالتنفير منهم بل الحقهم بمترجميه ، فتعرض لتراجمهم ، وللطرق التى سلكوها للوصول الى رياسة قبائلهم ، وأخيرا ان المؤلف كما ذكرنا كان نزيها حيث أنه كان مدينا لولاة الاتراك الذين ولوه مشيخة الاسلام ومشيخة البلد التى توارثها أفراد أسرته طيلة حكم العهد التركى بالبلد ، ومع هذا فلم نر فى كتابه جملة واحدة أشاد فيها بحاكم من حكام الاتراك ، بل بالعكس من ذلك فقد كان كثيرا ما يجره سياق الحديث عن مثالب مترجميه فيتهمهم بالتزلف والتملق والرشاء للقضاة والولاة الاتراك الذين كان يلقبهم بالاعاجم • هذا كله علاوة على ما تخلل تراجمه ، من الحديث عـن وضعية البلاد بتدقيق وتفصيل لا زلنا لم نطلع على مثلها فى كتب تاريخ هذه الفترة كالتمردات والثورات والخلافات التى كانت بين علماء قسنطينة والملوك الحفصيين بتونس مما ادى الى هجرة الكثيرين منهم ، ومن بين هؤلاء المهاجرين جد المؤلف يحيى بن الفكون الذى

استشهد فى حلقة درسه بجامع الزيتونة كما تقـدم لنا ذلك ، كمـا تعرض المـؤلف للاتصال الذى كان بين علماء قسنطينة وعلماء تونس لا فى المجال الثقافى فحسب بل فى المصـــاهـــرة ٠

وفى الختـــام ألفـت انتبـاه بعض الاخـوة ان الاهتمـام باحيـاء مجـد الاسلاف واستعراض مآثرهم هو من أوكد الواجبات على جيلنا ، وذلك ليتصور الجيل الصاعد تاريخ بـلاده على حقيقتها ، وعلى ذكـر احيـاء ، التراث والاهتمام به فان احـد كبار المستشرقين فى العصر الحاضر ألقى فى السنة الماضية سلسلة بحوث بجامعة باريس موضوعها نوازل الفقيه ابن عظوم القيروانى ، ومن بين هذه النوازل الفقهية رده على بعض فقهاء قسنطينة ، الذين كان من بينهم يحيى ابن الفكون جد المؤلف ، وفى صيف السنة الماضية انعقد مؤتمر لدراسة بحوث الحضارات لغربى البحر الابيض المتوسط بجزيرة مالطة وكان الباحثون يربو عددهم على الخمسين ، تناولوا بالبحث الحضارات المتعاقبة على حوض البحر الابيض المتوسط كالحضارة اليونانية والفنيقية والرومانية فصوروها بجزئياتها ٠ لم يغادروا فيها صغيرة ولا كبيرة ، ولم يعتمدوا فى بحوثهم على آثار كتابية اذ معظمها مفقود ، وانما هم يتتبعون ما يعثرون عليه من آثار مادية كالكتابة على شواهد القبـور والنصب التذكارية وآثار البناءات والادوات المنزلية والاضرحة وما الى ذلك فمن العار علينا ان نترك تراثنا الكتابى يضيع ٠



المفتي الجزائري ـ المصري ابن العنابي وكتابه السّعي المحمود في نظام الجنود

د. أبو القاسم سعد الله

كتاب « السعى المحمود فى نظام الجنود » لمفتى الجزائر ومصر ، محمد بن محمود الجزائرى المشهور بابن العنابى ، يعتبر من أوائل الكتب العربية التى عالجت موضوع التجديد فى النظم الاسلامية أو تقليد المسلمين للاوروبيين فى مبتكراتهم الحديثة • حقا أن هذا الكتاب يتناول خاصة طريقة الاخذ بنظام الجيوش الاروبية ، ولكنه يحتوى كذلك على لمسات جديرة بالدراسة حول قضية التقليد والابتكار. وقد ناقش المؤلف كل ذلك فى ضوء الشريعة الاسلامية من جهة وفى ضوء حاجة المجتمع الاسلامى الى التطور من جهة اخرى • فاذا عرفنا ان المؤلف كان مفتى الاحناف (شيخ الاسلام) ، وان زمن تاليف الكتاب 1242 (1826 م) يشكل منعرجا خطيرا فى لقاء الحضارتين الاسلامية والاروبية ، أدركنا ما للكتاب من قيمة

* كتب هذا البحث مساهمة فى الكتاب التذكارى الذى اعده فى مصر طلاب وأصدقاء الدكتور أحمد عزت عبد الكريم على شرفه •

تاريخية وحضارية ، وما لآراء صاحبه من أهمية . ولهذه الاسباب عزمنا على كتابة هذه العجالة عنه وعن مؤلفه .

أولا ـ **حياة ابن العنابى** : ورغم شهرة ابن العنابى كمفتى ومؤلف وصاحب موقف سياسى فان تاريخ ميلاده غير معروف بالضبط . ولكننا اذا عرفنا ان المصادر تجمع على أن تاريخ وفاته هو 1267 (1851 م) (1) وانه قد عاش حتى تجاوز السبعين سنة عرفنا أنه من مواليد الربع الاخير من القرن الثامن عشر الميلادى (2) وهذه الفترة التى عاشها ابن العنابى تعد من أحرج الفترات التاريخية لا فى الجزائر فحسب ولكن فى الدولة العثمانية والعالم الاسلامى قاطبة . فقد عاصر الثورة الفرنسية وما نتج عنها من أحداث مست جوانب متعددة من الحضارة الاسلامية ، وعاصر فى بلاده (الجزائر) حروبا خارجية ضد الانكليز والامريكان والفرنسيين والاسبان والتونسيين وغيرهم ، وحروبا داخلية كثورة الطريقة الدرقاوية وثورة ابن الاحرش ، والتنازع على السلطة بين الطائفة التركية نفسها سواء على مستوى السلطة المركزية فى مدينة الجزائر أو على مستوى الاقاليم . وكان ضحية كل هذه الحروب (الخارجية والداخلية) هو الرجل العادى من الفلاحين وأصحاب الحرف والتجار ، لانه هو الدافع للضرائب وهو وقود الفتن .

وبالاضافة الى ذلك عاصر ابن العنابى ، الذى تولى عدة وظائف رسمية كما سنرى ، بداية عهد التنظيمات فى الدولة العثمانية من جهة وأخذ محمد على والى مصر عندئذ بمبادىء التمدن الغربية من جهة أخرى . وسنرى ان هذه التنظيمات والمبادىء هى التى دفعته الى كتابة كتابه الذى نحن بصدد التعريف به . اما فى الجزائر حيث كان يعمل فاننا لا نجد هذه الظاهرة قد وجدت لها مكانا . حقا ان الانكشارية قد تدهورت كنظام

(1) على ذلك بروكلمان ، ملحق 2 ، ص 739 ، والاعلام للزركلى ، 7 ، ص 113 . وكلاهما لا يذكر له تاريخ ميلاد . وشذ محمد بن عبد الكريم فذكر ان ابن العنابى تولى الافتاء فى الاسكندرية سنة 1267 (1851) وتوفى بها سنة 1269 (1853) ـ أنظر حمدان بن عثمان خوجة ومذكراته ، بيروت 1972 ، ص 161 ، هامش 2 .

(2) ليس هناك من أشار الى تاريخ ميلاد ابن العنابى ، ولكن مشاركته المبكرة فى الحياة السياسية (ابتداء من 1805) ووصف تلاميذه له بأوصاف تدل على الشيخوخة تجعلنا نرجح ان يكون تاريخ ميلاده حوالى 1775 م .

واصبحت عاملا سلبيا فى الحيـــاة السياسية والاقتصادية ، بل اصبحت مثار فتنـــة واضطراب فى البلاد ، ولعل ذلك هو ما جعل الـــداى على خوجة يحاول التخلص منهم سنة 1817 (3) بطريقة سبق بها السلطان محمود الثانى معهم · ولكن على خوجة قـد مات بالوباء (4) وفشل فيما رامه وعاد بعده الانكشارية الى صولتهم · ولعل ذلك هو ما ساعد على احتلال فرنسا للجزائر بعد حوالى عشر سنوات من وفاته ·

وقد ولد ابن العنابى على ما يظهر فى مدينة الجزائر فى التاريخ المشار اليه · واسمه الكامـل هـو محمد بن محمود بن محمد بن حسين الجزائرى (5) ، وشهرته العنابى أو ابن العنابى (6) · وكان على مذهب الحنفية · واسرته تركية قديمة فى تاريخ الجزائر (7) ولكنها ظهرت فيما يبدو بعد مجىء العثمانيين · فنحن نجـد اسم جده الثانى (حسين بن محمد بن العنابى) فى قائمة المفتيين الاحناف فى الجـــزائر سنة 1148 (1735) · والمفتى الحنفى فى الجزائر العثمانية هو « شيخ الاسلام » الذى لا يفوقه فى المنزلة والاعتبار سوى « الداى » أو رئيس الدولة · وكان حسين بن العنابى ، فيما يبدو عالما واســـع

(3) انظر الطريقة التى استعملها لضربهم فى (مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار) تحقيق ونشر أحمد توفيق المدنى ، الجزائر ، 1974 ، ص 132 ـ 134 ·

(4) عن هذا الوباء انظر نفس المصدر ، ص 141 ، 151 · وقد مات منه خلق كثير ، ودام حوالى سبع سنوات · وتوقف بسببه اداء فريضة الحج فترة ·

(5) لا ندرى كيف ولا متى لصقت به هذه النسبة · والظاهر انها نسبة لاحـد اجداده الذين قدموا من آسيا الصغرى الى الجزائر فى العهد العثمانى ، ولعل جده حسين هو الـذى أخذ النسبة أولا لان المؤلف يتوقف عنده · وقد كنا نرجح أن المؤلف أخذ هذه النسبة بعد خروجه من الجزائر لولا وجودها فى اسمه فى نص قديم يعود الى سنـــة 1811 (1226هـ) عندما كان فى الجزائر ·

(6) الذى كان يكتبه بنفسه هو (ابن العنابى) ، ولكن بعض المؤلفين، ومنهم بروكلمان، يكتفون (بالعنابى) فقط · والراجح انها ليست نسبة الى عنابة (مدينة بالجزائر) ولكنها شهرته ، وهو قد استعملها كذلك فى جوابه على مسألة التوحيد الذى يعود الى سنـة 1811 فقال بعد ذكر اســـه « المدعو بابن العنابى » · ويستعمل بعض المؤلفين عبـارة « الشهير بابن العنـــابى » · وقد استعـمل الزهـــار ، المعـــاصر له ، مـــرة ابن العنابى ومـرة العنـــابى فقـــط · أمـــا خـــوجة ، المعـــاصر لــه أيضا ، فقـد استعمـــل العنابى ، بخلاف ديرينو الذى استعمل ابن العنابى ، وهكذا · وهى فى الواقع شهرة جده الاعلى أيضا ، حسين بن محمد بن العنابى ·

(7) رسالة الشيخ المهدى البوعبدلى الى المؤلف بتاريخ 27 مايو 1975 ·

40

المعرفة بعلوم الشريعة ، وله تفسير للقرآن الكريم ينقل عنه حفيده ، موضوع هـذا البحث ، في كتابه « السعي المحمود » عدة مرات ، ويشير اليه بهذه العبارة « قال مولانا الجد الاكبر حسين بن محمد رحمه الله في تفسيره » (8) • واشتهر عالم آخر من هـذه العائلة وهـو مصطفى بن رمضان العنـابي (9) المتوفى سنة 1130 وهو عـم حسـين المذكور • أما جد المؤلف الادنى (محمد بن حسين) فقد أصبح قاضي الحنفية بالجزائـر وتوفي سنة 1203 بمصر • ورغم أن والده (محمود بن محمد) لم يتقلد ، حسبما نعلم ، منصب الافتاء أو القضاء (اذ لا نجده ضمن قائمة هؤلاء أو أولئك) فانه كان يعتبر من علما العصر • وقد توفي هو أيضا بمصر (دفن عند ساحل السويس) عند منصرفه من الحج سنة 1236 (10) • وهكذا نجد أن مؤلف (السعي المحمود) ينتمي الى أسرة جزائرية عريقة في العلم والوظائف الرسمية والفقه الحنفي •

وتثقف ابن العنابي ثقافة واسعة بمفهوم عصره • ونحن نقول « بمفهوم عصره » لنمهد الى القول بأن ثقافته تقليدية اذا ما حكمنا عليها من خلال كتابه المذكور ومن خلال ثبته المعروف (بثبت الجزائري (11) فهو حافظ وناقل اكثر منه مفكرا ومجتهدا • ومهما يكن الامر فقد تلقى العلم في وطنه على جده وعلى والده كما تلقاه عـلى المفـتي المالـكي

(8) فصول 6 ، 7 ، 8 •

(9) قرأ عليه أحمد بن مصطفى برناز التونسي اثناء زيارته لمدينة الجزائر • انظـر (بشائر أهل الايمان في فتوحات آل عثمان) لحسين خوجة ، مخطوط المكتبة الوطنيـة الجزائرية • وكذلك رسالة الشيخ البوعبدلي الى المؤلف • وقد اطلع البوعبدلي عـلى بعض تآليفه في طرابلس الغرب • وفي زيارة قمت بها لمدينة البرواقية بالجـزائر سجلت في مذكرتي انني رأيت مخطوطا باحدى المكتبات هناك فيه اسانيد مصطفى العنابي وبعض الاسماء الاخرى من اسرته • ولكنني لم اعد الى هذه المكتبة ولم اسجل بالضبط ما رأيته في المخطـوط •

(10) ذكر المؤلف هؤلاء وتواريخ وفاتهم في اجازته لبعض تلاميذه ، ومنهم ابراهيم السقا وعبد القادر الرافعي • وتعرف اجازته للاول (بثبت الجزائري) • وكلاهما مخطوط عندي • اما اجازته للاول فقد نسختها من نسخة المرحوم نعيم النعيمي الجزائري في داره بقسنطينة 12 ابريل ، سنة 1971 ، واما اجازته للثاني فقد سلمني منها نسخة الاستـاذ محمد بن عبد الكريم مشكورا •

(11) الاعلام ، 7 ، ص 311 • ورسالة الشيخ البوعبدلي الى المؤلف •

على بن عبد القادر بن الامين (12) · وهؤلاء هم الذين ذكرهم فى (ثبته) وهو يشير الى روايته الحديث وغيره · فقد قال انه قرأ بعض صحيح البخارى على جده (يعنى جده الادنى) وأجازه ببقيته وبكتب الحديث الستة الاخرى ـ أما عن والده فقد قرأ الفقه الحنفى وغيره من العلوم · وهو يروى البخارى « باعلى سند يوجد فى الدنيا » عن شيخه على بن عبد القادر المفتى المالكى المذكور · ويسميه تارة « شيخى أبى الحسن » وتارة « شيخنا ابن الامين » ، واحيانا يقول « صاحبت شيخنا » · ولكننا اذا تأملنا فى مصادر (السعى المحمود) وجدنا ان ابن العنابى كان عميق الثقافة ، سواء منها تلك التى تمت بصلة الى علوم الدين أو علوم الدنيا · اما فى (الثبت) فهو يتحدث فقط عن روايته لمسلسلات الحديث الشريف وهى المعروفة « بالسند » ·

وقد كان فى مدينة الجزائر علماء معاصرون له ، نذكر منهم المفتى الشاعر محمد بن الشاهد (13) ، والمفتى مصطفى بن الكبابطى (14) ، والعالم محمد بن مالك (15) ، والكاتب السياسى حمدان خوجة (16) ·

ولعل الذى رشح ابن العنابى للوظائف الرسمية فى الدولة هو مكانة أسرته ومنزلته العلية · وقد عرفنا ان أسرته كانت ذات حظوة لدى دايات الجزائر منذ أوائل القرن الثانى عشر للهجرة (الثامن عشر الميلادى) · اما المنزلة العلمية فالظاهر ان ابن العنابى كان متمكنا فى العلوم الشرعية خاصة ، واقدم نص وجدناه له يدل على ذلك · فقد عثرنا له على جواب أجاب به على مسألة فى التوحيد بدأه هكذا «ورد على سؤال نصه بعد

(12) توفى عن ثمانين سنة عام 1236 (1820) · انظر (ثبت الجزائرى) ·

(13) توفى حوالى سنة 1792 وكان بالاضافة الى الشعر ينظم الموشحات ويلحنها ، ولا سيما فى المولد النبوى وقد تولى الافتاء عدة مرات ·

(14) تولى الافتاء زمن الفرنسيين ثم نفوه لمعارضته ضم الاوقاف الاسلامية الى املاك الدولة الفرنسية ، وقد استوطن الاسكندرية ، ولعله تولى فيها الافتاء ، وكان شاعرا رقيقا أيضا ، وله شعر فى الحنين الى الوطن · وهو دفين الاسكندرية ·

(15) مذكرات ، ص 81 ـ 82 ، 91 · وكان ابن مالك مدرسا وقاضيا للمالكية وله تدخل فى الامور السياسية ·

(16) له عدة مؤلفات سنذكر بعضها · وقد تزعم حركة معارضة ضد الفرنسيين فنفوه ، وبعد اقامة قصيرة فى باريس استوطن اسطانبول وتولى بها بعض الوظائف وبها توفى حوالى 1845 ·

عنوانه ، اذا قيل حيث كان أهل الحق مطبقين على ان الحق تعالى يرى فى الاخرة بالابصار ... فاقول اعلم أولا ان المدركات تنقسم الى ما يدخل فى الخيـــال كالصور المتخيلـــة والاجسام المتلونة المتشكلة والى ما لا يدخل فى الخيال كالذات العلية ، وكـــل ما ليس بجسم كالعلم والقدرة والارادة ... » وعندما وصل فى هذه المسألة الى الفصل بين رأى المعتزلة وأهل السنة اختار ابن العنابى رأى أهل السنة قائلا عن رأى المعتزلة « ونحـن لا نقول به لضيق مجاله فنسلمه لاربابه ، سالكـين مسلك الجمهور من أهـل السنـة لوضوح أدلتهم ... » (17) . ويتضح من هذا النص القصير منطـــق ابن العنابى فى معالجة هذه القضية الشائكة وترجيحه لرأى الجمهور المعروفين بتفضيل النقل عند تعارض الادلـة . فاذا عرفنا ان تـاريخ هذا النص يعود الى سنة 1226 (1811) عرفنا منـزلة ابن العنابى المبكرة لدى علماء عصره ، وهى المنزلة التى جلبت اليه انتباه حكـام عصره أيضـــا .

والوظائف الرسمية التى تولاها ابن العنابى فى الجزائر متنوعة . والظاهر ان أول من ولى ابن العنابى وظيفة القضاء الحنفى هو الـــداى أحمـــد بـاشـا (1220 = 1805 (1223 _ 1808) . ذلك أن النص الذى بين ايدينا ينسب الى ابن العنابى عندئذ مهمتين كبيرتين الاولى وظيفة القضاء والثانية الكتابة الى باى تونس . فقد جاء فى مذكرات احمد الزهار ان الباشا قد أمر « الفقيه محمد بن العنابى ، قاضى الحنفية ، ان يكتب كتابا الى حمودة باشا (باى تونس) . فكتب الكتاب وبعثوا به » . ووعد الزهار ان يذكر نص الكتاب فى مبيضته ، ولكنه لم يفعل لانه لم يبيض عمله . وعلى كل حال فقد اشار اليه بانه يقع فى « ورقة صغيرة » (18) . ولو ذكره لعرفنا منه فحوى الكتاب واسلـــوب كاتبه . ومهما يكن الامر فان هذا الخبر يشير الى منزلة ابن العنابى لدى الـداى ، ولولا

---

(17) يقع النص فى ورقتين ضمن مجموع ص 55 _ 58 . الخزانة العامة المغربيـــة ، ك 1089 . والخط ليس خط المؤلف لان نهاية النص هكذا : « انتهى ما نقل من خط المؤلف » . وقد وقع اسمه هكذا : « قال هذا وكتبه بيده الفانية محمد بن محمود بن محمد بن حسين الجزائرى المدعو بابن العنابى اصلح الله حاله ... بتاريخ ذى القعدة سنة 1226 » .

(18) مذكرات ، ص 97 .

ذلك لاستكتب الداى كتابه الرسميين (أو الحوجات) لنفس الغرض . اذ المعـروف أن قاضى الحنفية (أو القاضى عامة) لا يقوم بهذه المهمة ٠

ويختفى اسم ابن العنابى فترة من الوظائف الرسمية ، فلا يظهر من جديد الا فى عهد الداى عمر باشا (1230 ـ 1814) (1232 ـ 1816) ٠ فقد وجد اسمه عندئذ هكذا « محمد بن محمود » ضمن قائمة وزراء وأعيان الباشا المذكور ، متقلدا وظيفة « نقيـب اشراف مكة والمدينة » واضعا اما ذلك ختمه الذى يحمل تاريخه (19) ٠

وكما كلف الداى أحمد باشا ابن العنابى بالكتابة لباى تونس كلفه الداى عمر باشا بسفارة للمغرب الاقصى لدىالسلطان المولى سليمان٠ذلك أن الجزائر قد تعرضت الى قصف الاسطول الانكليزى سنة 1816 (20) ٠ وقد ادى ذلك الى هلاك معظم الاسطول الجزائرى فأرسل الباشا سفراء عنه الى السلطان محمود الثانى والسلطان سليمان ويوسف باشا باى طرابلس يستعينهم على اعادة بناء الاسطول بنجدته بالسفن والاموال ٠ والذى يهمنا من هذه الحادثة هو ان الباشا كتب الى السلطان سليمان كتابا بعث به مع « السيد الحاج محمد العنابى ، قاضى السادة الحنفية رسولا » ٠ وقد ذهب ابن العنـــابى شخصيـا الى المغرب وسلم مكتوب الباشا الى السلطان ، « وبعد ان استراح التقى مع السلطان فأحسن اليه » ، وجهزه ببعض المراكب « واعطاه اموالا وأمره بتسليمها للمجاهدين » ٠ وعـــاد

---

(19) عبد الجليل التميمى (بحوث ووثائق فى التاريخ المغربى) تونس ، 1972 ، ص 255 ولم يستطع التميمى قراءة تاريخ الختم ، ونرجح ان يكون سنة 1232 لوجوده فى مكان آخر كذلك ٠ ويذكر أحمد توفيق المدنى فى (مذكرات) الزهار ص 128 ان ابن العنابى قد تولى القضاء الحنفى لنفس الباشا ، وكان آخر قضاته قبل وفاته ٠ اما التميمى فيذكر ص 255 ان القاضى الحنفى كان يدعى سليمان بن محمد وأن المفتى الحنفى كان يدعى محمد بن أحمد ٠ ولعل قصر مدة التولية لهؤلاء هى التى سببت هذا الغموض ٠

(20) هى حملة اللورد اكسموث الشهيرة ، وقد فصلها قنصل بريطانيا فى الجـــزائر الضابط بليفير فى كتابه (جلادة المسيحية) ، لندن ، 1884 ، ص 250 ـ 280 ٠ انظر كذلك عبد الجليل التميمى « وثائق تركية غير منشورة عن ضرب مدينة الجزائر » سنة 1816 فى (مجلة الغرب الاسلامى والبحر الابيض) ، رقم 5 ، سنة 1968 ص 111 ـ 133 ٠

ابن العنابى بذلك الى الجزائر ، فكانت سفارته ناجحة ، على الاقل اذا حكمنا من نتائجها • (21)

وهكذا يتضح ان ابن العنابى لم يكن مجرد عالم بالفقه وما اليه من العلوم الشرعية بل كان أيضا دبلوماسيا ناجحا وخبيرا بشؤون الدول • ولعل سفارته الى المغرب لم تكن أول خروج له من الجزائر فقد استعملت عبارة (الحاج) مع اسمه قبل ذلك • ومعنى هذا انه قد يكون حجخلال سنوات 1808 ـ 1815 • والحج عندئذ ليس مجرد اداء للفريضة ، ولكنه تعلم وتعليم ، وسياحة واطلاع ، ومشاركة فى كثير من جوانب الحياة السياسية والاقتصادية • فماذا كان نصيب ابن العنابى من كل ذلك خلال حجه ؟ ذلك ما سيظهر عندما نعالج محتوى كتابه •

اما الآن فحسبنا ان نتتبع نشاطه فى الجزائر الى سنة 1830 وهو تاريخ احتلال فرنسا للجزائر وتاريخ فصل جديد من حياة المؤلف • ذلك ان وثائق سنوات 1817 ـ 1819 تتحدث عنه كقاضى الاحناف فى الجزائر زمن الداى على خوجة (1232 ـ 1817) والداى حسين باشا (1233 ـ 1818) • فقد جاء فى احدى الوثائق ان ابن العنابى ، قاضى الحنفية ، قد وضع ختمه بتاريخ 1232 (1817) ضمن قائمة وزراء وموظفى الداى على خوجة فى رسالة بعث بها الداى الى السلطان محمود الثانى (22) • وورد فى وثيقة أخرى ان أول قاضى حنفى لدى الداى حسين باشا هو محمد بن محمود العنابى (23) • فاذا عرفنا ان هذا الداى قد تولى سنة 1233 (1818) وانه قد ولى قاضيا حنفيا جديدا سنة 1235 (1820) (24) عرفنا ان ابن العنابى قد يكون توجه الى المشرق خلال سنوات 1235 ـ 1244 والمهم هو ان هذه الفترة من حياته غامضة • ذلك اننا سنعرف ان كتابه (السعى المحمود)

(21) مذكرات ، ص 127 • ويذكر هذا الكاتب ان عهد عمر باشا كان نكبة على البلاد ، فقد حل بها الجراد والوباء وغلاء المعيشة ، وحملة الانكليز ، وموت القبطان (الريس) حميد وفى معركة ضد الاسطول الامريكى ، بالاضافة الى ان هذا الباشا كان سفاكا للدماء •

(22) التميمى ، بحوث ، ص 260 •

(23) مذكرات ، ص 182 •

(24) جواخيم قونزاليز (مشاهير مسلمى مدينة الجزائر) الجزائر ، 1886 ، ص 57 • انظر كذلك نور الدين عبد القادر ، (صفحات من تاريخ مدينة الجزائر) ، الجزائر 1964 ، ص 187 ـ 188 •

مكتوب سنة 1242 (1826) وان اسمه يذكر عندئذ مقرونا بعبارة « نزيل مصر القاهرة » فهل كان مغضوبا عليه سياسيا ؟ أو هل ذهب الى الحج مرة ثانية واطال الاقامة بالمشرق، وخاصة بمصر التى دفن فيها كل من والده وجده ؟ أو هل ذهب فى مهمة لدى محمد على فى عهد حسين باشا كما ذهب فى مهمة لدى سلطان المغرب ؟ أو هل اخذته قدماه الى الآستانة فى مهمة لدى السلطان محمود الثانى الذى سنجده يتحدث عن مآثره ومآثر اجداده فى كتابه ؟ كل هذه اسئلة يمكن طرحها فى هذا المجال ما دام الغموض يكتنف هذه الفترة من حياته . وسيظل الجواب على هذه الاسئلة مرهونا باكتشاف ما تضمره الايام عنه .

وعلى كل حال فان ابن العنابى لم يكتب سنة 1242 كتابه (السعى المحمود) فقط ، بل نجده يقيم فى مصر ويختلف الى الجامع الازهر ، ويأتيه العلماء للدرس « وروما للثواب » ويقوم هو باجازة المستجيزين واجابة الداعين . فقد كتب (السعى المحمود) فى شهر رجب من السنة المذكورة واجاز الشيخ ابراهيم السقافى شهر شعبان ، كما اجاز الشيخ عبد القادر الرافعى فى رمضان من نفس السنة . ومعنى هذا ان ابن العنابى قد تصدر لتدريس الحديث والفقه فى الازهر والتف حوله تلاميذ وعلماء .

ومما جاء فى اجازته لتلميذه ابراهيم السقا ما يلى : « وقد قرأ على الشيخ الامام الفاضل ابن الحسن ابراهيم بن على بن حسن المعروف بالسقا ... جل صحيح البخارى الى باب الاحتباء من كتاب اللباس . وسمع ذلك الشيخ الامام ابو العباس أحمد بن يوسف القنواتى (؟) امام الجامع الازهر والشيخ الامام ابو زيد عبد الرحمن بن عثمان الدمياطى الغمراوى الشافعى ... (25) وابراهيم بن حسن الكردى الشافعى ... » وختمها بقوله « قال هذا وكتبه الفقير اليه سبحانه محمد بن محمود بن محمد بن حسين الجزائرى الحنفى الشهير ببلده بابن العنابى ... بتاريخ خامس شعبان سنة 1242 » .

(25) بين الاسمين يوجد بياض فى الاصل المنقول عنه .

اما الاجازة الثانية فهى اجازته للشيخ عبد القادر الرافعى • وهى كالسابقة باستثناء بعض التفاصيل وقد قرأ عليه هذا اوائل كتب الحديث وغيرها واجازه اجازة عامة• ووضع بأسفل الاجازة خاتمه وهو « منتظر لطف الودود عبده محمد بن محمود 1232 » (26) •

ولاشك ان لابن العنابى تلاميذ آخرين أجازهم ، أو قرأوا عليه • وسنعرف ان كتابه (السعى المحمود) كان نفسه عبارة عن جواب لاحد السائلين ممن جمعته معه حلقة درس أو جلسة سمر •

ولكننا نجد اسم ابن العنابى فى الجزائر من جديد بعد سنة 1244 (1829) • فبعد تولية الشيخ أحمد بن ابراهيم ، المذكور سابقا ، يأتى المفتون : محمد بن عبد الرحمن (بدون تاريخ) وأحمد بن عمر بن مصطفى (سنة 1244 ـ 1829) ومحمد بن محمود (بدون كلمة العنابى وبدون تحديد تاريخ) ، ويرد بعده اسم مصطفى أفندى (27) (بدون تاريخ أيضا) ثم محمد بن شعبان (سنة 1251 ـ 1835) (28) • فمتى عاد ابن العنابى الى الجزائر ؟ وكيف تولى الافتاء من جديد ؟ وهل تولاه فعلا ؟ أسئلة أخرى ليس من السهل الاجابة عليها الآن لعدم توفر المادة • ومما يزيد الامر تعقيدا ان المؤرخين يذكرون بعض الحوادث التى جرت فى الاسابيع الاولى للاحتلال وورد خلالها اسم ابن العنابى •

وليس من المؤكد الآن ان المفتى الحنفى وقت دخول الفرنسيين للجزائر كان هو ابن العنابى • فقد عرفنا اسماء عدد من المفتيين تولوا فى الفترة القصيرة من 1244 (1828) الى 1251 (1835) من بينهم ابن العنابى، مع اغفال تواريخ تعيين بعضهم • وهذا الغموض فى تلك الفترة الدقيقة لا يساعد على فهم الحوادث التى سيرد فيها اسم ابن العنابى •

---

(26) هذا يدل على انه شخصيا كان يختصر اسمه ويكتفى بمحمد بن محمود • كما ان التاريخ المذكور قد يكون هو الذى لم يستطع التميمى قراءته فى وثيقة أخرى •

(27) حسب احمد توفيق المدنى انه هو مصطفى بن الكبابطى « الذى وقعت الكارثة (الاحتلال) فى عهده » . ولكن المعروف ان هذا كان مفتى المالكية وانه هو الذى نفاه الفرنسيون سنة 1843 ، وليس وقت الاحتلال • انظر (مذكرات) ، ص 183 •

(28) انظر نور الدين ، ص 187 ـ 188 ، وقونزاليز ، ص 57 ، وكذلك (بمذكرات) ، ص 182 •

ومن هذا الغموض أيضا ان وظيفة المفتى الحنفى قد تعرضت الى تقلبات خلال السنة الاولى من الاحتلال مع عدم ذكر اسم المفتى المعنى بالامر • فقد جاء فى اخبار الحملة الفرنسية على الجزائر ان الداى حسين باشا قد عزل ، فى آخر لحظـــة قبل دخول الفرنسيين ، المفتى الحنفى « التركى » وعين بدله مفتيا عربيا من أهل البلاد آملا ان يكون ذلـــك سببا فى التفاف الجزائريين حوله فى مقاومته للجيش الفرنسى • فمن هو المفتى المعزول ؟ ومن هو المفتى الجديد ؟ هذه نقطة تظل بدون جواب أيضا • كذلك تتحدث الاخبار عن ان الباشا قد استدعى ، بعد هزيمة جيشه فى فى واقعة سطاولى ، « المفتى الحنفى ، شيخ الاسلام » وسلمه سيفا وطلب منه ان يدعو الناس للجهاد دفاعا عن البلاد (29) • ولكن هذه الاخبار لا تذكر اسم هذا المفتى سيء الحظ الذى وضعته الاقدار فى مفترق الطرق (30) •

وفى العهد الاول للجنرال كلوزيل (31) ظهر اسم ابن العنابى من جديد • فقد كان هذا المفتى موضع شبهة السلطات الفرنسية منذ دخولها ، وكانت العلاقات متوترة بينهما، وتأزم الموقف بين الطرفين فحيكت له مؤامرة قرر أثرها كلوزيل سجن المفتى ثم نفيه خلال مدة قصيرة • ويبدأ هذا التوتر ، حسب اخبار الحملة الفرنسية على الجزائر ، حينما اجبر كلوزيل المفتى على تسليمه بعض المساجد فى المدينة لجعلها مستشفيات للجيش ، متعهدا له باستعمالها مدة شهرين فقط (32) • وكان ابن العنابى شديد النقد للسلطات الفرنسية على خرقها للاتفاق الموقع بين الداى حسين باشا والكونت دى بورمون • وكان

---

(29) حمدان خوجة ، (المرآة) ترجمة العربى الزبيرى ، الجزائر ، 1975 ، ص 198 • أنظـر بيليسييه ديرينو (الحوليات الجزائرية) ، ج 1 ، باريس ، 1854 ، ط 2 ، ص 53 • وكذلك ابو القاسم سعد الله ، (تاريخ الجزائر الحديث ، بداية الاحتلال) ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، 1970 ، ص 69 ــ 71 •

(30) يذكر خوجة أيضا ان بورمون ، قائد الحملة الفرنسية على الجزائر ، وقد وشى له بالقاضى الحنفى (ولم يذكر اسمه) فنفاه • ص 229 • فمن يكون هذا القاضى ؟ •

(31) تولى الجنرال كلوزيل قيادة الادارة الفرنسيـــة فى الجزائـــر مرتـــين الاولى (1830 ــ 1831) ، والثانية (1835 ــ 1836) • وكان شديد الحماس للاستعمار ، ولذلك شن حملة ضد الجزائريين المعارضين للاحتلال الفرنسى فنفى بعضهم الى المشرق ونفى آخرين الى فرنسا ، وشرد وسجن الباقى فى الجزائر نفسها •

(32) خوجة ، ص 250 •

يكتب بنقده ولومه الى الجنرال كلوزيل (33) • وضاق كلوزيل ذرعا بجرأة المفتى فقرر وضع حد لها • فقد القى عليه رجال الدرك القبض وقادوه الى السجن وتعرضت أسرته خلال ذلك الى المهانة (34) • وكانت التهمة التى وجهت اليه هى تدبير مؤامرة ضد الوجود الفرنسى واعادة الحكم الاسلامى (العثمانى) للجزائر • وتروى المصادر الفرنسية ان المخبرين قد وشوشوا فى أذن كلوزيل بأن المفتى الحنفى لمدينة الجزائر رجل خطير على الوجود الفرنسى وأن له تاثيرا قويا على أهل البلاد • وهذا ما ادعاه لنفسه (35) • ويعلق ديرينو على ذلك بأن المفتى لم يكن له ذلك التأثير المشار اليه • اما حمدان خوجة الجزائرى فيفصل الحادثة ، حسبما رواها له المفتى نفسه ، فيما يلى : جاء الترجمان الى منزل ابن العنابى وطرح عليه بعض الاسئلة تتعلق بمكانته فى البلاد وخططه المستقبلة • من ذلك ان الترجمان أخبره بأن كلوزيل ينوى الجلاء عن الجزائر وتسليم الحكم له ، وسأله ما اذا كانت لديه القدرة على تنظيم جيش والدفاع عن البلاد ، فأجابه المفتى بأن ذلك فى استطاعته اذا اقتضى الامر • ثم سأله الترجمان هل جيشه سيكون من داخل البلاد أو من مدينة الجزائر وحدها ، فأجاب المفتى بانه سيجيش جيشا يبلغ ثلاثين ألفا من كل البلاد • وكان الترجمان قد اخفى ، حسب هذه الرواية ، شخصين ظلا ينصتان لهذه المحادثة ، ليكونا شاهدين ضد المفتى (36) •

فكم بقى ابن العنابى فى السجن ؟ هذا ما لا نعلمه الآن • والذى نعلمه حقا هو ان كلوزيل قد أمر بنفيه فورا (37) ، ولم يمهله ، رغم انه كان صاحب اسرة واطفال وأملاك

(33) نفس المصدر ، ص 259 •

(34) يستعمل خوجة ، نفس المصدر ، عبارة « وتعرضت اسرته لجميع الاهانات بحجة انها كانت تدبر مؤامرة يا ترى ما الجناية التى يمكن اسنادها للنساء والاطفال » ؟ • وهذا برهان على انه كان للمفتى اسرة كبيرة ومتفرعة • وقد يكون بين المفتى وخوجة مصاهرة •

(35) ديرينو ، ص 155 _ 156 • وسعد الله ، ص 69 _ 71 • ويقول خوجة بأنه سأل كلوزيل عن التهمة الموجهة الى المفتى فأجابه بأنه كان يعد القبائل للثورة ضد الفرنسيين ، خوجة ، ص 259 •

(36) خوجة ، ص 260 •

(37) يؤكد المهدى البعيدلى فى رسالته الى المؤلف ان المفتى كان يباشر وظيفته عند دخول الفرنسيين وان كلوزيل قد « عزله » منها • وهذا يؤكد أهمية دور ابن العنابى فى تلك الظروف •

وديون وغيرها مما يستوجب مهلة معقولة لتصفية هذه الامور قبل مغادرة البلاد · وهذا الجانب الانساني هو الذى جعل خوجة يتدخل لدى كلوزيل لصالح المفتى ، رغم توجس هذا منه (38) · فقد رجاه ان يمهله حتى يبيع املاكه ويصفى ديونه ويسفر أسرته · ولم يحصل له خوجة على مهلة عشرين يوما الا بصعوبة كبيرة · وبعد انقضاء ذلك الاجل رحل ابن العنابى الى الاسكندرية (39) · ولا شك ان سفر المفتى كان بحرا · ورغم ان تاريخ النفى غير معروف الآن بالضبط فانه بدون شك كان فى خريفأو شتاء سنة 1830 ـ 1831 لان كلوزيل قد تولى مهمته فى الجزائر خلال سبتمبر سنة 1830 ·

وبنفى ابن العنابى من الجزائر أسدل الستار على نشاطه فيها · فقد توجه بأسرته الى مصر واقام بالاسكندرية ، وهناك ولاه محمد على وظيفة الفتوى الحنفية بهذه المدينة ، ولذلك نجد اسمه مقرونا بعد حادثة النفى بعبارة « مفتى ثغر الاسكندرية » · والملاحظ ان بعض العائلات الجزائرية الاخرى قد هاجرت أو نفيت أيضا الى الاسكندرية · من ذلك المفتى ابن الكبابطى ، والداى حسين باشا نفسه ، ومصطفى بومزراق باى التيطرى السابق ، والباى حسن ، بـاى وهران السابق الخ ··· وقد قيل أن أسرة ابن العنابى ما زالت بالاسكندرية الى اليوم وتعرف بأسرة الجزائرلى (40) ·

* * *

لم يعرف عن ابن العنابى أنه كان من المؤلفين المكثرين · فاغلب المصادر لا تذكر له سوى (السعى المحمود) الذى نحن بصدده (41) · و (ثبته) المذكور ، أو اجازته لتلميذه ابراهيم السقا. وقد عرفنا أن له اجازة أخرى مشابهة لتلميذه عبد القادر الرافعى. وعثرنا له على رسالة فى مسالة توحيد كنا قد أشرنا اليها أيضا · والظاهر انه ما كان مقلا فى التاليف كان مكثرا فى الفتاوى · وقد اشتهر بذلك حتى ان بعض العلماء

(38) يقول خوجة ، ص 198 ، ان الواشين قد زعموا للمفتى بأن خوجة عميل للفرنسيين لانه زار بلادهم واعجب بحضارتهم ، واوصوه بالاحتراس منه ·

(39) خوجة ، ص 261 ، ورسالة البوعبدلى ، وابن عبد الكريم ، ص 161 ·

(40) رسالة البوعبدلى الى المؤلف ·

(41) سنذكر بعض النسخ الموجودة من هذا الكتاب عند الحديث عنه ·

الجزائريين ، كالمفتى حميدة العمالى ، كان ينقل فتاويه بنصها فى (كناشه) (42) • وكان ابن العنابى يوقع فتاويه ، وهو بالاسكندرية ، هكذا « مفتى السادة الحنفية بثغر الاسكندرية » • وقد عرفنا ان الدايات كانوا يستكتبونه فى المسائل السياسية أيضا • ولا شك ان بعض رسائله فى ذلك ما زالت مدفونة فى دور الوثائق (الارشيف) • ولعل له بعض الاعمال الاخرى التى لم نهتد اليها بعد • ومما يذكر أن مؤلف (الاعلام) قد عثر له على نموذج من خطه ، على (ثبت الجوهرى) فى دار الكتب المصرية (43) • ولا ندرى ماذا كتب ابن العنابى هناك ولا كمية ما كتبه •

ولكن اذا كان التاليف قليلا عند ابن العنابى فان تلاميذه كثيرون • وقد عرفنا منهم على الاقل اثنين ، (الرافعى والسقا) والاخير هو الذى اختصر كتاب شيخه لمحمد على ، كما سنرى • واذا كنا لا ندرى ان ابن العنابى قد تصدر للتدريس فى بلاده بالجامع الكبير او الجامع الجديد ، فاننا قد عرفنا أنه جلس للتدريس فى الجامع الازهر وكانت حلقة درسه موئل العلماء على اختلاف مستوياتهم • وجاء فى رسالة الشيخ المهدى البوعبدلى (44) ان ابن العنابى قد « روى عنه الكثير من اعلام المشرق والمغرب لما كان فى الاسكندرية » ، ونحن لا نشك فى ان تلاميذه بالجزائر قد يفوقون عدا تلاميذه فى المشرق لطول اقامته بها وارتفاع شأنه فيها •

وباشارة من محمد على ، والى مصر ، اختصر ابراهيم السقا (45) ، تلميذ ابن العنابى ،

(42) رسالة البوعبدلى الى المؤلف • وحميدة العمالى كان مفتى المالكية فى الجزائر مدة طويلة • انظر صورته فى (التقويم الجزائرى) للشيخ محمود كحول سنوات 1911 ـ 1913 ، ولا اذكر الآن فى أية سنة توجد صورته • وفى مراسلة راسلنى بها الشيخ المهدى البوعبدلى بتاريخ 3 ديسمبر 1971 حديث عنه وعن علاقته بالطيب ابن المختار وغيره من علماء الجزائر والمغرب • انظر عنه دراستنا « مدارس الثقافة العربية فى الجزائر خلال الاحتلال الفرنسى » فى (مجلة معهد البحوث والدراسات العربية) راجع أيضا أبو القاسم الحفناوى ، تعريف الخلف برجال السلف ، جزآن ، الجزائر ، 1906 ـ 1907 • ج 2 ، ص 526 ـ 529 • وفيه ان وفاة العمالى كانت سنة 1876 ـ 1877 •

(43) الاعلام ، II ـ الخطوط والصور ، 2 ، رقم 1279 •

(44) من رسالة الى المؤلف •

(45) توفى سنة 1298 (1881) ، انظر بروكلمان ، ملحق 2 ، ص 739 • انظر كذلك مقالة لعيسى اسكندر المعلوف عن نفائس المخطوطات بالخزانة التيمورية ، فى مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق ، م 3 (نوفمبر ـ ديسمبر ، 1923) ، ص 365 •

كتاب (السعى المحمود) وسمى المختصر هكذا (بلوغ المقصود مختصر السعى المحمود) • ولا شك ان محمد على قد فعل ذلك لاهمية الكتاب الاصلى التى سنتحدث عنها ، ولكونه محشوا بشواهد واستطرادات مملة للقارىء العادى الذى يهمه الرأى والفكرة أكثر مما يهمه التثبت والتعليل • وقد وقفت شخصيا على نسخة من (بلـــوغ المقصـــود) (46) فوجدته يحتوى على 68 صفحة ومكتوبا بخط نسخ جيد • والنسخة التى وقفنا عليهـــا تحمل تاريخ سنة 1308، وهو بلا شك ليس تاريخ اختصار الكتاب وانما هو تاريخ نسخة أخرى منه • ونعتقد ان ابراهيم السقا قد اختصر كتاب شيخه بعد تأليف الاصل بقليل، أى بعد سنة 1242 (1826) ، لانها هى الفترة التى تليق بموضوع الكتاب الذى سنتحدث عنه • وقد وجدت اسم الناسخ (لبلوغ المقصود) هكذا « تم هذا الكتاب ••• على يد ••• أحمد عبد رب النبى المغبى (كذا) بلدا الشافعى مذهبا ••• يوم الاحد المبارك 23 ••• المحرم سنة 1308 » • اما اسم ابن العنابى فى هذه النسخة فقد ورد على النحو التـالى « كشاف الحقائق ، ومنبع الرقائق ، شيخنا المحفوف باللطف الخفى ، محمد بن محمـود ابن محمد الجزائرى الحنفى » (47) • والغالب على الظن ان هذه العبارة هى من وضـــع ابراهيم السقا وليس من وضع الناسخ • والملاحظ ان النسخة التى اطلعنا عليها مـن (بلوغ المقصود) تضم تعاليق مطولة فى معنى الايات والاحاديث والكتب والمعانى الواردة فى صلب المختصر ، ولا تضيف جديدا للفكرة الاساسية التى انطلق منها المؤلف الاصلى • والملاحظة الاخيرة التى نبديها حول (بلوغ المقصود) انه قد جاء فى آخره اضافة وصف « الشافعى » أمام اسم ابن العنابى • فقد جاء هناك « قال اصله قال جامعه الفقـير اليه سبحانه محمد بن محمود بن محمد بن حسين الجزائرى الحنفى الشافعى (48) ، الشهير ببلده بابن القبانى (كـذا) ، نزيل مصر القـاهرة ، فرغت من جمعه سنة 1242 ، رابـع عشر رجب هجرية » •

(46) دار الكتب المصرية ، الخزانة التيمورية ، فروسية رقم 31 •

(47) بلوغ المقصود ، ص 2 •

(48) الظاهر ان ذلك سهو من الناسخ ، وان كان شائعا لدى العلماء الانتقال من مذهب الى آخر • كما سها نفس الناسخ فى كتابة القبانى بدل العنابى •

وقد اختلفت الآراء حول شخصية ابن العنابي · فقد عرفنا وصف تلاميذه له من كونه شخصا يتبرك به ويرام الثواب عنده · وجاء فى نسخة (السعى المحمود) التى سندرسها انه « شيخنا واستاذنا العالم الربانى » · ووصفه السقا فى (بلوغ المقصود) « بكشاف الحقائق ، ومنبع الرقائق والدقائق ، شيخنا المحفوف باللطف الخفى الخ » · وتوافق هذه الاوصاف المصطبغة بالمشاعر الدينية والصوفية الاوصاف التى اطلقها عليه معاصروه ومواطنه حمدان بن عثمان خوجة ، وهو رجل سياسى واقتصادى · فقد لاحظ خوجة على تكليف الباشا للمفتى (اذا صح انه ابن العنابى) بالدعوة الى الجهاد ابان الحملة الفرنسية بأن المفتى كان رجلا صالحا وعادلا ولكنه لم يكن محاربا (49) · ويتفق هذا الحكم تقريبا مع حكم ديرينو الفرنسى المعاصر له أيضا (50) · وعندما تقرر نفى ابن العنابى من الجزائر كتب خوجة « كان المفتى سيدى محمد العنابى رجلا نزيها وفاضلا ··· كان يكتب دائما الى كلوزيل يلومه على تصرفاته التى كانت تبدو له مخالفة لوثيقة الاستسلام » (51) · وقد عرفنا انه كان محل ثقة لبعض دايات الجزائر الذين كلفوه بسفارة للمغرب واستكتبوه لباى تونس ، كما اصبح محل ثقة محمد على الذى عينه مفتى الحنفية بالاسكندرية (52) ·

وهكذا يتضح ان ابن العنابى كان شخصية مرموقة بين قومه فى عصره · ويمكن تقسيم دوره الى دينى وسياسى · فالدور الدينى لعبه وهو يباشر وظيفة الافتاء ويتصدر للتدريس ويمنح الاجازات لتلاميذه والمعجبين بعلمه · اما الدور السياسى فيتمثل فى صلته بدايات الجزائر وفى موقفه من الاحتلال الفرنسى لبلاده وفى اشادته بدولة آل عثمان (وسنعرف هذا منه) وتوليه وظيفة الافتاء بمصر باعتباره عالما منفيا لاسباب سياسية · ويضاف الى ذلك دوره الفكرى ، وهو الذى يظهر فيما طرحه فى كتابه (السعى المحمود)

(49) خوجة ، ص 198 ·
(50) ديرينو ، ص 53 ·
(51) خوجة ، ص 259 · أيضا ديرينو ، ص 155 ــ 156 ، وسعد الله ، ص 69 ــ 71 ·
(52) احتضنت مصر منذ القديم علماء الجزائر ، ومنهم احمد المقرى صاحب (النفح) ويحيى الشاوى ، واقام فيها ابن عمار ، والمقايسى ، وبوراس · وفى العهد الفرنسى ابن العنابى والكبابطى · وهناك غيرهم كثيرون ، سيما منذ فاتح القرن الحالى ·

من آراء فى الحضارة الغربية وضرورة أخذ المسلمين منها ما يرقيهم وينسجم مع شريعتهم ·
واذا كنا قد تعرضنا الى دوره الاول والثانى ، فقد بقى علينا ان ندرس دوره الثالث ·

* * *

ثانيا ـ كتاب (السعى المحمود) :

النسخة التى اعتمدنا عليها فى هذه الدراسة تحمل عنوان (السعى المحمود فى نظام الجنود) · ولكن تعدد النسخ من هذا الكتاب جعل عنوانه يتغير قليلا من نسخة الى أخرى · ونفس العنوان تحمله نسختا اسطانبول (53) ، وكذلك نسخة محمد ابن عبد الكريم (54) · اما بروكلمان فقد اورد كلمة « تاليف » بدل « نظام » (55) ، وسار الزركلى فى (الاعلام) على نفس النمط (56) · واورد عيسى اسكندر المعلوف أيضا كلمة « تاليف » بدل « نظام » نقلا عن نسخة الخزانة التيمورية (57) · ولكننا اطلعنا على نسخة فى الخزانة التيمورية فاذا عنوان الكتاب فيها هكذا (السعى المحمود فى تاليف العساكر والجنود) (58) · وانفردت المكتبة البلدية بالاسكندرية باعطاء الكتاب عنوانا فيه تصرف كبير ، فقد جاء فى فهرستها ان لابن العنابى (رسالة فى نظام العساكر الاسلامية) (59) · ويبدو ان هذا عنوان وضعه صاحب الفهرس ، وليس العنوان الاصلى للكتاب · اما ابراهيم السقا ، تلميذ المؤلف ، ومختصر الكتاب فقد جعل

---

(53) محمد بن عبد الكريم ، مخطوطات جزائرية فى مكتبات اسطنبول · دار مكتبة الحياة ، بيروت 1972 ، ص 159 · فقد ذكر له نسختين ، الاولى بالمكتبة السليمانية ، قسم شهيد على باشا ، رقم 1275 ، وتقع فى 182 صفحة · والثانية بنفس المكان ، قسم اسعد افندى ، رقم 1885 ، وتقع فى 140 صفحة ·

(54) من نسخة صور لى منها مشكورا صفحة العنوان · ولا ادرى مصدرها ، ولعلها صورة لاحدى النسختين المذكورتين فى التعليق السابق (53) ·

(55) بروكلمان ، ملحق ، 2 ، ص 739 ·

(56) الاعلام ، 7 ، ص 311 ·

(57) مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق ، م 3 ، (نوفمبر ـ ديسمبر 1923) ، ص 364 ـ 365 ·

(58) دار الكتب المصرية ، الخزانة التيمورية ، مخطوط رقم 1 ضمن مجموع ، رقم 219 ·

(59) فهرس المكتبة البلدية بالاسكندرية ، 4562 ج ، والمخطوط رقم 1 ضمن مجموع يحمل الرقم السابق ·

عنوان مختصره هكذا (بلـوغ المقصـود مختصر السعى المحمـود فى تاليف العسـاكر والجنود) (60) ، وهذا العنوان لكتاب ابن العنابى ينسجم مع النسخة التيمورية التى اطلعنا عليها ·

ويتبين مما سبق ان كتاب ابن العنابى قد تعددت نسخه وانه سافر مـن مصر الى اسطانبول · والغريب فى الامر اننا لا نجد ، حسب علمنا ، نسخـة منه فى فهـارس مخطوطات الجزائر·اما النسخة التى اعتمدنا عليها فهى نسخة سوهاج (مصر) المصورة لدى مكتبة معهد المخطوطات العربية بالجامعة العربية · وهى موجودة فى قسم « فنون حربية وفروسية » · اما فى مكتبة سوهاج نفسها فالنسخة موضوعة فى قسـم « الادب » · ومقاسها 17 × 23 سـم · وخطها رقعى جيد · وهى من نسـخ السيد محمد الشربينى وبدون تاريخ ، وعدد صفحاتها 120 صفحة (61) · ولو كنا بصدد تحقيق هذه النسخة لقابلناها ببعض النسخ المشار اليها ، ولكن هذا ليس من هدفنا الآن · ولذلك نكتـفى منها بهذا التعريف القصير · وما دمنا قد اطلعنا على نسخة أخرى فى المكتبة التيمورية فلنشر الى انها بخط رقعى جيد ، ومنسوخة فى جمادى الآخرة سنة 1268 (1852) أى سنة بعد وفاة المؤلف ، ولا وجود فيها لاسم ناسخها ، وتقع فى 145 صفحة · وفيها ان المؤلف من علماء القرن الثالث عشر وان الكتاب « فى فضل الجهاد وجواز تنظيم الجند على النظام الجديد » (62) · والملاحظ انها ، بالرغم من نسخها سنة 1268 ، فان اسم المؤلف لا يقترن بعبارة « المرحوم » · وبدلا من ذلك وردت معه عبارة « نفعنا الله ببركتـه » · فهل معنى هذاانه كان ما يزال عندئذ حيا ؟

ولكن ما مكان وزمان تاليف هذا الكتاب ؟ اما المكان فالغالب على الظن انه القاهرة ، لسببين :

---

(60) أنظر تعليق رقم (46) ·

(61) تحمل النسخة فى مكتبة سوهاج رقم 678 · اما فى مصورات معهـد المخطوطات العربية فتحمل رقم 22 فى الجزء الرابع الخاص بالمعارف العامة والفنون المتنوعة · وعندى صورة منها على الميكروفيلم ·

(62) انظر التعليق رقم (58) ·

الاول : ان اسم المؤلف فى جميع النسخ يأتى مقرونا بعبارة « نزيل مصر القاهرة » ·

والثانى : اننا قد عرفنا ان ابن العنابى قد تصدر للتدريس فى الازهر وأجاز بعض العلماء فى نفس التاريخ الذى ألف فيه الكتاب · ومعنى هذا ان المؤلف كتب كتابه فى القاهرة اثناء اقامة بها غير محددة وان ذلك كان قبل استيطانه اذسكندرية منفيا من الجزائر · واما زمان تأليف الكتاب فمن المؤكد ان المؤلف فرغ منه فى سنة 1242 (1826) لانه قد ضبط ذلك بنفسه بالحروف والارقام · غيران نسخة محمد بن عبد الكريم تضيف تاريخا محيرا (63)، فقد جاء فى صفحة العنوان بعد ذكر اسم المؤلف «نزيل مصر القاهرة» الموجود سنة 1245 · فما معنى كلمة « موجود » هنا ؟ هل تدل على كونه موجودا فى القاهرة أو موجودا على قيد الحياة ؟ ووجه الحيرة من هذا التاريخ هو اننا قد عرفنا ان ابن العنابى كان موجودا ضمن قائمة من تولى الافتاء فى الجزائر بعد سنة 1244 · فكيف نوفق بين وجوده فى القاهرة ، مثلا ، ووجوده فى الجزائر ؟ الواقع انه لا جواب لدينا الآن على هذه النقطة ·

ان عقد العشرينات من القرن الماضى يمثل نقطة تحول فى تاريخ الدولة العثمانية · فبالاضافة الى المسألة الشرقية القديمة هناك الحروب ضد روسيا ، وثورة اليونان ، والثورة الوهابية ، وتهديد محمد على ، وضياع الجزائر · ولكن القضية التى تمس خاصة موضوع كتاب ابن العنابى هى ذلك النزاع الطويل والخطير الذى كان بين السلطان محمود الثانى وفرقة الانكشارية ، وهو النزاع الذى انتهى بالقضاء نهائيا على هذه الفرقة سنة 1826 ، وهى السنة التى الف فيها ابن العنابى كتابه · وكان مصدر ذلك النزاع هو رغبة السلطان فى ادخال النظم الاوروبية الحديثة على جيشه بعد الهزائم التى منى بها على يد الروس خاصة ، بينما كانت فرقة الانكشارية وانصارها يعارضون ذلك اشد المعارضة بدعوى انه مخالف للشريعة الاسلامية ·

واذا كان السلطان ما يزال عندئذ يواجه هذه المعارضة فى الاخذ بالنظم الاوروبية فان محمد على كان قد تجاوز هذه المرحلة وبدأت تظهر النتائج الايجابية من تقليد

(63) انظر التعليق رقم (54) ·

الاوروبيين فى انتصاراته الخارجية وتقدم نظامه فى الداخل · ومن ثمة وجد ابن العنابى الجو ملائما له فى القاهرة ليكتب كتابه ويطرح افكاره بحرية فى قضية خطيرة عندئذ ، كالتى تناولها فى كتابه ، وهى جواز ، بل وجوب ، تعلم الحضارة من الاوروبيين (أو الكفار كما يسميهم) · ولعل ذلك يفسر لنا انتقال نسختين من كتابه الى عاصمة الدولة العثمانية التى كانت فى حاجة الى مثل رأيه ، كما يفسر لنا تكليف محمد على للسيد ابراهيم السقا باختصار (السعى المحمود) وجعله فى متناول القراء ، لانه كتاب يساير الاتجاه الذى كان هو يعمل بمقتضاه · وقد روى ابن العنابى فى مقدمة كتابه هذه الظروف بشىء من الاختصار · فالاوروبيون ، فى رأيه ، قد نظموا جندهم ليضروا بالاسلام وأهله · وامام هذا الخطر اصبح من المحتم على المسلمين ان يتعلموا منهم ما اخترعوه من صنائع ونظم ، لان فى ذلك مصلحة عليا للدين والامة الاسلامية· فقد قال « لما حدث فى هذه الاعصار الآخرة ، تطاول طغاة الامم الكافرة ، بترتيب اجنادهم على طريقة محكمة ابتدعوها ، وتدريبهم على فنون حيل اخترعوها ، قصد المكيدة للاسلام وأهله ، وسعيا فى استباحة حماه وتمزيق شمله ، ··· عظم الخطب (64) فدعت ضرورة الحال الى استعلام ذلك من قبلهم ، والتدرب على ما ألفوا من صنائع وحيلهم » · وقد أشار ابن العنابى الى ان الدولة العثمانية قد اخذت بهذا النظام الجديد ، وهذا يدل على ان تأليفه كان قريب عهد بحادثة الانكشارية · كما لمح الى ان هذا النظام لم يكن مقبولا لدى الجميع ، وان هناك معارضة له من بعض رجال الدين وبعض الجنود المتمسكين بالنظام القديم ، وحتى من بعض المتزمتين من شرائح المجتمع الاخرى · فقد قال فى هذا المعنى « فرتبت العساكر الاسلامية على نحو من ذلك نظاما جديدا ، وصدر به من جانب السلطنة العلية ، ادام الله تأييدها ، وضيقت ملابس الجند، واختصرت، وفننت ألوانها وقصرت ، فاستكره ذلك اناس ··· » (65) ·

اما الدافع الذى حمل ابن العنابى على وضع هذا الكتاب فالظاهر انه اجابة احد السائلين المستزيدين من آرائه فى الموضوع · ذلك ان موضوع تجديد الجيش والاخذ

(64) هنا كلمات غير مقروءة على الميكروفيلم ·
(65) السعى المحمود ، المقدمة ·

باسباب الحضارة ، أو اذا شئت الخصام بين انصار التقليد والتجديد ، كان على اشـــده خلال عقد العشرينات ، وكان حديث المجالس ، ومدار الدروس ، ولعله كان أيضا مصدر الهمس والنكتة · ومن ذلك ما جرى فى احد المجالس التى حضرها ابن العنـــابى فى القاهرة · وقد نطق اثناء ذلك بكلام جعل بعضهم يرسل اليه ، بعد افتـــراق المجلس ، طالبا منه كتابة رسالة فى الموضوع · وهذا نص كلامه فى عبارات مسجعة ثقيلة « وقـد جرى بينى وبين افاضل الاخوان ، فى مجمع انس جاد به الزمان ، كلام علق منه بباله ، فوجه الى خطابه بكتابة جواب على منواله ، فلزمنى ان اسعفه بما رام ، وازيده بسطـــا يناسب المقام ، فاقول فى جوابه ، متلذذا بتجديد خطابه » · (66)

ولكن هذا دافع تقليدى لتاليف الكتاب ، فالمؤلفون كثيرا ما يخلقون شخصا يطلب منهم أو يحثهم على وضع كتاب فى الموضوع الذى اختاروه · فهل كان بطل ابن العنابى حقيقيا أو تصوريا ؟ واذا كان حقيقيا فمن يكون يا ترى ؟ هل هو من اصحاب محمد على نفسه الذى امر فيما بعد ، كما عرفنا ، ابراهيم السقا ، باختصار الكتـــاب ؟ واذا كان تصوريا فهل كان اقتناع ابن العنابى شخصيا بفكرة تجديد الجيش وتقليد الحضـــارة الاوروبية اقتناعا كاملا جعله يقدم على هذا العمل تلقائيا ليدعو الى مذهب التجديـــد الذى آمن بفوائده على دينه وقومه ؟ ومهما يكن بطل ابن العنابى ، حقيقيا أو تصوريـا ، فان اقدام المؤلف على هذا العمل يخدم انصار التجديد عندئذ ، وفيهم السلطان محمود الثانى ومحمد على والى مصر ، كما يخدم نزعة شخصية واضحة لدى ابن العنابى ·

ذلك أن ابن العنابى لم يكن شخصية بسيطة ولا ضيق الافق · فقد عرفنا انه مـــن أسرة توارثت القضاء والافتاء ، وكانت قريبة من مقاليد السلطة وذوى النفوذ فى البلاد · وكان هو شخصيا قد تولى ، الى جانب وظائفه الدينية ، بعض المهمات السياسية · وكان قد شاهد اسطول بلاده يتحطم امام الغزو الانكليزى ــ الهولاندى ، وامـام الاسطـول الامريكى فى فترة قصيرة ، ولاحظ مدى الصراع على السلطة لدى (الوجق) أو الانكشارية فى الجزائر · وقد تجول فى البلاد الاسلامية فرأى ما عليه حال جيش المغرب الاقصى ، وما عليه حال جيش مصر بقيادة ابراهيم باشا ، وسمع عن انتصارات الاوروبيين عـــلى

(66) نفس المصدر ·

انكشارية الدولة العثمانية ، وعاش فى زمن شهد الحروب النابوليونية ومؤتمر فيينا •
فهل نستغرب منه بعد ذلك ان يكتب (السعى المحمود) داعيا فيه الى تجديد الجيوش الاسلامية والاستعداد للجهاد الحق على غرار ما كان عليه الجهاد زمن الانتصارات الباهرة ؟ وهل نستغرب منه أيضا تأييده لحججه بالايات والاحاديث وآراء المجتهدين من ائمة الاسلام الاوائل ليبرهن على ان دعوته نابعة من الكتاب والسنة والسلف وانها فى صميم التقاليد الاسلامية ؟ • ومما يلفت النظر ان ابن العنابى يرى ان ما جاء به الاوروبيون من جديد فى نظام الجيش تتلازم فيه الفكرة العسكرية والسياسة للارتباط الوثيق بينهما ، لانه لا جيش بدون حكم ولا حكم بدون جيش • وقد جاء فى نص كلامه ما يلى « اعلم أولا انه قد عرف ان ترتيب نظام الجند على الوجه الذى ابتدعه الكفرة يحصره امران : احدهما أمور حربية ، والثانى أمور سياسية » •

واعتبارا لهذه الفكرة قسم ابن العنابي كتابه الى قسمين رئيسيين ، اطلق على كل منهما عبارة « مقصد » ، وهما : المقصد الاول فى الامور الحربية ، والمقصد الثانى فى الامور السياسية • وفى نهاية الكتاب جاء بخاتمة طرح فيها ما لم يذكره فى المقصدين من افكار • والمقصد الاول هو اساس الكتاب ، فكرة وحجما • اما الافكار فسنتعرض اليها ، واما الحجم فقد خصص له 97 صفحة من مجموع 120 صفحة • وبينما قسم هذا المقصد الى ستة عشر فصلا ، اكتفى فى المقصد الثانى بايراد افكاره دون منهج • مهملا استعمال الفصول • وهذه الخطة تنسجم تماما مم عنوان الكتاب الذى يجعله خاصا بنظام الجند ، أى بالامور الحربية • واذا كان هذا صحيحا فان اشتمال الكتاب على قسم خاص بالامور السياسية يصبح خارجا عن الموضوع • غير اننا سنعرف لماذا جاء المؤلف بهذا القسم فى آخر الكتاب •

ولنذكر الآن عناوين الفصول الواردة ضمن المقصد الاول (الامور الحربية) ، ثم نعود اليها بشىء من التفصيل ، وقد فضلنا وضع رقم ازاء كل فصل ليعرف القارىء حجم كل فصل من الكتاب :

الفصــل	الصفحة

وبعد هذه الفصول يأتى المقصد الثانى (الامور السياسية) وهو من صفحة 99 الى صفحة 111 • اما باقى الصفحات فهو للخاتمة • وقد اعطى المؤلف شبه عنوان للخاتمة أيضا فقال انها « فى أمور شتى من أسباب النصر والقوة » •

* * *

هذا هو الاطار العام أو الهيكل الذى بنى عليه ابن العنابى كتابه ، فما محتواه ؟ وما الافكار التى بثها فى ثناياه والتى كانت الدافع الحقيقى على تأليفه ؟ • اننا نعتقد ان ابن العنابى قد وضع أفكاره الاساسية فى أمكنة ثلاثة من الكتاب • الاول فى مقدمة

المقصد الاول (الامور الحربية) ، والثانى فى الفصل الرابع عشر الذى اشاد فيه بـدور آل عثمان فى التاريخ ، وامتدح رجالهم المعاصرين ، ونصح القائمين منهم من مغبة التهاون والاستبداد • والثالث فى الفصل الاخير (جواز تعلم العلوم الآلية من الكفرة) • أمـا بقية عناصر الكتاب فموضحة أو مكملة لهذه الافكار الاساسية •

وقد عرف ابن العنابى الامور الحربية بانها كل قوة مادية أو معنوية لردع الاعـداء والحط من شأنهم • واعتبر كل ذلك أمرا شرعيا • ومما جاء من كلامه فى هذا المعنى قوله : « نعنى بها كل ما انتـج قوة محسوسة أو معقولة على دفاع الاعـداء وارهابهم واغاضة نفوسهم واتعابهم » • فكل هذه المعانى أمور شرعية ، لان فيها اذلال الكفرة وعز الاسلام ، وانه المقصـود الاعظم من شرعية الجهاد » • فالمؤلف هنـا لا يكتفى بتقرير الحقيقة ولكنـه يجتهد فيربط بين القوة ونصرة الدين وحكمة الجهاد • ثم توسع فى هذا المعنى واضاف اليه فكرته عن النظام العسكرى الجديد • ولخصه فى ان كل ما يفيد المسلمين ويرفـع من شأن الدين فهو شرعى ، ولو جاء ذلك من الاروبيين ، ولو كان مبتدعا منهم غير معروف لاهل الاسلام • ونورد هنا عبارته ، رغم ما فيها من حشو ، اذ أن آخرها هو خبر بدايتها المفصولة بكلام طويل :

« فكل ما يفيد منفعة لها تعلق باعزاز الدين ورفعة أهله ، مما اشتمل عليه النظـام المستجد للكفرة من ترتيب العساكر ، وتصفيفهم ، وحصر اعدادهم ، وتعديد قوادهم ، وعرفائهم ، ولتسويم اصنافهم وكبرائهم ، بخصوص لبـاس أو عـلامة ، وتضييـق ملابسهم ، وتقصيرها ، وتعيين مواقفهم وعملهم ، وتخصيص كل فـريق براية أو لواء ، ثم تدريبهم على عمل الحرب لتعليمهم كيفية الرمى والطعن والضرب ، وغير ذلك ممـا يقتضيه امر الحرب من تصفيف واغارة ، واجتماع وافتراق ، واقدام واحجام ، وكـر وفر ، وركوب ونزول ، وظهور وكمون ، وتحريض وتثبيت ، ورفـع صـوت وخفضه ، ورد منهزم ، وحراسة ، وغير ذلك مما قد تدعو اليه الحاجة فهو أمر مشروع » (67) •

وكأن ابن العنابى كان يجيب بالحديث التالى سائله ويوضع له اسس الفكرة التى يدعو اليها • فهو يخاطبه بقوله ان الاروبيين اذا اخترعوا عتادا حربيا جديدا قد يضـر

(67) نفس المصدر ، ص 3 •

بالمسلمين فما على هؤلاء الا أن يتعلموه ويحذقوه ، بل عليهم ان يسبقوا فى ذلك أصحاب الاختراع انفسهم · واذا اقتضى الامر عدم تعلم ذلك الاختراع الا منهم وجب على المسلمين ان يتعلموه منهم ما دام ذلك فى قدرتهم ، لانه لا يعقل ان يواجه المسلمون هذا الاختراع الجديد الفتاك بأسلحة بالية غير فعالة · فالتمسك بالتقاليد القديمة فى هذا المجال يلحق بالمسلمين الهزيمة والهوان ، وهو امر ضد الدين وضد الرجولة · وتطوير هذه الفكرة عند ابن العنابى ، على النحو الذى سبق ، يتماشى تماما مع ما كان يأخذ به محمد على والى مصر · فقد كان لا يكتفى بتقليد الاروبيين فيما اخترعوه بل كان يأتى بهم ليعلموه الى المسلمين أو يبعث بهؤلاء اليهم فى مواطنهم · فابن العنابى فى الواقع كان يبارك هذه السياسة من محمد على ويقنع الناس بها · فكتابه اذن من كتب الدعاية ، اذا صح هذا التعبير · واذا عرفنا انه أيضا كان يشيد بالخطوات التى قطعتها الدولة العثمانية بهذا الصدد عرفنا انه كان يبارك أيضا اتجاهها نحو التجديد · وها نحن نورد نص عبارته فى ذلك المعنى ملاحظين انه ، خلافا لبعض النصوص السابقة ، لم يستعمل فيها السجع ، ولكنه احتفظ فيها بالجملة الطويلة المعقدة ، ولاسيما الجملة الاخيرة من الفقرة :

«··· وانهم (يعنى الكفار ـ الاروبيين) اذا ابتدعوا من أدوات الحرب وصنائعه أمرا له موقع لا نؤمن من استطالتهم به علينا ، لزمنا بذل الوسع فى تعلمه واعداده لهم والاجتهاد فى مجاوزتهم فيه · وانه اذا لم يكن استعلام ذلك الا من قبلهم ، وجب استعلامه منهم لانه مستطاع لنا · وانهم اذا اعدوا لنا صواعق البارود فاعددنا لهم القسى والمنجنيق ، اللذين صارا اليوم كالشريعة المنسوخة ، أو اقتصرنا على السيوف والبندقيات ، أو شمروا لنا الثياب فاعددنا للقائهم الثياب المجررة والاكمام المطولة ، والعمائم المكبرة لم نخرج عن عهدة الامر ، ولزمنا الاثم والعار ، فلا غرض الشارع حصلنا ولا سبيل الرجولة سلكنا » (68) ·

ونحب أن يتامل القارىء في هذه المقابلات والصور التى يجريها ابن العنابى فى كلامه · فصواعق البارود تقابلها القسى والمنجنيق ، والتشمير على الثياب تقابلها الثياب المجررة ، والعمائم المكبرة والاكمام المطولة · وصورة اتباع الشرع يقابلها البوء بالاثم ،

(68) نفس المصدر ، ص 11 ـ 12 ·

وصورة الرجولة يقابلها العار · وهكذا · كما أن عبـارة « الاجتهاد فى مجاوزتهم فيه » تبرهن على أن المؤلف لا يدعو الى التقليد فقط ولكن الى القوة والتفوق · واعتباره الاسلحة القديمة (القسى والمنجنيق) « كالشريعة المنسوخة » يعبر عن صورة فى نفسه من جهة وعن ثقافته الدينية من جهة أخرى · فالمؤلف يجمع فى هذا النص بين الدعوة الى الاخذ بأسباب الحضارة الاروبية ، والحث على التفوق واليقظة والاجتهاد ، والعتاب على التمسك بالامور البالية التى تخالف الشريعة والرجولة معا ·

ولكى يقنع المتزمتين من قومه ، المدعين فى بقائهم على ما هم عليه بالتمسك بالدين ، قال ابن العنابى ان ما تقدم من كلامه يدل على اعجاز القرآن وانه تعالى ما فرط فى الكتاب من شيء · ذلك ان كل ما جاء به من أفكار حول أسباب القوة والتفوق له « شواهد ··· من الكتاب والسنة » · وعلى هذا الاساس بنى كتابه ، لانه ، كما لاحظنا ، يطرح الفكرة ثم يحشد لها من الشواهد القرآنية والاحاديث النبوية ما تصير معه مقنعة ، فى نظره ، للمتزمتين والمترددين من قضية التجديد وتقليد الاجانب والتعلم منهم ·

وطريقة ابن العنابى فى الفصول التى ذكرناها بسيطة وواضحة ، فهو يبدأ بتعـريف الفكرة التى حملها عنوان الفصل ، ثم يروى لنا ما جادت به حافظته ونقوله من الشواهد والامثال ، وحتى الاشعار احيانا ، ومن المواقف والتجارب السابقة للنبى (صلى الله عليه وسلم) والصحابة والخلفاء والقواد الكبار · واذا اراد هو ان يتدخل فى الموضوع بـرأى فانه يستعمل له عبارة «قلت كذا» او «قلت وهو الاوجه عندى» ترجيحا لرأى دون آخر · وهو ينقل كثيرا عن المؤلفين السابقين حـول الموضوع كالطبرانى والطرطوشى والغزالى · وينقل ايضا عن جده الاعلى كما سبق ان اشرنا ، وعن ابن عبد الحكم والوزير السـراج (صاحب الحلل السندسية فى الاخبار الاندلسية) ، وحسين خوجة (صاحب بشائر اهل الايمان بفتوحات آل عثمان) ، وغـيرهم ·

فقد عرف تجنيد الجند (69) بانه جمع الاعوان والانصار لحماية الاسلام وجهاد الكفار وارهابهم ، مستدلا على ذلك بحديث البيعة مع الانصار ، وتحدث عن واجب الامـام فى

(69) نفس المصدر ، الفصل الاول ·

مثل هذه الاحوال ، وعن الجهاد الواجب والمستحب ٠ وعرف ترتيب الجند (70) بأنــه «تنزيل كل منهم فى خصوص مرتبة تليق به بحسب ما له من خصال» وهذا هو معنى الجدارة والاستحقاق فى نظم اليوم ، فالتفضيل هنا بحسب الكفاءة لا بحسب المال او الجاه ٠ ومما تجدر ملاحظته بهذا الصدد انه قال : ان هذا التصنيف يطابق الآية الكريمة « **يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات** » ، مفسرا العلم هنا بأنه جنس العلم «الشامل لكل علم شرعى وكل علم له ثمرة تتعلق باقامة امر شرعى» ٠ وهذا طبعا اجتهاد منه قصد به تاييد رأيه فى جواز تعلم العلوم من الاجانب اذا كان فيها منفعة للاسلام وأهله ٠ وقد اضاف بان العالم بفنون الحرب يستوى مع العالم بأمور الشرع ٠ بل انه اعتبر العالم بفنون الحرب من العلوم الشرعية قائلا « فمن العلوم الشرعية العلم بكيفية الحرب ، وعمله وتدبير أمره ، وتصريف حيله بهذه المثابة (أى من العلوم الشرعية) اذ لا تكاد تتم اقامة الجهاد المفروض الا به ٠ فالعالم به مندرج فى عموم علماء الشرع» ٠ (71) ويشترط فى الجندى ان يكون شجاعا ، ولكن غير متهور ، لان الشجاعة فضيلة ترشح صاحبها لقيادة الجنود ، اما التهور ، وهو الخروج عن حد الشجاعة ، فمذموم ولا يصلح المتصف به لرياسة الجند « ذ ربما غرر بهم فالقى بهم الى التهلكة» ٠ (72) وبعد توفر الشجاعة يصنف الجند ، فى نظر المؤلف ، على حسب الفضيلة والغنى ٠ وقد عمم هذه القضية فقال بانه «ينبغى ان يراعى ذلك (ايضا) فى تدوين الدواوين وتوفر العطايا» معتمدا فى ذلك على سيرة الخليفة عمر بن الخطاب ٠

وعند ما تحدث عن تصنيف الجند (73) اورد كلاما يعتبر اليوم ، وفى عصر القوميات ، محل نظر ٠ فقد قال بان تصنيف الجند يعنى جعل كل صنف منهم على حدة ، اقتداء بسيرة الرسول الذى صنف جيشه «اصنافا مصنفة ، كل قبيلة على حدتها متميزة عن غيرها» ٠ والى هنا يمكن أخذ كلام المؤلف على انه رواية تاريخية قابلة للمناقشة ٠ ولكنه

(70) نفس المصدر ، الفصل الثانى ٠
(71) نفس المصدر ، ص 18 ٠
(72) نفس المصدر ، ص 21 ٠
(73) نفس المصدر ، الفصل الثالث ٠

يتدخل فى الامر مرجحا هذه الطريقة فى الربع الاول من القرن التاسع عشر ، الـــذى كانت فيه الشعوب الاروبية خاصة تعلن عن نهاية عصر القبيلة والاقطاع واقامة كيانات على اساس «القومية» التى تذوب فيها جميع عناصر شعب من الشعوب ، ولا سيمـا اذا كان الامر يتعلق بخطر خارجى يحدق بهذه القومية • ومما يلفت النظر ان ابن العنـابى يقيم دعوته على التجربة الشخصية، قائلا «وذلك (اى التصنيف حسب القبيلة) ما لا يخفى على من جرب» • ولكن اذا تذكرنا الظرف الذى كان يكتب فيه ابن العنابى ، ووضـــع العالم الاسلامى عندئذ ، وشيوع الاقطاع والقبلية وما اليها ، عذرناه فيما ذهب اليـه • وفى تدخله الشخصى فى هذا الموضــوع قال «وهذا (يعنى التصنيف حسب القبيلـة) ما يقتضيه حسن السياسة فى تدبير أمر الجند ، تحرزا من الاختلاف وافتراق الكلمـة ، لما فى خلط الفرق المختلفة من تعريضهم لثورات الفتنة بينهم ، وبسبب اختلاف طباعهم وميل كل فريق لمن انتسب اليه بمقتضى الطبع البشرى ، وافراد بعضهم عن بعض ادعـى للالفة وحسن العشرة ، لان بناهما على اتحاد الطبع وتقاربه ، ولاتحاد الوطن والحال اثر عظيم فى ذلك ••• وذلك ما لا يخفى على من جرب» • (74)

ويسير على نفس النسق فى ضبط عدد الجند وقواده وتسويمه (75) ، ولكنه يختصر الكلام اختصارا ، ولا يكاد يأتى حول هذه الموضوعات بجديد • وقد رتب عدد الجند عـلى نماذج من غزوتى أحد وبدر ، ناقلا للحديث الشريف «خير الصحابة اربعة ، وخير الرايات اربعمائة، وخير الجيوش أربعة آلاف، ولا يهزم اثنى (كذا) عشر الفا من قلة» • وقد تحدث عن الطاقة واتفاق الكلمة فى الجيش باعتبارهما شرطا لمواصلة الجهاد • ويكتفى فى كل ذلك بالنقول ولا نكاد نظفر له برأى شخصى • اما قائد الجند فقد عرفه بأمير اللواء الذى تنقاد اليه الجيوش ، وعرف العريف بالنقيب ، وبين ان السيرة النبوية واضحة فى ان الرايات والالوية لا يحملها الا المتقدم على القوم • واضاف بأن «النظام المستحدث» يرتب الجنـد على المئين والعشرات ، ويدخل فى ذلك تسويم الجند بمعنى وضع العلامات ، ناقـــلا عن جده فى تفسيره ان التسويم من المسومة وهى العلامة التى توضع على الشاة وغـيرها •

(74) نفس المصدر ، ص 23 ـ 24 •
(75) نفس المصدر ، فصول 4 ، 5 ، 6 •

وكذلك الشعار أو العلامة أيضا . والمعمول به هو ان يختار أمام المسلمين كلمة أو عبارة ترمز الى الانتصار على العدو تفاؤلا . وفى كل هذه الامور يورد المؤلف الآيات والاحاديث والمواقف ، ولكنه يقف عندها ولا يظهر هو فيها برأى او تعليق .

ومن القضايا التى تحدث عنها فى بداية الكتاب ثم خصها بفصل متوسط (76) حديثه عن لباس الجند . ورأيه فى ذلك معتمد على السيرة النبوية والصحابة الذين قال عنهم انهم كانوا يضيقون اللباس فى وقت الحرب . وقد قيد ضيق اللباس بهدف المنفعة كالخدعة او دفع البرد وليس التشبه بالاعداء . ومن الجدير بالذكر هنا هو انه قال ان «الكفار» هم الذين كانوا يجررون الثياب . وقد قال بان «الافضل ان يكون منتهى طول الثياب الى نصف الساق ، وان الزيادة على ذلك الى منتهى الكعب مرخص فيها من غير تضييق ولا تأثيم ، وان ما اسفل الكعبين غير مرخص فيه بل متوعد عليه بالنار» . وقد اعتمد فى بعض اخبار هذا الفصل على رأى جده المذكور . كما اعتمد عليه فى حديثه عن تعيين مواقف الجند . (77) ولا تكاد شخصية ابن العنابى تظهر هنا ايضا ، فالفصل كله عبارة عن مستخرجات من حافظته ، مع الاشارة الى النهى عن تزحزح الجندى من مكانه واستعجاله الغنيمة قبل الانتهاء من المهمة المسندة اليه . ونفس الشىء تقريبا اتبعه فى عقد الالوية والرايات . (78) فقد اكتفى بتعريف اللواء بانه علم صغير بخلاف الراية التى هى علم اكبر من اللواء واصغر من البندق (او البيذق) . وتمشيا مع هذا الاتجاه نقل عن السيدة عائشة ان لواء الرسول كان ، يوم الفتح ، ابيض ، وان رايته كانت سوداء وتدعى «العقاب» . ولاحظ وجوب ايثار قواد الجيوش بالراية او العلم الاكبر اظهارا للتواضع حسب تعبيره .

ويبدو ان شخصية المؤلف تظهر تدريجيا فى كتابه ، وخاصة فى حديثه عن التدريب على الاعمال الحربية ، وعن الحصون والخنادق والاسلحة ، وعن حيل الحرب . (79) فقد عرف

---

(76) نفس المصدر ، الفصل السابع .
(77) نفس المصدر ، الفصل الثامن .
(78) نفس المصدر ، الفصل التاسع .
(79) نفس المصدر ، فصول 10 ، 11 ، 12 .

التدريب على انه من الدربة (بالضم) وهو «تعليم صناعة الحرب التى هى علم بكيفية اعماله ، مع مباشرتها ، لتحصيل ملكته التى هى كيفية نفسانية تصدر عنها افعاله الاختيارية من غير روية» ، وهو تعريف معقد مؤداه ان الجندى يتدرب على فنون الحرب باستعمال ادواتها وخوضها عمليا حتى يصبح قادرا عليها تلقائيا • وآلات الحرب التى ذكرها كثيرة ، منها المنجنيق والحراب والمصارعة • والغريب انه لم يستعمل اسماء حديثة لهذه الآلات ، سيما وقد عرفنا انه يدعو الى التجديد ، وانه اعتبر المنجنيق «كالشريعة المنسوخة» • وقد سبق له ان ذكر فى المقدمة عبارة «صواعق البارود» فى مقابلة الآلات المذكورة • وعدد بعد ذلك جملة من الامور التى على الجندى التدرب عليها ، واذا شئت بلغة اليوم ذكر برنامج التدريب العملى والنظرى للجندى ، مثل الاجتماع والافتراق ، والاقدام والاحجام ، والكر والفر ، والظهور والنزول ، والتجلد للاعداء ، والتثبيت والتحريض ، ورفع الصوت وخفضه ، والحراسة ، وركوب البحر ، وغير ذلك • ويتصل بهذا اقامة الحصون وحفر الخنادق والاحتساب فيها • وقد أورد هنا رأيا شخصيا له عبر عنه بقوله « قلت ومن فرط فيها (الخنادق) استهوانا لامر عدوه ، واغترارا بكثرة جنده ، فقد مكن عدوه من تبييته ، وعرض نفسه للهزيمة والمعرة » (80) • وأما حيل الحرب فهو يعنى بها زرع الجواسيس فى صفوف العدو ، وتحطيم معنويات العدو بمنح الهدايا لقواده ، ودس الكتب على ألسنتهم ، واستعمال الخدعة • وقد أورد بهذه المناسبة قصة طويلة من حروب الاندلس •

وفى حديثه عن الحزم (81) يقترب المؤلف من عصره رواية ورأيا • فقد عرف الحزم بأنه ضبط الرجل أمره واخذه بالثقة والمشاورة ، لان الرأى هو اساس الانطلاق نحو النجاح ، ولذلك جاء ببيت المتنبى المشهور :

الرأى قبل شجاعة الشجعان   فهى أولا وهو المحل الثانى

كما جاء بخبر عن المؤرخ ابن عبد الحكم خاصا بفتح الاسكندرية • وحول المشاورة وأهميتها نقل قصة طويلة عن فتح الاندلس أيضا على يد طارق بن زياد ، ونقل قصة

(80) نفس المصدر ، ص 69
(81) نفس المصدر ، الفصل 13 •

أخرى فى نفس المعنى عن حرب الاحباش والفرس من كتاب (الحلل السندسية فى الاخبار التونسية) للوزير السراج · وختم ذلك بقوله « فانظر ماذا يتأتى على الملوك اذا عرفوا فى الحروب من الحيلة ··· بالمكيدة » · أما عن كتاب (بشائر أهـل الايمان بفتوحات آل عثمان) لحسين خوجة فقد جاء بقصة السلطان العثمانى ، مراد الاول الذى أهمل الحزم فقتله عدوه الجريح خدعة · ولنلاحظ أنه لم يشر بشىء الى وقائع الحملة الفرنسية عـلى مصر ، رغم حداثة عهدها ، فهل كان لميول محمد على نحو فرنسا أثر فى ذلك ؟ كما أنه لم يستشهد بحوادث معاصرة له فى الجزائر ·

ولكن ابن العنابى يدخل عصره حقا فى تناوله رحمة الضعفاء واجراء العدل وبـذل الحقوق لمستحقيها (82) · والواقع ان زجه بهذا الموضوع « السياسى » وسط حديثـه عن « الامور الحربية » قد جعله وكأنه هو المقصود بالذات من الكتاب كله ، رغم نشازه · فهو فصل معقود لتمجيد آل عثمان وتفضيلهم على غيرهم ، واظهار دورهم فى التاريخ ، ثم تحذير المعاصرين منهم من الظلم والاستبداد والانحراف عن سيرة أجدادهم · ولذلك مهد لهذه المعانى بقوله « ان قسوة القلب على الضعفاء ، والجـور فى الاحكام الشرعية ، ومنع الحقوق من مستحقيها ، والايثار بها لمن لا يستحق ، من أسباب خراب الملك وزوال الدولة » · ويظهـر ابن العنابى مـؤرخا ونـاقدا سياسيا وواعظا عند تناوله لتـدهور واضمحلال الدولة العباسية لقسوة حكامها وجورهم ومنعهم الحقوق من أهلها وتقديمهم لها من لا يستحقها · وكان ذلك ، فى رأيه ، فى أخريات تلك الدولة حينما منح حكامها « الاموال العظيمة للمغنين والشعراء وأهل اللعب والبطالة ، وأهملوا الرعية ، وركنوا الى اللذات واشباع الشهوات ، كما يعلم ذلك من سيرهم فى الكتب المطولة » (83) ·

وهذا درس قاس لسلاطين آل عثمان أيضا ساقه المؤلف اليهم بطريقة غير مباشرة · ذلك أن عاقبة العباسيين فى اتباعهم تلك السيرة كانت زوال ملكهم بعصيان الممالـك الاسلامية فى اطراف الدولة ، ثم تسلط عليهم التتار فابادوا ملكهم ومحوا اسمهم مـن الوجود ، فضعف شأن البلاد الاسلامية ، ولاسيما الجزء المشرقى منها · فمن انقذ الاسلام

(82) نفس المصدر ، الفصل 14 ·
(83) نفس المصدر ، ص 90 ·

اذن من كبوته واقاله من عثرته ؟ انهم العثمانيون طبعا ، اذ لولاهم لكانت العاقبة سوءا ٠ فهم الذين وردت فيهم الاحاديث النبوية وتم على ايديهم النصر بفتح القسطنطينية ، وهم القائمون اليوم (زمن المؤلف) على النهوض بهذه الدولة ٠ فعلى هؤلاء الاعقاب ان يكونوا خير خلف لخير سلف ٠ هذه هى الافكار الرئيسية التى أوردها ابن العنابى فى هذا الفصل الهـام ٠

وعلينا الآن أن نأتى على بعض نصوص منه ٠ فقد قال عن أهمية الدولة العثمانية ، بعد وصفه لسقوط الدولة العباسية ، ما يلى : « ولولا ظهور الدولة العثمانية ـ أعلى الله مقامها ، ورفع بالتأييد والنصر أعلامها ـ فجدد القائمون باعبائها معالم الدين ، وأحيوا ما اندرس من شريعة سيد المرسلين، لاتسع الخرق، وعم الفساد سائر الخلق» ٠ فالمؤلف اذن صريح فى عواطفه العثمانية ، ولا غـرابة فى ذلك فهو منحدر من أسرة تركمانية (84) ، خدمت العثمانيين فى الجزائر زمنا طويلا ٠ ولذلك نقل الحديث الشريف الذى يقـول : « لتفتحن القسطنطينية ، ولنعم الامير أميرها ، ولنعم الجيش ذلك الجيش » ، مؤكدا عـلى أنـه حديث صحيح الاسناد ٠ وقد علق عليه بقوله : « ففى هذا الحـديث الكريم منقبة عظيمة ومأثرة جسمية لآل عثمان اختصوا بها من بين سائر ملوك الاسلام » ٠ ولكى تتم الصورة التى وضعها ابن العنابى لآل عثمان اعتبر محاولات الامويين والعباسيين (العرب) لفتح القسطنطينية مجرد مناوشات ٠ أما الفتح الحقيقى لها فهو الذى تـم على ايـدى آل عثمان ٠ فالمقصود اذن من كلمة « أمير » المبشر به فى الحديث هو «أبو الفتوحات محمد» (محمد الفاتح) وانها بعد ذلك تعم كل خلفائه سلاطين (أمراء) آل عثمان ٠

ولا نعتقد أن ابن العنابى أتى بجديد حول هذه النقطة ، لان الموضوع قد أخذ بـه كل المؤيدين للدولة العثمانية خوفا أو طمعا أو اقتناعا ، ولكن الجديد فى الموضوع هو انتماء ابن العنابى الى هذه الطائفة والاخذ برأيهم ٠ ولعل ابن العنابى يفترق على هؤلاء فى توجيهه النصح الى القائمين عندئذ على شـؤون هذه الدولة بأن يكونوا أقوياء وان

(84) جاء فى اجازة محمد الطيب الفاسى لمصطفى بن رمضان العنابى ما يلى :
أقـول مجيبـا مفصحـا بلسـانى اجـزت الفقيـه المصطفى التركمانى
من رسالة البوعبدلى الى المؤلف ٠

يراعوا حرمة وحق الرعية وأن يسيروا على هدى الصالحين من سلفهم ، لان ذلك هو سر وجودهم وسر بقائهم أيضا · وهذه عبارته « فعلى القائم منهم (85) أن يعرف حق رتبة شرفه فيجرى على طريقة الاكرمين من سلفه ، فان بذلك سعادة الدنيا والآخرة (86) · ولاشك أن هذا من المؤلف موقف سليم ، فهو يظهر النواحى الايجابية لهذه الدولة ورجالها ويحذر من النواحى السلبية التى قد يكون فيها خرابها ونهايتهم كما كانت الدولة العباسية وخلفاؤها · ولذلك أيضا نصح باتباع الرحمة ، وتوفير العدل ، ومراعاة حقوق الضعفاء · ولامر ما أورد بعد ذلك مباشرة حديثه عن اجتماع الكلمة والاتفاق (87) ، مكتفيا فيه بتفسير قوله تعالى « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » ناقلا فى ذلك عن غيره ، دون أن يكون له أى أثر أو رأى ·

أما الموضوع الرئيسى الثالث والاخير فقد خصصه للحديث عن « جواز تعلم العلوم الآلية من الكفرة » (88) · والعنوان ، أو اذا شئت ، الفتوى واضحة · ولكن ابن العنابى تدرج فى اصدار رأيه · فهو لم يجد آية أو حديثا صريحا عن جواز تعلم العلوم الآلية من الاروبيين ، ولذلك راح يبحث فى نصوص أخرى يمكنه بعدها أن « يقيس » عليها · فقد جاء أولا بأحاديث عن جواز تعلم اللغات من غير المسلمين ، مثل حديث تعلم السريانية الموجه لزيد بن ثابت ، لان كتبا كانت تأتى للرسول بها ، فتعلمها الصحابى فى سبعة عشر يوما ، كما تعلم العبرية فى نصف شهر · وقد استنتج ابن العنابى من ذلك جواز تعلم الكتابة أيضا من غير المسلمين ، ودل ذلك الجواز غير المشروط ، فى نظره ، على « جواز تعلم العلوم الآلية التى لها منفعة فى أمر الدين من الكفار » · ولا يتوقف الامر عند تعلم اللغات والكتابة بها من غير المسلمين بل يتعداه الى جواز تعلم كل معارفهم اذا توقف عليها أمر من أمور الدين ، لانه اذا جاز تعلم اللغة السريانية واللغة العبرية والكتابة بهما ، « فغير ذلك من معارفهم الصناعية التى لها موقع فى أمر الدين ، كالذى نحن فيه ، بالاولى » · ومن هذه المعارف أيضا الطب والحساب اللذان يعتبران من علوم

(85) يعنى بدون شك السلطان محمود الثانى ·
(86) السعى المحمود ، ص 92 ·
(87) نفس المصدر ، الفصل 15 ·
(88) نفس المصدر ، الفصل 16 ·

فلاسفة غير المسلمين ، حسب تعبير ابن العنابى • وقد اعتبر شيوخ ابن العنابى هـذين العلمين فرض كفاية على المسلمين • وهذه هى عبارته فى ذلك « وعن هذا ونحوه (يعنى المعارف الصناعية للكفار) عد جمع من مشائخنا وغيرهم ، الحساب والطب فى جملـة العلوم المفروضة على سبيل الكفاية ، مع انهما من علوم كفار الفلاسفة » (89) •

* * *

ونصل الآن الى القسم الثانى من الكتاب ، وهو الخاص « بالامور السياسية » • وقد عرف المؤلف السياسة بأنها مصدر ساس الرعية يسوسها سياسة ، اذا أمر فيها ونهى • فهى ، بناء على هذا التعريف ، سلطة الحكم وسلوك الحاكم • وتطلق السياسة أيضا على حسن التدبير وجودة الرأى • ونقـل عن بعضهم تعريفا آخـر للسياسة يحصرها فى القانون الموضوع لرعاية الآداب والمصالح وانتظام الاحوال •

واذا كان ابن العنابى يرى ضرورة تقليد غير المسلمين فى الامور الحربية والصناعية والعلوم العملية فانه لا يرى ذلك بخصوص التشريع والعلوم السياسية ، بل صـرح بأن السياسة « العقلية » لغـير المسلمين لا يحتاجها المسلمون ، فهـو يقول ان ما عليـه « الكفرة من سياستهم العقلية فنحن فى غنى عنه » ، لان للمسلمين الكتاب والسنـة ، وفيهما من التشريعات السماوية ما يغنى عن قوانين الاروبيين الوضعية • وهذا الـرأى للمؤلف يدل على أنه كان مطلعا على الاتجاه الليبرالى العقلانى الذى بدأ ينتشر فى اروبا بعد الثورة الفرنسية • ومن الغريب اننا نجد ما عبر عنه ابن العنابى هنا شبيها بمـا عبر عنه مواطنه ومعاصره ، حمدان خوجة ، بعد أقل من عشر سنوات ، حين قال وهـو يحاجج الليبراليين الاروبيين انهم لو اطلعوا على ما لدى المسلمين من قوانين وأحكـام لغيروا موقفهم من الحضارة الاسلامية من جهة وغيروا من سياستهم الاستعمارية فى الجزائر من جهة أخرى (90) • وعلى كل حال فان رأى هذين المفكرين جدير بالدراسة والمقارنة، لان

(89) نفس المصدر ، ص 98 •

(90) أبو القاسم سعد الله (الحركة الوطنية الجزائرية) ، دار الآداب ، بـيروت ، 1969 ، ص 43 – 44 • انظر أيضا أبو القاسم سعد الله (مساهمة بعض المفكرين الجزائريين فى الحضارة الاسلامية) فى (محاضرات الملتقى السادس للتعرف على الفكر الاسلامى) ، طبـع وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية ، الجزائر 1973 ، الجزء الرابع ، ص 95 – 146 • وفى هذا البحث تحليل سريع لكتاب ابن العنابى الذى نحن بصدده ، ولآراء حمدان خوجة وغيرهما

كليهما يؤمن بضرورة التقدم والتجديد والاخذ عن اروبا نظامها العسكرى واختراعها العلمى ، ولكن ليس كذلك فى التشريع والسلوك والسياسة ٠

وقد أوضح ابن العنابى بأن مبنى السياسة الشرعية ثلاثة أمور هى :

1) اللين وترك الفضاضة ، أو بعبارة أخرى تبصر الحاكم ومرونته وقدرته على خفض الجناح وكبح الغضب ٠

2) المشاورة ، أو بتعبيرنا اليوم ديمقراطية الحكم وعدم الاستبداد بالرأى والتصرف .

3) عدم استعمال الولاة أو الاطارات اذا كانوا راغبين فى الولاية (أو الوظيفة) ٠

ورغم أن الحاكم ما هو الا فرد من الامة فان المشورة ضرورية له لان رأيه الفردى لا يستطيع أن ينفذ الى كل الاغوار ولا أن يحيط بكل شيء ٠ لذلك وجب عليه شرعا أن تكون له مجالس (استشارية) مع العلماء وأصحاب الرأى فى الامة ٠ وقد أورد المؤلف آيات وأحاديث فى الامور الثلاثة السابقة ٠ ومما جاء فى الامر الاخير أن رجلا جاء للرسول يطلب تعيينا فرد عليه الرسول « لا نستعمل على عملنا من طلبه » ، وعلق ابن العنابى على ذلك بقوله أن الولايات أمانات ، وطلب الامانة دليل على الخيانة ٠

وربط المؤلف بين عدة أمور أخرى تعتبر من صميم نجاح الحكم وقوته ٠ من ذلك أن نجاح أى حكم يتوقف على اجراء العدل بالدرجة الاولى ، لان الظلم مصدر خراب الدولة ٠ وبين أهمية الجيش لقوة الدولة ، وكذلك وفرة المال ، وحرمة العلماء ، وانتشار العمران ٠ وقد أعطى أهمية خاصة لمكانة العلماء والجيش فى الدولة ٠ وحذر من مغبة التبذير والاسراف فى صرف أموال الامة وجمعها بطريقة الاكراه وأخذها ممن يعجز عن دفعها ٠ ومما نقله عن بعضهم تأييدا لرأيه أن « الملك بناء والجند أساسه ، فاذا قوى الاساس دام البناء واذا ضعف الاساس انهار البناء ٠ فلا سلطان الا بجند ، ولا جند الا بمال ، ولا مال الا بجباية ، ولا جباية الا بعمارة ، ولا عمارة الا بعدل ٠ فصار العدل أساسا لسائر الاساسات » ٠ ومن مظاهر عدل الحاكم (والمؤلف يستعمل عبارة السلطان) أن يقرب منه « حملة العلم الذين هم حفاظه ورعاته وفقهاؤه ، وهم الادلاء على الله ، والقائمون بأمر الله ، والحافظون لحدود الله ، والناصحون لعباد الله » ٠ وعلى الحاكم كذلك أن يتفقد جيشه باستمرار ويتعهده ، لان الجيش أساس الملك وهو حامى «الدين والحريم» .

أما المال فهو « قوة السلطان وعمار المملكة » • وعلى الحاكم أن لا ياخذ من الرعية « الا ما فضل عن مصالحها ومعاشها » • وان ينفقه فيما يعود بالفائدة على الرعية كمد الطرق ورفع الجسور واقامة الثغور • وقد قارن بين السياسة المالية للصينيين والفرس والعرب ، ووجد أن اولئك يدخرون الاموال لوقت الحاجة اما هؤلاء فينفقونها فيما ينفع الرعية ويوسع عليها • لان الرعية هى الجند ، وعلى ذلك السيرة النبوية •

ان هذه الآراء للمؤلف حول سياسة الحكم ، وان كان جلها منقولا عن غيره ، فانها توضح مدى تبنيه وتحبيذه لها • والقضايا التى ذكرها فى هذا المجال ، كالعدل والجند ، ومكانة العلماء ، والضرائب ، والعمران ، والمشاورة الخ • كانت حديث الساعة عندئذ لاسيما فى مصر واسطانبول • وقد شاهد هو من استبداد الدايات فى الجزائر وارهاقهم الرعية بجباية الاموال قسرا واستعمالهم البايات (الولاة) الطالبين للعمل والمتآمرين من اجله مع الطائفة اليهودية (اسرة بكرى وبوشناق) (91) ما حرك فى نفسه هذه الخواطر وجعله يكتب بالحاح ما كتب • ولاشك ان ابن العنابى يقف ، بآرائه السابقة فى طليعة المتنورين بالنسبة لوقته •

أما الخاتمة التى جعلها « فى أمور شتى من أسباب النصر والقوة » ، فقد حصرها المؤلف فى معنى الآية الكريمة « ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز • الذين ان مكناهم فى الارض اقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر » • وهناك أربعة شروط تشترط فى الحكام المرضى عنهم من الله والعباد ، وهى :

1) اقامة العدل •

2) اظهار شعائر الدين •

3) نصر المظلوم والاخذ على يد الظالم وكف يد القوى عن الضعيف •

4) مراعاة الفقهاء والمساكين وملاحظة ذوى الخصاصة والمستضعفين •

---

(91) اسماعيل العربى « دور اليهود فى الدبلوماسية الجزائرية فى اواخر عهد الدايات » فى (مجلة تاريخ وحضارة المغرب) عدد 12 ، ديسمبر 1974 ، ص 37 ـ 71 • انظر أيضا اطروحة العربى الزبيرى (التجارة الخارجية للشرق الجزائرى) ، كلية الآداب جامعة الجزائر ، سنة 1972 •

فاذا أخلوا بشىء من هذه الشروط الاربعة « تضعضعت قواعدهم وانتقض عليهم من اطراف ممالكهم » وانتصر عليهم عدوهم واضطربت عليهم الامور وظهر عليهم باغى الفتنة وحاسد النعمة ٠ وأنهى الخاتمة بالحديث عن التوبة وعن أمور أخرى فى سلوك المسلم مستوحاة من السيرة وسلوك الصحابة ، ومأخوذة من كلام المتقدمين والمفسرين ٠ وأبى الا ان يختم كتابه بالحديث عن الجند كما بدأه به فقال : « ينبغى لمن له مظلمة أو حق قبل جندى خرج غازيا ان يسامحه ويعفو عنه حتى لا يعود ضرر مظلمته على الاسلام » (92) والخاتمة ، كما يبدو ، وعظية اخلاقية أكثر منها سياسية أو عسكرية ٠ وأفكارها موجهة بالدرجة الاولى الى الحكام والمسؤولين على الرعية بصفة عامة ٠

* * *

وبعد أن درسنا حياة المؤلف وأقسام ومحتوى كتابه يجدر بنا أن نقف قليلا عند منهجه وأهمية عمله ٠ وأول ما نلاحظه هو أن تقسيم الكتاب على النحو الذى أوردناه يتبع منهجا غير سليم ٠ فالكتاب أساسا جزآن عسكرى وسياسى ، ولكننا لاحظنا ان الجزء الاول هو الذى استأثر بحجم الكتاب ، وهو الذى قسمه المؤلف الى فصول وجعل لكل فصل عنوانا ، وبذل فى ذلك جهودا فى النقل والاستشهاد والاحتجاج والاقناع ٠ ولو جعل المؤلف كتابه قسما واحدا مكرسا « للامور الحربية » وضم القسم الثانى الى الخاتمة لكان أكثر توفيقا وأكثر منطقية حتى مع العنوان الذى اختاره لكتابه ٠ حقا انه قد وجد نفسه مضطرا ، عند تناول الامور العسكرية ، أن يشير الى الامور السياسية أيضا للتلازم بينهما فى حياة الدولة ؛ ولكن ملاحظتنا تنصب على المنهج لا على ادراج الفكرة فى حد ذاتها ٠ وقد لاحظنا كذلك ان الفصل الرابع عشر يحتوى على كثير من النقط التى جاء بها فى المقصد الثانى ٠ ونختم هذه الملاحظات بأن توزيع مادة الكتاب على الفصول لم تكن منسجمة ، فبعض الفصول قصير الى درجة الاخلال وبعضها طويل الى درجة الملل ٠

ويكثر ابن العنابى من النقل بطريقة جعلت شخصيته احيانا تزول أو تكاد ٠ فهو عادة يبدأ بتعريف عنوان الفصل لغويا ثم يورد لذلك المعنى حشدا من الآيات والاحاديث

(92) السعى المحمود ، ص 119 ٠

والاخبار ، وكثيرا ما يبدأ الفصل بآية أو حديث أو بعبارة قال فلان ، الخ • فاذا أراد أن يبدى هو رأيه ، وقليلا ما يفعل ذلك ، يتدخل بكلمة « قلت » بعد ما يكون قد جاء بكلمة « قال » فلان • وطريقة ترجيحه لاحد الآراء طريقة فقهية مملة مثل « قلت وهو الا وجه عندى » أو « قلت وهو الاصح » الخ • وأحيانا يأتى بهذا التعبير الجدلى « فان قالوا كذا قلنا ••• » ومن أجل ذلك يصعب على الباحث ان يفصل رأي ابن العنابى من آراء غيره فى الكتاب ، رغم أنه يأتى بكلمة « انتهى » أو « انتهى منه » عند النقل • وتشيع فى الكتاب روح دينية واضحة ، رغم ان الموضوع دنيوى صريح • فمن نقوله الى طريقة العرض الى وجوه الاحتجاج الى النتائج ، كلها مشبعة بروح عالم فقيه حافظ للنصوص متمسك بالتقاليد • ولا عجب فى ذلك فالرجل من طبقة العلماء القضاة ورجال الرأى والافتاء فى شؤون الدين ، بل ولا عجب أيضا انه كان يتحدث عن الجهاد وشروط المجاهد وعن الاستعداد للحرب للدفاع عن الاسلام وأهله ، وعن اعداد الجندى المسلم للقيام بهذه المهمة • أما اسلوبه فسهل اذا ترسل ، رغم طول الجملة عنده • وقد يستعمل السجع فى بعض الاماكن كالمقدمة • أما سائر الكتاب ــ الذى يكثر فيه النقل كما لاحظنا ــ فهو بحسب النص الذى ينقله • ولعل طريقة ابن العنابى فى كتابه تجعله كتابا غير صالح للنشر كنص لانه من محفوظه أكثر من معقوله • ولذلك ، فيما نعتقد ، أمر محمد على بتلخيصه (أو بعبارة أصح بتجريده) فلخصه تلميذ المؤلف فى حوالى نصفه •

ومما يلفت النظر فى هذا الكتاب عدم تعرض صاحبه للقضايا المعاصرة تقريبا • فباستثناء ما جاء فى المقدمة عن دوافع التأليف وظروفه ، وما جاء فى الفصل الرابع عشر عن « القائم » بامر الدولة العثمانية ، فان المرء لا يكاد يجد فى الكتاب ما يدل على أنه من تآليف القرن التاسع عشر • لقد عرفنا الاحداث التى عاشها أو عاصرها المؤلف فى الجزائر ومصر ، وفى العالم ، وهى احداث كبيرة سياسيا وعسكريا واجتماعيا ، ومع ذلك لا نجده يشير الى واحدة منها فى الاحتجاج أو الاستشهاد • فلا الحملات الاجنبية على الجزائر فى عهده ، ولا سفرته الى المغرب فى مهمة ، ولا الحملة الفرنسية على مصر تجد لها مكانا فى كتابه المخصص لتنظيم الجنود وتقليد الاجانب فيما اخترعوه من أدوات الحرب والقتال • وقد رأى تفوق هؤلاء الاجانب واضحا فى حملة اللورد اكسموث الانكليزى

على الجزائر ، وغارة الاسطول الامريكي بقيادة ديكاتور على الاسطول الجزائري ، في عرض البحر ، ومقتل الريس (الضابط) حميدو الشهير ، ورأى تفوقهم أيضا في حملة نابليون على مصر ، وفي موقعة نافرينو • فلماذا كان يبحث في التاريخ البعيد عن الشواهد بينما شواهده حية معاشة امامه ؟ هل هي روح الكاتب العربي المسلم الذي يبتعد باستمرار عن الواقع هروبا منه وبحثا له عن مكان آمن في التاريخ السحيق ؟ •

وعلى أية حال فقد وجدناه ينقل عن جده بعض الآراء ، ويستشهد بكلام ، غير مباشر أيضا ، من حسين خوجة صاحب (بشائر أهل الايمان) ، والسراج صاحب (الحلل السندسية) ، وكلاهما قريب منه نسبيا • كذلك وجدناه يستعمل عبارة غامضة وهي : « وذلك ما لا يخفى على من جرب » بعد حديثه عن تصنيف الجند • وهي عبارة نفهم منها انه هو المجرب المقصود ، ولكنه لم يفصح عن ذلك بحادث أو حوادث من عصره • وفي حديثه عن الحساب والطب في الفصل الاخير نقل رأي « جمع من مشائخنا » في انهما من العلوم المفروضة كفاية رغم « أنهما من علوم كفار الفلاسفة » (93) ، حسب تعبيره • والواقع ان هذه الاشارات والنقول من حوادث العصر ورجاله تعطي ، رغم ندرتها ، للكتاب أهمية خاصة •

ويقف المؤلف موقفا مبدئيا الى جانب الدولة العثمانية ، فارومته ، كما لاحظنا ، تعود الى آل عثمان • وهو مدين لهم بالوظائف الرسمية التي تقلدها على ايديهم ، كما تقلدها والده وجداه وغيرهم من أفراد أسرته • ومن جهة أخرى كان يعتقد ان الفضل ، كل الفضل ، يعود الى هذه الدولة في انقاذ الاسلام من براثن التتار ، وغارات الاوروبيين طيلة قرون • وقد عاصر هو احداثا كانت فيها هذه الدولة في صراع ضد نفسها من ناحية وضد الخطر الخارجي من ناحية أخرى • فرأى ان الحل يكمن في تجديد هذه الدولة وعودتها الى ما كانت عليه من القوة والرهبة ، أو يكون مصيرها مصير الدولة العباسية ومصير الامم الاخرى التي انقرضت أو تهاوت • فانتصر لتحديث الجند باعتباره اساس الدولة • وكان في

(93) من الغريب ان يؤيد ابن العنابي ذلك ، وهو المطلع على الحضارة الاسلامية والعارف بدور العرب والمسلمين في تقدم الطب والحساب • فكيف يصبحان في نظره من علوم كفار الفلاسفة ؟

ذلك يؤيد أيضا سياسة محمد على فى نفس الاتجاه ، رغم أنه لم يشر اليه بالاسم • ولعل فى ذلك تعريضا بما كانت عليه الانكشارية فى الجزائر من استبداد وصلف وانانية وتخلف •

والموقف من تجديد الدولة العثمانية يقودنا الى الحديث عن موقف المؤلف من قضية التجديد عامة • فقد رأيناه يقف الى جانب التيار التجديدى فى مختلف الميادين ، وليس فى الميدان العسكرى وحده • واذا اتبعنا قياسه فان كل ما يفيد المسلمين فى دنياهم ويجعلهم أعزة اقوياء يجب الاخذ به لان الشريعة الاسلامية لا تمنعه بل تفرضه ، والتهاون فيه يؤدى الى الاثم والعار • وقد رأيناه ينادى بضرورة تعلم اللغات والعلوم الآلية والصناعية ، وعلوم الطب والحساب ، والعلوم العسكرية • ولا يرى فى ذلك غضاضة أو مخالفة للشريعة • والتجديد يعدى كما ان التقليد يعدى • فاذا عرفنا انه نادى بتقصير الثياب ، والنظر فى أمر العمامة والاكمام الطويلة ، واستعمال السلاح الحديث ، عرفنا انه ينادى ، ضمنيا ، بتجديد المجتمع الاسلامى أيضا ، لانه لا يستطيع ان يتصور ، وهو المفتى والمجرب ، ان يتعلم المسلمون تلك اللغات والعلوم كلها ولا يتغيرون فى انفسهم وعقولهم ومذاهبهم فى الحياة • ومن ثمة يبرز ابن العنابى مجددا ومجتهدا أيضا • فهو كرجل دين استعمل عقله بحرية ليصل الى آرائه التى طرحها فى كتابه ، ولو أنه تزمت أو تجمد أو أصر على ضرورة التمسك بالتقاليد لما توصل الى تلك الآراء • على انه تجب الملاحظة الى انه بقدر ما كان المؤلف مجددا فى الحياة العملية والعلوم المفيدة بقدر ما كان محافظا بالنسبة للقوانين التى تسير المجتمع الاسلامى ، فهو يرى ان تلك القوانين (الكتاب والسنة الخ) كافية لضمان حياة سعيدة لهذا المجتمع •

وفى هذا المضمار تدخل آراء ابن العنابى فى السياسة • فقد ألح على ضرورة تمسك السلطان (ويسميه احيانا الامام واحيانا الملك) بالتعاليم الدينية والاخلاقية • كما ألح على مبدا المشورة وعدم الاستبداد بالرأى أو بالحكم • وبين أن صلاح السلطان يظهر فى تقريب العلماء اليه ، وهو لا يعنى العلماء على الاطلاق ، ولكنه يعنى خاصة أولئك العلماء الذين تميزوا بالرأى والاجتهاد والاطلاع ومعرفة الدين ، ولذلك وصفهم بتلك الاوصاف التى اتينا عليها • فمجالس السلطان هى التى تنوره وتبصره بأفضل الطرق

لنجاح جماعة المسلمين · اما الاستبداد والظلم والجور والانحراف عن التعاليم الدينية فقد قال انها تؤدى الى خراب الحكم وسقوط الدولة · وقد جعل العدل وقوة الجيش وصرف المال فيما يفيد الناس عامة اساسا للحكم الصالح · بالاضافة الى انه طالب بمزج الاهداف الدنيوية والدينية عند القيام بأى عمل فى صالح المجتمع ، ومن ثمة ألح على ضرورة الانتصار لله وبالله ، وضرورة التوبة من المعاصى · وهكذا تصبح الاخلاق والسياسة والدين امورا متلازمة فى نظر المؤلف ، وهى بدون شك كذلك فى نظر الدين الاسلامى ·

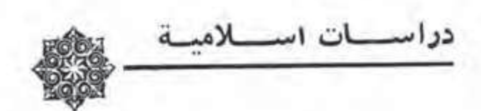
ومن حقنا فى النهاية ان نتساءل : لو أن حسين باشا أخذ بالنظام الذى دعا اليه ابن العنابى ، فهل كان يواجه نفس المصير الذى لقيه على أيدى الفرنسيين ؟ وهل كانت الحملة الفرنسية تنجح النجاح الذى حققته سنة 1830 ؟ ان الوثائق تتحدث عن أن ابن العنابى قد تولى الافتاء فى بداية عهد حسين باشا وفى أخريات عهده أيضا · ونعرف من دراستنا للعهد العثمانى فى الجزائر ان مقام المفتى الحنفى كان بمثابة شيخ الاسلام فى اسطانبول ، ومعنى هذا أن نفوذه كان عظيما وآراءه كانت محل ثقة الجميع · ولكننا نعرف من جهة أخرى ان مكانة العلماء ورجال الدين قد ضعفت لدى الدايات فى العهد الاخير من حكمهم، واصبح هؤلاء يتصرفون بأمرهم ولا يعودون الى العلماء الا فى الاحتفالات والمظاهر الشكلية · ولعل جرأة ابن العنابى اوائل الاحتلال الفرنسى لبلاده واستعداده لتجنيد الجند وتنظيم البلاد ، حسبما تزعم المصادر الفرنسية ، ينسجم مع آرائه فى الكتاب أكثر مما ينسجم موقفه ، كمفتى ، زمن حسين باشا ·

ومهما وجه الى كتاب ابن العنابى من نقد فانه يظل حلقة هامة في التراث الفكرى الجزائرى وفى تاريخ الفكر التقدمى لدى العرب والمسلمين ، فهو من أوائل الكتب التى طرحت مفهوم التجديد على مستوى الدولة الاسلامية ، ونادى صاحبه بعدم الانغلاق امام الحضارات المعاصرة ، ودعا الى تحديث الجيش ، واتباع العدل ، والشورى ، وتوفير المال ، والتمسك بالاخلاق الكريمة ، باعتبار كل ذلك أساسا لقوة وكرامة الامة الاسلامية ·

ومن غريب الصدف ان قضية التجديد التى طرحها ابن العنابى منذ قرن ونصف ما زالت لم تجد حلها الى اليوم ، ولعل فيما أورده من براهين دينية وتاريخية جوابا مفحما للذين ما زالوا منا غير مقتنعين بهذه القضية ·

ابن عكنون (الجزائر) 7 يونيو (جوان) 1975 ·

أبو القاسم سعد الله
معهد العلوم الاجتماعية،جامعة الجزائر



مــن آثـــــار ابــن العنــــابى

د . أبو القاسم سعد الله
معهد العلوم الاجتماعية
جامعة الجزائر

سبق ان عالجنا كتاب (1) السعى المحمود فى نظام الجنود) الذى يعتبر من أهم آثار ابن العنابى العلمية .

وبالاضافة الى (السعى المحمود) ترك ابن العنابى آثارا أخرى كثيرة منها الرسائل والفتاوى والاجازات والكتب والاشعار . وهى جميعا ثروة ضخمة لو جمعت، أو جمع منها البعض لعرفنا صورة صادقة عن شخصية ابن العنابى وعصره وثقافة علماء عصره . ولكن يد البحث ما زالت لم تمتــد الى هــذا التراث بالجمع والفحص والتصنيف والنقد . والى ان يحين هذا نكتفى هنا بوقفات قصيرة فيما قد عثرنا عليــه من انتاج ، تاركين البقية للباحثين الآخرين .

(1) أنظر الاصالة ، عدد 31 ، مارس 1976 .

1) الفتـــــاوى :

وأول ما يلفت النظر كثرة فتاوى ابن العنابى ٠ وقد نقل عنه هذه الفتاوى علـــماء الجزائر وعلمـــاء تونس وعلـــماء مصر وغـيرهم ٠ ولا غـرابة فى ذلـــك فالرجـل كان متمكنا من علوم الدين ، حافظا ، عميق المعرفة وله بعض الآراء المنسجمة مع روح العصر ، وكان كثير الاسفار ، مقربا من السلطة السياسية ، ويبدو انه كان يتمتع بجرأة كبيرة أيضا ٠ ثم انه تولى مناصب دينية عديدة تجعله عرضة لابداء الرأى فى كثير من القضايا التى ترد عليه سواء من رجال الدولة أو من رجال العلم أو من العامة فقد عرفنا انه تولى منصب الفتيا والقضاء والتدريس والاوقاف ونحو ذلك ولا شك ان له ثروة طائلة من الفتاوى بعضها ضاع وبعضها ما زال موجودا ٠

وقد اطلعنا له على مجموعة من هذه الفتاوى ، منها اجوبته على ستة اسئلة وجهها اليه بعضهم من بلاد الروم ، ويغلب على الظن انه من النصارى ، وهو الذى تشير اليه الوثائق باسم (الرومى) ٠ وقد وجدنا نسختين من هذه الاجوبة : نسخة مكتوبة بخط جيد لكن مليئة بالاخطاء وليس لها عنوان خاص ، وهى تقع ضمن مجموع (1) ٠ اما النسخة الاخرى فهى مكتوبة بخط تونسى جيد ، ولعله خط الشيخ محمد بيرم الرابع ، وتكاد تخلو من الاخطاء (2) وليس فى النسختين أية اشارة الى تاريخ نسخها أو كتبها ٠ غير أن فى النص ما يدل على أن ابن العنابى قد كتب أجوبته قبل الاحتلال الفرنسى للجزائر ٠ ذلك انه ذكر فى جوابه على السؤال الثانى قوله فى نهايته : « وعلى هذا كان العلماء الورعون من حنفية بلادنا دار الجهاد والعلم ، الجزائر حرسها الله تعالى » (3) وعبـارة « دار الجهاد » كانت تستعمل للجزائر فى العهد العثمانى وليس فى العهد الفرنسى ٠ ولكن تاريخ الاجابة يبقى ، مع ذلك ، غير محدد ٠ اما مكانها فهو أيضا غير مذكور ، ولكن

(1) رقم 194 ، المكتبة الوطنية ــ تونس ٠ ورقات 18 ــ 24 ٠

(2) رقم 9732 المكتبة الوطنية ــ تونس ٠ ورقات 70 ــ 75 ، ضمن مجموع أيضا ٠

(3) نفس المصدر ٠ ورقة 72 ، كفلك ذكر فى جوابه على السؤال السادس عندما نقل عن جده انه كان مفتى الجزائر « حرسها الله » وهى عبارة تدل على انها كانت غير محتلة من الفرنسيين ، انظر ورقة 74 ٠

يغلب على الظن انه كتبها خارج الجزائر ، بدليل العبارة السابقة ، لان ابن العنابى لو كان فى الجزائر لما قال عبارة وعلى ذلك « حنفية بلادنا » لانها عبارة يستعملها العلماء عادة عندما يكونون خارج بلادهم ·

ومما يلاحظ اننا لا نعرف بالضبط من توجه بهذه الاسئلة الى ابن العنابى غير ان هناك ما يدل على ان السائل كان شخصا «روميا» أو من بلاد الروم· فعنوان نسخة الشيخ محمد بيرم هو « الفتح القيومى بجواب اسئلة الرومى » كذلك ورد فى ثلاثة اماكن على الاقل من النص اشارة الى بلاد الروم.ففى مقدمة الاسئلة هذه العبارة « وهل اذا مات الميت وطلع شخص من الجن فى صورة ذلك الميت وغيره ويجامع زوجته يجوز حرق ذلك الميت كما فى بعض بلاد الروم أولا ··· » وفى الجواب على هذا السؤال اشار ابن العنابى الى هذه البلاد (بلاد الروم) بقوله : «على ما ذكر السائل وغيره ممن جال فى تلك البلاد» وقد جاء فى نهاية الاجوبة « فلا يبعد ان يكون ما اصاب بعض أهل البلاد الرومية من واقعة السؤال الخ ··· » وهكذا يتضح ان السائل من بلاد الروم وان هناك بعض الامور التى كانت تجرى فى هذه البلاد دون غيرها فاستحقت استفتاء ابن العنابى عليها · والمهم ان الاسئلة عبارة عن استفتاءات وجهت الى ابن العنابى ، ولعلها قد وجهت الى غيره أيضا فاجاب عنها كل عالم بما يرى ، ومن ذلك رأى ابن العنابى خاصة ·

ومهما كان مصدر وتاريخ ومكان هذه الاسئلة فانها تتعلق بمسائل جديرة بالدرس اليوم ، ولا سيما بعضها كما سنوضح · وجملة الاسئلة ستة · وهى كما يلى :

1) هل يجوز تقليد مذهب الغير فى صلاة الجمعة والعيدين فى القرى أولا ؟

2) وهل يجوز صيد الطير بالرصاص أو الرش أولا ؟

3) وهل اذا اتخذت المرأة رجلا اجنبيا أخا لها فى الله يجوز لها ان تكشف عليه وينظر منها ما عدا بين السرة والركبة او لا ؟

4) وهل يجوز للمسلم ان يؤاخى الذمى كما يؤاخى المسلم أولا ؟

5) وهل اذا مات الميت وطلع شخص من الجن فى صورة ذلك الميت وغيره ويجامع زوجته يجوز حرق ذلك الميت كما فى بعض بلاد الروم أولا ؟

6) وما السبب في ذلك ؟

وهكذا وردت الاسئلة بالجملة اما الاجوبة عليها فكانت بالتفصيل ، فقد اجـــاب ابن العنابى على كل سؤال اجابة طويلة محللة ومعللة ، كعادته ، فبالنسبة للسؤال الاول كان رأيه الجواز ذلك انه يجوز للعامى فى القرى تقليد من يرى جواز اقامة تلك الصلوات . وقد عزز ابن العنابى رأيه بمواقف لعمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز وعدد آخر من الصحابة والتابعين ، وبموقف الظاهرية وغيرهم . وقد أكد ان « التزام المذهب المعين ... غير ملزم ولا واجب » مستدلا على ذلك بعدد كبير من اقوال الفقهاء والاصوليين . ومما يلفت النظر قول ابن العنابى فى هذه المسألة ان « الواجب على العامى تقليد عالم لا بعينه كما يفيده قوله تعالى « فاسئلوا أهل الذكر ان كنتـــم لا تعلمون - فمتى فعل ذلك فقد اتى بواجب عليه فصار خارجا من العهدة » .

وفى جوابه على السؤال الثانى أكد ابن العنابى بان القدماء لم يتعرضوا لمشكلة الصيد بالرش والرصاص لان « الرمى البارودى مما حدث بعد المسألة السابقة فلا ذكر لاحكام الصيد المصاب به فى كتب الاقدمين . » كما ان المتاخرين لم يتعرضوا له » (4) . وقد استعرض ما جاء فى كتب « اصحابنا » عن الرمى بالبندقية والحجر والمعراض ، مؤكدين ان صيدها غير حلال لانها تقتل بالرمى والكسر ونحوها ولا تجرح فيكون الميت بها « فى حكم الموقوذة » وبناء على جواب ابن العنابى فان نتيجة هذا الصيد لا تنطبق على صيد « بنادق الرصاص ورشه المرمية بنار البارود » لان الرمية بها تنفذ نفاذا أقوى من نفاذ السهام « كما يعرفه كل من تعاطى الرماية البارودية » وقد انتهى الى تلخيص رأيه فى الموضوع وهو ان كل رماية نافذة قاتلة بجرح لا بكسر أو رض يعتبر صيدها حلالا وهذا نص عبارته « فالذى يتعين ان يقال به فى مرميه (الرمى البارودى) انه متى تحقق جرحه وسيلان دمه بحيث يغلب على الظن ان موته من الجرح لا من رض أو كسر

(4) علق الشيخ محمد بيرم على قول ابن العنابى انه لم ير من تعرض للمسألة مـــن المتأخرين فقال انه اطلع على من علق على اجابة ابن العنابى كاتبا ان هذه المسألة قد « عرج عليها من المتأخرين صاحب البحر وصاحب المنح واتفقا فيها على عدم الحل » وأورد محمد بيرم نص ذلك . أنظر الورقة 75 من الاجوبة .

فانه يحل أكله . وبعد ان استشهد لرأيه بنقول كثيرة من « أئمة المذهب » والاحاديث حكم بان الرصاص والرش من أقوى وسائل الصيد سيلانا للدم « كما هو معلوم بالمشاهدة الفاشية » لذلك فان صيدها حلال . وكان هذا هو المعمول به حسب رأيه لدى علماء الحنفية بالجزائر .

ويتبين من هذا الجواب ان ابن العنابى يستعمل القياس وانه لا يتردد فى البحث عن أقوال الأقدمين والمتأخرين فيما عرض لهم ، فان وجده أخذ به أو ناقشه والا اعتمد على التجربة « والمشاهدة الفاشية » وهذا الموقف يجعله يسير فى نفس النهج الذى سلكه فى كتابه (السعى المحمود) عندما دعا الى التجديد والتطور فى المسائل التى لم تعرض للقدماء والتى يحتاجها المجتمع الاسلامى الجديد .

ولابن العنابى رأى جدير بالتأمل نجده فى اجابته على السؤال الثالث . ذلك انه يرى انه لا يجوز للمرأة الشابة ان تكشف وجهها للاجنبى كما لا يجوز لها ان تكشف له أكثر من باطن كفيها وما تحت الكعبين من قدميها . واذا كان هذا رأيه فى حكم النظر فاحرى ان يكون اشد محافظة فى حكم المس وهذا نص عبارته « لا يجوز للمرأة ان تكشف للاجنبى سوى باطن كفيها وما تحت الكعبين من قدميها . وأما الوجه فانه وان لم يكن عورة فى حق الصلاة وحق النظر اليه ، ان أمن الشهوة ، فانه تمنع المرأة الشابة من كشفه بين الاجانب دفعا للفتنة وحسما لمادة الفساد والشر . وحكم المس فى ذلك اغلظ » . وبعد ان استدل لرأيه السابق من بعض الكتب السابقة زاد رأيه مبالغة فقال انه لا يجوز للمرأة « وان كانت عجوزا فانية » ان تكشف للاجنبى عن عضديها وذراعيها وما اشبه ذلك » .

أما المؤاخاة بين المرأة والرجل الاجنبى فى الله فقد وقف منها ابن العنابى موقفا صارما ، ولم يعد فى ذلك لاى موقف سابق للاقدمين بل اندفع يبدى رأيه الشخصى فى الموضوع قائلا انها : « من كبائر المعاصى » وفصل الرأى فى فاعلها فقال ان آخى الرجل المرأة معتقدا ان ذلك قربة « كما يقع من كثير من الدراويش المتقشفة » فهو كافر لان هذا الرجل قد استحل حراما قطعيا ، مستدلا بالآية الكريمة « ولا يبدين زينتهن » ومعللا بان اجماع المسلمين منعقد على ذلك . هذا اذا كان فاعله واعيا عاقلا .

أما اذا كان فاعل الحرام القطعى (مؤاخاة المرأة) جاهلا أو غبيا فانه يزجر ويشهر بعمله، فاذا تمادى فى عمله فقد طالب ابن العنابى « امراء الاسلام » بقتله لانه فى نظره زنديق ظاهر الزندقة · « والزنديق اذا اخذ قبل التوبة قتل ولا تقبل له توبة » ·

وقد خرج ابن العنابى عن موضوعه الأصلى ليحمل حملة كبيرة على من يسميهم تارة « بالزنادقة » وتارة بالدراويش المتقشفين» · فقد اعتبر عمل هؤلاء من اعظم ما اصاب الاسلام واهله من الفساد والشر وقال ان الضرب على ايدى هؤلاء « من اعظم ما يتقرب به الى الله » بل هو الجهاد الحقيقى · وحكم على ما يبدونه من الورع والصلاح بانه محض مكر وخداع · ودعا الله ان يكشفهم ويلعنهم ويسحقهم عن طريق « ملوك الاسلام الذابين عن حمى شريعة سيد المرسلين » ·

وهذه الحملة من ابن العنابى فى ذلك الوقت لها أكثر من مبرر · فقد عرفنا انه قد يكون كتب هذه الاجوبة خارج الجزائر (مثلا فى اسطانبول أو مصر) وانه كتبها قبل 1830 ، وهى الفترة التى تحدثنا عن اهميتها فى تطور المجتمع الاسلامى · ذلك ان هؤلاء الدراويش أو الزنادقة الذين يتحدث عنهم كانوا فعلا يشكلون حجر عثرة فى طريق تقدم الاسلام وأهله وقد عانت منهم الدولة العثمانية أشد المعاناة عندما وقفوا فى طريق الغاء نظام الانكشارية ونحوه من النظم البالية ، وعندما عارضوا كل تقدم كانت الدولة ستأخذ به من أجل تطوير المجتمع · وقد تحدث ابن العنابى عن هؤلاء القوم فى كتابه (السعى المحمود) بطرق أخرى ، تعرضنا اليها · وكان خروجه عن الموضوع الاصلى (المؤاخاة فى الله بين الرجل الاجنبى والمرأة) طفرة أخرى من الطفرات التى يدفعه اليها حبه للتجديد وثورته على التقاليد العقيمة التى تشكل الطائفة التى يشير اليها عقبة فى طريق تحطيمها ·

ولنورد فقرة صغيرة من هذا النص ، وهى جديرة بالتامل والوقوف · فهو يقول : « ورفع فساد هؤلاء الزنادقة ، الذين ادخلوا على الاسلام وأهله اعظم الفساد والشر ، من اعظم ما يتقرب به الى الله تعالى ، فهو من اعظم الجهاد · ولا يعتبر بما يظهرونه من الصلاح والنسك فانه من مكر الزندقة وخداعها ، اخزاهم الله وابعدهم وسلط عليهم من ملوك الاسلام الذابين عن حمى شريعة سيد المرسلين ، من يشتت شملهم ويحسم مادة

فتنتهم وشرهم » . وانظر انه كرر عبارة «من اعظم» ثلاث مرات ، وقد كرر عبارة «ملوك الاسلام » مع عبارته السابقة : «امراء الاسلام» ولكنه قيد العبارة الاولى بهذا الوصف المهم وهو « الذابين عن حمى شريعة سيد المرسلين » ذلك ان ملوك الاسلام ليسوا جميعا فى هذا المستوى الذى يطالب به ، فمنهم من كان يتغاضى عمن اعتبرهم ابن العنابى زنادقة، مشجعين لهم على افعالهم، ومنهم من كان هو نفسه زنديقا بمقتضى المقياس الذى ذكره ابن العنابى .

ومن المهم ان نقارن ما أثاره هنا من قضايا بما أثاره فى كتابه (السعى المحمود) وخاصة حديثه الموجه الى السلطان محمود الثانى العثمانى . ولا نستغرب ان يكون ابن العنابى يعنى بهؤلاء الزنادقة طائفة المتصوفة وأهل الطرق الذين كانت لهم مواقف من النوع الذى يشير اليه كاظهار النسك واخفاء المحرمات. وهو فى هذا يعد من الثوار على أهل الخرافة والشعوذة والطرقية والمتاجرة بالدين فى وقت مبكر نسبيا . ولعله من الافضل مقارنة رأيه هذا فيهم برأى عبد الكريم بن الفكون فيهم أيضا، وهو الرأى الذى عبر عنه فى كتابه « منشور الهداية فى حال من ادعى العلم والولاية » الذى ألفه قبل كلام ابن العنابى باكثر من قرن .

وفى جوابه على السؤال الرابع « مؤاخاة المسلم للذمى » اباح ابن العنابى مؤاخاة المسلم للذمى بشرطين الاول الضرورة الى ذلك والثانى عدم ميل القلب . وقد فسر الضرورة بانها « مصلحة معاشية يبيحها الشرع » فاذا اقتضى الحال الاجتماعى ذلك وكان قلب المسلم خاليا من حب الكافر «فلا بأس بذلك» اما اذا آخى المسلم الذمى مع ميل القلب وتعظيم الكافر فى الباطن فالامر فى نظره يختلف ، فهو من أكبر الكبائر ، بل اعتبر ذلك منافيا للايمان الذى يشترط فيه « الحب فى الله الشامل لجميع ما يحبه الله ورسوله والبغض فى الله الشامل لجميع ما يبغضه الله ورسوله » وقد استدل ابن العنابى على رأيه هذا بقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء » . ونصح بأن يروض المسلم نفسه على كراهة الكفار بقلبه وعلى تجنبهم فى المعاشرة وعدم مخاطبتهم « الا لضرورة لابد منها » على ان يحترز المسلم من ميل القلب اليهم لان ميل القلب اليهم يؤدى الى سلب الايمان من قلب المسلم .

ويلاحظ المرء على جوابه فى هذه المسالة شدة حرصه على مراعاة المسائل الدنيوية الضرورية والمسائل الدينية • فهو بقدر ما كان متعصبا فى شؤون الدين كميل القلب والاعجاب بآثار اهل الذمة ونحو ذلك بقدر ما هو متساهل فى الاخذ باسباب الحياة منهم ، وهو الموضوع الذى طرحه بشكل أوسع فى كتابه (السعى المحمود) •

وقد افتى ابن العنابى فى السؤال الخامس بجواز حرق صورة الميت الذى يظهر بالطريقة التي أثارها السائل • ولكنه تحفظ كثيرا حول هذه النقطة ذلك انه عالجها بطريقة فرضية لا قطعية فكانه لا يؤمن فى الواقع بمثل هذه الحوادث ولكنه اجاب مع ذلك بأنه اذا وقعت يقطع دابرها بالحرق • ومن ثمة نجده يكثر فى جوابه من مثل « اذا شهدت التجربة الصادقة المستمرة » ، « وان لم نطلع على حقيقة السر فى ذلك » وقد قاس هذه المسألة كعادته ، على مسألة أخرى وهى تقوم على ان حرمة الحى مقدمة على حرمة الميت • كشق بطن المراة الميتة اذا ثبت ان فى بطنها طفلا حيا ، رغم أنه من « المعلوم ان شق البطن فيه هتك حرمة الميت» • كما قاسها على القاعدة التى تنص على انه اذا تعارض ضرران يرتكب اخفهما قائلا : « اذا تعارضت بليتان وجب ارتكاب اقلهما ضررا » • وقد استدل لهذه النقط ونحوها فى الجواب بآراء أئمة المذهب الحنفى ، وبالسنة النبوية •

وآخر سؤال اجاب عنه هو قول السائل « وما السبب فى ذلك ؟ » ولكن ابن العنابى كان غير مطمئن لذلك أيضا فاجاب بأنه لا يكاد يجزم به • وهذه هى عبارته « ان هذا أمر مغيب لا نقطع فيه بشىء » ولكنه استنتج من الحادثة « سوء عاقبة » صاحبها ذلك ان المؤمن الحقيقى لا يواجه مثل ذلك وقد استدل ابن العنابى على شقاء من وقعت له هذه الحوادث بآيات واحاديث وآراء فى التفسير • ومن هذه النقول التى اعتمد عليها نقله عن جده الاكبر فى تفسيره متى تكون البشرى للمؤمن فقال : انها فى ثلاثة مواضع « عند الموت وفى القبر وعند البعث » •

كذلك نقل عن جده الاكبر أيضا تفسيره معنى قوله تعالى : « نحن اولياؤكم » حيث فسرها « أى تقول لهم الملائكة عند نزولهم للبشر نحن أولياؤكم أى انصاركم وأحباؤكم فى الحياة الدنيا فنلهمكم الحق ونحملكم على الخير وفى الآخرة بالشفاعة والكرامة لا نفارقكم حتى تدخلوا الجنة » •

واستنتج ابن العنابى بان ما قد حدث لهذا الميت من تصور الشيطان بصورته يدل على ان الميت كان بعيدا عن مصاحبة الملائكة له · واضاف بانه قد « لا يبعد ان يكون هذا نوعا من المسخ الواقع فى آخر الزمان » مستدلا بحديث مروى عن امارات الساعة التى قد تكون منها ما حدث عنه السائل · ويهمنا ان نعرف ان ابن العنابى كان يؤمن بان هناك أمورا قد بدأت تحدث فى « آخر الزمان » وان هذه الامة اذا تظاهرت وتجاهرت بفضائح المنكرات ابتلاها الله تعالى بنوع من المسخ لبعض اشقيائها » · وهو استنتاج لا شك مستوحى من واقع الحياة عندئذ · ففيه تعريض بأن هناك أمورا كانت تجرى فى المجتمع الاسلامى فى عصره تعتبر من « امارات الساعة » ·

وتوضح اجابات ابن العنابى على هذه الاسئلة قدرته على معالجة عدد من القضايا التى كانت تواجه المجتمع سواء كانت دينية أو اجتماعية أو سياسية أو حتى خرافية · ومن جهة أخرى تبرهن على عمق ثقافته فهو يستدل لكل قضية بالعديد من الآيـات والاحاديث والآثار والوقائع فى صبر واناة ، وفى منطق واستدلال ، وفى توسـع وتعمق ، لا تكاد تظفر به الا عند امثاله ·

ونلاحظ ان اجابته وان كانت فى ظاهرها تتناول قضايا تجريدية أو فرضية فانه كان دائما يربطها بواقع الحياة ··· وقد فعل ذلك فى جوابه على جواز تقليد العامى للعالم ، وعلى حلية الصيد بالرصاص والرش ، وعلى منع المرأة من مؤاخاة الاجنبى عنها ، وعلى تجويز ربط العلاقة بين المسلم والذمى ، واخيرا معالجته لقضية الميت المتطور فى فى شكل شيطان فى بعض البلاد · ويحس الدارس له انه كان يعيش مشاكل المجتمع الاسلامى وانه كان يبث افكاره لاصلاحه عن طريق هذه الفتاوى التى ذكرنا بعضها والتى ذكر بعض الباحثين ان له من امثالها الكثير ·

2) اجوبته على آداب مجلس قراءة القرآن :

وضع احدهم مجموعة من الاسئلة والملاحظات التى تتعلق بآداب مجلس القرآن · ومن ذلك السؤال عن حكم قراءة القرآن جماعة حيث « يبنى بعضهم على قراءة بعض ويراعون فى القراءة الطرق والاهوية وحسن الصوت ··· هل ذلك حرام يجب النهى

عنه شرعا ، ومن ذلك السؤال عن حكم شرب الدخان بمجلس قراءة القرآن ، وحكم التلفظ أثناء ذلك أيضا ، وحكم من يقرأ القرآن ، ويشتغل فى أثناء قراءته بالقيام لمن يستحقه اذا قدم عليه ، أو بحديث دينى أو دنيوى ثم يعود لقراءته ، وكذلك حكم من يقرأ القرآن وحده ولكنه يخل فى قراءته بترك المد أو الغنة ، ومن بين هذه الاسئلة هل ما ينطبق فى ذلك على القرآن ينطبق أيضا على الاحاديث النبوية ؟

وقد وجدنا اجابة لبعض العلماء ، على هذه الاسئلة ، منها جواب للشيخ حسن الابطحى المالكى ، وجواب حسن القويسنى الشافعى وجواب ثعليب النمشنى ، ومنها جواب ابن العنابى الحنفى • ويهمنا هنا جواب الاخير • (5)

بدأ ابن العنابى فى جوابه معلنا ان له كتابا فى علم التجويد (6) تناول فيه قضية اللحن فى القرآن • وذكر انه قد قسم اللحن هناك الى نوعين نوع خفى ونوع جلى ، وأوضح ان اللحن الجلى هو خطأ فى الحركة أو السكون فى المبنى • اما اللحن الخفى فهو خطأ فى صفات الحروف • وقسم الخفى الى ما يعرفه عامة القراء كالقلب والادغام والغنة والى ما يعرفه الا المهرة منهم كتكرير الراء وتطنين النون وتغليظ اللام فى غير محله ، وحكم بان تجريد القرآن عن القسم الاول من اللحن الخفى واجب وتجريده عن الثانى مستحب وقد استدل لقوله بالآية الكريمة : « الحمد لله الذى انزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا » • والآية الاخرى « قرآنا عربيا غير ذى عوج » مبينا ان اللحن المعروف للجميع « فيه عوج » ومن ثمة فهو محرم • وقد استنتج ابن العنابى من ذلك ان الذى « يقرأ القرآن بالالحان الموسيقية ••• لاحن لحنا محرما بالدليل القطعى » وان فاعله يكون تاركا أمر الله ومتبعا لما قرره بطليموس ومرجحا لصناعة هذا على أمر الله ورسوله « فهو عاص آثم من وجوه شتى » فان كان جاهلا بالحرمة فعليه ان يستغفر الله

(5) الاسئلة واجوبة بدار الكتب الوطنية ـ تونس ، رقم 18002 ، ويبدأ جواب ابن العنابى على صفحة رقم 28 ـ 33 ، وهي من نسخ الشيخ محمد بن مصطفى ابن الشيخ أحمد ضيف المصرى القليوبى الشافعى سنة 1288 يوم 6 رجب •

(6) لم يحدد له عنوانا بالضبط وانما قال «قد ذكرنا فى كتابنا ••• فى علم التجويد» نفس المصدر ، ص 29 انظر سابقا • وكذلك عثمان الكعاك • (الاصالة) عدد 34 ـ 35 ، ص 64 ـ 65 •

وان كان عالما بها مصرا عليها فانه يعتبر فى نظر ابن العنابى متعمدا تحريف كلام الله ومن ثمة فهو كافر ٠

ولم يطل ابن العنابى فى الخوض فى مسالة قراءة القرآن جماعة ، مكتفيا بايراد الخلاف المذهبى ، قائلا : ان رجال المذهب الحنفى قد اختلفوا فى ذلك فمنهم من جوزها ومنهم من منعها ٠ وقد رجح هو الرأى الاخير استنادا على الحديث الشريف « ولا يجهر بعضكم على بعض بالقرآن » ٠

بينما فصل الكلام فى مسالة شرب الدخان فى مجلس قراءة القرآن ٠ فقال : انه اذا كانت هناك تلاوة جهرية فيجب منع تعاطى الدخان « لما فيه من سوء الادب المؤدى الى الاستخفاف بالقرآن لمكان العادة بالكف عن شربه بحضرة من يتأدب (كذا) معه فالقرآن أولى » اما ان كان متناول الدخان أثناء قـــراءة صامتة أو سرية « فـــلا بأس بتعاطيه » كذلك حكم ابن العنابى بمنع التلفظ عند التلاوة الجهرية ، لانه يجب الاستماع اليها لقوله تعالى : « واذا قرىء القرآن فاستمعوا له وانصتوا » ومن جهة أخرى حكم بجواز قطع التلاوة واشتغال القارىء بالقيام للداخل عليه والاقبال على المتحدث معه بشرط ان يراعى القارىء كيفية القطع ، كأن يقطع عند رأس آية ، وعدم الوقف فى مكان يوهم كفرا ٠ وقال ان الاسراع المخل بالحروف عند قراءة القرآن مكروه كراهة تحريم ٠

والحق ابن العنابى الاحاديث النبوية بالقرآن فى وجوب مراعاة الادب وليس فى وجوب الاستماع اليها ٠ لان وجوب الاستماع خاص بالقرآن والخطب ٠ وأوضح ان مذهب الحنفية يوجب الاستماع للخطبة ولو كانت خطبة نكاح وعلى هذا فان على السامع للحديث الشريف فى خطبة وجوب الانصات له ٠ (7)

---

(7) ختم الاجابة بهذه العبارة « كتبه الفقير اليه سبحانه محمد بن محمود بن محمد ابن حسين الجزائرى الحنفى عفا الله عنهم اجمعين » ٠ ولاحظ انه لم يستعمل عبـــارة « ابن العنابى » نفس المصدر ، ص 33 ٠



مميزات الفترة التى عاشها حمدان خوجه

شهدت الفترة التى عاشها حمدان خوجه (17 75 ـ 40 و 1845 م) (1) حدثين خطيرين ، حدثا فى بلدين ، اوروبيين ، فى وقت متقارب ، وقع اولهما بانجلترة ، وثانيهما بفرنسا ، وبقدر ما اتسم به الاول من تثبت وهدوء بقدر ما كان الثانى عنيفا ودمويا ، وبالرغم من ذلك فلهما خصائص مشتركة كالحدوث فى فترة واحدة تقريبا ، أى خلال العقود الاواخر ، من القرن 18 المعروف بقرن « الفلسفة » ، وقابليتهما للوصف بالثورية ، وما اسفر عنهما من نتائج هى فى توالد مستمر حتى ايامنا هذه ، وان كانا يختلفان فى طبيعتهما ، ذلك أن الاول كان ثورة صناعية اقتصادية أحدثت انقلابا فى وسائل الانتاج وطرقه ، وخلقت مقاييس ومفاهيم جديدة . أما الثانى فهو تلك الثـــورة الفرنسية التى امتازت بالقساوة ، والعنف الدموى لتتمكن من هدم أركان مجتمع كانت وطاته عنيفة على السواد الاعظم من الفرنسيين ، وتقوى على ازالـة ما تبقى من ترسبـات القرون الوسـطى ،

واجتثاث جذور الانظمة القديمة الجائرة اجتثاثا كليا . وما قدر لكل هذا أن يحدث لولا ما بشر به الفلاسفة الانجليز فى بداية القرن الثامن عشر عصر الانوار ، وعبادة العقل والتفكير الديمقراطى والحقوق الطبيعية (2) . وغير ذلك من الافكار التى تصدت لنشرها الطبقة المستنيرة (جان جاك روسو ـ منتسكيو ـ فولتير ...) فى اوساط الطبقات المختلفة . كما تصدت لانتقاد الاوضاع القديمة الموروثة . والعمل على ضرورة التغيير ومسايرة العصر باقامة أسس جديدة لصرح مجتمع جديد . فساعدت بذلك على تعميم التوعية . والاعداد للانتفاضات الجماهيرية . فكانت الثورة الفرنسية ذروة هذه الانتفاضات . التى أثبتت مفاهيم جديدة (الحرية ، المساواة ، الاخاء) حلت محل مفاهيم اجتماعية بائدة . كما قضت على خرافة « الحق الالهى المقدس » الذى أقامته أسرة « البوربون » (1589 ـ 1830 م) وتوارثه ملوكها ودعموه .

وباختصار فان تأثير كل من هاتين الثورتين . لم يقتصر على مكان الحادث . بل تجاوز نطاق المحلية ليشمل القارة الاوروبية باكملها أولا . ثم غيرها من القارات ثانية .

أو لم تكن شعارات الثورة الفرنسية المذكورة قد هزت عروش ملوك أوروبا وجعلتهم يتنادون . للوقوف فى شكل أحلاف ضدها . ومضادة من كان يلوح بها . لتحقيق امجاد ومكاسب . فعرف العالم الاوروبى سلسلة من الحروب المتواصلة ، تعرف بحروب الثورة الفرنسية ، أو الحروب النابوليونية لتتحول الى حرب سياسية . بين الدول المتحالفة ذاتها . كما كان الامر فى مؤتمر فينا (سبتمبر 1714 ـ جوان 1715 م) وفى غيره من المؤتمرات التى اعقبته .

او لم تكن هذه المبادىء قد تفاعلت معها الشعوب الاوروبية . دون ملوكها وأباطرتها . فتحول الصراع بين الملوك وشعوبهم . أو لم تتبلور هذه الشعارات لتأخذ أبعادا اخرى فتخلق مفاهيم جديدة . تجعل الشعوب تعى كنه ذاتيتها وتتعرف على نفسها تدريجيا . طوال القرن التاسع عشر ، فاذا بالتيار القومى يطغى على غيره من التيارات ، فيسمى القرن بقرن القوميات . كما سمى الذى قبله بقرن الفلسفة ، وما قبل هذا الاخير بقرن العلم واستعمال العقل . فتهب الشعوب فى ثورات عارمة . فى كامل مناطق أوروبا بقصد التحرر على « شكل قوة تجمع » أو على شكل « قوة تفتت »(3) وما ساير ذلك من حركات فكرية وفنية أخرى . معبرة عن روح العصر . كالرومانطيقية ، التى عبرت عن خيبة أملها وعدم قدرتها على تفهم روح العصر العقلانى . فتركت مكانها لحركة أخرى واجهت الواقع بواقعيتها ، بعد أن سادت نصف قرن تقريبا . وتركت آثارها فى مختلف أوجه الحياة : الادبية منها والفنية .

أما تأثير الثورة الصناعية فقد كان عاما كذلك . محدثا مشاكل اجتماعية وسياسية . نتجت عنها مذاهب اقتصادية . هى فى تناحر منذ أن ظهرت الى يومنا هذا .

كما تولدت عن الازدهار الصناعي نتائج سياسية كضرورة البحث عن مناطق النفوذ خارج أوروبا لغمرها بالمصنوعات التى عجزت الاسواق المحلية عن استيعابها وجلب المواد الاولية منها ، لضمان استمرارية هذا الازدهار . وتعميرها . بمعمرين ضاقت بهم بلادهم .

تم كل هذا عمليا بتردد وبطء كبيرين ، فى النصف الاول من القرن ـ 19 ـ أما خلال النصف الثانى منه فقد انطلقت الحركة الاستعمارية المباشرة بأقصى سرعة لها . لتكون لنفسها امبراطوريات جديدة من نوع جديد . تغاير امبراطوريات ما بعيد الاكتشافات الجغرافية .

انني اهدف من وراء هذا الاستعراض السريع لاهم الاحداث خلال الفترة التى عاشها حمدان خوجه . وما بعدها بقليل ، أن اجعل القارىء يتصور الاطار الكبير ، الذى وضعت فيه هذه الشخصية . كسياسى مدرك للتطورات السياسية والاقتصادية ، وكمؤرخ عارف لمعظم مؤثرات العصر واتجاهات تياراته .

كما وليس فى امكان أى شخص ، خاصة فى عصر مثل عصر حمدان خوجه أن يكون فى مستوى هذا الفهم . الا اذا أعد اعدادا خاصا . وتهيأت له ظروف اجتماعية ومادية .

المستوى الاجتماعي لحمدان خوجه

ولد حمدان خوجه بالجزائر سنة 1775 م ، من عائلة ذات مكانة اجتماعية عالية (4) . في مجتمع يتأثر بكثير من الاعتبارات والمقاييس تبعا للعناصر المكونة له . كالعرب والكراغلة واليهود والاتراك والقبائل ، تتجلى هذه المكانة العالية سواء في الوظائف . التي تولاها ، كل من أبيه وعمه ، ثم هو ، من بعدهما أو فيما كانت تملكه هذه العائلة من أملاك بالجزائر العاصمة وضواحيها (5) ، وأي مقياس غير هذين المقياسين ، يصلح لقياس المستوى الاجتماعي لدى فرد من الافراد .

كان أبوه كاتبا أول للدولة ورئيسا للكتبة ، شغل منصب « المكتوبجي » وهو « ... من أخطر المناصب في الدولة ، اذ هو في مستوى شيخ الاسلام ، أهمية واعتبارا ، يستشار في كـــل الظروف والمناسبات ، من جانب الداي ، وبذلك كان اتساع معارفه التشريعية مطلوبا ... ونظرا لاهميته ينعم عليه بلقب « افندى » الذى يختص به عادة ، الداي والمفتي . » (5) .

كما كان عمه موظفا ساميا في الدولة شغل منصب أمين السكة « أى أمين بيت المال ، وكلف بسفارة سنة 1784 م الى الباب العالي ، لتسليمه الهدية التقليدية ، وليس هذا التكليف بالامر الهين لان تسليم الهدية ، يتبعه احتمال تسليم مقابل للفرمان ، أو وعود بتقــديم مساعدات مختلفة للنيابة ، لذلك كانت الدقة في الاختيار ، لتولي أمر هذه السفارة ، تتناسب مع الكفاءة والمكانة ، التي تجلت في أكثـــر من مناسبة ، كالتي كان حمدان خوجه وعمه موضع حفاوة واكرام ، عند توقفهمـــا بتونس ، سنة 1801 م ، عائدين الى الجزائر من قبل حموده باشا (1782 ــ 1814 م) ورئيس وزرائه ، وتشكى هذا الاخير لهما من بعض تصرفات الجزائريين (7) وتكليف حمدان خوجــه باعباء أخرى أثناء عملية الاحتلال ، وبعدها ، هذا من ناحية .

أما فيما هو من شان الاملاك فحمدان خوجه يذكر ذلك بنفسه فيقول : « على أن أصرح بملكيتي لقطعة كبيرة من الارض كافية ، من هذا السهل توارثناها أبا عن جد » (8) ثم يقول : « فأنا ملاك لاملاك بسهل متيجة يقدر ما أبذره بهذا السهل سنويا 160 حمولة ابل من قمح وما بين 100 و 120 حمــولة من شعير » (9) . يتضح لنـا اذن بمقارنة مقدار الحبوب التي تبذر سنويا بمدى اتساع الاراضي التي توارثها أفراد هذه العـائلة التي تغلب الظن أنها من أصل العنصر العربي ، ومن طبقة اجتماعية حضرية (10) . وان كان يخالف في ذلك البعض من الكتاب الذين اهتموا بهــذه الشخصية .

ولربما كان هذا الرأى الاول صحيحا ، لمـا يذهب اليه حمدان خوجه من أن الكراغلة قد ابعدوا عن الحكم ، وتولية المناصب الهامة في الدولة ، بعد ثورتهم سنة 1830 م ، ثم يضعف هذا الرأى عندما يذكر ، بأن تسامح الدايات المتأخرين ، والداى حسين منهم بصفة خاصة ، قد فتح المناصب العليا في وجه هذه الطبقة ، وقد تولى منهم الحاج أحمد باى قسنطينة (11) .

وعلى أى حال فسواء أكان حمدان خوجه من طبقة الكراغلة ، أو من طبقة العرب ، فهو مدين لهذا الوسط ، مدين له بالتكوين الذى أحرز عليه ، والمكانة التي تبوأها ، ومكنته من القيام بالدور الذى لعبه في فترة ما قبل وما بعد الاحتلال . اذ لولا هذه الامكانيات الاجتماعية والمادية لما استطاع أن يطوف بكثير من بلدان الغرب والشرق .

كانت سفرته الاولى الى (اسلام بول) مع عمه أمين السكة ، ولما يتجاوز التاسعة من عمره ، ويبدو أنه لبث طويلا خارج الجزائر ، ولم يعد اليها الا في سنة 1801 م مارا بتونس كما سبقت الاشارة الى ذلك (12) وزار خلال هذه المدة ، الشرق الادنى ، والبلقان . وفي حدود سنة 1820 زار فرنسا حيث تعلم اللغـة الفرنسية ، ورأى لويس فيليب (ملك الفرنسيين فيما بعد) مـع عائلته (13) . « ولم يكن حمدان خوجه متغافلا في اسفاره ... بل كان يزور المصانع والمتاجر ... ويتجسس على المعســكرات ويتحسس عــلى الادارات » (14) .

فمثل هــذه الاحتكاكات والاسفار ، لمختلف الدول الاوروبية ، كاليــونان وبلجيكا وفرنسا وسويسرا وانجلتره (15) ، وغيرها ... قد مكنته من المشاهدة العينية ، ودراسة الحالات الاجتماعية

لهذه الشعوب ، والوقوف على سر الاحداث التي كانت تمر بها اوروبا في هذه الفترة .

امـــا مقومات شخصيته الاولى فهي ثقافتــه التشريعية ، التي اخذها عن أبيه الذى كان استاذا لهذه المادة ، كما يتممها من مواد أخرى ، كالاصول والمنطق والفلسفة والتاريخ والطب (16) ، ونظمه القليل للشعر (17) . وعلى العموم فان ثقافـــة حمدان خوجه هي ثقافة كلاسيكية بحيث انه أخذ بطرف كل المواد المذكورة ، ولعل الشيء الذى ميزه عن الكلاسيكيين هو حذقه لاكثر من لغة واحدة ، كمعرفته للغة الفرنسية ، وان كان لا يستعملها في المواقف الدقيقة التي تتطلب السيطرة الكاملة على جزئياتها وأسرار أساليبها ، فكان يفضل في مثل هذه الظروف الاستعانة بمترجم ليترجـــم افكاره ويوضح آراءه ، كما فعل عندما مثل أمـام اللجنة الافريقية (18) . أما اتقانه للغة التركية فلا جدال فيه ، وترجمته لكتابــه « اتحـــاف المنصفين » لدليل على ذلك ، ولو كان الامر كذلك بالنسبة للغة الفرنسية ، لتكلف هو نفسه بكتابة المرآة ، أو ترجمتها الى اللغـــة الفرنسية بدون مساعدة شخص آخر ، ثم هو يقول في مكان آخر بأنه كان يعرف هذه اللغة كمعرفة دوفال للغة التركية . فمعرفته بهاتـين اللغتين المنتشرتين ، بانتشار السيطرة العثمانيـــة الواسعة بالشرق والنفوذ الفرنسي الواسع في الغرب ، قد مكنتاه ، من الاطلاع على ما يجرى في هاتين الامبراطوريتين .

انتاج حمدان خوجه ومحتوى كتبه

لحمــــدان خوجـــه كتب مختلفة المواضيع ، كالسياسية والتاريخية والفقهية والعلمية ، وأشهر كتبه على الاطلاق كتابه :

(1) لمحة تاريخية واحصائية عن نيابة الجزائر المعروف (بالمرآة) لسيدى / حمدان بن عثمان خوجـــه ابن كاتب الدولة السابق (المكالاجي) لنيابة الجزائر ترجمه عن الفرنسية ج ... د ... الشرقي .

وفي الصفحة الاولى هذه العبارات (لبن جمال كونستان) الفيلسوف الفرنسي « عندما تتمكن الانانية من الاطاحة بالطغيان ، فهي لا تهتم الا باقتسام غنيمة الطاغي » (19) الجزء الاول – مطبعة ابناء كوتشي وشركاؤه – نهج لوى لوجران – رقم 35 – 1833 م .

أى أن كتاب المرآة قد طبـع في باريس في أكتوبر سنة 1833 م بعد ان أتمه صاحبه في شهر جويليه (20) .

كما يظهر من الصفحة الاولى للكتـاب ، فـان النسخة المتداولـة الآن ترجمت من العربيـة الى الفرنسية ، بقلم حسونة دغيز الطرابلسي ، كما رمز الى ذلك . أمـــا النسخة الاصلية فما زالت مفقودة (21) وعلى أى حال فمن المؤكد أن النسخة الاصلية العربية تغاير النسخة الفرنسية ، ولو شكليا ، فعبارة « بن جمان » قد لا تكون موجودة في النسخة العربية ، كما يمكن جدا أن تكـــون الاشكال الممثلة للخيام ، التي أعلن عنهـــا في النسخة الفرنسية بأنها ستنشر في آخر الكتاب ، ثم اعتذر صاحبها عن نشرها في الاخير ، مثبتة في الاصل ، الى غير ذلك من اختــلاف في الاساليب ومدلولات بعض الكلمات ، كترجمة كلمة « سبع » وهي عربية تعني كل حيـــوان مفترس ، بعبارة « أسد » وكلمة سلطان بـ « الامبراطور » واطلاق كلمة « الجزائريين » على سكان مدينة الجـــزائر العاصمة .

ويظهر على اخراج الكتاب بدون صور ، طابع العجالة ، حتى يكون في حوزة القراء الفرنسيين للاطلاع على الحقيقة في الوقت الذى تكون فيـــه اللجنة بصدد التحقيق ، في أوضاع الجزائر .

والنسخة المتداولة تنقسم الى كتابين . الكتاب الاول يتضمن فصولا عددها ثلاثة عشر ، مسبوقة بمقدمة (22) . وفيها يذكر الاسباب التي دفعته الى إخراج هذا الكتاب وذلك حسب قوله للحالة الشاذة التي يعاني منها هذا الشعب ، كما دفعه الى ذلك اظهار الحقيقة التي تغافل عنها سابقوه في الكتابة ، في هذا الموضوع ، ويذكر بأن لسكان الجزائر ، مثـل ما للشعوب الاخـرى عـادات ، وتقاليد ...

أما مضمون الفصل الاول من الكتاب الاول فعن أصل بدو الجـزائر ، ويصنفهم الى صنفـين ،

89

يختلفان عن بعضهما ، وهما بدو السهول من أصل عربي وبدو الجبال ، وهم من أصل بربري . والفرق بينهما واضح في اللسان المستعمل لدى كل صنف ، كما يتعرض لاصول نشأة فكرة « تقديس الاولياء » عند البربر ، فيضرب مثالا بسيدى علي بن عيسى تلميذ محمد بن عبدالرحمن المتوفى بالقرن الثامن عشر ، ويستحسن حمدان خوجه مثل وجود هذا المعتقد في الاولياء من طرف السكان ، وخاصة في مجتمع تقوم أسسه على النظام القبلي (23) .

وفي الفصل الثاني ، المعنون « بطبائع وعرف البربر » يصف بعض الالبسة التي اعتاد البربري أن يرتديها ، مثل : « القندوره » وهو يصف هذا الثوب وصفا دقيقا ليصوره للقارىء ، فيقول : « ان هذا الثوب عبارة على قماش من صوف اشبه ما يكون بكيس مثقوب من الوسط ، ليتمكن الانسان من ادخال رأسه عند ارتيداد الثوب ، وبه فتحتان جانبيتان ، لاخراج اليدين أما طوله فحتى الركبتين ... فاذا قدر وأصابه بلل ، فان الثوب يطلق رائحة كريهة ، من كون الصوف لم تنظف تنظيفا كاملا ، قبل أن يصنع منها الثوب ، فيكون وزنه ثقيلا . أما أغنياء القوم فلهم برانس هي بمثابة معاطف ، ولم يصف الثوب الاخير ، لكونه معروفا باوروبا ... ويبقى البربري مرتديا لهذا الثوب الوحيد طوال حياته ، فاذا ما أصابه خرق رقعه لانه لباس العمر الوحيد ، يلبس شتاء وصيفا ، وفي يوم الصحو والمطر . » .

ثم يصف الحائك عند المرأة وهو كذلك مصنوع من الصوف ، لكن حواشيه مطرزة بألوان زاهية ، والمترفات من النساء يربطن رؤوسهن بمناديل أو بقطع قماشية ... أما الاولاد فيبقون عراة ، ماداموا لم يصلوا سن البلوغ .

والانقاء من الرجال يضعون على رؤوسهم « شواشي » لان ذلك من باب الاناقة ، وبحكم أن الشاشية لا تنزع من مكانها الا بعد مدة طويلة ، فان لونها الابيض يتحول الى لون أسود من كثرة الغبار والعرق . أما نعالهم فهي خفاف من جلد الماعز يشبه الخفاف التي كان ينتعلها الرومان . وثيابهم تستعمل للباس ، وتؤدى دور الوسادة عند النوم . أما اغلبيتهم فينامون على الارض كما تنام أقليتهم على الاحصرة ، بعيدين عن بعضهم صيفا ومجتمعين حول موقد نار شتاء ، ومآكلهم الشعير وزيت الزيتون والتين والبلوط ، أما لحوم الطير والحيوانات فأكلهم لها قليل ، اللهم الا في مناسبات ، كمناسبة نزول ضيف عندهم ، فتكون تلك مناسبة لدعوة الجيران ، لهذه الوليمة ، أما الاولاد فما أعظم فرحتهم في مثل هذه المناسبة .

الفصل الثالث ، تابع لطبائع وعرف البربر ، وفيه يصف مساكن السكان والمواد التي أقيمت منها ، وطريقة حياتهم بها ، فهي مساكن لا أثر فيها لأي أثاث الا من الضروريات ، كقربة الماء ، والتين اليابس ، والحبوب ، والاسلحة النارية للدفاع ، يذكر في هذا الفصل الاهتمام بصناعة الاسلحة النارية لوجود بعض مناجم الرصاص في مناطق مختلفة (24) ، وسك العملة ... وينتهي الى القول بأن ما يورده ليس تاريخا مفصلا ، وانما مجرد محاولة لاعطاء فكرة فقط ، عن البلاد وسكانها ثم ينتهي من الفصل ليحكم في الاخير بأن هؤلاء عبارة عن أناس رحل لا يختلفون عن الوحوش ، وبذلك يعتقد أنه من الصعب على فرنسا ، وليس في مقدورها ، ولا في مقدور غيرها من القوى الاخرى أن تخضعهم . وهذا الاستيلاء غير جدير بعظمة فرنسا لانها تملك من الامكانيات البشرية والمالية ما يغنيها عن كل ذلك ... ويتساءل عن الفائدة التي ترمي اليها فرنسا من وراء اتلاف أموالها ، واراقة دماء جنودها والتعرض للمهالك التي يسببها جو البلاد ومناخها ، أفمن أجل ابادة السكان أم بنية امتلاك صحارى جدباء ؟ .

الفصل الرابع سكان السهل ، طباعهم وعرفهم ، يتعرض فيه لطبائع سكان التل ، ولطريقتهم الاجتماعية في الحياة من حيث الالبسة ، وتملك الحيوانات ، ونوع المساكن ، ثم ينتقل الى الحديث عن حياة سكان الصحراء كما سمعها من غيره لانه لم يشاهدها ، ثم يروى النزعات المختلفة ، لبعض المشيخات الصحراوية ، في الفترة الاولى للاحتلال ، التي برزت في الصراع بين أحمد باى المتغلب في الاخير ، على ابراهيم باى وقريبه الشيخ فرحات ، ويذكر في هذا الفصل ، فروسية أهل الصحراء ، والمخاطر الطبيعية لهذه المنطقة وهي في نظره من أهم المناطق بالنسبة للايالة ،

خلافا لما يدعيه غيره من الكتاب الذين هم من أهل السيف لا من أهل القلم .

الفصل الخامس عن منطقة متيجة ، وعادات أهلها وتقاليدهم .

يرد على القائلين بصلاحية هذه المنطقة ، بذكر مساوئها الصحية ، والانتاجية ، والاجتماعية ، ويشير الى مصلح القليعة ، وما أعقب سجنه من فقر ونقصان فى المواد ، وسخط شعبى وثورة نفسية ... وبالرغم من ذلك فان روفيقو يطالب السكان بدفع الضرائب ، كما كان هؤلاء يدفعونها فى عهد الاتراك ، بينما كان السكان يفعلون ذلك فى عهد الاتراك بمحض ارادتهم ، لانه كان عهد ازدهار تجارى وأمن ، أما العهد الحالى فهو عهد فتن وقلاقل ، واذا ما دفع السكان الضرائب فذلك خوفا من بطش روفيقو .

الفصل السادس ، سكان القسم الغربى حول تلمسان ، وسكانها ومكانتها التاريخية ، والاحداث التى حدثت بين العرب والاتراك ، وحسم الخلافات فى الاخير ، بعد جلاء النفوذ المغربى وتشكيل هيأة حكومية حاكمة . وهذه الصور يعرضها مأخوذة عن غيره — من الجزائريين القاطنين بتطوان ، ومدن أخرى بالمغرب الاقصى — ويذكر أهمية تلمسان كمركز تجارى نشيط ، لا بالمنطقة الغربية فحسب بل حتى بالنسبة للمغرب واواسط افريقيا ، اذا ما اعتنى بها ، ويشير باختصار الى مناخ وعرف سكان المدية ، ومليانة ، ووهران ، مدينة الرخاء والتجارة التى حلت محل مدينة معسكر (27) . ثم يرجع الى ذكر المدية ، وبعض الحوادث التى وقعت فيها كخيبة «بارتوزان» فى حملته على المدية ، واسر صهره ، وينهى الفصل برسم حدود الولاية الغربية فيقول : بانها تمتد من مليانة حتى وجدة .

الفصل السابع ، حول الجزائر .

سكان مدينة الجزائر ، خليط من الاندلسيين والاتراك ، والعرب ، والقبائل ، والصنفان الاخيران أقلية ، تكون على مر الايام ، من امتزاج هذه العناصر ، سكان الجزائر العاصمة الذين يمتازون بالمسالمة والوفاء بالوعد ، وبروح التعامل الجماعى ، والنشاط للكسب ، ودفع الاحتياج ، لان الاسلام يدعو للقيام بالمعروف ، والمعروف لا يأتى من المعوز ، لذلك ترى نشاطهم يزداد فى طلب الرزق ، وهم الى جانب ما يتحلون به من الاخلاق الفاضلة ، كاحترام الجار وتقديم المساعدة له ، يمتازون بحذقهم لكثير من الصناعات ، كصناعة مختلف الالبسة ، وحظهم من الذكاء والثقافة وافر ، فكان منهم الشعراء ، والعلماء ، والادباء ، والاساتذة وان امتزاج العنصر التركى والاندلسى ، فى نظره ، قد تولد عنه جنس متفوق ، سليم ، من شتى الامراض .

الفصل الثامن ، فى أصول الحكم التركى ، ومختلف تنظيماته ، ثم تأتى الفصول الاخرى حتى ينتهى الكتاب ، وكلها فصول تتناول تنظيمات مختلفة لأجهزة الدولة ، كالتنظيم العسكرى والديوان ، وعن الحكم التركى ، منذ دخولهم الى الجزائر ، حتى بداية الانحطاط ، الذى حدد بدايته بسنة 1791 م ، ويستمر حتى ولاية حسين داى ، ويتعرض لاسباب هذا الانحطاط وعن بعض الثورات ، والحملات ضد تونس .

أما الكتاب الثانى ، فيتناول فترة الاحتلال الفرنسى فى عهد دوبورمان ، و كلوزيل ، و روفيقو (28) .

أما مكملات كتاب المرآة فهى :

1 — الرسالة التى ارفقها بالمذكرة ، وبعث بها الى اللجنة الافريقية التى كلفت بدراسة أوضاع الجزائر عن قرب ، وتقديم تقرير الى الحكومة الفرنسية تتخذ على ضوئه قرارا بالانسحاب من الجزائر ، أو البقاء بها ، فدام مكوث اللجنة حوالى ثلاثة أشهر بالجزائر ، من 2 سبتمبر 1833 الى 9 نوفمبر 1833 م (29) .

والرسالة » يناشد فيها حمدان خوجة اللجنة الافريقية باسم المحبة الانسانية ويستعطفها باسم العدالة ، أن تكون غير منحازة فى أحكامها ، عادلة فى تقاريرها ، ناظرة الى الجزائريين بمنظار العاطفة نظرا لما يعانونه من ألم القهر والضغط ، وان ترق لحالهم وتعاستهم . فبهذه النظرة — على حد آمال حمدان خوجة — يحظى الجزائريون ، كما حظى من قبلهم اليونان والبلجيكيون بمساعدة وعطف فرنسا ، فيرون (أى أعضاء اللجنة) ما كان يراه

حمدان خوجة من كون « ليس هناك أى حل سوى تغيير الوضع لاستعادة النظام ، وميلاد ثقـــة جديدة » (30)

أما المذكرة ، فهى مختصر لكتاب المــرآة بعث بها حمدان خوجة مع الرسالة الى اللجنــة الافريقية (31) وهى موجودة بباريس بالمحفوظات الوطنية تحت رقم ف 9.80 (32) .

3 ـ تم لحمـدان خوجة نشـرة أخرى تحت عنوان « الرد على تفنيد كتاب حمدان خوجة » . والمقال نشرته مجلة
Extrait de l'Observateur des Tribunaux

صدر هذا المقال فى 25 جويلية 1834 بالفرنسية وممضى بالعربية كرد على من دحض كتاب المرآة بمقال ، فى نفس المجلة ، وبنفس السنة ، والمرجح أنه كلوزبل .

4 ـ كتابه « رسالة اتحاف المنصفين ، والادباء بمباحث الاحتراز عن الوباء » (33) من تحقيـــق الاستاذ ابن عبد الكريم ، وفيه ينصح حمـــدان خوجة بالاخذ ببعض مظاهر التقدم الاوروبى ، كنظام « الكرنتينة » (العزلة الاربعينية) ، والكتاب مترجم عن الاصل العربى ، الى التركية ، بقلـم الكاتب نفسه ، ومن هذا الكتاب نسخة تحت رقم 56 24 بالمكتبة الوطنية بباريس (34) .

5 ـ وله رسالة أخرى شخصية بعث بها من لندن ، الى أستاذه محمد بن على فى الجزائر (35).

6 ـ حكمة العارف بوجه ينفع ، المسألة ليس فى الامكـان أبـــدع مخطـوط بالقسطنطينيـة 1836 م (36) .

المصادر التى اعتمد عليها حمدان خوجة واهميتها بالنسبة للكتابة التاريخية .

ان مؤلفات حمدان خوجة ، مختلفة المواضيع التاريخية (المرآة) والسياسة (المراسلات، والرسالة والمذكرة) والعلمية (اتحاف النصفين) لتعد مصادر أولى للمؤرخ الباحث وللمتبع لمؤثرات العصر ، فى روح الكتابة والاتجاهات المختلفة ، التى سادت الفترة التى عاصرها أو سبقته ، وتناولها بالكتابة وذلك لكونه استند هو نفسه ، على مصـــادر ، من الدرجة الاولى وهى :

أ ـ المشاهدة المباشرة وهى الاساس الـذى اعتمده حمدان خوجة فى كتابته «للمرآة» وكذلك لكتابته «اتحاف المنصفين» ، ويصفها هو نفسه بالوثائق لانه فى الوقت الذى تكونت لديه فكرة الكتابة عن الجزائر ، زار مناطق داخلية ، لهذه الاخيرة ، لم يكن قد زارها قبل الاحتلال ، ليتأكد من صحة ما سيكتبه . فيقول بالنص : «لو لم آكن متخوفا ، ومتألما من وضعية بلدى البئيس بالاضافة الى المتاعب التى سببتها لى شيخوختى ، لجمعت مزيدا من عجيب الوثائق (ويقصد المعلومات) ، حول هذه المنطقة من افريقيا ، (37) ، اذن يدرك بنفسه أهمية المشاهدة المباشرة فى الكتـــابة التاريخية ، ويعتبرها من باب الوثائق ، وحتى فى كتابه اتحاف المنصفين ، عند ما ينصح بتطبيــق نظام «الكرنتينة» يصف ما شاهده خلال أسفاره ، وخضوعه لمثل هذه الانظمة المعمـول بهـا فى أوروبا .

ب ـ الاخذ عن الثقاة (38) ومن ذوى المكانـة المباشرين لاعمالهم كالبايات مثلا ، فكثيرا ما يصرح بأنه لم يشاهد ما رواه بنفسه وانما أخذه عن غيره من الثقاة ، كما هو الحال بالنسبة لسكان الصحراء فيقول : «أما بالنسبة لسكان الصحراء فانى لم أقم بزيارة هذه المنطقة بنفسى وانما تحصلت عن أخبارهم واحـوال المنطقة ، من أشخـاص ذوى ثقـــة » (39) .

ويقول فى موضع آخر عند ما يتعرض لرسـم حدود ولاية الغرب « ان هذه الجزئيات قد أخذتها عن بأى تولى ادارة ولاية وهران ثم قسنطينة » ، وكذلك فى شأن مؤسسة بوشناق، وبكرى ، اللذين كانا أصل مشكل النزاع الفرنسى الجـزائرى ، فيقول : « لقد أخذت عن هذا الشريك نفسه هذه المعلومات » (40) ، ويقصد النزاع الذى تحول بين الشركاء الثلاثة عند ما تضخم ربحهم ، والامثلـة على اسناد الاحداث الى رواتها كثيرة ، فى كتـــاب المــرآة .

أما قيمة محتوى كتبه تاريخيا فتتضح بعــد استعراض الاعتبارات التالية :

أ ـ ان وصف حمدان خوجة للعادات والتقاليد الجزائرية فى مختلف مناطقها ، والاحداث الـتى عاصرها ، تظهر واضحة للقارىء منفصلة عــن الاحكام التى يوردها فى نهاية كل فصل تقريبا ، وهذه الاخيرة تدخل فى نطاق الاستنتاج والتنبىء

بما سيقع من أحداث ، وبالتالى تدخل فى نطاق الاغراض التى كتب من أجلها كتاب المرآة .

ب ـ بناء على ما ذكر آنفا من ان الاغراض غير الحقائق التاريخية ، فليس من المنطق فى شىء أن لا نصدق أو أن لا نعتقد بصحة ما كتبه شخص شاهد الاحداث عن قرب ، وشارك فى تسيير اتجاهاتها نظرا لمكانته فى الدولة والمجتمع معا .

ج ـ توافق ما كتبه حمدان خوجة فى فترة الاحتلال عن تصرفات الجيش الفرنسى ، بما كتبه غيره من الكتاب الفرنسيين المعاصرين للاحداث من امثال : بيشون ، وبروسارد ، حول كثير من الاشياء . أما ما يرويه عن الفترة التى لم يشاهدها كنظام الدولة فى القرن السابع عشر ، ونظام الميليشيا ، وثورة الكورغلان ، وخضوع الحكام لرجال الميليشيا ، فيذكرها مشاهدو هذه الاحداث ، فى كتبهم بنفس الدقة التى رواها حمدان خوجة (41) .

د ـ دام وصف حمدان خوجة للعادات والتقاليد المختلفة لسكان الجزائر من بدو وحضر وصفا دقيقا (42) ، وما دمنا لانزال نشاهد نفس هذه التقاليد والعادات ، فلماذا لا نقيس صحة هذه الاشياء على غيرها من الحوادث الاخرى ؟

هـ ـ وحتى ما كان من باب الاستنتاج بالنسبة لحمدان خوجة ، من ان هؤلاء السكان ، هم أشبه ما يكونون بالوحوش ، ويصعب على فرنسا وعلى غيرها أن تخضعهم ، فقد برهنت الايام بصحة هذه النظرية التى تجسمت فى مقاومة الامير عبد القادر وبوبغلة ، وغيرهما ...

و ـ كما يمكننا أن نحكم بصحة أخباره من صراحته التى يقسو فيها على بعض العسكريين لما ارتكبوه من وحشية، والاشادة بأخلاق الآخرين كالجنرال (لويردو) رجل الشرف والعقلية المثيرة للاعجاب ، والجدير بالانتساب الى الامة العظمى» .

ز ـ كما ان ذكره لجميع التصرفات اللاانسانية قد صاغها فى شكل وثائق ، ومذكرات ، للحكومة الفرنسية على مستوى عال ، وليس من المعقول أن تخلو هذه الاشياء من أساس ، يستند هو عليه (43) .

ح ـ تأجيل اخراج كتابه «المرآة» على أمل وقوع اصلاحات ، أو تغيير لصالح الجزائريين ، حتى على حد قوله : يرصع كتابه بها .

ط ـ اعتراف اللجنة الافريقية ، ذاتها ، بخرق الحكام العسكريين للمعاهدات واقرارها كثيرا من تصرفاتهم ، التى ندد بها ، حمدان خوجة (44) .

الغرض من كتابة كتبه والطريقة التى سلكها :

لقد كتب حمدان خوجة المرآة الى قراء فرنسيين من الشعب الفرنسى ، ولم يكتبها ليقرأها بنو وطنه كما كتب ذلك الى الرسميين فى الحكومة الفرنسية مختصره « المذكرة » التى بعث بنسخة منها الى اللجنة الافريقية (45) لأسباب أشار هو اليها من بينها أن «كثيرا من الكتاب ولو أنهم نشروا كتبا، حول الجزائر ، فمعظمهم لم يتناول الموضوع بكتابته ، الا من زاويته المادية (46) ، كما دفعه الى ذلك «الرغبة فى القيام بأعباء مهمة المؤرخ الحقيقى بمنتهى الصراحة ، هذه المهمة التى لم تجد جرأة لدى أى واحد من كتاب تاريخ نيابة الجزائر لاظهارها » (47) .

وليس من المستبعد أن تكون أغراض أخرى لدى حمدان خوجة من وراء كتابته المرآة الذى نشره بباريس ، كالتأثير على الشعب الفرنسى والحكومة معا .

أما التأثير على الشعب فكان بطريقة سرد صور للتصرفات الوحشية ، التى كان يتعرض لها الشعب الجزائرى من طرف العسكريين كالقتل الجماعى والابادة والتشريد والمطاردة ، فهو بذلك يشبه ، حالة الشعب اليونانى الذى ، عانى من مذابح العثمانيين ، وذلك لاثارة عواطف الفرنسيين والهاب مشاعرهم ، وجعلهم يستنكرون مثل هذه الاعمال ، فيضغطون على حكومتهم بطريقة المظاهرات أو الاحتجاجات ، ويشير الى أن « قضية الجزائر قضية خطيرة ، ما دامت تتعلق بحياة أمة » (48) هذه الامة التى لها مقومات شخصيتها ، كالدين والعادات واللغة والتقاليد (49) ، اذن فهى أمة يحق لها ، أن تتمتع بسيادتها لما لها من عناصر ، تميزها عن غيرها كما كان الامر بالنسبة لليونان الذين حظوا بالتأييد للانفصالعن الدولة العثمانية، وبالنسبة للبلجيكيين الذين لعبت مبادىء دينية ، وسياسية دورها فى فصمهم عن الهولنديين ، وأن الشعوب المتشبعة بالحرية لتتطلع الى اليوم الذى

ترى فيه بولندا قـــد استرجعت سيادتها (50) وبالطريقة العاطفية الرومنطقية التي يعبر بهـــا حمدان خوجه عن مآسيه نتيجة ، ما تعانيه بلاده من آلام الاحتلال ، كقوله : « ان ما يرسف فيـه وطني كان يقلقني باستمرار ، وكثيرا ما كنت خلال تسجيلي لهذه التعاسة ، أضع القلم ، لاترك دموعي تنهمر » (51) . يعكس تيار العصر الذي ســـاد خلال هذه الفترة والذي كان مزيجا من الحركتين الرومنطقية والقومية ، هاتان الحركتان اللتان سادتا مختلف الدول الاوروبية ، والتي كانت بهما شعوب هذه الدول شديدة الحساسية ، فهو بذلك يريد أن يدخل الجزائر ، في هذا الاطار لعلها ، تحظى بشيء من حساسية الشعوب الاوروبية .

أما محاولة تأثيره على الحكومة فهـو الى جانب الاسلوب النفسي الذي استعمله في مخاطبـــة مسؤولي الحكومة الفرنسية ، على مختلف مستوياتهم كالتماسه من الملك « لوي فيليب » بفعل شيء حتى لا يعاني (أي لوي فيليب) من قساوة التاريخ ، لان هذه الاعمال التعسفية قد حدثت في عهده(52). وكذلك مخاطبته لاعضاء اللجنة الافريقية بكونهم ممثلي شعب فرنسا ، المتشبع بافكار الحـــرية ، وبكونهم ينتمون الى دولة لها عظمتها ودورها في مناصرة قضايا القومية ، والحرية (53) وعلاوة على هذا فهو يستعمل أسلوب التخويف ، باظهـــاره شتى المصاعب التي ستتعرض لها فرنسا ، كاحتمال مواجهتها ، مقاومة الاهالي ، أو بدو الجبال الذين لا تقدر فرنسا ولا غيرها على اخضاعهم (54) وأن لهؤلاء من امكانيات الفروسية ، والقدرة على تجييش عدد لا يستهان به عند الحاجة (55) . بالاضافة الى مخاطر الصحراء ، التي يعجز عن السير فيها كل غريب عنها ، مع ما فيها من حيات متنوعة قاتلة لا يعرف سر تجنبها ، الا من ألف حياة الصحراء(56). ومع ذلك فهي من أهم مناطق الايـــالة أهمية ، بالنسبة للبـــلاد اقتصاديا ، في نظـر حمـدان خوجه (57) .

ويصر على أن يقلع من ذهن قارئه فكرة صلاحية الجزائر للاستعمار نظرا ، لسهولها ، الساحليـة الواسعة ، فينفي ذلك حمدان ويؤكد بأنها أشـد مناطق البلاد خطرا ، وأرداها انتاجا ، فهي مصدر للامراض المختلفة ، نظرا لانتشار المستنقعات فيها، وانتاجها من الحبوب رديء الطعم (58) . وتتضح فكرة حمدان خوجه هذه في قوله : « ان احتلال البلاد عديم الجدوى لفرنسا ، بالنسبة لامكانياتها الطبيعية والبشرية » (59) .

يكون حمدان خوجه اذن قد قصد ببعض ما أورده تزهيد فرنسا في الجزائر ، واضعاف لديها نسبة احتمال بقائها فيها ، ما دامت محفوفة باخطارها الطبيعية ، ومكتظة بسكانها البالغ تعدادهم عشرة ملايين نسمة ، الغير القابلين للخضوع بالمرة . وان كانوا قد رضوا بالحكم التركي فذلك راجـــع الى سياسة اللين التي سلكها الاتراك ، معهم ، مستغلا الفكرة السائدة في هذه الفترة ، ومفادها ، أن الاستعمار المباشر ، عديم الجدوى وخاصة بالنسبة لفرنسا التي كانت ، في تردد ، وحـــيرة بشأن الجزائر ، وخير لها أن تدخل في مفاوضات وعقد اتفاقيات لصالح البلدين ، على غرار ، ما هو قائـم بمصر ، ويتحدى حمدان خوجه (وهو العـارف بمجريات الامور) من يرى غير حله هذا بالنسبة لقضية الجزائر بعد أن ذكـــر حلين أخريين ، من الصعب تطبيقهما (60) .

أما كتابه اتحاف المنصفين والادباء الذي أظهر فيـه حمـدان خوجه ثقافتـــه الواسعة ومقدرته العلمية (61) ومدى تشبعه بأوجـــه الحضـــارة الاوروبية المختلفة ، فقد كان يرمي من اصداره وتقديمه ، هدية للسلطان العثماني محمود الثاني، عملية الاصلاح التي خطت خطوتها الاولى في عهد هذا السلطان ، الى الاخذ بأسباب العلم والدعوة الى تطبيق نظام الكارنتينه الذي شاع تطبيقه في أوروبا .

وكما فهم حمدان خوجه محور الاتجاهات الفكرية في أوروبا اذ خاطب قـراءه الفرنسيين بأسلوب معين وبطريقة خاصة فانه متفهم ، كذلك للعقلية الشرقية ، فسلك طريقة خاصة لاقناعهم بضرورة مسايرة الموكب الحضاري . فلم تظهر في كتابتـه رومنطيقية ، ولم يحاول ان يقنع قراءه بتصديق ما يقول ، بالنظر الى مكانته ، بل استعمل لغـة القرآن والسنة (62) في تحامل كبير على بعض المتزمتين والمتعصبين . يكون بذلك قد ساهم في حركة الاصلاح العامة التي كانت الدولة العثمانية لها مجالا ، وبخاصة في عهد السلطان المذكور .

طريقته فى الكتابة

يلاحظ القارىء أن حمدان خوجه يربط الحوادث التى يريد ذكرها بالزمان والمكان ، كحديثه عن منطقة المدية فهو يشير الى الحادث الذى وقع بها ، كحملة « بارتوزان » الفاشلة (63) . وفى حديثه عن قسنطينة يورد النزاع الذى تم بين أحمد باى وابراهيم باى (64) الى غير ذلك . كما يستعمل طريقة المقارنة لتقريب صورة الشىء أو الفكرة الى ذهن القارىء كتشبيهه نظام الاوقاف الدينية بدار (الانفاليد) بفرنسا ، وأشياء أخرى كثيرة ... وكوصفه « للقندورة » بدل تسميتها ، وذلك لتقريب الصورة الى ذهن القارىء (65) . وما عدا ذلك فأفكاره مرتبة مسلسلة وكتابه اتحاف المنصفين والادباء فى الاحتراز عن الوباء ، فقد صاغه بأسلوب معقد ، وسيقت فيها مختلف الادلة للتأثير على قارئيه . وان كان هذا الكتاب الاخير ثمرة تجارب طويلة ، ودعوة الى الاخذ بمظاهر الحضارة الاوروبية فان الكتاب الاول مرجع له قيمته السياسية والتاريخية ، يكتسى قيمته الاولى فى عكسه لنا الصراع السياسى الذى خاضه حمدان خوجه ورفاقه فى غمرة الاحداث العالمية فى تلك الفترة ، ومرجع له قيمته التاريخية لمكانة المؤلف الاجتماعية والثقافية ، ومعاصرته لفترة ما قبل وبعد الاحتلال ، والدور الذى ساهم به فى توجيه سير الاحداث ، وصراحته المتناهية فى تناوله لها .

وان كانت الفترة التى سبقته ، وكان قد أرخ لها ، لا يتسرب اليها أدنى شك لصحتها بالمقارنة كما سبق ذكره ، فالفترة الاخيرة ، التى عاصرها وما كتبه عنها ، فان أقل ما يقال فى أحداثها أنها كتبت ، من وجهة نظر جزائرية ، معاصرة متمكنة من الكتابة ، لمعرفتها بخطورة التأريخ ، ومقدرة للامانة التاريخية ، وعارف بأسرارها ، وبمصاعبها معا (66) .

ولعل ما يؤخذ على حمدان خوجه واضر به هو كتابته للقدمة وللرسالة ، بأسلوب رومنطقى وبعاطفة فياضة ، جعلت القارىء المتسرع الذى لا يربط تأثير تيارات العصر فى الكتابة التاريخية يحكم على انحياز الكتاب (67) . كما أن البعض الآخر قد اتخذ من مطالبة حمدان خوجه ببعض حقوقه ، والدفاع عن بعض مصالحه ، منفذا لجعل حركة حمدان خوجه حركة ذاتية مصلحية (68) ، واعتبارها ثغرات يستدلون بها على ما يذهبون اليه كنفى بعض تصرفاتهم والتهم التى الصقت بهم .

ومن خلال بعض الفقرات من كتاب حمدان خوجه نستشف عجزه فى فهم بعض حركات العصر ، كعدم فهمه ، للحركة الاستعمارية المعبر عنها بالاستعمار الحديث والتى ترمى الى الاحتلال المباشر للاسباب المذكورة فى التمهيد . فهو يتساءل تساؤلات تنم وتؤكد عدم فهمه لهذا الاتجاه الجديد ، كقوله « بأن فرض الغلبة كان دائما يتم على مستوى الحكومات بفرض شروط ، معينة على الحكومة المغلوبة على أمرها ، أما الاحتلال المباشر فلم يسبق أن مارسه متغلب » (69) هذا الاتجاه الذى سيندفع وراءه الشعب الفرنسى بعد سنوات قليلة يدفعه الحنين الى الامجاد القديمة ، والانتصارات السابقة ، ناسيا ما جلبه عليه نابليون بونابرت من آلام (70) لان وطنية شعب حر مستقل ليست الحرية ولكن عليها فهى تطمع فى مزيد من التوسع والاستعمار » (71) .

وبذلك يكون قد فاته شىء لم يضعه فى اطاره العام ، وان كان قد ربطه بالاحداث المحلية (72) ومهما كانت نظرة المؤرخين الى حمدان خوجه (73) ومهاجمة الكتاب المعاصرين له لاغراض مختلفة ، فالكتاب العسكريون قد استفادوا من كتابه « المرآة » فوائد جلى من حيث الاطلاع على أحوال الاجتماعية والنفسية لشعب الجزائر ، ومن حيث خصائص كل منطقة ، من مناطق الجزائر ، وعن تاريخ البلاد ، وبالاخص فى العهد العثمانى »

أما ما وعد به حمدان خوجه من اخراج الكتاب الثانى فقد حال دون ذلك قرار الحكومة الفرنسية القاضى بالحاق الجزائر بفرنسا ، كما أن مثوله أمام المحكمة لتبرير التهم التى اتهم بها غيره ، جعله يشعر بخيبة أمل على حد تعبير ايفان ، وان استمر فى العمل بالصحافة وساهم فى التيار الاصلاحى ، بتأليف من نوع جديد .

الهـــوامش :

1) قدر تاريخ ميلاده د/سعد الله فى كتابه « الحركة الوطنية الجزائرية » بسنة 1773 م ص 37 – كما قدره ايفار بسنـة – 1967 م

2) نور الدين حاطوم – تاريخ الحركات القومية ج 1 ط 1775 م بالمجلة الافريقية لسنة 1913 م

3) نور الدين حاطوم : المرجع السابق

4) خلافا للدكتور سعد الله فى كتابه الحركة الوطنية الجزائرية الذى يقول : بانه من عائلة جزائرية متوسطة الحال ص37

5) المرآة صفحة 103 – 104

6) نفس المرجع

7) المرآة ص 150

8) المـرآة ص 49

9) المـرآة ص 49

10) سعد الله – تاريخ الجزائر الحديث (بدايت الاحتـــلال)

11) المرآة – الفصل 13

12) يستبعد أن يبقى حمدان خوجة كل هذه المدة خارج الجزائر اذ من الممكن أن يكون قد عاد اليها مرات خلال نفس الفترة يفترض ذلك ايفار فى مقاله بالمجلة الافريقية لسنـــة 1913

13) د سعد الله – الحركة الوطنية الجزائرية – ص 37

14) ابن عبد الكريم – حمدان خوجة – «اتحاف المنصفين والادباء فى الاحتراس عن الوباء» ص 13 طبعة أولى – الجزائر 1968

15) المرآة فى مقدمتها

16) ابن عبد الكريم نفس المرجع ص 15

17) من قصيدته التى مدح بها محمود الثانى وكالتى بعث بها الى أحد اساتذته بالجزائر

18) د سعد الله – تاريخ الجزائر الحديث – بداية الاحتلال – ص 121

19) ترجمة بتصرف

20) ايفار المجلة الافريقية

21) يبدو أن هناك من ترجم النسخة الفرنسية الى العربية

22) أوردت الافكار دون النص

23) بتصرف كبـــير

24) انظر المرآة ص 19 – 20 – 21 – 22

25) المرآة صفحة 24

26) ان الفصول السابقة لهذا الفصل وبعده ليست ترجمتهـا حرفية بل ذكرت المعانى والافكار التى بها فقط

27) كانت مقر بايلك الغرب قبل استرداد مدينة وهران من الاسبان حوالى سنة 1792 م

28) لقد سقت ملخص هذه الفصول للاستدلال بالنص على بعض الافكار الواردة فى البحث

29) د سعد الله – تاريخ الجزائر الحديث – بداية الاحتلال – ص 94 و 98

30) د سعد الله – الحركة الوطنية الجزائرية ص 482

31) تكون اللجنة قد تسلمت كلا من الرسالة والمذكرة وهى بالجزائر يظهر ذلك من تاريخ الرسالة 26 أكتوبر 1833 م بينما اللجنة وصلت الى الجزائر فى 2 سبتمبر من نفس السنة

32) عن ايفار بالمجلة الافريقية لسنة 1913 م ص 122

33) ايفار فى الهامش ص 122

34) ابن عبد الكريم ـ اتحاف المنصفين والادباء ص 37
35) فى حوزة ابن عبد الكريم ولا أعرف بالضبط مضمونها عدا انها تنتهى بقصيدة شعرية
36) انظر اتحاف المنصفين ص 32
37) حمدان خوجة ـ المرآة ـ
38) اشار الى ذلك تيسير فى بحثه عن قيمة المرآة التاريخية
39) المـرآة ص 35
40) المـرآة ص 67
41) كتاب بيردان عن مجلة كلية الآداب عدد 2 لابى العيـد دودو
42) انظر الفصل الثانى فى المرآة وملخصه كما سبق فى هذا البحث
43) انظر نسخ المراسلات بآخر كتاب المرآة
44) سعد الله ـ تاريخ الجزائر الحديث ـ بداية الاحتلال ـ ص 108
45) سعد الله المصدر السابق
46) المرآة فى المقدمة ص 11
47) نفس المصدر السابق ص 11
48) المرآة ص 11
49) المرآة ص 42
50) المرآة الصفحة الاولى من مقدمتها
51) أشار الى ذلك ابن عبد الكريم فى كتابه ـ اتحاف المنصفين والادباء ـ ص 9
52) المرآة ص 363
53) الرسالة التى بعث بها الى اللجنة
54) المـرآة ص 24
55) المرآة الفصل الرابع
56) نفس المصدر نفس الفصل
57) نفس المصدر نفس الفصل
58) المـرآة ص 24
59) المرآة الفصل الرابع
60) المرآة ص 324
61) سعد الله تاريخ الجزائر الحديث ـ بداية الاحتـلال ـ ص 79
62) انظر اتحاف المنصفين والادباء من تحقيق ابن عبـد الكريم
63) المرآة الفصل السادس ص 25
64) نفس المصدر الفصل الرابع 37 و 38
65) انظر الفصل الثانى من المرآة
66) المـرآة ص 11
67) انظر المقدمة والرسالة
68) ايفار المجلة الافريقية ص 98
69) المـرآة ص 83 و 84
70) تامبرل وجرانيت ـ تاريخ أوروبا فى القرنين 19 و 20
71) نشرة حزب الشعب الجزائرى
72) انظر بحث تيسير السابق ذكره
73) سالحق بالبحث فصلا عن نظرة المؤرخين المعاصرين وغير المعاصرين الى حمدان خوجة

المراجع المعتمدة في هذا البحث

(1) حمدان خوجة :
لمحة تاريخية واحصائية عن الجزائر المحمية (المرآة) الاصل بالعربية مفقود . ترجم الى الفرنسية من طرف . . . . د . . . الشرقي (حسونة دغيز) باريس 1833 .

(2) حمدان خوجة :
رسالة اتحاف المنصفين والادباء في الاحتراس عن الوباء . تحقيق : محمد بن عبد الكريم ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر . الطبعة الاولى ، أكتوبر 1968 .

(3) ايفــــار :
سي حمدان بن عثمان خوجة . المجلة الافريقية لسنة 1913 من ص 93 الى 138 .

(4) د أبو القاسم سعد الله :
تاريخ الجزائر الحديث (بداية الاحتلال) قسم البحوث والدراسات التاريخية والجغرافية ــ 1970 .

(5) د أبوالقاسم سعد الله :
الحركة الوطنية الجزائرية ــ منشورات دار الآداب ببيروت ط أولى ــ مارس 1969 .

(6) التمـــيمي :
ثلاث رسائل من الحاج أحمد باي قسنطينة الى الباب العالي ــ مجلة المغرب العربي ــ عدد 3 .

(7) شارل اندرية جوليان :
تاريخ الجزائر المعاصر (1827 ــ 1871 م) باريس 1964 .

(8) بيشـــون :
الجزائر وضعيتها الراهنة وماضيها ــ باريس 1833 م .

(9) بيليسييه دي رينو :
الحوليات الجزائرية ــ الكتاب السادس ــ ج 1 باريس 1836 م .

(10) تيســـير :
بحث عن قيمة المرآة التاريخية .

(11) د أبوالعيد دودو :
مقاله بعنوان «الجزائر من خلال تاريخ بيردان» عدد 2 من مجلة كلية من كلية الآداب .

(12) هارولد تمبرلي . وجرانيت :
ترجمة بهاء فهمي ــ أوروبا في القرن 19 و 20 ــ 1950 م القاهرة ــ الطبعة السادسة .

(13) جيفري براون :
ترجمة عبلة حجاب ــ الحضارة الاوروبية في القرن 19 (1815 ــ 1914) بيروت 1963 .

(14) محمد قاسم واحمد نجيب هاشم :
التاريخ الحديث والمعاصر ، القاهرة دون ذكر تاريخ الطبع .

(15) نشرة حزب الشعب الجزائري 1951 .

(16) نور الدين حاطورة :
تاريخ الحركات القومية ج 1 ط دار الفكر الحديث ــ لبنان ــ طبعة أولى 1967 .

الحاج أحمد بـاى وبايلك قسنطينـــة

1837 ـ 1830

د. عبد الجليل التميمى
أستاذ بكلية الاداب والعلوم
الانسانية ـ الجامعة التونسيـة



ان مؤرخى الفترة الاستعمارية قد اهتموا ، متعمدين، ببعض الشخصيات وببعض الاحداث وببعض الفترات التى تتفق مع أهوائهم ، وهذا ما ألحق بالتاريخ الغربى مضرة كبيرة ٠

وبالنسبـــة للتاريخ الجزائرى فان الامير عبد القادر والحاج أحمد باى يمثلان الشخصيتان الهامتان واللتان ظهرتا فى العقد الرابع من القرن التاسع عشر ٠ غير أن شخصية الامير ، فى جميع كتابات الفترة الاستعمارية ، قد غطت باجحاف عن شخصيه الحاج أحمد باى ، ونتيجة لذلك لم يوجد بحث تناول بالدرس ولاية قسنطينة خلال حكم الحاج أحمد باى وحاول أن يدرس مميزات الاحـداث التى كان البايلك مسرحا لها ٠

ان اهتمامنا الاول في هذا البحث كان السعي والبحث عن حقيقة حية وملموسة لهذه الفترة من تاريخ ولاية قسنطينة ، ومن خلال تحرياتنا لهذه الحقيقة ، سعينا الى احلال بعض الشخصيات مكانتهم التاريخية التي يستحقونها ·

ودراستنا تهدف قبل كل شيء الى تقصي واقع الانسان القسنطيني ومعطيات حياته السياسية وانجازاته واختياراته للدفاع عن وطنه ·

وعلى الرغم من الاعتماد الكبير على الوثائق ، فاننا لا ندعي أننا أحطنا بكل شيء لكل ما يتعلق ببايلك قسنطينة من 1830 الى 1837 . وذلك ان بعض الاحداث قد أثيرت بايجاز ، وبعض الاحداث الاخرى الهامة قد عرجنا عليها · ومع ذلك فاننا لا ندعي أن الحقيقة التي سعينا الى ابرازها هو شيء نهائي لا يقبل المراجعة ·

ان ما تقدمه لنا الوثائق من معطيات جديدة هو شيء هام ، ومازلنا نؤمن ان كل مؤرخ مغربي وجب عليه ، في الظروف الحالية ، أن يركز من الاستفادة من مختلف دور الوثائق ؛ كما اننا نرفض الآن أي عمل لا يستند الى الوثائق التاريخية الام والتي هي أساس تقدم البحث التاريخي اليوم ·

وبالاضافة الى هذا ، لا يكفي أن نستفيد فقط من الوثائق الجديدة ، تلك الوثائق التي أهملت سابقا . ولتلعب اليوم دورها في بلورة العطاء التاريخي ، ذلك أن اعادة كتابة التاريخ لا تتوقف فقط على الوثيقة الجديدة ، بل وجب أن يكون المؤرخ يتمتع برؤية وتحليل جديدين يختلفان عن الرؤية السائدة حتى اليوم ، والتي من المؤلم أن يبقى بعض المؤرخين المغاربة يتمسكون بها ، وهذا ما يفسر انحراف رؤيتهم واحكامهم عن الواقع التاريخي المغربي ·

وعلى هذا الاساس ، فان أشد ما نحتاجه هو اعادة تحليل وفهم حتى النصوص المعروفة ، ذلك أن المدرسة التاريخية الفرنسية كانت حريصة على عدم تشويه سمعة فرنسا وجيشها وبالتالي غفلت الحديث عن الاحكام المسبقة والظلم والضغوط وعدم الكفاءة التي كان يتحلى بها الحكام الفرنسيون بالجزائر والمستعمرون أو المستخربون كما يحلو للبعض وصفهم بذلك · كذلك كان المغلوب على أمره دوما مخطئا وأقواله

ومواقفه ملطخة بالكذب والخطا والمبالغة والتعصب ، ومع هذا اذا أخذنا بالاعتبار عناد المنتصرين واصرارهم على ضرب القيم العربية ـ الاسلامية وممارسة أساليب الاحتقار والتنقيص من شأنهم ، فانه يحق لنا أن نتساءل من منا المتعصب واقعا وحقيقة ؟

اننا مقتنعون تماما ان واجبنا يتركز اليوم على الاعتماد على كتابات مواطنينا كما ونرفض مبدأ وشكلا أن يكون تاريخنا يتقولب فقط على ضوء القيم الاوروبية ، بل وجب التركيز على الاستفادة من كل الآراء مهما كان مصدرها مع عدم التسامح ، بشكل واضح وقاطع ، الوصاية والتبعية والانغلاق ولو أدى ذلك الى صراخ واستنكار خصوم البحث العلمى النزيه ٠

ان الدراسة التى خصصناها للحاج أحمد باى قسنطينة تسمح بادراك أصالـــة التاريخ القسنطينى والذى طبع بطابع شخصية رئيسيه ، وأنه من المستحيل فهــم أو شرح الحياة القسنطينية لهذه الفترة دون أن يركز على هذا الباى المسلم والوطنى الغيور ، فضلا عن انجازاته ٠ على أن المهم فى اعتقادنا هو التركيز على ما قام به هذا الباى لحماية البايلك المهدد . وتجاه هذه المجابهة ضد المحتل الاجنبى والمسيحى ، لم يعد هناك مكان المساومات والاستيلاء على السلطة ٠

فبعد احتلال الجزائر تمكن الحاج أحمد باى الذى جابه الجيش الفرنسى الغازى من تقدير وتفوقه العسكرى ، وقد فكر الباى يومئذ للعمل على استرجاع الجزائر التى احتلت من طرف قوة مسيحية ، غير أنه لم يكن قادرا على أخذ أى مبادرة هجومية ، اذ وضعه الادارى كان متأرجحا على الصعيد العسكرى والسياسى لتحقيق مثل هذه الخطة العسكرية ٠ غير أنه من جهة أخرى ، بعد أن تخلص من الانكشاريين ، أصحاب المشاغب والفتن ، ارتبط بعلاقات مصاهرة مع أقوى القبائل القسنطينية، واستطاع بذلك أن يعمل على اعادة تنظيم البايلك ، ذلك التنظيم المحكم والذى مكنه من أخذ مبادرات غير عادية أصيلة فى المغرب العربى ، وهذا على الرغم من بقائه وفيا للباب العالى ٠

ومن هذه المبادرات الرائدة انشاؤه الديوان الذى يشرف على تسيير شؤون البايلك ثم الاصطلاحات العسكرية والنقدية والادارية والغاء النظام الجبائى السابق ، وتعكس

هذه الاصطلاحات الاهتمامات الصعبة التى كانت تشغل الحاج أحمد باى وديوانه ؛ وقد وفق فى تحقيقها فى ظرف وجيز جدا · ثم ان الاجراءات التى تبناها كانت مفيدة لمصلحة البايلك والمواطنين والسلطان العثمانى الذى يعتبر خليفة المسلمين يومئذ · وقد أخذ الحاج أحمد باى على نفسه اعلام الباب العالى بكل مبادراته ونشاطاته ، الا أنه لم يطلب مطلقا ، الاذن أو رأى الباب العالى لكل ما يتعلق بتنظيم ادارته الداخلية . ذلك التنظيم الذى أثبت أن التجربة التى قام بها ، فيما بعد الشاب عبد القادر الجزائرى فى بايلك وهران ، لم تكن جديدة ولا هى فريدة ورائدة ·

واذا كان الحاج أحمد باى قد بقي متعلقا بالباب العالى وهذا ما يفسره تربيتـــه وعقيدته الدينية وأصله ، لابد والحالة هذه أن نعترف أن تصرفه كان وطنيا صرفا وسلوكه كـــان جـزائريـا ، واذا أخـذنا بالاعتبـــار سنـــه ابان الاحتـــلال الفـــرنسى ، فان اعادة تنظيم البايلك كانت تجربة رائدة ومثالية ليعترف له بفضل انجازاته ونضع حدا لهذا التيار الذى تغافل عن الاعتراف به بحجة أنه بقي وفيا للسلطة العليا للاسلام ·

واذا حاولنا أن نتلمس الوضع العام الجزائرى فى هذا الظرف وخصوصا لكل ما يتعلق بخصومات القبائل وتحالفها وسريان الاشاعات من كل جهة ، فان الشاب عبد القادر الذى ظهر على المسرح السياسى متأخرا عن الحاج احمد باى ، لا يمكنه أن يتناسى انجازات هذا الكرغلى · واذا أدركنا كره أهالى بايلك وهران لكل ما هو تركى أو كرغلى ، فاننا نرى أن الشاب عبد القادر الذى أحيط علما بمعطيات الوضع القسنطينى الجديدة ، لا يسعه الا تحقيق نفس التجربة الاستقلالية كما هو الشان ببايلك قسنطينة ، بل وافضل · على أننا نلاحظ اذا كان النسج على منوال محمد على والى مصر قد نبه الى كثير من الحقائق ، فان انجازات الحاج أحمد باى قد بلورت لدى الامير تلك الفكرة خاصة وان الحاج أحمد يتحرك بالقرب منه على المهرح السياسى الجزائرى ، هذا فضلا عن عداوته له ·

على أننا نؤكد اذا كانت التجربة السياسية أو العبدقادرية بانشاء دولة قد عرفت تطورا ملحوظا ، فان الحاج أحمد فى اطار ومعطيات اصلاحاته وحركته العسكرية يبقى شخصية مجددة خلاقة ، دافعت عن الجزائر فى نفس مرتبة الامير ان لم تكن أكثر وفاء واخلاصا واصرارا للدفاع عن الذاتية الجزائرية العربية الاسلامية ، رافضا طوال سبع

سنوات حتى الاعتراف بالسلطة الفرنسية على الجزائر . ماذا ستكون النتيجة لو تحالف الرجلان اللذان كان تأييد الجماهير لهما مطلقا ؟

لقد كان الحاج أحمد باى فى هذه الفترة الحرجة شديدا وقاسيا على أعدائه ، وعلى الرغم من الاطماع والطموحات السياسية والنزاعات القبلية التى كانت تهيج الاطراف كلها ، فان الحاج أحمد مع هذا بقى متمسكا بمضمون القصاص والعدل . ان الحاج أحمد الذى كان يتمتع بتأييد الجماهير القسنطينية له ، استطاع مواجهة مؤامرات الحكـام الفرنسيين ويوسف وأعدائه التقليديين ، فلا المؤمرات ولا الاطماع قد أثرت تأثيرا عميقا على ارتباط القسنطينيين لزعيمهم . ألم يبق بن عيسى ومجموع الشعب وفيا له حتى بعد الاستيلاء على المدينة ؟ وكذلك عدد من المواطنين قد فضل الالتحاق به حتى بعد سقوط عاصمتهم .

وبالاضافة الى هذا ، هناك فئة من الجزائريين فى الخارج قد قامت بدور بطـولى للدفاع عن البلاد وحمدان بن عثمان خوجة يعد المثال الرائد لذلك .

ومن المؤسف أن المدرسة التاريخية الفرنسية قد بثت حوله الشكوك وشوهتـه وعملت على التنقيص من قيمته ولم يعترف حتى اليوم لهذه الشخصية بما قامت به من دور للدفاع عن الجزائر ، وقد اكتفى بوصفه عميلاً للعثمانيين ومؤاخذته أنه لم يجرؤ على استعمال السلاح . ومع هذا لابد أن نتصور ان سنه قد تجاوز الستين وانه كان شجاعا عندما انصرف فى باريس مع حسونة الدغيس وابراهيم بن مصطفى باشا وغيرهم الى المواجهة والكفاح على أرض العدو منددا بانتهاكات الفرنسيين ومطالبا بأملاكه التى افتكت غصبا بطريق الاستيلاء والمصادرة الغير القانونية .

ان فكرة المواطن « الوحشى » والبدوى والجاهل والسارق قد وجدت منطلقا لها ابتداء من هذه الفترة بحيث أصبح بعد قرن من الزمن ، من المستحيل تغيير تلك الصورة وحمدان خوجة ، هذه الشخصية المتميزة ، المثقفة والذكية وذو الاحساس الجمالى بالحياة ، هذا فضلا عن ذوق رفيع وتفتح واع على الغرب ، كانت شخصية تثير القلـق والازعاج ، وهذا ما أدى ، متعمدين ، الى تشويه هذه الشخصية ، وقد اعتبروه تارة

عربيا وطورا كرغليا ثم جاسوسا للعثمانيين ، ولكنهم لم يعدوه البتة كأحد الوجوه اللامعة الوطنية والمدافعة عن بلاده بفكره وقلمه ٠

وعندما التجأ حمدان خوجة الى استانبول فى آخر سنة 1836 ، كان يتابع دوما أحداث الجزائر ، وقد أدرك بحدسه السياسى ان فرنسا عاجلا أو آجلا ستحقق أطماع توسعها فى البلاد المغربية شرقا وغربا، غير أن حمدان لم يدرك جيدا ضعف الامبراطورية العثمانية السياسى والعسكري الا مؤخرا ، وهذا ما جعله يلح بيأس على ارسال اعانات عسكرية فضلا عن التشجيع المعنوى للحاج أحمد باى ٠ والى من غير الامبراطوريـــة العثمانية يستطيع أن يلتجأ ويطلب النجدة ؟

أما الباب العالى ، فمنذ نهاية القرن السابع لم يعد يتحكم فى مصيره ، ولم يبق له الا عظمة انتصاراته الماضية ٠ ان الازمة الداخلية ثم الانهيار الاقتصادى الدورى ، كانا يتطلبان حركة نشيطة للنهوض بالدولة ، وهذا ما لم يقدر عليه المسؤولون العثمانيون يومئذ ، وكان الباب العالى يراقب انحلال امبراطوريته دون أن يقدر على وضع حـد لذلك ٠ على أن التسرب الاقتصادى ثم سياسة المسؤولين الغربيين الذين لم يغتفروا للعثمانيين استلائهم على القسطنطينية ، قد كان وراء هذه السياسة الناعمة والمسمومة والتى مارسها سفراء الدول الغربية والتى أدت مع طول الزمن الى انجاح محاولاتهـم الاخطبوطية لخنق مساعى الباب العالى للعمـل عـلى المحافظة عـلى بـلاد الجـزائـر فى اطـار الدولـة العثمانيـة ، ومما لا شـك فيه ان الاسطول العثمـانى لا يمكن الفرنسية بباريس واستانبول ، لا يمكنها أن تؤدى الى نتائج ايجابية ٠

ان الحاج أحمد باى الذى حرم من كل المساعدات المادية والعسكرية اضطر الى تحصين البايلك لمواجهة التهديد الفرنسى وخاصة بعد عقد معاهدة تافنا ٠ وقد أصبح من المستحيل عليه ، على الرغم من البطولة الفريدة فى تاريخ البلاد العربية الحديث ، ثم الاصرار الذى أظهره فيما بعد ، أن يقف وحده أمام ضخامة الاستعدادات العسكرية التى أعدها الفرنسيون للقضاء عليه والاستيلاء على عاصمة البايلك ٠

ان نتائج الاستيلاء على قسنطينة كانت أكثر خطورة وثقلا من الاستيلاء على الجزائر العاصمة ، وأبعادها تتجاوز منطقة واطار بلاد الجزائر • واذا دققنا مليا فى المراسلات السياسية ، فاننا نلمس مدى ضراوة وعنف وخبث التملق الفرنسى الذى سعى الى تحقير وتشويه الامبراطورية العثمانية وعومل مسؤولوها على أنهم أغبياء •

اننا من خلال أبحاثنا فى هذا الكتاب الذى خصصناه عن بايلك قسنطينة والحاج أحمد باى 1830 ـ 1837 ، لم نســـع مطلقا الى تبرير البعض واتهام الآخرين ، غير أننا هدفنا من كتابتنا لهذه الفترة الحاسمة جدا من تاريخ الجزائر أن تكون استفادتنا من الكتابات والاحكام التى بقيت لنا . موضوعية علمية •

هل نامل أن يكون كتابنا الذى ظهر هذه الايام ، يعكس الرؤية السليمة للكتابة التاريخية المغربية على المستوى المنهجى والاجتهاد التأملى لقضايانا التاريخية المعلقة ؟ ساكون أكثر امتنانا وارتياحا لو يعمل الجيل المغربى من المؤرخين الشباب ، الغـير المعقد ، على مواصلة البحث والاخلاص له رغم كل المصاعب والعراقيل التى يواجهونها اليوم ، وما ذلك على عزيمتهم وايمانهم واخلاصهم وصبرهم بعزيز • *

د• عبد الجليل التميمى

(*) ظهر كتابنا : بمنشورات **المجلة التاريخية المغربية**، الجزء الاول، 304 ص 24 رسما . ونؤمل ظهور النسخة العربية فى جزئين قريبا .

Le Beylik de Constantine et Hadj Ahmed Bey (1830-1837).



دراسات تاريخية

أضــواء على
مذكــرات الأمــير عبــد القــادر
التى أشرف على تسجيلها بقصر أمبواز

المهدى البوعبدلى
عضو المجلس الاسلامى الاعلى
بالجزائر

اننى اخترت سمرنا هذه الليلة كما يــدل عليه* عنوانه : « أضــواء على مـذكرات الامـير عبد القادر التى اشرف على تسجيلها بقصـر امبـواز » .

ان هذه المذكرات لم يكشف عنها الغطـاء الا منذ سنوات قليلة ، وبالضبط منذ ثمان سنـوات وقبل ان اتناول الموضوع ، اسمحوا لى ان اتعرض للحديث عن الظروف التى اكتشفت فيها هــذهالمذكرات ، اذ كانت قبل هذا الاكتشاف مجهولـة تماما ، سواء فى المصادر العربية ، واهمها كتـاب« تحفة الزائر » او المصادر الاجنبية التى تعـد بالمئــات .

غادر الامير الجزائر لآخر مرة ، بعد ما وضعت حربه مع الفرنسيين اوزارها ، وظن انه يقـاد الى بلاد المشرق ، وفاءا بما تعهد له به ولى عهد ملك فرنسـا الـذى ابرم معه عقد الصلح عند ما قابلـه بمرسى الغزوات،ولهذا فوجىء عند ما الزم بالاقامةالاجبارية فى قصر امبواز ، كما نتحدث عن ذلك فى موضعه من هذه الدراسة ، وفى مدة اعتقـالهبالقصر المذكور ، وردت عليه رسالة من اسـقف فرنسى ، يطلب منه الجواب عن سبعة اسئلــة اوثمانية ، فاجاب الامير عليها ، وكلف قريبه ورفيقه فى الاسر ، العالم الاديب ، الشيخ مصطفى ابـنالتهامى ، ان يتولى تحرير فصولها ، وهذا الجواب هو ما اطلقنا عليه اسم المذكرات ، وقد علمنا انهاكانت مجهولة عند المؤرخين ، اللهم الا ما عرف على سبيل الاجمال ، من ان الامـير عندما كان بقصرامبواز ، كان يقصده كثير من الكتاب والمفكرين ،

* محاضرة القيت فى المركز الثقافى الاسلامى بالعاصمة .

والهواة . فيتبادل معهم الرسائل بواسطة الضباط الذين كانوا يتداولون على حراسته ، وأهمهم الجنرالان ، دومان وبواصوني Boissonet اللذان حررا بدورهما مذكرات خاصة ، سجلا فيها انطباعاتهم عن اقامة الامير بقصر امبوز .

اكتشف هذه المذكرات لاول مرة ، الاستاذ هنري تيسي Henri Teissier أسقف مدينة وهران الحالي ، واختار محتواها اطروحة قدمها لنيل شهادة الدكتورة في الآداب العربية ، اكتشف الاسقف المذكور هذه المذكرات عند صهره ، جاك شوفلي Jacques Chevalier شيخ بلدية مدينة الجزائر سابقا ، وبعدما نال منها وطره ، قدمها شيخ البلدية المذكور هدية الى وزارة قدماء المجاهدين ، وهي الآن في المكتبة الوطنية .

هذا مجمل ما يتعلق بهذه المذكرات وبالظروف التي اكتشفت فيها ، وسنتعرض لبعض التفاصيل عنها في صلب الموضوع .

كان السؤال الموجه الى الامير ، ينحصر كما ذكرنا في سبع نقط : الاولى السؤال عن نشأة الامير وترجمة والده ، ثم ذهاب الامير رفقة والده الى الحج قبل توليته بقليل ، ثم الظروف التي تولى فيها الحكم ، وما اتخذه من تراتيب مدنية وعسكرية في دولته الناشئة ، ثم الاتفاقات والاختلافات التي وقعت له مع قادة الجيش الفرنسي في حالتي السلم والحرب ، ثم انطباعاته عند مقابلته لولي عهد ملك فرنسا في مرسى الغزوات بعد انهاء الحرب ، ثم ما هي انطباعاته عن محاسن ومساوى الفرنسيين ، وما هي الطرق التي يراها صالحة لحل المشاكل لوقدر له ، او جعل نفسه مكان الفرنسيين خصوصا فيما يتعلق برعاياه المسلمين الذين اختاروا الاقامة بالجزائر ، محافظين على دينهم ، ورفضوا هجرة الوطن ، واخيرا موقف ملك المغرب عبد الرحمن العلوي معه اهـ .

هذه هي الاسئلة التي قال عنها كاتب المذكرات مصطفى بن التهامي بعد ان نشر الرسالة التي اختصرناها بنصها قال : « فلما قرأ مولانا ايده الله مكتوبه ، واستوعب معانيه كلها ، كلفني أعلى الله مقامه واعاد علينا وعليه عوائد بره بصلاح الحال والمال ، بان اجمع ذلك على ما طلب كاتب المكتوب ، فأجبته بالموافقة ، واثقا باعانة المالك ، وسالكا صحة المسالك ، ومرتجيا نفعا دنيويا ، مآله الصلاح الديني بحول الله وقوته» اهـ تعليق مصطفى بن التهامي الذي كلفه الامير بتحرير هذه الاجوبة ، كما يدل على ذلك ما كتب في أول ورقة من المخطوط بالفرنسية : « تاريخ الامير عبد القادر ونقل مخطوط السيد الحاج مصطفى بن التهامي كتب بعضه بخط الامير سنة 1849 »

12

وهذا النص الاصلي بالفرنسية :

« Histoire de l'Emir Abdelkader. Copie du manuscrit de Sid El-Hadj Mustapha Ben Thami faîte en partie de la main de l'Emir, 1849 »

وقبل ان ندخل في تفاصيل موضوع المذكرات أي اجوبة الامير على اسئلة الاسقف نرجع الى الحديث عن مفاجأة الامير بتصرفات السلطات الفرنسية ،التي داست الشروط ، التي تعهد بها ولي عهد ملك فرنسا. كان لهذه المفاجأة اسباب «في مقدمتها انقلاب الـرأى العام الفرنسي اثر حادث قتل الاسرى الفرنسيين الذين كان عددهم يجاوز 300 اسيرا ، اثر واقعة الكركور المشهورة عند المؤرخين الفرنسيين بواقعة «سيدى ابراهيم» التي وقعت سنة 1846 قرب مدينة مغنية ، اى قبل انهاء حرب الامير بسنة واحدة ، وقد اتهم الرأى العام الفرنسي الامير عبد القـادر بتواطئه مع قادة جيشه ، خصوصا مع قريبه مصطفى بن التهامي قائد المنطقة الغربية حينئذ ، على قتل الاسرى ، وذلك اثر الحملة المسعورة التي شنها الماريشال بيجو ،وقـد خصصت هذه الواقعـة بعـدة تآليف لا يسع المقام لتتبعها وانما نشير الى ان بعض هذه التآليف ، خصصها اصحابها لهذه الواقعة بعد مرور قرن عليها ، اى سنة 1946 ، وحكمـوا فيها ببراءة الامير من دم الاسرى ، بل ذهب واحد من اصحاب هذه التآليف وهو الجنرال أزان Azan الفرنسي فاثبت زيادة على براءة الامير ، اثبت ان جل المسؤولين الفرنسيين كانوا على علم من براءته وانما تعمدوا كتمان ذلك لتضليل الرأى العـام الفرنسي والعالمي ، حتى يجدوا مبررا لنقض شروط الصلح وادانة الامير استجابة لرغبة الماريشال بيجو لحبر يطول .

ذكرنا هذه التوطئة ، لان الامير في اجوبته هذه يظهر عليه الحذر حيث صاغها كلها في قـوالب لا تثـير حقـد خصـومه ، وركزها كلها على ان تصرفاته كانت تصرفات ملك ، بايعه قومه لينفذ فيهم احكام الشريعة الاسلامية ، كما يظهر مـن هذه الاجوبة ، ان الامير كان يتحقق انها لا تهم اسقفا عاديا ، بـل اتخـذت السلطات الاسقف واسطة لاستقصائه الخبر ، حتى يمكنهم من تفنيد مزاعم شانئيه ، من كتاب وصحافيين الذين ايدوا بحملتهم ، وجهة نظر غلاة المعمرين الذين كان على رأسهم بيجو وغيره من الموتورين . ونجد رسالـة الاسقف صريحة في ذلك ، حيث ختمها بقـوله : « واعلم انك اذا قبلت كلامي ، وفعلت بمزيتي ،تنفع ان شاء الله ، وتبطل جميع كذب الكذابين الذين كذبوا عليك وعلى حوادثك في القـوازط ـ اى الجرائد ـ وفي المكاتب ويصفى القول والقال

من تكثير كذب الكذابين عليك ولك الاجر التام من الملك العلام والله يوفقنا للخير بجاه اهل الخير خامس عشر جمادى الاخيرة سنة اربع وستين ومائتين والف » . بهذا الاغراء وهذا الالحاح ختم الاسقف كتابه ، وقد فهم الامير مقصوده ، ولهذا عقب عليه مصطفى بن التهامي وختم تعقيبه بقوله « ومرتجيا نفعا دنيويا مآله الصلاح الدينى بحول الله وقوته »

وقد صور لنا ولده فى تحفة الزائر هذا الجو المختنق بقوله يصف حالة والده وحالة رفقائه بقصر امبواز حيث قال « وداوم الامير فى تلك المدة على تدريس العلم ، وافادة الطلبة من جماعته ثم سلك اخوه محمد السعيد ، واخوه السيد مصطفى ، وخليفته السيد مصطفى بن التهامي جادته ، وافادوا الطلبة افادته واجتمعوا لقراءة البخارى على نية تفريج كربهم الخ »

كما اكتشف اثر آخر ، لا يقل قيمة عن المذكرات ـ وهو مجهول ايضا عند المؤرخين ـ وهذا الاثر يعزز المذكرات ويصور لنا حياة المعتقلين بقصر امبواز ، وانهم بالفعل كانوا يتوجسون خيفة من سجانيهم ، وهذا الاثر الذى اكتشف منذ سنوات قليلة ، هو استغاثة مصطفى ابن التهامي محرر المذكرات ، وهى تربو على الخمسمائة بيت ، وقد مهد لها بقوله « ومما قلته مع الرضى والتسليم للقدر والقضاء ، متوسلا ،متضرعا ، معترفا ، متبرعا ، مفصلا فى الوسائل تارة ومرة مجملا ، راجيا النفع له ، ولكل من دعا بها متبذلا ومؤملا حصول كشف الكرب ، والفرج ، ورفع الشدة عن الداعى الخ

وابتدأ الاستغاثة بقوله :

لما جرى القدر بالخلاف ... ووقع الخلف بالائتلاف
ووجب الوحش بقفر اليم ... والحق النقص ببدر التم
واقتنص الصقر عدو صائد ... وللنعام فى القرى وصائد
وابتعدت عن العقول جيل ... واقتعدت بالاعتراف جيل
لم يبق الا الابتهال والسكن ... للقاهر المالك كل ما سكن

وبعد استغاثته بالانبياء والصحابة والتابعين على عادة المستغيثين قال :

هذا الذى قدمته نجواى ... فى رفع ضيمى وبلا بلواى
فامنن علينا بصلاح الحال ... وانقذن من شدة المحال

14

مولاى يا ذا المن والافضال | داوى سقام دائنا العضال
نفسى مع الرفقة والافذاذ | من ربقة الاسر الى اللواذ
بمنزل رحب الجناب والسعة | ومسجد جماعة وجمعة

ولم يستقل مصطفى بن التهامي بهذه الاستغاثةبل شاركه فيها رفقاؤه وعلى راسهم الامير والى ذلك اشار بقوله :

يا غوث وقتنا اليك يشكو | أميرنا ومعشر فيبكوا
يا صاحب التصريف فى الامور | وكافلا بشانك المأثور
الى جنابك السنى اشفع | باوليـاء اللـه ثم ارفع
الخ

هذا كل ما يتعلق بمناخ الفترة التى قضاهاالامير بقصر امبواز ، وأشرف فيها على تسجيل ما سميناه بالمذكرات ، وانه لا يمكنني ان اتعرض فيمجال هذه الدراسة المحدودة ، للفصول السبعة التى انحصر فيها الجواب فاقتصرت على الفصلينالاولين ، وهما اللذان ركزت عليهما هذه الدراسة أى نشأة الامير فى حجر والده ، متبوعة بفصلمسهب عن الحياة الثقافية اذ ذاك ، ثم رحلته مع والده الى الديار الشرقية ، وهذان الفصلان ،مفيدان جدا،اذ يشتملان على جوانب هامة من تاريخ حياة الامير لا زالت مجهولة بتفاصيلها ، خصوصاالحياة الثقافية فى عهده ، التى ركز جوابه عنها بذكر السند اذ ذاك ، حيث كان علماء العهودالماضية ، يعطونه اهمية كبرى ، لا فيما يخص السند فى علم الحديث فقط ، بل حتى السند فيبقية فروع المعرفة ، التى تربط الحاضر بالماضى ، وتوحد بين علماء الاقطار المختلفة جيلا بعد جيل ،وتمتن الصلة بين العلماء الذين كانوا يتبادلون هذه الاجازات والتآليف ، تارة بتبادل الزيارات والاتصالات وتارة اخرى بالمراسلة ، وهذا الفصل الذى خصصه الامير للسند مجهول اكثره عندالعلماء المتخصصين لجمع هذه الاسانيد فى فهارسهم (واقصد سند علماء الجزائر) .

اما رحلته الى الحجاز صحبة والده التى اجابعنها بتفصيل ، فانها ايضا مجهولة ، بتفاصيلها ، ولو ذكرها عرضا صاحب تحفة الزائر ، وخصصلها بعض السطور ، وقال انهما غابا مدة سنتين ، زارا اثناءهما دار السلام بغداد ولقيا المشائخ ،وجددا العهد القادرى الخ . اما الامير فانه ذكر فى جوابه الناحية الجغرافية التى كانت تمر عليهاقوافل الحجاج برا ، ولم يسبق لغيره ذكرها حيث

انها تختلف على الطريق المعهود الذى كان يمـرعليه المسافر وخصوصا بين وهران وتونس . كما افادنا ان والده ذهب رفقة الوفد الرسمى بحـرامن وهران الى الاسكندرية بعد اجتماعـه بهـم فى تونس . ثم تعرض بتفصيل للبلاد التى زاروهاوللعلماء الذين اجتمعوا بهم فى مختلف العواصم، ويؤيد ما قاله عن الرحلة الى الحج ما اكتشف اخيراأى بعد الاستقلال وبالضبط ، عند نقل رفـاة الامير الى الجزائر ، وهى رسالة كتبها والد الاميرعند رجوعه من الحج ، ومروره على جزيرة قبرص ، سنتحدث عنها فى موضعها ايضا من هــذهالدراسـة .

ولنرجع الى الحديث عن الاجوبة . فالجـوابالاول كان عن نشأة الامير وترجمة والده فاجاب عنه الامير مبتدئا بذكر التعريف بنسب الاسرة ،مما هو معروف ومتفق عليه . ثم واصل حديثـه عن الامير فقال « نشأ رضى الله عنه بطرف غريس،من الجهة الغربية على مرحلة من ام معسكر بمستقر ابيه ، فى قرية اختطها والد والده ، على راس المائةمن القرن الثالث عشر . اشتهر اسمها بالقيطنة ، مشتقة من القطن ، ضد الضعن ، لان أهله قاطنونليسوا باهل عمود ، على مشارع وادى الحمـام ، وهو وادى اكبر الاودية ، ينسب الوادى الى مزار،قبره معترض بين الحمام وبين القبلة ، اسمه محمد ابن الحنفية الخ . وبعد ان ذكر وفاة مؤسس القريةالشيخ مصطفى بن المختار قال انه ورثه ولـده محيى الدين الذى كان له تلاميذ ومريدون يبلـغعددهم (600) ستمائة فرد ، تسعهم سبع حلقات لدراسة العلم ، ثم تعرض لمسجد القرية فقـال :انه بناه احد بايات وهران ، كما ان بايا آخـر ، بنى رحى ، وآخر بنى المسكن الخ .

وهنا بين قوسين ننبه المستعمين على ان تاريخاختطاط القيطنة الذى اشتهر عند الخاص والعام ، بانه كان سنة 1206 هـ ، مصدره الوحيد فيمـاأظن ، صاحب تحفـة الزائـر ، وهو خطأ وغلط ، يخالف الواقع ، اذ نجد المؤرخابا راس الناصرى،اول من وصف قرية القيطنة فى عهد مؤسسهـا قال فى رحلته « وقد ذهبت للقيطنة ذات يـوماسال فى البيوت ما ياكل الطلبة ووقفت ببـاب الجامع ، فاذا هو نوالة كبيرة بمحرابها ، وعـنيمينه بيت الشيخ المشرفى ، فرايت الشيـخ مصطفى بن المختار ، احد تلامذة الشيخ المذكور ،يدرس فى الاول من المختصر ، ثم رجعت فى ساعة فرايت الشيخ مصطفى البطيرى يدرس فى الثانى،ولم يبال بى احد » الخ . اهـ . وقد كان المشرفى هذا هو الامام عبد القادر بن عبد الله المشرفىصاحب التاليف الذى طبع اخيرا بالجزائر واسمه «بهجة الناظر فى اخبار الداخلية تحت ولايـةالاسبانية بوهـران من الاعراب كبنى عامـر »

وهو استاذ جد الامير مصطفى ابن المختار مؤسس قرية القيطنة ، كما هو استاذ المؤرخ ابى راس ، وقد توفى المشرفى هذا سنة 1192 هـ وكان يدرس بالمسجد المؤسس بقرية القيطنة . فكيف يعقل ان المسجد أسس سنة 1206 أى بعد وفاة من درس فيه باربع عشرة سنة وكذلك القرية ، فاننا نجد ابا رأس عندما زار قرية القيطنة ووصف مسجدها . كان ذلك قبل هجره لطلب العلم بمازونة وقد ذكر فى رحلته انه ذهب الى مازونة بعد صومه بسنة . واذا عرفنا ان ابا رأس من مواليد سنة 1165هـ ندرك، ان ما قدمه صاحب تحفة الزائر من ان القرية اسست سنة 1206 غير صحيح وانما يمكن ان المسجد وقع تجديده سنة 1206 اذ ان الباى محمد بن عثمان فاتح وهران اسس عدة مساجد ومدارس بعد فتحه لوهران وكان الباى محمد بن عثمان من تلامذة مصطفى ابن المختار مؤسس القرية المذكورة ونفس صاحب المذكرات قال عن تاريخ اختطاط القرية : « اختطها والد والده على رأس المائة » .

ولنرجع الى اجوبة الامير التى واصل فيها صاحبها حديثه « وبقى محيى الدين الى ان تولى ولده عبد القادر فمات بعد سنة من توليته » ثم تعرض للحياة الثقافية فى بلاد غريس اذ ذاك فقال : « ان جد الامير مصطفى ابن المختار أخذ عن عبد القادر بن عبد الله المشرفى وهو أخذ عن المنور التلمسانى ثم ذكر العلماء الذين أخذ عنهم أو كانوا فى عهده وذكر مختلف اسانيدهم المتصلة بعلماء الجزائر وفاس وتونس والازهر كل ذلك بتفصيل ودقة لم نجدهما فى غير هذه المذكرات . كان علماء ذلك العهد يعطون أهمية كبرى للسند والاجازة . نجد فى كتب التراجم خصوصا فى بلاد المغرب العربى عندما كانت تتوتر العلائق بين ولاة الجزائر تارة مع ولاة المغرب وتارة مع ولاة تونس . ويقصد علماء المغرب أو علماء تونس مكلفين بالسفارة يقصدون المساجد حيث يتصلون مع علماء البلاد الجزائرية ويتبادلون معهم الاجازات والتآليف وكذلك العكس عندما يذهب العالم الجزائرى فى نفس المهمة الى المغرب أو تونس يتصل بعلماء البلاد الموفد اليها ويتبادل معهم الاجازات والتآليف . والادباء والشعراء منهم يمدحون بعضهم بعضا بالقصائد البليغة لا زال الكثير منها محفوظا بحمد الله . كما كان فضل هذه الاتصالات كثيرا ما يذلل العقبات ويسهل على السفير بلوغ امنيته . ولما انهى صاحب المذكرات حديثه عن اسانيد العلماء الذين أخذ عنهم جد الامير . عقب على ذلك بقوله : « هذا ما تيسر بحسب الوقت من طريقنا العلمية ولا يذهب الوهم بمن وقف على هذه الاسانيد فيعتقد اننا لم نأخذ العلم الا من بعيد . بل وطننا الغريسى

محط علم ومحل تعلم وتعليم ، فهاهو الجوزى فى« عقد الجمان » لما تكلم على بعض الاجداد المذكورين فى النسب قال « ومنهم ... ابو محمد السيد عبدالقادر بن احمد بن محمد من ابناء عبد القوى المعروف بابن خدة مرضعته ، وبهذه الاوصاف حلاه الشيخ عبد الله الونشريسى فى كتاب البستان فى ذكر العلماء والاعيان ، وتفقه عليه كثير من الناس منهم شيخنا السيد عبد الرحمن ابن زرقة وسيدى ومولاى على الشريف الخ .

ثم استانف صاحب المذكرات حديثه فقال :« وقد كان الغدامسى يعظم نقله ، ويعبر عنه بشيخ شيوخنا فى غير ما مرة فى شرحه على الصغرى ، ولما صنف خطيب الجزائر ومفتيها سيدى قدورة فى التوحيد قال هذا جعلته كالتكميل لتقييد شيخنا السيد عبد القادر بن خده فلا بد من الجمع بينهما على ان الجوزى ذكر ان فى غريس كان ما يزيد على مائة قرية ، قال شيخنا السيد ابن عبد الله ابن الشيخ المشرفى (وهنا بين قوسين) يقصد مصطفى ابن التهامى شيخه ابن عبد الله المشرفى ، حفيد عبد القادر ابن عبد الله المشرفى ، الذى سبق الحديث عنه ، اذ كثيرا ما يشتبه الحفيد بسميه الجد ، وابن عبد الله شيخ مصطفى ابن التهامى حافظ مشهور ، له فهرس ، وقد تولى القضاء فى العهد التركى والتدريس بام عسكر ، ثم تولى الخلافة فى عهد الامير عبد القادر وأوفده فى سفارة الى ملك المغرب ، حيث لقى حتفه ، ودفن بمكناس ـ قيل مات مسموما ـ قال صاحب المذكرات « قال شيخنا السيد ابن عبدالله ابن الشيخ المشرفى رأيت كتابا وقفت على تمامه ، فوجدت الكاتب لما كتب اسمه قال ، كتبته بقرية أولاد على ابن صناج ، وفى القرية ما يزيد على ثلاثمائة مؤلف ، والقرية هى اليوم خربة ،تسمى القواير ، وبقربها روضة سيدى عثمان بن عمر ، تحت ام عسكر ، عند انجدار واديها الى الارض المستوية البطاح ، ثم قال وناهيك بوطن خرج منه العلامة شيخ الاسلاف محمد المصطفى الرماحى ومن حاكاه من تلامذته ، وذكر عددا وافرا من علماء الراشدية وختم قائمة العلماء بذكر بعض علماء وهران وتلمسان . ثم تعرض الى الحديث عن الفقرة الثانية من الرسالة أى الرحلة الى الحج ،وقبل ان اتعرض لهذه الفقرة التى استوعبت رحلة الامير صحبة والده الى الحج ، نرجع الى الحديث عن الحياة الثقافية بالراشدية تعليقا على ما ذكره صاحب المذكرات ، اذ نجده اطال النفس فى ذلك،وتاييدا لما ذكره وتتميما للفائدة نذكر ان مراكز الثقافة بالجزائر فى العهد التركى انتقل جلها من المدن الى القرى والجبال كما وقع لبجاية بعد احتلال الاسبان لها ، فان المراكز الثقافية بها انتقلت الى واديها ، والى قمم جبالها ، وصار طلبة

المدن يلتحقون بها ، ومنهم سكن مدينة قسنطينة نفسها ، التى لم تصب بمكروه ، بفضل موقعها ، ومع هذا ، نجد كثيرا من علمائها ، قصدوا معاهدوادى بجاية للعلم ، وللقراءات ، كما ذكر ذلـــك وترجم لكثير من هؤلاء الاعلام ، عبد الكريم ابن‌الفكون فى تأليفه الذى خصه لتراجم علمـــاء قسنطينة ما بين القرن العاشر والحـادى عشر ،وكذلك وقع لنفس طلبة العلم بمدينة الجزائـر ، التى رغم استحالتها فى العهـــد التـركى ، الى‌عاصمة ، ومع هذا نجد نخبة علمائها ، انتقلـوا الى معاهد قرومة ، ومجاجة ، وقد تخرج من معهدمجاجة ، العالم الشهير الشيخ سعيد قـــدورة ، واستاذه ابو القاسم المطماطى ، اللذان توليـــا‌الافتاء المالكى بالعاصمة الواحد بعد الآخر ، اما القطاع الغربى ، الذى له صلة بموضوع بحثنا ،فانه اشتهر ابتداء من اوائل القـــرن العاشر ، وامتاز بانه من اعظم المراكـــز العلميـــة ، التى‌تخصصت فى دراسة الفقه ، والتوحيد ، وصـار طلبة العلم ، يردون على الراشدية ، من مختلـف‌بلاد المشرق والمغرب ، رغم وجود عاصمة العلم القديمة تلمسان ، وكان المتخرجون من معاهـــد‌الراشدية ، يثبتون فى اجازاتهم وتآليفهم – عند حديثهم عن اسانيدهم فى الفقه أو التوحيـــد –يقولون مثل ما قاله احمد المقرى التلمسانى فى حاشيته على صغرى الامام السنوسى عند ما كان‌يريد ان يدعم نظرية تتعلق بفن التوحيد « انــه اخذه عن مشائخه بتلمسان ، وغيرهم من علمـــاء‌الراشدية العارفين بهذا الشان » وما قاله ابـو مهدى عيسى السكتانى قاضى مراكش « هكـــذا‌تلقيناه من اشياخ علماء الراشدية » وغيرهم ، ثم ان دراسة علم التوحيد كانت لها اهمية اذ ذاك ،كما نجد الراشدية من المراكز الممتازة لدراســة الفـــقه ، واشتهر فقهاؤها بمقاطعة عدة تـآليف‌فقهية مشهورة ومعتمدة فى البـلاد الاسلاميــة والمغرب العربى بالخصوص ، ومن ذلك ما قالـــه‌صاحب « تسهيل المطالب لبغيـــة الطالب » فى معرض حديثه عن الراشدية فقال فى التعريـف‌بها : « وهى التى عناها الشيخ مصطفى الرماصى محشى التتائى فى بعض اجوبته بقوله وأراك أيها‌السائل تحتفل بكلام عبد الباقى وذلك بمعـزل عن التحقيق ، لان شرحه وشرح الخرشى لا نكترث‌بهما فى بـلادنا الراشدية ، لــعدم تحقيقهما ، وعمدتهما كلام الاجهورى ، وهو كثير الخطأ ومما‌يؤيد هذا ، وجود تأليف للفقيه مصطفى الرماصى المذكور ، احصى فيه غلطات الخرشى فى شرحه على‌مختصر خليل . كان الرماصى هذا الذى أشاد به صاحب المذكرات من كبار ائمة المذهب ، ومـــن‌حفاظه ، ولم تكن شهرته مختصرة على بلاد الجزائر والمغرب العربى فقط ، بل جاوزتها الى بـــلاد‌المشرق ، وبالخصوص فى مصر ، وقد روى الامـام

محمد بن علي الستوسى دفين ليبيا فى فهرستهان شيخه محمد ابن القندوز المستغانمى تلميذ الدردير اخبره ان شيخه الدردير عندما كان بصددتاليف شرحه على مختصر خليل ، كان يعتمد على حاشية الرماصى على التتائى ، ويقول ان صاحبهامن المحققين ، فهى تغنينى عن غيرها ، وهذا ما يؤيده الشيخ محمد الحجوى الذى قال فى كتابه« الفكر السامى فى تاريخ الفقه الاسلامى » عند ترجمته لخليل ، مؤلف المختصر قال « فمختصرخليل اكثر المؤلفات الفقهية صوابا رغما عن كون مؤلفه انما خرجه الى النكاح كما سبق ، وقدوقع للزرقانى اغلاط فى النقل وغيره فاعتنى المغاربة بتصحيحه ، ووضعوا عليه حواشى مستمدةمن حواشى الشيخ مصطفى الرماصى على التتائى وغيرها منهم الشيخ محمد بن الحسن بنانى » الخ .

كما اشاد كثير من علماء المشرق والمغرب بالرماصى ، منهم عبد الرحمن الجامعى الفاسى فى رحلته المسماة « التاج المشرق ، الجامع ليواقيت المغرب والمشرق » قال « كنت وفدت على العالم الرواية النقاد ، منهل العلم الاصفى ، ابى عبد اللهسيدى محمد المصطفى الرماصى ، فوجدته يسكن بأهله بيوت الشعر قرب غابة فى رأس جبل يأوىاليهم ليلا ، ويظل بالنهار فى داره ومسجده يطالع كتبه ، ويقرىء طلبته ، فسألته عن ذلك ، فقال كناعلى هذه الحالة ، على عهد الاسبانيين خوفا منهم ، فاننا كنا لا نأمن فى الدور من ان يصكونا ليلافخرجنا لبيوت الشعر ، ليسهل علينا الفرار لغابة الجبل اهـ » .

كانت هذه الزيارة حوالى سنة 1120 هـوكتابة ، بجودة الابحاث ، لتفتح اقفال المشكلات والذين ترجموا للرماحى واشادوا به وبعلومهكثيرون ، وقد ذكر هو نفسه ما يؤيد ذلك فى معرض توبيخ لاحد تلامذته الذى خالفه فى قضيةفقهية ، قال له فى آخر كتاب طويل قيم ارسله اليه « لكن استغنيت بنفسك ، واستقللت بفهمك ، على عادتك ، اذ انت قد احللت نفسك للفتوى ، لم تسالنى عن مسألة ، ولم تباحثنى فىقضية ، والائمة ترد على اسئلتهم من تلمسان ، ومن المغرب الاقصى ، ومن الجزائر ، والاخوان عنيمينك وشمالك ، تباحثنى ، مكاتبة ومشافهة ، وتلك طريقة اهل العلم الخ اهـ » .

هذه فقرات علقت بها على النقطةالاولى المتعلقة بالحياة الثقافية بالراشدية التى تعرض لها صاحب المذكرات بمزيدمن الضبط والتفصيل .

ولنواصل حديثنا عن الفقرة الثانيةمن المذكرات التى خصصها لرحلة الامير صحبة والده الى الحج ، وبعد ان ذكر ان السيدمحيى الدين سافر من وهران يوم السبت 2 شعبان سنة آخر ثلاثين ومائتين وألف (أى سنة 1240)مع الوفد الرسمى ، بين أى منطلق رحلة الامير مع قافلة الحجاج كان من مدينة سيق وفى ذلك يقول« وصف انطلاق رحلات وطننا المعروفة ، المبنية آثارها المرسومة ، هو وادى سيق ، الى وادىسيدى المقداد الى جديوية ، الى مجاجة ، الى العطاف الى جندل، الى المدية، ثم منها الى اربعاء بنى سليمانالى برج حمزة الى قرية بنى منصور فى مبتدأ

البيبان الى سيدى مبارك الى سطيف الى وكدة البار (؟) الى قسنطينة ثم منها الى الصومعة الى وادى الشارف ... الى ان وصلوا تونس فقال « ووافق دخولنا المدينة الخضراء تونس المؤنسة ، اول يوم من رمضان 27 يوما من يوم مسيرنا فاعجبنا تأنقها، وبعد اطلاعنا على مساجدها البهية ، واسواقها الشهية ، قلنا والله انها لهية ، فلقى أهلها الوالد بالتعظيم ، والتبجيل ، خصوصا علماء التدريس، والتحجيل فكانت أهلا لحسن المقيل .

لتونس تؤنس من جاءها ... وتودعه لوعة حيث سار
فيغدو ولو حل ارض العراق ... يحن اليها حنين الوجار
ويأمل عودا ويشتاقه ... اشتياق الفرزدق عود النوار

فاقمنا فيها احد عشر يوما مكرمين عند علمائها وارباب دولتها ، خصوصا الفقيه العلامة السيد أحمد المحرزى ، سلالة الشيخ الطاهر ، حائز رياسة العلم والعمل بافريقية ، ولقينا وكيل أوقاف المغاربة الحاج احمد الحريشى باكرام ، وأى اكرام ، وأخذ ما عندنا خيلا ، وبغالا وجمالا باثمانها متضاعفة ، ثم بعد ما ذكر اكرام الوكيل المذكور لوالده ورفقائه ، واثنى عليه قال انه هيأ لهم سفينة ، يظهر ان قائدها ايطالى ، ثم قال انه لا يستحضر اسمه غير انه يثبت ان عنده صغيرين اديبين ، حاذقين اسم احدهما كوكو ، واسم الآخر اندرى ، وسافرنا ستة ايام عارضتنا الريح النكباء ، وما قدرنا الا على التولى للمرسى، ولما رأى الرئيس صاحب المركب الذى ركب فيه أهل مخزن وهران ، سافر ، ومركبه باق ، اغتاض لذلك وقال هذا مركب انجليز، ونحن ادق منهم صنعة ، وأقوى منهم على المسائل العملية ، وهاهى سبقتنى وشد حينئذ قلاعه ، ووافقت الرياح ، فبقينا فى البحر بين ايام الرجوع الصعبة والتيسير ، تسعة عشر يوما ، فوافق نزولنا لمرسى مقصد المغاربة ، والمشارقة ، مدينة الاسكندرية ، آخر يوم من رمضان ، واجتمع لنا بذلك عيدان عيد الفطر وعيد السرور بالخلاص من البحر ... ثم قال

« ثم سافرنا فى وادى النيل بالمتاع ،وسافر الوالد من موضع يقال له كافور الزيات ، لزيارة ولى الله سيدى احمد البدوى ،وفى اليوم السادس وصلنا قاهرة مصر ، فلقينا خارجها ولى الله البركة ، المقتدى فى السكون والحركة ، السيد محمد السعيد الغاندى وجدناه بعيدا من المدينة ينتظرنا منذ سمع خبر الوالد ،وهو ولد سيدنا ومولانا محيى الدين ، فمشى بنا الى داره ، مكثنا بها اثنى عشر يوما ، ونحن وجميع الرفقة طعامنا من داره ، غداء وعشاء ، واخبيتنا بموضع يقال له « بركة الفيل » ، ورأينا بداره رضى الله تعالى عنه ، من اجتماع العلماء ورؤساء الدولة عنده فى كل وقت ، ما فيه معلوم لمن يجهل قدره ، ومغنم « لمن يأمل اجره ، وشاهدنا من برهم بالوالد وادبهم معه ، وتعظيمه ما يزهى الناظر ، ومشى معنا لزيارة الحسنين عليهما السلام والامام الشافعى ، واهل القرافة الكبرى والصغرى والجامع الازهر ، ما بهر وازهر ، ثم بعد ، زرنا علماءها المحققين ، كالشيخ على الميلى ، والشيخ فراج ، والشيخ محمد ابن الامير وامثالهم ، ثم

سافرنا يومين وليلة الى مرسى بحـــر سويس .فلقينا ضابط مدينتها باكرام وتبجيل ، وعين لنا مركبا مع رفقتنا ، رئيسه اسمه الرئيس سعيـديمان ، وخليفته اسمه بخيت ، وركبنا باذن الله وعونه ، بعد صلاة الجمعة ، وفى اكثر ايامهـــا نمشى بالنهار ، ونرسى بالليل ، لما فى البحر من كثرة الحجر ، التى تهلك الفلك ، فارسينا عـــلى ينبوع البحر فى تاسع يوم من سفرنا ، ثم ذكـر وصولهم الى جدة بعد ما وقفوا برابغ ، حيث احرموا وضيفهم الرئيس سعيد بمنزله فى جدة ، وبعـد ان نوه بالضيافة ، وقال انها اشتملت على الاكرام المعجوز عنه من كثير من الناس ، واصل حديثـه بقوله « وسرنا منها ليلتين ويوما بالتلبية والتهليل الى ان دخلنا بلاد الله الحرام ، قبل الفجر بمقدام ساعة ، وبعد اداء المناسك ، ووصف وفود الحجاج قال ، وقد فرغنا من مناسكنا حينئذ ، فجملـــة اقامتنا لمناسك الحج ، والعمرة ، ستة واربعـين يوما ، ثم سافرنا مع الركب الشامى قاصديـــن الروضة الغناء الشريفـــة ، فاقمنا بها ، أيـــام عاشوراء ، مقدار ما صلينا جمعتين بملازمة المسجد النبوى ، وتلاوة قرآن ، ودعاء ، وابتهال ، الا ان نخرج لزيارة أهل البقيع ، من زوجاته ، وبناته ، ومن به من الصحابة والتابعين ، أو لزيارة أحد ،وقبـر عمه حمزة ، أو زيارة مسجد قبـا ، ثـــم خرجنا ، مودعين صاحب الروضة ، زائرين مدينة السلام بغداد ، على طريق الشام لوجود اللصوص قطاع الطريق ، الذين لا ينالهم حكم سلطان ، ولا خوف الله » اهـ ملخص محتـوى النقطتين اللتين اجاب عنهما الامير أو بعبارة اصح ، أشرف عـلى الجواب عليهما .

وقبل ان يواصل حديثه على بقية رحلته الى دار السلام ذكر انه عند ماكان فى الحج بلغتهم بعض اخبار البلاد ، من جملتها ثورة ابن الشيخ التجانى على باى وهران حسن ، والسبب فيها ، ثم قال ان هذا الثائر هو اخو الشيخ الحالى ، الذى وقعت له معه حروب فى عهده ، دعته الى محاصرة عين ماضى ثم انتهى هذا الحصار ، باستسلام الشيخ واذعانه بعد تمرده ومخالفته الجماعة ، وسنتعرض له فى فرصة أخرى ، كما سنتعرض للرسالة التى كتبها والده من جزيرة قبرص الى اخيه وأهله بالقيطنة وهذه الرسالة كانت مجهولة ، واكتشفت منـــذ سنوات قليلة وقد كتبها بعد ما قضى سنتين فى المشرق ، وهى تختلف عن رسالة الامير حيث أن والده اقتصر فى رسالته على الاهوال اللاتى لاقوها فى مصر ، بسبب الحرب بين محمد على والمماليك وفى الحجاز بسبب الحرب بين امير مكة والوهابيين. ويظهر انه كتبها فى طريق رجوعه من جزيــــرة قبرص ، وبعد ان وصف الجزيرة ذكر انه بعث امتعته مع رفقائه على موعد اللقاء بالاسكندريـــة حيث عزم على الرجوع برا ، لزيارة قبر والــــده دفين برقة (ليبيا) ولم يذكر ولده الامـــير فى رسالته ، مع انه ذكر جـل رفقائه الذين كانـوا من جهات مختلفة بالقطاع الغربى ، كما ذكر فى رسالته انه ترك واحدا منهم مريضا بامعان (شرق الاردن) واكترى له مسكنا بطلبه ، واعترف انـه لم يجد ما يدفع به كراء هذا المسكن ، حتى باع كساءه . وتعرض فى رسالته هذه الى ذكر المسافة التى قطعوها بين مصر وجدة ، وهى رسالة قيمة ، بالنسبة لتاريخ حياة الامير وتاريخ الجزائـــر ،نتمنى ان يهتم بهما اى بالرسالة والمذكرات ، بعض الباحثين ، اذ تشتملان على صفحات من تاريخ البلاد تصحح كثيرا من الاغلاط والاخطاء .



بين الشاذلي القسنطيني والأمير عبد القادر

د. أبو القاسم سعد الله

استاذ بكلية الآداب
ـ جامعة الجزائر ـ

لا ندرى متى بدات صلة الشاذلى القسنطينى بالامير عبد القادر هل سبق لهما التعـارف الشخصى قبل شتـاء ١٨٤٩ ـ ١٨٥٠ ؟ لاأحد قد تحدث عن ذلك على ما نعلم· والقصيدة التى سنقدمها لا تصرح بان الشاذلى قد زار الامير او عرفه شخصيا قبل التاريخ المذكور · وتذكر المصــادر الفرنسيــة (١) ان سبب سفر الشاذلى الى امبواز هو ان السلطات الفرنسية فى الجزائر قد رشحته لموءانسة الامير بعد ان ابدى هذا قلقا من الوحدة التى كان يعانيها · ولكن هذه المصادر لا تذكر ما اذا كـان الامير قد طلب الشاذلى بـالاسم او ان السلطات الفرنسيـة ، وبالاخص المكتب العربى فى قسنطينـة ، هى التى اختارت الشـاذلى دون غيره ·

1) أخذ بهذا الرأى ايضا الامير محمد فى ـ تحفة الزائر ـ ج 2 ص 18

غير اننا عرفنا من الرسائل ومن ظروف اخرى ان الشاذلى كـان راغبـا جدا فى العودة الى فرنسا والعيش فيهـا والاتصـال هنـاك ببعض شخصياتها ولا سيمـا بعد ان ذاق فى الرحلتين السابقتين لـذة التكريم والاعتبار · وقد لاحظنـا من قبل انـه خـلال رحلـة سنة ١٨٤٧ قـد ابدى اعجـابا قـويا بمظاهر الحضارة هناك او على الاقل هكذا صورته المصـادر الفرنسية عندئذ كما لاحظنا ان الشاذلى لم يكن راغبا فى البقـاء فى قسنطينة وانـه كـان يشعر بنوع مـن الالزام فى التمادى فى وظيفته ، وانه كأديب كان يريد التنقل واقتطاف ثمار المعرفة حيث وجدها ، ولكن هل كان الفرنسيون على علم بقصيدة الشاذلى فى الامير او على الاقـل برأى الشاذلى فيـه ، وهو الامر الذى جعلهم يقدمونـه على غيره مـن علمـاء الجزائر عند اختيارهم من يوءانس الامير ؟ هذا ايضا ما لانستطيع الجزم به لعدم وجود الادلة القاطعة ·

ومهما يكـن مـن امر فـان المصادر الفرنسيـة تـذكر ان الشاذلى لم يقم لـدى الامير بدور الـرفيق المسلى فقط ولكنه قد قام ايضا ، وهذا هو المهم، بدور المطمئن والمعرف بالحضـارة الفرنسيـة وبالمشـاكل الفرنسية السياسية والاقتصادية التى منعت حتـى ذلك الحين من اطلاق سراحـه · فالامير ، بنـاء على هذه المصادر ، كان قلقا منزعجا من ترك قضيته جانبا واهتمام الفرنسيين بمشـاكلهم الخاصـة وانـه قـد استسلم الى نوع من الياس والقنوط موطنا نفســه ان مصيره سيكـون السجن الموءبد والنسيـان الابدى · ومن جهة اخرى كـان الفرنسيون منشغلين بمشـاكل الحكـم والتنظيم الاجتماعى· فهذا الحكم الملكى قـد سقط وحلت بعده الجمهورية الثانية ، ولكن التحزبات وظهور القضايـا العماليـة ونفوذ الجيش وامكانيات انقلاب فى صالح الامبراطورية ، كلها كـانت لاتسمح للفرنسيين بالتفكير فى قضيـة جزئيـة صغيرة مثـل سجن او اطـلاق سـراح عبـد القـادر · لذلك فكـر خبراؤهم فيمن يخفف عنه الـوطاة فلم يجدوا افضل من الشاذلى الذى كانوا يثقون فى موقفه منهم والذى كان فى نفس الوقت اديبا وقاضيا ، اى عالما من علماء الجزائر الـذين فى امكانهم ملء عيـن الامير بعلمهم ومعارفهم وادبهم · وقد جاء الشاذلى ، بناء على هذه المصادر ، ليقول للامير بان الفرنسيين غير ناسين له ولكنهم كانوا منشغلين بقضايا اهم من قضيته وليطلعه على ما للفرنسيين من حضارة عريقة ونظم سياسيـة واجتماعيـة جديرة بالاحترام ، وبالتالى ليخفف مـن غلواء ونقمـة الامير ضدهم · فكان مهمة الشـاذلى كانت تليين عريكة الامير ورفع روحه المعنوية وتخفيف حدة طبعه وتعصبه الدينى نحـو الحضـارة الاوربية عامة والفرنسية خاصة · (١) وبهذا التفسير تصبح مهمة الشـاذلى نحـو الامير مهمة سيـاسية وليست انسانية · ولكننا عرفنا ان الشاذلى كان قد جاء الى فرنسا بدون ترتيبات سابقة وانه كان فى الواقع يعمل اثنـاء وجوده فى فرنسـا لمصالح شخصيـة · امـا السياسة الفرنسيـة ومؤانسـة الامير فقد كانتـا فى الدرجة الثانية بالنسبة اليه ·

وصـل الشاذلى الى بـاريس فى اكتوبر سنـة ١٨٤٩ · (٢) وبعد ان اقام بها فترة توجه الى امبواز لاداء مهمتـه بجـانب الامير · وفى امبواز تـوطدت العلاقـة بين الرجليـن · وتعددت بينهما الزيـارات والمساجلات الشعريـة · ويبدو ان الشاذلى كان يقيم فى جزء من القصر خلال هذه المدة · ولكنه كان يتردد

١) هذا هو الرأى الذى يأخذ به بيريس ، ص 337 ـ 338 ، ومورنان ص 315

٢) رسالة بتاريخ 16 اكتوبر 1849 من الشاذل الى بواسوني ، وقد جاء فيها انه وصل الى باريس يوم 15 اكتوبر وانه نزل فى ساحة المادلين رقم 33 عند السيد دين وانه قد حل بباريس لكى ينظر بوسوني فى امره

على باريس من وقت لاخر لقضاء مآربه وتدبير شؤونه · ومرض اثناء ذلك عدة مرات وكان شتاء منطقة اللوار القارس اقوى من جسمه فلم يحتمله بالاضافة الى مرض عينيه ، ومعنى هذا ان اقامته فى امبواز لم تكن كلها سعادة وهناء · ولاندرى ايضا ما اذا كان الشاذلى قد جاء باهله او ببعض اقاربه معه ، ولكن الظاهر انه قد جاء منفردا ، ولذلك كان هو الآخر يبحث عن مؤانسة فى ليالى الشتاء الباردة فالتقى بالفتاة الفرنسية واحبها حبا جما واراد الزواج منها ، وهى التى دخلت شعره الرقيق الذى ساجل به الامير ، عندما قال :

ايا اهل فن الطب بالله خبروا
ايوجد للصب النحيل دواء
كلفت بها وهى الفريدة والتى
تجمع فيها الحسن وهى ضياء

وهكذا اصبح الشاذلى هو الغريب وليس الامير · وقد زاده المرض شعورا بالغربة الى ان شكا ذلك للامير فى قوله :

مرضت غريبا بين قوم اعزة
فكلهم عن زورتى متمنع
اذا كنت مصحوب السلامة اقبلوا
وان كنت فى سقم فربعك بلقع

ولم يجد الامير بدا من ان يسليه ويخفف عنه هذا الشعور القاسى ،فكتب اليه :

ولست غريبا بين قوم احبة
مكانك فيهم من بنى الدهر ارفع

ومن العجيب ان رجلا غريبا فى وسط العمر (كان عمره اذاك حوالى ٤٢ سنة)بعيدا عن زوجته ياكل الى حد التخمة صفار البيض مع الامير عبد القادر الذى كانت معه زوجته وسراريه ، حتى اذا ما هاجت نفسه واشتد به الشوق راح ينصح الشباب بان لايفعلوا فعلته (١) ·

ويصرح الامير بانه لم ير الشاذلى قبل امبواز وانما سمع عنه كثيرا ، وكان يرغب فى التعرف عليه والاجتماع به · ولكن الظروف لم تسمح له بذلك ·وفى الابيات التالية التى استقبل بها الامير ضيفه عند وصوله دليل على ما نقول :

طالت مساءلتى الركاب تشوقا
لجمال رؤية وجهك المتعاظم
لاغرو ان احببتكم من قبل ما
شاهدتكم انتم جمال العالم
كانت على سمعى تغار نواظرى
حتى رأتك وانت انت مكالمى

فهذه الابيات لا تدع مجالا للشك فى ان الامير كان قد سمع الكثير عن الشاذلى ولكنه لم يلتق به وانه كان يسال عنه الغادين والرائحين ويود لقائه ويحس نحوه بميل خاص ، حتى لقد كانت عيناه تغاران من سمعه عليه ، الى ان تحقق ما كان يريد واجتمع الصديقان وجها لوجه ، اما الشاذلى فقد اشار ايضا الى انه كان يشرئب الى روءية الامير وانه كان يريد لقاءه ولكن على سدة الملك وليس فى سجن امبواز · غير ان الايام تدور والدهر خداع · فلنستمع اليه :

وكان مرادى ان الاقيكم على
بساط عزيز الملك والحرب فى نشب
وما كان فى ظنى ارى سيدى كما
رايت الا الله ما تصنع النوب (٢)

١) انظر هذه القصة فى — تحفة الزائر — ج 2 ص 25

١) انظر هذه المساجلات فى نفس المصدر ص 19 — 25

فهذان البيتان لايدعان مجالا للشك ايضا فى ان الشاذلى لم ير الامير من قبل · بيد انهما تنمان عن شيء جديد وهو ان الشاذلى كان قد سمع بالامير اثناء معاركه وحروبه وانه كان يتطلع الى ملاقاته وهو عزيز قوى صاحب ملك وسلطان · ولكن امنيته لم تتحقق · فهذا المعنى يساعدنا على فهم القصيدة التى سندرسها بعد قليل ، والتى ما هى الا نداء من بعيد الى رجل سبقته سمعته لينجد قوما كانوا فى شدة وعسر · والواقع أن دراسة المساجلات دراسة نفسية وتاريخية تساعد على فهم العلاقة بين الرجلين·

وللامير رأى واضح فى صالح الشاذلى · فبالاضافة الى الاوصاف التى اطلقها عليه فى المساجلات مثل « الحبيب » و « فريد عصره » و « قرة العين » و « سمى قطب العارفين » (١) فانه قد وصفه نثرا او صافا قريبة من النفس حبيبة الى القلب من ذلك قوله فيه ، كان لنا خير انيس واحسن جليس نفس من همومنا بلطائفه وطرائفه مالا تنفسه الصبا واجلى من احزاننا ما لاتجليه الصهبا » (٢) ويبدو ان الامير قد الفه كثيرا وفرح بمقدمه واقامته معه وتألم لفراقه غاية التألم · وقد قارن بين حالته قبل قدومه عليه وحالته بعد فراقه له ، معترفا له بالفضل « لازمنى ايام نفور الحميم والقريب ، وآنسنى حين لى من الجنس او غريب وتجشم شقة دونها اكبر مشقة فى مكان لايقتحمه الاسد الهصور ، بل تنقطع دونه اجنحة النسور ، وكنا قبل وروده علينا نناغى الحائم ونسامر الفرقدين والحمائم ، وان كانت الحمائم اذا صدحت لاتفهمنا وتجيبنا بالشجى فتدنفنا » (٣) وقد ارتبطت بينهما هذة الصداقة واستمرت حتى بعد عودة الشاذلى الى قسنطينة وارتحال الامير الى المشرق · فقد وجدنا فى بعض الرسائل (٤) ان الامير قد طلبه اليه فى المشرق وان الشاذلى قد رحب بذلك غير انه اشترط بعض الشروط المادية على الدولة الفرنسية ·

وللشاذلى رأى فى الامير جدير ايضا بالوقوف عنده · واذا كانت القصيدة التى سنتعرض لها صريحة فى اعجابه به ورفعه له مصاف القواد العظماء والرجال الشرفاء ، فان اوصافه له المنبثة هنا وهناك تعطى صورة واضحة على تقديره للامير ، وكان الشاذلى يظهر التواضع الجم امام الامير حتى لقد وصف نفسه « بالعبد الذليل » وخاطب الامير بقوله « سيدى » ونعته بصاحب الخلق الكريم والمحتد النبيل وكان عنده محل ثقة واحترام حتى لقد طلب ان يتزوج على يديه بالفتاة الفرنسية ، ورحب ، كما رأينا باللحاق به فى المشرق · ومن سوء الحظ اننا لم نعثر على كل اوراق الشاذلى ، ولو تحقق ذلك لكشفت لنا عن المراسلات التى قد تكون دارت بينه وبين الامير بعد عودته من عنده أو فى مناسبات اخرى · (٥)

---

1) وهو يعنى بذلك ابا الحسن الشاذلى صاحب الطريقة المعروفة باسمه وقد كان الامير ـ شاذليا ـ ايضا

2) انظر تحفة الزائر ج 2 ص 19

3) نفس المصدر ص 241

4) رسالة بتاريخ 10 فبراير 1854 من الشاذلى ويقول الشاذلى ان العقيد دنف هو الذى أخبره من مدينة الجزائر بان الامير قد طلبه اليه وقد عثرنا على رسالة بتاريخ 9 فبراير 1853 من الامير الى السيد ف هاليفى يطالب فيها الامير ـ وهو عندئذ فى بروسة ـ ارسال الشاذلى اليه لمؤانسته ـ مجموعة رسائل بالمكتبة الوطنية تحت رقم2274 ـ

5) كان الشاذلى محبوبا لدى الامير ويذكر السيد مورنان ـ ص 313 ـ انه قد وجد عند زيارته لقصر امبوز طفل الامير محمد صاحب ـ تحفة الزائر ـ ومحيى الدين يلعبان فى الحديقة وكان اول ما سألاه عنه هو احوال الشيخ الشاذلى . والمعروف ان الامير كان يحب لعبة الشطرنج · انظر تحفة الزائر ج 2 ص 307 . وكذلك كان الشاذلى . فقد طلب بواسونى ذات مرة منه ـ الشاذلى ـ ان يعلم صديقا له الشطرنج فدعاه الشاذلى الى بيته ـ فى باريس ـ عند العصر وعلمه هذه اللعبة · وقد روى ذلك الشاذلى بتاريخ 12 يناير 1850 الى بواسونى



الشيخ ابن الحداد الصوفي الثائر

عمار الطالبي

سادت ظاهرة التصوف المجتمع الاسلامى فى القرن الثالث عشر الهجرى (القرن التاسع عشر الميلادى) فانطوى الناس على أنفسهم ، ونضبت القوة الخلاقة للحضارة ، واستنفدت طاقتها المبدعة الموجهة للتاريخ، وانطمست معالم الحركة التاريخية الحية ، واصبح المجتمع الاسلامى مجتمعا ساكنا ، منطويا على ذاته ، سادرا فى غفلة عن العالم وعما يجرى فيه ، فتقسمه الاستعمار ، واكله من اطرافه ونفذ الى قلبه ، وقبض على شرايين الدم فيه ،فسقط امامه صريعا فى شتى ميادين الحياة فى السياسة والاقتصاد وفى الثقافة ، وكان المنهج الصوفى قد تحنط وجمد ايضا وتقوقعت الاخلاقية الاسلامية ذات الحركة المبدعة فاضحت خامدة مجمدة فى رسوم وفى مظاهر فقدت كل حياة ، وكان شعار الناس « اعتقد ولا تنتقد » « سلم للرجال »ورغم هذا كله فان التقوى الاسلامية التى ران عليها ركام من الظلمات بقيت كالنار تحت الرماد حتى اذاما هبت عاصفة ورفعت شيئا من الرماد اتقدت شعلة ، وثار وميض نار ليحرق الظلم والظالمين ،ولكن ما يلبث ان ترتد عليه اكوام اخريات من الرماد فيبقى دو نغرضه ، ومعنى ذلك ان التقوى الاسلامية كامنة لم يات عليها العدم المحض وان علتها طبقات من ظلام ، وغشاها جلباب قاتم من الهمود .

ومن القلوب التى كمن فيها التقوى واستقرت بين جوانحها ومضات الايمان وانوار اليقين بالله ، قلب صديق ولد فى جبل اشم فى قرية صدوق الاعلى ليشرف على القلوب ، وليحرك النفوس الى العلو ، وليرفعها الى المعانى المتعالية معانى الجهاد ، ودفع الظلم ، وليعلم الناس اصول الثورة وليبين لهم ان الجهاد ماض الى يوم القيامة ، مغروس فى نفس الانسان المسلم ، ولن يكتب لاية قوة ان تقهر ، ولا ان تطفىء نوره لانه نور خط بالنور ، وحفظ باللهب.



القرية التى اعلن فيهـا ابن الحـداد الجهـاد

ترجمـة ابن الحـداد

يدعى محمد أمزيان بن على بن الحداد ويكـنى بابن الحداد (١) ولد كما أشرنا الى ذلـك فى قرية صدوق الاعلى فى سنة ١٢٠٥ هـ (١٧٩٠ م) وتوفى ليلة الثلاثاء اول ليلة من شهر ربيـع الاول سنة ١٢٩٠ هـ (٢٩ أفـريل ١٨٧٣ م) ودفـن بمقبرة قسنطينة رغم انه اوصى أن يدفن فى مقبرة أسلافه بقرية صدوق قال ابنه عزيز:(وقد دفن وسط مقبرة المسلمين بقسنطينة عشيـة يوم الثـلاثاء واحسن له (٢) علماء البلد وخاصتهم وعامتهم وشرفوا قدره بما يناسب امثاله من حضورهم للصلاة عليه وتشييع جنازته بالذكر والدعاء والصدقـات فجـزاهم الله تعالى خيرا واجزل لهم ثوابا واجرا ، ورفع لهم فى الملا الاعلى ذكرا عن فعلهم الحسـن بوليـه لقول الجليل فى محكم التنزيل : « هل جزاء الاحسان الا الاحسان » وذلك بعد ما كنا عزمنـا على ارساله الى مقبرة اسلافنا بقرية صدوق من بلاد القبائل فى ضريح أجدادنا كما أوصانا رحمه الله تعالى بذلك فاذا بحاكم الجزائر الكبـير عجز عن ارساله لتلك المقبرة بالقبائل واصدر الامر لنا بدفنه فى هذا الوقت بقسنطينة) (٣) ولكن السلطـة الفرنسية أبت أن تنفذ وصيته لفزعها من رجوعه ميتا الى قريته، وعمره ثلاثا وثمانين عاما (٤) وكان قد اخذ الطريقة الرحمانية التى نشرها فى تلك المواطن من بلاد زواوة الشيخ محمد بن عبد الـرحمن القشطولى الجـرجرى الازهرى (١١٢٦ — ١٢٠٨ هـ / ١٧١٥ — ١٧٩٣ م) الذى اخذ بدوره الطريقـة الخلوتيـة عن شيخه الازهرى المسمى بالشيخ الحفناوى (٥)

وعندما عاد محمد بن عبد الرحمن الى الجـزائر أصبح شيخا كبيرا فى التصوف وتبعه الناس وأخذوا بمنهجه . أما ابن الحداد فانه لم يأخذ هذه الطريقة عن شيخها محمد بن عبد الـرحمن مبـاشرة وانما اخذها عن تلاميذه فتلقاها عن الشيخ الحاج عبد القادر بن المختار التفيشى الذى تولى بعد وفاته محمد بن عبد الرحمن أمر خلافته (٦) ولكنه اختلف معه بعد ذلك واخذ ايضا على الشيخ على بن عيسى وذكر انه لازمه ثمانية عشر عاما طلبا لخلاص نفسه من عللها فعالجه ولكنه لم يلبث ان تركه عليلا وتتلمذ على شيخ آخر هو تلميذ على بن عيسى يدعى الحاج المهدى السكلاوى اليراتنى الزواوى (٧) وأصبـح بعد ذلك كله الشيخ الحقيـقى للطريقة الرحمانية وبلغت شهرة تقواه الافاق . أما قريته فهى قرية صدوق أوفله (الاعلى) واقعة فى جبل سيدى على اوشتوق المقابل لسلسلة جبال أكفادو وهو جبل مشرف على واد جميل وبهذه القرية منزله وخلـوته التى كان يتعبد بها ، وبجدارها طـاقة تؤدى الى الخارج كان يمد منها يده ليأخذ المريدون عنه العهد ، ويدل ذلك على كثرة المريدين كما يوجد بهذه الخلوة رفوف للكتب من حجر الصوان ويقال ان هذا المنزل الذى توجد به خلوته مضى عليه أربعة قرون ، وقد كتب ابن الحداد على حجر فى جـدار الخلوة هذه الاية (الم تر الى الـذين خرجوا من ديارهم وهم الوف) كما يوجد بهذه القرية مسجد بناه الشيخ ابن الحداد وبه مصلى خاص بالنساء ، ويوجد داخله مصباح حديدى يرجع الى عهد ابن الحداد نفسه ، وقد اخفاه اهل القرية عن الفرنسيين فى زمن الثورة، واعيد للمسجد بعد الاستقلال وهو مصباح يضىء بالزيت ، **ان الفرنسيين حولوا هذا المسجد الى مكان للتعذيب وهذا يـدل على مدى احترام الفرنسيـين المتحضرين لاماكن العبادة ! ! .**

بسم الله الرحمن الرحيم   وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

الصفحة الاولى من
مخطوط رسالة فى التصوف
للشيخ الحداد

يقول العبد الفقير لرحمة ربه الجواد
محمد امزيان بن علي الحداد
عامله الله بلطفه الخفي وحاز له في الترحيل والميعاد

الحمد لله الذي بدأ الدين غريبا وختمه بما بداه وجعله عزيزا لدى من اختصه بهدايته وبذكره شغله والهاه حتى كاشفه بغيبوبته اولا عن عيوب غيره اعماه واغناه ثم بشهادة جلاله وجماله عن حسه غيبه والفناه ثم لا يزال مترقيا من مقام الى اعلاه الى حيث شاء الله ومع ذلك لم ير لنفسه حظا ولا له قدرا بل يظهر ويكشف له في كل مقام انما اتصفت بكمائن عديدة وخدائع عويصة ولا تخلص له من ذلك الا الله فلم يحصل له امر الا فقط بل كان بين ذلك قواما جامعا بين الشريعة والحقيقة وتاسيا برسول الله صلى الله عليه وسلم والصلاة والسلام على من ختم به الرسالة وشرفه على جميع الانبياء وجعله خليفتهم في الارض وامامهم في السماء صلاة وسلاما دائمين لا ينقطعان ما دام ملك الله ورضي الله تعالى عن آله وازواجه واصحابه واتباعهم باحسان الى يوم النفخ والصعق وعلى الدين الحنيفي عضوا بالنواجذ **وبعد** فقد ادركنا الزمان الذي وصفه المصطفى صلى الله عليه وسلم بقوله لم يبق من الاسلام الا اسمه ولا من القرآن الا رسمه بلا ريب وقد شاهدنا ذلك في كل قطر وفي كل مصر بلغ اليه علمنا فتجدهم يدعون مسلمون وهم لا يصلون ولا يصومون ولا يزكون ولا يحجون عند الاستطاعة ولا يومنون بالله ورسله حق الايمان فان فعلوا ذلك او بعضه فعلى غير وجه شرعي فكل ما خالف الشرع فهو باطل فان صلوا لم ياتوا بشروط الصلاة واركانها فتراهم يختلسون الغسل والوضوء قبل الاستبراء او بعده مع عدم الدلك والتعميم الواجبين اما التعميم فلا اعلم فيه خلافا في مذهب مالك رضي الله عنه الا ما قيل في مسح الراس في الوضوء واما الدلك فمشهور المذهب انه واجب لنفسه وقيل لايصال الماء للبشرة وهو مذهب الشافعي رضي الله عنه وهذا الوصف فيمن يدعي العلم ويتعاطاه حتى اذا نهيت بعضهم عن ذلك ولمته عليه قال ان المطلوب في الوضوء العجلة والتخفيف ويفسر ذلك بالفور الذي هو الموالات التي هي الاتيان بافعال الوضوء والغسل في فور واحد فيفسر الفور بغير المعنى الموضوع له مطابقة بل بلازمه فاغترت بهم العامة حتى فرطوا في الطهارة فصار بعضهم يغسل الاعضاء دون البعض وبعضهم يلطم الوجه لطما وبعضهم يمسحه مسحا الى غير ذلك من اباطيل افعالهم المضحكة للشيطان ولم يعلموا ان الصلاة بيت الله ياوي اليه كل مومن يريد كرمته وقاعدة عظيمة من قواعد دينه وان الطهارة اساسه الذي تبنى عليه اركانه ومن احكم الاساس استقر واستقام عليه البنيان ودام ومن لا فلا كما هو مشاهد في الامور المحسوسة ولان الطهارة مفتاح للصلاة كما في الحديث فمن لا مفتاح له لا يجوز ان يتصور له دخول لقوله تعالى واتوا البيوت من ابوابها واذا ارادوا الدخول في الصلاة فجعلهم يتركون الاقامة ويبدلونها بالاستغفار مثلا وبعضهم لا يبالي بعورته اذا انكشفت لا سيما اذا كان المكان خاليا ولا يمدون تكبيرة الاحرام مدا طبيعيا ويلحنون في الفاتحة عمدا وجهلا وقد علمت ان الجهل في العبادة كالعمد فيها اذ لا يعذر احد فيها لقوله تعالى فسئلوا اهل الذكر ان كنتم لا تعلمون ولقوله صلى الله عليه وسلم طلب العلم فريضة على كل مسلم

ولا ينحنون

ولابن الحداد زاوية اسفل القرية غير ان السلطة الاستعمارية حولتها الى مدرسة بعد ان القت القبض عليه وقد زرنا هذه الاماكن ، وشاهدنا هذه الاثار بفضل الاخ المناضل وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية الذى تكرم فأوفدنى بمعية الاخ عثمان شبوب وسليم بن الحفناوى هالى الذى صور هذه الاثار التى يراها القارىء على صفحات هذه المجلة وذلك حرصا من الاخ الوزير على احياء التراث وبعث الامجاد .

وقبل وفاة ابن الحداد أوصى ولديه محمد (بفتح الميم الاولى) وعزيز (بضم العين وفتح الزاى) (٨) بسبع وصايا وان كان يحيط ببعضهده الوصايا الشك وقد كان للشيخ ابن الحداد دور كبير فى ثورة ١٨٧١ ، اذ انه خطب فى جموع شعبية حاشدة اثر الصلاة وأعلن الجهاد فى سبيل الله ، وفى سبيل نصرة دينه ، ونصرة المسلمين ، ورمى بعصاه الى الارض وهى اشارة الى الترهيب والقاء الرعب فى قلوب الاعداء كأنها عصا موسى التى تبتلع كل ما صنعه السحرة من الاعيب زائفة وسطوة



منزل الشيخ ابن الحداد على حاله القديم

مفتعلة ، ودعت الجماهير ، وسألت الله النصر والتأييد فأوقد اعلان ابن الحداد للجهاد أمام الجماهير ومريدى الطريقة الرحمانية نار الثورة واشعل جذوتها اذ انه حرك القلوب ودفع النفوس للنضال ، ومنازلة العدو ، فدوى صوته فى تلك الجبال الشماء ، ورددت صداه ، تلك الصخور وتعالى فى ذلك الوادى الجميل فبلغ أقاصى الجبال واعاليها وسمعه الناس من كل مكان ، وما لبث ان اخرجه الذين تجبروا وطغوا فى البلاد وهم طغاة الاستعمار فصادروا أمواله ونهبوا كل ما يملك ووزعوه على المعمرين .

مؤلفات ابن الحداد

مما الف ابن الحداد رسالة فى التصوف وشرحا لمنظومة ابن راشد (٩) .

تحليل رسالته فى التصوف .

تعتبر هذه الرسالة أهم مصدر لتصوف ابن الحداد وتوجد لدينا من هذه الرسالة نسختان (١٠) نسخة تفضل الاخ الكريم ابن الشيخ محمد الشريف مفتش التعليم ببجاية فمكننا منها وهى تقع فى ٢٩ ورقة وفى كل ورقة ٣٦ سطرا وحجمها ٢٨ سم × ٥ر٢١ سم أولها : يقول العبد الفقير لرحمة ربه الجواد محمد أمزيان بن على الحداد عامله الله بلطفه الخفى وخار (١١) له فى الرحيل والميعاد : الحمد لله الذى بدأ الدين ... وآخرها : ووقع الفراغ من تقييده يوم الاربعاء الرابع عشر من شهر الله المعظم رمضان وقت الضحى عام ١٢٦١ هـ وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كبيرا الى يوم الدين ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم . وهكذا فان تاريخ تأليف هذه الرسالة يعود الى سنة ١٢٦١ هـ الموافق لسنة ١٨٤٥ م اى انه الفها قبل وفاته بثلاثين عاما أما الناسخ فهو محمد الطاهر بن محمد السعيد بن اسماعيل بن على الزواوى نجل محمد والحاج قرية تفريت نيث الحاج عرش بنى عيسى المنصورى الوغليسى البجائى الذى ينتسب للطريقة الرحمانية وتاريخ نسخها هو الخميس ١٠ ربيع الثانى سنة ١٣٩٧ هـ وجاء فى وصفه لمؤلف الرسالة قوله : (العلامة أمام السالكين وقدوة العارفين وخاتمة المحققين حامل لواء الشريعة والحقيقة شيخنا ووسيلتنا الى ربنا سيدى محمد أمزيان ابن الحداد رضى الله عنه) (١٢) وكتب بخط واضح . أما النسخة الثانية فقد مكننى منها تلميذى سابقا

وصديقى الاخ حسينى عبد الرحمن الاستاذ بالتعليم الثانوى مشكورا وهى نسخة تقع عن ٤٥ ورقة فى كل ورقة ٢٣ سطرا وحجمها ٢٠ سم × ١١ سم واولها وآخرها يتفقان مع النسخة الاولى غير أن تاريخ الفراغ من تاليفها مسجل فى هذه النسخة على انه كان فى يوم الاحد ٢ رجب سنة ١٣٤٧ هـ وهو خطأ لان المؤلف مات قبل هذا التاريخ ، ويبدو أن الناسخ أخطأ فى كتابة رقم ٢ فكتبه ثلاثة وبذلك يكون المؤلف قد اتم هذه الرسالة فى سنة ١٢٤٧ هـ الموافق لسنة ١٨٣١ وهو مخالف لما سجل فى النسخة الاولى ، أما الناسخ فهو احمد بن عبد الرحمن بن الحاج السعيد بن حمان وعلى بن محمد البهلولى الامليكشى من قرية تحرفتين اعلى زاوية مجاجة وهو ايضا من اخوان الطريقة الرحمانية وقد نسخها فى يوم الخميس ٢٠ شعبان سنة ١٣٠٤ هـ الموافق ليوم السبت ١٤ ماى ١٨٨٧ م وتمتاز هذه النسخة بما حوته من تعاليق على هوامشها ومن المقابلة على الاصل وهى اقدم من الاولى ايضا .

تتكون هذه الرسالة من مقدمة فى الاعتقاد ومن ١٢ بابا ومن خاتمة ، فالباب الاول فى الترغيب فى ذكر الله ، والباب الثانى فى الترهيب والتحذير من تركه والباب الثالث فى فوائد الذكر والباب الرابع فى الجهر بالذكر الباب الخامس هل الذكر افضل ام التلاوة الباب السادس هل الذكر افضل ام الفكر الباب السابع فى آداب الذكر الباب الثامن فى ذكر بعض أحوالهم الطارئة عليهم الباب التاسع فى المشيخة وما يتعلق بها الباب العاشر فى التلميذ وطلب الاستاذ ، الباب الحادى عشر فى موت الشيخ الباب الثانى عشر فى الفرق بين الابرار والمقربين اماالخاتمة فتشتمل على مسائل متفرقة(١٣)

بين فى فاتحة هذه الرسالة حالة المسلمين الاعتقادية والاجتماعية وما وصل اليه الاسلام من غربة عن أهله ، وذكر انه لم يبق من الاسلام الا اسمه ولا من القرآن الا رسمه وقال : (وقد شاهدنا ذلك فى كل قطر وفى كل عصر بلغ اليه علمنا فتجدهم يدعون مسلمين.وهم لا يصلون ولا يصومون ولا يزكون ولا يحجون عند الاستطاعة ولا يؤمنون بالله ورسوله حق الايمان فان فعلوا ذلك او بعضه فعلى وجه غير شرعى ...) (١٤) واخذ فى نقد الاوضاع الدينية فى ذلك العهد وذكر أن المسلمين بعدوا عن الحقيقة الاسلامية بعدا شديدا واشار الى أن اهل المغرب قد سقط عنهم الحج لان شرطه وهو الاستطاعة غير متوفر (١٥) أما فيما يتعلق بالايمان فقد اصبح المسلمون — فيما يقول — مقلدين تقليدا رديئا فلا يفرقون بين الرسول ومرسله ولا بين النبىء واصحابه اذ انهم يعتقدون نبوة الخلفاء الاربعة ويؤمنون بالولاية فى بعض الاشجار والاحجار ويكذبون باحوال الاخرة ، وتجدهم يحفظون القرآن بغير فهم ولا دراية قال ابن الحداد : (وأما القرآن فقد اهمل العمل به أصلا فترى يحضون على حفظ الفاظه دون معانيه المقصودة فلا يحللون حلاله ولا يحرمون حرامه فيزعمون انهم حملة القرآن وانهم أهل الله واحباؤه وانهم لا يضرهم ما هم فيه من المخالفة مع حفظهم له قال الله تعالى (لو انزلنا هذا القرآن على جبل لرايته خاشعا متصدعا من خشية الله) الاية وقال : (افلا يتدبرون القرآن أم على قلوب اقفالها) وقال تعالى : ، مثل الذين حملوا التوراة ثملم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا)(١٦)



مصباح زيتى فى عهد الشيخ ابن الحداد

وشرح انتشار البدع والضلالات والانحراف عن العقيدة الصحيحة الاصيلة ، وبعد الناس عن الكتاب والسنة فقال : (وانتشرت البدع وفاض بحرها فى الارض كلها فلم تخل بلدة ولا قرية بل ولا بيت من بدع شتى ، وشاهدت ذلك بنفسى ... الا من

عصم الله بفضله وهو يسير جدا وخمدت السنة واندرست رسومها لكثرة الجهل وغلبة اتباع الهوى فانقلبت السنة بدعة والبدعة سنة) (١٧) كما اوضح ان الولاة والقضاة كانوا من الجهلة المبتدعين اما العارفون بالسنة فقد امسوا غرباء : (فأهل السنة غرباء اذلاء اذا حضروا مجلسا لا يشاورون واذا غابوا عنه لا ينتظرون ، واما اهل البدعة فهم الرؤساء والولاة والقضاة والعمال فى كل الاقطار والامصار) (١٨) وذكر السبب الذى دفعه الى تاليف هذا الكتاب وهو غيرته الشديدة على الايمان ثم ان شيخه الذى رباه وكونه وهو الحاج المهدى السكلاوى اليراتنى وهو شيخ من شيوخ بنى يراثن ولادة ونشأة اشار عليه ان يكتب تقييدا يرد فيه على الفقهاء الذين تمسكوا بالظاهر وانكروا على المتصوفة بعض الامور التى يستخدمونها فى مناهجهم الصوفية فألف فى الرد عليهم معتمدا فى ذلك حسب رايه على صريح الكتاب والسنة وكلام ايمة الشريعة، منتصرا للصوفية مقيما لهم الحجج والادلة منكرا على اهل الظاهر والغفلة على حد تعبيره (١٩) .

اما المقدمة التى ذكر فيها مسألة الاعتقاد فقد قصد فيها الى اثبات نظرية المتصوفة فى تربية المريدين حيث ذهبوا الى أن المريد ينبغى له أن يعتقد ويسلم ، ولا يجوز له أن ينقد أو يعارض وهذه النزعة تنسجم مع مذهبهم فى المعرفة التى تعتمد على الذوق والبصيرة لا على الاستدلال العقلى ولا على النقد والتحليل لان النقد يتنافى مع الروح الصوفية التى لا ترى للعقل اهمية فى طريقها ولذلك فانه أورد قول ابى مدين التلمسانى وهو : « اعتقد ولا تنتقد » وهى العبارة التى كان ابن باديس ينكرها ويرد عليها لانها لا تربى العقل ، ولا تعلم المنهج الدقيق فى المعرفة ولكن ابن الحداد بين انه اذا وجب الانتقاد فليكن على شرطه وهو عدم الاضرار كما ان الاعتقاد لا يجوز أن يعتمد على الاعتزاز بالرجال ولا ان ينبنى على مجرد التسليم للرجال ، ونقل عن الفقيه ابن عبد الله المغربى قوله : (ان مبنى التصوف على التسليم ومبنى الفقه على البحث والتحقيق) (٢٠) فالاصل الاخلاقى فى التصوف هو حمل الناس على حسن الظن حتى يبدو منهم ما يثبت خلافه اما الاصل الاخلاقى عند الفقهاء فهو حمل الناس على غير العدالة حتى تثبت عدالتهم ، وذلك حسب نظرية فقهاء المذهب المالكى ، واحتاط ابن الحداد اكثر فنقل لنا عن زروق الفاسى رايا يذهب فيه الى انه لا ينبغى الاعتقاد فيمن لم يتحقق من علمه ، ولم يتأكد من سلامة ديانته ، وان كان قد اكثر من نقل النصوص التى تدل على معنى التسليم لشيوخ التصوف وعدم نقدهم وتجريحهم ، وذهب الى راى ابن عبد السلام الذى قرر (انمعرفة الولى اصعب واشد من معرفة الله تعالى) ولكن تساهل من ناحية اخرى فى تحديد معنى الولى فذهب ابن الحداد الى القول : (بأن كل مؤمن يوحد الله تعالى ولا يشرك به شيئا مع اقراره برسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ولى الله بلا نزاع (٢١) ثم عقد بابافى الترغيب فى ذكر الله على اساس من الكتاب والسنة واقوال



مسجد الشيخ ابن الحداد الذى بناه بنفسه

المتصوفة مثل ابن عطاء الله الاسكندرى فى كتابه « مفتاح الفلاح » الذى أورد فيه أحاديث متعددة ترغب فى ذكر الله رواها عن مالك وعن عمر وعائشة وعن معاذ بن جبل كما نقل من كتاب نور الانوار للامام الثعالبى الجزائرى ومن كتاب « بغية السالك فى أشرف المسالك » لابى عبد الله محمد بن احمد ابن عبد الرحمن بن ابراهيم الانصارى المشهور بالساحلى ومن كتاب « تحفة السالكين » للشيخ السمنودى الشافعى . (٢٢)

ان الـــذكر عنده سبب المحبـــة وهو يؤدى الى المراقبة التى توصل صاحبها الى مقـــام الاحسان زيادة على ان الذكر يزيل الهم والغم من القلوب ، ويجلب الفرح والبهجة ويفتح باب المعرفة فى القلب وهو قوت الارواح كما ان الغـــداء قـــوت الاشباح والاجسام ، ويجــلى القلب ويذهب عنـــه الصـــدا والغفلة والوحشة القائمة بين العبد وربه (٢٣) واشار ايضا بهذا الصدد الى بعض العادات الاجتمـــاعية السيئة فى عهده وهى شطح الرجال مع النساء فى الاعراس فقال : (الذى عمت بهه البلوى وجرت به عادتهم الفاسدة فى البلد ... وعدم الحياء بالغناء والفسق والفواحش فى المحافل) (٢٤) ونعى عليهم هز البطون فى الرقص وما الى ذلك من العـــادات السيئة فى ذلك العهد .

وتجدر الاشــــارة ايضا الى انـــه نقـــل من كتاب الشيخ السنوسى التلمســـانى المسمـــى « بنصرة الفقير فى الرد على ابى الحسن الصغير » (٢٥) واخذ منه عدة نصوص فى مواضيع مختلفة من الكتاب (٢٦) واعتمد على كتاب « نخبة الفكر فى الجهر بالذكر » للحافظ عبد الرحمن السيوطى (٢٧) وانتهى من ذلك كله الى جواز الذكر جهرا واثبت قصيدتين احداهما لابى عبد الله محمد بن غازى والاخرى لابى العباس أحمد بن زكرياء التلمسانى فى هذا المعنى (٢٨) ونقل من كتاب مختصر الاحياء للغزالى الذى اختصره أبو عبد الله محمد بن أبى الحسن الموصلى البلالى (٢٩) كما استدل على ما ذهب اليه من كلام الغزالى نفسه فى احياء علوم الدين حيث رأى جواز الذكر جهرا (٣٠) ومن مصادره كتاب « الجواهر الحسان من تفسير القرآن » للثعالبى وكتـــاب « عنـــوان الاســـرار المصون فى قواعد قوله صلى الله عليه وسلم اذكروا الله حتى يقولوا مجنون للشـــيخ العارف محمد بن محمد على الزواوى النجارى البجائى .

وعقد بابا آخـــر تحدث فيـــه على فضـــل الذكر والتلاوة وهاجم الفقهاء الذين انكروا على المتصوفة الاشتغال بالذكر وترك تـــلاوة القرآن وذكـــر أن الفقهاء يقصدون من علمهم بالظـــاهر الى الرئاسة والزعامة والى احتقار غيرهم من اهل الحقيقة وذهب الى أن علم الظاهر وعلم الباطن متلازمان فمن اقتصر على أحدهما دون الاخر فقد زلت به القدم فقـــال : (ان الاقتصار على العلم الظاهر دون الباطن فسق، وعلى الباطن دون الظاهر زندقة وأن الجمع بينهما كمال وتحقيق ولكن الجهل مهلك لصاحبه) (٣١) ونقل نصوصا وآراء من كتاب « الاسئلـــة والاجـــوبة » للشيخ احمد بن يوسف الميلانى ومن كتاب البغيـــة لابى عبد الله الساحلى الذى قسم الناس الـــى طبقتين عامة وخاصـــة والخـــاصة الى صنفيـــن فقال : (واما الخاصة فعلى قسمين اهل بداية واهل نهاية اما اهل البداية فهم الذين اخذوا فى تخليص انفسهم من شوائب الاهـــواء وتطهيـــرها من دنس الشهوات بطبها من علل متعلقـــاتها مجـــاهدة على سبيل الرياضة تربية وتدريجا وسلوكا على طريق التزكية والتحلية بذكر اللـــه تطمئن القلوب) (٣٢) ورأى ان سر القرآن ولبابه ومقصده العميق انما هو دعوة الانسان الى معرفـــة اللـــه وتحـــريك النفس لتتصف بمعنى التـــوحيد الـــذى يجـــذب القلب الى المعرفة الحقيقية ، والذكر انما هو تطهير النفس من كدوراتها لتشرب من عـــين الصفـــاء ويكـــون ذلك بالطريقة الذوقية والتربية الحكيمة (٣٣) وحلل طريقة رسوخ المعانى فى النفس وبينها بيانا تحليليا جميلا يدل على مدى غوص الساحلى فى اعمـــاق النفس وعلى تجربته للمعانى الروحية العميقة وفرق بين الاثر العلمى فى النفس والاثر الذوقى فيها . اما اهل النهاية فهم الذين رســـخ سر التـــوحيد فى بواطنهم ويتلمحون ذلك السر فى كل تصرفاتهم (٣٤) وهناك قسم آخر يسميه بأهل التمكين وللمتصفين بالتمكين حالان حال الاستغراق وحال الصحو ثم اخذ بعد ذلك فى عرض رأى ابن عطاء الله السكندرى والغزالى فى مسألة الذكر والتلاوة وفى بيان اهمية تـــلاوة القرآن وتفهم معانيـــه واسراره فى تربيـــة النفس وتطهيرها والسمو بها الى المراتب العليا من الصفاء والمعرفة والمحبة واوضح ابن الحداد ان الاذكار التى تتعلق بأسماء الله السبعة فى طريقته الخلوتية انما هى اذكار قرآنية ، واطال فى نقل نصوص من كتاب الاحياء للغزالى (٣٥) وفى المقارنة بينه وبـــين كلام الساحلى (٣٦) وجاء بمذهبه فى الذكر والفكر وايهما افضل فأورد نصوصا من رسالة القشيرى عن ابى الحسن السلمى الذى ذهب الى أن الذكر افضل من الفكر (٣٧) بيد انه نقل من كتاب اختصار الاحيـــاء للغزالى لمختصره ، البلالى ان الفكر غاية الذكر ولبه ومن ثم فهو اولى واحرى بالصوفى الحقيقى (٣٨) وبين ابن الحداد أن الخـــلاف بين انصـــار الفكر وانصار الذكر خلاف لفظى اذ ان كليهما بصقل القلب ويؤدى

الى معرفة النفس والى معرفة الخالق (٣٩) وحلل راى الثعالبى فى ذلك واشار الى تاثر الثعالبى الجزائرى بـه ونقله عنـه فى تفسيره الجواهر الحسـان .

ثم اورد آداب الذكر وذكران اساس الطريق انما هو الادب واتى بنصوص من كتاب « الامر المحكم المربوط فيما لاهل الله من الشروط » لمحى الدين بن عربى ، ورجع الى رسالة القشيرى وشرح احوال الذكر المختلفة وبين مذهب الشيخ مصطفى البكرى فى حاشيته الوصية الجليلة وذهب الى أن الاهتزاز فى حال الذكر يدل على أن صاحبه ذو شوق وغرام وان التمكن فى ذلك دليل على الوصول اما عن طريق المكابدة الشديدة مع العنابة الالهية واما عن طريق محض الجود الالهى ويبدو أن الشيخ ابن الحداد يدافع عن الاهتزاز متأثرا فى ذلك بشيوخه وشيوخ التصوف عامة فى ذلك العصر (٦) واستعرض راى الشيخ السنوسى التلمسانى وجلال الدين السيوطى فى هذا المجال ثم اتى بقصيدة تنسب لابى مدين التلمسانى فى الوجد والشوق .

رغم تاثر ابن الحداد بالمتصوفة فانه هـاجم اصحاب البدعة منهم وأوضح انهم على ضلال فى كثير من الاشياء التى اتصفوا بها فى عصره فقال : (ولقد رايت كثيرا من الناس يعتقدون الولاية فى غير اهلها وهم اهل البدعة الشنيعة كترك الصلاة ومنع الزكاة وترك الصوم والذكر وجميع افعال البر وهم من اهل السحر والشعوذة والمكاشفة لا سيما ان كانوا اولاد الصالحين فيعتقدون على ولايـة وشرف آبـائهم واجدادهم ويقولـون لهـم بتسريـل انفسهم نحن مسرحون من التكاليف الشرعية وقد كفروا بتجاسرهم على الله تعالى وتكذيبهم بالشريعة المحمدية فـانها جاءت بتكليف جميع العقلاء من غير تخصيص فلا احد اشرف ولا احد ارفع قدرا وجاها من شرفه وقدره وجاهه صلى الله عليه وسلم (٤٠) ثم اورد مذهب الثعالبى الجزائرى الذى يرى انه ينبغى تأويل اقوال الصوفية المخالفة للشرع لان التأويل فى نظره أوسع وهذا يجعلنا نبعد الثعالبى من دائرة السلفية وندخله فى زمرة المتصوفين الذين يحاولون ان يدافعوا عن مذاهب دخيلة وان يبرروا مخالفة الصوفية للشرع بتأويلها قال الثعالبى : (لا تعترض اقوال الصوفية وان تجد اقوالهم مخالفة للشرع فأولها وصف القلب من الكدرة والغل والغش لان التأويل واسع (٤١)

ثم اخذ فى الكلام على منهج التربية الصوفية وعلى شروط المربين من الشيوخ معتمدا فى ذلك على محى الدين بن عربى وعلى زروق الفاسى فقسم الشيوخ الى ثلاثة اصناف : شيخ تعليم وشيخ تربية وشيخ افادة وترقية فشيخ التعليم هو الذى تتوفـر فيـه شروط ثلاثة : (عقل راجح وعلم صحيح ولسان فصيح فبالعقل يهتدى وبالعلم يقتدى وباللسان يبين ومتى بطل واحد منها فلا عبرة به) (٤٢) ويشترط فى شيخ التربية ثلاثة شروط ايضا : (العلم الثـابت والذهن الثاقب والسياسة التامة فبالعلم يهتدى وبـالذهن بدرك الكمـائل مـن النفـوس وغيرها وبالسياسـة يتصرف) (٤٣) ونقل فى ذلك آثارا عن الجنيدى وعن ابن على الثقفى وابن مدين التلمسانى وابى محمد عبد السلام بن مشيش وابن عطاء وتاج



الخلوة التى كان يتعبد بها الشيخ ابن الحداد

الدين العثمانى فى رسالة بيان الطريقة النقشبندية والملياني وذهب الى ان اكثر اهـل زمـانه فقدوا الشيوخ الذين تتوفر فيهم الشروط (٤٤) ثم تكلم على المريدين والتلاميذ معتمدا فى ذلك على احد شيوخ التصوف وهو البجائى وعلى ابى يعقوب يـوسف العجمى المالقى والشـيخ زروق فى كتـابه الفصول وعبد الله الحضرمى صاحب رسـالة المـريد ،

والشيخ مصطفى البكرى فى رسالة الوصية الجليلة ورسالة النصيحة السنية فى معرفة آداب كسـوة الخلوية وعلى الفيته فى السلوك وهى التى مطلعها :

واعــلم أن نسبــــة الــــروحانى
أقرب عندهم من الجسمــانى (٤٥)

كما اتخذ له مصدرا كتاب تـاج الدين الثعالبى فى طريق النقشبندية وعلى ابى على الدقـاق ايضـا حيث بين ضرورة الشيخ للمريد لان الشجرة الـتى تنبت وحدها لا تثمر كما قال ابو على الدقاق فلابد فى نظره من السبب فكما ان التوالد والتناسل لا يحصل بغير الوالد والوالدة كذلك التوالد المعنوى لا يحصل بغير مرشد وملهم ، ونقل عن عز الـدين بن عبد السلام من كتابه « حل الرموز ومفاتح الكنوز » انه: « من لا شيخ له لا قبلة له ومن لا شيخ له فالشيطان شيخه » وما الى ذلك من آراء المتأخـرين مـن متصوفه الذين راوا ان الشيخ ضرورة ملحة فى نقل الميراث الروحى الى المريدين وذكر الخلاف الذى وقع بين شيخ شيوخه محمد بن عبد الرحمن وبين مولاى الطيب احد الصوفية المعاصرين له ونقل نصوصا عديدة من كلام محمد بن عبد الـرحمن الجرجرى الازهرى التى اوضح فيها أن الشيخ الذى اخذ عنه محمد بن عبد الرحمن التصوف والطريقة الخلوتية انما هو الشيخ الحفناوى الازهرى المصرى (٤٦) انه مخالف للحاج عبد القادر بن المختار الـدفيشى الذى اتى ببعض البدع بعد وفاة شيخه محمد بن عبد الرحمن وتبين من هذه النصوص ايضا أن الشيخ ابن الحداد فى التصوف هو احد تلاميذ محمد بن عبد الرحمن وهو على بن عيسى ومن شيوخه ايضا تلميذ على بن عيسى وهو الحاج المهدى .

ثم عقد بابا أوضح فيه الفـرق بـين المقـربين والابرار وختم الكتاب بخاتمــة تتضمن عدة مسائل نقلها من عدة كتب فذكـر مســاله سـند الخرقة ، ومسألة النفس والــروح نقــلا عن احمد المليــانى ومسألة اهــل الدائرة ومســائل من رســائــل القشيرى مثل مخالفة النفس والقناعة والاخلاص والفتوة والبرزخ والتوبة والخوض فى التوحيد ناقلا من رسالــة الغزالى المسماة بقــواعد العقائــد ومسألة الاتحاد والحلول ومذهب أبى يزيد البسطامى وسهل بن عبد الله التسترى فى هذا الصدد .

وبعد فا نابن الحــداد حــاول ان يجمــع فى رسالته (٤٧) هذه اهم الموضـوعات التى يدور حولها التصوف وسلوك اهل الطريق ، ودل بذلك على انه اطلع على مصادر كثيرة فى التصوف سواء ما كان منها من مؤلفات قدمــاء الزهــاد او من مؤلفــات المتاخرين من أهل الطريق ولا نستطيع القول بأنه مجدد فى التصوف بل هو سائر على منهج الخلوتية وهو منهج الطريق الرحمانية التى انتشرت عــلى يديه وكتب لمريديها ان يشاركوا فى ثورة ١٨٧١ وان يكتبوا صفحة ناصعة من تاريخ النضال الجزائرى والذود عن الذات ، وعن المعــانى الخــوالد التى غرست جذورها فى تلك الجبال الشامخة وامتدت رسوخا وتأصيلا ، وكل من حاول ان يقتحم عرينها اصولها فى الارض فلن تبيد ولن تزيدها الايام الا اتت عليه اسود غابها وسحقته كما سحقت كل معتد اثيم من قبل .

---

(١) التعليق على هامش رسالته فى التصوف ، نسخة د ورقة ٢ .

(٢) فى الاصل واحسنوا به .

(٣) الوصايا السبع لابن الحداد ورقة ١ ، ولقد تكرم الزميل . سعد الله فمكننى من نسخة مصورة منها .

(٤) المصدر نفسه .

(٥) رسالة التصوف لابن الحداد ورقة١٩ نسخة ش ورقة٣١هـ

(٦) ابن الحداد ، رسالة التصوف ورقة ٢١ س ، وذكر انه كان يزور قبر الشيخ محمد بن عبد الرحمن ، ويجتمع الحاج عبد القادر واعجبه حال المزخرف .

(٧) المصدر نفسه .

(٨) وقد ضبط ذلك في الوصايا .

(٩) وقف على هذا الشرح السعيد ابو داود مفتش وزارة التعليم الاصلي والشؤون الدينية بولاية سطيف .

(١٠) واخبرني الشيخ السعيد ابو داود أن لديه نسخة اخرى ناقصة لم اطلع عليها .

(١١) في الاصل وحازوا النصيحة نسخة هـ .

(١٢) الرسالة ورقة ٢٩ ش

(١٣) ش ورقة ٢

(١٤) ش ورقة ١

(١٥) ش ورقة ٢

(١٦) ش ورقة ٢

(١٧) ش ورقة ٢

(١٨) ش ورقة ٢

(١٩) ش ورقة ٢

(٢٠) ش ورقة ٢

(٢١) ش ورقة ٣

(٢٢) ش ورقة ٣

(٢٣) ش ورقة ٤

(٢٤) ش ورقة ٥

(٢٥) توجد منه نسخة في المكتبة الوطنية في الجزائر وفي مكتبات أخرى في المغرب .

(٢٦) ش ورقة ٥ ، ٧ ، ٨ ، ١٣

(٢٧) ش ورقة ٦

(٢٨) ش ورقة ٧ ، ٨

(٢٩) ش ورقة ٨

(٣٠) ش ورقة ٨

(٣١) ش ورقة ٩

(٣٢) ش ورقة ١٠

(٣٣) ش ورقة ١٠

(٣٤) ش ورقة ١٠

(٣٥) ش ورقة ١٠

(٣٦) ش ورقة ١١

(٣٧) ش ورقة ١١

(٣٨) ش ورقة ١١

(٣٩) ش ورقة ١١

(٤٠) ش ورقة ١٥

(٤١) ش ورقة ١٥

(٤٢) ش ورقة ١٦

(٤٣) ش ورقة ١٦

(٤٤) ش ورقة ١٦

(٤٥) ش ورقة ١٧

(٤٦) ش ورقة ٢٠

(٤٧) ش رمزت اليه الى نسخة ابن الشيخ محمد الشريف بحرف ش والى نسخة الحسيني عبد الرحمن وهو من أسرة ابي الحداد بحرف هـ .

عمار طالبي أستاذ الفلسفة بجامعة الجزائر

* ● *

إبن ناصر بن شهرة

أحد أبطال ثورة 1871 م



أحمد بوزيد قصيبه

في آخر ١٩٧١ وقع احتفال بالذكرى المئوية لثورة ١٨٧١ في مدينة الاغـواط حضرته السلطات المدنية والعسكرية . والقى فيه الاستاذ احمد بوزيد قصيبة مدير ثانوية التعليم الاصـلى بهـذه المدينة هذا الخطاب .

هذا ونذكر بانه كان سبق ان احتفل بالذكرى المئوية لهذه الثورة في كـل من صدوق ، ومجانة ، وقلعة بنى عباس بولاية سطيف ، وفي بنى مناصر بولاية الاصنام ، وهذه هي المرحلة الثالثة .

احتفل الشعب الجزائرى فى عدة جهات من الوطن بذكرى مرور قرن على ثورة ١٨٧١ م . الخالدة وقد جاء فى خطاب الاخ السيد وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية فى ٥ مايو ١٩٧١ م . فى قلعة بنى عباس ما يلى (... ولابد للصحراء من الاغواط الى ورقة وحتى عين صالح من احياء امتداد هذه الثورة الى هناك) ، ثم لما زار مدينة الاغواط فى اعياد الربيع الماضى جدد التذكير بوجوب احياء هاته الذكرى ، وكلفنى باعداد محاضرة عن حياة البطل ابن ناصر بن شهرة احد زعماء هاته الثورة الجبارة فشكرا للسيد الوزير على نشاطه المتواصل فى احياء التراث الوطنى ، وبفضل ذلك كله ها نحن نحتفل اليوم باحياء ذكرى هاته الثورة التى كانت حلقة هامة فى سلسلة الثورات المتتالية فى تاريخ كفاح شعبنا الطويل من اجل التخلص من المستعمرين الظالمين .

وجوب تصفية تاريخنا من الاستعماريات

قبل الشروع فى الموضوع احببت ان اقدم له بالتمهيد التالى ، فقد اشرت فى ذكرى يوم المجاهد فى ٢٠ غشت ١٩٧١ م . الى وجوب الاعتناء بتدوين وتسجيل تاريخ الثورة الجزائرية الكبرى ثورة اول نفمبر ١٩٥٤ م . وما تخللها من بطولات وتنافس فى الجهاد والاستشهاد والتضحية والفداء ، وذلك من طرف مثقفى هذا الجيل الذى عاش الثورة او واكبها واصطلى بنارها واهتدى بنورها ، ليكون ذلك مرجعا صحيحا للاجيال القادمة تستمد منه الفخر والاعتزاز . وخصوصا ان تاريخ الثورة قد اسرع للكتابة عنه اجانب مغرضون يحرفون الحقائق ، او اخوان شرقيون استمدوا اغلب معلوماتهم عن الثورة من هاته المصادر الاجنبية .

واريد اليوم ان انتهز هاته الفرصة السعيدة لالفت الانظار الى وجوب تصفية تاريخنا من رواسب الاستعمار ودسائسه التى تهدف بصفة عامة الى الحط من قيم الحضارة العربية الاسلامية ، وتمجيد الحضارة اليونانية الرومانية الغابرة وبنتها الحضارة الغربية الحاضرة ، وتصفية تاريخ الجزائر بالخصوص من النزعة الاستعمارية التى تقلل من شان الماضى الجزائرى بل تحتقره وتنكره بالكلية ، وذلك لتبرير احتلال بلادنا واستعمارها واستغلال خيراتها .

وهذا التشويه والدس شنشنة قديمة ابتلى بها الاسلام والمسلمون من اعداء هذا الدين والكائدين له ، حملهم على ذلك الحقد الصليبى الدفين ، والعداوة اليهودية الحاقدة على انتصار الاسلام وسرعة انتشاره فى العالم .

ولم يسلم من هذا الدس حتى كتاب الله العزيز ولاسيما فى قصص الانبياء واخبار الامم السابقة ، وقد تفطن فحول علمائنا من كبار المفسرين لهاته الخزعبلات وسموها (الاسرائيليات) وتصدوا لها بالحرب وطهروا تفسير كتاب الله من اوهامهم ومكائدهم التى تتنافى تماما مع مقاصد القرآن وتوجيهاته الهادية الى سواء السبيل .

فاطلقت على دسائس المستعمرين فى تاريخنا (الاستعماريات) لان افكار المستعمرين متشعبة متنوعة منها الظاهر البين ومنها الخفى كالسم فى العسل ، وكلها ترجع الى اساس واحد هو تبرير الاستعمار وجعله كانه ضرورة حتمية يجب على من ابتلى به التسليم به كواقع اجتماعى لابد منه .

والحمد لله قد تفطن كتابنا الشباب الى هاته الظاهرة وقرات للكثير منهم ما يدل على اهتمامهم بذلك ، كالاستاذ محمد الشريف ساحلى فى كتابه القيم (ازالة النزعة الاستعمارية من التاريخ) (١)

Décoloniser l'histoire (1)

والاستاذ محمد الميلى ، والاستاذ عبد الله شريط ، والاستاذ عمار الطالبى ، والاستاذ تركى رابح وغيرهم ...

ثم جاءت البشرى السعيدة التى انهت حيرة الحائرين وقلق المثقفين على تاريخ الثورة وتاريخ الجزائر ، فتبنت السلطة الثورية الاشراف على احياء هذا التراث وتصفيته وتطهيره وابرازه للناس تاريخا نقيا صافيا نابعا من اعماق ضمير هذا الشعب المجاهد الكريم ، وهذا العمل عمل ثورى لا يقدر عليه الا الثوار الذين يجعلون مصلحة الوطن العليا فى الدرجة الاولى من اهتماماتهم . فكانت السلطة الثورية عند حسن الظن بها اذ نشرت فى الجريدة الرسمية للجمهورية الجزائرية عدد ٦٥ من السنة الثامنة بتاريخ ١٩ جمادى الثانية ١٣٩١ هـ . الموافق ١٠ غشت سنة ١٩٧١ م . امرا رقم ٧١ / ٥٦ مؤرخ فى ١٤ جمادى الثانية سنة ١٣٩١ هـ . الموافق ٥ غشت ١٩٧١ م . يتضمن تأسيس (المركز الوطنى للدراسات التاريخية) الذى سيكون تابعا لرئاسة الحكومة . ونشر كذلك فى نفس العدد بنفس التاريخ مرسوم ، يتضمن تعيين الاستاذ الكبير مصطفى الاشرف (المستشار بالرئاسة) مديرا عاما لهذا المركز . فتأسيس هذا المركز وتعيين هذا الاستاذ الكفء مديرا عاما له ، هو الحد الفاصل بين عهد التخوفات والتساؤلات وعهد بناء صرح التاريخ الجزائرى الصحيح .

ترجمة البطل ابن ناصر بن شهرة

اثناء اعداد هاته المحاضرة والبحث عن مراجعها ومصادر المعلومات عنها ، وجدت الناس قد جهلوا كل شىء عن هذا الرجل العظيم والقليل منهم لايعرف عنه الا الاسم مع ان الاعداء كتبوا عنه الدراسات واعطوه حقه من التبجيل والاعتراف به والشهادة له (والفضل ما شهدت به الاعداء) بالبطولة والشجاعة النادرة والشهامة . وبحثت عن سبب جهل الناس لتاريخ هذا المجاهد فعلمت ان الاستعماريين كانوا يعاقبون كل من تحدث عن الثورات او الثوار ، وذلك لقتل كل روح وطنية ونضالية فى النفوس . ولنفس الغرض كانت قد جمعت السلطة المحلية هنا بالاغواط جميع نسخ كتاب (تحفة الزائر فى تاريخ الجزائر والامير عبد القادر) بالشراء ، والاستعارة من طرف الحكام العسكريين .

واول مرة سمعت فيها ذكر اسم ابن ناصر ابن شهرة فى تونس ايام الدراسة بالزيتونة ، فقد قدمإليها المؤرخ السيد دهينة بن الحاج عيسى لتفقد احوال ولده الذى كان معنا فى البعثة التعليمية التى اوفدها الى تونس استاذنا الشيخ مبارك الميلى رحمه الله قبل انتقاله من الاغواط سنة ١٩٣٣ م . وحكى لنا قصة السيد ابن ناصر بن شهرة ، ولعله لم يكن يحكيها فى الاغواط .

واسم هذا البطل هو ابن ناصر كما ذكره كثير من الكتاب ويعرفه الناس بالتواتر ، وليس اسمه (ناصر) فقط كما ذكره لوى رين المؤرخ لثورة ١٨٧١ م . وتبعه فى ذلك الاستاذ ساحلى وكل من كتب عن ثورة ١٨٧١ م .

فهو ابن ناصر واسم ابيه ابن شهرة وحذفت لفظة ابن الدالة على البنوة للتخفيف ، فهو ابن ناصر بن شهرة بن فرحات . وقد اشتهر جده فرحات بالشجاعة والكرم حتىجعلته قبائل الارباع شيخا ورئيسا لهم . ثم تولى ذلك ولده ابن شهرة الذى كان هو ايضا شجاعا وبطلا وكريما ، وكانت الارباع ترحل الى التل فى الشمال فى الصيف لجلب الحبوب لها ولخيولها . وكان الامن مفقودا ولم يقدر على التنقل الا من كانت له الشجاعة والاقدام على الدفاع عن الاهل والحريم والاموال

والماشية ، فتربى مترجمنا ابن ناصر فى هـذا الجو المملوء بالبارود والفروسية والكر والفر ، فكان هو أيضا من رؤساء قبائل الاربعاء قبل الاحتلال ، وقد ولد سنة ١٨٠٤ م وتزوج أول مرة بنت السيد احمد بن سالم سلطان مدينة الاغواط قبل الاحتلال وولدت له بنتا ولما جاء الاحتلال الفرنسى ، رفض الخضوع له وتوجه الى اعماق الصحراء فلم توافق زوجته هاته على الذهاب معه الى الصحـراء ، فطلقها ، وتوفيت بنته منها ، واثناء جهاده فى الصحـراء ضد الاحتلال الفرنسى منذ سنة ١٨٥١ م . توجه الى مدينة ورقلة واتفق مع سلطانها على الكفاح وتزوج بنته المسماة الياقوت من فرقة المخادمة بورقلة ، وقد انجبت له ولدين هما : محمد رجع من الشام ووعدته فرنسا بمنصب قائد وشاع انه قتل مسموما فى ناحية قرية زنينة (الادريسية الآن) وضع له السم فى الشاى . وثانيهما ابن شهرة الذى لما رجع من الشام وسمع بالثـورة السنوسية فى طرابلس الغرب ضد الاحتلال الايطالى ، ذهب للجهاد هناك واستشهد رحمه الله فى طرابلس سنة ١٩١٢ م . وبعد وفـاة الياقوت الخدمية تزوج ابن ناصر بالمرابطة نوة أخت السيد مولاى عبد القادر ادريسى التى انجبت له ولدين أيضا هما — فرحات الـذى توفى بالاغواط بعد رجوعه من الشام وخلف ولدا اسمه احمد بن فرحات لازال حيا يرزق ، وبنتا اسمها الزهرة ارملة الحاج قد بن الحبيب التى توفيت فى السنة الماضية ١٩٧٠ رحمها الله . والثانى يحيى الذى توفى بالاغواط بعد ان رجع من الشام ، وخلف اربعة ابناء ذكور واربـع بنات ، مازال على قيد الحياة منهم ، ثلاثة ابناء وثلاث بنات .

وابن ناصر بن شهرة كما وصفه لى بـعض كبار من سالتهم عنه ، كان ربعة ، اشقر اللون احمر الشعر كثيف شعر الحاجبين ، سريـع الخطا ، كان يلبس (الحائك) من الصـوف ، ويعتم مثل الامير عبد القادر ، ويحتذى الحـذاء الطويل . وكان ماهـرا فى الرمايـة يضـرب بالرصاص من الامام ومن الخلف ولا يخطىء ابدا، وكان اذا حمى الوطيس فى الحرب (يتنقب) أى يتلثم . وكان عالما بدقائق الارض الصحراوية ، يقول لوى رين فى ذلك (كان ابن ناصر بن شهرة الملاح الحقيقى للصحراء) . ومهمـا حـاول المستعمرون حصاره للقبض عليه انفلت منهـم باعجوبة وتسلل من الحصار بسبب معرفته التامة بخفايا الصحـراء .

وكان رحمه الله بطلا شجاعا ودام كفاحـه اكثر من ٢٤ سنة ضد الاستعمار الفرنسى مـن سنة ١٨٥١ الى سنة ١٨٧٥ م . وقد وجد التأييد فى الجنوب التونسى بصحراء الجريد وخصوصا لدى الزاوية الرحمانية بنفطة . التى كانت ملجا وملاذا للثوار الجزائريين والفارين بدينهم مـن الاستعمار . يقول رين فى ذلك — (صفحة ٨٨) — (فى نفطة ، كان ابن ناصر بن شهرة الذى خلف اباه كآغا على الاربعاء سنة ١٨٤٦ م يقوم منـذ سنة ١٨٥١ م . بحرب مستمرة ضدنا فى الصحراء الشرقية ، ولم يترك سنة واحدة لم يهاجمنـا فيها أو قبائلنا التى رضخت لنا) . وكان مـن انصار ابن ناصر بن شهرة أقاربه من قبيلـة المعامرة وقبيلة الحجاج واكثرهم من قبيلة الحرازلية يقول الشهيد بوديسة احد الثوار (من قبيلة اولاد المختار من قصر البخارى الذى سجن بفرنسا وبالاغواط) ، والـذى استشهـد سنـة ١٨٦٤ ، فى بطولة ابن ناصر بن شهرة — ولا يعرف البطل الا البطل ، اذ لا يعرف الفضل لاهـل الفضل الا ذووه — وذلك عند الحديث عن الخيل التى كانت الآداة الهامة فى جهاد الثوار ، وعن الشجعان : (فى الخيل عودى وفى الرجال ابن ناصر بن شهرة) . ولما وقعت الحرب (حـرب السبعين) بين فرنسا والالمان فرح المجـاهدون

والابطال وعزموا على استئناف الجهاد والكفاح، ومن بينهم ابن ناصر بن شهـرة فكـان بطـلا بارزا من ابطال ثورة ١٨٧١ م . ونازل الاحتلال وصاوله الى أن انتهت الثورة فسافر الى بيروت الشام حيث امضى بقية حياته بهـا مـجاورا لصديقه الامير محيى الدين بن الامير عبد القادر ، وبها توفى رحمه الله سنة ١٨٨٤ م . فيكـون قد عاش ٨٠ سنة .

واثناء اقامته بالارض العرشية للاربـاع فى ناحية المخرق ، كان اذا قدم الى الاغواط لقضاء مآربه او فى مروره بها فى رحلة الصيف الى التل كان ينزل بمكان (الجدر) مركز القاعدة الجوية الآن ، وينزل ايضا فى الضاية القبلية قرب مقبرة اسلافه (اولاد عيسى بن على) ، وكذلك فى مكان (قنيفيد) بين السريجة وبرج السنوسى ، وكان صديقه بالمدينة واحد اقاربه هو المرحوم السيد الحاج أحمد الشاوى مقدم الطريقة القادرية ، التى كان ينتمى اليها ايضا ابن ناصر بن شهرة .

جهاد ابن ناصر بن شهرة منذ سنة ١٨٥١ م .

بدأ المجاهد البطل ابن ناصر بن شهرة جهاده سنة ١٨٥١ م . وسأعرض عليكم باختصـار مواقف بطولية فى الجهاد فى ربوع صحرائنـا الجزائريـة ــ

فى ٥ سبتمبر سنة ١٨٥١ م . كان ابـن ناصر ابن شهرة وقبائل الارباع تحت الاقامة الجبرية قرب المعسكر بوغار ، ولكنه رفض هذا التصرف من الفرنسيين وتوجه الى الشهبونية حيث لحقـه الملازم اليهودى (كروس) مع فرقة من ٣٠ من فرسان الصبائحية ، لان كروس ادعى انـه صديق ابن ناصر بن شهرة ، وهو سيـاسى ديبلوماسى ، يعرف نفسية العرب وكيف يؤثر فيهم ، فلما اتصل به للمفاوضة ، لم ينجـح ، فجردهم ابن ناصر بن شهرة واخوه ابوبكر مـن اسلحتهم والبستهم العسكرية وقال للمـلازم الفاشل ــ انى اجردك من اسلحتك وخيولـك واطلق سراحك ، وارجع الى من أرسلك فى المدينة وقل له ــ (ان ابن ناصر بن شهرة قد فارق خدمة الفرنسيين التى كلها مذلة واهانـة ، ويلتحـق بمن يمثل الدين والاستقلال) يعنى بذلك المجاهد البطل شريف ورقلة السيد محمد بن عبد الله ، فرجع الملازم كروس وفرقته الى بوغار مشيا على الاقدام . ثم اتصل بطلنا ابن ناصر بأخيـه فى الجهاد محمد بن عبد الله فى ورقلة ، ثم رجـع الى الشمال الشرقى واستولى على قرية قـصر الحيران وحصنها ، وذلك فى ٣١ جويلية ١٨٥٢ م. ولما عزم سكان مدينة الاغواط على الثورة فى وجه الفرنسيين اتصلوا بالبطل ابن ناصر بن شهرة فى وفد عظيم وكان من بينهم احد شيوخ بنى الاغواط السيد يحيى بن معمر الذى كان متفقا معه فى السياسة النضالية ، وبعد مفاوضات التمسوا منه ان يتصل بسلطان ورقلة ليكون قائدا للثورة، فذهب اليه ووافق على ذلك لكنه كان مريضـا فرجع ابن ناصر بن شهرة الى قصر الحيران ثم التحق بـه السيد محمد بن عبد الله ومنها ذهبا معا الى مدينة القرارة للتسليح والتموين . وقبل ذلك كان قد حاول الاتصال به السيد الشريف بن الاحرش الذى كان خليفة الامير عبد القـادر ثم صار باش آغا على اعراش اولاد نائـل ، والتقيا فى مكان اللقحات فى الشبكة قرب بريان فلم تنجح هاته المفاوضـات ، وهنـاك وقـع الفرنسيون فى رهب شديد باتصال ابن ناصر بن شهرة بثوار الصحراء .

وبعد احتلال مدينة الاغواط ، وتمركز الجيش الفرنسى بها ، لجا ابن ناصر بن شهرة الـى الجنوب التونسى ينتظر تطور الاحداث والفرص لاستئناف الجهاد ضد المستعمرين ، وكون فى الجنوب التونسى انصارا واعوانا من ابطال تلك الجهات ، ولما سمع بثورة اولاد سيدى الشيخ فى صيف سنة ١٩٦٤ م جاء بطلنا الى ورقلة واتصل

فيها بالسيد سى العلاء من اولاد سيدى الشيخ وفى ٦ اوت ١٨٦٤ كانا معا على رأس جيش عظيم ١٥٠٠ فارس فى عين طاقين ووقعت فيها معركة عظيمة بينهم وبين القوم وعملاء المستعمر. وفى ٢١ اكتوبر ١٨٦٤ م . وصل ابن ناصر بن شهرة الى واد النساء جنوب بريزينة ، ووصل مع اولاد سيدى الشيخ ومرافقيه من الاربـاع الى سيدى الحاج الدين فى صحراء الساورة ، مارين بواد زرقون ومحيقن والقيمن وتاجـرونة والماية ، وقد كانت ملاقاة هؤلاء الابطـال فى وادى ميزاب قرب بنى يسقن وفى متليلى ونومرات مما ادى بالسلطة الاستعمارية الى ان يقرر الوالى العام فى نوفمبر ١٨٦٤ حجز جميع قوافل بنى ميزاب وحرمانهم من الحبوب التى تاتيهم من الشمال وذلك عقابا لهم ولئلا يساعدوا الثوار فى الصحراء .

وفى سنة ١٨٦٥ م . رجع ابن ناصر بن شهرة وسى العلاء الى مدينة ورقلة ، وفى ربيع سنة ١٨٦٦ م . توجه ابن ناصر بن شهرة وسى الزبير وابن اخيه سى أحمد بن حمزة من زعماء ثورة اولاد سيدى الشيخ الى مدينة المنيعـة ومنهـا انتقل الى عين صالح لتجنيد المجاهدين من توات ومن اشعابنة ومن التوارق ، وقد دخلت ثـورة اولاد سيدى الشيخ الى مدينة عين ماضى التى دخلها سى العلاء فى شهر جانفى سنة ١٨٦٩ م . ومعه سى قدور ابن اخيه واعلنت عين ماضى الثورة فتوجه اليها جيش فرنسى عظيم مـن مدينة الاغواط بقيادة الكولونيل دى سونـى لمعاقبة شيخ الزاوية وسكان عين ماضى ، ولما سمع بذلك المجاهدون جمعوا فى اقرب وقـت وبسرعة فائقة ٣٠٠٠ من الفرسان والف مـن المشاة واستعمل الجيش الفرنسى لاول مرة فى الجزائر احدث الاسلحة فكانت الغلبة للتفوق فى التسلح ، وفى ١٠ فيفرى ١٨٦٩ اعتقلت السلطة الاستعمارية شيخ الزاوية ونفته الى بولوغين بالجزائرومعه ١٨ من أعيان عين ماضى ،ثم نقلت شيخ الزاوية الى مدينة بوردو . وفى نفس هذه المدينة ظهر فى شهر مارس ١٨٦٩ م . ظهر فى صحراء توات ثائر وزعيم للجهاد جديد هو السيد شريف محمد بن التومى بن ابراهيم الغيشاوى المشهور بأسم بوشوشة وأعلن أنه سيجاهد ضـد الكفار المسيحيين حتى يطهر منهم البلاد الاسلامية وتجند تحت لوائه كثير من ابطال الصحراء مـن التواتيين وشعانبة متليلى وشعانبة المواضـى بالمنيعة ، واستولى على المنيعة وسجن قائدها من طرف الفرنسيين ، ولما سمع بذلك ابن ناصر ابن شهرة التحق به وشرعا فى اعداد النـاس للجهاد والكفاح حتى اندلعت ثورة الحاج محمد المقرانى فكان من ابرز زعمائها وابطالها ومـن المنظمين لها كما سياتى بيانه .

ولذلك نقترح على السلطات المحلية أن يسمى حى (قصر البزائم) (حى ابن ناصر بن شهرة) ، وبناء نصب تذكارى تخليدا لهذا البطل فى مكان (قنيفيد) ، على الضفة اليسرى لوادى مزى . وتسمية قرية « المخرق » (ابن ناصر بن شهرة).

دور ابن ناصر بن شهرة فى ثورة ١٨٧١ م .

شوه الكتاب الفرنسيـون تاريـخ ثـورة ١٨٧١ م . التى اشتهرت بثورة المقرانى ابـرز زعمائها وقادتها وابطالها الميامين . ولاسيمـا عند تحليل احداثها والتكلم عن أسبابها ونتائجها. وكل ذلك نضرب عنه صفحا ولا نحكى زورهم وبهتانهم ، ويرجع السبـب الرئيسـى لثـورة ١٨٧١ م . الى عزم الشعب الجزائرى علـى محاولة التخلى مرة اخرى من المستعمريـن الظالمين ، واراد اغتنام فرصة انكسار الجيـوش الفرنسية امام الالمان ووقع ملكها الامبراطـور نابوليون الثالث فى الاسر ، والانقلاب الذى وقع

من طرف اليساريين فاعلنوا الجمهورية الفرنسية الثالثة ، وانتقال الحكومة الى مدينة (تور) ثم الى مدينة (بوردو) . وقد صدرت من بعض هؤلاء الكتاب بعض الحقائق والعبارات التى تشير الى الاسباب الوطنية الشريفة فى اعلان الجزائريين لثورة ١٨٧١ م .

وقد وقعت السلطة الاستعمارية فى فوضى لا نظير لها وتطاحن الحكام المدنيون والعسكريون تطاحنا علينا ، راى فيه قادة الشعب الجزائرى الفرصة السانحة للخلاص ولطرد المستعمر الى البحر .

ولم يكن قرار منح الجنسية الفرنسية بصفة جماعية للاسرائليين الجزائريين الا جزئية من جزئيات آثار السياسة الاستعمارية ، بل راى فيه السكان تطورا جديدا فى هاته السياسة الرامية الى محاولة مسخ كل ما كان قبل الاحتلال من مظاهر ، (وعكس ما ادعاه مؤرخو هاته الثورة الفرنسيون) راى الناس فى هذا القرار اعتداء على حرية الاديان فى الجزائر ، وخشى اهل النظر البعيد أن يكون ذلك خطوة نحو منح المسلمين هاته الجنسية بصفة جماعية واشار الى ذلك الكاتب لوى رين فى كتابه المذكور صفحة (٩٢)

(... ولكن البعض وهم المرابطون رؤساء الزوايا راوا فى ذلك دليلا على تسامحنا الدينى الذى حملنا على فرض قانوننا المدنى على الاسرائليين بدلا من قانونهم الدينى ، وكانوا يظنون بدون شك اننا يوما ما سنتصرف مثل هذا التصرف بالنسبة للقانون الدينى للمسلمين) ، ويعلق الكاتب مستغربا هذا الفهم قائلا — (وهذا دليل على التفسير الغريب من طرف الاهالى فى بعض الاحيان لبعض اجراءاتنا) . ويقول فى صفحة (٨٥) — (.. فى ذلك الوقت ومدة كامل شهر سبتمبر ١٨٧٠ م . انتشرت انباء مؤلمة عن اندحار جيوشنا النظامية وخصوصا من طرف بعض الجرحى فى معركة (ريشهوفن) من الجنود الجزائريين الذين نقلوا الى الجزائر وبالغوا فى تصوير انكسارنا وضعفنا واضمحلال دولتنا) .

وقال الاستاذ اوقيستان برنار Augustin Bernard فى الجزء الثانى المتعلق بتاريخ الجزائر من كتاب (تاريخ المستعمرات الفرنسية والتوسع الفرنسى فى العالم) صفحة (٣٨١) — (... خلاص الحكومة Khelass El Houkouma انتهت كل سلطة وشرعت القبائل والاعراش فى التسلح ، وصعب قبض الضرائب ، ووضعت المواشى فى مامن فى الجبال) . ولقد كون الشعب تلقائيا مجالس شعبية تتكون من ١٠ الى ١٢ عضوا لها جميع الصلاحيات وسميت الشرطية ، تراقب القياد وتفرض التغريم ، وتحجز املاك المخالفين والخونة للقضية العامة ، وتشترى الاسلحة ، والبارود ، والعتاد ، والخيل ، وتعيد النظر وتنقض احكام القضاة ومجالس التاديب الاستعمارية ، وكانت اول شرطية تاسست هى شرطية السحارى قرب بسكرة وشرعت فى اعمالها فى ١٥ نوفمبر سنة ١٨٧٠ م . يقول لوى رين فى ذلك (... وقد بلغ ببعض هاته المجالس الشعبية وذلك فى الوادى بسوف ان حكمت بالاعدام على السراق) .

واعتقد الناس فى كامل البلاد ان فرنسا امامها ستخرج من الجزائر او تنسحب الى مدن الساحل

واثناء هاته الاستعدادات النشيطة فى الشمال وخصوصا بعد اعلان الجمهورية الفرنسية الثالثة فى ٤ سبتمبر ١٨٧٠ م . كان الامير عبد القادر فى دمشق الشام الواقعة تحت حكم دولة الخلافة العثمانية حليفة الالمان ، يعلم جيدا حقائق الامور ، وراى ان الفرصة سانحة لاستئناف الجهاد لتحرير البلاد ، فارسل ابنه الثانى الامير محيى الدين ليلتحق باخوانه الثوار فى داخل الوطن ، وعزم الجميع على اعلان الثورة بمجرد انتهاء شهر رمضان المعظم سنة ١٢٨٧ هـ . الذى بدا فى ٢٤ نوفمبر وانتهى فى ٢٣ ديسمبر سنة ١٨٧٠م

يقول فى ذلك الاستاذ سعد الله فى ندوة ثــورة ١٨٧١ م . العدد الثانى من مجلــة (الاصالــة) شهرمايو ١٨٧١ م . صفحــة (٥٨) مايلــى ــ (.. ففى احد الاصياف كنت فى سوريا والتقيت مع جماعة من احفاد الامير ومنهم حفيد كان كبيــر السن وجدته على الفراش ... وقد توفى الان ، ومما قال لى وانا اسجل هذا فى مذكراتى الخاصة بأن الامير عبد القادر هو الذى ارسل ابنه محيى الدين عن طريق طرابلس التى كانت تابعة للدولة العثمانية ، جنوب تونس ، ودخل محيى الدين الى الجزائر عن طريق الجنوب الشرقى) .

جاء الامير محيى الدين الــى تــونس ولكــن احتجاج القنصل الفرنسى بها لدى الباى حملــه على الامتناع عن اى اتصال ، وادعــى المرض ، واعلن انه ينوى الرجوع الى سوريا عن طريــق مالطة وابحر من تونس فى ٢١ نوفمبر سنة ١٨٧٠ ولكنه بعد ايام قلائل نزل بمدينة طرابلس ومنهــا توجه برا الى توزر ثم الى مدينة نفطة . وفى نفطة التى كانت مركزا ومأوى للثوار الجزائريين وملجأ لكل الذين قد هاجروا اليها لالسبب كما يقول لوى رين نفسه (سوى الرغبــة فى العيــش فى أرض اسلامية ورفض ان يكونوا رعايا للمسيحيين) . صفحة (٨٨) . وقد التقى الامير محيى الدين فى نفطة باخوانه فى الجهاد الثوار ابن ناصر بــن شهرة ، ومحمد بوعلاق التونسى ، واولاد البطل الشعانبى السوفى بوطيب بن عمران وكانــوا جميعهم فى ضيافة واكــرام ومســاعدة رئــيس زاويتهــا الرحمانيــة الشيــخ مصطفــى بــن عزوز الجزائرى .

بدأ الامير باعداد الاعراش والقبائل وتسليحهم وتكوين القوم وشراء الاسلحة والعتاد ثم ارسل هو وابن ناصر بن شهرة اول رسالتيهما الـــى القبائل والاعراش ، وكانت رسائلهما ترســل اثنتين اثنتين ، الرسالة الاولى من ابن ناصر بن شهرة يعرف بها بحضور الامير محى الدين ابــن الامير عبدالقادر والثانية من الامير محى الدين نفسه يدعو الناس فيها الى الاستعداد للجهاد واتخاذ كل الوسائل من اجل الكفاح . وهذه ترجمة الرسالة الاولى من ابن ناصر بن شهرة عن الفرنسية التى كانت مترجمة عن العربية والتى لم نعثر عليها : فى راس الرسالة ختم مربع قطع جــانب منــه ، معروف فى كامل الصحراء ، (ان مولانا الامــير محيى الدين ابن الامير الحاج عبد القادر قد جــاء بأمر من السلطان نصره الله ، انه يريد نصــر الدين ، وان شاء الله سيذهب من هنا الى الجزائر ليلتحق بأبيه الذى سيكون فى حاجة اليــه . وان الجيش المرسل من طرف السلطان قد وصل الى طرابلس . فاذا عزمتم على القدوم نحونا (اذا كنتم تحبونه حقا) ، فأرسلوا له وفدا من طرفكم . والا فلا تلومن الا انفسكم لما سيحدث (وحامل هــذا اليكم سيكمل لكم بصوت رفيع جميع المعلومــات كتبه الامير ابن ناصر بن شهــرة والســلام . ٦ شوال سنة ١٢٨٧ هـ . (٣٠ ديسمبر ١٨٧٠ م)

أما رسائل الامير محيى الدين فكانت تحمل من فوقها ختما كبير مستديرا (قطره ٣٥ ملمتر) وهو حجم اميرى . وهذا نص الرسالة الاولى : (ومــا النصر الا من عند الله . من طالب العون مــن القوى القاهر ، الامير محيى الدين بن الامير عبد القادر فى سنة ١٢٨٧ هـ . جئنا الى هنا قصــد الدفاع عن الدين وحماية الوطن . اننا نعلم انكم ترغبون فى الجهاد (وباسم الدين نجد فيكم الاخ الحميم والمؤيد) . ان الله قد سحق اعداءنا ولم يبق لهم لا وطن ولا جيش . كونوا مستعدين ليــوم قدومنا نحوكم . وانكم تعلمون ان الدين لا يسمح الا للعاجزين عن القيام بالقتال . كل رجل صحيح يجب ان يشارك فى الجهاد ، سواء بنفسه اوبماله استعدوا اذن لرفع شان الدين وانــى اعرف ان ذلك دائما هو املكم وانكم كرماء ، ان وقت الذهاب قد حان ، ووقت تحريركم قد قــرب . فاستعــدوا والســلام) .

ارسلت هاته الرسالة الاولى وكثير فى معناها الى جميع رؤساء القبائل والى جميع السكــان . والتحق الارباع بقائدهم لما جاءتهم رسالته وكــان برفقة الامير محيى الدين السيد ابن هلال احــد كتاب والده القدماء والسيد سى محمد زروق ابن سيدى صالح احد الاشراف من ناحية بسكــرة واحد ابطال معركة الزعاطشة والــذى كــان لاجئا فى طرابلس الغرب ، والسيد ابراهيم بــن عبد الله مقدم الطريقة القادرية واحد ابطال ثورة ١٨٦٤ والسيد محمد بن الحشانى من قرية بوعزيز فى بسكرة والسيد سليمان سلطان تقرت سابقا .

وشاع فى الجنوب فى تلك الايام قدوم الجيوش التركية والمصرية لنصرة المسلمين فقد كتب السيد سى محمد زروق بن سيدى صالح من نفطة الــى قائد بسكرة محمد الصغير بن قانة الذى احالهــا الى الادارة الفرنسية ، جــاء فيها ما يلى — (ان مولانــا الامير محى الديــن ابن الاميــر عبــد القادر قد جاء الى ابن ناصر بن شهرة ليقـــوم بالجهاد المقدس . ان سلطان اسطنبــول قــد ارسل جيشــا الى طرابلس ، وجعــل الايالــــة التونسية والجزائرية تحت امارة اسماعيل باشا نائب الملك فى مصر . عدة دول وافقت على التقسيم وبعضها لم توافق . والسلطان يريد ان يتخلص عرب الجزائر من عدوهم قبل أن يكثروا . وعندما اتفق مع سى محيى الدين ساعطيك اخبارا هامة فى هذا لشأن .) يقول لوى رين — (ارسل الينا الرؤساء الموالون لنا عددا كثيرا من هاته الرسائل وقد تجمع لدى القائد العسكرى لناحية بسكــرة نحو (٤٤) رسالة كلها محفوظة فى وثائق الولاية العامة وكان على بعضها ختم الامير محيــى الدين وعلى بعضها ختم ابن ناصر بن شهرة ، وقد كانت مرسلة الى رئيس زاوية تماسين ، والى السيــد على باى آغا تقرت وورقلة والى رؤساء واعيان الطرود بسوف ، والى الاغــواط ، ومتليلــى ، ومزاب ، والى الشريف بوشوشــة ، والى المخادمة والشعانبة ، وسعيد عتبة بورقلة وغيرهــم . .) ويقول رين ايضــا : (وكل هاته الرسائل متشابهة فى القول والاسلوب ويظهر أنها أمليت على كتاب عديدين) .

وكانت السلطات الفرنسية تجهل اولا وجــود الامير محيى الدين بجنوب الجزائر ثم كذبت الخبر واشاعت انه شخص آخر منتحل لاسم الامير ، ثم روجت اشاعة براءة الامير عبد القادر منــــه ونشرت عدة رسائل فى الجريدة الرسمية المبشر وفى الاسواق على انها من الامير يحذر فيها الناس من اتباع ابنه العاق ، وأنه غــير راض عنــه ولا موافق على تصرفاته . والصحيح ما قدمناه مــن ارسال الامير لابنه للجهاد وقد ارسل رسالة واحدة فقط الى حكومة بوردو بواسطة قنصلها العــام فى دمشق يخفف من وقع الحادث ، وقــال فيهــا انه أرسل ابنه المريض للمعالجة بمدينة الاسكندرية ولتبديل الهواء هناك .

وكان اثناء هاته الاستعدادات قد قام البطــل المجاهد محمد بن التومى الشهير باسم بوشوشة الغيشاوى باعلان الجهاد فى الصحراء واستولى على مدينة المنيعة وطرد قائدها جعفر ، ثم استقر بمدينة عين صالح فى شهر مايو ١٨٧٠ م وكــون جيشا عظيما من قبائــل الشعانبة المــواضى ، وشعانبة متليلى وشعانبة طرود سوف ، واجتمع فى الصحراء ثوار أولاد سيدى الشيخ بزعامة سى الزبير وثوار الشعانبة بقيادة بوشوشة ، وثوار الصحراء الشرقية بقيادة ابن ناصر بن شهــــرة والامير محيى الدين وفى نفس الوقت كانت الثورة مشتعلة فى الشمال بقيادة المجاهد الحاج محمد بن الحاج احمد المقرانى ، والشيخ ابن الحداد رئيس الزاوية الرحمانية فى صدوق ، ثم تحت قيــــادة بومزراق المقرانى والسيد عزيز بن الشيخ الحداد وقد استولى الثوار على برج بوعريرج ومجانة ووصلت الثورة الى ناحية الاخضرية (باليسترو)

والى بنى مناصر قرب شرشال ، واستولى الامير محيى الدين على نقرين وتبسة وانتشرت الثورة من الساحل وفى الجبال الى اعماق الصحراءحيث استولى ابن ناصر بن شهرة على تقرت وورقلة وتحمس الناس للجهاد والدفاع عن العقيدة والوطن وكان المرحوم المقرانى قد استشهد فى ٥ ماى ١٨٧١ م فى مكان سوفلات قرب عين بسام ، وفى ١٣يوليو ، جويلية سنة ١٨٧١ م القى القبض على الشيخ الحداد ، وتكبد الفرنسيون خسائر كبيرة واضطرو الى خوض اكثر من ٣٤٠ معركة اشتبكت فيها ثوارنا الابطال وجنودهم ضد الجيوش الفرنسية والعملاء الجزائريين الذين كانوا فى خدمة ركابهم ولعل وجود هؤلاء العملاء فى الشمال والجنوب هو السبب الرئيسى فى فشل ثورة ١٨٧١ م وعدم نجاحها رغم الاستعدادات زيادة على عدم وجود التنظيم العسكرى والقيادة الموحدة ، والتكوين السياسى للقيادة والشعب ، وكذلك مجيء الامدادات من العتاد والسلاح والجيوش من فرنسا بعد تفرغ جيوشها من حرب السبعين .

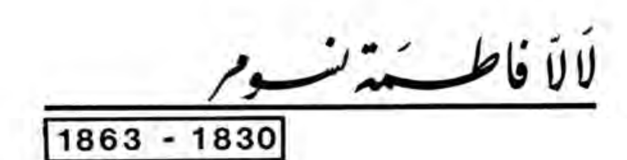
ولما انقلبت الحال فى الشمال قرر آل المقرانى الاعتصام بالصحراء فتوجه ركبهم نحو الجنوب على طريق المسيلة ثم واصلوا السير ووصلوا الى عقلة البيضاء على شط زاغز بعد ان مشوا ليلا اكثر من ٨٠ كلمترا وهناك اجتمعوا فى ١٠ اكتوبر ١٨٧١ م . ليقرروا مصيرهم ، وكان اغلبهم قد اشار بالاتجاء الى الايالة التونسية الشقيقة ومنهم الزعيم بومزراق وكان عددهم بين ١٥٠ و ١٦٠ من بينهم ١٧ رجلا من اعيانهم وكبرائهم وهم ، السيد احمد بومزراق ، السيد السعيد بن بوداود ، السيد على بوزيد ، السيد ابن عبد الله بن الحاج احمد ، السيد الشريف بن عبد الرحمن ، السيد دحمان بن القندوز ، السيد الحاج بن عبد الرحمن ، السيد الاخضر بن عبد الرحمن ، السيد محمد بن قويدر ، السيد الصغير بن بورنان ، السيد احمد بن بورنان ، السيد احمد بن عبد الله ، السيد احمد بن محمد بن عبد الله ، السيد عبد الرحمن بن القندوز ، السيد محمد بن عبد السلام ، السيد أحمد بن الشلالى . وقرروا الدخول الى تونس عن طريق تقرت ، وسوف ، ونفطة ثم توزر ، ولكن جاءتهم الاخبار بأنه لايمكنهم الذهاب الى سوف لعدم الامن هناك ، فعدلوا عن ذلك وقرروا الالتحاق بابن ناصر بن شهرة فى ورقلة ، فمروا بقرية العلية قرب تقرت فأبوا ان يضيفوهم وامتنعوا حتى من بيعهم اللحم والتمر خوفا من انتقام بوعكاز ، بل قابلوهم ببرودة ، خلافا لعادات العرب فى الكرم والضيافة مما جعل لوى رين يتعجب من هذا التصرف ازاء ابطال وعظماء ، أمثال المقرانى واقرابه وأنصاره . ولما سمع بهم ابن ناصر بن شهرة ، والبطل بوشوشة ، والبطل سى الزبير من أولاد سيدى الشيخ ، وكان ذلك اليوم (٢٠ اكتوبر ١٨٧١ م .) يوما مشهودا بالغ الابطال فى الحفارة واكرام اخوانهم حتى انسوهم همومهم وقرروا البقاء فى الصحراء، بل وضعوا انفسهم تحت رئاسة السيد بومزراق . وهذا الموقف الرائع الدال على الاخوة فى الاسلام وفى الجهاد يبرهن بكل وضوح على ان الشعب الجزائرى كان شعبا واحدا متآخيا متضامنا فى السراء والضراء لا فرق بين سكان شماله ولا بين سكان جنوبه ولا فرق بين العرب والامازيغ ووحدت الدماء بينهم،وهوبرهان على ان الاستعمار هو الذى احدث فى صوفنا العداوة والبغضاء والعقلية الجهوية ، وكانت مدينة بنى يسقن فى وادى ميزاب المستودع الحصين الذى وجد فيه الثوار السلاح والتموين والعتاد والسلاح والبارود (يقول الاستاذ اوقستن برنار) المذكور ، (فى سنة ١٨٨٢ م . باستثنائنا على

المزاب قضينا على عش الثورة الدائم ، والمستودع الذى كان يجد فيه الثوار ضدنا الاسلحة والعتاد والتموين) . فبفضل مركز نفطة الهام ومركز وادى مزاب الممتاز تمكن الثوار من مصاولة الاستعمار والمحافظة على روح النضال والمقاومة فى نفوس شعبنا ، كما ان ذلك برهان على روح الاخاء بين اقطار المغرب العربى الكبير .

وبفضل ابن ناصر بن شهرة تمكن آل المقرانى من الدخول الى تونس ، ومنها اتصلوا بالباى الذى اشترط عليهم تحت ضغط فرنسا أن يتفرقوا فى البلاد وان لايسكنوا فى جهات الحدود الجزائرية وقد بلغ عددهم من بعد نحو ٥٠٠ لاجىء سياسى وبقوا بها الى ايام الاستقلال فمنهم من رجع الى الوطن العزيز ، ومنهم من بقى هناك . ولكن زعيمهم السيد بومزراق كان قد اتجه الى ناحية للبحث عن طريق اللحاق بتونس ، وكان يرافقه خادمه فقط ، فلم يهتد للرجوع الى الركب وبقى يمشى مدة ستة ايام بدون ماء ولا زاد الا الاعشاب حتى وصل الى ماء فى ناحية الرويسات قرب ورقلة وهناك عثر عليه الجيش الفرنسى مغميا عليهما هو وخادمه ، وذلك فى ٢٠ جانفى سنة ١٨٧٢ م . فنقله الجنرال لاكروا الى قسنطينة وقدم للمحاكمة وحكم عليه بالاعدام ثم نقل الى جزيرة كليدونى الجديدة التى كانت معتقلا لدى فرنسا . وفى ١١ جانفى كان قد حاول احد الخونة قتل السيد بوشوشة وتركه قريبا من الميت فعثرت عليه جنود الفرنسيين جريحا فى ناحية المليق قرب عين صالح ونقلوه الى سجن قسنطينة وحوكم بها كمجرم لا كثائر حربى ، وحكمت عليه المحكمة الاستعمارية بالاعدام ونفذته فيه صباح يوم **٢٩ جوان ١٨٧٥** م . على الساعة الخامسة صباحا فى معسكر الزيتون قرب قسنطينة . ومما قال للمحكمة ما اكثر ثرثرتكم وركاكتكم انكم قاتلى لا محالة فاسرعوا بقتلى وأريحونى من سخافاتكم ، اننا ثرنا وها أنا بين أيديكم . وواجه الرصاص والموت بكل شجاعة رحمه الله .

وبلقاء القبض على قائد الثورة بومزراق ، والقاء القبض على زعيم الثورة فى الصحراء الغربية والشرقية ، بوشوشة وباستلاء الجيش الفرنسى على مدينة تقرت ثم ورقلة ، يئس الناس من نجاح الثورة ، وتفرق المجاهدون ، منهم من لجا الى طرابلس ومنهم من لجا الى تونس ، وبقى ابن ناصر بن شهرة وحده يقوم ببعض المناوشات يشنها من الجريد ونفزاوة . وفى شهر جوان لجا الى باى تونس الذى اذن له بالركوب من مرسى حلق الوادى الى بيروت وذلك فى يوم ٢ جوان ١٨٧٥م . وكان برفقته رفيقه فى الجهاد الشيخ الكبلوتى ، وفى بيروت استقر بجوار صديقه الامير محيى الدين بن الامير عبد القادر الى سنة ١٨٨٣ م . هو والكبلوتى ، ثم توفى رحمه الله رحمة واسعة وجازاه هو وجميع اخوانه ممن ضحوا قبله ، او معه ، او بعده ، احسن الجزاء ..

احمد بن أبى زيد قصيبة .



حسن حموتن
مفتش أكاديمية

حيـاتهـا :

أبوها سيدى محمد بن عيسى مقدم زاوية الوالى الشيخ سيدى احمد أمزيان شيخ الطريقة الرحمانية المدفون فى قرية ايتسوراغ دوار يللتن فى بلدية عين الحمام ـ فى هذه القرية ولدت لالة فاطمة بنت سيدى محمد بن عيسى حوالى سنة ١٨٣٠ ونشأت فى عائلة مرابطية تنتمى الى الشرفاء وتخلقت بمكارم الاخلاق وتحلت بالسجايا الحسنة متمسكة بالعوائد الجارية والتقاليد المتبعة فى البلاد ـ وكان أبوها شيخ طريقة ومقدم زاوية

يتمتع بالسمعة الحسنة ويتحكم فيمـا يحدث بـين الناس من شجار وخلاف وكان مقره مزارا يقصده المريدون مـن كـل حدب وصوب يـاتون زرافات ووحدانا وكان لهذا الشيخ الوقور خمسة أولاد ولم ندر هل كان له بنات غير لالـة فاطمة كما لا نعلم هل تعلمت لالة فاطمة في صباها شيئا مـن القرآن الكريـم في الزاوية وشيئـا من المبـادى العربية تبعا لعادات بنات المرابطين في الزواوة ادركت لالـة فاطمة السادسة عشـرة من عمرها وكانت وسيمة الطلعة ربعة القد ٠٠ جميلة الوجه أنيقة الهندام ترتدى الحرير لباسا فيزيدها براعة في الجمال وسحرا في الابهـة ٠

شخصيتهـــا :

اشتهرت لالة فاطمة نسومر بجمالها البـارع في الاوساط وعرفت في القرى بمكانة أبيها سيدى محمد بن عيسى صاحب الطريقة ومقدم العمرة غير انها لم ترغب في الزواج وقد خطبها رجال كثيرون من ذوى الجاه والشرف فرفضت وآثرت التنسك والانقطاع للعبادة في خلوة بمنزل أبيها ثم تزوجت على كره منها بمرابط من سكان تيروردة اسمـه سى يحي بن يخولاف من ايتسوراغ فتظاهرت لـه ليلة الزفاف بالجنون والخيال فحطمت له الاوانى ومزقت الثيـاب فمـا أصبحت حتى أرجعهـا الى أهلها متيقنا بانها مجنونة حقا فلا يحتمل عشرتها الا أنـه لم يطلقها وتـركها معضلة انتقاما منهـا لنشوزها فلم تتزوج بعده ٠ انصرفت لالة فاطمة نسومر الى بيت أخيها الكبير سى الطاهر الساكن بقرية سومر واليها نسبت فيما بعد ، واشتهر سى الطاهر بالوقار والنظر في الفلك والعرافة والبقشة وكان بيته مزارا يأتيه الزوار رجالا ونساء مـن كل مكان ولم تلبث لالة فاطمة أن قلدته وصـارت هى الاخرى تنظر في الغيبيات وتكشف للـزوار عما كتب لهم في الباطن من خير وشر ـ وكانت لالة فاطمة تستقبل في خلوتها النساء على انفراد والرجال على انفراد ـ وفي هذه الفترة بين سنة ١٨٤٤ وسنة ١٨٤٥ توغل جيش الاحتلال داخـل البـلاد ووقعت معـارك عديدة : معركة تـادميت ١٨٤٤ قادها الماريشال (بيجو) نفسه ضد الحاج محمد بن زعموم فغلب الحاج محمد بـن زعموم وأسر ـ وقصد الجينيرال رندون قرى فليسة فعمل فيها الحديد والنار وأخضعها سنة ١٨٥٠ بينما زحف بيجـو على تيـزى وزو ١٨٤٥ ـ ١٨٤٦ ، ١٨٤٧ وعلى دلس وحاول اقتحام الاربعاء نـات ايراثن فانهزم ـ وتوجه الملازم بوربريط والجينيرال رندون لاخضاع نزليوة وقشطولة وبومهنى سنة ١٨٥١ ـ في هذه الفترة ظهر بوبغلة محمد بن عبد الله مولى الساعة قادما من سور الغزلان فهاجم الملازم بوبريط في بنى منصور ففرق فلوله ثـم انسحب بجيشه الى جرجره فزحف اليه بجيشين عرمرمين روندون آتيا من العاصمة وماكماحون قادما مـن قسنطينـة والتحمت المعركـة حاميـة الوطيس في ربوة تيمسقيدة ـ قصد بوبغلة بنى ينى ودعا الى الجهاد المقدس فرفع شيوخ الزوايا وكـلاء مقامات أوليـاء اللـه سناجقهم وجندوا اخونهم ومريديهم ونظموا الكفاح المقدس دفاعا عن الشرف والعرض والوطن والتحقوا بـواجهة واضية حيث أخذ العدو زحفه على قراها بقيـادة الجينيرالين يوسـف وروندون ومعهـم الخائـن لافاسى الجودى فوقعت عدة معارك في الناحية ، وكانت لالة فاطمة نسومر الى جانب بوبغلة تخوض غمار الحرب وتحرض المجاهدين وقيل رأت لافاسى الجودى في المعمعة فقصدته فقتلته بيدهـا ٠وفي معركة أخرى سقط الشريف بوبغلة جريحا قربها

فاسعفته ونجته من السقوط بيد العدو ـ فاعجب بشجاعتها وبسالتها كما اعجب بجمالها البارع وخلقها الكريم فخطبها من اخيها سى الطاهر اكن زوجها ابى طلاقها فاراد بوبغلة أن يفديها منه بمبلغ بليغ فرفض سى يحي بن ليخولاف الفداء وفى سنة ١٨٤٥ كانت شهرة لالة فاطمة نسومر قد انتشرت فى القبائل الكبرى واقلقت فكر بيجو وأركان حربه وبعثت فى قلوب الجيش المتوغل فى البلاد الرعب بعد أن ذاق شر الهزيمة فى المعارك التى قادتها الى جانب بوبغلة فعزم الحاكم توجيه حملة عارمة للقضاء على الشريف بوبغلة والولية لالة فاطمة مسومر التى وصفها قادة جنوده بجاندارك القبائل الكبرى وعدها البعض منهم بأنها نبية فلا قبل لهم بها فقصدها الجينيرال روندون بجيش جرار من العاصمة الى جبال جرجرا واستقدم المريشال دى ماكماحون من قسنطينة فقدم بفيالقه العرمرمة وكانت الخطة المسطرة اكتساح القرى الثائرة وتحطيم القرى التى انسحب اليها بوبغلة ولالة فاطمة نسومر فى جرجرا ـ قصد رندون وماكماحون قرية توريرت عمران حيث اقاما معسكرهما وكانا قد اكتسح عسكرهما فى طريقه كل شيء بالنار والحديد وارتكبوا الافاعيل وأجرموا الجرائم ولوثوا الاعراض واهلكوا الحرث والنسك ـ وبعد ايام رسما خلالها خطة الهجوم اقتحمت فيالقهما مواقع المجاهدين فى ربوة تيمسقيدة وتيشكرت واقروا بورجة وتيزى بويرو واشتدت المعركة وابدى المسبلون شجاعتهم واستماتتهم فى القتال بالسلاح الابيض وقاوموا مقاومة الابطال ودافعوا دفاع الاسود عن العرين. وكانت لالة فاطمة نسومر فى وسط المعمعة تخوض غمار الحرب مرتدية لباسها الحريرى الاحمر اللون وبيدها السلاح تقاتل العدو وتحرض المجاهدين على القتال والاستماتة فى سبيل الدفاع عن العرض والشرف والوطن الحبيب ووراء البطلة لالة فاطمة نسومر حاشيتها من أشجع الفتيات والسيدات الشابات يقاتلن معها ويزغردن لتحريض المقاتلين المغاوير ويسعفن الجرحى ويضمدن جروحهم ويزودن المحاربين بالعتاد الحربى ـ وبالزاد ويقضين على جرحى العدو استعملت فى هذه المعركة كل أنواع الاسلحة حتى الحجارة وثبت المجاهدون الميامين واظهروا بسالة نادرة اعترف بها العدو المهاجم ثم شن المجاهدون هجوما موحدا على صفوف العدو فضعضعوهم وفرقوا شملهم فولوا الادبار وفروا منهزمين فصاحت أبواقهم بالانسحاب من المعركة فتابعهم المجاهدون حتى أخرجوهم من عرش يللتن فعاد القائدان روندون وماكماحون بفلول جيشهما الى تيزى وزو يجران وراءهما عار الهزيمة أمام بوبغلة ولالة فاطمة نسومر.

نهاية جهادها :

تابع جيش الاحتلال توسعه فى الجبال فدخلوا العزازقة فى افريل ١٨٥٤ بقيادة الكلونيل والف وتمركزوا بالمراكز الهامة وبنوا الثكنات واستوردوا المعمرين للارض من أخلاط الاروبيين وأوباشهم واقطعوا لهم الارض فى سهول يسر وبرج أمنايل وسيدى داوود بعد أن انتزعوها من ايدى الاهالى واتخذوا دلس مركزا لقيادتهم ومبعثا لنشاطهم العسكرى من سنة ١٨٤٤ ثم اتخذوا مركزا آخر فى تيزى وزو ليكون منطلق فيالقهم لغزو القرى التى لا تزال محاربة لهم معارضة لتقديمهم بعد ان القى السلاح اغاوات الجهات اثر انهزام الحاج محمد بن زعموم فى معركة تادميت فى سنة ١٨٤٤ وأسره كما سلف

ثم نفيه الى جزيرة سانت مرجريت التابعة لفرنسا ومن هؤلاء الاغوات بلقاسم أقاسي آغا عمروة ٠٠ وبن سالم آغا جرجرا وكلاهما وليا للامير عبد القادر انظم الى العدو بعد استسلام الامير عام ١٨٤٧ ٠ وفي سنة ١٨٥٧ أعاد الجنيرال دهوت بول الكرة على الاربعاء بني ايراثن فدخلها بخيانة خابث من أهلها لا يزال اسمه مضرب المثل في الخديعة والخيانة الوطنية وقد جرت معركة هائلة في قرية ايشريضن التحم في وطيسها المجاهدون بالمعتدين واستبسل فيها المسبلون استبسال الاسود الاساوس وجاهدوا حتى ماتوا عن آخرهم في ربوة لا يزال ذكرها يرد في أفواه الشعراء شعرا حماسيا واغاني والحانا في أفواه الشعب غير أن المقاومة انتقلت الى جبال جرجرا وقرى ايللتن وتخليجت ناث عسو وأقرو بورجة وتوريرت عمران وتيزي بوايرو المنتشرة على ربوة تمسقيدة وكلها قرب عين الحمام والقرى لا تزال عامرة الى اليوم وفي هذا العرش أو الدوار توجد قرية لالة فاطمة نسومر حيث لا تزال البطلة الشهيرة تنظم المقاومة وتستعد لقتال المعتدين الاجانب ٠ وقد هاجمت مركزهم بالاربعاء وقطعت عليهم طريق المواصلات فاشتد أمرها وقوى جانبها وأنظمت اليها قياد الاعراش وأمناء القرى فراحت تناوش كتائب الاعداء وتهاجمهم في المراكز المتقدمة وتبعث الرعب في قلوبهم حتى خشيت الولاية العامة بالعاصمة خطر لالة فاطمة نسومر فقدم الجنيرال روندون وقصدها بجيش عظيم واستنجد بالمريشال ماكماحون فأتاه بالعتاد والعدد وقصد الجيشان جبال جرجرا والتقيا في الحادي عشرة جويلية ١٨٥٧ في أعراش آيت استوراغ وايللتن يقود كتائب هذا الجيش المتالف من ٤٥٠٠٠ جندي الجنيرالان السفاكن : يوسف وروندون فبدأت المعركة واحتدم فيها القتال وجاهدت لالة فاطمة جهاد الابطال ثم رأت الخطر يحدق بالنساء والاطفال فامرت باللجوء الى قرية ثيخليجث ناث عتسو فخرجت بالنساء والاطفال والاموال الى هذه القرية ثم أراد قادة الثورة الاستسلام ودارت مفاوضات بينهم وبين رندون على الا تمس الاعراض بسوء ولا تخرب القرية لكن القبطان فورشو اقتحم القرية بفرقة الزواف فأسر لالة فاطمة نسومر ومن معها من الاطفال والنساء (٢٠٠ أمرأة) فقدمها للجنيرال رندون فاكرمها اعجابا بشجاعتها وكفاحها ثم سيرها ومن معها من زميلاتها في الكفاح الى زاوية سي تابلاط وكان هذا قد رافق العدو في هذه الحملة حيث وضعها وأتباعها من أهليها ومناصريها تحت الطاهر بن محي الدين باشغا بني سليمان في الاقامة الجبرية وكانت قد بلغت من العمر السابعة والعشرين وكان معها في المعتقل اخوتها : سي الطاهر وسي أحمد وسي شريف وسي الهادي وآخرون من أقاربها نحو الثلاثين وقد بقيت في هذه الزاوية سبع سنوات فرفت نفسها للعبادة محترمة الجانب عظيمة القدر تزورها الوفود من جبال جرجرا خاصة ومن قرى القبائل عامة وتأتيها حتى من الجهات الاخرى للتبرك بالجلوس اليها والسماع الى احاديثها المملوءة بالعظمة والنصيحة حتى أدركتها الوفاة اثر التهاب أصابها في بطنها أشل أعضاءها مدة ذاقت خلالها العذاب الاليم — توفيت البطلة لالة فاطمة نسومر في شهر سبتمبر سنة ١٨٦٣ ببني سليمان ودفنت الى جنب أخيها سي الطاهر الذي مات قبلها سنة ١٨٦١ ٠

نهب العسكر منزلها فأخذوا ١٠٠،٠٠٠ دينار فضة ٠

وكـل صيغة النســاء

و٨٢ راســا من البقـر

و١٠ بغــال

و٢٥٠ شــاة

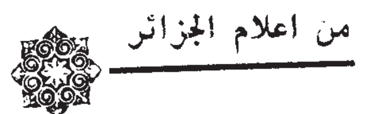
و٥٠ بندقيــة

و١٥٠ مجلـدا مـن اثمـن الكتب وأشهـر التـآليف فى مختلف العلـوم والفنون فى اللغـة العربية وقد سعى أخوها سى الطاهر على استرداد هذه المجلدات لكن بدون جدوى ٠

الخــاتمــة :

لعبت لالــة فاطمة نسومـر دورا هاما فى المقاومة ضد الاحتلال الفرنسى وتسرب العدو الى داخل الوطن فى بلاد القبائل خلال الثورة العارمة ما بين ١٨٥١ و ١٨٥٧ وكافحت الاستعمار كفاح الابطال أظهرت شجاعة نادرة فى المعارك وواجهت عشر جنيرالات لقنتهم دروس الفروسية والبطولة الجزائرية فى جبال جرجرا ولم تستسلم الا امام القوة الجبارة تجـاه جيش بلـغ عـدده ٤٥٠٠٠ جندى ، فاذا كان لكل أمة بطلة يفتخر بها تاريخه فان لامة الجزائر زعيمتها وبطلتها لالـة فاطمـة نسومر التى توجت هامة جرجرا اكليل الفخـار وزينت جبين لالة خديجة بغار الشرف ٠





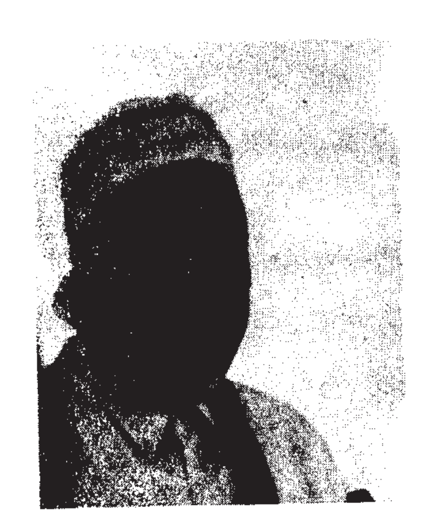
عالم جزائري ساهم في إحياء التراث والثقافة الاسلامية في العالم الاسلامي

الطــاهــر الجــزائــرى

المهدى البوعبدلى

عضو المجلس الاسلامى الاعلى

الجزائــر



هو الطاهـر بن العالم المؤلف صــالح بن أحمـد ابن موسى بن أبى القاسم السمعونى الوغليسى. هاجـر والده صالح المذكور، قبيلته بنى وغليس - وادى بجاية - إثر الاحتلال الفرنسى لبلاد القبائل حوالى سنة 1263 هـ والقى عصـا التسيار بدمشق الى ان تـوفى بها سنة 1285 هـ .

وترك عدة تآليف فى مختلف الفنون، منها رسالة فى علم الميقات، وكتاب فى التاريخ، وقد ترجمه عبد الرزاق البيطار فى « جلية البشر فى تاريخ القرن الثالث عشر » ذكر تآليفه وخص منها تأليفه فى التاريخ فقال : « وله فيه أسلوب عجيب وطريق نـــادر غريب ، وكان صالحا تقيا ، وفالحا نقيا ، رفيع المقام ، وافر الاحترام ، مقبلا على الله ، مدبرا عما سواه ، جميل المقال ، جليل الخلال ، لم يزل على حاله ، متخليا من الدهر عن أو حاله ، الى ان خطفته دواعى المنية الى دار الآخرة العلية » اهـ :

ترك صالح أولادا اشتهر منهم مترجمنا الطاهر المشهور بالجزائرى .

ولد الطاهر بدمشق حوالى سنة 1268 هـ ، وتعلم فى مدرسة والده ، ثم التحق بالمعاهد الشامية فنبغ فى مختلف الفنون العربية ، واتقن اللغتين،الفارسية،والتركية ·

وقد ترجمه صديقه ، وأعرف الناس به ، أحمد تيمور فى كتاب:« اعلام الفكر الاسلامى فى العصر الحديث » فقال « ··· وكانت هوايته للكتب سببا لتنقله فى مختلف البلاد ، لجمع نفائسها ، فأكسبته رحلاته معارف جمة جديدة ، وتوثقت صلاته بكثير من العلماء والادباء فى البلاد التى زارها ، وصار مرجعا يعتد به فى فن وصف المخطوطات ومعرفة مظانها » ·

ثم قال تيمور « والى الشيخ طاهر الجزائرى يرجع الفضل فى السعى الحثيث فى انشاء كثير من المؤسسات النافعة فى دمشق ، وفى مقدمتها الجمعية الخيرية ، التى ضم اليها مشاهير العلماء والوجهاء السوريين ، وتم تأسيسها سنة 1894 · وأنشأت مدارس عديدة ، كما انشأت مطبعة قامت بطبع كثير من الكتب المدرسية » ثم واصل تيمور الترجمة بقوله : « ومن مساعيه الحميدة ، تأسيس المدرسة الظاهرية بدمشق ، وانشاء مكتبتها الكبيرة التى جمع فيها ما كان مبعثرا من الكتب والمخطوطات القيمة فى المساجد والمدارس وغيرها ، فحفظها بذلك من الضياع ، ويسر الانتفاع بها ، كما يرجع الفضل الى الشيخ طاهر الجزائرى فى انشاء المكتبة الخالدية بالقدس » ·

والى جانب هذا كله عكف ـ رحمه الله ـ على جمع نفائس المخطوطات ، ونوادر المطبوعات ، وواصل جهوده فى التاليف والترجمة ، وقام برحلات عدة الى جزيرة العرب وغيرها من بلاد المشرق ، ثم اعقبها برحلات أخرى الى الاستانة ، ومصر ، والبلاد الاوروبية ، وفى سنة 1316 هـ ـ 1898 م · عين مفتشا لمكاتب الشام ، ولبث فى هذا المنصب أربع سنوات ، قدم خلالها خدمات جليلة لتنظيم هذه المكاتب والنهوض بها ·

وحدث ان قام بعد ذلك برحلة الى فلسطين ، وفى اثناء غيبته هناك قامت السلطات الحاكمة فى دمشق بتفتيش داره فيها ، ومصادرة كتبه وأوراقه ، والتحفظ عليها فى مكتبه الخاص بمدرسة عبد الله العظم ـ باشا ـ.فاستناء من هذه المعاملة . واستقر رأيه على المهاجرة الى مصر ، وتم له ذلك فى سنة 1905 ، وحمل معه اليها أكثر محتويات

كتبه الثمينة ، تاركا بقيتها فى المكتبة الظاهرية بدمشق ، بعد ان وقفها عليها ، وقد رحب به علماء مصر وأدباؤها ، وبقى فيها محوطا بالاجلال والتكريم ، حتى أصيب بمرض طال علاجه سنة 1919 فعاد الى دمشق ، حيث عين مديرا للمكتبة الظاهرية ، ثم عضوا فى المجمع العلمى هناك ، ولكن مرضه ما لبث ان اشتد، وأسلم روحه الطاهرة الى بارئها بعد قليل » اهـ ترجمة تيمور .

وقد تتلمذ له كثير من كبار علماء سوريا وزعمائها أمثال محمد كرد على ، وجميل مردم ، والامير شكيب ارسلان ، ومحب الدين الخطيب ، وغيرهم ، كما اعترف لـــه بالفضل والافادة ، كثير من كبار المستشرقين الذين اخترنا من بينهم كولد صيهر المجرى goldziher الذى كاتبه من بودابست Budapest سنة 1317 هـ . ونشرت هذا الكتاب ، مجلة الازهر فى عددها المؤرخ بصفر 1373 هـ ، الذى استهله بقوله : « سلام الى صاحب الشرف الباذخ ، والفضل الشامخ ، هو المرجع للاماثل والافاضل ، الحاوى لاقصى معارج الفضائل والفواضل ، العالم العلامة الشيخ طاهر بن صالح المغـــربى الجزائرى ، ادام الله تعالى فضله ... الى ان يقول: ارجو انه ما انمحى من قلبكم خيال صاحبكم المجرى ، الذى كان يستجير بشامكم فى سنة 1290 هـ ، مقتبسا من أنـوار علمائها ، وكثيرا ما تداول بين فضلائها وأدبائها ، وصاحبكم يـوما فيوما ، مستأنسا بمجاورتكم ، ومذاكرتكم ، وكنا اذ ذاك – انتم وعبدكم الكاتب – فى عنفوان شبابنا ، متبحرين فى العلوم الشريفة ، مستغرقين فى بحور الآداب الطريفة ، والآن هيهات بعد مر سبعة وعشرين من الاحوال ، وهن عظمى، واشتعل رأسى شيبا ، اما والله تعـالى ما اندرس ذكر الصاحبين المنبرين من نفسى وفؤادى مع انى :

لقـــد عيـــل صبـــرى بعـــدكـم وتكـــاثـــرت
همـــومـــى ولكـــن المحـــب صبـــور

ومعتمدا على دوام ما جبل الله تعالى فى قلوبنا من المحبة والمودة ، اتجسر يا أيها الشيخ العلامة ، ان استفهمكم عن مسألة دمشقية ، لا أحد لها فى الكتب التى تحت تصرفى ، مع شدة اشتياقى لازالة شبهتى فى تلك المادة ، فذلك انى قرأت فى خلاصة المحبى ،

45

وسلك الدرر للمرادى ، لا غيرهما من الكتب التاريخية ، وطبقات علماء الاسلام ، ان الشيخ عبد القادر بن محمد ابن سوار المتوفى سنة 1014 هـ ، بعد رجوعه من مصر الى دمشق ، كان أول من انشأ سنة 940 هـ ، بدعة حسنة ، نقلها من مصر ، وهى اقامة الجماعات الذكرية ، المختصة للصلوات على النبى صلى الله عليه وسلم ...

تفضل على يا أيها الشيخ ، بافادة جواب شافى ، مثابا جميل الثواب ، من الله الكريم الوهاب ، وتخبرونى أيضا عن أحوالكم كلياتها وجزئياتها ، واما عبدكم فيتشكر لله تعالى على ما انعم عليه من خيره ، صابرا على البلايا ، ان الله مع الصابرين ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

تحريرا فى بودابست 5 ذى الحجة من شهور سنة 1317 كتبه العبد الحقير الفقير اجناس كولد صهر المجرى » اهـ .

وقد نشر نبذة من ترجمته المستشرق الشهير الفرنسى هنرى لاوست فى « مجلة المغرب الجديد » التى كانت تصدر بتطوان (المغرب) بعددها المؤرخ فى ربيع الثانى 1354 هـ ـ 1935 م . نشر المستشرق المذكور مقالا تحت عنوان « الحركة الاصلاحية السنية المعروفة بالسلفية » تحدث فيه على المجلة السلفية التى اصدرها الشيخ طاهر الجزائرى سنة 1917 تعرض فيها لترجمته فقال : « ولد (طاهر الجزائرى) فى دمشق سنة 1851 وقد حذق اللغات العربية والتركية والفارسية على السواء ، مع مشاركة فى مبادى العلوم الغربية ، وأسس خزانة دمشق ، وقام فى سنة 1878 تحت اشراف مدحت باشا ، بتنظيم التعليم فى سورية ، التى ما يزال ذكره فيها محفوظا فى روعته ، كما انه شن الغارة على الاستعمار التركى ، ثم عاد ملتجيا فى سنة 1919 الى القاهرة ، حيث وافته المنون » اهـ .

ألف طاهر الجزائرى عدة كتب منها المطبوع وغير المطبوع .

وقد ترجم بعضها الى اللغات الاجنبية ، من بينها تاليفه : « توجيه النظر)1(، الى علم الاثر » الذى ترجمه من العربية الى الالمانية قولدصيهر المذكور ، ومن تآليفه المطبوعة : « عقود اللآلى ، فى الاسانيد العوالى » و « ومنية الاذكياء فى قصص الانبياء »

و « الفوائد الجسام ، فى معرفة خواص الاجسام » ورسالة فى الامثال والحكم ، وأخرى فى العقائد .

اما التآليف الغير المطبوعة « فالتفسير الكبير » و « المعجم العربى » و « السيرة النبوية » و « وجلاء الطبع فىمعرفة مقاصد الشرع » وموسوعة باسم « التذكرة » فى عدة مجلدات ، ضمنها ما اختاره من نوادر المخطوطات والتآليف ، وقد زار الجزائر حوالى 1912 ، ونزل ضيفا عند اصهاره الاستاذ محمد السعيد ابن زكرى المفتى المالكى ، والمدرس بالمدرسة الثعالبية اذ ذاك ، وقد سبق لمحمد السعيد ابن زكرى ، أن زار اقاربه ، أسرة الشيخ المبارك الدلسى بالشام . صحبة ولده صديقنا الاستاذ أحمد ابن زكرى مدير المدرسة الثعالبية فى عهده . وتعرفا به ، ودعياه لزيارة الجزائر ، فأجاب دعوتهما ، واثناء مقامه بالجزائر ، كان يتحدث بالقبائلية ، ولاحظ الشيخ محمد السعيد ابن زكرى ان لغته كانت اثرى من اللغة المستعملة حينئذ بالجزائر بألفاظها الاصلية ولنختم هذه الدراسة بمقال كتبه الاستاذ محب الدين الخطيب ابنه فيه ونقلته عنه « مجلة الشهاب » القسنطينية التى كان يصدرها الاستاذ عبد الحميد ابن باديس بعددها المؤرخ فى جمادى الاولى سنة 1356 هـ ـ 10 يوليو 1937 تحت عنوان : « شيخى » قال محب الدين الخطيب تحت العنوان المذكور : « هو الذى ربى عقلى ، وهو الذى حبب الى هذا الانجاه الفكرى ، منذ كنت طفلا الى ان صرت رجلا ، ولا أعرف مؤلفا ، ولا حامل قلم نشأ فى ديار الشام ، الا وقد كانت له صلة بهذا المربى الاعظم ، واستفادة من عقله وسعة فضله ، امـا مباشرة ، أو بواسطة الذين استفادوا منه ، وكل الذين جاهدوا هناك لاجل الحرية ، وفى سبيل المعارف ، ولاحياء علوم السلف ، ولاعادة مجد العروبة والاسلام ، انما كانوا من اخوانه ، وهو واسطة عقدهم ورأس مجالسهم ، أو من طبقة تلاميذه ، وهو قدوتهم ، ومطمح انظارهم أو من الذين أخذوا عن تلاميذه وهو مضرب المثل عندهم فى كمال العقل ، وسعة الاطلاع التى لا حد لها ، وبالاجمال هو جرثومة (كذا) الخير الاولى من أيام ولاية مدحت باشا على سوريا ، الى ان هاجر هذا الرجل العظيم الى مصر ، حوالى سنة 1325 هـ ، فكان موضع حرمة كل من يعرف الفضل من أهلها ، كتيمور باشا ، والشيخ على يوسف ،

واحمد بك الحسينى ، وأحمد زكى باشا وامثالهم ، وأهم كتب السلف النافعة التى نشرها الناشرون انما نشروها باشارته وتحريضه ، وانا وكل ما نشرته ، لسنا ، الا قطرة من بحر الخير ، الذى كان يتدفق من صدر هذا العالم العامل ، الذى كانت الدنيا لا تساوى عنده جناح بعوضة ، وليس له فيها من امنية الا ان يرى عز الاسلام يعود ، كما كان فى أيام القوة والعدل والعلم وتقوى الله عز وجل ، لارمى نفسى بالعقوق ، وانكار الجميل ، كلما فكرت فى ابطائى حتى الآن عن القيام بحقه على التاريخ، ولكن اذا عظم المطلوب ، خارت القوة دونه ، وحياة الشيخ طاهر الجزائرى ، حياة دور من أدوار الاصلاح ، بل هى تاريخ الامة فى حقبة من حياتها ، ولابد أن أقوم بهذا الواجب فى يوم من الايام ، رحمة الله عليه ومغفرته ورضاه » • هذه نبذة من حياة رجل عالم ، لفت أنظار معاصريه علاوة على تعمقه فى العلم ، وسعة اطلاعه ، لفت انظارهم بحياة مثالية ، كان يحياها علماء السلف الصالح ، شجاعة أدبية نادرة ، ورفع همة ، حتى انه كان تعوزه الحاجة فى ضروريات حياته من أكل ولباس ، فيبيع بعض كتبه ــ وهى اعز ما يملك ــ ولا يلجؤ الى التسلف ، أو قبول الهدايا حتى من أعز أصدقائه ، وان له على الجزائر حقوقا فهل قامت ببعض واجباتها نحوه ؟

48

الشيخ طاهر الجزائري
رائد النهضة الفكرية الحديثة
في بلاد الشام

محمود الارناؤوط
ـ دمشق ـ



ولد العلامة الشيخ طاهر بن محمد صالح بن أحمد بن موهوب الادريسي الحسيني بعد خمسة أعوام من قدوم أسرته الى دمشق الشام من الجزائر (من جبال بجاية) ومن هنا عرف الشيخ بالجزائري نسبة الى الجزائر من بلاد المغرب العربي ، وكان والده آخر الادارسة قدوما الى بلاد الشام سنة 1263 هـ واشتهر فيها بتبحره في العلوم والمعارف والتزامه مكارم الاخلاق وفي سنة 1285 هـ توفي تاركا عدة أولاد أشهرهم الشيخ طاهر الجزائري موضوع بحثنا هذا ٠

وقد تلقى الشيخ طاهر علوم العربية وآدابها على مشاهير العلماء في عصره حتى تزود بما يؤهله لان يستمر في طريق البحث والتنقيب في كتب مختلف الفنون ، وهذا ما دفعه الى التعلق بكتب التراث التي خلفها الاسلاف من متقدمين ومتأخرين ٠ فنشأت عنده رغبة قوية الى جمع المخطوطات منذ حداثة سنه ، ومن أجل هذه الرغبة سافر الى العديد من البلاد لجمع نفائسها ، فاكسبته رحلاته معارف جمة ، وتوثقت صلاته بكثير من العلماء والادباء في البلاد التي زارها ، وصار مرجعا يعتد به في فن وصف المخطوطات ومعرفة مظانها وتسهيل البحث فيها واليه رحمه الله يرجع الفضل في

السعي الحثيث الى انشاء كثير من المؤسسات النافعة فى دمشق وفى مقدمتها الجمعية الخيرية التي انضم اليها مشاهير العلماء والوجهاء الدمشقيين بشكل خاص والسوريين بشكل عام والى هذه الجمعية يرجع الفضل فى انشاء العديد من المدارس ، كما أنشأت مطبعة قامت بطبع الكثير من الكتب المدرسية والى الجزائري يرجع الفضل فى تأسيس المدرسة الظاهرية بدمشق ، وانشاء مكتبتها العامرة التي جمع فيها ما كان مبعثرا من الكتب والمخطوطات القيمة فى المساجد والمدارس ، ودور الدمشقيين وغيرهم من أهالي بلاد الشام ، فحفظها بذلك من الضياع ويسر بذلك على طلبة العلم درب البحث والانتفاع بها (1) • واليه رحمه الله يرجع الفضل فى انشاء المكتبة الخالدية بالقدس الشريف • والى جانب هذا كله ، عكف رحمه الله على جمع نفائس المخطوطات ونوادر المطبوعات، وواصل جهوده فى التأليف والترجمة ، وكانت له رحلات عدة الى الحجاز وغيرها من بلاد المشرق العربي ، ثم اعقبها برحلات الى الاستانة ومصر وعدد من البلاد الاروبية •

وفى سنة 1316 هـ عينه الوالي العثماني مفتشا لمكاتب الشام ، ولبث فى هذا المنصب أربع سنوات قدم خلالها خدمات جليلة لتنظيم هذه المكاتب والنهوض بها •

وقد عرف الشيخ بتحرره الفكري من العصبية العمياء والبعد عن التزمت وسعة الافق لهذا التف حوله عدد من الشبان ممن أصابوا من بعد شهرة واسعة عمت الآفاق منهم محمد كرد علي (2) ، وخير الدين الزركلي (3) ، والامير شكيب أرسلان (4) ، وغيرهم ، حيث يقول عنه العلامة كرد علي كان الشيخ العامل الاكبر فى توجيه ارادتي نحو الدعوة الى الاصلاح الاجتماعي ، والاقدام على التأليف والنشر واشرابي محبة الاجداد والتناغي بآثارهم ، والحرص على تراث حضارتهم لهذا فهو أستاذي الاكبر ، وحسب الشيخ طاهر فخرا أن يترك من بعده تلامذة أمثال هؤلاء الاعلام الذين تركوا آثارا خالدة ينتفع بها العام والخاص على حد سواء •

وكما كان للسيد جمال الدين الافغاني وتلميذه الامام الشيخ محمد عبده دورا اصلاحيا واسع النطاق فى مصر ، فقد كان للشيخ طاهر الجزائري دورا مماثلا فى

---

1) دار الكتب الظاهرية هي اليوم من أشهر دور الكتب على الساحة العربية ، اذ فيها عدد كبير من المخطوطات تنفرد فيها دون غيرها فى العالم •

2) محمد كرد علي هو رئيس المجمع العلمي العربي ، اشهر مؤلفاته كتاب خطط الشام

3) خير الدين الزركلي عضو المجمع العلمي العربي ، اشهر مؤلفاته كتاب الاعلام فى تراجم الرجال والنساء •

4) الامير شكيب ارسلان نعت بأمير البيان ، عضو المجمع العلمي بدمشق ، اشهر مؤلفاته كتاب حاضر العالم الاسلامي •

الشام ، حيث شرع من الاساس ، والاساس عند الشيخ كان المدرسة ، فأخذ ينشيء المدارس الابتدائية والوسطى بمعاضدة الحكومة ويوهمها أنه لا يقصد من مدارسه الا نشر العلم البسيط ليكون ممن يتخرجون فيها خداما للدولة في المستقبل ! ويحبب الى الناس الرجوع الى كتب الاسلاف واتقان اللغة العربية ، ويحث على الاخذ من كتب شيخ الاسلام ابن تيمية ، وتلميذه الامام ابن قيم الجوزية ، لان فيها بحوثا ضافية تنبه من شر البدع التي الصقت بالاسلام وما هي منه بسبيل ، ويحض الناشئة على تعلم العلوم الرياضية والطبيعية والسياسية والتاريخية ويؤلف لهم أسفارا في مبادئها ويزين الى من حذقوا لغات العلم أن ينقلوا منها ما أمكن الى لغتهم ليستفيد منها العرب عامة ، وينشروا الجيد الصحيح من كتب الاقدمين ، ويحمل كل من يأنس منه استعدادا على الطبع والنشر ، وعلى شغل ذهنه بما يفيده ، وكان يقول السياسة تأتي بعد اعداد المعدات لها من علم وصناعة ، وكان غرامه أن يتعلم كل طالب صناعة ما ، وهو عملي في علمه وسيره ولطالما قال : ان الاشتغال بالعلم مضمون النتائج يأمن العاملون في ظله عتو العاتين وما كان يخلو من استعمال شيء من التقية مخافة الاخفاق في دعوته اذا عرفت حقيقة مقاصده ، وهواه أبدا التوفيق بين أرباب المذاهب المختلفة في الاسلام والتقريب فيما بينهم ٠

ورأي الشيخ طاهر الجزائري كرأي السيد جمال الدين الافغاني والامام محمد عبده بأنه قام بين القرنين الثالث والرابع أقوام ظهروا بمظهر الدين فأبدعوا فيه البدع وخلطوا بأصوله ما ليس منها فانتشرت قواعد الجبر وامتزجت بالنفوس حتى أمسكت بعنانها عن الاعمال وأن الزنادقة ـ والفسطائية أضروا بالدين ضررا بالغا لم يقل عن ضرر من وضعوا أحاديث نسبوها الى رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم وأثبتوها في الكتب وفيها السم القاتل لروح الغيرة والاقدام ٠

لهذا اعتبره البعض أحد رواد الفكر النير المتحرر في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين بينما قال فيه آخرون انه خزانة علم متنقلة ، وقد أثار دهشتي الشيخ محمد جميل الشطي في كتابة أعيان دمشق في القرن الثالث عشر ومنتصف القرن الرابع عشر حين اكتفى بتسجيل كلمتين فقط الى جانب اسمه (عالم مؤلف) بينما أفرد صفحات لبعض الذين لم يتركوا لنا أي اثر علمي على الاطلاق مما يدل على ضيق في أفق الشطي ، أو تجاهل متعمد للشيخ الجزائري ٠

ولم يقتصر تمكن الشيخ على اللغة العربية بل تعداها الى اللغات التركية والفارسية والسريانية الى جانب المامه ببعض اللغات الشرقية الاخرى كالعبرية والحبشية والزاوية وهي لغة قبائل الجزائر المغربية ·

ولم تمنع مكانة الشيخ الرفيعة فى قلوب الدمشقيين السلطات العثمانية من الدخول الى داره وتفتيشها اثناء رحلة له الى فلسطين سنة 1322 هـ ومصادرة كتبه وأوراقه والتحفظ عليها فى مكتبه الخاص بمدرسة عبد الله باشا العظم ، فاستاء الشيخ من هذه المعاملة واستقر رايه على الهجرة الى مصر ، وتم له ذلك سنة 1323 هـ ، وحمل معه اليها اشهر محتويات مكتبته الثمينة ، تاركا بقيتها فى المكتبة الظاهرية بدمشق بعد أن وقفها عليها ، وحين وصوله الى مصر رحب بـه علماؤها وأدباؤها وبقي فيها محوطا بالاجلال والتكريم ، حتى أصيب بمرض طال علاجه ، ولما كانت سنة 1336 هـ ، قرر العودة الى دمشق حيث عين مديرا للمكتبة الظاهرية وانتخب عضوا فى المجمع العلمي العربي (مجمع اللغة العربية) ولكن مرضه ما لبث أن اشتد ، فأسلم روحه الطاهرة الى بارئها سنة 1338 هـ فشيعته دمشق كلها فى موكب مهيب ·

هذا وقد ترك الشيخ مؤلفات عديدة اليك ملحقا بها ·

مؤلفاته المطبوعة ·

1 ـ بديع التلخيص وتلخيص البديع ، طبع عام 1878 م ·

2 ـ منية الاذكياء فى قصص الانبياء ، طبع عام 1881 م ·

3 ـ الفوائد الجسام فى معرفة خواص الاجسام ، طبع عام 1883 م ·

4 ـ عقود اللآلي فى الاسانيد العوالي ، طبع عام 1885 م ·

5 ـ مدخل الطلاب الى فن الحساب ، طبع عام 1886 م ·

6 ـ التمهيد الى فن العروض ، طبع عام 1886 م ·

اما مؤلفاته المخطوطة فهي :

1 ـ التفسير الكبير ، مخطوط

2 ـ المعجم العربي » »

3 ـ السيرة النبوية » »

4 ـ جلاء الطبع فى معرفة مقاصد الشرع ، مخطوط ·

5 ـ موسوعة التذكرة فى عدة مجلدات ضمنها ما أختاره من فرائد المخطوطات والكتــب النــادرة ·

6 ـ مبتدأ الخبر فى مبادىء علم الاثر ، مخطوط ·

7 ـ توجيه النظر الى أصول الاثر « »

8 ـ تدريب اللسان على تجويد البيان « »

9 ـ البيان لبعض مباحث القرآن « »

10 ـ مــراقي عــلم الادب « »

11 ـ التقريب لاصول التعريب « »

مصــادر البحــث :

ـ أعلام الفكر الاسلامي فى العصر الحديث لاحمد تيمور ·

ـ كنوز الاجداد ، أقوالنا وأفعالنا ، خطط الشام لمحمد كرد علي ، الاعلام لخــير الدين الزركلي ، معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ، الحركة الادبية فى دمشق للدكتور اسكندر لوقــا ، أعيان دمشق لجميل الشطي ·

أبـو القـاسم الحفنـاوى وكتـابه : تعـريف الخلف بـرجـال السـلف

خديجـة بقطـاش
استاذة التاريخ بمعهد تكويـن
استاذات التعليم المتوسط
بابن عكنون ـ الجزائر

يمكننا ان نقول : بان الكتابة التاريخية فى الجزائر اثناء الاحتلال الفرنسى ، كانت تشكل وسيلة من وسائل الكفاح الوطنى ضد الاجنبى ، وضد من شوه ماضى الجزائر ، وذلك لانها كانت ترمى الى شىء هام ، الا هو الوجود القومى ، والتوعية الوطنية . وقد ساهم عدد من الجزائريين باعمالهم فى هذا المجال فكان من بينهم الشيخ مبارك الميلى ، واحمد توفيق المدنى، وعبد الرحمن الجيلالى ، وقبل هؤلاء ظهرت مجموعة من الكتاب حاولوا ان يسجلوا ماضى الجـزائر وكان من بينهم الشيـخ ابو القاسم الحفناوى .

حيـاتـه :

هو الحفناوى بن الشيخ بن أبى القاسم ، يرجع نسبه الى سلالة سيدى محمـد ابن عروس ، وسيدى المازارى بن يطو زعيم الخلوية بمدينة بوسعادة ، وقد ولد الحفناوى

سنة 1852 ومات سنة 1942 فى بلاد الديس ، وهى بلدة تبعد عن مدينة بوسعادة بحوالى 20 كلم • وأبوه هو الشيخ المعروف بمحمد بن أبى القاسم الهاملى ، وقد كانت له شهرة كبيرة فى الهامل ، ويعتبر من اشهر المدرسين بزاويتها - زاوية الهامل - وقد ترجم له ابنه فى كتابه ، فقال : « سيدى أبى القاسم بن سائب المنصور الشريف الحسنى نسبا ، المالكى مذهبا ، الاشعرى اعتقادا ، الرحمانى طريقة ، الهاملى مسكنا • قصده طلبة العلم وأخذوا عنه ، فانتفعوا بكلامه وانتهت اليـــه الرئاسة فى العلـــم بالمغـــرب » • (1)

شب الحفناوى فى بيئـة كلها علـم ودراسة ، فتتلمذ على أبيه الذى مهد له سبل الدراسة ، فحفظ القرآن الكريم ، وبعد ذلك درس عند الشيخ بن عبد الرحمان بزاوية الهامل ، ثم انتقل الى زاوية تسالنت بمدينة أقبو ببلاد القبائل ، ذات الشهرة الذائعة، ليأخذ العلم عن الشيخ بن بوداود • فاجتهد وبرع فى المذهب المالكى والعلوم اللسانية كالقواعد والادب ونحوها ، ومنها سافر الى نفطة بتونس ليتم دراسته بها على يد الشيخ على بن سيدى المكى بن عزوز (2) • ويمكن القول بأن الحفناوى تثقف ثقافة واسعة ، فدرس أصول الفقه والتوحيد ، وتفسير القرآن ، واضطلع فى العلوم الاخرى كالادب وغيره ، والى جانب ذلك أكمل معلوماته بدراسته اللغة الفرنسية ، وقد تتلمذ على الاستاذ أرنو الذى قال عنه : « هو سيخى فى العلوم العصرية ، ومعلمى فى فهم اللغة الفرنسية، ومساعدى على طلبها ••• لازمته فى جزيرة (المبشر) وكان مديرها وأنا كاتبه لمدة اثنتى عشر سنة » • (3)

دخل الحفناوى الوظيف الفرنسى ، وكان أول عمل قام به محررا فى جريدة (المبشر) التى كانت تصدر باللغتين العربيه والفرنسية • وذلك لمدة اثنين وأربعين عاما ، أى من سنة 1884 الى 1926 • وكان ينشر بها مقالات فى شتى المواضيع ، فى الاقتصاد

(1) أبو القاسم الحفناوى بن الشيخ : **تعريف الخلف برجال السلف** ، الجزائر ، 1907 ، ج 2 ، ص 336 •
(2) مارت وادمون قوفيون ، **كتاب اعيان المغاربة** ، الجزائر 1920 ، ص 156 •
(3) الحفناوى ، ج 2 ، ص 39 •

والاجتماع وغيرها ، واثناء ذلك شغل منصب استاذ لتدريس الشريعة الاسلاميــة بالجامع الكبير بالعاصمة ، وعين ايضا لمنصب الافتاء المالكي به سنة 1936 ، وهو منصب لا يتقلده الا من كان ذا معرفة كبيرة في شؤون الدين والقضايا الشرعية والاجتماعية ٠ ويذكر مؤلف (كتاب اعيان المغاربة) : « ان الحفناوي كان ذا صدر واسع متسامحا ككل مسلم ، سافر الى فرنسا عدة مرات ، فأضاف الى ثقافته اللغوية ، ثقافة في العلــوم الطبيعية ، مكنته من القيام بأبحاث اقتبسها ، ونرجم بعضها من الكتب الفرنسية ، في مادتي الفلك والكيمياء وغيرها » (4) ، وقد نشر هذه الابحاث بجريدة (المبشر) ٠ ويمكن لنا ان نذكر بعضها : صلاحية عدة نباتات قوتا للانسان ـ تركيب الهــواء ـ تركيب الماء ـ ذكر المغناطيس وخواصه ـ الحكمة بأنوارها في الكهربائية وأسرارها ٠ ويبدو أن هذه المقالات التي كانت ترمي الى تثقيف الجزائريين ، وجعلهم يسايرون عصرهم ، لم تنفذ في الامة نفوذا يذكر ، لان الامة كانت لا تهتم بالمنشورات الصادرة عن الولاية العامة (5) ٠ ومن المقالات الهامة التي نشرها بنفس الجريدة مقال بعنوان : ارشــاد المتعلم سنة 1887 يصور فيه الحفناوي حالة اللغة العربية بالجزائر ، ويقترح تبسيطها حتى يتسني للجزائري والاجنبي تعلمها ، ويأمل في الاخير ان تكون متساوية مع اللغة الفرنسية ، ولعل في هذا اشعار الجزائريين بالخطر الذي يهددها ٠

ولم تفت الحفناوي فرصة زيارة الامام محمد عبده الى الجزائر سنة 1903 ، فاتصل به ، وحضر المحاضرات التي القاها ، ودارت مناقشات بينهما ولا سيما اثناء تفسير سورة العصر (6) ، وان دل هذا على شيء فانما يدل على المكانة التي كان الحفناوي يحتلها في الوسط الفكري ، بحيث قضى معظم حياته بمدينة الجزائر محتكا بجوها الثقافي ، مع معاصريه امثال ، علي بن الحاج موسى ، عبد الحليم بن سماية ، ومحمــد السعيد بن زكري وعلي العمال ، ومحمد الكمــال ، وعبد القادر المجــاوي ، ومحمــد

(4) قوفيون ، ص 153 ٠
(5) سعد الدين بن أبي شنب « النهضة العربية الجزائرية ، في النصف الاول من القرن الرابع عشر للهجرة » ، مجلة كلية الآداب ، العدد الاول ، 1964 ، ص 48 ٠
(6) قوفيون ، ص 157 ٠

ابن أبى شنب وكل هؤلاء كانوا يكونون كتلة المحافظين المتفتحة (7) ، التى نـــادت بتشجيع العلم باللغة الفرنسية ، وحمل رسالة فرنسا الحضارية الى الجزائر • وقد كان الحفناوى أحد هؤلاء ، اذ نادى بالتقدم والعمل على التوفيق بـــين المجموعة الفرنسية والجزائرية ، وهذا لم يمنعه فى الواقع من أن يكون من أشد المتحمسين للاسلام •

ساهم الحفناوى فى النهضة الجزائرية فى بداية هذا القـرن ، وكان من مظاهرها انتعاش الصحافة العربية ، وتأسيس النوادى الثقافية والجمعيات ، ومن بينها الجمعية الرشيدية التى كان الحفناوى مشاركا فيها بالقاء محاضرات سنة 1907 • ومن الاهداف التى كانت تسعى اليها هذه الجمعية ، التقدم والتعلم وتطوير المجتمع الجزائرى بجعله مجتمعا حديثا ومتنورا بـدل بقائه مجتمعا تقليديا قديما (8) • وأهم ما ساهم بـــه الحفناوى فى النهضة الجزائرية ، تأليفه لموسوعة تراجم شخصية فى جزءين تناول فيها مشاهير الجزئريين الذين ساهموا فى التاريخ السياسى والثقافى لبلادهم ، وقد نشر هذه الموسوعة تحت عنوان : (تعريف الخلف برجال السلف) ، ولم يقتصر اهتمـام الحفناوى على جانب احياء التراث الثقـافى فحسب ، بل كان اهتمـامه منصبا ايضا على الجانب العلمى ، باقتباسه وترجمته لكتب علمية فرنسية وهى :

1) رفع المحل فى تربية النحل •

2) القول الصحيح فى منافع التلقيــح •

3) الخير المنتشر فى حفظ صحة البشر •

وهى كما نلاحظ كتب علمية ذات مواضيع مستمدة من الحياة الواقعية ، تستهدف توعية السكان فى المجال الصحى • وقد استطعت ان أعثر على الكتاب الاخير ، وهو كتاب فى الطب ألفه الطبيب العسكرى دركل وعربـه ميرانت والحفنـاوى ، ونشرتـه مطبعة فونتانا سنة 1908 ومما جاء فى مقدمته : لا يكفى للمواطن الصالح ان يعالـج نفسه عند الاطباء الذين أنعمت عليه الحكومة بهم على جميع رعاياها المسلمين ، وانمـا

(7) أبو القاسم سعد الله ، **الحركة الوطنية الجزائرية** ، بيروت ، 1969 ، ص 172 •
(8) نفس المصدر ، ص 163 •

ينبغي له ان يشتغل هو بنفسه ، بأخذ الاحتياطات التى تحفظ صحته ، وتدفع عنه الامراض الشائعة • وهذا الكتاب مقسم الى ثلاثة أبواب ، تناول فى كل باب مرضا من الامراض وكيفية أخذ المواطن احتياطاته منها ، وقاية منها •

كتاب تعريف الخلف برجال السلف :

وهو الكتاب الذى ساهم به الحفناوى فى احياء التراث الجزائرى القديم ، ويعتبر من مظاهر النهضة الجزائرية فى بداية هذا القرن ، وهى احياء الاعمال التاريخية كتعبير عن الوجود القومى الجزائرى • وقد ظهر بعد نشر أعمال كل من ابن عمار (نحلة اللبيب) وابن مريم (البستان) والورتلانى (نزهة الانظار – الرحلة) والغبرينى (عنوان الدراية) والملاحظ ان هذه الاعمال نشرت فى عهد الوالى العام شارل جونار الذى كان على رأس الادارة الفرنسية والمعروف ان جونار أبدى اهتماما وتعاطفا مع الوجهة الحضارية الاسلامية فى الجزائر ، ففى عهده بنيت المدرسة الثعالبية بمدينة الجزائر ، وانتعشت الصحافة العربية ، وهو الذى أشار للحفناوى بوضع كتابه هذا •

تناول الحفناوى فى كتابه هذا حياة شخصيات ، عاشت بين القرن العاشر المسيحى ، وبداية القرن العشرين • وقد نشرته مطبعة فونتانا سنة 1907 • ومما جاء فى مقدمته قوله : « أما بعد ، فالظاهر ان القطر الجزائرى ، قد اجتهد قديما فى طلب العلم بجميع أسبابه ، وأتاه من سائر أبوابه ، ووقف على معلومه ومنقوله ، فتمكن من أصوله وفصوله ، وكان لعلوم وقته جامعا ، ولراياتها رافعا ، مثل أخويه المغربيين الاقصى والادنى ، فظهر فى الاقاليم بدره واشتهر فى التاريخ قدره » (9) • وتبدو من هذا النص رغبة الحفناوى فى اعطاء الجيل الجزائرى صورة لماضيه ، والقاء الضوء عليه بعد ان أوشك على الاندثار • ويؤكد ذلك قوله : « هذه اسماؤهم وتراجمهم مزاحمة لاسماء وتراجمة اعيان الزمان المتيقظين لحفظ الطبقات العليا من عالم الاسلام فى بطون الدفاتر لئلا تقع فى أغوار التناسى » (10) •

---

(9) الحفناوى ، ج 1 ، الصفحة الاولى •
(10) نفس المصدر ، ص 2 •

ومما لاشك فيه ان الحفناوى قد اطلع على التراجم العربية القديمة كطبقات بن سعد ، ووفيات الاعيان لابن خلكان ، وكتاب تاريخ علماء الاندلس لابن الفرضى الاندلسى · وغيرها ، فأراد ان يتبع خطاهم · ويمكن ان نضيف شيئا آخر ، وهو أن القرن التاسع عشر وبداية العشرين ، كان عصر التراجم فى أوروبة ، ولعل هذا كان أحد الاسباب التى دفعته الى وضع كتاب تعريف الخلف ·

لقد ساعدت الحفناوى مكانته فى الوسط الثقافى على جمع المصادر التى أخذ أو نقل عنها ، وهى مصادر هامة جدا · ولقد رأى ان يقسم كتابه الى قسمين ، ضمن القسم الاول تراجم لعلماء وجد قوائمهم فى المدرسة الثعالبية (11) · أما القسم الثانى فلتراجم من علماء البـــر الجزائرى ، ومن الاقطـار الاخرى كالسودان ، والمغـرب وتـونس والاندلس (12) · ولم تقتصر تراجمه على طائفة دون الاخرى فقد ترجم للعلماء والفقهاء والادباء والقضاة ، وبعض السياسيين ، كما ترجم للمتقدمين عنه ولمعاصريه ، وقـــد ساعده على ذلك اتصاله بهؤلاء ·

مصادر تعريف الخلف :

اعتمد الحفناوى فى كتابه على ثلاثة أنواع من المصادر وهى :

1) الكتب القديمة بالنسبة للتراجم القديمة ·

2) الاتصال المباشر ، وهذا بالنسبة لتراجم معاصريه ·

3) المراسلات ، وتشمل مراسلة العلماء ليمدوه بالمعلومات التى تنقصه · فبالنسبة للكتب القديمة أخذ الحفناوى أشهرها (13) ، مثل نيل الابتهاج لاحمد بابا التمبكتى ــ وقد اعتمد عليه كثيرا ــ وسلوة الانفاس لجعفر بن ادريس الكتانى · وسلك الدرر

---

(11) يحتوى الجزء الاول من هذا الكتاب على ستة وخمسين ترجمة لعلماء ومشايخ من الجزائر ·

(12) يضم الجزء الثانى حوالى ثلاثمائة واثنين وستين ترجمة للفقهاء والعلماء والقضاة وغـــيرهم ·

(13) سجل الحفناوى مصادره فى مقدمة الجزء الاول من الكتاب ، اما بعض المصادر الاخرى فقد كان يذكرها عند بداية كل ترجمة أو فى نهايتها ·

للمرادى ، وخلاصة الاثر للمجى ، وصفوة من انتشر للافرانى المراكشى وغيرها • ويذكر الحفناوى انه وجد صعوبات فى الحصول عليها فهو يقول : « ولم أعثر على هذه الجملة من كتب التاريخ بعد البحث الطويل فى مضافة ومحاولة مساجن المؤلفات بكل حيلة ووسيلة (14) •

أما النوع الثانى من المصادر ، فهو الاتصال المباشر ، بحيث كان اذا أراد ان يترجم لمعاصريه ، وللعاملين معه فى التدريس اتصل بهم ليمدوه بما يحتاج من معلومات وأخبار تخصهم ، وبهذه الطريقة سجل حياة عبد القادر المجاوى ، والعمالى، وابن زكرى وحمدان الونيسى وغيرهم • والنوع الثالث من المصادر فهو المراسلة ، وقد كان اذا لم يعثر فى مصادره على شخصية من الشخصيات راسل أصدقاءه ومعارفه ملتمسا منهم معلومات تنقصه ، وكثيرا ما كان يذكر أنه راسل فلانا فأطلعه على كذا وكذا •

طريقة الحفناوى فى الترجمة :

ان طريقة الحفناوى فى الترجمة طريقة الكتاب الاقدمين ، فهى عبارة عن سرد مع وصف لحياة المترجم له ، يعمد فيها كثيرا الى السجع الممل احيانا ، مما يجعل طريقته بعيدة عن المنهج العلمى للبحث التاريخى ، فهو يأخذ الاخبار من كتب سابقيه ، وينقل تارة حرفيا ويقتبس منها أخرى دون نقد أو تعليق • وأغلب التراجم التى جاء بها كانت منقولة نقلا حرفيا ، ويمكن القول انه ذهب مذهب بعض كتاب السير الاولين الذين كانوا يركزون اهتمامهم على نقل الاخبار فقط (15) وعليه لم يراع قواعد البحث الحديثة والاغراض التاريخية فى عصرنا •

وبالرغم من طريقته التقليدية ، فان كتابة الحفناوى لم تخل من نقد لبعض الكتب ، مثل البستان لابن مريم ، وعنوان الدراية للغبرينى ، حيث عبر عن ذلك بقوله : « لما فى نسختيهما من المسخ الفاحش فى الكلمات » (16) وحرص الحفناوى على ذكر مصادره

(14) الحفناوى ، ج 1 ، ص 6 •
(15) سعد الدين بن أبى شنب ، النهضة العربية فى الجزائر ، ص 49 •
(16) الحفناوى ، ج 1 ، ص 8 •

حرصا شديدا ، وهو شيء أساسي فى كتابه التراجم ، وكان يرى ان صحة الخبر وكذبه تقع على كاهل صاحب المصدر ، وهذا الموقف شبيه بموقف العلماء العرب والغرب فى العصور الوسطى . اما اذا شك فى الرواية فانه كان يستعمل اصطلاح « الله أعلم » وهو تعبير يدل على التحفظ أو عدم الجزم بالرأى .

ان الحفناوى اثناء ذكره لهذه المصادر ، لا ينظمها تنظيما كرونولوجيا (17) ، فعوض ان يبدأ بذكر المصدر القديم كان يقلب الوضع ، بحيث يبدأ بالمصدر الحديث ، فهــو عندما ترجم لاحمد بابا التمبكتى ذكر ما جاء من اخباره فى كتاب القادرى من القرن الثامن عشر ، قبل ذكر ما وجده فى كتاب اليفرنى من القرن السابع عشر (18) . وعند ترجمته لابن قنفذ القسنطينى بدأ بذكر ما جـاء من معلومات فى كتاب (البستان) لابن مريم من القرن السادس عشر قبل ذكر مصدر أحمد بابا التمبكتى «نيل الابتهاج» من القرن الخامس عشر (19) . ومما يؤخذ على الحفناوى ، أنه لا ينقد ولا يعلق عـلى الاخبار التى يأتى بها ، فكثيرا ما كان ينقل أشياء غريبة ، مثل بعض المعجزات ، دون أن يراعى ان كان ذلك يقبله العقل أو يرفضه . فقد ذكر ان العالم سيدى يحيى العيدلى دفين مدينة بجاية استطاع ان يحيى ثورا بعد أن كان قطعا قطعا (20) . وبهذا يمكن القول بأن الاسطورة لم تجد لديه أى نقد يذكر .

ومن الامور التى ينتقد عليها الحفناوى ، مبالغته فى الوصف واستعماله للالفاظ الفخمة (21) ، وهذا الاسلوب اتبعه بعض الاقدمين الذين كان يهمهم استعمال الالفاظ الجميلة دون مراعاة صحة الاخبار ، حيث كانت الكتابة التاريخية تعتبر لونا من ألوان

---

(17) سعد الدين بن أبى شنب : « نبذة عن بعض المؤرخين العرب المحدثين للجزائر » المجلة الافريقية ، سنة 1956 ، ص 478 .

(18) نفس المصدر ، ص 479 .

(19) نفس المصدر .

(20) الحفناوى ، ج 2 ، ص 587 .

(21) نأخذ على سبيل المثال وصفه للعالم بن مرزوق الحفيد حيث يقول عنه فى الاول ص 124 : « العلامة الحجة ، الحافظ المحقق الكبير ، الثقة الثبت ، المطلع النظار ، المصنف التقى ، الصالح الزاهد ... » .

الادب · ويؤخذ عليه أيضا ذكره الاشعار في كثير من التراجم ، ولاسيما تلك التي قيلت في المناسبات ، وخاصة في الجزء الثاني من الكتاب ، فهو يسرد ما وجد بين يديه من أشعار ، ولعله كان يذكرها حتى يعطي للمترجم أهمية كبيرة · ويمكن القول ان كثرة ذكره لها ، تكاد تجعل من هذا الكتاب موسوعة ادبية ·

وكثيرا ما كان الحفناوي يخصص صفحات تزيد عن العشرة لفقيه أو عالم واحد ، ولكنه لا يخصص سوى صفحة أو أقل منها لآخر · وقد يعود ذلك الى أهمية الشخصية التي يترجم لها في نظره ، أو لغزارة المعلومات التي وجدها عنها · ومما يلاحظ عليه هذا الكتاب هو الاتجاه السياسي الذي تدخل في اختياره للشخصيات المترجم لها ، فالحفناوي قد أهمل ذكر بعض الشخصيات الهامة ، ومن بينها الشيخ الحداد رئيس الطريقة الرحمانية الذي لم يذكره تماما ، ويمكن رد ذلك الى خوفه من التوغل في الشؤون السياسية ·

وبالرغم من النقائص الموجودة بالكتاب ، فان (تعريف الخلف) يعتبر من أثمن الكتب · ويمكن القول بأنه تكملة لاعمال بن مريم ، والغبريني وغيرهما ، فللحفناوي فضل كبير لانه استطاع ان يجمع ما كان مشتتا ، وان يضيف اليه معلومات نفيسة عن عائلته ، وخاصة في الجزء الثاني من الكتاب ، ولولاه لضاعت كلها · وله مزية كبرى فيما ذكره عن مؤسسي بعض الزوايا ومشايخها ، مثل زاوية الهامل ببوسعادة وزوايا بلاد القبائل (22) · وهذه المعلومات لا نستطيع العثور عليها الا في كتابه ، والى جانب ذلك أفادنا الحفناوي بأخبار عن معاصريه وبفضله لحقتنا معلومات استخرجها من الوثائق العائلية التي اطلع عليها معاصروه من العلماء ، فبالرغم من جهله بأساليب البحث العلمي ، فان الحفناوي انقذ لنا الكثير من المعلومات التي تتعلق بالتاريخ الثقافي في الجزائر والمغرب العربي عامة ·

(22) سعد الدين بن أبي شنب · « نبذة عن بعض المؤرخين العرب المحدثين بالجزائر » ص 478 ·

مراجع البحث

1 ـ ابن أبي شنب سعد الدين :

« نبذة عن بعض المؤرخين العرب المحدثين بالجزائر » المجلة الافريقية ، سنة 1956 .

« النهضة الثقافية في الجزائر » مجلة كلية الآداب العدد الاول ، 1964 .

2 ـ ابن الشيخ الحفناوي بن أبي القاسم :

تعريف الخلف برجال السلف ، جزءان ، الجزائر 1907 .

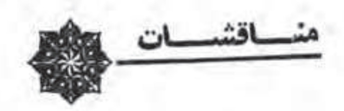
3 ـ سعد الله أبو القاسم :

الحركة الوطنية الجزائرية الطبعة الاولى ، بيروت ، 1969 .

4 ـ قوفيون ، ادمون ، مارت :

كتاب اعيان المغاربة ، الجزائر ، 1920 .

5 ـ أعداد من جريدة المبشر باللغة العربية .



حول مقال :

أبو القاسم الحفناوي وكتابه : « تعريف الخلف برجال السلف »

خرشي محمد بن أبي القاسم الديسي
أستاذ بمتوسطة الذكور القديمة
ـ بوسعادة ـ

أطلعت على مقال الاستاذة خديجة بقطاش المنشور فى العدد (51) ، ص (48 ـ 57) من مجلة « الاصالة » الغراء ٠ ومع أننى أنوه بجهد الباحثة الفاضلة ، وأشكر لها اهتمامها بأحد أعلام الوطن البارزين الشيخ أبى القاسم الحفناوى وبكتابه القيم (تعريف الخلف ، برجال السلف) ٠ لا يسعنى الا أن أكتب هذا التعقيب الوجيز تصحيحا لهفوات تاريخية لا ينبغى اغفالها ، ومناقشة لاحكام وآراء لا يحسن السكوت عنها ٠

ويتناول هذا التعليق النقاط التالية :

1) تصحيح نسب الشيخ الحفناوى وتحقيق اسم والده ٠ ورد فى مقال الكاتبة ما نصه : « هو الحفناوى بن الشيخ بن أبى القاسم يرجع نسبه الى سلالة سيدى محمد بن عروس ، وسيدى المازرى ابن يطو » ٠ وهذا خطأ ، والصواب أن نسبه ينتهى

الى سيدى ابراهيم الغول ، أما سيدى محمد بن مرزوق (وليس ابن عروس كما ذكرت الكاتبة) فهو أحد أجداده الاعلين · كما أن سيدى المازرى هو جده من قبل الام لان والدة المؤلف هي السيدة خديجة بنت المازرى بن محمد بن يطو (1) ·

ثم قالت الكاتبة بعد أسطر قليلة : « وأبــوه هــو الشيخ المعروف بمحمد بن أبى القاسم الهاملى ··· وقد ترجم له ابنه فى كتابه فقال : سيدى أبى القاسم بن سائب المنصور الشريف الحسنى ··· » وهنا التبست الامور على السيدة الباحثة ولــم تنتبه الى ما وقعت فيه من التناقض ، والابتعاد عن الحقيقة ، لان الشيخ محمد بن أبى القاسم (2) مؤسس زاوية الهامل هو شخص آخر لا يمت بصلة الى المؤلف وقد أخطأت الكاتبة فى نسبــه ايضــا · والصواب (محمد بن أبى القاسم ابن ربيــح بــن محمد ابن عبد الرحيم بن سائب بن المنصور ···) ·

أما والد الشيخ الحفناوى فهو (الشيخ بن أبى القاسم بن الصغير بن محمد المبــارك بن محمد بن أبى القاسم بن محمد بن مرزوق بــن محمد بن سيدى ابــراهيم الغول (3) دفين مدينة بوسعادة ابن سيدى ابراهيم السلامى دفين العاصمة وقــد ترجم المؤلف والده فى كتابه (4) ·

2) أشارت الكاتبة فى معرض حديثها عن طريقة المؤلف فى الترجمة الى ابتعاده عن المنهج العلمى · ويقتضى الانصاف أن نتوقف قليلا عند هذه النقطة ، للاعتبارات التالية : ان التحقيق فى كتب التراجم مغاير تماما للتحقيق فى الحوادث التاريخية ، وهو فى الغالب لا يعدو تخطئة قول وتصويب آخر بناء على القرائن والشواهد ، أو تصحيح ما قد يعترى الاعلام ، والالقاب ، والانساب مــن التصحيف والتحريف ، أو محاولة التوفيق بين الروايات المختلفة للتحقيق فى واقعية بعض الاعمال والمواقف ، أو لضبط تاريخ الولادة أو الوفاة · وينتهى التحقيق فى معظم الاحوال الى تخمينات ظنية تعتمد على الاحتمال والترجيح وقلما يتوصل الباحث الى نتائج مؤكدة موثوق بها الا اذا توفرت لديه الادلة المادية وهي قليلة فى هذا المجال ·

---

1) تعريف الخلف ج 2 – ص : 538 – معجم أعلام الجزائر – ص 185 – بيروت 1971
2) نفس المصدر ص 336 – وانظر ايضا معجم أعلام الجزائر : ص 176 ·
3) تعريف الخلف : ج 2 ، ص 18
4) نفــس المصــدر ص 178 ·

وعليه فان الشيخ الحفناوى لم يسلك هذا السبيل لجهله بالمنهج العلمى بـــل نعتقد أنه آثر طريقة العرض المحايد ، واحترام النصوص الاصلية ، مع التقيد بالنزاهة التامة ، والامانة العلمية · وهي طريقة سليمة لا غبار عليها ، وقد أعتمدها الكثير من المحققين فى الشرق والغرب · أما طريقة الاقتباس الجزئى والتصرف فى كلام الغير وانتحاله ، فهي طريقة لا جدوى فيها ، وكثيرا ما شوهت الحقائق وظللت الباحثين · يضاف الى هذا كله تعذر الوسائل وصعوبة العمل ، وأعنى بتعـــذر الوسائل ندرة المصادر ، وقلة المراجع · فكثير من علمائنا الذين ترجم لهم المؤلف لا توجد تراجمهم الا فى الكتاب الواحد ، ومن النادر جدا أن تتنوع المراجع وتتعدد ، كما هو الحال فى تراجم علمـــاء المشـــرق ·

أما صعوبة العمل فتتمثل فى اتساع الموضوع ، وكثرة التراجم ، اذ يشتمل الكتاب بجزأيه على (418) ترجمة ، ينتمى أصحابها الى عصور مختلفة وتحقيق هذا العـــدد الضخم من التراجم بانتهاج الاساليب العلمية المتبعة فى كتابة التراجم والسير أمـــر صعـــب المنـــال ·

ونظرا لهذين العاملين اعتمد الشيخ الحفناوى على طريقة الجمع والعرض المحايد التى سبقت الاشارة اليها آنفا ، وأراد لكتابه أن يكون مرجعا هاما للتعريف برجـــال الوطن ، وسجلا حافلا بالنصوص ، ومصدرا ثريا يغترف منه المؤرخون ، والباحثون ، والمحققـــون ·

ومما ذكرته الكاتبة أيضا فى هذا الصدد أن المؤلف « ينقل أشياء غريبة مثـــل بعض المعجزات ··· » والاصطلاح المناسب فى هذا المقام هو كلمة « الكرامات » لان المعجزة من خصوصيات الانبياء ـ وذكر المؤلف لهذه الحادثة دون تعليق لا يعنـــى تصديقه بها ، أو عدم تصديقه ·· الا أنـــه لا يؤاخذ على ذلك نظـــرا للنزعة الدينية المحافظة ، والاتجاه الصوفى السائدين فى ذلك العهد ·

3) تعرضت الكاتبة لاسلوب المؤلف فى الترجمة فذكرت من مآخذه أنه يبالغ فى الوصف ويعمد ··· (كثيرا) الى السجع (الممل) ـ والواقع خلاف ذلك ، فان أسلوب الشيخ يعد من السهل الممتنع لما يمتاز به من الدقـــة والوضوح والاصالة والبـــراءة من العيوب الشائعة فى كتابات ذلك العهد ·

وأبرز دليل على ذلك تراجمه لافراد أسرته · وأبناء قريته وطائفة من معاصريه · وتتجلى خصائص أسلوبه فى مقالاته الصحفية ، وكتبه المترجمة نذكر منها على سبيل

المثال « الخير المنتشر فى حفظ صحة البشر » فكتابته فى هذا المجال تعتبر نموذجا رفيعا للنثر العلمى الدقيق البليغ . أما ما يوجد فى « تعريف الخلف » من سجع فان المؤلف لا يتحمل وزره ، لان جله ـ باستثناء المقدمة ـ منقول من المصادر التى اعتمد عليها ، لا سيما « نحلة اللبيب » ونشر « ازاهر البستان » وبضع صفحات من كتاب « ديوان الصبابة » لابن ابى حجلة التلمسانى ، واخرى من كتاب « حديقة الافراح » للشروانى .. وغيرها .

4) تضمن المقال أيضا دعوى عريضة ، فحواها أن الاتجاه السياسى تدخل فى اختيار المؤلف للشخصيات المترجم لها ، واهمال بعضها ، وضربت على ذلك مثلا باغفاله ترجمة الشيخ الحداد . والواقع أن هذا تحامل وتسرع فى الحكم ، ويجب البحث عن سبب آخر ، اكثر وجاهة وأقرب الى المعقول .

ان الشيخ الحداد زعيم ثائر بحق . الا أن شهرته العلمية لا توازى شهرته الثورية وبعبارة أوضح ان مكانته الثورية تفوق بكثير مكانته العلمية .. وهذا فى نظرى سبب وجيه يدعو الى عدم ذكره فى كتاب خاص بذوى الفكر وأرباب القلم ، كما ذكره المؤلف فى مقدمة كتابه .

على أن اعتبار الشيخ الحداد من المثقفين قضية فيها نظر ، وكانت محل جدال وخلاف ، وقد أثار هذه القضية الدكتور يحيى بوعزيز على صفحات مجلة « الاصالة » حيث قال ما مؤداه : « فحول ثقافة الشيخ الحداد أو أميته هناك رأيان شائعان فى منطقته ، رأي يؤكد أنه مثقف بدليل أنه خلف بعض التآليف ... ورأي آخر يدعى أنه أمي لا يقرأ ولا يكتب .. » ثم يقول بعد ذلك ما نصه : « ورأينا الذى سيبقى قابلا للنقاش ، هو أن الشيخ الحداد لم يكن أميا تماما ، ولم يكن ذا مستوى عال من الثقافة ، بل كان ذا ثقافة متوسطة يعرف القراءة والكتابة (5) » . ولا ينقص هذا شيئا من قيمة ذلك الثائر العظيم ، فكتب التاريخ كفيلة بتخليد ذكره .

وهذا يؤيد قولنا بأن الشيخ الحفناوى لم يكن متأثرا باتجاه سياسى معين ، ولو كان كذلك لاهمل ترجمة الثائر الكبير الامير عبد القادر (6) الذى أهلته مكانته العلمية كمفكر وشاعر أن يتبنوا مكانه فى « تعريف الخلف ، وتتحلى به صفحاته » .

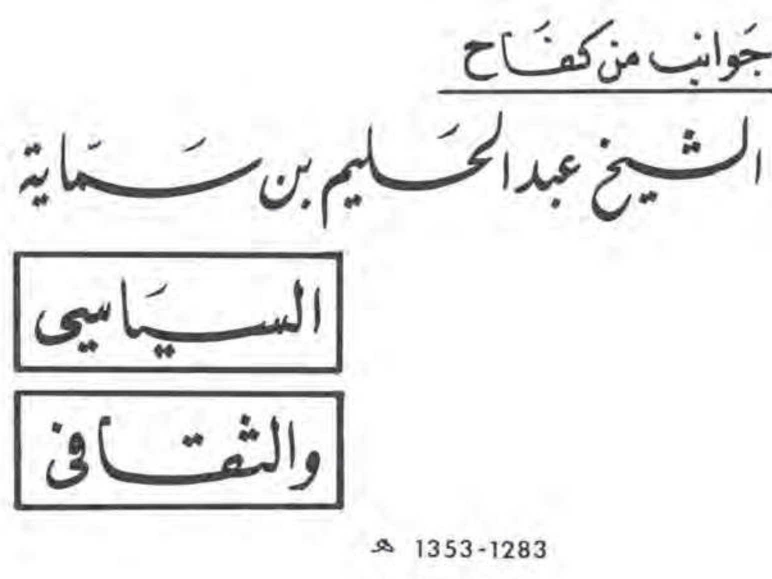
---

5) مجلة « الاصالة » العدد 46/47 ، ص 114 .

6) تعريف الخلف ، ج 2 ، ص 308 .

وأخيرا يجد ربنا أن نذكر الباعث الحقيقى الذى دعا الشيخ الحفناوى الى تاليف كتابه ، ان هذا العمل الجليل الذى قام به يعد تعبيرا صريحا عـن الوجود الوطنى ، وابرازا للشخصية الجزائرية ـ التى حاول الاستعمار طمس معالمها ـ واحياء للتراث القومى « كي لا يقع فى أغوار التناسى » ـ على حد تعبير المؤلف نفسه ـ كل ذلك أملته غيرة قومية عارمة ، وروح وطنية صادقة ، وحب خالص للوطن ، ورجاله ، وايمـان راسـخ بمستقبلـه ٠

وفى الختام أجدد شكرى للاستاذة الفاضلة خديجة بقطاش ـ وآمل أن يكـون الانصاف رائدنا واكتشاف الحقيقة غايتنا ٠ والسلام ٠



1283-1353 هـ

1866-1933 م

عبد الرحمن الجيلالي

من أوجب الواجب علينا وقد أخذنا العهد على أنفسنا حسبما سطرناه على واجهة كتابنا « تاريخ الجزائر العام » من ذكر نبذ من تراجم العبقريين وأرباب القرائح لمشاهير الجزائريين عبر العصور ، وقد اثبتنا هذا فيما تقدم نشره فيما طبع منه في الجزئين الاولين من أجزاء الكتاب الاربعة . ولقد سرنا في الجزء الثالث والرابع على نمط الطريقة التي سلكناها من قبل ، فترجمنا لطائفة من صفوة نبغاء الجزائر وأفذاذها الممتازين المبرزين في مختلف الميادين وعلى اختلاف مشاربهم وتنوع

(*) فصل من الجزء الرابع لكتاب « تاريخ الجزائر العام » لتلميذه الاستاذ عبد الرحمن الجيلالي الذي سيظهر قريبا

نشاطهم ، فكان لزاما علينا ونحن نؤرخ فى هذا الجزء ـ الرابع ـ من الكتاب للجزائر المعاصرة ان لا نغفل كتابنا هذا من ذكر بطل من أبطال الجهاد الجزائرى فى سبيل الدين والعلم والوطن ، وان لانحرم قراء هذا التاريخ من الاطلاع والتعرف على شخصية فذة هى من صميم أبناء الجزائر ـ العاصمة ـ ذوى النفوس الأبية والشهامة الاسلامية والأفكار الحرة الزكية والهمة الشماء والمعارف الواسعة ، ذلكم هو عالم جيله وامام وقته شيخنا العلامة المحقق الاستاذ عبد الحليم بن سماية سقى اللـه ضريحه ٠

واذا ذكر الشيخ عبد الحليم بن سماية لدى من رآه أو عرفه أو عاصره أو سمع به فلسرعان ما ينبهر لسماع اسمه وينصرف ذهنه فى الحال الى ما يتصوره أو يتمثله فى ذهنه ومخيلته من المثل العليا فى النبوغ والفضل والعلم الصحيح والتقوى والشجاعة والوطنية والكمال النفسانى وطهارة الروح ودماثة الاخلاق والنبل والنزاهة والاباء ، فاسمه رحمه الله لا يزال ولا ريب عند من عرفه عنوانا لهذا كله ، وليس يصح من أحد أيا كان ممن تكون له أيى صلة بالحركة العقلية أو الاجتماعية أو السياسية لهذه البلاد أن يجهل مكانة هذا الرجل ومنزلته السامية فى المجتمع الجزائرى ، هذا ان لم يكن يعرف عنه الكثير والكثير من مواقفه المشرفة وخصائصه الكريمة ، وهذا أمر يعترف به حتى الأجانب ذوى النفوذ من خصومه الفرنسيين المعمرين ممن كان يجهر أمامهم وعلى مرآى ومسمع منهم بكلمة الحق فيبهتهم ، ولا يحجبه عن الصراحة بذلك هيبة مهيب ولا رهبة رهيب ، الى ما أوتيه من ثبات فى الجنان وسحر فى البيان ٠

ومن ذلك ما يشهد له به موقفه الصارم الذى وقفه تجاه الاستعمار الفرنسى يوم ان جاء هذا بمشروعه لتجنيد الشعب الجزائرى فى الجيش الفرنسى ، فعارضه الاستاذ معارضة شديدة حتى انه هم بمغادرة الوطن والهجرة منه الى المشرق ان تم تنفيذ هذا القانون الاجبارى ، وفعلا لما شعر بتصميم الحكومة على تنفيذه أخذ يسعى فى قطع جميع العلائق التى تربطه بوطنه وأقر بائه وقدم استقالته من وظائفه فى التدريس سواء فى ذلك المسجد الجامع أو المدرسة وباع مسكنه الذى كان ان ورثه عن أبويه وعرض أثاث منزله على السوق واهدى كتبه ولم يستثنى منها سوى المصحف وتفسير الجواهر الحسان وودع اصدقاءه واستعد للرحيل لولا ان وقف فى وجهه اهل الجزائر واعيانها مستعطفين ومتوسلين قائلين له : ان هجرتنا انت فالى من تتركنا ؟ ٠٠٠ فاهتز الشيخ لهذا الموقف المؤثر الرهيب وعدل عن رأيه مكبرا لهم كريم اخلاقهم وخالص وفائهم ٠

ثم انه جاء اليوم الذى استدعت السلطة الفرنسية فيه الشيخ لسماع رأيه الأخير فى الموضوع واجتمع الملأ بدار البلدية فى الجزائر يوم الثلاثاء ٢٥ يوليو ١٩١١ م وحضر ذلك المجلس كبار ضباط فرنسا وحكامها وحضره جمهور من الناس وكثير من المسلمين وكان الى جانب الشيخ فضيلة مفتى الحنفية الشيخ محمد بوقندورة وجاء دور الكلام فاستنطق الشيخ عبد الحليم ، فأول ما فعل ان توجه الى الجمهور قائلا : أيها الناس أتاذنون لى أن أتكلم بالنيابة عنكم وعن اذنكم ، ام لا تأذنون فأسكت وأصمت ؟ ٠٠ فكلهم أجاب ! بلسان واحد : نعم ٠٠ نعم ٠٠ تكلم تكلم أيها الاستاذ ! فنهض قائلا : أى هؤلاء ـ مشيرا الى جماعة المسلمين لو انهم ارتضوا الخدمة العسكرية للدولة الفرنسية فانهم لا يكونون بذلك مسلمين

بجميع معنى الكلمة ، ولو أنهم مع ذلك ينالون من الحرية ما يخول لنبغائهم التربع على دست الجمهورية ـ الفرنسية ـ وانطلق يستدل على صحة كلامه بما جاء فى كتب الشريعة ونصوص القرآن والسنة ··

ثم قال : ودعوى ان ذلك يدفع بفرنسا الى منح الحرية السياسية للمسلمين فهى دعوى باطلة ، واعلموا انه اذا منح لهم ذلك مقابل تجنيدهم تكون هنالك الضربة القاضية على القومية الاسلامية والجنسية معا ، اذ يقع بذلك اندماجهم فى الأمة الفرنسية نهائيا ! ··· وهنا حصلت فى المجلس ضجة واغتنمها بعض المتفرنجين فاحدث تشويشا حول خطاب الشيخ وقال : ان هذا الرجل قد اسهب فى الموضوع على حين أن المسالة لا علاقة لها بفلسفة القرآن ، فرد عليه الشيخ كلامه وقال ـ مشيرا الى رئيس الجلسة وهو يومئذ الكاتب الفرنسى الفنان م · دوغالان

انى اتكلم مع رجل عالم فدعونى انهى خطابى مع جنابه ، فانه يدرى ما أقول ويدرك الامور، والا فتكلموا انتم معشر الخشب المسندة !! ونهض الشيخ ميمما نحو باب القاعة عازما على الانصراف من القاعة فاسترده رئيس الجلسة مظهرا أسفه الشديد على ما حصل وندبه لاتمام خطابه فعاد الشيخ لاتمام حديثه مستوفيا لمقاصده ومعانيه ، ولما أتمه صاح الجمع من المسلمين ومن بينهم فضيلة المفتى الحنفى بأنهم موافقون على رأى الشيخ الذى جاء فى خطابه هذا حول رفض مشروع التجنيد الاجبارى فى الجيش الفرنسى (١) ·

نرى من خلال ذلك ان الشيخ كان من ألد أعداء الاستعمار ، وانه كان من القوم الذين لا يخافون فى الله لومة لائم ، ولولا تمسكه بنصر الله واعتصامه بحبله المتين للعبت السياسية الفرنسية الاعيبها وأوقعت به فى مجاهل الفتنة···

ولقد اشتهر رحمه الله بتفرده من بين علماء عصره بهذه المنقبة الجليلة منقبة الشجاعة الادبية والبطولة التى كانت تظهر عليه عندما يجابه طغاة الحكام المستعمرين وقد سجلها له التاريخ بكل فخر فاثبتها الاستاذ الرئيس الشيخ عبد الحميد بن باديس فى كلمته الموجزة التى نعاه بها يوم وفاته على صفحات الشهاب (م ٩ ج ٢) اذ قال : « ان الاستاذ الشيخ عبد الحليم ابن سماية عالم عامل غيور على دينه ووطنه مخلص لهما ··· فرحمه الله وجازاه عن العلم وخدمته واحترامه والاعتزاز به خيرا ··· » وكما شهد له بهذا العدو قبل الصديق ·

وأصدق وصف للشيخ هو ما جاء فى كلمة العالم القرآنى الاستاذ احمد بن محمد التجانى وهو من أخص تلامذة المترجم ومريديه الاكرمين فيما كتبه عن شيخه بمجلة التلميذ ٣ ـ ٤ (السنة الثانية) حين بلغه نعيه وكان اذ ذلك بالمغرب الاقصى فقال حفظه الله « انه عالم الاتقياء وتقى العلماء ·· انغلق ذلك الفم المتعطر بذكر الله وكان عينا فياضة بالمعارف يشرب منها عباد الله يفجرونها تفجيرا ، سكت ذلك اللسان الفتان وكان حجة أهل الايمان فى الديار الجزائرية وعندليب رياض الآداب بتلك الربوع ، اغمدت بقية ذلك السيف اليمانى لا بل تلاشت تلك البقية التى ابقتها الايام من ذلك البطل ، ولا غرابة ولا استعجاب فان أصدق ما يصح تعريفه به انه كان نفس غالب فى جسم مغلوب ، عرفنا ذلك منه نحن معشر تلامذته بما كنا نشاهده من أحواله

1) جريدة الحضارة 70 ـ 18 ـ 8 ـ 1911 م ـــ مجلة الثقافة 3 السنة الاولى 1391 هـ ـ 1971 م

فى أثناء الدروس كلما عن لنا مثل عربى من نحو : النار ولا العار ، المنايا ولا الدنايا ، أو عنت لنا آية من مثل قوله تعالى : رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا ، نرى مثل تيار كهربائى ينبعث من أعماق الاستاذ ويلوح كالبرق الخاطف أثر عامله القوى على صفحات محياه ٠٠٠

وحيث يتأكد على من يتعاطى لتدوين تراجم الرجال أن يذكر أطوار حياتهم العامة ويتعرض الى ما كانوا يعيشون عليه ويحيونه ككل كائن حى منذ الزيادة الى الوفاة وجب ان نذكر مجمل تفاصيل حياة شخصية الشيخ فاليكها أيها القارىء الكريم كما يلى :

تنتمى أسرة الشيخ عبد الحليم الى آل سماية وهى أسرة من الأسر التركية العريقة بالعاصمة ويرجع أصلها الى أتراك بلدة ازمير ، وهنا عندنا بالعاصمة أسرتان مشتركتان فى التلقب بهذا اللقب وهذه النسبة ، اذ كل منهما تدعى « ابن سماية » وكلتاهما من أصل تركى ، وهما فى نفس الامر والواقع متباعدتان كل البعد عن بعضهما بعضا فى النسب ، فأسرة الشيخ عبد الحليم ترجع فى نسبها الى حسن خوجة قاطع السكة بدار الامارة الجزائرية ، على عهد الاتراك ، وهى أكثر شهرة بهذا اللقب ــ ابن سماية ــ من الثانية التى ينتمى اليها الشيخ يوسف بن سماية ، فان لقب هذه الحقيقى هو « بكير خوجة » وهو اللقب الرسمى الذى يجرى عليه العمل الادارى فى جميع أوراق التعريف الرسمية لكامل افراد هذه العائلة ، وان كانت هى كذلك تعرف بابن سماية وليس عليه العمل ، بخلاف أسرة الشيخ عبد الحليم فانها لا تعرف الا به ، ولا أدرى كيف حتى اشتركتا هاتان الاسرتان فى لقب واحد ؟ ٠٠

اما والد الشيخ المترجم فهو على بن عبد الرحمن بن حسن خوجة ، وكان رجلا مثقفا ثقافة عربية اسلامية تتماشى مع العصر فهو ممن كان أخذ عن العلامة الشيخ مصطفى الحرار الجزائرى وكان يشغل منصب التدريس بالمساجد فكان أولا مدرسا بجامع سفير ثم انتقل الى مثل وظيفته بالجامع الجديد بالعاصمة ، واما والدته فهى كريمة المحتد من آل الشيخ مصطفى ابن الكبابطى آخر مفاتى المالكية بالجزائر على عهد الاتراك ، وهو الذى ابعدته السلطة الفرنسية واقصته عن البلاد سنة ١٨٤٣ بسبب ما اتخذه من موقفه الصارم فى رفضه لقبول وضع يد فرنسا على الاوقاف الجزائرية فتوفى رحمه الله بمدينة الاسكندرية غريبا ، فطوبى للغرباء ٠

ازدان بيت الشيخ على بن سمايه بمولوده عبد الحليم سنة ١٢٨٣ هـ ١٨٦٦ م فاعتنى والده بتربيته تربية أساسها الدين والاخلاق ، وحينما انس منه الاقتدار على مزاولة تعلم القراءة والكتابة أخذه الى كتاب بحى القصبة يعرف بجامع بالرقيسة ــ أو ابن رقيصة ــ وكان شيخ الكتاب وامام الجامع اذ ذاك هو الشيخ المبارك الميمون حسن بوشاشية ، وعليه تخرج مترجمنا فى حفظ القرآن الكريم كما تخرج على يده اغلب علماء الجزائر وحملة القرآن بها يومئذ ، وفى نفس الوقت كان والده يعمل على تلقينه مبادىء العلوم وتوجيهه فنشأ ابنه عبد الحليم على حب الفضائل والتناغى بالعلم والعمل ، وكان يصحبه معه الى مجلس درسه بالجامع ، فاخذ الغلام العربية والفقه والتوحيد عن والده ولازم مشائخ وقته وعلماء بلده مثل الشيخ على بن الحاج موسى والشيخ محمد القزادرى والشيخ على ابن الحفاف والشيخ ابن

ظاهر الوترى المدنى والشيخ قدور باصوم والشيخ طاهر قيطوس وحضر دروس الشيخ محمد سعيد ابن زكرى وغيرهم فأخذ عن هؤلاء فنونا من العلم فى اللغة وآدابها وعلوم الشريعة وفنونها كما انه تلقى الحساب والفرائض عن صهره الشيخ على بن حمودة ، وعلم الربع المجيب فى الفلك والتوقيت ومواقف العضد كلاهما عن شيخنا أبى القاسم الحفناوى صاحب كتاب تعريف الخلف برجال السلف ، واخذ علم الاسطرلاب عن الاستاذ عارف بك .

وتشوق الشيخ الى معرفة علم الحكمة والفلسفة على طريقة قدماء الفلاسفة من مشائين واشراقيين ، ولا سيما فيما يتصل من بحوثهم فى الالهيات ، فتعلقت همته بدرس الفلسفة اليونانية وانصرف ذهنه الى طلب ما يسمونه بالمقولات العشر المنسوبة الى أرسطو الذى حصر مباحثه فى هذه المطالب العشرة ، على خلاف ما مشى عليه المتكلمون من عدها ثلاثة فحسب ، والباقى عندهم أمر اعتبارى فقط كما هو مقرر فى مضانه من كتب الحكمة والفلسفة القديمة ، فتعاطى مترجمنا لمطالعة كتب هذا الفن ودفعه حماسه العلمى الى البحث عن استاذ ماهر يلقنه هذا العلم ، فأشير عليه بالاتصال بعالم جليل هو صديق حميم لوالده منذ ايام الطلب ، ذلك هو الشيخ محمد ابن عيسى الجزائرى وهو يومئذ بتونس مهاجرا (٢) فشد اليه رحله ونزل عليه ضيفا محببا مكرما وتلميذا مدللا ، لا سيما وقد جمعت بينهما المناسب فاكرمه الاستاذ ابن عيسى وانزله من نفسه منزل الابن فلازم عبد الحليم منزله مكبا على الدرس والتحصيل ولم يغادر المكان متفسحا أو متجولا فى رحاب المدينة حتى يتعرف الى معالمها الشامخة وآثارها الرفيعة وأسواقها الغنية الثرية أو يسمح على الاقل بنظرة الى جمالها الفتان ، كل ذلك لم يحرك منه ساكنا ، حتى انتهى من اتقان فنه المطلوب والمرغوب فيه فعاد الى وطنه دون أن يعرف عن تونس شيئا ! ولما حل بالجزائر ساله اصدقاؤه ورفاقه ان يصف لهم تونس ؟ فقال لهم سلوا عنها من رآها ! ! ...

وهذا نهاية الحب والشغف والتفانى فى التعلق بالمبدأ بل هى التضحية نفسها بكل حلو ولذيذ وبكل متعة فى سبيل العلم ، وكان ممن اخذ عنهم من كبار العلماء ايضا علامة القطرين الشيخ محمد المكى ابن عزوز حينما كان هذا الاستاذ يتردد على الجزائر بحكم انه جزائرى الاصل وله فيها رحم وخؤولة ، فكثيرا ما كان يرحل من تونس الى الجزائر ليزور خاله الشيخ ابا القاسم الحفناوى ويتصل ببنى عمه وقرابته فى برج بسكرة وبوسعادة فكان مترجمنا ينتهز هذه الفرص ليجتمع به فيستفيد منه ، فهؤلاء هم أساتذة شيخنا الذين

2) هو من اكابر بلغاء الكتاب وعلماء اللغة ومشاهير المترسلين ولد بالجزائر سنة 1243 هـ ـ 1828 م وكان فيمن اخذ عنهم العلم بها العلامة الشيخ حميدة العمالى ، هاجر الى تونس سنة 1272 هـ وهناك انقطع للعلم معلما ومتعلما وتولى رئاسة الكتابة العامة بالوزارة الكبرى سنة 1276 هـ وترقى الى خطة الانشاء سنة 1302 هـ وعرض عليه منصب رتبة حاكم مجلس الجنايات فأبى وامتنع مؤثرا خدمة العلم والادب ، كان ذا اخلاق كريمة مع عفة ونزاهة وزهد ، وله تاليف لطيفة ظريفة ، منها الرسالة الموسومة بالثريا لمن كان بعجائب القرآن حفيا ، مطبوعة بتونس 1307 هـ واخرى اسماها : الماس فى احتباك يعجز الجنة والناس ، وهى مطبوعة ايضا بتونس 1306 هـ وقصيدته الوسيلة فى مدح اهل الفضيلة ، طبعت بتونس سنة 1306 هـ ، وكانت وفاته بالمهجر سنة 1310 هـ رحمه الله

استقى منهم معلوماته وكلهم كان اماما وحجة فى فنه ، فما بالك بمن يتخرج عن مثل هؤلاء ؟

وما بلغ السنة الحادية والعشرين من عمره حتى كان قد بنى بكريمة من كرائم الأسر الجزائرية العريقة وهى كريمة السيد محمد بن مصطفى غياطو قاضى المالكية بالعاصمة واسمها عائشة فانجبت له ولدين : سعد الدين ومصطفى وثلاث بنات ٠ واحترف الشيخ مهنة التجارة فاكترى دكانا لبيع التبغ بحى باب الواد تجاه جامع على بتشنى فكان يعول أهله ويرتزق منه ومن ثمن كراء منزل له كان يدر عليه أربعين فرنكا مشاهرة ، ولم يلتفت للوظيفة حتى دعى اليها فتولى خطة التدريس بالمدرسة الرسمية، وذلك فى يوم ٤ ديسمبر ١٨٩٦م وعمره يومئذ لايتجاوز ثلاثين سنة ، فكان فيها أول من أقرأ كتاب دلائل الاعجاز وأسرار البلاغة للجرجانى ، والاقتصاد فى الاعتقاد للغزالى وتلخيص المفتاح لجلال الدين القزوينى ، والبصائر النصيرية فى المنطق لابن سهلان ، والمفصل فى النحو للزمخشرى وغيرها من الكتب المعتبرة عند اهل الخبرة والعلم ، فكان بذلك رحمه الله أول من أدخل نظام اصلاح التعليم العالى بالجزائر ، كما أنه كان أول من اهتم بتدريس رسالة التوحيد للامام محمد عبده وختمها فى ظرف سبعة أشهر ٠

ولما زار مؤلفها الجزائر صيف سنة ١٩٠٣ م جمادى الاولى ١٣٢١ هـ كان شيخنا أول من اسرع الى اقتباله وملازمته ليلا ونهارا فلم يفارقه طيلة ايام اقامته بالعاصمة حتى غادرها الامام الى تونس (٣) ومدحه بقصيدة بعثها اليه بالقاهرة نشر بعضها فى مجلة المنار المصرية فى عددها الصادر يوم ٦ ذى القعدة ١٣٢١ هـ ١٩٠٤/٢/٣ م وقدم لها صاحب المجلة الاستاذ محمد رشيد رضا بقوله : « قصيدة عالم جزائرى بل اشهر علماء الجزائر مدح بها الاستاذ الامام وأرسلها اليه فى القاهرة من عهد قريب فسرنا منه انها آية من ايات صلة علماء الاسلام بعضهم ببعض فى الاقطار المتباعدة وشعور أهل المغرب منهم بما يشعر به اهل المشرق من قدر الاستاذ الامام ، واننا نقتطف منها هذه الابيات وأود منها عشرين بيتا وهى تفوق فى عددها الخمسين واليك أيها القارى مقطوعة منها ٠ قال يخاطب الاستاذ الامام :

فانت لنا شمس تنير على المدى
أتى نورها من غير أن نتطلعا

ادير بذكراك الذى منك قد مضى
فاشرب كأسا بالصفاء مشعشعا

يذكر فيك المجد والعلم والتقى
فانظر من علياك عرشا مرفعا

وتلوى الى تلك المجالس فكرتى
فتترك قلبى بالخيال ممتعا

محافل كان العلم فيها مجالسى
أسامر بدرا بالجلال تقنعا

فاسمع فصلا من حكيم وحكمة
اذا ما بدت خرت ذرى الزور ركعا

3) رأيت بعض من كتب عن زيارة الاستاذ الامام للجزائر وعن الدرس الذى القاه بها ، فى تفسير سورة والعصر ، فقال عن الدرس انه القى بالجامع الجديد ، والصواب ان الدرس كان بجامع الحاج مصطفى الاكحل ـ الحر ـ الكائن والقائم الى اليوم بحى الحامة ـ بيلكور ـ بالقرب من ضريح الولى الشيخ سيدى محمد بن عبد الرحمن الازهرى

فما بـال أقـوام هدى اللـه عقلهم
يمـارون فيـه والسحـاب تقشعـا
الخ ۰۰۰۰

واثنى صاحب المنـار على صاحب القصيدة فى الجزء الاول من تاريخ الاستاذ الامـام حينمـا ساق الحديث عن زيارة الامـام للجزائر فقـال : « وقد نال مراده فاجتمع بخيار العلمـاء والعقلاء الذيـن يقدرون الاصلاح قدره ومـن خيـارهم فى الجزائـر الشيـخ محمد ابـن الخوجـة صـاحب المصنفات والاستاذ الشيخ عبد الحليم بن سماية ۰۰ وقد رأى هذين الفاضلين وغيرهما مغتبطين بالمنار ولا سيما دروس العقائد التى ينشرها تحت عنوان « أمالى دينيـة » ۰۰۰ وقالوا لـه اننـا نعده مدد الحياة لنا ، فاذا انقطع انقطعت الحياة عنا (٤) ۰

وهذه صورة شمسية التقطت هنا بالجزائـر للشيخين عبد الحليم ومحمد عبده وهما جالسـان على أريكة واحدة جنبـا الى جنب ممـا يدل على كامل الصفاء والود وتأكيد العلاقة الاخوية بينهما ۰ وخلفهما اقرباء الشيخ ابـن سماية وولد الحـاج مصطفى الاكحل ۰

ولما غادر الشيخ محمد عبده الجزائر وصـل بصقلية نـزل « بلرم » ومنهـا خاطب الشيخ عبد الحليم ابن سماية برسالة مؤرخـة فى ۳۰ جمادى الاخيرة سنة ۱۳۲۱ هـ وبها نعلم مقدار منزلةالشيخ العلمية كمـا يراها الاستاذ الامـام الشيخ محمد عبده جاء فيها : « حضرة الاستاذ الفاضل الشيخ عبد الحليم بن سماية ۰۰۰ لا يزال يؤنسنى مثـال من علمك وفضلك ويعجبنى رفيق رقيق من كمالك ونبلك وما كان ذلك ليفارقنى بعد ان صـار بضعة منى ، ولو كشفت لك من نفسك ما كشف لى منهـا لعلمت مقدار ما آتاك الله من نعمـة العقل والادب ولعرفت انك ستكون امـام قومك تهديهم ان شـاء الله سبل الرشاد وتبصرهم بما يوفر عليهم الحظين حظ المعاش وحظ المعاد ، هذا هو أملى الذى أسأل الله تحقيقه ، فخذ مـن الوسائل مـا يبلغك بفضل الله غاية ما يرمى اليه استعدادك ۰۰۰الخ۰۰۰(۱)

واشتهر الشيخ عبد الحليم من بين اسـاتذة عصره بالصلابة فى الدين ودفع شبـه المعارضين بما يستنبطه من الادلة اليقينية ، فانه كـان مهمـا تعرض عليـه بعض الشبـه التى يدلى بهـا بعض الناس ــ نحو الاسلام ــ واغلبهم كـان من مشائخ الافرنج بالجامعة الجزائرية حينما كانوا يتصلون بتلامذة الاستاذ بالمدرسة الا ويتصدى لهـا الشيخ بالمناقشة والحوار العلمى حتى يدحضها بنـاصع برهانه وصحيح استدلاله ، وهكذا كان رحمه الله فى كل موقف يقفه تجاه الملحدين وضلالات المبشرين واعتراضات المبطلين ، ولا عجب فى ذلك من رجل ثاقب الذهن مثله رزق البراعة فى البيان والاهتداء الىناصع البرهان ۰

وفى ١٥ اكتوبر ۱۹۰۰ م اسندت اليه خطـة التدريس بالجـامع الجديد مكـان والده المـرحوم الشيخ على بن سماية فشمر الشيخ عن ساعد الجد والاجتهاد وكرس حياته لخدمة الملة الاسلامية واخذ على عاتقـه القيـام بالمنصبين احسن قيـام فقسم ساعات العمل اليومية بين المدرسة والمسجد، فجعل منها للمسجد ۱۲ ساعة فى الاسبوع وللمدرسة ١٤ ساعة ، وشرع فى تدريس علوم اللغـة والشريعة والمنطق بما سبق ذكره من الكتب ، وبما أنه رحمه الله كان حنفى المذهب فانه كان يقتصر فى دروس الفقه على كتب الشرنبلالى والقدورى والطحطاوى

1) فانظرها فى تاريخ الاستاذ الامام ج 2 ص 617 ط القاهرة 1344 هـ
4) تاريخ الاستاذ الامام ج 1 ص 872 ط دار المنار القاهرة 1931 م

وابن عابدين والنسفى ، وعندما يستشار من طرف العامة فى اختيار كتاب لهم فى الفقه ، فانه يشير عليهم برسالة ابى محمد بن أبى زيد القيروانى المالكى ٠

وكان فيما اخذناه عنه وتلقيناه منه من الكتب التى أقرأها فى تدريسه بالمسجد خلال سنوات ١٣٤٣ ـ ٤٤ ـ ٤٥ هـ : ورقات امام الحرمين فى الاصول ، وشطرا من تنقيح القرافى ، ورسالة العضد فى علم الوضع ، وشرح السجاعى على المقولات العشر ، والجوهر المكنون فى البلاغة للاخضرى بشرح مؤلفه المخطوط ، ونظم الخزرجية فى العروض ، وقطر الندى فى النحو ، وتفسير سورة البقرة بالجواهر الحسان للثعالبى ، وهذا من غير ما كان يلقيه من دروس عامة للعامة فى سائر الامكنة العامة والخاصة وفى المحافل والنوادى وحيثما حل وارتحل وفى أيى بلد وجد سفرا وحضرا ٠

وانى لمعتز وفخور بما اتحفنى بل وشرفنى به من تفضله على بكتابة اجازة بخطه أجازنى فيها بما أجازه به والده وجمع من مشائخه فى رواية صحيح الامام البخارى متصلة السند المسلسل بشيوخ العلم والحديث على الطريقة السلفية ٠

وكان درسه رحمه الله جزلا بليغا يتكلم بفصاحة وعبارة منقحة بليغة والفاظ فخمة وذلك يرجع الى غزارة مادته اللغوية التى كونها أو تكونت فيه بسبب انكبابه على مطالعة معجم لسان العرب حتى كاد أن لا تخفى عليه مادة من مواده ، فهو لا يتنازل فى دروسه للغة العامية ابدا اللهم الا فى بعض النوادر او الحكايات التى قد يسوقها أحيانا فى المجلس للتسلى وهى لا تخلو من فائدة تكون متصلة بموضوع الدرس ، فكان لذلك لا يمل حديثه ، ولا يشعر بالضجر جليسه ، وبهذا الصنيع تخرج على يده جمع من الأدباء والعلماء شغلوا مناصب التدريس والقضاء والافتاء والامامة فى مختلف انحاء القطر الجزائرى وفيهم من شارك فى وظائف سامية بالمغرب الشقيق ٠٠٠

وكان رحمه الله لا يرى مرتاحا فيما يلقيه على تلامذته من الدروس الا اذا شعر من نفس التلميذ باطمئنان الى ما تلقاه ووعى وحفظ لما زاوله من المسائل المطروحة فى الدرس ٠

وكان للشيخ الملم باللغة الفرنسية فهو يتحدث بها أحيانا عند اللزوم كما كانت له معرفة باللغة العبرانية واطلاع على ما بيد أهلها من نصوص العهد القديم والجديد من انجيل وتوراة وتلمود ، وكثيرا ما كان يجادل اصحابها فى دينهم ويناظر أحبارهم ورهبانهم ويسوق لهم الادلة والنصوص من كتبهم وبلسانهم ، وسمعته مرة يروى لنا قصة مناظرة جرت له مع حبر من أحبار اليهود حول اثبات تبشير التوراة بنبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فأنكرها اليهودى ، فبينما الشيخ مستمرا فى حديثه بفصيح العبارة اذا به ينطق بهذه الجملة الغريبة (وهمليخ هايا هو بمركبه نوخح ارم) فاسرعت الى كتابتها أولا ثم بعدما انتهى من حديثه استفهمته عن معانى الفاظ هذه الجملة وعن تركيبها ؟ ٠٠٠ فقال لى : هذه الفاظ عبرانية تعبر عن ثبوت ذكر نبينا محمد عليه الصلاة والسلام فى كتبهم ، وقد جاءت هذه الجملة فى كتاب لهم معظم لدى اخبارهم يسمونه (ميلاخيم) وينسبونه لليسع عليه السلام والعبارة هذه تثبت ذكر اسم نبى الاسلام عندهم كما انها تحمل البشارة بظهوره وهكذا كان يفعل مع رهبان

النصرانية أيضـا فكان يجادلهم بأناجيلهم وكثيرا مـا يفحمهم ولا سيمـا عندما يستدل لهم بانجيـل « بارنابا » فكأنما رماهم بقاصمة الظهر .

واماما فطر عليـه وجبلت عليـه نفسه مـن الاخلاق الكريمة والشيم فانه كان كما عرفه جميع من عـاشره حلـو الشمـائل شجاعا طموحـا الى الاخطـار فى استرجـاع الشجاعـة الادبيـة وفى المجتمع أيضا الى قومـه ، يلتهب غيرة على دينـه ووطنه بمعناه العام الواسع لا الخاص الذى حددته السياسة ، وقورا عظيم المهابة كريما اريحيا أنوفا متواضعـا يتلألأ فى وجهـه نور العلـم والوقـار والجمال وضاح المحيا جميل المبسم مشرق الجبين قد داعبت زرقة السماء مقلتيه فاشرقتا فى طلعته البهيـة اشراق الشمس والقمر ، متمـاسك الجسم تام الخلق ربعة فسبحان من خلقه فى أحسن تقويم، وكـان حسن الشارة يظهر دائمـا فى شكل أنيـق وهيئة حسنة ، يتعمم بعمامة هندية الصنع جزائرية الوضع والشكـل (طربانطى) ويلبس مـن فـوق القميص (البداعى) وفوقهمـا (الجباضولى) أو ما يسمى (الدامى) وفـوق ذلك كلـه العبـاءة أو تارة البرنس يلقيه كرداء على كتفيـه ، وقد يجمع بين العباءة والبرنس فى حسن سمت ، وكان مولعا بتناول القهوة والتدخين .

وللشيخ مقدرة عظيمـة على الترسل ونظـم الشعر وله مكانة عاليـة فى نثره ونظمـه ، فهـو يكتب على اسلوب البلغـاء مـن الرعيل الاول فلا تكلف ولا تعسف وتـارة يميل الى السجع ، ولـه تخصص فى الشعر بنظم الموشحات على أسلـوب ما نظمه أدباء الجزائر وعلماؤها مـن موشحاتهم المولديـة الشهيرة الموزونة على مقتضى الانغـام والالحان والطبوع الموسيقية الاندلسية التى أشار اليهـا الشيخ سيدى احمد بـن عمـار فى رحلتـه « نحلة اللبيب بأخبار الرحلة الى الحبيب » وكـان الشيخ يحسن هذا الفن ، فانصت معى الى قوله فى طالع موشح :

يـا روح سـار تعطـر
من نشـر أهـل الخيـام

بـاللـــه تتخـطـر
واحمـل اليهـم سـلامى

بلـــغ الى اهـــل طيبـه
منـــى عظيـم التحيـــة

قـف وقفـــة مستطيبــة
عنـد كـريـم السجيـــة

وانشـق هنـالك طيبـــه
مــن روضـة عبقريـــة

الخ ...

وهذه مقطوعة له أخرى من قصيدة نظمهـا بمناسبة اطلاعه على صنيع صديقنا الاستاذ احمد الاكحل فى رسالتـه (روح السعـادة) المطبوعـة بالجزائر ١٣٤٣ هـ/١٩٢٥ م فقال :

رعى اللـه امرأ يـرعى المعالى
يسـامر نجمهـا جنح الليـالى

لـــه نفس لهــا لحظ طمـوح
الى أعلـى ذرى حسن الخـلال

لـــه عقـل لـــه انف شمـوخ
ابـى الا طلـوعـا كـالهـلال

وخير النـاس من يهدى أنـاسا
اذا ركبـوا اهـاويج الضـلال

وخيـر الهدى هدى مـن لسـان
امـون نـاصح للـزور قـالـي

ويقول فيها :

اذا ضيعت عمـرك فى محـال
متى تسمـو الى أفـق الكمـال
فـوقت للطعـام ووقـت نـرد
وأوقـات على قيـل وقـال
متـى تترك أخـى للعلـم وقتـا
فنجم العلـم عندك بـرج خـال
الخ ....

ولهذه القصيدة مقدمة اجتماعية كتبها الشيخ نفسه تمهيدا لها نقتطف منها الفقرة التالية كنموذج لأسلوب الشيخ فى نثره وما يرمى اليه من اصلاح المجتمع ، وكتابة المرء نمامة على علمه وعقل الكاتب فى قلمه .

« الحمد لله الذى ورث ذرية سيدنـا محمد العلم ، وخصهم منه بمطالع اذا أهلت اهلتهم فيها هلـل لرؤيتها ذوو البصائر والفهم ، وشهدوا ان ذلك الجمال ، لا يشرق الا من أفق العلا والكمال ، والصلاة والسـلام على منبـع الحكـم ، ومنيـر الدياجى اذا ادلهمت ديـاجر الظلـم ، وعلى آلـه وذريته وعترتـه الآخذيـن باليمين رايـات المجـد والكرم .

وبعد فان الجزائر بلدة كانت يشـار اليهـا بالبنـان ، فى العلم والهنـاء ومصـادر الخيرات والجود والاحسان ، مصونة مما هو نصب الاعين من التجاهر بالفساد ، ومما هو شائع وذائع مـن مراءى الزنى والسكر وكل ما تقذى العين وتأبى الفؤاد ، ستكومة اهلها بشكيمة الدين ولجام العفة ومكـارم الأخلاق والحيـاء ، عـن التلفظ بـالفاظ الفحش فضلا عن التجاهر بـه فى الخلاء والملاء ، الى ان قضى اللـه بهتك سترها ، فافضت الى مـا هو مشاهد من أمرها ، بعوامل قاطعة لأزمة الدين ، والحسنة لاطة فيه بالقذف والتقبيح والتشيين الى ان انقلب ظهر المجن ، وصار اعقل الناس من كان فى حضرة المكـر أجن ، وسدت أبـواب الارزاق ، وضاق بالخلق النطاق ، محنة دخلت على المسلمين من اهمالهم وصيـة سيد المرسلين (من حسـن اسلام المرء تركه مـالا يعنيه) فعوضا عـن العمل بهـا اشتغل كـل فرد الا القليل بمـا لا ينفعـه ولا يغنيه ... الخ .

وكـان للشيخ اصدقـاء واحبـاء كثيـرون منتشرون فى انحـاء البلاد ، وكـانت تجرى بينهم وبينهمكاتبات فى مواضيع شتى ففيهـا الرسـائل الادبيـة وفيها الرسائـل العلمية وفيها الرسائـل الودية وفيها غير ذلك ، واليك نموذج منها نستكمل بهمعرفتنـا بأسلوب الشيخ فى انشائـه لرسائلـه ومخاطباته ولما فيها من الفوائد العلمية أيضا .

ففى سنة ١٣٢٢ هـ أيى بعد ان كـان قد زار الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده مدينة الجزائـر وغادرها باحد عشر شهرا بالضبط اتصل شيخنـا برسالة من استاذه وصديقه الشيخ على بـن عبد الرحمن مفتى وهران ملتمسا منه ان يكشف له عن نظريته الخاصـة فى شخصية الشيخ محمد عبده ومستطلعا رأيه عن سلوكه وعلمه وأخلاقه ، فكان ذلك هو الباعث لـه على تحرير الرسالة التالية ، وهى لا تزال مخطوطة ومحفوظة بخزانة صديقنـا الاستاذ المهدى البوعبدلى . وهذه نبذة منها :

الحمد للـه وحده وصلى اللـه على سيدنـا محمد وآله وسلم

مشرفنـا الذى نعشو الى شموس انـواره ، ورياض طيبب حياتنـا الذى ننتعش بـا ستنشـاق ازهاره ، مولانا وسيدنا على بن عبد الرحمن أمدنا الله من همته العالية ما يبلغنا الى المراتب ، ويدفع عنا كل ما يلم من المتاعب والمصائب والحواجب ·

أزكى سـلام ، ينـافح الزهر فى الأكـمام ، ويكاثر قطر الغمام ، وأوفى تحيات طيبات مباركـة اخص بذلك مقامكم الأعلى زاده الله علوا ، ومـن حضرة القدس دنوا ، وقد انهالت على رحمة ونعمة بكتابكم الشريف الذى عمنى انسه ، ونفح عبيره ، وحل من نفسى محل النفس وقوى رجائى فى اللـه عما اجراه على لسانكم من مستجاب دعائكم زاده اللـه بكم خيرا ولا ردنى على عقبى ببركتكم آميـن آمين امين لا ارضى بواحدة ·

ومما تضمنه كتـابكم الرفيع استبداء رايـى فيما أعلم من فضيلة العلامـة الذى شـاع ذكـره واشتهر أمره ، وانى عملا بالواجب على كل متدين من الذ بعن أهل الله وان لم يكن العلماء أوليـاء اللـه فليس للـه ولى أصدع بما اصعت عليه مـن خصائص الرجـل فى هذا الزمـان الشبيه بزمـان الفترة فـأقول : هذا الرجـل الجليل رجـل حنكته تجارب الزمان ، واستقصى احوال الأمم حتى ميز منها ما زان وما شـان ، وتطلع مـن الفنون على اختلاف أنواعها ، ومواضيعها وأعمل فكره أعمق تفكر وتدبر فى الحبل المتين والقرآن المبيـن فأدرك قوله عز وجل لنبيه الكريم وما أرسلناك الا رحمـة للعالمين ، فهو يرى أن كـل خير صدر أو يصدر فى الوجود انما هو لمحة مـن شعاعه ، وبركة ناشئة من اتباعه ، فما سعد من سعد من الامم الا باتباع سننـه ، والاهتداء بأنـواره ، وقـد أفصح بذلك فى مقالة له طويلة يتأسف فيهـا على الاسلام مـن

تركهم العمل فيما انـزل عليهم من الامر بالتعاون والتناصر واتخاذهم بـدل ذلك التخاذل والتقاطع والكذب والخداع الى انْ صاروا حجة لغيرهم على دينهم وفتنة للذين كفروا ، وتأخروا وتقدم غيرهم بما كانوا يتقدمون به فى الازمنة السالفة ···

الى أن يقـــول :

ولقد شاهدت منـه ـ أى من الشيخ عبده ـ فعلا كما سمعت منه قولا ان يفر من الاختلاف فراره من الاسد ، ومن عجيب امره انه ما خالفه مخالف فى مجلسه الا وتمكن من القاء القبض عليه بجند من جنود الحق حتى يوقفه الى جنبيه ، وكـل ذلك بكـلام لا يخالطه اللغط وعقـل لا يستفزه الطيش وخلق لايأتى على وسعه ضيق بمقدمات ينتزعها من وجدان مخاطبيه حتى يضطر الى الاقرار والاعتراف بنفسه من نفسه ، ولعها وراثة مـن شيخه جمـال الدين الافغانى الذى تظافرت الروايات عنـه انـه ما خصم احدا الا وخصمه ···

وهكذا أطـال الشيخ عبد الحليم فى ابـداء رأيه النقدى الصحيح حول ما عرفه وخبره بنفسه عن عبده يوم ان اجتمعا فى الجزائر معترفا بفضل الامام على الاسلام والمسلمين وما لـه من المزايـا العديدة على الشعوب الاسلاميـة فى بعثهـا نحو التقدم والرقى والمجد ·

ويظهر أن من تكاثر أعمال الشيخ الثقافيـة الثقليـة فى ميدان التدريس والاقراء شغلتـه عـن العمل فى مجال التاليف والتصنيف فلم يؤثر عنـه كبير أمر من حيث الانتاج ووضع الكتب والاسفار اذ ليس يعلم مـن مؤلفاته المطبوعة سوى رسالـة وضعها فى أحكام الربارد بها على من يقول باباحة

اتخاذ القليل منــه وعنوانهــا : «اهتزاز الاطواد والربى من مسالة تحليل الربا» اذ يقول فى مقدمتها كنت طالعت فى بعض الجرائد ـ من غير ان يذكر اسم الجريدة ـ والامر لله ان بعض من يشار اليه بالبنان فى العلم من غير ان يذكر اسم المشار اليه احل القليل من الربا وحرم الكثير منه محتجا بقول اللــه تعالى وتنزه عما يقول الظالمون علــوا كبيرا يــا ايهــا الذيــن امنوا لا تــاكلوا الربا أضعافــا مضاعفــة ٠٠٠ » وهى رسالــة غزيرة المــادة فى موضوعها استوعب فيها المؤلف أصول هذا الباب واحاط بفروعه وجــاء فيها باستنتاجات وأحكــام فقهية مركزة صحيحة ولقد دعا فيها علماء الاسلام قاطبــة الى تحمل مسؤوليتهم امــام هذا الموضوع الهام موجها رسالته هذه الى الاعــلام منهم حيث كتب تحت العنوان مــا يلى : « تعرض على أنظــار العلماء الاعلام وتطلب تأديــة ما فى رقــابهم مــن بيان الاحكام » وهى مطبوعة بالجزائــر ١٣٢٩ هـ ١٩١١ م ، أو مــا قدمه وألقاه بنفسه فى المــؤتمر الرابــع عشر للمستشرقين المنعقد هنــا بالجــزائر سنة ١٩٠٥م مما حرره من بحث فيما يتعلق ويتصل بحضارة الاسلام وفلسفته ، ولا يــزال هذا البحث مجهولا لدينا الى اليوم فلا نعلم عنه شيئــا ! ٠٠٠ كما انه اشتهر عند بعض تلامذته بان لــه تأليفا فى العقائد موجودا عندهم ناقش فيه الشبه التى يأتى بها الملحدون فردها عليهم ولم نطلع عليه٠ ونشرت لــه بجريدة الاقدام الجزائرية التى كــان يديرهــا الامير خــالد عدة مقالات افتتاحية فى السياســة والاجتماع والاخلاق فيها ما كان يمضيه بــاسمه الصريح وفيها ما كان ينشر بدون امضاء مراعاة لمقتضى الحال وكذلك فعل بمقالاتــه فى الجــرائد التونسية كجريدتى المشير والوزير وغيرهما ٠

وجئنــا يــوما الى الدرس ـ بالمسجد ـ وبيد أحدنــا مجموع كــان فيما يحتوى عليه نبذة مــن الاحاديث القضاعية ، فاستلم الشيخ ذلك المجموع مــن يــد صاحبــه وبعد أن تصفحــه ووقف علــى الاحاديث التى فيــه قــال لنــا استعــدوا بتحضير ادوات الكتابة مــع القرطاس فسنشرع فى شــرح هذه الاحاديث ان شاء الله ، وفعلا جئناه من الغد مستعدين لكتابة مــا يلقيه علينا حــول شرح هذه الاحاديث النبوية فاخذ رحمة الله عليه يستملى منا نص الحديث حسب ترتيبه فى الكتاب ثم يأخذ هــو فى الشرح بطريقة الاملاء وبدون أن يحمل فى يده شيئا من الكتب والأوراق وأخذنا نحن فى كتابة ما يمليه علينا على أن يكون ذلك لــه تأليفا مستقلا ، وهكذا استمر الشيخ على متابعة املائه فى عــدة مجالس ، ثم كانت هنالك عوارض قطعت عنــا ذلك المعين العذب الزلال ولم يتم الكتاب ، أو مــا هنالك مــن قصائد شتى فى أغراض ومواضيع مختلفــة وهى لا تبلغ أن تكون ديوانا ٠

ولقد كان ان نشرت له رسالة صغيرة الحجم بعنوان : « الكنــز المدفون والسر المكنون » طبعت بالجزائر على نفقة بعض الافاضل نحا الشيخ فيها منحى صوفيا خاصا ، فلم يرق ذلك لبعض رجــال الطرق ولا سيما منهم التجانيــة فحذروا فى كتبهم ومجالسهم من مطالعتها وسعوا فى جمع ما وصلت اليه ايديهم من نسخ هذه الرسالة فأعدموها حرقا، ولا أدرى لماذا كان ذلك ؟ ٠٠٠

وهنــاك طورثان عاشــه الشيخ فى أواخــر حياته يختلف كثيرا عن الفترة الاولى التى عاشها والمدة التى قضاها فى صدر ايامه واعوامه الخالية فاصبح فى هذه المرة عديم المبالات بنفسه فلا يلتفت الى مظهره ولا الى هيئته فى ملبسه وسمته وهندامه

وحتى فى سلوكه وحياته اليومية العادية العامة كل ذلك تغير منه الى شبه احوال من يسمونهم بالمجاذيب ، فاتخذ لمركبه حصانا وتمنطق سيفا وأخذ يتجول ما بين أرباض العاصمة واحيائها ، وتارة يسافر الى ما جاورها من البلاد القريبة منها مثل البليدة والقليعة ولمدية وشرشال ولا يبالى اين ادركه الليل أو طلعت عليه شمس الغد ، وحيثما حل كان ملحوظ المنزلة عند الناس وذلك لما يشعرون به نحوه من العطف والحنان وما يكنون له فى صدورهم من التقدير والتعظيم والتبجيل ·

وكثيرا ما كان ينتزع سيفه فيشهره فى وجوه رجال السلطة الحاكمة او عندما يتأثرو يشتد انفعاله مما يراه من تخلف قومه وتقدم عدوه على حساب وطنه واتخذ بعض الناس ذلك منه دعوة الى الفروسية ورمزا لحمل السلاح فى وجه الغاصبين ، وطالما صرح وهو فى هذه الحال بعبارات وتصريحات جارحة فى جانب المعمر ، رد بعضهم ذلك الى أسباب نفسانية والى انحراف وقع فى مزاج الشيخ حيث اضحى عصبى المزاج متاثرا بما يحمله فى صدره وينطوى عليه كشحه من الكآبة والبغضاء فى جانب الاستعمار بالاضافة الى ما هنالك من اسباب وراثية أخرى ، وهو الى ذلك لا يفتأ عن القاء دروسه فى المدرسة وفى المسجد ويفتى ويجيب سائليه عن عويص المسائل فى جميع ما تخصص له من فنون العلم والمعرفة بدون أن يخرج عن الموضوع ، واذكر يوما اننى كنت مرافقا لصديقى الاستاذ حمزة بوكوشة وكان اذاك امتع الله به حديث عهد برجوعه من جامع الزيتونة بعد أن حصل على رتبة التطويع العلمية ، فلمحنا الشيخ جالسا بجانب متجر على قارعة الطريق وهو فى طوره الثانى من حياته ، فقلت لصديقى تعال نتقدم نحو الشيخ لنسلم عليه ونختبر حاله ، واتفقنا على أن نطرح عليه سؤالا علميا ، وقلت لصديقى بما انك حديث عهد بمجالس ودروس جامع الزيتونة وانك خبير بما يجرى من المناقشة بين الاساتذة والطلبة فى الفنون المدروسة هناك فتفضل انت بالقاء السؤال وبعد المفاوضة فى تعيين موضوع السؤال اتفقنا على أن يكون فى البلاغة ، فكان الامر كذلك ، وكان موضوع السؤال هو باب الفصل والوصل من علم المعانى وبعد أن اطرق الشيخ هنيئه تدفق كالسيل الجارف يحلل الموضوع تحليلا شافيا آتيا بالشواهد والامثلة من القرآن الكريم ومن كلام العرب فاستفدنا من كلامه فوائد جليلة وحقائق دقيقة وقبلنا يده وانصرفنا ·

وللشيخ اخبار واثار عجيبة يرويها عنه العامة هنا وهناك وهى غامضة وخارقة للعادة فى بعض الاحيان وعدها بعضهم من الكرامات ·

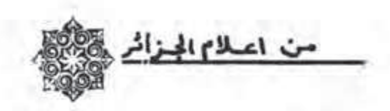
واستمر الشيخ على هذا النمط من حياته فترة من الزمن ثم استقرت حاله وسكن نوعا ما ثم انتابه الامر مرة ثانية بصفة أهون من حالته الاولى ، وهكذا الى أن حل شهر رمضان لسنة ١٣٥١ هـ ·

فانه لما حل هذا الشهر اجتمع جيران الشيخ وهم سكان ضاحية (الحامة) بيلكور من العاصمة وقرروا فيما بينهم التوجه الى الشيخ ليعقد لهم مجالس دينية فى ليالى رمضان ووقع اتفاقهم على أن يكون مجلس الدرس بجامع زاوية الشيخ محمد بن عبد الرحمن الازهرى ـ بالقرب من سكنى الشيخ ـ وعلى أن يكون زمن الدرس فيما بين العشائين وعرضوا عليه ذلك فوافقهم عليه ، وشرع بالفعل فى تدريس رسالة ابن ابى زيد

القيروانى من أول رمضان وكـان يأتى للدرس ولا يحمل معه سوى المتن فقط ، فالتف حوله الجمهور وأقبل عليـه النـاس يتعلمون ويتبركون وسايرهم الشيخ على هذا المنهاج اياما أربعة ، وفى الليلـة الخامسـة مـن الشهر المبـارك حضر الى المجلس كعادتـه وشرع فى تقريـر موضوع الدرس ، وفى الاثناء شعر بفتور عام فى جسمه وعـلاه شحوب فصمت هنيهـة ، فلمـا رآه الحاضرون علـى ذلك فـزعوا اليـه وأخذوا بيده واسعفه بعضهم فمشى معه ورافقه الى منزله الذى هـو قريب من مكـان الدرس ، وما ان رجع القوم من المنزل حتى ودعهم وودع الدنيا ملبيا دعوة مولاه : « يا ايتها النفس المطمئنة ارجعى الى ربـك راضية مرضية فادخلى فى عبـادى وادخلـى جنتى » • فختمت انفـاسـه الزكية ليلة الخميس ٥ رمضان = ١٩٣٣/١/٢ م ومضى منصرفا الى جوار ربه مستقبلا وجه البقاء فشيعت جنازته من الغد فى جم غفير ودفن بتربـة الشيخ عبـد الرحمن الثعالبى رحم اللـه الجميع ورثاه على قبـره بعض شيوخ المدرسـة والتلاميذ وبعض السياسيين من الحكام مترحمين آسفين••

تلكم هى الخطوط العريضة من حياة شيخنا عبد الحليم بن سماية قدس الله روحه •





رائد الدعوة الى التضامن الاسلامي
عمر بن قدور الجزائري

د· محمد ناصر
معهد اللغة والادب العربي
جامعة الجزائر

تمهيد :

ان الاحساس النابض الذى كان يملأ جوانح المسلمين الجزائريين ، فيطبع تفكيرهم ، وحياتهم بطابعه الخاص ، هو شعورهم الفياض بانهم ينتمون الى العالم الاسلامى الكبير أولا وقبل كل شىء ·

وان المتتبع للثورات الجزائرية بداية من ثورة الامير عبد القادر بعد الاحتلال الفرنسى مباشرة ونهاية بالثورة التحريرية فى نوفمبر 1954 لا يجدها فى بعض معانيها الا امتدادا للجهاد الاسلامى ضد الغزاة الصليبيين ·

ذلك لان الجزائريين كانوا لا يرون فى الحدود التى خطها الاستعمار الفرنسى ، ليغلهم بداخلها ، الا حدودا فاصلة بين المسيحية والاسلام ، ومن هنا كانت الفكرة التى

تعايش الوطنيين ، وهم يدافعون عن أرضهم عقيدة راسخة بانهم يدافعون أيضا عن حمى الاسلام ، وان انتصارهم على عدوهم الدخيل انتصار للامة الاسلامية جمعاء ، ولولا ذلك الاحساس الشريف لما تتابع الشهداء الى ميدان الشرف أفواجا ... وان المجاهد منهم لتخرج كلمة « الله أكبر » من فمه مدوية لتعانق الرصاصة المنطلقة من فوهة البندقية ·

ولقد ادرك بعض المؤرخين الفرنسيين أنفسهم ، بان المسلمين الجزائريين كانوا يحاربون فرنسا ، دائما ، بوحي من هذا الشعور الديني ، وان عداوتهم المستحكمة للاستعمار الفرنسي يقف وراءها انتماؤهم الى الوطن الاسلامي العريض (1) ·

ونحن عندما ندرس أفكار الذين كتبوا فى الصحافة من المسلمين الجزائريين نجد عندهم هذا الشعور المتوقد وهذا الاعتقاد الراسخ بالانتماء الى الوطن الاسلامي ، ونراهم ينظرون الى كل الاحداث التى كان يمر بها هذا الوطن فى محنه القاسية من هذه الزاوية ، وذلك الاعتقاد ، وهذه النظرة يدلان دلالة قاطعة على ان ارتباطهم باخوانهم المسلمين ، وتعلقهم بالتضامن معهم لم يستبدل عندهم قط بأي شعور قومي آخر ، وسيستمر هذا الميل قويا عندهم حتى سنة 1930 على الاقل ·

وعلى الرغم من الحصار الحديدى الذى ضربه الاستعمار الفرنسي حول الجزائريين بغية عزلهم عن بقية العالم الاسلامى فانه لم يفلح قط فى هذه المحاولة ، بل لم يزد بذلك الضغط احساساتهم بالانتماء الى العالم الاسلامى الا تعلقا وشوقا ، واذا بالافئدة التى حاول الصليبيون تحويلها الى العالم الغربى ، تولى وجهها شطر المشرق العربى ، وتتفتح لكل نفحة أمل تهب عليها من اخوانها المسلمين : من الجريدة أو المجلة ، حتى الخليفة أو الزعيم · فوجد ذلك الكبت الذى مارسته السلطات الاستعمارية منذ السنوات الاولى للاحتلال ضد الاهالى ، وجد له متنفسا فى الشعر الشعبى ، والهجرة الى المشرق ، والمشاركة فى الجمعيات السرية الاسلامية (2) ، كما فعل الامير عبد القادر اذ كان عضوا فى جمعية العروة الوثقى التى انشأها جمال الدين الافغانى بالهند عام (1882 م) (3) ·

---

(1) انظر أبو القاسم سعد الله الحركة الوطنية ص 182
(2) أنظر الحركة الوطنية ص 397
(3) أنور الجندى الفكر والثقافة المعاصرة فى شمال افريقيا ص 39

ثم ذلك التعاطف الشديد الذى كـان يحس به المصلحون الجزائريون مـع مجلـة « المنار » العبدوية حتى اعتبرها محمد بن مصطفى بن خوجة وعبد الحليم بن سماية بانها « مدد الحياة » للمسلمين الجزائريين (4) ٠

ولعل الاحداث السياسية التى يمكن أن نعتبرها سببا رئيسيا فى بعث هذه المشاعر من المناجاة الهامسة الى الحديث الجاهر ومن الخاطرة الفكرية الى المقال الصحفى ، هي تلك الحروب التى اجتاحت أجزاء من العالم الاسلامى عندما كانت أرض البلقـان مسرحا للصراع العنيف بين الدولة العلية ، والدول المسيحية وكانت البـلاد الليبيـة أتونا مستعرا بين المجاهدين الليبيين والغزاة الايطاليين ، ثم دخول تركيا الحرب ضد الحلفاء فى اكتوبر مـن سنة (1914) ٠٠، فـان هذه الحوادث الكبرى قد اشعلت فى القلوب المرتبطة بدولة الخلافة الاسلامية حماسا متقدا لـم تنجـح فرنسا فى تحويله لصالحها رغم ما استعملت من وسائل الترهيب ، وأساليب الدعاية مستعينة فى ذلك ببعض الشباب المتفرنس ، ورجال الدين الرسميين ، وشيوخ الزوايا المنحرفة ٠

ثم توالت أحداث أخرى هزت العالم العربى هزا عنيفا ، وكانت لا ترى من وجهـة نظر أغلبية الجزائريين الا بعين مسلمة ، وذلك مثل وقوع أجزاء من المشرق العـربى تحت قبْضة الاستعمار الانجليزى ، أو الفرنسى ، ابان الحرب الكبرى وصدور وعـد « بلفـور » المشؤوم فى شـأن فلسطين الذى كان فى تقديرهم اتفـاقا بـين اليهودية والمسيحية ضد الاسـلام .

وتتمخض الحرب العالمية الاولى عن أحداث جسام وتتغير معها خريطة العـالم العربى الاسلامى تغـيرا كبيرا وتترك فى نفـوس المسلمين مشرقا ومغربا ، طعنـات نجلاء (5) ، ولكن هذا الجرح ازداد عمقا ونزفت منه الدماء نزيفا مروعا يوم تقوض عرش الخلافة تحت معاول الكماليين (1924 م) ، ويعصر نفوسهم هذا الفراغ المهـول الذى حفره « اتاتورك » وانصاره فى مسيرة الامة الاسلامية فى وقت كانت فيه أحوج ما تكون الى راية تجمعها ، وتوحد خطاها ، غير ان مخاوف التشتت والضياع مـا لبثت ان انقلبت عند الجزائريين بصفة خاصة الى دعوة ملحـة الى التوادد والاخاء حول « القرآن الكريم » وايمان أشد بوجوب التـلاحم حـول مقدسات الاسلام (6) ٠

(4) أنظر رشيد رضا تاريخ الاستاذ الامام ج 1 ، ص 871

(5) أنظر عبد الحميد بن باديس ، الشهاب ، ج 2 ، م 8 ، ص 81 (فيفرى 1938)

(6) أنظر ، عبد الحميد بن باديس ، الفاجعة الكبرى ، النجاح ع 152 (1924/3/20)

وتطبع هذه الاحداث جميعها أفكار كتاب المقالة الصحفية الجزائرية بطابعها الخاص ٠ وتترك فى أساليبهم الكتابية صفات فنية ملحوظة ، ولكن الكاتب الذى اخلص لفكرة التضامن الاسلامى الاخلاص كله ، وسخر لها صحافته وقلمه منذ وقت مبكر جدا هو عمر بن قدور الجزائرى ٠٠

عمر بن قدور الجزائرى والدعوة الى التضامن الاسلامى :

ان الحديث عن « القومية الاسلامية » أو الدعوة الى التضامن الاسلامى ٠٠

« أو الجامعة » الاسلامية ، لم يظهر على صفحات الجرائد العربية الجزائرية ، الا مع ظهور الصحافة الوطنية ، وكان ذلك على يد كاتب بارز هو « عمر بن قدور الجزائرى » صاحب « الفاروق » ولم يكن منتظرا بطبيعة الحال أن تعنى صحافة استعمارية ، أو ورقات كان يشرف عليها فرنسيون أو مستشرقون بهذا الموضوع الحيوى الذى يخالف مبادئها ٠ كما ان الكتابة حول هذا الموضوع من طرف الجزائريين قد يكون من قبيل المجازفة ، فان الدعوة الى مثل هذه الروابط الروحية فى مفهوم الاستعمار الفرنسى تحريض على التمرد والانفصال وتطاول على نفوذ فرنسا وهيمنتها على الشعب الجزائرى، وان المآل الذى انتهى اليه عمر بن قدور منفيا فى دار الغربة دليل ناطق على تخوفات المستعمرين من هذه الافكار (IO) ، ولم يكن موقف السلطات الفرنسية بدعا فى هذا التصلب ، فان بعض المفكرين الاوروبيين نظروا الى الجامعة الاسلامية على أنها نذير بحرب صليبية ، وغلا بعض هؤلاء فى عقيدتهم الدينية أو السياسية ، ولم يجدوا حلا لهذه القضية الا القضاء على المسلمين فى جميع أنحاء العالم وابادتهم من هذه الحياة ونبش قبر الرسول (ص) بالمدينة ونقل رفاته الى متحف « اللوفر » بفرنسا (II) ٠

والحق ان هذا الكاتب كان الجزائرى الاول الذى تخطى الصفوف فى جرأة صادقة ، وصدع بمعتقده دون خوف أو وجل ، واخلص للدعوة الى القومية الاسلامية الاخلاص كله ، وتحمل عبأها وحده وكرس لها مهجة نفسه طوال عمر

(IO) نشر فصلا فى جريدة الفاروق يدعو فيه الى مناصرة تركيا ابان الحرب الاولى فنفته السلطات الفرنسية الى الاغواط

(II) أنظر : رشيد رضا ، تاريخ الاستاذ الامام ج I ، ص 8OI

« الفاروق » (1913 ـ 1915 م) وقبـل ذلك بمقالاته التى كان يبعـث بها الى جـريدة الحضارة فى الآستانة ، واللواء ، والمؤيد بالقاهرة (12) ٠

ولم تكن المقالات الكثيرة الحارة التى اتحف بها الصحف العربية مشرقا ومغربا ابتداء من الآستانة ، ومرورا بالقاهرة ، وانتهاء بالمغرب الاقصى (13) أو تلـك التى شغلت الحيز الاكبر من جريدته المشار اليها سابقا ، هي كل ما قدمه للاسلام والمسلمين بل تخطى باب النظريات الى الميـدان العملى يدفعـه ايمـان قـوى بوجوب التضامن والتعارف بين المسلمين ، فقدم للامة الاسلامية « مشروعا عظيما » ليكون نواة للتعارف بين أبنائها عندما راح يسائلهم : « ٠٠٠ هل فى الامكان تاليف جماعة من مفكرى مسلمى الجزائر ، وتونس ، والمغرب الاقصى ، تدعى ، « جماعة التعارف الاسلامى » ؟

« ٠٠٠ لقد شعرنا باحساس شريف يسرى بين المفكرين فى هذه الامة الاسلامية فى غضون ما نفثته صدورهم ولذلك رأينا ان نهذب هذا الاحساس ونزيده طموحا ٠٠٠ ينصب هذا المشروع العظيم امـام اعـين اخواننا المفكرين ليجعلوه قبلة آمالهم ٠٠٠ فليبذلوا كل نفيس لاعلاء وتنمية التعارف بينهم ٠٠٠ واننا لننتظر جواب كل فـرد منهم على السؤال المرسوم اعلاه ليتسنى لنا ان نسجله فى دفتر التعارف ٠٠٠ وحصر كافة الانصار فى مشاهدة الائتلاف والاتحاد حيث يسهل العمل على الاثـر واللـه ولي التوفيق سبحانه » (14) ٠

ان الفكرة العامة التى تبقى حية فى اذهاننا بعد دراستنا لمقالات عمر بن قدور ، هو ذلك الايمان الراسخ بوجوب العمل للتضامن الاسلامى والدعوة التى لا تعـرف الكلل « للقومية الاسلامية » كعلاج فعال لكـل ما أصاب المسلمين من ادواء الضعف ، والتفرقة ، والهزيمة ٠ والكفـر بكـل العصبيات الجنسية ، والتمرد على الاقليميات الضيقـة جميعهـا ٠

أما الفكرة فانه لم يعرضها عرضا منسقا يتسم بالترتيب المنطقى ، لانه كان ينتقل من فكرة الى أخرى يدفعه الى ذلك استطراد معروف لدى بعض الكتاب القدامى ، ولكنه عوضنا عن هذا الترتيب بدراسة شاملة للموضوع فلم يترك جزئية من الجزئيات فى

(12) أنظر مجلة الثقافة التى تصدرها وزارة الاعلام الجزائرية ع 1 و 4 (1971)
(13) انظر صالح خرفى ، شعراء من الجزائر ، القاهرة معهد الدراسات العـربية (1969) ص 37 ـ 55
(14) الفاروق ، ع 66 (1914/6/22)

القضية الا واعطاها حقها من البحث والاستقصاء : فقد شخص حال المسلمين المتدهورة ، وبين أسباب هذا التدهور ، ثم اقترح لها الحلول المناسبة · فكيف رأى ابن قدور حال المسلمين آنئذ حتى استوجبت منه هذا الاعتناء الشديد ؟ « ··· ان كل مسلم فى هذا الوقت ليس بمسلم حقيقة ، بل هو تركى ، أو عربى أو بربرى بحسب العناصر ، أو مغربى أو جزائرى أو تونسى أو سورى أو مصرى ··· بحسب الاوطان وذلك التنافر أحدثه انحلال الرابطة الاسلامية التى كانت تربط كل مسلم بأخيه ، وان كان أحدهما باقصى الشرق والآخر بأقصى الغرب ··· وتلكم أمة الاسلام التى ما زالت تسمى بالامة الحنيفية وواسطة عقد الامم ، أصبحت تابعة بمركزها الحالى ، وراضية بان تنسحب عنه الى المراكز الاخرى التى تبصرها من تحتها فى الدرك الاسفل، وما ذلك الا لان الغرور أوحى اليها كما أوحى الى الامة الاسرائيلية من قبلها بانها أفضل الامم ، وانشؤها فوقف بها العجب عند هذا الموقف ، وانتشت من خمرة القناعة فبقيت متقاعسة متخاذلة ، لا يروق لها ما يروق للعاملين ، وها هي ذى قد اشرف سلطانها على الزوال الى الابد كما باد سلطان الاسرائيليين من قبل · أفبهذا الحديث هم يكذبون ؟ (15) ·· تلك هي حال المسلمين كما شخصها من خلال ما أصاب دولة الخلافة (تركيا) تفرق فى أمرهم ، وتضارب فى أهوائهم ، واختلاف فى مذاهبهم · وفوق كل هذا وذاك غرور تحكم فى نفوسهم فانصرفوا عن الاعتراف بواقعهم المرير · وقد جمع الكاتب حال المسلمين فى كلمات جعلها عنوانا لاحدى مقالاته : ·· قصور ، ثم فتور ، فريح الدبور ، وسكنى القبور ، فهل من نشور (16) ؟

والكاتب لا يكتفى باستعراض حال المريض ، ثم ينفض يديه منه يائسا تاركا اياه نهبا للجراثيم الفتاكة والآلام النفسية ، بل انه ليحاول جاهدا ان يشخص أسباب المرض ويصفها بكل دقة فيكون بذلك الزعيم الاصلاحى الذى لا يطوح به اليأس مهما تكن الازمة مستحكمة « ··· ان هذا الداء هو عبارة عن نسيان الناس لاهمية نفوسهم من شدة ما أحاط بهم من هول الجهل ، وتملك الاجنبى ·· » (17) ·

والجهل ، وتسلط الاجنبى · فى نظر ابن قدور هما سبب ما أصاب الامة الاسلامية من ويلات · فقد نشأ عنهما فريقان مزقا الامة بينهما تمزيقا ، طائفة جامدة متحجرة

(15) عمر بن قدور ، دان النهوض ولم يدن .. الفاروق ، ع 15 (1913/6/6)
(16) أنظر م ، س : ع 14 و 15 و 16
(17) عمر بن قدور : معضلات اليوم والغد م ، ع 5 (1913/3/28)

وطائفة أخرى منحلة مستهترة ، فقد ترعرع عن الجهل طائفة العلماء الجامدين الذين يتعصبون لمستحدثات القرون الوسطى ، يعتبرونها هي الاسلام ولا اسلام سواها فقيدوا الفكر الاسلامى عن الانطلاق ، وغلوا المسلمين فى سلاسل الخرافات والبدع ، والقوا بهم على اعتاب الاولياء جثثا لاحراك بها يقعدهم عن العمل عقيدة التوكل والتسليم بالقضاء والقدر ··· كما نشأ عن تسلط الاجنبى طائفة من الشباب المتفرنج المؤمن بالحضارة الاوروبية اغشى الاستعمار ابصارهم ببريق المدنية الزائف فأضلهم عن طريق الدين وفصلهم عن « القومية الاسلامية » « ··· وتلك سطوة المدنية المتغلبة تفعل فى الظواهر والبواطن فعلها فتصير المغلوب دائما يتبع الغالب فى عوائده واخلاقه (18)».

وهو يصف الدواء الذى يعتقد انه ناجع لا محالة ، فلا يكتفى بتبيانه فقط ولكنه يلح على تحبيب الدواء الى المسلمين الحاحا بما يضرب لهم من امثلة واقعية وشواهد تاريخية محسوسة ·

« ··· ان المسلمين لا يهمهم فى هذا العصر الا اصلاح حالتهم الروحية ، وتنظيم حياتهم الاخلاقية ·

وهذه الغاية تهم المسلمين جميعا لانهم اذا تمكنوا منها تشرق عليهم شمس القومية الاسلامية التى جاء بها المرسلون ، وبشر بها النبيئون ، وهي لا تتوقف الا على اصلاحات اعتقادية ، وعملية تبرز بعدها الى عالم الظهور ··· ومن ثم يستأنف التاريخ فى تدوين دور جديد للقومية الاسلامية (19) ·

ولكن ما هو مفهوم « القومية الاسلامية » عند عمر بن قدور ، وما هو تصوره لها ؟

« ··· ان الصورة الاصلية للقومية الاسلامية العامة صورة يدركها المسلم بداهة من نفس نظام الاسلام العام وفى امكان الرجل التقى ان يطلع عليها من نفس خواطر نفسه ، وهو اجس ضميره ·

··· وتلك الصورة تنحصر فى قضيتين أو ثلاث · الاولى الاخلاص لفالق الحب والنوى فى السر والعلانية ، والثانية الاستقامة نحو هذا المجتمع الانسانى ، ولنا ان نزيد الثالثة وهي اعتبار ان المسلمين اخوة قبل كل شىء (20) ·

(18) أنظر م ، س ، ع 6 (1913/4/4)
(19) عمر بن قدور الجزائرى ، معضلات اليوم والغد ، الفاروق ع 4 (1913/3/14)
(20) م ، س ، ع 4 (1913/3/21)

« ... وتلك الرابطة هي قوة روحية اذا تمكنت من ضمير المرء تجعله يحن الـى أخيه حنوا لا يرى به عند أخيه عيبا ينكره عليه أو شذوذا يخذله بسببه ، رابطة حث عليها الاسلام قبل ان يحث على الصلاة والصيام ، فاصبح بها أهلوها المعتنون بتنميتها متضافرين ، وقلوبهم صخور مرصوصة الى بعضها ، يتألف منها سور ضخم لا تهـزه زوابع الشقاق ولا تمسه أمواج التخاذل (21) » .

من هذه الفقرات نستطيع ان نفهم بان الكاتب يريد ان تكون « القومية الاسلامية » التقاء لجميع المسلمين فى المشرق والمغرب يجعل منهم اخوة قبل كـل شىء ، غاضين الطرف عن عيوب بعضهم بعضا ، حفاضا على ذلك الود ، ناكرين العصبيات الاقليمية الضيقة فى سبيل الرابطة الدينية ، متجاوزين الاختلافات المذهبية اكتفاء بالكتاب والسنة.

وهذا التضامن الذى يجعل من المسلمين بنيانا مرصوصا على أساس من التقـوى هو فى نفسه غاية يرمى اليها عمر بن قدور كما صرح بذلك ، ولكن الذى نلمحه مـــن خلال الاسطر ان وراء هذه الغاية غاية أخرى أجل واعظم اشار اليها فى قـوله : « ان القومية الاسلامية التى كان أصلها ناميا فى أفئدة عرب الحجاز حتى سادوا العالم فى ظـرف ثمانين عاما هـي القـومية التى فطـر اللـه الناس عليها ولكن اكثـر النـاس لا يعلمـون ... » (22) .

ولعلها اشارة من الكاتب لما أصاب الدولة التركية من ضعف وهوان . وحث غـير مباشر للمسلمين ليعملوا يدا واحدة لانقاذ دولة الخلافة ، فقد عرف عند « ابن قدور » نـزعة نحو الاتراك لا تقاوم (23) .

والحق ان الرجل كان نسيج وحده من بين الكتاب الجزائريين حرارة ايمان بهذه المبادىء الاسلامية كشفت عنده عن طموح فذ ، وتمرد عنيف على كل ما يقف أمام هذه الوحدة الشاملة ، وقد جسمت أمام اعيننا داعية اسلاميا يتصف بكل صفات الدعـاة من حماس فى غير تهور ، وحذر فى غير جبن .

---

(21) دان النهوض ولم يدن .. م ، س ، ع 15 (1913/6/3)
(22) عمر بن قدور الجزائرى ، معضلات اليوم والغد ، الفاروق ع 5 (1913/3/28)
(23) أنظر محمد ناصر ، المقالة الصحفية الجزائرية ، جـامعة الجزائر (مخطوط) ص 374

فهو لم يندفع مع آماله العريضة متجاهلا واقعه المرير ، ولـم يطـغ عليه الحماس فيضرب صفحا عن العراقيل المتوقعة ، ولكنه حذر اخوانه المسلمين من تلك الصعوبات الشاقة التى ستواجه هذه الدعوة لو قدر لها ان تخرج من حيز النظريات الفردية الـى مجـال العمـل الجماعى ٠

« ٠٠٠ ان جمال القومية الاسلامية لا يبرز الى الوجود الا اذا أتيح له اضمحلال تلك الصور التى ذكرناها ، ولا تضمحل تلك الصور الا اذا تبين للمسلمين جهلهم بشرف فطرتهم ، وفضل أنفسهم فيسعون فى مصادرته ٠ وتلك مسألة لاشك تتشعب ان احتملت مباشرة حلهـا ، والمصلحون أنفسهم فى ذلـك يختصمون ، وان اجتهدوا يتحتـم عـن اجتهادهم الاختلاف ٠٠ وعلى فرض ان المصلحين يتحدون فان العوائد التى يحاولون محوها تقاومهم بالاختلاف العام المبثوث بين الشعوب الاسلامية (24) ٠

واذا دفعته نظرته الواقعية الى الامور ، الى التصريح ، بهذه الحواجز المتوقعة ، فانه يتمتع من ناحية أخرى بروح متفائلة ، ووجه طلق فلا ييأس من أمر المسلمين رغـم واقعهم المرير ولا تتغلب عنده الزفرة المتصعدة على الابتسامة المستبشرة ٠

« ٠٠٠ والباحث الآن عن جرثومة تلك الصورة الاصلية (للقومية الاسلامية) ٠٠٠ يعثر عليها ساكنة تحت صور مدلهمة احدثها تبدل الزمان والناس واخلاقهم ومحيطهم ، ولقد حصل لها ضير عظيم من جراء طلوع تلك الصور الحاضرة ، ولكنه ضرر غير مزمن أو مهلك ، ولذلك فليس من العسير علاجه **لان هذا الـداء هو عبارة عـن نسيان الناس لاهمية نفوسهم من شدة ما أحاط بهم من هول الجهل ، وتملك الاجنبى** (25) » ٠

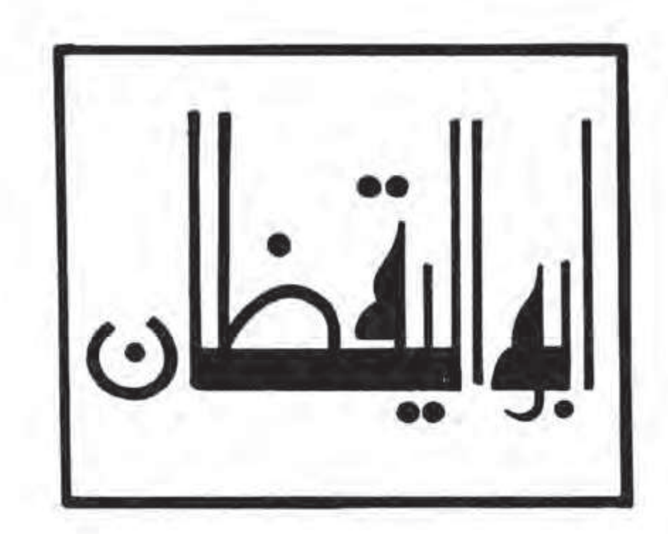
ذلك هو تصور « ابن قدور » للقومية الاسلامية وذلك هو ايمانه الحار بوجوبها ، واننا نقدر بان الكاتب كان على صلة وثيقة بكتابات المشارقة فى هذا الموضوع لاننـا نلمح بين أفكاره وأفكار بعضهم شبها دقيقا ٠ ولعله اطلع على ما كتبه مصطفى كامـل عن هذه القضية فى جريدة « اللواء » لانه كان من قرائها ٠ ولعلها كانت من آثر الجرائد عنده لاهتمـام مصطفى كامـل الشديد بالمسائل الاسلامية ، وعنايته الكبـرى بقضايا المسلمين ودعوته الملحة الى العناية بفكرة الجامعة الاسلامية ٠

(24) أنظر الفاروق ، ع 5 (1913/3/28)
(25) م ، س

وان بين الكاتبين شبها جد قريب فى فكرة التضامن الاسلامى اذ أن كليهما يؤمن بضرورة مساندة المسلمين للدولة التركية كقاعدة اسلامية تجمع قلوبهم حول رايـــة الخلافة كما يتضح لنا ذلك من فقرة لمصطفى كامل :

« فواجب المسلمين ان يلتفوا جميعا حـول رايـة الخلافة الاسلامية المقـدسة وان يعززوها بالاموال والارواح ، ففى حفظها حفـظ كرامتهم وشرفهم وفى بقـاء مجدهـا رفعتهم ورفعة العقيدة الاسلامية ذاتها » (26) ٠

(26) عبد اللطيف حمزة ، أدب المقالة الصحفية فى مصر ، ج 5 ، ص 21



أحد رواد الاصلاح في الجزائر

عبد الرزاق قسوم

« ان حرية العقل ، وحرية العقيدة ، وحرية الضمير ، هي اثمن ما يملكه البشر » .

سمو الانسان عن الالم ، في صراعه الدائب من أجل الوجود ، موهبة لا تتاح الا لذوي النفوس الكبيرة ؛ ذلك ان الكائن البشري في معاناته ، وتطلعه نحو الكمال ، ترتسم امامه علامات إستفهام عديدة وتجابهه شناخب صخور وعقبات زرعت في طريقه ، فغدت لقساوتها بمثابة الكمين الذي يتردى فيه اكثر الناس ضعفا وخوارا،ولا يتخطاها الا اولو العزم من البشر ، الذين سخروا من محن الحياة ، وعقباتها ، ومختلف عراقيلها .

ولكم خسرت الانسانية من مواهب تفتتت متلاشية امام جبروت الطبيعة ، وكم ابيدت طاقات لم تستطع الصمود امام امتحان الحياة . ولكن فئة قليلة من بني الانسان صمدت بفضل سلاحها الاقوى ، فخرجت من غربال الطبيعة الدقيق منتصرة ، وعلى جبينها إبتسامة النصر ، تتحدى قوة الحياة وتملي على بني جنسها درسا في الصمود والمقاومة واختيار الاسلحة مؤكدة

بذلك حقيقة ازلية وهي ان الانسان أقوى من كل شيء متى عرف كيف يعي انسانيته ، ومتى أحسن استغلال ما لديه من وسائل .

والامثلة على ذلك عديدة ، فما مبدأ التعويض المعروف في علم النفس الا دليلا حيا على صحة هذه النظرية . فالقدرة الالهية العليا رحيمة بالكائن البشري ، لذلك منحته هذا السلاح الذي به يعوض نقصه في ميدان ما من ميادين وجوده . وهذا الكفيف يكتسب ما يعبر عنه الفلاسفة « بالحاسة السادسة » ليستعيض بها عن محنة فقد البصر .

والمرأة الدميمة تلهث وراء المجد الذي قد يساق اليها في نبوغ او ذكاء ، فيعطي جانب النقص في الكمال الجسماني . . . وهكذا تتدرج هذه الحقيقة في التطور متنقلة من المحسوسات الى مجال المدركات البعيدة المدى ، واصدق تعبير على ذلك ، الاب الذي يحرم نعمة العلم فتسوق اليه الطبيعة الرحيمة ابنا نابغا في العلم والمعرفة كتعويض على نقصه . . . غير ان مثل التعويض هذا يبدو أكثر وضوحا لدى العظماء من كبار النفوس الذين اذا اصابتهم مصيبة ضاعفت من نبوغهم ، وإخصبت موهبتهم ، وفتحت أكثر فأكثر مداركهم وعقولهم . . . وانطلاقا من هذه الحقيقة خرج بعض النقاد ذات يوم على الناس بفكرة في منتهى الغرابة ، وهي تمني الشقاء لذوي المواهب الفكرية ، حتى يكون ذلك الشقاء مدعاة لخصوبة الانتاج ، فتستفيد الانسانية من ذلك – وكأن الانسانية – طبقا لوجهة نظر النقاد هؤلاء – ستتضاعف استفادتها متى وجد الحافز المتمثل في الالم لدى المفكرين والادباء . ومن هذه الفئة القليلة المتمردة على هذه المحن ، يبرز انسان جزائري ، تعددت جوانب العظمة في شخصيته ذلك هو الشاعر ، والصحفي ، والمصلح الجزائري أبو اليقظان . (3)

وابو اليقظان وان تشابكت ألوان رسم خريطته فهو يتجلى في ميدان فسيح ذلك هو الاصلاح ... ولكني قبل أن أخلص الى تقديمه للناس من هذا الباب الكبير ، أود أن أشير الى سر العظمة فيه . فأبين بأنه – أطال الله عمره – يعيش منذ سنوات عديدة حبيس بيته بالقرارة ، ولاية الواحات في أقصى الجنوب الجزائري . لقد أقعده مرض خبيث عن النشاط فشل حتى بعض جوانب الحركة فيه ولكن هذا الالم المرير لم يكن ليحد من معالم نشاطه بل انه على العكس من ذلك ضاعف منها . وحسبك من رجل يقضي جل يومه بين الكتب صحبة قارئه وكاتبه الوفي ، يقرأ له ما تلذ له قراءته ويكتب عنه أماليه في التأليف ، ليتحف بها بني مجتمعه المتعطشين الى المعرفة .

لقد زرت الشيخ منذ سنتين ، فوجدته – رغم الالم المزمن – يتمتع بأقوى ما يتمتع به انسان في العلم ، وسعة الادراك ، وعمق الذاكرة .

فهو اذا تطرقت معه الى التاريخ حدثك بالماضي وكأنه وقع أمامك منذ لحظات ، وحتى الجزئيات الدقيقة في السرد القصصي لا يهملها وكل ذلك يتم بتحد لبحة الصوت ، التي أثقلتها السنون ، وللبطىء في مجاهدة القاء الكلمات تحت وطأة الداء الخبيث ، لذلك بات لزاما ان يحظى هذا الرجل – أمانة – لما قام به من جهاد في سبيل الوطن ان يحظى منا بهذه البطاقة العلمية

(3) هو ابو اليقظان ابراهيم بن الحاج عيسى سليل أرومة كريمة الحسب والنسب يتصل نسبها بدوحة الامام على كرم الله وجهه

التى – هى بالتأكيد – لن تفيه حقه ولكنها على كل حال محاولة لتخليص الضمير من بعض ما يشعر به من وخز الاخلال ازاءه وازاء امثاله من المصلحين الجزائريين الاوائل .

من هو أبو اليقظان ؟

ليلة الاثنين 29 من شهر صفر سنة 1306 هـ موافقه 5 من نوفمبر سنة 1888 م (4) ، ولد ابراهيم أبو اليقظان بالقرارة ، الواحة الجميلة فى الجنوب الجزائرى الحديثة البناء (5) وما ان امتلأت رئتاه بهواء بلاده ، واخذ يستقبل الحياة بوجهه فى عامه الثانى ، حتى نكب بفقد والده .

ويعلق الاستاذ الهادى السنوسى على هذه الحادثة فيقول : « سنة الله فى العظماء ان لايدعهم منذ الطفولة الا يتامى ، وفى الاكثر معدمين أيضا ليألفوا المعارك ، ويتدربوا فى ميدانها على منازلة الاهوال منذ الصغر ليكونوا القادة ، واولى السيادة وليتعودوا الاعتماد على النفس » (6) .

لقد وجد أبو اليقظان طريقه الى الكتاب او المدرسة القرآنية ففتح عينيه على معلمها ، الذى أخذ يطعمه من حلاوة كتاب الله ، ما فتح به لسانه ، ووسع به مداركه ، وهكذا حفظ القرآن الكريم ليبنى بعد ذلك على قاعدته المتينة ، ما اوتيه من علم ومعرفة ، ولم تكن مهمة تلقى العلم باليسير على شاب يتيم ، محدود الامكانيات فى بلد ضرب المستعمر حوله بسور من الجهالة حصين أفقر بسببه من المدارس ، وقل عدد العلماء المعلمين ، الى جانب شبح الحرب العالمية الذى كان يلوح فى الافق ، لذلك كانت رحلته العلمية طويلة ، وذات مراحل متعددة ابتدأت بالقرارة ، وبنى يزقن ، وامتدت الى مكة والقاهرة ، قبل ان تستقر فى النهاية بتونس ، ولقد كانت تونس الخضراء بالنسبة للجزائر هى القبلة الثقافية الاولى ، وهكذا كانت بالنسبة لابى اليقظان ورفاقه هى منطلقهم الاولى لاعداد الاسلحة لخوض ميدان الحركة الاصلاحية .

ان هذا ولا شك سيبين بعض العوامل التى اسهمت فى مولد الدعوة الاصلاحية لدى هذا المصلح الجزائرى كما سنرى ذلك فيما بعد ، كما يؤكد حقيقة غدت ثابتة وهى أن مختلف جوانب النشاط الفكرى التى تعاطاها ، انما كانت بدافع التزامى هدفه الوحيد خدمة الدعوة الاسلامية . وهكذا يتجلى أن الشعر أو الصحافة ، لم يكن القصد البعيد منها سوى خدمة هذا الهدف الاسمى لنستعرض اذا هذه الجوانب ببعض التفاصيل ولنسلك لذلك لكل جانب طريقه ، كى تكتمل لنا الصورة التى نود رسمها للعالم الجزائرى ابى اليقظان .

ابو اليقظان الشاعر :

لفظة الشعر ، عميقة فى مدلولها ، معقدة المعانى كخلجات النفس الملتصقة بها ، لذلك ليس من السهل وصم انسان بانه شاعر حقا ، ما لم يسم الى هذه الدرجة من الشعور ، ان مدلول كلمة الشعر نفسها يجب أن تحدد بوضوح حيث لن تمنح الا لمن يستحقها ، واذا كان يحق لكل باحث ان يختار المفهوم الذى يتلاءم وشعوره فى اختيار معنى الشعر ، فانى احب من معانى الشاعر اعمق مما يقصد اليه معظم الناس عندنا وهو الاحاطة أو الالمام بالقوافى الشعرية وررنقتها ببعض معانى

4) اتفق على هذا التاريخ كل من الاستاذ الهادى السنوسى فى كتابه « شعراء الجزائر فى العصر الحاضر » ج 1 ص 109 ط تونس 1926 م والاستاذ انور الجندى فى كتابه «الفكر والثقافة المعاصرة فى شمال افريقيا» طبعة القاهرة 1965 م

5) بنيت سنة 1940

6) شعراء الجزائر ص 110

البيان والبديع . ثم افتتاحها وختمها بحكمة او مأثورة ليغدو الرجل بعد ذلك شاعرا يتيه على الناس عجبا وغرورا .

لقد غرق الشعراء والنقاد في بحر من الكلمات والمصطلحات بحثا عن مفهوم كلمة الشعروما يزالون يختلفون الى اليوم . ولكني بعيدا عن الجدل ، والنقاش ، أختار لنفسي ابسط هذه المعانى ، فأسلم بان الشاعر هو من اتحد شعوره بقضايا الانسان فى كل مجتمع بشرى بدء بوطنه ، من حيث المضمون ، بقوالب الشعر الموسيقية التى تألفها الاذن ، ويطرب لها القلب ، ويسلم بها العقل من حيث الاداء . وهكذا تكون مهمة الشاعر بسيطة ، ولكنها صعبة المنال ، أى انها من سهل الممتنع ، الصعب ركوبه

ولئن كان ابو اليقظان من خلال نافذته الشعرية هذه على شخصيته لم يمنح جانب الاداء كبير عناية ، فهو قد صب كل اهتمامه بالمضمون فغدا شاعرا ملتزما بحق بقضايا مجتمعه ، ومن خلال ذلك بقضايا المجتمعات البشرية الاخرى .. وحسبنا أن نقدم عينات من هذه اللمحات الشعرية التى تغنى بها ، لنرى درجة التزامه بقضايا وطنه .

ان اغنية الخلاص والتحرر ، هى انشودة كل المخلصين من ابناء الجزائر فى ليل الاستعمار الطويل لذلك راح ابو اليقظان يرسم للانسان الجزائرى طريق الخلاص والتحرر فى قصيدة طويلة مطلعها :

ابن صرح المجد عن اس الضحايا
وأشد عرش العلا رغم البلايا
خض غمار الهول غوصا انها
لؤلؤ التيجان فى بحر المنايا

ان فى الموت لطلاب العلا
لحياة ، لا حياة اهل الدنايا
انما الدنيا جهاد . من ينم
يومه داسته اقدام الرزايا .

بهذه الحكم يدخل شاعرنا محراب الشعر ليغنى جراح امته ، فيسوق لذلك حكما بالغة غدت مضرب الامثال .. وما اشبهه فى هذه الحكم بقول شوقى فى قصيدته الطويلة المعروفة :

وما نيل المطالب بالتمنى
ولكن تؤخذ الدنيا غلابا .

فاذا انتقل شاعرنا الى تحليل اسباب مأساتنا تطرق بواسطتها الى تقديم صورة ما اصدقها عن نفس واقعنا اليوم ، عندما يتحدث عن صراع الشرق ضد الغرب ، تعتبر دروسا لمن لا يزالون يثقون فى صدق نوايا اهل الغرب ، يقول ابو اليقظان :

ان أهل الغرب خطوا خطة
لبنى الشرق بدت منها خفايا
بدت البغضاء من افواههم
وهى عنوان على ما فى الطوايا
خصصوا قاتل فرد بالقصاص
ولهم فى أمم تلك الجنايا
حرروا الزنج ولكن سخروا
أمم الشرق عبيدا وسبايا .

وينتقل شاعرنا انطلاقا من نفس المبادىء ، راميا الى نفس الغايات فتجده فى قصيدة طويلة أخرى تحمل عنوان : العلم يحيى كل شعب ميت ، يقرر احكاما منطقية ، فى عالمنا اليوم ، ويقول :

تحيا بلادى فى النعيم سعيده
واموت قربانا لها وهياما

والعيش في الدنيـــا جهـاد دائم
ظبي يصارع في الوغى ضرغـاما
تلك الشريعة في الحيـاة فلا ترى
الا نزاعـــا دائمـــا وصـــداما
يا راقـــدين عـلى المـذلة والخنـا
حتى متى هــــذا الخنـوع الى ما
قـــد نمتم دهـرا طويلا فانشزوا
لا تتركوا للائمــــين ملامـــا
ودعوا التفرق فالتفـرق ان يسد
يجعل من الشرر الصغـير ضراما
العـــــلم يحي كل شـعب ميت
فذروا الجهالة ، واقتـلوا الاوهاما

أرأيت يا قارئي العزيز ، كيف ان ابا اليقظان في كل خلجة من خلجات شعره ، نزاع الى قضية الوطن ، فهو ينفث شررا من الحماس ، والوطنية مهيبا بأبناء مجتمعه الى ضرورة اشعال الثورة ، والاتحاد ، والتخلص من الاوهام ، وكل ضمن وحدة قوية متينة ، يرهبها العدو المتربص . ولقد تحقق أمل الشاعر ، وصدقت نبوءة شعره ، بما حققته بلاده من معجزة في القرن العشرين .

والان وقد بدت لنا من خلال هـذه العينات جوانب من شخصية ابي اليقظان الشعرية ، ومن الروح الشاعرية التي يحملها بين جوانحه والتي أملت عليه تلك التي سقناها ، يجـــدر بنا ان نتساءل الآن ، ما هو موقف ابي اليقظان ــ وهو الشاعر ــ من قضايا الشعر السائدة ؟ ثم هـل كان لابي اليقظان مدرسة في الشعر خاصة على غرار ما للشعراء من مدارس ينضوون تحت لوائها ، ويلتزمون بمبادئها واهدافها ؟

لنطرح السؤال على الشاعر نفسه ، ونطلب منه الاجابة عليه ..

يقول ابو اليقظان بكل تواضع وهو يقـــدم ديوانه للقارىء « انني اعلل النفس ، بأن مـــا كتبته من الشعر لم يبلغ درجة ينبغي معها حفظه وعرضه كباقة زهر الى اولئك الفحول من الكتاب ، سيما في عصر اتسعت فيه الملكات ، وقويت فيه المدارك ، واصبح فيـــه للنقد الادبي ، مجهـــر يشخص للاعشى من مواقف الضعف الخفية ما لم يكن ليراه البصير النقاد في الازمنة السالفة »(7) .

ثم يخلص ابو اليقظان بعد ذلك الى معالجـة قضية الشعر ككل ، فيطرح لذلك اسئلة كبرى محاولا الاجابة عليها .

والاسئلة هي :

ما هو الشعر ، ما مذاهب الناس في الشعر ، وما أقسام الشعراء ، واغراضهم ، وماذا يجب أن يكون عليه الشاعر ؟ ثم ماذا ينبغي للشاعر من مسالة فرض الشعر ، الى غير ذلك من القضايا ذات الاتصال الوثيق بحياة الشاعر ؟

ويجيب الشاعر على هذه الاسئلة كلها مبينا وجهة نظره فيها ، ويقدم لاحكام بحكم عام وهو قوله : « تلك هي فكرتي في الشعر من حيث انه شعر ونغمة معا ، والفكرة وان اغضبت البعض يجب أن تحترم »(8) .

فما هو الشعر في نظره اذا ؟ ان ابا اليقظان كما قلت في مقدمة هذا المقال ينطلق دائما من

7) ديوان ابي اليقظان ــ المقدمة ــ ج ١ ص ٤ ط ١ ــ الجزائر ١٣٥٠ هـ
8) نفس المصدر السابق ص ٨

قاعدة اسلامية . وما هذا الشعر . وباقى الالوان الثقافية الاخرى التى تعاطاها الا لهدف واحد كبير، خدمة الدعوة الاسلامية . لذلك نجده فى جوابه عن سؤال ما هو الشعر . يجسم هذه الحقيقة عندما يقول بان « الشعر وحى يوحيه الخيال على النفس . فينطلق به اللسان فينشده الدهر قرونا . وهو أى الشعر فى نفس الشاعر نــور « مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة » يرسل اشعته من نافذتها فيضيء بها بطون الليالى المقبلة مدى العصور(9) .

وابو اليقظان فى هذا التحليل لا يكتفى بعرض مبدئه الخاص . بل انه يغرف من منهل عــذب أوسع ذلك هو منهل الشاعر الباكستانى الداعية الكبير محمد اقبال .. لقد ضرب هـذا الانسان الكبير بسهم وافر فى هذا المجال مجال الشعر . واطنب فى تحليل هذه الآية بالذات ولا سيما منها قوله تعالى : « نور على نور » وهذا ما يؤكد صحة ما ذهبنا اليه ، ويضيف اليها حجة أخرى وهى أن ابا اليقظان لم يكن بالداعية المتزمت الجامــد المنغلق وانما كان المتفتح ، المتبصر ، الشمولى فى دعوته .

على أن ابا اليقظان يذهب فى تحديد لمفهوم الشعر معنى أعم . فيمنح الكلمة مدلولا أوســع واعمق مما هو متعارف عليه لذلك نجده يقول : « ان الشعر هو تلك الروح التى يودعها الشاعر من خلال بيته بقوة بيانه الساحر . فيدخل بدون اذن فى آذان السامعين . فينفد الى قرارة نفوسهم فيكون فيها احساسا رقيقا وشعورا حيا ، فتتدارك ما فاتها من عز وسؤدد . ويضرب على أوتار قلوبهم فتهتز لنبراتها أعصابهم . وتشتعل بنيران الحماس ادمغتهم . فتتسابق الى الامتثال جوارحهم .

ذلك هو الشعر . وهذه ثمراته . وكل ما كانت هذه آثاره فهو شعر . سواء أكان نظما أم نثرا»(10)

ان الشعر عنده اذا لا يقف عند حد القوالب المتعارف عليه ، الموزون بالموازين المعروفة بـل أنه اعظم من ذلك لانه يشمل النثر والنظم متى استوفى لمقومات الشعر وشروطه .

ويتناول أبو اليقظان ايضا مذاهب الناس فى الشعر . غير انه فى نظرته لمذاهبهم لا يحددها بما هو متعارف عليه من حيث الاداء والمضمون . أو الحر والتقليدى وانما يتناول الموضوع من زاوية اعتبار الناس للشعر على صلاحه أو فساده وهو يرد على الطائفة الثانية التى تقول بفساد الشعر لما يحتويه من مجون . وسخف . ولهو . وغناء . معتمدين فى ذلك على الآية « وما علمناه الشعر وما ينبغى له » . فيرد عليه بنفس الحجة من القرآن مبينا انه ان جاز لنا أن نسوق هذه كمثل عـلى فساد الشعر فيمكننا ايضا ان نعتمد على الآيـة « فآمنوا بالله ورسوله النبى الامى » لتدلل على

9) نفس المصدر السابق ص 4
10) نفس المصدر السابق ص 5

الا انه موزون مقفى ، ولا يعطى هذا القسم من حظ الشعر الا مقدار ما يزن ويقفي ، ولا يسمى صاحبه شاعرا الا تجوزا .

وابو اليقظان ينصح هذا الصنف من الشعراء ان يتركوا هذه الصناعة لاربابها ، وان يفسحوا الميـــدان لفرسانه ، وان لا يكلفوا طبعهم ما لا يطيقون :

فللميادين ابطـال لهـــا خلقـوا
وللـــدواوين كتـــاب وحساب

أما المطبوع فهو المفطور على هذه الصناعة اذ يجد من طبعه ميـــلا غريزيا للشعر ، واستعدادا فطريا للقريض ، فهو رجـــل يسيل الشعر من مخيلته منحدرا على الصفحات كما تسيل المياه من رؤوس الجبال الى الرياض والزهرات ويستعمل مبدأ الثنائية فى تحليله حتى مع هـذا الصنف الموهوب فيقول بان مواهب الشعراء فى هـــذا الصنف متفاوتة فمنهم من ينبغ فى المدح ، أو فى الرثاء ، أو فى الوصف أو فى الحماس فى الحكم ، أو فى ابواب اخرى من ابواب الشعر المعروفة .

ولكن النصيحة التى يسديها الى هؤلاء جميعا هو ان يسموا عن الابتذال وان يصونوا الموهبة مما لا فائدة منه ترجى فهو بهذا يمكن أن تنطبق عليه الاية : « لئن شكرتم لازيدنكم » .

ثم ان الموهوبـين فى الشعر انفسهم تختلف

فساد الكتابة ، وبذلك نرجع العالم الى عهد الامية، وتوقف دولاب حركته .. كما ينبرى شاعرنا ايضا لمن زعموا ان الشعر لا يعدو أن يكون مظهرا من مظاهر الفضول والاشتغال بما لا يعنى به ، ومدعاة للرياء والفخفخة ، ولذلك يكون الزهد فيه أجد والتنزه عنه أولى .

غير ان صاحبنا يميل الى حكم وسط الى اولئك الذين يستحسنونه ويرون فيه فنا من الفنــون الجميلة التى لا تكمل حياة الامة الا بها مادام القصد منـه ايقـــاظ الاحساس وتنبيه الشعور وتنمية العاطفة ، وتربية الوجدان ، وتنوير العقـــل ، وتهذيب النفس ، وكبح جماحها وحملها عـــلى اغراض شريفة بأخصر طريق والطف اشارة .

اقسام الشعراء :

يحلل ابو اليقظان اولا مواهب الناس الفطرية وما منحوه من استعدادات طبيعية ، قبـــل ان يصل الى نتيجة فى تقسيم الشعراء ، اذ يصنفهم الى صنفين : محروم ، ومحظوظ ، واعتمادا عـلى هذا التصنيف يقرر بان المحروم فى نظره لا كلام عليه ، أما المحظوظ فعـــلى قسمين ايضا متكلف ومطبوع .

فالمتكلف هو الذى لا يساعده طبعه على قول الشعر الا بجهد جهيد ، ومشقة وعناء ، فيبرز شعره فى الغالب خاليا من روح الشاعرية كمـا يبرز الجنين ميتا ناقصا ولا فرق بينه وبين النثر

اغراضهم من تعاطيه . ويرى ابو اليقظان ان منهم من يتخذه غرضا لنيل الدينار والدرهم . فيصبح عنده كل وسيلة مباحة مادامت توصله الى غرضه الدنىء وان يكن ذلك على حساب المبادىء والقيم الشريفة .

وهناك طائفة أخرى يستعملون الشعر لوسيلة لنيل جاه أو منزلة عند الكبراء وهم كسابقيهم لا يتورعون عن ركوب كل سفينة . واستعمال كل الطرق لتحقيق اغراضهم هذه .

وصنف ثالث يتخذ الشعر شباكا لقنص الظباء واصطياد الغزلان . وراجح هنا أن صاحبنا يعنى شعراء الغزل . والحب والغرام . فما موقفه من هذه الطوائف الثلاثة من الشعراء ؟

يجيب على هذا السؤال بقوله : « ولعمرى أن هؤلاء الاصناف الثلاثة، هم الذين شوهوا وجه هذه الصناعة الشريفة وفتحوا فيها ثلمة لنقد الناقدين وطعن الطاعنين . وصاروا حجة عليها لا لها فى نظر بعض الناقدين » .

هذه هى آراء ابى اليقظان فى الشعر والشعراء، واغراضهم . وتلك هى مواقفه منهم . وانها لمواقف تنم عن الالتزام بمدرسة فريدة من نوعها . هى مدرسة المبادىء ، والقيم . والدعوة الى الاصلاح والتشبث بالقوانين السماوية . وكل من خالف هذه المدرسة . لا يعدو ان يكون فى نظره خارجا عن الصراط السوى بعيدا عن الاهداف الانسانية السماوية . وان لنا مع ابى اليقظان لقاء فى مجالات أخرى مع العدد القادم .



لمحات من حياة

الشيخ ابن باديس

علي مرحوم



« ان الأمة الجزائرية لم تزل حية »

« طالما أنها محافظة على دينها ولغتها »

«عبد الحميد بن باديس »

« ليس في العالم أمة عزيزة الجانب تقدم لغة غيرها على لغة نفسها » .

« مصطفى صادق الرافعي »

هذه لمحات من حياة استاذنا المبرور ، عبد الحميد بن باديس ، اسجلها اليوم ، بعد مضى خمس وثلاثين سنة على التحاقه بربه ، راضيا مرضيا عليه من الله والناس ...

ولم أعتمد فى هذه اللمحات على ما سبق نشره الا فى النادر القليل ، بل هى من مروياتى المباشرة عنه سماعا ومشاهدة . باستثناء لمحة واحدة رويتها عن أحد قدماء تلامذته ...

وسأحاول أن أرتبها ترتيبا تاريخيا ، بقدر ما تسعفنى الذاكرة ، مع مراعاة الموضوع بقدر الامكان ...

* * *

يرجع عهدى بالشيخ الى سنة 1932 . وهى السنة التى يسر الله لى فيها الالتحاق بدروسه العلمية ، فى الجامع الأخضر ، وسيدى قموش بقسنطينة . وكان صدى هذه الدروس قد سار فى أرجاء القطر . وازداد اقبال الطلاب عليها من العمالات الثلاث :

ويعزى السبب فى هذا الاقبال غالبا ، الى طلبة الشيخ الذين أصبحوا منتشرين فى طول البلاد وعرضها . وما منهم من أحد الا وهو يحمل بين جنبيه شحنة من الحيوية والنشاط ، وشعلة من الحماس والتأثر ، التى استولت على روحه منذ الايام الاولى التى جلس فيها أمام هذا الرجل الموهوب ,واستمع الى دروسه .

* * *

درس التفسير :

بصرف النظر عن مختلف الدروس العلمية المقررة للتلاميذ ، فقد كان على رأسها جميعا درس التفسير ، وهو درس عام ، يحضره الى جانب الطلبة جمهور كبير ويقع يوميا بعد صلاة العشاء فى الجامع الاخضر ما عدا يوم العطلة الاسبوعية .

تدوم حصة الدرس ساعة واحدة فى الغالب ، أو تقل عنها تارة ، وسمعت أول درس فى التفسير بدءا من سورة الاحزاب . ولم يكن يتاح الدوام على حضور هذا الدرس القيم ، الا للقلة من المتفرغين ، ولعل من أولهم شيخا مسنا كان يتولى منصب قاض فتخلى عنه أو أحيل على التقاعد . يقال له الشيخ أحمد البوعونى ، وهو من أفاضل الرجال ،

علما وورعا وتقوى . ولم أذكر أبـدا أنى حضرت درس التفسير ، دون أن أرى هـذا الشيخ جالسا الى جانب الاستاذ ، الذى كان يجلس على كرسى خشبى متواضع .

ومن الطرائف أن هذا الشيخ ، قد سمع دروسا على الشيخين عبد القادر المجاوى وحمدان الونيسى . « والاخير من أساتذة ابن باديس » .

ونظم فى تهنئتهما بختام دروسهما قصائد شعرية . مثلما فعل فى ختم الشيـخ لدرس التفسير . وجاء فى قصيدة قوله :

« وان الشعر ممن عاش قـــرنا   لكالهذيان فى الطفـل الصغـير »

« ولو عاد الشباب لقمت فيهـــا   مقامات الفرزدق أو جرير » (1)

ـ كان الشيخ ابن باديس يستهل درس التفسير بما كان يستهل به النبى (ص) خطبه . « أما بعد فان أحسن الحديث كتاب الله ، وخير الهدى هدى محمد ... الخ » ثم يأخذ فى تلاوة الآيات التى يريد تفسيرها من حفظه ، وبعد ذلك يشرع فى التفسـير بلغة عربية فصيحة ، وبأسلوب غاية فى الوضوح . يركز فيه على استجلاء المقاصد والعبر وكثيرا ما ينزل معانى الآيى على ما تنطبق عليه من أحوال المجتمعات الاسلاميـــة ، أو البشرية ، فى العصر الراهن ويجرى المقارنة الملائمة بين الماضى والحاضر . مع الاشـارة الى أسباب النزول عند الاقتضاء . وتلك هى الطريقة السلفية ، التى وصف بها الشيخ الابراهيمى رحمه الله طريقة ابن باديس فى درس التفسير . (2)

يسود عادة أثناء هذا الدرس فى المسجد ، جو من الخشوع والوقار ، حتى لكأن على رؤوس الحاضرين الطير ... اجلالا لكتاب الله ، وتأثرا بما كان يبدو عليه الشيـــخ المفسر ، من مظهر روحانى يأخذ بالألباب ، ويملأ النفوس سكينة واطمئنانا .

* * *

افتتـــاح الدروس العلمية :

حين بداية الدروس ، أول السنة الدراسية ، يجمع الاستاذ تلاميذه فى اجتماع عام ليزودهم بنصائحه الغالية ، ويحضهم على الجد والاجتهاد . وتحاشى مواطن الشبهات

(1) شهاب الختم فى يونيو 1938   (2) نفس المرجع

التى تعوق عن الانقطاع للدراسة ، وتمس بالكرامة وشرف النفس ، ومكانة العلم مؤكدا على التحلى بكل خلق كريم ، وتجافى كل عمل ذميم ...

كان الشيخ ـ رحمه الله ـ يأخذ تلاميذه بالتوجيه الجدى ، والتربية الحازمة . ويعطى لهم من نفسه الاسوة الحسنة . وانى لأراه يحضر من منزله الى مسجد سيدى قموش ، قبل صلاة الفجر ، ليتأكد من استيقاظ التلاميذ لاداء الصلاة والاستعداد للشروع فى الدراسة . مع العلم بأنه يبقى فى العمل أحيانا بمقصورته فى الجامع الأخضر ، الى ما بعد الساعة العاشرة ليلا . وكنت أرافقه فى ذهابه الى المنزل تارة ، حينما يبقى الى هذه الساعة المتأخرة من الليل .

وقد حضرت عليه دروسا فى مختصر الشيخ خليل فى الفقه ويشرع فيها اثر صلاة الصبح مباشرة . وكان لا يعتمد فى الدرس الا على المتن وحده . يعمد الى تحليل الموضوع منه تحليلا دقيقا واضحا ، فلا ينتهى الا وقد ألم التلاميذ بمضمون الدرس الماما كافيا .

ويقضى الشيخ بياض نهاره ، وزلفا من الليل ، فى ألقاء الدروس واحدا تلو الآخر . وختامها درس التفسير كما أشرت آنفا . وقد يرتفع عددها الى ثلاثة عشر (13) درسا أحيانا في اليوم الواحد .

* * *

وخلال شهر رمضان يزداد الشيخ حيوية ونشاطا أكثر من ذى قبل ، فيضيف الى دروسه المألوفة ، درسا فى شرح متن صحيح البخارى ، قبيل صلاة الظهر حرصا على افادة جمهور المصلين هذا الدرس فى الحديث النبوى ، ما رأيت مثله فى الايجاز مع الافادة والتأثير .

وانى لأتذكر الى الآن وقع كلماته المؤثرة على الاسماع ، وفعلها فى النفوس والارواح ، فلا تبرح موضعها الا وقد ازدادت يقظة ووعيا ، وارادة فى الخير .. يتيح لها هذا الخير والنفع ، ما تكون عليه من طهارة وصفاء فى شهر الصيام .

* * *

الخطابة والكتابـة :

الى جانب الدروس المعهودة ، كان الشيخ يدرب تلامذته على الخطابة والكتابة ، وينشر ما ينتجه بعضهم ، تشجيعا لهم ، ففى ليلة يوم العطلة يجتمع الطلبة ليتباروا فى القاء الاشعار والكلمات المكتوبة والمرتجلة ، وكل يريد أن يتفوق فيما يأتى به من قـول ، نثرا أو شعرا • وقد برز بعضهم فعلا فى هذا المضمار ، وظهر منهم الكاتب المبـــدع ، والشاعر المجيد والخطيب البليغ • مع ما كانوا عليه من المستوى العلمى المتين ، الـذى أهلهم للنهوض بأعباء المسؤولية ، التى أنيطت بعهدتهم فى حقل العمـــل الـــدينى والثقافى ، والاجتماعى والوطنى •

ولذلك فان أفضل ما كان يعتز به أستاذنا من جهاده فى ميادين متنوعة ، ومجالات كثيرة ، هو هذه الدروس ، التى كان يبنى بها الرجال المتحلين بأكرم الصفات من شجاعة واخلاص ، وتضحية فى سبيل الله والوطن ••

ولعله لو انصرف الى تأليف الكتب ، بدلا من بث العلم فى صدور الرجال ، ما كان لينفع بذلك أمته وبلاده ـ حسب رأيى ـ مثلما نفع وأحيا هذه الامة ، بما بذل مـــن جهود فى سبيل نشر العلم والتعليم • وقد كون الرجال الذين ضربوا بسهم وافر ، فى العلم والعمل • ملتزمين بالامتناع عن قبول الوظيف الاستعمارى ـ عملا بتوصية ـ لان الوظيف ما هو الا قيد فى عنق صاحبه ••

* * *

مؤسسات ومشاريع :

انتصب الشيخ للتدريس بالجامع الاخضر ، وسيدى قموش ، فى سنة 1332 هـ • و 1912 م • (1) وكانت دروسه هى حجر الزاوية فى اقامة صرح النهضة • ولكن هذه الدروس ، لم تصرفه عن العمل فى ميادين أخرى لا تقل أهمية ، فى طليعتها : تأسيس المدارس ، والنوادى ، وبناء المساجد الحرة هذا الثالوث الحيوى الذى تكاملت به جوانب النهضة الجزائرية ••

(1) شهاب ختم التفسير 1938

فالمدارس للناشئة ، تتلقى فيها دروس الدين والاخلاق ، وقواعد اللغة العربية والتاريخ الوطنى ..

والاندية للشباب ، تجمع شتاته ، وتقيه شر الضياع وترجع له ثقته بنفسه وبدينه وقومه . بما يسمعه من المحاضرات فى التربية والتوجيه الدينى والقومى ..

والمساجد لجمهور المصلين ، المتعطشين لسماع دورس اليقظة والحياة ، المستوحاة من روح الاسلام النقى من الخرافة والجمود والتعصب ..

ويمتد نشاط الشيخ الى مجالات أخرى ، تستكمل بها عناصر النهضة . فيدعو الى تكوين الجمعيات الخيرية . والفرق الكشفية والرياضية والفنية ، ويشجع على تأسيس جمعية التجار المسلمين وأخرى لذوى الاسر الكبيرة بقسنطينة ..

وكل هذه المشروعات والمنظمات ، التى كان له فضل السعى فى انشائها ، قد أتت أكلها باذن ربها ، وأعطت ثمراتها اليانعة فى خدمة المجتمع الاسلامى الجزائرى ..

لقد كان الشيخ ـ كما رأينا ـ يقوم بأعمال ، تنوء بحملها الجبال ، فى أكثر من مجال لانجاز المنشآت المتنوعة الاغراض والغايات . وكلها ترمى فى جوهرها وحقيقة امرها الى احياء الدين واللغة والتاريخ ، والحفاظ على مقومات الشخصية الجزائرية بصفة عامة .

ونورد على سبيل المثال أن مما تضمنه القانون الاساسى لجمعية التربية والتعليم ، الذى حرره بنفسه سنة 1349 هـ ـ 1930 م .

أ ـ « تربية أبناء المسلمين وبناتهم تربية اسلامية ، بالمحافظة على دينهم ولغتهم وشخصيتهم » . (2)

ب ـ « وان للجمعية ان تكون فروعا فى البلدان التى ترغب ان تكون فرعا منها . كما أنها تدعو المسلمين أن ينهضوا لذلك نهضة حقيقية ، ويسعوا له السعى الجدى المتواصل . فانهم لا بقاء لهم الا بالاسلام ، ولا بقاء للاسلام الا بالتربية والتعليم ، والله مع الصادقين » .

* * *

(2) نشرة جمعية التربية والتعليم سنة 1354 هـ 1936 م

لننتقل الآن ـ مع الشيخ ـ الى ميدان آخر من ميادين جهاده ، وأعنى به ميدان الطباعة والصحافة ·

والحقيقة التى يجب ألا نغفل عنها هى ان نجاح جميع المشاريع الآنفة الذكر ، يرجع الى وجود « المطبعة الجزائرية الاسلامية بقسنطينة » التى وفق الله الشيخ لتأسيسها · وكان لها دور أساسى فعال ، منذ بداية ظهور النهضة ، لانها يسرت للشيخ سبيل النشر الذى هو أخطر الوسائل فى بناء النهضات الوطنية ·

ولعل القاء نظرة على قائمة الصحف والمجلات ، التى كانت تصدر عن هذه المطبعة ، ترينا مدى اهميتها القصوى فى بناء النهضة بجميع جوانبها ·

1 ـ جريدة المنتقد ـ صدرت سنة 1343هـ · 1925م ـ وكان شعارها : الحق فوق كل أحد · والوطن قبل كل شيء ·

وقد عطلتها السلطة الاستعمارية بعد بروز 18 عددا منها ، خشية من أثرها وتأثيرها ، والتفاف النخبة المثقفة حولها ، ولانها كانت تنشر أنباء انتصارات ثورة الريف فى شمال المغرب ضد الاسبان بقيادة محمد بن عبد الكريم الخطابى ، رحمه الله · ودامت هذه الثورة من سنة 21 الى 1926 · (1)

2 ـ جريدة الشهاب الاسبوعى ـ صدرت على اثر تعطيل المنتقد ـ 25 ـ 1929 م ·

3 ـ مجلة الشهاب الشهرية ، صدرت فى سنة 1929 ، وقد امتد بها العمر الى أن توقفت فى شهر سبتمبر 1939 م ، بعيد اندلاع الحرب العالمية الثانية ·

4 ـ صحف جمعية العلماء ، وهى على التوالى فى الصدور :

السنة النبوية ـ الشريعة ـ الصراط السوى ·

صدرت هذه الصحف الثلاث ، خلال سنة 1933 · وعطلتها الحكومة بقرارات جائرة، فى نفس السنة ·

5 ـ البصائر ـ لسان حال جمعية العلماء ، طبعت لاول ما ظهرت فى العاصمة · ثم نقلت فى اوائل شهر سبتمبر 1937 م الى المطبعة الجزائرية بقسنطينة · واستمر صدورها الى أن توقفت هى الاخرى ، على اثر اعلان الحرب فى سبتمبر 1939 ·

(1) كتاب الفكر والثقافة المعاصرة لانور الجندى

ـ وصدرت عن نفس المطبعة صحف أخرى • تنتمى بالولاء لجمعية العلمـــاء ، وليست تابعة لها رسميا ، وهى بالترتيب :

1 الجحيم : جريدة انتقادية دفاعية ظهرت فى سنة 1933 م ، شعارها :

« ان الابرار لفى نعيم ، وان الفجار لفى جحيم » ومبدؤها قول الله :

« ولمن انتصر بعد ظلمه فاولـئك ما عليهم من سبيـل » • (2)

2) أبو العجائب : جريدة أدبية فكاهية انتقادية • ظهرت حوالى سنة 1935 • وكان يتولى تحريرها ، الكاتب ـ الشاعر : الشيخ محمد العابد الجلالى ، رحمه الله •

3) الشعلة : جريدة أدبية انتقادية، صدرت سنة 1950، وكان يشرف على تحريرها : الكاتب الشهيد أحمد رضا حوحو •

يضاف الى ما تقوم ذكره من أنواع الصحف ، ما قامت بطبعه هذه المطبعة مـــن الكتب • وما أخرجته من النشريات والمنشورات الكثيرة ••• تحت اشراف الشيـــخ فى حياته ••• وادارة الشهيد أحمد بوشمال ، رحمهما الله تعالى •

والحق أن هذه المطبعة قد أسهمت بحظ موفور ، فى احياء اللغة العربية ، والثقافة الاسلامية ، وأدت خدمات جليلة فى دعم النهضة الحديثة فى الجزائر ، منذ تم تاسيسها سنة 1925 م ، الى أن آذن عهد الاستعمار بالزوال •

* * *

محـاولـة دنيئـــة :

كان طبيعيا ـ فى منطق الاستعمار ـ على الاقل ـ ألا يغض الطرف على هذه الاعمـال الضخمة ، التى كان ينهض بها الشيخ بمعاضدة اخوانه ، من كبار أعضاء الجمعية ••• ولذلك فانه ما انفك يدبر المكائد ، ويحيك المؤامرات ، للقضاء على شيخنا واعضاده •

وكانت أخطر هذه المؤامرات هى المحاولة الدنيئة ، التى سخر لها أحد اتبـــاع الطريقة العليوية ، لاغتيال الشيخ وذلك سنة 1926 بقسنطينة •

(2) سورة الشورى 41

فقد كمن له الجاني في ممر مظلم ، بمدخل منزله وهاجمه اثر عودته من درس التفسير ليلا ٠٠ ولكن عناية الله بالشيخ أبطلت كيد الكائدين ٠ ونجاه الله من الاغتيال المدبر ، وحفظه لهذه الامة ودينها ٠٠

وأبى الشيخ الا أن يمنع الناس من الفتك بالجاني ، وأن يعفو عنه ، بعد أن أصبح في قبضة العدالة ٠

وفي ذلك يقول شاعر الجزائر الاكبر : محمد العيد من قصيدة :

« حمتك يد المولى وكنت بها أولى فيالك من شيخ حمته يد المولى »

« وحفت بروح القدس شخصك فانثنت مصيبتك الجلى كرامتك المثلى »

« وان أنس لا أنسى الذين تظافروا على الفتك بالجاني فقلت لهم مهلا »

* * *

وقد آن لي ــ أيها القارىء ــ أن أروى لك في هذه اللمحات ، بعض ما رأيت وما سمعت من أستاذنا ٠ وعسى أن تستبين منها بعض السجايا والخلال الكريمة ، التي خصه الله بها ٠٠ وكم هي كثيرة تلك الخاصيات التي لم تكتشفها الى الآن أقلام الكتاب في حياة هذه الشخصية الخالدة ٠

١ ــ الاعتماد على النفس ، في التقرب الى الله ٠

في درس العقائد الاسلامية الخاص بالطلاب ، تطرق الشيخ الى توضيح رأيه في حقيقة التوسل والوسيلة ٠ مؤكدا أنه لا يجوز الاعتماد على غير ما يقوم به الانسان من عمل صالح ، ينتفع به في دنياه ، ويتقرب به الى الله في آخراه ٠

أما ما يتوسل به الجهلة بحقائق الاسلام ، ويخدعهم باسمه ، أو يضلهم به بعض المشعوذين فلا عبرة به في نظر الاسلام الصحيح ٠

ثم ساق لنا حديث النفر الثلاثة ، أصحاب الغار ، المروى في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم ، حتى آواهم المبيت الى غار فدخلوه ، فانحدرت صخرة فسدت عليهم الغار . فقالوا : انه لا ينجيكم من هذه الصخرة الا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم .

ثم ذكر فى الحديث ما قدم كل منهم من صالح العمل ، وقالوا فى دعائهم :

« اللهم ان كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه » فانفرجت الصخرة وخرجوا يمشون .. »

وهكذا استجاب الله دعاءهم ، لانهم توسلوا اليه بعملهم الصالح .

* * *

2 ـ شكو شكوى الامام الزمخشرى من الدهر :

فى درس من دروس اللغة ، شرح الشيخ معنى الافلح والاعلم فى اللغة ، وهو مشقوق الشفتين الذى يعجز عن النطق بحرف الميم ، مستشهدا على ذلك ببيتى شعر للزمخشرى ، ونصهما :

« وأخرنى دهرى وقدم معشرا   على أنهم لا يعلمون وأعلم »

« ومذ أفلح الجهال أيقنت أننى   أنا الميم والايام أفلح أعلم »

وعلق الشيخ على البيتين بقوله :

ما كان ينبغى للزمخشرى ـ على فضله وعلمه ، واقتداء الناس به ـ أن يتضجر من الدهر ، وبهذه الطريقة التى لا تجيزها آداب الاسلام .. وقد قال الله تبارك وتعالى :

« **ورفعنا بعضكم فوق بعض درجات ، ليتخذ بعضكم بعضا سخريا ، ورحمة ربك خير مما يجمعون ..**» (1) تلك سنة فى خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

* * *

3 ـ بين الام والضرة :

فى درس ما ، جلس أحد التلاميذ فى الصف الاول أمام الشيخ ، وقد لبس برنوسا جديدا من ثياب الملف فتأمله الشيخ جيدا ثم قال : ـ والابتسامة تعلو محياه ـ أنا

(1) سورة الزخرف 32

ـ والله ـ أفضل أن ألبس البرنوس الذى تحيكه أمى ، وليس الذى تنسجه ضرتها ٠ ويعنى بذلك تقديم البضاعة الوطنية على الاجنبية ٠

* * *

4 ـ فى احتفال بالمولد النبوى ، سنة 1937 م :

فى كلية الشعب بقسنطينة ،وفى حفل أقامته مدرسة التربية والتعليم ، وبعد أن أدى التلاميذ والتلميذات أدوارهم فى الخطابة والحوار والتمثيل ، بلسان عربى مبين ، تحت اشراف معلميهم ٠ تأثر الشيخ أيما تأثر ، وانى لآراه جالسا فى الصف الاول مأخوذا بالمشاهد التى تجرى أمامه ٠

وفى ختام الحفل ، صعد الى المنصة ، وألقى قصيدته الشهيرة « شعب الجزائر مسلم » والتى تناقلتها الاجيال منذ شهر ربيع الاول 1356 هـ الى الآن ، والى ماشاء الله٠ ومطلعها :

« حييب يا جمع الادب ورقيت سامية الرتب »

ومنها :

« أحييت مولد من به حيى الانام على الحقب »
« بالعلم والآداب والأ خلاق فى نشء عجب »

ومنها :

« نشء بحب محمد غذاه أشياخ نجب »
« فبه اقتدى فى سيره واليه بالحق انتسب »

ويواصل مخاطبا التلاميذ :

« يا نشء يا ذخر الجزا ئر فى الشدائد والكرب »
« صدحت بلابلك الفصاح فعم مجمعنا الطرب »
« وأذقتنا طعما من الـ فصحى ألذ من الضرب » (1)

---

(1) ش ج 4 ـ م 13 يونيو 1937

ـ ويبدو ان هذه القصيدة ، كانت بنت وقتها ، ولم تعد مسبقا وعـدد أبياتهـا أربعون • وكلها من فرائد الشعر الاستنهاضى الثائر ، وكانت يومئذ بمثابة الـرد الحاسم ، على دعاة الفرنسة والاندماج •

* * *

5 ـ وفى مناسبة حفل مدرسى آخر ، ارتجل الشيخ هذا النشيد ، من وحى الساعة ومطلعـه :

« اشهـدى يـا سمـا واكتبـن يـا وجـود »
« أننـا للحـمى سنكـون الجنـود »
« فنـزيـح البـلا و نـفـك القـيـود »
« وننيـل الـرضى مـن وفى بالعهـود » الخ

وعدد ابيات هذا النشيد اثنا عشر • وقد اتخذته المدارس والفرق الكشفية من جملة اناشيدها الوطنية ، التى سار ذكرها ، والتغنى بها بين تلاميذها واشبالها وفتيانها فى طول البلاد وعرضها •

* * *

6 ـ تكريم المتخرجين من جامع الزيتونة :

فى أواخر يوليو 1939 م ، أقامت جمعية التربية والتعليم بقسنطينة ، حفلة تكريم للطلبة الجزائريين المتخرجين من جامع الزيتونة فى ذلك العام ، تحت اشراف الشيـخ بصفته رئيسا للجمعية ، وتولى تقديم الخطباء الذين أعدوا كلمات للمناسبة • وفى كلمة افتتاح الحفل قال مخاطبا المحتفل بهم :

« انكم رجعتم الى وطنكم تحملون شهادات علمية ، ومن أجل ذلك كنتم جديريـن بهذا التكريم • ولكن لا تظنوا أنكم ستجدون مصاعب الحياة قد أزيلت من طريقكم • يجب ان تعلموا ـ يا أبنائى ـ انكم مقبلون على خوض معركة شديدة ، من أجل خدمة أمتكم ووطنكم ، بما أحرزتم عليه من علم •

واذا كان أبناء الشقيقة تونس ، يدرسون العلم فى الزيتونة ليصبحوا موظفين فى بلادهم ، فان فضلكم الوحيد هو أنكم تقرأون العلم للعلم ، وليس للوظيف · وهو فضل كبير فكونوا عند حسن ظن أمتكم بكم ، كونوا على استعداد لاداء واجبكم نحو وطنكم ·· »

* * *

7 ـ القلب الفارغ من الايمان :

كنا ثلاثة مع الشيخ فى زيارة تفقدية لشعبة من شعب جمعية العلماء ، فى دائرة جيجل ، وفى أثناء الطريق قص علينا القصة التالية قال :

« كنت يوما راجعا من سفر ، فى سيارة عامة ، ولحق بنا فى الطريق الطبيب الفرنسى فلان ·· بسيارته الخاصة · وما أن لمحنى داخل السيارة العامة ، حتى استوقفها ، وطلب منى أن انتقل الى سيارته ··

وبينما نحن فى طريقنا ، اذا به يصطدم بسيارة أخرى ··

قال الشيخ : ومع أن الصدمة لم تكن خطيرة ، الا أن الطبيب صرخ صرخة ـ حين الاصطدام ـ ظننت أن روحه قد خرجت معها ··

وعلل الشيخ ذلك بفراغ قلبه من الايمان بالله ، لان الايمان يحفظ على المؤمن ، ثباته واطمئنانه ، عندما تحل به الملمات ، وتفاجئه الصدمات مهما كانت عظيمة · وهذا ما شعر به هو حينئذ ··

ومن عادة الشيخ أن يستجلى العبر من أحداث الحياة ، كبيرها وصغيرها ، ويربط العلة بالمعلول ، والسبب بالمسبب ، فى بداهة وعفوية تأخذان بالألباب ··

* * *

والآن يحسن بنا ان نعيش مع شيخنا ، فى بعض مواقفه السياسية ، التى برهن بها على أنه وحيد زمانه فى الشجاعة وعلو الهمة ، والتضحية فى سبيل المبادئ السامية ··

وهذه لمحات من تلك الصفات :

1 ـ بعيد تأسيس جمعية العلماء فى شهر ماى 1931 م طار صيتها فى ارجاء الوطن بسرعة البرق ٠ وبلغ صدى أعمالها ومساعيها ، فى بعث الامة من جديد ، على أساس تعاليم الاسلام ، البعيد عن كل جمود أو جحود ٠٠ بلغ ذلك الى أسماع دوائر الاستعمار ففكرت فى الطريقة التى تحبط بها مساعى الجمعية ٠ وقدر السيد « ميرانت » مدير الشؤون الاهلية بالولاية العامة يومئذ ، أنه ربما استطاع أن يصل الى ذلك بوسائل الاغراء والترغيب ٠

وهكذا سعى الى احضار الشيخ ووالده فى مكتبه ٠ وهو يأمل ـ ولا شك ـ أنه سينجح فى ابعاد الشيخ عن رئاسة جمعية العلماء ، بالوسيلة التى اختارها ٠٠ ولذلك فقد عرض على الشيخ أن يختار لنفسه أية وظيفة يرغب فيها : « مفتى أكبر ٠٠ أو قاضى قضاة » مثلا ٠٠ على شرط واحد هو : أن يتخلى عن رئاسة جمعية العلماء ٠٠ مع اضافة مساعدة مالية تمنحها الحكومة لوالده ، قصد تحسين أوضاعه الفلاحية والاقتصادية ٠٠

فماذا كان موقف الشيخ ازاء هذا العرض المغرى يا ترى ٠؟ لقد طلب الشيخ مهلة للتفكير قبل الجواب ٠٠ وما كان الشيخ ـ فى الواقع ـ فى حاجة الى أى تفكير ٠٠ ولكنه طلب هذه المهلة من باب الكياسة ٠٠ وخرج من مكتب السيد ميرانت ، ليجيبه كتابة بالرفض لما عرضه عليه ٠٠

وهكذا تكون عزة النفس ٠٠ وكرامة العلم فى ذويه ٠٠ ان التاريخ الاسلامى يحمل طى صفحاته الكثير من مثل هذه المواقف الخالدة للعلماء ، الذين آثروا العزة والكرامة ، ـ حتى مع شظف العيش ـ على بيع ضمائرهم وكرامتهم ، للملوك والامراء والحكام ، بالثمن البخس ٠ ويكونوا بذلك أسوأ قدوة فى الدين والدنيا ، لابناء أمتهم ٠٠

وصدق الشاعر الذى قال فى هذا الموقف :

« عفت الوظيف فما خلقت لذلة كان الوظيف على الابيى عصيبا »
« وبقيت موفور الكرامة لم يصب خبز الدخيل ولم يرده نصيبا» (1)

* * *

(1) توفيق شاهين ـ مجلة القبس فى 16 ـ 4 ـ 74

2 ـ فى يوم خامس غشت سنة 1935 ، وقعت حوادث دموية خطيرة بين المسلمين واليهود فى قسنطينة ، قتل فيها اثنان وعشرون من اليهود ، واثنان من المسلمين ٠ وقع هذا بعد ما ذأب اليهود على استفزاز المسلمين ، بتوجيه الشتائم والاهانات الى الدين الاسلامى ، فى يومين سابقين ٠٠ وفى الوقت الذى كان الوضع ينذر بالانفجار الخطير بين الطرفين ، خرج الشيخ بنفسه يجوب الشوارع ، مع بعض النواب المسلمين قصد التهدئة وتجنب الكارثة ٠ وبقى كذلك الى ما بعد منتصف الليل ٠٠

موقف بطولى ـ ولا شك ـ لم يخش فيه الشيخ رصاص اليهود ، من أجل أن يمنع عن المسلمين ما كان يخشاه من غدر وعدوان ، لا من اليهود ، بل من تدخل الجيش الفرنسى ضد المسلمين ٠٠

وحين وقعت الواقعة ٠٠ وتحركت السلطات الاستعمارية ، لتأخذ بثار اليهود من المسلمين دعا الشيخ جميع النواب والاعيان المسلمين ، الى جمع الصف وتوحيد الكلمة ، بغية الظهور بمظهر القوى ازاء السلطة ٠ وحضر الوالى العام الى قسنطينة ٠ وكان الشيخ على رأس الوفد الذى قابله فى دار العمالة ٠ وتكلم الشيخ فى قوة المؤمن ، وشجاعة القوى بقوة الله ، مثبتا حق المسلمين فى الدفاع عن أنفسهم ودينهم ، ضد العدوان المتكرر من اليهود عليهم ٠ وتحول الموقف لصالح المسلمين بعد ما كانوا مهددين وهذا بفضل الموقف الشجاع لشيخنا ، وبفضل ما حققه من تكتل النواب والاعيان المسلمين فى المدينة ٠٠

وعند الصباح يحمد القوم السرى ٠٠

* * *

3 ـ وحلت الذكرى المشؤومة ، ذكرى مرور مائة عام ، على احتلال قسنطينة فى شهر سبتمبر 1937 ٠ وآن للمستعمرين أن يقيموا الحفلات الصاخبة بهذه المناسبة ، دون مبالاة بجرح عواطف المسلمين ، وآن للشيخ أن يوجه ضربة من ضرباته القوية المعهودة ، الى الدوائر الاستعمارية ٠٠ فجمع اربع عشرة جمعية اسلامية فى المدينة وبعد شرح واف لموضوع الاجتماع من طرف الشيخ ، طلب من الجميع أن يوافقوا على اعلان مقاطعة الحفلات المائوية الاستعمارية ٠

ووقعت الموافقة ، واصدر الشيخ منشورا مؤرخا فى 1937/9/28 م ، يدعو فيه السكان المسلمين جميعا الى المقاطعة مستخفا ـ كعادته ـ بأى خطر يلحقه من الاستعمار . على هذا التحدى الجرىء . ووزع المنشور بصفة واسعة بين الناس . وأحبطت بذلك مساعى المستعمرين ، وسقطت فى أيديهم .

ومما جاء فى المنشور :

« فى مثل هذه الايام . منذ قرن مات أجدادكم المجاهدون المدافعون . والفرنسيون المهاجمون . فى ميدان البطولة والشرف » .

ويضيف :

« لكن قوما من الانانيين . الذين يأبون الا أن يكونوا سادة متفوقين . والا أن يشعروا المسلمين بسلطة الغالبين على المغلوبين ، ارادوا ان يقيموا احتفالات عسكرية بدخلة قسنطينة . تثير العواطف وتمس كرامة الاحياء منا والاموات . وتنافى مبادىء الاخوة والرحمة التى ندعو اليها » .

« يحتفلون احتفالاتهم . ومطالب الشعب الجزائرى . بعرقلتهم معطلة،وحقوقه بسعيهم مهملة،وسوط القوانين الاستثنائية نازل بيدهم على ظهره فى كل يوم » الخ ..

« فقاطعوا هذه الاحتفالات ولا تشاركوا فيها .. »

* * *

4 ـ فى سبتمبر 1938 ، قامت أزمة سياسية حادة ، بين دول الحلفاء والمانيا الهتلرية وظهرت نذر الحرب مهددة بخطر جارف وأسرعت بعض الهيآت الجزائرية ، التى تدين بالطاعة العمياء لفرنسا وتعيش على عطفها والتماس رضاها ..

أسرعت بارسال برقيات الولاء وشواهد الاخلاص للحكومة الفرنسية . والحق أن فرنسا ما كان يهمها ولاء تلك الهيآت واخلاصها ، لانها واثقة منهما سلفا .. ولكن الذى كان يهمها بل ويقض مضجعها ، فى مثل هذه الظروف العصيبة هو موقف جمعية العلماء .. فهل ينطق أبو الهول بما يرضى ساسة فرنسا ؟ .

والجواب هو ما يروى فيما يلى :

أوعزت دوائر الحكومة الى من يعد نص برقية الولاء ، ويتقدم بها الى الجمعية وهى فى اجتماعها السنوى العام بنادى الترقى · عسى أن توافق على ارسالها ··

وبعد أن دافع أنصار البرقية عن وجهة نظرهم ، ملحين على ابراز الفوائد الجمــة التى تجنيها الجمعية من ارسال هذه البرقية لفرنسا ··

وبعد آن ناقش الاعضاء هذه القضية ـ رفض ارسال البرقية بأغلبية ساحقة ··

ولم يقتنع مؤيدو البرقية بالنتيجة ، وطلبوا عرض الموضوع على الاجتماع العام ·· وكان ذلك ·· ووقف أحدهم ـ رحمه الله ـ ويمتهن مهنة محام ـ ليدافع بكل قـــواه عن رآيه ورأى أصحابه ·· ولكن بدون جدوى ·· ووقف عضو آخر له وزنه فى قـــوة الاقناع ، وبلاغة التعبير ·· وفصاحة اللسان ، ولكن حظه لم يكن أحسن من حظ سابقه·

وانى لأرى بجنبى فى القاعة أحد الشيوخ المعممين ، يرفع صوته مستنكرا قـــول المتكلم : « عار عليك يا شيخ » عدة مرات ··

ووقف شيخنا أخيرا ، ليدلى بكلمة الفصل فى القضية ·· فقال :

« اننى لا أوافق على ارسال هذه البرقية أبدا ، ولو قطعوا رأسى ـ وأشار بيده الى عنقه ـ لان ذلك يعتبر قبولا منى بتجنيد أبناء هذه الامة فى الحرب · وكيف أوافـــق وآلوان الاضطهاد ما تزال تنصب على الامة ، وتنال من دينها ولغتها ، وقوميتها · وأنا لا أنتظر الا احدى الحسنيين : فاما حياة السعادة ، واما الفوز بالشهادة ··

وضجت القاعة بتصفيق الاستحسان والتأييد ··

ووقف بعد الشيخ ، العضو المتكلم قبله ، ليقول لهُ بالحرف الواحد :

« اذا كنت تحب تروح للسجن ·· الناس عندهم وليدات ·· »

ويجيب الشيخ بالحرف الواحد :

« اذا كان أنت عندك أولاد ·· فأنا أعتبر أن أولاد الامة كلهم أولادى ·· »

وانى لأسجل هذا ، للحقيقة والتاريخ ·· سائلا الله الرحمة للمصيب والمخطىء معا·

* * *

5 ـ روى لى أحد تلامذة الشيخ وخواصه هذه القصة ، التى وقعت بمحضره ، وجاء فيهـــا :

أن موظفا فرنسيا كبيرا فى الاستعمالات ، قام بزيارة للشهيد الشيخ العربى التبسى ـ رحمه الله ـ محاولا بذلك أن يستدرجه الى بعض التصريحات التى قد تفيد منها فرنسا سياسيا ، فلم يحصل منه على طائل وأحاله على الشيخ ابن باديس ، رئيس الجمعية ..

قال الراوى : وكنا جماعة من الخواص مع الشيخ الرئيس ، بمكتبه فى دار جمعيـــة التربية والتعليم ، حينما جاء الزائر الفرنسى . وبعد التعارف المعتاد ، أراد هذا الفرنسى ـ وكان مستعربا ـ أن يمهد للموضوع بالحديث عن حضارة العـــرب والاســـلام فى الاندلس ، وكأنه أراد بذلك أن يكتسب ثقة الشيخ به .. وقد جاراه فى قوله ، وشجعه على تنويهه بهذه الحضارة .. بيد أنه لم يدع الفرصة تمر دون أن يلاحظ لمحدثه أخيرا ، قائلا له : بأن هذه اللغة التى حفظت هذا التراث الانسانى ، وعبرت عن هذه الحضارة ، ونقلتها الى أوروبا فاستنارت بها فى عهودها المظلمة ، قد أصبحت الآن مضطهدة من طرف الادارة الفرنسية فى هذه البلاد . وغدا أهلها يلاقون الضغط والارهاق ألـــوانا وأشكـــالا .

وبهت الموظف الفرنسى .. لانه ما توقع أن يسمع مثل هذه الصراحة .. وحاول أن يخفى تأثير وقع هذه الملاحظة على نفسه بتغيير مجرى الكلام ، فطلب من الشيخ أن ينفرد به لحظة ، لان لديه أمرا هاما يريد أن يلقى به اليه . فما كان من الشيخ الا أن اعتذر عن تلبية طلبه ، مبينا له أن الجالسين معه من خواصه الذين لم يتعود أن يخفى عليهم أى أمر يهم مصلحة الامة ، وانه لا يعمل واياهم الا فى وضح النهار . فاذا كان لديه أى أمـــر من هذا القبيل ، فليدل به أمامهم ..

فقام الفرنسى الكبير ، متهالكا على نفسه ، فودع وخرج يجر أذيال الخيبة والفشل ..

* * *

6 ـ وقص علينا الشيخ قصته ـ والبشر يفيض على محياه ـ يوم أوبته من تونس ، حاملا شهادة العالمية ، قال :

حينما ولجت باب الدار، أسرع الى أبى فعانقني، وقال لامي ـ في سرور وابتهاج ـ :
« ها هو قد جاءك عالما ٠٠ فانطلقت من فيها زغرودة ٠٠ ما زلت أتذكرها ، ولن انساها، وشعرت من أعماقى منذ ذلك اليوم بمدى عبء المسؤولية التى أحملها على عاتقى بصفتى عالما ٠ وبما أثرت به فى نفسى تلك المناسبة الباقية فى ذاكرتى ما دمت حيا ٠٠

7 ـ والآن وجب ـ من باب الاعتراف بالفضل لذويه ـ أن نأتى بلمحة وجيزة عن والد الشيخ ، السيد مصطفى بن باديس ، طبقا لما اعرف عنه شخصيا من كريم الاخلاق٠

فقد كان ـ رحمه الله ـ من ذوى الفضل والمروءة ، والحفاظ على شعائر الديـــن ، والغيرة عليه ٠ كان يحفظ القرآن ويتعبد بتلاوته ، وخاصة فى شهر رمضان ٠ وقـــد أمضى ليالى شهر الصيام كلها ، سنة 1351هـ ، يقيم صلاة التراويح فى مسجد سيدى قموش ، الذى بناه على نفقته ٠ وحيث كلفت من طرف الشيخ ، بامامة المصلين فى صلاة التراويح أثناء ذلك الشهر ٠٠

كما أنه خصص معلما لتعليم القرآن الكريم فى ذلك المسجد ، على نفقتــه ٠ وليس صحيحا ما قيل عنه ، أنه كان غير راض عن نشاط ابنه العلمى والدينى ٠ ودليل ذلك أنه هو الذى سعى لدى الحكومة ، من أجل الاذن له بالتدريس فى الجامع الاخضر ، بعد أن سعى المفتى ابن الموهوب لمنعه من التدريس فى الجامع الكبير ٠٠ (1)

لقد وجه والد الشيخ ابنه ـ وهو بكره ـ الى قراءة كتاب الله ، منذ أول طفولتــه ، ونعومة أظفاره ٠ ولم يوله شطر المدرسة الفرنسية ، التى لم يغب عنه ما كان يمكــن أن تؤهله له من مناصب عالية ، مثل أقرانه من أبناء الاسر القسنطينية ٠

وقد أثنى الشيخ على أبيــه عاطر الثناء ، فى كلمته التى أجـــاب بها على كلمات الخطباء ، وقصائد الشعراء ، فى حفل التكريم الذى أقيـــم له بمناسبة ختمـــه درس التفسير ، حينما كان يذكر بالخير والفضل ، جميع الذين أثروا فى حياته وعملوا عــلى تكوينه ٠ والذين آزروه فى جهاده من اخوانه العلماء ٠٠ وقال بخصوص والده :

« ان الفضل الاول يرجع الى والدى الذى ربانى تربية صالحة ، ووجهنى وجهـــة رشيدة ، ورضى لى العلم طريقة أتبعها ، ومشربا أرده وقاتنى وأعاشنى وبرانى كالسهم

(1) ش ج 4 ـ م 14/1357 هـ

وراشنى ، وحمانى من المكاره صغيرا وكبيرا · فلأشكرنه بلسانى ولسانكم ، ولأكل ما عجزت عنه لله الذى لا يضيع أجر العاملين ·· » (2)

والحقيقة التى يجب أن تقال هى : أن شيخنا عبد الحميد ما هو الا نفسة ربانية نفح الله بها هذا الوالد الطيب الذكر · فوهبها لهذه الامة المسلمة ، ليحيى تراثها المجيد ، وحضارتها الاسلامية العظيمة ··

فلو أنه وجه فى بداية تعلمه فى اتجاه المدرسة الفرنسية ـ لا قدر الله ـ لضاع على بلاد العروبة والاسلام خير كثير ··

* * *

والآن ما بقى على الا أن أختم هذه اللمحات بالاشارة الى ما كان يتصف به الشيخ من زهد وتقشف ، وعزوف عن زخرف الحياة ومتاعها ·· لينقطع لخدمة العلم والدين والوطن ·

فقد كان يكتفى من الطعام بالقليل ، الذى يمسك عليه حشاشة الروح · وكثيرا ما تكون وجبة غدائه الخبز واللبن ، اللذين آتيه بهماليه من السوق· أو يؤتى له أحيانا بقدر من الكسكس مع اللبن من دار أبيه · وفى عدة مناسبات ، كنا ندعى معه من طرف بعض محبيه وأنصاره · وحين توضع المائدة أمامنا ، يسأل صاحب الدعوة عما اذا كان يوجد كسكس · فاذا كان موجودا فلا يزيد عليه · واذا لم يوجد فلا يتناول الا من طعام واحد ، دون تعدد ··

وكان فى فصل الشتاء يتخذ كل لباسه من الصوف ، ما عدا القميص ، وهو حريص على استعمال كل ما هو من انتاج وطنى فى جميع شؤون حياته ·· ليكون قدوة حسنة لغيره ··

رضى الله عن هذا الامام المجاهد بعلمه وعمله ·

(2) ش ج 4 ـ م 14/1357 هـ

فقد كان شجاعا لا يخشى فى الحق لومـة لائم ٠

وكان معلما ومربيا ، كون الرجـال ، وصنـع الابطـال ٠

وكان عابدا متنسكا ٠ عزف عن ديناه ، ورغب فيما عند الله ٠

« وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ٠٠ »



ابن باديس
وعوامل نجاحه في أداء رسالته

احمد بن ذياب
أستاذ في ثانوية فتح بالبليدة

ان صحة العقيدة ، واستنارة الفكر ، وطهارة النفس ، وكمال الخلق ، واستقامة العمل وهذا هو الاصلاح كله ـ مما يشترك في الانتفاع به جميع المسلمين بل جميع بني الانسان ، وانما نذكر المسلم الجزائري لانه هو الذي قدر ان يكون منا ، ونكون منه ـ كما يكون الجزء من كله ، والكل من جزئه ، فحاجته اشد ، وحقه اوجب .
(من افتتاحيات شهاب غرة المحرم 1355 ـ أفريل 1936)

تلك ـ أيها الاخوان الابرار ، والابناء الاطهار بعض الكلمات التي يمكن أن تكون مفتاحا لفهم شخصية المرحوم الجليل القدر ، العظيم الاثر في ابناء هذا الوطن الغالي والاقطار المجاورة وهي كلمة مضى عليها منذ قيلت أربعون سنة كاملة ،

(*) محاضرة القيت في 16 ربيع الثاني 1396 الموافق 16 أفريل 1976 بالمركز الثقافي الاسلامي بالعاصمة .

ولكنها ما تزال معنا حين نعود الى انفسنا ، ونريد تحديد هدفنا ، اذ نجدنا مؤمنين بأن « صحة العقيدة » أساس كل بناء عظيم « مؤمنين » فى الكيان الشخصى ، أو النظام الاجتماعى ، وان استنارة الفكر هى المنطلق الثابت للرقى الحضارى ، وان طهارة النفس هى الضمان للتكافل بين الاقوام ، والتعاون بين الطوائف ، وأن كمال الخلق هو الذى يتوج تضافر الجهود ، وتكامل الطاقات ، وينجح المساعى ، ثم ان صحة العقيدة واستنارة الفكر ، وطهارة النفس ، وكمال الخلق جميعها تعمل متساندة مترافقة على تنظيم الاعمال وتوزيع المسؤوليات واختيار الألزم فالألزم ، والاحسن فالاحسن ، والاسمى فالاسمى وهو ما نسميه ـ أو ما سماه المرحوم ابن باديس « باستقامة الاعمال » ٠

فهل تكون هذه الكلمات القليلة مفتاحا لفهم شخصية المرحوم ابن باديس ؟ وهل تصلح أن تكون منطلقا لدراسة أطوار حياته ؟ ومتى كانت الكلمات المحدودة ، أو الفقر المنتقاة من مقال أو المقتبسة من خطاب عنوانا صادقا لحياة حافلة بجلائل الاعمال ، عامرة بعظيم المساعى فياضة بالعطاء فى كل ميدان من ميادين العلم النافع ، والخلق الشافع ، والتوعية الجادة ، والغاية القاصدة ، وارادة الخير للخير ، وتحرى لجلال الحق ، وخدمة الوطن لقداسة الوطن والاعتزاز بالاسلام لانه الجامع بدستوره لكل تلك المبادىء ، والهادى اليها ، والمساعد على تحقيقها وازدهارها ؟ وكيف تستطيع ان تستوعب كل ذلك ؟ يقول بعض الكتاب ان شخصية الانسان تتكون من جوانب ثلاث : رأى الانسان فى نفسه ، وما يحسه فى وجدانه من طاقات ، ويتصف به من خلال ويأتيه من أعمال ، ومن رأى الناس فيه وما يشهدون به له أو عليه ، وما يكبرون فيه من مزايا ومحامد ، أو مواهب ومآثر ، ثم الواقع الذى قد يكون من يجامز الاثنين مع تعديل فى هذا ، أو ذاك ، أو تكميل وتوفيق بين الرأيين ، أو الميزانين ٠

وابن باديس ـ اذا طبقت عليه هذه النظرية يخرج مهضوم الحق لان تواضعه ، وقلة التحدث عن نفسه ، وسعيه الدائب الى الكمال يجعله لا يعطينا الكثير من خصائص حياته وسر تصرفاته وجلال موافقه الا فى نطاق محدود ٠

أما الناس فقد ينصفه قوم لكنهم لا يستطيعون انصافه لان مكاناتهم لم تكن يوما لتدانى مكانته أو تقارب آثاره ومآثره ، والانسان عادة يغلب عليه طبعه الموهوب ، وتربيته

فى بيئته ، وفهمه لاحداث الحياة ، ومعاييره الخاصة فى النقد والتحليل ، وفى التفسير والتدليل ، فتأتى دراسته ، الى حد بعيد صدى لما فى نفسه وانعكاسا لما يراه ويعتقده هو ، ولكنّ الذى يسهل علينا تفهمنا له ، ودراستنا لعوامل نجاحه ، هو ما نعرف فى الرجل من صدق فى اللهجة ، وعناية بتصوير الواقع ، والتزام بمدلول الكلمة سواء فيما يكتبُ ويحبر أو فيما يلقى من دروس ، ويرتجل من خطب ·

وابن باديس يقول عن اسرته بأن عناية أبيه به كانت ذات وزن « فهو الذى ربانى تربية صالحة ووجهنى وجهة صالحة ، ورضى لى العلم طريقة أتبعها ومتربا أرده ، وبرانى كالسهم وراشنى ، وحمانى من المكاره ، صغيرا وكبيرا ، وكفانى كلف الحياة صغيرا وكبيرا أفلاشكرنه بلسانى ولسانكم ما وسعنى الشكر ، ولاكلن ما عجزت عنه من ذلك لله الذى لا يضيع جزاء العاملين » مجلة الشهاب الخاص بختم القرآن يوليه 1938 ·

وهذه الشهادة ـ أو هذا الاعتراف من ابن باديس يضع بين ايدينا مدى المساعـدة العظيمة والتأييد المتواصل ، والتشجيع الذى ظل ينمو مع الايام ، وتتسع آفاقه على كل السنين ، كان فى مبدا الامر توجيها للسلوك ، وترغيبا فى العلم ، وانفاقا فى سبيل ما يساعد عليه ، حتى اذا احس الاب ـ والاسرة كلها من ورائه أن لابنه شأنا هان عليه بعد ذلك كل بذل مهما شق أو عظم فى سبيل ابنه ·

والذى لا شك فيه ان الابن كان يحب اباه ، وكانت لذلك الاب آمال أوحى بها اليه ، فظل الابن شعر كأنه هبة لتلك الآمال ، أو وقف عليها ·

والاب والابن معا يشعران أن فى احياء العلم أو فى السعى لتحصيله تكريما لماضى الاسرة الماجد ، وكسبا للصيت البعيد من جديد ·

يضاف الى هذه الحقيقة حقيقة الاصل الماجد ، والميراث المتأصل فى النبل ، وما يشعر به كرام بنيه وأحراره من الزهو الذى يحتاجون معه الى اقامة الدليل عليه ، واثبات الحجة على انهم أهل لتحمل المسؤولية ، والمحافظة على الحسب منها وشرف النسب حتى يكونوا مثلما قال عبد الله بن معاوية حفيد جعفر الطيار ـ ض ـ عنهم فى اعتداده بنفسه ·

لسنا وان احسابنا كرمت يوما على الأحساب نتكل
نبنى كما كانت أوائلنا تبنى ، ونفعل مثلما فعلوا

فالحافز الشخصى لابن باديس كان حافزا قويا لانه يشعر بالعزة ، ويحس فى اعماقه نوازع النبل ، ومغارس الشرف ، ولانه فى الوقت نفسه كان يجد الحماية والتاييد والتشجيع .

وقد تعودنا من أبناء الاسر الكبيرة ـ اذا وجدوا العناية ـ أن يشقوا طريقهم فى الحياة الاجتماعية بنجاح لانهم ألفوا هذه الحياة ، وسط الاسرة الكبيرة التى يوجد بين افرادها تفاوت فى الحظوة ، وتنافس على التقرب من السائس لامورها أو المتحمل لمسؤولياتها ، ويكون هناك حب والفة بين أبناء هذه المرأة ضد أبناء تلك ، وميل من هذا العضو البارز فيها لتلك الفئة أو هذه ـ ان صح هذا التعبير . ـ

فما يكاد يشب الطفل حتى يكون قد ذاق معانى الحب والبغض ، وتذوق مرارة السخط ، وحلاوة الرضا ، وتفهم أسرار الكيد لذا ، والدفاع عن ذاك الى آخر ما يوجد فى عوالم الاسر الكبيرة .

ولكن الاسرة الكبيرة ـ مع ما فيها داخليا ـ تظهر شديدة التماسك فى الخارج تدافع عن بنيها ، وتحفظ لهم كرامتهم وتتالب ضد من يتعرض لهم بالشر . أو يريدهم بمكروه وقد ظلت أسرة ابن باديس تحميه وتحيطه بالرعاية حتى مع فرنسا الاستعمارية .

فأبوه هو الذى بذل وجاهته مبكرا حتى أعطيت له «الرخصة» للقيام برسالته التعليمية فى الجامع الاخضر ولا شك ان وجاهة أبيه بين الاسر التجارية والفلاحية الفرنسية والاسرائلية ـ أو الرأسمالية القسنطينية عموما نفعت ابن باديس ، ودفعت عنه الكثير من البلاء على الاقل بالتغاضى والتسامح .

كما أن وجود أخيه ـ بعد ذلك ـ فى دار العمالة كان له وزنه فى مساعدته على أداء مهمته ، والمضى فيها ، واذا كان ابن باديس ـ لما شب عن الطوق ـ لم يستطع أن يستغله أبوه ، ولا أخوه فى صالح حياتهما الخاصة فلأن ابن باديس كان يعلم يقين العلم « ان لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » وأن مرونته ، وليونة جانبه وكونه من الذين يألفون

ويؤلفون هو الذى مكنه من أن يصاول أسرته ، ويطاولها فاذا لم يستطع أن يقودها لصالح الشعب ـ كما يريد ـ وقف لها معارضا مصاولا دون أن يسمح للمصالة والمعارضة أن تنال من حقيقة الصلة المكينة بين الابوة والبنوة ، ولا بين الرباط الاخوى الوثيق الذى يصله بأخوته وعلى رأسهم الزبير الموظف السامى فى دار العمالة ٠

فابن باديس الذى وهب نفسه ، ووقف نشاطه على خدمة الاسلام والعربية والجزائر ، كان هو ابن باديس المستقل الشخصية ، القوى فى الحق وبالحق ، الماضى العزم فى اخلاص لربه أولا ولدينه ثانيا ، ولقومه ووطنه ثالثا ونترك أثر الاسرة لنعود اليه باشارة خفيفة اذا لزم الامر مرة أخرى ٠

أما العامل الثانى فهو عامل الثقافة الاسلامية العربية وهذا العامل يمكن أن يختصر فى أن الامة الجزائرية فى جملتها لم تكن قط مفرطة فى تمسكها بالاسلام ، أو مستسلمة للمستعمر ، وانما كانت تتقى شره وتداريه مضطرة عند اللزوم ٠ لهذا نقول بأن الاسلام ـ أو الثقافة الاسلامية ـ تلقاها ابن باديس أول ما تلقاها فى أسرته ، ثم عن معلمـــه الاول للقرآن الكريم المرحوم محمد المداسى ٠

وقد تعرض باديس مرات خلال دروسه للسن التى حفظ فيها القرآن فكان يقـــول « انه حفظ القرآن حفظا جيدا وفى عمره أربعة عشرة عاما » ٠

ثم تتلمذ للاستاذ المرحوم حمدان الونيسى فكان له فيه أثر عظيم ، والذى يصفه بأنه العلامة الفقيه ٠ وفى تونس تلـــقى دروسه فى الزيتونة المعمورة ، وأساتذة الزيتونة أكثرهم لا يهتم بالتلاميذ حتى يكون له أثر خاص أو يطبعهم بطابع يحمل بعض نوازعه وميوله لتحتفظوا له بذكريات ٠ ولكن ابن باديس يذكر بالفضل أستاذين عظيمين علميا واجتماعيا هما الاستاذ النخلى ، والاستاذ الطاهر بن عاشور ٠

فاذا عدنا الى الاثر الذى خلفه هؤلاء الاساتذة فى ابن باديس امكن أن نلخصه فيما يلى حسبما كنا نسمع منه ، أو نقرأ له :

أما أثر الروح الدينية الاسلامية فى ابن باديس فيعود الفضل فيها للاسرة أولا ، ثم للمعلم القرآنى محمد المداسى ثم للاستاذ حمدان بن الونيسى ، ثم الاستاذ النخلى ،

أما التأثير الخاص فالاستاذ حمدان أوصاه بل أخذ عليه ما يشبه العهد أن يستكف عن الوظيف ، ولا يجعل منه غلا في عنقه ، وأما الاستاذ النخلي فقد ذكر له يوما ما يجده في نفسه من التبرم والقلق بأساليب المفسرين ، وتأويلاتهم الجدلية ، واختلافاتهم فيما لا ينبغي أن يقع فيه الخلاف فكان أن قال له النخلي :

« اجعل ذهنك مصفاة لهذه الاساليب المعقدة ، وهذه الاقوال المختلفة ، وهذه الآراء المضطربة يسقط الساقط ويبقى الصحيح » ·

ويعقب ابن باديس على اثر هذه الكلمة التي نجدها مسجلة في العدد الخاص بختم القرآن من الشهاب فيقول :

« فو الله لقد فتح بهذه الكلمة القليلة عن ذهني آفاقا واسعة لا عهد له بها » ·

والذي يظهر ان ابن باديس في مطلع شبابه ، وفي عنفوانه لم يكن يهتم للغة العربية ، أو يعيرها كبير اهتمام الا بالقدر الذي يحتاج اليه في مصطلحات العلوم الفقهية، والعلوم اللسانية وكتب التفسير والاصول ، والحديث والتاريخ والتراجم حتى اذا كان في آخر مراحل تعلمه بالزيتونة صادف أن لقي ـ وهي يبحث عن المعرفة والازدياد من العلم ـ صادف أن لقي (الاستاذ المرحوم الطاهر بن عاشور) فتلقى عنده دروسا من ديوان الحماسة يقول عنها ابن باديس مسجلا وقعها في نفسه ، وتأثيرها في ذوقه ، وصقلها لملكتــه في العربية (وكانت من أول ما قـرأت عليه فقد حببتني في الادب ، والتفقه في كلام العرب ، وبثت في روحا جديدا في فهم المنظوم والمنثور ، وأحييت مني الشعور بعز العروبة والإعتزاز بها كما أعتز بالاسلام) انظروا « النص » في الصفحة 75 من الجزء الرابع من كتاب (ابن باديس حياة وآثـار) للدكتور عمار طالبي ، وأصـل النص مقال نشر في جريدة البصائر ·

واذا نحن تأملنا مدلول هذه الكلمات العابرة من المرحوم ابن باديس علمنا ان الرجل بعد هذه الدروس أصبح عظيم الاهتمام بالعربية لا لانها تعينه على فهم القرآن الكريم ودراسته الآثار النبوية البليغة ، وتساعده على فقه اسرار اللغة العربية ، وانما لتكــون له ـ في الوقت نفسه ـ أداة طيعة لخدمة الاسلام ، وتقريب مبادئه ، وتسهيل ايصالــه

للنفوس وتحبيبه للقلوب ، وايناس الارواح المتعطشة بالكشف عن ينابيعه الصافية ، وموارده العذبة ، وحياضه النميرة . واذا كان ابن باديس يقول ـ فى جملة ما يقول ـ

« انى امرؤ جبلت على حب شيوخى وأساتذتى وعلى احترامهم الى حد بعيد، وخصوصا بعضهم » فمن هذا الخصوص هؤلاء الثلاثة الذين ذكرناهم فان الاحترام للاستاذ ـ فيما نعهد ـ يضاعف من سخائه بالعلم ، وجوده بالنصيحة ، ويستحثه على الاهتمام بالتلميذ، وما ينبغى له أن يعنى به ، وما يجب أن يتجنبه ، وهكذا كان التجاوب عظيما بين ابن باديس وأساتذته ولا سيما الشيخ حمدان بن الونيسى والشيخ النخلى والشيخ ابن عاشور ،

وكل من النخلى وابن عاشور كانا ـ أثناء عهد ابن باديس بالزيتونة ـ يعنيان بالروح الاصلاحية التى ينشرها فى الشرق يومئذ تلميذ محمد عبده الوفى الاستاذ رشيد رضا ، ويعلى شأنها فى سوريا هذه الحقيقة حقيقة الاصلاح الدينى فى اخريات مراحله بجامع الزيتونة ، حيث اتصل بابن عاشور اثناء تحضيره لنيل الشهادة العالمية كما اتصل بالنخلى بعد نيلها ، ويومئذ لم يعد فى حاجة الى سماع ما يقول الرجعيون عن الفكرة ، أو يحاولون به طمس معالمها . وقد عبر ابن باديس نفسه عن هذا الاتجاه حين قال :

« وما تخلصت من تلك البيئة الجامدة ، واتصلت بالشيخين النخلى وابن عاشور حتى تحصلت على العالمية ووجدت لنفسى حرية الاختيار ، فاتصلت بهما عامين كاملين كان لهما فى حياتى العلمية أعظم الاثر » نفس المصدر المشار اليه سابقا .

والآن ماذا عن ابن باديس ؟ وأنى بلغ من سلم الثقافة ؟ وكيف نستطيع أن نقدر مستواه العام فى حقل المعرفة ؟ لقد قرأ ابن باديس سنوات اربعا بقسنطينة ثم سنوات أربعا بتونس كان فى اثنتين منهما معلما ومتعلما فى الوقت نفسه ، وهو يحمل الشهادة العالميــة .

فهل يدل اسم الشهادة ـ وحده على مستواه ؟ ـ ومتى كانت الشهادة عنوانا عـلى المستوى ؟ اللهم الا بمقدار الثقة بالمعهد الذى أعطاه ، وشهرة خريجيه . فاذا اردنا أن نعرف مدى ما يستطيعه تمليذ جاد عظيم الجد ، قد وفر له أبوه وأسرته كل ما ينبغى ان

يوفر له من عون مادى وافر ، وآخر معنوى الى حد بعيد · يجب أن نصغى اليه وهـــو يحدثنا عن مبلغ عنايته فقد سمعت منه ذات يوم بالجامع الاخضر ، وهو يريد أن يوحى الينا بما ينبغى ان نكون عليه فيقول :

« كنت أسهر الليل للدراسة والمطالعة مستعينا ببعض المنبهات لكنى حين أحس أن النوم أصبح يغالبنى ، ولم تعد المنبهات العادية تنفع فى دفعه عمدت الى (مطرح) أضعه على الارض واضع مرفقى على حافته حتى اذا أخذتنى تهويمة من الوسن زل بى مرفقاى أو أحدهما فيلامس الآجر باردا فأستيقظ وأجدد مطالعتى أو مراجعتى حتى أفرغ منها»·

فهذا العناء العنيف يبذله تلميذ بر بأبيه ، بر بأساتذته لابد أن يكون محصوله العلمى الادبى ، ومستوى ثقافته أعمق مما نصوره ، أو تشير اليه شهادته أو شهاداته ·

واذا كان مستواه العلمى قد أصبح مستوى محترما ، وكان العالم يومئذ يتهيأ لحرب كبرى ، ويتحفز لها ، وكانت نذرها تظهر فى الافق السياسى والاقتصادى والاجتماعى مكفهرة قائمة فلماذا لا يقوم ابن باديس برحلة « حج وحاجة » كما يقول الجزائريون ···

وكانت الرحلة التى لقى فيها جملة من العلماء الاعلام بما فيهم أستاذه الاول حمدان الونيسى ولقى فيها الشيخ محمد بخيت المطبعى الاول بالمدينة المنورة ، والثانى بمصر ·

وعاد ابن باديس وهو خبير بالكثير مما يجرى فى الشرق وما يؤمل للنهضة الـتى كانت نذورها الصالحة قد أخذت تنمو نموها الصالح فى الشام ومصر ، وما جاورهما ، فكان عليه أن يسهم فيها بالرسالة التى يستطيع اداءها فى الجزائر فهل أعد لها عدتها ؟ وكيف ينبغى ان تكون ؟ وما هى الوسائل التى يجب أن يستعان بها ؟

يقول ابن باديس :

« لا يستطيع ان ينفع الناس من أهمل أمر نفسه ، فعناية المرء بنفسه عقلا وروحـــا وبدنا لازمة له ليكون ذا اثر نافع فى الناس على منازلهم منه فى القرب والبعد » ·

ومن كانت هذه فكرته فلابد ان يكون لها وزن عملى فى حياته ولهذا لا نشك بل نتأكد ان ابن باديس حين فكر وقدر هداه تفكيره وتقديره الى وجوب المسارعـة بنشر العلـــم ولا سيما منه ما كان متصلا بالثقافة الاسلامية العملية سلوكا وتهذيبا ، ومعاملة بـين

الاسر الخاصة ، والمتساكنين عامة ، والى جانب الثقافة الاسلامية الواسعة بما فيها من تاريخ وحضارة يجب ان تتأصل الثقافة العربية ، ومن هنا جاءت مع الايـام شعارات « الاسلام ديننا والعربية لغتنا والجزائر وطننا » ·

والذى يلفت النظر أن حماس ابن باديس اللطيف الظريف الهين اللين كان شديدا فى الحق ، صلبا فى التمسك بما يرى انه الحق ، لهذا لم يطل العهد به فى الجامع الكبـير حتى اصطدم بالمفتى المولود بن الموهوب خشية من هذا على زعزعة مكانته فى الشعب ، وشهرته فى الاوساط الادارية ، وحصل له اذنا بالتعليم فى الجامع الاخضر ·

وكانت هذه هى المحاولة الاولى لعرقلة ابن باديس ، والوقوف دون مشاريعه ·

والاحرار اذا وجدوا أمامهم تحديات ـ مهما كانت ـ لم يهنوا ولم يحزنوا ، ولـم يستسلموا أو ييأسوا ·

وهنا ثارت حمية محمد مصطفى بن باديس فوقف الى جانب ابنه ، واستغل نفوذه فى الاوساط الادارية ، وحصل له اذنا بالتعلم فى الجامع الاخضر ·

وبدأ ابن باديس عمله تجديدا فى أساليب التعليم تجديدا فى الكتب التى تختـار ليتعلم منها التلاميذ ولكن بطريقة هادئة وادعة ليألفه الناس ، ويألف التلاميذ الخواص دروسه ، وليعرفوا قيمته ، والغاية التى يسعى بهم اليها ·

وجاءت الحرب فكانت الاحكام العرفية ـ أو ما يشبهها ـ نفسها تستوجب الاسرار أكثر من الاعلان ، والمضى فى الخطة ـ دون دعاية ، ولا كثير تبشير بالمهمة السامية ·

واثر نهاية الحرب ظهرت مساعى الامير خالد فى الحقل السياسى ، وكان للجزائريين دالة ـ أو منة ـ على فرنسا اذ كان شبابها وقودا للحرب ، وعاملا من عوامل الانتصار ، فهل تعطى فرنسا شيئا ما مقابل ذلك ؟ وهناك مبادىء الرئيس الاميركى « ولسون » التى كانت تدعو لحق الشعوب فى تقرير المصير فهل يسمح للجزائر صوت فى هذا الميدان فيخفف على الاقل من بعض الضغط والقوانين الاستثنائية ؟

كانت هناك مساع واسعة ، ولكن الاستعمار بذل ما استطاع حتى يفرق عن الامير خالد جميع صحبه ، ويلقى به فى المنفى بعيدا عن القطر الجزائرى أما ابن باديس فكان

فيما يظهر يأمل ويعمل ، ولكنه حتى الآن ما يزال مؤمنا بأن « العلم » هو الذى ينقص الامة الجزائرية بالدرجة الاولى وهو يرى :

« أنه لا أدل على وجود روح الحياة فى الامة وشعورها بنفسها ، ورغبتها فى التقدم من أخذها باسباب التعليم ذلك التعليم الذى ينشر فيها الحياة ويبعثها على العمل ، ويسمو بشخصيتها فى سلم الرقى الانسانى ، ويظهر كيانها بين الامم » وأحسبنا كلنا مع عبد الحميد فى هذه الفكرة ، وقد تعتبر خيبة الامير خالد لم تكن لتقع بتلك السهولة لو أن الشعب متعلم واع ملتف حول زعيمه ·

غير أن ابن باديس ـ وقد مضت عليه عشر سنوات فى تأديته لرسالته التعليمية أصبح يشعر بأن الموعد الذى يجب أن تساند فيه حركة التعليم صحافة حرة حبة قد آن أوانه فهناك كثير من تلاميذه أصبحوا موزعين فى القطر من شرقه الى غربه ومن شماله الى جنوبه ·

وهناك طائفة منهم أكملت تعلمها بتونس، أو هى على وشك الاكمال، وهم سيشاركون ـ ولا شك ـ فى التحرير والمراسلة والتوزيع والدعوة للمساندة ـ اذا لزم الامر ·

وبدأ يكتب مقالاته فى بعض الجرائد الموجودة على علاتها ، ثم بدا له فسعى فى تاسيس جريدة المنتقد ثم خلفتها الشهاب فكان اختيار الاسمين وحده عنوان رسالتهما وكان ذلك سنة 1925 ·

وهكذا يمكن لمثل ابن باديس أن يبتهل الى الله بمثل هذا الدعاء حين قال :

« نسأل الله أن يجعل فينا ما ينفع عباد الله ، وأن يجعل ما نعطى أكثر مما نأخذ ، وما نعمل أكثر مما نقول آمين يا رب العالمين » ·

ودعاء الانسان ربه ـ فى الكثير الغالب ـ يحمل بين طياته أغلى الامانى ، وأعظم الآمال ·

ويحتاج ابن باديس الى سند فى الجريدة أو المجلة ، والسند الذى يهمه ـ فى الدرجة الاولى ـ هو السند المعنوى العلمى الادبى ، وكان ان التقت العواطف والمشاعر فالتفت حين قرأ تلاميذه واحباؤه مقالاته فى المنتقد والشهاب فتشجعوا أو كتبوا ·

ولم يكن ابن باديس ليقص فكان يزور بسكرة مرة ليلتقى بالشيخ الطيب العقبى العائد من الشرق منذ سنة 1920 ، وليجتمع بامثال المرحوم الامين العمودى ثم الاخوان الآخرين ممن كونوا فيما بعد أسرة « الاصلاح » ويزور ضواحى سطيف مرة أخـــرى ليلتقى بامثال المرحوم الاستاذ الابراهيمى ، وتاخذ الاهتمام بالمشاريع تتزايد وتنمـو خمائر فى الضمائر والقلوب والعقول وتلقى بها الشفاه فتناقش وتعدل وتبقى تترصـد الفـــرص ٠

ففى سنة 1924 كانت محاولة لتاسيس « جمعية الاخاء الأدبى » ٠

أما سنة 1931 فقد تاسست جمعية العلماء تحديا للاستعمار الفرنسى ، وردا عمليا على دعواه بأنه يعد قرن من الزمن وهو رابض فى التراب الجزائرى لم يعد له من سبيل للتفكير فى مغادرته ٠

وتاسيس جمعية العلماء صار ابن باديس عضوا عاملا فى هيأته ، ولكنه الذى يتحمل المسؤولية الاثقل امام الدولة ، وأمام الاحزاب وأمام الامة ، ولكنه يبدى النشاط المتواصل فلا يعرف الكلل ، ولا يشكل الملل وانما يمكن ان يقال عنه ان احسن ما يصدق عليـه هو قولـــه :

« اذا نظرنا فى عمل الماضى الذى قدمنا ، انبعث فينا الرجاء والامل فيما نستقبل ، واصدق الامل ما انبنى على عمل فنتقدم باذن الله للعمل فى سبيل ترقية المسلم الجزائرى داعين الى العدل والاحسان والالفة والرحمة بين جميع المتساكنين بهذا القطر، والى التفاهم والتعاون على ما فيه هناء وسعادة الجميع » « شهاب أفريل 1936 » ٠

وتمضى حركة جمعية العلماء قدما فى عهد ابن باديس معنية بالتعليم اولا ، والاصلاح الاجتماعى الدينى ثانيا ، وتوجيه لسياسة فى الاحزاب الوطنية من وراء مـرة ومباشرة أخرى ٠

وتجىء قضية المؤتمر الاسلامى فيعمل ابن باديس جادا على قتل « مشروع السيـد فيولات » الى الابد كما جاء فى تعبير الشهاب عدد المؤتمر لانه مشروع يفرق الامـــة ، ويشتت وحدتها ، ويصدع صفوفها ٠

وتقع (مؤامرة اغتيال المفتى ابن دالى) فيكون لابن باديس الى جانب مواقفه الاولى مواقف أشد صلابة ، وأمهر فى الجدال بالتى هى أحسن وقرع حجج المبطلين بثبات جاش ورباطه قلب ، ويقين المؤمن الصادق ٠

وقد مضينا طويلا ولم نتعرض للعوامل الباطنية ـ ان صح هذا التعبير ـ من ايمان عميق الى اعجاب بالشعب الى حسن تقبل الى استقامة نادرة وتدين شديد ٠

وبكلمة موجزة نقول ـ والله يشهد ـ بأن ابن باديس كان يتخذ القدوة الحسنة من سيرة رسول الله وسيرة صحبه فلا يحيد عن الصراط السوى فى كل ما يستطيع أن يصل اليه اجتهاده ، وتساعده عليه ظروفه ٠

واسمحوا لى يا أبنائى الاعزاء ، واخوانى النبلاء وبناتى الغاليات ان انهيت الموضوع وهو ما يزال يتطلب الافاضة ، ويستحق البيان ، ولكن لنؤجل ذلك الى فرصة أخرى ٠

وحسبنا الآن أن ننهى هذه الكلمة بل نقتطعها اقتطاعا لنتابع ابن باديس فى بعض الفقر من صائب أحاديثه ، وجليل حكمه وبليغ آرائه ، عسى أن تكون فيها العبرة والعظة بهذه المناسبة الكريمة ، ولعلكم واجدون فيها متاعا للتفسر ، وثمرة دانية للقلب ، ومنهاجا سويا لمستقبلكم الماجد بالعلم الحافل بالاعمال ، الصالح المصلح لبناء الوطن الغالى الحبيب ٠

فمن بين كلماته التى ينبغى أن تكونوا على علم بها قوله فى احدى التوجيهات للشباب :

أيها الشبان أرجوكم أن تاخذوا العلم بأى لسان كان وعن أى شخص وجدتموه ، وان تطبعوه بطابعنا لننتفع به الانتفاع المطلوب كما أخذه الاوروبيون من أجدادنا وطبعوه بطابعهم النصرانى وانتفعوا به ، وهم اذا انكر بعضهم اليوم فضلنا عليهم فذلك شأنهم ، أما نحن فلا ننكر من أسدى الينا الخير الخالص ، ونعترف له بالجميل ، ولا علينا فيمن « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون » ولا يكن فى صدرنا من حالهم حرج فصدورنا بالايمان بالله ، والثقة به أوسع ، وعقولنا أرجح ، وديننا أرحم وأكمل ٠ ج 4 ص 314 من آثار ابن باديس للدكتور عمار طالبى ٠

ومرة نصغى اليه يقول :

رزقنا الله القوة في قلوبنا وعقولنا وأرواحنا وأبداننا ، وأشعرنا الرحمة بأنفسنا وببعضنا وبغيرنا انه القوى المتين الرحمن الرحيم ·

وأخيرا نبتهل الى الله معه فى قوله :

« جمع الله قلوبنا على الحق ، وأقوالنا على الصدق ، وأعمالنا على العدل والاحسان والحمد لله رب العالمين » ·



عبد الحميد بن باديس
الرجل العظيم

احمد توفيق المدنى
وزير مفوض

بسم الله والحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله



سادتى الجلة اخوانى الفضلاء ، سيداتى الصالحات ٠

اننا نجتمع اليوم ، كما كنا نجتمع فى مثل هـذا اليوم منذ قرابة الأربعين سنة ، وعيوننا دامعة ، وقلوبنا خاشعة ، فى ذكرى بطل من أكبر ابطالنا ، وعظيم مـن ابرز عظمائنا ، وقائد من ألمع قادتنا التاريخيين ، عبـر مئات الاجيال ٠ ذلك الذى اتخذ العلم سلاحا ، وتسربل العقيدة وشاحا ، فنفخ فى الامة روح الامل ، وبذر فيها بذور العمل ، وتقدم عملاقا فى ميادين الكفاح ، دون وهن

(I) محاضرة القيت فى المركز الثقافى الاسلامى بالعاصمة بمناسبة الذكرى السابعة والثلاثين لوفاة الشيخ عبد الحميد بن باديس يوم I6 أفريل 1977 ٠

أو وجل ، فسطع النور من فمه ومن قلمه ، وتقشعت السحب ، وارتفع صوت الحق ، ووهنت حجة المبطلين ، وتلاشت اكاذيب وترهات الدجالين ، في السياسة وفي الدين ، واخذ شعبنا العملاق يسير منذ تلك الايام قدما نحو اهدافه السامية ، مستنيرا بتلك المبادىء ، سالكا ذلك الطريق المستقيم طريق الفدائية في العلم والعقيدة ، وطريق الفدائية في القراع والجهاد ٠

ذلك هو الرجل العظيم الذي غرس فأكلنا ؛ والذي بنى فسكنا ؛ والذي عبد الطريق فسلكنا ؛ والذي فجر نور الهدى واليقين فاستضأنا ، أي وربي ، ذلك الرجل العظيم هو عبد الحميد بن باديس ٠

فاذا كانت الجزائر الحرة المستقلة ، وهي ترتع تحت اعلام النصر المبين ، قد اتخذت من يوم ذكراه الخالدة ، عيدا للعلم ، ومهرجانا للثقافة ، فقد وفته حقه ، وخلدت ذكراه ٠

لنقف هنا قليلا، أيها السادة، قبل الالمام بتطورات هذه الحياة القصيرة بمداها ، الطويلة بآثارها ، لنعرف ما هي حقيقة الرجولة الكاملة ، وما هي عظمة الرجل في التاريخ ٠

ليس الرجل هو الذكر البالغ من بني آدم ، كما يعرفه الاقدمون ، فالذكور قديما وحديثا كثرة كاثرة ، اما الرجال الحقيقيون فهم ندرة غالبة ، ولقد يمر جيل ، أو تمر اجيال بشعوب عدة ، لا تعرف فيها رجلا ، تعيش خلالها عيش السائمة ، وتموت خلالها موت الحشرات حتى اذا ما قيضت لها العناية الالهية رجلا حقا ، اخرجها الله به من الظلمات الى النور وبوأها به مقاما محمودا بين الامم ٠

انما الرجل الحق ، أيها السادة والسيدات ، هو الرجل الذي يعيش بفكره ، ويحيا بقلبه ، ويشعر بادراكه ، ويسخر الحياة وما فيها لنفع المجموع ، ولا تسخره الحياة لخدمة الجسم الفاني وشهواته ، ومطالبه ٠

انما الرجل الحق ، أيها السادة والسيدات ، هو الذي يسير بقوته المجتمع ، الى حيث يريد هو ، لا الذي يساير المجتمع ، ويذوب ويتلاشى فيه ، ويضمحل معه ٠



60 الامام الشيخ عبد الحميد بن باديس

انما الرجل الحق ، أيها السادة والسيدات ، هو الذى ينشأ لغاية ،ويعمل لهدف ، ويسعى لعظيم تستفيد منه الجماعة ، ولا يستفيد هو من الجماعة ٠ يذوب فى سبيل النفع العام ، ويتخذ من كل قواه سلما تتدرج عليه الامة نحو المعالى والكمال ٠

انما الرجال الحق ، هو صاحب المبدأ الذى لا يتزعزع ، والعقيدة التى لا تؤكل من اطرافها ، والسعى المتواصل الذى لا يكل ولا يمل ، والايمان الراسخ الذى تذوب الجبال ولا يذوب ، يقول كلمة الحق فى وجه الظالمين ولا يخاف عقباها ٠

ان هذا الرجل ، بهذه الصفات التى ذكرت ، هو عبد الحميد بن باديس !

ثم ، ما هى العظمة ، سادتى وسيداتى ، بالنسبة للرجل ؟

اننا لا نفسر هذه الكلمة لغويا ، ولا نفسرها فلسفيا ، فالتفسير اللغوى والتفسير الفلسفى لا يكفيان عندى لبيان المعنى العميق لهذه الكلمة : انما تفسيرها التاريخى ، اذا ما نحن وعينا التاريخ واستخرجنا منه حكمته وفصل خطابه هى : فناء الفرد فى سبيل المجموع ، بصفة يبقى اثرها حيا فى ذلك المجموع اجيالا عديدة ، بعد فناء الفرد ٠

فاذا ما نحن أخذنا بهذا التعريف ، وجدنا ان الرجل العظيم حقا ، فى النصف الاول من القرن العشرين ببلادنا ، هو عبد الحميد بن باديس ٠

بهذه الصفات ، وبهذا التعريف ، نستطيع ، سادتى وسيدأتى ، ان نمر سراعا ، كما يشاء الوقت ، لا كما نشاء نحن ، بحياة هذا الرجل العظيم ، هذا العبقرى الملهم ، هذا الذى قلت عنه ما اعتقده فيه ، عندما تشرفت باهداء كتابى « محمد عثمان باشا داى الجزائر » اليه : « الى الرجل الذى احيا أمة ، وانشأ جيلا ، وكان شخصه الكريم نقطة الاتصال بين الجزائر الغابرة الماجدة ، والجزائر الحاضرة المجاهدة ، والجزائر المقبلة الخالدة ، الى عبد الحميد بن باديس ، رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، الراسخ فى الاعماق أصلها ، والمرتفع الى العلياء فرعها » ٠

اننا نرى العبقرية ونرى النبوغ ملازمان لهذا الرجل العظيم فى كل أطوار حياته ، منذ ان كان صبيا يجلس فى الكتاب لحفظ القرآن الكريم ، الى ان توفاه الله ، بعد اداء رسالته راضيا مرضيا ، وما بين تلك الجلسة المباركة ، وهذه الميتة المبكرة ، وهو

لا يزال فى سن العمل والاجهاد ، آيات بينات من جهاد ، وتضحية ، وثبات ، ونفع ، وارشاد ، وكتابة ، وخطابة ، ونصر للحق على قلة أنصار الحق ، ودحض للباطل ، على كثرة أنصار الباطل • « **ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم** » •

عرفت الرجل العظيم عشرين سنة • وجاهدت الى جانبه جهادا موفقا ميمونا ما يزيد عن العشرة أعوام • فإذا ما تحدثت اليوم عنه ، وعن كفاحه ، وعن جهاده ، وعن فضائله ، فانما اتحدث حديث الشاهد المؤمن بقوله تعالى : « **ولا تكتموا الشهادة ، ومن يكتمها فانه آثم قلبه** » • وقوله عز من قائل : « **وما شهدنا الا بما علمنا** » •

كان أول عهدى به ، بين رحاب جامع الزيتونة الرفيع العماد ، أيام كان كعبة القصاد ، فى حلقات حية عامرة ، فيها العلم ، وفيها التقوى ، وفيها الصلاح • اتلقى على شيوخ جلة فيضا من العلوم ، اتسعت بها المدارك ، وسما بها الفكر • كنت مبتدئا يومئذ فى التعليم العالى ، وكان رجلنا العظيم منتهيا • وبينى وبينه فى السن عشرة أعوام • انما تلقينا معا على العلامة الشيخ محمد النخلى ، دروسه المجمعية فى علم التفسير ، وكان عبد الحميد يناقش ويجادل ، ولا يترك صغيرة ولا كبيرة الا تصدى لها بحثا عميقا ، وكان الشيخ محمد النخلى ، كما كان كبار الطلبة يعجبون بتلك المناقشات الباهرة ، والمجادلات العميقة التى تفتح أمامهم افاقا فسيحة من الفهم والادراك • والغوص العميق فى معانى القرآن الشريف ، واعجازه •

وكنا نجتمع حول كتبى واحد ، هو محمد الامين ، نطلع عنده على كل جديد اخرجته مطابع الشرق ، كنا نطالع كثيرا ، ولا نشترى لقلة المدد الا قليلا • وكان الطلبة يصولون ويجولون فى أغلب الميادين ، خارج ساعات الدراسة ، اما الشيخ فكان يؤم توا غرفته البسيطة ، يطالع ويدرس ، ويخطط للمستقبل ، لا يجادل الا فى علم ، ولا يتحدث الا عن مستقبل الجزائر الذى كان يريد بناءه من جديد ، فوق أسس من الدين والعلم ، والهدى والجهاد •

ثم افترقنا ، ولكل وجهة هو موليها ، فاستبقوا الخيرات ، وأم مسقط رأسه قسنطينة الغناء ، حيث رفع لواء التبشير العلمى ، وجاهر بدعوة التجديد والاصلاح ،

سائرا مع القاعدة القرآنية : « **ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن**» · فالغاية عنده هى الوصول بالشعب الى المستوى الرفيع الذى يحطم ويلات الحاضر الاليم ، ويقيم أسس الجزائر المقبلة ، الواعية العاملة ، الهادفة ، بينما انضممت انا ، فى غمرة من التفاؤل ، وفى اندفاع ثورى عارم ، الى صفوف الحـزب الحر الدستورى الناشىء ، فما عتم عبد الحميد ان أصبح فى قسنطينة نارا على علم ، وما عتم اخوكم هذا ان أصبح أمينا عاما مساعدا لحزب الاحرار الدستوريين ، ثـم جمع الله بيننا بعد حين ، فاذا بنا نسير فى طريق واحد لا التواء فيه ، طريق زرع أشواكا ، واكتنفته العراقيل ، وحف بالمكاره ، انما كنا نرى فى آخره ، بفراسة المؤمن الصادق ، استقلال أوطاننا ، واتحاد مغربنا الكبير وسعادة شعوب الاسلام ، وارتفاع شأن الدين أعلى عليين ·

قص على يوما ، ونحن بين آكام من الكتب بمكتبة الخلدونية ، قصة زيارته للحرم المدنى الشريف وما رأى فى مدينة الرسول ، من سمو ومن انحطاط ، وما شاهده فى بعض علمائها ــ وكان فيها علماء جلة من ارتفاع فى المدارك ، ومن سفالة فى الاخلاق ، قال : « وقفت وقفة اجلال وخشوع أمام قبر محمد وصاحبيه ، وأحسست انى قـد تجردت يومئذ من كل شوائب البشرية ، واصبحت روحا صافية طاهرة وغابت عنى كل ملابسات الزمان والمكان ، وخاطبت روح محمد صلى الله عليه وسلم ، وكاننى أراها فقلت : يا رسول الله هذا عهد بينى وبينك ، لأعيشن فى سبيل دينك وأمتـك مجاهدا ولأموتن فى سبيل دينك وأمتك شهيدا ، والله على ما أقول وكيل » ·

ولقد بر بوعده ، برور الرجال العظماء · فما قضى يوما من أيام حياته الغالية الا مجاهدا كريما ، وقد أخذ الداء الفتاك يستأثر بجسده الواهى ، وهو لا يأبـه بذلك ولا يستمع الى أقوال الاطباء الا قليلا · ولطالما وصفوا له الدواء ، فاذا بالايام تمـر تباعا ، والدواء عند رأسه باقيا على حاله · كان رحمه الله لا يأبه بالجسم ، اطلاقا ، أبدا ، بل كانت القيمة الوحيدة لديه هى الروح ، كان يتعهدها ، كان يطهرها ، كان يغذيها بالتقوى والايمان ، كان يرعاها ببث العلم بين ناشئة الشعب ، وتفجير طاقات

63

الهدى بين كل أفراد الامة ، وتحطيم جدران اليأس والخيبة التى أحاط بها الاستعمار بلادنا المجاهدة ، بعد تضحياتها الجمة ، وكفاحها الغزير ·

قلت له يوما فى مكتبى ، وقد رأيت عليه علامات الفاقة والاعياء : يا أخى ، أمـا آمنت بان لنفسك عليك حقا ؟ امّا قرأت تفسير قوله تعالى : **ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله اليك** ، فأجاب فى هدوء غريب « كلا يا أحمد · ما عملت طول حياتى الا بهذه الآية الكريمة · ان نصيبى من الدنيا هو بث العلم ، واعداد الناشئـة ليوم رهيب ، وتجهيز الشعب بما يقوى روحه ويرجع له الامل ، وحفر الاسس العميقة التى يقيم عليها الشعب جدار حياته الحرة المقبلة · وبذلك فى نفس الوقت ، أحسن كما أحسن الله الى » ·

وانتصب الرجل العظيم مدرسا ، واتخذ من مسجد سيدى قموش بقسنطينة معقلا له · وأخذ الطلبة يتوافدون عليه من كل حدب ، فغصت الرحاب ، وضاقت حلـق الدرس ، وما ازداد خبره انتشاراً ، الا ازداد عدد الطلبة حول ذلك المعقل النورانى العظيم ، الى ان أصبح ذلك المعهد الصغير يضم ما يقارب الالف من الطلبة · وكـان يلقى عليهم ، من بعد صلاة الفجر ، إلى بعد صلاة العشاء ، كل يوم ما عدا الجمعة ، سبعة دروس تتناول مختلف علوم الاسلام ·

ولم تكن عظمتـه ، سادتى وسيداتى ، مرتبطة بذلك الكـم من الدروس المختلفة المتباينة بل كانت العظمة مرتبطة بكيفية تلك الدروس ، بمناهجها ، بالفكرة العالية التى تمليها وتهدف اليها فقد كان فى تفسيره لآيات القرآن، وللمنتخب من أقوال الرسول، يبث آراء وأفكار ابن تيمية السلفية ، الصالحة ، ويحارب بشدة وصلابة تلك الخرافات التى الصقت بالدين ، وهو منها برىء ، وما أصبح للناس من الدهماء ومن انصـاف العلماء عقيدة راسخة من اباطيل وترهات الاسرائيليين ·

لقد كان رجلنا العظيم متصلا ، منذ ان شب فى العلم عن الطوق ، بجماعة العروة الوثقى السلفية التى أسسها مصلح الاسلام العظيم ، جمال الدين الافغانى ، الداعية ، المفوه ، المحجاج ، كما اتصل اتصالا وثيقا بالشيخ رشيد رضا صاحب مجلة المنـار الاسلامى ، وراوية شيخ الاسلام محمد عبده ، وكانت بينهما مناقشات ومجادلات ·

كانت كل هاتيك الافكار والمعاني ، والآراء ، تملا دروس الرجل العظيم ، وتسيل مع روعة بيانه حكمة وفصل خطاب · يتلقاها الطلبة الميامين بقلوبهم لا بآذانهم ، وتعيها أنفسهم الطاهرة ، ثم هم يتحدثون عنها ، ويبشرون بها ، ويجادلون المخالفين فيها ·

اما في التاريخ ، فقد اتخذ منهاجا ثوريا ، يقوى النفوس ، ويبعث ما نام من العزائم، متخذا من سيرة الرسول الاعظم مثلا يحتذى في القوة والشجاعة والبأس ، ونصرة الحق ، ومحاربة الباطل ، والثبات على المبدأ ، والصبر على الاذى ، وبناء المستقبل الزاهر الشريف لبنة لبنة ؛ وجمع الفئة الصالحة من رجال الامة حول كلمة الله، ليقارع بهم الفئة الطالحة المضلة منها ، واتخاذ المواقف المختلفة ، من السماحة الى الشدة ، حسب مقتضيات الاحوال محتجا بقوله تعالى ، في موقف اللين ، **ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هي أحسن** · وبقوله تعالى ، في موقف الشدة والصلابة : « **يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم** » ·

وهكذا ، كان يتخرج من بين يديه رجال ، ودعاة ، وقادة ، رأيناهم ـ ولا نزال والحمد لله نرى بقاياهم ـ يتبوأون المقاعد الاولى في مختلف نواحي الكفاح الاسلامي الوطني ، وكان لهم ـ يشهد بذلك العدو والصديق ـ القدح المعلى في معمعة الكفاح الوطني الذي جعل لحمته الدم القاني ، وجعل سداه الارواح الطاهرة ، يقودون الكتائب ويبشرون بنصر الله الى جانب اخوان لهم اموا المعركين ، مجاهدين ، لا يعرفون الا انهم جنود الله ، وانهم يموتون في سبيل الله · فكانوا في ساعات الراحة ، وبين قصف المدافع وألسنة اللهب ، يجلسون الى اخوانهم أبناء باديس العظيم ، أو التابعين لهم باحسان ، يتلقون عنهم ما احرمهم الاستعمار اللعين منه ، من أسرار الدين ، وعظمة الاسلام ، وما اعده الله للمجاهدين وللشهداء ·

بل ان مراكز التجمع والمحتشدات ، وساحات السجون المختلفة ، قد أصبحت بنعمة من الله وفضل ، حلقات دروس تفيض علما وحكمة وتوجيها ، تتدفق من أفواه أبناء باديس فتغذى العقول ، وتفتح الافكار ، وتجمع الى روح التضحية والفداء ، نور العلم والتقوى ·

واقتحم عبد الحميد الرجل العظيم ، الى جانب ميدان نشر العلم وبث الدعوة الاصلاحية ميدانا جديدا ، هو ميدان الحياة الصحفية ـ وما أوسع هذا الميدان ، وما الذ الكفاح فيه ـ ولعل الكثير منكم سادتي وسيداتي ، لا يعلم ان ابن باديس قد استهل حياته الصحفية بمقالات متواصلة كان ينشرها في جريدة النجاح ، لاول عهدها ، ولعل الكثير منكم لا يعرف كذلك ، ان ابن باديس كان يتخذ يومئذ لمقالاته امضاء مستعارا ، هو « العبسى » مستمدا ذلك الاسم من شهامة وهمة واقدام عنترة بن شداد العبسى ·

ثم تقدم خطوة أخرى جريئة كان لها الاثر الكبير الفعال على حياته ، وعلى حياة الامة معا ، بتأسيسه لمجلة « المنتقد » التى ما عاشت الا قليلا جدا ، ولقد فوجئت الحكومة الاستعمارية وكل الاوساط الرجعية ، بتلك المجلة التى اقضت مضجعها ، فقضت عليها ، لكنها كانت قد فتحت فى عالم النشر وعالم الدعوة الاصلاحية والاجتماعية ، صفحة جديدة ، خالدة ، لا تبليها الايام ·

كنا يومئذ نجتاز سنة 1925 ، وكان من ثمرة كفاحى بتونس ، فى ميدانى السياسة والمجتمع ان ضاق بى الاستعمار الفرنسى ذرعا ، وما اغنى عنه شيئا ما صدر منه نحوى من وعد أو من وعيد فاصدر أمره بابعادى عن تونس ، بسرعة خاطفة ، فما شعرت بعد ابلاغى الامر ، الا وأنا بسيارة تنهب بى الارض نهبا ، الى ان سلمتنى لمحافظ الشرطة فى مدينة عنابة · وأنا كما قال الحريرى ، لا أملك بلغة ، ولا أجد فى جرابى مضغة ، انما وجدت بعنابة أهلى وعشيرتى من أبناء الاسلام واشبال الوطنية ثم سرت بعد اقامة قصيرة الى مدينة قسنطينة ، وكأننى حللت جنة وارفة الضلال ، وكنت أكاد أشم ريح النهضة يعبق من بين جدرانها ، وتتدفق سيول الامل والعمل من بين منازلها ·

واجتمعت بالرجل العظيم ، عبد الحميد بن باديس · كان لقاؤنا نورانيا ، ما ذكرته الا واقشعر جلدى ، وتوقف نفسى لروعة ذلك اللقاء · ولجسامة ما تم بعد ذلك اللقاء ، كنت خلال أسبوع بتلك الديار القسنطينية اسبح فى بحر من نور ، واسرى فى سماء من امل ورجاء وكفاح · واجتمع برجال ابرار كانوا حول ابن باديس كالحوازيين حول عيسى ابن مريم ، ثم غادرت قسنطينة مكرها ، لافتتح بعاصمة الجزائر صفحة عمل

وصفحة أمل ، بعد ان تعاهدت مع ابن باديس وصحبه على القيام بعمل مشترك ، من ورائه حياة الاحرار ، أو موت الشهداء الابرار ٠

انكم ستجدون ، سادتي وسيداتي ، حديثا مفصلا ، ممتعا على ما أظن ، طويلا ، عن هذا الاسبوع الذى قضيته فى ميدان الحياة الحرة الكريمة بمدينة قسنطينة ٠ وقيمة ذلك الاسبوع عندى قيمة عمر كامل فى مستهل الجزء الثانى من مذكراتى «حياة كفاح» الذى سيصدر بحول الله وبفضل الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، بعد نحو الشهرين اننى لا أقول هذا دعاية لكتابى ، ولا تنويها بنفسى ، وهى لا تستحق أى شىء ٠ بل أقوله ليعلم الناس كافة ، ودعاة العمل والاصلاح السلفى بصفة أخص ، ان التاريخ الحق لا يغفل شيئا **فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره** ٠

تعهدت لابن باديس يومئذ وأصحابه ، ان أحرر لهم مقالا ، لكل عدد من الشهاب الاسبوعى يتناول السياسة الخارجية بصفة توجيهية ، من باب اياك اعنى فاسمعى يا جارة ٠ كما اتفقنا على أن يكون مقالى خلوا من كل امضاء ، حتى لا تتخذ الادارة من ذلك ذريعة لالحاق الاذى بالشهاب ، بدعوى اننى من رجال اللجنة التنفيذية ، بالحزب الدستورى التونسى واننى اتعمد بمقالاتى تلك ، بث الروح الحرة الدستورية بالبلاد الجزائرية ٠

فما كان يتعطل الشهاب الاسبوعى ، حتى خلفه الشهاب الشهرى ، فى حلة قشيبة يحمل كل شهر لقرائه ما لذ وطاب من حديث الدنيا والدين ، مبشرا بالفلاح والنصر المبين قوما مؤمنين وأسس له مطبعة خاصة به تامة التجهيز ٠ وان مجموعة الشهاب سادتى وسيداتى ، لمن امتلكها ، لخير ذخر ، واسمى وثيقة ، تجلو الغبار عن عهد بناء مشمخر متين الاسس ، لقد كان الفاتحة الطيبة للمسيرة الصالحة الجريئة التى انشلت الامة الجزائرية من وهدة الافلاس فى السياسة ، ونكبة التنكر فى الدين ، اندفعت جريئة جامحة ، تحطم ما يستحق التحطيم ، وتبنى ما هو واجب البناء ، الى ان استوى العود ، وبلغت الامة اشدها ، فاذا بها المارد الجبار ، الذى قهر الاستعمار ، ورفع لواء الاحرار ، بفضل المجاهدين الابرار ، وللحرية والاستقلال عقبى الدار ٠

ولقد تفاقم أمر الطلبة حول ابن باديس ، وجاءوه زمرا من كل آفاق البـلاد ، كطليعة رواد ، تنهل من معين العلم ، وتتغذى بسامى الافكار ، وتتلقى من المنبع أصول التضحية والجهاد • وكان أولئك الطلبة الوافدون ، لا يجدون غالبا ما يسدون به الرمق ، فقد كانوا فى جهاد عنيف بين الروح وبين الجسم ، تلك تريد علما ، وهو موجود ، وذلك يريد غذاء وهو مفقود •

قال المتنبى : واذا كانت النفوس كبارا ••• تعبت فى مرادها الاجسام

يومئذ ابتكر ابن باديس العظيم مشروع : صندوق الطلبة ، واعلن عنه للامة فى الشهاب ، فاذا بالاموال تتدفق على ذلك الصندوق ، واذا بالبائسين من الطلبة يجدون يوميا بواسطته ما يقيهم غائلة الجوع • فاقبلوا بارواح مطمئنة وانفس طاهرة ، عـلى العلم الصحيح وعلى الفكر الصحيح ، يعبون من ذلك عبا ، الى ان صاروا ، أو صـار أكثرهم على الاصح ، من الدعاة المصلحين ، ومن العلماء العاملين ، ومن القادة المؤمنين •

لكن الطلبة ازداد عددهم الى ان كادت تضيق بهم المدينة الطيبة ، كما ان عـددا من أوائلهم قد تخرج من تلك المدرسة الصغيرة بحجمها ، الكبيرة باعمالها وبنتائجها فاتجه يومئذ تفكير الرجل العظيم الى ابراز مدارس التربية والتعليم الى الوجود ، وهى مدارس ابتدائية ، ما كادت تنشأ حتى انتشرت وعمت • ولقد كان تأسيسها نتيجـة تخطيط محكم ، ودراسة عميقة ، بحيث انها كانت تهيىء الولد الصالح علميا وفكريا ، لولوج مراحل التعليم التكميلى الذى كان يباشره ابن باديس بنفسه ، وهكذا أصبحت المدارس الحرة تنمو بسرعة فى مختلف جهات البلاد ، تسودها فكرة الاصلاح الاسلامى ويغذيها الايمان بمستقبل الوطن •

أخذت يومئذ تتصاعد نحو السماء ، أصوات شعب بعثه الله بعثا جديدا ، ينادى بالاصلاح الدينى ، والتحرر السياسى ، تغذيه العقيدة ويدفعه الشعور • والشهاب من وراء ذلك يمد الحركة الناشئة بفيض من الوعى والادراك ، واندفعت الحركة اندفاعا صاروخيا ، لا يرجع أبدا على الاعقاب •

هنا كان رد فعل ادارة الامور الاهلية قويا ، انما لم يكن مجديا ولا فعالا •

اوحت الى رجال الطرق الدينية التى أصبحت فى غالبها اداة ارتزاق واستثمار ، بان يحزموا أمرهم ، وان يظهروا بمظهر القوة لان حركة الاصلاح كادت تكتم أنفاسهم وتسد دونهم كل المسالك ، وهكذا نشأت فى البلاد حركة الطريقة الموحدة • واجتمع ضعيفها الى ضعيفها ، فتكونت منها عصبة ضعيفة بنفسها ، متماسكة بفضل من كان يمسك من وراء ستار شفاف بخيوطها ، وأخذت تلك العصبة تقاوم فكرة الاصلاح الاسلامى ، وتدافع كما كانت الجاهلية الاولى تدافع عن معتقدات الآباء والاجداد •

لكن شاعرا عربيا قديما قال :

واذا أراد الله نشر فضيلة طويت اتاح لها لسان حسود

لقد كانت هذه الحركة المبطلة شرا وبيلا على أصحابها ، ووسيلة من أحسن وسائل نشر الدعوة للاصلاح ، ولرجال الاصلاح • وقد كثر عددهم ، وبرزت صحفهم ، وشحذت اقلامهم ، فاصبح القطر الجزائرى كله ، من اقصاه الى اقصاه ، مجال معركة هائلة ، قلمية وشفوية ، بين رجال الاصلاح والوعى والمستقبل الحر السعيد ، وبين رجال الرجعية والجمود والاستخذاء ، وكما كان النصر فى معركة العلم والتعليم والارشاد مبينا واضحا ، كذلك كان النصر فى المعركة بين التطور والجمود ، مبينا ، واضحا ، وكانت صورة رجلنا العظيم ابن باديس ، تشرف على ذلك الميدان الفسيح ، كأنما هى راية النصر المبين ، وانتقلت المعركة يومئذ الى العاصمة • فلقد افلحنا سنة 1927 بتأسيس « نادى الترقى » ودعونا يوم افتتاحه رجلنا العظيم ابن باديس لالقاء محاضرة يختار بنفسه موضوعها ، فجاء رحمه الله مسرعا ، والقى تلك المحاضرة التى كانت اشبه شىء بالهام ، حركت الهمم ، والهبت المشاعر ، ورأى الناس رأى العين حقيقة ما يجب ان يقوم به العالم المعمم ، والعلماء ورثة الانبياء ، الا وهو قول كلمة الحق ، وارشاد الناس الى الطريق المستقيم ، ودفع الامة دفعا الى ما يحييها ، ويرجع كرامتها ، ويبعث مجدها ، ويبوئها مقعد صدق بين الامم الحية الناهضة •

وكان رجلنا العظيم اذا خطب ، اتى بالعجب ، كان لا يتكلم بلسانه ، بل كان يتكلم بقلبه وشعوره واحساسه ، وكانت كل كلمة تخرج من فمه ، وكانها السهم

الصائب الذى يحيي ولا يميت ، فمن أصابه ذلك السهم ، دبت فيه بذور الحياة الابدية . كان اذا تكلم وغاص فى بحر حديثه ، اغمض عينيه حتى لا يرى الناس الا بمرآة قلبه ، وكانه يناجي كل أحد منهم على انفراد ، الى ان يقنعه واشهد انني ما رأيت فوق رقعة أرضنا هذه خطيبا مصقعا ، يصيب المحز ، ويتغلغل فى أعمـــاق العقول والقلوب ، ويهز المشاعر هزا عنيفا ، كرجلنا العظيم ابن باديس · لقد كان فى خطبه اسمى واعلى مما كان فى كتابته · كان يكتب كتابة العلماء المصلحين ، وكان يخطب بلسان المدرهين من رجال الفكر والحكمة والسياسة ·

ولقد ام تونس يوما وهو منتدب لالقاء كلمة باسم الجزائر ، ضمن اطـار الجمعية الخلدونية فى ذكرى الراحل الكبير ، والمعلم الاول البشير صفر ، رحمه الله · وفى تونس كما تعلمون ، سادتى وسيداتى ، خطباء فحول ، ومتلكمون بلغاء · فما وصلت نوبة الكلام الى ابن باديس ، حتى تفجر ينبوعا صافيا ، يروى الناس بفيض من العلم والاخلاص والفكر الحر ، والتوجيه الصادق ويصوغ المعانى الرفيعة الدقيقة فى قوالب جميلة مستحسنة تدخل الاذن كما قيل بغير اذن ، ويتذوق السامعون لذتها ، ويعون معانيها ، ويدركون جد الادراك مغازيها ، حتى اذا ما انتهى خطابه قال الناس جميعا : هذا هـو الخطيب !!

أما نحن ها هنا بعاصمة الجزائر ، وفى عدد جم من مدن الجزائر ، فقـد استمتعنا كثيرا بتلك الخطب الفياضة الملهمة ، حتى لوددنا ان نقضى الجزء الاكبر من حياتنا ونحن نسمع ، ونستمتع ، وقلوبنا تطير فوق أجنحة الامل ، نحو المستقبل السعيد والهدف المنشـــود ·

قال يوما فى اندفاع ثورى بديع : لبئست الامة أمة يجمعها بندير ، ويفرقها عون بوليس اما هذه أمتنا أمة الجزائر ، فى ميدانها الاصلاحى ، الاجتماعى ، التحررى ، لا يجمعها الا الله ، ولا يفرق بينها الا الموت ·

وجاءت الساعة الحاسمة ، سادتى وسيداتى ، جاءت ساعة ظهور الحق ، جاءت ساعة بروز الامة نحو الحياة الحرة الكريمة ، الواعية ، الهادفة ، جاءت ساعة تاسيس جمعية

العلماء المسلمين الجزائريين · فلقد نادينا بها من نادى الترقى ، ودعونا لتأسيسها مئة من علماء القطر الجزائرى ، لا فرق بين مصلح وبين طرقى ·

فلبوا جميعا النداء فى اندفاع اسلامى طاهر نقى ، واموا ساحة نادى الترقى الفسيحة يتلألأ فوق جباههم نور الايمان ، ويشرق محياهم بصدق العزيمة ، وكان جمعهم آية من آيات اعجاز هذه الامة الطاهرة ، التى ما دعيت لمكرمة الا استجابت ، وما انفتح امامها باب من أبواب الامل الا ولجته ، غير هيابة ولا وجلة · لقد كان ذلك جوابا عنيفا شديدا ، قاسيا للاستعمار الفرنسى الاخرق ، الذى احتفل منذ سنة بمضى مئة عام على احتلال الجزائر واذلالها وارضاخها عنوة راقتدادا لافظع استعمار ، واشنع استثمار ، ونادى يومئذ باعلى صوته : ان الجزائر قد أصبحت فرنسية ، والى الابد · وجاء علماء الجزائر ، وكانهم اشباح الكرامة ، برزت من اجداث شهداء الحرية والاستقلال ، يقولون لفرنسا ، وللعالم الذى كان ينظر وينتظر : كلا ، بل الجزائر عربية ، مسلمة ، حرة الى الابد ·

ان صوت الامة ، كما قال الرومانيون ، هو صوت الله · فلقد خسئت منذ ذلك اليوم كلمة فرنسا الاستعمارية ، وصدقت كلمة الامة فى ندائها بالعروبة والاسلام والحرية ، الى الابد ، نعم الى الابد ·

يومئذ فتح امام رجلنا العظيم ، الذى اختير رئيسا باجماع ، ميدان فسيح للعمل والسعى والجهاد ، يومئذ رأى عظمة المسؤلية ، خطورة الموقف ، وصعوبة الوصول الى الهدف ، ويومئذ رأينا نحن ، ويالعظة ما رأينا ، رأينا رجلا نحيلا ، ضامرا ، طال وطال الى ان اربى على قمم الجبال رأينا عزيمة قدت من زبر الحديد ، تجلت فوق الميدان فغمرته وعمرته · رأينا ايمانا يفيض ويشع حتى ملأ البلاد نورا ويقينا · رأينا اقداما على التضحية والفداء ، يفوق كل ما كنا نعرف عن التضحية والفداء · رأينا الصورة الحقيقية لعبد الحميد بن باديس ، التى سيطرت وهيمنت على الرجال وعلى الحوادث ، والتى تضاءل أمامها كل مبطل ، والتى انهار تجاهها كل جبار عنيد ·

جاءنا عبد الحميد يوما الى النادى ، وكنا جماعة ننتظر رجوعه من الولاية العامة · فقال : اليوم ادركت السر فى ان محمدا صلى الله عليه وسلم نشأ وعاش يتيما · فلقد

وقفت اليوم أمام والدى محمد المصطفى بن باديس ، وهو يجلس الى جانب ميرانت مدير الامور الاهلية ، موقفا أرجو ان يحتسبه اللـــه لى يوم القيامة ٠ فلقد ابتدرنى ميرانت بحديث حلو العبارة مر المذاق ، وقال لى : يا شيخ ، اترك عنك هذا العار ، أخرج من هذه « الحشومة » ودع هذه الجماعة المسكينة التى جمعها عدو فرنسا بالنادى فليس هؤلاء الرجال رجالك ، وليست هذه الحثالة من الطلبة ممن يفتخر العالم بالانتساب لهم ، أو ان يكون رئيسا عليهم ٠ قال : واستمر على هذا المنوال ، ودمـى يفــور ، وشعورى الجريح يتأجج كانه نار ، وحاولت ان أرد الصاع صاعين ، واذا بوالدى ، وهو كل شىء عندى بالنسبة للحياة الدنيا ، يقف أمامى ، ويبكى ، ويقول : يا عبـــد الحميد يا ولدى ، ربيتك صغيرا ، وعلمتك يافعا وفتحت أمامك أبواب الحياة الهنيئة ، حتى غدوت عالما تشد اليك الرحال ٠ فلا تفضحنى اليوم يا عبد الحميد فى شيبتى ٠ لا تشمت بى الاعداء ، لا تتركنى للمذلة والهوان ٠ هذا حبيبنا مسيو ميرانت لا يريد لنا الا الخير ٠ وقد مهد لى سبل الوصول الى المركز الذى أنا فيه ، وان الاعراض عنه هو أعراض عنى أنا ، والاساءة اليه ، هى اساءة لى ٠ ورفض طلبه هو رفض طلبى ، وقد أمر الله باطاعة الوالدين فانا آمرك يا عبد الحميد بالتخلى عن هذه الرئاسة وعن هذه الجمعية ٠ قال : ثم انحنى أمامى وأنا أذوب ، واكب على رجلى يقبلهما ، ويبكى ويقول : لا تفضحنى يا عبد الحميد ٠

قال : فانتصبت واقفا ، وأنا ارتعد تأثرا لا رفقا ، وتوجهت لوالدى وقلت : حاشا ان أعصى لك أمرا ، أو ان أخالف لك رأيا ٠ وأنا ابنـــك المطيع ٠ الا ان هذا الذى تدعونى اليه ليس فى استطاعتى اطلاقا ، لاننى ان أطعتك فيه خالفت أمر الله ٠ وأمر الله فوق أمر الوالد بنص القرآن ، ولقد وقف محمد عليه الصلاة والسلام مثل هــذا الموقف ، أمام أكابر قومه ووجوه عشيرته ، فراودوه على ان يترك الدعوة لله ، ولــه ما يشاء مقابل ذلك من مال ومتاع ، فأجابهم الجواب القاطع الصارم : والله لو وضعتم الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الامر ، مــا تركته ، الى أن ينصره الله أو اقضى دونه ، هذه هى كلمتى الاخيرة يا والدى ، ويا مسيو ميرانت ، وليفعل الله بعد ذلك ما يشاء وخرجت لا الوى على شىء ٠

قال له علامتنا العظيم ، البشير الابراهيمى ، على الفور : طوبى لك يا عبد الحميد وحسن مآب · وقمنا اليه فهنأناه وذرفنا الدموع جميعا ، فلقد اعتبرنا انتصارنا فى تلك المعركة ، مقدمة لانتصارات باهرة فى معارك أخرى ، آتية لا محالة ·

ونشأت جمعية العلماء المسلمين ، واشتد ساعدها ، وكان من أمرها ما كان ، مما تعرفونه جميعا ، فحياة جمعية العلماء المسلمين ، قبل معركة التحرير وخلال معركة التحرير جزء كبير من حياة الجزائر ، وهى تستعد لخوض معركة من أكبر معارك التاريخ فى العصر الحديث ·

ولا أنسى ، سادتى وسيداتى ، يوم نشر زعيم كبير من زعماء تلك الساعة ، مقالا يؤيد به سياسته ، تحت عنوان : فرنسا هى أنا ! يقول فيه انه راجع الكتب ، وجال خلال القبور وسأل الخاص والعام ، عن وطنية جزائرية ، وعن قومية جزائرية ، فلم ير لذلك أى اثر · اذن ، ففرنسا هى الكل ، والكل هو فرنسا ، الى آخر تلك الخرافة ·

كتبت ساعتئذ للشهاب مقالا أقول فيه : كلا ، ان الجزائر ليست فرنسا · ولم تكن الجزائر فرنسا ، ولن تكون الجزائر فرنسا ، ان كل ما عند فرنسا يخالف كل ما عند الجزائر ، ونحن أمة جاهدت وتجاهد ، ولنا تاريخ حافل مجيد · ومستقبلنا هو فى اعادة امجادنا ، واحياء تاريخنا وبعث لغتنا ·

وصبيحة الغد ، وجدت شبحا أبيض اللون على باب مكتبى ، تبينته فاذا به عبد الحميد بن باديس قال : تلقيت مقالك ، واعجبنى واطربنى ، انما بادرت بالمجىء اليك لنتباحث فى موقف الحكومة تجاه هذه الاقوال الصريحة التى تنشر هكذا لاول مرة وهى تخالف القانون الفرنسى على خط مستقيم قلت : قد تدبرت الامر · واننا لكاسبون فى قضية القومية الجزائرية على طول الخط · وفى الموقف احتمالان : فاما ان يتحرك الاستعمار ضدنا ، بسجن ، أو نفى ، أو تعطيل للشهاب ، وبهذا تكون قضية الشخصية الاسلامية الجزائرية قد كسبت كسبا كبيرا ، ووضعت فى مجالها وتكلم عنها الناس شرقا وغربا · وان عطل الشهاب من أجلها قدمنا مكانه مجلة أخرى ، تحمل حولها هالة الشهاب · وان سكتت الحكومة متربصة بنا الدوائر ، استمر بنا السير فى هذا

الطريق الذى فتحناه • قال : هذا ما كنت أريد أن أسمعه • ورجع من توه الى قسنطينة ونشر المقال ، وكان من امره ما كان ، ولم تتحرك الحكومة ، بل حركت اذنابها •

وهل أتاكم حديث المؤتمر الاسلامى الجزائرى سادتى وسيداتى • انه حقا لحديث عجب • لقد مل بعد ذلك رجال السياسة الجزائرية ، ما تسلكه السياسة الفرنسية نحوهم من مماطلة وتسويف، وما يتخذه المستعمرون الاجلاف من مواقف مزرية مخجلة ليست من السياسة ولا من الانسانية فى شيء ، فجزم جماعة النواب المسلمين من كل اطراف البلاد أمرهم ، وجمعوا فى عاصمة الجزائر مؤتمرا عاما ، ما شذ عنه الا حزب الشعب الاصيل ، لان سياسته الاستقلالية لا تتفق أصلا مع سياسة أولئك النواب • فهو يريد الاستقلال وقلع جذور الاستعمار ، وهم يريدون اصلاحات تمكن الشعب من بعض حقوقه • كخطوة تتلوها بعد التنفيذ خطوات •

ولقد بلغ من أهمية جمعية العلماء تلك الساعة ، وتغلغلها فى كل الاوساط الجزائرية ، ما جعل الذين فكروا فى عقد ذلك المؤتمر يبادرون بدعوتها ، وضمها الى اللجنة الاساسية ، وكان رجلنا العظيم ابن باديس ، ممن ايد المؤتمر ، ودعا الى عقده ، وكان يعتبر انجازه كسبا عظيما للجزائر ، مهما كانت مقرراته ، ومهما كانت نتائجه • وكانت جمعية العلماء تطالب يومئذ بشدة وبقوة ، بفصل الدين الاسلامى عن الحكومة الفرنسية ، حتى يستقل المسلمون ، كاتباع الديانات الاخرى ، بأمر دينهم وأوقافهم ، ومساجدهم ، وقضائهم الشرعى • وبان الاحراز على الحقوق السياسية لا يستوجب الحرمان من الحالة الشخصية الاسلامية ولقد ضغطت الجمعية ضغطا عنيفا ، الى ان قرر النواب وصادق المؤتمر الذى حضره الى جانبهم العلماء ، والمستقلون ، والشيوعيون اعتبار مطاليب جمعية العلماء من جملة بل من صميم ما يطالب به المؤتمر • واسندوا رئاسة المؤتمر ، باجماع لرجلنا العظيم ابن باديس • وكان العلماء يشاركون فى المؤتمر بصفتهم الشخصية ، لا ممثلين للجمعية •

ولم نكن نرى اطلاقا ان برنامج فيوليت يحقق رغبات الامة أو يغير وضعيتها ، ولم نكن ندافع عنه فى الشهاب وفى صحف الجمعية أو ندعو اليه • بل كنا نحمل عليه ،

ونبين عيوبه . ومجموعات الشهاب وصحف الجمعية لا تزال موجودة ، شاهدة ، والحمد لله .

ان الامر الذى يسجله التاريخ ، ويشهد به العام والخاص ، هو ان ابن باديس العظيم كان فى رئاسته للمؤتمر الاسلامى ، كما كان فى رئاسته لجمعية العلماء ، الرجل الحازم العازم ، القوى الشكيمة ، البعيد النظر ، المفكر العميق ، الذى ان لم يحبه الجميع ضمن دائرة المؤتمر فقد كان يحترمه الجميع . بل ويخضع لرأيه الجميع .

سافر وفد المؤتمر لباريس ، ليجادل الحكومة الفرنسية حول وضعية الشعب البائسة ، وحول الوسائل التى يمكن بها نزع الاغلال عنه ، فما وجد الوفد هذه المرة ، كما لم يجد أى وفد فى المرات السابقة ، أى استعداد لاى مفاهمة . فحكومة باريس كانت ، ولم تزل خادمة لركاب الاستعمار والمستعمرين ، الى ان هوت معهم الى الحضيض تحت ضربات الثورة الهائلة .

واشتد النقاش مرة بين رجال الوفد وبين رئيس الحكومة ، الى درجة انه احتد وجابه الوفد بقوله : لا تنسوا أيها السادة ان فرنسا معها المدافع ! فوجم القوم الا ابن باديس الذى ما كاد يسمع ذلك القول بواسطة الترجمان ، حتى جابه رئيس الحكومة بمثل حدته : وانت لا تنس أيها السيد الرئيس ، ان الجزائر معها الله ، وانتقل الوجوم من الوفد الى الرئيس .

وكان القدر قد تكلم ساعتئذ بلسان فصيح . وكان المصير قد تقرر تلك الساعة : فرنسا معها المدافع . والجزائر معها الله . واستمر اغترار فرنسا بالمدافع ، واستمر اعتزاز الجزائر بعون لله ، وتغيرت الاحوال ، وتقلبت السياسة، الى أن نفخ الجزائريون الابطال فى صور الثورة العارمة ، يوم فاتح نفامبر المجيد . واقتحموا الميادين باسم الله ، وقابلتهم فرنسا الاستعمارية بالمدافع . فما أغنى عنها ذلك شيئا ، ونصر الله بفضل الشهداء والتضحية الذين قاموا باسمه : **يا أيها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم !**

كان آخر موقف علنى وقفه ابن باديس العظيم ، والازمة العالمية خانقة تهدد العالم بشر وبيل ، هو رده ضمن مجلس جمعية العلماء ، على من قال : يجب علينا ان

نوجه برقية تأييد لحكومة فرنسا · اننا بذلك نأمن غائلة أعمالها ضدنا اذا ما اشتعلت نار الحرب ونضمن كذلك مراعاتها لحقوقنا اذا ما خرجت من الحرب منتصرة ·

أجابه ابن باديس على الفور ـ وايده كل الاعضاء ـ قائلا : كلا ، لن نرسل لحكومة فرنسا أى تأييد · انها حطمتنا واذلتنا ساعة رخائها ، فلا يجب ان نمد لها يدا ، أى يد ، ساعة عسرها · طالبنا مرارا وتكرارا ، فكانت تصم آذانها وتتجنى · ونحن اليوم نصم آذاننا عنها ، ونتجنى · وانسحب صاحب الاقتراح من الجمعية · ولم تخسر الجمعية شيئا ·

جاءت الحرب العالمية هوجاء عاتية ، وجثم المرض الخبيث على صدر رجلنا العظيم ، فالزمه الفراش ، ساعة كان الناس ينتظرون منه كثيرا ، وساعة كان مع جماعة من أصحابه الاقربين ، يستعد فى ايمان وتصميم ، لولوج معركة العزة والكرامة · وما عتم الموت الرهيب ان انتزع من ذلك الجسد الفانى تلك الروح النورانية الطاهرة ، فرجعت الى ربها راضية مرضية ، وما عاشت الجمهورية الفرنسية الثالثة بعده الا شهرين فقط فانهارت انهيار العار والشنار ، وما اغنت عنها مدافعها ، ولا طائراتها ، ولا أسطولها ، وان ربك ليمهل الظالم ، حتى اذا أخذه لم يفلته ·

انتهى عبد الحميد العظيم جسما ، انما لم ينته عبد الحميد روحا · اننا لا نزال ـ ولن نزال ـ نرى رأى العين ايمانه ، ونشعر بقوته ، وندرك صلابته فى الحق ، وشدته على الباطل ·

اننا نرى ازدهار الاسلام كما كان يريد · اننا نرى استقلال العرب كل العرب ، كما كان يرجو ، اننا نرى ونتمتع باستقلال الجزائر ، وبقية جهات المغرب العربى ، الذى كان يسعى اليه ، ويجاهد فى سبيله · اننا نرى اللغة العربية لغة رسمية للبلاد ونرى الثانويات الدينية تنتشر وتسود رغم كيد الكائدين ، اننا نرى بلادنا حرة طليقة تنشىء الصناعة الكبرى فى البر ، وتعلو طائراتها العديدة متن الجو ، وتمتلك فوق عباب البحر أعظم أسطول فى بلاد افريقيا ، وبلاد العرب ·

ياعبد الحميد ، أمتك ناهضة ، عاملة ، ووحدتها صميمة ، وقوتها عارمة وكلمتها مسموعة ، ومبادئك سائدة ·

يا عبد الحميد الرجل العظيم · عشت مجاهدا ، ومت شريفا ، وتركت مبادىء ورجالا ، انك موجود بيننا أبدا يا عبد الحميد ـ انك لمن الخالدين ·

صــــدى وفــــاة ابن باديس
فى التقارير الفرنسية والصحافة الاهلية عام 1940

ابو الصفصاف عبد الكريم
أستاذ مساعد بجامعة قسنطينة

عــرف النصف الاول من القرن العشرين ظهــور شخصيات فذة فى الجزائر حملت على عاتقها مسؤولية الدفاع عن الشخصية الوطنية بكـل مقوماتها التاريخية والحضارية ، انطلقت الى ذلك مــن معطيات اساسية داخلية وخارجية ، ففى الداخل كان هناك تردى الاوضاع الاجتماعية على كــل المستويات الدينيــة والثقـافية والسياسية ، بسبـب السيطرة الاستعمارية على كــل شرايين الحياة فى البلاد .

أما فى الخارج فكان هناك تأثير قادة الفكر الاسلامي ـ المعاصر ـ الذين جنـدوا كل الطاقات الفكرية والمادية لنشـــر الاصلاح الاسلامي ، ومحاربة الجمود الفكـرى والامراض الاجتماعية المتفشية فى المجتمعات الاسلامية مــن جراء المـــد الاستعمارى الاروبى ، وكان الشيخ عبد الحميد بن باديس من أهـــم تلك الشخصيات وابرزها فى الاصلاح والوطنية .

ان هذا الرجل منذ أن بصر النور فى شهر ديسمبر 1889 م ، وهو يضيق ذرعا بالاستعمار وأعماله الوحشية فى الجزائر ، رغم أن ابن باديس كان من أسرة ثرية وموالية للفرنسيين ، ومع نمو عقله واتساع مداركه العلمية والوطنية تحول من مستاء الى مدافع تارة ، ومهاجم لسلطات الاحتلال وأعوانها تارة أخرى ·

وليس من هدف الكاتب فى هذا البحث المتواضع تتبع المراحل الرئيسية فى حياة هذا الزعيم الوطني الغيور ، وانما الغرض من هذه العجالة هو استكشاف الآثار التى تركتها وفاة « ابن باديس العظيم رسول الحرية والديمقراطية » (1) على الجماهير الاسلامية عامة والحركة الوطنية خاصة حسب ما جاء فى التقارير الفرنسية ، وبعض الصحافة الاهلية الصادرة باللغة العربية والاجنبية عقب تشييع جنازة الشيخ عبد الحميد بن باديس الى مثواه الاخير ، يوم 17 أفريل سنة 1940 ، تغمده الله برحمته الواسعة وأسكنه فسيح جنانه ·

ظلت السلطات الفرنسية تخشى على سلطانها فى الجزائر من حركة ابن باديس القوية حتى قبيل وفاته وهو على فراش المرض الذى لفظ على اثره أنفاسه الاخيرة ، ورغم أن هذه السلطات نفسها اعترفت بأنها كانت على علم بمرض الشيخ ابن باديس لمدة شهور عديدة قبل موته ، حيث جاء فى تقرير الشرطة السرية الصادر فى شهر أفريل سنة 1940 ما يلي :

ان الشيخ عبد الحميد بن باديس رئيس جمعية العلماء المصلحين الجزائريين الذى كانت صحته متدهورة وسيئة للغاية منذ شهور قد توفي فى يوم 16 أفريل بقسنطينة ، وشيعت جنازته فى اليوم التالي 17 أفريل فى وسط جموع غفيرة تعد بالآلاف من سكان المدينة ، ومن الذين جاءوا من مختلف أنحاء القطر (2) ، وسكنت فى قسنطينة ـ المدينة الكبرى ـ حركتها الدائمة العظيمة واستحالت الى هدوء شامل عميق يسير فى موكب

1) أخذت هذه الفقرة من نص افتتح بـه المحام الباريسى الكبير الاستاذ (نردمان) خطابه فى الحفلة التى أقامها الشباب الديمقراطي الجزائرى لاحد رفقائهم المسمى كرايه حمو ، بمناسبة براءته من التهمة التى حاول الاستعمار الصاقها به ، وقد جاء هذا المحامي من باريس خصيصا للدفاع عنه · وكان عنوان خطابه : « أحيى مدينتكم الجميلة قسنطينة التى لم تكن فى نظرى مدينة (لاموريسيار) كما يدعونها ، وانما هي مدينة ابن باديس العظيم » · نقلا : عن جريدة الشعلة : عدد 31 ، قسنطينة 13 جويلية 1950 ، صفحة 2 ·

(2) Rapport de police, avril 1940, archives historiques, wilaya de Constantine.



الامام عبد الحميد بن باديس رحمه الله

جنازة فقيد العلم والوطنية الجزائرية « وكان المشيعون خمسين الفا أو يزيدون » (3) وقد حمل الفقيد على أعناق تلامذته وحدهم الى مقره الاخير ومشى فى موكب الجنازة عدد كبير من النساء الصالحات اللائي كن يواظبن على حضور الدروس التى كان يلقيها الاستاذ الراحل على النساء المسلمات بالجامع الاخضر ، كما شاركت فى موكب الجنازة جمعية « الكشافة الاسلامية » وسائر الجمعيات والهيئات والفرق الاسلامية كلها ، وكان يتقدم هذا الموكب الرهيب الشيخ العربي التبسي ، والشيخ مبارك الميلي ، والدكتور محمد الصالح بن جلول الذين أبنوا الفقيد كلهم بخطب كان لها تاثير بالغ فى نفوس الحاضرين (4) ٠

وبناء على قرار الشرطة الفرنسية السابق الذكر فان ابن باديس الذى كان مصدر قلق للادارة الاستعمارية حتى أيام مرضه ، فان وفاته قد تركت حزنا عميقا فى النفوس ولا سيما فى عمالة قسنطينة التى كان فيها نفوذه قويا الى حد بعيد ، وقد كان لهذا الشعور الاليم أثر بالغ الخطورة على (الحزب الاصلاحى) الذى كان المحرك الرئيسى للحركة ٠

ولكن رغم ما أحدثته وفاة ابن باديس من يأس عميق فى نفوس المصلحين ، فان خطة الجمعية والافكار التى كانت موجودة لم تتغير بفضل قادتها المعروفين مثل : الشيخ مبارك الميلي ، والعربي التبسى ، والشيخ البشير الابراهيمي الذي خلف الرئيس فى قيادة الجمعية فيما بعد ، رغم أن الابراهيمي كان قد وضع تحت الاقامة الجبرية منذ افريل سنة 1940 بآفلو ، وتوقفت الدروس بدار الحديث التى كان يديرها بتلمسان بعد نفيه (5) ٠

وقد يتساءل المرء كيف أن الابراهيمي حسب التقرير السابق قد خلف ابن باديس فى رئاسة الجمعية وهو تحت الاقامة الجبرية منذ 8 أفريل (أي قبل وفاة ابن باديس بثمانية أيام) ٠

ان هذه الخلافة فى الواقع لم تكن ادارية فعلية ، ولكنها كانت اعتبارية على أساس أنه النائب الاول فى المجلس الاداري والشخصية الثانية فى الجمعية بعد انسحاب

3) جريدة الوفاق : الشيخ بن باديس ينتقل الى الرفيق الاعلى ، عدد 34 ، السنة الثالثة ، وهران 9 ماي 1940 ، ص 1 ٠
4) نفس المكان ٠
(5) Rapport de police, avril 1940, archives historiques, wilaya de Constantine.

الشيخ العقبي من عضويتها فى خريف 1938 ، وأنه كان محل الثقة والموافقة من زملائه العلماء ، فتولى رئاسة الجمعية بعد الافراج عليه سنة 1943 « فكان الرئيس ، وكان المعلم ، وكان الصحفى، وكان الكاتب، وكان الخطيب، وكان الباني، وكان المبشر» (6) .

والواقع أنه بعد وفاة ابن باديس صار الناس يتساءلون فى كل مكان عن مصير المشاريع العمومية التى كان يتزعمها القائد الراحل ، فبالنسبة لمدرسة التربية والتعليم الاسلامية فى قسنطينة فقد بقيت قائمة على أصولها يشرف على ادارتها وعلى توجيه التعليم فيها الشيخ عبد الحفيظ الجنان الذى اختاره ابن باديس لتلك المهنة ، وبخصوص مطبعة الشهاب (الاسلامية الجزائرية) فقد ظلت هي الاخرى تقوم بالاعمال التجارية وغيرها فترة من الزمن ، ويقوم على تسييرها أحمد بوشمال الذى كان يتمتع بمكانة خاصة عند الشيخ ابن باديس ٠

وأما التعليم بالجامع الاخضر فان المسلمين الجزائريين طلبوا أن يستمر هذا التعليم الحر كالعادة ورشحوا الاستاذين العربي التبسى ومبارك الميلي ليكونا خليفتين للفقيد فى التعليم والتدريس وأوكلوا مهمة طلب الحصول على موافقة المسؤولين على الشؤون الاهلية فى الجزائر الى جماعة من النواب المسلمين من بينهم الحكيم ابن جلول (7) ٠

أما فيما يتعلق بتسيير شؤون المجلس الاداري لجمعية العلماء فانه بعد تشييع جنازة ابن باديس كان الجميع يتوقعون تولية المهام الادارية فى الجمعية من طرف الكاتب العام (العربي التبسى أو الشيخ مبارك الميلي ، أو من قبل مجلس يتكون من عضوين هما : الشيخان خير الدين ، وبوشمال بقسنطينة) (8) ٠

وعلى أية حال فمهما كانت الآراء متفقة أو مختلفة على من سيرأس الجمعية بعد وفاة ابن باديس مباشرة فان الحركة الاصلاحية قد فقدت أكبر زعيم لها ، حيث تلاحظ التقارير الفرنسية أن وفاة ابن باديس كان لها أثر عميق فى نفوس الجماهير الجزائرية المسلمة ، وخاصة فى أوساط المصلحين سواء انصار الجمعية أو اتباع العقبي ، فهذا الاخير بالرغم من الخلافات التي كانت بينه وبين ابن باديس ، فقد تأثر هو الآخر وتأسف

6) أحمد توفيق المدني : حياة كفاح ، مذكرات القسم الثاني فى الجزائر 1925 – 1954 الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر 1977 ، ص 337 ٠

7) انظر : جريدة الوفاق ، المرجع السابق ، ص 1 ٠

(8) Rapport de police, avril 1940.

بجسرة فى مواقف متعددة ، واتضح ذلك فى خطبـــه ومقالاته التى كـان ينشرها فى جريـدة الاصـلاح ٠

والحق أن وفاة ابن باديس قد تركت فراغا عميقا فى أوساط العلماء المصلحين حتى أن أعضاء نادى الترقي (وهم من أنصار العقبي) كانوا متأسفين بدورهم على رحيـل زعيم الاصلاح فى الجزائر ، ولم يكن الاسى والحزن بهذه المناسبة قد أصاب العلمـاء المصلحين فحسب ، بل كان له تاثير بالغ على أعضاء حزب الشعب المنحل ٠ وبناء على تقرير الشرطة (أفـريل 1940) فان أعضاء حـــزب الشعب الذين كانوا يطمحون الى الاتحاد مع جمعية العلماء قد اصطدموا بهذا الحدث المروع وصرح مصالي بقوله : ان وفاة هذا الزعيم الروحى تعتبر أكبر كارثة لا على الاسلام وحده بل على الحـــزب الوطني أيضا (9) .وقد أضاف التقرير بأن حادثة وفاة ابن باديس كارثة على كل المسلمين ولا سيما على الاوساط الشعبية التى كانت تعتبر الشيخ ابـن باديس الخصم الرئيسى لفـرنسـا (10) ٠

وقد كان حدث موت رئيس العلماء موضوع تعاليق مختلفة فى الصحافة الاسلامية بالجزائر ، وهو الامر الذى كانت تنتظره الجماهير الجزائرية حيث ظهرت الصحـف بعناوين بارزة بهذا الموضوع ، فقد كتبت جريدة الوفاق الصادرة بالفرنسية تعليقـا فى عددها الصادر فى يوم 9 ماي 1940 بامضاء (أ ـ ز) (A. Z.) جاء فيه : « كان ابن باديس رجل الوطن الوحيد وهو الجزائر ، وصاحب فكرة واحدة وهي الاسـلام ، وكان يتطلع الى أن يبذل الرجال فى الجزائر جميع جهودهم كي يتفقوا ، ويتضامنوا ، ويتوحدوا ، وكان قد بارك هذه الوحدة فى الحركة الشعبية سنة 1936 ، ولكـن بعض الرجال وبعض الاحزاب خيبوا آماله فيما كان يطمح اليه » (11) ٠ ان هذا المقال كان يعبر بصدق على الدور الهام الذى مثله ابن باديس فى الحركة الوطنية خلال الثلاثينات ، وعما كان مخططا فى آرائه السياسية حول مستقبل الجزائر ٠

أما فى نطاق الدين فقد لخصت الجريدة الدور الهام الذى قام بـــه ابن باديس فى تطهير الاسلام من الشوائب التى علقت بـــه من بعض رجال الزوايا المشعوذين الذين استفادوا من الاستعمار ، وخدموا فرنسا باخلاص كبـــير ، وحافظوا على مصالحهم

(9) Rapport de police, avril 1940.
(10) Ibid.
(11) Rapport de police, mai 1940.

الخاصة . حيث قالت الجريدة : « اما على المستوى الديني فقد كان يمثل الباعث الجديد للجزائر التى أصبح انهيار الاسلام فيها يمثل الصورة الحقيقية لنكبة العالم الاسلامي ، بعد أن كانت الحياة فى الجزائر مغطاة بالاكاذيب ، والمعتقدات الباطلة نتيجة للاعمال التى كان يمارسها المرابطون على عقول المسلمين ، حتى لـــم يبـــق الاسلام بين هذه الجماهير سوى ظاهرة فى حد ذاتها ، ولم يبق القرآن سوى أداة للصلاة فقط ، ولـــما جاء ابن باديس الذى كان يحمل معه نداء عالم جديد لم يستطع أن يتحرر من نـــداء طبيعته الحـــرة (12) .

أما فى تعليق آخر كتبه ابن حبيلس فى جريدة (لورابيل) (le Rappel) تحـــت عنوان «أكتراث المعسكر الآخر» فقد لخص فيه بعض الافكار الرئيسية لفلسفة ابن باديس فى تحرير الشعوب من الاستغلال الاجنبي قال : « كان لابن باديس فكرة صحيحة ، وهي أن الحكم النهائي لاي شعب لا يمكن أن يكون الا من شعب متنور ، وبرنامج العمل فى التجديد فقد وضعه ابن باديس فى بداية الحركة ، ونقطته الرئيسية هي التعليم » (13) وأضاف صاحب المقال ، ومنذ أن وضع ابن باديس برنامج التجديد أخذ يهاجم جميـــع المعتقدات الملفقة والقوة الرجعية فى البلاد بلا هوادة ، ويهاجم بكل شجاعة جميـــع الاحكام المسبقة على مستوى الآراء التى هي العدو الاساسي للشعب « الذى يحـــب الشيخ محبة جنونية لانه كان متأكدا من أن هذا الاخير محل ثقة ، وقد رحل فى أحرج الظروف ووطنه فى حاجة ماســـة اليه ، وخصومه يعلمون مـــدى خسارة العـــالم الاسلامي » (14) ، وختم الكاتب تعليقه قائلا : « ان ذكرى وفاة ابن باديس هي أعـــز الذكريات لدى المجتمع الجزائري ، لانها ذكرى رجل شريف ومواطن صالح » (15) .

وبعد وفاة ابن باديس أيضا اتهمت اذاعـــة المانيا السلطات الفرنسية فى الجزائر يوم 9 ماي 1940 م على لسان (تقي الدين الهلالي) بانها المسؤولة على وفاته ، وقـــد ذكرت أنه مات مسموما على أيدى الفرنسيين ، كما فعلوا بمعظم العلماء الذين ما يزال بعضهم يعاني فى ظلمات السجون ، وأن الطغاة الفرنسيين أرادوا تسميمه ، وقـــد

(12) Rapport de police, mai 1940.
(13) Ibid.
(14) Ibid.
(15) Ibid.

قتلوه كمـا قتلوا جميع الزعماء مـن قبله » والشعب الجزائرى اليوم يطالـب بفديته وسينتقم له آجـلا أو عاجـلا » (16) ·

وجملة القول فان موت ابن باديس قد ترك فراغا عميقا فى صفوف الحركة الوطنية من جهة ، وفى أوساط المصلحين الدينيين من جهـة أخرى ، وبين الجماهير الاسلامية ثالثة التى كانت تنظر اليه على أنه الزعيم المخلص والوطني الغيور على دينـه وشعبه فى الجـزائـر ·

ولعل ما سجلته التقارير الفرنسية حول انطباعات الشعب الجزائرى بمناسبة وفاته كان اصدق تصوير لتعلـق المسلمين الجزائريين بشخصيته الفـذة حتى الذين كانوا موظفين لدى الادارة ، وموت ابن باديس فى ربيع 1940 ، أزمة أخرى تضاف الى قائمة الازمات التى هددت الجمعية فى العقد الاول من حياتها ، ولكن مع ذلك كله فان وفـاة ابن باديس قد فوت على الادارة الاستعمارية المنال من الحركة الاصلاحية ، لان وفاته كانت حياة لافكاره ، ذلك أن موت هذا الزعيم قد حـرر نهائيا الفكرة الاصلاحية التى كانت تشبه « فكرة مجسدة » فأصبحت بموت صاحبها « فكرة مجردة » لا يجد الاستعمار اليها سبيـلا (17) ·

وبعد انتهاء فترة الاسى الذى أصاب المسلمين الجزائريين عقب وفاة ابن باديس ، لاحظت السلطات الفرنسية أن زعمـاء الجمعية فى قسنطينة قـد أصبحوا الورثـة الحقيقيين « لايديولوجية ابن باديس » وقد اجتمعوا واتفقوا فيما بينهم على توحيـد الآراء ، والقيام بحركة موحدة فى الميدانين الثقافى والديني بعد ان اعترفوا بالخطـأ الذى وقع فى صفوف الجمعية فى الثلث الاخير من عقد الثلاثينات ، وواصـل المصدر حديثه حول العلماء : ولكي يبرروا موقفهم ازاء الادارة الفرنسية ، أوضحوا بأن هناك فرقا بين الاصلاح والوطنية أو « المواطنة » · أما برنامجهم فقد أصبح فى مرحلة مـا بعد ابن باديس يتمثل فى المطالب التالية :

أولا : حـرية تعليم اللغـة العـربية ·

ثانيا : حـرية فتـح النوادي ، وبيع المشروبات المباحة لروادها ·

---

(16) Ibid.

(17) مالـك بن نبي : مشكلة الحضارة ، الصراع الفكـرى فى البـلاد المستعمرة ، الطبعة الثانية ، دار الفكر ، بيروت 1969 ، ص 63 ·

ثالثا : حـرية فتـح المدارس والتعليم بالعربية والفرنسية وادخاله تحت المراقبة الاكاديمية ·

رابعا : المحافظة على التعليم الديني فى جامع سيدى الاخضر ·

خامسا : المطالبة والعمل من أجـــل الحصول على رخصة مـــن الادارة الفرنسية تعترف فيها للشيخ الابراهيمي بخلافة ابن باديس فى رئاسة الجمعية (18) ·

ومعظم هذه المطالب كان قد طرح فى عهد ابن باديس مرات عديدة · وقد عـــلق تقرير ماي سنة 1940 السابق الذكر الذى نقلنا عنـــه هذا البرنامج الجديد للعلماء فى قسنطينة بعد وفاة ابن باديس علق بأن حركة زعماء الجمعية فى هذه المنطقة ستكون ان تحققت عاملا قويا فى توازن قوى الحياة السياسية الجزائرية ، وان الشيخ مبارك الميلي قد أسند اليه منصب كرسي الاستاذ بالجامع الاخضر (19) ·

وهكذا أو رغم اختفاء أبرز الشخصيات من مسرح العلماء ، فان ادارة الاحتلال ظلت تتخوف من قوتهم وتأثيرهم فى الاوساط الشعبية لانها كانت ترى أن العلماء هم القوة الحقيقية فى المحافظة على مسار الحركة الوطنية واتجاهها الانفصالي عن فرنسا سيما وأن هذه السلطات كانت تعلم أن ابن باديس قد ترك وراءه فى خضم المعـــركة شخصيات ورثت الكلمة والمنهج السليم لقيادة الحركة ·

(18) Rapport de police, maí 1940.
(19) Ibid.

البشير الإبراهيمي في المشرق العربي

تركي رابح



الشيخ البشير الابراهيمى فى الشرق العربى
(١٩٥٢ ـ ١٩٦٢)

« يموت العظماء فلا يندثر منهم الا العنصر الترابى الذى يرجع الى أصله ، وتبقى معانيهم الحية فى الارض ، قوة تحرك ، ورابطة تجمع ، ونورا يهدى ، وعطرا ينعش ، وهذا هو معنى العظمة ، وهذا هو معنى كون العظمة خلودا ، فان كل ما يخلف العظماء من ميراث هو اعمال يحتذيها من بعدهم ، وأفكار يهتدون بها فى الحياة ، وآثار مشهودتينتفعون بها · وأمجاد يعتزونبها ويفخرون، والاعتزاز والفخر من الاغذية الروحية الحافظة لبقاء الجماعات (١) »

« محمد البشير الابراهيمى »

1) جريدة البصائر عدد 151 سنة 1951 ص 1

هناك جانب هام من حياة المرحوم الشيخ البشير الابراهيمي لم يتناوله الكتاب والباحثون بالبحث والدراسة حتى الآن ، واعنى به الفترة التى قضاها فى الشرق العربى سواء فترة ما قبل الحرب العالمية الاولى (١٩١١ ـ ١٩٢٠) أو فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية (١٩٥٢ ـ ١٩٦٢) وسأتحدث فى هذه الكلمة المختصرة عن هذا الجانب من حياة الفقيد العامرة بجلائل الاعمال ٠

واذا كانت دوافع واسباب الرحلة الاولى من الجزائر الى الشرق العربى هي ـ كما ذكرها الشيخ البشير بنفسه ـ من أجل الالتحاق بوالده (٢) الذى سبقه الىالهجرة الى المدينة المنورة فى عام ١٩٠٨ ٠ ثم من أجل الاستزادة منالدراسة والتحصيل العلمى على عادة علماء المسلمينفىتاريخ التربية الاسلامية من اعتبار الهجرة فى سبيل العلم والاتصال بكبار المشائخ والعلماء المبرزين ، والاخذ عنهم ، والتتلمذ عليهم ، من شروط الكمال فى العالم المتمكن من التقاليد العلمية الاسلاميةالصحيحة ـ اذا كانت هذه هى باختصار دوافع وأسباب الرحلة الاولى ـ فان دوافع وأسباب الرحلة الثانية تختلف اختلافا كليا عن ذلك ٠ فقد كانتالرحلة الاخيرة تهدف الى تحقيق أمور أخرى هى :

(١) العمل على ارسال بعثات علمية من الشباب الجزائرى الى الشرق العربى بغرض الدراسة فى مختلف مدارسه ، ومعاهده ، وجامعاته ٠

(٢) طلب المساعدة المادية لجمعية العلماء من الاشقاء العرب والمسلمين كي تستطيع مواصلة رسالتها فى ميدان نشر التعليم العربى والمحافظة على الشخصية العربية الاسلامية للشعب الجزائرى التى تواجه محاولات كبيرة لهدمها من طرف الاستعمار الفرنسى ورجال التبشير المسيحى المتعاونين معه ، يقول الشيخ البشير الابراهيمى شارحا بواعثه على هذه الرحلة ٠

« ٠٠٠ وفى عام ١٩٥١ ميلادية رحلت الى الشرق بتكليف من جمعيتي (يقصد جمعية العلماء) وكان الباعث على هذه الرحلة امرين :

الاول : السعى لدى الحكومات العربية لتقبل لنا بعثات من ابناء الجزائر ٠

الثانى : مخاطبة حكومات العرب والمسلمين فى اعانتنا ماليا حتى تستطيع الجمعية ان تواصل أعمالها بقوة لان الميدان اتسع امامها ، والشعب الجزائرى محدود القوة المالية ، فاذا لم يعنا اخواننا فربما تنتكس حركتنا ٠ وهذا ما ينتظره الاستعمار لنا (٣) هذه هي الاسباب التى ذكرها الشيخ البشير الابراهيمى ويمكننا نحن ان نضيف الى الامرين السابقين أمرا **ثالثا** لم يتناوله فى النص المذكور مع انه لا يقل أهمية عنهما الا وهو الدعاية للقضية الجزائرية ٠

وشرح ظروف الكفاح الجزائرى الى قادة الحكومات العربية والاسلامية التى زارها وتعريف الرأى العام العربىوالاسلامى بمختلف جوانب كفاح الشعب الجزائرى ضد الاستعمار الفرنسى وما يقاسيه من عدوان صارخ على مقدساته الاسلامية ولغته العربية وكرامته وسيادته الوطنية ٠

وقد نجح الشيخ البشير الابراهيمى نجاحا كبيرا فى هذه النقطة الاخيرة شاهدنا نحن كما شاهد

2) انظر نبذة عن دوافع وأسباب هجرته من الجزائر ال المدينة المنورة 1911 بقلمه في مجلة مجمع اللغة العربية عدد 21 القاهرة سنة 1966 ص 137 ـ 138

3) المرجع السابق ص 154

جميع الجزائريين الذين زاروا المشرق العربي أو عاشوا فيه بعض الوقت قبل سفر الشيخ البشير وبعده آثار ونتائج هذا النجاح لدى الراى العام العربي الذى أصبح ملما الماما كافيا بجوانب الكفاح الجزائرى العادل فى مختلف مراحله .

« قلة المام اخواننا الشرقيين باوضاع القضية الجزائرية »

ولكى يعرف القارىء جهود الشيخ البشير الابراهيمى فى التعريف بالقضية الجزائرية خلال عام ١٩٥١ والاعوام التالية له حتى قيام ثورة الفاتح من نوفمبر ١٩٥٤ بعدة سنوات ينبغى أن نذكر له نبذة عن ضآلة الممام اخواننا المشارقة بقضايا وكفاح ابناء المغرب العربى بصفة عامة والجزائريين منهم بصفة خاصة .

فقد صدمت أنا صدمة عنيفة عندما وصلت الى القاهرة فى نوفمبر ١٩٥١ بقلة معلومات الناس عن الجزائر الى حد يكاد أن يكون شاملا لكل شىء فى الجزائر ، فقد كنا نسأل مثلا هل الجزائر فى جنوب الجزيرة العربية ؟ أو فى اندونيسيا ؟ أو فى الحجاز ؟ الى غير ذلك من الاسئلة التى كانت تدل على قلة المام فادح بالمبادىء الاولية الجغرافية ـ مع اننا نحن كنا نعرف عن اخواننا فى البلاد العربية قبل ان نسافر اليها الشىء الكثير . عن شخصياتهم ، ومنظماتهم، وهيآتهم العلمية ، والادبية والسياسية ، وقد دفعنى الفضول الى الاطلاع على كتب التاريخ والجغرافيا التى كانت تدرس حتى بداية الخمسينات فى المدارس المصرية والبلدان العربية الاخرى التى أمكننى الاطلاع عليها ـ فى المرحلة الثانوية من التعليم حتى أعرف أسباب عدم الالمام البادى حتى على المتعلمين فى الجامعات فيما يتصل بقضايا وظروف أقطار المغرب العربى ، فوجدت الحديث مثلا عن اقطار المغرب العربى وخاصة الجزائر لا يتعدى بضعة أسطر فى كتب التاريخ ، واقل من ذلك فى كتب الجغرافيا التى تصف الجزائر بانها « مستعمرة فرنسية دينها الاسلام ، وقد الحقتها فرنسا بها » ولا تكاد تزيد عن ذلك شيئا آخر هذا بينما تتناول كتب التاريخ المذكورة « الثورة الفرنسية » بتفصيل واف وهى ـ الثورة الفرنسية ـ تحتل فى كتب التاريخ للمدارس العربية الثانوية مكان الصدارة كما تدرس جغرافية فرنسا السياسية وأقاليمها دراسة وافية فى كتب الجغرافيا . ولم يتغير هذا الوضع الا بعد قيام الثورة المصرية فى ٢٣ يوليو (جويلية) ١٩٥٢ ببضع سنوات حيث أصبح التركيز فى مادة التاريخ فى المرحلة الثانوية على التاريخ العربى لجميع اقطار الامة العربية ، كما تحول التركيز فى كتب الجغرافيا على دراسة البلدان العربية ومن بينها اقطار المغرب العربى دراسة تفصيلية متعمقة .

« نجاح الدعاية الفرنسية فى تضليل الراى العام العربى »

والواقع أن الدعاية الفرنسية فى المشرق العربى قبل الخمسينات قد نجحت فى تضليل الرأى العام العربى الى حد كبير فيما يتصل بأقطار المغرب العربى وبالخصوص الجزائر التى حاولت اقناع الناس بأنها قد أصبحت جزءا لا يتجزأ من بلادها ، وقد كان بعض المثقفين ينخدع بهذا الزعم ببساطة ، ويبدو هذا فى مؤلفاتهم التى تتناول الجزائر .

واذكر حادثة طريفة حصلت لي مع احد الاساتذة الكبار الذين كنا ندرس عليهم فى الجامعة ـ وعلى فكرة هذا الاستاذ كان فى السنوات الاخيرة يدرس مادة الادب العربى الحديث فى احدى الجامعات الجزائرية ـ وكنا فى رحلة علمية لزيارة الآثار الفرعونية الموجودة فى الاقصر واسوان وكان هو

مشرفا على الرحلة وذلك خلال العام الدراسى ١٩٥٣ ـ ١٩٥٤ وكان يعقد لنا مناقشات علمية وادبية فى أوقات فراغنا من الرحلة ، وقد جاء فى احدى المرات ذكر الجزائر ، فقال عنها ما معناه « ان الجزائر انتهت لقد أصبحت فرنسية وقد نجحت فرنسا فى فرنستها » ولما تدخلت فى المناقشة لمحاولة تصحيح معلوماته !!! رد على مستشهدا بواقعة حصلت له اثناء زياراته الى فرنسا قبل الحرب العالمية الثانية حيث كان يدرس فى بريطانيا ملخصها : « انه التقى باحد الجزائريين المجندين فى الجيش الفرنسى فى القطار ودارت بينهما مناقشة كان هو يتحدث فيها باللغة العربية وكان المجند الجزائرى يرد عليه باللغة الفرنسية ـ وقد قاده الاستنتاج من هذه الواقعة الفردية الى الحكم على الشعب الجزائرى برمته بانه نسى لغته وعروبته واصبح فرنسيا » • وقد اجبته «بان الحكم على شعب كامل منخلالتصرفات أو سلوك فرد واحد أو حتى مجموعة افراد من ابنائه هو حكم بعيد عن الحقيقة والواقع بعد السماء عن الارض » ولكنه لم يقتنع بكلامى ، ولا شك انه قد غير حكمه عن الجزائر الآن خصوصا بعد زيارته لها واشتغاله بالتدريس فى أحدى جامعاتها التى انشاتها الثورة بعد الاستقلال • فى موطن رائد النهضة الجزائرية الحديثة « الامام ابن باديس » •

« شوقى وعروبة الجزائر !!! »

وقد ذكرتنى هذه الواقعة من استاذنا الفاضل بواقعة اخرى تشبهها تمامالشبه سجلها امام النهضة الجزائرية الحديثة المرحوم الشيخ عبد الحميد بن باديس فى مجلة الشهاب ١٩٣٤ عن الشاعر احمد شوقى الذى زار الجزائر العاصمة فى أواخر القرن الماضى عندما كانيدرس الحقوق فى احدىالجامعات الفرنسية للاستشفاء من المرض ، ومكث بها اربعين يوما • وعندما غادرها قال عنها : « لا عيب فيها سوى أنها مسخت مسخا فقد عهدت مساح الاحذية يستنكف النطق بالعربية واذا خاطبته بها لا يجيبك الا بالفرنسية » وقد تالم ابن باديس الما شديدا لزعم شوقى هذا حيث حكم من خلال تصرفات فرد واحد على عروبة وقومية شعب كامل حكما متسرعا بعيدا عن الحقيقة والواقع •

وقد سجل ابن باديس اله هذا فى خطبةله بمناسبة الاحتفال بتابين الشاعرين : شوقى وحافظ فى نادى الترقى فى شهر فبراير ١٩٣٤ قال ابن باديس : « ••• أما شوقى فقد قدر له ان يزور الجزائر فى شبابه ، وينزل بعاصمتنا أربعين يوما للاستشفاء ويقول عنها « ولا عيب فيها سوى انها قد مسخت مسخا ، فقد عهدت مساح الاحذية فيها يستنكف النطق بالعربية واذا خاطبته بها لا يجيبك الا بالفرنسية » ، يقول الشيخ باديس « فاعجبوا لاستدلال على حالة امة بمساح الاحذية منها ولا يجمل بى أن أزيد فى موقفى هنا على هذا الا ان فقيدنا العزيز لو راى من عالم الغيب حفلنا هذا لكان له فى الجزائر راى آخر ،ولعلم ان الامة التى صبغها الاسلام وهو صبغة الله ، وانجبتها العرب وهى امة التاريخ ، وانبتتها الجزائر ، وهى العاتية على الرومان والفاندال ، ـ لا تستطيع ولن تستطيع ان تمسخها الايام ، ونوائب الايام (٤) » •

وكنا فوق هذا نسال هل عندكم مدارس ؟ هل عندكم ترامواى ؟ هل عندكم طرق ؟ الى غير ذلك من الاسئلة الساذجة التى تدل على قلة الالمام بالمعارف الاولية عن الجزائر • هذه هى حالة الجزائر فى

4) مجلة الشهاب ج 4 م 10 ص 146 عدد مارس 1934

المشرق العربى قبل عام ١٩٥٢ فما هو حالها بعد ذلك ؟

« مكانة الجزائر فى المشرق العربى بعد رحلة الشيخ البشير الابراهيمى »

أما بعد قدوم الشيخ البشير الابراهيمى الى المشرق العربى فى عام ١٩٥٢ واتصاله بمختلف الهيئات والمنظمات والشخصيات العربية والاسلامية فى القاهرة · وبغداد ، ودمشق ، والكويت ، والحجاز ، فقد تبدل الوضع المذكور كثيرا ، وقد ساعد على ذلك قيام الثورة المصرية فى صيف عام ١٩٥٢ – وانا هنا لا اريد أن أغمط من نشاط بعض الجزائريين الذين سبقوا الشيخ الى المشرق العربى وكانوا معتمدين من قبل بعض المنظمات الوطنية الجزائرية من أجل التعريف بالقضية الجزائرية فقد بذلوا جهودا مشكورة فى هذا الميدان – ولكننى أسجل ما شاهدته ولاحظته بنفسى فى الفترة الممتدة من عام ١٩٥١ حتى قيام ثورة الفاتح نوفمبر ١٩٥٤ بعدة سنوات · فقد نشط الشيخ البشير الابراهيمى بعد قدومه الى القاهرة فى مارس ١٩٥٢ مباشرة فى الاتصال بمختلف الهيآت والشخصيات وكان لبعضهم سابق معرفة به قبل قدومه الى الشرق كما نشط فى عقد المؤتمرات الصحفية ، والقاء المحاضرات العامة عن الجزائر وقضايا كفاحها الوطنى والقومى ، وتسجيل الاحاديث الاذاعية فى اذاعة صوت العرب بعد انشائها عقب قيام الثورة المصرية فى عام ١٩٥٢ ، وفى كتابة المقالات فى المجلات الفكرية المعتبرة كمجلة « الرسالة » للمرحوم الزيات ، ومجلة «المسلمون» التى كان يراس تحريرها الكاتب الاسلامى سعيد رمضان ، وغيرهما من المجلات الاخرى فى مصر وخارجها · ولم تمض سنوات قلائل حتى اصبحت الجزائر العربية المسلمة على كل لسان فى الاوساط الفكرية القيادية وصارت محل عنايتهم واهتماماتهم كمااصبحت من اهتمامات وسائل الاعلام المختلفة من صحافة واذاعة وسينما · وغيرها ·

« عوامل نجاح الابراهيمى فى التعريف بالقضية الجزائرية »

ولعل من العوامل الهامة التى ساعدت الشيخ على النجاح فى شرح القضية الجزائرية للراى العام العربى وللمسؤولين العرب فى كل من مصر ، والعراق ، وسوريا ، والكويت ، والحجاز وهى البلاد التى زارها قبل ان يستقر فى القاهرة يعود الى : غزارة علمه ، وبلاغة قلمه ، وقوة حجته ، وفصاحة لسانه ، ولباقته فى الحديث الى مستمعيه مهما كانت درجاتهم الثقافية والاجتماعية · ولعل العامل الاهم فى هذا النجاح هو موهبته الخطابية الفذة ، فقد كان خطيبا بارعا كما هو معروف عنه فى الجزائر ، يهز المنابر هزا ، ويستولى على عقول وعواطف مستمعيه ، ويقنعهم بسهولة بعدالة القضية التى يدافع عنها وهى هنا قضية الشعب الجزائرى السياسية ، وقضية الشخصية العربية الاسلامية لهذا الشعب العربى المسلم · وحقه فى النصرة على اخوانه العرب ، ومكانة الجزائر فى عالم العربية والاسلام – كما كان يردد الشيخ فى خطبه واحاديثه وقد أصبح المثقفون بعد فترة وجيزة من مكوث الشيخ فى المشرق يلقبونه بامام المغرب العربى تارة ، وبعلامة المغرب العربى تارة أخرى ، وكان هو لا يرتاح كثيرا لهذه الالقاب التى يولع بها اخواننا المشارقة ولعا كبيرا ·

واذكر انه كان ذات مرة مدعوا للخطابة فى مهرجان كبير اقيم فى مركز الشبان المسلمين بالقاهرة

عن القضية الجزائرية . وقد قام بتقديمه الى الحاضرين المرحوم الدكتور منصور فهمي فقال من جملة ما قال عند تقديمه : اقدم اليكم « علامة ـ بالشدة ـ المغرب العربي محمد البشير الابراهيمي » ولما شرع الشيخ فى القاء خطابه الذى اثار حماسا كبيرا فى القاعة وقابله الجمهور بالتصفيق والهتاف بحياة الجزائر العربية المسلمة . واصل الشيخ كلامه فقال « لست علامة المغرب العربي ولكننى علامة ـ بدون شدة ـ المغرب العربي وهنا أشار الى عمامته الجزائرية التى على راسه ، كما أشار الى القشابية التلمسانية التى كان يلبسها ثم اضاف : وانا علامة ـ بدون شدة ـ رفع لا علامة خفض » وهنا دوت القاعة من جديد بالتصفيق الحاد المتواصل .

ولم يمض وقت طويل حتى أصبح يحتل مكانة رفيعة فى المجتمع وصار لا يقام مؤتمر او مهرجان او اجتماع ذو اهمية الا ويدعى اليه اما كمحاضر او خطيب . واما للاسترشاد برأيه فيما يعرض فيه من مسائل وموضوعات .

« تاسيس ندوة الاصفياء »

وقد اسس بعد قدومه الى الشرق بقليل مع جماعة من الادباء والمفكرين العرب أمثال المرحوم احمد حسن الزيات صاحب مجلة الرسالة » وكامل كيلانى الاديب المعروف ، وعلى الحومانى الشاعر اللبنانى المقيم بالقاهرة ، ومفيد الشوباشى الكاتب والناقد ، والحاج أمين الحسينى ، والشيخ عبد اللطيف دراز وكيل جامع الازهر ، والعقيد « عبد الله التل » والدكتور « على عبد الواحد وافى » وغيرهم من رجالات الفكر والقلم ممن لم نذكر اسماءهم « ندوة » أدبية اجتماعية ، فلسفية ، دينية ، أطلقوا عليها اسم « ندوة الاصفياء » على غرار «جمعية اخوان الصفاء» المشهورة فى تاريخ الفلسفةالاسلامية وكانوا يعقدون اجتماعهم مرة كل أسبوع فى منزل أحد اعضاء الندوة بالليل يطرحون فيه موضوعا من الموضوعات التى تهم الفكر الاسلامى أو قضايا ومشاكل الوطن العربى ، والعالم الاسلامى ، فيلقى فيه أحد اعضاء الندوة بحثا مفصلا ثم بعد انتهائه منه يتناوله الاعضاء بالمناقشة والتعليق العميقين ، وقد تطول هذه المناقشات حتى منتصف الليل .

وقد تمكنت من حضور عدد من هذه الندوات صحبة الشيخ البشير الابراهيمى فوجدتها ملتقى فكريا رفيعا للغاية ، فى شتى مجالات الفكر ، ولا غرابة فى ذلك فاعضاؤها كلهم ممن لهم قدم راسخة فى مجال من مجالات الثقافة أو العلم أو الادب أو الفن .

وقد نشر المرحوم الشاعر على الحومانى عضو الندوة وسكرتيرها كتابا تحت عنوان «الاصفياء» (٥) جمع فيه عددا من موضوعات الندوة ومن بينها موضوع للشيخ البشير الابراهيمى بعنوان « مشكلة العروبة فى الجزائر » .

« الشيخ البشير والبعثات العلمية الجزائرية الى الشرق العربى » :

ولم يكن هذا النشاط السياسى ، والاجتماعى ، والثقافى ، الذى انغمس فيه الشيخ البشير منذ وصوله الى الشرق العربى بصارف له عن المهمة الاساسية التى غادر الجزائر من اجلها الا وهى العمل على فتح أبواب معاهد التعليم المختلفة فى وجه الشباب الجزائرى المحروم من العلم والمعرفة باللغة القومية فى بلاده وقد كانت أول بعثة ارسلتها جمعية العلماء الى معاهد الشرق العربى توجهت الى

---

٥) نشر دار مصر للطباعة القاهرة سنة 1955 فى حوال 500 صفحة

القاهرة فى نوفمبر ١٩٥١ قبل أن يساهر هو اليها فى شهر مارس ١٩٥٢ وضمت هذه البعثة ١٦ طالبا فى البداية ثم ازداد عدد افرادها بعد وصوله الى القاهرة الى ٢٥ طالبا وطالبة واحدة (٦)

وكانت بعثات جمعية العلماء فى البداية قاصرة على مصر وحدها حيث تمكنت جمعية العلماء بواسطة مكتبها بالقاهرة من الحصول على عدد من المنح من الازهر ووزارة المعارف المصرية لابناء الجزائر خلال عام ١٩٥١ والاعوام التالية له ٠ وبعد رحلة الشيخ البشير الى الشرق العربى تمكن من الحصول على منح أخرى للطلبة الجزائريين فى كل من العراق (٧) وسوريا (٨) ، والكويت (٩) ، ثم المملكة العربية السعودية ، بعد قيام الثورة الجزائرية سنة ١٩٥٤ ٠

وكان المركز الرئيسى الذى يشرف منه الشيخ البشير الابراهيمى على هذه البعثات ويصرف شؤونها يوجد مقره فى القاهرة حيث يقيم هو فى معظم اوقات العام ، ولكنه كان يعين نائبا عنه خارج مصر من ابناء البلدان التى توجد فيها البعثة للاشراف على افرادها من الناحية الاخلاقية والاجتماعية ٠

وكان بين وقت وآخر يقوم بزيارات للعراق ، وسوريا ، والكويت ، كي يتفقد بنفسه أحوال أعضاء البعثات ويتصل بالمسؤولين عن التربية والتعليم فى البلدان التى يزورها بقصد الحصول على منح جديدة للطلبة الجزائريين الذين توفدهم الجمعية الى الشرق العربى من أجل الدراسة ويغتنم زياراته لتفقد البعثات فيلقى على أعضائها المحاضرات التوجيهية ، والارشادات العلمية والتربوية ٠

أما أعضاء بعثة الجمعية بالقاهرة فقد كان يجتمع بنا مرة كل أسبوع فى مركز الجمعية الموجود بشارع شريف بالقاهرة ٠

« عناية الابراهيمى بتكوين الشباب الجزائرى خلقيا وعلميا » :

أمران كان المرحوم الشيخ البشير الابراهيمى يركز عليهما كثيرا فى تربية الشباب وتكوينهم واعدادهم لمواجهة أعباء الحياة العامة بكل ابعادها ــ الفردية والاجتماعية ، والوطنية هذان الامران هما :

أولا ــ الاخلاق ٠

ثانيا : العلم بمعناه الواسع ــ أي علم الدين ، وعلم الدنيا معا ، فقد كان رجلا متنورا متفتح الذهن والفكر لمتطلبات عصره ، يعيش همومه ، وينفعل بأحداثه وتطوراته ٠ ولذلك كان رحمه الله يحثنا كثيرا على القراءة والمطالعة فى كل علم وكل فن ، وعدم الاقتصار على فن واحد ، واختصاص واحد فقط فطالب العلم فى رأيه مثل النحلة ــ ترتشف من رحيق جميع الازهار كي تنتج عسلا مصفى وكذلك طالب العلم يجب الا يكون أفقه محدودا بنوع واحد من القراءة حتى يكون ابن عصره فى الثقافة والمعرفة

---

6) اعضاء البعثة الاولى لجمعية العلماء بمعاهد مصر هم : حسب تاريخ وصولهم الى القاهرة ــ تركى رابح ــ سعدى عثمان ــ سعد الدين نويوات ــ البشير كمبس ــ يحيى خليفة ــ حسن محفوف التارزى الشرفى ــ المدنى بورزق ــ ارزقى صالحى محمد شيوخ ــ المبروك بن سعد ــ عيسى بوضياف ــ المنور مروش ــ محمد كسورى ــ احمد الدخيل ــ محمد الطاهر زعرورى ــ عبد الحميد بوذن ــ المدنى حواس ــ محمد التواتى ــ رشيد نجار ــ محمد الهادى حمادو ــ محيى الدين عميمور ــ جمال الدين بغدادى ــ الخضر صالحى ــ زوجة الخضر صالحى . انظر البصائر عدد 242 ــ السنة السادسة 13 مارس 1954

7) اعضاء بعثة جمعية العلماء الاولى فى العراق ضمت احد عشر طالبا هم : مسعود محمد العباسى ــ المولود شرحبيل ــ رابح منصر ــ دودو ابو العيد ــ زروق موساوى ــ بشير كاشا ــ عبد المجيد بوذراع ــ جمعى المشرى ــ الاخضر بوطمين ــ عبد العزيز خليفة ــ عبد القادر قريصات ــ انظر البصائر عدد 262 السنة السادسة 12 مارس 1954

والفكر · وهذا لا يناقض التخصص فى نوع معين من الدراسات العلمية ـ وقد كان هو يقرأ فى سائر فروع العلوم الانسانية · ولم تنحصر قراءاته كمعظم علماء الدين الاسلامى أمثاله على الفقهيات وما يتصل بها من حديث ،وتفسير ، وسير وأدب ، وشىء قليل من التاريخ الاسلامى العام ·

كنت معه فى عدة مرات عندما كانت تهدى اليه الكتب ـ وكثيرا ما كانت تهدى اليه ـ من معارفه الكثيرين فى القاهرة وانحاء العالم العربى الاخرى انه لا يقل سروره وفرحته بالكتاب الجديد يهدى اليه مهما كان الموضوع الذى يعالجه ، ويقرأه بنفس العناية التى يقرأ بها كتابا آخر فى السيرة النبوية ، أو التشريع الاسلامى ، أو الادب العربى ، أوالفلسفة والاجتماع ·

أذكر انه عندما كان يجتمع بنا صباح يوم الجمعة من كل أسبوع فى مركز جمعية العلماء بالقاهرة أن أحاديثه الينا كانت فى معظمها تدور حول شيئين اثنين :

أولا ـ الثقافة العربية المحاربة من طرف فرنسا فى الجزائر · وواجبنا نحو احيائها وبعثها للوجود بعد انتهاء دراستنا ·

ثانيا ـ الوطن الجزائرى وما يعانيه من الاستعمار الفرنسى ، فى لغته ، ودينه ، وسيادته الوطنية · وواجبنا نحن فى العمل على تحريره من الاستعمار والنهوض به فى شتى الميادين ·

وقد كان كثير التذكير لنا بالاعباء التى تنتظرنا فى الوطن بعد عودتنا اليه · وكان يقول لنا ما معناه « انكم لن تستطيعوا ان تنفعوا وطنكم وأمتكم الا اذا ملكتم سلاحين هامين بدونهما لن تفلحوا فى الحياة ، ولن يستفيد منكم وطنكم شيئا هاما ·

١ ـ الاخلاق القوية المتينة ·

٢ ـ العلم القوى المتين ايضا ·

وكان يحذرنا كثيرا من اللفظية ، والسطحية ، فى الدراسة والتحصيل ، ويطلب الينا العمق فى الفهم ، لكل ما نقرأ ، والنقد الموضوعى لكل ما نطالع ، ووجوب عرض افكار وآراء مؤلف الكتاب الذى نقرأه على عقولنا لغربلتها قبل التسليم بها · كما كان يحثنا على ان تكون المكتبات هي مكاننا المفضل للقراءة ، والبحث ، والمطالعة ، والتحصيل · وزيادة المعارف ·

وقد لاحظت ان الشيخ البشير كان عندما يتحدث الينا عن الاخلاق والعلم تكون لغته حارة نابعة من اعماق وجدانه ، تفيض بالحب والايمان والقوة فى كل جملة ، وكل عبارة من كلامه ، مما يدل على ايمانه العميق بدور الاخلاق والعلم فى نهضة الشعب وتحريره وبنائه على اسس سليمة ، اسمع اليه وهو يتحدث فى التقرير الادبى فى مؤتمر جمعية العلماء فى اكتوبر ١٩٥١ عن دور المدرسة التى تقوم جمعية العلماء بتشييدها فى الجزائر فى النهضة القومية الوطنية يقول : « ··· فالمدرسة هى جنة الدنيا ، والسجن هو نارها ·· والامة التى لا تبنى المدارس، تبنى لها السجون ، والامة التى لا تصنع الحياة · يصنع لها الموت ، والامة التى لا تعمل لنفسها ما ينفعها ويسعدها ، يعمل لها غيرها ما يضرها ويشقيها ··· والامة التى لا تغضب للعز الذاهب ،

8) اعضاء بعثة جمعية العلماء الاولى فى سوريا : ضمت هذه البعثة عشرة طلاب هم : بلقاسم النعيمى ـ عبد السلام العربى ـ على الرياحى ـ عبد الرحمن شطيطح ـ العربى طرقان ـ مرتضى يقاش ـ عبد الرحمن زناقى ـ حنفى بن عيسى ـ محمد خمار ـ بنعبد الله ولد عوالى ـ جريدة البصائر المرجع السابق

9) اعضاء بعثة جمعية العلماء الاولى للكويت : ضمت هذه البعثة اربعة عشر طالبا هم : محمد شريف سيسبان ـ صديق قشى ـ الجيلانى حمانى ـ خربيط محمد ناصرى ـ عبد الرحمن الازعر ـ أيوب الربيعى ـ حسن ونوس ـ صالح تلايلية ـ الهاشمى قدورى ـ الاخضر ادريس ـ محمد الصالح باوية ـ محمد الشريف جواد ـ عبد العزيز سعد ـ / البصائر / المرجع السابق .

ترضى بالذل الجليب ، والامة التى تتخذ الخلاف مركبا ، يغرقها فى اللجة ، والامة التى لا تكرم شبابها بالعلم والتثقيف ، مضيعة لرأس مالها ، والامة التى لا تجعل الاخلاق ملاكها ، امة تتعجل هلاكها ، والامة التى تلد لغيرها ، أمة تلد العبيد لا أمة تلد الاحرار الصناديد ، والامة التى تعتمد فى حياتها على غيرها طفيلية على موائد الحياة ، حقيقة بالقهر والنهر ، وقصم الظهر – ثم يقول : والحياة بلا علم متاع مستعار ، والوطن بلا علم عورة مكشوفة ، ونهب مقسم ، سنة من سنن الله ، وكسنته فى تكوير الليل على النهار · ثم يضيف « وان المدرسة هي طريق الحياة ، وطريق النجاة ، وطريق السعادة ، وان الوطن أمانة الاسلام فى اعناقنا ، ووديعة العرب فى ذممنا ، فمن بعض حقه علينا ان نحفظ دينه من الضياع ، وان نحفظ لسانه من الانحراف ، وان لا سبيل الى ذلك الا بالمدرسة التى تبنيها الامة بمالها ، وتحوطها برعايتها ، وتجعلها حصونا تقى ابناءها الانحلال الدينى ، والانهيار الخلقى ، وتحفظهم من ترف الغنى ، وذل الفقر ، وتربيهم على الرجولة والقوة ، وتوحيد النزعات ، وتصحيح الفطرة ،وتقويم الالسنة ، وتمتين الارادات والعزائم ، وتغرس الفضيلة فى نفوسهم وتصلح فيهم ما افسده المنزل ، والشارع ، وتروضهم على حب الوطن ، وبنائه طبقا عن طبق » (١٠) ··

وقد كان كثيرا ما يكرر على مسامعنا ان حياة طالب العلم مقسمة الى قسمين : حياة علمية وحياة عملية ، وكلتا الحياتين تتصلان ببعضهما أوثق الاتصال ، فاذا كانت حياة الطالب العلمية قوية ومتينة ، ومبنية على أسس سليمة ، كانت حياته العملية فى ميدان الخدمة الوطنية العامة كذلك والعكس صحيح · وقد عبر عن هذه الفكرة تعبيرا بليغا فى احدى افتتاحيات البصائر التى كتبها فى عام ١٩٤٧ تحت عنوان « الى ابنائي الطلبة المهاجرين فى سبيل العلم » نقتطف منها الفقرات التالية لانها توضح هذه الفكرة توضيحا دقيقا يقول :

« يا ابناءنا ان الحياة قسمان : حياة علمية ، وحياة عملية ، وان الثانية منهما تنبىء عن الاولى قوة وضعفا وانتاجا وعقما ، وانكم لاتكونون اقوياء فى العمل ، الا اذا كنتم أقوياء فى العلم ، ولا تكونون أقوياء فى العلم ، الا اذا انقطعتم له ، ووقفتم عليه الوقت كله ··· ثم يضيف ··· » انتم اليوم جنود العلم ، فاستعدوا لتكونوا غدا جنود العمل ، فان الوطن يرجو ان يبنى بكم جيلا قوى الاسر ، شديد العزائم ، سديد الآراء ، متين العلم ، متماسك الاجزاء ، يدفع عنه هذه الفوضى السائدة فى الآراء ، وهذا الفتور البادى على الاعمال وهذا الخمول المخيم على الافكار (١١) » ·

« نجاح جهود الابراهيمي فى تكوين البعثات العلمية لجمعية العلماء » !

وقد اثمرت جهود الشيخ البشير الابراهيمي التى بذلها فى تكوين البعثات العلمية لجمعية العلماء التى عمل بكل جهوده على فتح أبواب معاهد العلم فى وجهها فى مختلف البلدان العربية ، ورعاها ووجهها أثناء دراستها توجيها وطنيا سديدا حيث نجح ما يقرب من ٩٠٪ من افرادها فى دراساتهم الثانوية والجامعية ، وعندما نشبت ثورة الفاتح من نوفمبر سنة ١٩٥٤ كانوا من جنودها وساهم عدد كبير من افرادها بفكرهم وثقافتهم فى مختلف أجهزة الثورة ، وهم اليوم بعد الاستقلال يساهمون بفكرهم وثقافتهم فى معركة البناء والتشييد الوطنى · ونشاطهم يغطى اهم المجالات الوطنية ، كالاعلام ،والثقافة ، والتربية والتعليم ، والعدل والدبلوماسية ، والتدريس فى الجامعات الوطنية الى غير ذلك من الميادين ·

10) جريدة البصائر – عدد – 172 – السنة الرابعة 19 اكتوبر 1951 ص 3
11) جريدة البصائر – عدد 9 السنة الاول – سلسلة ثانية – 13 اكتوبر 1947 ص 1

ولا شك ان الفضل فى تكوين هذه النخبة الممتازة من الشباب الجزائرى تكوينا عربيا واسلاميا ووطنيا انما يعود الى الشيخ البشير الابراهيمى ورفاقه من رجال الحركة الاصلاحية فى الجزائر الذين اعدوا هذا الجيل الذى نتحدث عنه الآن واجيالا أخرى عديدة سابقة عليه فى ظروف كانت من أصعب واشد الظروف التى مرت بها الجزائر فى عهد الاحتلال الفرنسى • اعدوه من المراحل الابتدائية وواصلوا جهودهم فى اعداده حتى حصل البعض منه على اعلى الشهادات الجامعية فى مختلف الفروع العلمية • وبذلك ادوا للوطن والشخصية الجزائرية خدمات جلى

« انتخاب الشيخ البشير عضوا فى مجمع اللغة العربية » :

وما دمنا نتحدث عن نشاط الشيخ البشير الابراهيمى فى الشرق العربى فيحسن بنا ان نشير فى ختام هذه الكلمة الى انه قد عرضت عليه عدة مناصب هامة فى مصر منها على سبيل المثال « مشيخة جامع الازهر الشريف » ولكنه رفضها جميعا لانها تتعارض مع اهداف رحلته من الجزائر الى الشرق العربى ، ولم يقبل منها الا منصبا واحدا فقط لانه منصب علمى يتفق مع مكانته العلمية واللغوية ، وهو منصب عضوية مجمع اللغة العربية بالقاهرة الذى كان يعتز به اعتزازا كبيرا ، والمجمع المذكور كما هو معلوم يجمع زبدة رجال الفكر والعلم والثقافة فى الوطن العربى •

وقد انتخبه اعضاء المجمع بالاجماع كعضو مراسل للمجمع فى عام ١٩٥٤ ، وقد قام بتقديم مذكرة ترشيحه عضوا مراسلا للمجمع السادة : دكتور منصور فهمى ، ودكتور عبد الوهاب عزام ودكتور احمد امين ، والاستاذ احمد حسن الزيات ، وذلك « اعترافا بغزارة علمه ، وسعة حفظه ودقة فهمه لآداب العرب ، بجميع فنونها من شعر ، ونثر ، وامثال ، وايام وانساب ، وتاريخ (١) » وقد استمر عضوا مراسلا حتى عام ١٩٦١ حيث تم تعيينه عضوا كامل العضوية فى مجمع اللغة العربية ممثلا للجزائر بالمجمع المذكور ضمن احد عشر عضوا عينوا من مختلف الاقطار العربية فى مجمع اللغة العربية فى ذلك العام (١٩٦١) وقد ناب عن الاعضاء الجدد فى الكلمة التى القاها فى جلسة افتتاح الدورة الثامنة والعشرين من نفس العام للمجمع وقد قابله اعضاء المجمع بالترحيب الكبير ، وصفقوا له طويلا عندما قام يلقى كلمته باسم هؤلاء الاعضاء •

« الحنين الى الوطن » :

اصبح الشيخ بعد ان طالت غربته عن الوطن ـ وفيه الاهل والاولاد والاصدقاء ـ شديد الحنين اليه، كثير الذكر له ، وكنا عندما نجتمع به احيانا يكثر علينا من القاء الشعر الذى يتحدث عن الحنين الى الوطن والاهل ، وقد يتذكر امامنا اصدقاءه ورفقاءه فى جمعية العلماء ، ورحلاته عبر انحاء الوطن ، ويفيض علينا فى الحديث عن خصائص وعادات كل ناحية ورجالها حديث العارف الخبير ، وكان كثيرا ما يتمنى ان تطول به الحياة حتى يعود الى أرض الوطن الذى احبه كثيرا ، وافنى زهرة شبابه فى خدمته ، وخدمة أجياله ، وفى بعض الاحيان يتوجه الى الله امامنا ويطلب منه ان يلقاه اجله فى الجزائر لا فى غيرها من البلدان الاخرى ، وقد عبر عن هذه الامنية فى افتتاحية هامة بعث بها الى جريدة البصائر من القاهرة فى عام ١٩٥٣ تحت عنوان « تحية غائب كالآيب » ختمها بقوله :

« خطت الاقدار فى صحيفتى ان افتح عينى عليك وأنت موثقة ، فهل فى غيب الاقدار ان اغمض عينى فيك وأنت مطلقة ؟ وكتبت الاقدار علي أن لا أملك من ارضك شبرا • فهل تكتب لي أن أحوز فى ثراك قبرا ؟» وقد استجاب الله لدعائه فامد فى اجله حتى رأى وطنه الغالى حرا طليقا وقد عاد اليه فى اواخر سنة ١٩٦٢ بعد انتصار الثورة ورحيل الاستعمار من الجزائر وعاش فيه ثلاث سنوات التقى فيها برفاق جهاده واجتمع فيها بالاهل والولد ، واتصل به تلامذته الكثيرون من جميع جهات الوطن قبل ان يتوفاه الله اليه فى ١٩ مايو ١٩٦٥ « وهكذا يموت العظماء فلا يندثر منهم الا العنصر الترابى الذى يرجع الى أصله ، وتبقى معانيهم الحية فى الارض قوة تحرك ، ورابطة تجمع ، ونورا يهدى ، وعطرا ينعش « رحمه الله رحمة واسعة وجزاه عن الاسلام والعروبة والوطن خيرا كثيرا • »

(12) جريدة البصائر ـ عدد 262 ـ السنة السادسة ـ 12 مارس 1954 ص 1

العربي التبسي

والنهضة العلميّة بالجَزائر

أحمد بن ذياب



لا اعرف ـ بعد ابن باديس والميلي ـ مدرسا اجاد وافاد اكثر مما اجاد وافاد الشهيد العظيم الاستاذ العربى التبسى .

ولا اعرف رجلا احب تلاميذه الحب كله ، واخلص لهم الاخلاص جميعه ، وخلطهم بنفسه كانهم منه ، وكانه منهم ، مثلما عرفت الاستاذ العربى التبسى .

ولا اعرف رجلا يحدثك فتحس فى حديثه كيانه العام يتحدث اليك ، ووجوده الشامل يخاطبك ، ووجدانه العاطفى ، واحساسه الشاعر ، وعقله الواعى متآلفة ، متكافلة تناجيك ، حتى لكان الرجل فرقة من جنود الله هبت مسرعة اليك لتهديك الصراط السوى ، او لتنجيك من ويلات العواصف الهوج ، او تاخذ بيدك كيلا تتخطفك شياطين الظلمات فى البحر اللجى مثلما عهدت وعرفت فى الشيخ العربى .

تلك هي الملامح الاولى التي يمكن ان نهتـــدى من خلالها الى روح ذلك الرجل الذى أمضى نحوا من ثلاثين سنة ؛ ينشر العلم ، ويبث الاصلاح ، ويدعو الى النضال الجاد المستميت ؛ لا يخاف فى اللـــه لومة لائم ، ولا تلهيه تجارة ولا بيع عن ذكر اللـه ، واعلاء كلمته ، وخدمة العروبة والاسلام فى الوطن الجزائرى الحبيب .

عرف التعليم المدرسى كفاءة الشيخ العربى — اول ما عرفها — فى مدينة « سيق » حيث استـدعى الى تأدية واجبه هنالك — فى أخريات العقد الثالث من هذا القرن — فقام بالمهمة خير قيام ، وخلـت مساعيه هنالك آثارا حميدة مشكورة ، وكون لـــه تلاميذ ما يزالون يعملون فى الحقـل العلـــمى أو الاجتماعى ، وهم يحملون له أطيب الذكريـــات ، ويقدرون فيه الرجل المعلم ، او المعلم الرجل الذى عرف كيف يأخذ بأيديهم الى النور ، ويعترفـون له بالفضل الجم ، والايادى البيضاء ، على انه الى جانب التعليم المدرسى صاحب رسالة ، وحامل أمـــانة في التعليم المسجدى مما أحيا العهد السلـــفى الاول ، وذكر بأولئك الفطاحل الصناديد من أمثال الابى شارح صحيح مسلم ، والقاضى عياض ، فى تشقيق فن التحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتبيين سنته ، والعربى التبسى هو الجزائرى الذى اشتهر — فى هذا العصر — بانه يحفظ أكثر من عشرة آلاف حديث من خيار الاحاديث الصحيحة أو الحسنة أو المستحسنة من كلام سيد الاولـين والآخرين صلى الله عليه وسلم .

كما انه فى الدروس التى تتصل بالقرآن وتفسير محكم آياته ، وتأويل المتشابهات منه ، عالـــم فحل ، ومجتهد له آراؤه الساطعة ، وتخريجاتـــه القيمة ، ونظرياته العبقرية .

أما الفقه فى الحلال والحرام — وما اتصل بهما — فحدث عن البحر ولا حرج — كما يقول المثل العربى —

من سيـــق الى تبســـة

ومن سيق الى تبسة حيث عمل ما استطـــاع مستعينا بمكانته من قومه فى مطلع العقد الرابـع ، وكانت شهرته قد طارت فى الآفاق ، وخبـــرته بمجتمعه قد توسعت أرجاؤها ، وايمانه بمستقبلـه فى وطنه — أو مستقبل وطنه به — قد ظهـــرت معالمه الاولى فاسس مدرسة ، وبنى الى جـــوارها مسجدا جامعا ، واصبح يعمل ليل نهار ؛ يـــربى الآباء فى المسجد ، ويكون الابناء فى المدرسـة ، ويكون — بين ذاك — فى كل منزل نقاش حـــول ما تلقاه الاب ، وما تعلمه الابن فيعطى الكبـــير للصغير — ويتلقى منه فى الوقت نفسه — وظـــل العربى التبسى فى تبسة وضواحيها أكثر من مـربـ حكيم ، وأكبر من عالم اجتماعى ينشد الاصـــلاح ، وأعظم من زعيم روحى خلاق . ولم يكن النشـــاط الفائض فى ذلك الرجل ليقصر جهوده على المسجد والمدرسة ؛ دون الاهتمام بالنادى ، وما تجيش به رحابه من نفوس شابة ، وعقول فتية ، ومدارك حية متطلعة الى تفهم حقائق القومية الجزائرية الخاصـة ومنابع نهضة العروبة عامة ، فكان له فى تبسة الاثر العظيم الخالد مما رفع تبسة وضواحيها الى مصاف معاقل العروبة والاسلام فى هذه الديار

وطارت تبسة بفضل بنيها الميامين من خـريجى

مدرسة الشيخ العربى موزعة فى الوطن الجزائرى كله اعمالا ناجحة ، وأفكارا نيرة وعقولا واعيـــة وآمالا واسعة،ونبوغا خلاقا ، وعبقريات جريئة هنا وهناك.

ومن الانصاف ــ هنا ــ أن نقول : ان أهم ميزة للمدرسة التبسية هذا التشبع بالروح الوطنيةـ ، والاعتداد بالنفس ، والثقة بالكفاءة ، وهى صفـات قلما توجد متكاملة مثلما توجد فى تلاميذ ابن باديس وتلاميذ الشيخ مبارك ، وتلاميذ العربى التبسى دون أن نغمط خصائص المدارس الاخرى ، أو ننقصها حقها من التجلة والاحتـــرام .

جهود الشيخ العربى فى جمعية العلماء :

وتتصل الايام متلاحقة ، وتتواصل الجهـــود متساندة ، وتؤسس جمعية العلماء ويكون المرحوم الشهيد الشيخ العربى من أركانها الشديدة ، أو من المؤسسين الاولين ، ويبقى وفيا لمبادئها الوفاء العملى الافضل ؛ يخرج فى وفودها العظيمة للوعظ والارشاد ، وتأسيس مدارس العلم ، ومساجد العبادة والاصـلاح ، ونوادى الادب والفـــن ، ويكتب فى جرائدها ، ويشارك فى مخططاتها ، ويصدر فتاويه الصريحة الخطيرة فى الشؤون التى تتصل احيـانا بالحكومة الاستعمارية فلا يبالى العواقب ، ولا يخشى فى الله سيف ظلام غشوم ولا غضب سلطان جائر .

وتاتى الحرب العالمية ، ويجبر على الاقامة فى تبسة ، ويتعرض الكثير من أبنائه الروحيين واخوانه المخلصين ، وتلاميذه الاوفياء للسجن والنفـــى ، والحجز الاجبارى ، وتتوقف الحركة الجماعية لجمعية العلماء ، ثم يستشهد المرحوم ابن باديس فى حين ان الابراهيـــمى يعانى المنفى والمرض والمضايقات الوحشية فى الصحراء الباردة بمدينة «آفلو» ويخشى أن تتعطل أهم رسالة للشيـــخ ابن باديـــس ، وهى تفرغه لتعليم أبناء الوطن ، من شرقه الى غربـــه ، ومن شماله الى جنوبه فى «الجامع الاخضر» و «سيدى قموش» وهى المحاولة التى كانت ترمى الى أن تكون الجزائر كشقيقتيها تونس والمغرب الاقصى ، ذات معهد علمى معمور ، مثل الزيتونة والقرويين ، وقـد سار ابن باديس فعلا ــ فى هذا الميدان ــ أشواطا بعيدة ، فاذا استشهد ابن باديس وهو يؤدى واجبه العلمى ، ورسالته الاصلاحية ، أو مات ميتة الرجال الابطال واقفين مع الحق ناصرين للمبادى السامية ، عاملين مخلصين غير وكلين ولا متخاذلين واحتاجت الامة الى من ينوب منابه فى تادية رسالة الجـامع الاخضر وسيدى قموش فان الاقرب والاشد اتصالا به هو تلميذه وصفيه المرحوم الشيخ مبـــارك الميلى ، ولكنه ماكاد ينتهى عام 1940 الدراسى حتى تبين أن المرض العضال الذى كان يعانى منه الشيخ مبارك يجعل قيامه بما كان يقوم به ابن باديـس مستحيلا ، أو فى حكم المستحيل فمن الذى ترشحه الامة للقيام مقام ابن باديس ؟

تبسة تتحـول الى قبلة للعلـــم :

تحولت الانظار الى الشيخ العربى وانصاره من تلاميذه ، ولم يكن فى الامكان أن يفر الشيخ العربى عن مشاريعه فى تبسة ، ولم يكن شعبها ليستطيـع الاستغناء عنه ، ولم تكن ظروف الحرب نفسهـــا لتساعد على انتقاله الى قسنطينة ــ رغم أن فرنســا قد غلبت على أمرها ، واصبحت خاضعة ، تحت حكم

«المارشال بيتان» الى ضغط «المحور» وقطبه المانيا النــازية ــ

وهكذا تحولت تبسة بفضل وجود الشيخ العربي فيها الى « قبلة ثانية » لطلاب العلم ، وعشاق الادب ورواد الاصلاح الديني الحنيف . وأعلن في الجزائر ان تبسة ومدرستها ، وجامعها ، ورحابها ، هــي قسنطينة أمس من حيث العلم ، وان الشيخ العربي هو خليفة ابن باديس في هذا الميدان .

وقام بالمهمة ، وبرهن على أنه خير خلف لخير سلف ، فازدادت الجزائر به خبرة ، وازداد هــو خبرة بأبنائها ، وخرج الشيخ العربي عن النطــاق الخاص في تعليم أبناء تبسة وضواحيها الى النطاق العام ؛ لتقبل أبناء الجزائر من مختلف مدنه وقراه الذين أموه من كل حدب وصوب ؛ يفدون عليــه عطاشا يريدون الري العقلي والادبي والخلقي فيبل غلتهم ويشفي ظمأهم : يتعلمون منه العلم ، ويقتبسون من سيرته الخلق ، ويقلدونه في الوطنية الــتي تستوعب القيم العالية ، والشيم الكريمة ، ويــأتي اليهم ذووهم للزيارة ، أو للاستطلاع ، أو للعيــادة فيستقبلهم الشيخ العربي ، فيزودهم بنصائحه ، ويحل مشاكلهم بآرائه ، ويصحح دينهم بفتاويه .

فاذا انتهت السنة الدراسية ، أو حان موعد عطلة موسمية زود تلاميذه بما شاءت له تجاربه في الحقل العملي لصالح الوطن ، وأقنعهم بما يجب أن يبثــوه من عوامل التوعية في قراهم ومداشرهم ، وأرشدهم الى الطرائق المثلى التي يمكن ان تعود بالنفع العاجل والتمهيد للآجل ، من صالحات الاعمال ، وطيبــات الاقوال .

وتمضي الايام وهو يؤدي رسالته العلميــــة والتعليمية والاصلاحية صلبا في الحق ، قويا في العزيمة ، عنــودا في مقاومة الطغيان الاستعماري ، لكنه شفوق على أبنائه وتلاميذه ، رؤوف باخوانــه ومعاونيه ، حدب على مصالح أمته ووطنه ، وثــوق بدينه وربه ، وأن العاقبة للمتقــين .

مكيــدة الثامن مــاي 1945 :

وتأتي مكيدة الثامن من ماي 1945 فيكون نصيبه السجن المضيق ، والاستنطاق العنيف ، والنــكال الشديد ، ويحفظه الله من شر أعدائه وكيـــد الظالمين الماكرين مصداقا لقوله تعالى في الآيــة الكريمة « ولا يحيق المكر السيىء الا بأهله » .

وتأتي سنة 1946 فيكون ما سماه الاستعمــــار «بالعفو العام» بالنسبة للابرياء الذين كان ظلمهـم فزج بهم في سجونه أو أبعدهم في معتقلاته ومنافيه وكان الواجب أن يحرق ــ أو يمزق ــ أولئك المجرمين الحقيقيين مدبري المكيدة من أمثال الظالم العنصري الحقود ــ كاربونال ــ عامل عمالة قسنطينة يومئذ وشريكه المجرم السفاح ــ لاشيارى ــ رئيس دائرة قالمة ، ومن لف لفهما من الطغاة الجناة في سطيف وخراطة وعموشة ، أولئك الذين ستظــــل أرواح الشهداء الخمسة والاربعين الفا تطاردهم احيــــاء وامــــواتا .

اما الذي لا شك فيه أن تلك المجازر قــــد أثرت في الشيخ العربي وصحبه أيما تأثير ، ونالت من قلبه العطوف الشفوق ، ولكنها لم تنل من ايمانه ولم تقلل من حزمه ، ولم تفل من حدة لسانه في التنديد بأعمال الاستعمار ، وطغيان أساطينــــه ،

وما يتجرءون عليه من اقتراف الفظائع ، ويرتكبونه من حماقات في اختراع الفواجع .

وتتهيأ الفرصة لجمعية العلماء فتجدد نفسها في خريف سنة 1946 فيكون الشيخ العربي هو الرئيس الثاني لها . ويكون مؤتمر المعلمين على هامشها فيشرف عليه ويسيره ويساهم في توجيهه بمناقشاتـــه الهادفة دفاعا عن القرآن وحظه من الوقت في المدرسة الحديثة ، وتخصيص رجال مقتدرين لتعليمه ، حتى تكون منه الخلق القويم للتلميذ ، ونوسع من تراثه اللغوي بمفرداته ، ونعوده محاكاة القوة في أسلوبه. ونمكنه من فهم أسرار فصاحته وبلاغته ، وسلطان اعجازه فيكون له أثره ، وتتكون « النواة الاولى » للمدرسة الموحدة ، قوية من خلال ذلك المؤتمر ، وتنفتح أبواب الخير أمام الامة مبشرة بالمستقبـل السعيد بفضل توحيد البرامج ، وتقريب المشارب ، وتلاقح الافكار ، وتعيين مفتشين ، وخلق ما يشبـه أن يكون «أكاديمية» حرة للتعليم العربي القـــومي بهذه الربوع فتاخذ تؤدي رسالتها ، وتعطي ثمراتها اليانعة ، وتمهد للثورة المتوقعة — في الفرصـــة المنـــاسبة — .

الشيخ العـــربي وادارة المعهـــد :

وفي ربيع سنة 1947 تنهض الامة بتأسيس معهد ابن باديس تحت اشراف جمعية العلماء ، أو تؤسسه جمعية العلماء بمعونة الامة ويكون كل من اســـم عبد الحميد بن باديس ، وموقعه بقسنطينة ، وانتخاب الشيخ العربي لادارته من بين المبشرات بنجاحه ، وفي هذه المرة يغلب الشيخ العربي على أمره ، أو يبلغ به ايمانه بالمصلحة العليا ، أن يقبل فيغـادر تبسة ، وقد أصبح جنوده فيها قادة أكفاء ، ومربـين نصحاء ، ومديرين مقتدرين ، وتكشف الايام منـه في المعهد عن رجل آخر في سير النهضة العـام ، ونشاط الامة الدائب ، وتسيير أكبر مؤسسة علمية ثانوية للامة الجزائرية .

وقد كان أبناء الامة — قبل المعهد — لا يستطيعون أن يستكملوا تعلمهم الثانوي الا بضروب من الاغتراب الشاق الى تونس ، أو العالم العربي شرقا ، أو الى القرويين بفاس غربا .

ونجح الاستاذ العربي التبسي في ادارة المعهـد نجاحا منقطع النظير يشهد له بذلك ما سجلـــه الاستاذ العلامة محمد البشير الابراهيمي في مقال قيم نشرته «البصـــائر» في عددها الصادر في 26 يولية 1948 — وهو عدد خاص بنشاطات المعهـــد ونظمه — جاء فيه ما يلي :

« والاستاذ التبسي — كما شهد الاختبار ، وصدقت التجربة — مدير بارع ومرب كامل خرجته الكليتان: الزيتونة والازهر في العلم ، وخرجه القرآن والسيرة النبوية في التدين الصحيح ، والاخلاق المتينـــة ، واعانته ذكاؤه والمعيته على فهم النفوس ، واعانته عفته ونزاهته على التزام الصـدق ، والتصلب في الحق ، وان أغضب جميع الناس ، والزمته وطنيته الصادقة بالذوبان في الامة والانقطاع لخدمتهـــا بانفع الاعمال ، واعانه بيانه ويقينه على نصر الحق بالحجة الناهضة ، ومقارعة الاستعمار في جميـــع مظاهره **فجاءتنا هذه العوامل مجتمعة برجل منه يملأ جوامع الدين ، ومجـــامع العلم ، ومحـافل الادب ،**

ومجالس الجمعيات ونوادى السياسة ومكـــاتب الادارات ومعاهد التربية » .

تلك هى شهادة المرحوم **البشير الابراهيمى** فى صفيه وعضده الايمن ، وخليفته فى رئاسة جمعيـة العلماء من حيث المكانة العلمية والمنزلة الادبيـة الممتازة ، ومن حيث الرجولة العاملة ، والمؤهـلات الموهوبة والمكتسبة ، أما حين يتحدث عنه فى الجانب العلمى فانه يقول :

« والاستاذ التبسى يتساهل فى حقوقه الادبية الى درجة التنازل والتضييع ولا يتنازل — أو يتساهل — فى فتيل من النظام ، أو الوقت ، أو الاخلاق ، أو الحدود المرسومة» . (نفس عدد البصائر المذكور) (1)

أيها القـــراء الكرام ، ان رجلا تكـون هـــذه هى الصفات التى يتحلى بها ، وتلك هى المكانـــة العلمية التى يتبوؤها ، وذلك هو النشاط الدائب الذى لازمه طيلة ثلاثين سنة لا يستطيع أى احـــد أن يقدر مدى ما أمكن أن يتخرج على يديه من رجال ويتفتح بفضل توجيهاته من عبقريات .

مســؤوليـــات جـديـــدة :

ويغادر **محمد البشير الابراهيمى** هذه الديار فى الاشهر الاولى من سنة 1952 الى فرنسا أولا ، ثم الى الشرق ثانيا فتصبح رئاسة جمعية العلماء ملقـاة كلها على كاهله بما فيها من مشاكل ، ويتبعها من مسؤوليات ، ويؤمل معها من خير للامة ، فينوء بكل ذلك فى سعة أفق ، وضلاعة تحمل ، ويقين ايمان ، وعزيمة صبر ، ويمضى قدما بمشاريعها كلها جياشة حية ، وعاملة مثمرة ، ونضالية دائبة .

وتاتى قضية تكوين الجبهة — جبهة التحـــرير الوطنى استعدادا للثورة فتكون له المواقف المشرفة والمساعى الحميدة ، ويعلن فى ربيع سنة 1954 فى مقال رنان « بأن كل مطالب جمعية العلماء حـول حرية التعليم العربى ، وحرية المساجد بما لها من أوقاف ، وحول حرية القول وحرية الصحافة ، وحول القضاء الاسـلامى وما ينبـغى أن يكون عليـــه من علم ، وصلوحية ، وتوثيق ، وتعديل وجرح واصـلاح قانون وغيرها من مشمولات الشخصية الاسلاميـــة للجزائرى لم تعد مطالب جمعية العلماء ، وانمـــا أصبحت جزءا من قضية الامة الجزائرية ، عامـة ، ولم يعد للجمعية أى حق فى التفاهم مع فرنسا ، أو ممثليها فى الجزائر الا بالقدر الذى تتكلم فيـه مع من يتكلم باسم الجزائر فيما تريد لها من حق فى الاستقلال والحرية وتقرير المصير » .

موقفـه من الثـورة المبـــاركة :

وذهب فى خريف تلك السنة لاداء فريضة الحج الى بيت الله الحرام،فقضاها ليعود من هناك فيخبرنا عما رأى وسمع وتناول من موضوعات الساعة سواء مع أبناء الجزائر فى الشرق العربى ، أو مع زعماء العرب ورؤسائه أنفسهم ، ونقل الينا فى جملة ما نقل : «ان القوم يرون وجوب الخيار بين اثنـين : اما الثورة والكفاح المسلح واما الاعلان — مـــع

1) البصائر عدد 26 يوليه سنة 1948 كما سبقت الاشارة اليه

الاستعمار ـ بان الجزائر «غربية» ليست عربية ولا اسلامية» لان العروبة يأبى لها شممها الخنوع ، ويستنكف بنوها من الخضوع . والحياة عندهم تقول «النار ولا العار» ولان الاسلام تنص آياته الكريمة بالبلاغة الصارخة فى سورة النساء « **ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا**» وعليه فالثورة هى الحل الوحيد الذى لا اختيار للجزائر فى غيرها»

ثم يمضى فيقول «« وعما قريب ستتمخض الأيام عن مولود جديد »»

وما يكاد يطلع فجر غرة نوفمبر من سنة 1954 حتى ظهر المولود المبارك وهلل كل جزائرى صميم للثورة المندلعة ، وتمضى الجزائر قدما فى نضالها البطولى المجيد ، والشيخ العربى لا يفتر عن الدعوة العلنية لحق الثوار على الشعب ، وما يجب ان يكون عليه من يقظة وحزم وتحمل .

ولعل من حق التاريخ ان أسجل هنا ان آخر لقاء لى به كان خلال عطلة يناير سنة 1957 ، وكان مدعوا وبعض اخوانه وتلاميذه الى تناول الغداء بحى الابيار فى الجزائر ، وكان الداعى أسرة تنتسب «لاولاد رداج» ويومها تعرض لقضية الثورة فى جمهور الحاضرين فقال ما معناه :

« انقلوا عنى ، وبلغوا كل من لقيتم ممن تعرفون أن كل «هجرة» من الوطن الى خارجه تعتبر مروقا من الدين ، وخيانة للوطن ؛ ما لم تكن «فى مهمة كلفت بها «جبهة التحرير» .

وكل من خالف يعتبر من مشمولات الآية الكريمة التى جاء فيها « **ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا لقتال او متحيزا الى فئة فقد باء بغضب من الله ، ومأواه جهنم وبئس المصير** » .

وبكلمة موجزة أقول : ان حق المرحوم الشهيد العربى التبسى الذى اغتيل ليلة الرابع من شهر افريل سنة 1957 ، على المثقفين الجزائريين عامة وتلاميذه واخوانه خاصة حق عظيم ، وان مآثره لاكثر من ان يحيط بها قلم كاتب ـ مهما كانت مكانته ـ لذلك نسأل الله جميعا ان يقيض له اقلاما متينة سيالة تتناول حياته فى مختلف مراحلها ، ونشاطاته فى ميادين العلم والعمل ، وصراحته فى الحق ، وجرأته على مقاومة الاستعمار ، ثم ما كان منه من مواقف جليلة حازمة لصالح الثورة ، وصالح الجزائر ، وصالح العروبة ، وصالح الاسلام .

تغمده الله برحمته ورضوانه ، وشكر له مساعيه العظيمة ، وجازاه بها احسن الجزاء واكرمه واوفاه .

من وثائق الثورة
حول استشهاد الشيخ العربي التبسي

علي مرحوم



« رجل علم وعمل ، فريد في ورعه وتقواه ، شديد في الحق وحماية حماه وفي غيرته على حرمات الدين ، لا يتساهل مع الخونة والمفسدين ، متضلع في جوانب علمه ، ودائرة اختصاصه • بليغ العبارة ، دقيق الاشارة ، سريع البديهة ، حاسم الحجة • أقض مضاجع المستعمرين وصنائعهم ، وأضحى شجى في حلوقهم • امتاز بالصراحة والشدة في حملاته على الجهاز الاستعماري الجائر ، وخاصة فيما يرجع لفرض سيطرته على الدين الاسلامي في الجزائر ، واستعباده لرجاله ، واغتصابه لاوقافه ظلما وعدوانا ••• » •

« لقد حاول المستعمرون مساومته في مبادئه ، وطمعوا أن يجدوا منه لينا أو مهاودة في حقوق بلاده ••• فما رأوا منه غير المضي في حربهم ، والتنديد بسياستهم وعنصريتهم ، فاضطهدوه وعذبوه ، وفي غير ما مرة سجنوه ••• ولكنه بقي ثابتا

كالطود الاشم ، لا يتزحزح عن موقعه ، ولا ينكص على عقبيه ... متمثلا بقول ربه :

«رب السجن أحب الى مما يدعوننى اليه» .

هذه كلمات كنت كتبتها منذ أكثر من عقدين من الزمن ، عن أستاذنا المبرور الشهيد ، الشيخ العربى التبسى ، رحمة الله عليه . أوردتها فى مطلع حديثى هذا عنه، تذكيرا ببعض ما جبل عليه من كريم السجايا ، وعلو الهمة ، وشجاعة القلب والعقل ... وقد أردت أن أستعيد بعض ذكرياته ، بمناسبة مرور ربع قرن على قيام الثورة التحريرية الوطنيــــة ...

تلك الذكريات الخالدة ، التى ظلت وستظل موضع القدوة ، ومثار العبرة والوعى، لدى أجيالنا ومواطنينا ... كلما أستعرضوا أطوار الكفاح الوطنى الجزائرى ... وذكروا الرجال الابطال الذين أخذوا على عاتقهم قيادة ذلك الكفاح الطويل ، نحو الظفر المرجو ، والنصر المرتقب ... أولئك **(رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا ...) .**

منذ حوالى سنة 1910 تقريبا ، شد الشيخ العربى الرحال الى بلدة نفطة بجريد تونس ، لاستكمال حفظ القرآن الكريم ، وتلقى ما يتاح له من المعلومات الاوليـــة ، الدينية والادبية ، وقواعد اللغة العربية ، قبل أن يواصل رحلته الى جامع الزيتونـــة بتونس ، سنة 1913 ، ليمضى به عدة سنين ، قبل أن يشد رحاله أخيرا الى أزهر مصر ، سنة 1920 ، ليتابع فيه دراسته العالية ، طوال نحو من سبع سنين دأبا ... وقد كان الشيخ على اتصال دائم بوطنه ، متتبعا لاحداثه وتطوراته ، أثناء مزاولته العلم ، سواء بتونس أو بمصر ... على عكس ما كان عليه بعض مواطنيه من طلاب الزيتونة والازهر يومئذ ، أولئك الذين قطعوا – أو كادوا – صلاتهم بوطنهم بمجرد فراقهم لذويهـــم وأرضهم ... وخاصة اذا أسعف الحظ بعضهم وأحرزوا على وظائف يرتزقون منها ... بعد تخرجهم . وقد ابتلعت مصر وتونس فئة من هؤلاء ، بينما كان وطنهم فى أمس الحاجة الى علمهم وخدماتهم ... على أن منهم من عاد الى وطنه ، بعد أن أحرز عـــلى استقلاله ، واستتب الامن والسلام فى ربوعه ...

لم يفتنا الشيخ العربى ـ كما أشرت ـ يعيش بروحه وضميره على أرض وطنه ـ وان كان بجسمه ظل بعيدا عنه ، لمدة أكثر من عشرة أعوام ٠٠٠ وهاهو يراقب عن كثب ما يتمخض عنه فجر النهضة الوطنية ، التى ظهرت طلائعها الاولى ، بعد أن وضعت الحرب العالمية الاولى أوزارها ٠٠٠ ونزل أبو النهضة الجزائرية الشيخ عبد الحميد بن باديس الى الميدان ، وليس بيده من سلاح يناضل به ، الا سلاح العلم والايمان ٠٠٠ وما أعظمه من سـلاح ٠٠٠

ومنذ ظهور صحيفتى « المنتقد » ثم « الشهاب » الاسبوعى ، أخذ يتابع بغاية الاهتمام والاعجاب نشاط هاتين الصحيفتين ٠٠٠ ثم أبى الا أن يربط صلته الادبية والروحية بصاحبهما ٠ وشرع يراسل من الازهر الصحيفة الثانية ، بعد تعطيل الاولى ٠٠٠ ولعل أول مراسلة له تمت بعد محاولة الاغتيال الشهيرة، التى استهدف لها الشيخ ابن باديس بعد خروجه من درس التفسير ، الذى يلقيه اثر صلاة العشاء ٠ وذلك فى شهر ديسمبر سنة 1926 ٠٠٠

فقد نشر (الشهاب) الاسبوعى (عدد 82 س 30/2 رجب 1345 هـ و 1927/2/3م) رسالة باسم مجاورى الازهر من الطلاب الجزائريين ٠٠٠ بعد أن قدم لها بالكلمة التالية :

« ننشر مع الشكر الجزيل هذا الكتاب من اخواننا الازهريين ، الدال على غيرتهم على دينهم ، وتعلقهم بوطنهم ٠ حامدين الله تعالى على ما نتحققه من خير لمستقبل الجزائر ، على يد هؤلاء الابطال المجاهدين فى سبيل العلم والدين ٠٠٠ » ٠

وجاء فى ديباجة الرسالة ـ بعد البسملة ـ ما يلى :

« واذا العنايـة لاحظتـك عيونها نـم فالمخاوف كلهـن أمـان »

« أما بعد فنهنى أنفسنا ، ونهنى العلم وآمال الامة ونهنيك بالنجاة من كيد من ابتلى الله به الدين والامة والعلم والقومية ٠٠٠ واننا لما أصابك لفى غم يونس ، وحـزن يعقوب ، ونشكو الى الله التقصير ٠٠٠ فلك فى ابن طالب ـ جعل الله أجلك أفسح من أجله وقارب بينك وبينه فى عظيم الاجر ـ ما يملأ النفس عزاء ، والقلب رضى ٠٠٠ وأن جل الخطب وعظم المصاب ٠٠٠ وان ما نزل من القضاء الذى لا محيص عنه ، قد كان علينا ـ جيرة الازهر الجزائريين ـ أوجع نبا ٠٠٠ الخ » ٠

(التوقيع عن جيرة الازهر الجزائريين : العربى بن بلقاسم التبسى)

ثم نقرأ له فى نفس الصحيفة (عدد 83 ـ س 7/2 شعبان 1345 و 1927/2/10 م) أى منذ أسبوع واحد فقط مقالا قيما ، جعل له عنوانا هذا البيت الشعرى ، وكأنه يشير به الى محاولة الاغتيال الآنفة الذكر · بل ان فى المقال ما يعبر عن التنديد بها واستنكارها ··· ونص البيت هو :

« أريـد حياتـه ويريـد قتلـى   عذيـرك مـن خليلـك من مـراد »

وجاء فى استهلال الموضوع ، تنويها بالشهاب ، واشادة بذكر صاحبه :

« جريدة (الشهاب) ـ وأيم الله ـ نعمة من نعم الله على أمم شمال افريقيا عموما والجزائر خصوصا ، يجب أن تؤدى الشكر عليها لله خالصا ، وتشكر لمن كان أبا بجدة هذه اليد البيضاء حتى تستحق المزيد · وجريدة الشهاب ظاهرة من ظواهر الحيـاة ، نرجو منها أثرا طيبا فى حياة الجزائر الدينية والادبية ، وفى سمعة الجزائريين ، الذين لا يكاد يظن أن فيهم من هو بمثل هذه الصحيفة جدير ··· » ·

« وجريدة الشهاب كنز من كنوز السنة ، ينقل الى قرائه ما لذ وطاب ، مما تقطع الاعمار دون الوصول اليه ، ليقبس منها من يريد الله به خيرا ·· وجريدة الشهـاب مدرسة شعبية عصرية ، على أحدث نظام وأشهى أسلوب ··· فيها تلتقى الديانـة الاسلامية بالمدنية العصرية الصحيحة ··· لا تفتأ تهدى الى قرائها من مختلف العلوم ، وضروب المعارف ما تقر به العين ، وتحسد عليه الجزائر ··· » الخ ·

وعاد الشيخ العربى من مصر الى وطنه فى أواخر سنة 1927 ، بعد ما ملأ وطابه من العلم ، ونهل من معين المعرفة والثقافة ، ما استطاع اليه سبيلا ، وما اتخذه منهمـا سلاحا فعالا لمقارعة خصوم الدين والامة والوطن ··· وما عتم أن أخذ مكانه فى ميدان المعركة الوطنية الكبرى ، التى كان يخوضها صديقه ابن باديس ، منذ أوائل العقـد الثانى من هذا القرن ، عندما انتصب للتدريس بقسنطينة ، منذ سنة 1913 · وكرس كل جهوده ومواهبه العلمية ، وشجاعته النفسية والذاتية ، من أجل الانتصار فى تلك المعركة ، ضد الجهل والجمود والتضليل ، وضد استبداد الاستعمار وأعوانه من كل

نوع ··· ووقف الجندى الباسل الى جانب قائده ، الموقف الذى تقتضيه منه الرجولة ، وتدعو اليه البطولة ، وخاصة فى تلك الايام السود ، التى كان فيه سوط المحتل مسلطا على ظهور أبناء الشعب · فى حين كاد ينعدم فيه من يعلو صوته بالنكير ، أو يكون لامته فى محنتها نعم النصير ···

منذ ذلك اليوم ربط الشيخ الشهيد مصيره بتلك المعركة ··· كشأن قائده ومن كانوا معه فى جهاده من السابقين الاولين ··· وتوثقت صلة العلم والعمل بين الرجلين· وغدا الشيخ العربى من أبرز كتاب (الشهاب) الاسبوعى والشهرى ··· يدبج يراعه المقالات الممتعة ، فى حقل الاصلاح ··· وكانت كتاباته تحظى بالتقدير والتنويه ، وهذا موضوع له بعنوان :

« **الاضرار بالدين باسم الدين** » يقدم له قلم التحرير ، فى العدد (115 س/فى 2 ربيع الثانى 1346 و 1927/9/29) بهذه الكلمة ، تقديرا واشادة به ··· وهى :

« الاستاذ العربى التبسى عالم مفكر ، قضى سنوات بالازهر ، ونال شهادة التطويع هذه السنة من جامع الزيتونة · وقد عاد الى وطنه الجزائر ، ومسقط رأسه تبسة ··· ينشر العلم ، ويهذب العقول ، ويحارب الخرافات والبدع ··· ويعمل لتكوين ناشئة متعلمة مهذبة ··· والشهاب يبتهج بأن يكون واسطة لايصال معارفه وارشاداته الى قرائه الكرام ··· » ·

وبعد ما حصل التعارف والتآلف بين الشيخين ، عن طريق (الشهاب) ـ كما أشرت ـ وقع الاتصال المباشر ، عندما قام الشيخ العربى بزيارة لادارة الشهاب فى قسنطينة · واجتمع خلالها بالشيخ ابن باديس لاول مرة ، فى أواخر سنة 1928 · ولابد أنه وقع يومئذ بينهما تبادل الآراء والافكار ، حول الوسائل الكفيلة بانهاض الامة ، ونشر اليقظة والوعى بين بنيها ، وانقاذها مما كانت فيه من جهل وظلام ···

ونشر الشهاب عن هذه الزيارة كلمة قال فيها :

« هذا رجل عالم نفاع ، قصر أوقاته ببلدة تبسة على نشر العلم الصحيح ، وهدى العباد الى الدين القويم · وقد عرف قراء (الشهاب) مكانته بما نشرناه له ، وخصوصا

مقالته الاخيرة (بدعة الطرائق فى الاسلام) ··· لاول مرة زار هذا الاستاذ قسنطينة، فرأينا من فصاحته اللسانية ، ومحاجته القوية ، مثل ما عرفنا من قلمــه ·· الى أدب ولطف ، وحسن مجلس ··· طابت له المنازل ، ورافقته السلامة حالا ومرتحلا ··· »

(عدد 19/170 جمادى الاولى 1347 و 1928/11/1) ·

وفى أثناء رحلة فى بعض بلدان شرق عمالة قسنطينة ، قام بها الشيخ ابن باديس، فى صائفة 1929 ··· اجتمع مرة أخرى بالشيخ العربى فى تبسة ··· فقال عنــه فى انطباعاته عن رحلته ··· واصفا اياه : « الاستاذ العربى ابن الزيتونة والازهر ، مشارك مشاركة قوية فى علوم الشريعة والادب · ذكى الفؤاد ، صحيح الفكر والعلم ، فصيح اللسان ، محجاج قوى الحجة ، حلو العبارة ··· شديد الحب لدينه ووطنه · شديد فى الدفاع عنهما ··· » ·

(مجلة الشهاب ج 1 م 5 تاريخ جمادى 1348/2/ونوفمبر 1929)

استقر الشيخ فى تبسة ، وشرع فى القاء دروسه العامة ، بأسلوبه البديع المؤثر · فأحدث بدروسه تلك ما كان متوقع لها ، من أثر عميق فى النفوس ، ويقظة فى العقول والاذهان ··· ولكن سرعان ما أمر (الحاكم الفرنسى) امام المسجد الرسمى ، بمنعه من القاء الدرس فيه ، وغلقه فى وجهه ··· وتوجه الشيخ الى الفئة الواعية من أهل البلد ، يدعوها الى تأسيس مدرسة ومسجد حر ··· كما هو الشأن فى بلدان أخرى ، حيث أسس أهلها مشاريع تعليمية ودينية ··· استقلوا بها عن الحكومة ··· ولكن المعنيين بهذه الدعوة فى تبسة أحجموا عن السعى فى تحقيق ما دعوا اليه ، بعد أن بلغهم تهديد ووعيد من طرف الحاكم ··· اذا ما هم استجابوا لداعى الخير ···

ويظهر أن الشيخ قد أصيب فى هذه الآونة بخيبة أمل ··· ولذلك أقدم على مغادرة تبسة الى بلدة (سيق) بعمالة وهران ، بناء على طلب الشيخ ابن باديس منه ذلك · كان هذا فى سنة 1930 ··· وقد أدى مهمته الاصلاحية فى سيق أحسن أداء ··· وخلد فيها ذكرا جميلا ، لم يزل يذكر به ، ويؤثر عنه لمدى أعوام ··· وبعد سنتــين اثنتين عامرتين بصالح الاعمال ··· عاد الى مسقط رأسه ، نزولا عند الرغبة الملحـة

التى أبداها أهل تبسة . بعد أن استيقظ احساسهم وشعروا بمدى الفراغ الروحى والدينى الكبير ، الذى تركه غياب شيخهم فى بلدتهم . بعد أن فارقهم ... واستأنف جهاده كما كان منتظرا منه ... فكانت النتيجة فى مستوى ما بذل من الجهود ... اذ تأسس مسجد ومدرسة فى مدة قصيرة ، وذهب تهديد (الحاكم) فى مهب الرياح... كما يزيل ظلام الليل نور الصباح ... وازدهرت الحركة ازدهارا ، وآتت أكلها باذن ربها ... فتأسست مشاريع اجتماعية وثقافية أخرى : أسس نادى الشبان المسلمين على أنقاض حانة لمستعمر ... وجمعية كشفية ، وأخرى فنية ، وثالثة رياضية ... فأصبحت تبسة ـ بعد وجود هذه المؤسسات فيها ـ مضرب المثل فى النهضة والحياة .

ومن الطبيعى ألا تروق هذه النهضة لممثلى السلطة الاستعمارية ، وعلى رأسهم الحاكم ... الذى دأب على محاربتها ، والسعى فى عرقلتها ، بكل ما لديه من خبث ومكر وعدوان ، جاعلا هدفه ... أن يوقع الشيخ فى حبائل مكره ... كما سيأتى فيما بعد ...

وانتخب الشيخ العربى فى الهيئة الادارية لجمعية العلماء ، ابان اجتماعها العام الثانى ، سنة 1932 . وبعد نحو من عامين أصبح كاتبا عاما لها . وما برح يشغل هذا المنصب فيها . الى أن أنيطت بعهدته نيابة الرئاسة بعد وفاة الشيخ ابن باديس ... كان متفانيا فى خدمة مبادىء الجمعية ، واعلاء مكانتها ، والحفاظ على ناموسها ، وتبليغ رسالتها العلمية والاصلاحية . وقد أوذى شديد الاذى من أجل ذلك فى شخصه وفى مصالحه ... قصد الحيلولة بينه وبين ما كان ينهض به من مهام حيوية ... فى بناء المجتمع الاسلامى الجزائرى ، واستعادة شخصيته الوطنية ...

بعد انتقال ابن باديس الى رحمة الله سنة 1940 ، ترك وراءه مئات من تلاميذه الذين كانوا يتلقون عنه الدروس العلمية فى قسنطينة . وكان لابد أن يعوضه فى القيام بها أحد الشيخين : اما الميلى واما التبسى ، وكلاهما يحظى بالكفاءة العلمية المطلوبة وزيادة ... ونظرا لبعد الثانى عن مقر الدروس وارتباطه بأعمال ذات أهمية قصوى فى تبسة ، تقرر أن توكل المهمة الى الاول ، حتى نهاية العام الدراسى ... ثم

يقع النظر فى تنظيم جديد يؤمن استمرار الدروس بصفة دائمة منتظمة ٠٠٠ لان الشيخ مبارك الميلى لا يستطيع أن يواصل القيام بالمهمة ، لما كان يعانيه من مرض ٠٠٠ وهكذا قررت جمعية العلماء أن تنقل تلك الدروس الى تبسة ٠٠٠ ابتداء من شهر أكتوبر 1940 ، مفتتح السنة الدراسية ٠٠٠ ليتولى تسييرها والاشراف عليها الشيخ العربى ٠٠٠ واستقبل مئات التلاميذ فى هذه البلدة أحسن استقبال ، وتابعوا الدراسة فى أحسن الاحوال ٠ وقد قام الشيخ ومساعدوه بمسؤوليتهم العلمية ازاء أولئك التلاميذ خير قيام ، طوال أعوام ٠٠٠

بيد أن الاستعمار لم يهادن الشيخ فى هذه الفترة ، ولم يستطع أن يغمض عينيه على حركته الجديدة ، وهو يرى أفواج الطلاب تغدو وتروح على أماكن الدراسة ، فى حيوية ونشاط ٠٠٠ ولذلك ما عتم أن دبر له مكيدة خطيرة ٠٠٠ كادت تذهب بحياته ـ لولا لطف الله ـ تلك هى تهمة اتصاله بالالمان فى تونس ، وتلقيه السلاح منهم ، من أجل اثارة الجزائريين ضد فرنسا ٠٠٠ وألقى عليه القبض (1) ٠٠٠ بناء على هذه التهمة الملفقة فى مكتب (الحاكم) وأعوانه ٠٠٠ وقضى الشيخ فى السجن حوالى ستة أشهر ، بين (تازولت) وقسنطينة ٠٠٠ ولم يتم اطلاق سبيله الا بعد سعى من رجال مخلصين فى عملهم لفائدة القضية الوطنية ٠٠٠

لم يفت فى عضده ، أو يفل من عزيمته ما سلط عليه من عنت واضطهاد فى سبيل دينه ووطنه ٠٠٠ وواصل اشرافه على سير الدروس ٠٠٠ الى أن وقعت حوادث الثامن ماى 1945 ٠ فألقى عليه القبض ثانية ٠ كما ألقى القبض على الشيخ الابراهيمى رئيس الجمعية ، وعدد من أعضائها ، الى جانب القاء القبض أيضا على آلاف المواطنين ، من مختلف الهيآت والمنظمات والاحزاب ٠ وبعد سراحه فرضت عليه الاقامة الجبرية فى المدية لبضعة أشهر ٠٠٠ وتوقفت الدروس فى تبسة ، بعد هذه الاحداث الجسام ٠٠٠ انما كان توقفها مؤقتا ٠ ريثما تعود الى مقرها الاول فى قسنطينة ٠ حينما يأتى أوانها ، وتتيسر وسائلها ٠٠٠ وتحقق الامل بعد أقل من عامين ٠٠٠

---

(1) كان القاء القبض عليه فى سنة 1943 ٠

وجدت جمعية العلماء غاية الجد • وبذلت جهودا جبارة ، من أجـــل اعادة الحياة لتلك الدروس ، التى أضحت أمانة فى عهدة الجمعية ، يجب عليها أداؤها ، وفاء لذكرى المرحوم مؤسسها منذ سنة 1913 ••• وأثمرت تلك الجهود ثمرتها ، المتمثلة فى تأسيس (معهد عبد الحميد بن باديس) بقسنطينة ، وافتتاح الدروس فيه ، فى أواخر سنة 1947 ••• وتم انتداب الشيخ العربى للاضطلاع بأعباء ادارته • فكان نموذجا قليل النظير فى الضبط والنظام ، والتوجيه السديد ، والتكوين الرشيد ، فى نطاق التربية العلمية والخلقية ، التى هى عمدة بناء الجيل الصالح فى كل أمة واعية ••• راشدة •••

ان عملية انجاز تأسيس المعهد تعد خطوة بعيدة المدى فى تاريخ النهضة الجزائرية الحديثة ••• عبر عنها الشيخ الابراهيمى فى مقال له بقوله :

« هذا المعهد أمانة الله بيننا وبينك ـ أيتها الامة ـ وعهد العروبة والاسلام فى عنقنا وعنقك ، وواجب العلم علينا وعليك ، وحق الاجيال الزاحفة الى الحياة مـــن أبنائنا جميعا • فأينا قام بحظه من الامانة ، ووفى بقسطه من العهد ، وأدى ما عليـــه من الواجب ، واستبرأ لذمته من الحق ••؟ » •

أما منهجه فى تكوين الطلاب واعدادهم للحياة الجدية فقد حدده فى هذه الففرة :

« يقويهم فى الدينيات علما وعملا • وفى القرآن حفظا وفهما • ويروض ألسنتهم على القراءة والخطابة ، وأقلامهم على الانشاء والكتابة ، وعقولهم على التفكير الصحيح ، ويصوغهم صياغة أخلاقية متقاربة • ويشرف بهم على علوم الحياة ، من باب الرياضيات والطبيعيات ••• ويهيئهم تهيئة صحيحة قوية للتعليم العالى • هذه هى حقيقته لا نغلو فى بيانها ولا نقصر ••• » •

واستمر المعهد على أداء رسالته الثقافية نحو الاجيال ، قرابة عشرة أعوام • الى أن تعطلت الدروس فيه تحت ضغط ظروف الحرب ••• وبعد أن احتل الجيش الفرنسى دار الطلبة ••• كما احتل كثيرا من مدارس التعليم العربى الحر ، فى مختلف البلدان• وعطل بقيتها عن التعليم • وذلك فى شهر يوليو سنة 1957 •••

في آخر عام 1373 هـ و 1954 م ، عقد الشيخ العربي العزم على الرحلة الى البقاع المقدسة ، لاداء فريضة الحج ، يرافقه صديقه الشهيد أحمد بوشمال ، العضو الادارى في جمعية العلماء ... وعمدة الشيخ في كثير من شؤونه ، ومستودع سره ... كما كان دائما بالنسبة لسلفه : الشيخين ابن باديس والابراهيمي ... وعند رجوعهما من الحج عرجا على دمشق ... ثم القاهرة ، حيث كان يقيم الشيخ رئيس جمعية العلماء ، بمعية مستشاره الخاص الاستاذ الفضيل الورتلاني ... ولا ريب في أنه كان لهذا اللقاء بين الرئيس ونائبه أهمية خاصة ، بالنسبة للجمعية ومشاريعها ، وبالنسبة للاحداث التي أخذت بوادرها تبدو يومذاك في أفق الحياة الوطنية بصفة عامة ...

بعد هذه الرحلة المباركة عاد الشيخ ليستأنف جهاده في أرض الوطن ، كما كان من ذي قبل ، مشرفا على جميع مؤسسات الجمعية : المعهد ، والجريدة (البصائر) ، والمدارس الابتدائية الحرة ... طبقا للتوجيهات التي تلقاها من رئيسه في القاهرة ... ومن أهم الاعمال التي أنجزها هي : عقد الاجتماع العام وتجديد انتخاب الهيئة الادارية لجمعية العلماء . وذلك بتاريخ : (23 جمادى الاولى 1375 ـ موافق 7 جانفي 1956) : وقد ألقى في ذلك الاجتماع خطابا منهجيا ضافيا ... جمع فأوعى ، وكان في مستوى الأحداث الجارية ـ حينئذ ـ فوق تراب القطر . اذ أنه ألم فيه بكل ما يجب عمله والقيام به ، بالنسبة للافراد والجماعات والامة . في نطاق أوكد الواجبات ، التي تتطلبها أوضاع الثورة المسلحة ، التي تتوقف على مصيرها حياة أو موت الامة والوطن قاطبة ...

وأود أن أنهي هذا العرض المقتضب عن حياة الفقيد الشهيد ، بتسجيل فقرات من البلاغ الرسمي ، الذي صدر عن الاجتماع المشار اليه . وقد تناول الحالة التي كانت سائدة في القطر حينذاك وموقف الجمعية منها . ومما جاء فيه ما يلي :

ـ « ... ويعلن بكل صراحة أن النظام الاستعماري المفروض بقوة السلاح على القطر الجزائري ، منذ سنة 1830 ، هو المسؤول الوحيد عن كل المآسي والمصائب والويلات ، التي وقعت في القطر الجزائري . وذلك بما أحدثه فيه من ميز عنصري مخجل، وما سلكه فيه من سياسة التفقير والتجهيل والحرمان من كل نعم الحياة بالنسبة

للعنصر الاسلامى ··· وما حارب به الدين الاسلامى فى أقدس مقدساته وما أجهز به على التعليم العربى القرآنى ، فى كل جهة من جهاته ··· وما تعمده من محق جنسية الامة الجزائرية ومحاولة ابتلاعها ، ومحو كل مظهر من مظاهر سيادتها ··· » ·

« ويترحم على الشهداء الابرار ، الذين ذهبوا ضحية القمع الاعمى الفظيع ويدعو الامة للقيام بواجبها نحو أبنائهم وعائلاتهم ، وكفالتهم كفالة يوجبها الاسلام وتفرضها المروءة والشرف ··· » ·

ـ « ويقول كلمة صريحة علنية يرجو أن يسمعها المسؤولون فى باريس · وأن يسمعها العالم أجمع · وهى أنه لا يمكن حل القضية الجزائرية بصفة سلمية وسريعة الا بالاعتراف العلنى الصريح بكيان الامة الجزائرية الحر ، وجنسيتها الخاصة ، وحكومتها القومية ، ومجلسها التشريعى المطلق التصرف · فى دائرة احترام مصالح الجميع والمحافظة على حقوق الجميع ··· » ·

ـ « ويؤكد أنه لا يمكن وضع حد لحالة الحرب الحاضرة ، والاقدام على بناء النظام الحر الجديد الا بواسطة التفاهم الصريح المخلص ، مع سائر الممثلين الحقيقيين للشعب الجزائرى ، من رجال الحل والعقد ، الذين أظهرهم الكفاح الجزائرى » ·

« ويوصى الامة ختاما بالحق ، ويوصيها بالصبر ، ويستحثها على العمل الصالح ، والثبات وتوحيد الصفوف ونسيان الخلافات القديمة · حتى تستطيع متحدة متظافرة أن تصل قريبا الى الدرجة الرفيعة ، التى أهلها لها جهادها المستمر منذ أحقاب ، وكفاحها الشريف ، الذى أصبح فى العالم مضرب المثل ، وتاريخها الحافل بجلائل الاعمال ·· » (ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز) (2) ·

وظل الشيخ العربى مثابرا على ممارسة مسؤولياته ومهامه بالمعهد فى قسنطينة ، وبمركز الجمعية فى العاصمة الى اليوم الذى تم فيه اختطافه من منزل اقامته بالجزائر ، ثم اغتياله من طرف عصابة اليد الحمراء الفرنسية ، كما سيأتى بيانه ··

(2) (البصائر) عدد 349 ـ 29 جمادى 1 ـ 1375 ـ 13 جانفى 1956 ·

وذات يوم من أيام شهر رمضان سنة 1376 هـ حمـل الى البريد ظرفا على غـير انتظار ٠٠ واذا به يحتوى على مفاجئة جد أليمة ٠٠ اذ كان به بلاغ باسم جمعية العلماء حول اختطاف الشيخ من منزله واغتياله ، بصورة وحشية فظيعة ٠٠ ومعه كلمة تذكر واستنهاض ، تدعو جميع الهيئات العلمية الاسلامية فى العالم ، الى اعلان استنكارها وشديد احتجاجها ، ضد اعتقال واغتيال أحد كبار علماء الاسلام فى الجزائر ٠٠

وأما الذى بعث لى بالبلاغ والكلمة التى معه باسم مستعار ، فهـو الاستاذ أحمد حمانى ٠٠ كما بعث لى فيما بعد بعدة تقارير هامـة ، عـن معارك الثـورة وأحداثها وتطوراتها ، بعنوان خاص فى مدينة طانجة ٠٠٠ وقد قمت بنشر البلاغ المشار اليـه والتقارير ، على نطاق واسع ، فى الصحافة المحلية ، والاذاعات المغربية ٠ وفى صحيفة (المقاومة الجزائرية) ٠٠

ونظرا لما تكتسيه هاتان الوثيقتان من أهمية تاريخية ٠ فقد رأيـت أن أنشرهما اليوم بمناسبة ذكرى ربع قرن على اشتعال نار الثورة التحريرية ٠٠ وبعد مضى حوالى ثلاث وعشرين سنة على استشهاد أحد كبار علمائنا الابرار المجاهدين ٠٠ من أجل حرية واستقلال الجزائر العربية المسلمة ٠ واعلاء كلمة الله فيها ٠ وجعل كلمة الذين كفروا السفـلى ٠٠

كلمـة الختـام :

لما انتهيت الى هذا الحد من الكتابة ، شعرت أننى لا زلت بعد لم أوف أستاذنا حقه على من التكريم ، والذكر الجميل ٠٠ ولذا آثرت أن يكون مسك الختام لموضوعى هذا باقة جميلة من كريم الصفات ، وحميد السجايا ، التى أصبغها قلم شيخنا الابراهيمى على الفقيد العزيز ٠ وهو يتحدث فى مقال له عن (المعهد) أثناء عام 1948 ٠٠ قال :

« والاستاذ التبسى ـ كما شهد الاختبار وصدقت التجربة ـ مدير بارع ـ ومرب كامل ، خرجته الكليتان الزيتونة والازهر فى العلم ، وخرجه القرآن والسيرة النبوية ، فى التدين الصحيح ، والاخلاق المتينة ٠ وأعانه ذكاؤه وألمعيته على فهـم النفوس ، وأعانته عفته ونزاهته على التزام الصدق ، والتصلب فى الحـق وان أغضب جميع

99

الناس .. والزمته وطنيته الصادقة بالذوبان فى الامــة والانقطاع لخدمتها بــأنفع الاعمال .. وأعانه بيانه ويقينه على نصر الحق بالحجة الناهضة ، ومقارعة الاستعمار فى جميع مظاهره .. فجاءتنا هذه العوامل مجتمعة منه برجل يملأ جوامع الديـنَ ، ومجامع العلم ، ومحافل الادب ، ومجالس الجمعيات ، ونوادى السياسة ، ومكــاتب الادارة ، ومعاهد التربية .. » (البصائر عدد 44/20 رمضان 1367 ـ 26 يوليو 1948) رضى الله عنه وأرضاه ، وجعل فى جنة الخلد مثواه ..

وهذا نص الوثيقتين :

(1) بلاغ من جمعية العلماء المسلمين الجزائريين
فى قضية اعتقال الاستاذ الشيخ العربى التبسى
الرئيس الثانى للجمعية ، ومدير معهد ابن باديس

فى مساء يوم الخميس 4 رمضان 1376 4 ابريل 1957 . وعلى الســاعة الحادية عشرة ليلا اقتحم جماعة من الجند الفرنسى التابعين لفرق المظلات المتحكمين اليوم فى الجزائر سكنى فضيلة الاستاذ الجليل الشيخ العربى التبسى ، الرئيس الثانى لجمعية العلماء والمباشر لتسيير شؤونها ، وأكبر الشخصيات الدينية الاسلامية بالجـزائر . بعد أن حطموا بعض نوافذ الاقسام المدرسية الموجودة تحت الشقة التى يسكن بهــا بحى بيلكور طريق التوت ، وذلك شأنهم فى اقتحام ديار المسلمين لا يأتونها غالبا من أبوابها ، وانما من السطوح والنوافذ ، لتتم حسب زعمهم المفاجأة ، أو ليشتد الارهاب والنكال . ثم طرقوا باب الشقة ففتح لهم ، وكانوا يرتدون اللباس العسكرى الرسمى للجيش الفرنسى ، ومسلحين بالاسلحة التى يحاربون بهــا الشعب الجزائرى والمدنيين المسلمين .

وقد وجدوا فضيلة الشيخ فى فراش المرض الملازم له ، وقد اشتد عليه منذ أوائل شهر مارس 1957 واخذت نوباته تتــوالى عليه ـ عنيفة ـ مرات فى الاسبوع ، فلم يراعوا حرمته الدينية ، ولا سنه العالية ولا مرضه الشديد وأزعجوه من فراش المرض بكل وحشية وفضاضة ، ثم أخذوا فى التفتيش الدقيــق للسكنى ، والملفات والكتب والرسائل بعد أن حجزوا العائلة وفصلوا عنه أبناءه وبناته واعتدوا بالضرب عــلى

أكبرهم لما حاول مساعدة والده المريض ، ثم أخذوا محفظته بما فيها ، ثم اخرجوه حاسر الرأس ، حافى القدمين ، غير متدثر بأى شىء الا لبسة المتفضل ولكنهم ارغموه على ارتداء (سروال) ولده الافرنجى ومعطفه وكلاهما لا يصلح له لباسا لصغره ٠

وقد كان من المحقق لدى العائلة انهم ذهبوا به للتحقيق معه ، وانما عومل هذه المعاملة لانهم لم يشاؤوا أن يميزوه عن شعبه زيادة فى النكال والاستفزاز ، وكان هذا شأنهم منذ التحصيل على التفويضات الخاصة فى مارس 1956 وخصوصا منذ أن (حجرت) الجزائر الى القائدين لفرق المظلات (ماسو) و (بيجار) ٠

ولكن المفاجاة كانت تامة عندما سئل عنه فى اليوم الموالى والايام بعده فى الادارات الحكومية المدنية والعسكرية والشرطية والعدلية ، فتبرأت كل ادارة من وجوده عندها أو من مسؤوليتها عن اعتقاله ، أو من العلم بمكانه حتى وصل الى الادارة العليا بمفر الوزير المقيم والوالى العام فتظاهرت بانكار العلم و (استنكار) الفعل ووعدت بالبحث٠

وقد بقيت المسألة كذلك الى ان ارسل مكاتب جريدة (لومند) الباريسية بخبر صغير نشر فى زاوية مهملة يعلن فيه ان رجال المظلات قد اعتقلوا الشيخ العربى التبسى وهو ـ عضو هام ـ فى جمعية العلماء ، وانه تحت ايديهم لاجل الاستنطاق والتحقيق وكان ذلك بعد يومين من اعتقاله ، واذا بشركة الصحافة الفرنسية ـ وهى رسمية تبادر بنشر بلاغ واذاعته على العالم تزعم فيه ان الشيخ العربى قد اختطف من طرف مجهولين وان وليه التجا الى الادارة العليا فبادرت بفتح بحث فى القضية انتج انه اختطف من مجهولين ويشم من هذا البلاغ انها بريئة من القضية ، وانها ممن يشتكى اليه ، ويلتجأ الى حمايته وعونه ٠

وجمعية العلماء تذيع على العالم أجمع ان الحكومة الفرنسية بادارتها المدنية والعسكرية مسؤولة مسؤولية كاملة فى قضية الشيخ العربى ٠ وتخشى ان تكون قد اغتالته يد العدوان أو مات تحت العذاب ، ولم يمكنها فى هذه المرة ان تدعى انه حاول الفرار ، أو افتكاك السلاح من يد الجنود فقتل ، كما لم يمكنها ان تدعى انه انتحر ـ كيف وهو مقيد اليدين والرجلين ـ بعد افتضاحها فى قضية الشهداء الابرار العربى ابن مهيدى ، وعلى بومنجل والشريف العمرانى فاخترعت هذه الدعوى الجديدة تنصلا

من المسؤولية ، وعدوان أعوانها • وتلاحظ الجمعية ان فضيلة الاستاذ العربى كان فى الزمن الاخير قبلة أنظارهم ومحط آمالهم لعلهم يجدون منه لينا أو (تفهما) يشجعهم على اتخاذه (المفاوض الصالح) للفت فى عضد الثورة وتشتيت شمل الشعب ، فما وجدوا فيه الا الصلابة والحزم ، والتضامن الكامل مع شعبه المكافح • وجيش التحرير المحارب وجبهة التحرير المناضلة فقد أرسلوا اليه فى شهر نوفمبر 56 مفاوضهم الخاسر م• كومان كاتب الحزب الاشتراكى المتولى الحكم فلم يفز منه بطائل ، وأبلغه ان المفاوض الوحيد هو جبهة وجيش التحرير أو من يعينونه لكم ، ومع ذلك فقد كتموا هذا الخبر واخفوا هذه المقابلة حتى قرب أوان المداولات فى القضية الجزائرية أمام منظمة الامم المتحدة ، واذا بهم يعلنون ـ فى أسلوب تساؤل أهناك مفاوضة ؟ ـ ان م • كومان قابل الشيخ العربى وتحادث معه فى القضية الجزائرية ثم علقوا على هذه المقابلة كما يحلو لهم دون أن تكون بيد الشيخ وسيلة لنشر أى ايضاح •

ثم أرسلوا اليه اثناء شهر جانفى 1957 مبعوث جريدة (لومند) البارسية ليحاول أخذ حديث منه ينشرونه من بعد • ثم يعلقون عليه بما يريدون فاعتذر له ، ورفض مقابلته ، ثم نشرت الجريدة نفسها حديثا طويلا لشيخ آخر كان ينتسب لجمعية العلماء واخرج منها منذ سنة 1938 فزعمت :

1 ـ ان هذا الشيخ من المؤسسين لجمعية العلماء المتكلمين باسم العلماء الى اليوم • الناطقين بلسانهم •

2 ـ ان هذا الشيخ يعتنق مذهب غاندى فى استنكار العنف والالتجاء اليه •

3 ـ ان العلماء ـ وقد خرجت هذا التعليق تخريجا ـ منذ ابتداء الثورة الجزائرية قد انقسموا فطائفة منهم انخرطت فى الجبهة وأيدت الثورة كالابراهيمى رئيسها ، والمدنى كاتبها العام ، وطائفة بقيت بالجزائر دون هذه المشاركة •

ولا شك ان هذه الجريدة أو الايدى التى حركتها للعمل ورسمت الخطة لمبعوثها كانت ستفعل هذا أو شبهه فى حديث فضيلة الشيخ العربى لتضليل الرأى العام الفرنسى ، وتخذيل الشعب الجزائرى لولا انه رفض المقابلة ورد المبعوث المسخر خاسرا •

وقد حاول في هذه الايام الاخيرة بعض رجال الحكومة الكبار في الادارة الجزائرية استدراج الشيخ لمقابلتهم · والتفاهم معه فلم يمكنهم من ذلك ·

وآخر مكيدة دبرتها هذه الدوائر انها أرسلت ذنبا من اذنابها يوم الجمعة 27 شعبان 1376 الموافق 19 مارس 1957 م ، الى المسجد الجامع بحي بلكور فصعد المنبر دون طلب أحد وبحضور آلاف المصلين وفضيلة الشيخ ثم تلا الآية الكريمة «**انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الارض فسادا ان يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم**» الآية · ثم شرع الخبيث يتهم رجال الثورة الابرار بما شهد العالم اجمع انهم بريئون منه وزعم ـ افكا ـ أنه طلب من الشيخ التدخل فجبن ولم يفعل ، ثم زعم انه متصل بالثوار وانه أتى منهم باوامر لينفذها الشيخ فأحجم وأبى ، واسترسل في الكذب والمتناقضات حتى أنزل عن المنبر ، وقد غضب الجمهور على هذا الخائن غضبا شديدا ولولا تدخل الشيخ لفتك به ومما لا شك فيه ان هذا الخائن المسخر كان يراد منه اثارة الشعور العام ضد الثورة وضد الشيخ وضد الجمعية ، كما أريد منه التمهيد لما أتى بعد الاختطاف فقد زعم بعض المسؤولين أولا ان الشيخ ربما اختطفه الارهاب المضاد · ثم زعموا في البلاغ انه اختطف من طرف مسؤولين مجهولين ثم صرحت الصحافة الاستعمارية ـ زاعمة افكا وزورا ـ ان الذين اختطفوه هم الارهابيون وبهذا تسمى رجال جيش التحرير ·

ان جمعية العلماء تكذب كل تضليل في الموضوع وتعلن للرأى العام الاسلامي وللرأى العام الفرنسي وللرأى العام العالمي ان الادارة الفرنسية المدنية والعسكرية هي التي اعتقلته ، وان رجالها الرسميين هم الذين أخذوه ، وانها تتحمل مسؤوليتها كاملة · والامة الجزائرية تهيب بكل ذي ضمير حي في العالم وبالهيئات الامية ، والمنظمات الانسانية والمذاهب الدينية وبالعالم الاسلامي العربي ان يتدخل في الموضوع، وان يسألوا الحكومة الفرنسية في القضية ويجبروها على قبول بحث محايد اما بواسطة منظمة الامم المتحدة أو بواسطة رجال الصليب الاحمر الامي من غير الفرنسيين أو بواسطة من يتفق عليه ·

ان الامة الجزائرية تعتبر قضية فضيلة الشيخ العربي ـ وهو أكبر رجال الدين الاسلامي في الجزائر ـ قضيتها الروحية وما قصدها الا اهانتها ، واذلالها ، والمبالغة في استفزازها . وانها لتكذب تكذيبا قاطعا لكل دعوى تدعيها الحكومة الفرنسية من جنوحها للسلم العادل كما أوصت به منظمة الامم المتحدة وقبولها للحل السلمي وانما ننتظر هدوء الحالة بايقاف اطلاق النار وانما تتخذ كل الاجراءات للتوصل لهذا الهدوء ، فهل اختطاف أكبر رجال الدين الاسلامي بالجزائر واهانته وتعذيبه والتنكيل به في شهر الصيام ثم الذهاب به الى مصير مجهول مما يساعد على ذلك ؟

ان الامة الجزائرية لتعلم ان الحكومة الفرنسية ساعية بكل عزم وتصميم لافناء الشعب الجزائري والانتهاء منه واحلال جموع الاوروبيين بتله ونجده وصحرائه وهي في سبيل ذلك تدفع جيشها دفعا الى ارتكاب أفظع ما يتصوره العقل من أعمال القمع ، تقتيلا ، وتعذيبا ، وتحريقا ، وتحاول ما استطاعت ربح الوقت ، وتأخير الحل .

ان الشعب الجزائري المؤمن بحقه في الحياة الحريص على كرامته ، المصمم على نيل حريته واستقلاله ليعلن للعالم أجمع انه سيواصل الكفاح ، ويداوم الجهاد والمقاومة الى النصر النهائي ، ولن يثنيه سقوط أي كان من أبطاله في الميدان مهما سمت منزلته ، ويعتقد أن الشهداء أفضل رجاله وأكرمهم عند الله ، وأبرهم بوطنهم وشعبهم ودينهم ، وسقوطهم في ميدان الشرف كرامة لهم وهوان لاعدائهم ، ولن يفت ذلك في عضده أو يثنيه عن عزمه بل ما يزيده الا ثباتا وعزما وتصميما ، ولن يوقف اطلاق النار الا بالاعتراف بالاستقلال ، ولن يوضع السلاح حتى يتحقق هذا الاستقلال .

والله أكبر ، والمجد للعرب والنصر للجزائر
والعاقبة للمتقين ولا عدوان الا على الظالمين

(2) كلمة تذكير واستنهاض ولوم وعتاب

في مساء يوم الخميس وليلة الجمعة 4 من رمضان 1377 الموافق 4 من ابريل 1957 انتهكت حرمة العقيدة الاسلامية بالجزائر . وأهين المسلمون اهانة بالغة ... ونكل بهما تنكيلا شنيعا ، ومثل بهما تمثيلا فظيعا ، واستخف بهما استخفافا لئيما ...

وذلك باهانة شيخ المسلمين بالجزائر وانتهاك حرمة بيته ودوس كتبه ومصاحفه والتمثيل به والاستخفاف بعائلته ٠

لقد اقتحم الجند الفرنسى منزل فضيلة الاستاذ العربى التبسى الرئيس المباشر لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين ومدير معهد عبد الحميد بن باديس اقتحاما ٠ وانتزع من فراش مرضه انتزاعا ٠ وعومل بغلظة وفظاظة وحيل بينه وبين أبنائه الصغار ونسائه ٠ وأهين ابنه الكبير أمام عينيه اهانة ٠٠٠ وبعثرت كتبه وديس بالاقدام أمام عينيه مصاحف القرآن وكتب الحديث والتفسير ٠ وحجزت محفظته بما فيها من المستندات الهامة ومن مالية لا يعلم عددها ترجع اليه أو الى الجمعية التى هو مسؤول عنها ٠ ثم ذهب به بعد هذه الشناعات الى مصير مجهول حاسر الراس حافى القدمين ، عارى البدن لا يكاد يستره شىء ، لم تراع فيه مكانته الدينية السامية ، ولا سنه العالية ـ وقد قارب السبعين ـ ولا حالة مرضه وقد ألح عليه ٠٠٠

أكل هذا يقع ولا نكاد نرى اختلاجة واحدة فى جسم العالم الاسلامى ٠٠٠ ولا نسمع صوتا يرفع للتشهير بهذا المنكر عدا صوت أو صوتين فاترين همس به أو بهما همسا واحتج به أو بهما احتجاجا حييا متواضعا ثم أعقب ذلك سكوت أبلغ من كل كلام ٠

لقد أحست الدوائر الاستعمارية بفداحة الجريمة وشناعة هذا المنكر فأذنت لدعايتها أن تشيع حول (اختطاف) الشيخ اشاعات كاذبة ومفتريات نكراء ، وتطلق فى الجو (ضبابا) ساترا للتمويه والتضليل حتى يمكنها أن تحفظ خط الرجعة ، وتتنصل من الجريمة ٠٠٠ ولكن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وزملاء الشيخ فيها ـ المضروب على أيديهم والمحرومون من كل وسائل الكلام ـ استطاعوا أن يرفعوا اللبس ويزيلوا كل اشتباه بالبيان الصادر من الجمعية فى تحميل الحكومة الفرنسية كل المسؤولية ، ورفض كل تنصل منها ، وفضح كل تأويل أو تفسير . وذلك لان أعوانها الرسميين وجنودها المجندين المحصلين على التفويضات الكاملة منها بلباسهم الرسمى وأسلحتهم ، وحيثيتهم ولغتهم وأسلوبهم الخاصين بهم أولئك الذين اقتحموا دار فضيلته وأهانوه وذهبوا به ٠ ولولا ذلك لفضل أن يموت بفراشه على الذهاب معهم ولمات دونه كل من وجد معه من عائلته أو من قرب محله من داره من المسلمين ٠٠٠

فكل تنصل من الحكومة الفرنسية مرفوض ، وكل تأويل مردود ، وكل تمويه أو تضليل مفضوح ٠

فما بال اخواننا المسلمين في مشارق الارض ومغاربها يسكتون عن هذه الهضيمة ويبتلعون هذه الاهانة الشنيعة ، وما قصد بها اهانة الشيخ شخصيا وانما أريد بها اهانة الاسلام والعقيدة الاسلامية والمسلمين فى شخصيته وما بال أشقائنا الاقربين وأصدقائنا الحميمين بتونس والمغرب تخفت أصواتهم وتتلجلج ألسنتهم وتنام ضمائرهم ونحن نعلم يقينا ان الشعب فى تونس كشعب الجزائر وشعب المغرب يغلى غليانا ويشتعل اشتعالا ٠٠٠ وهو على كمال الاهبة لحرق الغاصبين المعتدين ، وما بال زملائنا واخواننا علماء الزيتونة والقرويين والازهر وغيرهم من علماء الاسلام وهم حملة الشريعة وحماة الملة يصابون فى زميل لهم ويمس الاسلام فى أحدهم وتهان العقيدة فى أكبر ممثل لها فى قطر من أقطارها ثم هم مستمرون على سكوتهم سادرون فى غفلتهم متمسكون بعزلتهم ، مصرون على تواضعهم مستكينون الى خمودهم ٠ كأن الامر لا يعنيهم ولا يتصل بهم ولا ترتبط ماساته بادنى سبب من الاسباب مع مهمتهم وحيثيتهم ٠ أو كان الشيخ العربى أجنبى دخيل فى وسطهم غريب على مجتمعهم أو كأن قضية هذا الشعب ـ الشعب الجزائرى ـ وما يتصل به وبديانته وعقيدته ودمائه ورجاله اهون من ان يشتغلوا بها أو يعتنوا بمشاكلها أو تأخذ جزءا أدنى جزء من أوقاتهم الثمينة ٠٠ مع أن قضية الدين ورجاله قضيتهم وقضية انتهاك حرمات الاسلام والمسلمين من مهماتهم ومشمولات أنظارهم وكل ما يمس واحدا منهم من أجل حيثيته وصفته يمسهم ٠

أيها الاخوان ويا أيها الاشقاء ويا معشر الزملاء ما هكذا تهون العقيدة ، ويرخس رجالها وتنتهك حرماتها وتداس كتبها ومقدساتها عند الامم الاخرى أو الملل الاجنبية ثم لا يكون منهم الا الاستخذاء ، والخنوع والرضى والاستسلام ٠٠

لقد رأينا أيها الاخوان كيف اهتزت أركان العالم المسيحى اهتزازا وزلزلت الارض زلزالا يوم القت حكومة بولونيا الشعبية ـ وهى حكومة شرعية وليدة انتخابات شرعية ـ القبض على زعيم الديانة المسيحية ، ورئيس المذهب الكاثوليكى فى

بولونيا ، وتزلزلت الارض زلزالا ، وتكاد تخرج اثقالها ، يوم القت حكومة المجر أيضا القبض على زعيم آخر من زعماء المسيحية ، زعيم المذهب الكاثوليكى بها بنفس التهمة ، ولنفس الاسباب مع انها حكومة شرعية وليدة انتخابات شعبية ٠

لقد رأينا أيها الاخوان كيف قامت قيامة العالم المسيحى - عندئذ - وارتج ارتجاجا شديدا ، بكنائسه ومذاهبه وقساوسته وأحباره ورهبانه ، والب العالم أجمع والانسانية جمعاء تاليبا محكما ضد الحكومتين حكومة المجر وحكومة بولونيا ٠٠ حتى قامت قيامة الدنيا غضبا للكاردينالين الكاثوليكيين المعتقلين المسجونين ٠ فتظاهرت الشعـــوب ، واحتجت الحكومات ، وتدخل النواب فى مختلف الاوطان يستنطقون حكوماتهم أمام المجالس النيابية ، كان القضية قضيتهم ، واهتزت شركات الانباء تفصل أنباء الاعتقال والسجن والمحاكمة تفصيلا ، وكتبت الصحف والمجلات ، وابدع الكتاب تشنيعا وتهويلا ، ولقد حوكم الكردينالان المتهمان محاكمة ، وقامت ضدهما البينات ، وكافحهما الشهود واعترفا اعترافا ٠ فادينا ، واودعا السجن بمقتضى أحكام صادرة ٠ ومع كل ذلك فالدنيا التى قامت لم تقعد والحكومتان المعتقلتان للكاردينالين المحاكمتان لهما لم تطمئنا ولم تراحا وتستريحا الا بعد ان افرج عن الكاردينالين - رغم الاحكام الصادرة - واطلـق سراح كل منهما ٠٠ وارجعت له سائر حقوقه ، وحريته ٠ واننا لا نلوم العالم المسيحى على ما فعل بل نغبطه ، ولا نأسى لاحراز الكاردينالين على حريتهما ٠ بـــل نغتبط بها ولو قارنا بين القضيتين قضية الكاردينالين ، وقضية الشيخ العربى التبسى ، لوجدنا الفرق واضحا والاختلاف بينا لفائدة قضية الشيخ ولصالحه ٠٠

ففى قضية كل من الكاردينالين اعتقلتهما حكومتا بلاديهما الشرعيتان ، بتهم معينة كما يعتقل كل متهم ، والمتهم برىء حتى يدان ، وكل منهما قد حوكم أمام محكمة بلاده فقامت عليه البينة أو اعترف أو شهد عليه حقا ، أو زورا - كل ذلك لا يهمنا - فأدينا ، وكان اعتقالهما انسانيا ، واستنطاقهما قانونيا ، والحكم عليهما مستندا الى حيثيات ٠٠

اما الشيخ العربى التبسى فقد اعتقلته حكومة غير شرعية تعذب شعبه ، وتغتصب وطنه وتهين دينه اعتقالا مجرما ظالما ، لا يستند الى قانون ، ولا تبرره شريعة ، ثم أهانوه اهانات بالغة ، فاعتدوا على كل حق قانونى أو شخصى أو انسانى ، واهانوا مقدساته ومقدسات المسلمين أمامه بدوس المصاحف القرآنية ، وكتب الحديث والتفسير ٠ ثم انهم فعلوا كل ذلك وذهبوا به الى مصير مجهول فى حال تتبرأ منها الانسانية ، حاسر الراس حافى القدمين ، عارى الجسم ، لم يراعوا مكانته آلسامية ، ولا سنه العالية ولا مرضه الملح ٠٠

يا عجبا ما بعده من عجب أفبعد كل هذا نرى السكوت والتردد ، والتخاذل فى صفوف المسلمين ؟ والاستسلام (والرضى) من علماء الشريعة ؟

يا أصحاب الفضيلة حملة الشريعة وحماة الملة ٠٠ لقد طالما رأيناكم تثورون وتغضبون فيقرأ لثورتكم الف حساب ويرتعد لغضبكم اعتى العتاة ، أفلا ترون ان قضية اليوم أهل لثورتكم وغضبكم ؟

ان فى الجزائر اليوم ــ ولا نتكلم عما سلف ــ مساجد جامعة ، ومساجد للصلوات الخمس محتلة بحثالة الانسانية وجذام البشرية من كل شريد وطريد وشاذ ٠٠ ياتون فيها الفاحشة ، ويشربون الخمور فى محاربها ، ويبولون ويتغوطون فى بيوت الصلاة منها ، وان فى الجزائر اليوم ــ ولا نتكلم عنها منذ 1830 مساجد جامعة ومساجد للصلوات قد نسفت بالمتفجرات ــ الديناميت ــ نسفا أو حطمت بفعل قنابل الطائرات والمدافع تحطيما ، واغتيل المصلون بها ــ وهم فى حالة الصلاة أو عند الخروج ــ اغتيالا وان فى الجزائر من رجال الدين أئمة ومدرسين ، وواعظين مرشدين ، يوخذون فيسامون سوء العذاب ، ثم يقتلون صبرا ٠٠

وهذا شيخ المسلمين بالجزائر وعالمهم يهان ويعذب ، وينكل به التنكيل الشنيع ، ثم يذهب به الى مصيرمجهول حتى اليوم ، ليت شعرى أيرى المسلمون ان السكوت بعد

كل هذا واشنع من هذا جائز مستساغ ؟ أو انهم لا يرون ذلك ولكنهم قد (ديثوا بالصغار) .. انتهى

الجزائر 12 ماى 1957

حاشية :

« يمكن القول أن أكثرية علماء الاسلام ومن فى حكمهم .. فى العالم الاسلامى قد أصيبوا بضعف النفس ، الناتج عن ضعف الايمان . ووصفوا بوصف الجبن ، الذى لا يجتمع مع الايمان فى قلب رجل واحد . فلا غرابة ـ اذن ـ اذا رأيناهم لم يحركوا ساكنا فى قضية الاعتداء الفظيع على شهيد الجزائر واغتياله بصورة شنيعة .. وان أصدق ما يصدق على علماء ديننا فى هذا العصر ـ الا من رحم ربك ـ هو قول الشاعر» :

« لقد أسمعت لو ناديت حيا   ولكن لا حياة لمن تنادى »

ع ـ م

109

الاستـاذ مبـارك الميـلى والصحـافة

أحمد بن ذياب
أستاذ فى ثانوية الفتح
ـ البليـدة ـ

لست أدرى مـا مـدى الابعـاد التى تحتلها شخصية الشيخ مبارك الميـلي فى نفوس أبناء الجزائر المتطورة اليوم ؟ ولن أستطيع أن اتكهن عن مكانته ـ غدا ـ حين تصبح الثقافة الثورية سيدة المستقبل ، تشـق الطريق اللاحـب الى السؤدد الشامـخ وتعلى منـارة الاشراق وضاءة ساطعة ٠ ولكن الذى اعرفه ويعرفه اكثر الادباء المعاصرين : أن الرجل امضى جل عمره ثائرا ثـورة ايجابية عاملة بناءة ، وان الرجل لم يعش يوما لم ينجز فيه صفحة مشرقة ، أو يخطط فيه لاخرى ، أو يتعهد فيه ثالثة بالتحقيق والتمحيص ٠

ويكفى المرء دليلا ان يعاود منجزات رجل لم تطل به الاقامة فى هذه الدار الا سبعا وأربعين سنة حتى يقدر الرجل حق قدره ، ويعلم علم اليقين كيف جاء هذا العبقـرى الى الوجود سنة 1898 ؟ وكيف غادره فى التاسع مـن فبراير سنة 1945 ؟ وكيف كانت سنـو عملـه العشرون فى التعليم والصحافة ، فى الوعظ والارشاد ، فى التـاليف والتحقيق ، فى تأسيس المشاريع والاشراف عليها ٠ فى النشاطات الاجتماعية هنـا وهنالك : جميعها حافلة بالجهود المثمرة رغم المرض المزمن الذى لازمه فاقض مضجعه ،



الاستاذ مبارك الميلي رحمه الله

ونغص حياته ، وظل معه يغالبه ليقهره ، ويصاوله ليفل من عزمه ، ويطاوله ليهـــدم حياته ركنا ركنا ، وما ظن داء السكر العضال انه انما يهدم حياة شعب ، وينخر فى كيان أمة · ويعيث بمقدرات وطن ، اذ ان الشيخ مبارك الميلي لم يكن ليعيش لنفســه ، ولم يهمل يوما حق وطنه عليه · ولم يفرط فى صغيرة ولا كبيرة من مقدسات أمتــه ·

ورجل بلغ هذه المكانة من حب الواجب وتعشق التفانى فيه ، والاخلاص للمسؤولية التى يحسها المثقف العصامي فى الامة المتخلفة ، لن يستطيع كاتب مهما جد جده ان يختصر الحديث عليه فى مناسبة أو يوجز القول حوله فى كلمة عجلى · ولهذا اخترت أن أخصص هذه الذكرى بالقاء ضياء لامع أو لمحة خاطفة على حياته كصحفى ·

وقد كانت الصحافة ــ وما تزال ــ مجالا لخدمة الامــة ، وميدانا لتثقيف العقول ، ومجالا لاذكاء المشاعر ، وتهذيب الاحاسيس ، وقد عرف الاستاذ مبارك الميلي كل هذه المزايا للصحافة وقدرها ، وأولاها عنايته من أيام نشاطه الاولى ، أو منذ عودته مــن تونس الى الجزائر ــ بعد ان نال شهادة التطويع سنة 1924 ــ حتى قررت جمعية العلماء ايقاف « جريدة البصائر » اثر اندلاع الحرب العالمية ، فى طلائع خريف سنة 1939 ، كما أوقف الشهاب عن الصدور نتيجة فرض رقابة شديدة على الصحافة الحرة ، ومحاولة الدولــة الاستعمارية تسخيرها فى صالــح بلاغاتها الحربية ، ومخططاتها الدعائية ، واباطيلها التزويرية · وقد تناول هذا الموضوع الاستاذ المرحوم عبد الحفيظ الجنــان ــ وهو من أخبر الاخوان بتاريخ الرجل ودخيلة نفسه ــ فقال :

رجع الشيخ مبارك من تونس حاملا معه مسودة قانون أساسي يحث الطلاب وأهل العلم ، على انشاء مطبعة كبرى ، تطبع المخطوطات ، وتنشر الجرائد والمجلات ، لتحيى أمته حياة عملية لا نظرية ، ووجد أستاذه عبد الحميد بن باديس قد بعث بقلمه صيحة مدوية فى ارجاء الوطن فانضوى تحت لواء أستاذه بالامس وصاحبه فى الحال ، وقال له : « ها انذا الفتى المقدام والمناصر الهمام » ·

واذا كانت هذه هي البادرة الاولى كما شهد بها عبد الحفيظ الجنان فهي بــادرة الرجل الذى يحمل بين جنبيه عزما مصمما ، وعقيدة راسخة ، ولا يكتفى بذلك بــل ترتفع به الهمة الطموح الى تسطير مشروع صحافى وتخطيط نظام لعمل جاد بناء ·

ويقول معاصروه بأن الامضاء المستعار الذى اصطنعه فى السنوات الاولى وهــو يشارك فى تحرير مقالات « المنتقد » ثم « الشهاب » كان تحت اسم (البيضاوى) ·

ولعل البيضاوى هنا هو (بيضاوى) التفسير الذى اشتهر ببلاغة أسلوبه ، واختصار تعابيره ودقة مدلولات الفاظه ، وكانت المقالات نقدية مرة ، وبحوثا طريقة أخرى ، ومواجهة للخصوم بالرد ثالثة ·وحتى السياسة قد تناولها عدة مرات ، ولكن فى المستوى الرفيع مثل الجمهورية ضمن الملكية ، وما قارب ذلك المستوى اوضاهاه فى العمق والسمو فى الموضوع وخطره ·

اما حين نحتاج استعراض النماذج ، والتأمل فى غزارة أسلوب الرجل أو سعة افقه ، فقد نقدم له هذا النموذج وهو يستفرض حجج القائلين : بوجوب « اعطاء البنت حقها فى التعلم والتعليم » وفتح المدارس لها ـ بلا تحفظ ـ حتى تنال نصيبها من نور العلم ، وقسطها من زاد الادب ، وتكتمل ذخيرتها من أسلحة الحياة فتكون أفكاره بعد التمهيد المبسط على هذا النحو ·

ولما أخذت حركة تأسيس تلك المدارس فى الانتشار ظهرت مشكلة من يعمرها من النشء ، فقال فريق نعمرها بالبنين والبنات ، وقال آخرون نعمرها بالبنين دون البنات ، ولا يكاد يخلو مجلس من مجالس اركان الاصلاح التى يذكر فيها التعليم من الحديث فى هذه النقطة ، نقطة ادخال البنات المكاتب وافضاء كل برأيه ونظره فيها · فكان من حجج الفريق الاول :

1) ان فساد القلوب وانحطاط العقول كانا شاملين للامة ذكورها واناثها ، فيجب ان يكون اصلاح القلوب وترقية العقول عامين فى الذكور والاناث ·

2) وان المرأة شقيقة الرجل فى الانسانية فلتكن شريكته فى التربية والتهذيب ، ولا تظلم بحرمانها حقها من ذلك ·

3) وان الام هي المدرسة الاولى التى يتلقى فيها الابناء معلوماتهم الاولية التى تصير كطبيعة لهم ، فعلينا ان نصلح هذه المدرسة لتهيىء لنا أبناء لا يتعاصى عليها اصلاحهم ·

4) وان الانثى مكلفة ـ فى حكم الاسلام ـ بمثل ما يكلف به الرجل لا يفترقان الا فيما يرجع للقوة والسيادة فيختص بالرجل كالامامة ، وولاية مناصب الحكم ، والا فيما يعود الى الضعف والحنان فيختص بالانثى كالحضانة ، وتنزل اثنتين منزلة واحدا فى الشهادة ·

5) وان الانثى شريكة الرجل فى منزله ، وقرينته فى حياته ، لاغنى لاحدهما عن الآخر فلابد من اشتراكهما فى التهذيب ، واقترانهما فى التثقيف ، ليرغب الفتى فى

الفتاة ، وتعرف الفتاة كيف تعاشر الفتى ، ثم ليكونا ـ وهما زوجان ـ أقرب الى الوفاق وابعد عن الشقاق ، فاما العناية بالفتى واهمال الفتاة ، فينشأ عنها البعد بين من يجب تقاربهما ، والنفرة بين من تتوقف السعادة على سكونهما ، احدهما الى الآخر ، ومن ذلك البعد وتلك النفرة تتكون ازمة زواجية ، وفي ذلك سقوط الاسر ، والكفر بالفضيلة ، وانقطاع العقب وذيوع الرذيلة ، الى آخر المقال القيم الذى نشرته الشهاب فى افتتاحية العدد السادس من سنتها الثانية عشرة بتاريخ سبتمبر 1936 تحت عنوان : (تعلم المرأة) والافكار التى يحملها المقال ، وكتب لاجلها : افكار العالم المتثبت ، أو العليم بما يكتب ويعتقد ، المهتم بالموضوع الحيوي الذى يتناوله ·

والفكرة حول المرأة ـ يومئذ ـ ما تـزال اقرب الى الجمود المتحجر ، منها الى الاعتدال فضلا عن الثورية وحسبنا أن نعلم ان هناك مـن حملة الاقلام ـ ولـو كانوا مزيفين ـ من يدعى ان تعليم المرأة « الكتابة » محرم شرعا ، مستدلا باحاديث واهية مكذوبة على رسول الله سيد المرسلين ـ صلى الله عليه وسلم ـ ·

ومن هذه الزاوية يعتبر ما دبجه المرحوم استاذنا مبارك الميلي ـ يومئـذ ـ ثـورة عارمة على الجمود ، وتطلعا مبكرا الى مستقبل المـرأة الباسـم ، وتمهيدا لاعطائها حقوقها كاملة فى ميادين الحياة العامة ·

أما ان أردنا أن نعرف رأي الاستاذ الميلي فى الصحافة فقد نجد أصـدق مثـال ما نقرأه له فى مقاله الافتتاحى لجريدة البصائر حين أسندت اليـه ادارتها فى خريف سنة 1937 · فقد جاء فى العدد 84 وهو العدد الاول من انتقال ادارتها الى قسنطينة ، واسنادها اليه مع رئاسة التحرير والذى صدر فى 29 أكتوبر ، أقول جاء فيه فى جملة ما جاء قوله :

« وان من أهم الخطط واعم الوسائل لتحقيق الغايات ، ونشر الدعوات : انشـاء الصحف السيارة التى تحفظ جيدا الاقوال ، وسديد النظريات ، وتدخل بها على الطالب فى مسكنه ، وعلى التاجر فى متجره ، وعلى الصانع فى مصنعه ، وعلى الملا فى ناديهم وعلى المسافرين فى مراكبهم ، بل لا يحجبها عن الفتيات خدر ولا حرس ، ولا يحـول بينها وبينهن خفر ولا شرس ·

وما وجدت فكرة الاصلاح الديني بأرض الجزائر حتى وجدت لها صحف تعبـر عنها ، وتبشر بها ، وتدافع دونها » ·

واذا كنا لا نستطيع ان نتابع الاستاذ مبارك الميلي فى أشواط افتتاحيته القيمة التى ندرك منها ان البصائر هـي الجريدة الرابعة مـن جرائد جمعية العلماء وان اخواتها اللواتى استشهدن قبلها هن (السنة) ثم (الشريعة) ثم (الصراط) وأخيرا تجيء البصائر لتحمل شعار قوله تعالى : « قد جاءكم بصائر من ربكـم فمن ابصر فلنفسه ومن عمي فعليها وما أنا عليكم بحفيظ » ٠

اما سلفه مديرها قبله فيقول عنه الكاتب المبين والخطيب البليغ ، والداعية البصير الاستاذ (الطيب العقبي) لكنه استقال من ادارة الجريدة ، فشكر له اخوانه صبـره على ما لاقى وقبلوا منه عذره واستقالته ٠

اما الاقتراحات التى قدمت للنهوض بالجريدة فيجملها فى قوله :

« 1 ـ على العلماء البارزين ان يعنوا بتحرير المقالات الراقية فى صحيفتهم ٠

2 ـ وعلى شباب العلماء ان يتقدموا الى ميدان الكتابة ـ وان لم تنضج أفكارهم ـ بشرط واحد ، هو الا يثوروا من تصرف الادارة فيمـا رأت التصرف فيه بالتنقيح ، أو بالتلخيص ، أو بالاهمال ، فان الثقة أساس التعاون ، والمدير قد يرى ما لا يتفطن لـه الكاتـب ٠

3 ـ وعلى من آنس من نفسه المقدرة على التحرير ان يكاتب الادارة : لتتخذه مكاتبا فى جهته ، بشرط واحد : هو الصدق فى التصوير ـ مع مراعاة ، أن الجمعية وجريدتها فوق حزازات النفوس ، ونزعات الاحزاب وعلى الكاتب أن يقصد الى تصوير الحقيقة لا الى شفاء النفس من فرد أو جماعة ٠

4 ـ وعلى أعضاء الجمعية ان يخبروا ادارة الجريدة بكل عمـل يقومون به ، فى خدمة الجمعية ، وبكل عقبة تعترض سيرهم نحو غايتها ، وبكل ظلامة تقع عليهم مـن أجل مبادئها ، لتقوم ادارة التحرير بابلاغ ذلك الى الفكر العام ، فتبين سير الجمعية ، وتخلد مواقف العاملين ، وتشهر بالظلمة الباغين ٠

5 ـ وعلى رؤساء الشعب ، وكـل غيـور من أنصار الجمعية ، أن يرتبطوا بادارة الجريدة ، للاتفاق على خطط العمل ، فى نشـر الجريدة ـ بيعـا واشتراكا ـ وتنمية ماليتها ، لتقوى على السير المنتظم ، والرقي المطرد » ٠

وبكلمة موجزة يمكن أن يقال ان دستور الاستاذ مبارك الميلي فى مسؤولية الجريدة ادارة وتحريرا ، وتجاوبا مع القراء قد بسط بسطا عاما شاملا فى افتتاحية العـدد

الاول الذى صدر بعد انتقال الادارة اليه ، وفيه عرفنا جليا مقدرة الرجل الصحفية ، ومحططه البارع ، وغايته النبيلة ٠

لكن من حقه علينا أن نختم هذه الكلمة برأي له حول بعث الادب القومي والتراث الوطني ، فقد اهتم بهذه الناحية ـ اهتماما مشكورا ـ فى ذلك الدستور فقال :

« وهناك ناحية الفت اليها نظر شبابنا ، لما لها من المكانة ، في خدمة المجتمع ، وترقية الشعور ، وتوحيده الا وهي ناحية الادب انشاء ودراسة ٠

واذا كانت هناك صعوبات فى دراسة أدبنا ، واحياء ماضيه : لفقد المواد والوثائق فان قوة الشباب يجب ان تذلل الصعاب ، وان تثب الى المطلوب وثبا لا يوجب مبدأ التدريج ولا يستنكر مبدأ الطفرة » حتى يقول : « وانا لنرجو ان نرى فى هذه الصحيفة آمال الشيوخ ، واعتدال الكهول ، وافراط الشبان ، وفى تحقيق ذلك الرجاء خير الاسلام والعروبة وسعادة الجزائر » انتهى ٠

وأخيرا اسال الله ان يوفق أبناء الجزائر لبذل جهود مشكورة فى الاقتفاء بأثر المرحوم الشيخ مبارك الميلي فى الاخلاص للمهنة وصدق اللهجة ، وسعة الأفق ومواصلة التضحيات ٠

اما أصدقاؤه وعلى رأسهم ابناؤه الروحيون فعليهم ان يجمعوا مقالاته لتحفظ فى سجل ، وتنشر فى كتاب ، والله لا يضيع اجر المحسنين ٠

في موكب الذكرى

الشاعر الخالد محمد العيد

محمد الصالح الصديق

كنت في هذا الصيف (1979) أقضى عطلتى قريبا من شاطىء البحر، وكان يلذ لى أن أهرب من ضجيج الناس وضوضائهم الى مكان صخرى داخل البحر فأخلو الى نفسى وأحاول أن أستجمع ما تبعثر من أشلائها هنا وهناك علنى أستطيع أن أفتح نافذة يعسر فتحها في عالم الناس حيث الحركة والجلبة والصخب، نافذة أطل منها على ما بقى من الدرب الطويل الممدود بين البداية والنهاية ، عسى أن أستبين معالمه وأقف على حقيقته وسره وفي هذا اليوم (2) أوت اعتليت كعادتى صخرة عالية داخل البحر وأخذت أسرح طرفى فى الامواج المتلاطمة أتابعها على مد البصر وهي تزحف وترغى وتزبد حتى تتكسر على أسافل الصخرة ثم تتبعثر وتتلاشى ، لتزحف أمواج أخرى وتتكسر وتتبعثر وهاكذا دواليك ·

ومن حين لآخر أطلق بصرى فى عرض البحر فأرى باخرة تمخر عبابه فأتصور الاختراع الانسانى العظيم الذى أمكن به لهذا المخلوق الضعيف أن يسخر هذا المخلوق القوي الهائل فيعلو ظهره ويستخرج ما فيه من كنوز ·· ثم فجأة أتصور غضب البحر وهيجانه وكيف تصير أكبر البواخر فيه كأنها ريشة أو حثالة تتقاذفها الامواج فترفعها طورا ، وتخفضها طورا آخر كأنها على أرجوحة، وقد يطويها ويبتلعها فى أحشائه فلا يعود يعثر لها على أثر ·

وأفكر فيما شاهده هذا البحر من معارك حربية يشيب لها الوليد فيقشعر بدنى لاهوالها ، وأشعر بالرهبة من الحروب الطاحنة · التى يصاب بها الانسان كما يصاب بالوباء الماحق · وتمر بخاطرى لمحات من تاريخ الشعوب الاسلامية الحافل بالبطولات الخارقة ، ويتركز فكرى فى المعارك البحرية التى

خاضها أبناء الشواطىء الاسلامية في البحر الابيض المتوسط لا سيما في أعقاب المذابح التي تعرض لها مسلمو الاندلس والحملات الضاربة التي استهدفت لها الثغور العربية بشمال افريقيا ·

فبينما كنت في هذه الخواطر ان لمع بذهني قول شاعر الجزائر محمد العيد آل خليفة يناجي البحر سنة 1830 :

وقفت على بحر الجزائر ليلة
وناجيته لو كان يسمعني البحر
فقلت له : يا بحر ما لك هائجا
على البر مغتاظا ولم يذنب البر ؟
ومالك لا تالوه دفعا وضجة
وصفعا بأيدي الموج رق له الصخر؟

ثم وثب فكري الى الماضي البعيد أيام كنت ألتمس الضوء الهادي الى حضيرة الادب ، وأروض عقلي ليتثقف وقلمي ليستقيم على الدرب ، فازدحم على فكري كثير مما كنت أحفظه من روائع الادب العربي ، عن جمال الطبيعة ، وعظمة الكون ، فمر بخاطري قول الرافعي وهو يناجي البحر ويقول : (اذا ركبك الملحد أيها البحر فوجفت من تحته ، وهدرت عليه وثرت به وأريته رأي العين كأنه بين سماءين ستنطبق احداهما على الاخرى فتقفلان عليه ــ تركته يتطأطأ ويتواضع ·· وأطرت كل ما في عقله فيلجأ الى الله وكشفت له عن الحقيقة : ان نسيان الله ليس عمل العقل ، ولكنه عمل الغفلة والامن وطول السلامة) ·

وحان موعد الاخبار ففتحت مذياعا صغيرا كنت أحمله معي للاتصال بالعالم الخارجي الذي يفصلني عنه البحر وبعد المسافة عن المدن ، فهالني ما سمعت في موجزها ولم أصدق أذني فيما سمعت :

انه نعى الشاعر الجزائري محمد العيد الذي كنت الآن أفكر فيه وأستعرض من شعره عن البحر ، وتابعت الخبر فعلمت انه قد توفي يوم الاربعاء (1) أوت بمستشفى باتنة وتشيع جنازته يوم الخميس بمدينة بسكرة · ثم انتقل المذيع الى أخبار أخرى وبقيت أنا مع النبا المفجع مذهولا كأنني في المنام أو كأنني غير مصدق ، ووجدت لساني يردد قول أبي الطيب المتنبي عندما فاجأه نعي أخت سيف الدولة فلم يصدق النبأ :

طوى الجزيرة حتى جاءني خبر
فزعت فيه بآمالي الى الكذب
حتى اذا لم يدع لي صدقه أملا
شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي

ولكن سرعان ما أفقت من ذهولي ، فقلت : فيم هذا العجب وفيم استبعاد الخبر واستغرابه ؟ أليس مكتوبا على كل انسان أن يفقد في ساعة ما حياته ويلقى المصير المحتوم الذي ينتظره منذ وفادته الى هذا الوجود ؟ أليس أجل الانسان جسرا معلقا بين البداية والنهاية فلابد يوما أن ينقضي هذا الاجل، وينتهي هذا الجسر فاذا بالحياة التي كان يراها

حقيقة ملموسة ، وفردوسا رائعا نضرا حلم ووهم ، وقصة تروى فى كلمات ؟

تبا لدار غرور تبا لدار غرور
خداعة كالسراب

وقلت رحم الله الفقيد الراحل محمد العيد اذ يقول :

ويح ابن آدم يلهو
والموت منه كقاب

لابد أن سوف يخبو
كل امرىء غير خاب

تبا لدار غرور
خداعة كالسراب

ويح ابن آدم يلهو
والموت منه كقاب

الموت نوح رياح
والمرء عود ثقاب

لابد أن سوف يخبو
كل امرىء غير خاب

نهاية لابد منها وان غفل عنها الانسان فى خضم هذه الحياة ، وغاية حتمية لا مفر منها وان لها عنها فى غمرات المسرة والهناء ، فسنة الله فى كونه أن يجىء أجل الموت كما جاء أجل الحياة، فعملية التحلية والتخلية فى هذه الارض ستظل ضرورة قائمة حتى يجىء أجل الارض نفسها . فمن منا لا يعرف هذه الحقيقة ولا يوقن بها ؟ ولكن من منا أيضا لا يهوله وقع هذه النهاية ولا تهز كيانه هذه الغاية عندما تحل بالقرب من ساحته؟ فبالرغم من الايقان بأن هذه الحياة انما هي ممر الى الآخرة ، ومجاز الى عالم البقاء أو كالظل الذى يتفياه المار فى الطريق – فنحن لا نستطيع أن نحبس فى العين دمعة ، ولا أن نخفف عن القلب لوعة ، ولا أن نخفى من وجوهنا مسحة الحزن والكآبة ، عندما نفقد أحدا سيما من أقاربنا أو من خلص أصدقائنا ومعارفنا . ؟؟ وحزننا على الذين نفقدهم يتفاوت عمقا وأثرا بتفاوت منزلتهم منا ومكانتهم فى قلوبنا ، وبالتالى بالفراغ الذى يتركه الفقيد فى حياتنا سيما اذا كان الفراغ لا يسده أحد من بعده .

واذا كان حزننا على الشباب قويا وعاتيا يعصف بنفوسنا عصفا لانهم مناط آمالنا ومهوى خواطرنا، والورود المفتحة التى تستقبل الحياة ندية عطرة فحزننا على الشيوخ ذوى الحنكة وذوى المواهب والكفاءات هادىء ولكنه عميق، يبقى ألمه فى الاعماق ما بقيت أعمال الفقيد تنطق به ، وأثاره تذكر به ، ومواقفه تشير اليه.

ومن هؤلاء الشيوخ الذين جعلوا حياتهم عظيمة بما صنعوا فيها من مجد وبنوا فيها من تاريخ – صديقنا الوفى وشاعر الجزائر البار الاستاذ محمد العيد الذى تخلصت روحه من قيدها المادى الغليظ وصعدت الى ربها راضية مرضية لتلتحق بأرواح رفاقه الذين مضوا قبله الى ربهم .

وانه لمن حق محمد العيد على هذا القلم الذ ىطالما ناجاه فى السراء والضراء ، وطالما استوحى من خياله الشعرى منذ الطفولة ما اخصب به الصداقة ومتن به عرى الاخاء والمودة - أن يحييه وهو نائم فى قبره بهذه الخواطر والنبضات تحية اخلاص ووفاء ريثما تتاح فرصة للوفاء له بما يجب منمثلى لمثله صداقة وتقديرا :

الشاع رمحمد العيد : لم أكن أتجاوز التاسعة من عمرى حينما سمعت بهذا الاسم ، وشغلنى التساؤل والاستفسار عنه ساعة من الزمن ومنذ ذلك الحين أحببت الشاعر محمد العيد وظللت أسأل عنه وأهفو الى شعره ٠٠ وأتصفح ما يقع بين يدى من الصحف علنى أظفر بشعره حتى استقام عودى وعرفته وتوثقت بينى وبينه الصداقة ٠ كان ذلك عندما كنت تلميذا بمعهد سيدى عبد الرحمن اليلولى بزواوة وكان أستاذ المعهد فى ذلك العهد هو الفقيه الاصولى، والمؤلف البارع محمد الرزقى الشرفاوى الازهرى ، وكانت لى قرابة به بحيث أدخل الى حجرته متى شئت وأتصفح من أوراقه ما شئت ، وأستفسره عما شئت ، وأناقشه أحيانا فى قضايا لا أفهم عنها شيئا لانها فوق طاقتى ولكنه مع ذلك كان معى رحب الصدر قلما يستثيره فضولى فبينما كنت معه ذات يوم أجاذبه أطراف الحديث اذا بطالب فى المعهد يطرق الباب ويسلم للشيخ ظرفا بريديا، ففتحه فاذا به كتيب صغير ٠٠ فنظر فيه باهتمام ثم أخذ يتصفحه وهو يبتسم فسألته عنه فدفعه الي قائلا : اقرأ ٠٠٠

فقرأت على الغلاف (أنشودة الوليد) فى يوم المولد للشاعر الجزائرى محمد العيد ثم قرأت فى أعلى الصفحة الاولى هذين البيتين :

بمحمد أتعلق
وبخلقه أتخلق
وعلى البنين جميعهم
فى حبه أتفوق

ثم أخذت أقلب صفحات الكتيب وأقرأ فى سر ، فقال الشيخ ، هذه القصيدة نظمها الشاعر محمد العيد خصيصا لتلامذة المدارس العربية فأهدانى نسخة منها ٠

وما أزال أذكر ان أمرين هامين قد استبدا بعقلى فى ذلك الوقت وجعلانى أسأل الاستاذ الشرفاوى وأناقشه - كعادتى - وهو يجيب بعناية كأنه مع أديب أو مثقف أو كبير ، لقد كنت أعرف كثيرا من الشعراء كامرىء القيس ، وعنترة ، وزهير ، وطرفة ، والمتنبى وأحفظ لهم قطعا أو أبياتا ولكنى ما كنت أظن أنه يوجد فى العصر الحاضر شعراء اذ كنت أعتقد أن الشعر وقف على عرب الحجاز ومقصور عليهم ، فنبوغ شاعر فى غير الجزيرة العربية كالجزائر مثلا يعد عندى اذ ذاك غريبا يثير عجبى ودهشتى مما جعل الاستاذ الشرفاوى يطلق ضحكة طويلة هاج لها عضبى ،

وكدت أتضاءل أمامه لولا انى حاولت فى غرور الصبا أن أتمالك ونفسى ·· كأن شيئا لم يقع ·

وكنت أيضا أظن ان الشاعر محمد العيد انما ارسل الى الاستاذ الشرفاوى نسخة من كتيبه ـ ليعطيه عنه رأيه ـ ولكنى أعلم ان الشرفاوى ليس بشاعر الا أن أكون جاهلا عنه ذلك كما جهلت امكان نبوغ شاعر فى أي مكان وفى أي زمان · غير الشـــرق العربى فى زمان مضى ·

أما عن الامر الاول فقد قال الاستاذ وهو ينظر الى من الاستغـراب المشوب بالحنو والرفق : ما هذا يابني ؟ ألم تسمع بشعراء نبغوا فى غير الحجاز ؟ ألـــم تسمع بأبى تمام والبحترى والمتنـــبى وحافظ ابراهيم وأميـر الشعـراء أحمد شـــوقى ·

وأما عن الثانى فقد قال لىفيما أذكر قد يقدم كاتب أو شاعر انتاجه الفكـرى لمن يأنس فيه الكفاءة والاخلاص لينقده أو يقرضه أو يرشده الى ما عسى أن يكون فيه من سهو أو هفوة قبل طبعه ، ولكن الامر ليس كذلك بالنسبـــة الى الشاعر محمد العيد فانه أهدانى هـذه القصيدة لاهداف كريمة وغايات نبيلـة تتمثل فى توثيق الصداقة بيننا والعمل على تحفيظ طلبتنا هذه الانشودة الحافلة بالمشاعر الطيبة والاحاسيس النبيلـــة والدعوة الى التخلق بأخلاق القـرآن ، والاقتداء بمن نزل عليه · لينشأ الطالب نشأة مثالية · ومنذ ذلك اليوم صرت أحمل فى نفسى للشاعر محمد العيد حبا وتقديرا ، وأحاول أن أقرأ له كل ما يقع فى يدى من روائعه الخالدة قراءة تأمل واستمتـــاع ·

وتعاقبت أمواج السنين على ساحـل الحياة تنفى ما عليه من خبث (I) وغثاء وتنسى بأيامها ما علق بالفكر من صور وأحداث الا الصور الناطقـة، والاحداث الخالدة التى تستعصى على النسيان، وتقوى على الزمان ··

وفى سنة 1950 خصصت جمعيـــة الطلبة الجزائريين بتونس دروسا لنخبة من الطلبة الجزائريين واختارت لهـذه المهمة الشاعر التونسى الكبير محمـــد بوشربية وكنت ضمن هذه النخبة ، وفى أحد الاقسام جرى بينى وبين الاستاذ الشاعـرحديث مطول عن أدباء الجزائـر وعلمائها فكان من بينهم الشاعر محمد العيد الذى أعجب به بوشربية وذكـر لى أنه يعرفه ، وقد نوه بشاعرية محمـــد العيد المتدفقة الفياضة التى قال عنهـا يومئذ انها تبلغ أحيانا المرتبـة الاولى فى ابداعها ، ونقائـها ، واشراقـها · وعندما ودعته للعودة الى الجزائـر فى العطلة الصيفية حملنى اليه السلام ·· فأرسلت الى الاستاذ محمد العيد رسالة أدبية مطولة ذكرت له فيها ما جرى بينى وبين الاستاذ الشرفاوى قبل أن أتخطى التاسعة من عمرى كما بسطت القـــول عن علاقتى بالشاعر التونسى الكبيـــر

محمد بوشربية ، وحبه للجزائر وعطفه على أبنائه الطلبة الزيتونيين ، وثنائه الجم على طائفة من أدباء الجزائر وعلمائها وما قاله بالخصوص فى شأن محمد العيد وكانت هذه أول رسالة بعثتها اليه · ولم تمض الا أيام قليلة حتى وافتنى منه رسالة قيمة كان لها الاثر البالغ فى نفسى وربما فى مجرى حياتى الادبية والثقافية ·

قرأتها فاستهوتنى بصدق اللهجة ، ونبل الاحساس ، وبراعة اللفتة ، وروعة التصوير ، كل ذلك فى أسلوب واضح سهل مشرق لا يتيسر الا لاديب مطبوع كمحمد العيد ·

وقد ركز فى رسالته بالخصوص بعد الديباجة على المحاور التالية :

الترحيب برسالتى والشكر عليها ·

الاشادة بمكانة الاستاذ الشرفاوى العلمية والاصلاحية والدينية ، والاعجاب بقلمه المثمر الذى كان يثرى الصحافة الجزائرية وخاصة (البصائر) بمقالاته القيمة فى مختلف الشؤون والاغراض · وذكر بالخصوص مقالاته عن التعليم الدينى وكيف ينبغى أن يكون ·

وجوب التسلح بالايمان والقيم الاخلاقية والمحافظة على الدين فمهما يكن للقوانين الوضعية من أثر فى الضمائر والنفوس فانها لن تقوم أبدا مقام تعاليم الاسلام لان الاولى من صنع الانسان العاجز الذى لا يعرف كل ما يصلح به ، ولان الاخرى من صنع الله القادر الذى يعلم كل ما يصلح بالانسان فى هذا الوجود ·

الحث على مواصلة الدراسة بجد ، ومحاولة التغلب على الظروف القاسية القاهرة التى تواجه الطالب الجزائرى فى غربته ، والتذكير بما ينتظره الاهل والوطن من الطالب الجزائرى المتغرب فى سبيل العلم من التزود بالعلم والاخلاق ·

أما عن الشاعر بوشربية فقد أطنب فى التنويه به والثناء عليه وما أزال أتذكر بعض ما قاله فيه بمعناه وربما بلفظه ·· فبعد تهنئتى على أن كنت من المحظوظين بالدراسة الادبية عنه قال : ان للعربية الفصحى قديما وحديثا أفذاذا من الكتاب والشعراء فالشيخ بوشربية أحدهم ، وان لتونس الخضراء فخرا بانتمائه اليها ، ولو لم يكن له الا قصيدته النونية فى مدح النبى لكفاه ذلك دليلا على عبقريته الشعرية ·

وعدت فى بداية السنة الدراسية الى تونس واجتمعت بالشاعر بوشربية فى بيته وأريته رسالة الشاعر محمد العيد فاهتز طربا وأثنى عليه الثناء العطر وأوصانى أن أبلغه تحياته وتقديراته ·

وعلمت ان القصيدة المديحية التى أشار اليها محمد العيد فى رسالته هي التى يقول فى مطلعها بوشربية :

نور النبوة ساطع البرهان
غمر النهى فانحط عنه بيانى

ولا أبالغ فى وصف الحقيقة اذا قلت ان هذه الرسالة التى رد بها الشيخ محمد العيد على رسالتى قد ضاعفت في النشاط الادبى ، وشجعتنى على مواصلة السير فى درب الادب مما جعلنى ألتزم بالكتابة فى صحيفة (الطالب الزيتونى) بتونس ٠

وفى سنة 1951 أصدرت كتابى (أدباء التحصيل) الذى أعددته وفق برنامج جامع الزيتونة لشهادة التحصيل (البكالوريا) والذى قدم له الاستاذ بوشربية بمقدمة قيمة هدانى فيها الى عيوبى وأرانى رأي العين أن الاجادة تتطلب مراسا طويلا وخبرة واسعة ، فأرسلت نسخة منه الى الشيخ محمد العيد أرفقتها برسالة أدبية مطولة حدثته فيها عن اعتزازى بصداقته ، وتأثرى برسالته ، واعتزامى على مواصلة العمل فى حقل العلم والمعرفة وأسهبت له فى الرسالة عن أستاذى بوشربية واعجابى بعبقريته وذوقه وطريقته فى التدريس ، واستلفت نظره الى نقده فى المقدمة ٠

وكنت اذ ذاك أعتقد اننى أتيت بشيء لم يأت به أحد فبدل أن يستجيد كل ما فى الكتاب ويغتبط به كل الاغتباط وينهال علي بالثناء والتقدير والتهانى عرض مجموعة من مميزات الكتاب التى ترفع من شأنه ثم أعقبها بمآخذ نقدية شعرت أمامها بنوع من الخجل والتضاؤل ٠

وركزت له أيضا فى هذه الرسالة على التضحية الجسيمة التى يضحى بها المغترب الجزائرى فى سبيل العلم فهو يعيش حياة كلها بؤس وشقاء ، وكلها عذاب وجحيم وقد يقضى نهاره وليله دون أن يذوق طعاما بالاضافة الى آلام الغربة والوحشة المبرحة وعندما ينهى دراسته ويعود الى وطنه الجزائر حاملا للشهادة العلمية يجد الابواب مغلقة، والطرق مسدودة فكان أسعد أولئك الطلبة من يجد زاوية يقضى عمره بين تحفيظ القرآن وتلقين المبادىء الاولية فى الفقه والنحو.وبعد أيام جاءتنى منه رسالة قيمة عبر فيها عن تأثره برسالتى، وصور شعوره تجاه الطالب الجزائرى فى الغربة وما تجيش به نفسه من هموم وخواطر وأشجان شأن شاعر كبير ملهم يعيش فى داخله آلام الناس وأمالهم وأحزانهم وسراتهم ولا تمر به حادثة الا وله فيها نفثة ونبضة قلب، وبوح نفس ، حتى صار يعى الحياة أكثر من غيره ، ويتأثر وينفعل بما يصادف فيها ويصور ويبدع التصوير ٠٠ وابدى اعجابه بالكتاب وبمقدمة الشاعر التونسى وشربية ، وقال عنها ما معناه :

ليست مهمة أستاذك الاديب النصوح أن يدغدغ مشاعرك بالمجاملة والمبالغة حتى تقف فى الطريق مشغولا بهذه الدغدغة وانما مهمته أن يقول لك فى صراحة ونزاهة : هذه حسناتك وهذه سيئاتك ، فالحسنات والسيئات من

لوازم الانسان .. فلابد أن يصيب فى شىء ويخطىء فى شىء آخر ، وجل من لا يخطىء ، على أن سيئات الكتاب بجانب حسناته لا تكسف له شمسا ولا تخسف له قمرا (I) .

وارفق الشاعر محمد العيد رسالته هذه بقصيدة عصماء فاضت بها قريحته المبدعة صور فيها ما تعانيه اللغة العربية فى الجزائر من ضغط ومقاومة حتى أصبحت غريبة بين أهلها ، وأجنبية فى وطنها ، واشتد ظلام الجهل ولم يعد هناك سوى بصيص من نور يلوح فى العتمة مؤنسا ومرشاد .

وأوصانى فى هذا القصيد بالمثابرة على العمل الادبى والمضي فى هذا الطريق رغم ما يحف به من متاعب ومشاق ، ويقول فيه :

حلل فانك باحث منطيق
وانقد فانك بالصواب خليق
وانهج لناشئة الجزائر منهجا
حرا بأحرار العقول يليق
واكشف لهم أدب العروبة إنه
عنهم خفي كالسهى وسحيق
أسفى على الفصحى تحول نبعها
وشلا وكدر صفوه الترنيق
صدئت جواهرها وغاب ضياؤها
لولا بصيص نادر وبريق

وأشار الى الكتاب الذى أصدرته والشاعر بوشبية الذى قدم له وقال :

أعددت للتحصيل سفرك عارضا
ثمر العقول يزينه التنسيق
زاولت فى الزيتونة الآداب عن
أقطابها ودليلك التوفيق
ولبثت تروى عن (أبى شربية)
فاذا شرابك كوثر ورحيق
سر فى طريقك رائدا فطنا فما
كطريق رواد العقول طريق
واهدف الى مرماك وامن موفقا
ان الموفق بالنجاح حقيق

وهناك أبيات لا أستطيع عرضها هنا لما فيها من التنويه والاعجاب بشخصى الضئيل الذى لا يستحق كل هذا التكريم وهذا التقدير من شاعر الجزائر النابغة محمد العيد لولا قلبه الكبير ، ونفسه الكريمة ، وسجاياه النبيلة والحق أقول أنه أخجلنى بهذا الاطراء حيث أرى نفسى دون ما قال لا سيما وأنا اذ ذاك فى بداية الطريق بالرغم مما يصاب به الناشىء من غرور ، فكتبت اليه ردا شكرته فيه على تشجيعه الادبى ولاحظت له أننى جد خجون مما جاء فى القصيد ولولا خلقه السمح ما كنت أهلا لذلك وسقت له هذا البيت المشهور :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة
كما أن عين السخط تبدى المساويا

واحتجبت عنى رسائل محمد العيد قرابة شهرين ثم جاءنى منه كتاب يعتذر فيه عن التأخر بأنه كان فى طور النقاهة من مرض لازمه أكثر من شهر

ثم طرأ عليه سفر الى العاصمة ، وكان الجواب مفعما بالعواطف النبيلة ، والوصايا الحكيمة والارشادات البناءة فى أسلوب رشيق متواضع واذكر منها ما ملخصه بالمعنى لا باللفظ ٠

ما قلت فيك وفى كتابك الا ما أومن به ولست مرائيا ولا مجاملا فاذا بدت لك فيه مبالغة فليس ذلك الا انك لا ترى نفسك بنفسك وانما بنفس أخرى تراك، على أنني ان بالغت فى الثناء فذلك لان المفاجأة التى لم يسبق أن ذكرتها بل ولا لمحت اليها فى رسائلك سرت فى كيانى سريان الكهرباء فى أسلاكها فاهتززت فى نشوة من الغبطة ، وفورة من اللذة، فجاءت بعض الكلمات والعبارات تهتز وترقص ٠

ثم أفاض القول فى الثناء على الطلبة الذين يغتنمون الفرصة المتاحة لهم فى الدراسة العلمية فهم الشموع التى ستحترق ولكنها ستضىء الطريق أمام الجزائر المتطلعة الى النور ٠٠٠

وابتهج بتولى الاساتذة الاكفاء قيادتنا أمثال بوشربية الذى قال عنه أيضا : وقد أثلج صدرى أن يكون أستاذك ومن عبد لك الدرب والذى له الاثر الكبير فى النهوض بالكلية الزيتونية من العهد والغابر يوم كانت تتعثر بين الصناعة والتقليد الى العهد الحاضر المشرق حيث أصبح الادب رسالة تقوم على الطبع والاحساس ووضوح الاداء ٠٠٠

ولما قمت بنشر كتيب للاستاذ الشرفاوى عن اثبات هلال رمضان بالطريقتين الشرعية والفلكية ، وهو مجموع مقالات كان قد نشرها فى جريدة (البصائر) سنة 1936 فجمعتها وقدمت لها ـ اهديت الى الشاعر محمد العيد نسخة منه فسر به جد سرور وأرسل الي كتابا يطفح بالثناء والتقدير والتهنئة الحارة على احياء ذكرى هذا العالم الاصولى بنشر أثر من آثاره ٠

أما عن الشرفاوى فأذكر انه قد نوه بعمله الغزير ، وفكره الواسع ، وقلمه البليغ ، ووضع بين هلالين هذه العبارة (سيذكره التاريخ برجاحة العقل ، وحزارة الكلمة ، والغيرة على الدين والوطن) ٠

والاستاذ محمد العيد يشير بهذا الى ما اشتهر به الشرقاوى من الشجاعة الادبية والجهاد فى سبيل الحق والاسلام، والى ما واجهه من مقاومة عنيفة عاتية من قبل بعض أهل الزوايا والطرقية فى زواوة ، عندما دعاهم الى التخلى عن البدع والخرافات والعمل بالكتاب والسنة فأعلنوا حربا شعواء ضده ولم يجدوا وسيلة لتحطيمه الا جربوها معه ولكنه وقف صامدا ثابتا لا يتزعزع ، وكان يقول عنهم انهم أعداء الوطن والاسلام لانهم آفة تقدمه ، وعائق رقيه ، والسوس الذى ينخر فى كيان الامة ومن ثمة وجبت مقاومتهم كما تقاوم الحشرات السامة والاوبئة الفتاكة ٠

وتوفي الشاعر الكبير محمد بوشربية فى حادث سيارة رهيب فى شهر جويلية سنة 1952 فتأثرت للحادث بالغ التأثر وكتبت مقالا كله حسرة ولوعة وتصوير للمصاب الجلل الذى أصيبت به الكلية

الزيتونية واللغة العربية نشرته جريدة (المنار) الجزائرية فى ذلك الحين وما كاد الاستاذ محمد العيد يطلع عليه حتى بعث الي برسالة حزينة يعزينى فى خير أستاذ ، وخير قدوة ، وخير مرشد ، ويبدى رضاه العميق وارتياحه الكبير لاداء بعض ما يجب علي من حقوق هذا الاديب وما أزال أذكر قوله (بالمعنى لا باللفظ) :

سيظل بوشربية فى كل كلمة يكتبها أبناؤه والادباء والمفكرون ، وفى كل قلب ينبض بحب اللغة العربية وقد عاش عالي الهمة ، كبير النفس ، على جبينه هالة القريحة ، وعلى رأسه تاج العبقرية، وسيبقى كذلك فى القلوب والنفوس ·

وفى شهر فيفرى سنة 1954 توفى الشاعر التونسى الكبير الشاذلى خزندار وكانت لى علاقة به وثيقة فكتبت عنه مقالات نشرت بالبصائر فى ذلك الوقت ولم يكد يطلع عليها الاستاذ محمد العيد حتى كتب الى يشكر على وفائى لهذا الشاعر وانصافه ، ويعدد فضائله وخصائصه ويكشف عن اعجابه بعمق تفكيره ، ورهافة حسه ، وسعة خياله وتدفق شاعريته ، وصدق وطنيته ، ويصف فى تأثر عميق الخسارة العظمى التى مني بها المغرب العربى فى فقدانه وفقدان الشاعر بوشربية فى ظرف وجيز ·

وساق الاستاذ محمد العيد فى رسالته هذه الابيات التى قالها من قصيدة رائعة فى تأبين الشاعر الفقيد وألقيت نيابة عنه فى حفلة التأبين التى أقامها النادى للجمعية الرشيدية بالعاصمة التونسية ونشرت فى شهر مارس 1954 بجريدة البصائر :

آه مما حل بالخضراء من
فاجع كل عزيز فيه هانا

فقدت تونس من أفاقها
كوكبا قطبيا وبدرا اضحيانا

أين منها الشاذلى المرتضى
خزندار السمح كفا وحنانا

كل ناد بات فيها نادبا
يذرف الدمع عليه ارجوانا

ولما أصدرت كتاب (وقفات ونبضات) ارتاحت نفس الشاعر الراحل محمد العيد أيما ارتياح وأثلج صدره أن يكون الشاعران التونسيان (بوشربية) و (خزندار) من فصول الكتاب وعد ذلك مبرة منى ومكرمة ووفاء لعبقريين قدما للقارىء العربى شعرا قويا صافيا عبر عن المنازع الانسانية والطموحات الوطنية للحرية والعزة والكرامة ثم مضيا ولم يوف لهما حقهما ·

وعندما هممت باعداد دراسات عن القرآن الكريم عرضت على الشاعر محمد العيد الفكرة ورسمت له بكل معالمه ومحاوره فاهتز للفكرة وأعجب بالموضوع والمنهاج وعارضنى فى بعض الفصول من حيث الترتيب فاقترح تعديلا لها بعد اعادة النظر فيها فارتحت للاقتراح ورأيت أن الاستاذ – رحمه الله – أبعد نظرا وأحق فيما ارتأى · وكنت أثناء الكتابة نتبادل الرسائل الادبية حول قضايا وأغراض مختلفة وأذكر أننى فى وقت الفراغ كتبت

أقصوصة أدبية عن حورية حسناء. اسمها (ليـــلى) رأيتها تشرب فنجانا من القهـوة ، وسقت فيها بيتين وذكرت فيها أن (ليلاي) هذه هي التى قال فيهـا الشاعر (شبلى ملاط) هذين البيتين :

شاهدت أخت البدر تشرب قهـوة
فى سهـرة عزلت بهـا عيناهـا
لـم أدر أيـا كـان أكثر رقـة
فنجانهـا الصينى أم شفتاهـا

فأرسلتها الى الشيخ محمد العيـد فجاءنى منه كتاب قيم يسيل طرافة ولطفا ويقول فيه بالخصوص : أهل (ليلاك) هي ليلى التى قلت فيها :

أيـن ليـلاي أينـهـا
حيـل بيـنى وبينـهـا

هـل قضـت ديـن مـن قضى
فى المحبيـن دينـهـا

أصلـت القلـب نارهـا
وأذاقتـه حينـهـا

مـذ تعـرفت سـرهـا
وتعـشـقـت زينـهـا

روعتنى ببينهـا
لا رعـى اللـه بينهـا

ولم أعلم ان الابيات قد نشرت الا منذ أشهر حينما عثرت عليهـا فى (الشهاب) ج (2) و (14) سبتمبر سنة 1938 بتعليق المرحوم الاستاذ عبد الحميد ابن باديس ونصه :

جـاء فى (الاغـانى) ج 3 ص 291 ما يـلى :

أخبرنى عمى قـال حدثنا الحزنبـل عن عمر وبن ابى عمر وقال : بلغنى أن الحسن بن زيد دعا ابن المولى فأغلظ له وقال : أتشبب بحرم المسلمين وتنشد فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى الاسواق والمحافل ظاهرا ؟

فحلف له بالطلاق أنه ما تعرض لحرم قط ولا شبب بامرأة مسلم ولا معاهد قـط . قال : فمن ليـلى هذه التى تذكر فى شعرك ؟ فقال له : امرأتى طالق ان كانت الا قوسى هذه سميتها (ليلى) لاذكرها فى شعرى ، فان الشعـر لا يحسن الا بالتشبيب ، فضحك الحسن ثـم قال : اذا كانت القصة هذه فقل ما شئت ..

فمن هي ليلى شاعرنا محمد العيـد ليست له قوس ولكن له مروح ، فهـل يعنى هو الآخر مروحته ؟ ان محمد العيد الذى يشعر شعور الشعب ويتخيل خيال الشعب ، لا تشغله قوس ولا مروحـة ولكن ـ لا تفتنـه وهو البلبـل الغريد فى قفص الا الحريـة فهل يوافـق على هذا بعض من ينقصهم شيء عن السياسة ليفهموا ؟) اه . تعليق الشيخ باديس .

وكان الاستاذ محمد العيد لا يفتـأ يسألنى عن سير عملى فى اعداد الكتاب وموعد نشره فى لهفة المشتاق، وتم الكتاب ورأيت أن أهديه الى طوائـف من بناة هذه الامة وصناع تاريخها الذين مـن بينهم رجال العلم والادب بالجزائـر فذكرت من هؤلاء الصديق الوفي الشاعر محمد العيد .

وطبع الكتاب فأهديته نسخة منـه مرفقة برسالة مطولة شرحت له فيهـا ما لا قيته من المتاعب والمشاق فى سبيل

اعـــداده وطبعـــه وتوزيعـــه وركـزت لـــــه فيهـا بالخصـــــوص عــلى حالة المثقف الجزائرى وما يعانيه مـن الاستعمار من نكد ومضايقة ومحاربـة لا سيما عندما يتصدى للتجربة الــتى تصديت لها بطبع الكتاب فجاءنى منـه كتاب يبادلنى فيــه التحســر والتشكى ويحمل فى طياته قصيدا رائعا (لم ينشر لحد الآن) ·

فكان مما ورد فى الكتاب ما مؤداه : ان انجاز عمل مثل هذا فى آلوضـــع الشاذ الذى يعيشه المثقف الجـزائرى أدبيا وماديا يعد عظيما بحق يجـب التنويه به والاقتداء بصاحبه وان الامل الوطيد أن يهيىء الله لهذا الوطن أسباب الحياة ، ووسائل النجاة فقد طال الليل وفاض الاناء ونفذ الصبر فليس لنـــا مما نخفف به بلاءنا سوى هذه الزفرات الحرى نرسلها على القرطاس حــتى يفرج الله ·

أما القصيد فقد كان من الشاعر محمد العيد لفتة من لفتاته الروحية الى القرآن الكريم الذى أعجز الانس والجن وأحيا العرب بعد موتهم وصنع منهم قـــادة الامم وبناة التاريخ ورفعهم الى الذروة الشامخة حتى كانوا (خير أمة أخرجت للناس) ـ للكشف عن كنوزه الثمينـة والنهل من موارده العذبة والاستضاءة بنوره المبين شأن الهداة المؤمنين ·

كما كان القصيد دعوة حـــارة الى مواصلة السير فى هذا الدرب رغـــم ما يحف به من متاعب ومخاطر ، والله تعالى خير معين فيه ونصير ·

وفى هذا يقول :

أورد حجـــاك مـوارد العرفان
فهي المنـاهـل للحجى الظمآن
واصقـل بها مرآة ذهنـك دارسا
ان العلـــوم صياقـل الاذهـــان
قـــد خصهـــا القرآن فى آياته
بثنائـــه البـاقى عـلى الازمان
وقضى بهـا الاسـلام فى أحكامه
فغدا بـــذلك سيـــد الاديـــان
وأبان أربـــاب الهـدى ببحوثها
نهـــج الهـدى للتائـه الحيران
وتدارســوا القرآن فاكتشفوا بها
ما فى مناجمـــه مـــن العقيان
أفواههـــم تحتـج لاهجـــة بـه
وقلوبهـــم تهتـــز بالايمـــان
واذا طلـبت لهـم مثالا صادقا
فاقـرأ كتـاب (مقاصد القرآن)

ثـــم يثـنى عـــلى الكـاتـــب والكتـــاب بمـــا لا أقـدر عـلى اثباته هنا بل أخجل من عرضه وهــــو يعكس ما اشتهر به الشاعر من سمو الروح ، وكرم الخلق ، وصدق الشعور ، ونبل الاحساس ثم يصور تأثره البالغ بالاهداء، ويكشف قلمه عمايحاول دائمـــــا أن يستره أو أن ينكره من مكانة أخلاقية فذة لا يتيسر ادراكها الا لمن أحبه الله تعالى واصطفاه وذلك بالتواضع الجم الذى عبر عنه فى هذه الابيات :

يا مهدى (العلق) النفيس الى من
لى أن أقـوم بواجـب الشكران ؟
من ذا الذى يعطيـك أجرك كاملا
لبضاعـــة جلـت عن الاثمان ؟

الا الــذى أنشــأك نشأة عفــة
وسخـــا عليك بجوده الهتـان ؟
أخجلتنى بجميل صنعك مغمضـا
عينيك عن عجزى وعن نقصـانى
هيهـات أن أنسى صنيعـك أنـه
لمنــزه عنــدى عن النسيــان

ثم يهنىء المؤلف ويشير الى مضايقات وضغوط استعمارية كان يعيشها عنـد اعداد الكتاب وطبعه ويحثه على اتمام المخطط فى محيط القرآن ويقول :

يهنيـك انـك فى كتابـك حائـز
ما شئت من حسن ومن احسان
لم تثنـك الاحداث عنه وان طغت
وكذاك تفعـل همــة الشجعـان
أتقنتــه وضعـــا وطبعـا فانتهى
رغـــم الظـروف لقمـة الاتقان
واصـــل نشاطـك بعد أول جزئه
حــتى تعقبـه بـجـزء ثــانى
أرضيـــت ربـك فى تدبـر ذكره
فجـــزاك ربـك عنـه بالرضوان

وكتبت اليه عن مأساة مروعة وقعت لفتاة رائعة الحسن والجمال زفت الى القبر يوم عرسها فجاءتنى منه قطعـة شعرية تعبر عن عاطفة جياشة ، وتنطق كل كلمة منها بلوعة حسرة من مشاهد البؤس والشقاء التى يفاجئنا بها الدهر من حين لآخر، وانقطاع حبل المراسلة بينى وبين الشاعر محمد العيد لظروف الثورة التحريرية • واستقلت الجزائر ، وتفقدت كتبى وأوراقى التى غبت عنها طويـلا فوجدتها قد ضاعت كلها تقريبا ولم تبق الا بعض أوراق خفيت عن عيـــون المستعمرين ، فكاتبته مهنئا باستقـلال الجزائر ومستفسرا عن طوال السبـع الشـداد • وطالبـا منـه أن يوافـينى بالقطعة الشعرية المـذكورة اذا كــان محتفظا بها فجاءنى منه رد يفيض فرحا وطربـــا • ويقول فيه بالحرف الواحد : (أما القصيد فلم أعثر عليه مع الاسف الشديد وكلنا فى البلاء سواء ، فلــو شرعت أقص عليك ما حل بى وبكتبى وأوراقى لما وسعت شرحه الا عشـرات القراطيس ، فالحمد للـه الذى أحيانا الى هذا العهد الحر السعيد وعـلى الماضى العفاء :

مــا مضى فـــات والمؤمل غيب
ولك الساعـة الـتى أنت فيـها

وكاتبته بشأن كتاب أعده عن حياة طائفة من الابطال ورجال الفكر بالجزائر وبعض الشعوب العربية والاسلاميـــة وسجلت له قائمة بأسماء من كتبت عنهم أو هم فى مخطط الكتاب فاهتز للمشروع بهجة وسرورا وأرسل الي كتابا يشكر ويهنىء مع أبيات ذكر لى أنها من قصيدة طويلة بعنوان (وحي الثورة والاستقلال) سجل فيها أهم أحداث الثورة الجزائرية وكثيرا من الاحداث العربية الهامة وذكر أنه يعتزم طبعها مستقلة وقد نشر بعضها فى ديوانه وهذه أبيات من المجموعـة التى أرسلها وهي ـ فيـما أعتقـد ـ غير منشورة لحد اليوم والمجموعـــة تبلغ (28) بيتا :

نحـن الحمـــاة لشعبنا بدمائنـا
وشهودنـا شهـــداؤنـــا امترى
البـالغـون لالـف الـف كثرة
فى العـد أو مـن ألف ألف أكثرا
الطامحـون الى الصحابة نزعـة
يقفون (حمزة) فى الجهاد و (جعفرا)
مثل (التبسى) الوطنى (داعى الهدى)
و (ابن المهيدى) الفتى حامى الذرى
أو (مصطفى بولعيـد) والحواس أو
(ديدوش) أو (زيغوت) آساد الشرى
واذكر من الشهداء (عيسات) الذى
وفى و (لطفى) الجرىء المسعـرا
واذكر (عميروش) الرهيب و (طاهرا)
والشهم (عبان) الاشاوس منظـرا
واذكر من الشهداء (البوانت) الذى
فى القصبـة العليـا تحدى العسكرا
واذكر من الشهـداء (حوحو) كاتبا
حرا و (حيحى) ثائرا ومشـورا
ورفيقى الشعـر (الربيـــع) ونده
(عبد الكريم) فواجب أن يذكـرا
واذكـر (عمودى) البلاد أديبهـــا
واذكـر بها (مولودها) المتحـررا
واذكر (حسيبة) واحتسب ما نالها
واذكر (فضيلة) للفضيلـــة مكبرا
ان الشهادة فى الجزائر أصبحت
عليـهـــا بالسعـــادة بشــــرا
وقد ذكر الشاعر محمد العيـــد فى

هذه المجموعة جميـع أسمـاء الذين أدرجتهم فى كتابى (فى موكب الخالدين) الا (عبد الكريم العقون) و (فضيلة) و (العمودى) ولم أدر اذا كانت هذه المجموعة أنشأها بعد قراءته لرسالتى أم كان ذلك من قبيل الصدفة ·

وسيتمدد بنا الحبل ويتسـع المقام اذا أنا تصديت بالملاحظة والتعليق لكل الرسائل التى تبودلت بينى وبين الراحل العزيز أمير شعراء الجزائر محمـــد العيد ولمعالم الصـداقة الوثيقة بيننا وحسبى ما ذكرت تحية صدق ، ودمعة وفاء ، ولوعة محزون ، حتى أتمكن من الوفاء له بأكثر من هذه اللمحـــات والخواطر ·

وبعدفقد مات الشاعر محمد العيـد والتحق بالشعراء الذين سبقوه أمثال بوشربية وخزندار وانضم الى الرفاق الذين مضوا قبله أمثال ابن باديس · والميلى ، والتبسى ، والابراهيمى ··· ومن ذا الذى لا يموت ؟

والبرايـا للمنايـا عرضـــة
كلهـا تصلـح أخبارا لكـانا
كلهـا تفنى ولا يبـقى سوى
من تعالى عن جميع خلق شأنا (I)

فوجود الانسان فوق هذا النجـم السفلى أمر عارض فى الحقيقة سرعان ما يزول ويختفى وانما الفكرة التى جاهد فى سبيلها وعاش من أجلها هي الجوهر الثابت الباقى الذى لا يزول ولا يفنى ·

(I) من شعر محمد العيد

فالفكرة التى عاش من أجلها محمد العيد وجاهد فى سبيلها بفطرة ملهمة، وطبع شعرى أصيل ، وموهبة مبدعة ، وعقيدة راصية ، وايمان راسخ ، باقية ما بقيت الحياة هي الوطن ، والاسلام، والعروبة ، وقد زودها بثراء لا ينضب وزودته بحياة لا ينال منها الموت والفناء، وسيذكر محمد العيد بالاشادة والحب والتقدير كلما ذكر هذا الثالوث المقدس، ثالوث وجودنا وحياتنا وبقائنا ٠

وسيظل الشاعر محمد العيد فى كل قلب وعلى كل لسان ليس فقط لانــه كان فى دنيا الحياة كالفراشة الجميلة تحوم على الزهر ، وترف على المــاء ، وتنتقل فى الحدائق الغلب بين زهـرة وأخرى لتمتص الرحيق ثم تمجه دواء وشفاء ولا لانه كان فى قيثارة الحياة وترا حساسا يثير دفائن الاسى حينا ، ويموج نسائم الامل حينا آخــر ٠٠٠ ليس هذا فحسب وانما أيضا وقبل كل شىء لانه شعلة من الوطنية الصادقـة تتقد فى آفاق واسعة لا يعرف لها حد ، وطاقة هائلة من الايمان الايجابى البناء، وقلب عظيم يتدفق حيوية وحبا ووفاء ٠٠٠

لقد كانت الحياة فى عهد الاستعمار الفرنسى البغيض مظلمــة ، معتمة ، رهيبة ، موحشة ، وكان الشاعر الراحل محمد العيد واحدا من الشموع القليلة التى تضىء أعماق النفوس ، وتبعـث فى القلوب الانس والبشر ٠٠٠

ولما أشرقت شمس الحرية وانقشع السحاب ، وتبدد الظلام ، وعمت الفرحة، وأهل عهد جديد انطلـق محمد العيـد يشدو حرا طليقا ، وينشـد مبتهجــا طروبــا :

وطنى المفدى بالكفـاح تحــررا
ومصيـره بعـد النجـاح تقررا
فابن الجزائـر صار سيد أرضه
والغاصب المحتـل ولى مدبــرا
يا يوم عيد النصـر صفوك قد جلا
ما كـان ران على القلوب وكدرا
ذكراك ملء القلـب حاضـرة به
هيهــات أن تنفـك عنـه وتعبرا
أقـررت أعيننــا فكـل مواطـن
لك هاتـف يعـلى الهتاف مكررا

رحم الله شاعر الجزائـر محمـد العيد ٠٠

لقد انطفأ بموته السراج الوهـــاج الذى طالما أضاء الحياة ٠٠٠

وذبل الغصن النضر الذى طالما أثمر أشهى الثمر ٠٠٠

ونام النومة الاخيرة ذلك العقل النير الذى طالما نفذ الى أعماق الاشياء فاستنبط واستجلى وعلل وحلل وسكن القلــب الواعى الذى طالما نبض بمعانى الحياة، وأسرار الحياة ، وحقائق الحياة ٠٠

فيــا أرواح الشعـراء والعلـماء والمفكرين لقد جاءتكم روح أخيكـــم (محمد العيد) فيا أنسكم به ، ويــا وحشتنا بفراقه ٠

الشيخ نعيم النعيمي

في ذمة الله



بلقاسم النعيمي
مدير ثانوية شيحاني بشير
ـ خنشلة ـ

فجعت الجزائر في عالم من جلة علمائها الابرار الاستاذ الجليل نعيم النعيمي رحمه الله • فقد اختير الى الرفيق الاعلى يوم 16 جمادى الاولى 1393 هـ ـ 17 يونيو 1973 م ـ بعد مرض عضال أنهكت اوصابه منذ ما يزيد على ثلاث سنوات •

وكان الفقيد ــ رحمه الله ــ مثال العصامية في تكوين نفسه ، والتضحية في خدمة أمته ووطنه ودينه ، والاخلاص في عمله • انخرط في سلك العلماء منذ سنة 1946 م ، واستاذا بمعهد ابن باديس منذ تأسيسه 1947 م وشارك في الثورة منذ سنواتها الاولى • ثم كان من كبار مسؤولي الشؤون الدينية في حكومة الجمهورية باعتباره من كبار موظفي وزارة التعليم الاصلي والشؤون الدينية •

وقد شيعت جنازته الى مقره الاخير بمقبرة قسنطينة في محفل رهيب حضره الكاتب العام لوزارة التعليم الاصلي والشؤون الدينية ، ورئيس المجلس الاسلامي الاعلى،ووالي قسنطينة،والمحافظ الوطني للحزب ، ورئيس المجلس البلدي الشعبي ومن ناب عن قائد الناحية العسكرية الخامسة ، وكل ممثلي السلط المدنية والعسكرية والشعبية وطائفة من العلماء الجلة من مختلف انحاء الوطن •

وأبنه الشيخ محمد خير الدين الرئيس الثاني لجمعية العلماء ، والشيخ احمد حماني رئيس المجلس الاسلامي الاعلى ، والشيخ الطاهر سعدي مدير ثانوية ابن باديس • رحمه الله ورضي عنه •

ويسر مجلة الاصالة ان تقدم دراسة قيمة عن حياة الشيخ النعيمي بقلم ابن اخيه الاستاذ بلقاسم النعيمي مدير ثانوية شيحاني بشير بخنشلة ، والمختص في التاريخ •

تمهيد :

هذه بعض العناصر الرئيسية من حياة المرحوم الشيخ نعيم النعيمي ، كتبتها كمحاولة للتعريف بهذه الشخصية التي تمثل نموذجا لجيل من الرجال الذين كان لهم الفضل في بعث شخصية الجزائر العربية الاسلامية ، وشقوا طريقهم رغم العقبات التي لا تحصى فحفظوا للوطن مميزاته القومية ورفعوا شأنه عاليا في الميدان الثقافي •

لقد اعتمدت في ايراد هذه المعلومات على كتابات الفقيد ومذكراته ، وكذلك على احاديثه بحكم علاقتي العائلية به ، كما اكملت بعض الثغرات قدر المستطاع بالحديث مع أخويه الباقيين على قيد الحياة وبعض المسنين من الاقارب • وقد تحريت ــ ما استطعت الى ذلك سبيلا ــ في ايراد الصحيح من الوقائع ونبذ كل ما شككت في صحته • وارجو ان اكون بذلك قد ساهمت ولو بجهد ضئيل في خدمة الحقيقة والتاريخ • وذلك هدفي الاول •

البيئة والنشأة الاولى :

ان الاسم الحقيقي الكامل للفقيد هو النعيمي ابن احمد بن علي • وقد سمي باسم جده الخامس او السادس في سلسلة النسب اى « النعيمي » الذى تنسب اليه العائلة • وقد ظل يدعى بهذا الاسم في اطار الاسرة ، الى ان اختصر الى «نعيم»

بالتصغير ، وهو اسم وارد بكثرة في كتب التاريخ ولا شك ان هذا الاختصار اتى من ترديده على ألسنة أصدقائه من المثقفين ثم اصبح علما عليه بعد ذلك ٠ ولا ادرى متى حدث هذا بالضبط ٠

وعشيرة آل النعيمي التي تنتسب اليها العائلة هي احدى عشائر عرش اولاد حركات من قبيلة اولاد زكرى التي تقطن حول واحتى اولاد جلال وسيدى خالد من واحات الزيبان الغربية في دائرة بسكرة المعروفة ٠

ولد نعيم النعيمي في صيف سنة 1909 ، ولا يعلم يوم ميلاده على وجه التحديد ، لان مسقط رأسه كان ضمن منطقة الحكم العسكرى في عهد الاستعمار ، حيث لا يوجد سجل مدني ولا احصاء للسكان ، حتى ان الضرائب كانت تؤخذ عن طريق الالتزام فيدفع القائد او شيخ العرش مبلغا معلوما للخزينة ويأخذ من المواطنين ما يشاء ولم تشرع السلطة في تسجيل المواليد الا في سنة 1940 ، ولذلك فان مواليد هذه المنطقة قبل التاريخ المذكور لا يمكن معرفة تاريخ ولادتهم الا عن طريق القرائن ٠

كان والده فلاحا بسيطا يملك قطعا ارضية في بادية سيدى خالد التي يملكها عرش اولاد حركات ملكية مشاعة (عروشية) ، وله قطيع صغير من الاغنام وبضعة جمال ٠ وكان رغم بساطته واميته ورعا متدينا شديد الامانة لا يعرف الكذب قط ، وكان في نفس الوقت من الاخوان اى من اتباع زاوية الشيخ المختار التي كان مقرها في اولاد جلال ، وهي احدى زوايا الطريقة الرحمانية التي تكثر في واحات الزيبان ٠

كان النعيمي هو سابع اخوته في الترتيب ، وهو ايضا ما قبل الاخير منهم ، وعلى يد اخيه الرابع الجنيدى (*) مد الله في عمره بدأ خطوته الاولى في التعلم وهي حفظ القرآن الكريم ٠كان الجنيدى يتم حفظ القرآن وحده ، والى جانبه أخوه الصغير يكتب على لوحته السور القصار من القرآن حسب الطريقة المتبعة ، وذلك حسب تقديراتي حوالى سنة 1915 ثم انتقل بعد ان سار شوطا في حفظ القرآن الى خاله الذى كان يزاول تحفيظ القرآن للصغار فأتم حفظه هناك ٠ وبدا عليه منذ الطفولة قوة الحافظة فكان سريع الاستيعاب للاجزاء التي يكلف بها ، رغم انه لا يبذل جهدا كبيرا في هذا السبيل ٠ وقد اشتهر بهذه الخاصية منذ ذلك الوقت المبكر ٠

ها هو الآن قد اتم حفظ القرآن وعمره لا يتجاوز عشر سنوات ٠ فماذا يفعل طفل مثله في هذه البيئة الفقيرة المتخلفة ؟ كان يمكن ان يكون مصيره مثل مصير كل اقرانه فيعود الى بيت اهله ليعيش حياة فارغة من كل محتوى سوى مساعدة اهله في طلب الرزق المحدود ، لكن صغر سنه الذى لا يسمح له بمزاولة اى عمل ، وتفتح مواهبه المبكر وعلاقة والده واخيه الاكبر بشيخ الزاوية قد جعل مصيره يتجه اتجاها آخر كان له الاثر

(*) هو الآن موظف متقاعد يقيم في العاصمة

الاكبر فى مجرى حياته كلها • وهكذا انتسب الى زاوية الشيخ المختار كطالب علم حوالى سنة 1919 وقد سبقه اليها أخوه الخامس على (*) اطال الله بقاءه •

وقد اسست هذه الزاوية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر على يد الشيخ المختار البخليفى كفرع من فروع الطريقة الرحمانية المشهورة ، وسرعان ما اصبحت معهدا يقصده طلاب القرآن والعلوم الدينية واللسانية من مختلف واحات الزيبان واقليم جنوب التيطرى • وكانت مثل غيرها من الزوايا تعتمد على ما تتلقاه من تبرعات السكان الذين يأخذون ميثاق الطريقة عن شيخها وتؤدى الطلبة مسكنا ومطعما مقابل مبلغ رمزى يدفعه كل طالب • ويبدو ان هذه الزاوية قد ازدهرت فى اوائل القرن العشرين على يد شيخها الثانى محمد الصغير وابنه عبد الحميد وارتفع عدد طلبتها الى بضع مئات بما فيهم طلبة العلم وتلاميذ القرآن •

كان الطالب بعد ان يتم حفظ القرآن الكريم داخل الزاوية او خارجها يسمح له بمزاولة الدراسة بعد موافقة شيخ الزاوية • وكانت هذه ميزة لا تتاح الا للنجباء من خفظة القرآن والذين لأوليائهم علاقة وطيدة بالشيخ • وكانت مناهج الدراسة تشتمل بالدرجة الاولى على العلوم الدينية وخاصة الفقه المالكى ، ثم العلوم اللغوية وخاصة النحو • وحين يتقدم الطلبة فى هاتين المادتين يتاح لهم متابعة بعض الدروس فى المواد الاخرى التى كانت تعتبر ثانوية مثل التفسير والاصول والبلاغة والعروض وقليل من المنطق والفلك القديم •

كان اهم المدرسين حينذاك فى الزاوية المذكورة هما الشيخ العابد السماتى والد المصلح المناضل محمد بن العابد الجلالى رحمه الله ، ثم الشيخ مصطفى بن قويدر • وقد كان فقيدنا حتى اواخر أيامه يتحدث عنهما بكثير من الاجلال والتعظيم ويعترف لهما بالفضل الجزيل • وكان يصفهما بغزارة المعرفة والتمكن البالغ من المعارف الدينية واللغوية ، مع الورع الشديد والتعبد الدائم ، والتعفف عن المنافع المادية • وكانا متلازمين لا يكادان يفترقان ويحبان بعضهما حبا جما • ورغم وجودهما فى بيئة طرقية خرافية ومجتمع متخلف فقد كانا على اتصال بالحركة التجديدية فى الشرق عن طريق الصحف والكتب • وكانا يقرضان الشعر حسب الطريقة التقليدية فى المناسبات • وقرأت للشيخ العابد بعض القصائد فى موضوعات صوفية تتعلق بالتضرع الى الله عز وجل ومدح الرسول الكريم • وهى مقياس ذلك العهد يمكن اعتبارها من الشعر الجيد الرقيق•

مكث الفقيد فى الزاوية نحو اربع سنوات ملازما للشيخين المذكورين حتى استوعب ما لديهما • وكان ما درسه فى هذه الفترة هو كل زاده من التعلم المنظم واساس حصيلته الثقافية ،

(*) هو الآن امام فى احد مساجد بسكرة

وهو اساس متين من الوجهة التقليدية ، اتاح له التمكن البالغ من المعلومات الاساسية في ميدان الثقافة الدينية واللغوية • وتفتحت موهبته الشعرية في هذه الفترة ولو انه لم يتعهدها بالصقل والتمرين ، ولم يحتفظ من انتاج هذه الفترة بشيء يذكر • والظاهر ان هذه الموهبة قد اتجهت اتجاها كلاسيكيا حيث نظم في هذه الفترة كتاب النحو المشهور « قطر الندا وبل الصدا » لابن هشام •

وتفتحت شهيته الى المعرفة واصبح شديد الشوق الى اغتراف المزيد منها ، وحين لم يعد يجد في الزاوية ما يشفي غليله توجه الى تونس حوالى عام 1924 قصد الانخراط في جامع الزيتونة وقد خاض هذه المغامرة دون علم اهله ولم يتزود من عندهم بشيء • وفي تونس نزل ضيفا على ابن بلده الشيخ عبد الرحمن غريب مد الله في عمره ، وكان يقاربه في العمر وسبقه الى هناك • ولكن مقامه في تونس لم يطل • ولم يتمكن من الانتظام في الدراسة بسبب العسر المادي . وعاد الى مسقط رأسه بعد غيبة دامت نحو ستة اشهر •

الرحلة الطويلة :

في سنة 1926 فارق مسقط رأسه وشرع في سياحة طويلة داخل البلاد استغرقت اثنتى عشرة سنة لم يكاتب اسرته اثناءها الا مرات معدودة • وكان حين فارق أهله يافعا نصف متعلم ولم يروه ثانية الا بعد ان نضج عوده واصبح عالما يشار اليه بالبنان ، فماذا كان يفعل طول هذه المدة ؟

ان أخبار هذه المرحلة من حياته قليلة يشوبها الغموض ولم استطع جمعها الا من خلال الاحاديث العابرة فيما بعد • ويمكن تلخيصها فيما يلي :

حين بارح مسقط رأسه اتجه نحو الغرب ، وتجول في اقاليم وسط الجزائر وغربها • ومن المؤكد انه اقام فترات مختلفة في ارياف ومدن الجلفة والاغواط وشلالة وسوقر وتيارت ومعسكر ومستغانم وغليزان وعمي موسى والاصنام • وكانت جهوده مركزة حول نقطتين اساسيتين هما: الاتصال برجال العلم بمختلف اتجاهاتهم وكان عددهم كبيرا في هذه المناطق مثل القضاة ومشايخ الطرق والمدرسين والمفتين ثم الاطلاع على الكتب المخطوطة والمطبوعة في خزائن الخواص ، ومكتبات المساجد والزوايا والتهام محتوياتها بشهية غريبة وتلك خاصية لازمته حتى آخر ايامه • ومن الممكن القول بان الكتب اصبحت المصدر الرئيسي لمعارفه ، وساعدته حافظته الخارقة على استيعاب محتوياتها بسرعة غريبة ودقة فائقة •

وقد حكى عن نفسه انه مارس التجربة الصوفية في مدة ما من هذه المرحلة ، فانقطع عن الناس اياما وأخذ يصوم ويكثر من التهجد والعبادة • ولأمر ما اقلع عن هذه التجربة ولم يعد اليها بعد ذلك • ويبدو ان تأثير الافكار السلفية هو الذي ثناه عن السير في هذا الاتجاه (1)

1) فكرة الاصلاح في الموضوع الا ينقطع المسلم للعبادة الا للاعتكاف ، وفي سائر ايامه يصوم ويفطر ويقوم وينام ، ويتزوج النساء ، ولا يحرم الطيبات من الرزق ، ولا يرغب عن سنة محمد صلى الله عليه وسلم .

ولما كان يقرأ كل ما يقع بين يديه فقد اغرم بمطالعة الصحف التى كانت تصدر فى ذلك العهد • وقد شاهدت بين الكتب التى جمعها فى تلك الفترة أعدادا من مجلة المنار والاسلام والفتح والزهراء والرسالة المصريات • والشهاب القديم والشهاب والاصلاح والبصائر الجزائريات • وعن طريق الصحف اطلع على افكار الحركة الاصلاحية واعتنقها عن ايمان واعتقاد • وحين تأسست جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة 1931 اشترك فى اجتماعها التأسيسى كعضو عامل وتعرف على رئيسها الشيخ عبد الحميد بن باديس واصبح من دعاتها فى ناحية الغرب الجزائرى •

فى ميدان الاصلاح والتعليم :

عاد الى مسقط رأسه سنة 1936 لفترة قصيرة تزوج خلالها ثم رجع الى مقر عمله وكان فى مدينة الاصنام حيث اسست مدرسة حرة كان هو معلمها كما كان داعية جمعية العلماء هناك ومحاضرا فى نادى الاصلاح ، وحين نشبت الحرب العالمية الثانية وأوقفت السلطة الاستعمارية نشاط الجمعية ونفت زعماءها اضطر للعودة الى مسقط رأسه للمرة الاخيرة . واستقر به المقام فى مدينة طولقة التى أصبح خطيبا فى مسجدها الحر وكون بها مدرسة حرة ايضا بعد التغيير النسبى فى موقف السلطة على عهد حكومة فيشى سنة 1940 •

وفى سنة 1943 وبعد احتلال قوات الحلفاء للجزائر نفته السلطات المحلية من طولقة واضطر الى تجميد نشاطه لمدة سنة استقر بعدها فى بسكرة نحوا من ثلاث سنوات كون فيها معهدا للتعليم كان صورة مصغرة من معهد الجامع الاخضر الذى اسسه المرحوم عبد الحميد بن باديس ، وكان يقوم بتعليم الطلبة يساعده بعض المعلمين المتطوعين ، وفى نفس الوقت يؤمن لهم وسائل العيش من مأكل ومسكن بمساعدة بعض الفضلاء من سكان المدينة • وقد تجمع فى معهد بسكرة مجموعة طيبة ينتمى جلها الى جبال اوراس والزيبان ، واكمل الكثير منهم دراسته بتونس ، وانضم الباقون الى معهد ابن باديس •

وحين فتح معهد ابن باديس ابوابه سنة 1947 اختارت ادارته الشيخ النعيمى مدرسا به فاستقر به المقام نهائيا فى قسنطينة • وقد تخصص فى تدريس المواد اللسانية والدينية ، وحين تدعو الضرورة كان يدرس مختلف المواد الاخرى حتى الحساب رغم ان معلوماته فيه كانت نتيجة لجهده الشخصى فقط • وقد تميز بالتفانى فى اداء الواجب والرغبة الشديدة فى افادة تلاميذه وتوسيع معارفهم والحدب عليهم والاصغاء الى مشاكلهم ، مما اكسبه محبة تلاميذه وتقديرهم ولا يزال الكثير منهم يعترف له بالجميل بعد ان اصبحوا معلمين واساتذة فى الثانويات والجامعات واطباء ومهندسين وحقوقيين وصحافيين ودبلوماسيين •

وكان فى نفس الوقت عضوا نشيطا من اعضاء جمعية العلماء ، وكان لا يتردد فى القيام بكل المهام التى تكلفه بها مثل دروس الوعظ والارشاد

والتجول فى انحاء الوطن لنشر الدعوة وجمع التبرعات المادية لصالح المعهد ومؤسسات الجمعية الاخرى • وفى سنة 1949 شارك فى وفد الجمعية الذى حضر المؤتمر الثقافى الاسلامى المنعقد بتونس وهو اول مؤتمر يحضره خارج الجزائر •

بين صفوف المجاهدين :

كان الشيخ النعيمى دائما على صلة طيبة بالشباب الوطنى وكثير منهم كان يحضر دروسه وينتفع بمحاضراته ، وتعرف اثناء اقامته ببسكرة على الشهيد العربى بن مهيدى الذى استمع الى بعض دروسه وظل محافظا على هذه الصلات الى حين اندلعت الثورة التحريرية فى سنة 1954 ، فارتمى بين احضانها بكل حماس ، وارتبط منذ الاولى بقيادة الولاية الاولى وكان صديقا لقائدها الاول الشهيد مصطفى بن بولعيد ، وكانت واسطة الاتصال بعض تلامذته القدماء الذين التحقوا بجيش التحرير • ولم تلبث ان حامت الشبهات حوله فنفى من قسنطينة واستقر به المقام فى مسقط رأسه بسيدى خالد • وهناك واصل نشاطه الثورى حيث اسهم فى تنظيم العناصر الثورية وربطها بجبهة التحرير وكشف الغموض الذى كان سائدا هناك ، وقدم بنفوذه الواسع مساعدة قيمة للشهيد احمد بن عبدالرزاق (سى الحواس) الذى كان بصدد تنظيم الولاية السادسة حينذاك • ونتيجة لذلك حكم عليه بالاعدام من طرف اتباع الخائن ابن الونيس الذى كان يتمتع بنفوذ واسع فى منطقة الصحراء مستغلا سذاجة السكان • فاضطر حينئذ للانتقال الى المسيلة ، وهناك حامت الشبهات حوله من جديد واعتقل رهن التحقيق فى محتشد هناك ، ولم ينج من الموت او السجن المؤبد الا بمساعدة بعض معارفه من رجال الدرك فى تلك الناحية •

كان لا مفر له من اتخاذ قرار حاسم بين أمرين : اما البقاء حيث يزاول النشاط السرى ومن ثم يتعرض للقمع الاستعمارى الاكيد ، او يلتحق بجيش التحرير للانتظام بين صفوفه ، وقد اختار الحل الاخير رغم عدم استعداد بدنه لذلك • وهكذا اختفى من المسيلة فى اواخر سنة 1957 بعد ان ارسل عائلته الى قسنطينة ، ومكث اسبوعا مختفيا فى بيت احد المناضلين بسطيف الى ان اتخذت الاجراآت لصعوده الى جبال الحضنة فى الولاية الاولى وقد بقى نحو ستة اشهر متنقلا بين مناطق الولاية وشهد بعض المعارك اصيب فى احداها بجروح بليغة فى كتفه ورجله • واخيرا قرر المسؤولون ارساله الى تونس حيث تنتصب القواعد الخارجية لجيش التحرير وجبهة التحرير •

وصل الى تونس فى ربيع سنة 1958 وقضى فترة فى المستشفى حيث عالج جروحه وشفى منها ، ثم وضع نفسه تحت تصرف المسؤولين فى الجبهة ، فأسندوا اليه مهمة تتناسب تماما مع امكانياته وتكوينه ، وهى مهمة المسامرات كما كانت تدعى حينذاك • وكان الغرض من هذه المسامرات هو الاتصال بالجزائريين المقيمين فى تونس او اللاجئين اليها قصد توعيتهم سياسيا

وغرس مبادىء الجبهة فى افكارهم ، وبث الامـل والحماس فى نفوسهم لقضية التحرير • وكـذلك جلب اهتمام الرأى العام التونسى للقضية •

كانت المسامرات تعقد احيانا بصورة علنية ، وتتخذ شكل المهرجـانـات الشعبية وتحضرهـا السلط التونسية ، كما كانت تعقد فى نطـــاق الجزائريين خاصة فى بعض الاحيان• كانت مواضيع المسامرات محددة مسبقا وتتناول غالبا احـداث الساعة وبعض العناصر السياسية والتربويـــة والتاريخية • وقد اعتاد على تسجيل تقرير مختصر فى مفكرته عقب كل مسامرة • ومن المواضيـــع التى كان يطرقها والتى وجدتها مكتوبة بخطـه ، كيف تنتـصر على العـدو ـ القيـام بالـواجب ـ الاستعمار يلفظ انفاسه ـ الثورة الجزائرية ووحدة المغرب العربى ـ واجبنا امام مشكل الساعة •

ويبدو انه قد ارتاح الى هذه المهمة لانهـــا تعيده من جديد الى حياة السفر والتجوال الـــتى عشقها منذ الصغر • فكان يجوب القطر التونسى باستمرار حيث كلف بمهام فى جميع اجزائـه ، وقد استغل هذه الجولات فى التعرف على العلماء والمثقفين عموما ، والاطلاع على الكتب وجمع النادر منها كعادته • وهكذا اصبح بيته الصغـير فى تونس العتيقة عبارة عن خزانة كتب مكدسة ، كما اصبح ملتقى لزملائه من اساتذة المعهد الـــذين التجأ بعضهم الى تونس ايضا • واستغل اوقـات فراغه فى التنقيب على الكتب التى تحتوى عليها مكتبات تونس وخاصة العبدلية والعطارين • كما انصرف الى التعلم من جديد وتتلمذ على اكابر علماء الزيتونة وخاصة فى مادتى القراآت والحديث • وفى هذا الصدد ختم القرآن عدة مرات بالقراآت السبع على المختصين وحصل على اجازاتهم فى هذا الفن ، كما اتصل بعلماء الحديث وقرأ عليهم كتب الصحاح وروى عنهم مروياتهم من الحديث وحصل على اجازاتهم الخطية ايضا •

وحين لاحت تباشير النصر بتقدم المفاوضـات بين الجبهة والحكومة الفرنسية تاقت نفسه الـــى تأدية فريضة الحج فقام بها سنة 1961 ، واغتنـم هذه الفرصة النادرة لاكتساب المزيد من المعرفـة فطاف بمعظم بلاد الشرق العربى متصلا برجـال العلم منقبا عن الكتب النادرة محققا لبعض المسائل المبهمة • وزيادة عن الديار المقدسة فقد زار كلا من دمشق وحمص وبيروت والقدس والقاهــرة• ومكث شهرا كاملا فى حمص ختم فيه القـــرآن من جديد على ايدى القراء المعروفين ، وروى بعض الاحاديث عن المحدثين ونال اجازات خطية منهم ،

فى ظـلال الاستقـــلال :

فى اول حكومة جزائرية بعد الاستقلال تشكلت وزارة للاوقاف لاول مرة ، وقد كلف من طرفهـا بالاشراف على مفتشية الاوقاف فى قسنطينة التى كانت تشمل ولايتى قسنطينة وسطيف • ورغم الصعوبات التى تعترض دائما مصلحة فى طـور التكوين فقد انهمك بكل حماس فى تنظيم شؤون منطقته بروح العالم الدينى حامل لواء الاسـلام• غير ان اثمن وقت كان هو الذى يصرفه فى اشباع هوايته المفضلة وهى جمع الكتب والاطلاع عليها•

ولهذا الغرض كان دائم التجوال لا يستريح اسبوعا باكمله في بيته حتى اصبح ذلك عادة ملازمة له ، وربما كان هذا من اهم الاسباب التي عجلت في تدهور صحته .

وفي سنة 1963 مثل الجزائر في المؤتمر الاسلامي التي دعت اليه تونس لبحث مسألة بدايات الشهور القمرية . وقدم فيه بحثا قيما مدعما بالادلة العلمية التي تدعم وجهة نظره في ضرورة الاعتماد على الرؤية . وحين تشكل المجلس الاسلامي الاعلى في الجزائر اصبح من ضمن اعضائه واسندت اليه رئاسة لجنة الفتوى . وقد اختير ايضا كعضو في مجمع البحوث الاسلامية ومثل الجزائر ايضا في مؤتمره المنعقد سنة 1968 . وآخر مؤتمر حضره ضمن الوفد الجزائري هو المؤتمر الاسلامي الدولي الذي انعقد بماليزيا في شهر افريل سنة 1969 . وقدم امامه بحثا آخر في موضوع الصوم وعيد الفطر .

وقد شعر بضعف بصره بعد عودته مباشرة من ماليزيا ، وكان قبل ذلك يشكو من غشاوة تمر امام عينيه من حين لآخر . وقد انصرف الى علاج عينيه دون جدوى حيث ضعفتا تدريجيا الى ان كفتا تماما بعد قليل ، وقد تأثر كثيرا لفقده الوسيلة الوحيدة لاشباع نهمه الذي لا ينقطع الى المطالعة. واكتشف الاطباء عن طريق الصدفة حين اجراء بعض التحاليل انه مصاب بداء السكر منذ زمن طويل دون ان يفطن لذلك . ولم يكن يبدي عناية كافية بصحته ابدا ، وكان مصابا أيضا بارتفاع ضغط الدم . وفي 22 افريل سنة 1970 زاره الدكتور احمد طالب ، وأثناء الحديث اغمي عليه فجأة وانقطع عن الكلام وشل نصفه الايمن فورا ، وحين نقل الى لستشفى تبين انه اصيب بنزيف داخلي في الدماغ . وهكذا اصبح قعيدا طريح الفراش . ولم يجد العلاج في فرنسا ومختلف مستشفيات الجزائر ، وفي ليلة 17 جوان 1973 على الساعة الواحدة الا خمس دقائق فاضت روحه وصعدت الى الرفيق الاعلى . ودفن مأسوفا عليه من زملائه وتلامذته ومعارفه في مختلف انحاء البلاد في مقبرة قسنطينة وترك ستا من البنين والبنات واكبر أولاده يدرس البترول في معهد بومرداس واصغرهم في المرحلة الاخيرة من التعليم الثانوي.

الجانب العلمي

يمكن القول ان الشيخ النعيمي كان عبارة عن خزانة معلومات متنقلة ، يعرف عنه هذه الميزة كل من جالسه من المثقفين بمختلف مستوياتهم واختصاصاتهم ، ومن عادته انه كان حين يحضر مجلسا يجلب انتباه الحاضرين دون قصد لطلاوة حديثه وسلاسته وتنوع عناصره وغزارة مادته لقد ساعدته كما اشرت سابقا ذاكرته القوية وانكبابه الدائم على المطالعة على ان يختزن مقدارا هائلا من المعلومات التي يطلع عليها . وقد كان اصحاب المكاتب هم اهم زبائنه فكان دائم الطواف عليهم للحصول على كل جديد من الكتب التي لا يختار منها نوعا محددا . فكان يقتني كتب الادب والشعر والتاريخ والفقه والحديث والتفسير الى جانب كتب السياسة والعلوم . وكنت تجد في

غرفة جلوسه نماذج من جميع هذه الانواع مبعثرة هنا وهناك اذ لم يكن التنظيم من مميزاته الشخصية . الا ان هناك مواضيع معينة وجه لها اهتماما خاصا حتى يمكن القول انه اصبح مصدرا يرجع اليه فيها . ومن هذه المواد الفقه والنحو والقرآن والحديث ومتن اللغة . كما ان مطالعاته الواسعة قد أفادته فى الاحاطة بالتاريخ الاسلامى . وجولاته العريضة فى الوطن الجزائرى جعلته مرجعا موثوقا به فى المعالم الاثرية ومواطن القبائل العربية والامازيغية وانسابها . ومما يذكر فى هذا المجال ان بعثة تمثل زعماء احدى الطوائف الشيعية فى الهند زارت الجزائر للوقوف على اماكن انتشار الدعوة الشيعية والمعالم التى اقام بها الداعية ابو عبد الله اليمنى والخليفة عبيد الله المهدى ، فصحبها واراها بدقة كبيرة جميع الاماكن المذكورة فى نواحى ميلة وسطيف ومن جهة اخرى فقد كان ذا دراية واسعة بالادب العربى قديمة وحديثة وراوية لا يشق له غبار للشعر العربى وايام العرب وامثالها . كما يعتبر اعتباره ناقدا ادبيا من الطراز القديم بفضل العبارة الجزلة ذات الالفاظ الرنانة والتركيب المتين مع الايجاز وكان شديد الاعجاب بالجاحظ فى القدماء والابراهيمى فى المحدثين .

وقد تفتحت لديه منذ الصغر موهبة شعرية لو تعهدها الصقل المران لامكن ان يصبح من الشعراء المعدودين . ولكنه انصرف عن الشعر الى الدراسات فلم يكن ينظمه الا عفوا لخاطر وفى المناسبات فيأتى بالبيتين أو البضعة ابيات كانت غالبا من بحر الرجز ، وكان حين يشاء ينظم القصائد الطوال فى هذا البحر حتى قال عنه المرحوم الابراهيمى انه ثانى اثنين فى الجزائر بالنسبة لهذا النوع من الشعر ، اما الاول فقد عنى به نفسه وكان رجازا لا يشق له غبار .

ويمتاز شعر الشيخ النعيمى شأن شعر امثاله بمتانة اللغة وحسن السبك مع ميل الى قليل الى اللفظ القديم ، وسأورد هنا نموذجين من شعره ، فقال وقد زار خراطة فلم يجد استجابة لدى سكانها لمهمته الاصلاحية ، وقد سلك فى قافيتها لزوم ما لا يلزم :

« يا غربة الدين بخراطة
وان يكن منظرها يغرى
الظلم والجبن بها اطفآ
لمع سنا أوجهها الغر
ما من فتى ارشدته لهدى
الا طوى الثوب على الغر
يوليك اعراضه حذار اذى
يفغرفاه ايها فغر
لم تجد ذا الحيلة حيلته
فكيف بالابله والغر »

قال يداعب احد اصدقائه وقد تزوج :

«الخطيب الحبر مر قبل لقا
عرسه هاج هياج الجمل
ها هو اليوم خبت جذوته
اذ بليل نال اقصى الامل
ابدل الكتب وصحبا أوفيا
بلمى ظبى رقيق الغزل »

اما في ميدان النشر فقد كان قليل الكتابة ، وقرأت له مقالين في جريدة البصائر احدهما بمناسبة احد الاعداد الخاصة ، والآخر في تأبين صديقه الشيخ الزياني · ونثره كشعره حسن السبك متوسط الطلاوة يصبح سلسا عذبا حين يتناول المواضيع التي تثير انفعاله · ويصبح موجزا دقيق العبارة حين يتناول المواضيع العلمية ··· وكنموذج على نثره الادبي أورد هذه الفقرة يصف فيها البحر حين سفره للحج في المرة الاولى:

« تراءت لنا جبال مالطة ، ونحن قبل مشاهدتها لم نر الا زرقة القبة الزرقاء تحيط بزرقة البحر من جميع الجوانب فيتألف من مجموعها منظر عجيب · ولو ان انسانا عاش في هذا الجو منذ نعومة أظفاره لما شعر بان هناك عالما آخر فيه أرض يابسة يخالف لونها وطبيعتها طبيعة البحر تماما » ·

ومن المؤسف انه لم يسجل الا القليل من حصيلته الثقافية وانتاجه الفكري · فرغم كثرة ما نظم من قصائد ومقطوعات واراجيز فأنه لم يهتم جديا بجمعها ، ولا حتى تسجيلها في مذكراته ولم تسمح ظروف حياته المضطربة من تخليد علمه الغزير عن طريق التدوين أو التأليف أو التحقيق وكان يتمنى في السنوات الاخيرة ان ينظم تسجيل مذكراته الشخصية ، وينصرف الى تحقيق بعض المخطوطات النادرة التي حصل عليها ، ولكن المرض فاجأه قبل تحقيق هذه الامنية ، ثم عاجلته المنية بعد ذلك ، فاختفى الى الابد معين غزير من المعارف حرمت منه الثقافة في الجزائر ·

ويمكن بكثير من الجهد في التنقيب والترتيب ان يصنف ما هو مسجل من هذا التراث فيما يلي :

1 — نظم قطر الندا وبل الصدا ·

2 — مقطوعات شعرية وقصائد مبعثرة بين أوراقه ودفاتره ·

3 — محاضرات حول تاريخ المعركة الاصلاحية في العالم الاسلامي وفي الجزائر ، ودروس في التفسير ألقاها على طبقة كلية الآداب بجامعة قسنطينة ·

4 — الابحاث التي قدمها الى المؤتمرات الاسلامية التي حضرها ·

5 — مقتطفات وتعليقات مسجلة بخط يده على هوامش الكتب المطبوعة أو المخطوطة أو في دفاتر المذكرات · وتتناول مواضيع متنوعة تشمل الاخبار الادب والتاريخ والحديث والفقه وتصحيح بعض القضايا العلمية · وغير ذلك ···

هذه فيما اعلم هي اهم العناصر التي تكون انتاجه الثقافي · ومن الواضح انه مثل اكثر زملائه ومعاصريه لم تسمح له ظروف الحياة والكفاح من الاشتغال بالتأليف رغم المواهب المتعددة التي توفرت لديه ، فظل طول حياته دارسا غير منتج · ولابراز القيمة الحقيقية لانتاجه الثقافي وتقديره تقديرا عادلا ينبغي اجراء دراسة وافية ومعمقة · ولا شك ان مثل هذه الدراسة سوف تضيف لبنة جديدة الى تراث الجزائر الثقافي التليد ·

في موكب الخالدين

سي محمد قائد الولاية الرابعة

محمد الصالح الصديق

ليس في الوجود أجمل من الحرية ولا أغلى منها • فبالحرية يكون الانسان : يكون بجسمه وعقله معا • يشعر بوجوده في هذه الحياة ، ويحس بمعناه ، لانه يستطيع ان يؤدي رسالته كآدمي لم يخلق لما خلق له الحيوان الاعجم ، بل خلق لغاية اسمى واجل •

فالأنسان بدون الحرية يعيش طول عمره كانه لم يعش يوما واحدا ، لان العبرة في الحياة ليست في أن يأكل الانسان وينام ويعقب خلفا ، فهذا قدر مشترك بينه وبين سائر الحيوانات بل العبرة أن يعيش في الوجود نفسا من حياة ، وجزأ من كيان ، ولبنة في صرح ، ودفعة من دفعات التاريخ •

فهذا لا سبيل اليه الا بالحرية ، الحرية التي لا معنى للصحة والغنى والعلم الا بها • ولا معنى للشمس المشرقة والقمر المنير الا بها •

وماذا تجدي الصحة ويجدي العلم والمال اذا كان المرء عبدا مملوكا لا يقدر على شيء ، ولا يتصرف في نفسه ولا فيها يملك ؟

وأي وجود للشمس المضيئة والقمر المنير اذا كانا لا ينيراه النفس ، ولا يبددان ظلام البغي والاضطهاد ؟

في داخل المحرومين من الحرية ، سحب متلبدة ، وظلمات حالكة دامسة ، لا تبددها ولا تقشعها سوى الحرية وفي أعماق النفوس جراحات لا دواء لها الا الحرية •

ولكن الحرية صعبة المنال ، غالية الثمن ، والطريق اليها طويل شاق ليس مفروشا بالورود أو محفوفا بما لذ وطاب بل هو صعب مهول مفروش بالجماجم والاشلاء ، مملوءة بالدموع والدماء ، لا يسلكه الا عشاق الحرية ، المفتونون بحبها ، الذين يستهينون بالزعازع والاهوال ، والجوع والبرد ، من أجلها •

وقد يطول الطريق ، بهؤلاء العشاق ويقسو عليهم وتشوى اجسادهم السنة

اللهب ، ولكنهم لا يبالون ، لانهم يعلمون ان التضحية والفداء والعذاب هى مهر الحرية ·

ويواصلون الزحف وفى اعماقهم ايمان يفجر العزم ، ويجدد الهمة ، ويعطى القوة ، ويضاعف الاصرار ، ونشيدهم قول الشاعر العربى :

لن ينال الحقوق الا أباة
يتحدون معجزات الطغاة
هى حرب الحياة اما حياة
أو ممات يكن معنى الحياة

ويهتف الشهداء للموت ، ويسقطون فى الميدان وقلوبهم تصفق بين الضلوع للحرية والاستقلال ، وترفرف الاعلام على نعوش الضحايا مودعة ومبشرة · فاذا بعشاق الحرية يندفعون من جديد بايمان اقوى ، وعزيمة امضى ، واذا الطريق كانه ورود مفروشة ، تحت ظلال ممدودة ، الى فجر وضيء ·

واذا كان الطريق الى الحرية هذا شانه ، ومهر الحرية هذا غلاؤه ، وهذا ثمنه ، فان الطريق الذى سلكه الشعب الجزائرى الى الحرية كان أشق وأطول ، والحرية التى نالها كانت أغلى واثمن ·

فالشعب الجزائرى لم يفتأ يواصل الجهاد منذ سنة 1830 م الى سنة 1962 م ضد القوات الاستعمارية الغاشمة ، وقاسى خلالها من ألوان الظلم والتعسف والهوان ما لا ترتقى الى وصفه البلاغة والبيان ، وقدم خلال ثوراته المختلفة ملايين الشهداء ·

وفى هذا الطريق الطويل الشاق ، اعلام مجد تخفق على شواهق تاريخنا الجليل ، وما اعلامنا الا أولئك الشهداء الذين ماتوا لتحيا الجزائر سواء فى ثورة نوفمبر الخالدة أو فى الثورات الاخرى التى سبقتها ·

ولعل المدهش بحق ، الباعث على العجب والاعجاب ، ان ابطالنا الذين حرروا الجزائر ، وصمدوا لقوات الحلف الاطلسى ، ولقنوا الجيوش الاوروبية أقسى درس فى الشجاعة ، رجال بسطاء لم يتخرجوا من مدرسة ، ولم يتدربوا على أسلحة ، ولم يتوفر لهم من العتاد والعدة ولا من الطعام واللباس ، ولا من الظروف الحربية الضرورية، ما يمكنهم من مواجهة الجيش الفرنسى ساعة واحدة ، وكيف بالحلف الاطلسى طوال سبع سنوات ونصف سنة ·

ولكنه الايمان القوى ، والعزيمة الصادقة ، والاصرار على التحرر ·

وسمة أخرى امتاز بها المجاهد الجزائرى ، وهى انه ما ان يحتضنه الجبل

وينضم الى خلية من خلايا جيش التحرير الوطنى ، ويتأهب للنزول الى الميدان حتى يتحـول الى شخص آخـــر ، تفكـيرا ، وسلوكا ، وأخلاقا ، ولم نعرف فى جيش التحرير مجاهدا رخو الارادة ، أو مهزوز الايمان ، أو سقيم النفس •

اما الشجاعة فقدر مشترك بين جميع المجاهدين حتى قيل « ان البطولة فقدت وصف (الميزة النادرة) فى الجزائر فلم تعـد مبعث فخر واعتزاز لانها أصبحت شيئا فشيئا مشاعا بين كل فرد من أفراد الشعب تقريبا ، يحمل بين أطوائه قصة كفاح ، وحكاية نضال ، وتاريخ صمود» .

وهذه الخصائص والمميزات التى يتسم بهـا المجـاهد الجزائـرى : البســاطة ، والشجاعة ، والتحـول الجذرى السريع بمجرد انتظـامه فى سلـك الثـورة ، لا حظناها فى كـل شخصية قدمناها أو قدمها غيرنا فى صحافتنا أو على أمـواج الاثـير حتى انها لتعد المحاور الرئيسية التى يدور عليها الحديث •

وعـلى هذا النسق وفى هـذا المنهاج نتناول اليـــوم هذا البطل المغـــوار ، والوطنى الصادق ، قائد الولاية الرابعة سى محمد •

عـرف قبل اندلاع الثـورة التحريرية بحب الوطن والاخلاص له ، وكان يتلهف ظما وشوقا الى الحرية ، ويعـد الحياة تحت العلم الاجنبى ، وفى ظل الاحتلال ، وجودا بـلا معنى ، وحسابا بلا ثـواب ، وسعيا بلا هدف ، وتاريخا بلا عنوان •

وبالرغم من أنه لم يلتحق بالثـــورة الا فى أواخر سنة 1955 الا انـه كان كالبركان يهدر بين المناضلين الاحـرار بقوة الارادة ، ومضاء العزيمة ، وبغض المستعمر •

وكان ممن يؤمنون بحتمية الاستقلال ، لان حتميـة التاريخ ستقف لا محالة الى جانب الثوريين الاحرار ، الذين يشقون الطريق الى الحرية ويسقطون ضحاياها •

التحـق القائد سى محمد بالثـورة فى أواخر سنة 55 وبفضل ما امتاز به من الشجاعة النادرة ، والعزيمة الصادقة ، والسلوك الاخلاقى القويم ، لم تمض الا أشهر قليلة حتى برز كمدرب وقائد فى منطقة « الونشريس » بالولاية الرابعة •

واستمر فى هذه المهمة مدة طويلة قبل تعيينه عضوا فى قيـادة الولاية بـرتبة رائـد •

واشتهـــر سى محـمد فى الاوساط الثورية بالتفكير المرتب الهادف ، والنظرة البعيدة ، ورحابة الصدر ، وسعة الافق ، والتواضع الجم ، مما جعل لـه شخصية محترمة تميل اليها النفوس ، وتنصاع

لهـا القلوب ، وتنفـذ أوامرها بـرغبة لا برهبة .

وكانت النظرية التى تشغـل تفكيره دائما وعرف بها وكان يختط لها دومـا ويدعو اليها زمـلاءه الثوريين هـى : « انهاك العدو وتحطيمه » ولذلك كـان يقرأ الف حساب لمواجهة العدو ، لا لان العـدو يملك قـوة كبيرة لا تستطيع مواجهتها الا قوة مثلها ، بل لانه كـان يهدف الى الحاق أكبر خسارة بالعدو ، وهـذا لا يتأتى الا بالتنظيم والتخطيط والتأهب الكامل ، فكان سى محمد لا يقوم بكمين ، او هجوم ، أو معركة ، الا بعد ان يضع لها خطة حربية محكمة ، ويعد لها العـدة الكافية ، ولا يكتفـى بالانتصار والغلبة على الاعداء ، بل يضع فى حسابه قبل النزول بكتائبه الى الميدان ان يبيدهم عن آخرهم ، ويغنم أكثر ما عندهم مـن العتاد الحربى ان لم يكن كله .

وهذه النظرية التى تستبد بمشاعره كان لهـا الاثـر الكبير فى كـل معركة يخوضها ضد القوات الفرنسية ، فعزمه على الابادة الكاملة ، وتعبئة كتائبه بهذه الروح ، واقدامهم عـلى المعركة يدفعهم هذا العزم ، كل ذلك يجعلهم يستبسلون فى الميدان ، ويثبتـون ، ويصمدون ، ويواصلونها فى فدائية مذهلة ، وأفـق متأجج ملتهب حتى ينتصروا .

وكان القائد سى محمد يوصى كتائبه قبل الاقدام على خوض المعركة بالتأهب التـام ، واليقظة الدائمـة ، وتـوجيه الضربات الساخنة الماحقة للعدو ، وكان يقـول لهـم بالخصوص : ان المجـاهد القـوى ، والوطنى الصادق ، لا يعـرف التردد ولا الاحجام ، ولا يتطرق الى نفسه خوف ، لانه يعلم ان أمامه احدى الغايتين اما النصر أو الشهادة ، فاذا قدر له الموت فذلك شرف له ولعائلته لانه مات مـن أجل وطنه ومن أجل عزته ودينه ، فخير المجاهدين من يجعل نصب عينيه النصر أو الشهادة .

وكان القائد سى محمد يحتل مكـانة فذة فى قلوب المجاهدين الذين يسيرون معه على الدرب الصاعد ، لانه كان عـالى الهمة ، عظيم النفس ، كريم الاخلاق ، محبا بجنوده ، عطوفا بهم ، موثرا لهـم على نفسه ، لا تفارق البشاشة وجهه حتى فى الظروف الحالكة العصيبة ، وكـم ضحـك والامـور ملتـوية ، والطـرق مسدودة !

أمـا مـن يشاهده فى المعركة فانـه تستبد به الدهشة اذ يراه مع العـدو شخصا آخر ، صرامة ، وقوة ، وعنادا ، واصرارا ، وقساوة وهكذا فمن يعرفه فى السلم يستبعد ان يكون رجـل حرب بتلك الصرامة والقساوة ، ومن يعرفه فى

المواجهات الحربية يستبعد ان يكون رجل سلم بتلك الليونة والمؤالفة .

وحياة القائد الشهيد سى محمد كانت منذ أن انضم الى جيش التحرير الوطنى سلسلة من العمليات العنيفة الناجحة متواصلة الحلقات ، وكان القادة العسكريون الفرنسيون فى نواحي الونشريس يعرفون عنه الشيء الكثير ، وكانوا أيضا يقرأون ألف حساب لكمين ينصبه أو معركة يخوضها ، ويحلمون دائما باليوم الذى يتخلصون فيه منه بقتله أو القبض عليه ، وكم حاولوا ذلك ووضعوا خططا محكمة ، ولكنه كان زئبقا كما كان العقيد عميروش فى الولاية الثالثة ، يظهران ثم سرعان ما يذوبان !!!

وظل يواصل مقاومته العنيفة بلا كلل أو ملل أو ضعف ويلحق الخسائر الفادحة النكراء بالعدو ، ونصب عينيه دائما النصر أو الشهادة حتى كانت ليلة الاثنين 7 أوت سنة 1961 .

فى هذه الليلة كان الشهيد البطل مع فرقة صغيرة من جيش التحرير الوطنى فى (فلا) روفاتيل كوربى ، بقلب البليدة وفى حدود الساعة العاشرة كانت (الفلا) مطوقة بقوات من جنود المظلات الفرنسيين . وعندما أخذوا فى محاولة الدخول اليها فتحت عليهم سيول من الرصاص وتواصلت مدة طويلة سقط تحتها عدد من الجنود الفرنسيين .

« وأمام المقاومة العجيبة والاستماتة الغريبة التى ابدتها فرقة جيش التحرير الصغيرة التجأت قوات العدو _ كعادتها _ الى الاستنجاد بالمصفحات والمدفعية .

وفى هذه المعركة العنيفة صمد سى محمد مع رفقائه صمودا قاهرا حتى النفس الاخير ، أمام الهجومات الوحشية الضارية التى كان يواصلها جنود فرنسا الاستعماريون فى جنون متكالب .

ولما تحطمت الدار أبدى أبطال جيش التحرير شجاعة خارقة من نوع آخر ، فقد التحموا بقوات الاستعمار ، واستعملوا معهم السلاح الابيض ، واستطاعوا ان يكبدوهم أفدح الخسائر فى الارواح ، وسقط سى محمد ورفقاؤه شهداء الحرية ، وكتبوا بدمائهم الزكية وثيقة الشهادة ووثيقة الحرية .

وما ان ذاع نبأ استشهاد سى محمد حتى عم الحزن سائر أوساط جيش التحرير الوطنى وتملكهم هول المصاب ، وراحوا يتندرون بقصته البطولية الرائعة التى جعلها ختاما لتاريخه الثورى الرائع ، وكلهم يعاهدون روحه وأرواح رفقائه الابطال على مواصلة الجهاد بنفس

العـــزيمة والاصرار حتـــى النصر أو الشهادة ٠

واصدرت قيادة الجيش الوطني للولاية الرابعة منشورا اثر استشهاد البطل سي محمد جاء فيه :

ان عظمة روحك ، وان أخوتك وحبك اللا متناهى لشعبنا البطل الذى كـان يعـرف كيف يتـدبر ويقـدر محامدك ومزاياك ، وان ضحكتك الدائمة ، ضحكة وجهك المشرق البشوش ، كل ذلك جعل منـك فى جيش التحرير الوطنى وفـى الشعب أخا لا ينسى أبدا ٠

وان وعيك العميق ، وتفهمك الدقيق ، اللذين كنت تفصل بهما أعوص المشاكل وان الارادة الحديدية التى كانت تغذيك وتبرزك عـلى رأس الفـرق المسلحة فى الولاية ، ان ذلك قد طبع المعركة العنيفة ، والمقاومة الصامدة التى كنت تجابه بهـا ـ بكل بطولة وانتصار ـ قوات العدو ، تلك القوات التى احرزت ضدها عـــلى انتصارات لا تحصى ٠

وبقدر ما كنت طيبا لينا مع شعبنا ومع جيش التحرير الوطنى بقدر مـا كنـت صارما وعنيدا مع القوات الاستعمارية ٠

ان الكتائب الصاعقة التى كنت تسيرها ضد جيش الاجرام والضربات القاصمة التى كنـت تنـزلها بالجنرالات والكولونيلات الفرنسيين ضباط الصالونات والخيبات المحرقة التى كنت تكبدهم اياها ـ كـل ذلك جعل منك قائدا بطلا ٠

« يا خير خلف لاحسن سلف :

يا خليفة الكولونيل سى محمد ، لقـد عرفـت بتبصرك ويقظتك كيف تواصل كفاح الولاية الرابعة ، سواء فى ميدان العمليات العسكـرية أو فى الميـــدان السياسى ٠

لقد عرفت كيف تزرع الفوضى والخيبة فى صفوف الضباط الاعداء ٠

ولقد عرفت كيف تموت ٠ وانا سنتبع خطاك فى الطريق التى سطرتها لنا حتى ننتصر أو نلتحق بك فى جنة الخلد (1) ٠

ذلك ـ عزيزى القارىء ـ قائد الولاية الرابعة ، البطل الشهيد سى محمد الذى وهب روحه عن ايمان وثقة ووعى من أجل ان تستقل الجزائر ، ومن أجل ان تحيا الاجيـــال الحاضرة والمستقبلة ، عزيـزة كريمة ، والذى أضاف بمواقفه البطولية صفحة رائعة مشرقة الى تـاريخ الجزائر المجاهدة ٠

واذ نحيى من حين لآخر ذكرى شهيد من شهداء الحرية ، انما نحيى فى شخصه ذكـرى كـل الشهداء ، الابطال الذيـن عاهدوا الله على ان يهجروا النوم اللذيذ وأنس الحبيب ، وحياة الامن الى الشهر ،

والتعب ، والهنى ، الى الجوع والعطش والموت من أجـل تحرير الجزائر · ومن أجـل تسـوية الظهـور المقوسة ورفـع الرؤوس المطأطأة ، واطـلاق الارجـــل المصفدة ·

وسيبقى شهداؤنا الابطال الذين حققوا بكفاحهم البطـولى وتضحياتهم الغـالية أعظم نصر ، (اعـلام مجـد تخفق عـلى شواهق التاريخ الجزائرى ، ومنائر تهدى مواكب النضال الزاحفة الى غد أفضل) .



فهرس الموضوعات